إشراف
بيير بورديو

بؤس العالم

LA MISERE DU MONDE

الجزء الأول

رغبة الإصلاح

ترجمة: محمد صبح

مراجعة وتقديم: د. فيصل درّاج

علي مولا



بؤس العالم

الجزء الأول

رغبة الإصلاح

العنوان الأصلي للكتاب:

PIERRE BOURDIEU

LA MISERE DU MONDE

صدر هذا الكتاب

بالتعاون مع

وزارة الخارجية الفرنسية وقسم الخدمات الثقافية

في السفارة الفرنسية في سورية

Livre publié
En collaboration avec
Le Ministère français des Affaires
Etrangères
Et les Services Culturels
de l'Ambassade de France en Syrie

إشراف: بيير بورديو

بؤس العالم

الجزء الأول

رغبة الإصلاح

ترجمة : محمد صبح

مراجعة وتقديم : د. فيصل درَّاج

بؤس العالم / الجزء الأول / رغبة الإصلاح

إشراف: بيير بورديو

ترجمة: محمد صبح

مراجعة وتقديم: د. فيصل درّاج

الناشر: دار كنعان
للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية

دمشق – ص.ب 443 تلفاكس: 2134433 (11 - 963 +)
E-mail: said.b@scs-net.org
E-mail: kanaanbook@yahoo.com

طبعة خاصة: 2010 / عدد النسخ 1000

إخراج: لبنى حمد

الإشراف العام: سعيد البرغوثي

يمكن الاطلاع على كتب الدار ومنشوراتها
على صفحة الشبكة التالية:

http://www.darkanaan.com
http://www.neelwafurat.com

بمنزلة تقديم

د. فيصل درَّاج

رحلة كابوسية متعددة الوجوه في أرجاء «الرأسمالية القائمة فعلاً».

هذا هو قوام «بؤس العالم»، الكتاب الضخم، الذي أنجزه بيير بورديو ومعاونوه، متواطئين، وبشكل حميم، مع سلسلة بشرية متعددة الوجوه والقضايا، وقد يبدو الكتاب مربكاً، تتمازج فيه الحكايات الحزينة وسير ذاتية ناقصة واستقصاء اجتماعي وإشارات فلسفية وتعليقات سياسية، إلى درجة تُوهم «هواة الاختصاص المعرفي» أن الكتاب يهرب من «المعرفة العميقة»، ويكتفي بنثارها. غير أن بورديو، الذي يوظّف المعرفة من أجل خدمة البشر المضطهدين، يقوم بغير ذلك تماماً، معطياً درساً نموذجياً في إنتاج المعرفة الصحيحة. ولهذا يدفعه مسعاه النبيل إلى حوار البشر وقراءة الشروط المشخصة التي يعيشون فيها، ذلك أن المعرفة تتراءى في أرجاء الحياة اليومية، ولا تستولد من صفحات الكتب الجاهزة. وبورديو، في هذا، يقول بأولوية أسئلة الحياة على الجهاز المفهومي، ويقوم باختبار الأخير على ضوء المعيش العاري، الذي يتطيّر منه «الأكاديميون التقليديون» عادة.

مداخل عديدة تفضي إلى مركز الكتاب، الذي ينزاح عن موقعه دائماً لا لشيء إلا لأن مركزه يقوم في حكايات البشر، بعيداً عن «عقل متكوّن»، يقرّر مركز الكتاب قبل كتابته. والمدخل الأول، الذي تُردّ إليه المداخل جميعاً، هو: العنف الاجتماعي، الصادر عن أرواح مكبوتة ومحرومة، أو عن حرمان

يراكم الكبت، قبل أن يطلقه عنيفاً وقاسياً، يحوّل المستقبل إلى أحجية، قبل أن يتجلى في كسر النوافذ وحرق السيارات والتسلح بالكلمات البذيئة والأدوات القاطعة. كل شيء يبدو مكسوراً، أو قابلاً للكسر والانكسار، المغربي المهاجر اللاهث وراء كسرة خبز في ضواحي باريس، والشاب الفرنسي الكاره لمدرسة تبعثره قبل أن تنظم عقله، والمدرّس الذي يهينه التلاميذ وهو يعطيهم درساً في مبادئ الأخلاق، والعامل الذي تستدعيه المصانع حين تشاء وتطرده خارجاً حين تشاء أيضاً، والمرأة العنصرية التي تشتق الشر من «الوجه العربي»، والوعي البائس الذي يساوي بين السلع الباذخة والمأجور البسيط الذي يبيعها.

يقرأ بورديو «الوعي الفقير» في «بؤس العالم»، حيث الوعي المغترب لا يرّد إلى «جوهر إنساني» مزعوم، بل يردّد ما لقنته شروط حياة تفتقر إلى الحياة. وشروط الحياة هي شروط الإنتاج الاجتماعي في «رأسمالية جديدة»، أو في «ليبرالية جديدة»، تضع الدولة في مكان ملغّز، ترى منه البشر ولا تراهم أيضاً: تراهم وهي تضع سياسات اقتصادية وثقافية وإعلامية تفقر البشر في الاتجاهات جميعاً، ولا تراهم وهم يتفكّكون في حاضر لا أفق له. ولهذا يبدو العنف، في مستواه الظاهري، مرتبطاً بالأفراد ومحكوماً بعلاقات بين الأفراد، قبل أن يتكشّف عارياً وشديد الوضوح في مستواه العميق، أي في سياسات الدولة، أو في شروط الإنتاج التي تفضي، وبعد توسطات عدة، إلى شكل معين من الدولة. وإذا كانت أزمنة الارتقاء الاجتماعي، التي تتيح تخليق وعي يسيّس العلاقات الاجتماعية، تسمح بأسئلة حقيقية وبإجابات محتملة، فإن زمن الليبرالية الجديدة، وهو انتقام من زمن سبق، يترك «الوعي الفقير» في العراء، حيث على الفقراء أن يأكلوا بعضهم، تاركين الدولة في وضع مطمئن، لأنهم لا يرونها، أو لأنها منعت عنهم شروط الرؤية الصحيحة.

العنصرية مرآة من المرايا المتعددّة التي يتكشّف فيها «بؤس العالم». والعنصرية هي ذلك الوعي التعيس الذي يعطي إجابات متوّهمة لأسئلة

فعلية، ويحوّل إجابته المتوهمة إلى قاعدة عملية في الحياة. ولذا يرى العنصري الفرنسي في المغربي المهاجر عدواً له واعتداء على نمط حياته، بل تلويثاً لحضارته بعادات وتقاليد وتصورات مغايرة لها. وبما أن كل عنصرية تستولد أخرى، فإن المهاجر العربي يردّ بـ «عنصرية تابعة» تائهة الممارسات، ذلك أن ميزان القوى يخترق كل شيء، بما فيه الوعي التعيس، الذي تترجمه العنصرية. وقد يبدو الأمر محتملاً وقابلاً للمحاكمة لدى المهاجر العربي العاثر الحظ، الذي ولد في بلد وبحث عن لقمة الخبز في بلد أجنبي مغاير، لأنه وهو يصد عنصرية رئيسة بأخرى تابعة، يعود إلى إرث ثقافي وروحي يستجير به، حتى لو اخترع الإرث من حكايات الشتاء، على خلاف ابنه المقوّض، الذي ولد في فرنسا وحمل جنسية فرنسية. فهذا الولد، الموزّع على أزمنة لا متكافئة، يحمل اسماً عربياً ولا يحمل إرث أبيه، إلا مصادفة، ويحمل جنسية فرنسية، ويرى فيه الفرنسيون غريباً ومتطفلاً. وعن هذا التمزق، المحصّن بوعي بائس، يصدر عنفٌ، لا يطوّقه الآباء ولا تداويه المدرسة الفرنسية، مفضياً إلى معادلة تراجيدية تساوي بين المهاجر العربي والشر الطليق.

وقد يرد المهاجر العربي، ابناً وولداً، على العنصرية التي تفتك به، باللواذ بشيء غائم ومشروع يُدعى بـ: الهوية. ففي مقابل فرنسي ينتسب، وهماً أو حقيقة، إلى نابليون وروسو وشرعة حقوق الإنسان، يقف عربي **مخذول يدافع عن نفسه بالحجاب والتعاليم الدينية وأسماء يلفظها** الفرنسي بصعوبة. غير أن هذه الهوية، ورغم ثرثرة سعيدة عن حوار الحضارات، لا تفضي إلى شيء كثير، بسبب «ثقافة الفقر»، التي تلفّ العنصرية المسيطرة والعنصرية الخاضعة. فلا هوية دون ذات واعية ومفكرة، تتكئ على فرديتها المتميزة، قبل أن تضيف إليها صفات أخرى، دينية كانت أو قومية. لكن «بؤس العالم»، المنسوج من البطالة والفقر والعنف والعنصرية والمدرسة الخائبة وهراوات البوليس، ينتج أقنعة بشرية متناظرة، لا فرديات متميّزة، لا تعرف «الحوار»، أو ما هو قريب منه. ولذلك لن تكون

الهويات في «الوعي الفقير»، المتكئ أبداً على «ثقافة الفقر»، إلا اختراعاً تراجيدياً، يخترع الذات وما يواجهها، منتهياً إلى تنابذ، يجعل الواقع ضيقاً ومحاصراً، والعقل أكثر ضيقاً وحصاراً.

وواقع الأمر، أن أسئلة العنصرية والهوية والإنسان المقوّض، وبالمعنى الحقيقي، تقوم في مكان آخر، يدعى: الشمال والجنوب، حيث الاحتكارات والسيطرة الاستعمارية والسياسات المستبدة المحلية، ترحّل الخيرات والثروات والعقول المفكرة من الجنوب إلى الشمال، تاركة الأول يذهب إلى جوع يتزايد يوماً بعد يوم. فهذه الاحتكارات تفتك بإنسان الجنوب مرتين، مرة أولى وهي تقوّض، بشكل متسق، اقتصاده الوطني، ومرة ثانية وهي «تهبه»، بغطرسة كبرى، حق العمل في بلدان الشمال، بشروط مهينة، علماً أن «اقتصاد الشمال» بحاجة إلى اليد العاملة التي تأتي من الجنوب.

بيد أن سلطة الإعلام الرأسمالي المسيطر، بل سطوته، وقد تركّز في قبضة احتكارية، تطمس إشكالية العربي المهاجر الموضوعية، مكتفية بقصة جاهزة عن عربي متسلّل وشرير. وفي تصور كهذا، يتم اختراع المهاجرين قبل الحديث عن قضاياهم، حيث القضية الجوهرية هي العنف الصادر عن نفوس شريرة. وبهذا المعنى، فإن ما يدعى بـ«الأصولية الإسلامية»، وبالمعنى السلبي قطعاً، هي أثر من آثار الإعلام الرأسمالي. بل إن هذا الإعلام روّج وسوّق هذه «الأصولية» أكثر مما فعل لها المنتسبون إليها. كما لو كانت هذه «الأصولية» مشجباً إيديولوجياً ضرورياً، يعلّق عليها «العامل الفرنسي» أسباب توتره وقلقه وبطالته. وفي صناعة إعلامية متقنة، تروّج الوعي الضليل، يرحّل «العامل الفرنسي» نقمته إلى أرض المهاجرين، ويقرأ المهاجرون أوجاعهم في مرآة مقلوبة. والإعلام هناك، مستقر في التلفزيون والراديو والصحافة، يقرن بين «أحمد» والخديعة، وبين «أحمد» والجريمة، وبين «أحمد» والعجوز الفرنسية التي فقدت كلبها.

غير أن هذا الإعلام، الذي يخلق الظواهر كما يشاء، لا يتلف النفس البشرية وهو يخلق العنصرية فقط، بل أنه يتلفها، سواء كانت فرنسية أو

أمريكية أو عربية، بأدوات أخرى. ومن هذه الأدوات إنتاج وتوزيع إيديولوجيا الاستهلاك، وذلك في مفارقة غريبة، توقظ الحرمان وتزيد المحروم حرماناً وهياجاً. فوفقاً لمنطق الدعاية السلعية، فإن السلعة متاحة للجميع، وأن التمتع بها حق من حقوق الجميع. و«الخطأ» البسيط، أن هذه السلعة تصل إلى من يقدر على شرائها لا أكثر، متنائية عن الفقير، وقد ازدادت سحراً وجمالاً كلما ابتعدت عنه. وعن جدل الإثارة والمنع يصدر عنف يحطّم المخازن، أحياناً، وعنف يحطم صاحبه، في أحيان أخرى. ففي شروط فقيرة، تؤمّن عملاً فقيراً، لا يكون أمام «الوعي الفقير» إلا اللجوء إلى العنف والقتل وتجارة المخدرات والدخول إلى عوالم مظلمة وقاتمة. ولعل الإحالة في هذا الكتاب إلى «حالات أمريكية»، يقيم صلة واضحة بين الجريمة وايديولوجيا الاستهلاك في مجتمع لا مساواة فيه. فحين لا يكون العمل الشريف مدخلاً موافقاً لتأمين حاجات الحياة، يغدو العمل «المغاير» مدخلاً ملائماً. والعمل المغاير المتاح، لمن أضاعوا الأمل أو لم يلتقوا به أصلاً، هو الاحتفاء بالممنوع، الذي ينفتح على السرقة والقتل والبغاء وتجارة المخدرات، وينفتح أكثر على حياة لا معقولة، يكون فيها القتل لعبة يومية.

إن كان الإعلام، في شروط «ثقافة الفقر»، يخلق عنصرية تطارد عنصرية أخرى، وهويات متوّهمة متحاربة، فإن إيديولوجيا الاستهلاك الإعلامية، وفي شروط البؤس الاجتماعي والوعي البائس، تخلق الجريمة وتروّج لها. وفي الحالين، فإن صناعة الوعي البائس، التي تقيم حاجزاً سميكاً بين الإنسان وأسباب حرمانه، تنطوي، لزوماً، على صناعة أخرى هي: صناعة الإذعان. فالبؤس لا يخلق تمرداً، لأن الوعي بالبؤس هو المدخل إلى التمرد. وعلى الليبرالية الجديدة، التي تقيّد وعي الإنسان قبل أن تقيّد يديه، أن تنتقل من صناعة ايديولوجية تدميرية إلى أخرى، كي لا يبقى من الإنسان إلا ظلّه. والظلال تأتي وتذهب ولا تغير شيئاً. وإذا كانت الحياة الفقيرة، بالمعنى الاقتصادي، مرجعاً لـ«ثقافة الفقر» ومتكأ لها، فإن الليبرالية الجديدة، رغم الحديث عن السوق والوفرة والمبادرة الحرة والديمقراطية،

تنتج، وبشكل موسع وغير مسبوق، شكلاً جديداً من «ثقافة الفقر»، بل الشكل الأكثر فقراً بامتياز.

تتضمن «ثقافة الفقر»، تعريفاً: التكرار، الاستظهار، المواضيع القليلة المتماثلة. فالوعي الفقير يكرّر ولا يبدع، يستظهر ولا يقول، مؤمناً بالتلقين ومدافعاً عنه، ويكتفي بمواضيع قليلة مرجعها زمن فقير، ويظل فقيراً حتى لو قال إلى أزمنة واسعة. والليبرالية الجديدة، محصنة بالسلطة الإعلامية المختلفة، تعيد إنتاج «ثقافة الفقر»، متجاوزة الشرط الاقتصادي والمعايير الاجتماعية المألوفة. ولذلك لن تكون ثقافة الليبرالية هذه إلا عبادة الاستهلاك، أو أسطورة الاستهلاك بشكل أدق، الرياضة، وقد تحوّلت إلى دين يومي غريب، وهوس الهويات المتقاتلة. ويمكن أن يضاف إلى هذه العناصر الثلاثة عنصر رابع، وإن كان تميّزه وخصوصيته هو: الفساد ذو الأبعاد الكونية، الذي، وإن كان يمس مجتمعات متقدمة، يقذف بإنسان ما دُعي ذات مرة «العالم الثالث» إلى عالم رابع وخامس وسادس، ربما.

هذه العناصر الثقافية البائسة، التي يدور حولها جهد بيير بورديو الكبير والنبيل معاً، تشكل القاعدة المادية الصلبة، التي تنتج وتعيد إنتاج العنف الاجتماعي، السافر منها والمضمر في آن. ولعل كل نبل رسالته الفكرية، التي يتطيّر منها دعاة ما بعد الحداثة، يكمن في الانتقال من سطح الظواهر إلى جوهرها، وفي النفاذ إلى مصادر العنف، اعتماداً على مواد توثيقية مباشرة، تضيئها، وبشكل متناوب، تعليقات نظرية. وقد يبدو تعبير «بؤس العالم» مبالغاً فيه، وهو يسائل قضايا اجتماعية في بلد واسع التحضير مثل فرنسا. غير أن بورديو، وبرهافة عالية، يضع في أفق القارئ أطروحتين متلازمتين، تقول الأولى منهما: إن كان للبؤس مساحته الضرورية في بلد مثل فرنسا، فإن المساحة هذه تتضاعف إلى ما لا نهاية في بعض بلدان الجنوب. وتقول الأطروحة الثانية: يشكل المهاجرون، في عذاباتهم المختلفة، مجازاً لبؤس الجنوب، لأن الإخفاق التاريخي لسياسات بلادهم، يحوّلهم إلى بضاعة رخيصة وأرواحاً مهانة. مع ذلك، فإن البؤس المجزوء،

كما البؤس المسيطر، أثر لرأسمالية متوحشة، تموّه وجهها بلغة متطهرة، مفرداتها: الليبرالية، اقتصاد السوق، حقوق الإنسان..

يقرأ بورديو وجوه الاغتراب في المجتمع الرأسمالي، متكئاً على مقولات تكشف عن العنصرية والعنف والهوية المأزومة.. لكنه، وهو يعطي درساً نموذجياً في أخلاقية المعرفة، يشير إلى الانحلال القيمي، الذي يختلس التفاؤل ويصادر المستقبل، أي أنه، واعتماداً على جدل المعرفة والمسؤولية، يدعو إلى مقاومة جديدة، تعيد الاعتبار إلى الإنسان والقيم الإنسانية. وبسبب ذلك، فإن بورديو، وهو يتأمل «بؤس العالم»، يتعرّض، وقدر المستطاع، إلى العلاقة بين البؤس الراهن المعيش وانهيار المشاريع السياسية، التي كانت تدعو إلى مستقبل إنساني أفضل، أي إلى المشروع الاشتراكي. ولعل هذا الانهيار، الذي تحصنّه وتوطد أركانه إيديولوجيا رأسمالية منتصرة، هو الذي يلقي بملايين البشر إلى الفراغ وإلى الحلول الزائفة.

إن كان غياب السياسة، كما تصنيع الوعي اللامسيّس، يبدو نعمة في الايديولوجيا الليبرالية الجديدة، تحت عنوان انهيار الايديولوجيات وانهيار الحكايات الايديولوجية الكبرى، فإن بورديو، وهو يرى إلى بؤس العالم، يوحي بتصور نقيض، وربما يكون مرجع التصوّر هو الفردية الطليقة، أو الذات المتحررة، أي الإنسان الذي يحسن الربط بين الظواهر وأسبابها، ويؤمن بأنه قادر على مجابهة ظواهر قديمة وتوليد ظواهر جديدة. وفردية كهذه لا تستقيم إلا بفعل سياسي وتصور طليق لمعنى السياسة وممارستها، كما لو كانت الذاتية المستقلة منطلقاً للفعل السياسي المبدع، بقدر ما تكون الممارسة السياسية الحقل الملائم الذي يعيد صياغة الذاتية المبدعة. وبهذا المعنى، فإن «بؤس العالم» هو بؤس الإنسان الذي يعيش فيه، الذي يمنعه وعيه البائس عن اقتراح عالم جديد.

يقدم بيير بورديو في «بؤس العالم» درساً نموذجياً في أخلاقية المعرفة، تاركاً هواة الاختصاص في أقفاصهم المقفلة، حيث «المعرفة المحض»، الهاربة من غبار الشوارع وأحزان البشر، حليف للعبودية والاستبداد لا أكثر.



كلمة إلى القارئ

إنها شهادات نقدمها هنا، باح لنا بها رجال ونساء حول وجودهم وصعوبة ذلك الوجود، نسّقناها وعرضناها، آملين أن تنال من القارىء نظرة متفهّمة، بالقدْر الذي تفرضه علينا مقتضيات المنهج العلمي، وتسمح لنا به. ولهذا نطمح في أن يتلطف باتباع المسعى المقترح، وهذا على الرغم من أننا نتفهم تفضيل البعض قراءة (دراسات الحالات) كيفما اتفق، باعتبارها نوعاً من القصص القصيرة، معرضين عن التمهيدات المنهجية والتحليلات النظرية التي نزعم أنها لا تقل أهمية، لأجل فهم صحيح للحوارات[1].

كيف لا نشعر بالقلق فعلاً ونحن نعلن على الملأ أحاديث خاصة، وأسراراً حصلنا عليها انطلاقاً من علاقة قوامها الثقة بين شخصين؟ لقد قبِل محادثونا دون شك، التسليم لنا باستعمال أحاديثهم كما نشاء. بيد أنه لا يوجد عهد مثقل بالمطالب المضمرة مثل ذاك العهد القائم على الثقة. إذ ينبغي علينا أولاً السهر على حماية أولئك الذين أفضوا لنا بأسرارهم، (وخاصة بتغيير العلامات التي من شأنها إتاحة التعرف عليهم، كأسماء الأماكن والأشخاص) ولكن كان علينا أن نضعهم بشكل خاص في مأمن من

[1] أحلنا إلى نهاية المؤلف العرض المفصل للفرضيات التمهيدية الابستمولوجية المتعلقة بعمليات التحقيق وكتابة النص والتحليل والأحاديث.

المخاطر التي نعرض أقوالهم لها، بتركها دون حماية، نهباً لسوء الاستعمال، «ليس لنا الرثاء ولا الضحك ولا الكراهية، بل الفهم». ما من فائدة في أن يتبنى عالِم الاجتماع نصيحة سبينوزا هذه، إذا لم يكن قادراً على إعطاء الوسائل لاحترامها. ولكن كيف يمكن إعطاء وسائل الفهم، أي أخذ الناس كما هم، دون تقديم الأدوات اللازمة لإدراك ضرورتهم، وذلك بإرجاعهم بصورة منهجية إلى العلل والأسباب التي جعلتهم على ما هم عليه؟. وكيف السبيل إلى التفسير دون تجريم؟ كيف نتجنب مثلاً إعطاء نص الحديث بمقدمته التحليلية، هيئة عرض حالة مرضية مسبوق بتشخيص تصنيفي؟ إن تدخل المحلل صعب بقدر ما هو ضروري؛ إذ عليه أن يفصح عن نفسه دون أية مواربة، وأن يعمل في نفس الوقت دوماً على التنحّي جانباً. وهكذا تمّ توزيع الحالات المحلَّلة بشكل يستهدف التقريب، في زمان القراءة، بين أشخاص تختلف وجهات نظرهم تماماً، لديهم الفرص لمواجهة بعضهم بعضاً، إن لم نقلْ مجابهة بعضهم لبعض في الحياة، كما يسمح هذا التوزيع بتوضيح الصفة التمثيلية للحالة المحلَّلة مباشرة، سواء أكانت أستاذاً أم تاجراً صغيراً، وذلك بتجميع «حالات» حوله، تكون بمنزلة تنوعات. أما في نص الحديث نفسه، الذي يُخضع الخطاب الشفهي إلى تحول حاسم، فالعنوان والعناوين الفرعية (المستعارة دائماً من أقوال مَن نستجويه)، والنص الذي نقدم به للحوار خاصة، كل ذلك يستهدف لفت نظر القارئ إلى الملامح الهامة التي قد لا يلتفت إليها الإدراك الغافل.

كل هذا له وظيفة التذكير بالظروف الاجتماعية والإشراطات التي كان صاحب القول نتاجاً لها، وكذا مساره وتكوينه وخبراته المهنية، أي كل ما يكون خافياً وظاهراً معاً في الخطاب المكتوب، ولكن أيضاً في النطق ونبرة الصوت التي أهملها النص المكتوب، مثل لغة الجسم كلها بما فيها من حركات ومظهر وإيماءات ونظرات علاوة على السكوت، وما يضمَر ولا يقال، وزلّات اللسان.

لكن المحلل لا يمكن له أن يأمل بقبول تدخلاته الأكثر ضرورة، إلا

نتيجة عمل (تدوين) لا غنى عنه للمواءمة بين أهداف مزدوجة التناقض؛ أي تقديم كل العناصر الضرورية للتحليل الموضوعي لوضع الشخص المستجوَب، وتفهم المواقف التي يتخذها، دون أن تقام معه مسافة «مموضعة»، وتنزل به إلى درَك الحشرة الغريبة. وتبنيّ وجهة نظر تكون الأقرب لوجهة نظره، دون أن يسقط المحلِّل ذاته، دون وجه حق، في هذا الأنا الآخر الذي سيبقى، سواء أردنا أم لم نردْ، موضوعاً، من أجل أن يصنع منه بصورة تعسفية مادة نظرته للعالم. ولن يكون نجاحه في مهمته بالتموضع المشارك، إلا إذا توصل إلى إعطاء مظاهر الوضوح والطبيعية، إن لم نقلْ الخضوع الساذج للمُعطى، إلى إنشاءات يملؤها تفكيره النقدي تماماً.



بيير بورديو

فضاء وجهات النظر

لفهم ما يجري في أماكن مثل «الأحياء» أو «المجمعات الكبرى»، أو بعض المؤسسات المدرسية أيضاً، حيث تقرب هذه الأماكن بين أناس لا يجمع بينهم أي شيء، بإجبارهم على التعايش، سواء مع الجهل أو عدم الفهم المتبادل، مع صراع كامن أو صريح، بكل المشقات الناجمة عن هذا التعايش، لا يكفي اعتبار وجهات النظر كلاً على حدة. بل يجب أيضاً مواجهة بعضها ببعض، كما هي في الواقع، ليس للتخفيف من حدتها باللعب على تقاطع الصور إلى ما لانهاية له، بل على العكس، إظهار ما ينتج عن المواجهة بين رؤى مختلفة أو متضادة للعالم، وذلك بالتأثير البسيط للتجاور. أي، بعبارة أخرى، إظهار المأساوي الذي يتولد في بعض الحالات من المواجهة بين وجهات نظر متنافرة، من دون أي استعداد لتنازل أو تسوية، لأنها تتساوى من حيث أنها مؤسسة على مصلحة اجتماعية.

وإذا كان قد تمّ تصميم الأحاديث وإنشاؤها كمجموعات مستقلة قائمة بذاتها، ويمكن أن تُقرأ منفصلة (أو كيفما اتفق)، فإن هذه الأحاديث قد تم توزيعها بطريقة يكون فيها الناس المنتمون إلى فئات يمكن التقريب بينها أو مواجهة بعضهم ببعض في المجال الفيزيائي

(كحراس المساكن الشعبية والسكان من بالغين ومراهقين، عمالاً حرفيين وتجاراً يسكنون هذا النوع من المساكن) قريبين في القراءة أيضاً. والأمل من وراء ذلك إحداث أثرين: إظهار أن الأماكن المسمّاة (صعبة) (كالحي أو المدرسة كما هما اليوم) هي أولاً صعب وصفها وتذهّنها. ومن ثم ينبغي الاستعاضة عن الصور المبسطة والوحيدة الجانب (تلك التي تتناقلها الصحف على الخصوص) بتصور معقد ومتعدد، يقوم على التعبير عن الوقائع نفسها بخطابات مختلفة لا يمكن التوفيق بينها أحياناً. والنحو منحى روائيين كفوكنر وجويس أو فيرجينيا وولف، حيث تُترك وجهة النظر الأحادية، المركزية، المهيمِنة، التي تكاد تكون إلهية، ويضع فيها الملاحِظ نفسه مع قارئه (ما دام لم يشعر بأن الأمر يعنيه على الأقل)، ويُستعاض عنها بمنظورات متعددة، تتناسب مع تعدد وجهات النظر المتواجدة، والمتزاحمة بشكل مباشر أحياناً[1].

ليس في هذه المنظورية شيء من النسبية الذاتية، التي قد تقود إلى شكل من اللامبالاة أو العدَمية، بل إنها قائمة بالفعل على أساس الواقع الاجتماعي، وتُسهم في تفسير جزء كبير مما يصير في هذا العالم، لاسيما عدد من الأوجاع التي نشأت عن تصادُم المنافع والاستعدادات، وأساليب الحياة المختلفة التي يساعد عليها تعايش أناس يختلفون في كل شيء، في أماكن السكن والعمل خاصة.

إنه في داخل كل مجموعة مستديمة (جيران الحي أو البناية، زملاء المكتب.. إلخ) حيث تتعايش كل التجارب، تدرَك وتُعاش التعارضات التي تتصل على الأخص بنمط الحياة الذي يفصل بين الطبقات والقوميات أو بين الأجيال المختلفة، مع كل الأخطاء (في

---

[1] يمكن استذكار نموذج (دون كيشوت) الذي بإعطائه أسماء مختلفة، تفسر بمسوغات اشتقاقية لغوية متنوعة، لنفس الشخصيات، أو بلعبه على مستويات مختلفة للغة، يحاول أن يستعيد (الارتباطات المتعددة التي تملكها الكلمات بالنسبة للعقول المختلفة) ويستعيد في نفس الوقت المنظورات التي تشكل اشتباك الوجود الإنساني والتباسه.

تحديد الهدف خصوصاً) الناجمة عن أثر الستار. **وحتى عندما نلتقي** أحياناً مع أشخاص تميل بهم سيرتهم ووضعهم إلى **نظرة يطبعها التمزق** والانقسام على الذات (أتذكر بائعة لأدوات الرياضة في حي «**صعب**» تعتقد اعتقاداً راسخاً بحقها في الدفاع عن نفسها ضد اعتداءات الفتيان، مع أنها تنظر إليهم نظرة متفهّمة)، فإن المواجهة المباشرة للاختلافات، تؤدي إلى زيادة الوعي المُغرِض والجزئي في الجدال (كحالة تلك المهاجرة الإسبانية، عندما ذكرت الفوارق بين بنى الأسرة الأوروبية التي تتسم بمعدل خصوبة ضعيف وانضباط شديد في الحياة غالباً، وبين الأسر المغاربية الشديدة التكاثر، حيث تسود الفوضى بفعل أزمة السلطة الأبوية الناتجة عن ظروف المهاجر السيّء التلاؤم الذي يعيله أولاده أحياناً). وحتى تجربة الوضع الذي يشغله الفرد في العالم الاجتماعي الأكبر تتحدد أو على الأقل تتحوّر، نتيجة الأثر المباشر المحسوس للتفاعلات الاجتماعية داخل هذه العوالم الاجتماعية الصغرى، كالمكتب والورشة والمنشآت الصغيرة والجوار علاوة على الأسر الممتدة أيضاً. وتقدم مسرحية باتريك سوسكند (الكونترباس) صورة بليغة بصورة خاصة، لتجربة مؤلمة يمكن أن يعاني منها في العالَم الاجتماعي كل أولئك الذين يشغلون وضعاً متدنياً وغامضاً، ضمن عالم مهيب ومحظوظ، على غرار عازف الكونترباس. ويزيد من ألم هذه التجربة، **أن هذا العالم الذي يشاركون فيه بما فيه الكفاية فقط** للشعور بانحطاطهم النسبي، يقع في منزلة أعلى من المجال الكلي. إن بؤس الوضع النسبي هذا، من وجهة نظر من يعانيه وهو حبيس حدود العالم الأصغر، مصيره أن يبدو نسبياً جداً كما يقال. أي أنه غير واقعي بتاتاً فيما لو اتخذنا وجهة نظر العالم الأكبر وقارناه بالبؤس العظيم للحياة، وهو معيار يستعمل يومياً لغايات الإدانة («ليس لك ما تشكو منه») أو المواساة («هناك أسوأ، كما تعلم»). لكن اتخاذ البؤس العظيم مقياساً وحيداً لكل أشكال البؤس، يعني الامتناع عن رؤية وفهم جزء

كبير من الأوجاع التي تميز نظاماً اجتماعياً، جعل البؤس العظيم يتراجع دون شك (أقل مما يقال غالباً) ولكنه من خلال تمايزه، ضاعف المجالات الاجتماعية (ميادين، وميادين فرعية متخصصة) التي خلقت بدورها الظروف المواتية لنمو جميع أشكال البؤس الصغرى، بصورة لم يسبق لها مثيل. ومن هنا، لا يمكن إعطاء تصور صحيح لعالَم كالعالَم الاجتماعي الذي يختص بإنتاج ما لا حصر له من تصورات عن نفسه، إذا لم نفرد مكاناً لائقاً لوجهات نظر هذه الفئات التي تتعرض بشكل خاص للبؤس الصغير، وهي تلك المهن التي مهمتها معالجة البؤس العظيم، أو الكلام عنه، مع كل التشويهات المتصلة بخصوصية وجهة نظرها.

شارع النرجس

عرف هذا المجمع ذو الأبنية المتنافرة في البداية، تحت الأحرف الأولى البيروقراطية (ZUP) أي (منطقة إعمار ذات أولوية)، ثم أعيدت تسميته بـ «فال سان مارتان» بنوع من التلطيف الذي يَقصد به المسؤولون عن «عمليات» «التنمية الاجتماعية للأحياء» «تغيير صورة» الأحياء الواجب تجديدها. ويُعتبر هذا المجمع مع سكانه، الأثر المرئي للسياسات الصناعية المتعاقبة، مثل الرواسب، على الأراضي الزراعية القديمة الممتدة أسفل جبل سان مرتان وكنيسته الرومانية. فبعدما تم هدم البرج ذي الأربعة عشر طابقاً، في بداية التسعينات، لم يبقَ اليوم سوى صف من المنازل الصغيرة لبرنامج «الحصول على الملكية» تسكنها أسر لعمال مؤهلين، كرئيس فريق أو رئيس عمال في صناعة التعدين، وأكثرهم من أصول أجنبية، وجزائرية على الخصوص. نحو النصف منهم عاطلون عن العمل أو في نظام ما قبل التقاعد، نتيجة لعمليات «إعادة الهيكلة» المختلفة، لصناعة الحديد.

يسكن السيد لوبلوند والسيد أميزيان متقابلَين، على جانبي شارع النرجس. وهو جادة عريضة دون أشجار، تحفّ به منازل صغيرة، لكل منها حديقة صغيرة جداً (أربعة أمتار مربعة)، يحيط بها حائط منخفض، تجدها في الغالب مليئة بأوراق متناثرة ولعب مكسورة وأوعية مرمية. تحتوي هذه

المنازل على مرآب للسيارات وحمام ومغسل للثياب في الطابق الأرضي، وشقة من ثلاث غرف يُصعد إليها بدرج شديد الميلان من الإسمنت الخام، كما هو الحال عند السيد أمزيان، حيث تُرك كما هو، وعليه بعض قطع من الخيش لمسح الأحذية.

يبقى شارع النرجس خاوياً تقريباً، فيما عدا ساعة الخروج من المدارس، حيث يتحول عندئذ إلى ساحة للعب، فهو لا يحتوي على شيء مما يبعث الحياة في المدينة عادة، كالجزار والخباز والبقال والمقهى وبائع الجرائد وبائع التبغ. وبالتالي فهو يذكّر بالطبع بكلمة (صحراء) التي يستعملها أناس المنطقة للإشارة لما حصل لبلادهم بعد إغلاق المصانع وهدم الأبنية التي لم يقتصر الفراغ الذي تركته على الأرض فقط.

يشبه سكان شارع النرجس نوعاً ما، الناجين من كارثة جماعية عظيمة، وهم يعلمون هذا. إذ زال مع إغلاق المصانع كل مبرر لوجودهم؛ لأنهم كانوا يدخلونها بصورة طبيعية، مبكرين غالباً، منذ سن الرابعة عشرة، بعد حصولهم على الشهادة الابتدائية، متأثرين خطى آبائهم وهم يهيئون أبناءهم بالطبع لنفس المصير، أما الآن فهم يجتهدون في الحفاظ على ماضيهم، وعلى عالم العلاقات المهنية، نوعاً ما، باستغلال كل الفرص للاجتماع في المقهى أو السوق، حيث يُمضون وقت الضحى كله يتناقشون على الرغم من الطرق السريعة التي تفصل السوق عن سكناهم. لكنه **مستقبلهم على الخصوص الذي هو استمرار ومبرر لماضيهم. وهو مستقبل** أولادهم وبناتهم الذين عليهم الآن تمديد فترة دراستهم في مدرسة ثانوية كل جدواها أنها تبعدهم عن المصنع، دون أن يكون في مقدورها أن تقدم لهم شيئاً آخر، غالباً، سوى شهادات فقدت من قيمتها، أي وعداً بالبطالة في هذه المنطقة المأزومة.

وافق السيد لوبلوند وزوجته على استقبالنا، بناءً على توصية من شخص تربطه بهما صلة قرابة بعيدة. كان السيد لوبلوند في راحة ذلك الصباح، وبنتاه في المدرسة. وما أن سمعوا السيارة حتى فتحوا لنا باب

الطابق الأرضي قبل نزولنا منها. بقيتْ السيدة لوبلوند في الأعلى، لكنها ظهرت مباشرة على قمة الدرج. لقد اعتنيا بمظهرهما وملابسهما؛ فقد لبس قميصاً بمربعات، بينما ارتدت فستاناً مزهّراً، وكانا بهذا يُظهران تضامنهما، وكلٌّ منهما يستمد شعوراً بالاطمئنان من وجود الآخر بجانبه. كانا وجِلَين نوعاً ما، غير عارفَين بما يُنتظر منهما (سألا في النهاية: «ولكن ماذا ستفعلون بكل هذا؟»). وكانا يلجآن مثلنا لعبارات المجاملة المألوفة في مثل هذه الأحوال. جلستْ ملتصقة به، ولم تغادره إلا لجلب القهوة من المطبخ (كانت القهوة جاهزة، فأخرجت فناجين البورسلان من صوان السفرة) ولم تستجب لمحاولاتنا إجراء حوارين منفصلين. كان يشركها في الحديث بنظرة منه، وكانت أثناء كلامها تلتمس موافقته، فيبدي الموافقة برزانة، لكن دون أن يتدخل احتراماً لها.

جلسنا وجهاً لوجه حول طاولة كبيرة تكاد تشغل غرفة المائدة كلها. هي مركز الحياة الأسرية؛ فالبنتان تقومان هنا بواجباتهما، بينما تشتغل أمهما الصوف أو تخيط (كنزة صوفية موضوعة على الرف مع أوراق، بالإضافة إلى دفاتر البنتين، وسراويل ينبغي تقصيرها). عالم دافئ، لكنه مغلق على نفسه، مكتفٍ بنفسه تماماً. هذا صوان السفرة المصقول بحب، تزينه صور البنتين، وتُحفٌ تحيط بالشهادة المتوسطة للبنت الكبرى، وهذا رف الكتب الخاص بها المزيَّن هو الآخر بالتُحف والصور، ويحتوي على ثلاثة صفوف من كتب الثقافة الشعبية. وهذه كنبة مغطاة بوسائد طرِّزت بألوان زاهية، قبالة التلفاز. وتلك نباتات نضِرة. وهذا كلب السيدة الصغير. كل أولئك على صورة السيد لوبلوند وزوجته بوجهيهما البشوشين الباسمين المطمئنين، على الرغم مما يبدو عليهما من قلق بل وخشية عند ذكر بعض مشكلات الجوار بعبارات مبهمة. إنهم من أواخر الأسر الفرنسية الأصل التي مازالت تعيش في شارع النرجس، والسيدة لوبلوند هي التي أشارت إلى ذلك في نهاية الحديث «نحن هنا في هذا المكان.. لو تعلم سبعة فرنسيين.. لأنه حتى قبالتنا.. ليس إلا المنازل الصغيرة.. هناك..» ثم أضافت لتوها «لو تعلم.. أنا لا أخرج كثيراً».

ليست هذه سوى إشارات، وهي أكثر الإشارات إيلاماً على التردّي الفردي الذي رافق التردّي الجماعي للمنشآت الصناعية للناحية. أما السيد لوبلوند الذي أفلت بأعجوبة من موجات التسريح الكبرى (وهي كلمة محرّمة، إذ أن المسؤولين عن «إعادة هيكلة صناعة الحديد» يتكلمون عن «إلغاء الوظائف مع مخطط اجتماعي») ونجح في الاحتفاظ بوظيفته عوناً للمراقبة (النهائية للمعدن)، فيتحدث عن علامات تدهور ظروفه المهنية: فالراتب نقص من 30٪ إلى 40٪ (باعتباره لم يعد يعمل طيلة الأسبوع وحتى في عطلة نهاية الأسبوع كما في السابق). وقد قُلّصت فِرق العمل من حيث عدد عمالها إلى النصف أحياناً، كالفريق الذي ينتمي إليه والذي أصبح أربعة بعدما كان تسعة. مع أن هذه الفِرق تستقبل جزءاً يزداد شيئاً فشيئاً من العمال غير المؤهلين (عمال قدماء ينبغي إشغالهم انتظاراً للتقاعد) أو الذين أُعيد تدريبهم بصورة سطحية. وكل ذلك من أجل إنتاج ثابت أو حتى في ازدياد. بالإضافة إلى تزايد القيود والرقابة، للحد من التغيب حتى في حالة المرض («لا ينبغي أن نمرض، فليس هناك من يحل محلنا»)، («ينبغي الآن طلب ترخيص للوقوع في المرض»)، («فيما لو كُسرت رجل أحد أو ذراعه، هناك سيارة في المصنع، تأخذه إلى البيت وتعيده إليه كل يوم»). أما النقابات فقد دبّ الوَهن في أوصالها، نتيجة صعوبة تعبئة عمال يشعرون بخيبة أمل، وتحملِهم الظروف على اعتبار أنفسهم سعداء لمجرد أنهم يعملون («سئمنا تكراره.. نعم سئمنا تكراره، -أنت تعمل، فاعتبر نفسك سعيداً-. أنا لم أتوقف عن العمل بسبب مرض منذ سبع سنوات، وحدث أن توقفت في شهر أيلول بسبب التهاب معوي تسعة أيام فقط، فما كان من رئيس مصلحتي إلا أن استدعاني عند عودتي للعمل وبادرني بالقول إنني سيء النية، قبل أن يسألني عما بي. وأخيراً غياب تشغيل الشباب، وهو ما يوضح أن دورة إعادة إنتاج المنشأة، ومعها الأسر المرتبطة بها قد قُطعت «- هل هناك شباب يدخلون؟ - في هذه الآونة، لا. إن هذا ما نوده، لاسيما أن هرم الأعمار في لونغوي مسن جداً، ولهذا تناضل النقابات للتقاعد في سن 50-55 وإدخال الشباب بالمقابل»).

إن أزمة إعادة الإنتاج هذه، المرتبطة بتأثيرات المدرسة في جزء كبير منها، هي دون شك من الهواجس الكبرى. فسواء تعلق الأمر بالوضع بالمصنع أم دراسة البنتين، فإن الحديث يعود بالطبع دائماً لتلك الأزمة. فالكبرى تريد أن تكون ممرضة و«تحب الأطفال جداً» («لو أعطيتها أطفالاً تحرسهم، فستفعل ذلك لأنها تحبه جداً»). أما الصغرى فهي في الصف الثامن (صف انتقالي) وستذهب إلى الثانوية عن طيب خاطر منذ أن بدأت تقشر الخضار أو تعمل الحلوى أو القطايف لأطفال الحضانة. ومن الأسباب التي تذكر لعزوف الشباب عن العمل في المصنع («ربما كنا في الماضي، أقل تطلباً من الشباب الآن»). وتُذكر المدرسة أولاً لما ترسخه من طموحات محددة جداً ومحصورة جداً «إن المدرسة تكوّن الشباب وتملأ رؤوسهم أكثر من اللازم. حسناً، ستتعلم المهنة الفلانة، وستكون لك المهنة الفلانة. وعندما يتخرج الشاب بشهادة الكفاءة المهنية، ويجد عملاً قريباً من اختصاصه، لا يَقبل به لأنه ليس من اختصاصه، وأعتقد أنها غلطة المدرسة هنا».

لكنه يُلاحظ في نفس الوقت، أن كثيراً من الآباء «يدعون الله أن يذهب أولادهم إلى المدرسة لأطول مدة ممكنة» وهم بذلك يوافقون أمنيات أولادهم الذين لا يريدون سماع أي شيء عن المصنع، ويتكلمون بلسان ابن أحد زملائه إذ يقول: «طالما أنا في المدرسة، فلست عاطلاً عن العمل». يتكلم السيد لوبلوند عن هذا الشاب بشيء من الإعجاب (إنه حاصل على شهادة الكفاءة المهنية في الطبخ، ويحضر للشهادة الثانوية التقنية، توطئة للدخول إلى مدرسة لسقاة الخمر) لكنه يرى: «إن قول هذا محزن، لكننا هكذا» ويرى أن من الطبيعي جداً لابنته التي تريد أن تكون ممرضة «لديها سبع سنوات أخرى في المدرسة».

ومع ذلك فهو يفهم ما يتميز به جيله (عمره الآن أكثر قليلاً من 40 سنة) الذي ما لعبت المدرسة بالنسبة له دوراً كبيراً، عن الجيل اللاحق: فبعد سنة أخيرة دون اجتهاد في المدرسة الابتدائية (تركه المعلم آخر الصف لنزاع بينه وبين الأب)، وحصوله خطفاً على الشهادة الابتدائية (يذكر ضاحكاً أنه عمل 52 خطأ إملائياً). توجه وكان في الرابعة عشرة من عمره بصورة

طبيعية إلى مركز التدريب في المصنع الذي يعمل فيه والده، ودخل بعد عامين نفس المصلحة، لكن في مصنع آخر، واكتشف بطريقة لا شعورية من خلال (الزيارات) المهيئة لهذه الغاية، عالم المصنع الحقيقي الذي كان يتوقعه عبر حكايات الوالد. كان يعرف الكثير عن المصنع «كنا مع ذلك نذهب لزيارة الورشات في المصنع.. حسناً.. كنا ندرك أن هناك أماكن حيث الرجال، لم يكونوا.. كنا نذهب إلى الأفران العالية، وورشة الصلب، لم تكن أماكن.. هنا تحصل الصدمة، هنا ترى خليط الفحم والمعدن، ومصنع الكوك.. إن الرجال الذين يمضون ثماني ساعات هنا.. إنهم بالفعل..». ومثل رواية السيدة لوبلوند لسنوات عملها في المصنع، ليس هنا سوى ارتجاف في الصوت، ونظرات تقرأ فيها ذكرى تجربة مخيفة لا توصف، ولحظات صمت على الخصوص (بقيت الجمل الثلاث ناقصة، وكأنها معلقة إزاء ما لا يوصف) لاستذكار عنف الصدمة التي مثلها أول احتكاك مع عالم المصنع، على الرغم من التهيئة والإذعان المسبقين.

كان التكوين يجري في الميدان، من خلال تدريب عملي، دون أية شهادة: «ليس بين يدي أية شهادة، لا شيء لدي، وعلى كل فإن شهادة الكفاءة المهنية لعون مراقبة المعدن لا تفيد شيئاً» نعم، لقد اقترحوا عليه التحضير لشهادة الكفاءة المهنية، سنة زواجه، أي بعد دخوله المصنع بثلاث عشرة سنة، لكنه توقف بسرعة بسبب الجبر، وهو الذي بقي في مستوى (الكسور). وبينما يتذكر الماضي، لا يرى ما كان يمكن أن يُكسبه تكوين نظري بحت حتى في الفيزياء والكيمياء، ما لم يكتسبه بالممارسة «بالجهد والكد»: «إنني أعرف الآن جيداً أنه لو كان لدينا صلب بمقدار من الكربون ومقدار آخر من المنغنيز، سنحصل على الشيء الفلاني، وإذا كان لدينا مقدار من الكبريت، فسنحصل على بنية مختلفة ، نعم، فلنقل إنني تعلمت هذا بالممارسة». وهو عندما يوازن بين العمال الذين تكوّنوا بالطريقة القديمة وأولئك الذين كوّنتهم المدرسة، فإنما يرسم صورته نوعاً ما دون أن يدري وبلا أي أثر للفخر: «حسناً، إن لديهم شهادات، ولديهم التقنية لكن تعوزهم الممارسة، وهو ما يحتاجه المصنع الآن، إذ هناك نقص شديد في العمال

المتمرّسين الذين يعرفون آلتهم، كما أقول دائماً. كان لدينا في الماضي عجوز يعرف آلته؛ فما أن يخبروه بوجود عطّل، مهما كان معقداً، حتى يأتي ويشاهده ويذهب، ثم يكرر المسافة مرتين جيئة وذهاباً، ويعود قائلاً: «مصدر العطّل هنا» ولم يكن يخطىء، لم يكن يخطىء، أما الآن فوجود عطّل معضلة، نبحث هنا وهناك، وعندما نجد، لا نعرف أين وجدنا، لأنه ليس من شخص هنا ليقول». إنه يعبّر بجملة واحدة ويفعل التصحيح الذاتي عن التباس التميز الذي تمثله استمرارية كهذه، والتكيف الداخلي التام مع الوظيفة التي يشغلها، وكل ذلك بشيء من الاعتزاز الذي يتضمن أيضاً استسلاماً عميقاً للضرورة: «إن المشكلة هاهنا، فلقد كان لنا في مركز التدريب لحسن حظنا أو لسوئه فرصة لمعرفة المصنع».

إن هذا الاندماج العميق في النظام الصناعي وبالتالي النظام الاجتماعي هو ما يفصله دون شك عن السيد أميزيان، وليست التقاليد الدينية ولا نمط الحياة. السيد أميزيان العامل ذو الأصل الجزائري الذي ألقي به إلى البطالة أثناء التسريحات الواسعة في أعوام الثمانينيات، ويسكن أعلى قليلاً في الطرف المقابل من الشارع (يصرح السيد لوبلوند ببعض مؤشرات اندماجه؛ فبفضل تدخل رئيسه، حصل من إدارة المساكن الشعبية (H.L.M) على حق تبديل شقته بشقة زميل يوشك على الانتقال. تلك الشقة التي كان حصل عليها عند زواجه بفضل دعم من رئيس نادي كرة السلة، حيث يشغل وظيفة الحكَم. وتمنحه هذه الوظيفة بعضاً من السلطة على شباب الحي، وحتى على شباب الناحية. وهو عضو في جمعية أولياء التلاميذ، وبهذا يكاد يعرف الجميع، كما يسهم في الحياة النقابية مع أنه لم يتخذ أي موقف نضالي منذ أن انخرط دونما تحفظ في نضال السبعينيات ضد تقطيع أوصال صناعة الحديد والصلب).

إن بين السيد لوبلوند والسيد أميزيان، وأسرتيهما، وشقتيهما أيضاً، كل المسافة التي تفصل بين البروليتاري، مع انخفاض مستواه أو تردّيه، بدخله المنقوص لكن المنتظم، وحساباته المضبوطة، ومستقبله المؤمّن نسبياً على الرغم من كل شيء، وبين العامل السابق الذي سقطت به البطالة، دون

حماية أو ضمان، إلى وضع ما دون البروليتاري. إنه مُعدَم، مشوَّش، هاجسه المحافظة على البقاء كيفما اتفق، يوماً بيوم، بين الكراء غير المسدَّد والديون غير القابلة للوفاء، (تعطي شقة السيد أميزيان انطباعاً بالبرودة والفاقة، بالأريكة ذات الغطاء البلاستيكي، والسجادة الرخيصة التي تمثل صورة مسجد، والطاولة المنخفضة المصنوعة من الحديد المشغول).

عندما وصل السيد أميزيان إلى فرنسا عام 1960، اشتغل أولاً في عدة منشآت، ستة أشهر في واحدة، 15 يوماً في أخرى («لقد كان صاحب العمل شديداً، فطلبتُ حسابي») وشهراً ونصف في ثالثة، وهكذا دواليك، مضطراً للعمل كل مرة بأشغال البناء الشاقة والقليلة الأجر. وقد عُين في منشأة بلونغوي في كانون الأول 1962، حيث بقي 22 عاماً، فيما عدا انقطاعاً مدته عامان (أربعة أشهر عطلة في الجزائر، عمل بعدها في مرسيليا لشهرين ثم في شامبيري، قبل أن يعود إلى منشأته في لونغوي، وهي تابعة لأوزينور، وتصنع مواد بناء من بقايا صناعة الحديد والصلب، وكانت حفظت له وظيفته كسائق عربة رافعة، واستدعته بوساطة ابن عم له، يعمل فيها أيضاً). وعندما سُرح عام 1984 دون الاستفادة من حق التقاعد (لم يبلغ الخمسين)، وجد عملاً بوساطة ابن عم له أيضاً في هوت – سافوا. لكن هذا العمل اتصف بالاستغلال وقلة الأجر (يقبض 3600 فرنك شهرياً، لتسع ساعات عمل يومياً) فعاد إلى لونغوي، حيث تابع دورة تعلم فيها الطلاء والتبليط، علاوة على القراءة والكتابة (إنه يتأسف، إذ لا يزال أمياً، ويتكلم الفرنسية بصعوبة كبيرة)، لكنه وقع فريسة للبطالة حتى حصل في إطار عقد عمل تضامني على عمل لنصف الوقت، يدرّ عليه 3900 فرنك شهرياً، يُضاف إليها 700 فرنك، مساعدة اجتماعية. لكن عليه أن يخصص أكثر من نصف هذا الدخل لتغطية النفقات الثابتة، أي 1400 فرنك، للكراء (2400 فرنك شهرياً تنقص منها 1400 فرنك مساعدة اجتماعية للكراء) و500 فرنك للضرائب المحلية، بالإضافة إلى استهلاك الكهرباء والغاز والماء..إلخ.

عندما نقدر ما يبقى بـ 1500 فرنك، كحد أقصى للقيام بأَوَد عائلة من ستة أشخاص، منهم أربعة أطفال (انضمت زوجته إليه في فرنسا عام

1980 مع طفلين ثم ولد لهما اثنان آخران في فرنسا)، فإننا ننسى الديون المتنوعة جداً والهامة جداً، والدعاوى المتصلة بالغاز والكراء (يعتقد أنه مَدين بـ 20.000 فرنك لإدارة السكن، لكن صديقاً كان يحضر الحديث، يدّعي بأن المسألة مزاح عمل له) وقد أقامت الشركة الوطنية للسكك الحديدية («دعوى ضد زوجتي، العام الماضي، تطالبها فيها بـ2000 فرنك لأنها أضاعت تذكرة القطار، وستبلغ الغرامة 2200 فرنك، ولذا سأدفع لها الآن») وللمستشفى (هنا أيضاً، إنها 2000 فرنك إلى 3000 فرنك») وهكذا يجد نفسه مضطراً إلى تدبيرات لا تنتهي. وإذا كان لا يستطيع دفع ديونه دفعة واحدة («ماذا سيأكل الآخرون من بعد؟») والتي يقدرها بـ 10.000 فرنك إلى 12.000 فرنك، فإنه يعمل جاهداً («للدفع بهدوء») وذلك بإعطاء هذا 150 فرنك «لتهدئته قليلاً» و200 فرنك لذاك. ومع ذلك كان عليه النضال وتقديم شرح مفصّل بدخله ليُقبل في مطاعم القلب[1].

سينتهي عقد عمله 5 تموز، ولا يدري ما سيفعل بعد ذلك: «آه، لا أدري ما سأفعل، لقد سئمت، سأغادر! هكذا. إنها الحقيقة، لِمَ لا أفعل هذا؟ أربح أربعة فلوس، وأخسر ثمانية». ولكن هل بمقدوره العودة إلى الجزائر حقاً، كما يتمنى هو وزوجته؟ على الرغم مما يؤكده بكثير من الإلحاح بأنه «ليس خائفاً» وأن لديه بيتاً وأرضاً صالحة للزراعة («زوجتي ستقلب الأرض بالرفش، وأنا أغرس وراءها») فإنه يعلم بأنه (محشور) من كل جهة: إذ الوقت متأخر لإيجاد عمل هناك، وسيضيع تعويضات البطالة الهزيلة التي يحصل عليها. ويوجز الجار، وهو جزائري مثله، الوضع قائلاً: «نحن كالأقدام السوداء الآن[2]، فإن ذهبنا إلى هناك فلسنا بجزائريين، وإن بقينا هنا فلسنا فرنسيين».

وعندما سئل عن جيرانه (أي الفرنسيين، كما فهم) وعن علاقاته

---

[1] هي سلسلة من المطاعم المنتشرة في فرنسا، تقدم فيها وجبات مجانية للمعوزين، أسسها الممثل الكوميدي (كولوش). (المترجم).

[2] الأقدام السوداء هم فرنسيو الجزائر من المعمرين الذين فروا وقت استقلالها إلى فرنسا (المترجم).

معهم، أجاب بنفس عبارات السيدة لوبلوند تقريباً: إذ لا يستطيع دون شك، ولأسباب متنوعة، القول بأنها حسنة أو سيئة، فيصفها بأنها معدومة أو حيادية، أي أنها تقتصر على «صباح الخير، مساء الخير» التي تلخص أو ترمز للاإنسانية علاقات العمل، بالنسبة للعمال والمستخدمين الذين استجوبتهم في سنوات الستينيات في الجزائر. أما الحساسية الشديدة التي يُبديها عند ذكر أصله الجزائري فتؤكد تأثره إزاء اعتداءات أولئك الذين يلومون الجزائريين لأنهم استولوا على عمل الفرنسيين، ويطالبونهم بالرجوع إلى بلادهم. إنها ليست حالة السيد لوبلوند من دون شك، عندما يقول، ويمكن تصديقه، إنه يحترم الجزائريين وينتظر أن يحترموه بالمثل، لكن قسمات وجه زوجته بفمها المزموم وعينيها المرفوعتين إلى السماء تعبر عما لا يستطيع قوله، عند ذكر علاقات الجوار وصعوبات الحياة في الحي. إن مسارعتها للقول بأنها لا تخرج أبداً، وأنها قللت من علاقاتها بالجوار إلى الحد الأدنى، وإشارته هو نفسه إلى نسبة الأطفال المهاجرين المرتفعة بين التلاميذ (يقدرها بنحو 80٪، بينما كانت 1988 «فقط» 244 جزائرياً و144 مغربياً من 651 تلميذاً في المدارس الابتدائية و260 أجنبياً من 463 تلميذاً في الإعدادية) والصعوبات التي تعترض المعلمين في الناحية، التي سمحت له عضويته في مجلس أولياء التلاميذ بمعرفتها عن كثب؛ والتحفظات التي يبديها عند الحديث عن زملائه الجزائريين («لقد كان لي زميل منهم وكان طيباً، يجب الاعتراف بذلك. بالنسبة لعربي، لقد كان طيباً») أو الانتقادات التي يوجهها ضد المعاملة الخاصة لهم في رمضان. كل ذلك يبين أن التقاليد والمعتقدات الأممية واللاعنصرية التي اكتسباها عبر تربيتهما والتزاماتهما السياسية (لقد عملت السيدة لوبلوند هي أيضاً في المصنع، لخمس سنوات حتى ولادة ابنتهما الأولى) والتي تعزّزت بالإدانة الرسمية للتفرقة والأفكار العنصرية المسبقة، هذه التقاليد والمعتقدات، وُضعتْ في امتحان صعب يومياً، لدى مجابهة الصعوبات الواقعية للتعايش (يمكن معرفة ذلك من شهادات استقيت من خلال علاقات أكثر حميمية، حيث يمكن قول كل شيء دون مواربة أو ريبة، مثل شهادة هذه المناضلة الاشتراكية القديمة التي لم

يعد باستطاعتها احتمال الضوضاء والروائح، في البناء الذي تشعر بأنها مقيدة إليه، لاسيما في الصيف وفي فترة الأعياد. أو شهادة ذلكما الزوجين، وهما مناضلان شيوعيان قديمان، اضطرا للانتقال على مضض لنفس الأسباب، شاعرين بأنهما تخليا عن كل معتقداتهما).

من الخطأ اعتبار جهود السيد لوبلوند الواضحة في تطبيق قيم التسامح أو الفهم ببساطة أكثر، تنازلات اقتضتها قواعد اللياقة، وفَرَضها وضع الحديث والعلاقة مع من يفترض أنهم يحملون قيماً رسمية («إنني أضع نفسي مكانهم» كررها عدة مرات). لكن ينبغي سماعه أيضاً حين يصف كم هو «بشع» بالنسبة إليه، الوضع في رمضان «إنه بشع لأنه.. سأقول إنه بشع، سماع الصغار وهم يتذمرون نهاراً، فالكبار هادئون. لكن الصغار.. الصغار، إنهم في الشارع، ينبغي سماع الصغار وهم يتذمرون، أما هم، فيبدؤون حياتهم في العاشرة مساءً، وبما أنك تتوجه إلى النوم.. فستكون الضوضاء من نصيبك. إذن، هنا..» أو عندما يميز بين المهاجرين (يعزل «الجزائري والمغربي» عنهم، لكنه يسارع للتذكير بأنه «لدينا المشكلات نفسها مع البرتغاليين والإيطاليين» وأن كثيراً من المشكلات الموجودة في الحي تعود لعائلة وحيدة من أصل فرنسي) بالقياس إلى قدراتهم على التلاؤم مع الحياة الفرنسية والتي تقدر في رأيه بالدرجة التي «على الأطفال فيها أن يسيروا كالفرنسيين».

وفعلاً فإن أصعب تأثيرات التعايش على التحمل، من مشاجرات وعبث وإتلاف، تعود إلى هؤلاء الأطفال أو المراهقين المحكوم عليهم بالحرمان والفقر، والإخفاق والمهانة في جو المدرسة التي لا شيء فيها يهيئهم (240 من 651 تلميذاً في المدارس الابتدائية و274 من 463 تلميذاً في الإعدادية يعانون من تخلف سنة أو أكثر) فيفلتون من الرقابة الأسرية بصورة كلية أحياناً، كابنيّ السيد أمزيان الكبيرين. ويمكن استشعار ذلك من أول وهلة عندما ظهر أحدهما (ربما كان الذي ضرب إحدى معلمات المدرسة بكُرة، مسبباً لأبيه غرامة 2000 فرنك) ساخراً، عدوانياً، من باب الشقة، بينما حضرت أمه لبرهة وجيزة لتقديم الشاي، أو عند سماع لهجة هذا

الأب على الخصوص، وهو غير مكترث في الظاهر والمغتاظ نوعاً ما، مع أنه يائس في أعماقه، يتكلم عن ولديه، وهو يضم ابنته الصغرى بحنان طيلة الحديث «آه، إنني لا أنشغل بالآخرين -يتكلم عنهما كأجنبيين- لِمَ أنشغل؟ (..) إنهما لا يستمعان إلي، لا يستمعان إلي.. فإذن» ويصحح الجار قائلاً: «إنه ينشغل بهما جيداً.. لكنهما لا يرغبان في الاستماع..» ثم ينتقل للحديث عن الصغيرين، محوِّلاً خيبة أمله إليهما نوعاً ما، إذ ليس هناك ما يلومهما عليه حتى الآن («آه، كل شيء على ما يرام الآن، حتى يصبح في 12 سنة أو 15 سنة. ولا أدري ما سيكون بعد الآن. الجميع سيكونون الشيء نفسه») وهو بهذا يستبق الزمن الذي سيفلتان فيه أيضاً من رقابته. أي الوقت الذي سيكتشفان فيه، مثل ابنيه الكبيرين، أن العاقبة عند الخروج من المدرسة، واحدة سواء اجتهدا في المدرسة أم لا («لن تجد شيئاً حتى النهاية، صفر، إنهم جميعاً في الوضع نفسه، سواءً اجتهدوا أم لم يجتهدوا») وهو إذ يعطي الحق للسيد لويلوند عندما يرجع صعوبات التعايش الرئيسية إلى أزمة السلطة العائلية في الأسر المغربية، فإنه يجتهد في العثور على تفسير بل مسوِّغ لتمرد أبناء المهاجرين، من خلال استذكار خيبات الأمل التي تؤدي إليها المدرسة، أو الإخفاق في المدرسة، أو إخفاق حملة الشهادات المدرسية في سوق العمل، على الأصح. وهنا نترك له الكلمة الأخيرة: فإن ما يجب تلافيه، هو سوء الطالع المتمثل في البطالة الجزئية التي يعاني منها، بصورة مضاعفة، ضحايا الإخفاق المدرسي والتمييز، إذا ما أريد لشارع (فال سان مارتن) أن يستحق يوماً اسم الزهور الذي أعطي له بشيء من التسرع، من قبل بعض التكنوقراطيين المكلفين بـ «التنمية الاجتماعية العمرانية».

مع أسرتين عماليتين

حديث أجراه بيير بورديو وروزين كريستان

«نحن نعيش معاً[1]»

(بدأت الحديث عن البنتين اللتين وُضعت صورتاهما على صوان المائدة)

❖ الكبرى، المرضة.. والصغرى..

ل: لا تدري ما تريد عمله.

❖ في الرابعة عشرة من عمرها..

ل: إن قلنا لها «تلعبين لعبة العروس» أو قلنا لها «أتريدين أن تكوني طيبة» ستجيب بنعم. مشكلة كبيرة.

❖ لكنها أمضت كل سنوات المدرسة هنا.

سل: نعم، نعم، كانت دائماً في هذه الثانوية.

ل: في كلية الدراسة الثانوية.

❖ في أي صف هي؟

ل: إنها في صف انتقالي، لنقل إنه للانتقال إلى الرابع التقني أو الرابع لشهادة الكفاءة المهنية، لنرَ كيف سيوجهونهم.

---

[1] السيد لويلوند: ل.
السيدة لويلوند: سل – المترجم –

❖ وهل تدري ما ستفعل نوعاً ما؟ أم ليس كثيراً؟

ل: حسناً، إنها تذهب إلى الحضانة، وتقشر (..) كل هذا.. إنه يعجبها.. تصنع شيئاً من الحلوى وشيئاً من.. في المدرسة.. إنه يعجبها.

سل: نعم، إنها تتدبر أمرها جيداً.

ل: الأمور حسنة! لنقل إنها تذهب إلى المدرسة هذه السنة، عن طيب خاطر مع ذلك.

❖ ألم تحب المدرسة من قبل؟

سل: كلا.

ل: حسناً، لم تكن تستطيع متابعة بعض المواد من قبل، فكانت تغادر. لنقل إنها كانت تذهب للمدرسة.. وحتى الأساتذة يجدونها هذه السنة أفضل.. لم يكن الأمر حسناً. لم تكن تشعر بالارتياح.. كانت..

❖ ألم تكن تفهم، أم أن الأمر لم يكن يروق لها؟

سل: إنها أشياء لم تكن تفهمها، لكنها لم تكن تجرؤ على سؤال الأستاذ، فتبقى إذن كما هي، لم تفهم، لم تفهم، وكنا نقول لها «اسألي الأستاذ».

❖ والآن، هل يعجبها ما تعمله؟

سل: أجل يعجبها، إنها تقشر الخضار، وسيصنعون القطايف اليوم للحضانة، يعجبها.. نعم.. نعم.. فيمكن لها أن تذهب إلى شهادة الكفاءة المهنية أو شيء من هذا القبيل.

سل: أجل، طباخة، شيء من هذا القبيل.

ل: أجل، كيف يسمونه؟ لم أعد أعرف.

❖ هناك وظائف، هنا، لا نعرف بعد..

ل: أوه، وظائف (ضحك) هناك الكثير في الوكالة الوطنية للتشغيل، ولكن لا يوجد الكثير منها في الواقع، الوظائف، الوظائف، أجل، كان زمن

فيه وظائف، أما الآن، مع كل ما نراه، الشيء نفسه، هناك الكثير من المؤسسات تنشأ. لكن هناك الكثير من المؤسسات تحل، بنفس السرعة التي أنشئت بها. وهذا يؤدي إلى وظائف. فإذا أخذنا حصيلة بلدية لونغوي، فقد تم إحداث وظائف. لكنهم لم يحدثوا شيئاً في الواقع، وكل ما في الأمر تغيير الاسم. نعم هناك مؤسسة تنشأ، لكن هناك الكثير من المؤسسات أنشئت، وكثير منها أغلقت، للأسف.

(..)

❖ نعم، بما أن الشباب ذهبوا للمدرسة، فليس لديهم رغبة كافية للذهاب للمصنع في كثير من الأماكن، وهذه هي المشكلة.

ل: هنا المشكلة، فنحن في مركز التدريب، كان حسن الحظ، حسن الحظ أو سوء الحظ بالتعرف على المصنع، لأننا كنا نذهب إليه، ونقوم بزيارات..

❖ كانت تلك مرحلة انتقالية، أليس كذلك؟

ل: كنا نذهب ونشاهد.. حسناً، والذين كانوا يحضرون شهادة الكفاءة المهنية كانوا يذهبون للعمل، واتّباع دورات في المصالح التي كانوا يهيئون لها، وهكذا كان الناس يرون ما سيكون عليه عملهم، أما الآن، فيخرج الشباب من المدرسة، ومهما قلنا لهم..

❖ نعم، يبقون حتى سن 16 سنة، وماذا بعد..

ل: ماذا بعد، إنهم يدخلون مدارس أخرى.. حسناً.. يذهبون إلى مدارس أخرى، وعندما يصلون إلى المصالح.. لنقل إن الشباب الآتين، ربما يكونون أكثر تأهيلاً من الناحية التقنية النظرية، لكن عليهم تعلم كل ما يتعلق بالممارسة.

❖ وما هي الفرص المتاحة لهم هذه الأيام؟

لابد أنكم تتحدثون عن هذا الأمر مع الزملاء؟

ل: حسناً، إنهم يدعون الله أن يبقى الأبناء في المدرسة لأطول فترة

ممكنة، إنه قول يؤسف له، لكننا هكذا، لي زميل حصل ابنه على شهادة الكفاءة المهنية في الطهي، ويحضر للثانوية التقنية، ويود الآن أن يعود لتقديم امتحان الشهادة الثانوية المهنية هذا العام. الثانوية التقنية، والآن يرغب في الدخول في مدرسة لسقاة الخمر، إذ لم يجد وظيفة.

◆ أليس لهذا علاقة بما تعلمه؟

ل: كلا، بل لأقول لكم حتى لا يكون عاطلاً عن العمل.

◆ إن الأمر كيفما اتفق.. نعم هو كذلك..

أليست لديه الرغبة في الدخول للمصنع؟

ل: أوه، كلا، فلا ينبغي التحدث معه عن المصنع، وعلى كل فقد تخصص بفرع آخر غير المصنع، لكن لنقل أنه كانت لديه الفرصة لعمل دورات هنا وهناك، ورؤية الأمور، وإن وجد مدرسة للسقاة فسينتسب إليها.. وكما يقول: «طالما أنا في المدرسة، فلست عاطلاً عن العمل». إنه قادر على العمل في فندق، ويستطيع تأسيس منشأته الخاصة به، مطعمه الخاص به، لكن ليس لديه التمويل.

◆ نعم هو ذاك، ينبغي وجود الرأسمال.

ل: ليس لديه الرأسمال، ليس لوالديه رأسمال يشترون به شيئاً، فيقول: «الذهاب للعمل أجيراً في مصلحة هنا أو هناك»..

◆ لكن ولداً كهذا مُكلِف، فماذا يصنع؟ هل يقوم ببعض الأعمال الصغيرة؟

ل: إنه يعمل نهاية كل أسبوع، إما في فندق، وإما في مطعم، فهو قادر على تحضير وجبات.. يعمل وجبات..

◆ هو ذاك، إنه يقوم باحتياجاته، لكن هناك أناساً..

ل: هناك أناس لا يستطيعون ذلك.

◆ أنا لا أدري، فعندما يحصلون على شهادة الكفاءة المهنية في المحاسبة مثلاً، هكذا..

ل: لا أعلم كيف يفعل هؤلاء، حقاً هناك تدبيرات كالمخيمات الصيفية، لكن ينبغي عمل شهادة (BAFA) وهي تكلف هذه الأيام 1800 فرنك.

سل: 1800 فرنك.. نود أن نضعها لابنتنا الكبرى.. نعم.. إنها تود..

ل: ماذا تريد أن تفعل؟

سل: العمل في المخيمات الصيفية، لكن عليها أن تعمل تلك الشهادة، ولن يكون هذا قبل سن 17 سنة.. وإذن.

ل: لنقل إنها تحب معاشرة الأطفال.

سل: إنها تحب الأطفال جداً، فينبغي انتظار السابعة عشرة، فإذا حصلت على الشهادة، كان بها، وإلا.. فإننا سنوفر الفلوس..

ل: ما هي إلا الشهادة الأولى، وإذا أرادت الاستمرار، فهناك شهادتان أخريان.

❖ تريد أن تكون ممرضة، أليس كذلك؟

سل: نعم، نعم، الأمور على ما يرام، إنها تتعلم جيداً وتتدبر أمرها بشكل مُرضٍ.

❖ هناك مسابقة، لا أدري كيف تجري..

سل: هناك مسابقة للدخول، وتدوم الدراسة سبع سنوات.

ل: سبع سنوات على الأقل، نعم، في الاختصاص الذي اختارته.

❖ هل تستطيع، فيما لو سُرِّحتَ الآن، الحصول على وظيفة؟

ل: في هذه الآونة، كلا؛ فهم يطلبون شباباً ذوي خبرة.

في سن الخمسين، قيل له: «اترك العمل».

❖ هكذا، هو ذاك، كما لو أن الأمر ممكن!

ل: أينما نظرت: شاب وخبرة، حسناً، ربما تكون لدي الخبرة، لكنني تجاوزت الأربعين..

❖ يريدون الحصول على كل شيء، دون أن يدفعوا شيئاً، كما يقال..

ل: نضحك أحياناً حينما نرى على سبيل المثال: 20-25 عاماً مع خمس سنوات أقدمية. أود جداً أن أجد شاباً في الخامسة والعشرين مع خمس سنوات أقدمية، ولكن أين؟ المشكلة إذن هي ما أن نبلغ الأربعين، حسناً.. حيثما أردنا الذهاب.. لا أقصد أنهم لم يعودوا يريدون، لكن لنقل..

❖ نعم، أو هناك الذين يتركون العمل بحسب نظام التقاعد المسبق.. يبدو أن الأمر صعب جداً للبعض، هو هذا بالضبط، فالبعض لا يقبلون بسهولة.

ل: نعم.. لقد استاء البعض منه، وينبغي أن نضع أنفسنا مكانهم، حقاً، يجد الرجل نفسه بين يوم وليلة.. مثل مغادرة العمل في الخمسين، هناك من بلغوا الخمسين فطردوا. الرجل الذي دخل المصنع في الرابعة عشرة وربما أقل، فإذا بلغ الخمسين يقال له: «اترك العمل فما عدنا بحاجة إليك». لقد كانوا مضطرين لطرده بسبب..

❖ حتى مع راتب تقاعدي جيد؟

ل: حتى مع الراتب.. لأنهم خرجوا صفر اليدين. الأوائل لم يكونوا تعساء عند خروجهم، أما الذين خرجوا بعدهم فلديهم مال أقل، لكنهم مع ذلك ليسوا تعساء، لا ينبغي..

❖ إذن ما المشكلة، أهو العمل؟

ل: لقد كان عملهم، الرجل الذي أمضى عمره في المصنع، في نفس المصلحة، ونفس القطاع، وكان له..

❖ رفاقه..

ل: أجل، وبين عشية وضحاها، لاسيما في البداية، لقد قالوا للرجال: «سنرسلكم للتقاعد في سن الخمسين، أي التقاعد المسبق، لكننا سنشغل شباباً..».

❖ نعم، والأمر لم يكن صحيحاً من بعد.

ل: إن الرجل الذي لديه شباب في المنزل، ربما يخرج عن طيب خاطر، ولكنه خلال سنة، يرى الولد في المنزل دائماً دون أن يعين. وهكذا فالذين كان من المفترض خروجهم من بعد، لم يعودوا يرغبون في الخروج. وما من أحد هنا راضٍ بالذهاب إلا المغاربة. لقد ذهبوا إلى المغرب وعادوا وقد ازدادت أعمارهم خمس أو ست سنوات ثم ذهبوا ثانية، ولكن..

❖ وماذا عن الآخرين؟

ل: تكلمت عن المغاربة، لكنني لا أقصد أنهم جميعاً من طينة واحدة، فهناك من وجب إخراجهم، لكن الكثيرين استغلوا الفرصة، لاسيما في السنوات الأخيرة، عندما عرفوا أن كل شيء سائر إلى نهاية. هناك من ذهب منهم في شهر حزيران وقد بقي عليه أربع سنوات من العمل، وإذا به يعود في نهاية العطلة في شهر تموز أو آب وعمره خمسون سنة. لقد حصلوا على أوراق من المغرب تشهد بأنهم بلغوا 50 سنة، ما العمل إزاء هذا؟ فلقد وُلدوا بين الأحراش هناك.

❖ بالطبع، إن الحالة المدنية هي نوعاً ما..

❖ لقد ولدوا في الشهر الفلاني، فلم يكن هناك سوى اليوم والشهر. أما السنة فغير معروفة.. آه.. حسناً.. هنيئاً لهم!. وتعساً لمن سيبقون.. فترك العمل شيء جميل، لكن هناك من هم تعساء في المنزل، لا قدرة لهم على إشغال أنفسهم.. ولا يصلون إلى شيء.

س ل: نعم.. إن هذا يحصل، إنهم يتسكعون..

ل: وهناك من كانت لديهم مناشط خارجية، فأوقفوا كل شيء.

❖ هل تخلوا عنها؟

ل: طالما كانوا في المصنع. وعندما غادروه إلى المنزل، لنقل أنه كان بإمكانهم الإفادة من تجمعهم أكثر، وإذا بهم يقطعون العلاقات ويتوقفون.

❖ نعم، ويظهر أن هذا يسبب شجاراً في الأسر، سيء كل هذا! أليس كذلك؟

ل: بين الأزواج، أجل هذا صحيح.

❖ هل سكنتم دائماً هنا؟ هل السكنى جيدة ولطيفة هنا؟

ل: عند زواجنا، سكنا في بناية، لكنني.. البناية..

❖ كنتم مستأجرين؟

ل: نعم، كما نحن الآن.. أنا لم أستطع التعود على البنايات، ولا تعجبني على كل حال.. ولهذا بذلت كل جهدي، مع أنه لم يكن في البناية سوى أربعة طوابق.. وكانت الشقة جيدة وهادئة.. بذلت كل جهدي للحصول على مسكن فردي أو ما يسمونه فردياً.. وأخيراً وبعد العديد من الخيبات والتدبيرات، أعلمت رئيس فريق كرة السلة الذي ألعب معه وقلت له: «اعثر لي على مسكن فردي، وإلا سأتوقف عن اللعب» حسناً، على الإنسان أن يرفع عقيرته أحياناً.. وهكذا توصلت للحصول على مسكن.

❖ ولديكم المرآب في الأسفل؟

ل: لدي المرآب في الأسفل؛ مرآب ومطبخ وغرفة، وثلاث غرف في الأعلى. ثلاث غرف والحمّام.

❖ إنه اكتراء، وكم تدفعون؟ إن لم يكن في ذلك فضول..

ل: لا، إن الكراء الآن 1900 فرنك.. ولدي المساعدة للمسكن، يبقى 1600 فرنك من جيبي.

❖ لديكم مساعدة للمسكن، هذا حسن، أنتم تسكنون جيداً..

ل: نعم، لكن هذه هي المشكلة، فنحن نتوصل إلى إغلاق كل شيء، صحيح إن هناك أطفالاً أقل، فنحن في منطقة تربوية ذات أولوية. لدينا في الإعدادية 80٪ من الأجانب بالنسبة لعدد التلاميذ.

❖ كم تقول؟

80٪ من الأجانب..

أحقاً ما تقول؟ لم أعرف أن هنا..

من أين هم.. إيطاليون؟

ل: جزائريون، مغاربة، تونسيون، برتغاليون، لدينا هنا كثافة سكانية من أناس..

❖ لكنهم أين يعملون؟

ل: .. أناس مهاجرون. إنهم جميعاً في المصنع، أعني أنهم كانوا جميعاً في المصنع والكثير منهم الآن إما متقاعدون وإما من الشباب العاطلين عن العمل، لسوء الحظ.. الذين يقولون عن أنفسهم عاطلين.. لأن في هذه المسألة كثيراً من الاحتيالات.. وعلى كل فلسنا هنا لـ..

سل: أتعلمون أننا لو قمنا بالإحصاء في هذا المكان! فنحن سبعة فرنسيين، سبعة فرنسيين، لأنه حتى في مواجهتنا، هناك، لا شيء سوى المنازل الصغيرة.. هناك(..)

❖ وهل الأمور على ما يرام؟

سل: حسناً! أنا لا أخرج كثيراً كما تعلم.

ل: إن المكان هادئ هنا، لنقل إنه هادئ، وحقاً فإنه أحسن مما كان عليه في وقت ما.

سل: نعم لقد كان أكثر ضجيجاً، لكنني لا أخرج فيما عدا.. أبقى في بيتي وليس سوى صباح الخير - مساء الخير.. وهذا كل شيء ولا أكثر، لا أحب كثيراً، لست جافة.. ولكنني لا أحب..

ل: إن الفترة الصعبة شيئاً ما هي في رمضان، على الرغم من أنها كانت هادئة السنة الماضية.

❖ كيف كان الوضع؟

ل: لا.. لا.. لقد كان بشعاً.. حسناً. حقاً إنهم ينامون نهاراً، فالكبار هادئون إذن. لكن الصغار.. الصغار، إنهم في الشارع. ينبغي سماع الصغار يتذمرون. أما هم فيبدؤون حياتهم في العاشرة مساءً، وبما أنك تتوجه عندئذ للنوم.. فستكون الضوضاء من نصيبك.

سل: ما إن يتحسن الجو حتى ترى الصغار في الخارج.

ل: الصغار في الخارج. إن الأمر لا يطاق في الخارج، لأن الولد يذهب إلى المدرسة نهاراً، هذا إذا ذهب إليها.. أؤكد إذا ذهب إليها، إنهم يذهبون إليها أحياناً للنوم.. لأنهم في الليل.. ولد في الحادية عشرة ليلاً أو منتصف الليل، ما يزال في الخارج. إن هذا لا يضايقهم. والصغير قد تعب لكنهم لا يضعونه في سريره، لأن الكبار يأكلون، إذ يحق لهم الاحتفال..

سل: والنافذة مفتوحة..

ل: هه، الصغير في الخارج. حسناً، هناك الصغير الذي يصرخ في النهار لأنه جائع، ولا يقدم له الطعام، مع أنهم لا يصومون، ولكنهم لا يريدون إطعامه لا سيما في أواخر رمضان، إن هذا واضح. في البداية على الأقل.. حقاً إنه.. لكن في آخره، لا بد أن يكون الأمر قاسياً بالنسبة لهم أن لا.. إنني أضع نفسي في مكانهم، إعطاء كسرة خبز لطفل، ثم أن يكون لك حق في الأكل، لاأعني انعدام الحق، بل أعني أن الأمر سيان، إنه حق لأنهم يريدونه فعلاً.

❖ لكن ألا يصوم أكثريتهم في رمضان؟

ل: لنقل إنه يتلاشى، فلم يعد يصومه سوى المسنين.

❖ المسنون، هو ذاك.

ل: إنه يتلاشى لدى الشباب، لأن الصيام..

سل: إنهم يذهبون إلى المدرسة، هه..

ل: أوه.. الصوم، إنهم يفعلون الكثير من الأشياء.. عرفت شاباً كان يلعب كرة السلة عندنا، وكان يصوم في المنزل. فإذا أتى للعب في مباراة معنا وأكلنا. كان يأكل معنا ويعيش.. ولم تكن هناك مشكلة.. إنني أقول على كل حال؛ ما ينبغي معرفته هو أنني لم أستطع احتمال محاباة هؤلاء الذين يصومون رمضان في المصنع. إذ ليس لي حق إلا بعشرين دقيقة آكل فيها أثناء عملي، أما هم فلهم الحق في العشرين دقيقة مرتين، لأن لهم حق الأكل

في بداية عمل الليل الساعة الثانية والعشرين، وحق الأكل ثانية في نهاية العمل، قبل شروق الشمس، وهكذا يمنحون العشرين دقيقة مرتين. ومن هنا أقول، أنا الفرنسي المسكين أو الإيطالي، أو ما تريد ممن لا يصومون رمضان، لا أحد يهتم به إن كان عمله مضنياً أو متعباً.. لديك عشرون دقيقة للأكل.. فعليك السكوت. مع أنه ليس فرضاً، أنا أقول أنه ليس فرضاً أن يصوموا رمضان، ولا أفهم كيف سكتت المصالح الطبية في المصانع عن هذه الأمور. لأنه إذا لم يأكل الرجل ليلاً فليست هناك مشكلة، لكنني رأيت رجالاً لا يشربون حتى كأس ما في النهار، ويعملون ثماني ساعات في الحرارة الشديدة..

❖ إن في ذلك خطراً فعلاً.

ل: أنا أقول أنه كان على طب العمل أن يقول لا.

❖ بالطبع.

ل: لأن الإنسان قد يتحمل.. ويأتي اليوم الذي يسقط فيه في مطحنة، ولا يستطاع إنقاذه. إذ لو سقط على الأرض لما كانت خطورة، لكنه إن سقط في المطحنة، حسناً، كان هناك مع ذلك رجال في مصنع الصلب، ورجال في آلة التصفيح. وإذا سقط الرجل في اسطوانة، فكيف سيخرج؟

❖ ألم يكن جزائريون في فريقك؟

ل: لم يعد معي أحد، لم يعد أحد. كان لي زميل منهم وكان طيباً، ينبغي الاعتراف بذلك: فبالنسبة لعربي كان طيباً، عندما كان لوحده. آه، نعم لقد حصلت لنا عدة قصص في المطعم، لأننا نعيش معاً (ضحك). أمر عادي عندما يكون الناس خارج أوضاعهم، وأماكنهم ويلتقون. أنا أضع نفسي، إذا ما ذهبت للعمل في الخارج، والتقيت مع فرنسي. فسأكون مسروراً بالتكلم معه والعمل معه.

❖ نعم، لكنهم من باب اللياقة، وعندما يكون هناك فرنسيون، عليهم التكلم.. نعم، وهؤلاء الشباب العاطلون أكثر الأحيان عن العمل؟ هؤلاء الشباب الجزائريون؟

ل: لنقل إن هناك صنفين، المغاربي أعني الأجنبي، لاسيما الجزائري والمغربي والذي أدعوه عربياً.. هؤلاء مسرورون لأنهم هنا. يذهبون فيبكون جيداً، وتعطى لهم المساعدات ويهدؤون، وهناك الصنف الآخر الذي يعيش على الطريقة الفرنسية، وقد تكيّف جيداً، ويعمل على أن يسلك أطفاله كالفرنسيين، وهنا المشكلة. لأن لدي في الرياضة العديد من الشباب العرب، حسناً، إنهم ليسوا أسوأ، أقصد أنهن لسن أسوأ، لأنهن فتيات كلهن، لسن أسوأ من الأخريات، هناك بعض الأسر..

❖ نعم، هناك في كل مكان..

ل: الشيء نفسه في المدارس، إنها مشكلات في المدارس مع بعض الأسر. نفس المشكلات دائماً على كل حال.لا ينبغي أن ننزعج، فالمشكلة لدينا منذ روضة الأطفال، ولكن لا يقتصر على الأجانب فقط، ليس إلا المغاربة والجزائريون. إذ لدينا المشكلات نفسها مع البرتغاليين والإيطاليين.

❖ لكن الإيطاليين، منذ وقت طويل وهم.. أليس كذلك؟

ل: أوه، نعم، أولئك الموجودون هنا.. عندما يكون الجزائريون مبدئياً هنا منذ مدة طويلة أيضاً، إن ما حدث هو أنه في وقت من الأوقات كان الكثيرون يذهبون للزواج في الجزائر ثم يجيئون بزوجاتهم، لكن لم يعد يفعل ذلك إلا القليل هذه الأيام. ثم جاء لفيف من الأتراك في وقت ما، ولم يكونوا عند وصولهم وديين هم أيضاً، أما الآن فلا شيء يُسمع عنهم. كل ما ألوم به (مناطق الإعمار ذات الأولية). أنها لم تفعل شيئاً لهؤلاء الناس أيضاً، لأن لدينا مما هب ودب.. ما أعنيه هو أنهم حَشروا هؤلاء الناس معاً، لقد كان هنا برج، برج بأربعة مداخل..

س‍ل: بل خمسة.

ل: خمسة مداخل، منها اثنان لا حاجة للدخول إليهما.

إن إدارة السكن العائلي، وضعت هؤلاء الناس معاً.

❖ أهذا صحيح؟

ل: أوه، لا حاجة للدخول إليهما. هيه! فقد كانت تجري فيهما

أحداث لا تصدق، لكن لماذا؟ لأنهم وضعوا هؤلاء الناس معاً، فكان منهم من يربي خرفاناً في الشرفات، وأرانب في الحمامات بصورة منتظمة، فماذا كانت الإدارة تفعل؟ كانت تُسكن كل هؤلاء الناس معاً، وليس هذا ما كان ينبغي أن تفعله، كما فعلت البلدية، بل كان ينبغي توزيع هؤلاء الناس قليلاً حتى يتعودوا على العيش نوعاً ما، فهم لم يعودوا في أحراشهم. حسناً، أنا أضع نفسي مكانهم: الرجل في أحراشه يعمل ما يشاء، ثم يصل إلى هنا، حسناً، لكن هذا ليس من المنطق في شيء. يجب الوصول بهؤلاء الناس إلى الحياة الجماعية.

❖ ألم يعد البرج موجوداً هنا؟

ل: لقد هدموه، ليس لأنه كان محتاجاً للكثير من الإصلاحات التي كان على الإدارة أن تقوم بها، فلقد أصبح مصدر خطر على كل حال، فقد كان هناك الكثير من الناس الذين (وُضعوا فيه؟)، ولا بد من عمل الكثير لإصلاحه.. مع الوضع السيء في الناحية.. حسناً.. هناك من..

سل: يجب عليهم أن ينشئوا مكان البرج شيئاً جديداً..

ل: مركزاً اجتماعياً. حسناً، لقد وضعوا السياج، وسيبدؤون الأشغال حينما يتحسن الطقس.

❖ أليس الحي خطراً على الفتيات؟

سل: كلا، كلا، الأمور على ما يرام.

ل: أوه، ليس أكثر خطراً من..

سل: كلا، الأمور على ما يرام، لقد دائماً في الحي..

❖ أقصد الضوضاء وما شابه ذلك.

سل: بالنسبة لابنتي، فهذا لا يمنعهما، منذ كم؟ منذ 14 عاماً ونحن في هذا الشارع، لقد كنت حبلى بـ س عندما أتينا، حسناً، إنهما تنامان في الواجهة، ويوجد حقاً في الصيف أولاد في الخارج يصرخون، لكن هذا لا يمنعهما من النوم، وحتى مع الضوضاء.

ل: حسناً، إذا كانتا مثلي، فإن الضوضاء لا تمنعني من النوم..

❖ أليست هناك بعض السرقات الصغيرة، أو ما شابه؟

سل: كلا، كلا، كلا.

ل: على كل، ليس أكثر من أي مكان آخر، حسناً، هناك من يُزعَجون، لكن ينبغي معرفة فيما إذا كان هذا صحيحاً، أعني، ينبغي معرفة إن كان هذا صحيحاً.

سل: نعم، ينبغي المعرفة..

❖ ماذا يقولون؟

ل: حسناً، هناك من يُسرق غسيلهم أو تُثقَب عجلات سيارتهم. حسناً، أرغب في تصديق ذلك، لكنني لم أرَ أبداً رجال الدرك يأتون إليهم. وهذا يعني أن لديهم تأميناً صالحاً، ثم هناك سرقة راديو سيارة أو سرقة أي شيء.

❖ نعم، لكن هذا يحدث في كل مكان.

سل: هناك منازل تقع أسفلَنا قليلاً. إنهم فرنسيون، ويشكون دائماً من السرقة أو ثقب العجلات، ولا نرى رجال الدرك يأتون، فهذا نتيجة كراهية بعض الناس لهم، حسناً هو ذاك.

ل: بلى، إنه صحيح، يجب الاعتراف بذلك، فمنشّر غسيلهم أمام الباب وهم يتركون الغسيل ليلاً..

❖ إن هذا يغري الشيطان نفسه!

سل: معك حق، ولذا نحن نغلق من الخلف، ولا أترك الغسيل في الخارج ليلاً.

ل: أما أنا، فسيارتي في الخارج، ومن المؤسف أن أقول إنني ما بدأت أغلقها بالمفتاح إلا بعد مجيء الفرنسيين الذين يسكنون أسفلنا بمنزلين، ولم أكن أغلقها بمفتاح من قبل أبداً، مع أنها في الخارج طوال اليوم فلم أكن أغلقها بالمفتاح. كانت فيها أوراق السيارة وأشياء أخرى، فلم يؤخذ منها

شيء. وعندما أضع السيارة في قاعة الرياضة، لا يحصل لها شيء، مع أنني أطرد الكثير من قاعة الرياضة كل أسبوع. هناك ربما الطريقة أيضاً لـ..

❖ نعم، الطريقة التي يحيا بها الإنسان..

ل: كيفية سلوك الإنسان؛ فلا يجب أن نظهر لهؤلاء الناس أننا خائفون، فإذا أظهرنا لهم الخوف، سيشعرون بأنهم أقوياء. ومن ثم يأتي صغيرهم ذو الثلاثة أعوام حتى كبيرهم، لأنهم سيسعون جميعاً، سأمسك الخشب، فمنذ وجودي هنا، وممارستي الرياضة لستة أعوام أو سبعة أعوام في م.

❖ نعم، هو ذاك، فأنت تعرفهم من الرياضة، وهم يحترمونك.

ل: أنا أحترمهم، وليس من سبب كي لا يحترموني.

❖ نعم، هو ذاك، هو ذاك.

ل: لا ينبغي.. ما داموا في قاعة الرياضة منضبطين وحسني السلوك، فإذا ما أثاروا الفوضى، طردتهم، وعند طردهم أقول لهم: «هذه سيارتي، اذهبوا إليها وسأعرف الفاعل». لأن الكثير من الناس يقولون: «هذا هو، هذا هو، لكنهم لا يذهبون للشرطة خوفاً» أما أنا فأعرف، عندما أطرد أحداً من قاعة الرياضة، ويحدث شيء ما لسيارتي أنني سأستدعي رجال الدرك، وسأقول لهم من الفاعل. وقد لا يكون هو الفاعل، لكنهم سيذهبون إليه وأنا معهم. فإن لم يكن هو الفاعل، عليه أن يدل عليه. ولسوء الحظ لا يفعل رجال الدرك هنا شيئاً أيضاً. إن الدرك والشرطة هم.. فقد حدثت لنا حقاً مشكلات منذ سنتين، مع الأساتذة. وكان علينا أن نحل المشكلة بأنفسنا تقريباً والذهاب إلى الدرك والشرطة. فقال الدرك إن الأمر ليس من اختصاصهم فهناك الشرطة. والشرطة.. حسناً أعتقد..

❖ هل حلّلتم المشكلة مع جمعية أولياء التلاميذ؟

ل: فيما بين الأساتذة والأولياء.

◆ ماذا كانت المشكلة؟

ل: لقد ثقبوا عجلات سيارات الأساتذة، وكسروا زجاج سياراتهم، ووُضع السكر في البنزين.. آه.. لقد أصبح الأمر حقاً.. حتى تعقّدت الأمور حينما خرج أستاذ ووقع على شاب، وقد فعل شيئاً ما كان عليه فعله، إذا عاجَله بلكمة على أنفه (ضحك). وبما أن والدي الشاب يعرفان القانون جيداً، فقد قاما ضد الأستاذ. لكن المشكلة لم تحدث داخل المدرسة وإذن لا دخل لوزارة التربية، ولا دخل لأحد فيها، أما الوالدان فقد توجها ضد وزارة التربية يطالبانها بوقف الأستاذ عن العمل.. لكن معلوماتهم لم تكن صحيحة هنا.

◆ هل الأساتذة أو المعلمون هنا من نفس المنطقة؟

ل: من المنطقة، نعم جزء منهم من المنطقة، فعندما يكون الأستاذ أو المعلم شاباً يأتي هنا..

◆ المهمة شاقة، في البداية؟

ل: إنهم يفكرون مرتين، فإن لم يكونوا من المنطقة، لا يفكرون إلا بشيء واحد هو الانتقال.

◆ هل تعرفونهم؟ أهم من سكان وأبناء المنطقة؟

ل: الكثير منهم شباب، ولدوا في المنطقة وبقوا هنا. أو معلمون قدماء بدؤوا حياتهم العملية هنا. لنقل أمضوا حياتهم المهنية هنا.

◆ وهل تعرفون الكثير من أبناء عمال التعدين الذين بقوا في المنطقة كمعلمين أو أساتذة؟

ل: لا، ليس هناك الكثير منهم.

◆ من الذين نجحوا في المدرسة؟

ل: لنقل إن هناك الكثير، كثيرون من الشباب هنا، وعمال تعدين سابقون، ذهبوا إلى الشرطة والدرك والسرايا الجمهورية للأمن.. وما يشبه

ذلك. لنقل إنهم استفادوا عامي 1968-1969 من أن السرايا الجمهورية للأمن والشرطة قد طوعتا عدداً لابأس به من الشباب. من الشباب إذن - لكنني لا أعني أنهم شباب جميعهم- بل كثيراً من الشباب الذين كانوا على مفترق طرق ثم..

❖ ثم جاء جيل أخذ ينتظم في المدرسة، لأن هذا بدأ نحو 1970 إنهم..

ل: عندما أخذ الرجال يخرجون من المصنع بعربات التحميل الرافعة، ويذهبون بها، كان الواجب إعطاءهم حافزاً، وإلا فإن الرجل منهم يذهب ويحطم كل شيء أمامه. ولقد رأيت بعضهم يخرج معنا إلى المظاهرات ومعه المسدسات والبنادق، إنها أمور لا تُفعل بالطبع. فلم نقف مكتوفي الأيدي، وكنا نأخذ الأسلحة ونضعها عند آخر وانتهى الأمر. ومع ذلك كان يأتي البعض مسلحين، ومن الحق القول إن الطرف المقابل، أي قوات حفظ النظام لم تكن هينة هي أيضاً.

❖ ينبغي القول إنها كانت صدمة بالغة القسوة.

ل: كانت هناك صراعات حادة بالمعنى المحمود للكلمة، ثم صراعات حادة بالمعنى المذموم للكلمة، وعلى كل فما حدث قد حدث. وأسفي الوحيد الآن هو أنني لم أحافظ على ما قصصته مما كتبته الصحافة.. وما شابه ذلك.

❖ وما رأي الشباب الآن بكل هذا؟ إنهم لا يأبهون به أليس كذلك؟

ل: لا يأبه الشباب بهذا، على كل حال، لأنهم لم يعرفوه، أولئك الشباب الذين يعرفون فراغ الحاضر. ولهذا قلت إنها خسارة نوعاً ما، لأنني لم أحفظ الجرائد حتى يروا. لنقل إنني سأخبر ابنتي: هنا كان المصنع، وهناك كان كذا. حسناً، كان هناك شيء ما.

❖ إنهما غير مسيّستين، والأمر سيان عندهما.

ل: نعم، إنك تصنع الآن من الشباب ما تشاء. يأتي الشاب اليميني

ويعدهم بالعجائب، ومن يستطيع الانتخاب سينتخب. وإذا جاءهم آخر من اليسار، فالأمر نفسه. ستجري الأمور هكذا لفترة قليلة ثم يصاب الشاب بخيبة الأمل، فماذا يفعل؟ هذه هي المشكلة. إنهم الآن يوجهون الكثير من الكلام للشباب؛ حسناً، ستحصلون على هذا -هذا ما كنت أقوله قبل قليل عن المدرسة- فالشابة التي تتدرب على الحلاقة النسائية، ستكون حلاّقة نسائية، حلاّقة نسائية، وبمقدورها أن تحلق للرجال إلى جانب ذلك. لكنها تعترض قائلة: لم أتعلم لأكون حلاّقة للرجال، وسأكون حلاّقة للنساء. فلن أذهب إلى هناك.

شباط 1992

عبد المالك صياد

أسرة في غير موضعها

إنها محلة عمالية في محيط باريس المباشر، تباين الترتيب النموذجي للضواحي، بما في هذه الضواحي من أبراج، وصفوف طويلة من البنايات. وهي تشكل استثناء لأنها في منأى نسبي، تتكون من منازل فردية قديمة ذات طابقين؛ اصطلح على تسميتها «منازل حجري الرحى». استَملَكت البلدية عدداً من هذه المنازل حين عُرضت للبيع، وخصصتها لإسكان بعض الأسر المهاجرة بصفة استعجالية، حتى قبل إتمام أعمال التجديد أو إعادة التأهيل. وقد أدى هذا التخصيص المخالف للقواعد المرعية عادة في توزيع المساكن الشعبية (المساكن ذات الكراء المعتدل) على الأسر الأكثر فقراً، أدى إلى بروز صراعات في الجوار من نوع جديد: فقد دفعت هذه الصراعات من حيث طبيعتها المهاجرين إلى التفكير في المضايقات التي يُلامون عليها أي في المعنى الحقيقي لـ«الضوضاء» و«الروائح» مثلاً، والشكل الأفضل للعلاقات الاجتماعية (وتيرتها، عمقها، مدتها.. إلخ) حتى تكون مناسبة للعادات المتصلة بالتعايش، أما بالنسبة للآخرين، أي سكان الجوار الفرنسيين، فلم يعد موقع الصراع هو العلاقات الفردية وما بين الأشخاص، (أو ذاتياً محضاً) كالعادة، لكنه يمس جماعياً (الجارة الفرنسية لأسرة مهاجرة تعبر عنه جيداً) كل الأشخاص المعنيين، إذ ينغمس الجميع في هذه الصراعات

بكل وجودهم الاجتماعي. أي بالفكرة التي يحملونها عن أنفسهم أو هويتهم الاجتماعية، بحسب اللغة السائدة اليوم، (التي هي الهوية الوطنية هنا في نفس الوقت، وبالتالي هوية جماعية إلى أقصى حد) إن هذه الصراعات ذات دلالة، باعتبارها لا تستند تقريباً على أي أساس موضوعي. ولذا ينبغي فهمها على أنها آخر مظاهر المقاومة، من قبل هذه الشريحة من السكان الذين حصلوا أخيراً على المنزل الفردي الذي طالما حلموا به، لكل المجال (الجغرافي والاجتماعي) المقترن به. مجال أسقطوا عليه كل تطلعاتهم وآمالهم في الرقي الاجتماعي، واستثمروا فيه أموالهم وأنفسهم، إنها مقاومة ضد عمليات التردّي، ونقصان القيمة، والإقصاء التي يخشون أن تحيق بهم.

إن المقابلة بين التحقيقين اللذين تم القيام بهما بأسلوب يسمح بالتعبير عن وجهتي نظر مختلفتين كلياً، تنطلقان من مواقف اجتماعية متمايزة بل متضادة، يمكن أن تُسحب على نفس الواقع الاجتماعي. هذه المقابلة تثير ثلاثة أنماط من الخطاب. أولاً، من جانب الأسرة المهاجرة؛ خطاب الأب الذي يستعيد تاريخ نشأة الأسرة وإقامتها في ديار الهجرة، وهو خطاب تاريخي تم باللغة العربية، وهو الوحيد الذي يعني الأب حصراً وبصورة كلية ويتصل بصلاحياته. ثم يأتي خطاب الأبناء جماعياً، ويتطرق للوضع الحاضر وحالة المسكن الراهنة. وأخيراً خطاب المحيط والبيئة المباشرة للأسرة المهاجرة، تمثله الجارة الفرنسية الأقرب، التي تجد نفسها موزعة، بين الدفاع عن المصالح المادية والرمزية الخاصة (بمعنى الحصر) بفئة متميزة من السكان، وهو دفاع وتوضيح للخصال التي تعطي الحق في الحظوة بسكن متميز، من جهة، ومن جهة أخرى، السخط والاحتجاج على وضع تضطر معه إلى تعايش تراه مهيناً ومُذلاً، مع أناس، هم أنفسهم أذلاّء ومحتقَرون ومُهانون.

ترجع أصول أسرة بن ميلود إلى منطقة بسكرة، في الجنوب الجزائري. وصلت إلى فرنسا عام 1960، أو على الأصح، انضمت السيدة بن ميلود إلى زوجها في فرنسا في هذا التاريخ. أما أبناؤهما فقد ولدوا جميعاً في فرنسا. كان السيد بن ميلود، الذي يبلغ الآن الرابعة والستين، جاء إلى

فرنسا لأول مرة عام 1949 وعمره آنذاك 21 عاماً. هو الآن متقاعد بعدما قضى وقتاً طويلاً تحت نظام المرض الطويل والعجز. ونظراً لمرضه العضال، فإن حالته تتطلب عناية مركزة، وإقامة متكررة في المستشفى. ويبدو أن العمل قد أنهكه، بصرف النظر عن مرضه الطويل.

بناءً على اتفاق ضمني بين الوالدين والأبناء، مؤسّس على مصالح وكفاءة هؤلاء وأولئك، أخذ الوالد يستذكر الماضي بطيبة خاطر أكثر من الوضع الحاضر، الذي يتعلق الحديث فيه بالأبناء (لاسيما البنات)، محتفظاً لنفسه -على سبيل المقارنة- بتذكير الجميع (أبنائه الذين بدا عليهم الانتباه الشديد في هذه الحالة) بما كانت عليه هجرة الأسرة، في زمن مضى: «وصلتُ (إلى فرنسا) عام 1949، في عنفوان شبابي (..) وفعلت في السنوات الأولى ما كان يفعل الناس، كما كنا نفعل في ذلك الزمان. أي نعمل فترة في فرنسا ثم نعود عودة كأنها نهائية، وما إن تمضي شهور حتى نعود. نعود لنبدأ من جديد، ومع ذلك فالوقت الذي كنا نقضيه في فرنسا كان الأطول في المحصلة. عندما أحصي الآن السنين والشهور والأيام، أرى أنني قضيت في فرنسا أكثر من نصف حياتي -أو أكثر بكثير- (..). كانت البداية عملاً في المصنع، حتى ليس في باريس، بل في الشرق. لكن، ومنذ 1960، أي منذ أكثر من ثلاثين عاماً، كان عملي في ورشات البناء باستمرار، دون أي يوم عطلة. إذ كانت العائلة هنا في فرنسا، وجاء الأبناء (وُلدوا). وكان ذلك يتطلب مالاً، فلا بد من العمل كثيراً (..). وبما أن العائلة في فرنسا، فلم تعد هناك ضرورة للذهاب والإياب (أي بين فرنسا والجزائر) لأن شملنا التأم. لقد حدث أن كنا نذهب جميعاً إلى الجزائر لقضاء العطلة. لكن ذلك مُكلف جداً. أما الآن وقد كبر الأبناء فلا نذهب إلا قليلاً؛ فهم كبار يقررون ما يريدون بأنفسهم. نحن (الأبوين) لم تعد لنا القوة اللازمة للأسفار والتنقلات. فليس لدينا إذن إلا البقاء والانتظار».

لقد تصادف انضمام زوجته إليه في فرنسا -لم يكن لديهما أولاد بعد- مع انتقاله إلى قطاع الأشغال العمومية والبناء، واستقراره الدائم فيه (حتى صرْفه من العمل نتيجة العجز والتقاعد). وقد حصل بفضل أول رب

عمل في البناء، على المسكن الذي أتاح له استقدام زوجته. وتحتفظ الأسرة لهذا المسكن بذكرى راسخة. وليس من الصعب فهم أسباب هذا الافتتان والحنين؛ فلقد كان منزلاً فردياً يكاد يكون ريفياً، بمنأى عن مركز العمران. صحيح أنه كان مهجوراً لمدة طويلة، ويحتاج إلى إصلاحات، إلا أنه بدا مناسباً جداً لأسرة ريفية الأصل، تخوض هنا تجربتها في تعلم حياة المدينة. إنه منزل فسيح ذو ثلاثة مستويات، مستقل تماماً، ليس له جيران مباشرون، تحيط به أرض واسعة (حُوِّل جزء منها إلى بستان استُغل في زراعة الخضراوات). وتلك مميزات أوهمت هذه الأسرة الريفية الأصل، بأنه من الممكن استئناف ما تعودت عليه في منزلها التقليدي. أيمكن الأمل في انتقال أمثل من هذا لتسهيل التلاؤم مع أسلوب الحياة المدنيّة؟ وعلاوة على ذلك، فقد قُدِّم المنزل الذي كان مهجوراً مجاناً من قبل المنشأة (من قبَل «المعلم» كما يقولون). وهي منحة عينية تضاف إلى الراتب، وتتيح توفيراً لا يستهان به، لاسيما في تلك الفترة الحرجة بشكل خاص، التي اتصفت بندرة شديدة للمساكن المخصصة للعمال، وبالتالي غلاء الكراء من جهة، والحاجات المتعددة والمتنوعة التي تواجهها أسرة مهاجرة، وصلت لتوها إلى فرنسا في حالة من الفاقة التامة، تعوزها حتى أبسط الأشياء وأكثرها ضرورة للحياة اليومية، وهي أشياء تجعل الاستقرار مكلفاً جداً للأسرة، من جهة أخرى.

بما أن المنزل كان مصيره الهدم، بسبب المرور الوشيك لطريق سريع «أوتو روت»، فقد سلم لأسرة بن ميلود، انتظاراً للهدم، باعتباره سكناً مؤقتاً لمجرد الإيواء. وحين جاء موعد الهدم وجدت الأسرة نفسها في الشارع. هنا، وعلى غرار الكثير من رفقاء الحظ العاثر الذين كانوا في غالبيتهم عمالاً في قطاع البناء، من الجزائريين وغيرهم، كان لابد للأسرة من اللجوء إلى (مساكن اليأس والحضيض) -كما يسمونها- أي الأحياء الصفيحية «جحيم الأكواخ»، وباعتبارها على الأرجح من آخر الأسر التي انضمت إلى حي الصفيح القديم في نانتير، حينما بدأت إزالته من الخريطة، ونظراً لوجود أربعة أطفال صغار، استطاعت أسرة بن ميلود الإفادة من أولوية تخصيص المسكن المخصصة للحالات المستعجلة. ووجدت في البداية نفسها في

جينيفيلييه حيث كانت لها كما تقول، تجربتها الأولى في التعايش بنفس الطابق مع أسر أخرى من الجيران، وهي تجربة يحب السيد بن ميلود روايتها بكل ما علمته إياه، عن انعزال بعض الأسر الفرنسية وبؤسها الأخلاقي، والغيظ الذي تشعر به عند الاحتكاك بالعائلات المغاربية الكثيرة العدد، والتي تكثر زيارات الأهل والأصدقاء إليها. وبعد الكثير من المساعي، والمعونة من عدة مساعدات اجتماعيات (مكتب العمل الاجتماعي للبلدية، والمصالح الاجتماعية للمنشأة)، استطاعت الأسرة الحصول على مسكن في باريس نفسها، لكن الشقة التي خصصت لها كانت ضيقة، فجدّدت الأسرة الطلب للحصول على مسكن أوسع، وهذا ما أدى بها إلى المسكن الذي لازالت فيه إلى اليوم.

مع سكان محلة عمالية

أجرى الحديث ، عبد المالك صياد

«لم يبقَ لنا جيران، ولا يكلم بعضنا بعضاً»

الابنة: يوجد هنا احتجاج وانزعاج، ولهذا أسبابه، لكننا لن نغادر المكان أبداً، ولا مجال للبحث فيه. إن والديَّ تعودا عليه، وهما مسنان الآن ومريضان. إن أبي الذي يحتاج إلى عناية مركزة، كثيراً ما يقيم في المستشفى هنا، غير بعيد. وأمي التي لا تكاد تخرج أبداً، ولا تستطيع استخدام المواصلات، يكفيها استدعاء سيارة أجرة تأخذها من أمام البيت إلى المستشفى ثم تعيدها. كم يكلف هذا؟ مائة فرنك ذهاباً وإياباً. إنه مقبول، أما إذا أرادوا طردنا، فإننا لن نقبل بسبب ذلك فقط.

الابن: وليس هذا فحسب، إذ لا مجال للعودة إلى البنايات، لقد كنت صغيراً لكنني أذكر، ليس نانتير وحي الصفيح، بل البنايات، أي الأحياء كما يقال اليوم. إنه كالذهاب إلى الكورنوف أو فال فوريه. كل الناس تعرف هذا الآن، فقد أثار كثيراً من الضجة.

الابنة: لا سيما وأننا لا نستطيع القول بأننا تعودنا عليه، بل على العكس، اتمنى دائماً.. أستطيع القول بأننا لم نسكن أبداً شقة في بنايات، تلك البنايات. وإذن فليس من أجلها وأجل عينيها أو بسببها سنغادر هذا المكان. إنها لا تتمنى سوى هذا، إذ سيسرها كثيراً. وهي تريد بلوغ هذه

الغاية. ومن أجل هذا ليس إلا، سنناضل ضد إدارة (المساكن المعتدلة الكراء)، وضد البلدية، وضد المحافظة، وخصوصاً ضد هذه الشركة التي أوكل إليها إصلاح هذا المنزل. ماذا سيحصل لنا كل هذه المدة؟ متى؟ كيف؟ لا نعرف شيئاً. وليس هذا فقط الذي لا نعرفه.

❖ أنا لم أفهم، ما المشكلة؟

الأب: إنها جارتنا.. تجانبنا تماماً، لا يفصلنا عنها إلا هذا الجدار وبضعة سنتيمترات.

الابنة: نعم، هذا ما أردت قوله. خذ هذا المثال: إنك ترى هذا الدرج الذي يصعد إلى الطابق الأول. ترى السيدة أننا نسبب الكثير من الضوضاء عندما نصعده أو ننزله. أتدرك ذلك؟ إنها أدراج من الخشب، ويسمع ذلك من منزل إلى آخر. ينبغي أن يكون الإنسان مجنوناً حتى يجرؤ على قول كهذا. وحتى لو كانت عصابية، فلن يمنعها ذلك من النوم كما تدعي.

لدي ثلاث قطط، وأنا أحب هذه الحيوانات الرائعة!. لقد اشتكت في كل مكان؛ للجيران، في الشارع، للشرطة، للبلدية. ولم يأخذها أحد بجدية لحسن الحظ. كتبتْ رسائل ورسائل، وحاولتْ عمل عريضة يوقعها الناس لطردنا بحجة «الإخلال بالنظام العام وبهدوء الحي». وهذا ما وصلنا إليه الآن (..) وأحسن ما وصلت إليه بشأن القطط، لا يصدق، إذ تدّعي أنها تسبب الضوضاء. إن لديها كلباً، لكنني لن أدعي بأن كلبها يمنعني من النوم. أما آخر شيء فهو أن قططي تسبب كثيراً من الضوضاء عندما تنزل الدرج، مسببة لها الإزعاج وتمنعها من النوم (..)

«ما يدعون أنه ضوضاء، لم يكن سوى سهرات»

الابن: هي هكذا وانتهى الأمر. إنها تحمل الضغينة ضدنا حقاً، ولا تحتمل جوارنا، ولا وجود العرب في هذا الحي الذي تعتبره أنيقاً ومتميزاً. والواقع أنه ما عليك إلا رؤية أية أكواخ هنا. لكن، لكل امرىء قدراته وإمكاناته. وأنا أيضاً لا أراعيها. لقد قالت الشرطة لي، بأنها فعلتْ ذلك مع

الذين كانوا هنا قبلنا.. لبعض الوقت، مع أنهم لم يكونوا عرباً (..) أعرف ذلك لأن لدي صلاتي بالشرطة، أنا أيضاً. لقد قلت لهم كل شيء. وهم الذين أخبروني بأنها كتبت عدة شكاوى ضدنا.. يكتفون الآن بحفظها. طبعاً، فأنا ألعب كرة القدم مع الشرطة في ناديهم، وبالتالي نتحدث فيما بيننا بأشياء، كرفاق. وليس لدي من جهتي أسباب للتلطف معها، فلتفعل ما بدا لها. وما كل هذا إلا لنكف شرّها وندافع عن أنفسنا إزاءها، وهذا كل شيء، فلا نشتكي منها أبداً.

الابنة: ليس هذا كل شيء. فالنزاع الكبير يتعلق بالحديقة العامة. إن السيدة تتخيل أنها لها وهي ملكيتها الشخصية، لقد قالت هذا لي. إنها كاذبة (..) إن الضوضاء.. والقطط، لا آبه بها، ولتقل ما تشاء.. أما عن الساحة والمكان العمومي، ولم لا يكون الشارع أيضاً والأرصفة؟ فأنا هنا غير مستعدة للتساهل. إنها غيورة، لا تحتمل أيام السبت والأحد أو أيام الأسبوع التي نستقبل فيها طفليه (تعني أخاها المطلّق وله طفلان يحتفظ بحضانتهما أيام العطل والأعياد ويسلمهما إلى والديه) فأصطحبهما للعب في الحديقة. إنها لا تستطيع بالطبع الشكوى من هذا رسمياً، لكنها وجدت حجة القطط ثانية. ذهبتْ إلى البلدية زاعمة أن قططي، وليس قطط أحد آخر، تحفر في أحواض الرمل لقضاء حاجتها، وأن هذا سيؤدي إلى مرض الأطفال، ومرض كلبها قبل كل شيء. استدعتني مصلحة الصحة، فذهبتُ مع البطاقات الصحية للقطط التي تشير إلى أنها ملقحة لا تحتاج إلى شيء، مع أسمائها وتواريخ ولادتها وأطواق هويتها وأرقامها الموشومة بها. هذا ما نحن عليه الآن.

الابن: إنها القصة نفسها دائماً، فعندما لا يستطيعون قول أن التجاور مع العرب أمر سيء، لأنهم قذرون وكريهو الرائحة، ويصدرون كثيراً من الضوضاء، ولديهم الكثير من الناس؛ عندما لا يستطيعون قول كل هذا، فإنهم يخترعون شيئاً آخر. إذ يمكن إيجاد شيء دائماً.

الابنة: في الوقت الذي يمكن لنا فيه أيضاً أن نقول نفس الشيء عنهم. الحقيقة، أظن بل إنني متأكدة من أنهم أقذر منا، وما الزينة إلا عناية بالمظهر الخارجي. أعتقد أن الزينة لا تفيد إلا في هذا.

الأب: يقولون فعلاً: «أنت يا المزوّق من الخارج، واش حالك من الداخل» مثل عربي.

الابن: إن ما يصفونه بالضوضاء، ليس ضوضاء فعلاً ولا «ديسيبيل»[1]، كما يقول الأصدقاء، لكنها الأغنية العربية التي لا يحبونها ولا يفهمونها وتزعجهم. وربما يغير الراي هذا الرأي قليلاً بعدما أضحى موضة. إن هذا هو ما يسبب الضوضاء. وينبغي المقارنة في الواقع، إذ إن جميع أغاني الروك أكثر ضجيجاً على السمع من الأغاني العربية.

الابنة: والشيء نفسه بالنسبة للروائح أيضاً. لقد قرأتها في الصحف عندما حدثت.. تلك القضية (..) روائح المرقاز[1]. لقد قالتها الصحف: «إن الفرنسيين يحبون أكل الكسكسي والمرقاز جداً، لكن عندما لا يكون عندهم، فإن رائحة الطبخ العربي لا تُحتمل».

الأب: لدي قصة سأحكيها لكم. إن الأولاد يعرفونها من قبل. حدثت عندما كنا في بنايات (السكن المعتدل الكراء). كان جيراننا في الطابق رجلاً وزوجته، مسنَّين يقيمان في شقة صغيرة. لم نر أبناءهما أبداً. وما عرفنا بوجود الأبناء إلا عندما تعكّرت علاقتنا معهما وبدأنا نعرف من هما. لقد كنا نُعينهما كثيراً، ونقضي لهما بعض الحاجات، ونقدم لهما من الكسكسي غالباً، وإذا بهما يشتكيان من أننا نسبب كثيراً من الضوضاء. وبالكلام معهما، فهمت ما يقصدان بالضوضاء. الواقع أن هذين المسنَّين اللذين لا يريان أحداً، ولا يأتي أحد ليراهما وحتى أبناؤهما -أعتقد أن لهما بنتاً وولداً تنكّبا الطريق المستقيم- يعيشان منعزلين تماماً. يراقبان كل شيء، ويتنصتان على كل شيء. لقد أشفقتُ عليهما بكل صدق، لاسيما وأنني كنت وقتها أكثر شباباً. وما كنت أحب لأبويّ أن يكونا في مثل هذه الحالة. لم أكن أفكر في نفسي بعد، وأنني سأصبح مسناً أنا أيضاً. كنت أرثي لهما كثيراً، الحق أنهما كانا تعيسين، لأن الحياة قد انسحبت بالنسبة إليهما، ويعيشان

---

[1] ديسيبيل: وحدة قياس التفاوت بين شدة صوتين (décibels).

[1] مقانق جزائرية تحتوي الكثير من البهارات والثوم. (المترجم)

انتظاراً للموت. لقد قالا لي كل هذا، عندما كنت أصادفهما على عتبة الباب في الطابق، وأحاول التحدث معهما، ومعرفة أخبارهما (..) وفي أحد الأيام، وكنا نتحدث، لم أكن أريد معاتبتهما بعنف على ما قالاه بحقّنا، ولو كان الأمر يتعلق بشخص في مثل عمري لتعاملت معه بالكلمات. وحولتُ الحديث إلى مشكلة الضوضاء، وكم كانت دهشتي لما قالاه لي، إن الضوضاء بالنسبة إليهما كانت في الواقع تلك الزيارات المتعددة التي نتلقاها. هذا صحيح، فهذه عاداتنا، وما أن يحل السبت والأحد حتى يتتالى الأهل، وأبناء العم والأصدقاء، لاسيما في ذلك الزمان الذي لم يكن فيه الكثير من الأسَر في فرنسا، وكان الرجال يعيشون عزّاباً، فالمجيء لبيتنا يعني استعادة الجو العائلي. وكان من الطبيعي أن يجلبوا معهم كلما جاؤوا، شتى الهدايا من فواكه أو أفخاذ خروف كاملة، وليس باقات من الزهور (ضحك) فذلك ما نقدمه بعضنا لبعض بمناسبة الزيارات. هذا ما كانوا يدعونه بالضوضاء، أي الذهاب والمجيء والسهرات. فمن المؤكد أن هناك غيرة في الأمر.

الابنة: كنا سعداء عند دخولنا المنزل، فكل شيء نظيف، وظننّا أن كل شيء عاد إلى ما كان. لكن الواقع أنهم قاموا بتنظيف سريع قبل تسليمنا المفاتيح، وقد تحققنا بعد وقت من أن كل هذا لم يكن سوى عملية تجميل سطحية. غلطة مَن هي؟ لا أحد يدري. أهي البلدية التي أرادت ذلك؟ أم هي إدارة (المساكن المعتدلة الكراء)؟ مَن؟ أهُم الذين خُدِعوا لأنهم لم يشاؤوا متابعة الأشغال والتحقّق منها في عين المكان؟ أم أن ذلك عُمل قصداً، والجميع متفقون عليه؟ يتساءل الناس دائماً (..) وقد قمنا نحن أيضاً بعمل ما بوسعنا؛ إذ تابعنا تحسين المكان، وإضافة المزيد من الراحة، وتغيير النوافذ التي لم تكن تبدو مناسبة، أما ورق الجدران، فنحن الذين وضعناه ثم أعدنا الطلاء. لكن ما العمل الآن؟ ولِمَ العمل؟

الأب: ما الضمان الذي نملكه حتى نقوم بالمصاريف؟ فنحن جميعاً (الأب وأولاده) أولاد مهنة نوعاً ما، ونستطيع عمل كل شيء بأنفسنا، وأحسن من الحرفيين ومن المنشآت المحترفة بكثير. فبتقدير تقريبي، نحتاج إلى

ثلاثين ألف فرنك للمواد الأولية فقط، دون حساب كلفة اليد العاملة، لتجديد المنزل.

الابنة: لا ندري منذ وجودنا هنا، مَن يقرر ماذا. ولا ندري حتى ما هي الهيئات التي تمر. ولا ندري حتى لِمَن ندفع الكراء، أهذا ما تسألني عنه؟ نحن ندفع الكراء، وهذا مؤكد لأنه يخرج من جيبنا، ولا أحد يأتي للمطالبة به، فإذن هو يصل إلى المكان المناسب. فلا أحد يهدينا شيئاً (..) إن الذين يأتون اليوم هم الذين عليهم القيام بالأشغال. ولا ندري مَن هم، ولحساب من يعملون؟ هل يعملون لحسابهم أم لإدارة (المساكن المعتدلة الكراء) أم للبلدية؟ أم للمحافظة؟ إنهم مهذبون ويأتون للمعاينة غالباً، ولكن لا تقدم يُذكر.

لا ندري بشغلهم ولا بما هم مسؤولون عنه؟ وهم لا يقولون شيئاً، عما إذا كان الأمر سيتم خلال سنة أو عشر سنوات أو لن يتم أبداً!. إن ما نتمنى أن نعرفه منهم هو إلى أين وصلت الأمور؟ وبمَن تتعلق؟ وبماذا؟ ولِمَ ننتظر هكذا؟ فهذا قد يدوم طويلاً!. إذا كانوا يظنون أنهم سيُتعبوننا حتى نغادر المكان.. إذا كان هذا ما يريدونه، فإنهم مخطئون، ولن نذهب من هنا أبداً. نحن هنا ونحن باقون. وليس لديهم أي سبب لطردنا (..)

(موافقة عامة. الكل يساند كلام الابنة، حول نوايا الأطراف المختلفة التي تتدخل في موضوع الإسكان. والكل متفقون أيضاً في مشاطرتها شكوكها في إخلاص هؤلاء الأطراف أنفسهم. وهو الإجماع نفسه عندما يتعلق بإعلان إرادة الأسرة البقاء في المنزل، مهما كانت نتيجة مشروع الإصلاح، وسواء حصل الترميم أم لا. وقد زاود أحد الأبناء على كلام أخته، مؤكداً بلهجة قاطعة أن مشروع الترميم ليس إلا خدعة، تستهدف إجبار السكان على إخلاء منازلهم)

الابن: لن تبدأ الأشغال إلا عندما يتأكدون من استطاعتهم طرد الجميع، لإسكان الأسر التي تلائمهم فقط. وعلى كل فنحن نعرف منذ زمن طويل، أنهم إن فعلوا شيئاً فلن يكون لمصلحتنا، أو أنهم سيزيدون مبلغ الكراء إلى القدر الذي لا نستطيع معه البقاء، وسنضطر عندئذ للمغادرة، أو أنهم

سيعيدون إسكاننا في الأحياء الحقيرة بحجة عدم دفع الكراء. إنه أسلوب معروف جيداً. مؤكد أن هذا ما يريدونه وليس شيئاً آخر. لقد فهمت هذا من زمن طويل، ولا أفتأ أردّده هنا. إنهم يسخرون منا، وهذا كل شيء. لن نحصل على شيء، ويمكننا الانتظار دائماً، فهم لا يعملون من أجلنا. إنهم يلعبون بنا (تعبير عربي، هو الجملة الوحيدة التي تلفظ بها الشباب طوال الحديث، بينما لم يستعمل الأبوان سوى العربية).

إنهم ليسو من القطط يشتكون، بل منا

الابنة: ثلاث قطط هي (حيوانات بيتية) حقاً وتعد جزءاً من الأسرة، ولأجلها النزاع لأنهم يشتكون منها. إنهم ليسوا من القطط يشتكون.. بل منا، من أصحاب القطط. وهكذا فإن قططي تسبب الضوضاء!.. وكيف ذلك؟ انتبه جيداً، بنزولها الدرج. لقد قلته لك.. إنهم يسمعون القطط وهي تعدو!. هذا أحسن ما وجدوه.. ثم يقولون أنهم يحبون الحيوانات. لا أدري أية حيوانات؟ إنهم يحبونها جميعاً دون شك، بشرط أن لا تكون عند جيران.. من العرب!.

إن السيدة نفسها لديها كلب أيضاً، وتجد الأمر عادياً أن تطلق كلبها في الحديقة المقابلة، حتى أنها لا تمسك به من قيده، وتعتبر أن من حقها أن تكون في الحديقة كما في بيتها، إن الحديقة لها كما قالت لي، لا أدري كيف ولماذا تكون لها.. إنه طريقتها في قول: إن فرنسا لي، إن فرنسا ملكها. أما نحن فلسنا من فرنسا هذه، وليست لنا، ولا ننتمي إليها. إنها مقتنعة بذلك، فقد قالت لي يوماً أنه إذا كان لنا حديقة قبالة المنزل فبفضلها، لأنها هي التي كتبت لرئيس البلدية ونالتها، مع أن الحديقة هنا منذ قرن، وتهددنا بمنعنا من الدخول إليها، أي دخول أرض عمومية (..)

الابن: ولا ننس الماء الذي يسيل.. الحنفيات.. دورة المياه. كل هذا يسبب ضوضاء كالرعد.. إزعاج لا يحتمل كما تقول. لقد وَشَت بنا بحجة أننا كثيرون في المنزل. وأن المنزل مشغول أكثر من اللازم كما تقول.. أو كما

قيل لها أن تقول، لأنني لا أعتقد -فيما بيننا- أنها من الذكاء والتعليم بحيث تستطيع كتابة هذا.. إن المنزل باسم والدينا بالطبع، وقد تربينا هنا وكبرنا، فهو منزلنا إذن، فلا يأتين أحد ويقول لنا بأن لا حق لنا بالسكن فيه.

الابنة: سواء سكنا أم لم نسكن هنا، فهي مسألة تخصنا، ولا تخص أحداً غيرنا.. لاسيما الجيران. فما عليهم إلا الاهتمام بما يجري في بيوتهم..

الابن: إن لدى كل منا، في الواقع، بيتاً يسكنه، فلسنا هنا لأننا لا نمتلك مساكن. هذا خطأ ويمكننا البرهنة على ذلك، بوصولات كراء لمن يريد ومتى يريد: فأختي تقيم في بيتها، وتمر هنا بالطبع كل يوم. وتُشاهَد هنا دائماً، لأنها تأتي لترى والديها، وهو شيء عادي، لتطمئن أن الأمور على ما يرام. وقد تبقى لتنام هنا، إذ لكل منا غرفة أو سرير هنا، مع أن لديها بيتها.. نحن هكذا، لا نهمل الوالدين أو نأتي لنراهما ببساطة مرة كل الـ 36 من الشهر (..)

الابنة: ولدى كل من أخوي مسكنه: فالأول لديه غرفة وملحقاتها ليست بعيدة عن هنا، ويتردد هو أيضاً ما بين المنزل وغرفته. والآخر لديه شقته في انتظار الزواج ثانية. فلا يأتِ أحد ويقول إننا جميعاً هنا على نفقة الوالدين (..) بالطبع، يستطيع كل منّا أن يقيم هنا، فلكل من سريره هنا ومكانه على المائدة، لكن المنزل للوالدين. إنهما في بيتهما. ثم إنه لم يبقَ إلا هذا.. أنت في بيتك وأنا في بيتي، ثم تأتي لتأمرني فيما بعد إذا كنت أستطيع استقبال الزائرين أم لا، وتحصي عدد من هم في المنزل ومن حول المائدة. ليسوا هم الذين يطعموننا (..) إنها غيرة خالصة وهذا كل ما في الأمر. يستطيعون المجيء والمراقبة.. لكنها إلى الآن لحسن الحظ مجرد أقاويل وغيرة الجيران: إنكم كثيرو العدد ولهذا تطلقون الضوضاء، أو إن (السكن المعتدل الكراء) أو المجمّع ليسا موجودين لإسكان كل هؤلاء الناس!. إنها غيرة خالصة، لأنهم يريدون إعطاء الوالدين فقط جحراً صغيراً لا قيمة له. حيث لن يكون لأحد منا مكان.

الابن: إذا ما استطعت فهم شيء من كل هذا، فهو أنهم ببساطة، لا يريدون أن نكون هنا، أو فيما إذا كنا هنا فلا حق لنا في الظهور. لا قطة ولا كلب ولا شارع ولا حديقة ولا طفل وما شابه ذلك. إننا هنا في بيتنا مع ذلك، ويكادون أن يقولوا لنا بأن لا مكان لنا مع والدينا.. (..) هو هذا المجتمع، مع أننا جميعاً أولاداً وبناتاً نتمتع بالجنسية الفرنسية، لكن اذهب وقل لهم هذا. وعلى كل فهو شيء لن أقوله أبداً، فقد يسرّهم ذلك.

الابنة: غير مؤكد.. إذ يقولون أحياناً: حتى أنهم أعطوهم الجنسية الفرنسية، وهو الشيء الأكثر نفَاسة في نظرهم.

الابن: لا يهمني، ولن يكون هذا الأمر من قبلي دفاعاً عن النفس على كل حال. لن أقول لهم: «لِمَ أنتم عنصريون؟ فأنا فرنسي» فهذا يعني أنهم يستطيعون أن يكونوا عنصريين مع أبي؟ أطرح السؤال: فإذا كانوا عنصريين مع أبي فليكونوا كذلك معي على الرغم من أن جنسيتي الفرنسية، إنها مسألة كرامة.

الأب: (على سبيل التلخيص) كل هذا لا يهم إلا قليلاً، هناك شيء ينبغي معرفته وهو أننا لن نغادر هذا المكان!. (سكون طويل من الجميع، عندما تكلم الأب برصانة هذه المرة، لافتاً انتباه الجميع وأنا أولهم) لأنه لا مكان نذهب إليه في مثل سننا. (إنه دون شك الاعتراف الأكثر إيلاماً لمهاجر، أي لإنسان كان يجتهد كل حياته للاعتقاد بأن له بلداً و(وطناً) يعود إليه).

عليهم أن يقدموا هذه الحسابات

لكن ليس لي، بل لفرنسا..

(على الرغم من أن الحجة التي كان ينبغي استعمالها، لتسويغ التحقيق، تمنع كل استفهام حول الصفات الاجتماعية للشخص، استطعنا - دون قصد- معرفة أن الأسرة، وهي دون أولاد، استقرت عام 1975، آتية من باريس حيث كانت تسكن بضيق، غرفة وملحقاتها. وقد امتلك الزوجان

المنزل الذي يسكنانه بفضل مبلغ ورثته الزوجة عن أبويها. يعمل الزوج في (إدارة النقل الباريسي) أما الزوجة، وتبدو أسن منه بوضوح، فلم تعمل قط)

❖ إنني أقوم بجولة في الحي، وأرغب في التحدث مع هؤلاء وأولئك، ورؤية جميع سكان هذا الحي الذي لا يتكون إلا من منازل: ما رأيهم بإطار حياتهم، وكيف يرون مستقبل هذا الحي، ما التغييرات التي حدثت في جوارهم وفي بيئتهم منذ استقرارهم، وهل كانت هذه التغييرات نحو الأفضل فيما يتصل بظروف الحياة والسكن أم على العكس نحو التردّي؟ (..) ليس لدي أسئلة محددة أطرحها عليكم، بل أرغب في التحدث معكم والحصول على رأيكم وانطباعاتكم.

السيدة مونيير: أهكذا؟ نعم! بمعنى آخر، إنهم الآن مضطرون للاعتراف بما هم فاعلون. لأنهم لم يعودوا قادرين على إخفائه. لقد فهموا أننا على علم بكل شيء، إنهم يستيقظون.. لأنهم كانوا يظنوننا عمياناً، ولا نفهم شيئاً من دسائسهم.

❖ ماذا تقصدين؟ أية دسائس؟ وما هو الذي لا يمكنهم إخفاءه؟ وما هو الشيء الذي يفعلونه ويعترفون بفعله، في نفس الوقت؟

س. م: لأنك لا تعرفه؟ إنك لن تستطيع جعلي أصدق هذا، بينما يعرفه الجميع، ويراه الجميع..

❖ ما الشيء الذي يُرى؟

س. م: قريباً. سوف يتغير سكان الحي جميعاً، فالناس يغادرون، وكل شيء هنا للبيع. وإذا تجولتُ بك في الحي، سأريك أن منزلاً من كل اثنين للبيع. وهذا يسبب سعادة سماسرة العقارات. وهم لا يأبهون، بشرط أن تسير مصالحهم. إنه لمن يدفع أكثر أو لأول من يأتي ويعرض عليهم.. إنهم لا يأبهون.. فليسوا هم الذين يسكنون هنا.. إنهم.. إنهم لا ينظرون إلا إلى الأموال التي ترِد إليهم.

❖ لِمَ يبيع الملاّك هنا منازلهم؟ وهل يحدث هذا أكثر من أماكن أخرى؟ أو أنه الشيء نفسه في كل الأحياء المشابهة لهذا؟

س. م: لا أدري، فأنا أعرف هذا الحي، ولا أعرف غيره. ولكن لابد أن يكون الشيء نفسه في أماكن أخرى بالتأكيد، إذا كانت الأمور مشابهة لما يحدث هنا.. لقد لاقينا الأمرّين للحصول على هذا، لأجل بيت لنا. دفعنا الثمن غالياً وضحينا بالكثير. وما كدنا ننتهي من السداد حتى بدأ الناس يغادرون.

❖ لِمَ يغادر الناس، كما تقولين؟

س. م: لو كان زوجي هنا، لأجابك أفضل مني. لقد كان سكان الحي السابقون، عندما وصلنا إلى هنا.. أناساً مسنين. والملاّك من المتقاعدين. ثم حصل الفراغ؛ فبعضهم ذهب والبعض الآخر في دور المتقاعدين وملاجىء العجزة. وليس الأبناء من يستطيعون الاستمرار في السكن هنا. ولا يُعرف مكانهم.. ولذا تُؤجّر المنازل لأجانب. أجانب عن الحي، وليس دائماً لمهاجرين. وحتى المستأجرون، لا يبقون طويلاً.

❖ ومن يشتري؟

س. م: أناس أجانب دائماً، يأتون من كل مكان. وحتى هؤلاء الناس الذين يصلون كملاّك جدد، لا يبقون طويلاً، لا يبقون طويلاً. وغالباً ما يبيعون بعد ثلاث أو خمس سنوات.

❖ لماذا؟

س. م: لأن السكن هنا لا يحقق أو لم يعد يحقق مصلحتهم. والحي يخيب أملهم: فكل هذه المساكن الفردية صغيرة عموماً، وليست مريحة.. ولابد دائماً من أشغال تُعمل. وهي الحال معنا: أشياء ينبغي تبديلها في التدفئة والتمديدات الصحية، والسقف. وكل هذا يكلف غالياً. وهكذا فبعد سنوات من شرائنا للمنزل، نبيعه ونترك المكان. السكان يتبدّلون دون انقطاع، وليس إلى الأحسن دائماً.

❖ ماذا تقصدين بلَيس إلى الأحسن دائماً؟

س. م: إن الحي كله متأثر بذلك. ونحن الموجودين هنا منذ حوالي 15

سنة، نشعر بكل هذه التغييرات. لا أريد هجوماً على أحد ولا أريد اتهاماً. وما سأقوله ليس من باب العنصرية. (إن هذا هو المزعج، فما أن نشكو بأن الحي يجنح للتردي، ويسوء سكانه، حتى نُتّهم بالعنصرية). فليس من باب العنصرية، قَوْلي بأن هنا عائلات مهاجرة، وعائلات عربية أكثر فأكثر. إنني لا أعرف أصولها، أهي جزائرية، مغربية، عائلات مغاربية. وهذا ليس من شأنه تحسين الأمور لجعل الحي مقبولاً. ولذا ترى الجميع يتركونه في نفس الوقت.

❖ من أين تأتي هذه الأسر المهاجرة «العربية» كما تقولين؟ إن الحي مكوّن من منازل، وليس من مساكن شعبية كما في الأحياء الأخرى. وليس بمقدور كل إنسان أن يسكن هنا ويشتري منزلاً.

س. م: أوه، لا، ليس الأمر كما تظن، إنهم يأتون أكثر فأكثر، ويصل منهم كل يوم تقريباً، انظر، إن كل التجار هنا من العرب تقريباً، وكل محلات البقالة بأيديهم. لكن هذا ليس كل شيء، وليس هو الأخطر، بل الأخطر هو أن الحي يميل إلى أن يصبح شعبياً. حياً كتلك الأحياء التي يتكلمون عنها. نرى الأشياء تتحول بسرعة، بسرعة كبيرة. لم يعد الحي حي إقامة كما كان أو كما كنا نظنه عندما اشترينا المنزل وبالثمن الذي دفعناه. كانت هناك خدعة. لقد سرقونا ويستمرون في سرقتنا، لقد كبّلتنا الديون، ونسدّدها باهظة بكل غباء. الآن انتبهنا إلى خداعهم لنا، فلقد مرّغونا في الطحين.

❖ كيف ذلك؟ فإذا اضطررتم لبيع منزلكم مثلاً، فإنكم لن تخسروا من ثمنه؟ هذا غير ممكن.

س. م: أبداً.. من المؤكد أننا سنخسر. إذ أن الجميع يهربون، والحي يتردّى من كل الجوانب. ولن نحصل أبداً على الأموال التي دفعناها. فإذا بعنا هنا مثلاً ورغبنا الشراء في مكان آخر أو مدينة أخرى أكثر أمناً، ووضعها أفضل من هنا، فإننا لن نستطيع أبداً.

❖ إنني لا أفهم جيداً ما تسمينه «الجميع يهربون»، «الحي يتردّى»؟ ومع ذلك فأنا لا أرى شيئاً من هذا. بل نظافة وهدوءاً وسكاناً لائقين.

س. م: لا. إنها المظاهر الخادعة. صحيح بالنسبة لمن لا يعرف الحي لاسيما في السابق، لكننا مقيمون منذ 15 عاماً ونشاهد كيف تتردّى الأمور.. فكل شيء يتردّى.

❖ من أين يأتي هذا التردّي؟ وفيمَ يتمثل؟ أفي الخدمات أو البناءات أو السكان؟

س. م: نعم.. هذا هو.. هو ما تقول بالضبط. فمنذ اللحظة التي يفقد فيها الحي سكانه، سكانه الحقيقيين الذين بنوه بأنفسهم أكثر الأحيان، لا يعود موضع عناية، ويُهمل كل شيء، لأن الناس لا يقومون بالإصلاحات اللازمة، ويصير كل شيء بشعاً: انظر، أرأيتَ زهرة أو نبتة على نافذة في هذا الشارع؟ إنها لا توجد إلا عندي. وتمر أوقات أتساءل فيها عن جدوى هذا، ولِمَ كل هذا؟ وكأنك تقدم المربى للخنازير. لكنني آتية مع ذلك، وليكن ما يكون، إذا كان هذا استفزازاً. ولِمَ لا؟ إن هذا ما يحصل عندما يكون المنزل مهملاً. إننا هنا منذ 1977، ولم أعد أعرف أحداً في هذا الحي. فأستطيع الخروج طيلة اليوم لأتنزّه في الناحية أو لأقضي ساعات وساعات في الحديقة العمومية، دون أن أجد شخصاً يحيّيني أو أحيّيه، مع أن الناس كثيرون. ولم يعد لنا جيران. ولا نستطيع الاعتماد على أي شخص، ولا يقدم أحد خدمة للآخر. إن كل هذا يذهب أيضاً، وحياة الحي لم تعد موجودة، وهكذا نرى الأشياء تتغير، لكن ليس للأحسن.

❖ ماذا على سبيل المثال؟

س. م: البريد مثلاً ليس إلا. فلقد انتهى الانتظام. من قبْل كان سُعاة البريد دائماً هم أنفسهم. كنا نعرفهم، وكانوا يعرفون الناس كلهم. والتوزيع يتم في نفس الساعة تقريباً وكأنما يتم بناءً على ساعة يدك، فلا حاجة بك للنظر إلى الساعة. أما الآن فالسُعاة يتبدلون دائماً، ولم تعد الثقة موجودة. ويمكن للتوزيع أن يكون في أية ساعة؛ التاسعة صباحاً أو الواحدة ظهراً. والشيء نفسه بالنسبة للغاز والكهرباء والماء والزبالة، أي الخدمات. إننا نشعر باللامبالاة في كل مكان ولا نستطيع قول شيء. نشعر بأن البلدية قد

هجرت الحي ولم تعد تعيره اهتماماً، لأنها التفتت إلى جهات أخرى أكثر أهمية لها.

❖ لماذا؟ وما أسباب ذلك؟

س. م: اذهب واسألهم.. وسترى ما يقولون لك.. هذا إذا جرؤوا على قول أي شيء لك، قول الحقيقة! أود أن أعرفها أنا أيضاً. ولكن على كل حال فهذا ما أراه.

❖ ألم تحاولوا فيما بينكم أن تحتجّوا، وتقوموا بمسعى لدى البلدية لطلب خدمات أفضل؟

س. م: ولكننا نعمل ذلك، ينبغي أن نكون كثراً ومتفقين على رأي واحد، بيد أننا -كما قلت لك- لا يعرف بعضنا بعضاً، ولا يكلم بعضنا بعضاً. فلن أطلب من جيراني الذهاب معي لتقديم شكوى، والاجتماع، وبحث ما يجب فعله، كالاحتجاج أو توقيع عريضة أو مجرد رسالة فقط. وكل شيء كهذا.

❖ من هم جيرانك؟

س. م: كيف ذلك؟ ألم ترهم؟ لقد رأيتهم قبل مجيئك لعندي؟ وعلى كل فستراهم لأنك تمر لترى الجميع.. الأفضل إذن أن أقول لك كل شيء، وبهذا لن يفلتوا منك. وحتى لو كنت لا تنوي الذهاب إليهم، فإنك ستسارع لرؤيتهم بعدما تسمع ما سأقوله لك عنهم، لتتقله إليهم، وهو شيء جيد.. يجب أن تقول لهم رأيي فيهم.. إن لم يكونوا يعرفونه، لكنهم يعرفونه لأنهم في أنسب مكان لمعرفته، إننا لا نتسامح في أي شيء. ليس من مشكلة مع الوالدين، فهما هادئان لا يُشاهَدان كثيراً ولا يُسمعان. المشكلة مع الأبناء، أبنائهم وخاصة ابنتهم. لا أدري من تظن نفسها هذه. إنها تنظر إليك من علٍ! ولا أخطئها أبداً كلما استطعت. قد أكون على خطأ، ولكنني أعترف بذلك. إنهم يظهرون لنا جيداً، بأن لا أهمية لنا.

❖ من هم؟

س. م: لكنك تعلم جيداً من هم. فإذا كانت البلدية أو إدارة (السكن المعتدل الكراء) أو لا أدري من، أرسلوك هنا، فلأجلهم وليس لأجلي. فأنا لا أهمية لي، ولا يأبه بي أحد، كل الناس يهملونني.. أنا لا أهمية لي.. لا أهمية لأحد هنا الآن. وهم يظهرون لنا بأن لا أهمية لنا، وأننا كمية مهمَلة، وأن لا أهمية إلا لهم.

❖ من هم؟ أنا أهتم بكل السكان هنا، ولا فرق بين الواحد والآخر، ولست أنا الذي يقرر مَن مهمّ ومن ليس مهمّاً كما تقولين. أنا مستعد للإنصات إليك بانتباه وتذكّر كل ما يمكن أن تقولي. ولهذا أدون كل شيء، وأسجل كل ما تقولينه لي، إذا ما قبلت. إن وجهة نظرك تستحق الاعتبار نفسه الذي يُعطى لوجهة نظر جيرانك ولكل من يسكن هذا الحي. فمن هم جيرانك إذن؟ ومن الآخرون الذين تتكلّمين عنهم؟

س. م: هم.. عائلة عربية، مغاربيين. لا أدري لكنني أظن أنها عائلة جزائرية.

❖ وإذن، ما الشيء الذي لا يسير على ما يرام معهم؟

س. م: حسناً! لا شيء، ولا شيء يمكن أن يسير، فلا يمكننا التفاهم. ليست لدينا الأذواق نفسها، ولا العادات نفسها. ولا نعيش الحياة نفسها. ولا نرى الأشياء نفسها بالطريقة نفسها. وإذن فلا مجال للاتفاق، ولسنا متفقين.. على أي شيء.

❖ هل اشتروا؟ هل هم مالكون؟ كيف وصلوا إلى هنا؟

س. م: سأقول لك. منذ ساعة وأنا أقول بأن كل شيء قد تغير هنا. حسناً، هذا ما أردت قوله: لم أبدأ بهذا، لأنك كنت ستصرخ يا للعنصرية. كنتَ ستقول جهراً أو بينك وبين نفسك: كم هي عنصرية هذه المرأة. لكنك الآن ستفهم. إنهم جيراني مباشرة، ولا يفصلنا سوى جدار مشترك، جدار يفصلنا. لقد كنا هنا قبلهم، وكنا هنا عندما جاؤوا، عندما وضعتهم البلدية هنا.. لأن البلدية هي التي استقدمتهم.

❖ كيف استقدمتهم البلدية؟

س. م: كيف؟ ألم يقولوا لك في البلدية؟ كنت أظن أنهم أعطوك أسماء كل الأسر الموجودة هنا. إن المنزل الذي يسكنونه ملك البلدية (..) (وتروي قصة هذا المنزل الذي أضحى مهجوراً بوفاة مالكيه فاشترته «البلدية أو مكتب السكن المعتدل الكراء» وخصصته لإحدى الأسر) إن الأمر يبدأ دائماً هكذا: أسرة واحدة، أسرتان في البداية، الواحدة تجلب الأخرى، وهكذا دواليك، وقريباً جداً سيصبح الحي كأحياء ليمينجيت، لاكورنوف أو فال فوريه. إنهم يتحدثون عنها لدرجة أصبح معها الجميع يرغبون بأن يكون الشيء نفسه عندهم. لأن هذا هو ما أرادته البلدية.. هذا الحي سيصير حياً شعبياً كالأحياء الأخرى، لقد عانينا الأمرّين ليكون لنا بيتنا.. وكنا نظن أنفسنا في بيتنا.

❖ لكن ما هي المساوىء التي أدى إليها وجودهم هنا؟ وفيمَ يزعجك جوارهم؟ إن هذه المنازل منفصلة ومعزولة، الواحد منها عن الآخر. وليست مثل البنايات التي تتلاصق فيها الشقق، ويؤدي ذلك إلى الضيق بالضوضاء والذهاب والإياب والروائح.. إلخ.

س. م: آه نعم! إن الأبناء مدعون.. سريعو التهيج (..) وما أن تفتح فمك حتى يتهموك بالعنصرية، وأي شخص لا يشاطرهم رأيهم فهو عنصري في نظرهم.. والواقع أنهم هم العنصريون.

❖ لكن هل لديك أمثلة؟ وهل حدث بينك وبين أشخاص آخرين، أو جيران آخرين منازعات؟ وما هي الأسباب الأكثر تكراراً لهذه المنازعات؟ إذا استطعتِ إعطائي أمثلة فسأفهم بشكل أفضل.

س. م: حسناً.. لو أردتَ المنازعات.. فهي دائمة، ولن تتوقف أبداً. وما يجعل المنازعات غير عنيفة، ودون ضجة، هو أنني أتظاهر بالصمم، وأغض طرفي لأنني لا أريد أن أرى.. وهذا يعني أن المنازعات دائماً مكتومة.. فنحن نتجنب.. منازعات.. ماذا أقول؟ إنها منازعات خرساء، إذ لا حاجة للكلام فنظر بعضنا لبعض يكفي. إن الأخير فيهم.. الصغير.. هناك اثنان وهما

حفيداهما.. حسناً.. ما أن يرياني حتى يكشرا في وجهي، ويخرجان لسانيهما لي. نعم، مع أنني لم أفعل لهما شيئاً. وبعبارة أخرى، إنهما يتعلمان فعل هذا داخل الأسرة. وبما أن الأمر هكذا، فأنا الآن لا أخطئهما من جهتي، حتى لو قيل عني: إنها مجنونة وشرسة، وامرأة راشدة تتسلط على الصغار، فلا يهمني ذلك. إنني لا أخطئهما، ليس لأنهما المذنبان في الحقيقة بل أهلهما المذنبون. أما الصغيران المسكينان فلم يفعلا لي شيئاً. وإذن فمن أجل هذا فقط، هناك دافع للشجار.

❖ لكن كيف تجري الأمور؟ هل تذهبين لرؤية الأهل للشكوى، وهناك يحدث الشجار.. هل تزجرين الصبيين ويتدخل الأهل.. ما الذي يجري؟

س. م: أوه.. ليس هذا. فأنا لا أجرؤ أبداً على الذهاب والشكوى. لأن طرق بابهم سيؤدي بي إلى سماع ما لا يرضيني. وسيكون ذلك استفزازاً من جهتي، يجعلونني أدفع ثمنه غالياً. إن مشكلاتي معهم هي مع ابنتهم، إحدى بناتهم، تلك التي تعيش معهم وتعمل في المستشفى.. ولا أدري لماذا؟ فلا تفاهم مع هذه أبداً. فالمشكلة إذن من امرأة لامرأة أو بين نساء، كما يقول زوجي (..) والأمر كما يقول بالضبط. فأنا وحيدة من جانبي وإذا كانت هناك ملاسنة مع هذه البنت -لأنه ليس بيننا إلا الملاسنة فلا ضرورة للمبالغة، ولا نتماسك بالشعر بل نتقاذف بالكلام وهذا كل ما في الأمر- أقول: إن كانت هناك ملاسنة، فلا تلزم سواي مع أنني أدافع عن مصالح المجموعة السكانية بأكملها في حقيقة الأمر. إنها منازعات مني.. ومني فقط، ولا يسهم زوجي في هذه المنازعات. ولا أحرضه حتى على أن يكون في صفي، ولا أقول له شيئاً. فما دام الأمر بين النساء فليبق بينهن. لكنني متأكدة من أنها تتكلم نيابة عن الجميع، وأن كل أسرتها معها ضدي، أبوها، أمها، إخوتها، وأخواتها وأولاد أخواتها وكل أبناء عمومتها وكل قومها. فالأمر بالنسبة لهم إذن ليس محصوراً بيني وبينها فقط.. ولذا أشعر بأنني كمن يصارع وحيداً ضد عشرة، فأهجم ولا أدع شيئاً يمر، وليكن ما يكون، حتى لو دفع الصبيان الثمن. إنها ليست غلطتهم ولكنها ليست غلطتي أيضاً.. فإلى الأمام.. دون هدنة.

❖ لكن لا توجد منازعات مع الآخرين، مع الشباب مثلاً؟

س. م: لقد قلت لك، ففيها الكفاية. إذ أنها تتشاجر بالنيابة عن الجميع، وهم متفاهمون على ذلك، هي مُهاجمتُهم ومقاتلتُهم. وهكذا يتمكنون من البقاء في الخلف والمشاهدة فقط متظاهرين بالحياد ومعتمدين عليها. أنت ترى إذن -اسمح لي- وضع الكفيف الذي أجد نفسي فيه. أنا هي الشريرة، أما هم فاللطف والجمال مجسدان.. أنا الفرنسية هي الخبيثة والعنصرية. هذا هو الفخ فلقد انقلبت الأدوار.

❖ لكن الرجال، الشباب؟

س. م: لست على صلة بهم، لأنني أعتقد أنه لو حدث لي ملاسنة معهم، فسيتدخل زوجي. وهنا تتعقد الأمور ويحصل ما لا تُحمد عقباه. وأشعر بأن الجميع يعرفون هذا، فزوجي بمظهره الهادئ لا ينتظر إلا هذه الفرصة. وهم يشكّون في ذلك وأنهم إذا تجاوزوا الحدود، قد يصبح الأمر في غاية الخطر لهم.

❖ على ماذا تُحمل منازعات النساء في هذه الحالة؟

س. م: إذا أردت قول الأشياء كما هي، فليس بإمكاني القول بأنها أشياء هامة حقاً أو أنها تُحمل على أشياء خطيرة، إنها تُحمل على كل شيء ولا شيء.. أي على تفاهات. لكن الأمور هكذا.

سخافات تافهة

❖ أين كان آخر اشتباك ولو خفيف بينكما؟ وكيف كان؟ ولماذا؟

س. م: إنه دائماً بصدد الشيء ذاته، حول سخافات تافهة كالقطط والكلب والأطفال.

❖ كيف ذلك؟

س. م: نعم، القطط. لنبدأ بالقطط. ابنتهم، تلك التي تعيش مع أبويها، لا أعرف كم عمرها.. ثلاثون عاماً بالتأكيد، لكنها دائماً مثل صبية

صغيرة تعيش مع أبويها. لديها قطيع من القطط.. ثلاث، أربع، خمس. أنا لست ضد هذا لأنني أحب الحيوانات أيضاً ولدي كلب أنا أيضاً. ويظهر أنها مفتونة بالقطط، فلكل امرىء ما يحبه، وهي تحب القطط التي ليست لي ولكنها تثير فيَّ الشفقة! إذ ما إن يفتح الباب صباحاً، حتى أراها تعدو مجتازة الشارع إلى الحديقة، حيث تبقى حتى ساعة توقف المرور. أترى هذا؟ فربما يلتقطهن أحد يوماً.. أو تدهسهن سيارة. إن هذا يؤلمني ولا أستطيع تخيله بالنسبة لامرأة تدّعي أنها تحب القطط، قططها، دون أن تحسب حساباً لذلك. وعندما تكون القطط في الحديقة، ماذا عساها تفعل؟ إنها تستعمل الأرض والممرات وأحواض الرمل المخصصة للعب الصغار لقضاء حاجتها. أترى هذا؟ إن ذلك ليس من النظافة في شيء وليس صحياً على الخصوص. ولكن الأمر هكذا وعلينا التعايش معه. اذهب وقل لهم. وإنني لأسمع من هنا ما سيقولونه، ما سيصرخون به «لسنا في بيتك، الحديقة ليست لك، اهتمي بكلبك وحسب، نحن لم نأت لنطلب منك حساباً». «نحن لسنا في بيتك» بل هم في بيتي لو يعلمون، في فرنسا، ولست أنا التي في بيتهم. لا يجب قلب الأمور.. «لم نأت لنطلب منك حساباً» هو ذاك: يجب تقديم الحساب.. يجب أن يقدموا هذه الحسابات، ليس لي وإنما لفرنسا. وأنا لا أقول إن فرنسا هي أنا. لكن عليهم أن يضعوا هذا في حسابهم وفي رؤوسهم، لاسيما الشباب منهم.

إن المشكلات تحوم حول أشياء كهذه دائماً.. توافه ربما، لكنها ذات معنى. نعم، إن الأمور التي نشتبك فيها وليس فيها تفاهم بيننا، هي الأشياء الخارجية دائماً، فأنا لا أتدخل بالطبع فيما يجري لديهم لأنه لا يعنيني. وحتى الضوضاء التي يتسببون فيها، لا آبه بها! إنها تضايقني قليلاً، لكن الأمر ليس بذي خطر.. إن ما يجري لديهم لا أتدخل فيه حتى لو سمعت أشياء.

❖ مثلاً.

س. م: لقد سمعت –لكنني لم أدخل عندهم، ولا أتدخل فيما لا يعنيني– أنهم حوّلوا المرحاض لديهم إلى حمام كما يفعلون في بلادهم.

❖ كيف ذلك؟

س. م: يظهر أنهم يسخّنون الماء في قدر كبيرة على موقد الغاز. وهكذا يحصلون على البخار. ثم يأخذون حمّام بخار كما في حمّاماتهم. لكن تخيل ما سيحصل على المدى الطويل ومع تكرار العملية.. من تلف في الطلاء والتمديدات الصحية وخشب الأبواب والنوافذ. وإنني لأتوقع هذا منذ الآن.. وعلى كل فهذا ما يقال، وعلى هذا القياس قِسْ (..) وهذا ما لا يمكن تحمله إلى ما لا نهاية. فيجب أن تقول هذا ويجب أن يُعرف.. (..) حتى وإن كنت لا أغفر لهم مما يحصل في الخارجَ شيئاً، ولا مجيء الصغيرين مع عمّتهما إلى الحديقة حيث يوسخان كل شيء ويكسران ويزعجان. ومع أن اللعب بالكرة ممنوع في الحديقة إلا أنهم يفعلونه، وعندما يكونون في الحديقة، أمنع كلبي.. ولا أُخرجه. لأنهم بإثارته وتخويفه قد يدفعونه إلى عضّهم، وعندئذ علي تحمل النتيجة بما فيها من مزعجات تسببوا فيها قصداً. وهكذا سينتهون إلى التحكم في كل شيء هنا. ولو وُجدت أسرتان أو ثلاث أخرى على هذه الشاكلة، فلن يكون لنا حق في الخروج. وكل هذا من أجلهم! ولهذا أقول في نفسي أن علي التحرك قبل فوات الأوان.



روزين كريستان

كلٌّ في بيته

عرفتُ والدة فرانسواز عام 1962، فقد كانت بوابة في الدائرة 13 في باريس، وكان زوجها عاملاً مختصاً لدى رونو. وحافظنا خلال السنين على علاقات وديّة على الرغم من تباعدها ومن تغيير محل الإقامة مراراً. لكن هذه العلاقات استمرت بشكل خاص مع ابنتها فرانسواز.

وقعت الأسرة في ارتباك شديد في 1987. وقد روَت لي فرانسواز عدة مرات خلافاتها مع مالك المنزل الملاصق لمنزلها، والمساعي التي قامت بها لإنهاء وضع ترى أنه لا يطاق. ظهرت لي روايتها مألوفة، كحدث قليل الأهمية، مع أن ما كنت أعرفه عنها وعن أهلها كان يفرض السماح لي بإعطاء حديثها دلالة. لكنني كنت أعرف الأسرة بالقدر الذي لا يسمح لي بملاحظتها. وقد أعطتني النهاية السعيدة للنزاع (فالعائلة تعيش الآن «في منزل لكوادر الشركة الوطنية للسكك الحديدية» المسوغ لحديث يدخل في نطاق البحث حول السكنى، حيث يمكن لفرانسواز أن تصف لي المساكن المتتالية التي شغلتها مع الإلحاح على أسباب ونتائج مختلَف التنقلات).

وصلت فرانسواز إلى بيتي في الموعد يوم 27 آذار 1991 أي اليوم التالي «لأحداث سارتر فيل» التي أثارها اغتيال شاب من البور[1] («جمال»

---

[1] Les Beur هو اسم يطلق على الفرنسيين ذوي الأصول الجزائرية.

الذي قتله حارس مجمع تجاري). كانت ملابسها تنم عن ذوق كلاسيكي، تلبس حذاء موكسان أسود اللون، شعرها قصير صُفِّف دون تجعيد، وليس على وجهها أثر للزينة. وكانت هادئة كعادتها ولا غبار على هيئتها. لكن نظرتها القلقة، وصوتها المرتجف التماساً للاستحسان، كانا يشيان بحالتها، وقد أدركت بسرعة أهمية ربط الأحداث الأسرية مع التسلسل الزمني للمساكن لتفسير هذه (الأزمة).

تزوج والداها عام 1948 في أشير، وأقاما بضعة أشهر في بيت صغير ملحق بالحديقة التي تمتلكها الجدة.. ومن ثم..لا تدري حقاً إن كان بإمكانها قوله.. «احتلاّ دون حق مع زوجين آخرين قصراً في أشير، إذ كان في ذلك الزمان منازل جميلة ومهجورة.. وكان الأمر مقبولاً عندئذ، وليس كما هو الآن».. «لقد بدءا حياتهما هكذا» وكان أبوها يعمل في فيبر وسيمان بالقرب من بواسي.

كان عمرها سنتين عام 1950 عندما عثرت أمها على مسكن بواب في بناية تابعة لبلدية باريس، واجهتها من الآجر الأحمر، على مقربة من مصفاة السكر التي كانت تنفث دخاناً كثيفاً منتن الرائحة في الدائرة 13: شقة مكونة من غرفة رئيسة وحجرة نوم ومطبخ «كانت جيدة.. كشقة صغيرة نوعاً ما». وبعد فترة وجيزة كان أبوها فيها عاطلاً عن العمل، وكانت أمها تذهب للحصول على قسائم الحليب للرضيعة في البلدية، دخل عند رونو حيث بقي حتى وفاته. كان العمل شاقاً أحياناً بالنسبة له، لأنه لم يكن منخرطاً في النقابة أبداً «كان ضد كل هذا» «كان يريد الذهاب إلى العمل دائماً». وهي تذكر أنه أثناء إضرابات 1968، كان العمال النقابيون يستفيدون من تعويض في بلدية مسكنهم، لكن أباها لم يكن له الحق فيه لأنه لم يكن يملك بطاقة النقابة. لم يكن يستطيع السماح لنفسه بالإضراب، إذ كان (عاملاً مختصاً) «لم يستطع الارتقاء أبداً». ولم يكن راتبه كثيراً، فكان أبواها «ينحتان الصخر للوصول إلى الكفاية»، ولا عطلات، ولا نزهات. وقد مرضت الأم مرضاً خطيراً عام 1957، فاضطروا لترك المسكن الذي يقتضي

واجبات ثقيلة، لا تستطيع القيام بها. وعندما تذكرت فرانسواز تلك الفترة، اعترفت لي قائلة: «نحدث أنفسنا أنا وأمي أحياناً قائلين: عندما نفكر من أين أتينا وإلى أين ذهبنا، يدخل الخوف إلى نفوسنا».

سكنت الأسرة عندئذ في شقة مكونة من حجرتين ومطبخ في الطابق الأول من نفس البناية، فوق مسكن البواب بالضبط. وقد وُلدت باتريسيا، البنت الثانية، قبل الأوان «وإذ ذاك أضحى الأمر أكثر صعوبة، فكراء ينبغي تسديده، وطفلة أخرى» وأخذت أمها بخدمة المنازل في البنايات المجاورة. أما الوليدة فبقيت في حاضنة بالمستشفى «وعندما أعادوها إلى أسرتها، كانت المرشدات الاجتماعيات يأتين لرؤية فيما إذا كانوا قادرين على تربيتها، وفي أية ظروف». وهكذا، علاوة على الصعوبات المادية، أضيفت الإهانة الموجهة لخصالها المعروفة والمشهورة بها في الحي، كأم وربة بيت. إنها تتكلم أيضاً عن ذلك أحياناً ولكن ليس كثيراً؛ إذ هناك أشياء من الأفضل نسيانها. وفي عام 1965 انتصبت بنايات جديدة قبالة مصفاة ساي للسكر، فقدمت أمها طلباً للسكن «بحجة قِدَم مسكننا ووجود طفلتين». ولم يروا الدخان الأسود أو يشموه «هنا.. كانت قمة السعادة.. على ما يرام حقاً، ولم يكن أحد قبلنا. كان سرور باتريسيا عظيماً حتى أنها أرادت النوم في حوض الاستحمام، إذ ما كان عندنا حمام من قبل قط. وهكذا بدأت الفترة السعيدة، حيث بدأت الأمور تتضح أمامنا على الرغم من زيادة الأعباء نتيجة للكراء الأكثر ارتفاعاً أيضاً، لكننا حصلنا على حق تعويض السكن فسُمح لنا هنا بمعيشة لائقة».

«إنهم يتنفسون الصعداء قليلاً». في عام 1968 ورثت أم فرانسواز جزءاً من منزل أبيها في بورنيشيه، أي 30.000 فرنك استثمرتها في الحال بشراء شقة صغيرة في نفس المدينة «من أجل العطلات» وتلك ميزة عسيرة المنال. أما فرانسواز، فبعد شهادتها في المحاسبة بدأت تعمل ثم تزوجت تييري 1972، وهو مساعد ميكانيكي في السكك الحديدية، وكانت تعرفه منذ زمن طويل. فبما أن والد تييري كان يعمل بالسكك الحديدية، قرر الغلام

منذ الرابعة من عمره أن «يعمل في القطارات»، فدخل للتدريب في السكك الحديدية عندما كان في الرابعة عشرة، حيث مكث ثلاث سنوات، حصل بعدها على شهادة الكفاءة المهنية في الإلكتروميكانيك. وأخذ يرتقي السلم شيئاً فشيئاً، فمن مساعد ميكانيكي إلى ميكانيكي ثم رئيس قطر بعد ست سنوات من الدراسة المسائية. وقد حافظ تييري على افتتانه الطفولي بالقطارات، ولهذا لا يريد الارتقاء كثيراً في المراتب المهنية، لأنه سيكون حينئذ «في المكاتب» وليس «مع الآلات» كما يحب. وتشعر فرانسواز بالضيق قليلاً من هذا الاهتمام الحصري، لكنها تذعن لأنها في المقابل تقود الأسرة كما تشاء، تقرر في شأن تربية الأولاد، وتسيّر الميزانية وينصاع تييري دائماً. وهي لا تتكلم عنه إلا قليلاً. وكأن زواجها من طبيعة الأشياء، حتمي ولائق. توفي والدها بالسرطان عام 1976، وكان في الثانية والخمسين من عمره «لقد حدث الصدع يومها والحياة توقفت في تلك اللحظة. لتبدأ حياة أخرى، من أسوأ ما يكون.. كارثة» ولم يكن لأمها «حق في أي شيء» لمدة سنتين لأنها لم تتجاوز 48 عاماً، وكان ينبغي انتظار الخمسين حتى يكون لها حق في منحة التقاعد. ثم توقف الضمان الاجتماعي بعد سنة. وقلنا في أنفسنا «إنها الكارثة، ولن ننهض أبداً».

حدثت الوفاة في وقت بدأت فرانسواز فيه بناء حياتها كما تتصورها. فقد توقفت عن العمل («ليس مثيراً للاهتمام قضاء اليوم في تقليب الأوراق») وهي تربي ابنتها كارول وتوزع وقتها بين تدبير المنزل، وشغل الصوف. وأمسيات طويلة تقضيها مع أمها تتحدثان أحاديث دون أوهام.

كان مستقبل تييري يبدو واعداً في السكك الحديدية، لكن راتبه ما زال قليلاً. وأختها باتريسيا 19 سنة لم تجد عملاً بعد. وفرانسواز تفكر مع أمها التي أضحت دون أي مورد بأن «كل شيء سينهار». وتشعر بأنها مهدّدة هي وأهلها. لذا اتخذت دور (رب الأسرة) لتقوم بمساع حثيثة، فتعلم أن بإمكان أمها الإفادة من منحة تعادل خمس سنوات من راتب زوجها «لو لم نطالب.. إن الاستجداء ليس محبّباً، لكن كان علينا أن نعيش».

لكن تلك المنحة كانت زهيدة فليس لأمها الحق إلا في نصف تقاعد، دون ضمان اجتماعي. ولذا وجب إيجاد حل «والمنزل كان الحل». منحة الوفاة ستكون الدفعة المالية الأولى، وستعيش الوالدة مع ابنتها. وتستأنف فرانسواز العمل لدفع الأقساط، وبهذا يقترب تييري من عمله في محطة سان لازار.

لقد خالوه منزلاً عصرياً، لكن على طراز «جزيرة فرنسا» العريق، في مكان قريب من مانت، في مقسم جميل. حوله أشجار وخضرة، مطبخه واسع جيد الإضاءة مع حجرة لكل واحد وحمامين على الأقل. لكن المنزل الذي اشتروه كان «على النمط القديم» رقّع قليلاً، في شارع ضيق عادي من سارتروفيل. أما المطبخ فكان ضيقاً، والمنزل في مجمله أضيق من أن يتسع لخمسة أشخاص. لقد كانت فرانسواز مسرورة على الرغم من كل شيء فقد رتبت الأثاث الذي وهبتها إياه عمة عجوز، والمؤلف من غرفة طعام كاملة من طراز هنري الثاني لم تكد غرفة المائدة تتسع لها، وسرير «قديم» هو مبعث اعتزازها. «وتدبرنا أمرنا بما كان لدينا فيما يتعلق بالباقي، وبما أتانا من والديّ، وهو ليس بالكثير».

جرت الحياة خلال عامين هادئة. فتييري يحضر لامتحاناته ويزداد راتبه. وبعد ولادة ابنهما الثاني جان باتيست، استطاعت فرانسواز ترك عملها من جديد دون تأسف، لأنها منذ اليوم الأول الذي اكتشفت فيه -في وظيفتها الأولى- تزوير الوثائق والاختلاسات التي كان يقوم بها رئيسها المباشر، أخذت تنظر للحياة المهنية بريبة وتقزز. وبما أن العالم يعج بالمحتالين فينبغي إعطاء الأسرة كل شيء والحفاظ عليها. وهذا من اليقينيات الكبرى التي تتقاسمها مع أمها.

أما العلاقات مع مالك المنزل المجاور -والتي كانت مقبولة إلى حد الآن، صباح الخير ومساء الخير فقط- فقد توترت فجأة عندما بدأ الجار، وهو بنّاء برتغالي؛ بتعلية منزله طابقاً دون سابق إنذار. وقرر

بالإضافة إلى ذلك فتح نافذة «مع شرفة»لإدخال الضوء، تطل على منزل أسرة ميناجيه. وبما أن أسرة ميناجيه لم تحتمل هذا التطفل، فقد كتبوا إلى مديرية التجهيز في المحافظة، مطمئنين إلى أنهم على حق. فأُجري تحقيق، وشعر الجار بالإهانة، وبدأت من هنا سلسلة الصراعات. ولم تكن فرانسواز ولا تييري هما الأقوى في هذه اللعبة. إذ إن الأسرة البرتغالية لا تخاف الضجيج، وتعيش على صوت راديو- لشبونة. وقد وُلد لها وَلد ثالث. فيجب توسيع المنزل والقيام لهذه الغاية بأشغال كبرى ستستمر عدة سنوات، وبوتيرة تتناسب مع الفصول والمشاغل المهنية لرب الأسرة. ولأن شيئاً من الفوضى لا يفزِع هذا الجار الثقيل، فقد حول حديقته الصغيرة على الرغم من الاستنكار العام إلى قن للدجاج وزريبة للخنازير، ولم يكن يتردد في اجتياز النافذة المختلَف بشأنها، لرمي القاذورات، أو ببساطة، سرقة البندورة التي يعتني تييري بزراعتها.

كانت فرانسواز وزوجها حائرَين. إنهما يعلمان أن القانون في صفهما، لكنها لم يستطيعا الحصول على حقوقهما.. لقد وقفت مديرية التجهيز إلى جانبهما، وهو ما جعل الجار يكتفي في الفترة الأولى بسد النافذة المخالفة. وكان لابد من استئناف المساعي لدى الإدارة. وقد استقبلهما رئيس البلدية الشيوعي عدة مرات بأدب جمٍّ، لكن هذه الزيارات لم تؤدِّ إلى شيء. فعملا على تعبئة الجيران وتوقيع العرائض أو الكتابة للنائب العام، لأن السبل الإدارية والنظامية المعتادة لم تكفِ كما يبدو، لكنهم اصطدموا بجدار من اللامبالاة، إن لم نقل بالتشكيك، من قبل إدارة طفح بها الكيل. وكانت فرانسواز هي الأكثر تأثراً إذ لم تؤذِ أحداً في حياتها قط، فاجتهدت في التصرف برصانة مع احترام الأخلاق والأعراف وتبعاً لقوانين بلادها. وأخذت تشعر من جديد بانعدام الأمن، وترى اقتراب المخاطر التي كانت تظن أنها أبعدتها نهائياً عن حياة أسرتها والمتمثلة في البذاءة والمخالطة السوقية، والتي بدا لها

لفترة من الزمن أنها تحررت منها عند شرائها المنزل رمزاً للياقة والملكية والتميز ببيت خاص. وإذن فما من مَخرج من «هذا» (هكذا تشير إلى الخطر المبهم خلال المحادثة كلها) إلا الموت، موتها أو موت الآخر. بعد بيع المنزل، حققت الحفاوة التي استُقبلت بها من ساكني (الإقامة)، وهم جميعاً كوادر في السكك الحديدية، كل تطلعاتها وبعثت في نفسها آمالاً جديدة: فقد وجدت هنا بيئة دافئة وجديرة بالاحترام. كان تييري وفرانسواز وجلَين قليلاً بين هؤلاء الكوادر الراسخين في مراكزهم ويرفضان أحياناً -بدافع من التحفظ- المشاركة في بعض الحفلات، مع قبولهم في اليوم التالي الدعوة «لأكل ما تبقى». ولقد كانت العلاقات عموماً متفقة مع أصول السلوك اللائق التي رفعتها فرانسواز بسذاجتها إلى مستوى القاعدة الأخلاقية.

أما الآن، في 1991 فقد تبدلت الأشياء. إذ أخذت الشركة الوطنية للسكك الحديدية تؤجر لأي كان وليس للكوادر دائماً. ولم تعد الأمور كما كانت. وأضحى المستأجرون السابقون مسنّين، ولم يعد الخروج يروق لهم. أما الجدد فلا يهمّهم هذا. اختلف المحيط إذن.

تقول فرانسواز عن نفسها إنها تكثر من التفكير، وهذا يسهم في عزلتها، وأطفالها مثلها، فهم يختلفون عن الآخرين من أترابهم، وربما لا يكون هذا شيئاً جيداً، إذ ليس لديهم الكثير من الأصحاب. إنها «تفكر دائماً فيما قد يصيب أسرتها. والكوارث التي تحاول تلافيها». لكنها لم تستطع توقع موت أبيها ولا تلك المخاطر المبهَمة، والاعتداءات المتكررة والإهانات المذِلّة، أي كل «هذا» كما تقول. إنها دائمة الخوف. لاسيما على أطفالها هذه المرة. ففي الطرف المقابل للجادة، غير بعيد عن بيتها تقع أحياء أشير، شانتلو دي فينيه وسارتروفيل وهي تعج بـ«مغاربيين، شباب، أناس دون عمل». من هناك تأتي العصابات المتخاصمة التي تدفقت يوماً على المراكز السكنية باحثة عن العنف دون سبب واضح، أو عن تصفية حسابات غامضة. إن حي الشارع الوطني حيث أمضت طفولتها، كان جزائرياً في غالبيته لكن

«الأمور تجري على ما يرام»، حتى أنها لعبت مع صغار من الجزائريين. أما الآن «فلم تعد الأمور كالسابق»، وهي لم تعد تفهم. إذ يزداد عدد الشباب (المغاربيين) باضطراد في مدارس الناحية حيث «المستوى منخفض جداً»، ولذا اضطرت إلى وضع أطفالها في مؤسسة تعليمية دينية بعيدة وكان عليها أن تتعلم قيادة السيارة. وتعترف بأن «وضعهم في هذه المدرسة سيؤدي أيضاً ..» وتفكر في المراسيم والأعياد الدينية العديدة وفي مخالطة رفاق «مدلّلين جداً من جهة مصروف الجيب». لكنها مضطرة وتريد إعطاء أطفالها فرصهم.

تحب فرانسواز كثيراً البقاء في البيت، وتقول أمها مازحة بأنه لا يمكن اقتلاعها منه. ويحتاج ذلك إلى ما لا يقل عن نصف ساعة من التحضيرات، قبل كل خروج حتى لو كان لمسافة قصيرة: كالتحقق من صنبور الغاز وإغلاق جميع النوافذ وبعض الستر، وتدوير المفتاح في القفل عدة مرات. «لم تأخذه مني كل هذا الهوَس» تضيف السيدة روجيه، التي قبل أن تستلقي ليلاً على ديوان صالون ابنتها المرتب جيداً، كانت تعيش دائماً في الفوضى العفوية والإلفة التي تميز هؤلاء الذين ليس لديهم الشيء الكثير ليخفونه. إنها تفكر مثلي دون شك بطاولة غرفة الطعام في شقتها ذات الغرفتين بالدائرة 13 التي كانت تتراكم فوقها دفاتر البنتين مع استمارات الضمان الاجتماعي التي ينبغي ملؤها أو مع الصفوف الأولى لكنزة صوفية، ولم يكن أحد وقتها يفكر في إخلاء الطاولة لأن الأكل كان يتم في المطبخ أكثر الأحيان. ولهذا لا تفهم السيدة العجوز الارتباك الناجم من القلق الملازم لملكية «بيت خاص» تم الحصول عليه أخيراً وبعد لأي.

مع صاحبة منزل في الضاحية

حديث مع روزين كريستان

«لقد عشنا جحيماً»

(..)

فرانسواز: بدأت المشكلات بالضوضاء، وجاءت من بعدُ الإهانات الشخصية، والتهديدات بالقتل.. إلخ، لقد وصلت الأمور إلى هذا الحد.. وهكذا أصبحت منهارة كلياً. كان معه مطرقة.. لقد فقدتُ أعصابي فأخذتُ بضرب الحائط المشترك، فخرج وخرجتُ أنا أيضاً، وحدث الأمر بيني وبينه لأن تييري كان في الحديقة ولم يشعر بشيء. كنا وجهاً لوجه، هكذا، وإذا به يقول «سأسلخ جلدك» وهو يهددني بأداة في يده. ومنذ ذلك اليوم أصبح كل شيء مخيفاً بالنسبة لي.. وقد لحقت بي هذه الحالة خارج المنزل، في الشارع وفي المدرسة. وانعكس هذا على الشخص.. على الأشخاص. (..)

كانت تصل الأمور إلى هذا الحد

كان الأطفال يذهبون إلى المدرسة معاً، وكان لهم ثلاثة أطفال: الصغير الذي وُلد حديثاً واثنان أكبر من كارول. لكنهما كانا على شاكلة

والديهما لسوء الحظ ويهددان كارول في المدرسة. وكم من مرة حاولوا دهسي بسيارتهم الكبيرة على الرصيف، عندما كنت أرافق كارول إلى المدرسة. تصل الأمور إلى هذا الحد. وعندما كنت أمرّ عند (..) وأذهب حتى صندوق البريد، كان هناك مقهى يكوِّن زاوية مع بيتي. وفي أحد الأيام كنت في طريقي لوضع رسالة في الصندوق، وإذا بهم ينعطفون بسيارتهم حول زاوية الشارع بالقرب مني حتى أوشكوا على دهسي وكأن شيئاً لم يكن. وهكذا لم أكن في أمان حتى في الشارع إذ كانت لدي تلك الرهبة دائماً. حتى أنني لم أعد أخرج، وأخذ تييري يرافق الأطفال إلى المدرسة أكثر فأكثر. إلا أنني اضطررت للذهاب لرؤيةِ المديرة لأشرح لها ما يزعجون به كارول. فهم يضربونها ويهددونها. إلى هذا الحد، لم تعد الحياة تُطاق. ولم يقتصر الأمر على الضوضاء بل شمل الاضطراب كل ما تبقى. صحيح أن الضوضاء شيء لا يُحتمل، لكن لو لم تكن التهديدات لكانت خفّت، فلا يُعقل أن يقوم بالأشغال طيلة حياته.. ربما.. مازلت آمل..

❖ هل تظنين أن هذا الشيء يحصل غالباً في الضاحية؟

فرانسواز: سمعت عن الضوضاء، لأنني اتصلت بسبب ما حدث معي بأشخاص آخرين اضطروا للذهاب بسبب الضوضاء. لكن تهديدات كهذه.. لم أسمع عنها أبداً، إنها المرة الأولى. لقد كانوا أناساً يشربون ولديهم خلل عقلي بالتأكيد. والأهم هو أننا لم نكن أول من يحصل له هذا. لأننا عندما كنا نقوم بالمساعي وما تبع ذلك، عرفنا أن كل الذين سكنوا هذا المنزل أو حتى كانوا في منازل الجهة المقابلة اضطروا للذهاب بسبب هذا، ونتيجة لتهديدات جسمية أيضاً.

- هل كان الجيران لطفاء على وجه الإجمال؟

فرانسواز: نعم، بالضبط، أعني في البداية، عندما وصلنا.. أعتقد أن هناك حواجز تفصل بين الناس في الضاحية. ولذا فهم غير اجتماعيين. لقد استغرق الأمر على الأقل.. حتى ولادة جان باتيست، أي ثلاث سنوات. عشنا فيها منعزلين، ندخل ونخرج ولا أحد يحيينا. لم يكن هناك سوى

شخص واحد قدم نفسه إلينا يوم انتقالنا للمنزل، وكان لطيفاً جداً فقال لنا: «إذا كنتم بحاجة إلى شيء» وتوقف الأمر عند هذا الحد، ولم نره بعد ذلك ولم نلتق معه لأن توقيته لم يكن متوافقاً مع توقيتنا. ولم يكلمنا أحد من بعد. وحتى الناس المجاورون لنا لم يكونوا يكلموننا. وقد توجب أن يُولد جان- باتيست حتى بدأ الناس بـ.. بنوع من الفضول ثم شيئاً فشيئاً.. أما خلال ثلاث سنوات فيمكن القول بأننا عشنا دون أن نتعرف على الناس. وعندما تركنا المنزل في ظرف ست سنين كان هناك أناس، بينما كنا نجتاز الشارع. لم نكن نعرفهم.

ما كان يجب المسّ بهؤلاء الناس

وإذن، لم يكن سكان الضاحية اجتماعيين، لكنهم أخيراً وعندما حصلت لنا كل هذه المزعجات، تضامنوا معنا وساندونا. وينبغي أن أعترف بأننا دُهشنا لأنهم لم يكونوا يكلموننا ولا يوجهون لنا حتى صباح الخير، وجاؤوا يستفهمون عما حدث، وحاولوا تفهّم الوضع ومساندتنا في اليوم التالي لاستدعائنا الشرطة عندما نفد صبرنا. وتبعاً لهذا قمنا بعمل عرائض، فذهب الجميع إلى البلدية، كلهم، ولا يمكن قول العكس. كنت ذهبت مع تييري من قبل إلى البلدية لرؤية رئيسها عدة مرات أيام المقابلات، وشرح ما يجري، كل هذا لكن.. أف! كانت هناك ظروف دائماً.. فما كان يجب المسّ بهؤلاء الناس. وفي النهاية، عندما رأى الناس الحالة التي وصلنا إليها في ذلك الوقت، قرروا عمل عريضة وعرضها على الناس المجاورين للمنزل لتوقيعها، أي كل المنازل المحيطة بأولئك الناس. وقد وقع أكثرية الناس، وحصلنا (..) من أناس لم نكن نعرفهم. أخذنا نطرق الأبواب ونشرح لهم ما كان يجري، فانزعجوا أيضاً لأن حديقتهم محاذية لهذا المنزل. الجميع انزعجوا بصورة أو بأخرى، لقد كان الناس لطفاء إلى حد المساندة.

وبعد هذا بعثنا بالعريضة إلى رئيس البلدية فاستُدعينا، عدنا فقضينا ساعات وساعات نُناقش في الفراغ. وعندما رأينا الأمر هكذا تقدم

شخص آخر قائلاً: «حسناً، سنكتب إلى النائب العام» وكانوا في مفوضية الشرطة قد نصحونا بذلك أيضاً (حديثها يتسارع وتلفظ الكلمات بصعوبة وهي في غاية الانفعال) فكتبنا إلى النائب العام. فقيل لنا بأننا إن لم نكن راضين (..) هكذا (..) وقد عشنا على هذه الحال سنة مع ذلك. وكانت لهذا آثاره على الصحة. أما الأطفال.. بالطبع، إن الطفل يستجيب بصورة أفضل من الكبير لأنه لا يرى التفاصيل ولا ينتبه إليها. لكنهم كانوا يشعرون بحالتي، وقد تأثرت دراسة كارول غير أن جان-باتيست كان وقتها صغيراً فلم يشعر بشيء. ومع ذلك فإنه يتكلم عن ذلك الآن. وعندما يرى برتغاليين فهم «بورتو» بالنسبة إليه. ولم نعد نتحدث الآن عن ذلك، فلقد مضى كل شيء. لقد شَغَلَنا الأمر جميعاً وأربكَنا حقاً، إذ نقص وزني 16 كيلو غراماً، ومرضتْ أمي أيضاً. لكنني كنت مضطرة للذهاب عدة مرات لأنني لم أعد أقوى على البقاء، فقد كان ذلك مستحيلاً. فقال لي الطبيب: «عليك الذهاب، لا تستطيعين البقاء». لم أعد آكل أو أنام، وكان ذلك نفسياً، ولم يكن لدي شيء أعمله سوى هذه الضوضاء في رأسي. وبعد أن هدّدوني، أصبت بالرعب حقاً. وكنت أعيش مع الخوف. لقد كانوا أناساً عنيفين ذوي ماضٍ مشبوه. لم تكن لدي إلا رغبة واحدة، هي قتله.

هذا مجمل ما حصل معنا. ومن المهم أيضاً أننا لم نعد يحتمل بعضنا بعضاً في المنزل، نتيجة عدم قدرتنا على التواصل مع هؤلاء الناس، فصرنا نلقي بالمسؤولية فيما بيننا. لم نكن نستطيع شيئاً ولم نكن مسؤولين، إذ ليس بمقدورنا ضرب الجار. وشيء آخر مهم، هو أنني ما راودتني مثل هذه الأفكار من قَبل قط، وتييري أيضاً، لأن هذه الأفكار مخالفة لطبعه، ومع هذا ففي لحظة ما، لم تكن لدي سوى رغبة واحدة، هي قتله. وأجد أن الوصول لهذا الحد!. هناك أناس مشاكسون أما أنا، فحين كنت أراه، وحتى عندما أسمعه، مجرد سماع صوته. لو كنت أحمل بيدي شيئاً لفعلتها. لقد كنت منهكة لدرجة قتله بسهولة. ومع ذلك كنت أصل إلى التهدئة من روعي قائلة: إن هذا لن يفيد في شيء، وسيجلب لي المتاعب. لكن لنقل إن فكرة

قتله كانت تراودني في كثير من الأحيان، وتراود تييري أيضاً. أعتقد أن هذا مهم في التعبير عن حجم المصيبة. ولهذا فأنا أتفهّم الناس الذين تنهكهم الضوضاء في المساكن الشعبية فيضطرون للقتل. إنني أفهم الآن أما في البداية فلم أكن أفهم، وكنت أقول لنفسي: «إن أفكاراً كهذه غير معقولة». أما وقد عشت المشكلة، فأقول لنفسي: بلى، لأن شدة الإنهاك تؤدي إلى فعل أي شيء. وعلى الرغم من الندم الذي يأتي فيما بعد، إلا أن الإنسان يقدر أن يقتل في لحظتها.

في أحد الأيام، كانت الرغبة لدي بقتله كبيرة لدرجة أن تييري اضطر معها لأخذي إلى الطبيب في سانِ دوني على ما أذكر. كنا قد عدنا من نزهة قمنا بها لزيارة القطار ذي السرعة الكبيرة.. إنها طرفة صغيرة.. لا أهمية لها.. زرنا القطار ذي السرعة الكبيرة لأننا كنا نخرج بالطبع أكثر وقت ممكن لكي لا نسمع الضوضاء. كنا نذهب حتى عند الجيران لكي لا نسمع الضوضاء. في ذلك اليوم إذن قام بتهديدي قائلاً إنه سيسلخ جلدي. واضطر تييري عندئذ لأخذي إلى الطبيب لأنني لم أعد أنا نفسي ولا أدري ما كنت سأفعل.. أي شيء.. أعتقد أنه كان بإمكاني أن أقتل نفسي لأن الكيل فاض بي، مع أنني قضيت بعد الظهر سعيدة ومبتهجة، حتى قال لي ما قال.. والجدير ذكره أيضاً، أننا كثيراً ما بتنا عند الجيران يومي السبت والأحد، إذ كان الناس يدعوننا حتى لا نبقى في البيت. لقد كان هذا لطفاً منهم، فقد ساندونا لحسن الحظ، وينبغي الاعتراف بذلك. لا أدري لو لم يساندونا إذا ما كنا استطعنا البقاء ذلك الوقت الطويل. (..) وما ينبغي ذكره أيضاً أنه كان لنا حديقة صغيرة.. صغيرة جداً حقاً، ولم نكن نجلس فيها أو نذهب إليها، لأنها معرضة للأنظار. تطل هذه الحديقة على داخل المنازل الأخرى. وعندما رفع جارنا منزله، صارت غرفه تطل على حديقتنا. فتعقدت الأمور أكثر، لأن النفايات أخذت تتهاطل على حديقتنا زيادة على التهديدات، وبالتالي لم نعد نستعمل الحديقة بتاتاً. ثم أخذوا يربون الحيوانات على طول جدارنا الذي أخذ يرشح بانتظام مع الروائح!.. لقد

تجمعت كل الظروف حقاً ليكون الأمر رائعاً. وقمنا بنفس المسعى وجاءت الدوائر الصحية في المحافظة فكان جوابه: إنه جداره يفعل به ما يشاء. كان يربي الأرانب والخنازير وأي شيء.

لقد ربوا خنزيراً وقتلوه عندما عمّدوا الصغيرة. خنزير في الضاحية، ليس شيئاً مثالياً!. أما في الريف فلابأس. وما زاد الأمر سوءاً أن حديقتنا كانت محاطة بسياج قليل الارتفاع، وكنا هيّئنا قسماً صغيراً منها نزرع فيه الخضار كالبندورة وغيرها، فيأتي الجار ليسرقها ليلاً، ولم نستفد منها بشيء فيما عدا ذلك، وهكذا، بسبب روائح الأرانب وما شابه ذلك، عرضنا المنزل للبيع في ساعة نزوة، لأننا لم نعد نطيق الاستمرار.

(..)

❖ وسكناكم هنا ماذا تسمى؟

فرانسواز: إنها إقامة لكوادر الشركة الوطنية للسكك الحديدية. إنهم أناس من نفس المهنة (..)

❖ وهل تشعرين بأن الوضع جيد؟

فرانسواز: نعم، لأنني أعتقد، ربما ليس من اللائق قول هذا، لكنني أعتقد أنهم أناس أذكياء، يستطيعون رؤية الأشياء كما هي. يفكرون جيداً ويستطيعون التحدث. وينتهي الأمر. ولا يحدث هذا كثيراً لأننا قليلون لا نتجاوز الست أسر، ولهذا نتوصل للتفاهم على الرغم من كل شيء مع أن هناك دائماً واحد أو اثنان يخرجان على الجماعة، لكن هذا ليس محرجاً. أعتقد أن كل منا يحاول البقاء في بيته، لكننا نتعاون أيضاً؛ فلو حدث شيء، يستطيع الناس الاعتماد بعضهم على بعض، مع محافظة كل واحد على استقلاله مع ذلك. ويستقبل بعضنا بعضاً من وقت لآخر، ونعمل ولائم أيضاً من وقت لآخر. وقد قررنا هذه المرة الذهاب إلى نادي البحر المتوسط، خارج البيت، حتى لا تقوم النساء دائماً بعبء الولائم، على أن تكون الكلفة مشتركة. إذ يضع كل منا مبلغاً من المال كل شهر حتى تشرين الثاني حيث

نذهب إلى النادي للأكل ثم التسلية بعد ذلك. إن في ذلك تغيير، فلن يكون للنساء عمل يقمن به. لقد قمنا في العام الماضي بتنظيم وليمة بمناسبة عيد الميلاد، وهيّأناها مسبقاً قبل وقت طويل، فحددنا قائمة الطعام وكان على كل امرأة شيء تعمله: المقبلات، الطبق الرئيسي، التحلية. لكل امرأة إسهامها واشترينا الحوائج معاً. وضعنا المال مشاركةً منذ البداية ثم اشترينا الحوائج معاً وقدم كل منا شيئاً إضافياً صغيراً. فأنا صنعت كمأة مثلاً، وصنعت أخرى فواكه مزينة، وهذا لم يكن جزءاً من الاشتراك. وبما أنه ظلت بقية من الوليمة، فقد استأنفنا الاحتفال في الغد لاستهلاك البقايا. وقد نظمت سهرة تنكرية لم نحضرها لأننا ذهبنا في نزهة. وقد حدث الشيء نفسه للسهرة التنكرية، إذ استمر الاحتفال ثلاثة أيام بسبب وجود الكثير من الطعام. فبما أننا لم نكن في السهرة التنكرية فقد دعينا مع ذلك في الغد، وذلك لأننا إن لم نحضر السهرة فليس لعدم رغبتنا في الحضور، وهكذا دعينا ليومين متتاليين. وقد جاؤوا لاصطحابنا لأننا كنا في البيت.



باتريك شامبانيه

المنظور الإعلامي

لا وجود محسوس للمشقات الاجتماعية إلا عندما تتحدث عنها وسائل الإعلام. أي عندما يعترف بها كمشقات من قبل الصحفيين. غير أن هذه المشقات لا تختزل إلى تلك وحدها التي تبينها وسائل الإعلام، ولا إلى الصورة التي تقدمها على الخصوص حينما تفطن إليها. إن الصحفيين لا يخترعون دون شك المشكلات التي يتحدثون عنها من لا شيء. حتى أنهم يستطيعون الظن، ومعهم بعض الحق، بأنهم يسهمون في التعريف بتلك المشقات ووضعها -كما يقال- على بساط البحث العلني. لكنه من السذاجة التوقف عند هذه الملاحظة، لأن المشقات ليست جميعها «إعلامية» بصورة متساوية. وتلك التي تكون كذلك تخضع حتماً لتحويرات عدة منذ اللحظة التي تبدأ وسائل الإعلام الخوض فيها. فالميدان الصحفي يقوم عوضاً عن الاكتفاء بتسجيلها بإخضاعها إلى عمل إنشائي حقيقي يعتمد بشكل واسع على المصالح الخاصة لهذا القطاع من النشاط.

ونكاد نقول إن إحصاء «المشقات» التي تطفو أسبوعياً في الصحافة يعطي على الخصوص قائمة بما يمكن تسميته «مشقات للصحفيين» أي تلك المشقات التي صُبغت صورتها العلنية بجلاء لإثارة اهتمام الصحفيين، أو

تلك التي تجذب الصحفيين من حيث كونها «خارجة عن المألوف» أو مأساوية أو مؤثرة وبالتالي مربحة تجارياً، وتتوافق إذن مع التعريف الاجتماعي للحدث الجدير بالظهور «في الصفحة الأولى». إن الطريقة التي تختار بها وسائل الإعلام المشقات وتعالجها بها تعبر عن البيئة الصحفية، بقدر ما تعبر عن الفئات الاجتماعية المعنية[1].

صنع «الحدث»

يجدر بنا أن نحلل تنوع وجهات النظر الصحفية عن الأحداث، والذي يرجع بدوره إلى تنوع أشكال الصحافة. لكن هذا ليس موضوعنا هنا. ولكن يبقى أن الصحفيين مهما كانت وسيلة الإعلام التي يعملون بها، يقرأ بعضهم لبعض، ويستمع بعضهم لبعض أو ينظر بعضهم لبعض كثيراً فيما بينهم. «فاستعراض الصحافة» بالنسبة لهم ضرورة مهنية، لأنها تدلهم على الموضوعات التي ينبغي معالجتها لأن «الآخرين» يتكلمون عنها، ويمكن أن تقدم لهم أفكاراً لتحقيق صحفي، أو تسمح لهم على الأقل بتحديد مواقعهم والنظر من زوايا مبتكرة للتميّز عن المنافسين. ومن جهة أخرى، فليس لكل الرؤى الصحفية الوزن نفسه داخل المهنة وعلى الخصوص خارجها، في عملية صوغ التصورات الاجتماعية. فعندما نعيد ببرود قراءة أو مشاهدة كل ما كتب أو عرض حول أحداث كـ«حرب الخليج» و«حركة طلاب الثانويات» في تشرين الثاني 1990، أو «قلاقل فولكسان فيلان» مثلاً، يمكن بالتأكيد العثور هنا أو هناك على مقال و تحقيق سديدين. لكن هذه القراءة المستوفية

---

[1] إن هذه المشقات من خلال إخراج إعلامي، قد تعطي صورة تخيلية أحياناً للواقع. كما يظهره مثلاً استعراض تاريخي متلفز عرض من مدة قريبة يختزل تاريخ الشباب في العشرين سنة الأخيرة إلى تتابع صور جامدة من نوع جديد، حيث يتعاقب الهيبيون، وحفلات بوب ديلان، والملهاة الموسيقية (هير)، ومتشردون بوب، وموسيقى الروك، وحفلات س و س - عنصرية، وشباب من الضواحي يحرقون السيارات، والرؤوس الحليقة وغيرهم، للانتهاء بالأحداث القريبة، شباب يشعلون قداحاتهم في حفلة المغني باتريك برويل.

واللاحقة في نفس الوقت، تنسى أن هذه المقالات مرت دون أن تثير انتباهاً من الأكثرية الغارقة في جو لهجته مختلفة جداً على وجه العموم[1].

بيد أن وسائل الإعلام تفعل فعلها في اللحظة الراهنة، وتصنع بصورة جماعية تصوراً اجتماعياً يدوم حتى وإن كان بعيداً عن الواقع، على الرغم من التكذيبات أو التصحيحات البعدية، لأنه لا يؤدي في أكثر الأحيان إلا إلى تعزيز التفسيرات العفوية، ويستثير الأحكام المسبقة أولاً جانحاً بهذا إلى مضاعفتها. ويجب، علاوة على هذا، أن نضع في حسابنا الهيمنة التي يمارسها التلفزيون بشكل قوي داخل المجال الصحفي نفسه، لأن انتشاره الواسع -لاسيما فيما يتعلق بالجرائد المصورة-يمنحه وزناً هاماً وخاصة في تكوين التصور المسيطر للأحداث. وتؤدي الأخبار «موضوعة في صور» من جهة أخرى إلى أثر تضخيمي من شأنه أن يثير انفعالات جماعية بصورة مباشرة جداً. كما تمارس الصور أخيراً عملاً إيضاحياً قوياً جداً أكثر من الخطاب بدون شك، إذ أنها تبدو مشيرة إلى واقع لا ريب فيه على الرغم من أنها نتاج عمل اختيار وإنشاء صريحين بقدر يقل أو يكثر. ومع أن التلفزيون يتزود بالكثير من الصحافة المكتوبة أو من نفس مصادرها (برقيات الوكالات أساساً) إلا أن له منطق عمل وقيوداً ترمي بثقل قوي على صنع الأحداث. وهو يؤثر في المُشاهد العادي. لكنه يؤثر أيضاً على وسائل الإعلام الأخرى. وهكذا فلا يمكن لصحفيي الصحافة المكتوبة اليوم تجاهل ما كان (في الصفحة الأولى) لجريدة الثامنة المصورة بالأمس.

عندما قررت الجرائد المصورة مثلاً أن تغطي المظاهرات لطلاب الثانويات في تشرين الثاني 1999. كانت المسألة في الأصل حركة بسيطة محصورة في بعض المدارس الواقعة في ضاحية باريس الشمالية. تجمع

---

[1] لا يمكن رؤية أن هذه المقالات «سديدة» إلا بعدما نعرف المشكلة المطروحة بشكل كاف. أما في اللحظة، وحول موضوعات لا نعرفها جيداً أو لا نعرفها بتاتاً، فلا يمكن إلا الاعتماد على هؤلاء الذين يتحدثون عنها بشيء ما.

بضع مئات من طلاب الثانويات الذين كانوا يحتجون على نقص الأساتذة، وعلى الاعتداءات التي كان التلاميذ ضحايا لها -رأى عدد من المتخصصين التربويين في الصحافة الباريسية المكتوبة مثل هذه المعالجة الإعلامية غير مسؤولة، لتأثير الجذب الذي تجازف بإحداثه («لقد جنوا» «إنهم مجانين بافتتاحهم نشرة الثامنة بلقطات لذلك» «شعرنا بأن كل طلاب الثانويات في الشارع، بينما لم يكونوا يزيدون عن 3000»)[1]. على الرغم من أن صحافيي التلفزيون قرروا -بحسن نية دون شك- عرض بعض المشاهد حول الحركة في «الساعة الثامنة» فقد كان لديهم موضوع جيد وصور تلفزيونية جيدة («إن صحفيي التلفزيون، كما يشرح صحفيون من الصحافة الباريسية المكتوبة، لا يعرفون كيف يوضحون مشكلات التربية أبداً، فهم يطلبون منا أفكاراً للإيضاح غالباً»). وقد كانت في ذاكرتهم من جهة أخرى على الأرجح مظاهرات طلاب الثانويات والجامعات التي جرت في تشرين الثاني 1986 والتي بدأت هي أيضاً، في نفس الوقت من السنة الدراسية، بإضراب محدود في مؤسسة تربوية واحدة. وقد كان منطق السوابق الحاضر دائماً في أذهان أكثر الصحفيين، بالإضافة إلى همّهم بأن لا يتخلفوا عن تغطية ثورة، واعتقادهم المخلص بأنهم يشاهدون من جديد بوادر حركة احتجاج واسعة، كان كل ذلك كافياً على الأرجح لتفسير المعالجة المتميزة التي خصوا بها تلك الاحتجاجات المحدودة فور حدوثها. وفعلاً، فبقدر تزايد إضرابات الثانويات تحت تأثير التغطية الإعلامية ولاسيما التلفزيونية -«لقد شكل التلفزيون نوعاً من المقياس للحركة. فبما أنهم يتحدثون عنها في الجريدة المصورة، فعلى الجميع أن يدلوا بدلوهم» كما يقول صحفي باريسي كان يغطي الحركة- كان ضغط رؤساء التحرير يزداد على (أصحاب الزوايا) المكلفين بالتربية وهم يدفعونهم إلى الكتابة بعمق عن هذا الموضوع. وإذا كان بعض الصحفيين المتخصصين قد أبدوا بعض التردد في الكتابة عن هذه

---

[1] يرجع الفضل في هذه الملاحظات للمقابلات التي أجرتها دومينيك ماريشيتي مع الصحفيين، في إطار التحقيق الذي أشرفت عليه حول حركة الطلاب الثانويين، وسيتم فيما بعد عرض أكثر تفصيلاً لهذا العمل.

الأحداث فإن مرد ذلك لم يكن فقط لمؤهلاتهم التي لم تهيئهم للاندهاش بسهولة[1]، وإنما لأن هذه الحركة التي صنعها التلفزيون عموماً غير قابلة للاستيعاب؛ فلم يستطيعوا فهمها أو تحديد مسؤوليها وأهدافها. ومع ذلك ونتيجة اضطرارهم للتحدث عنها بدورهم، فقد أسهموا دون قصد بإعطاء الأهمية لما أصبح هذه الأثناء من الوجهة الإعلامية مشكلة مجتمع حقيقية هي «شقاء طلاب الثانويات» و«الشباب» بصورة أعم. ولم يستطع المسؤولون الشباب عن التنسيق بين الثانويات الذين برزوا من الحركة في الوقت المناسب، واعتمدوا في استراتيجيتهم الإعلامية على كبار أكثر خبرة منهم (مسؤولين في الحزب الشيوعي وس وس - عنصرية والحزب الاشتراكي. إلخ) إلا أن يأخذوا أنفسهم بجدية وهم يتكلمون في «الجمعية الوطنية للثانويين»، كما يفعل رجال السياسة على منبر الجمعية الوطنية عند النقل المباشر بعد ظهر الأربعاء. ويحكي صحفي في يومية باريسية مشهورة، كان خالطهم أثناء الأحداث قائلاً: «أخذ مسؤولو التنسيق يعتبرون أنفسهم نجوماً، فلقد نُظِر إليهم بجدية أكثر من اللازم. وصاروا لا يتوجهون بكلامهم إلا إلى التلفزيون، وكانت تلك نجومية مفرطة، كما اعتبروا أن كل شيء مسموح به لهم، إذ ذهبوا إلى الإليزيه، وتناولوا الفطور مع جوسبان». وهكذا نفهم أن هذه الحركات باعتبارها نتاجاً لوسائل الإعلام في جزء كبير منها، تختفي سريعاً عندما تتوقف هذه الوسائل عن الحديث عنها. ومن هنا فليس علينا التساؤل -كما يُفعل عموماً- عما يهم الصحافة. بل أيضاً عن العمليات التي تقود الصحفيين شيئاً فشيئاً إلا اللامبالاة إزاء أحداث ساهموا من قبل في إنتاجها.

يحكي صحفي شاب يعرف جيداً مجالس تحرير محطات الإذاعة

---

[1] شرح لي رئيس إحدى اليوميات الباريسية قائلاً بأن المتخصصين باعتبارهم على معرفة جيدة بميدانهم، فإنهم لا يلتفتون عموماً إلى ما هو غير عادي. وبما أنهم يشغلون بتواضع الصفحات الداخلية لصحفهم، فهم يميلون إلى امتهان كل شيء ومن العسير إدهاشهم. ومن هنا فإن رؤساء التحرير وهم أكثر حساسية للوضع الذي أحدثته الجرائد المصورة هم الذين ينبغي عليهم دفع متخصصيهم إلى اتخاذ موقف.

الخاصة متفكهاً «هناك دائماً محرر في اجتماع المحررين لمحطة ما سيقول: «يكفي الآن، لقد أزعجنا الناس بما فيه الكفاية، والضواحي بدأت في إزعاجنا أيضاً. لقد سئمنا كل هذا؛ فلننتقل إلى شيء آخر» وهناك دائماً شيء آخر في الأحداث سيأخذ الدور. فصحيفة لوموند ستهدئ، وستبحث ليبراسيون عن التفسيرات. وتحلل وتعمل في الميدان. أما أولئك الذين يعملون على الفتن والإثارة فربما ينطلقون من جديد، لكن لن يتبعهم أحد».

موضوع زائف

إن ما يسمى «حدثاً» ليس في النهاية إلا نتيجة تعبئة -قد تكون عفوية أو بعمل تحريض- تقوم بها وسائل الإعلام حول شيء، تتفق على اعتباره كذلك لوقت ما. أما عندما يكون الناس الهامشيون أو المنكودو الحظ هم الذين يجذبون اهتمام الصحافة، فإن تأثيرات الضجيج الإعلامي ستكون بعيدة عما يمكن أن تنتظره هذه الفئات الاجتماعية، لأن الصحفيين يملكون في هذه الحالة سلطة تأليف جد هامة. وبهذا يكاد الحدث يفلت تماماً من هؤلاء الناس.

إن تطور خطاب جديد في الصحافة عن «ضواحي ذات مشكلات» إنما تم في بداية سنة 1980، نتيجة للحوادث المفاجئة في حي مينجيت -وهو حي في فينيسيو من ضواحي ليون، ذو كثافة سكانية عالية من المهاجرين- وقد غطيت هذه الحوادث المروّعة (سيارات محترقة، متاريس، رمي مقذوفات مختلفة وكوكتيل مولوتوف على قوات الشرطة.. إلخ) تغطية واسعة من قبل مجموع الصحافة، لافتة الأنظار بشكل فجائي إلى فئة جديدة من الناس وهي فئة الشباب المتحدّرين من عائلات مهاجرة («البور») ويعانون من الإخفاق المدرسي وبالتالي فهم بدون تأهيل ولا عمل. وثم الحالة المزرية أيضاً لبعض الضواحي، وتلف البنايات التي أُفسدت عمداً وتُركت وشأنها من قبل مؤسسات السكن الشعبي. وقد اعتُبرت هذه الحوادث التي تفجرت بعد شهرين من وصول الاشتراكيين للحكم، تحدياً سياسياً حقيقياً لحكومة اليسار. مما أدى إلى اتخاذ عدة إجراءات مختلفة تستهدف إعادة الاعتبار

لهذا النمط الجديد من أحياء الصفيح التي أعيد تكوينها شيئاً فشيئاً في بعض أحياء (السكن المعتدل الكراء). وأُنشئت من جهة أخرى هياكل لتأطير الشباب العاطلين نتيجة الإخفاق المدرسي، لتشجيعهم على التكوين المهني والاندماج في سوق العمل. وتمّ تنسيق مجموع هذه الأعمال ضمن ت. أ. أ (التنمية الاجتماعية للأحياء) وشمل هذا النمط من العمل 400 منطقة في عام 1990.

لكن مشكلة الضواحي أُثيرت من جديد من قبل وسائل الإعلام، بصدد الحوادث التي جرت في تشرين الأول 1990، ضمن بلدية فولكسان فيلان التي توجد أيضاً في ضواحي ليون والمصنّفة كمنطقة (تنمية اجتماعية للأحياء) منذ عام 1987. أقيم في نهاية أيلول 1990 احتفال في ماس دو تورو وهو حي أُعيد الاعتبار له حديثاً، أمام المركز التجاري الذي شُيد منذ سنة وسط منطقة سكن شعبي. وبحضور شخصيات سياسية من الصف الأول، دُشّن جدار للتسلق واحتُفل بنجاح عمليات إعادة الاعتبار. وبعد أسبوع، وأثناء عملية مراقبة كانت تقوم بها الشرطة، انقلبت دراجة نارية وقُتل راكبها الخلفي، وهو شاب في الثامنة عشرة من عمره، إيطالي الأصل ومصاب بشلل الأطفال؛ فتجمع حوالي المائة من شباب الحي وأوسعوا رجال الشرطة شتماً لأنهم اعتبروهم مسؤولين عن المأساة، واشتبهوا في أن رجال الشرطة يحاولون إخفاء ما يظنون أنه «تجاوز» بصورة مجرد حادث. وتوتر الوضع، ففي مساء نفس اليوم قُذفت الحجارة وأُحرقت ثلاث سيارات (وذلك ليس استثنائياً في هذا الحي). وقد بثت الصحافة المحلية، التي تتنصت باستمرار على محادثات الشرطة بوساطة (أجهزة استقبال عالية الذبذبة)، الخبر سريعاً بالصيغة الرسمية للحادث، ونقلته وسائل الإعلام الوطنية المساء نفسه. في صباح الغد، أخذ شبان بين 14 و20 عاماً يقذفون مخفر الشرطة في فولكسان فيلان بالحجارة (لإخراج رجال الشرطة المحتمين في الداخل) ومن ثم أُلقيت حوالي الظهيرة سيارة مسروقة على المركز التجاري في ماس دو تورو فاحترق مع بعض الدكاكين الموجودة في الساحة. وقام الشبان بصدّ رجال الشرطة ورجال المطافىء والصحفيين،

بينما كان العديد من سكان الحي وغيرهم يحاولون، في جو مرح، الاستفادة من الوضع ونهب بضائع مختلفة كان مصيرها التدمير في الحريق على كل حال. وقد روى أحد الصحفيين القلائل الذين كانوا في المكان وهو من الصحافة المحلية، أنه رأى صبياناً يخرجون من الدكاكين وأيديهم ملأى بالحلوى وعلب السجائر أو الأحذية الرياضية بينما كانت سيدة عجوز تمسك بباب المجمع التجاري لتسهيل خروج العربات المحمّلة المتجهة بسرعة إلى صناديق السيارات. وعلى كل، فإن كان هناك نهب لا شك فيه للمجمع التجاري مع سبق الإصرار على الأرجح[1]، إلا أنه من المبالَغ فيه التحدث عن (فتنة) كما فعل صحفيو الصحافة الباريسية وصحفيو التلفزيون خصوصاً.

إن المقهورين هم أقل الناس قدرة على التحكم بتصوراتهم لأنفسهم. ولا يمكن أن يكون مشهد حياتهم اليومية بالنسبة للصحفيين إلا تافهاً وعديم الأهمية. ولأنهم يعانون الفقر الثقافي، تراهم عاجزين أيضاً عن التعبير عن أنفسهم من خلال الصيغ التي تقتضيها وسائل الإعلام الكبرى، كما يصرح مسؤول سياسي يظن نفسه معبراً عن رأي المحترفين في التلفزيون قائلاً: «لا ينبغي لكل من يأتي لبرنامج تلفزيوني أن يروي أحواله النفسية أو يعطي رأيه، بل يجب أن يتعلم التعبير بجلاء».

قبل أيام من الأحداث، اقترحت وكالة صحفية من ليون متخصصة في العمران بمبادرة منها، إجراء تحقيق حول الوضع في الضواحي، دون أن تنجح عندئذ، إذ كانت الإجابة «إن هذا ليس مهماً فلا يجري شيء..». فمنطق التنافس يدفع الصحفيين إلى العمل في «الأوضاع الساخنة» والذهاب إلى «حيث يجري شيء ما». ولذا أدت أحداث فولكسان فيلان المأساوية، في زمن قصير، إلى الكثير من التقارير الصحفية والمتلفَزة، استهدفت التكلم عما ليس على ما يرام في هذه الضاحية وتفسيره. ومع أن الملاحظة المتأنية للحياة العادية في هذه الضواحي هي أبلَغ توضيحاً، إلا أن

---

[1] قال لنا سكان من فولكسان فيلان بأنهم سمعوا قبل المأساة التي استعملت مبرراً أو فتيلاً بوقت طويل، شباناً ينوون عملية كهذه. وقال لنا صحفي في نفس المعنى كان موجوداً قبيل نهب المجمع التجاري، بأن شباناً نصحوه بالبقاء في المكان لأن أشياء ستحدث.

الصحفيين يميلون إلى تركيز اهتمامهم على العنف المروّع وبالتالي الاستثنائي[1]. وهكذا تصطنع وسائل الإعلام، للجمهور العريض غير المعني مباشرة، تقديماً وتصوراً للمشكلات يُبرز ما هو غير عادي. فلا يذكر الجمهور من بعدُ إلا أعمال العنف والمواجهات مع رجال الشرطة وأعمال التخريب؛ كمركز تجاري يحترق أو سيارات تشتعل، ويقدم خليطاً من الأسباب لهذه الفوضى، كالتفسيرات التي استقتها الصحافة وتجاوزات الشرطة والفراغ لدى الشباب والجنوح و«شقاء العيش» في هذه الضواحي، وظروف المسكن بالإضافة إلى إطار الحياة الكئيب وغياب هياكل الرياضة والتسلية والتركيز المفرط للسكان الأجانب.. إلخ.

حلقة مفرغة

إذا كان هذا التصور لا يترك مجالاً كبيراً للمقهورين فذلك لأن من العسير سماعهم. إذ يُتحدَّث عنهم بأكثر مما يتحدثون. وعندما يخاطبون المهيمنين، يميلون إلى خطاب مستعار هو الخطاب الذي يستعمله هؤلاء المهيمنون عندما يتحدثون عنهم. وهذا صحيح بصورة خاصة عندما يتحدث المقهورون للتلفزيون، إذ نسمعهم يرددون الخطابات التي سمعوها بالأمس في الجريدة المصورة أو البرامج الخاصة عن شقاء الضواحي، متكلمين عن أنفسهم أحياناً بصيغة الغائب («الشباب يريدون محلاً يجتمعون فيه» يقول أحدهم مثلاً في تقرير متلفَز). إن الصحفيين، بصورة أدق، يميلون دون وعي منهم إلى التقاط خطاباتهم الخاصة حول الضواحي، ويجدون دائماً أناساً يتسكعون في الأحياء، مترقبين وسائل الإعلام ليقولوا لهم كل ما يرغبون في سماعه «من أجل الظهور في التلفزيون».

---

[1] وهكذا فإن قناة تلفزيونية طلبت مثلاً من وكالة فيديو في ليون اليوم التالي لحريق المركز التجاري، تقريراً متلفزاً، عن «المخربين وتجار المخدرات في فولكسان فيلاّن حتى ولو كانوا مقتنعين»، لكن المسؤولين الذين أوكل لهم هذا التحقيق وهم أيضاً من أصل جزائري، حولوا الطلب عن هدفه واتجهوا لمحاولة إفهام الناس حياة الشباب في هذه المجمعات الكبيرة، عوضاً عن الإذعان لإثارة مصطنعة قليلاً أو كثيراً، وتقريرهم الذي تناول حالة ثلاثة من شباب (البور) – ليسو مخربين ولا تجار مخدرات، بل مجرد عاطلين ومنشطين – لم يبث حتى هذه الساعة.

إن (التحقيق) ذا النمط الصحفي هو عموماً أقرب إلى التحقيق الذي تقوم به الشرطة منه إلى ما يسمى (تحقيقاً) في العلوم الاجتماعية. يصدُق هذا على الصحفي الكبير الباريسي، كما يصدُق على صاحب الزاوية المتواضع في صحافة الأقاليم. إذ لم يعد عالِم الاجتماع هو النموذج بل صحفي «الاستقصاء» الذي يتوصل أحياناً «إلى تجاوز» الشرطة. ومن جهة أخرى، فإن هاجس وسائل الإعلام الكبرى (كالتلفزيون ووكالات الصحافة أيضاً) (التجاري في الأغلب) بأن لا تنحاز إلى طرف أو ألا تصدم جمهوراً غير متجانس اجتماعياً، يقودها إلى عرض كل وجهات النظر عرضاً مصطنعاً وحيادياً. وبما أن التحقيق الصحفي يشابه التحقيق القضائي، فإن الموضوعية تقتضي إعطاء الكلام لكل الأطراف المعنية، كما في أية دعوى. ولهذا يسعى الصحفيون علانية للحصول على ممثلين للدفاع أو الاتهام في كل حالة أي من «مع» ومن «ضد». والرواية الرسمية للحادث بالإضافة إلى رواية الشهود. أما العمل في الميدان بالمعنى الدقيق فيقتصر، نظراً لطبيعة الأشياء، على بضعة أيام، إن لم تكن بضع ساعات يقضيها الصحفيون في المكان «لإعطاء شيء من الحيوية» للتقارير، مع سيناريو عموماً، يؤلف مسبقاً في اجتماعات هيئة التحرير، عليهم أن يقدموا الإيضاحات اللازمة له[1].

وقد يتمكن الصحفيون أحياناً من التسبب بواقعة على المقاس من أجل وسائل الإعلام. فقد أخبر صحفي من وكالة أنباء فرنسية في ليون مثلاً، بأنه بعد الأيام الساخنة في فولكسان فيلان، تقوم الصحافة جميعها بمراقبة المحلة انتظاراً لحوادث جديدة. وأن وجود الصحفيين بحد ذاته يؤدي إلى إشعال الحوادث المنتظرة[2]. وحتى عندما لا يجري أي شيء،

---

[1] لا حاجة لي للتنبيه إلى أن هذه الملاحظات لا تشكل «نقداً» (بالمعنى الصحافي المألوف للكلمة) لمهنة الصحافي، فمن المعروف أن هذه المهنة ليست دون مخاطر جسدية، وعديدون هم الذين دفعوا حياتهم ثمناً لها. فما نريده هنا هو التذكير بالضغوط المختلفة التي تثقل العمل الصحافي والآثار العقلية التي تؤدي إليها.

[2] من المعروف أن صحافيين من التلفزيون كثيراً ما يدفعون «لإعادة تمثيل» حادثة ما، دون ذكر ذلك مثل (شباب يشعلون النار في سيارة أو يرشقون الجدران بالطلاء أو يقومون باعتداءات.. إلخ) بحجة أن هذه الممارسات تحدث على كل حال وإذن فهم لا يغشون حقاً في الخبر، دون أن يروا أنه ينبغي البحث عن الخبر الحق في جهة أخرى.

فالآلة الصحفية تميل للدوران في الفراغ، وهكذا فعندما أرسل مراسل تلفزيوني إلى إحدى الضواحي لتغطية بعض الحوادث، أنذره رئيس التحرير من باريس بأن عليه التدخل مباشرة أثناء بث الجريدة الليلية المصورة لدقيقتين، حتى ولم يحدث شيء، بحجة استثمار الوسائل التقنية المكلفة التي أرسلت إلى المكان. ومع أن عدداً من الصحفيين يسعون لفهم ما وراء الحدث، فإن كل شيء يعيدهم إليه. («إن الحوادث المتنوعة تكشف عن المشكلات الحقيقية. إذ ينبغي التعمق، لكن لاوقت لدينا، ثم إن حدثاً يطرد الآخر») يقول مثلاً صحفي في الصحافة الإقليمية بليون. ومن هنا عليهم الذهاب إلى حيث يوجد الزملاء، يحدوهم التنافس.

«إذا ما أحسنت قناة أخرى العمل، يقول لك رئيس التحرير «لكن ماذا تفعلون؟ عليكم الذهاب» كما يحكي صحفي في التلفزيون «لقد ركزنا اهتمامنا على فولكسان فيلان. كما يقول صحفي من وكالة الأنباء الفرنسية بليون، فما أن يحدث شيء هناك حتى نتحدث عنه، ليس لأهميته، بل لأنه حدث في فولكس. لكننا لم نكن نعلم أن أشياء أسوأ تحدث في ضاحية مرسيليا. وباريس (هيئات التحرير الباريسية) تدعم ذلك، وتؤدي المنافسة إلى المزاودة ثم الخطأ. وتصعب علينا المقاومة، لأن لدينا زبائن متلهفين، ويريدون أي شيء من «فولكسان فيلان»، حتى أننا نتساءل أحياناً، فيما إذا كان من الواجب الإبراق عن سيارتين محترقتين (..) لقد كتبت مقالاً معمقاً بعد شهر. إلا أن الحادثة لم تعد تهم أحداً والقراءة أقل عنها، وَوَقْعُ التوضيح الذي يمكن أن يعمل عنها في هذه الآونة أقل أيضاً».

وإذا ما فتحت حوادث فولكسان فيلان المجال لتغطية صحفية مكثفة، فذلك لأنها كانت متناغمة أيضاً مع عدد من المشكلات المنتشرة إعلامياً، كالبطالة والضواحي الكئيبة، والمهاجرين، وانعدام الأمن، والمخدرات، والعصابات، وجان – ماري لوبين، والأصولية.. إلخ. لكن هذه «التغطية الإعلامية» كانت، عوضاً عن الإفهام، فرصة على الخصوص لرؤية انبعاث قوالب الأفكار النمطية المتعلقة بالضواحي والمجمعات الكبيرة، التي تراكمت منذ ثلاثين سنة بصدد حوادث سابقة، وأسقطت على فولكسان فيلان، مع

أن هذه القوالب كانت بوضوح غير مناسبة لعرض ما حدث. فقد استنكر الصحفيون مشكلة «الأحياء - المهاجع» بينما كانت المنشآت التي أحدثت بالمحلة في ازدياد. واستأنف آخرون الخطاب المتعلق بأمراض الضواحي التي تنقصها الروح والتناسق، وبرتابة الحياة اليومية وفقدان الإنسانية في المدن؛ في الوقت الذي قامت المحلة فيه ومنذ ثلاث سنوات بعملية هامة لإعادة الاعتبار للسكنى الشعبية، كما أعادت إقامة مركز تجاري نشيط جداً.

وعوضاً عن أن ترتبك وسائل الإعلام من تناقضاتها تلك، كانت، على العكس، تتحدث عن «غرق الأفكار الجاهزة العظيم». تلك الأفكار التي تقوم على الاعتقاد بأن من الممكن «إعادة الحياة للمجمعات الكبيرة عن طريق الملايين، بإعادة طلاء أقفاص الدرج وغرس الأحواض باليخضور». وجعلت أكثر وسائل الإعلام من نفسها صدى، لأولئك الذين يعيدون طرح السياسة العمرانية على بساط البحث، مندّدين بالمهندسين المعماريين الذين بنوا هذه المدن؛ مدن الرفض واليأس وانعدام الحوار. والجميع في النهاية، يستذكرون، بما أن عليهم تقديم تقرير عن أصل تلك الأحداث -أي مراقبة الشرطة التي آلت إلى نهاية سيئة- الجفاء المستديم بين الشباب والشرطة. فالعلاج إذن يكمن في استعادة الحوار والثقة. وقد توسعت الصحف المختلفة في هذه الأمور بالطبع، كل على حسب خياراته الإيديولوجية الخاصة. فصحيفة ليبيراسيون مثلاً، ركزت بصورة خاصة على تجاوزات الشرطة، مذكِّرة بالقائمة الطويلة لضحايا المراقبات الشرطية (عشر خلال عشر سنوات) التي غذّت -كما تقول الصحيفة- غضب المشاغبين الشبان ضد الشرطة. وأخذت جانب المتمردين وهي تذكر «بنفاد الصبر في المناطق ذات الأولوية العمرانية» التي بنيت خلال جيل، وتطرح اليوم مشكلة اندماجها. وتمنّت الصحيفة أن «تقدم الدولة شيئاً آخر، غير القنابل المسيلة للدموع لهؤلاء الصبيان الذين يحرقون كل شيء».

وكتب مدير الصحيفة سيرج جولي، بعد أسبوع من «الفتن»، افتتاحية تعج بالمشابهات الوحشية القمينة بإيقاظ الأوهام الجماعية، يعطي فيها

لفولكسان فيلان وصفاً جديداً ضمن التاريخ الصحفي للكوكب الأرضي: «كل شيء في هذه القصة عبرة (..) إنها تعود بنا إلى نقطة الانطلاق: التفرقة العنصرية التي يؤكدها مشهد عمراني مفكك الأوصال، متشح بالسواد (..) عاصمة حقيقية لهامش اجتماعي بدون هوية (..) إن فولكسان فيلان هي التعبير اليائس عن تفكك اجتماعي لا يمكن علاجه. إن ظل العالم الثالث يخيم على هذه الضواحي، إذ أن فتن الأيام الأخيرة بما رافقها من نهب، تستعير من الانتفاضة الفلسطينية بقدر ما تستعير من انتفاضة الغذاء في كاراكاس». أما الفيجارو، فمن خلال نظرة مقابلة، لكنها مكملة للسابقة لا تريد أن ترى -على العكس- شيئاً آخر سوى نشاط حفنة من المشاغبين المحترفين الذين يسعون بالعنف لإقامة الثورة (الإسلامية)، واصفة بإسهاب مشاهد النهب وعدوانية المتظاهرين. ومذكرة بأن ظاهرة الجنوح اليومي هامة في هذه الناحية. وترى أن التمرد زاد عن الحد، منددّة بالفارق الموجود -كما تقول- بين ما تسميه «تشدّق المطلعين» (أي خطاب اليساريين وعدد من العاملين الاجتماعيين، الذين يتكلمون عن صعوبة الحياة في الضواحي) وخطاب سكان الضواحي الذين لم يثيروا مشكلة ظروف الحياة في حيهم. أما الصحف الإقليمية (ليون ماتان، ولوبرجريه دوليون) فتبقى أقرب إلى الوقائع وتستهجن خلال كتابتها بعض تخمينات الصحفيين الباريسيين، لافتة الانتباه إلى أن وراء الكلمات المألوفة مثل «غيتو، المدن المهاجع، المهاجرون البائسون، الشرطة الوحشية، العنف في الضواحي». هناك واقع عادي وبسيط: «حادث وتهيج، واستغلالهما من قبل جانحين صغار ومنظمين، في ناحية تعتبر قدوة في الجهود المبذولة (إعادة اعتبار، رياضة، جمعيات). إن الفارق بين تصور الواقع، والواقع كما تعرضه تحقيقات أكثر تأنياً، هو أكبر في المعالجة التلفزيونية للحوادث[1]. إذ كان اهتمام الصحفيين منصبّاً

---

[1] وهكذا تلتقط صورة المركز التجاري المحرق من كل الزوايا، فتعطي الانطباع بأنها المنطقة كلها التي تشتعل. وقد خصص برنامج تلفزيوني في FR3 بعنوان «لماذا كل هذه الكراهية» بعد وقت قصير من الأحداث، ضمن البرنامج الاستعراضي («يا للسماء. الثلاثاء»)، ونظمت TF1 بعد يومين من (الفتن) مناظرة دعي إليها مخربون على الخصوص (أو مفترض أن يكونوا كذلك) وجوههم مقنعة حيث تحدثوا بخطاب الإنسان الهامشي النمطي الذي يستثيره في جزء كبير منه التلفزيون. وقد قال لنا بعض سكان فولكسان فيلان أن بعض صور التلفزيون زرعت قلقاً عميقاً بين أفراد من أسرهم يقيمون في أماكن أخرى.

على المصادمات أكثر من انصبابه على الوضع الذي أدى إليها. لأن هذه المصادمات غدت أعراضاً لأزمة مجتمع أكثر شمولاً، ينبغي علاجها بصرف النظر عن الأوضاع المحسوسة[1]. ومن المفارقات، أن الصحفيين في تحقيقاتهم المحلية لا يعيرون إلا القليل من الانتباه للمعطيات المحلية. ولذا يمكن للحدث الإعلامي الذي يصطنعونه القيام بدور نوع من الرائز الإسقاطي حيال مختلف العاملين الاجتماعيين الذين يسألهم الصحفيون، فكل منهم قادر أن يرى فيه تأكيداً لما كان يفكر فيه منذ زمن طويل.

الوصمة

على الرغم من أن أكثرية الصحفيين يرفضون ويدينون الممارسات الأكثر إثارة على الريبة في مهنتهم، ويعترفون طواعية بوجود تحريف لا مناص منه حتى في معالجة تطمح بأن تكون نزيهة للأخبار، فهم يرون مع كل هذه الصعوبات والانحرافات أن لا شيء أسوأ من السكوت. ومع أن وسائل الإعلام لم تقارب مشكلة الضواحي كما كان يجب عليها أن تفعل، ومع أنها اعترفت بأنها فضلت بعض المظاهر الهامشية أو التافهة لأنها مثيرة، على حساب الواقع العادي واليومي، يبقى أنها تعتبر نفسها مجدية لمجرد كونها أسهمت في طرح المشكلة بصورة علنية على الأقل. إن هذا التفاؤل يبدو على الأقل مفرطاً، لأنه لا يضع في حسابه، على الأخص، تأثيرات ذات طبيعة رمزية، تكون شديدة الوطأة عندما تمارَس على أناس يعانون الفقر الثقافي. يسلّم المسؤولون في بلدية فولكسان فيلان بأن الأحداث أوجدت وضعاً ملحّاً سمح بالإفراج سريعاً عن الاعتمادات المخصصة لعمليات إعادة الاعتبار والعمل الاجتماعي. وهذه هي النتيجة الإيجابية الوحيدة دون شك (ومع ذلك، ينبغي معرفة المستفيد الرئيسي من

---

[1] في هذا السياق، يدأب الصحفيون على قراءة كل حادثة، ويكتشفون خيطاً يسحبونه، أو منجماً يستغلونه، انطلاقاً من القوالب النمطية العنصرية وأوجاع الضواحي، حدثني مفوض شرطة في شمال فرنسا بأن حادثة انتقام عادية صارت في صحافة «ترى فولكسان فيلان في كل مكان» «جريمة عنصرية» تعبر عن «وجع الضواحي» وذلك لأن المتورطين في الحادثة كانوا يوغسلافيين. ووقعت في منطقة سكن شعبي.

هـذه الإجـراءات). لكن فـي المقـابل، دُفِـع ثمـن هـذه الميزة المادية الآنية غالبـاً علـى الصعيد الرمـزي. وسكان هـذه الأحيـاء لـم يخطئـوا بشـأن هــذا الثمـن، عندما نرى الاستقبال السلبي أكثر فـأكثر، الـذي يقـابَل بـه بعـض الصحفيين بعد الأحداث، والذي يعبر عن الثورة العاجزة لأناس يشعرون بأنـهم قـد غُـدِر بهم. إن الصحفيين منبـوذون بـالطبع مـن قِبـل الشـبان الجـانحين الذيـن لا يرغبـون بـأن تتعـرف الشـرطة عليـهم، وتسـجلهم فـي محفوظاتـها. لكنـهم منبـوذون كذلـك مـن قِبل سـكان هـذه الأحيـاء الـذي يـرون التقـارير المتلفـزَة ومقـالات الصحـف اصطناعـاً لصـورة جـد سـلبية للضاحيـة. وهكـذا، يـا للمفارقة، فبدلاً من أن تسـاعد وسـائل الإعـلام سكان هـذه الضواحـي فإنـها تسـهم فـي وصمـها، إذ تقـدم هـذه الأحيـاء وسـخة وكئيبـة وسـكانها جـانحون. ولـذا لـم يعـد الشـباب الذيـن يبحثـون عـن عمـل يجـرؤون علـى القـول بأنـهم يسكنون أحياء مشبوهة بالإجماع، لأنها شغلت الصفحات الأولـى مـن وسـائل الإعلام. ينقل صحفي مـن التلفزيـون مثـلاً أن فريقـاً مـن المراسلين من شتى أنحـاء العـالم زار حـي شـامارد القريـب مـن درو وذلـك لأن درو صـارت رمـزاً لصعود الجبهة الوطنية. إن عملية الوصم اللاإرادية دون شك والناتجة عن طبيعة عمل الميدان الصحفي نفسها، تمتد آثارها إلى أبعد من الأحداث التي سببتها، وتصم هؤلاء الناس حتى وهم خارج حيِّهم. وهكذا نشـرت برقيـة فـي الصحافـة كلـها لأنـها تتحـدث عـن حادثـة فـي منـزل للشـباب فـي جـارد تـورّط فيها شباب من فولكسان فيلان. كما وقعت على شباب مـن فـال فوريـه كـانوا بعطلة في الجوار، طوال إقامتهم، اعتداءات متنوعة وإهانات من قِبل السكان المحليين الذيـن داخلتهم الريبـة وسـوء الظـن، منـذ أن غطّت وسـائل الإعـلام (ولاسيما التلفزيون) باستفاضة، حوادث هـذه الأحياء، وهكذا كـان مـن شـأن الوضع المتوتر الذي خُلق أن يؤدي في حد ذاتـه، إلـى إشـعال حـوادث جديـدة، أتت بشكل دائري، لتؤكد الآراء النمطية الأولى لوسائل الإعلام.

ترفض فئة قليلة من سكان هـذه الأحياء بقـوة هـذه النظـرة الصحفيـة للضواحـي. هـذه الفئـة هـي الأكثر تسيّساً والأكثر نضالاً تسـتنكر أيضـاً تلـك النظـرة «لو كانت الضـاحية التي أسكنها كما تقـول الصحـف حقـاً، فلـن أرغـب

في سكناها أبداً» «أقاربي لا يريدون المجيء لزيارتي هنا، إنهم يعتقدون أن المكان مَهلكة حقيقية، وأن النساء يُغتصبن على قارعة الطريق»، «إن هؤلاء الناس الذين لا يقولون إلا حماقات وأسميهم صحافيين، ليُتركوا وشأنهم يقولون ما يشاؤون، ولكن لنُوضَع وجهاً لوجه الآن لنرى فيما إذا كنا متفقين أم لا. لن نصل إلى مستوى العنف لأنني لست عنيفاً وأحسن الكلام». حتى أن جمعية من السكان تكوّنت للكفاح ضد الصورة الموصومة التي تعطيها وسائل الإعلام لفولكسان فيلان، وإعلام الناس بأن هذه المحلة ليست أسوأ من مدن أخرى. يبقى أن الأكثرية ولاسيما لأنهم من الفقراء ثقافياً، يقبلون بهذه النظرة لأنفسهم، التي يصنعها متفرجون منحازون يتلذّذون شيئاً ما بالتلصص على الآخرين، هم الصحفيون حتماً («إنه غيتو»، «إننا غير جديرين بالاحترام» إلخ).

كان عدد من سكان فولكسان فيلان من أول المندهشين للأحداث، حتى أن بعضهم كاد يشعر بالخزي لما حدث في محلتهم. وقد تحدث تجار عن علاقات جيدة مع الشباب، ويجد المعلمون وصف ما حدث بأنه «انفجار اجتماعي» مبالغ فيه، على الرغم مما يواجهون من صعوبات كبيرة في المدارس. ويشير بعض السكان بأسلوب أكثر بساطة إلى أن الاضطرابات في الواقع من فعل أقلية -حفنة من الشباب تعرف الشرطة أكثرهم- وأن نهب المركز التجاري ليس إلا استغلالاً لحادث مؤلم (مراقبة الشرطة) من قبل جانحين بالغين، أكثريتهم من خارج فولكس. أما الصحفيون المحليون، فعلى الرغم من الإغراء بإعطاء الأهمية لهذه الأحداث، إلا أنهم لم ينخدعوا، وكانت رؤيتهم أقرب إلى رؤية السكان: «عندما أتجول في فولكس، لا أسمّي هذا الحي غيتو، لأنني رأيت عشرات أسوأ. ينبغي إذن معرفة ما وراء الكلمات. لقد حطّوا من شأن الضواحي» (صحافي من الصحافة الإقليمية بليون) «إن الأسوأ ربما، هم الصحفيون رعاة البقر، الذين يظنون أنفسهم نجوماً، أولئك الذين كانوا في الخليج والآن ينشغلون بالضواحي، ثم بطلاب الثانويات». (صحفي باريسي من الصحافة المكتوبة).

الثابت أن وسائل الإعلام تشكل منذ الآن جزءاً متمماً للواقع، أو أنها، إذا أردنا، تنتج تأثيرات واقعية بخلق رؤية إعلامية للواقع، تسهم في خلق الواقع الذي تدعي وصفه. فالمصائب ولا سيما المطالب عليها تعبر عن نفسها إعلامياً حتى تأمل في وجود علني، وتؤخذ بنظر الاعتبار، إن بصورة أو بأخرى من السلطة العمومية. إن منطق العلاقات التي استتبت بين السياسيين والصحفيين والمتخصصين في (الرأي العام) قد فرض نفسه لدرجة يصعب معها سياسياً الحركة خارج وسائل الإعلام أو بالأحرى ضدها. لذلك كانت السلطة السياسية مهتمة دائماً بالصحافة، عن طريق السعي إلى السيطرة على ما يسمى (الوقائع)، إذا لم تسهم بمساعدة ملحقيها الصحفيين على خلق هذه الوقائع بنفسها. فالمسؤولون السياسيون لا يحبون أن تفاجئهم الأحداث أو تتجاوزهم، ويسهرون على أن لا يفرض الآخرون عليهم في حالة الاستعجال وتحت الضغط تعيين المشكلات الاجتماعية الراهنة ومعالجتها. إنهم يريدون، باختصار، أن يظلوا أسياد جدول أعمالهم، ويتخوفون خصوصاً من هذه الأحداث التي تبرز فجأة (حادثة محلية تتفاقم) لتوضع في صدارة الوقائع السياسية، لأن الصحافة المكتوبة والجرائد المصورة استحوذت عليها[1]. من المعروف مثلاً، أن بعض المنشآت الكبرى تحاول علاج ما قد يطرأ بالقيام بتمثيل بعض المشكلات، حتى تستطيع التصرف كما يجب أمام الصحفيين عند اللزوم (هكذا تحسّبت منشأة كهرباء وغاز فرنسا لحوادث نووية كبرى لتهيئة «الأجوبة المناسبة» لوسائل الإعلام على الخصوص).

إن السلطة تتخوف بصورة خاصة من الإنتاج الفردي أو المشترك من قبل وسائل الإعلام لهذا النوع من الأحداث، التي يغذيها الصحفيون أحياناً، حينما يُتركون للقوانين التي تتحكم في عمل الحقل الصحفي وحدها

---

[1] لنتأمل مثلاً مسألة «الحجاب الإسلامي» التي تفجرت قبيل أحداث فولكسان فيلان في أيلول 1990.

(تحمس إعلامي، ملاحقة الصحافة، التضخيم.. إلخ). لأن هذه الأحداث قد تأخذ، ولو مؤقتاً، بُعداً سياسياً معتبراً قد يعرّض المسؤولين للحيرة. وتلك كانت حال فولكسان فيلان عند وقوع أحداث تشرين الأول 1990، ومظاهرات طلاب الثانويات أيضاً في الشهر التالي، التي كانت تتفاقم بقدر ما كانت وسائل الإعلام تتكلم عنها، دون أن يدري المسؤولون السياسيون ما كان يريد هؤلاء المتظاهرون الشباب، الذين ما كانوا يدرون هم أنفسهم ما يريدون.

عندما تطرأ مثل هذه الأحداث، فهل يستفيد الأكثر فقراً من ضوء الإعلام الذي سُلط فجأة؟ ألم تضطر السلطة مثلاً إلى معالجة مشكلة الضواحي ومشكلة طلاب الثانويات؟ لا شيء أقل تأكيداً. إذ الصراع الرئيسي يقوم على المعارضة بين الصحافة والسلطة. وتجري الأمور كما لو أن الصحفيين يريدون أن يبرهنوا لأنفسهم على استقلالهم المهني حيال السلطة بالسعي لوضعها في موقع حرج، بينما يجتهد رجال السياسة من جهتهم للسيطرة على وسائل الإعلام بالقدر الذي يستطيعونه (فقط بصورة غير مباشرة، اليوم). وبعبارة أخرى، إن الصراع متوضّع بصورة رئيسية على الأرضية الإعلامية ويميل للبقاء كذلك، بينما تبتدع السلطة، بمساعدة متخصصين في التواصل، استراتيجيات من شأنها وضع حد للشغب الإعلامي، وبالتالي للشغب بحد ذاته.

وهكذا من أجل محاولة إيقاف مظاهرات الثانويين عام 1990 -التي كان يخشى أن تتفاقم وتؤدي إلى (مأساة) كما حدث عام 1986- ابتدع متخصصو التواصل في وزارة التربية الوطنية (السيدة مخطط الاستعجال)، وهي ذات مظهر مطمئن، فيها أمومة وتفهّم، كان عليها عندئذ أن تجد بسرعة حلولاً لكل مشكلات المدارس الثانوية والمتوسطة. جعلوها تتجول في كل وسائل الإعلام السمعية والبصرية.

وجاء إحداث «وزارة المدينة» بعد بضعة أسابيع من أحداث فولكسان فيلان، استجابة ربما لحاجة بيروقراطية هي التنسيق على الصعيد المحلي بين أعمال مختلف الوزارات التي تُعنى بالناس الذين يعانون من الصعوبات.

لكن كل شيء يبعث على الاعتقاد أنها استُلهمت من هاجس السيطرة على الصحافة المنشغلة بهذه المشكلات، بإعطائها مُحاوراً رسمياً مكلفاً بأعمال من أجل وسائل الإعلام، وإيجاد وجهة نظر علنية للدولة فوق المواقف الفوضوية والخاصة.

من أجل محاولة فهم المشكلة، ينبغي استجواب الناس العاديين عن حياتهم اليومية، وأخذ الوقت الكافي مثلاً لاستعادة ماضي فولكسان فيلان. هذه المحلة التي كانت في أول القرن قرية صغيرة، لا يتجاوز عدد سكانها 1588 في عام 1921، والتي عرفت نمواً هاماً في سكانها عند إنشاء مصنع الألياف الصناعية عام 1925[1]. وينبغي تذكّر أوائل المساكن الشعبية التي بنيت بين عامي 1953 و1959، والتي خُصصت لاستقبال عائلات كثيرة العدد تعاني من صعوبات، والنمو السريع الذي عرفته المدينة في سنوات الستينيات مع إحداث منطقة إعمار ذات أولوية عام 1964. وينبغي، على وجه الخصوص، قياس الآثار المترتبة على بناء أكثر من 9000 مسكن بين عامي 1971 و1983، والازدياد الكبير للسكان، الذين بلغ تعدادهم عام 1984 ما يقرب من 45000 ساكن. وينبغي، أخيراً، تحليل كيفية التدهور المفاجيء للوضع في منطقة الإعمار ذات الأولوية، بعد تضاعف المساكن الخالية عام 1979 لاسيما في قطاع ماس دو تورو الذي وجب إغلاق مجمعه التجاري عام 1985. سنرى أن فولكسان فيلان تشاطر أحياء صعبة أخرى بعض الخصائص البنيوية من مثل: بناء قريب العهد، سكنى جماعية أساساً، حراك سكني قوي، معدل بطالة مرتفع يعرقل الحياة العادية بشكل خطير.. إلخ.

إن مهاجري الجيل الأول الذين قدموا إلى فرنسا قبل الأزمة، يَقبلون غالباً البطالة الواقعة عليهم بشيء من الاستسلام الذي يرجع في جزء كبير منه إلى شعورهم بأنهم أجانب في فرنسا. (لاسيما النساء اللواتي لا يتكلم عدد كبير منهن الفرنسية). لكن الأمر مختلف بالنسبة لأولادهم الذين لم

---

[1] إن الإيضاحات الموجزة التي نقدمها هنا منقولة عن (فولكسان فيلان: مركز للغد). وهو وثيقة أنجزتها مصالح الجماعة العمرانية في ليون بالتعاون مع المصالح البلدية في (فولكسان فيلان) ومصالح وكالة كوري للإعمار بإدارة بيير سوشيه وجان - بيير شاربونو.

يعرفوا إلا فرنسا، ويطالبون بأن يُعامَلوا معاملة أي فرنسي. ولأنهم يشعرون بأنهم مندمجون فهم يعيشون عدم اندماجهم الموضوعي بصعوبة، وهم يعيشون البطالة، كظلم حاق بهم، بشكل أشد من بقية الفرنسيين. وباعتبارهم ناقصي التأهيل لأسباب ثقافية أدت إلى إخفاق مدرسي، فهم ينقمون على أرباب العمل، الذين أقل ما يقال فيهم أنهم غير مستعدين اليوم لتفضيل شباب من أصول أجنبية في مجال التشغيل. ويسهم هؤلاء الشباب بصورة لاإرادية من خلال ردود أفعالهم في تغذية الحلقة المفرغة التي تهمّشهم. إذ أن شعورهم بالإقصاء يقودهم إلى تبنّي سلوكات تقصيهم أكثر فأكثر، وتثبط في نفس الوقت همم القليلين الذين يحملون نوايا طيبة تجاههم؛ فالمحلات التي توضع تحت تصرفهم تخرب أكثر الأحيان، وعلى أرباب العمل الذين يشغلونهم أن يواجهوا أحياناً مشكلات نوعية (سرقة، عنف، .. إلخ). إن الوضع الذي تعيشه الضواحي هو نتيجة لسلسلة من العمليات التي لا يكمن منطقها في الأحياء نفسها، بل في آليات أكثر شمولاً. كسياسة الإسكان مثلاً أو الأزمة الاقتصادية. ولذا نجد الذين أُوكلت لهم مهمة التصرف على الصعيد المحلي -الأخصائيين الاجتماعيين والمعلمين على وجه الخصوص- مضطرين لبذل الكثير من الطاقة من أجل نتائج تافهة غالباً، لأن الآليات العامة تدك بلا انقطاع ما يحاولون بناءه. ولهذا السبب أيضاً فإن إحداث وزارة للمدينة هو حل إعلامي - سياسي أكثر مما هو واقعي. يبقى أن خصوصية الوضع في هذه الضواحي (كثرة الجنح الصغيرة، أعمال التخريب، المخدرات، السيارات المسروقة، نهب المراكز التجارية) أدت إلى تراكم كل هذه الآليات السلبية في المكان نفسه. إن المظاهر تعطي الحق دائماً للمظاهر؛ فقد رمى محافظ شرطة في شمال فرنسا بمسؤولية الجنوح في الضواحي على السكنى العمودية (الأبراج السكنية)، التي تقابلها المساكن الأفقية (المنازل). بيد أن ما يسبب هذه المشكلات ليس هو «التركز العمودي» للسكان، بل التركز العمودي للمشكلات والصعوبات. ولقد كان لطريقة عمل السوق العقارية، ومنطق إجراءات تخصيص المساكن الشعبية، آثارٌ منها التجمع السكاني لأناس يعانون من

صعوبات، أكثرهم من العائلات المهاجرة، وقد ولد التركز المكاني لهؤلاء الناس ردود أفعال فيها عنصرية ضمنية. يضاف إلى هذا تجميع السلطات الحكومية والمصالح الاجتماعية في هذه الأحياء أسراً يدعونها «ثقيلة» (أي جانحة أو مسجلة لدى الشرطة على الأقل). هذه الأسر ذات العدد المحدود نسبياً، (بضع مئات على الأرجح في الضاحية الشعبية كلها) والتي تعيش دون مورد، على هامش القانون، جعلت مناطق الإعمار ذات الأولوية مرتعاً لنشاطها. إذ تناسب الهندسة المعمارية للمجمعات هذا النشاط، لأنها صُممت عمداً لتكون في منأى عن طريق المرور، وبذلك أصبحت، بشكل لا إرادي، منعزلات حقيقية مقطوعة عن مركز المدينة. ويكسب جزء من شباب هذه العائلات رزقهم من اقتصاد خفي يقوم أساساً على السرقة، وحديثاً على تهريب المخدرات.

أخيراً، وعلاوة على ما سبق، أصبحت البطالة هذه الأيام أصعب احتمالاً من السابق. إذ إن النمو الاقتصادي وتعميم شبكات التوزيع منذ عشرين عاماً، جعلا عدداً كبيراً من البضائع الاستهلاكية في متناول الأيدي. وإذا كان من المعلوم أن السرقة في الأسواق الكبرى ليست فقط من فعل شباب عاطلين دون مورد، فإنه من المفهوم أن تشكل بالأحرى حلاً مألوفاً لهؤلاء العاطلين الذين يعتبرون «خدمة أنفسهم بأنفسهم» من تلك الأسواق شيئاً عادياً. حتى أن السرقة صارت نوعاً من الرياضة، يمضي على إيقاعها وقت هؤلاء المراهقين الفارغ، إذا لم تكن فرصة للقيام بإنجازات حقيقية تشكل مبدأ داخلياً لتسلسل المراتب في هذه المجموعات.

ولم يكن الفارق الذي نشأ بين رغبات الاستهلاك والمداخيل المتاحة لدى الشباب العاطلين أكبر منه في هذه الأيام دون شك. ومن هنا ربما يُفَسَّر كون المراكز التجارية أحد الأهداف المفضلة لأعمال العنف التي يقوم بها شبان الأحياء، على حسب منطق الهدف المزدوج؛ فهم يتلفون هذه الأماكن ويخربونها، باعتبارها رمزاً حقيقياً لمجتمع استهلاكي يقصيهم، ويقومون في نفس الوقت بغزوات كبرى ليست بريئة من الفوائد المادية. ومن هنا تفسر أيضاً سرقة السيارات دائماً، وإتلافها وإحراقها؛ لأن السيارة في

الواقع تمثل بالنسبة لهؤلاء الشباب البضاعة الاستهلاكية المثالية. باعتبارها محلاً لاستثمارات متعدّدة (اقتصادية، ولكن أيضاً عاطفية واجتماعية بالإضافة إلى زمن يخصص لها) وهي آلة لا غنى عنها للانتقال والتسلية. وترمز للنجاح والاندماج في سوق العمل، لأنها من أول مشترياتهم عندما يعثرون على عمل ثابت، ويتوصلون إلى الزواج.

إن أعمال العنف المروّعة التي تتصدر «الصفحات الأولى» في وسائل الإعلام، تخفي ضروباً صغيرة ومعتادة من العنف، تُمارس باستمرار على كل سكان هذه الأحياء، بمن فيهم الشباب الجانحون الذين هم ضحايا أيضاً، فالعنف الذي يمارسونه ليس إلا رداً على العنف غير المرئي الذي يعانونه منذ نعومة أظفارهم؛ في المدرسة وسوق العمل وسوق الجنس، إلخ. ولكن من المفهوم أيضاً أن يكون «البيض المساكين» الذين يفتخرون في هذه الأحياء بأنهم «فرنسيو الأصل» ويعتبرون أنفسهم «في بيتهم» مغتاظين بصورة خاصة من المضايقات المستمرة التي يتسبب بها في الجوار أطفال متحدرون من الهجرة. كيف لا تثير هذه الصراعات الدائمة التي تؤدي أحياناً إلى مآسٍ وتغذّي صفحات الحوادث إلى نقمة يسهل استغلالها؟

بيير بورديو

نظام الأشياء*

إنه حي مثل كثير من الأحياء غيره، يقع في ضاحية مدينة صغيرة في شمال فرنسا. وفي بناء مسبق الصنع مؤقت بشكل دائم، نوافذه مشبكة بالحديد، صدعت أبوابه وأُصلحت كيفما اتفق (كان نُهب وحطمت محتوياته مرات عديدة، ومن مدة قريبة أيضاً) يوجد «نادي الوقاية المختص باللقاءات وأوقات الفراغ» المكون من قاعة رمادية فسيحة وأثاث وطاولات من الفورميكا ومغسلة في إحدى الزوايا وثلاجة قديمة، يشبه مطعماً مدرسياً مهجوراً وفيه «عاملون اجتماعيون» محبطون يتحدثون بشيء من التهكم عن «شيكاغو»، إما لأنهم فزعون أو يريدون إفزاع غيرهم.

شاب من البور قُدّم في الصباح على أنه «حالة مناسبة». هو في الصف الحادي عشر وسيبلغ العشرين قريباً، ينتظر نتيجة «لجنة الاستئناف» التي عليها أن تقرر، بعد أيام، فيما إذا كان سيترفع إلى الصف الأعلى: «إنه مستقبلي الذي سيقرر هنا، لأني، بصراحة، إما أن أنتقل إلى الصف النهائي وإما أطرد نهائياً، وعلي أن أجد ثانوية أخرى. ولا أدري إن كنت سأجد ثانوية حكومية أخرى». (لقد بحث بنفسه عدة مرات عن ثانوية). إن هذا الشاب على توزعه بين الشعور بالأعجوبة (لم يصل إلى السنة النهائية إلا اثنان من كل أصدقائه) والشعور بالإخفاق (يعلم في قرارة

نفسه أن حياته المدرسية انتهت)؛ فإنه يعيش الفارق بين الثانوية و«الحارة» ويعبر عنه بوعي («إن المحادثة مع الرفاق في الحارة تتناول بالأحرى المشكلات التي نعاني منها هناك، بينما ننسى كل ذلك عند الذهاب للثانوية» ولا تعبير أحسن من هذا، عن القطيعة بين الحياة من جهة وعالم المدرسة من جهة أخرى). هو ابن مهاجر متحدر من أسرة فلاحين صغار من نواحي قالما في الجزائر «يكسب رزقه جيداً» من عمله كعامل - محلل في مصنع كيميائي. وقد كان موضع تشجيع دائماً في دراسته، لكنه ترك وشأنه أيضاً. فأبوه الذي «لا يقرأ ولا يكتب إلا قليلاً» وأمه الأمية، يتكلمان بالعربية في البيت، وقد «وضعا كل آمالهما» فيه (فأخوه الأكبر منه بكثير يعمل ميكانيكياً، والأخ الأكبر منه بسنة أخفق في شهادة الكفاءة المهنية). وهما لا يفتآن يشجعانه على المواظبة. لكنه يشعر «بوجود عقبة» دون أن يدري لماذا، وأن اجتهاده غير كاف، لأنه «لا يدرك أن المدرسة شيء مهم» بدون شك. أمه «تتألم لأنها هي أيضاً تتمنى» أن ينجح، ولا تريد «أن تراه يكابد المشاق فيما بعد»: «ومع ذلك فهي توصيني بالاجتهاد، وأن ذلك لمصلحتي، ولكنني لا أدري، ربما لأن هذا الكلام يأتي من قبل أناس لا يفهمون الحياة ولا يعرفونها حقاً، ولهذا ليس بيننا تفاهم ربما. وعلى الرغم من أنهما والداي، مع أنهما والداي، ينبغي علي ربما، لكنني لا أدري. ربما لو قال لي ذلك أناس آخرون بأسلوبهم، بحيث أفهم جيداً، ربما يتغير شيء».

ثم جاء اللقاء المحوط بالأسرار، بعد الظهر («إن ذاك سيكون شيئاً آخر»، «لقد خرج لتوه من السجن» إلخ) مع علي، وهو شاب من البور، جاء برفقة صديقه فرانسوا، الذي يسكن مثله في أكثر البنايات شبهة من حي مشبوه يسمى لاروزريه[1] بالطبع. وأخذا يتكلمان بأسلوب فظ، وهما يتبادلان نظرات تساؤل أو موافقة، بلكنة الشمال التي كانت قوية لدرجة جعلت بعض كلامهما غير مفهوم. وبينما كنت أحاول أن أبين لهما من أنا وماذا أعمل، وأبعد الشكوك أو المخاوف التي قد تراودهما («عملي هو أن أنصت وأحاول

---

[1] هنا تهكم من الكاتب لأن معنى الكلمة هو (الحوض المزروع بالورود) - المترجم -.

أن أفهم ثم الإخبار بعد ذلك. فأنا لست قاضياً ولا شرطياً» إلخ) كانا ينصتان وهما ينظران إلى جهة أخرى وكأنهما يخفيان بذلك ارتباكهما (لا سيما عندما طلبت منهما استعمال صيغة المخاطب المفرد معهما -إذ لم يكونا معتادين على هذا القدر من الاحترام- بناءً على أن لي أولاداً في مثل سنهما) وخشيتهما أيضاً كما يبدو لي من أن لا يكونا في مستوى المهمة، وأن لا يفهما جيداً. ولم يطرحا أسئلة (سيطرحان سؤالاً أو اثنين في النهاية عندما استتبت الثقة بيننا). وأفهماني أنهما ينتظران أسئلتي.

علي ابن عامل من وجدة وهي مدينة مغربية صغيرة، وصل إلى فرنسا مع أسرته في نهاية السبعينيات، وكان وقتها في الثامنة من عمره. وتلك كانت نقطة الانطلاق للصعوبات المدرسية التي عانى منها، وسلوكات التحدي التي سيتخذها لتجاوز تلك الصعوبات: فبما أنه كان يجهل الفرنسية تماماً عند دخوله المتأخر للمدرسة، ولم يكن يتكلم إلا العربية في أسرته مع أب أمّي وأم لا تعرف إلا القليل من الكتابة، فلقد وجد مشقة كبيرة في تعلم القراءة (يعترف في نهاية الحوار بأنه لا يزال يقرأ «كالرجل الآلي»). إن كل شيء يوحي بأن رفضه للمدرسة، والتصرفات المتمردة التي قادته تدريجياً لاتخاذ دور «الصلب» وحبَسته ضمنه، ترجع منذ البدء إلى رغبته في الإفلات من المحنة المذلة المتمثلة في القراءة الجهرية أمام بقية التلاميذ. وهكذا بابتعاده عن التمرن والتعلم غاص في الإخفاق وفي حلقة الرفض التي ضاعفت هذا الإخفاق. وهي طريقة مليئة بالمفارقة تجعل من الضرورة فضيلة، أي عيباً مدرسياً ثم جنوحاً اجتماعياً في القريب العاجل.

أما فرانسوا فقد بقي في الإعدادية حتى الصف التاسع، وأخفق في الحصول على شهادة الكفاءة المهنية (لأنه لم يكن يتردد على المدرسة إلا لماماً كما يقول (وهي إعدادية على بعد عشرة كيلو مترات، وينبغي الذهاب إليها بالحافلة، «لأن الثانوية القريبة للتلاميذ الجيدين، أي للأفضل»). فرانسوا وعلي لا يفترقان، ويتحدثان بكثير من الشجن عن اليوم الذي عليهما أن يفترقا فيه، لأن ذلك من نظام الأشياء. ويمكن القول بأنهما يعرفان نظام الأشياء.. إذ تكلما عنه طيلة الحديث على أنه البداهة نفسها بصوت كان

يعلو فـي نهايـة الجملـة، دون أن يظـهرا حقـاً مـا يشـبه السـخط أو الثـورة. ولإعطاء فكرة عن ذلك، وددنا لو استطعنا إسماع المقطع المسجل الذي يروي علي فيه بكثير من التحفظ والرصانـة («مثلـي، أنـا لنفـرض») كيف يمنـع فـي كثير من الأحيان من الدخول إلى الملاهـي، («من أجل الخـروج إلـى الملاهـي، حتى هنـا، فـي الجـوار، حسـناً، مثلـي، أنـا لنفـرض، لا أدخـل، إن العـرب لا يدخلون») بينما يسمحون لصديقه بالدخول عن طيب خاطر. ثم يختم كلامه ببساطة قائلاً: «إن هذا مثير للأعصاب لقسوته»).

لقد شكرت، على الفور، الصدفة (فهمت فيما بعد أنها ناجمة عن الصداقة) التي جعلتني ألتقي علياً وفرانسوا معاً. فسيرى الذين سيقرؤون أقوالهما أنهما يشتركان في كل شيء إلا الأصل العرقي الذي لا يتعرضان لذكره أبداً، وكم هم حمقى إذن أولئك الذين يحشرون ثنائية المهاجرين / الوطنيين في الخطاب السياسي وفي عقول المواطنين؟ إن علياً ليس إلا نوعاً من الممر إلى حدود فرانسوا: فالوصمة الإثنية المرسومة بشكل لا يمحى من خلال لون وتقاسيم الوجه، وأيضاً من خلال الاسم الشخصي، ضاعفت أو بالأحرى جَذّرت العائق المتصل بانعدام الشهادات والمؤهلات، الذي يرجع لانعدام رأس المال الثقافي واللغوي بصورة خاصة. إن «المهاجر» و«ابن البلد» (في أزمنة أخرى وأمكنة أخرى، «في الجزائر الفرنسية» مثلاً، حيث يمكن استبدال أحد النعتين بالآخر مع النتيجة نفسها) لديهما المشكلات نفسها، والصعوبات نفسها، والرؤية نفسها للعالم التي شكلتها التجارب نفسها في شجارات الطفولة والخذلان والخيبة في المدرسة، في الوصمة المصاحبة للإقامة في حارة «متعفنة» والانتماء إلى أسرة موسومة (لديهما كليهما «كبار» تقع الشبهات والاتهامات عليهم دائماً)، والوضع الذي يجدان نفسيهما فيه إزاء سترة أنيقة يعجبان بها أو سروال جميل. ولا يستطيعان طلب المال من أحد فعليهما تدبير أمرهما بنفسيهما، وفي الساعات الطويلة التي أمضياها معاً «نهباً للسأم» لأنهما دون وسيلة، فلا حافلة ولا دراجة نارية (إلا إذا «اشترياها خارج القانون» أو سرقاها) ولا سيارة (ولا رخصة سياقة على كل حال) للذهاب إلى المدينة، ولا محل للاجتماع، ولا ملعب كرة

يمكن اللعب فيه، وخاصة في تلك المجابهة مع عالم مغلق من كل جهة، دون مستقبل أو إمكان: سواء فيما يتصل بالمدرسة أم بالعمل -هما لا يعرفان إلا أناساً دون عمل، أو يعانون من صعوبات- وعند ذكر الأهل الذين يُنتَظر عون أو نجدة منهم، لا نجد إلا عاطلين عن العمل أو عَجَزة.

يتأكد التضامن بين علي وفرانسوا في كل لحظة باستعمالهما «نحن» التي تشملهما كليهما، مع الفهم التام بأن «ابن البلد»، لديه المشكلات الخاصة بـ «المهاجر». ويؤكد فرانسوا هذا التضامن دون تعبير أو جهر بأي عقيدة مخالفة للعنصرية، عند مدخل الملاهي، حين يذهب مع صديقه في حالة منع هذا الأخير من الدخول، ويتحدث في مكانه -لأن ذلك سيكون مؤلماً دون شك- بأن الشيء ذاته يحدث عندما يكون مع فتيات («عندما نكون مع فتيات -ويمنعون من الدخول- فهن يستطعن الكلام، ويقلن «نعم، إنه صديقي، إنه معي» ولكن الأمور لا تجري على ما يرام مع ذلك). كما يردّ نيابة عنه على بعض الأسئلة، كأنه يريد أن يجنبه الحرج والإرباك، ويشهد أيضاً لمصلحته باعتباره طرفاً محايداً . وهكذا فعندما ذكر علي خلافاته مع الشرطة والعدالة، التي يسميها «حماقات» -بنوع من الكناية التي تهوّن من قيمة الجنحة، وتتبنى في نفس الوقت وجهة النظر الرسمية- فإن فرانسوا هو الذي استحضر الظروف المخففة، متوافقاً مع صديقه: «حسناً، يلزمنا المال مع ذلك. فعندما نحتاج إلى كثير من المال، لنفرض أننا رأينا سترة جميلة أو سروالاً جميلاً، وما أشبه. لكنه يوضح أن هناك فرقاً بينه وبين صديقه («كان ذلك قبلاً.. لا، فكل شيء انتهى بالنسبة لي، وأنا لا أخالطهم كما كنت في الماضي») ودون أن يرجعه إلى عامل بعينه، يستذكر أنه «رتب حياته»، ويردف علي مستخلصاً الدرس من تجربة صديقه النافعة قائلاً: «نحن بحاجة إلى فتاة – لِمَ فتاة؟ حتى لا نعود لارتكاب الحماقات».

إذا كان تضامن فرانسوا مع علي مؤكداً بهذا الجلاء والشمول، فذلك بديهي، وليس نتيجة الصداقة كما تفهم في محيطهما وحسب، بل لأنهما يعانيان من الشقاء ذاته، فكلاهما موصوم و«موسوم» من قبل سكان الحي

الأكثر نفوراً من الشباب، ومن قبل الحراس والشرطة، ولا سيما بفعل الشائعات التي تحملهما بصورة آلية مسؤولية كل المساوئ، وتدفعهما بذلك للتحدي والإمعان في سلوكهما نكاية بالجميع، وأنا لا أريد هنا تقديم أي نوع من التكذيب لتلك الشائعات التي تُسوّد سمعتيهما، أو إعادة الاعتبار، وهو شيء لا يطلبانه. لكنني أورد فقط تلك الجملة التي تلفظ بها أحد «مرعبي الضواحي» بكل عفوية، عن المخاوف التي يشعر بها والداه حين يخرج متأخراً في المساء؛ بسبب كل ما تقوله الإذاعات ومحطات التلفزيون.. إن الفضل في الصورة التي يقدمانها لنفسيهما في الحوار، دون أن تكون زائفة مع ذلك، يرجع إلى العلاقة الاجتماعية الفريدة والاستثنائية التي تؤدي إليها علاقة التحقيق: فبما أنهما شاعران بأنني أتفهمهما وأقبلهما، فبوسعهما البوح بإحدى حقائقهما الممكنة وهي تلك التي يحسنان إخفائها في العادة دون شك، تحت تأثير رقابة الأقران (مع ما يسمونه بـ«التباهي») وتأثير الضغوط الجماعية الناجمة عن المزاودة بالعنف (علي وفرانسوا يستحضران عمليات تشبه كثيراً تلك التي تلاحظ في الحروب الثورية والتي تتيح لأقلية ناشطة أن تدخل شيئاً فشيئاً فئة كاملة مسلسل العنف، ثم تقبض على زمامها عن طريق الخوف الذي يزيده الانعزال، وهكذا تبقى متماسكة بالتضامن الذي يمليه الاضطهاد). وإذن من السذاجة الاكتفاء بالحقيقة التي يقدمانها هنا بكل إخلاص ودون قصد للخداع (سنُذكّر بأنهما ليسا «ملاكين صغيرين». لكن مجرد مجيئهما معاً حتى «لا يُخدعا» بدون شك يضمن صحة شهادتيهما). بيد أن سذاجة أكبر أيضاً رفض تلك الحقيقة الممكنة التي تصير مستبعدة دون شك بقدر ما تزداد المواجهات مع أوضاع من شأنها أن تثبطها أو تمنعها، لا سيما مواجهة الأحكام العنصرية المسبقة أو الأحكام التصنيفية الواصمة غالباً، التي تصدر عن العاملين في السلك المدرسي والاجتماعي أو الأمني، والتي من خلال التأثير المصيري الذي تمارسه، تسهم بقوة في تحقيق المصائر المحكوم بها والمعلنة. هل هما طيبان؟ هل هما خبيثان؟ إن السؤال وما يستدعيه من جواب ذي طابع أخلاقي لا معنى لهما. وهل هما فعلاً ما يقولانه عن نفسيهما في الحوار المدون هنا؟ إن هذا

السؤال المشروع في الظاهر، لا يقل وهماً عن السؤال الأول. إذ إن الحوار خلق وضعاً استثنائياً سمح لهما بالكشف عما سيكونان عليه في أكثر الأوقات وبالصورة الأكمل، فيما لو كان العالم معهما على غير ما هو عليه..

بمقدار ما كنت أستمع إلى هذين الشابين وهما يستحضران بكل عفوية، وعلى الرغم من التردد والسكوت الناجم عن خشية قول ما لا يلزم أو خدش أسماعي، ما يدور حول حياتهما وحياة الحي وحتى «حماقاتهما» أو العنف الذي يمارسه البعض أو مارسه واحد (كذلك الذي جعل من «صفير» عبداً له) كان كل ذلك يصير بالنسبة لي طبيعياً، من خلال حضور «العنف السلبي» لنظام الأشياء في كلامهما وسلوكهما برمته. ذلك العنف الملازم لآليات سوق العمل التي لا ترحم. وللسوق المدرسي وللعنصرية (الحاضرة أيضاً في «قوى النظام» المنوط بها مبدئياً أن تقمعها) إلخ. لم يكن علي أن أتكلف مشاطرتهما شعورهما -الذي يبدو في كل كلمة وكل جملة وخاصة في نبرة الصوت وتعبيرات الوجه أو الجسم- بوضوح هذا النوع من النحس الجماعي الواقع كقدر محتوم على كل هؤلاء الذين جُمعوا في أماكن النفي الاجتماعي، حيث يتضاعف بؤس كل منهم بتأثير كل أشكال البؤس التي تتولد من تواجد وتعايش كل البؤساء، وخاصة ربما من تأثير القدر الملازم للانتماء إلى فئة موصومة. إذ لاحظ علي أن مصيره المدرسي آل إلى الفشل عندما وقع في الصف التاسع مع صف لأولاد ينتمون إلى حيه. ويقول إنه لا يهتم بالملاهي التي تفتح على مقربة من الحي، لأنه لا يجد فيها سوى أناس من الحي. وسبب ذلك هو أنه يجد فتيات الحي بلا أهمية ولا قيمة، وحسبهن أنهن يخرجن معه أو مع آخرين من أمثاله. وفي هذا توضيح ممتاز لمزحة غروشو ماركس «ما هو النادي الذي لستُ مستبعداً منه؟» التي إذا ما جردناها من الحياء الذي اقتضته نية الإضحاك، فإنها تعبر تعبيراً جيداً عما لا يجب تسميته بكراهية الإنسان لنفسه، بل يأس الإنسان من نفسه.

مع شابين من شمال فرنسا

لقاء مع بيير بورديو

«إن هذا مثير للأعصاب لقسوته»

❖ كنت تقول إن الوضع هنا ليس بهيجاً، لماذا؟ أهو العمل؟ أهي أوقات الفراغ؟

فرانسوا: نعم، إنه العمل وأوقات الفراغ. إذ ليس لدينا عمل هنا. وليس في حارتنا شيء.

علي: ليس لدينا ما نملأ به أوقات فراغنا.

فرانسوا: لدينا المحل. والناس في الجوار يصرخون.

علي: حقاً، إنهم ليسوا لطفاء.

❖ لِمَ يصرخون؟ ألأنهم..

فرانسوا: لأننا في الحديقة، ولا شيء في حيّنا مساءً، فنضطر للذهاب إلى مداخل البنايات عندما يكون البرد. وحينما نُحدث الكثير من الضجيج، يستدعون الشرطة، ثم إن هناك محلات، زيادة على ذلك.

❖ نعم، إنهم لا يسمحون لكم باستعمالها؟

فرانسوا: نعم، لا يعطوننا المفاتيح.

❖ ولِمَ؟ إنها لا تفيد إذن في شيء؟

فرانسوا: لا، إنها لا تفيد في شيء.

❖ إنك تقول «الناس في الجوار يصرخون» من هم؟

فرانسوا: إنهم سكان الشقق، فعندما نتكلم في المداخل بصوت عالٍ، ينزلون ويصرخون.

❖ نعم لأنه ليس لديكم مكان تلتقون فيه..

علي: لا، ولا ندري إلى أين نذهب.

❖ وهذا المحل. ما هو؟ تقول: «هناك محل»..

فرانسوا: إنها قاعة فسيحة. وعندما كانت مفتوحة قبلاً، كان فيها تنس الطاولة وكنا نلعب.

❖ نعم، ولم أغلقت؟ ألأنكم تسببون كثيراً من الفوضى أم لماذا؟

فرانسوا: لا، بل لأنه سُطِيَ عليها.

علي: لا، لا، ليس هذا. لقد كان هناك أيضاً شبان الأحياء الأخرى الذين كانوا يثيرون المشكلات ثم (..).

❖ ألا تستطيعون تدبر أمركم للسيطرة، أهذا صعب..

فرانسوا: لقد حدث ذلك الآن. والأمور تسير جيداً، إن التفاهم أفضل بين الأحياء.

❖ أليس من ملعب رياضي؟

فرانسوا: بلى، لدينا ملعب لكرة اليد، لكن ناس الحي المُجاور يذهبون إليه.

❖ نعم، هو ذاك. ليس إلا ملعب واحد للحيّين. نعم، إن هذا مزعج. ثم هناك التنافس قليلاً بين الأحياء؟

فرانسوا: نعم، هناك الكثير من التنافس.

❖ لكن، من هم، أهم عصابات؟

فرانسوا: نعم، إنهم عدة عصابات.

◆ وتلك العصابات، ما الذي يجمعها؟ أهي المدرسة، وما أشبه؟ أهُم ناس يعرف بعضهم بعضاً في الحي، أو..

فرانسوا: أوه، هناك عدة عصابات (..). فهناك الذين يعملون، والناس الذين يمارسون الرياضة، والناس الذين.. الذين يثيرون المشكلات.

◆ وهل أنت من هؤلاء؟

فرانسوا: كلا!

◆ لِمَ تضحك؟

علي: إنه يضحكني.

◆ أنت هنا، لا تقول لي كل شيء..

علي: إنهم يشتموننا في حيّنا دائماً. كما في الأمس حينما رمى علينا رجل من الشقة قنبلة مسيلة للدموع، إنه المنفاخ.

◆ أهو رجل تدعونه هكذا؟ لكن من يكون؟

علي: إنه رجل يرمي بالقنابل المسيلة للدموع، عندما يكون هناك تجمع عند المدخل.

◆ لماذا؟ ماذا كنتم تفعلون، أكنتم تزعجونه؟

فرانسوا: كلا، عندما نكون في المدخل، وهو يسكن الطابق الأول، نتكلم أحياناً بصوتٍ عالٍ، نصرخ.

◆ لكن، أكان ذلك نهاراً أم ليلاً؟

فرانسوا: في المساء فقط.

◆ في ساعة متأخرة.

فرانسوا: نعم، حوالي العاشرة أو الحادية عشرة.

◆ نعم، لديه الحق في التذمر، أليس كذلك؟ ولكنْ كثيرٌ أن يصل به الأمر لرمي القنابل المسيلة للدموع، هذا كثير. لكنكم إن كنتم تضايقونه طوال الليل فهذا مفهوم، أليس كذلك؟

علي: نعم، لكنه يستطيع النزول والكلام..

❖ نعم، بالفعل، يستطيع القول بلطف «اذهبوا بعيداً»..

علي: .. أفضل من القنابل المسيلة للدموع!

❖ هو ذاك، إنه ليس بحاجة لفعل ذلك، ومن أين يأتي بالقنابل المسيلة للدموع، هذا الرجل؟

علي: إنه يلقيها من نافذته، قنابل مسيلة للدموع في البناية، ونحن الذين نتلقاها. إنهم الشباب، إنهم الكبار الذين يتلقون في النهاية.

فرانسوا: نعم، لأنهم يذهبون لرؤية الناس في الأعلى، ورؤية الحارس، ثم يقولون.. لقد حصل، ويقولون «إنهم دائماً الشباب أنفسهم»

❖ ومن هو الحارس؟

فرانسوا: لا أعرفه، إنه ليس هنا أبداً، ولا يسكن هنا. أظن أنه يعمل في عدة أحياء.

❖ وهل هناك الكثير من المشكلات كهذه؟ وهي تقع على الأشخاص من أنفسهم؟

فرانسوا: نعم، على الأكبر سناً. على أخيه الأكبر (لعلي) وكبير آخر.

❖ ولكن لماذا؟ ألأن الناس يظنون بأنهم المسؤولون؟

فرانسوا: نعم، لأنهم يظنون بأنهم هم القادة. لا بد أن يكون الأمر هكذا.

❖ لكن عندما يقع ذلك عليهم، فمن الذي يصرخ، أهُم السكان؟ هل يستدعون الشرطة؟

علي: إما أن يستدعوا الشرطة وإما أن يذهبوا في الغد لرؤية البوابين وإخبارهم.

❖ وهل سيوبّخون؟

فرانسوا: آه، سيوبّخون. باعتبار أن الناس يذهبون لرؤية أهلهم.

❖ وهل يصرخ الأهل عليهم؟

فرانسوا: أفّ، لقد اعتادوا الآن. يصيحون في اليوم الأول، ويأتي الناس، ويأتون من بعد..

❖ وأنت ماذا كانت دراستك؟

فرانسوا: كنت في الإعدادية من السابع إلى التاسع. وهيأت شهادة الكفاءة المهنية، وعملت الامتحان. ثم..

❖ ألم تنجح؟

فرانسوا: كلا، لقد أخفقت. ذلك لأنني لم أكن أذهب إلى المدرسة إلا لماماً.

❖ هو ذاك، لقد كنت تتغيب قليلاً؟

فرانسوا: نعم.

علي: نعم، لأن الإعدادية بعيدة بعض الشيء عن الحي. ولم يكن هذا يناسبنا، لأننا لو كنا في الثانوية القريبة، لكننا كنا على بعد ما لا أدري من الكيلومترات.. الثانوية القريبة، إنها للجيدين.

❖ هكذا، يبعثون بكم بعيداً جداً؟

فرانسوا: إنها على بعد عشرة كيلومترات من بيتي.

❖ وكيف تذهب إلى..؟

فرانسوا: بالحافلة.

❖ بالحافلة.. ولِمَ لا يضعونكم قريباً؟

فرانسوا: إن الثانوية القريبة للجيدين، لأفضل التلاميذ.

علي: لأولئك الذي يثابرون على الاجتهاد.

❖ هل كان والداك يساعدانك في المدرسة، عندما كنت صغيراً؟

علي: آه، كلا، فأبي لا يقرأ ولا يكتب. أما أمي فتكتب بصعوبة، لقد كان إخوتي الكبار..

❖ يساعدونك قليلاً..

علي: هذا إذا كانوا في البيت.

❖ ولم يكن أحد يسألك «ماذا ستفعله للمستقبل»؟

علي: كلا، فقد كنت أذهب لمراجعة دروسي، إذ كانت هناك في الماضي ساعة بعد المدرسة للمراجعة، وكان أبي يصطحبني إليها دائماً.

❖ هذا شيء لا بأس به..

علي: نعم، لقد كان حقاً (..) لكنه لم يكن كل الأيام. وبعد ذلك بدأت..

❖ متى بدأت الأمور تسوء؟

علي: في حوالي الصف السادس، عندما وجدت نفسي مع جميع رفاقي.

❖ هل كان كل أولاد الحي في صفك؟

علي: نعم، نعم.

فرانسوا: نعم، لأن الإعدادية كانت جد قريبة من الحي.

❖ وكان المستوى ضعيفاً في المجموع؟ ومشكلات لكم جميعاً؟

علي: نعم، جميعاً.

❖ (..) لكن الصف السادس صعب، إذ ينبغي البدء فيه بأشياء كثيرة جديدة، إنه صعب.

علي: نعم، لكننا لو تعلمنا، لنجحنا بدون مشكلة. لكننا كنا نفضل التسلية (كان علي آنئذ مصاحباً لرفيق أكبر منه -عمره 19 عاماً- غادر المدرسة، وأدرك أنه كان عليه الاجتهاد بعد فوات الأوان).

❖ (..) ولم يكن الأساتذة يقولون لكم..

علي: الأساتذة، لم يكونوا يعبؤون.

❖ لم يكونوا يعبؤون.

علي: لكن، لا أحد في حينا يذهب إلى المدرسة.

◆ ماذا تريد أن تقول؟

علي: أقصد الكبار.

◆ لا أحد يذهب إلى المدرسة أو إلى الجامعة، لا أحد؟ أو إلى المدارس العليا؟

علي: لا.

◆ لا أحد، لا أحد؟

علي: بلى، هناك اثنان أو ثلاثة، أما الباقون ففي المنزل، ثم.. كنا نرتكب الحماقات.

◆ نعم، في المنزل، في البطالة أو العمل. هيا، كنت تريد قول شيء.. لا؟ أم تفكر بممارسة الرياضة، لأنك متين البنية، لا أدري، إنها وسيلة لـ..

علي: لقد مارسنا شيئاً من الرياضة، إنها لا تستهوينا، ولا نبقى معهم طويلاً.

◆ لماذا؟ أكان لديك الكثير مما تعمله؟

علي: كنا نرتكب الحماقات.

◆ أي شيء مثلاً؟ بوسعك حقاً الكلام، فأنا لست من الشرطة..

علي: كلا، كنا نسرق، وما شابه ذلك.

فرانسوا: لكن ذلك لم يستمر إلا فترة أيضاً.

◆ نعم، قسم منه من أجل اللعب.

علي: كان ذلك لملء أوقات الفراغ. نلجأ إليه عندما يقتلنا السأم.

◆ لكن أي نوع من الحماقات؟ صغيرة أم فظيعة؟

علي: بالنسبة لنا؟ لقد كنا ما نزال صبياناً آنذاك.

◆ كم كان عمركما؟

علي: اثنا عشر عاماً.

◆ نعم، هو ذاك اثنا عشر، ثلاثة عشرة عاماً.

علي: كنا نسرق السكاكر والحلويات وبعض العطور وما شابه ذلك. لكن الكبار كانوا يسرقون من المشروبات الروحية، وهو ما حطم الكثير منهم، الكحول ثم المخدرات.

❖ نعم، خاصة وأنه لا يوجد عمل آخر، نعم، هذا مفهوم.

علي: نعم، وحتى إذا ما أردنا الخروج إلى ملهى، هنا في النواحي، حسناً، واحد مثلي، أنا لنقل، لا ندخل. إن العرب لا يدخلون. فماذا يفعلون إذن عند عودتهم مساءً؟ إنهم يبثّون الفوضى.

❖ (توجهتُ لفرانسوا) وحتى لو كنت معه؟

علي: إنه لا يدخل، فإن لم أدخل، لا يدخل.

❖ نعم، أتفق معك، لكنهم يتركونه يمر ويوقفونك..

علي: حدث ذلك عدة مرات، وحتى مع فتيات. فقد قيل لي «حاول مع فتاة»، حسناً، قالوا أمام كل الناس «لا، لست زبوناً، لست مألوفاً».

❖ هذا مقزز، فليس لديهم حق.

فرانسوا: نعم، ثم حتى تكون مألوفاً، عليك الذهاب مرة على الأقل في النهاية.

علي: وهم لا يسمحون لك، ولا أدري ما هناك.

❖ إن هذا يثير الغيظ..

علي: نعم، إنه مثير للأعصاب لقسوته.

❖ لقد حصل لك هذا هنا. تذهبان كلاكما، يسمحون لك ويوقفونه؟

فرانسوا: نعم، مرات كثيرة، عملوا ذلك معنا.

❖ وأنت تصيح قائلاً «لماذا». ولا يقولون شيئاً..

علي: حسناً، ماذا بوسعي أن أقول؟

❖ لا، ليس بوسعك فعل شيء.

فرانسوا: بلى، فعندما يتعلق الأمر بالفتيات، هن يستطعن الكلام مع

ذلك والقول «نعم، إنه صديقي، إنه معي» ومع هذا لا تسير الأمور على ما يرام.

❖ وحتى هذا الأسلوب لا ينجح؟

علي: لقد حاولنا مرات كثيرة.

(..)

فرانسوا: نعم، ينبغي أن يكون مألوفاً ولا يستطيع أن يكون كذلك! إن هذا ما يقال لهم تقريباً «دعوه يدخل على الأقل، وبهذا يصير مألوفاً».

عندما لا يكون لديهم مال يشترون به، يكسرون

(..)

علي: وحتى الشرطة جاؤوا عدة مرات إلى الحي، هل تذكر المرة التي رموا فيها القنبلة المسيلة للدموع؟

❖ ولِمَ هذا؟

علي: حسناً، كنا في المدخل، وهناك شخص يريد الانتحار أو ما لا أدري، وجاء رجال الشرطة بعد ذلك. وعند نزولهم صرخ أحدنا «الموت للبقر» فصعدوا باحثين عنا، وبحثوا عنا بينما كنا نلتزم السكوت فصاحوا بنا «عصابة جبناء» وذهبوا، كل الذين دخلوا فروا، فعاد الشرطة ورموا المسيل للدموع ثم ذهبوا، فهربنا.

فرانسوا: نعم، ثم دفعوا أحد الشباب أيضاً.

علي: جان – ماري.

فرانسوا: نعم، جان – ماري. إنهم يعلمون أن ليس بالإمكان ضربهم، فيأتون إذن للبحث عنا.

❖ وحينما تكونون متضامنين هكذا، بوراً وفرنسيين، ألا يزعج هذا التضامن الشرطة؟ أنا لا أدري، فإن كنت أنت الذي يقول «إنه مقزز». لا، إنهم لا يأبهون..

علي: أجل، إنهم لا يأبهون. ففي إحدى المرات، ضربت الشرطة عربياً من الحي، وجاء فرنسي لنجدته قائلاً «نعم، ليس عدلاً ما تفعلون، ليس لكم حق» فأخذوه هو أيضاً إلى مفوضية الشرطة وضربوه ثم أطلقوا سراحه صباح الغد.

❖ ومن كان هذا الشخص؟

علي: إنه رفيق من حيّنا اسمه جيل. وبما أن البلدية ستقوم باحتفال هنا، فستحصل مشاجرات مثل كل عام، وسيقع اللوم علينا أيضاً. ولهذا سنتحرك يوم السبت ولن نبقى هنا.

فرانسوا: أجل، لأن هناك شباباً من أحياء أخرى، ليسوا من حيّنا بل من أحياء أخرى، يأتون ومعهم..

(سكوت)

❖ هيا.. أكمل..

فرانسوا: يأتون هنا ومعهم أشياء.. (سكوت)

علي: هيا، قلها..

فرانسوا: يأتون ومعهم مخدرات، وعندما لا يكون معهم مال ليشتروها، حسناً، إنهم يكسرون. (سكوت) ..

علي: أوه، إننا نتدبر أمرنا، فنحن بالغون نتدبر أمرنا. وقد مثلنا أمام المحكمة منذ مدة قريبة، بسبب مونو.

❖ من يكون مونو؟

علي: إنها مربية.

❖ ولِمَ هذا؟ لماذا؟

علي: إنه نزاع صغير. فلقد حكم القاضي لأنني كنت أضحك أثناء المحاكمة؛ حكم علي بثمانية أيام مع وقف التنفيذ زيادة على 1200 فرنك غرامة، على ما أظن، لأنني ضحكت فقط.

❖ لأنك كنت تضحك حينما كانت تقرأ لك هذا..

علي: أجل، لأن أصدقاء جاؤوا معي، وكنت لا أعلم بأنه ليس لنا الحق باصطحاب أصدقائنا، فجاؤوا وأضحكوني.

❖ أليس هناك من عمل في الناحية لشباب في مثل سنكما؟

علي: كلا، أو أنهم يتابعون بعض الدورات التدريبية.

❖ نعم، دورات زائفة..

علي: نعم، إنها ليست مرغوبة، لأن ربح 1200 فرنك لا قيمة له، فالبعض يربح هذا المبلغ في ساعة واحدة (..).

❖ ومع ذلك فهو ليس حلاً، أليس هناك.. لا أدري.. إذا ما وجد شخص عملاً وتدبر أمره يأتي بالآخرين..

علي: بلى، إن الكبار يفعلون هذا.

فرانسوا: لكنهم يذهبون إلى باريس، مثل كل الكبار في حيّنا الذين يذهبون إلى روان، حيث مصنع بيجو، وهم يعملون فيه جميعاً.

❖ لكن، كيف عثروا على العمل؟ هل عثر عليه أحدهم ثم استقدم الآخرين؟ أليس كذلك.

علي: لولا الخدمة العسكرية لكنت فيه أنا أيضاً.

❖ نعم، فطالما أنت لا تعمل، ليس لديك مال.. ما هي مواردك الآن، هل هما والداك اللذان يعطيانك بعض المال؟

علي: نعم، من وقت لآخر.

(..)

❖ وما هي الرياضة القتالية التي تمارسها أنت؟ أهي الكاراتيه أو..؟

فرانسوا: من كل شيء، من شجار الشوارع، هنا، إنها فارغة أيضاً.

❖ أهي فارغة؟ أين كنت تمارسها؟

فرانسوا: في شارع مفوضية الشرطة، هنا.

❖ آه، نعم، قريباً من البناية؟

فرانسوا: كانت فارغة.

❖ ألم تكن جدية؟

فرانسوا: كل ما كانوا يعملوه لنا، كنا نعرفه من قبل، ولم تكن لدي وسيلة للانتقال.

❖ أليس لديك دراجة نارية أو ما شابه.

فرانسوا: لا شيء لدي.

❖ كم تكلف اليوم دراجة نارية صغيرة؟

فرانسوا: 2000 فرنك.

علي: في المتجر؟ 3000 فرنك.

فرانسوا: هل أنت مجنون! إنها في المتجر بـ 4000 أو 5000 فرنك. ولذا ينبغي شراؤها خارج القانون، أي شراؤها من الشبان، فلا بد من ذلك.

❖ ما معنى «شراؤها خارج القانون» بالضبط؟

علي: شراؤها خارج القانون، يعني تدبيرة.

(..)

علي: حصلت لنا مشكلات مع مفتشين من الشرطة في حيّنا. وقد ضُرِب أحد المفتشين في الحي.

❖ حقاً، ولماذا؟

علي: لأنه لم يبرز بطاقته. إذ كان يضرب شباباً من حي آخر، وجاء صديق لنا للدفاع عن أحدهم، وكان من المفروض على الشرطي أن يظهر بطاقته، لكنه لم يفعل.

❖ وإذن فقد أعطب؟

علي: لقد أخرج مسدسه بعد ذلك، فهرب صديقي، لكن قبض عليه فيما بعد.

❖ لكن كان في..

فرانسوا: أسبوعاً، وهو الآن في خروج مؤقت فيما أظن، إفراج مؤقت.

❖ وأنت مع القاضية التي.. ألم تُحبس؟

علي: إنها مشكلتي الأولى بعد سن الرشد، فلست راشداً من مدة طويلة.. منذ سبعة أشهر فيما أعتقد.

❖ وهل حكم عليك من قبل؟

علي: باعتباري قاصراً (..)

❖ هل هي مشكلات سرقة وما شابه ذلك؟

علي: أجل، في بلجيكا. إنها مشكلات صغيرة، حماقات تافهة.

❖ لكنها تلحق بك فيما بعد، فما أن تتحرك حتى يكشف أمرك.

علي: إنها حماقات ما كان ينبغي فعلها.

❖ نعم، لكنك تفعلها طالما تشعر بالسأم..

فرانسوا: حسناً، عندما نحتاج إلى المال، إلى الكثير من المال، لنفرض حينما نشاهد سترات جميلة أو سراويل أنيقة، وغير ذلك. حسناً، علينا الحصول على تلك الأموال. لكن ذلك كان في الماضي.

❖ لم تضحك؟

فرانسوا: إنه يضحك.

❖ إنك لا تقول كل شيء؟

فرانسوا: لا، لقد انتهى الأمر بالنسبة لي، ولم أعد أتسكع معهم كما في السابق.

علي: لقد رتب حياته (لديه صديقة).

❖ الآن وقد رتبت حياتك، ما رأيك بكل ذلك؟

فرانسوا: لا، لقد رأيت كل ما يصفونه من أفاعيل فتركتهم (..)

علي: إننا بحاجة إلى فتاة.

فرانسوا: ولماذا الفتاة؟

علي: حتى لا نعود لارتكاب الحماقات.

«كان جهاز الإسقاط موجوداً، لكن دون شرائح»

علي: نعم، فكيف يمكن لنا التنقل دون وسيلة نقل ولا أموال؟

❖ أليست هناك حافلات أو وسيلة نقل باتجاه (د)؟

علي: بلى، هناك حافلات.

❖ لكنها ليست كثيرة..

علي: باتجاه (د) فقط، لكن العمل بالوكالة يحتاج إلى الذهاب إلى كل مكان. يتعين علينا الذهاب إلى لينس وليل، نحتاج إلى سيارة، لكن..

❖ أليست لديكم سيارة؟ ولا لأحد من أصدقائكم؟

علي: كلا، لدي أختي لكنها بدون عمل ولا شيء. لكنهم يتقدمون هنا جميعاً لفحص إجازة السياقة، وربما تتحرك الأمور فيما بعد.

❖ نعم هو ذاك، نعم أنتم منزوون هنا السبت وغيره..

فرانسوا: أوه، سنتحرك. فنحن ننتظر الشخص الذي ذهب إلى جزيرة لاريبونيون، ثم إنه يحمل إجازة سياقة على الأقل فيما أعتقد.

❖ آه، لأنه ليست لديكم إجازة سياقة بالنسبة لأكثركم فضلاً عن ذلك.. كيف ستتمكنون من التعلم، فليس هناك مدرسة لتعليم السياقة أو ماشابه ذلك.

علي: لقد أرادوا أن يعملوها مرة في النادي؛ أراد المشرف التربوي فعل هذا..

❖ أهي فكرة جيدة؟

علي: نعم، ولكننا بحاجة إلى الشرائح أيضاً.

❖ نعم، إنه ذاك.

علي: كان ينبغي طلبها من مدرسة السياقة. لقد كان جهاز الإسقاط

موجوداً. لكننا بحاجة إلى شرائح قانون المرور لنتعلم. فيوجد الكثير ممن يستطيعون قيادة السيارة، لكن قانون المرور هو الذي.. ولقد تقدم صديقان للامتحان مرتين، وأخفقا في المرتين.

❖ بسبب قانون المرور دائماً؟

فرانسوا: أجل، بسببه. ثم هناك شخص آخر، هنا، يقود دون رخصة، ويذهب إلى باريس للعمل، وقد تدبر أمره جيداً.

❖ ماذا يعمل؟

فرانسوا: يعمل.. لا أدري ما يعمل.

علي: قال لي أنه يعمل في باريس ويربح أكثر من عشرة آلاف فرنك.

(..)

❖ نعم، أنت الذي قال لي بأن الكثيرين يفرون من الخدمة العسكرية لأن الأمور ليست على ما يرام.

علي: نعم، لأنها كانت مقرفة.

❖ عندما تقول إنهم كثيرون، فهذا لا يعني أنهم 36..

علي: كلا، إنهم خمسة أو ستة.

❖ إلى هذا الحد مع ذلك؟ كانوا من..

فرانسوا: من حيِّنا ومن الحي القريب.

❖ من سنكم تقريباً؟

علي: هناك واحد لم يذهب إلى الخدمة حتى، ومع ذلك فقد ضاق ذرعاً بها، فأخذ حبوباً قبل الذهاب.

❖ ماذا تقصد بالحبوب؟

علي: إنها.. ما اسمها؟

فرانسوا: إنها حبوب منومة.

❖ لكي ينتحر؟ أم ماذا؟

علي: أجل، محاولة انتحار، لكنها زائفة.

❖ نعم، هو ذاك لكي يحاول الحصول على الإعفاء.

علي: نعم.

❖ وهل تنجح هذه الوسيلة؟

علي: نعم، لقد نجحت، وأعفي من الخدمة.

فرانسوا: أجل، لقد أعفي من الخدمة مثله مثل المجانين.

علي: نعم، لكن P4 لا تستحق العناء، إنها لا تستحق العناء...

❖ ماذا تعني صيغة P4؟ هل يرسلونك..

فرانسوا: P4 تعني أن الشخص غير سوي، وتؤثر فيما بعد في الحصول على عمل. فالأفضل الخدمة العسكرية.

❖ تقول إذن إن هناك من فرز إلى المظلات ثم فر بعد ذلك؟

علي: لأنهم حبسوه في.. .. ..

❖ ماذا فعل؟

علي: إنه العراك، كان يتعارك غالباً؛ فوضعوه في ثكنة تأديب فيما أظن، ولما ضاقت به الأرض، سرح نفسه وهرب.

❖ وهل هناك الكثيرون مثله، لم أسمع أبداً عن هذا. ألا يحتملون الانضباط؟ هل يملّون؟

علي: إنهم ليسوا متعودين على تلقي الأوامر.

❖ نعم، هو ذاك، وفي العمل أليست المشكلة ذاتها تقريباً؟ أليست هناك وظائف وقتية أو بالوكالة، وما شابه ذلك؟ ألا توجد أعمال صغيرة هنا؟

فرانسوا: بعض الأشخاص يعملون -انظر لجان لوك- إنه لم يقبض راتباً منذ ستة أشهر.

❖ هل دفعوا له في نهاية الستة أشهر؟

فرانسوا: أجل، لكنه لا يعمل بعقد حتى الآن.

❖ وهل هو مستمر؟

فرانسوا: نعم، يتابع عمله من وقت لآخر، لكنه لا يقبض إلا 2030 فرنكاً عوضاً عن 2300 فرنك.

❖ وهل يعمل ساعات طويلة؟

فرانسوا: قال لي بأنه عمل 260 ساعة زيادة عن نصابه. إنه يعمل الآن دورة تدريبية.

❖ نعم، إن هذا لا يشجع الكثيرين للبحث عن عمل.

فرانسوا: لا، إن ذلك مقرف.

«ثم إننا نحب كثيراً أن نكون.. المخربين».

❖ قلت منذ قليل إنك لم تتعلم شيئاً من رياضة القتال، فكيف تعلمت؟ هل هناك الكثير من الشجار؟

علي: أوه، عندما كنا صغاراً، كنا نتعارك غالباً بين..

❖ نعم، في المدرسة هكذا، ثم ضد أولاد الأحياء المجاورة.

علي: وأحياناً، فيما بيننا. إذ كل واحد يريد أن يكون هو الزعيم.

فرانسوا: ولكننا كنا نستعيد وعينا بعد خمس دقائق، فقد كانت معارك فارغة.

❖ وهكذا فأنتم تحبون كثيراً أن تكونوا..

علي: .. المخربين.

❖ هذا هو، لكن لا يبدو عليكما أنكما شريران، لا أنت ولا هو؛ إن هذا أمر عجيب.

علي: لا، فنحن.. (..)

❖ وهل تتحدثان بالسياسة فيما بينكما؟ أم ليس كثيراً؟

علي: كلا.

❖ إنكما لا تعبآن نوعاً ما، ولكن هذا لا يعني أنكما لا مباليين، بل أنكما لا تدريان ما رأيكما فيها؟

علي: ليس كثيراً، فيما يتصل بالسياسة (صور - انقطاع).

(يخرج لهنيهة بعد أن اقترح على فرانسوا وعليّ الاستمرار في غيابه باستجواب أحدهما الآخر، كلاً بدوره، أمام آلة التسجيل) هل تستمر إذن في استجوابه؟

علي: كلا، إنه يستجوبني كما يقول.

❖ آه هو؟ هيا، ابدأ وسنرى إن كنت تحسن العمل.

فرانسوا: هل أطرح أنا أيضاً الأسئلة ذاتها التي طرحها علي؟

❖ لا، لا، بل تجعله يقول ما لم يرد قوله (..) بِمَ حكم عليك القاضي كعقوبة؟ 1200 فرنك؟

علي: وثمانية أيام مع وقف التنفيذ.

❖ وهل عليك أحكام في الماضي؟

علي: كلا، فلقد كنت قاصراً.

❖ أجل، فيما لو عدت وارتكبت حماقة، وقبضوا علي، حسناً، الأيام التي.. ينبغي علي تنفيذها. (..)

❖ لقد سبب لك هذا المتاعب، ماذا فعلت؟

علي: كان ذلك بسبب سرقة دراجة نارية صغيرة. على ما أظن. فالتقطوا صوراً وأخذوا البصمات، من أجل شيء تافه.

❖ كم كان عمرك آنئذ؟

علي: كنت وقتها في الصف الثامن، وعمري 16 سنة، على ما أظن، أو 15 سنة.

❖ هل قبضوا عليك؟

علي: كلا، لقد اكتشفوا أمري. ولم أتمكن من الهرب.

❖ بالجرم المشهود؟ أوقفوك.. واقتادوك، وبعد ذلك..

علي: أخذوا الصور، وما أشبه ذلك.

◆ لكنهم لم يحبسوك عندئذ؟

علي: لقد استدعوا والدي، إذ كنت قاصراً. لقد انهرت لأنهم أرادوا حبسي، لكن أبي جاء واصطحبني.

◆ ماذا قالوا لأبيك؟

علي: لقد رووا له القصة.

◆ وهل أنّبك أبوك؟

علي: نعم، لقد أراد أن يكسر عظامي. وهذا طبيعي وأنا أفهمه.

◆ نعم، لا بد أنه كان منزعجاً. إنهم الناس أنفسهم الذين يتلقون دائماً.

علي: نعم، ثم إن هذا أفضل، إذ لم أعد أرتكب الحماقات. سأطرح عليه سؤالاً (على فرانسوا) هيه.

◆ هيا اسأله. ألم يجب بعد؟

علي: كلا، كنت أود سؤاله عما إذا أراد الرحيل، وعما إذا كان الرحيل يروقه أم لا؟

فرانسوا: الرحيل؟ إذا ما أردت الرحيل؟ ربما فيما بعد.

علي: ولكن الآن؟

فرانسوا: الآن..

علي: هل ستتأسف على الحي، هنا؟

فرانسوا: كلا، لأنني أقيم فيه منذ 19 عاماً.

◆ إذن، فأنت تعرف كل الناس.

فرانسوا: أجل، أعرف كل الناس، وأصدقائي كلهم هنا (..) لكنني ربما أرحل، وسيكون ذلك للذهاب مع..

◆ حتى تتزوج؟

فرانسوا: أجل، حتى أتزوج وأبني مستقبلي.

❖ وأنت، هل تحب الرحيل فيما لو استطعت؟

علي: الرحيل، أجل، إنه يروق لي، لكنني سأسف مع ذلك. لأن الرحيل مؤلم بسبب عدم التعود على الناس الجدد. وهذا يعتمد على المكان الذي سنحط رحالنا فيه.

❖ نعم، لكن كل متاعبكم ناجمة عن وجودكم في هذا الحي. وتلك هي المشكلة.

علي: نعم، هذا صحيح، فمن الأفضل الانتقال من (..)

❖ (..) إن ما يلزم ربما هي عناية أفضل بالبنايات، فإنها قبيحة جداً، أليس كذلك؟

فرانسوا: البنايات، هنا، إذا ما أردت التحدث عن التردي وما شابه.. كلما كسر شيء، فإن الشباب هم الذين يتلقون اللوم.

❖ لكن، أهي الكرات التي تحطم زجاج النوافذ، أم ماذا؟

علي: كلا، إنها أبواب المداخل، والزجاج وعلب البريد، أبواب المداخل.

❖ لكن، من الذي يفعل كل هذا، أهُم بعض الشباب؟

علي: أجل، بعض الشباب.

فرانسوا: نعم، ولكن ليس دائماً، ومع ذلك فالناس أنفسهم هم الذين يتلقون اللوم، وهم الذين لم يفعلوا شيئاً.

❖ أهذا ما أردت قوله قبل قليل، من أن الاتهام يقع على من تم وَسْمَه نوعاً ما، أهذا ما عنيته؟ وأنت موسوم هكذا، منذ كنت صغيراً. أليس كذلك؟

علي: أجل، لكنني لم أعد الآن. فأنا مع من هم أكبر مني سناً؛ مع أخيه الأكبر وشخص كبير أيضاً، لكنهم هم الذين يتلقون.. مع أنهم هم الذين يوصوننا بألا نفعله..

فرانسوا: إن ذلك مؤسف بالنسبة لهم.

❖ لماذا؟ أيقال أنهم زعماء عصابات أو شيء من هذا..

علي: نعم، يقال بأنهم هم الذين يدربون الأشرار، ويضعون هذا في عقولهم.

❖ نعم، لكنك قلت آنفاً إن هناك مشاجرات تحصل بين الأحياء، فإذن توجد عصابات.

علي: آه أجل، توجد عدة عصابات، هم الآخرون يأتون ويحطمون ونتحمل نحن اللوم.

❖ لكن لِمَ؟ الأن هناك مشاجرات..

علي: لأن في الأحياء من يريدون الظهور بمظهر القوة والزعامة، ولولاهم لكان التفاهم بيننا أفضل. افتتح هنا ملهى، يكثر العرب فيه لأنه الوحيد الذي بوسعهم الدخول إليه.

❖ وإذن فالأمور على ما يرام..

علي: لكن ذلك مقرف في النهاية، إذ إننا نعرف الجميع، والذهاب للملهى لا يستحق العناء (..)

❖ يتعين عليك الذهاب إلى أماكن بعيدة لا تكون معروفاً فيها، وترى أناساً مختلفين.

علي: بالطبع، ولقد كنا نفعل هذا في السابق، ونعاني الأمرين للذهاب بعيداً. أما الآن فقد انتهى ذلك، إذ لم يعد أحد يعطي درّاجات للشبان.

❖ ولماذا؟ أذلك منهك جداً؟

فرانسوا: لقد كانت المدرسة، فكنا نركب القطار. وقد ارتحل الكثيرون من..

❖ من شلّتكم هنا، من أصدقائكم (..)

«إنهم يصدقون كل ما يقال في التلفزيون»

❖ نعم، إنه ذاك. وأنت لا تفكر في.. إلا بعد الخدمة العسكرية، كما قلت؟

علي: أجل، أنا متأكد من أنني سأذهب إلى باريس أو إلى الجنوب. كنت أنوي عمل ذلك مع فرانسوا، ولكن بما أنه رتب أموره، فمن الأفضل له البقاء. ولولا ذلك لقمنا بالرحيل منذ زمن طويل، أعني التحرك نحو الجنوب.

❖ وما الذي ستحصل عليه أنت، إذن؟

فرانسوا: حسناً، شهاداتي.. شهادة الكفاءة المهنية.

❖ وربما ستتمكن من العثور على عمل في نفس المكان مع..

فرانسوا: أجل، لكننا لن نبقى معاً طوال الحياة، فلا بد من الانفصال يوماً ما.

❖ نعم، ولكن بما أنكما صديقان، لِمَ لا تحاولان..

فرانسوا: نعم: فيما لو عثرنا للجميع. فإذا اشتغل أحدنا، يستعلم بالنسبة للآخرين. وهكذا (..) يكون الأمر أفضل.

❖ ولهذا سألتك فيما إذا كان لك أبناء عم.. وهكذا يمكن..

علي: إنهم الأهل أحياناً، فإنهم لا يثقون بنا ويعتقدون بأننا سنضيع أو.. كما حصل لي؛ فقد كان من المفروض أن أذهب إلى المغرب هذه السنة وحيداً. لكن أمي قالت: لا. لقد رأت فِيّ طفلاً. وهكذا كان بالنسبة للمغرب.

❖ نعم، ولا سيما أن لك هناك، إنه ليس..

علي: كما أننا لم نعد نخرج في المساء. وقد كنا في السابق نخرج في ساعة متأخرة. لكنهما (الوالدين) يخافان علينا، لأنهما يصدقان كل ما يقال في التلفزيون.

❖ نعم، هذا هو، إنهما يعتقدان أن الحي خطر، أليس كذلك؟ نعم لقد قال لي شاب بأن أباه خائف دائماً، فعندما تصله ورقة، وهو لا يعرف القراءة، يخاف من استلام الورقة أو ما شابه ذلك. وهذا مفهوم أيضاً، لأن الأمر معهم لا يحتمل المزاح. إذ من الصعوبة أن يكون الإنسان أمياً، لا يعرف القراءة والكتابة.

فرانسوا: يوجد في حيّنا أناس يجدون صعوبة في القراءة والكتابة.

◆ أحقاً؟ أناس في مثل سنك..

فرانسوا: نعم، وأكبر من سني أيضاً.

علي: نعم، هناك من الكبار من يقرأ بصعوبة وبصورة آلية.. أو أنهم يقرؤون..

◆ أحقاً؟ وهل هم كثيرون؟

علي: إنهم كثيرون، إذ يشكلون 80٪ على الأقل.

◆ تقول 80٪، هذا غير ممكن، أتدرك معنى هذا؟ ثمانية من كل عشرة!

علي: أجل، لكنني أقصد منا، من شلتنا، هيه.

◆ من شلتك..

علي: نحن، نعد 20، 30 على الأقل، فكم منا يعرف القراءة؟ إنني أتكلم عن القراءة الجيدة، هناك عشرة يقرؤون جيداً، أما الآخرون فيقرؤون دائماً..

◆ عندما تقول شلة، تقصد، أنتم الذين تلتقون دائماً..

علي: عندما نلعب مباراة كرة قدم، ونكون كثيرين. إن الكل يعرف القراءة، لكنهم يقرؤون بصعوبة.

◆ تقصد بمشقة، أي يتعثرون بالكلمات ولا يفهمون ما يقرؤون، أليس كذلك؟

علي: ثم إنهم يقرؤون بشكل آلي، كلمة فكلمة. ويتوقفون عند بعض الكلمات، هناك أناس.

«حتى أنا، أقرأ بشكل آلي، إنني أتمكن من القراءة. لكن بشكل آلي».

◆ إنني ما كنت لأصدق هذا، لو تعلم.

علي: حتى أنا، أقرأ آلياً، إنني أتمكن من القراءة، لكن بشكل آلي.

❖ لِمَ تقرأ بصورة آلية؟

علي: لأنني في الصفوف الأولى، لم أكن أقرأ في البيت أبداً، ولا في المدرسة.

❖ ألم يكن يطلب منك القراءة الجهرية؟

علي: بلى، لكنني كنت أرفض.

فرانسوا: كنا نحب اللعب وما شابه ذلك.

❖ لماذا؟ أمن أجل لفت الأنظار، والظهور بمظهر القوي..

علي: كلا، إذ كنا لا نحب القراءة. صحيح أن القراءة سهلة، لكننا نقرأ بشيء من الصعوبة.

❖ لقد وصلت إلى الصف التاسع، وإذن كان عليك معرفة القراءة..

علي: نعم، أعرف القراءة، أعرف القراءة..

❖ لكن ليس بسهولة حقاً.

علي: نعم، بمشقة.

❖ وهل تقرأ الجريدة أو أشياء كهذه؟ أبداً؟ يتعين عليك ذلك، هيه.

علي: أجل، من الأفضل ذلك. أما فيما يتعلق بالقراءة والحساب وما شابه، فكلنا يعرفه.

(شبه استراحة، يستجوب فرانسوا أثناءها علياً، في غياب بيير بورديو، عن حي لاروزريه - «إنه قذر» - عن النادي «مغلق دائماً»).

علي: نعم، فما إن أدخل بنايتنا حتى تبدأ المرأة التي تسكن الطابق الثاني وأختها في الصياح علينا وتأنيبنا.

❖ وهل تسكن الأخت هنا؟

علي: كلا، إنها لا تسكن هنا بل في المنزل.

❖ ومن هما هاتان المرأتان اللطيفتان؟ هل هما فرنسيتان من الناحية؟

علي: إنهما فرنسيتان لا تحبان المغاربيين..

فرانسوا: هاتان الأختان هما عنصريتا الحي. (..)

❖ لكن، هل هناك آخرون مثلهما؟

علي: إنهما الاثنتان، ثم..

فرانسوا: (..) لا يوجد إلا واحدة.

❖ والحراس؟ أهم على ما يرام؟

علي: يكونون هنا بعد الظهر، من الواحدة حتى الواحدة والنصف.

فرانسوا: وفي الصباح أيضاً، لكنهم لا يقيمون هنا. إذ على الحراس في الحالة العادية أن يقيموا في الحارة.

علي: نعم، لكن رجلاً في الثامنة والعشرين من عمره سكن هنا. وهو لطيف جداً. إذ بفضله قمنا بنزهات وغير ذلك وقد ساعدنا كثيراً.

❖ من هو هذا الرجل؟

علي: كريم.. إنه رجل طيب، وهو يعمل الآن في باريس. ولم نعد نراه. كان يتحدث معنا في المساء ويزودنا بنصائحه.

❖ وماذا يعمل؟

علي: يعمل جوكر، يقود السيارات.

❖ وهل هو متعلم؟

علي: كان يقيم في الجزائر، وقد خدم في الجيش متطوعاً خمس سنوات ثم توقف. جاء إلى هنا وحصل هنا على شهاداته ثم غادر. إنه يعمل أشغالاً بالوكالة، وما شابه.

فرانسوا: ويؤدي لنا بعض الخدمات أيضاً (..)

❖ وهكذا كان كريم هذا، لطيفاً معكم؟

علي: كان يعمل كل شيء معنا مثل كرة القدم.. ويؤدي خدمات لنا. كان يأخذنا حيثما نشاء؛ نطلب منه فيأخذنا (..)

❖ لو كان هناك بعض الأشخاص اللطفاء فالأمور ستسير بشكل أفضل، في الحقيقة..

علي: لم يكن يفهم الشباب سواه.

❖ لكن، كم كان عمره؟ 28 سنة؟

علي: 28 أو 29 سنة.

❖ وهل غادر الآن؟

فرانسوا: كلا، كلا، إذ ما زال يسكن في X، ولأنه يعمل متنقلاً فلا يوجد إلا أيام السبت والأحد.

❖ ألا يستطيع هو أن يبين لهاتين المرأتين..

فرانسوا: إنهما لا تستمعان إلى شيء. والأمور الآن أفضل، فقد هدأتا. لكنهما أحياناً لا تفهمان شيئاً. هناك كثيرون، ليسوا من شلتنا بل من شلة الكبار، إنهم خمسة وهم الآن في السجن. وعندما يخرجون.. اثنان منهم خرجا، ولا يزال ثلاثة أو أربعة في السجن.

❖ ولِمَ أُوقفوا؟ أبسبب المخدرات؟

فرانسوا: أجل، وسرقة السيارات، والسطو المسلح. وعندما يجتمعون، يشربون ويدخنون، ثم.. يبثون الفوضى..

علي: آه، الشغب تقصد.

❖ وهل يقيمون في الحي؟

علي: كلا، فليس إلا اثنان منهما يقيمان في الحي.

❖ إنهم يأتون من الخارج إذن؟

علي: أجل، حتى لا ينتبه إليهم أحد. وأحدهم هو زعيمهم.

فرانسوا: نعم، لقد خرج ثلاثة منهم.

علي: نعم، هناك آخر، خرج أيضاً.

فرانسوا: لكنهم لا يدركون شيئاً، ولا يعملون سوى الذهاب والإياب (بين السجن والمنزل).

❖ أجل، ثم إن لديهم أسلحة، أليس كذلك؟

فرانسوا: نعم، لديهم أسلحة ومخدرات، كل شيء.

❖ إنهم يثيرون الرعب نوعاً ما.

فرانسوا: فيما يتعلق بالرعب، إنه واحد منهم فقط، فهو الأكثر (..) أما الآخرون فلا.. إن الأمر خطير.

❖ نعم، وعندما يخرجون. يدخل الرعب قليلاً قلوب الجميع.

فرانسوا: أجل، إننا نرتعب. ثم هناك الكثير من الشجار بين العائلات. وحتى في حيّنا، ألا تصدق؟ شجار بين العائلات، إن ذلك خطير.

❖ ما هو شجار العائلات هذا؟

علي: إنهما عائلتان تتعاركان فيما بينهما، الجميع حقاً.

❖ ولِمَ كل هذا؟

علي: لِلا شيء، من أجل قصص.. حماقات.

❖ أليست قصص زواج أو ما يشبه ذلك؟

علي: كلا، إنها حماقات بسبب مذياع.

❖ مذياع؟

علي: هناك شاب اسمه إيريك معه مذياع، وأراد آخر أن يأخذه منه، فجاء صديقه للدفاع عنه. وتعاركوا، ونزل أخوه لأنه نادى أخاه.

❖ ثم جاءت كل العائلة، أليس كذلك، وهل هي عائلات كبيرة؟

علي: أجل، إنها عائلات كبيرة.

❖ هل عددهم كبير؟ من أين هم؟ أمِن الجزائر؟

علي: نعم، من الجزائر.

(..)

عندما تتحدث مع الفتيات، وتقول لهن «أسكن في لاروزريه».

علي: نعم، لكن الأمور هدأت، ولم يعد شيء في لاروزريه. إنها مجرد

سمعة تافهة انتشرت؛ سمعة قذرة. إن الطريف هو عندما نتكلم مع فتيات يسكنّ في حي أنظف وأكثر.. ونقول «أسكن في لاروزريه».

❖ إنهن يأخذن حذرهن فوراً.

علي: كلا، بل يتركننا. فمن أجل هذا، الحي سيء ونضطر لخداعهن بالحديث المنمق.

❖ نعم، وهل الشيء نفسه معك؟

علي: عندما تتحدث مع الفتيات، وتقول «أسكن في لاروزريه»..

فرانسوا: إنهن يحسبننا من الجانحين(..)

❖ وصديقتك، هل هي من الحي؟

فرانسوا: أجل، إنها من الحي.

❖ هل تسكن معها؟

فرانسوا: كيف أسكن؟

❖ أعني هل تعيشان معاً؟ ألم تتزوج بعد.

فرانسوا: كلا، كلا، لست متزوجاً. كلا لا أعيش معها.

❖ ستتزوج بعد الخدمة العسكرية؟

فرانسوا: كلا، إذ ينبغي أن تعمل، وأنا أيضاً بالطبع.

❖ وأنت، هل لديك صديقة؟

علي: بالنسبة لي. كلما كان الأمر أسرع، كان أفضل. كلا (يضحك) أنا لا أحب أن تكون.. ينبغي أن تكون جيدة حقاً. لأن الفتيات اللواتي نعرفهن لسن جادات. والأفضل التعرف إلى فتيات جيدات وجادات. لكن ذلك من الصعب العثور عليه.

❖ نعم، واللائي يخرجن معكم، ألسن..

علي: كلا، هن غير جادات، فما أن تدير ظهرك حتى تختفي، لأنها مع واحد آخر.

❖ كنت تقول بأنه ليست إلا فتاة واحدة تخرج معك، من الحي..

علي: نعم، لكنها شقيقة أحد الأصدقاء. ونعتبرها صديقة كأي شاب صديق، وهي لطيفة.

❖ والأخريات، كيف تتعرف عليهن، أفي الملاهي وما شابه ذلك؟

علي: أجل، عندما أخرج، أو في المدرسة، أو الشقيقات الكبيرات للأصدقاء.

(يستذكران امرأة فرنسية من الحي «تتكلم معنا بلطف تام» «عندما يتكلم عنا أناس، تأتي وتحذرنا» ثم يعود إلى مشكلة العنف).

فرانسوا: وحتى الصغار في حيّنا، يبدؤون بارتكاب الحماقات..

❖ من؟

فرانسوا: صغار، هنا في حيّنا، أعمارهم بين 9 و10 سنوات..

علي: يرتكبون الحماقات، فيذهبون إلى حدائق الآخرين، ويسرقون الكرز..

❖ لكنك كنت تفعل الشيء ذاته أيضاً..

علي: أوه، لقد مررنا جميعاً به، ولكن..

فرانسوا: إنهم يفعلون كل شيء أيضاً، كالدراجات.

❖ وهكذا إذن، لكن هل تظن أن الأمور تسوء وتتفاقم؟

علي: أجل، فنحن لم نبدأ هكذا. لم نبدأ بالدراجات. والآن كل صغار حيّنا يدخنون؛ الصغار ما بين 13 و14 سنة.

❖ ماذا؟ الحشيش أو..

علي: كلا، السجائر.

❖ السجائر، نعم.

علي: الصغار يبدؤون السيجارة في الرابعة عشرة، وفي الخامسة عشرة إنه..

❖ ولكن هل لديهم المال؟.

علي: إنهم يرتزقون أو يجدون المال.

❖ لكن، هل تظن أن الأمور تتفاقم والوضع يتدنى..

علي: أجل، أجل، فبعد الاعتياد على السيجارة، يريدون التسلية، فيبدؤون في التعاطي. هناك شاب في حيّنا عمره 15 سنة يتعاطى كل شيء؛ يتناول الحبوب والحشيش والكحول، إنه ليس في حيّنا بل (..) في حي آخر. وقد توقف عن الدراسة لأنه فاشل. ومع أنني لست حسوداً، فقد كان بإمكانه أن يكون أفضل، إذ أنه متين البنية وأطول قامة منا مع أنه في الخامسة عشرة من عمره. لكن للأسف، تنكب طريق الصواب.

❖ يا للخسارة.

علي: وهو لا يدرك أنه يسرق من أجل الآخرين.

❖ لِمَ يسرق؟ وماذا يسرق..

علي: من أجل معلمه.

❖ يسرق من أجل عصابته.

فرانسوا: لو لم يكن مدمناً على المخدرات، لربما..

علي: نعم، سيفهم فيما بعد لأنه لا يربح شيئاً، إذ يسرق وليس له شيء، بل للآخرين.

❖ نعم، زعيم العصابة يستولي على كل شيء؟

علي: إنه ليس حتى زعيم. بل شخص يتسكع معه دائماً. ويستولي منه على كل شيء. إنه يأمره قائلاً «اذهب واسرق لي هذا» فيذهب ويسرقه ويأتي له به.

❖ إنه عبد إذن؟

علي: إنه مغفل ساذج، يا للأسف.

❖ ولكن هل يحصل هذا كثيراً؟ أي وجود أشخاص مثله؟

علي: ليس إلا هذان الاثنان يفعلان هذا.

فرانسوا: نعم، في النهاية..

علي: لا، فليس إلا هذان الاثنان، لأنه يهيمن عليه جيداً.

فرانسوا: إنه خائف، ذلك الشاب ذو الخمسة عشر عاماً.

❖ هكذا إذن..

فرانسوا: «إذا لم تفعل هذا.. فسأرمي بكل شيء على وجهك».

❖ وكيف استطاع فرض سلطته، ألا يستطيع الصغير أن يحمي نفسه..

علي: إنه صغير، لا يستطيع شيئاً.

❖ إنه خائف، أليس لديه إخوة، أي أحد؟ هل هو وحيد؟

علي: إن له أختاً صغيرة، على ما أظن، مع أمه. أما أبوه فلم يعد موجوداً.

❖ يا للحسرة، ولد مسكين. هل تعرفه أنت؟

علي: أوه، نعرفه، أجل، إنه يتسكع معنا.

❖ وماذا يقول لك؟

علي: ماذا بوسعه أن يقول؟ لا يقول شيئاً. يشعر أحياناً بالارتباك والخجل. لكنه لا يستطيع قول شيء، يقول إنه ليس بوسعه الكلام، إلخ.

❖ إنه خائف، ولا تستطيعون مساعدته؟ إن التطفل مزعج أيضاً.

علي: أوه، نعم، إنها قصتهما، إنها مشكلتهما.

أيار 1991

باتريك شامبانيه

أسرة مندمجة

تسكن ماريا د. فيلنوف. وهو حي بني منذ عشرين عاماً في أطراف مركز عمراني كبير. فبعدما طردتْ من مركز المدينة التي تسكن فيها منذ عشر سنين، بذريعة التجديد. أعيد إسكانها في هذه المنطقة العمرانية ذات الأولوية (ZUP) في بداية السبعينيات، في الوقت الذي بدئ فيه بناء البنايات الأولى. قدمها لي رئيس مشروع المنطقة، التي صنفت في إطار برنامج التنمية الاجتماعية للأحياء (DSQ) منذ 1987، لأن هذه المرأة الإسبانية الأصل هي من دون شك «رمز محلي» تعرف التحدث وبوسعها إذن أن تعتبر متحدثة رسمية فاعلة باسم الناس «الأفاضل» في الحي. إذ علاوة على كونها مناضلة شيوعية، هي أيضاً شخصية نشيطة جداً في جمعية السكان التي أسست منذ وقت قريب في إطار إجراءات إعادة الاعتبار. قصيرة القامة، عصبية المزاج، طلقة اللسان، فليس «لسانها في جيبها» كما يقال: تتكلم غالباً بشيء من الدعابة، بسرعة تصل إلى حدود يصعب فيها الفهم أحياناً. تعبر بقوة وبصوت عال وطلاقة مع لكنة ظاهرة وتحكم تقريبي -لكن دون عقدة نقص- باللغة التي يتكلمها الإسبان غالباً حينما يعبّرون بالفرنسية.

استقبلتني في بيتها، مرتدية برصانة قميصاً مزهراً وصدرية وتنورة

بلون داكن. والشقة الواقعة في الجزء الذي جدد من الحي، كانت غاية في الترتيب والإتقان: فكل شيء في مكانه، ولا أثر لأي غبار. وكانت طوال الحديث الذي جرى حول طاولة في حجرة الطعام، تطرد بيدها، بصورة آلية، وهي تتكلم، فتات خبز غير مرئية. كل شيء لدى هذه المرأة ذات الخمسين عاماً، المتأنقة دون إفراط، يوحي بالإرادة القوية والانتظام والنفور من التفاهات «لا، أنا لست شخصاً يضيع الوقت بقضاء فترات بعد الظهر مع النساء حول الأظافر وتصفيف الشعر، إنني أفضل حضور اجتماعات وما شابه ذلك. أما الحكايات السخيفة التي يرويها النساء، فلا».

هي متحدرة من أسرة ريفية مؤلفة من عشرة أبناء. وقد قدمت إلى فرنسا في بداية الستينيات ولم تكن آنئذ تتجاوز 18 سنة، لأنها لم تجد عملاً لها في قريتها بينما «كان هناك الكثير من العمل في فرنسا سنوات 59-60». وكان أرباب العمل الفرنسيون ينتقون هذه اليد العاملة المطواعة والرخيصة، بوساطة بعثة كاثوليكية: «لقد كنا في الريف، كنا في سن الشباب أيضاً، ولم يكن لدينا الكثير من (الحاجات والطموحات) ولم تكن لدينا الكثير من الإمكانات للذهاب إلى مكان آخر. (..) كانوا يرسلون إلينا عقداً، وكانوا يدفعوننا قليلاً إذا شئت. ويعرضون دفع أجرة السفر، ويعطوننا قليلاً من المال». وقد عينت في مصنع لإعادة تصنيع الخرق والاستفادة منها من جديد. وانضم إليها العديد من إخوتها وأخواتها فيما بعد، وأقاموا في المنطقة. (وهم يواصلون الآن رؤية بعضهم بعضاً كثيراً). وتعرفت في فرنسا بزوجها ذي الأصل الإسباني أيضاً، والذي غادر بلاده في نفس ظروفها تقريباً؛ فبعد متابعته دورة تدريبية للحدادة واللحام في مدرسة عسكرية، عين وهو في الثالثة والعشرين من عمره في مصنع فرنسي يعمل في قطاع السيارات. وقد استقر، منذ عدة أعوام، لحسابه كحداد سيارات، بينما استأنفت زوجته عملاً بنصف الوقت كخادمة في بيوت أغنياء، بعدما توقفت عن العمل بعض الوقت لتربية ولديهما (وهما شابان كانا في سن 24 و16 عاماً وقت إجراء الحديث).

إنها تستذكر بحنين السنوات الأولى التي قضتها في فيلنوف؛ إذ كان السكن أفضل منه في مركز المدينة، وكانت البنايات المحاطة بالمساحات الخضراء، أنيقة ولطيفة. وتحكي كيف تزايدت البنايات وتغير السكان شيئاً فشيئاً، وبدأت «المشكلات» بالظهور، وخاصة تفاقم البطالة لدى الشباب. في البداية -كما تذكر- كان بوسع بائع الحليب ترك زجاجات الحليب على عتبة الشقة، بينما يترك السكان الثمن تحت الممسحة. ثم بدأت السرقات تتزايد بسرعة (الدراجات ثم السيارات). وأضيف إلى الجنح اليومية التي ترسخت شيئاً فشيئاً، تدهور وضع البنايات وهو ما تسبب في مغادرة الأسر التي بإمكانها ذلك. ثم تذكر مشكلات التعايش التي كثرت بين السكان ذوي الأصول الأوروبية، والسكان ذوي الأصول العربية الذين أخذوا بالتزايد أكثر فأكثر: «بدأ بعض الناس بالشكوى.. فلقد أسكن الكثير من العرب، وكثير من الناس اشتكوا من بعض العرب فيما يتصل بالصوم، أما اليوم فأعتقد أن الأمور أفضل بسبب الأشخاص الكثيرين الذين اشتكوا (..) إذ مرت علينا بعض السنوات كان فيها وقت الصوم احتفالاً حقيقياً في الخارج.. وكأنما نحن في الجزائر». لكن الحياة العادية للحي أضحت بالنسبة لها «جحيماً» عندما قدمت في بداية الثمانينيات «عائلات ذات مشكلات» لها «سمعة سيئة جداً»، أعيد إسكانها في المساكن التي أخذت تشغر أكثر فأكثر في المنطقة: «كان الكل يسطون على البيوت. ولا أدري إن كانوا يسرقون في جهة أخرى، لكن الأمر شمل الجميع حقاً. إما أثناء العطلات أو في الليل أو وقت الأعياد. إن الأمر شمل الجميع».

كان من شأن تلك الظروف جميعاً أن تدفع بهذه الأسرة المهاجرة التي نجحت في الاندماج اندماجاً عفوياً ودون وعي منها، والتي كانت بمنأى عن خطر البطالة، إلى مغادرة الحي، كما فعلت أسر أخرى كثيرة. لكن بقاء ماريا د. في الحي على الرغم من الصعوبات التي واجهتها هي وأسرتها (سيارة سرقت، سطو على القبو، سطو على الشقة، إلخ) ليس مردّه فقط إلى أنها لم ترد ترك هذا الحي الذي تعلقت به واستحوذت عليه نوعاً ما، بل أيضاً

لأنها عاشت مثل كثير من الأسر المهاجرة مع وهْم «العودة للوطن» (فقد احتفظت ماريا وزوجها بالجنسية الإسبانية مثلاً) وما بقاؤها في فرنسا إلا إجراء مؤقت، أخذ يطول ويمنعها من تحقيق مشروعات تكتسي شيئاً من الأهمية: «لم نكن نعلم في البداية إذا ما كنا سنبقى هنا أو نرحل إلى إسبانيا، ولذا لم نقرر شراء منزل. وأخذ الزمان يمضي ويمضي حتى كبر الأولاد وحصلنا على الورشة. وقلنا بعد ذلك: ما أن نجمع بعض المال حتى نرحل (من الحي)». لكن ماريا ببقائها في الحي كانت تعرف أنها تعرض ولديها لتلك الدوّامة التي تجذب الشباب إلى الجنوح أو التهميش، وبالتالي فإن عليها مضاعفة الانتباه والجهود حتى يفلتا -بصعوبة في هذه الحالة- من «المخالطات السيئة»، والشارع وما فيه من تسهيلات وإغراءات زائفة: «إذا كان لديك أطفال هنا، فيتعين عليك الكثير من التيقظ، وينبغي انتزاعهم أيضاً من المدرسة (هنا) إذا أردت أن ينجحوا. ولذا ترحل الأسر الشابة عندما ترى هذه المشكلات».

لكن ماريا إذا نجحت في الاستمرار وفي الحفاظ على ولديها خصوصاً -وعلى عكس العديد من الأسر الجزائرية في الحي- فذلك لأنها تتمتع بخصائص موضوعية تميزها بانتظام عن أكثر المهاجرين المغاربيين. فهي على خلاف النساء اللواتي ولدن في شمال إفريقيا وغادرن قراهن للالتحاق بأزواجهن، قررت الهجرة ولما تزل عزباء للعثور على عمل. وفيما تبقى هجرة النساء المغاربيات خاضعة تماماً للمنطق العائلي والهيمنة الذكرية، تخضع الهجرة ذات الأصل الأوربي بشكل أكثر مباشرة لمنطق سوق العمل والارتقاء الاجتماعي.

(عندما هاجرت ماريا د. لم تجد شبكة أسرية لتتكفل بها، بل بعثة كاثوليكية وجدت لها عملاً وسكناً). «لست فرنسية، لكنني أوربية. وهو الشيء ذاته بالضبط» كما تقول. وبالفعل فإن الفجوة الثقافية والاجتماعية التي تفصلها عن بلد الاستقبال، أقل بكثير من تلك التي تلاحظ عند أكثر النساء الجزائريات اللواتي ما زلن مندمجات في مجتمعهن الأصلي. إذ

القليل منهن مثلاً يتعلمن التحدث بالفرنسية باعتبارهن لا يخرجن من بيوتهن إلا قليلاً. وتستذكر ماريا كيف يأتي الرجال من الجزائريين فقط إلى الاجتماعات: «لقد جاء الرجال هكذا بصراحة وحدهم، بينما بقيت النساء في البيت!».

ومن جهة أخرى فإن الهجرة الأوروبية أكثر انتقائية من الوجهة الاجتماعية بالمقارنة مع الهجرة المغاربية، على اعتبار أن المهاجرين الأوروبيين يتمتعون غالباً بخصائص (لاسيما في المؤهلات) تسهل عليهم الارتقاء الاجتماعي في بلد الاستقبال. فبوسع ماريا د. وزوجها أن يشعرا بأنهما نجحا في الحياة -وتلك ليست حالة أغلب العائلات المغاربية التي يبقى رجالها عمالاً غير مؤهلين في المصنع، هذا إذا لم يكونوا عاطلين عن العمل. ولهذا الوضع تأثيره على التطلعات المهنية التي قد تكون لدى أولادهم. وهكذا فإن ابن ماريا الأكبر الذي يعمل في ورشة أبيه، يستطيع التطلع إلى اتباع أبيه في مهنته، وتهيئة نفسه لأخذ مكانه في المنشأة العائلية الصغيرة، بينما ترفض أكثرية أبناء المهاجرين المغاربيين ظروف العمل القاسية، ويحتقرون آباءهم غالباً لقبولهم ما يرى الأبناء أنه «استغلال» دون كلمة احتجاج. اندمجت ماريا د. إلى الحد الذي أخذت تتكلم فيه عن بلادها الأصلية كما يمكن أن يتكلم عنها أجنبي: «دفعت هذه السنة 11000 فرنك من أجل منزل في إسبانيا (لاستئجار منزل في العطلة) فهم لا يقدمون الهدايا! وعندما قيل لي عن الثمن قلت: إن هذا غير معقول! إن الإسبان لصوص».

كما أن عدد الأطفال يشكل اختلافاً هاماً؛ فمع أن ماريا متحدرة من أسرة كثيرة العدد، إلا أنها حدّت من إنجابها، فلم تلد سوى اثنين تابعت مسيرتهما المدرسية، وأدركت الثاني ولما تكد بعدما انجرّ إلى شلة أصدقاء فساءت دراسته في إعدادية فيلنوف، حيث تركته عمداً، بناءً على معتقدها السياسي (للبرهنة على أن النجاح ممكن في الحي). وكانت تلح على الأكبر الذي كان دون عمل، لكي يذهب للبحث عن عمل، قبل أن تقترح عليه كحل

بديل، أن يعمل في ورشة أبيه. وليس من قبيل الصدفة أن تكون الأسر الكثيرة العدد في هذه الأحياء -المنتشرة في الوسط المغاربي- هي التي تسبب المشكلات الكبرى. وبالفعل، فإن حجم هذه العائلات يجعل من المستحيل تقريباً، في هذه المناطق العمرانية، على الأهل رقابة أطفالهم رقابة دقيقة وفاعلة. كما تستحيل تلك الرقابة على مجتمع المحلة كما كانت الحال في القرى الريفية. وهكذا تترك العائلات التي أسكنت من قبل المصالح الاجتماعية على حسب شغور المساكن والموارد، وليس تبعاً للعلاقات العائلية أو الأصل الوطني، تترك وشأنها معزولة، لا تستطيع الاعتماد إلا على إمكاناتها الخاصة. فالأب يضطر للعقاب الشديد -دون نتيجة تذكر- للأولاد الذين ينحرفون، قبل أن يتركوا البيت ويقتدوا بـ «المثل السيء للأخ الأكبر». وعلاوة على ذلك فإن استراتيجيات التكاثر تلك، لا تتناسب مع مطالب إعادة الإنتاج أو الارتقاء الاجتماعي في المجتمعات المتطورة. إذ إن تكوين الشباب يقتضي استثماراً (مدرسياً ومادياً وعاطفياً) هاماً وطويل الأمد، يستحيل توفيره عملياً في الأسر العمالية ذات العدد الكبير من الأطفال. «أنا لست عنصرية، ولكن..» يجب أخذ النفي بجدية، ونحن نسمعه عشرات المرات من خلال اللقاءات، والذي يدفع به سكان هذه الأحياء التهمة التي يحاول البعض إلصاقها بهم ولا سيما في وسائل الإعلام، حين حصول حادث مأساوي، والتي تميل إلى التثبت من خلال صعود الجبهة الوطنية الانتخابي في هذه المناطق.

إن ماريا د. على غرار كثير من السكان غير المغاربيين لهذه الأحياء، تنظر إلى هؤلاء الناس الذين يتخبطون في الصعوبات نظرة تفهم وحنق في آن معاً. فهي قريبة منهم إلى الحد الذي تعلم فيه ما يجري ضمن العائلات، وتفهم الصعوبات التي يواجهونها. كما تفهم جيداً عجز الأهل («إن الأب يكاد يقتلهم وهو يطرحهم أرضاً، ولكن بإمكانها قول ما قاله -في حديث آخر- حارس للمساكن المعتدلة للكراء في فيلنوف، على الرغم من أنه لا ينتخب من تنتخبه ماريا د. إذ قال «نحن لدينا المشكلات نفسها مع أطفالنا

ما إن يبلغوا 13-14 سنة. إذ تجري الأمور على ما يرام طالما كانوا صغاراً، وتصنع منهم ما تريد، وفجأة يصيرون أكثر عدوانية بتأثير المخالطة في المدرسة والإعدادية، وبعد 15-16 سنة، لن تستطيع معهم شيئاً. لقد تغيروا، إنهم يكلمونك لكنك تشعر بأنهم لم يعودوا.. إنهم يبتعدون عنك، ظانين أنفسهم.. رجالاً! إن الأهل يقولون «كل شيء انتهى، عمره 14-15 سنة. لم نعد نستطيع معه شيئاً». وبوسع ماريا مع نفس التعاطف الذي لا يمليه وضع الحديث تماماً، استحضار حالة هؤلاء الشبان الذين يترددون على السجن بانتظام، واليأس الذي يسببّونه لأهلهم: «إنني أعرف بعضهم، هم صبيان لكنهم يسجنون للمرة الثالثة أو الرابعة لأنهم يسرقون السيارات. وعند خروجهم يكاد الأب يقتلهم، لكن هذا لا يمنعهم من إعادة الكرّة. إن المشكلة هي هنا (وتشير إلى رأسها بإصبعها) فلا يمكن عمل شيء فيه. ومع ذلك فإن الأهل -المساكين المنكودين- يحزنونني! على الرغم من أنهم جزائريون. يا للعجوز المسكين عندما أراه، محزن حقاً. هذا ما أشعر به عندما أراه، إذ لم يدُر بخلده ولا بخلد الأم كل هذا، وهم لا يستحقون أن يكون أولادهم على هذه الشاكلة، وهذا كل شيء».

لكن ماريا د. ليس بوسعها ألا تكون خائفة في نفس الوقت على هذه العائلات. لأنها تتحمل الاعتداءات اليومية المختلفة التي يرتكبها بعض الشبان، وتجعل الحياة عسيرة من جهة، ومن جهة أخرى، وعلى الأخص، لأنها وصلت إلى ما وصلت إليه من نجاح نتيجة للكد والحرمان، بينما لا يبدو على هؤلاء الشبان أنهم يريدون دفع مثل هذا الثمن بدورهم. ومع أنها تسلّم بأن ظروف الحياة لم تعد كما كانت («كيف تريد حرمانهم في الزمن الذي نحن فيه») إلا أنها لا تقبل بألاّ يمر الشباب بالتجارب التي مرت بها: «لقد حصلوا على كل شيء، ولا مشكلات لديهم..» والواقع إن النضال السياسي والجماعي لدى ماريا د. يقترن مع النجاح النسبي لمشروعها في الرقي الاجتماعي، باعتبار أن النشاط السياسي هنا ليس إلا أحد مكونات نشاط اجتماعي أكثر شمولاً، يسهم النشاط السياسي في تدعيم العلاقات

والمعلومات التي يأتي بها. كما أن هذا النشاط السياسي طريقة لتوكيد مبادئ أخلاقية؛ تلك المبادئ التي تجعل الرقي الاجتماعي مؤكداً على الرغم من بطئه. «أنا أرى أننا حين نعمل ولو بأجر قليل، العمل هو كل شيء يا سيدي، العمل هو كل شيء، هو الحرية». وعوضاً عن الاستسلام والإيمان بجبرية لا مرد لها، أو التطلع، على العكس، إلى مشروعات بعيدة عن الواقع، تميز غالباً الشرائح الدنيا من الطبقة العمالية، فإن ماريا د. تجهر بموقف مطلبي معقول يقوم على السعي إلى الأفضل عن طريق الكفاح، دون طلب المستحيل. إذ يجب الإنفاق بقدر ما نملك، لا أكثر. كما لا يجب أن نريد إلا ما نستطيع الحصول عليه. وباختصار، يتعين على الإنسان أن يضع لنفسه حدوداً: «لقد عقدنا اجتماعات لنعرف ما يريد الشباب؛ وإذا بهم يطلبون من كل شيء. وهذا ما أثار أعصابي، لأنني في شبابي لم يكن لدي أي شيء، وكنت سعيدة وراضية، وأما هم فليسو كذلك.. فلا ينبغي طلب كل هذا». بعد إجراء اللقاء، وقبل أن أغادرها روت لي -دون ميكروفون- أنها تسمع باستمرار في الشقة الرائعة التي تعمل فيها مدبرة، تردد صوت كعبي الجارة التي تسكن فوق الشقة: («كانا يصدران كلاك، كلاك، كلاك») فقالت لمخدومتها عندئذ: «ربما لديك شقة كبيرة وجميلة وسط المدينة، لكنها كثيرة الضجيج. فأنا أفضل حالاً وأكثر هدوءاً في شقتي الصغيرة في فيلنوف!».

مع ساكنة في حيّ شعبي (HLM)

حديث مع باتريك شامبانيه

«لا ينبغي القول بأننا عنصريون»

❖ لك ولدان، هل تمكّنا من متابعة دراستهما بشكل عادي في فيلنوف؟

ماريا: لقد انتزعتهما كليهما من فيلنوف. الأول في الصف السادس والثاني منذ السابع (..) أنهى الكبير (الذي يبلغ 24 سنة) الصف التاسع، وحصل على شهادة الكفاءة المهنية في الإلكترونيات، وكنا نريد أن يكمل دراسته لكن السيد لم يرِد. أما الثاني فقد كان في الصف السادس، غير بعيد عن مكان عملي، وهو الآن في الصف العاشر. وبما أنني مناضلة في الحزب (الشيوعي) فقد قلت: «أترك ابني في فيلنوف بما أنه مجتهد، لأظهر للآخرين أن بإمكانه النجاح أيضاً في فيلنوف». فوضعته في الصف السادس (بإعدادية) لويس أراغون، لقد كان الصبي مجتهداً (في المدرسة الابتدائية) حتى أنه حصل على تهنئة على اجتهاده.

سأقطع راسك يا فريدريك إن طردوك من المدرسة!

ماريا: وتغير الولد في الإعدادية، فلم يكد ينجح في السنة الأولى. تعلم أنهم يتغيرون عندما يذهبون إليها، نجح بصعوبة، وأخبروني مرتين،

ثلاث مرات أنه بدأ في عصيان الأساتذة. فقلت: «هكذا إذن؟» وأنّبته، معتقدة أن الأمور ستتحسن. وانتقل من السادس إلى السابع، ثم رسب في السابع. فذهبتُ إلى المديرة والمعلمين، واكتشفت أنه تغيب 17 يوماً خلال العام كله دون أن أعرف شيئاً. هل تعلم كيف عرفت بغيابه كل هذه الأيام؟ لأنني عملت بعض المساعي لإرساله إلى إنجلترا (..) فذهبت لرؤية المختصة الاجتماعية في المدرسة وشرحت لها المسعى، وسألتها عَرَضاً، إن كانت توجد مشكلات مخدرات أو قصص من هذا القبيل، لمجرد العلم. فأجابتني: «لا، لا، لماذا؟ الأن لك مشكلات مع ابنك؟» فقلت: «لا، لا،!» ثم سألتني: «ما اسم ابنك؟» فأخبرتها باسمه، وإذا بها تقول: «لكنني أعتقد أن فريدريك د. هو الذي تغيب 17 يوماً(..) وقد اضطررنا لإبلاغ مديرية التربية» فقلت: «لا، ليس هو، إنك مخطئة».

(..)

لقد كان هو بالفعل، فقلت إن هذا غير ممكن. وذهبت لرؤية المدير ثم المكلفة بالدخول، وقلت: «كيف يتغيب ابني عن المدرسة دون أن أعلم؟» وكانوا هاتفوني مرة لأمر لا أذكره. فقيل لي «اسمعي يا سيدة، من المؤكد أنه قد أرسلت لك رسالة» فقلت: «لا، أنا آسفة» وقلت للمكلفة بالدخول: «اسمعي يا سيدة، إذا كنتم أرسلتم رسالة، ولم أرد عليكم، فلِمَ لم تهاتفوني؟ إن 17 يوماً شيء كثير» فأجابتني: «أوه! اسمعي يا سيدة، لدينا 500 تلميذ، وإن هاتفنا كل واحد فلن ننتهي» قلت عندئذ: «إنها النهاية». وعندما علمت أنه يعصي الأساتذة قلت: «لا يمكن إبقاؤه، لأنني لو أبقيته، سيكون مع أولاد بدؤوا بالانحراف، ولم يعودوا يطيعون الأساتذة. وطلبت الملف مع أنني كنت قررت أن أبقيه في إعدادية لويس أراغون. وقلت: «اسمعوا، سأستمر في النضال من أجل المدرسة، أما إذا تركت ابني فستكون النهاية، ولا يعيش الإنسان إلا حياة واحدة».

◆ وهل تحدثت مع ابنك فيما بعد؟

ماريا: نعم، نعم، وبما أننا متفاهمان جيداً فقد حكى لي كل شيء.

فعندما سألته: «ماذا كنت تفعل في الخارج؟» أجابني: «كنا نتجول» وأحياناً كان يجد عند وصوله لباب المدرسة بعض الزملاء فيقولون: «أنذهب إلى المجمع التجاري لشراء شيء ما؟» وهكذا يضيع وقته، يضيع الصباح، فلا يذهب إلى المدرسة. وأحياناً كان يحدث هذا بعد الظهر. فسألته: «كيف تفعل ذلك؟ ألم يكن هناك أشخاص يرونك أحياناً؟» وأجابني: «نعم، نعم، لقد اضطررت للاختباء مرتين أو ثلاث تحت مرائب السيارات» فقلت: «هذا غير معقول» وحتى هو رأى بأن عليه مغادرة الإعدادية لأنه لا يستطيع قول لا لأصدقائه الذين بدؤوا بارتكاب الحماقات أحياناً في قاعة الدرس وكان يتبعهم. لقد كان مذنباً مثل غيره.. لكنه عندما دخل إلى هناك (في إعدادية أخرى وسط المدينة) وجد الانضباط. وحينما استلمت في السنة الأولى رسالتين أو ثلاثاً لأنه كان وقتها معتاداً على فيلنوف، قلت له: «سأقطع رأسك يا فريدريك إن طردوك من المدرسة» وكانت تلك البداية، ثم تحسنت الأمور فيما بعد، ولم أستلم شيئاً في السنة الماضية» وقلت: «لم أستلم شيئاً يا فريدريك، لا شيء البتة طوال السنة» وأجابني: «آه، نعم، نعم، لقد تغيرت كما ترين».

لقد كان الحي ميتاً، ولا أحد يريد سكناه

❖ ترجع عملية إعادة الاعتبار إلى سنتين، ثلاث سنوات؟

ماريا: نعم، لأن الحي كان ميتاً حقاً! ولا أحد يريد سكناه. وعند إعادة الاعتبار، كانت هناك العديد من الشقق الشاغرة، ولا أحد يريد المجيء.كان التدهور في كل شيء وفي كل مكان، كل شيء في الخارج كان متدهوراً. إن المشكلة كما تعلم هي أنهم أسكنوا الكثير من الأجانب، الكثير من المغاربيين. وأنا أحزن عليهم أحياناً لأن فيهم أناساً طيبين. سكنت الحي وفيه أناس أحبهم جداً. هناك أناس يودون العمل، وهذا صحيح، إلا أنهم يتركون جانباً بسبب التمييز، فيجب على الإنسان أن يكون منصفاً على الرغم من أن الناس يقولون إنهم أشرار ولصوص. والواقع أنهم هم الذين صنعوا هذه السمعة. لكن لا أحد يتسامح معهم من جهة أخرى (..) وإذا ما

طلبوا العمل، فلا أحد يعطيهم. ولذا تراهم يسرقون ويعودون للسرقة من جديد.. لكن منهم شباباً كانوا يسرقون، صلحوا بعدما أوجد لهم العمل، وبدؤوا في بناء مستقبلهم إذ ملؤوا وقتهم.

إنهم لا يتسكعون حتى سن 18-20 أو 24 سنة إلا لأنهم لم يجدوا عملاً، وتعودوا على البطالة، ولم يعودوا يشغلون بالهم بهذا. وإذا ما عرض عليهم عمل أحياناً تجدهم ينتقون على الرغم من أنه ليس لديهم شيء. في زماننا، لم يكن الأمر كذلك، وهذا ما قلته لابني. نحن كنا عاملين وأكثر نزاهة من هذا الجيل الجديد. أما هم فكسالى ومتعبون دائماً، لقد حصلوا على كل شيء ولا مشكلة لديهم. ثم..

◆ ألا توجد بالإضافة إلى ذلك، مشكلة مخدرات هنا؟

ماريا: أوه، كلا، كلا، إن الأوضاع هادئة هذه السنة. وكان هناك الكثير والكثير. فلو أنك أتيت العام الماضي في أية لحظة، لوجدت سبعة، ثمانية شبان جالسين على الدرج، فذلك كان الملتقى. كنا نرى الغُدُو والرواح والمواعيد، وكل شيء، وتهريب المخدرات يجري أمام أعيننا. وكنا نحن المستأجرين نقول لهم أثناء نزولنا: «دعونا نمر على الأقل» وما كان لنا أن نكلمهم هكذا. كما كانوا يشعلون الأضواء (أضواء الدرج) دائماً. وكنت أطردهم أحياناً قائلة: «أنا آسفة، لكنني أنا التي تدفع ثمن الكهرباء، وأنا لا أريد». لقد كانوا من الكبار، فأصرخ فيهم أحياناً: «لقد سئمت من رؤيتكم هنا» ويجيبونني: «اسكتي، فنحن لطفاء معك» -«لكنني لا أريد رؤيتكم هنا». وحدث مرة أو اثنتين أن كان معهم شاب طويل القامة، أجعد الشعر، وقد أخافني حقاً عندما قال لي: «اسمعي يا سيدة، إذا صرخت سأقتلك» فشكوتهم عندئذ وناقشنا الأمر في الاجتماعات مع رئيس البلدية. ولا أعرف إلى أين ذهبوا، لكن الأوضاع هدأت على كل حال. المخدرات، آه، لا، يا إلهي!

أرى أن وضعنا ليس سيئاً مع ذلك

◆ عندما جددوا المباني، وضعوا أبواباً مصفحة؟

ماريا: أجل، في ذلك الوقت.

❖ وهل خُلع بابكم من قبل؟

ماريا: نعم، نعم، عندما سطوا على الشقة. إذ عملوا ثقباً في الباب، لأنها كانت أبواب.. (قليلة المقاومة) عملوا ثقباً في الباب ودخلوا. كان الوقت عطلة يومها ولم نكن في البيت فكان لديهم الوقت واستولوا على جهاز التلفزيون وجهاز الفيديو، ومجموعة صوتية مع أشرطة، وقناني وقطع عملة نادرة كان يقوم زوجي بجمعها ولديه الكثير منها، كل ذلك ذَهَبَ.

❖ كانت مجموعة ماذا؟

ماريا: مجموعة عملات فرنسية. لكن المنطقة صارت أفضل منذ أربعة أعوام. فالمساحات الخارجية أكثر نظافة وجددوا كل شيء(..) وأنا أرى أنه على الرغم من أن حينا ليس في عداد الأحياء الفخمة، فإن السكان يبدون اهتماماً أكبر، وأرى أن وضعنا ليس سيئاً مع ذلك، وأن الحياة في الحي تماثل مركز المدينة في الجودة. كما أننا ننعم بالدفء والماء الساخن والمصاعد ولدينا مكبات للنفايات في المطابخ، والإدارة الجيدة، على الرغم من أننا نعيش في مساكن شعبية. إن الشقق لا بأس بها. والمشكلة في الناس.. الذين ينبغي أن يعيروا شيئاً من الانتباه لأنفسهم.

❖ أنتم تسعون لشراء منزل، هل لمجرد الشراء أم لمغادرة فيلنوف؟

ماريا: آه، كلا، كلا، أنا لا أريد الرحيل عن فيلنوف كما تعلم. من الممكن أن نشتري منزلاً (..) لكنني لا أريد الرحيل عن فيلنوف فأنا أعرف كثيراً من الناس فيها، أناس طيبون جداً، ولا أريد الرحيل عنها. وإذا ما كان يوجد أشرار في فيلنوف فهناك أشرار في كل مكان. واللصوص -كما تعلم- ليسو في فيلنوف فقط. فأختي التي تقيم في تـ(محلة قريبة) سرقت سيارتها منذ أيام، وإذن.. إنها تقول إنهم أناس ربما من فيلنوف، ولا أحد يعلم إن كانوا كذلك. لأن المشكلات نفسها في الجهات الأخرى.

(أوضحت بأن أجرة المساكن تضاعفت منذ عملية إعادة الاعتبار: فهي تدفع الآن 2410 فرنكات شهرياً، أجرة لشقتها المكونة من أربع غرف مع مرآب بما فيها الأعباء. وتقول بأنه ما أن يتجاوز دخل المستأجر عتبة معينة

حتى يتضاعف الأجر، وهذا يسهم في جعل العائلات الميسورة تغادر فيلنوف، مفضلة الشراء في جهة أخرى).

في شبابي، لم يكن لدي شيء وكنت سعيدة.

❖ إنك تشتركين في الجمعيات وفي لجان الأحياء..

ماريا: نعم، لكنني تركت ذلك جانباً نوعاً ما هذه السنة، لأنني كنت أضيع الكثير من أوقات بعد الظهر، وتثور أعصابي أحياناً حينما أرى كيف يتصرف الناس(..) لقد تصايحت مع بعض العرب مرتين أو ثلاث، لم نتصايح بل.. كانوا يطلبون هذا، ويطلبون ذاك. لقد عملنا اجتماعات لنعرف ما يطلب الشباب، فإذا بهم يطلبون كل شيء. وهذا ما كان يثير أعصابي، ففي شبابي، لم يكن لدي شيء وكنت سعيدة وراضية، وهم ليسو كذلك.. وإذن، فلا ينبغي طلب كل هذا. يطلبون قاعة، ويطلبون هذا ويطلبون ذاك. فقلت للسيد س «الأفضل أن أبقى في البيت لأنني أشعر بأنني سأختصم مع العرب ثم..» لقد عملنا مع المركز الاجتماعي وأقمنا مأدبة ذات موضوع ثقافي، وعملنا أشياء عديدة. لست فرنسية لكنني أوروبية وهو بالضبط الشيء نفسه، ولا أدري فالناس يختلفون. إنه الدين، إذ كانوا يسألون إذا كان في الطعام لحم خنزير، أو فيما إذا لم نضع لحم الخنزير عمداً لأننا نعرف بمجيئهم! جلبنا خموراً، فلم يشربوا منها، آه، كلا، كلا، كلا، كلا، إنه محرّم! السيد أحمد قال: «آه، كلا، كلا، فالله لا يريده» فأجبته: «اسمع، الله نائم» وكان الوقت ليلاً«الله نائم، اترك الله وشأنه».(..) وبالإضافة للجزائريين، كانت هناك جمعية من السود وهم مسلمون أيضاً، جاؤوا مع نسائهم. أما جمعية الجزائريين فأتى منها الرجال وحدهم هكذا صراحة، بينما بقيت النساء في بيوتهن. فقلت بعد ذلك: «لن أقوم باحتفال معهم، بعد اليوم» ولم نقم بذلك منذئذ. إنهم ليسوا مثلنا كما تعلم، وهذا أيضاً ينبغي.. لسنا عنصريين، لكننا عندما نرى أشياء كهذه أحياناً مرة، مرتين، ثلاث مرات، نضطر إلى القول.. حسناً (..) أنا أحب جميع الناس حقاً، لكنني أقول: إذا فعلته من جانبي، فلِمَ لا تفعله أنت؟ حاول على الأقل! لنترك الدين، فلقد كنت كاثوليكية في إسبانيا، وكنا مضطرين للذهاب

للقداس، وما أن أتيت إلى هنا حتى انتهى كل ذلك، ولم أعد أحضر القداس. وحتى لو كنت أحضر القداس فما كنت لأمتنع عن الاحتفال مع عرب أو صينيين، أو آخرين، وأنا أفهم هذا. أما هم فينظرون من الباب، وإذا رأوا كثيراً من الأوروبيين، لا يدخلون لأنهم يودون أن يكونوا الأغلبية، وهذا منهم، فلا ينبغي أن يقال عنا عنصريين. إنهم الأكثر عنصرية. ويميل الحزب الشيوعي.. عندما تحدث اضطرابات وما شابه ذلك إلى إعطائهم الحق، ويرى إنه إذا لم يكن لهم عمل أو لا يريحون كفايتهم فذلك ناجم عن العنصرية معهم، وكذا وكذا. وكنا نقول للحزب أحياناً، اسمعوا، هم أيضاً عنصريون ولا ينبغي ذلك.. ولهذا تركت الجمعيات قليلاً كما قلت لك.

(تذكر السكان الذي يسببّون قذارة الممرات، ويرمون القمامة من النوافذ كقشور الموز وأوعية اللبن أو الحليب، وحفاضات الأطفال، لمجرد رغبتهم بذلك. ثم تتعرض للصعوبات التي يواجهها «الناس الذين يودون العمل ولا يجدونه»).

❖ هناك مشكلة البطالة لدى الشباب؟

ماريا: هو ذاك، كثيراً.

❖ وبالنسبة لولديك؟

ماريا: آه، كلا، كلا، ليست لدي مشكلة. هناك الكثير من المشكلات في فيلنوف ليست لدي (..) فليست هي المشكلات نفسها لدى الجميع كما ترى. إذ هناك عائلات تعيش جيداً في المنطقة. ولا ينبغي تصديق ما يقال عن أن الجميع يعانون من السكن فيها. كلا، هذا غير صحيح. فهناك عائلات تعمل، وهم اثنان أو ثلاثة في البيت ولديهم سيارتان أو ثلاث (..) حدثت كثير من التحسينات في الخارج، لكن المشكلات في الداخل مستمرة عند من لديهم هذه المشكلات. إنها المشكلات نفسها، البطالة.

❖ من هي هذه العائلات التي لديها مشكلات؟

ماريا د.: إنها العائلات الكبيرة على الخصوص، مهما كانت جنسياتها. العائلات الكبيرة دائماً. إذ من النادر أن تجد عائلة أكبر من

خمسة أو ستة أطفال دون مشكلات، مهما كانت جنسيتها. ولا أقصد الجميع.. فربما توجد عائلات.. هناك عائلة إسبانية، الوالدان فيها مطلقان، والأب ثمِل دائماً، أما الأم فليس لديها سوى العراك مع كل الناس بسبب أطفالها. وهنا، عائلة إيطالية لديها مشكلات أيضاً. أقول هذا للدلالة على أن العائلة الكبيرة تعاني من مشكلات، مهما كانت جنسيتها، إلا في حالة كون الأبوين حازمين ومستقيمين.. لكن الأكثرية هي من العرب، لأن عائلاتهم هي الأكبر. ومن النادر ألا تجد فيها واحداً أو اثنين أو ثلاثة من أفرادها – هذا يعتمد على عدد الأولاد- يتسكعون دون عمل أو دخلوا السجن، ولا أعرف عائلة مستثناة في فيلنوف، إذ كل العائلات التي أعرفها لديها فرد أو اثنان دخلا السجن. إنهم يغوصون في البطالة سنوات وسنوات، يُعطَون عملاً لثلاثة أشهر وأحياناً ستة ثم يعودون للبطالة من جديد. وتتواصل الأمور هكذا. وهناك شباب في الثلاثين أحياناً ولا يمكن القول بأنهم بدأوا العمل. إن هذا لو كان عندي.. أوه لا، لا، شاب كهذا عندي؟ فإن لم يكن قادراً على البحث عن عمل، قمت أنا بذلك. وإذا لم يكن العمل جيداً، فليس له إلا أن يجتهد أكثر في المدرسة. وهذا ما أقوله للعرب.

❖ وبماذا يجيبونك؟

ماريا: إنني أتكلم معهم كثيراً، فيقولون أحياناً «أوه، نعم، نعم» وأقول: «لكن، لِمَ لا تجتهدون أكثر في المدرسة؟ ثم تقولون بعد ذلك أنكم لا تعثرون على عمل، أو أن العمل ليس جيداً. عليكم بالكفاح، عليكم بالكفاح منذ المدرسة». «نعم، نعم، لكن الأمر صعب» -«والعمل، أليس صعباً»- «بلى، بلى، معك حق يا سيدة د. أوه، إنها لطيفة، السيدة د. وهي تسدي نصائح جيدة» لكنني أسدي لهم آلاف النصائح أحياناً. لقد قلت لهم «ألم تروا التلفزيون؟ إن فيه صحفيين عرب، فلا تمييز ضدكم إذا ما اجتهدتم في المدرسة، لكن عليكم الاجتهاد» فضحكوا، لأنهم يعرفونني وأعرفهم جيداً. وقد رأيت كل الشباب الموجودين هنا عند ولادتهم أو صغاراً جداً. قلت لك إنني هنا منذ 20 سنة (..) إنني أتذكر أننا كنا عشرة، وكان الأمر مختلفاً في

الماضي، فأبي يعمل فقط وينقصنا كل شيء، لكننا مع حاجتنا كنا سعداء. لكنهم الآن ليسو كذلك. إنهم ستة أطفال أو سبعة، وهناك الكثير من البيوت التي لا يعمل فيها الأب أو أنه الوحيد الذي يعمل وبأجر زهيد.

طالما كانت أمك هنا، فلن تعاني من البطالة.

❖ هل من مشكلات هنا في العثور على عمل؟

ماريا: إن مشكلة العمل هي المشكلة الرئيسية، لأنني أرى بأن العمل كل شيء حتى لو كانت الأجرة قليلة. يا سيدي، إن العمل كل شيء، العمل هو الحرية. لكن عندما لا يكون عمل هنا، يبدؤون في تدبر أمرهم بكل وسيلة. آه، العمل، بلى، بلى، لأن الشباب عندما يعملون يصيرون جادين إلا إذا كانوا من المتسكعين كما قلت آنفاً، إذ هناك شباب يتسكعون، لكنهم أقلية مع ذلك (..) لا يمكن أن نحل جميع المسائل 100%، فهناك استغلال لبعض الناس واستغلال لبعض الأوضاع ولذا نجد رجالاً يستغلون وضع البطالة. قبل أن يعمل ابني مع أبيه ويذهب إلى الجيش اشتغل بعقد في الالكترونيات لمدة عام؛ حيث كان يركب صفارات إنذار وهواتف في السيارات وما إلى ذلك. وكان العقد لستة أشهر، ويعلم ابني أن لديه الحق في تعويض البطالة بعد ستة أشهر من العمل، ولذا أراد أن يتوقف. لكنني قلت له: «اسمع أيها المسكين، إنني ما زلت هنا» فأجابني بأنه سيأخذ عطلة، وأخذنا عطلتنا في شهر آب، لكنني في أيلول قلت له: «ستذهب للبحث عن عمل» ولم يكن يريد ذلك، ليس تماماً، بل كان يماطل. يا إلهي! يذهب زوجي إلى عمله، وأنهض أنا تاركة ابني حتى التاسعة، وفي التاسعة أفتح النافذة وأسحب الأغطية، كان وقتها في الثامنة عشرة وقد أتم المدرسة. فقلت: «ستذهب إلى الوكالة الوطنية للتشغيل وتبحث عن عمل» -«حسناً، لقد كنت البارحة هناك»- «لكنك ستذهب اليوم أيضاً». وأستمر هكذا حتى أثير أعصابه فيرتدي ثيابه ويذهب. كنت أقول: «هيا اذهب، فلن تبقى في السرير على الأقل» وظللنا على هذه الحال طوال شهر أيلول، قضيناه نحن الاثنين؛ لقد كنا نتشاجر كل يوم. قلت له: إذا لم تُرِد متابعة الدراسة فهي مشكلتك، إذ كنا ندفع له تكلفة

المدرسة الخاصة وكل ما يتعلق بذلك. فقال: لا. فقلت: «ما دامت أمك هنا، فلن تعاني من البطالة». أقسم لك بأننا ما دمنا بصحة جيدة فلا بطالة، وأمضينا شهراً نتشاجر، قائلة له كل يوم نفس الكلام، حتى ذهب إلى وكالة العمل بالوكالة وعمل بضعة أشهر. وما أن استلم زوجي الورشة حتى حُلّت المشكلة. لكنه بقي شهراً، نتشاجر فيه كل يوم.

لقد قلت عندئذ: «أنا آسفة، لا، لا، لا». أنا أعلم أن لا عمل لكل هؤلاء الشباب، لكنهم لو كانوا معي لعملوا، أقول هذا لأبين لك عقلية ابني آنذاك. وهذا ما أردت تبيانه في البداية؛ إذ يوجد شباب لديهم الحق في تعويض البطالة، وطالما يدفع لهم هذا التعويض، لا يشغلون بالهم، فإذا توقف الدفع يعملون ثلاثة أشهر أو ستة، وهكذا دواليك،أتفهم؟ إنهم أقلية، لكنهم موجودون. وهناك آخرون يشتغلون عندما تُعطى لهم وظيفة، حسناً، وما أن يبدؤوا العمل حتى يتابعوا. (..) أقسم لك بأنه فيما يتعلق بي، الاثنان يعملان كلاهما؛ الصغير يعمل في المدرسة هذه الآونة. أستيقظ الأولى، الساعة السابعة أو السادسة والنصف من أجل عملي. فهل أترك الشاب نائماً أو متكاسلاً؟ بينما أعمل أنا وزوجي كالكلاب! آه، لا! لكنني أعرف أيضاً أن كل الناس ليسوا مثلي.

لقد عملنا جميعاً، جميعاً كما ترى. وندفع أبناء هذا الجيل أيضاً للعمل. لأخي ولد متزوج يعمل هو وزوجته، ولديه بنتان تدرسان كلتاهما، وولد رابع يعمل. الكل بالنسبة لنا وللإسبان، يعملون في وظائف متواضعة نوعاً ما، ولكنهم مع ذلك يكسبون عيشهم، والأمور تسير. وهم ليسوا من العائلات التي تتسكع وتضايق الآخرين، وإذا كسب أحدهم 5000 فرنك، فليكن. إنني أعرف كل الناس في مركز المدينة، وهم يتدبرون أمورهم بما لديهم سواء أكانوا متقاعدين أم عاطلين عن العمل أحياناً. فالعائلة التي تكسب 5000 فرنك، تعيش بمستوى هذا المبلغ، وتلك التي تكسب 10000 فرنك كذلك.. نعم. أقول للولدين دائماً أن عليهما الاحتفاظ بروح المنتصر في عقليهما وأن يعملا ويتجنبا الإهمال والتسكع؛ فبالعمل نبلغ كل شيء، ولا

ينبغي أيضاً أن تثبط عزيمتنا ونستسلم. إذ هناك أوقات نحس فيها بالإحباط، وأقول لهما أيضاً: إذا ما كسبنا كذا وليس بمقدورنا كذا، فأنا ما فعلت في حياتي عملاً مشبوهاً قط. ولم أذهب قط إلى مكان مشبوه، ولم ألبس قط لباساً مشبوهاً. أعيش بقدر إمكانياتي. نعم، لقد أوصيت ولديّ بأن لا تكون لديهما أوهام أكبر من إمكاناتهما في السكن أو.. لقد سكنت هنا 20 عاماً، وكانت الأمور جيدة، وما كان ضرورياً أن نسكن في حيٍّ راقٍ وندفع 4000 فرنك للكراء.. أنا باقية هنا. أنا شريفة وسأبقى هنا، وليكن ما يكون. هنا، أستطيع الدفع، أما هناك فهل أستطيعه؟ لا أدري.

آذار 1991

غابرييل بالاز

استثمار خاسر

السيدة تيلليبه هي رئيسة لجنة الدفاع عن التجار في مدينتها. وحانوت الأدوات الرياضية الذي افتتحته منذ سنة، نُهب ثم أُحرق ولم يبقَ منه إلا هيكل متفحم.

لم يكن في هذا الحي المكون من أبراج ومجمعات كبيرة سوى عشرين من صغار التجار، يبيعون المواد الضرورية. لأن إقامة المحلات التجارية في منطقة السكن العمالي هذه تمثل مخاطرة واضحة أهمها السرقة. وإذا كانت المساحات التجارية الكبرى مضطرة من خلال الأنظمة إلى مواجهة هذه المخاطر على الرغم من ترددها القوي، فإن التجار الصغار الذين لا تتوافر لديهم إمكانات المراقبة والتأمين نفسها، يفضلون تجنب هذه الأحياء. فحينما اندلعت الحوادث التي أدت إلى نهب المركز التجاري الصغير، جذبت الأدوات الرياضية الناهبين في المقام الأول، لأنها مرغوبة وعسيرة المنال نسبياً على الأطفال والمراهقين، قبل محلات بيع المشروبات والنظارات والأحذية. وهكذا تبدو تجارة السيدة تيلليبه «في غير محلها» لا سيما في هذا الحيّ. وعلى العكس من عدد التجار الصغار، فإنها لم ترِث حانوتها، بل أصبحت تاجرة في وقت متأخر وهي في الخمسين، بعد أن مارست مهنتين اخريين، لا علاقة لهما بالتجارة (وظيفة مكتبية). والإخفاق المتمثل في

تقويض حانوتها الذي يرجع في جزء منه إلى عدم خبرتها، مؤلم. لا سيما أن هذا الإفلاس هو أيضاً إفلاس المشروع الذي بنته بطول أناة بغية الارتقاء.

غير أن إقامة هذا الحانوت لم تكن وليدة الصدفة مع ذلك، على الرغم من أن السيدة تيلييه لم تكن محاطة بكل الضمانات التي يؤمّنها عموماً أولئك الذين يملكون الخبرة في هذا المجال (دراسة الجدوى الاقتصادية خصوصاً). إذ كان لها ميل قوي للرياضة: لأنها تربت كما تقول «في الميدان» فأبوها كان مدرِّباً، أما أمها فلاعبة كرة سلة، وأخوها أستاذ للتربية الرياضية. إلا أنها لم تستطع اتخاذ الرياضة مهنة، لأن الفتيات والأولاد في زمانها لم يكونوا يتلقون التشجيعات نفسها لمتابعة الدراسة («كانت أمي تقول لي: اسمعي، ستتزوجين، وزوجك هو الذي سينفق عليك»). وبعدما تابعت تكويناً مهنياً في الكتابة الآلية والمحاسبة «وهي مهنة لم تعد موجودة، باعتبار أن كل شيء مُحوْسب الآن» شجعتْ ابنتها كما شجعت ابنها على احتراف الرياضة (ابنها أستاذ في الجمباز، ويشترك في المباريات ويتجه إلى «التخصص في التدريب»، أما ابنتها التي تدرس من أجل تعليم التربية الرياضية، فهي حائزة على بطولة فرنسا في تخصصها). فهي عندما غيرت مهنتها إذن، كانت تفكر بإمكان استعمال معرفتها للوسط الرياضي، وتذوقها للرياضة في هذا المَنشط التجاري.

عملتْ في البداية مستخدَمة في منشأة صغيرة للألبسة النسائية الداخلية، قبل أن تسرَّح نتيجة لإفلاس تلك المنشأة، ووجدت نفسها آنئذ مضطرة لتغيير مهنتها من جديد. لكن قبل إغلاق المنشأة نهائياً، تم احتلالها من قبل العمال طوال سنتين. وبما أن السيدة تيلييه قامت بدور هام في الحركة، فقد كانت على علاقة وثيقة بالبلديات التي كانت تساند مستخدَمي المنشأة. وقادتها روحها النضالية إلى ترشيح نفسها للانتخابات البلدية. وهي تقول عن تلك الفترة «إنها لم تكن تحسن الموازنة بين الحياة المهنية والحياة الأسرية» وكانت تخصص القليل من الوقت لولديها «اللذين كانا

يعمـلان واجباتـهما المدرسية فـي المصنـع» ولزوجها المعلم خصوصـاً، والـذي انفصلت عنه بعد قليل. لكنها انتُخبت فـي المجلس البلدي، وكُلفت بالنشـاط الرياضي. وهكذا اعتقدت عند إقامتها لحـانوت الرياضـة أن بإمكانـها أخيراً وضـع خبرتـها وإمكاناتـها موضـع الفـائدة و«تثمـير» كـل تلـك السـنين مـن «الكفاح».

إنها تعاني شعوراً قوياً بالظلم الذي وقع عليها، إزاء الدمار الذي لحق بحانوتها، لا سيما وأنها خصصت كل طاقتها عندما كانت في المجلس البلدي ليس فقط للمناشط الرياضية بل أيضاً للدفاع عن سكان الحيّ الذين تعـرف مـا يعانونـه مـن «بؤس خفـي»، وذلـك بمعارضتها لبعض إجراءات المصـادرة، وإخطار السلطات العمومية. وعلى الرغم من الوضع المؤلم الذي يتعين عليها مواجهتـه، فإنـها لـم تنسَ التذكير، خـلال الحديث، بـأن سـكان الحـي «فقـراء جـداً» و«مـا دام الشـباب دون أمـل فـي المسـتقبل (..) فلـن يكـون بوسـعهم الالـتزام ولا الـزواج والحصـول على مهنـة..» وأن تعويض البطالـة أو تعويـض الاندمـاج «لا يكفـي أي منهما حتى لدفـع الكـراء» لكنـها تعـترف فـي المقـابل بأنـها «لـم تعـد تنـام» فقـد ذهبت كل جهودهـا أدراج الريـاح علـى الرغـم مـن «التضحيات المضاعفة» التي كان عليها القيام بها. كمـا أن التنـاقض بـين مـا حصـل لـها وبـين معتقداتـها السياسـية، يجعـل مـن الصعـب عليـها احتمـال «السـرقة أمـام عينيها(..) والشـتائم» واحتمـال رؤيـة الذيـن نـهبوا وأحرقـوا الحانوت وقد أُطلق سـراحهم سريعاً: «نرى الشاب ثانية في الغد.. فقد أُطلق سـراحه. إن هـذا مثـير للأعصاب حقـاً ومنـهك (..) بـل خطـير. لأنـهم جـاؤوا ليسـتهزئوا منـي حتـى مـن خـلال الواجهـة الزجاجيـة، وقـد كـان بإمكانـهم إذا شـاؤوا (تـردد) لنقـل، أن ينتقمـوا، لأنـهم أُوقفـوا بسـببي.(..) إننـي أشـعر بـالعجز». غير أنها وعلـى الرغـم مـن كل شـيء، لا تـترك الكراهيـة والحقـد يسـتوليان عليها، وتستمر فـي التصـرف وفقـاً لمعتقداتها. فبمـا أنـها لـم تكـن تسـتطيع مثـلاً دفـع مرتـب لموظـف فـي حانوتـها السـنة الأولـى، اضطـرت إلـى استخدام عاملة قيد التدريب «لأنها جاءت تستعطفها حقاً» لكنها «ضد هـذه

الأساليب التي تتمثل في استخدام اليد العاملة الرخيصة». أما الدورات التدريبية، على اختلاف أسمائها، فتبعث الابتسام إلى شفتيها لأن «ما يسمى بالخطة الجديدة.. لا تؤدي عند الخروج إلا إلى وظائف زائفة» وقد كان شعورها هذا على أشده في علاقاتها مع المتدربة التي قبلتها «لم أكن أجرؤ حتى طلب أي شيء منها.. بما أنني ضد هذا، نظراً إلى أصولي.. إن هذا يؤلمني».

وهي ثابتة في اعتقادها بأن مرد العنف أسباب اجتماعية أو حتى سياسية، وليس مردّه أشخاصاً أو طبيعة هؤلاء الأشخاص. («عندما نحشر كل الحالات الاجتماعية في نفس المحلة، كل مشكلة أزمة السكن، زيادة على ذلك») وهي برفضها اعتبار الناس مسؤولين، تسعى من خلال تحليل نضالي للمدرسة وسوق العمل إلى زيادة وسائل تتيح لها فهم ما حصل لها أو تحمّله على الأقل.

مع صاحبة متجر

حديث مع غابرييل بالاز

«الحانوت.. لم يعد فيه شيء»

❖ ألم تمارسي التجارة من قبل؟

تيلليبه: آه كلا، لم أمارسها قط. وفوق ذلك، أنشأت تجارتي لوحدي، وفي حي ساخن جداً، ولا تسألي عن الصعوبات التي واجهتها، فهناك الكثير عما يمكن قوله. ومع ذلك فقد عملت عاماً ونصف، لأنني فتحت الحانوت في أيار 1989، وفي تشرين الأول 1990، لم يبقَ فيه شيء. لقد نهبوا كل شيء.. فكان حانوتي واحداً من المحلات التي نُهبت وأُحرقت. وقد بدؤوا به.

❖ .. هل كان رمزاً للرياضة، أم ماذا؟ هل كان رمزاً للأشياء المرغوبة؟

تيلليبه: .. أجل، إنها بضائع يتمنى الشبان الحصول عليها كثيراً.. وباستمرار، كان شباب يودون الحصول على هذه الأدوات دون أن يدفعوا. حقاً إن هذه الأدوات مرغوبة جداً. إذ يشاهد الكثير من الشباب بالألبسة الرياضية، ولم تعد هناك ألبسة مدنية تقريباً -إذا صح القول- إنه الجينز الآن أو البيجاما الرياضية وحذاء التنس. وهو الزي الذي يسعون إليه.. ثم إن تلك الأدوات تكلف غالياً حقاً، وليست في متناول إمكاناتهم المادية، وإذن..

◆ هناك فارق بين ما هو معروض هنا.. وبين إمكاناتهم. وإذن ظهر حانوتك كـ..

تيلليه: نعم، لقد نُظر إليه على أنه استفزاز، وحقاً لقد سطي على الحانوت ثلاث مرات: اثنتان مع الكسر، إذ دخلوا من السطح مرة ومن الحائط أخرى، لكنهم توقفوا في المرة الثالثة، وكان ذلك قبل.. لكنهم ألقوا على الحانوت كوكتيل مولوتوف.. وهذا شيء لم نره قط..

◆ وكل ذلك خلال سنة؟

تيلليه: أجل، خلال سنة، سنة ونصف. كوكتيل مولوتوف، لم نر شيئاً كهذا هنا. وكل ذلك بسبب بطاقة ائتمان سرقت وأوقفت وصودرت فحدث الانتقام من بعد. لقد كانت سنة قاسية جداً. وبما أنه ليس من طبعي السكوت على حقي أو الاستسلام فقد قاومت. وينبغي أن أقول بأنني لم أكن وحدي على الرغم من كل شيء، فقد تعاطف الزبائن معي، ولي معارف كثيرون منذ أن سكنت هذه المدينة. وإذن فلم يكن هناك سوى صغار الأوغاد لحسن الحظ. إلا أن ما حصل أدى ربما إلى توفز أعصابي، على الرغم من كل شيء، فلقد عانيت من كل هذا بما فيه الكفاية.

«كان المفروض التصرف من قبل»

◆ نعم، أعني أن ظروف العمل كانت صعبة بصورة خاصة. لكنك عندما قررت، كنت تعلمين.. فأنت تعرفين الناحية جيداً..

تيلليه: نعم، كنت أعلم. لكنني ما كنت أظن أنها على هذا القدر. ولم أظن أن الأمور ستكون بهذه القسوة، ثم إنه قبل هذه الفتن، حدث جديد هو أن الكثيرين من متعاطي المخدرات أخذوا يأتون، فأخطرت مفوضية الشرطة، وأخطرت المُنتخَبين أيضاً، فالجميع كانوا على علم، ولكنهم لم يعملوا شيئاً. وقد أخبرتهم أيضاً بأن أشياء ستحدث لأن المتاجر كصندوق الصدى، نعلم فيها كل شيء، كما كان يأتيني شباب لرؤيتي والحديث معي أكثر الأحيان، ونشأت بيننا علاقات لأنني أول ما عرفتهم في الملاعب الرياضية، وهو ما سهّل الحوار بيننا. وقد علمت أنهم ينقلون الحجارة إلى

البنايات، ويهيئون.. متاريس (..) والحق أنه كان من المفروض التصرف من قبل على كل حال، لأن ذلك كان متوقعاً. وتحدثت مع المحافظ بهذا الشأن، وقلت: إذا لم نفعل شيئاً حيال هؤلاء الشباب، فستكون العاقبة وخيمة. أنا مع تجديد الحي بالطبع، إلا أنه لا تكفي بضع ضربات بالفرشاة على البنايات لحل المشكلة. فما كنت أظن أن الدمار سيكون بهذه الضخامة.

❖ لقد مسّ الدمار كل المحلات التجارية هنا، حيث..

تيلليبه: آه نعم،.. لكنها مسّت جميعاً بسبب الحريق.. أما المتاجر التي استُهدفت على وجه الخصوص فهي دكان المشروبات -فلقد استعملوا الزجاجات لكوكتيل مولوتوف، زجاجات الكحول- وحانوتي بالطبع، ثم محل النظارات الذي سرق منه الكثير، ثم دكان التبغ، والأحذية أيضاً، والمجمع التجاري الذي نهب.. إنها المتاجر جميعها، نُهبت ثم أُحرقت. ومن هنا أستطيع القول بأنني قدمت لهم معونة اجتماعية إذ ألبستهم مجاناً من رؤوسهم إلى أقدامهم، وكان عليك أن تري بضائع الحانوت تباع بعد الحوادث جهاراً. وكانوا يعرفون.. إنه الجنون، أما عن الاستفزاز فطالما سمعته في الحي، لأنني أقوم بالمناوبات في المحل الذي وضع تحت تصرف التجار، كما أتجول في الحي كثيراً.

❖ وإذن فقد استطعتم الحصول على محل ثانية؟

تيلليبه: محل مؤقت. لكنني لم أستطع استئناف عملي لأن تجارتي موسمية نوعاً ما، أي أنّ عليّ أن أطلب الأدوات الرياضية مقدماً، قبل ستة أشهر. أما الطلب الخفيف فيتم الآن. وإذن فقد استحال علي أن أنطلق هكذا بين عشيّة وضحاها.

(..)

(أخذت تعدد المساعي التي كان عليها القيام بها مع شركات التأمين للحصول على التعويض، وسلسلة المعاينات التي قام بها الخبراء، والمعاينات المضادة الضرورية من أجل تحديد المسؤوليات. وشرط الحصول على التعويض هو إعادة افتتاح المتجر في الحي نفسه)

«نداءات هاتفية من مجهول»

(رن جرس الهاتف، فبينت السيدة تيللييه أنها ركبت جهاز إجابة آلي، لتحمي نفسها من النداءات الهاتفية المجهولة).

❖ إن هذا ينعكس في النهاية حتى على الحياة الخاصة.

تيللييه: نعم، لقد حصل هذا في أعقاب الحوادث، لأنني تحدثت في التلفزيون باعتباري رئيسة لجنة الدفاع عن التجار، إلخ.. ولّمحت على الخصوص إلى أنه يجب فعل شيء مع هؤلاء الشبان. وقد فعلت هذا عمداً، لأن الحزم ضروري أحياناً، فقد كان هناك الكثير من التساهل.. والحوادث لم تنته واستمرت: سيارات محروقة، استفزازات في الحي، وقد تسلّح الناس -وما زالت المشكلات مستمرة (..) فمن النادر إذا ما تحدثت في الحي ألا أسمع كلاماً عن بندقية.. نعم، إنه التوتر.

❖ ومن هم؟ أهُم شباب، أهُم من السكان؟

تيللييه: إنهم من كل الفئات.

❖ هل هم تجار؟

تيللييه: من كل الشرائح: نعم، هناك تجار، ومن سكان الحي. وقد سمعت من مدة قريبة طلقات نارية لأن سيارة أحد السكان كانت تسرق. إن العاقبة وخيمة.. لأن المرض مزمن. وهناك منشآت بلدية سُطِي عليها. لقد تحدثت مع حراس للبنايات أمسوا مسنين الآن، ولا يعرفون القيام بعملهم. إذ يشاهدون أناساً يُشتمون، ولديهم أوامر بألا يتدخلوا.. فباسم عدم الاستفزاز، يُترك المسيئون يفعلون ما يشاؤون! تُرى إلى أي حد سيُتركون؟ هنا المشكلة. وهم الآن يشتمون الشرطة بسهولة، دون أي ردّ فعل.

«إنهم لا يستطيعون امتلاك كل الأشياء
الجميلة المعروضة أمامهم»

تيللييه: لهذا قلت لك أنني كنت وحيدة مع الحانوت في هذا الحي الصعب. كان علي مواجهتهم ومراقبتهم، فهم زبائن، وهؤلاء الشباب الذين كانوا

يأتون للسرقة.. فزيادة عن الكلام والشتائم، كانوا عدوانيين عدوانيين جداً. وحتى عندما لا تكون الشتائم فهو أسلوبهم الفظ.. وكل شيء من حقهم. إنهم لا يستطيعون امتلاك كل الأشياء الجميلة المعروضة أمامهم، إنه مجتمع الاستهلاك. حتى أنهم جاؤوا قبل اندلاع الحوادث ليسرقوني أمام عيني، وكانوا يفعلون ذلك خفية فأوقفتهم. لقد سرقت فردة حذاء كانت معروضة، فلم أنتبه إذ كيف يسرقون فردة واحدة! وعاد السارق من جديد يبحث في العلب عن الفردة الثانية. وهنا حدثت ملاسنة بيننا «ليس لديكِ الحق في النظر» وخرج ومعه الفردة الثانية، وكنت أمام الباب فدفعني. نظرت إلى طاولة العرض وفهمت كل شيء.. لهذا كنت متحفزة دائماً، ودائماً.. كنا نتساءل..

❖ لم يكن الوضع مريحاً؟

تيلليبه: كلا، كلا، كلا، ودون الكلام عن الليالي التي لم أكن أنام فيها. فعندما دخلوا الحانوت مرتين في الثانية صباحاً، كانت توقظني الشركة المكلفة بالمراقبة «اذهبي إلى حانوتك بسرعة، إنهم يحطمون كل شيء» وكان ذلك يترك في نفسي أثراً غريباً.

❖ هل هناك شركة مراقبة مشتركة في..

تيلليبه: نعم، لقد كان لدي اتصال فرعي مباشر مع مفوضية الشرطة. وعندما كنت أصل إلى الحانوت أجد الشرطة، والصبيان..

❖ إن هذا مثير للقلق نوعاً ما؟

تيلليبه: أجل، فلم أعد أذوق طعماً للراحة وأنا أفكر دون انقطاع في الحانوت. وهذه لم تكن المشكلة الوحيدة لأن رقم المبيعات كان منخفضاً.. ولهذا فقد أمضيت تلك السنة..

❖ لقد كان الأمر أشد قسوة مما لو افتتحت حانوتك في جهة أخرى؟

تيلليبه: نعم، نعم، بالتأكيد.

«إنه بؤس حقيقي»

تيلليبه: عندما قدمنا عام 1967، لم تكن المنطقة قد بنيت بل كانت

أرضاً فضاءً بعيدة عن المدينة الكبيرة.. لقد كانت أشبه بالمستنقع. وأذكر أنني كنت أسمع الضفادع عند عودتي من التدريب. لقد كانت ريفية حقاً. وهي حتى الآن زراعية، إذ لا زال هناك مزارعون، و150 هكتاراً لزراعة الخضار(..) ثم بدأت المشكلات، كل المشكلات التي تولدها منطقة الإعمار ذات الأولوية (ZUP) مثل القدرة الشرائية والبطالة..إلخ وجاءت الأزمة الاقتصادية فعقّدت تلك المشكلات. وأنت لا ترين البؤس، لأن عليك الدخول إلى المساكن الشعبية، إلى الشقق، لتري كيف يعيش الناس. وباعتباري منتخَبة، كانت لي الفرصة..

◆ للذهاب إلى بيوت الناس، بيوت الآخرين؟

تيللييه: أجل، وقد اعترضت على بعض المصادرات..إلخ ينبغي أن ترَي ما في الداخل؛ لا شيء سوى طاولة ومَرتبة على الأرض. لم يعد الوضع الذي كان في مدن الصفيح التي عرفناها في الماضي، لكنه بؤس حقيقي، والموقد المسطح، وبعض علب الأطعمة المحفوظة على الطاولة.. إن البؤس لا يُرى حقاً، على عكس مدن الصفيح التي كنا نعرف ما فيها. لكن هنا بنايات..

◆ ثم إن الكثير من الناس يعيشون بالتأكيد على رواتب زهيدة، وهم الأغلبية. إلا أن هناك من يعيش على تعويض الاندماج[1]، وما يشبه ذلك.

تيللييه: هل تدركين المشكلة؟ إن قدموا للشباب العمل ذو النفع العام (TUC) بأجر 1900 فرنك شهرياً، وتعويض اندماج (RMI) ويقدر بـ 2000 فرنك شهرياً، فماذا يمكن أن تعملي بهذا؟ إنها لا تكفي حتى لدفع الكراء. لا، ولهذا السبب لابد من القيام بدراسات، وتجديد البنايات.. لكننا إذا لم نستأصل الداء من جذوره، فإننا نكتفي بذر الرماد في العيون، ولا نسوي أية مشكلة أبداً، طالما بقيت قدرة الناس الشرائية ضئيلة، وطالما فقد الشباب الأمل في المستقبل، وهذا مأساوي للشباب، أتدركين ذلك؟ إذ أنهم لا

---

[1] هو تعويض يعطى في فرنسا لمن دخل سوق العمل ولم يعمل بعد. بخلاف تعويض البطالة الذي يعطى لمن كان يعمل لستة أشهر على الأقل ثم سرح من عمله. – المترجم –.

يستطيعون الالتزام أو الزواج، ولا يدرون إذا ما كانوا سيحصلون على مهنة. لقد أفهموني عندما كنت أطالب بأن يكون للناس حق العمل وحق السكن بأنها طوباوية..إلخ حسناً، لم يكونوا يريدون الإنصات، وهم مستمرون في إغلاق المصانع. لقد رأيت بنفسك. استمعي إلى المذياع، كم من العمال سُرِّحوا في أيرفرانس وفي أمكنة أخرى! إنهم يستمرون في إغلاق المصانع؛ فكيف يمكن للعائلات أن تعيش حياة لائقة. إذ طالما استمرت المشكلات المالية، فكل شيء يفسد ويتدهور. وهناك المدرسة أيضاً؛ فهل المحتوى والبرامج المدرسية متلائمة مع ما ينتظره الشباب منها الآن.. إن ابنتي تقول لي: «أنت تدفعين بي للدراسة يا أمي، غير أنني سأذهب في النهاية لتسجيل اسمي في الوكالة الوطنية للتشغيل (ANEP)» وتتابع قائلة: «سأحاول الحصول على شهادتي ومن ثم أرى ما سيكون» إذ هي لا تريد قضاء أربعة أعوام في الدراسة وهي تعرف بأن لا وظيفة لها.. أذكر أنني حينما انتُخبت شعرت بالإحباط.. فكم استقبلت من شبان، في كل وقت، مستعدين للعمل بأي أجر حتى في كنس الملاعب. كانوا يطلبون مني وظيفة في البلدية، حتى لو اضطروا لحراسة الملاعب أو كنس قاعة الجمباز، مع أنهم من حملة الشهادات، إن هذا جنون. وذلك كل ما كنا نقترحه على هؤلاء الشبان فليس بوسعي حتى تعيينهم، لكثرة طلبات العمل..

(..)

(تستذكر السيدة تيللييه تجربتها في المجلس البلدي التي مثلت تدريباً ميدانياً -«ليست هناك مدرسة للمُنتَخَبين»- وماذا عن المتاعب التي سببتها لها «حياتها السياسية»: -«من الصعب علي أن أجد وظيفة، لأن اسمي مؤشر عليه باللون الأحمر»)

«إنني في الضباب حقاً»

❖ هل لديك النية بعد أن تسوى الأمور، أن تقيمي الحانوت في جهة أخرى؟

تيللييه: كلا، سأترك التجارة.

(..)

❖ إنك ترين مستقبلك في الواقع.. ضبابياً؟

تيلليبه: إنني أراه أكثر من ضبابي، إنني حقاً في الضباب.

❖ بما أنك قررت عدم استئناف التجارة، مع اضطرارك لاستئنافها من أجل التعويضات، فهل ترين أن التجارة ليست هي الحل بالنسبة إليك؟ وهل هي تجربة أقل خصوبة من تجربة المنتَخَب مثلاً..

تيلليبيه: آه نعم، إنه الشيء نفسه دائماً. ومن يقول لي بأنني أتجه هذه الآونة للتجارة، فأنا لن أعود إليها، لكنني لا أجد خياراً آخر. وهنا سأكون بصورة آلية مضطرة، لأنني أجد نفسي في وضع لم أعد أستطيع معه الاختيار.(..) فعندما لا يكون لدى الإنسان شهادة جامعية، عليه أن يعمل الضعف.. وليست لي شهادة جامعية ولا ثقافة..

❖ نعم، فقد وجب عليكِ بالفعل، إذا فهمتُ قصدك جيداً، أن تكافحي على جميع الصُعُد؟

تيلليبيه: هو ما تقولين، بصورة كلية.

آذار 1991

غابرييل بالاز

إعادة الاعتبار

السيد حسين واحد من أقدم المستأجرين في الحي. وقد توجب إخلاء البناية التي يسكن فيها، والواقعة قرب المتاجر التي أُحرقت، ليعاد طلاؤها بعد ذلك. قدِم السيد حسين إلى الناحية في السبعينيات. وهو عامل مؤهل في السكك الحديدية التونسية، وابن عامل في السكك الحديدية أيضاً. وقد عمل سائقاً عشر سنين قبل أن يهاجر إلى فرنسا، ويقبل وظيفة عامل مختص على سلسلة التركيب في منشأة لإنتاج الشاحنات. ونظراً لأنه لم يحصل على الوظيفة التي تؤهله لها شهادة الكفاءة المهنية في التسوية والتركيب بالإضافة إلى سنة دراسية في الرسم الصناعي، فقد ترك المنشأة، وعثر بوساطة صديق تونسي، على وظيفة مراقب آلات في منشأة للصناعات الكيميائية. وعندئذ غادر البيت الذي كان يقيم فيه والمخصص للمهاجرين، وجاء للاستقرار في الحي.

وقد بدا له الحصول على مسكن في هذا الحي أعجوبة في ذلك الوقت. إذ يدين بالفضل في الحصول على الشقة التي غيرت مجرى حياته إلى الرئيس الفخري لنادي كرة القدم الذي كان يتدرب فيه؛ فسيكون بإمكانه الزواج واستقدام زوجته.. وهي معلمة تونسية (بعد إنجاب ثلاثة أولاد، سيحصل على مسكن أكبر قليلاً). أخذ الحي في التدهور خلال الثمانينيات،

إذ كان وضع المستأجرين الجدد حرجاً، نظراً لأن أكثرهم عاطلون عن العمل. ولم يكن أمام السيدة حسين إلا إبقاء أولادها في البيت للحفاظ عليهم من العنف السائد في الحي، وهي تتمنى الرحيل إلى مكان «أكثر هدوءاً». لكن زوجها اعترض على الرحيل، معتبراً أن التنكر للتضامن هو التنكر لنفسه، ولهذا انهمك في تغيير المكان، بادئاً بالدفاع المتأني عن المستأجرين، ثم مراقبة الصيانة والأعباء التي تقوم بها شركة السكن المعتدل الكراء (HLM) (وقد عرض أثناء اللقاء ملفات مفصلة عن الفواتير المفرطة للمصابيح والماء..)، وأخذ في مدّ يد المساعدة للمستأجرين في كل مساعيهم (شرح أثناء اللقاء لجارة مسنة حائرة جاءت تستشيره، كيف تسوّي مشكلتها مع الشركة). وكان يحاول الدفاع خصوصاً عن الصورة الحسنة للحي في مواجهة صورة الغيتو التي تميل إلى فرض نفسها. وقد عرض لنا أثناء اللقاء الملف الصحافي الذي كوّنه منذ الأحداث، محللاً هذا الملف تحليلاً متأنياً، وحافظاً فيه الرسائل التي بعث بها إلى إحدى القنوات التلفزيونية، ويحتج فيها على الطريقة التي تكلمتْ بها عن سكان الحي. وجَعلَنا نقرأ الرسالة التي كتبها للصحفي المسؤول عن برنامج تلفزيوني، وجواب هذا الصحفي. وسواء تعلق الأمر بمجرد فاتورة أم بإعادة الاعتبار في الحي أم بمصير كل واحد من المستأجرين أم بالعلاقات مع البلدية الشيوعية -التي يساندها- أم العلاقات مع وسائل الإعلام، فإن حسيناً يعتبر نفسه الناطق باسم هوية عمالية مهددة. ومن الواضح أنه يرمي من وراء صيانة الحي وحسن مظهره، إلى النضال في سبيل وعي مدني ضائع. فأقدميّته في الحي، ومؤهلاته كعامل، وموقفه المنزّه عن الغرض (حاولت شركة السكن «شراءه» إذ اقترحت عليه إعادة إسكانه بشكل أفضل في جهة أخرى). كل ذلك يجعل منه مناضلاً لا غبار عليه.

وهو يناضل على كل الجبهات: يناضل لإعادة الاعتبار إلى صورة الحي، ويناضل في عمله للدفاع عن كرامته (ترك عمله فجأة على إثر مشاجرة مع زميل عاملَه بعنصرية) ويناضل في حياته الخاصة بالتضحية

من أجل أسرته التي يسودها التفاهم والتربية الحازمة (حضرت زوجته جانباً من اللقاء، أما أولاده فجاؤوا هنيهة إلى الصالون، وقد بدا عليهم احترام صامت وانتباه لكلام والدهم). وهو في نضاله ذاك يستهدف الحفاظ على صورة له أو استعادة تلك الصورة.

إن الغاية من هذا المسعى المقصود لإعادة تربية سكان الحي، هو العودة إلى صورة طبقة عمالية أكثر تضامناً، كتلك التي عايشها في نهاية الستينيات ضمن أحد المراكز الصناعية الكبرى، وبالتالي إعادة الاعتبار لصورة المهاجرين في فرنسا الذين لا يتعين عليهم أن يكونوا بمنأى عن كل مؤاخذة وحسب، بل مثاليين.

مع مستأجر في المساكن الشعبية (HLM)

حديث مع غابرييل بالاز

❖ لقد كنتم من الأوائل هنا، ولذا تعرفون بعضكم بعضاً بشكل أفضل..

حسين: نعم، الأوائل. وقد كان المحيط جيداً، (..) «فإن كانت لديك مشكلة، أنا هنا» أترين؟

❖ هل كان يقدم الجميع خدمات لبعضهم البعض أيضاً؟

حسين: هو ذاك، الجميع يقدمون خدمات، ولا أدري ما حدث من بعد؛ فلقد بدأ الفرنسيون بالرحيل، وجاء العرب، أي أبناء جِلدتي. انتظري، سنعود إلى الغيتو، لأننا لسنا الذين خلقنا الغيتو، إنها الحكومة في المقام الأول ثم المحافظة فالشركة التي تُسكننا ثم البلدية. لقد تحدثت مع رئيس البلدية (الشيوعي) ولم يأت ذلك منه بل من الشركة.

❖ لقد بدأ الفرنسيون بالرحيل بعد ذلك؟

حسين: نعم، منذ أن... هناك مهاجرون من العرب فضلوا الشراء، ولو عرفتُ ما سيحدث لفعلتُ مثلهم، ولكنني قلت: «سأبقى هنا خمس سنوات أخرى ثم أعود إلى وطني» ولكن الإنسان لا يستطيع التنبّؤ بالمستقبل.

❖ هل اشتروا؟ أولئك الذي رحلوا، من أجل شراء منازل أو شقق..

حسين: اشتروا فيلات، وبدأ الناس بالرحيل، ويحل محلهم إخواننا ثم آسيويون وفيتناميون، وأخذ الوضع يتعفن، إذ لم يعد كالسابق..

❖ ألم تكن بينكم نفس الروح، والتضامن؟

حسين: الروح نفسها بيننا، وكل منا منزوٍ في بيته. أعني أنه حتى عندما يسمع شيئاً. إنني أفضل عدم التدخل في شؤونهم.

(قدمت جارة عجوز لاستشارة ممثل المستأجرين)

لقد رحل المستأجرون القدامى

❖ قلتَ إن الناس تغيروا..

حسين: لقد تغيروا تماماً، فقد ذهب القدامى، وهناك جدد. ولا يمكن عقد صداقة معهم بسرعة إذ يجب التعرف عليهم (..) لقد حاولنا عند قدومهم، لكن هناك أناس لم يكونوا يريدون التحدث مع أحد. وقبل أشغال إعادة الاعتبار، لاحظنا الكثير من القذارة، فهم يرمون بأكياس القمامة من الطابق الثامن والسابع والسادس، فتدخلت ولكن برفق «اسمعوا من فضلكم، نحن نعيش في حي سكني ونظيف، وتحت تصرفكم شاحنة، وآلة على عتبة بابكم ترمون فيها قذارتكم» لكن لا حياة لمن تنادي. وجاءت أشغال إعادة الاعتبار في هذا الوقت؛ فقال لي الجار: «سنعمل لجنة» قلت: «نعم».

❖ من هنا انطلقت لجنة المستأجرين..

حسين: أجل، لأن الشركة تلاعبت بنا حقاً. فالعائلات الكبيرة تدفع ثمن كميات الماء الساخن والماء البارد الإضافية من 4000 إلى 5000 فرنك.

❖ وهل كانت الكراءات معقولة حينئذ؟

حسين: لقد كانت معقولة لاسيما مع التعويضات، إذ كنا ندفع قبل أشغال إعادة الاعتبار 570 فرنكاً للكراء وأكثر منها بقليل للأعباء. أما الآن فندفع أكثر من 4000 فرنك. لقد نهبونا تماماً. تصوري أنهم وضعوا في حساب الأعباء استهلاك 500 مصباح كهربائي في السنة لثلاثة ممرات و94

مستأجراً (..) فقلت عندئذ: «الوسيلة الوحيدة هي تأسيس لجنة للمستأجرين». أؤكد لك أنني ما وددت أن أتحمل كل تلك المشكلات، وقلت: «اعملوا اللجنة وأنا معكم وسأساعدكم». ودعونا المستأجرين كما دعونا: «الاتحاد الوطني للمستأجرين» وجاء منهم عدد كبير وعيّنوني رئيساً للّجنة. فاعترضت قائلاً: «اسمعوا، فأنا لست في هذا الميدان أولاً، وثانياً ليس لدي وقت لمثل هذه المهمة؛ فإذا أردتم مساعدة مني فأنا هنا، لكنني لا أريد هذا المنصب ولا أستطيع البقاء» لكنهم ألحّوا وألح الاتحاد الوطني للمستأجرين قائلين: «أنت الوحيد القادر على القيام بهذه المهمة»

السيدة حسين: لكن مصروفات الشركة طبيعية، بسبب التلف والأشياء التي يحرقها الأطفال الذين يعبثون ويكسرون المصابيح، وهناك مصاريف أخرى، فلا ينبغي القول، مع ذلك.

حسين: أجل، هناك مصاريف، لكنهم رابحون دائماً.

❖ وهل ارتفعت الكراءات منذ تلك الفترة؟

حسين: لقد رفعوها قبل دخول التعويضات حيز التنفيذ، وقبل الانتهاء من الأشغال (..) فقدمنا عريضة بيّنا فيها اللجنة، كما شرحت لك، بما فيها الرئيس والأمين ومعاون الأمين، وأمين الصندوق. وهكذا كنا ثمانية أشخاص، أما الآن فنحن اثنان. وعلى الرغم من هذا نقوم بعملنا.

❖ وهل وَهَن عزم من كانوا معكم..

حسين: أجل، فهناك الكثير من العمل بالإضافة إلى سوء التفاهم بين المستأجرين، فقلت على الفور: من يريد العمل فليعمل، وإذا لم يُرِد، فأنا لا أستطيع.

❖ ومتى حصل سوء التفاهم بين المستأجرين؟

حسين: عندما قدِم مستأجرون جدد، وحصلت تلك الزيادة في الكراء؛ كانت تجري في تلك الآونة أشغال إعادة الاعتبار، فتدخلتُ من أجل تجديد شقق بعض المستأجرين التي تستحق ذلك وجدّدوها. بعدها جاؤوا إلي قائلين: «سنعمل من أجلك شيئاً، سنعمل العتبة وكل شيء» فأجبتهم:

«لا، فأنا لا أستحق، اعملوه لمن هم في حاجة إليه، أما أنا فلا بأس بي في بيتي» لأنني عندما دخلته، كان مقززاً، فأصلحت كل شيء. وقلت: «لا تعملوه لي، اعملوا ما هو ضروري كما فعلتم مع الآخرين.. مثل كل الناس. وجددوا الشقق التي تحتاج ذلك، فبعض الشقق متعفنة فعلاً.. وعليكم فعل ذلك، ليس لي، فأنا على ما يرام هنا» وكنت أراقبهم. صنعوا الأبواب بناءً على اتفاق بين الحكومة والشركة، وحمّلونا 4000 فرنك، عوضاً عن 2375 فرنكاً ككلفة للأبواب «صان سوسي» ومعناه (دون همّ).

❖ وما تكون تلك الأبواب؟

حسين: إنها أبواب مصفّحة (..) لقد تدخلتُ وصحتُ متجاوزاً الحدود. وفي النهاية عادوا (..) ثم عرفتُ أن هناك اتفاقاً بين الشركة والمديرية الجهوية للتجهيز. فتحدثتُ إلى رئيس البلدية قائلاً: «لست بحاجة إلى وجع الرأس، لقد سئمت» فرد رئيس البلدية (الشيوعي) قائلاً: «لا، يا حسين، أقدِم وإن واجهتك مشكلة فأنا من ورائك» وبهذا فقد شجّعني. وعندما جاء الآخرون، بدأ الفرنسيون بالرحيل، انظري إلى السيدة (التي مرّت) فهي سترحل عن قريب!

❖ نعم، إنها نموذج، مع أنها تقيم هنا من مدة طويلة، منذ 1982..

حسين: إنها هنا منذ بناء الحي. وإن دعوتها وهي ذات الـ 87 عاماً على ما أظن فإنها ستخبرك. أنا حساس، ولأن الإنسان لا يعيش إلا مرة واحدة على هذه الأرض، ينبغي عليه دائماً فعل (..) ليس لأنها فرنسية، بل حتى لو كانت غريبة أو يهودية فسأعمل الشيء نفسه. لقد مرضتْ ومع أن لها بنات وأبناء، إلا أن أحداً لم يأتِ لرؤيتها، وأنا الذي كنت أصعد إليها قبل ذهابي للعمل وأحضر لها الفطور في سريرها وأعطيها الدواء ثم أغلق وأعطي المفاتيح لزوجتي لتصعد الثامنة صباحاً للاطمئنان. وهي هنا وبوسعها أن تقول لك..

❖ هل تعيش لوحدها منذ بناء الحي؟

حسين: أجل، كانت تعيش المسكينة من قبل.. لكنها فقدت زوجها،

وهـي الآن وحيدة تماماً. ولهذا أود أن أقول.. إننـا هنـا الآن، أمـا فـي الغـد فيمكن.. ألا نكون. يمكن لها أن تخبرك، لقد كان التفـاهم تاماً بـين القدمـاء، أما بين الجدد، فلا.

«لم يعد الوضع كالسابق»

❖ من بين الذين يرحلون، كما تقول، الفرنسيون كالسيدة التي جاءت قبل قليل، فهل وجدت سكناً في جهة أخرى، وهل الناس يسعون للرحيل؟

حسين: أجل، إن الناس يسعون للرحيل، لأن الوضع لم يعد كالسـابق. أقول لك، إن كل إنسان منطوٍ على نفسه، لأننا نشاهد كثيراً من الشرور. إنك تشاهدين شخصاً يكسر أو يوسخ ولا تجرئين على التدخل (..) فمنـذ وجـود إحدى العائلات هنا، لم تعد عائلة واحدة بل اثنتان، ثلاث عـائلات لطّخـت سمعة 94 مسـتأجراً. لقـد تدخلـتُ وذهبـتُ لرؤيتـهم، وأعطيتـهم درسـاً فـي الأخـلاق «لقد رأينـاكم وأنتم تولـدون، فلمـاذا تفعلـون هـذه الأشـياء؟ إذا مـا أردتم فعلها، فأنا لا أمنعكم من ذلك، لكن افعلوهـا بعيداً عن هنـا» ونسمع منبهات السيارات في الواحدة أو الثانية صباحاً. إنه ملتقى للمخدرات هنا.

❖ وهل هذا يزعج الجميع؟

حسين: بالطبع، إنه يزعج الجميع، اسمعي، أنت فـي بيتـك وقـد يـأتي صديق لزيـارتك وعندمـا يذهـب، مـاذا سيقول؟ سـيقول إنـه ليس هنـا إلا العرب، ويجد القذارة والفوضى فيقول: «انظر إلى العرب كيف يعيشون».

❖ إنه يُدين الجميع هكذا؟

حسين: أجل، لأنه يرى (..) إنه سيشمل الجميع قـائلاً: «إنهم متمـاثلون جميعاً» أترين؟ لقد حاولت بكل وسيلة وقلت إن علي أن أصيح قليـلاً. وذهبـت لرؤيـة الأهـل لأقـول لـهم إنهم معنيون بـالأمر «اسـمعوا، افعلـوا شـيئاً، فـإذا لـم تتحركوا، أنتم الآباء، فمن سيتحرك!» إنـه وضـع غـير عـادي. إن لـدي ثلاثـة أولاد، وإن أتى واحد منهم بشـيء ثمين أقول: «من أين لـك هـذا؟» وأقول للآبـاء الذين يصمتون ولا يحركون ساكناً «حسناً، افعلوا شيئاً، إن لديكم أولاداً يتعين

عليكم تربيتهم، فلا يجب تركهم هكذا بل مراقبتهم وإعطاؤهم تربية حسنة» أجابني أحد الآباء: «اسمع، أنت تعلم، الجيل الجديد..» فقلت: «لا، إنه ليس الجيل الجديد، وأنا لا أُدين الأولاد، ولا أُدين الأطفال أبداً، بل أُدينكم أنتم، فأنتم المسؤولون الوحيدون، لأنكم لو تشدّدتم مع أولادكم منذ البداية، لاستطعتم التساهل معهم في كبرهم، وبهذا سيعرفون كيف يتصرفون في حياتهم». فتفهّم بعض الآباء، وقال لي آخرون: «اسمع، إن هذا لا يعنيك، إنه..» تلك هي المشكلة.. إن ما أريد قوله هو أننا لسنا نحن العرب الذين خلقنا الغيتو بل الشركة، ولا أريد اتهام المحافظة ولا البلدية لأن لكل منهما نسبة من الشقق هنا. لأن كل ما أرادته الشركة هو جلب الأموال. عندما كنت في تونس، لم يكن يكرى للناس هكذا، إذ لا بد من الاستعلام عن الشخص قبل إسكانه كما بينت عدة مرات في الاجتماعات: «اسمعوا، عندما تريدون إسكان أحد ما، فلست ضد هذا، بل على العكس لأنني في الوضع نفسه. فأنا من الطبقة العاملة. لكن عليكم التحري عنه على الأقل، فلدينا ما يكفي من المشكلات..». (..) إن أغلبية الفرنسيين يرحلون، وماذا تضعون مكانهم؟ تضعون عرَباً. وإذن فأنتم الذين خلقتم الغيتو، وبعد ذلك تقولون: «إن الحي غيتو». إنه ليس غيتو، بل أنتم خلقتموه بأيديكم. لا ينبغي اتهام العرب، فالعيش ممكن مع العرب، لكنكم أنتم الذين خلقتموه، وكلما حدث شيء «إنهم العرب» «وحتى حادث تافه سيذكر في الجريدة «مغاربي، مغاربي!» لكن عندما يرتكبه فرنسي أو أوروبي، لا يذكره أحد» ومع أن فرنسا بلد ديمقراطي يمكن التحدث فيه بصراحة، فقد كادت أن تحصل لي مشكلات حتى مع الصحافة؛ لأنهم لم يقبلوا صراحتي، لم يقبلوا، أعني..

❖ لم يقبلوا الاستماع؟

حسين: أجل، لم يقبلوا الاستماع. ومع هذا فلا زلنا هنا، ندافع عن المستأجرين، ونمنع الذين يتقولون على المهاجرين الأقاويل. لأن المقصود بالمهاجرين، ليس الإسبان ولا البرتغاليين ولا الأتراك.. بل المغاربيين. إنهم التونسيون والجزائريون والمغاربيون! وقد حدث مؤخراً أن شخصاً من الاتحاد من أجل الديمقراطية الفرنسية (UDF) قال: «نعم، المهاجرون..»

فقلت له: «أيها السيد، المهاجرون، لكن قبل التلفظ بهذه الكلمة «المهاجرون» قل لي من تقصد؟» (..) وكدنا نشتبك أمام رئيس البلدية، وفي النهاية قلت: «اسمع ما أقوله لك، عندما نكون في اجتماع المرة القادمة، فزِن كلماتك، ولا ينبغي استعمال اسم «المهاجرين» بعد الآن». جاءني بعد نهاية الاجتماع قائلاً: «سيد حسين، اسمح لي» فأجبته: «لا سماح بما لا يمكن السماح به. لقد تناقشنا حول المائدة المستديرة، أما الآن، فلم أركَ ولا عرفتك، وأنت لا تعرفني حتى». مرات كثيرة، اشتبكت معهم.

❖ نعم، اشتبكت في كثير من الأحيان مع..

حسين: نعم، إنها القصة نفسها. أؤكد لك أن المسألة تعنيني! فما الجزائري أو التونسي أو المغربي إلا عربي، ومهاجر مثلي. لماذا كنتم بحاجة إليهم في الماضي وجلبتوهم من أوطانهم، والآن بعدما بنوا لكم فرنسا، وجدّدوها، لم تعودوا بحاجة إليهم؟ إن على الإنسان أن يكون منطقياً. إنني أعتذر يا سيدتي، فلا أريد أن أكون فظّاً، لكنها صراحتي. وأنا هكذا، أنا هكذا. إنني لا أجرؤ أحياناً عندما أكون في اجتماع، لكنني ما إن أسمع «مهاجرين» حتى يفلت مني الزمام. فماذا لديك أكثر مني أو لدي أكثر منك؟ سيدتي، إننا جميعاً من بني الإنسان، ويجب علينا التعاون في الحياة التي نعيشها الآن، كما نتعاون في الأزمة القاسية الراهنة، حيث يستطيع الغني أن يساعد الفقير، ويستطيع رقيق الحال مساعدة الفقير، وهكذا.

(يذكر بعض التعليقات عن الوضع في العالم الثالث وحرب الخليج)

❖ عندما قدمت السيدة من أجل مسكنها، كنت تقول إن شركة المساكن هنا، عرضت عليك الرحيل إلى مسكن آخر، وأنك لم ترِد الرحيل؟

حسين: لم أرِد الرحيل، لم أرِد الرحيل، لأنني هنا منذ 1972، ووُلد أولادي هنا. وسأبدأ هناك من جديد وكأنني غريب.

❖ نعم، هو ذاك، إذ سيكون عليك البداية من الصفر في جهة أخرى.

السيدة حسين: أنا شخصياً، أود الرحيل.

حسين: هي، كانت تريد الرحيل.

❖ إلى أين كنت تريدين الرحيل؟

السيدة حسين: إلى مكان هادئ، هذا ما كنت أبحث عنه. إنني أبحث عن مكان هادئ حقاً..

❖ هل أنت متضايقة هنا؟

السيدة حسين: لا أعني بأنني متضايقة، بل الوضع خليط الآن. لست عنصرية، لكن الأمر زاد عن الحد.. ليس كالسابق. فكل جيراننا السابقين رحلوا، ولم نعد مطمئنين بالتالي، كهذه السنة التي ذهبنا فيها إلى تونس، فحاولوا تسلق الجدران (..)

❖ ألستم مطمئنين؟

السيدة حسين: كلا، وأولادي لا يخرجون أبداً؛ فهم دائماً في البيت، مطلقاً لا يخرجون..

حسين: هذا صحيح لأنني لا أود لهم أن يخالطوا.

❖ لكن، ألا يقومون بمناشط في الخارج؟

حسين: بلى، هناك مناشط.. لا أدري.. يستطيعون الذهاب، حسناً، لقد ذهبوا أحد أيام الأربعاء[1] في عطلة ثلجية، لكننا إن تركناهم يذهبون فسيضطرون إلى مخالطة أقرانهم بالطبع.

❖ نعم، وأنتم لا تريدون هذا؟

حسين: إنني أحاول، وليس هذا ما لا أريده، إنني أحاول لأن التربية ضرورية، فأول المهمات التربية. ينبغي أن نقول للأولاد: «هذا وذاك؛ لا ينبغي فعل هذا حتى لو فعله أحد معكم، ولا ينبغي الرد عليه، يجب فعل..» وإذن فنحن نُفهِم الأولاد، لكننا إذا ما تركناهم يخرجون كل يوم أثناء هذه العطلة ومخالطة الآخرين، فما الذي سيحصل؟ إنهم سيتأثرون. إنني أقول لهم أحياناً أن ينزلوا قليلاً، لكنهم يقولون لا. هم الذين يقولون لا، لأن لا شيء ينقصهم، فلديهم كل شيء.

---

[1] يوم الأربعاء. عطلة لدى تلاميذ المدارس في فرنسا. - المترجم -.

السيدة حسين: أراد مؤخراً (مشيرة إلى أحد أبنائها) حاسوباً فاشتريناه له.

حسين: نعم، لديه كل شيء.

السيدة حسين: (ابتسامة) الصغار، لديهم لعبهم.

«إن نجاحي الوحيد هو في دراسة أبنائنا»

❖ في أية مدرسة هم؟

السيدة حسين: اثنان في الإعدادية: الأصغر في الصف السادس والكبير في التاسع. أما الصغير فهو مقابلنا، فعند خروجه أراقبه من الشرفة حتى يدخل المدرسة، أراقبه عندما يدخل (..)

❖ وهل تعرفون ما سيفعلون بعد الإعدادية، بعد الصف التاسع؟

السيدة حسين: حسناً، سيتابع الكبير دروسه، إنه يريد أن يصير قائد طائرة، ولا أدري إن كان سيبقى على عزمه. أما الثاني فيواصل دراسته وليست لديه فكرة بعد.

❖ هل يريد الذهاب إلى الثانوية، بعد الإعدادية؟

السيدة حسين: نعم، إلى الثانوية بالطبع.

حسين: إلى الثانوية، فلدينا تونسيون مجتهدون مع ذلك. هناك عائلة يسكنون قبالتنا تماماً، ابنتهم في العاشر..

السيدة حسين: في الجامعة، وهي في السنة الثانية، فوق ذلك.

حسين: في السنة الثانية. أعرف تونسياً أيضاً (..) وهو في السنة الثالثة من الكلية.

❖ نعم، إنهم يدرسون جيداً.

السيدة حسين: أجل، وهم أناس طيبون.. هادئون.. هناك ست أسر أو سبع من التونسيين.

حسين: لسنا كثيرين هنا، نحن ست عائلات تونسية ونتفاهم جيداً

فيما بيننا. وهناك جزائريون، حسناً، نتفاهم جيداً، لكن يوجد شيء من الحذر دائماً!

السيدة حسين: ليست طباعنا واحدة، وهذا ليس من العنصرية.. ليس من العنصرية، لكن ليس لدينا نفس.. لا أدري (سكوت)

حسين: إذا رأيت ابني يفعل شيئاً، فأنا أود أن تخبرني، ولكنني حينما أرى شخصاً يرتكب ابنه حماقة وأخبره بذلك يقول: «إن ابني قديس!» ولهذا لا أريد الدخول في مشكلات. وأريد أن يكون أبنائي معي، وأعرف مع من يلعبون، أقول: «اسمع، لا أعبأ بمخالطتك خارج البيت، لكن انتبه واحذر من الأصدقاء والصديقات. وعندما تتجاوز عتبة البيت فلا أصدقاء ولا صديقات، وأنا لا أعرف أحداً. اختر أصدقاءك في الخارج فأنت كبير بما فيه الكفاية وليس لديك الكثير من الاختيارات. فاختر أصدقاءك وبوسعك الانتقاء بعد ذلك».

(..)

إنني أعمل وأحرم نفسي، وهي أيضاً تحرم نفسها، أما الأولاد فليسوا محرومين من شيء. إنني أقول: «خذ وهات، فإن نجاحي الوحيد هو أن تنجحوا في دراستكم وحسب، وأنا لا أريد منكم شيئاً، لا أريد منكم شيئاً، لأنكم عندما تكبرون.. كلا، كلا، لا أريد منكم شيئاً البتة. كلا، تدبّروا أمر أنفسكم عندما تكبرون ويكون لكم مستقبلكم؛ ستقيمون أسرة مثلي، وهكذا دواليك، والشيء الوحيد الذي أريده هو أن تنجحوا في دراستكم» وأقول: «إنني الآن لا أهتم، إذ أستطيع العيش براتبي التقاعدي الصغير، لكنه مستقبلكم، وما زلتم فتياناً والحياة أمامكم، ينبغي السعي إلى.. فليست هذه سنوات الأربعينيات والخمسينيات، ولم يعد الوضع نفسه».

(..)

إن المشكلة بالنسبة للأحداث التي وقعت هنا، أنها لم تكن من فعل شباب الحي. إنهم شباب كانوا يريدون التشويش على رئيس البلدية (..) وقد عرفنا فيما بعد أنها الجبهة الوطنية، أترين، إنه اليمين المتطرف الذي

كان يريد التشويش على المسكين. وقد فاجأت ثلاثة أوروبيين مع آلة للتصوير، هنا في الزاوية بالضبط. على بعد ثلاثة أمتار..

السيدة حسين: إنهم صحافيون، فماذا يريدون؟ إنهم يريدون فضائح وما أشبه ذلك، فهو جزء من عملهم.

حسين: إذن، هي مؤامرة، مؤامرة.

(انقطاع ناجم عن زيارة إحدى الجارات، ومناقشة وجيزة حول عطلة الأطفال، والتربية)

❖ ألم تعودوا تفكرون، بعد دخول الأولاد للمدرسة، بالذهاب إلى تونس والعمل هناك؟

حسين: كلا.

❖ تفكرون الآن بأنكم هنا.

حسين: نحن هنا، وأنا الآن في الخمسين، والبدء من جديد هناك، إنه.. ولديّ أولاد، كنت في السابق أعزب ولا أعبأ بشيء، لكن لدي الآن مسؤوليات وواجبي القيام بها إلى النهاية، أي القيام بالتضحيات، في سبيل من؟ ليس من أجلي، بل من أجلهم، لأنني المسؤول الوحيد. فليست الحكومة هي المسؤولة عنهم بل أنا المسؤول الأول. وإذن فأنا أضحي بكل شيء من أجلهم، وعندما يبلغون رشدهم سيفعلون مثلي. وعندما نتحدث أحياناً على المائدة، أقول: «اسمعوا، أنتم لا تفعلون ما أفعله الآن، لأنني مأمور كما ترون. وترون عندما أستيقظ صباحاً وأعود مساءً، فلا أريد أن تكونوا مأمورين مثلي، عليكم بلوغ الغاية. واعملوا كل ما بوسعكم ولديكم الوقت» إنهم يعلمون على الأقل بأن «لا شيء ينقصكم لأنه من الممكن أن ينقصني نوعاً ما، لكنكم لا ينقصكم شيء الآن، وكل شيء في متناولكم، فاسعوا ألا تكونوا مأمورين من الآخرين».

❖ أليست لديك رغبة في أن يكون لهم نفس العمل الذي تعمله وتتلقى فيه..

حسين: هي ذي، الأوامر.

(يروي السيد حسين الحادثة العنصرية التي قادته إلى ترك عمله في المصنع والذي شغله منذ عشر سنين لكي يعمل بالوكالة. وهو ما يتيح له تجنب المواجهة المستمرة مع زملائه؛ نظراً لأن شركة الأعمال بالوكالة عرضت على السيد حسين وظيفة في مدينة أخرى)

❖ هل كنتم تفضلون البقاء؟

حسين: البقاء هنا، لقد اعتدت على البقاء هنا. لكن العنصريين، يا سيدتي، يقولون إن فرنسا للفرنسيين، ونحن، من نحن؟ وماذا كنا من قبل؟ لقد كنا نعيش مع الفرنسيين ونسكن معهم، ونذهب إلى المدرسة معهم، وكنا جيراناً. وأنا شخصياً لم أترك فرنسا ولم أتنكر لها قط. إن فرنسا وطني الثاني. وأنا معترف بجميلها كما ترين. أتمنى يوماً من كل قلبي أن نجلس هكذا ونتناقش. ومع أن مستوى ثقافتهم أعلى من مستواي إلا أنني أستطيع أن أواجههم وأقول لهم رأيي. لكن من الصعب الوصول إلى ذلك.

(يستذكر السيد حسين عدم وفاء الصحفيين بالتزاماتهم تجاه سكان الحي، إذ لم يكفهم أنهم أنجزوا تقريرهم مع إقصاء سكان الحي الذين كانوا مستعدين مع ذلك للمشاركة فيه، بل زادوا على ذلك أنهم اختصروا مدته إلى سبع دقائق عوضاً عن ساعة، وعرضوه في وقت أكثر من متواضع، ملحقاً بحصة أخرى خصصت لطلاب الثانويات)

«كل ما يقولونه عن الضواحي»

حسين: نحن نفكر بالشباب عادة، وهذا طبيعي. لكن ينبغي أيضاً التفكير بالمدينة كلها، في ضاحية بأجمعها.. أما الشباب فلديهم الوقت. لكن، نظراً لأن الصحفي كلف نفسه عناء المجيء وهو الذي اقترح علينا.. هناك أشخاص تركوا مشاغلهم وجاؤوا لرؤيته.. وفي النهاية، انظروا ما فعل.. لقد أمسكت به وقلت: «أنت، أنت تُعلّم الناس، وفرنسا كلها والعالم بأجمعه تقريباً. وتجرؤ على القول إن الحي هو حي – مهجع؟ ماذا يعني حي – مهجع؟ غيتو حي – مهجع..»

❖ ما هذا؟

حسين: بالضبط، ما هذا؟ قلت له: «ما هذا؟» فأجابني: «لقد سمعت من زملاء آخرين» فقلت: «لا، اسمع، لقد رأيتك وسمعتك، وأنت أول من يقوله» وتابعت: «إذ في وقت الأحداث، لم يكن أحد قاله بعد، فأنت أول من تلفظ بهذه الكلمة، غيتو حي - مهجع».

❖ وهل هذا يقدم صورة سيئة للمدينة..

حسين: أجل، صورة سيئة. وقلت له مع ذلك: «لقد عشت (..) هنا، ولا ينبغي أن تكون لك عن الحي صورة سيئة» وأجابني: «لا يا سيد حسين، أؤكد لك أنني استمعت..» قلت له: «اسمع يا سيدي مع احترامي، إن ما تقولونه أنت وزملاؤك خبر كاذب، أما الحقيقة فتخفونها. وأعلم أنكم من أجل ملء ورقة، ينبغي عليكم أن تزيدوا قليلا وتعقدوا الصورة لتعقيد القضية. وأنا لا ألومكم، بل ألوم من يشرفون عليكم. ومنذ ذلك اليوم» ومع ذلك فأنا متعاطف معه، أؤكد لك، لكن منذ اليوم الذي قال ذلك فيه..

❖ ولكن هل ترى بأن برامج التلفزيون لعبت دورا سيئا؟

حسين: أجل، أجل، لقد قدمت أخبارا كاذبة.

❖ ألم ير السكان في هذه البرامج مصداقا لأوضاعهم؟

حسين: إنهم لم يروا أوضاعهم في هذه البرامج. لا، لأن كل ما قيل عن الضواحي وما جرى فيها باطل. (..) كان هناك شباب من حينا أثناء الأحداث، لكن الأكثرية جاءت من الخارج لرؤية ما يجري. وعندما رأوا الحوانيت، دخلوا وفعلوا ما فعلوا.. لكن لو رأيت ذلك اليوم -لقد كنت هنا- شيء لا يمكنك تخيله.. وكأنها المجاعة، إذ كانوا يهجمون على كل شيء مثل..

❖ كأنهم كانوا محرومين من كل شيء و..

حسين: بالضبط، لقد كان المجمع التجاري يحترق، ومع أنه كان مشتعلا؛ دخلوا وخرجوا بعربيات مملوءة.. بأدوات التدخين والمشروبات والسجائر. لكنك لا تستطيعين تخيل ذلك بل لا بد من رؤيته. وبعد ذلك انتشرت النيران فاضطررت لإخراج كل الأطفال من (..) ومن البنايات كلها و..

❖ ألم يكن يشعر الأطفال بالخطر عندئذ؟

حسين: لكن هناك حتى من الكبار والعائلات، جاؤوا جميعاً بسياراتهم وأخذوا يضعون فيها. ولما أخذت النيران بالانتشار، اضطررت لإخلاء الممر 7 والممر 8 لأن الرياح أخذت تدفع بالنيران إلى ذلك الاتجاه.. لقد أخليت الجميع، ولم يبق أحد. وصعدت لأتأكد بنفسي، وكان المصعد معطلاً وكل شيء معطلاً. وزيادة على هذا كان رجال الأمن يلقون بالقنابل المسيلة للدموع من الجهة المقابلة. لقد عشنا بعد ظهر جهنمياً، وبقينا نسمع صوت الانفجارات حتى المساء.. وأنا لم أكن أخاف من تلك الأشياء فاندفعت.. ولم يكن طبيب أو ما شابه. لقد كان بوسعهم فعل الكثير، فعل الكثير (..)

❖ وهل استفادت الجبهة الوطنية من الأحداث بعد ذلك؟

حسين: كلا، بل على العكس.. لأنني رأيت عندما حرقوا حانوت السجائر في اليوم التالي، شبابنا يحفظون النظام هنا. رأيتهم جميعاً وهم يقيمون الحواجز لمنع السيارات من الدخول، وتسهيل مهمة رجال الإطفاء وحتى الشرطة. إنهم هم الذين حافظوا على النظام وليسو من أحرق. لكن انظري إلى الصحافة، لِمَ لم تكتب؟ لأن لدي كل شيء (يُخرج أوراقاً) لدي كل شيء هنا..

❖ هل جمعت ملفاً للصحافة؟

حسين: أجل، أجل، لأنهم لا ينشرون الحقيقة، خذي، فالحقيقة لا ينشرونها. إنها موجودة. انظري.

«رسالة مفتوحة من سكان الحي
إلى صحفي في التلفزيون»

بغية التحضير للبرنامج المخصص للحي يوم 6 تشرين الثاني، وعند لقائنا معكم، قدمتم لنا هدف برنامجكم وقواعده، وذكرتم بأنه لن ينجز إذا لم تتوافر كل الشروط. وضمن هذا الإطار، كنا مستعدين للمشاركة فيه لأنه يتيح التعبير لسكان الحيّ، وبمقدوره الإسهام في تحسين صورة الحي،

وقدمنا إليكم آراءنا وملاحظاتنا فأخذتم علماً بها. وبعد أسبوع تم الاتصال ببعض السكان ثانية خارج القواعد المذكورة. ونظمت مأدبة عند إحدى العائلات وجرت مناقشة بحضوركم. إن هذا الموقف والاقتراح الذي تقدمتم به غير مقبولَين. ثم تم إعلامنا بأن البرنامج ألغي. ونحن نتفهّم وجود ظروف قد أملت الإلغاء ولا نلومكم عليه. ولكن كم كانت دهشتنا عندما علمنا بأن برنامجاً مخصصاً لحركات طلاب الثانويات سيترك حيزاً صغيراً لحينا. إن في هذا قلة نزاهة بعد مناقشتنا الثرية؛ إذ كيف تعتقدون بأن سبع دقائق، في غياب سكان المدينة وممثليها تكفي للحديث بجدية عن حينا؟ وعلاوة على ذلك، فما من ساكن منا أو حتى من الشباب، الذين اجتهدوا للقائكم مساء سبت للتعبير عن أنفسهم، قد اتُّصل به ثانية من أجل هذا البرنامج، كما أنكم لم تنقلوا أية كلمة مما قلناه. وفي هذا انعدام تام للاحترام، إننا نحتفظ من هذه التجربة بشعور بالخديعة، ولذا نسحب منكم كل ثقة. ويبقى لنا أمل في أن ينجز برنامج نزيه عن حينا في المستقبل، نتمناه من كل قلوبنا، لكننا سنعمله بدونكم.

ممثلو مجلس الحي ولجنة المستأجرين

رد الصحفي

باعتباري صحفياً مكلفاً بالمجلات، فلقد تأثرت للرسالة التي بعثتم بها إلي. وأحرص هنا على شكركم لاهتمامكم الخاص الذي أوليتموه للتحضير لبرنامجنا. لكن المناقشة لم تعرض لأسباب خارجة عن إرادتنا للأسف. وبالفعل، فكما علمتم ولا شك من الصحافة المكتوبة، فإن السيد جاك لانج، وزير الثقافة والاتصال، الذي كان من المفروض أن يلتقي سكان حيّكم، اعتذر في اليوم نفسه الذي قمنا فيه بمعاينتنا الثانية. وقد اقتضت الأحداث أن نوجه موضوع برنامجنا إلى مشكلة طلاب الثانويات مع إعطاء الأحداث التي جرت في حيكم مكاناً. وأود أن أبين أيضاً أن ثلاثة ممثلين عن حيّكم كانوا حاضرين في الاستوديو، وأن تقريراً تم إنجازه عن مدينتكم وسكانها. مع كل أسفي (..).

باتريك شامبانيه

الاختلاف الأخير

يتيح موقع حراس البنايات الخاص لهم نقل تجربة أغلبية مستأجري المساكن الشعبية (HLM) في الأحياء «ذات المشكلات» في صورتها الأكثر حدة. إذ أنهم أول من يعاني في الواقع من الحوادث أو المآسي التي تميز حياة هذه الأحياء (مستأجرون وتجار يغتاظون من حوادث السطو المتكررة، فيطلقون النار على الشباب. «تجاوزات» الشرطة عند المراقبة، نهب الحوانيت.. إلخ). ونظراً لأنهم مكلفون بصيانة البنايات، فإنهم لا ينقطعون عن التنظيف وعن إصلاح التلف الواقع عليها، هذا إذا لم تقع عليهم بعض الحالات اعتداءات جسمية، وأعمال انتقامية توجه للسيارات أو الشقق. وهم بخلاف الأعوان الاجتماعيين الآخرين العاملين في هذه الأحياء (كالمربين والمعلمين ورجال الشرطة والمساعدات الاجتماعيات، إلخ) ليس بوسعهم أن ينقطعوا ولو مؤقتاً عن هذا الوضع المنهك غالباً -يتكلم أحد الحراس الذين استجوبناهم عن «التوتّر النفسي»- لأنهم يعيشون في موقع عملهم، وقد يستدعيهم السكان في أية ساعة من الليل والنهار. ولذا فهم لصيقون بهذه المناطق أكثر من سكانها، وأملهم الوحيد الذي ما فتئ يخيب هو أن يستجاب طلبهم للانتقال إلى حي أكثر هدوءاً.

ريموند ت. حارس أنهكه العمل في حي للمساكن المعتدلة الكراء (HLM). استقبلني دون تكلف وهو بملابس العمل الزرقاء الذي يرتديها عادة أثناء عمله مع زوجته بإزارها الرمادي التي ترتديه في العادة أيضاً (إنها تعمل أيضاً لدى مكتب السكن المعتدل الكراء) والتي كانت تتدخل في الحوار من وقت لآخر للموافقة على كلام زوجها أو لتقديم المزيد من الإيضاح. يسكنان شقة فسيحة لكنها معتمة شيئاً ما، تقع في الطابق الأول من بناية تابعة لمجمع ضخم في ضاحية سنسميها فيلنوف، بُني على طراز المجمعات التي كانت تُبنى في السبعينيات؛ الصالون مزدحم بأثاث بسيط مؤلف من طاولة وكراسٍ وخزانة بواجهة زجاجية تظهر من خلالها رفوف مثقلة بتحف وعرائس، عُرض أكثرها بالتغليف الأصلي، بينما عُلق على الحائط رأس وعل من البلاستيك. وكنا نسمع زقزقات العصافير الكثيرة الموجودة في قفص كبير موضوعٍ في زاوية من المطبخ بالقرب من الشرفة الصغيرة المملوءة بالنباتات والزهر.

وإذا كان ريموند ت. قد استطاع أن يحدثني دون انفعال، وببرود يشبه البرود الموضوعي لأي مُخبِر، بما يحدث يومياً في هذا الحي، فذلك لأنه غريب عنه شيئاً ما. إذ جاء إلى هنا، تقوده المصادفة في الواقع؛ باعتبار أن هذا المجمع الضخم ليس إلا مكان عمل وحسب بالنسبة له. فما أن تحل نهاية الأسبوع أو العطلة السنوية حتى تجده في الطريق والمقطورة مربوطة إلى سيارته، للقاء «الطبيعة» كما يقول و«غناء الطيور». أي لقاء ما يذكّره بجذوره الريفية. فهو متحدّر فعلاً من مدينة صغيرة تقع بالقرب من ديجون. كانت أمه مريضة، أما أبوه فعلى الرغم من انه «لم يكن في المدرسة، كما هي الحال هذه الأيام» إلا أنه اكتسب لوحده «ثقافة ضخمة»، وكان يعمل رئيس عمال في منشرة للأخشاب. توقف ريموند عن الدراسة في الثالثة عشرة من عمره «دون أية ثقافة» لأنه لم يكن «يميل إلى المدرسة» كما يقول هو نفسه، وبدأ العمل مبكراً كحمال. (له أخت بقيت في الناحية، متزوجة من نجار بناء، توقفت عن العمل بعدما عملت لبعض الوقت رئيسة عمال في منشأة للتنظيف) وزوجة ريموند من منطقة زوجها نفسها، تركت المدرسة في سن

مبكرة أيضاً. متحدّرة من بيئة شديدة التواضع: إذ كان والداها حطابَين. ولها أخَوان؛ أحدهما جصّاص - دهان والآخر عامل صيانة في أحد القصور. كان عمر ريموند 25 عاماً عندما وجد أن عمله كحمال متعب جداً وقليل الأجر؛ فقرر مغادرة منطقته الأصلية قاصداً مدينة إقليمية كبيرة، حيث عمل نجار بناء طوال تسع سنين، لكنه اضطر لتغيير مهنته بعد حادث خطير (سقط من علو عدة أمتار، نتيجة لانهيار صقالة) أدى إلى إعاقته بنسبة 50٪، فبحث عندئذ عن عمل «أقل تعباً». وقد وجد له بائع منتجات مزارع -«يعرف الجميع» في الحي- وظيفة الحارس التي يشغلها الآن. وهو مكلف بصيانة البنايات (إصلاح المرائب، وعمل بعض اللحام وبعض الطلاء..إلخ) أما زوجته التي لم تكن بحاجة إلى العمل في الماضي، فتقوم بتنظيف المرافق الداخلية (الأدراج والعتبات) ويقدم مكتب (HLM) لهما السكن مجاناً بالإضافة إلى 10000 فرنك راتباً شهرياً.

إن ريموند الذي أمضى حياة شاقة، ويعتبر نفسه محظوظاً لحصوله على هذه الوظيفة، ينظر بشيء من التسامح والتفهم لهؤلاء الشباب الذين يشاطرهم شيئاً من سوء الحظ. أما موقف الحارسين الآخرين في فيلنوف فهو أقل «تفهّماً» لأسباب أهمها أنهما يعملان في الحي الذي ولدا فيه. ويبدو ذلك في الطريقة التي يعبران بها؛ فهي أقل موضوعية ويظهر من خلالها سخط شديد: إذ هما يشعران أنهما في بيتهما، ويدافعان عن «حيّهما» ضد «الأجانب» الذين جاؤوا لغزوهم.

جرى اللقاء في بيت تييري س الذي لم يصبح حارساً في هذا الجزء المتدهور من منطقة الإعمار ذات الأولوية (ZUP)، إلا منذ أشهر. وعلى كل، فقد كان يسكن دائماً في مجمع كبير من نفس الطراز يقع على مقربة، ويعرف بالتالي معرفة جيدة حياة هذا الحي الذي يعتبره حيّه نوعاً ما. اتصل به رئيس مشروع في هذا القطاع للإجابة على أسئلتنا، فطلب من كريستيان ت. وهو حارس آخر في الحي،أقدم منه بقليل، الاشتراك في المناقشة. أما سيلفي، زوجة تييري التي تستخدمها (HLM) مؤقتاً لمساعدة

المستأجرين، وجلّهم من المهاجرين المتحدّرين من أصل مغاربي أو إفريقي، في ملء الملفات الخاصة بعملية إعادة الاعتبار الجارية، فقد انضمت من تلقاء نفسها إلى المناقشة. وقد أدى الوضع الجماعي الذي خُلق هكذا إلى تحويل الحوار تدريجياً إلى محادثة صريحة غلب عليها الحماس، رأينا فيها وجهة نظر سيلفي تختلف بصورة ملحوظة عن وجهة نظر زوجها.

يتقاسم كريستيان وتييري النظرة نفسها للأمور، كما أن ردود الأفعال لديهما متقاربة؛ فكلاهما شعبي الأصل وينتميان إلى عائلات عانت من المصائب والمحن (وفاة والدة أحدهما المبكرة، وحادث عمل خطير لوالد الثاني). وقد صار كل منهما بطريقته الخاصة حارساً بدافع من الحاجة. غير أنهما يحبان حيّهما، ويحبان هذه الضاحية التي كبرا فيها ولم يغادراها قط. ويعتبران عملهما محبَّباً؛ الأول يحب عمله لأنه ليس مجهداً كثيراً، والثاني يحبه لأنه يتيح رؤية الناس: «يعجبني هذا العمل، لأننا نتحدث مع الناس وأنا في الخارج دائماً (..) ويتصادف أن نعقد علاقات جيدة». والشقتان الوظيفيتان اللتان يسكنانهما تشكلان ميزة أساسية نظراً لمواردهما. وكان من الممكن أن يعيشا في «هناء» لو لم تصبح الحياة في هذه الأحياء لا تطاق. وباختصار فإنهما يحتملان بصعوبة التدهور المستمر لهذه المناطق التي يتعلقان بها ماضياً وحاضراً. إلا أن اختلافات ضئيلة في الأقوال تفرق بينهما، ومبدأ هذه الاختلافات يكمن في أنهما لا يتحدران من الشرائح الشعبية نفسها، كما أن مساريهما خلال المجتمع ليسا متماثلين. فكريستيان قصير القامة، مستدير الوجه، ذو شعر طويل مشعث، يميل للسمنة. كان يبلغ الخامسة والثلاثين حين لقائنا به، وقد عرف البؤس في حياته. وهو يدين الشباب لكن يتفهّمهم، إذ أنهم يماثلونه في فقره وضياعه عندما كان في مثل سنّهم. ومن هنا فثيابه كثياب وغد سابق، مؤلفة من سترة جلدية سوداء وسروال بيجاما رياضية أسود أيضاً، مهترىء وتنقصه النظافة قليلاً. ينتمي لعائلة من خمسة أبناء، لم تكن حياتهم سهلة إلا نادراً. كانت أمه «عاملة خدمة» في مدرسة للأطفال المعاقين. أما أبوه البالغ من العمر 70 عاماً الآن، فكان عاملاً في ترميم الطرق، إلا أنه توقف عن العمل منذ 20 عاماً بسبب

حادث نجم عن سيارة مسروقة، فاضطربت الحياة العائلية أيما اضطراب بسبب هذه المأساة: فقد وضع كريستيان مع إخوته وأخواته بوساطة المعونة العمومية، لبعض الوقت، في عائلة لتؤويهم (مزارعون من المنطقة) لأن والدتهم لم تكن تستطيع التكفل بهم، وصادر المحضرون الجزء الأكبر من الأثاث. غادر كريستيان المدرسة من دون شهادة في السادسة عشرة من عمره، ليعمل حمّالاً في البداية لمدة عامين ثم قام بأعمال متنوعة في البناء لعشر سنوات قبل متابعة دورة حصل منها على شهادة سائق آلية. وعثر على وظيفة، لكنه سُرِّح منها بعد سنة لأن المنشأة أُغلقت لأسباب اقتصادية. وبما أنه لم يعد قادراً على دفع الكراء، فقد عرض عليه مكتب (HLM) وظيفة حارس. ومع أنه ما يزال أعزب، إلا أن علاقاته مع أفراد أسرته سيئة جداً، باعتبار أنهم مصدر للمشكلات أكثر منهم مصدر نفع للآخرين. وهو متكفل بوالديه العاجزين، بينما علاقاته معكّرة مع اثنين من إخوته، ويحتفظ بعلاقات متقطّعة مع أخ دهان عاطل عن العمل، وأخت تدير «نزلاً – مطعماً» في محافظة الأرديش («وضعها جيد» كما يقول). أما تييري وعمره 38 عاماً، فيبدو ميالاً أكثر للقمع الفوري تقريباً، ولا يظهر استعداداً للشفقة على هؤلاء الشباب الذين يعتبرهم المسؤولين بصورة رئيسية عن المشكلات التي يعانون منها. إنه أكبر إخوته الثمانية، متحدر من بيئة شعبية. وقد فُجعت أسرته بقسوة من وفاة الوالدة مبكراً. ولم يستطع الإفلات من التدني الاجتماعي إلا بوساطة صرامة أخلاقية يدين بها للتربية الأبوية وتظهر في هيئته التي يبدو عليها. هو نحيل ذو شعر قصير مصفف بعناية، وشارب صغير مقصوص باهتمام، يرتدي ملابس تنمّ عن ذوق رياضي، مؤلفة من سروال جينز وقميص لا غبار عليهما. ويروي كيف أن أباه، وهو سائق سيارة شاحنة، سعى عند ترمّله بكل وسيلة إلى «ترتيب حياة القبيلة على أحسن ما يكون»؛ فالبنات حصلن على شهادة الكفاءة المهنية في الخياطة ونجحن في الخلاص تقريباً بزواجهن على الأغلب: فواحدة تدير مطعماً في بيزييه، والأخرى تشرف على محل للملابس في غاليري لافاييت، والثالثة عاملة في مخبر صيدلاني. أما مسار الأولاد فكان أكثر وعورة. إذ بعدما وضعوا صغاراً كمتدربين لدى تجار على مقربة (خبّاز،

جزار) فإن إخوته الأربعة تركوا تلك المهن بعد خدمتهم العسكرية لأنها لم ترقَ لهم، وأصبحوا سائقين لسيارات الوزن الثقيل مثل أبيهم أو أمناء مخزن. وترك تييري المدرسة مبكراً في الخامسة عشرة من عمره، ليشتغل أعمالاً صغيرة قبل أن يصبح بدوره سائق شاحنة مدة عشر سنوات. وترك العمل أيضاً في الخامسة والثلاثين من عمره لأنه: «سئم من توقيت العمل» ليعثر على وظيفة حارس ملعب. وبما أنه كان يبحث عن مسكن أوسع، عرض مكتب (HLM) عليه، وظيفة حارس في هذا القطاع الصعب بالإضافة إلى الشقة التي يشغلها الآن. أما زوجته سيلفي التي تعرّف عليها في حفلة راقصة فتنتمي إلى بيئة أرقى قليلاً من بيئته؛ فلها أخ معلم وآخر مدرب رجبي كأبيه، وهي تحمل شهادة الكفاءة المهنية في المحاسبة، وحصلت من خلال برنامج التكوين المتواصل على شهادة في الإعلام الآلي، لكنها لم تعثر على عمل في هذا الميدان؛ ولذا تقوم الآن ببعض الأعمال الصغيرة «وتأخذ الموجود» أي ساعات للتنظيف في إحدى الثانويات.

ولأن تييري يدين بنجاحه في الخلاص دون شك إلى سلوك أخلاقي حازم، شكل حاجزاً دون سقوطه اجتماعياً، فإنه يميل إلى الرد بشدة على سلوك شبان الحي، ويتبنى حلولاً قمعية نتيجة الغيظ الذي يشعر به ويمكن تفهّمه، إذ كيف يمكن له أن يتساهل مع هذه العصابات من الصبيان، وجلهم مغاربيون، وهم يفرضون عليه قانونهم في «حيه»؟ ولِمَ لا يستعمل طريقة حاسمة (التطويق من قبل رجال الأمن) أثبتت جدارتها، وعانى منها عندما كان طفلاً، في اضطرابات مماثلة؟

إلا أن سيلفي نظراً لكونها أماً، تجنح إلى تسامح أكثر حيال الصبيان، باعتبارها تلقت تربية أقل حزماً من زوجها. ومع أنها تعترف عن طيبة خاطر بأن الأمر ليس سهلاً، إلا أنها تميل إلى الحوار مع الشبان والتحدث إليهم. وترى بأن الإقناع أجدى من القمع بشرط أن يجتهد الإنسان في وضع نفسه مكانهم «ضع نفسك مع ذلك مكان هؤلاء الشبان -تقول لزوجها- فهم يعرفون على كل حال بأنه لن يكون أمامهم شيء.. وملجؤهم الوحيد هو

العنف، ليس العنف لفعل الشر، بل إنه بالأحرى صرخة استغاثة معناها «احذروا، نحن هنا، نحن موجودون». ويرجع هذا الموقف إلى ما تتصف به سيلفي من مميزات اجتماعية (لاسيما أهمية محصولها الثقافي النسبية) تشبه مميزات العاملين في الحقل الاجتماعي، وأيضاً إلى ماضيها النضالي «في اليسار» (فقد انتسبت في الماضي إلى «الشباب العمالي المسيحي» ثم لـ «الشبيبة الشيوعية» لبعض الوقت) ومع ذلك تُشتَّتُ لديها بعض الحيرة، إذ أضحت روحها النضالية بدون مذهب ولا يقين. ثم إن الأزمة الاقتصادية التي تمنعها من الوصول إلى مركز مهني يتناسب مع تكوينها وطموحاتها، تدفعها، لا سيما بعد انهيار الشيوعية كواقع وأمل، إلى رفض السياسة برمتها. وبدافع من حيرتها تلك، تتمترس هي أيضاً خلف الأخلاق، فالأحزاب السياسية كلها تثير فيها الاشمئزاز، لأن هذه الأحزاب تريد «تلقين الأخلاق للآخرين» بينما «تعج بالمخالفات القانونية».

إن هؤلاء الحراس نموذجيون، حتى في تناقضاتهم، فما كان وجودهم في الحي عن اختيار، بل لضرورة اقتصادية أو إدارية، على غرار أكثر السكان: إنهم لا يستطيعون أو لا يريدون الذهاب إلى جهة أخرى، وينبغي عليهم البقاء في هذه المناطق التي يدفع كل شيء فيها إلى المجابهة والسقوط الجماعي والإعانة الاجتماعية. ومسيرتهم الاجتماعية لا تؤهلهم إلا قليلاً إلى فهم الشكل العنيف والمدمر أحياناً الذي قد تتخذه ثورة هؤلاء الشباب أو قبول هذا الشكل على الأقل. وباعتبارهم من أصل شعبي فلا ينبغي عليهم النزول أكثر عن تربية قاسية بل جلفة ولا عن الاختزال الشديد لآمالهم واحتياجاتهم، أي باختصار عن الجهود التي كان عليهم بذلها للحفاظ على أنفسهم أو الخلاص. وإذن فليس بوسعهم الحكم على هؤلاء الشباب إلا من وجهة نظر أخلاقية في الأساس «يوجد الكثير من التساهل»، «ينبغي وضع من لا يريدون السير باستقامة في السجن، وهذا كل شيء»، إلخ.. وهم يعتقدون أن البطالة ليست إلا ذريعة سيئة للتبطل. «كل الأعمال تتعبهم، لكنهم (لا يتعبون) من الذهاب للسرقة»، «ينبغي القول

إن من يريد العمل يستطيع العثور عليه» إلخ والسرقات ما هي إلا فدية للحياة الطفيلية: «إنهم لا يعملون، بل لا يعيشون إلا من.. السطو». وتبدو لهم تطلعات الشباب للاستهلاك مبالَغاً فيها، بالمقارنة مع التطلعات التي كانت لهم، والتطلعات التي يجب على الشباب أن يفرضوها على أنفسهم اليوم: «إنهم لا يعرفون القناعة»، «يجب إعطاؤهم كل شيء، ولا يرضون مع ذلك»، «ليس لديهم إلا -نريد هذا، نريد هذا، نريد هذا-». أما عن «التخريب» والمخدرات فهما نتيجة مباشرة لتخلي الآباء: «إن الصبيان هنا، يفعلون ما يشاؤون، والآباء يتركونهم يفعلون». ومع ذلك فإنهم لا يجهلون الأسباب الحقيقية لهذا الوضع لأنهم عانوا منها أيضاً: إذ يعلمون أن البطالة ترمي بثقلها على هؤلاء الشباب بطريقة من المرجح أنها أكثر حدة مما كان يحدث لهم. ويعترفون عن طيب خاطر بأن هذه السلوكات المنحرفة ترجع في الكثير منها إلى الوضع المختل الذي خلقته الهجرة -لاسيما التجميع في الأحياء- وقاد إلى انهيار السلطة الأبوية. ويعلمون أيضاً أن الدعاية في التلفزيون وفي كل مكان، بالإضافة إلى تعميم افتتاح الأسواق الكبرى (بالتزام قانوني) حتى في قلب الأحياء الفقيرة، قد عَدَّلَ من تطلعات هؤلاء الشباب. إنهم يعرفون كل ذلك ولكن كلامهم يوحي بأنهم لا يودون معرفته حقاً لأنهم يخشون ربما أن يؤدي الكثير من الفهم إلى التماس العذر لسلوكات يحكمون بأنها مرفوضة أخلاقياً. وهكذا عندما استحضر أحد الحراس زيارة رياضيين من إحدى الدول الشرقية إلى المنطقة، تأسف لأنه تم اصطحابهم إلى إحدى الأسواق الكبرى، بسبب ما قد يؤدي إليه ذلك من رغبات غير مشبعة؛ ناسياً أن السرقات أو حتى نهب الأسواق الكبرى الموجودة، في حيهم نفسه، تخضع في جزء كبير منها إلى منطق مشابه.

إن رفض (البيض المساكين) لهؤلاء الشباب -من التبسيط اعتبار هذا الرفض من «العنصرية»- رفض قوي بصورة خاصة، يمكن التثبت منه خلال الحوار، على الرغم من التحفظ الذي أظهره من شملهم التحقيق. إذ كان الحراس كثيراً ما يتركون بعض الجمل معلّقة حتى لا يجازفوا بقول بعض

الكلمات الموسومة التي تصدم من يحاورهم: «لا يمكنهم الاندماج هنا، أليس كذلك؟ لأنهم..»، «هناك الكثير منهم.. يعيشون في..»، «إن الدولة ليست.. كفاية» إلخ، وبخلاف الطبقات الاجتماعية الأكثر يسراً، الذين يستطيعون الرحيل حينما يصبح الوضع غير محتمل لهم، فإن رد فعل هؤلاء «البيض الصغار» يزداد عنفاً لكونهم حكم عليهم بالبقاء. إنهم يشعرون بأن هؤلاء الناس الذين جاؤوا من بعدهم يتحدّونهم، ويقبلون بصعوبة تحمل موقفهم العدائي ومخالفاتهم المتنوعة دون احتجاج. ويشهدون بغضب مكتوم رحيل «الأفضل» من المستأجرين («إن الفرنسيين الحقيقيين، حسناً، قد رحلوا»). وعلى الرغم من الجهود المخلصة التي بذلوها جميعاً لمساعدة هؤلاء الشباب، إلا أنهم لا يستطيعون حقاً فهم الشعور بالظلم الذي هو في مبدأ سلوكاتهم المنحرفة. إذ كيف لهم أن يتخيلوا مفارقة شعور هؤلاء الشباب بأنهم فرنسيون أكثر من فرنسيي الأصل؟ وعلى خلاف المهاجرين الذين قدموا إلى فرنسا منذ ثلاثين عاماً والذين بقوا في موضعهم على الرغم من بؤسهم، دون مطالبة بأي شيء، حاملين للبلد الذي استقبلهم كل عرفان وامتنان، فإن أولادهم الذين عاشوا في فرنسا دائماً، يودون أن يُعتبروا كالفرنسيين («عندما يُعطَون شيئاً، فليس لديهم عرفان بالجميل» يقول أحد الحراس مندهشاً) ويقبلون بصعوبة متزايدة التهميش الذي يخضعون له.

هنا يكمن ولا شك أحد أسس الجاذبية القوية - المحسوسة حتى درجة إنكار الحقوق («لست مع الديكتاتورية، إلا أنه ينبغي تقديم مثال جيد») لتلك الأفكار السياسية التي تشيد بأسلوب القوة، وطرد هؤلاء «الأجانب» الذين لا يحسنون البقاء في موضعهم، أو الأسوأ من ذلك، يظنون بأنهم في وطنهم حيثما حلّوا. تلك الجاذبية التي يقع العمال والتجار الصغار تحت تأثيرها.

مع حراس سكن شعبي (HLM)

حديث مع باتريك شامبانيه

«سأنتخب لوبان، فذلك سيدخل الرعب في قلوبهم»

❖ أنتم تسكنون هنا منذ..

كريستيان: لقد ولدت هنا، في فيلنوف عام 1956 وعشت هنا دائماً، ولا أعني أنني لم أخرج قط..

❖ ومتى بُني الحي؟

كريستيان: حسناً، هناك بنايات أُنشئت منذ أكثر من 20 عاماً. وأعتقد أنهم بدؤوا عام 1964، عندما بدأ المعمرون يصلون من الجزائر. وكان لهم، لأنهم كانوا تحت الخيام عند وصولهم إلى المنطقة، ولم تكن هناك شقق فبدأ مكتب (HLM) ببناء الشقق هنا. وأذكر أنني كنت طفلاً عندما بدؤوا يركّبون تلك البنايات. كانوا يركّبونها بوساطة سكك حديد. كانت عبارة عن بلاطات، وكلما بنوا طابقاً يضعون سككاً ويزلقون البلاطات، والعمل يجري سريعاً. لم يكن في ذلك الزمان سوى المعمرين، وكان التفاهم بينهم سائداً هنا. وبعد ذلك أخذ الأمر..(..) لأن أفاضل الناس سئموا ورحلوا. فكيف يمكن أن تعيش هنا؟ إن الناس مكدسون في الشقق هنا؛ الشقة التي فوق شقتي وهي مثلها، ثلاث غرف وفيها 9 أطفال وهم 11 شخصاً، وفوقهم 12

شخصاً. والأولاد يفعلون ما يشاؤون هنا، ويتركهم الآباء يفعلون. أما في القبو، تحت، فهم لا يتوقفون مع الدراجات النارية، يصلحونها حتى الثانية صباحاً، يعملون في الممرات ويفرغون الزيت فيها ثم يتركونه هناك.. إنه الغائط حقاً. ويبقون أحياناً حتى العاشرة أو الحادية عشرة ليلاً في الخارج. كان الوضع في الماضي جيداً هنا، إذ كان الأطفال أقل.. والفوضى أقل.. لا بد أن نقول إن الحياة تتطور، أليس كذلك؟ قيل في وقت ما إنه ينبغي إعادة إيجار الشقق هنا، فوضعوا من أرادوا.(..) جاءت عائلات جزائرية في نفس الوقت الذي جاء فيه المعمرون، أترى؟ لكنهم لم يغادروا مساكنهم، وبقوا هنا دائماً. فهي ليست عائلات تضايق الآخرين. وتوجد مساكن تابعة للمحافظة وأخرى للبلدية، لكن المحافظة وضعت في المساكن التي تملكها من تريد، أي عائلات غير مرغوب بها، أخرجت من حيث تسكن ووضعت هنا.

تييري: من تحمل حقاً هذه العائلات غير المرغوب بها؟ إنها فيلنوف. فقد لاحظوا في إدارة المساكن أن الوضع يتدهور وأن المساكن شاغرة، وفكروا في جلب الأموال عن طريق استقدام الناس إلى فيلنوف، واستقدموا الناس، وكبر الأطفال الآن وغدوا مزعجين.

❖ من أية بيئة هؤلاء الناس؟ وهل يعملون؟

تييري: نعم، أكثريتهم، الآباء يعملون. لأن أكثرية الآباء جاؤوا في 1953-1954 وكانوا يعملون دائماً، أما الآن فهم متقاعدون، والأم لم تعمل قط. أما الأبناء الكبار فعاطلون عن العمل ولا يعثرون على عمل. فماذا يعملون إذن؟ يسرقون السيارات أو يسطون، ويتعاطون المخدرات. والشباب يعرف بعضهم بعضاً في جميع الأحياء، وإذا أرادوا الاجتماع في مكان ما، فلا وسيلة لمنعهم.

❖ في أي وقت بدأ التدهور؟

كريستيان: حسناً، لقد بدأ هنا في 1981. كان الوضع جحيماً ولا نستطيع النوم، إذ كانت تُسرق سيارة كل خمس دقائق.. بالإضافة إلى طلقات البنادق. وكانوا يخلعون أبواب المرائب بوساطة السيارات المسروقة، ويقومون

بسباق السيارات في الشوارع، فكنت ترى صبياناً في الثالثة عشرة يقودون BMW، بل كنت لا ترى إلا جزة شعر، وجرَوا على فعل السخافات، فسئم الشرطة من كل هذا ولم يعودوا يأتون، وأخذ كل واحد يفعل ما يريد، وكان التدهور التام.

«كل الناس الطيبين نوعاً ما، يغادرون»

تييري: هناك الكثير من التساهل في فيلنوف، لأنني عندما كنت أسكن لثلاث سنوات في م (محلة مجاورة) وحدثت القصة نفسها هناك، استقدموا رجال الأمن الجمهوري الذين بقوا ستة أشهر برشاشاتهم ولباسهم الميداني وأجهزة الاتصال اللاسلكي على ظهورهم، ليلاً نهاراً باستمرار حتى هدأت الأوضاع.. أما في فيلنوف، فهم يفعلون ما يشاؤون، لا سيما في هذه الآونة التي يسود فيها التوتر (حرب الخليج)، إنهم يتحدثون عن إعادة الكرة، وسيكون الأمر أسوأ.

كريستيان: لا أحد يفعل هذا! غيرهم، لا أريد أن أكون عنصرياً معهم، لكنني أقول..

تييري: (بلهجة تهكّم) إنه «جيل البور!»

كريستيان: هو ذا، ليسوا وحدهم، فهناك فرنسيون حتى، شباب فرنسيون وهم راضون حقاً عن.. عندما تُستدعى الساعة الثانية صباحاً للذهاب إلى أحد الممرات، وتجد نفسك مع 40 شاباً، جميعهم سكارى وتُشتَم، لقد حدث ذلك لي مرتين، أما الآن فأقول: انتهى!

❖ ما هي أعمارهم؟

تييري: ما بين 18 و20 سنة..

كريستيان: وهناك فيهم من هو أصغر.. إن رأيي هو أنهم الآباء؛ فلِمَ يترك الصبيان في عمر 14 و15 سنة طوال الليل؟ تراهم يخرجون مساءً على دراجة نارية، وينزلون إلى المدينة جماعة ثم يعودون على دراجات نارية مسروقة دون أي إزعاج. وإذا استدعيت الشرطة إلى فيلنوف -إنه مؤسف

لكنه هكذا- يقولون: «حسناً، لا نريد المجيء الآن» إنهم لا يريدون المجيء لأنهم خائفون، وهذا كل شيء (..)

تييري: حسناً، شيء عادي، لقد تدهور الوضع..

كريستيان: لدينا دهانين، أرسلنا شاباً منهم أعاد طلاء جميع أبهاء المداخل. فأصبح كل شيء جميلاً ونظيفاً، وعلب البريد جديدة وجميلة. فأفسدوا كل شيء وأتلفوه. إنهم يحبون الأشياء محطمة وتالفة. نعمل ونغير كل شيء وتعمل منشآت الصيانة، ثم تجد كل شيء في الغد محطماً. نركّب مزالج كهربائية ومغالق كهربائية للأبواب يوم الإثنين صباحاً، فإذا أتى الثلاثاء مساءً فلن يبقَ شيء. والكل محطم.

تييري: أنا أقول إنه ينبغي إيجاد حل لمثل هؤلاء الأشخاص. شيء جميل أن نسمع السيد س (رئيس بلدية فيلنوف) يقول: «سنبني مساكن شعبية للعائلات الثقيلة». فأين سيبني هذه المساكن الشعبية. هل سيبني أبراجاً وسط الحقول ثم يضعهم هناك؟ أقول: إن هذا لا يستحق العناء. إذ يجب العثور على أرض بعيدة عن فيلنوف وإسكان الأسر غير المرغوب فيها هناك ثم تركهم فيما بينهم. من المؤسف التكلم هكذا، لكنني أعتقد أنه الحل الأمثل. لأن هناك أسر تسكن هنا منذ 18-20 سنة وهم زبائن لمكتب (HLM) يقولون: «لقد سئمنا، فكل شيء متدهور، يضعون لنا علب بريد وتحطّم كلها».. حتى أن اللصوص يتوصلون الآن إلى فتح الأبواب المصفّحة ويسرقون كل شيء عندك. وإذا كانت لديك شرفة يدخلون منها لسرقة التلفزيون أثناء نوم المستأجر. وهم الأشخاص أنفسهم دائماً، فكيف يمكن تحمل أناس كهؤلاء! ثم هناك قصة السيارات.. إذ يلزم لسكان فيلنوف أبواب مصفّحة.. وقضبان على النوافذ.. وسيارة قديمة.. لا إن الأمر غير معقول.

كريستيان: تأتي بسيارتك؛ وتصعد لبيتك دقيقتين، وعند نزولك تجد زجاج السيارة محطّماً وسرقوا جهاز الراديو. إنها حياة لا تطاق، إن هذا ما لا أفهمه (مقلّداً بصوت رقيق مضحك وأنثوي) «يجب تركهم وشأنهم، يجب تركهم يعيشون، هؤلاء الصغار» لِمَ لا يبقى المستأجرون غير المغاربيين في

المنطقة، لماذا؟ لأن الشباب في الممر يتحدثون حتى الثالثة صباحاً، يشربون ويدخنون ويحششون حتى يصبحوا في غاية الثمالة من التحشيش والشرب في نفس الوقت، فإذا خرجنا وقلنا لهم شيئاً، يغرقوننا بسيل من الشتائم. فلا ينبغي قول أي شيء لهم بل تركهم وشأنهم. وهكذا تحدثنا -نحن الحراس- مع بعضنا وقلنا: «بوسعهم أن يكسروا كل شيء، ولن نصلح أي شيء، لأن لا فائدة من ذلك.»

«هناك الكثير من التساهل»

❖ ما هي صلاتكم مع الشباب، وكيف تجري؟

كريستيان: مع الشباب، لا شيء، لا شيء، لأن ذلك لا يستحق العناء، فنحن بالنسبة لهم وُشاة ومتعفنون، وكذا وكذا فلا فائدة من التحدث معهم. لقد تناقشت معهم جيداً، لكن كل ما يقولونه: «أنا أريد قاعة، ولن يكون تدهور من بعد، ولن يكون كذا» (..) عندما تبدأ عملية إعادة الاعتبار، ينبغي ضم بعض الشباب من الأحياء إلى المنشآت فهناك كثير من الشباب يقولون: «إذا ما عملنا مع منشآت الطلاء أو الكهرباء، فسنمنع الآخرين من العودة إلى الحي» ويقولون لي دائماً: «نحن الذين كان علينا إعادة طلاء جدران الدرج وإصلاح بعض الأشياء، حتى تشاهدوا أنه لم يعد هناك تدهور ما».

تييري: لا، لست موافقاً.

كريستيان: لكن هذا ما يقولونه.

تييري: لأنك قلت قبل قليل: «أما نحن فلا أحد يفعل شيئاً من أجلنا» لأن مكتب (HLM) يود فعلاً عمل شيء، لكن الآخرين لا يفعلون شيئاً. على الجميع أن يفعلوا شيئاً، الجميع. وهناك من يوافق وآخر يعارض (يروي حينئذ كيف أن محلاً أعطي للشباب قد أُتلف وأُغلق). عندما يقولون: «نعم، إننا لا نجد عملاً، لا أحد يعطينا عملاً» ماذا تريد أن يُعطَوْا إن كانوا لا يستطيعون الحفاظ على محل كهذا. لقد سرقوا كل شيء ولم يستطيعوا المحافظة على القاعة لأسبوع. لقد حطموا كل شيء. وأخذوا يلوثون الزجاج بالطلاء في الوقت الذي أنهى الدهان إعادة الطلاء. لقد حزنت وأنا أراه

هناك يكابد البرد مع فراشيه. وبعد أسبوع أُتلف كل شيء! وإذن فلن نعمل لهم قصر مؤتمرات خلف كل بناية!.. لا تتبغي المبالغة. أنا أيضاً سكنت 25 سنة في سكن شعبي بجانب الطريق السريع هناك. كنت في السادسة من عمري عند قدومي، وبقيت 16 عاماً. وكان أسوأ ما نرتكب من حماقات هو كسر لوح زجاجي -إذ كانت توجد واجهات زجاجية كبيرة في البنايات- فعندما كنا نلعب الكرة على العشب وتنحرف إحدى الضربات عن هدفها، كنا ندفع ثمن اللوح كما أذكر. كنا ندفع ثمن لوح كبير 50 فرنكاً. لكننا لم نكن ننهب كل البناية لأننا نرغب في هذا الشيء أو ذاك، فما كان ينبغي هذا.. يوجد الكثير من التهاون في فيلنوف والكثير من التساهل. وهذا كل شيء. لديك شبان لن يعملوا طوال حياتهم، لماذا؟ لأنهم لا يحبون إلا ما يخالف القانون، وإذن يسرقون السيارات ويفككونها، لأن السرقة أسهل من العمل، أو يقومون بسلب مسلّح، ويُسجنون شهرين أو عاماً ثم يخرجون ليبقوا 15 يوماً هادئين، ويبدؤون من جديد مع بعض الأصدقاء ويحطمون كل شيء.

كريستيان: وفوق ذلك فهم يفتخرون بذهابهم للسجن (..) ويدفع الكبار الصغار، وعندما أرى الصغار يشتركون معهم، أقول إن هذا مخجل.

تييري: إذا بقيت الأمور هكذا، فلن تتغير، وستصبح الفوضى مؤبدة. هناك حماقات تقع ولا تُنشر حتى في الصحف. فعندما أثاروا الاضطرابات في م. قال الناس: «كأننا في حرب» وهذا صحيح. وعندما أوقفني رجال الأمن الجمهوري وكان شعري وقتها أجعد خاطبوني بـ «شمامة قذرة» وفتشوني بينما يداي على السيارة. لكن ذلك أدى إلى نتيجة.

«ما أن نقول لهم شيئاً حتى نصبح عنصريين!»

كريستيان: (..) أنا لا أدري فربما كان هناك خلل في مكتب (HLM) إذ عليهم أن يجدوا حلاً. وكذلك الأمر في البلدية لأن على رئيس البلدية أن يفكر بعمل شيء، لأنها بلدية. (..) وما أن تقول لهم شيئاً (للشباب) حتى نصبح عنصريين. وأنا لست كذلك، إذ لدي رفاق منهم: جزائريون وتونسيون.

تييري: وأنا أيضاً.

كريستيان: .. إنهم رفاق طيبون، لكنني كما قلت مرة للشباب: «أنا عنصري مع الأوغاد، وهذا كل شيء، فليس لهم إلا أن يعملوا. إنهم يدّعون بأن لا أحد يعطيهم عملاً، لكنهم ما أن يصلوا إلى عمل حتى يسرقوا. ولن يحتفظ رب عمل بلصوص، أليس كذلك؟ اسمع هذه القصة التي حدثت في المنطقة الصناعية، استخدم (رب عمل) شاباً ومنَحه الثقة، ولم يمضِ أسبوع حتى ضرب الشاب السكرتيرة وسرق منها أموال الصندوق. ولما لحق به رجال الشرطة للقبض عليه، أطلق النار عليهم من مسدس خردق كان معه، لكنهم قبضوا عليه ولقّنوه درساً. فخرج الآخرون (الشباب) جميعاً يهتفون: «الموت لكم، شرطة قذرة، عنصريون قذرون».

(..)

كريستيان: أعرف حراساً يعملون لحساب الإدارة، هُدّدوا.

تييري: وأنا أيضاً، هُدّدت.

كريستيان: لي صديقان من الحراس، حرقوا لهما شقتيهما بكل وقاحة..

تييري: لقد هدّدوني انا أيضاً، فقد جاءني اثنان قائلين: «عليك التوقف عن دسّ أنفك في المرآب» فقلت: «إنني أقوم بعملي، وليس لديكم ما تفعلونه في المرائب، إنني أقوم بواجبي، ولا أفعل إلا ما أُؤمر به» وجاءا ثانية وقالا: «توقف عن دسّ أنفك وإلا ستتلقى طلقة من بندقية في المرائب يوماً» هذا ما قالاه لي! ثم هناك الآخر الذي تحرّش بابني منذ عامين، عمره 20 سنة وعمر ابني 9 سنوات، أمسكت به وقلت: «إنها المرة الأولى والأخيرة التي تلمس فيها شعره، لأنك لن تكون مع رفاقك دائماً، وسأمسك بك عندما تكون لوحدك».. ولم يكن يستطيع حتى الكلام بل يفأفىء وينظر إلى حذائه.

كريستيان: يكونون الأكثر عدداً في المساء، فهم خمسون على الأقل.. يبقون هناك طوال الليل، وعندما يكون الجو جميلاً كما كان في الأسبوع الماضي؛ كانوا يذهبون للنوم بينما نخرج نحن من العمل. طوال الليل ونحن

نسمع «يعيش صدّام حسين ويعيش فلان» بالإضافة إلى الدراجات النارية.. هل ترى إلى كل هذه الفوضى كل الليل؟ فقال الناس: «سئمنا من كل هذا، لندع الشرطة» وهاتفت مفوضية الشرطة الساعة الثانية صباحاً قائلاً: «ينبغي إيقافهم عند حدّهم، لقد أمسوا مجانين». وفوق هذا أُعطوا قاعة. وهم يخرجون ويأخذون بالصياح حتى الصباح، وليس لنا أن ننام لننهض للذهاب إلى العمل. هل تدرك المشكلة؟ فهذه ليست حياة،ولذا أقول أن..

«أقول للمستأجرين لا ينبغي أن ترحلوا».

تييري: وإذا قلنا لهم أي شيء، ينتقمون من السيارات.

كريستيان: أو يثقبون العجلات.

تييري: إنهم لا ينفكون ينتقمون من السيارات. ويأتي الوقت الذي يسأم الناس من كل هذا، فإذا وجدوا شيئاً فإنهم يرحلون قائلين: «حسناً، يا سيدي الحارس، لقد بحثنا عن مسكن آخر، وهانحن راحلون».

كريستيان: ولذا أقول للمستأجرين: «لا يجب أن ترحلوا» و«ينبغي أن تبقوا في مساكنكم، لأنكم إذا ذهبتم فيكونون مسرورين جداً»، وستبقى المساكن شاغرة. فماذا سيفعلون؟ سيستقدمون أيضاً عائلات كهذه! الجميع يسارعون بالرحيل، ولن تبقى إلا هذه العائلات». هناك أوقات لا ينهكنا فيها العمل بل الشدة النفسية.

تييري: أوه، يا لله، فنحن متوترون، لقد عملت سائق شاحنة بين 13 و14 ساعة في اليوم، وكنت أقل تعباً من بعض الأيام هنا..

كريستيان: ثم، نحن على أعصابنا دائماً.

تييري: ونُهدَّد، فما أن تقوم بواجبك حتى تتلقى التهديدات.

«إنه «جيل البور»»

تييري: أنا لا أستطيع أن أفهم، إذ ليس عليهم إلا إرسال رجال الأمن الجمهوري، لكنهم لا يريدون ذلك، لأنهم عندما يكونون هنا ببنادقهم الحربية المحشوّة؛ يوقفون أياً كان ولا يعبؤون بشيء ولا يخافون. وإذا شعروا بمشكلة،

يخرجون العصي ويأخذون بالضرب. وهذا ما ينبغي لهؤلاء الصبيان وليس السجن، فهو تأديب مناسب من وقت لآخر، إذ يهدّئهم أكثر بكثير من وضعهم في السجن. لأنهم بعد سجنهم شهراً أو اثنين يعودون.. وكل منهم يظن نفسه عرّاباً هنا.. إنه جيل البور! وأنا لا أدري ما يريد هؤلاء الشبان. أتحدث معهم بصراحة: «لم لا تذهبون لقطاف العنب، فالأجر جيد والعمل ممتع» (بصوت مضحك) «أوه، كلا، لقد جربنا يومين، إنه يسبب ألماً في الظهر» ماذا تريد أن يعملوا؟ يذهبون يومين لقطاف العنب ويُتعبهم ذلك، أولئك المساكين الصغار!

كريستيان: (ساخراً بدَوره) أجل، فكل الأعمال تتعبهم. لكن السرقة..

تييري: ثم إن هناك الكثير من.. تحدثت مع صديق لحماتي، لديه كرم عنب في بوجوليه، فقال لي: «لم أعد أطيقهم، انتهى، لم أعد أريدهم، فهناك الكثير من السرقات، كثير من السرقات». إنهم يفضلون الآن استخدام أجانب (غير مغاربيين) أو فرنسيين. لأن هناك الكثير من الأجانب يقطفون العنب في بوجوليه، إنني أعرف حقاً ما يريدون، ربما يوجد منهم من له مشكلات في العمل، هذا مؤكد، ثم يوضع الجميع في الخانة نفسها.

❖ ما الذي يجب عمله، ألديكما فكرة؟

تييري: فكرة لدي: لا أدري، فحتى الشرطة أعيتها الحيلة.

كريستيان: أنا لا أدري ما يجب عمله.

تييري: نحن نقوم بعملنا، وعلى كل واحد أن يقوم بعمله، وهذا كل شيء.

❖ لو لم تكن هذه المشكلات مع الشباب، فإن العمل يروقكم؟

تييري: أجل.

كريستيان: بلى، إنه عمل ممتع حقاً.

تييري: نعم، إنني أجد هذا العمل ممتعاً لأنني تعودت على العمل في الخارج، أو لوحدي حينما كنت سائقاً. حسناً، إننا هنا نتحدث مع الناس، وفي الخارج دائماً.

كريستيان: نعم، إن هذا هو الممتع، وقد تحصل أشياء تؤدي إلى علاقات جيدة، ولكن ليس مع مثل هذه العائلات.

تييري: إذا لم يُفعل شيء، فالوضع سيبقى كما هو، وفيلنوف ستبقى هكذا، بل ستصبح غيتو.

❖ هل فكرتما بطلب الانتقال إلى جهة أخرى أم أنكما ترغبان في البقاء؟

تييري: أقول لك بصدق إنني لا أطلب الانتقال لأنني عشت هنا دائماً، وأعرف الكثير من الناس..

كريستيان: ليس عليك أن ترحل أنت أيضاً. نلاحظ أن تلك العائلات ليس بوسعها دفع الكراء من التعويضات العائلية التي تقبضها أو غيرها، فرأيي إذن هو وجوب طردها منذ زمن طويل. لأنهم بالإضافة إلى ذلك يضايقون الآخرين.

تييري: نعم، طردهم، لكن لا أحد يريدهم! وليست إلا فيلنوف التي تستبقيهم. إن هناك مشكلة حقاً؛ فلماذا فيلنوف دائماً؟ إذ ليس على المسؤولين إلا تفريقهم في الجهة عوضاً عن تجميعهم هنا. أو يجب أن تُبنى لهم بنايات (HLM) لكن خارج الحي. ينبغي إيواؤهم خارجاً، لأنها مصيبة أن يوضعوا جميعاً هنا. وليست إلا هذه الطريقة للتوصل إلى حل ما.

❖ ما هو لون البلدية السياسي؟

كريستيان: إن البلدية شيوعية منذ زمن طويل، وأنا شخصياً، لا أود أن أكون عنصرياً معهم، ولكن من تجد إذا ذهبت إلى البلدية؟ كلهم مغاربيون الذين يشتغلون هناك. وإذا ما طلبت وظيفة لك أو أي شيء، فلا شيء لك.

تييري: نعم، لكنهم هم الذين ينتخبون رئيس البلدية..

كريستيان: كل شيء لهم، وإن كنت مريضاً أو طلبت شيئاً أو عملاً، أو تريد تكفلاً للذهاب إلى طبيب الأسنان، يُقال لك: «لا» فتُجرجر نفسك وفي خدّك ورَم هكذا. أما هم فإذا كان لدى أحدهم شيءٌ مهما كان صغيراً،

يرسلونه إلى المستشفى. وإذا أرادوا تكفلاً بهم من المصالح الاجتماعية، يتوقفون عن العمل ويصيرون لصوصاً، ولديهم جميع الحقوق.

تييري: إن ما يقال هو أن على الواحد منا أن يكون أسمر أو يضع شيئاً من طلاء الأحذية حتى يصير مثلهم، فيحصل على كل شيء. وهذا صحيح!

«إنه رجل متشدّد وليس عنصرياً»

❖ هل تستطيع السياسة تغيير أي شيء في رأيكما؟

تييري: رأيي هو أن الوضع قد يتغيّر إذا ذهب الشيوعيون. لكن الطبيب لم يستطع الفوز للأسف، إنه من التجمع من أجل الجمهورية (RPR). وهو رجل متشدّد وليس عنصرياً. يقول إن كل شيء لهم، ويجب أن يكون لغيرهم ما لهم. وقال عن المركز الاجتماعي الموجود في فيلنوف: «إذا أصبحت رئيس بلدية فيلنوف فسأغلق المركز الاجتماعي» فلم يُغلَق. وقال: «إنه سيكون للمسنين والمعسرين». لم يقل بأنه لن يكون لهم شيء بل قال أنه لا شيء إلا لهم في هذه الأيام؛ فهم يرسلون للمستشفى لشيء تافه ولا يدفعون شيئاً، وهكذا كثير (..) إن السياسة في فيلنوف سيئة. وإذا استمرت على هذا المنوال فلن يبقى سوى المهاجرين في فيلنوف، ولا موجب للدهشة عندئذ، لأن من الصعب إرجاع الناس فيما بعد.

(..)

❖ ألستم معرضين للخطر أكثر قليلاً من المستأجرين؟

تييري: أوه، نحن معرضون للخطر، هذا أكيد.

❖ وهل يعقد المكتب اجتماعات للحراس؟

تييري: لدينا اجتماع مع مسؤولي الإدارة مبدئياً، نتكلم فيه عن كل المشكلات.

❖ وما هي المشكلات التي تتطرقون إليها أكثر الأحيان؟

تييري: إنه التدهور والتحطيم، وكل هذا دون حل. إنها المشكلة ذاتها

دائماً، تصرف ميزانية بعد ميزانية للإصلاح، نقول لأنفسنا أحياناً إن الأمر لم يعد يستحق العناء. فإذا أصلحنا، يتلفون من خلفنا، ونعود للإصلاح ثانية فيكسرون.. وهكذا الأمر منذ سنة.

كريستيان: لا شيء يثبت أمامهم، مهما ركّبنا من أشياء في منتهى العصرية.

تييري: لا شيء يؤثر.

(..)

❖ لا بد أن الحلول التي يقترحها لوبان، تغري بعض الناس، أليس كذلك؟

تييري: حسناً، لا أدري. أنا لا أنتظر إلا ذلك، وأود أن أرى ما سيحدث. لأنهم يقولون إننا عنصريون، وأن الفرنسيين عنصريون..

كريستيان: كلا، إنها سخافات، إن هذا من السخافة.

تييري: ثم إن رأيي هو أن الفرنسي إذا كان عنصرياً فلا يأتي للسكن في فيلنوف: وعندما يقولون أنت عنصري أجيب: «هذا هراء، فلو كنت عنصرياً لما عملت حارساً في المنطقة، ولذهبت لعمل شيء آخر في جهة أخرى، كأن أستأنف عملي سائقاً لشاحنة، أليس كذلك». فهم يدفعون بالعنصرية إلى التفاقم. ولهذا أنا أنتظر ما سيحدث في الانتخابات القادمة. نعم، أريد أن أرى. وهناك الكثيرون ينتظرون، فقد سمعت كثيراً من الناس يقولون: «نحن، أنا، أنا لا يهمني شيء، فمهما كان لوبان فسأنتخبه» والكل يسمع هذا. ثم يقولون: «لا أحد يفعل شيئاً، لا البلدية ولا الشرطة! وإذن سننتخب لوبان لأنه سيفعل شيئاً».

كريستيان: ليُترك سنة في السلطة، سنة فقط.. (يذكر الجنح المتصلة بالمخدرات)

تييري: إن رأيي هو أنه طالما وجدت المخدرات فستحل الفوضى، آه، إن المخدرات وباء وخيم، إنه وباء..

كريستيان: ثم إن المخدرات تجلب بعد ذلك لهم المال، تجلب لهم المال دون أن يفعلوا شيئاً.

(يروي الحارسان بعد ذلك كيف اكتشفا المخابىء المختلفة التي يستعملها المهربون -مثل جدران المصاعد، وأغطية المصابيح الكهربائية، إلخ..- والتهديدات التي وجّهها هؤلاء لهما إذا ما لمساها أو أخبرا الشرطة). لقد فاض بهم الكيل، إذ ليس لديهم مستقبل.

(دخلت سيلفي، زوجة تييري، مع ابنتها. فشرحتُ لها بسرعة موضوع الحوار)

سيلفي: لقد تحدثتُ لأكثر من ساعة، في الأسفل، مع شباب. فلقد فاض بهم الكيل إذ ليس لهم أي مستقبل، ولا يعرض عليهم أي شيء.. ولا أمل لهم، فهناك عنصرية أرباب العمل. إلا أنه ينبغي القول إن أرباب العمل.

تييري: هناك الكثير مما ينبغي قوله أيضاً..

سيلفي: نعم، أنا معك لكن الأمر في النهاية سلسة متشابكة، إن شئت.

كريستيان: هذا ما كنا نقوله قبل قليل، فالطيبون يدفعون الثمن عوضاً عن الخبيثين..

سيلفي: يوجد طيبون، وطيبون جداً.

تييري: أجل، لكن هناك الكثير من الخبيثين.

سيلفي: عندما نرى الصبيان يسرقون تحت أنظار آبائهم، ولا يقول هؤلاء شيئاً، إنهم يتعودون منذ الصغر، أعني أن الصبيان ذوي الأربع أو الخمس سنوات لا يفكرون في شراء شيء أبداً. وإذن هي.. العقلية. إنهم لا يرون أنفسهم في أي شيء. تعرض عليهم قاعات وأدوات فيحطمون كل شيء، إن هناك وجع، وجع العيش. وهو ليس في هذه المنطقة فقط؛ فقد عملت في ثانوية جان زاي وهي ثاني ثانوية في المنطقة، وكل تلاميذها من النخبة حقاً، الزبدة، ومع هذا فهناك الشيء نفسه، ألفاظ فيلنوف نفسها،

والتعابير نفسها، وأسلوب معاملة الأساتذة نفسه. فاندهشت. عدم احترام الأساتذة.. إنه ليس..

تييري: لأنهم، في نهاية الأمر، لا يحترمون أحداً. لا أساتذتهم ولا أحد.

سيلفي: لا أدري كيف النجاح في.. إنه كالسرطان. لا أدري كيف النجاح في استئصاله.. ولا يمكن التحدث معهم لأنهم حذرون، فقد قالوا لي مؤخراً: «نعم، لكن لك غرضاً من وراء هذا» فأجبت: «أنا أتحدث لأنني أرغب في التحدث» و«ليس لي غرض من هذا»؛ وأنا أشعر بالرضا الشخصي إذا ما رأيت شيئاً إيجابياً.

كريستيان: (بشك) ما الذي يمكن الوصول إليه؟

سيلفي: يظنون دوماً بأنه يُراد خداعهم، أو سرقتهم، هنا..

تييري: إنهم هم الذين يخدعوننا! فليتوقفوا عن السرقة، ولتبق البناية نظيفة..

سيلفي: إنني لا أنفك أقول لهم، زيادة على ذلك، أنتم فرنسا، فهم في الواقع شباب الغد، وهم الذين سيعملون.. إن هذا يثير الخوف.. لقد قال المسؤولون بأنهم وضعوا في فيلنوف قاعات وأدوات تحت تصرف الشباب، لكن كل هذا واجهة، وزائف؛ لأن الشباب لا يدخلون هذه القاعات أبداً.

تييري: إنهم يقولون دائماً: «نريد هذا وهذا وهذا» وعندما يُعطونه في النهاية فذلك لا يمنعهم من السرقة.

سيلفي: شيء جيد أن نتحدث إليهم، مع البعض.. حتى لو كان لديك انطباع بأنك تتحدث في الفراغ، حتى لو وجدت جملة صغيرة أو كلمة صغيرة، لدي الانطباع بأن..

تييري: (بشك قوي) نعم، لديك الانطباع، لأنني أرى جيداً حينما أُعطَوا القاعة وأثثت بالكراسي والطاولات وأُعطَوا الدهان، كيف حطموا كل شيء بعد ثمانية أيام ثم أغلقت القاعة.

❖ **هل تجاوزت الأحداث الآباء، في العائلات؟**

سيلفي: هذا ما قالوه لي. كان لشاب مشكلة -لا أدري ما هي- مع زوجة أبيه، فقلت: «يجب مناقشة الأمر، فهناك طريقة دائماً لإصلاح الأمر» «أوه، أنت لا تعتقدين هذا، فأنا لا أتحدث مع أبي، ولا يكلمني إلا حين يضربني».

كريستيان: أنا أعرف واحداً يضرب أباه لأنه لا يسلمه السيارة.

سيلفي: قال لي: «ألا ترين الفوضى التي نعاني منها، وفي أي جحر نعيش، ماذا تريدين أن يكون لدينا..»، ثم «هناك صراصير في كل مكان. إنها القذارة داخلاً وخارجاً. ونحن نشعر بالقذارة فينا» إن ما أريد قوله هو أنك عند العودة إلى بيتك، تنظر حيث توجد الممرات، أما أنا فتستقبلني الصراصير عند وصولي إنها قذارة.. وهو شيء لا يبعث على الاحترام.. لكنني أحترمهم لأنني هكذا، غير أن هذا لن يدفع الشاب الذي يجد نفسه في الشارع نوعاً ما إلى التماس حياة مستقرة. فهم يعيشون 10، 12، 15، في غرفة، ولا حميمية لهم ولا زاوية، منذ صغرهم، ليس لهم..

تييري: أوه!.. كفي عن المبالغة..

سيلفي: لكن من المهم أن يكون للطفل الصغير ركن له.

تييري: (بغضب) كلا، انظري بيتنا، لقد كنا عشرة في شقة من أربع غرف، ولم نصَب بصدمة نفسية ولم نحطم الحي.

سيلفي: كانت لديك الفرصة لتعيش باستقامة وتجد طريقك، ولم تكن الأمور على ما هي عليه الآن. إذ كنت تستطيع تغيير عملك بين عشية وضحاها إذا لم يعجبْك. أما الآن فلم يعد يوجد عمل، ولا شيء، ولا عمل لك إن كنت عربياً.

تييري: بلى، لكن لماذا؟

سيلفي: لا أدري.

تييري: لو توقفوا عن تعاطي المخدرات.. (مشيراً إلى ما قيل آنفاً) وقطاف العنب؟

سيلفي: إن أصحاب الكروم لا يريدونهم!

تييري: لا يريدونهم، أجل، لقد تحدثت في هذا الأمر مع.. لِمَ لا يريدونهم؟

سيلفي: لا أدري!

تييري: لو توقفوا عن سرقة أرباب العمل..

سيلفي: لكن، ضع نفسك مع هذا مكان هؤلاء الشباب. إنهم يعلمون بأنه لن يحدث شيء على كل حال.. وملجؤهم الوحيد هو العنف، لكن ليس بقصد الشر، إنه بالأحرى صرخة استغاثة معناها، حذارِ فنحن هنا، نحن موجودون، وانظروا ما يمكننا فعله ونحن مجتمعون (..) رأيي هو إنهم الآباء، مع ذلك.. لقد عقد اجتماع في المدرسة لأن مغاربياً اعتدى على معلم لأنه تسلط على أخيه الصغير. ضرب المعلم الطفل فجاءت الأم وكسرت للمعلم ضلعين من أضلاعه بعصاً كانت معها، وشاركت العائلة كلها، فعقد الاجتماع إذن، ترى من جاء إلى الاجتماع؟ إنهم الأشخاص أنفسهم الذين يأتون منذ بداية السنة، كنا 20 ولي أمر من 300 تلميذ، وللتلاميذ الذين ليست لهم عموماً أية مشكلة! إن المهمة صعبة للمعلمين، ولكنهم يحبون مهنتهم وأنا معجبة بهم. وهم لا يقبلون عن الحي بديلاً ولو كان كل ذهَب العالم (..) وقد توصلوا إلى نتائج رائعة: هل رأيت ما صنعوه؟

(..)

❖ ما هو الحل بالنسبة لك؟ هل يجب مساندة رئيس البلدية الحالي، أو القيام بصدمة مثلاً بمساندة الجبهة الوطنية؟

سيلفي: أسمع الناس يتكلمون، لأنني أحب التحدث كثيراً، أسمع الناس يتكلمون كثيراً عن مجموعة من الناس ستنتقل إلى الجبهة الوطنية. وسيحدث ارتفاع كبير في مناصريها. أما رأيي فهو وجوب مساندة رئيس البلدية. فكل ما عمله ويعمله.. رائع.

كريستيان: (بشك) بالطبع إنه رائع.. لكنني لا أدري ما يريدون عمله بالضبط، ولا إلى أين هم ذاهبون.

سيلفي: أقول للشباب: إنكم لا تفكرون إلا بالهدم والتحطيم، وليس في البناء (..) لكن تجمعوا كلكم واعملوا ملفاً بمطالبكم واجعلوا مسؤولاً منكم. إنهم لا يريدون أن يكونوا مسؤولين، إذ لا ثقة لهم في قيمهم الخاصة.

كريستيان: منذ مدة قريبة، عندما عملنا الاجتماع، ذهبوا لرؤية رئيس البلدية وطالبوا بملعب للجمباز. وكان رئيس البلدية لطيفاً فأعطاهم المفتاح. واستمرت الأحوال هادئة 15 يوماً، وجاء مساء أحد الأيام لرؤيتهم؛ وإذا بهم مسطولون جميعاً وزجاجات الكحول في كل مكان، وقد أشعلوا ناراً وسط الملعب، فقال: «سأستعيد المفتاح الآن، وانتهى».

(..)

تييري: قال لي رئيس البلدية بأنه أعطاهم المفتاح لمدة معينة، ولا أحدثك عن الحالة التي وجدنا عليها القاعة؛ لقد كانت مكبّاً حقيقياً للنفايات. وبعد ذلك يقولون: «نعم، أنتم عنصريون؛ فنحن نريد القاعة ولا تودون إعطاءها لنا!» إنها القصة نفسها دائماً. أنت عاطل عن العمل، عاطل عن العمل، وماذا بعد؟

سيلفي: أنا أيضاً كنت عاطلة عن العمل.

كريستيان: لكن ينبغي القول بأن الشاب إذا أراد العمل فهو يستطيع العثور عليه.

سيلفي: لا، ليس هذا مؤكداً، فهم شباب دون أية مؤهلات.

تييري: انظري، ما اسمه؟ إنه عبدل، لقد عثر على عمل ويسعى للجنسية الفرنسية، وهو يكدح، هل تعتقدين أنه لا يشعر بالإحباط؟ لقد أعاد طلاء جميع ممرات الحي بكل جد، وبعد ثمانية أيام أتلفوا كل شيء. وسيعود إذن إلى هناك مع دلائه. هذا واحد منهم حقاً، فلا تبالغي..

سيلفي: أجل، لابد من شيء من الردع مع ذلك.. نحن مضطرون لاستخدام الردع.

تييري: كثيراً ما قيل لي، هناك الكثير من التساهل.

«مهما تم التستر على الفقر»

تييري: (..) على الحكومة..

سيلفي: لكن، لِمَ الحكومة دائماً؟ ليس هذا محتماً.

تييري: إنها هي التي تخصص الميزانية لأجل..

سيلفي: نعم، لكن المسألة ليست مسألة مال بل مسألة عقلية: إذ يجب تغيير عقلية الناس.

كريستيان: «عقلية الناس».. عندما يرتكبون الحماقات في البداية..

سيلفي: لأننا مهما أصلحنا، وجعلنا كل شيء جميلاً وتسترنا على الفقر، تبقى المشكلات حتى وراء الواجهة التي تم إصلاحها. إن هذا لن يغير المشكلات.

تييري: (فاقداً صبره) ليس أمامنا سوى طردهم إلى بلادهم!.. إن هذا جنون لكن..

سيلفي: (بلهجة هادئة دائماً) لا، ينبغي التحدث، ويجب الإنصات للناس دائماً، لا يجب تركهم. إن هذا كحشو الدماغ، لكن هكذا، ينبغي التكلم، التكلم، التكلم.

تييري: أتدرين، حين تتكلمين معهم كلاماً طيباً، هذا إذا أرادوا الاستماع. يسخرون منك وراء ظهرك بعد ذلك.

سيلفي: نعم، إن هذا لا أهمية له!. لأن الكلام سيتسرب إلى رؤوسهم بعد ذلك. أنا أرى أنه لا حل بوساطة المال، فذلك لن يحل شيئاً.

تييري: نعم، ولكن لِمَ يُطلَب منا نحن الحراس. وحتى رجال الشرطة يقولون: «تحدثوا معهم، تحدثوا معهم» فما نحن إلا حراس للبنايات..

سيلفي: نعم، لكنك، أب ورب عائلة..

تييري: ماذا تريديننا أن نفعل، أترين ما يقولونه فينا؟

سيلفي: لكن ما يقولونه فيك ليس له أية أهمية.

تييري: إنهم لا يجيبون حتى عندما أقول لهم: «صباح الخير».

سيلفي: أجل، أجل، إنهم ليسوا مهذبين.. وأنت لست هنا للقيام بالردع، ومع ذلك..

تييري: لا، فلا دخل لي في المخالفات للقانون أيضاً. عندما يعالجون دراجة نارية في ممر حتى الثانية صباحاً وتذهبين قائلة: «لا ينبغي فعل هذا» يرون هذا قمعاً!. فأنت عنصري ووغد، اغرب من هنا إلى بيتك. هكذا. ماذا إذن يمكن فعله هنا؟ ومن سيجد الحل؟

❖ إن الأمر ليس سهلاً، ويجب التحلي بصبر جميل.

سيلفي: كالتحليل النفسي، فهناك تحليلات نفسية تدوم سنين لدى بعض الناس. وفجأة تحل العقدة ويخرج كل شيء.

تييري: ولا يمكن التحدث أيضاً مع جميع الناس لسنوات.

سيلفي: لا، أعني أنني أنتهز الفرصة دائماً للتحدث حتى يستتبّ الحوار. لقد بدؤوا بالسخرية مني، لكنني بقيت أتحدث أكثر من ساعة. فإذا ببعضهم تثور أعصابه من وقت لآخر قائلاً: «لكن، عمّ نتحدث هنا، عمّ نتحدث» فجاء آخر وأمسك به. وهذا يدل على أن لديهم الرغبة حقاً في التحدث، وهم يحبون المناقشة، وحتى لو لم يؤدِّ هذا إلى شيء، إن هناك أناساً ينصتون حقاً.

تييري: إن هذا شاق مع ذلك.

سيلفي: سيوجد أوغاد دائماً على كل حال.

تييري: لكنهم كثيرون في فيلتوف.

سيلفي: لأنهم محتشدون هنا، وإذن فهناك الكثير (ضحك) وهذا يعني الكثير من..

كريستيان: من الأوغاد..

سيلفي: علينا الاهتمام بالصغار على الأقل، والاهتمام بالقابلين للإصلاح والناس الطيبين. أما الأوغاد فينبغي تركهم وشأنهم، ستقبض الشرطة عليهم، ونعرف ما يؤدي إليه ذلك..

(..)

تييري: لي شقيق عنصري، لم يأتِ قط للسكن في فيلنوف.

سيلفي: إنه عنصري بالطبيعة، هكذا، دون أن يجد سبباً لذلك..

تييري: ثم إنه عنصري مع الجميع، مع الإنكليز والألمان أثناء التخييم في الصيف، أما العرب فهم في القمة، ولذا فهو لم يأتِ قط للسكن في فيلنوف.

سيلفي: لا، أنا مسرورة نوعاً ما، لأن أولادي يخالطون كل الأجناس.. كل الـ.. أعني، ليس هناك.. إن الأمر بسيط.

تييري: أي أننا لا نربيهم على العنصرية كما يربي أخي أطفاله، فهو لا يتوانى في أن يقول لابنته ذات الخمسة أعوام أو الأربعة وهي في الحضانة: «إن العرب كعكع».

سيلفي: ستحصل لها مشكلات مع ذلك، فهي الآن في الحضانة، لكن عندما تكون في المدرسة!

«لم أعد أجد نفسي في أي شيء.. أي شيء، أي شيء.»

❖ هل تشاركين في جمعيات؟

سيلفي: أوه، ناضلت منذ زمن طويل مع الشبيبة العمالية المسيحية. حتى أنه كان لدي خلية صغيرة. وبعد هذا لم.. لقد تدخل في.. لا، لم أعد أجد نفسي في أي شيء. وحتى من الوجهة السياسية.. إنني..

❖ حائرة؟

سيلفي: إنني حائرة. وقد ناضلت بعد ذلك مع الشبيبة الشيوعية. وكان الشيء نفسه!. لقد تابعت مدرسة الحزب الشيوعي. ولم أعد أجد نفسي في أي شيء.. أي شيء، أي شيء. ولا أجد حزباً يناسبني. لا شيء، لم أعد أدري. أفاجىء حتى نفسي بالقول بأنني سأنتخب لوبان حتى يدخل الرعب في قلوبهم.. أعني أنني لم أعد أعرف طريقي، لم أعد أعرف. إنهم

يثيرون في نفسي الاشمئزاز، كلهم، إنني أرى أن هذا السلوك لم يعد يستجيب مطلقاً لما يُنتظَر من حزب سياسي، فلديهم الدسائس بالجملة ويريدون إعطاء الآخرين دروساً في الأخلاق. (إن رجال السياسة لا ينفكون) يرتكبون المخالفات للقانون وما شابه ذلك، وهم يتصرفون بالملايير، ولا يعبؤون بالمناضل البسيط. ثم إنني لم أرَ حزباً في مثل انغلاق الحزب الشيوعي، وربما مع الجدد (المجددين)، لكنهم لا يسمحون لأحد أن يقول كلمة واحدة، بل «قال الحزب» هكذا، وهذا كل شيء، كان الأمر يجري هكذا في الاجتماعات فكنت أقول: «هذا غير معقول، يمكننا أن نتناقش، ما الفائدة إذن؟ ندفع اشتراكاتنا وهذا! كل ما تبغونه» انظر إلى البناية التي يملكها الحزب في باريس.. هذا غير معقول..

آذار 1991

غابرييل بالاز

سكين المقصلة

موريس د. وكيل تأمين، لكنه يعمل مثل أي حرفي 60 ساعة في الأسبوع، بما فيها يوم السبت مع زوجته، بدون سكرتيرة. ولديه شعور بأن مكانة الوجيه بدأت تفلت منه. فهو يرى مؤشرات غروب شمسه في كل مكان. إذ منذ بدأ ممارسة مهنته قبل 25 سنة، وهو يشتغل أكثر ويرتاح أقل، هو ابن مزارع «هاجر» من مايانس في اللواريه، وترتيبه الثامن بين 16 ولداً. وقد اعتقد أنه بالإمكان تغيير الطبقة الاجتماعية حقاً، عن طريق المقدرة دون أية شهادة إلا الشهادة الابتدائية. وكان يظن أن الإدارة القوية والعمل هما الضامنان المطلقان للنجاح، على غرار العديدين من مديري المنشآت «دون شهادة متوسطة أو ثانوية، ودون شيء» أو الوزير الأول[1] الذي «يعجَب به» أو بكل بساطة، على غرار زميل له بدأ في نفس الوقت الذي بدأ هو فيه والآن «يقود طائرته الخاصة». وهو فخور من جهة أخرى بتاريخ أسرته، إذ «ليس فيها عاطل عن العمل، وليس فيها من يعمل بالأجر الأدنى المضمون، ولا تعرف ما هو». لكن يبدو أن هذا المشوار قد انقطع، من خلال عدد من العلامات:

---

[1] هو (بيير بورغوفوا) وصل إلى متصب وزير المالية في عهد الرئيس ميتران ثم اصبح وزيراً اولاً، ولم تكن لديه سوى شهادة مهنية بسيطة. - المترجم -.

فموريس د. انتبه مؤخراً إلى أن «من هم دون شهادة» مثله «ليس لهم مكان على الأرض». وهو لم يعد يأخذ عطلة تقريباً. لكن فوق ذلك، العدد الكبير للعاطلين من الشباب في مدينته الصغيرة ذات الـ 7000 ساكن والذي يسبب له القلق على مستقبل أولاده الثلاثة. فنتيجة لصعوباتهم المدرسية، وَضَعهم في التعليم الخاص. لكن الابن الأكبر أخفق في الشهادة الثانوية، ويحضر الآن شهادة مهنية. وهكذا يخشى موريس د. أن لا يتمكن أولاده حتى من بلوغ وضع يعادل وضعه.

ونظراً لأنه لم يحصل على الشرعية المدرسية التي تسمح له ببلوغ شرعية اجتماعية، فقد استخدم كل طاقاته في نشاط على صعيد المجلس البلدي، والصعيد السياسي والجماعي، حيث يحاول قلب قواعد اللعبة الاجتماعية (المدرسية). إنه يتوجه إلينا، نحن الذين يرى فينا ممثلين عن التربية الوطنية، بمرافعة يدافع فيها عن المتعلمين ذاتياً، وعن الرجال الذين كوّنوا أنفسهم بأنفسهم. أما تذمره فكان خليطاً دون رابط، من الدولة والعمال المهاجرين. وقبل كل شيء، لا تحظى أية فئة اجتماعية برضاه: فالكوادر «يحسبون أنفسهم آلهة على الأرض» وأصحاب المهن الحرة «يتصرفون كموظفين حقيقيين» والموظفون «لا يفارقون مكاتبهم» والعمال المهاجرون الذين لا يقبلهم زبائن له، أما رجال السياسة فهم «كراكوزات مساكين» والنقابات «تجمد كل شيء» وما الضمان الاجتماعي والتربية الوطنية إلا عبء. وقد وُضعت القوانين «للإلتفاف عليها».

وباعتباره عضواً في التجمع من أجل الجمهورية (RPR)، فقد شغل موريس د. مناصب سياسية في البلدية؛ إذ كان معاوناً لرئيسَي بلدية متواليين لكنه يحلم بـ«1789 أخرى». وهو شَعبوي ومن أنصار العدالة الفورية «فأخذ الأمور على عاتقه» متصرفاً بملفات المعونة الاجتماعية في البلدية، وملغياً الحقوق الاجتماعية للسكان المغاربة. لأنه يعتقد بأن «المعونة الاجتماعية» ليست إلا تبذيراً واختلاساً للأموال وإضاعتها في دوائر معقدة وتعسفية. ولذا فهو يرفض البقاء «مكتوف الأيدي» ويظن أنه سيحل المشكلة

بتأسيس جمعية لجعل العاطلين يعملون وذلك بإعطاء الشباب «الكسول» «ركلات على مؤخراتهم». ويكافح ضد كل القوى المحلية التي تبدو له غائصة في الثرثرة حول الإنسانية والنفاق، وضد القوانين التي تقف حائلاً بينه وبين إثبات جدارته ومزاياه بصفة خاصة. إن كل شيء يجعله يعتقد بأن الإدارة البلدية لمدينة صغيرة تسمح برقابة سياسية، على العكس من الضواحي، وأن هذه الرقابة ضرورية وإيجابية، وينبغي تعميمها. ومثاله المفضل شاب يعيش على تعويض الاندماج البالغ «2000 فرنك كمصروف جيب» والذي وظفه في ورشة صغيرة بعدما سجله في جمعية التكوين المهني للبالغين (AFPA) وضمِنه لدى رب العمل قائلاً: «إذا ما تأخر، فنادوني، وسأذهب لإخراجه من سريره بنفسي في الصباح».

جرى اللقاء صباح يوم أحد، في أحد المطاعم لأن موريس د. دؤوب على العمل دائماً، هو طويل القامة، عريض المنكبين، يتكلم وكأنه أمام جمع غفير بصوت جهوري، مقرناً كلامه بحركات حازمة تذّكر بأنه مكافح وأنه لا يتردد في قطع الصلة مع الجُبن السائد. كان يرتدي بذلة داكنة رصينة مع ربطة عنق، وجلس متصلباً بعض الشيء، وكأنه يستعد للإدلاء بتصريح سياسي. ولم يكن ينتظر عملياً سوى الأسئلة لأنه كان فكر من قبل فيما يريد قوله مشدّداً في خطابه على «أنا، أستطيع القول»، «أنا لا أخشى أن أقول»، «اسمعوا، سأقول لكم». وكان يفضل طوال الحديث التوجه إلى مُحاوره المذكر فيما هو «جدي» من كلامه، معتقداً أنه يتوجه من خلاله إلى «السلطات العليا» للسياسة.

مع مستشار بلدي (عضو في المجلس البلدي)

حديث مع غابرييل بالاز وجان باران

(..)

موريس د.: في ذلك الوقت إذن، كنت معاوناً لرئيس البلدية فيما يتعلق بالشؤون الاجتماعية، لنقل إنني سميت نفسي معاوناً للشؤون الاجتماعية. لقد كان هناك معاون للشؤون الاجتماعية يقبض تعويضاً فقط، والأمر يتوقف هنا. وبما أنني كنت نائباً لرئيس مكتب المعونة الاجتماعية فقد قمت بالمبادرات الكبرى قائلاً: «هيا بنا، سأهتم بمجمل المعونة الاجتماعية، لأنه لا أحد يهتم بها. الجميع يتكلمون عنها، لكن الجميع يرتعدون منها».

لم يكن الأمر سهلاً، لأن سياسيي اليمين يطبقون سياسات اليسار، وكلها سياسات خرقاء، اسمحوا لي، لكنه الواقع. قلت: علي القيام بالمهمة لكن بشرط معرفة الملفات جيداً. إذ لا يجب الانطلاق في المعونة الاجتماعية هكذا، هل تريد؟ إذن خذْ، وتعقد اجتماعات وتلقى خطب جميلة ثم يبدأ البذر. كلا، فأنا لا أبذُر إلا إذا تأكدت من الحصاد. ولا نحصد في المعونة الاجتماعية منافع بل على العكس، لأن المعونة الاجتماعية بدون مردود، كما هو معروف جيداً، لكنها لابد أن توجد.

طلبت من رئيس البلدية إذن رؤية كل الملفات، حالة فحالة، أي استدعاء

كل الأفراد الذين تشملهم المعونة الاجتماعية، وهم يمثلون 490 ملفاً في هذه المدينة. وأمضيت أيام أربعاء كاملة وصباح آحاد عديدة، لكنني قلت: «سآتي على آخر ملف». وقد منعني رئيس البلدية قائلاً بأنه هو المعلم. ومنعني رئيس البلدية الثاني حتى اليوم الذي قلت فيه: «أود أن ألتقي فلاناً وفلاناً، فهل تصرح لي باستقبالهم؟ إنني لا أريد الذهاب إلى بيوتهم لأنني لا أدري كيف سيستقبلونني». وقد هيأت رسالة لطيفة صادَق لي عليها. فما عدت أهتم وقلت: «الآن، وقد قبلت بي، ستتحمل المسؤولية وسأفعل ما أشاء. ولديّ أولاً مفتاح في جيبي» وبدأت باستدعاء تلك العائلات في مكتب الشرطة هناك في السكن المعتدل الكراء (HLM). وكان الأمر واضحاً لدرجة أن هنري قال لي: «لقد خدعتني!». وقد فحصت الملفات كلها واحداً واحداً، ووضعت ملفات الذين لم يأتوا جانباً واستدعيتهم ثانية. وبقي جزء لم يأتِ فأعدت استدعاءهم للمرة الثالثة. نصفهم لم يأتِ، صدقوني. والمسألة هنا واضحة، إنها سكين المقصلة في المرة الثالثة، وكانت سكين المقصلة فعلاً! فعندما جاؤوا إلى دار البلدية، كنت وراء الكوة مع السكرتير. وكنا اتفقنا من قبل أن لا يوزع الأوراق الصفراء إلا في يوم معين وساعة معينة. ويعلم الله كم جعلت رئيس البلدية يصر على أسنانه. وعملنا ما اتفقنا عليه وكنت خلف الكوة عوضاً عن نساء يُشتَمن، ويُسخر منهن. إذ لم يعد الأمر هكذا! وعندما كان يراني الرجال كانت تنتابهم الحيرة ولا يدرون هل يتقدمون أو يتراجعون. وكنت أعرفهم: «هاأنت يا بلقاسم، تعال هنا، ماذا تريد؟ لِمَ لم تأت إلى الاجتماع ذلك اليوم؟ لِمَ لم تأتِ إلى لقائي، لِمَ لم تأتِ لمناقشة ملفك؟ ادخل الآن إلى المكتب المجاور، هيا، مكتب المعاونين، وقدم اسمك واسم عائلتك وعنوانك..إلخ» لقد أنهكتُهم، وألغينا 92 ملفاً.

❖ وهل استبعدتم الآخرين؟

موريس د.: استبعدناهم، إذ ليس لديهم ما يفعلونه في مكتب المعونة الاجتماعية، فهل تجد الأمر طبيعياً أن يذهب رجل للتسوق يومياً ثم يسمح لنفسه أن يكون في مكتب المعونة الاجتماعية، ويحصل على الطبابة المجانية ويأتي للحصول على البيض والحليب وكل ما يتبع ذلك. إنه ليس طبيعياً! ليس لأنه أجنبي ويشعر بالضيق في بلادنا، فهناك بواخر تعود كل يوم إلى

هناك، ولا أفعل مع أجنبي أسوأ مما أفعل مع فرنسي. ولو كنت في بلادهم لصنعوا الأسوأ للفرنسي.

(..)

❖ هل أسست جمعية؟

موريس د.: أجل لقد أسست جمعية لمساعدة العاطلين عن طريق العمل والتضامن. فعلى الجميع اليوم أن يشعروا بالخطر وليس محصولي الثقافي هو الذي أخرج كل هذا، بل انتخابي معاوناً لرئيس البلدية واهتمامي بالشؤون الاجتماعية، لأن لدي مرضاً خبيثاً: فعندما أنشغل بشيء أغوص فيه إلى أعماقه أو لا أفعل شيئاً البتة، ولا أعرف التوسط بين الأمرين. وتلك هي مشكلة رئيس البلدية الحالي، فلو كنت معاوناً له لاشتبكت معه إلى النهاية ولما كان بيننا أي اتفاق، لأنني لا أحتمل البقاء معاوناً دون أن أفعل شيئاً. إنني لا أستطيع قبول معاونين يكتفون بقبض التعويض والجلوس في مقاعدهم واضعين ساقاً على ساق، إنني لا أحب هذا (..). أما عن نموذج الجمعية التي أسسناها، فقد فكرت فيه عندما كنت في مكتب المعونة الاجتماعية. لقد أدركت ذلك عندما كنت أستقبل أناساً يقولون: «إنني أبحث عن عمل ولا أجده، فأشعر بالقرف». إن الناس يشعرون بالقرف من الذهاب للبحث عن عمل لأنهم رُفِضوا من المصنع نفسه، خمس، ست، عشر مرات وعشرين مرة، وقيل لهم بأنه لا يوجد عمل. وأدركوا أنهم رُفِضوا اليوم، وسيُرفضون غداً بينما يمر آخر فَيُعين فوراً. فهذا من التمييز إذن! لأنني عربي والآخر فرنسي، أو لأن أسناني ليست ذهبية أو لأن شعري قصير، إنهم يقولون أي شيء! عندئذ اهتديت إلى الحل فقد كان رب العمل بحاجة إلى عامل فوراً، ولم يرُقْ له الشخص الذي جاءه بالأمس، فقلت: هناك مع ذلك حاجة للاهتمام بوقت عمل هؤلاء الناس. وسعيت إلى وضع ذلك موضع التنفيذ لمدة سنتين، لأنه لم يكن لدي شيء. وليس لدي قانون لمصلحة تأسيس نموذج جمعية تُعنى بإدارة الأعمال الصغيرة.

(..)

كانون الأول 1990

بيير بورديو

تأثيرات المكان

عندما يجري الحديث هذه الأيام عن (ضاحية ذات مشكلات) أو (غيتو)؛ لا يتبادر إلى الذهن لأول وهلة (وقائع) يجهلها الذين يفضلون الحديث عنها أكثر من غيرهم أشد الجهل، بل تخيلات حفّزتها كلمات أو صور تندّ عن الضبط كثيراً أو قليلاً، كتلك التي تعج بها صحافة الإثارة والدعاية أو الإشاعات السياسية. إلا أنه لا يكفي لقطع الصلة بالأفكار المسبقة والخطاب المعتاد، أن (نذهب لنعاين) الوضع كما هو، كما يحلو للبعض أن يعتقد. وحقاً، فإن الوهم التجريبي لا يفرض نفسه دون ريب في حالة أكثر من هذه الحالة؛ حيث لا تمر المواجهة المباشرة مع الواقع دون بعض الصعوبات، إن لم نقل بعض المخاطر، وبالتالي بعض الفضل. ومع ذلك فكل شيء يدعو للاعتقاد، بأن جوهر ما يعاش وما يرى على أرض الواقع من أدلة مذهلة وتجارب مأساوية، يجد مبدأه في جهة أخرى. وليس أدل على ما نقول من أحياء (الغيتو) الأمريكية؛ تلك الأماكن المهملة التي تتميز أساساً بغياب الدولة، وما يتبع ذلك من غياب للشرطة والمدرسة والمؤسسات الصحية والجمعيات، إلخ.

ولذا ينبغي علينا أكثر من أي وقت مضى، أن نعتمد منطقاً يبدو متناقضاً في ظاهره، وهو يتصدى في آن للحس السليم والعواطف النبيلة. وبهذا يبدو لأصحاب الفكر التقليدي من الجانبين، إما متحيّزاً يستهدف

(إدهـاش البورجوازيـين)، وإمـا شـكلاً مـن اللامبـالاة القاسـية إزاء بـؤس المعدَمين. وهكذا لا يمكن قطع الصلة بالأدلة المغلوطة، وبأخطاء الفكر الذي يبحث في ماهية المكان، إلا بشرط القيام بتحليل صارم للعلاقات القائمة بين بنى المجال الاجتماعي وبنى المجال الفيزيائي.

المجال الفيزيائي والمجال الاجتماعي :

إن بني الإنسان من حيث كونهم أجساماً (وأفراداً بيولوجيين) يمـاثلون الأشياء؛ إذ يتوضعون في مكان ويشغلون حيزاً (فهم لا يتمتعون بالصفة التي تسـمح لهم بـالوجود فـي عدة أمـاكن في وقت واحد). ويمكن تعريف المكان بصورة مطلقة، بأنه النقطة من المجال الفيزيائي التي يتوضع فيها إنسـان أو شيء ويوجد. وهذا يعني إما تموضعاً، وإما مكانة بالنسبة لغيره، ورتبـة فـي نظـام معـين. أمـا الحـيز المشـغول، فيمكـن تعريفـه بأنـه الامتـداد والسـطح والحجم الذي يشغله فرد أو شـيء فـي المجـال الفيزيـائي بأبعاده وجرمـه فـي الأصح (كما يقال أحياناً عن سيارة أو قطعة أثاث).

إن أفراد المجتمع من حيث كونهم كذلك، بالعلاقة مع مجال اجتمـاعي ومن خلالها (أو مـع ميادين اجتماعية على الأصح)، بالإضافة إلـى الأشـياء باعتبارها مملوكة لأفراد، متوضعون في مكـان مـن المجـال الاجتمـاعي، يمكـن تمييزه بالمكانة التي يحتلها بالنسبة لغيره من الأماكن (فوق، تحت، بين، إلـخ) والمسـافة التـي تفصلـه عنـها. وبمـا أن المجـال الفيزيـائي محـدد بأطرافـه الخارجية، فكذا المجـال الاجتمـاعي محـدد بالإقصـاء المتبـادل (أو التمـايز) للمكانات التي يتكون منها؛ أي باعتباره بنية تَجاوُر لمكانات اجتماعية.

وهكذا تتبدى بنية المجال الاجتماعي، في أشـد الظـروف تباينـاً، علـى شكل تعارض مكاني؛ حيث يقوم المجال المأهول (أو المملوك) بنوع من الترميز العفـوي للمجـال الاجتمـاعي. إذ مـا مـن مكـان فـي مجتمـع تراتبـي، إلا ويكـون تراتبيـاً يعـبر عـن المراتـب والفـوارق الاجتماعيـة -بشـكل مُحـوَّر نوعـاً مـا- المحجوبـة علـى الخصـوص بـ(تـأثير التطبيـع) النـاتج عـن الوجـود المسـتمر للوقـائع الاجتماعيـة فـي العـالم الطبيعـي: فخلافـات نجمـت مـن السـياق

التاريخي، قد تبدو ناتجة من طبيعة الأشياء (ويكفي أن نستحضر إلى أذهاننا فكرة (الحدود الطبيعية)).

ونجد هذه الحالة على سبيل المثال، في كل الانعكاسات المكانية للفوارق الاجتماعية بين الجنسين (في الكنيسة والمدرسة والأماكن العمومية، وحتى المنزل).

إن المجال الاجتماعي في الواقع يُترجَم في المجال الفيزيائي دائماً، بصورة مضطربة نوعاً ما؛ فالسلطة التي تعطيها ملكية رأس المال في مختلف أنواعه على المكان، تظهر في المجال الفيزيائي المُمتلَك، على شكل علاقة بين البنية المجالية لتوزيع أفراد مجتمع ما، والبنية المجالية لتوزيع السلع أو الخدمات الخاصة أو العامة. ومكانة فرد في المجال الاجتماعي تتبدى في المكان الذي يتوضع فيه في المجال الفيزيائي (فمن يقال عنه «دون نار أو مكان» أو «دون مكان إقامة ثابت» غير موجود اجتماعياً تقريباً)، والمكانة التي يشغلها مؤقتاً (مواضع الشرف التي تنظمها قواعد البروتوكول)، والمكان الذي يشغله بشكل دائم خاصة (العنوان الخاص والعنوان المهني)، بالنسبة لتموضع الآخرين. وتتبدى هذه المكانة أيضاً في الحيّز الذي يشغله (من الوجهة القانونية) عبر ممتلكاته (منازل وشقق أو مكاتب، أرض زراعية، أرض للاستغلال أو البناء.. إلخ). وكل ذلك يشغل حيّزاً، أو كما يقال أحياناً (استهلاك المكان) (باعتبار أن استهلاك المكان للتباهي، هو الشكل المفضل للتباهي بالسلطة). إن جزءاً من جمود بنى المجال الاجتماعي ينتج من كونها لصيقة بالمجال الفيزيائي، ولا يمكن تعديلها إلا بعملية ترحيل للأشياء، واقتلاع أو نفي للأشخاص؛ وهذا يقتضي تحولات اجتماعية مكلفة وشديدة الصعوبة.

إن المجال الاجتماعي وقد تحدد مادياً وموضوعياً، يتجلى في أنه توزِّع لشتى أنواع السلع والخدمات في المجال الفيزيائي، وتوزُّع لأفراد ومجموعات متموضعة فيزيائياً (باعتبارها أجساماً مرتبطة بمكان دائم) تتمتع بحظوظ للحصول على هذه السلع والخدمات التي تتفاوت في الأهمية (بحسب ما تملكه من رأسمال، والمسافة الفيزيائية بينها وبين تلك السلع،

والتي تعتمد هي أيضاً على هذا الرأسمال). ولذا فمن خلال العلاقة بين توزع الأفراد وتوزع السلع في المكان، تتحدد قيمة المناطق المختلفة للمجال الاجتماعي المتحقق موضوعياً.

تميل مختلف الميادين -أو إذا فضلنا- مختلف المجالات الاجتماعية الموضوعية فيزيائياً، إلى التراكب بشكل عام على الأقل. وهو ما يؤدي إلى احتشاد السلع الأكثر ندرة ومالكيها، في بعض الأماكن من المجال الفيزيائي (الشارع الخامس، فوبور سانت - هونوريه) وبهذا تتعارض في كل شيء مع الأماكن التي يتجمع فيها المُعدمون أساساً أو حصراً في بعض الأحيان (كالضواحي الفقيرة والغيتو). إن تلك الأماكن بكثافتها العالية في الملكية الإيجابية أو السلبية، تشكل مآزق للمحلل الذي بقبوله لها كما هي، يدَع ما هو جوهري يفلت منه؛ فشارع فوبور سانت - هونوريه يضم، مثل ماديسون أفنيو، بائعي لوحات، وتجار عاديات، وبيوتات الخياطة الراقية، وصانعي أحذية، ورسامين، وصانعي أثاث.. إلخ أي تشكيلة من المتاجر التي تشترك جميعها في أنها تشغل مواقع مرموقة (وإذن هي متجانسة فيما بينها) كل في ميدانه الخاص به، والتي لا يمكن فهم ما تتميز به، إلا إذا قارنّاها مع متاجر في نفس الميدان، في مواقع دونها قيمة، لكنها في مناطق أخرى من المجال الفيزيائي. فصانعو الأثاث في شارع فوبور سانت - هونوريه يتعارضون (من خلال اسمهم النبيل أولاً، ثم في جميع ممتلكاتهم، وطبيعة وجودة وسعر المنتجات المعروضة، والمنزلة الاجتماعية للزبائن) مع من يسمون بنجّاري الأثاث في فوبور سانت - أنطوان، كما يتعارض مصففو الشعر مع مجرد الحلاقين، وصانعو الأحذية مع الحذّائين.. إلخ. ويتأكد هذا التعارض من خلال تميز رمزي حقيقي يتمثل في وحدانية (الإبداع) و(المبدِع). واستلهام الأقدمية والتقاليد، ونبل المؤسس وأعماله، والدلالة عليها بأسماء مزدوجة نبيلة مستعارة من الإنكليزية غالباً. والأمر ذاته بالنسبة للعاصمة التي تشكل في فرنسا على الأقل مكان رأس المال؛ أي مكان المجال الفيزيائي الذي تتركز فيه الأقطاب الموجبة لكل الحقول، وأغلب الأفراد الذين يشغلون هذه المواقع المهيمنة. فلا يمكن إذن إعمال الفكر فيها بصفة واقعية إلا بمقارنتها بالمحافظات (وسكان

المحافظات) التي لا تعني سوى الحرمان (نسبياً) من العاصمة ومن رأس المال. فالتعارضات الاجتماعية المتجسّدة في المجال الفيزيائي (العاصمة / المحافظة مثلاً) تميل إلى التوالد في الأذهان واللغة، على شكل تعارضات تُكوّن مبدأ للرؤية والتقسيم؛ أي باعتبارها مقولات للإدراك والتقدير، أو بنيات عقلية (باريسي / ساكن المحافظة، أنيق / غير أنيق إلخ). وهكذا فإن التعارض بين (الضفة اليسرى) والضفة اليمنى الذي توضحه الخرائط والتحليلات الإحصائية للجمهور (فيما يتعلق بالمسارح)، أو مميزات الفنانين (فيما يتصل بالأروقة). يكون حاضراً في أذهان المتفرجين المحتملين، ومؤلفي المسرحيات أو الرسامين أو النقاد، على شكل تعارض يعمل كمقولة للإدراك والتقدير، بين الفن الذي يتسم بالبحث والفن البورجوازي (مسرح البولفار).

وبصورة أعم، نجد أن الإيعازات المكتومة والتنبيهات الصامتة لبنى المجال الفيزيائي المُمتَلَك، هي وسيلة تتحول البنيات الاجتماعية عبرها تدريجياً إلى بنيات ذهنية ومنظومات تفضيل. وبوضوح أكثر، فإن التمثل اللاشعوري لبنى النظام الاجتماعي يتم، دون شك، في جانب هام منه، عبر الممارسة المستديمة، التي تتكرر دون نهاية، للمسافات المكانية التي تتأكد فيها المسافات الاجتماعية، وأيضاً عبر انتقال وحركات الأجسام التي تنظمها هذه البنى الاجتماعية التي تحولت إلى بنىً مكانية؛ وبهذا تطبّعت، واصفة إياها بأنها صعود أو أفُول (كالصعود إلى باريس)، دخول (انضمام، اختيار، تبني) أو خروج (إقصاء، طرد، حرمان)، اقتراب أو ابتعاد عن مكان مركزي ذي قيمة: أنوه مثلاً بوقفة الاحترام التي تقتضيها الضخامة والعلو (علو نصب أو منصة أو منبر)، أو أيضاً جبهية الأعمال النحتية أو التصويرية، أو كل سلوكيات التقديس والاحترام التي يفرضها ضمنياً، مجرد الوصف الاجتماعي للمكان (موضع الشرف، مركز الصدارة.. إلخ). وكل المراتب العملية لمناطق المكان (جزء أعلى / جزء أسفل، جزء نبيل / جزء مخجل، مقدمة المسرح / الكواليس، الواجهة / خلفية الدكان، جانب أيمن / جانب أيسر، إلخ).

ونتيجة لكون المجال الاجتماعي في الوقت نفسه لصيقاً بالبنى المكانية والبنى الذهنية التي تنتج في جزء منها عن تمثل هذه البنى، فالمجال

أحد الأماكن التي تتأكد فيه السلطة وتمارَس، تحت أكثر أشكال الحذق دون شك، على صورة عنف رمزي باعتباره عنفاً خفياً؛ إذ إن المجالات المعمارية بتنبيهاتها الصامتة التي تتوجه مباشرة إلى الجسم لتنال منه التقديس والاحترام، الذي يتولد من الابتعاد أو -على الأصح- من الكائن البعيد بُعد الاحترام؛ هذه المجالات هي، دون شك، المكونات الأكثر أهمية -لأنها غير مرئية- لرمزية السلطة، وللآثار الواقعية للسلطة الرمزية، (حتى بالنسبة للمحللين الذين يتعلقون غالباً بالإشارات الأكثر ظهوراً للسلطة الرمزية من تاج وصولجان).

الصراعات من أجل الاستحواذ على المجال

إن المجال أو، بشكل أدق، أماكن ومواضع المجال الاجتماعي المشيّأ، والمنافع التي تقدمها، تشكل رهانات صراع (ضمن شتى الميادين). فمنافع المجال قد تتخذ شكل منافع تموضع، ويمكن تحليلها إلى قسمين: ريوع الموقع، وسميت كذلك لأنها تقع قريبة من الأفراد والسلع النادرة المرغوبة (مثل التجهيزات التربوية والثقافية والصحية). ومنافع المكانة أو المرتبة (كتلك التي يقدمها عنوان ذو هيبة)، وهي حالة خاصة لمنافع التميز الرمزية المرتبطة بحيازة احتكارية لملكية متميزة. (يمكن قياس المسافات الفيزيائية، تقييساً مكانياً أو تقييساً زمانياً -وهو الأفضل- باعتبار أن التنقلات تأخذ وقتاً يطول أو يقصر بحسب إمكانية الوصول إلى وسائل النقل العمومية أو الخاصة؛ حيث إن السلطة التي يمنحها رأس المال تحت مختلف أشكاله، تعطي سلطة على الزمان في الوقت ذاته).

وهناك أيضاً منافع الاحتلال أو (الإشغال). إذ إن امتلاك مجال فيزيائي (باحة واسعة لوقوف السيارات أو شقة فسيحة) يمكن أن يكون أسلوباً لإبعاد وإقصاء كل تطفل غير مرغوب فيه (إنها «المناظر الضاحكة» للبيت الريفي الإنكليزي، التي تحوِّل الريف وفلاّحيه إلى مشهد من أجل متعة المالك، أو (منظر أخّاذ) للدعاية العقارية، كما يلاحظ ريمون ويليامز، في كتابه (بلدة وريف).

إن قدرة السيطرة على المجال بالاستحواذ (مادياً أو رمزياً) على السلع النادرة (العمومية أو الخاصة) التي توزع فيه، يعتمد على الرأسمال المُمتَلك. فرأس المال يسمح بإبعاد الأشخاص والأشياء غير المرغوب فيهم وبالتقرب في الوقت ذاته من الأشخاص والأشياء المرغوبة (بفعل امتلاكهم لرأسمال هام، من بين أشياء أخرى) مقتصداً (الوقت خاصة) في المصاريف الضرورية للحصول عليها؛ إذ إن القرب في المجال الفيزيائي يسمح للقرب في المجال الاجتماعي بأن ينتج كل تأثيراته، وذلك بتسهيل تراكم رأس المال الاجتماعي أو التشجيع على هذا التراكم، والسماح -بشكل أوضح- بالاستفادة بصفة دائمة من اللقاءات العرضية أو المقصودة التي يتيحها التردد على الأماكن الفخمة. (إن امتلاك رأس المال يتيح أيضاً، التمتع بصفة الوجود في أكثر من مكان في وقت واحد تقريباً، من خلال السيطرة الاقتصادية والرمزية على وسائل النقل والاتصال، التي تتضاعف غالباً بفعل الإنابة التي تعني القدرة على الوجود والتصرف عن بعد بوساطة أشخاص آخرين).

وعلى العكس من ذلك، فإن من يعوزهم رأس المال يبقون بعيدين سواء فيزيائياً أم رمزياً عن السلع الاجتماعية الأكثر ندرة، ومجبرين على مخالطة الأشخاص والسلع الأكثر تنفيراً والأقل ندرة. وبهذا يؤدي انعدام رأس المال إلى جعل تجربة الغائية أكثر شدة، لأنه يقيد الفرد إلى مكان ما[1].

---

[1] عندما نستعرض على مستوى كل محافظة فرنسية، مجموع المعطيات الإحصائية المتاحة حول مؤشرات رأس المال الاقتصادي والثقافي، أو حتى الاجتماعي، وحول السلع والخدمات المقدمة على صعيد هذه الوحدة الادارية، يتضح أن أكثرية الفوارق الجهوية التي يُزعم غالباً أنها ترجع إلى حتمية جغرافية، يمكن إرجاعها إلى فوارق في رأس المال، استمرت تاريخياً نتيجة التمزيز الداثري الذي مورس باستمرار عبر التاريخ (بفعل ارتباط التطلعات، وخاصة في ميدان المسكن والثقافة، في جزء كبير منها، بالإمكانية الموضوعية المتاحة لإشباعها). فبعد تحديد وقياس الجزء المرتبط ظاهرياً بالمجال الفيزيائي من الظاهرة الملاحظة – وهو يعكس في الواقع اختلافات اقتصادية واجتماعية – يمكن التطلع إلى عزل الباقي الذي يمكن إرجاعه إلى تأثير القرب والمسافة في المجال الفيزيائي بحد ذاته. وتلك هي مثلاً حالة تأثير الستار الحاجب الذي ينتج عن الامتياز الأنتربولوجي، الذي يُمنح للحاضر المدرك مباشرة والآني للمجال المرئي والمحسوس للأشياء والأفراد الحاضرين (الجيران المباشرين). وهو ما يؤدي إلى أن عدوانية تنجم عن القرب في المجال الفيزيائي (نزاعات بين الجيران على سبيل المثال) قد تخفي تضامناً مرتبطاً بالموقع المشغول في المجال الاجتماعي أو الوطني أو الدولي. ومَثَلُ ذلك، إن التصورات التي تفرضها وجهة نظر مرتبطة بالموقع المشغول في المجال الاجتماعي المحلي (القرية مثلاً) يمكن لها أن تمنع النظر إلى الموقع المشغول في المجال الاجتماعي الوطني.

يمكن أن يتخذ الصراع من أجل حيازة المجال، شكلاً فردياً، مثل الحراك المكاني ضمن جيل واحد. أو على مدى أجيال. فالتنقل بين العاصمة والمحافظات جيئة وذهاباً مثلاً، أو العناوين المتتالية داخل المجال المتراتب للعاصمة، مؤشر جيد للنجاح (مثل أفراد مختلفين بالعمر والمسار الاجتماعي، فإن كوادر عليا شابة، أو كوادر متوسطة مسنة مثلاً قد يتواجدون معاً بصفة مؤقتة في المناصب نفسها، وقد يتواجدون أيضاً في الأماكن المتجاورة ذاتها).

إن النجاح في هذه الصراعات يعتمد على رأس المال المُمتَلَك (بشتى أنواعه). وفعلاً، فإن الخطوط المتوسطة لحيازة السلع والخدمات المادية أو الثقافية المتعلقة بمسكن معين، تتحدد بالنسبة لمختلف الشاغلين لهذا المسكن بحسب قدرة الحيازة (مادية كانت -أموال، وسائل خاصة- أم ثقافية) التي يتمتع بها الساكن شخصياً. إذ يمكن إشغال مسكن فيزيائياً دون سكناه بمعنى الكلمة، إذا لم تتوافر الوسائل المطلوبة ضمنياً، وأوّلها مظهر ما.

وإذا كان المسكن يشارك في صنع المظهر، فإن المظهر يشارك أيضاً في صنع المسكن عبر وظائف المسكن الاجتماعية المناسبة كثيراً أو قليلاً، والتي تميل إلى ممارستها. وهكذا فالرأي القائل بأن التقريب المكاني لأفراد متباعدين جداً في المجال الاجتماعي، قد يؤدي في حد ذاته إلى التقارب الاجتماعي، مشكوك فيه. والواقع أنه لا شيء أبعد عن التحمل من المقربة الفيزيائية (تُعاش اختلاطاً) لأناس متباعدين اجتماعياً.

ومن الميزات الأكثر أهمية التي يفرضها الإشغال الشرعي لمكان ما، تلك التي لا تكتسب إلا بالإشغال المستديم لهذا المكان، والمخالطة المستمرة لشاغليه الشرعيين: وهذه بوضوح حالة الرأسمال الاجتماعي للعلاقات والصلات (ولاسيما الصلات المفضلة لصداقات الطفولة والمراهقة)، والمظاهر الأكثر جلاءً للرأسمال الثقافي واللغوي، مثل نمط الحركات والنطق (اللكنات) إلخ. فمجموعة السمات هذه هي التي تعطي مكان الميلاد كل ثقله (وبدرجة أقل لمكان الإقامة).

وعلى الذين يلجون مجالاً، التحلي بالشروط التي يتطلبها من شاغليه، وإلا اعتُبروا دخلاء. من مثل امتلاك رأسمال ثقافي ما، يمنع انعدامه الاستحواذ الفعلي على السلع المسماة عمومية، أو حتى نية الاستحواذ عليها. والمقصود هنا المتاحف بالطبع، لكن ذلك يصدق أيضاً على خدمات تعتبر ضرورية بالإجماع؛ كخدمات المؤسسات الصحية والقضائية.

لكل امرىء باريس التي تتناسب مع رأسماله الاقتصادي، وأيضاً رأسماله الثقافي والاجتماعي (فلا يكفي الدخول إلى مركز بوبورغ للاستحواذ على متحف الفن الحديث). وفعلاً، فإن بعض المجالات، ولاسيما الأكثر انغلاقاً ورقياً، لا تتطلب راسمالاً اقتصادياً وحسب، بل رأسمال ثقافي ورأسمال اجتماعي أيضاً. وهي تقدم بدورها رأسمالاً اجتماعياً ورأسمالاً رمزياً، بفضل ظاهرة النادي التي تنتج من تجمع مستديم (في أحياء فخمة أو منازل أنيقة) لأشخاص وأشياء. باعتبارهم مختلفين عن الأغلبية؛ فهم يشتركون عامة في كونهم ليسوا من العامة. أي بمقدار ما يمارسون الإقصاء قانوناً (بشكل من الحصر العددي) أو في الواقع (باعتبار أن الدخيل سيشعر في النهاية بإقصاء ينزع منه المنافع المقترنة بالانتماء) لكل أولئك الذين لا يستوفون الخصال المرغوبة، أو يتصفون بصفة واحدة (على الأقل) من الصفات غير المرغوبة.

وهكذا فالحي الفخم، مثله مثل نادٍ، مؤسَّس على الإقصاء النشط للأشخاص غير المرغوب فيهم، ويكرِّس كل ساكن فيه بصفة رمزية، إذ يسمح له بالإسهام في رأس المال المتراكم من قِبل مجموع المقيمين فيه. وعلى العكس من ذلك، تحط الأحياء الموصومة رمزياً، من قيمة من يسكنونها. فبما أن الحظوظ الضرورية للإسهام في مختلف المناشط الاجتماعية تعوزهم، فليس لديهم سوى تقاسم حرمانهم. ولذا فإن تجمع سكان يتجانسون في الفقر بالمكان ذاته، يؤدي إلى مضاعفة الفقر؛ وخاصة في ميدان الثقافة والممارسة الثقافية. إذ إن الضغوط التي تمارس في مستوى الصف أو المدرسة، أو في مستوى الحي من قِبل الأكثر فقراً، والأكثر بعداً

عن المتطلبات الضرورية لحياة (عادية)، تؤدي إلى انجذاب إلى الأسفل، ومن ثم إلى تسوية الأقل سوءاً بالأسوأ، ولا تترك مخرجاً إلى الهرب (وهو ممتنع في الأغلب لنقص المورد) إلى أماكن أخرى.

وقد تأخذ الصراعات من أجل المجال أشكالاً جماعية، كتلك التي تجري على الصعيد الوطني حول سياسات الإسكان، أو تلك التي توجد على الصعيد المحلي، بشأن تشييد وتوزيع المساكن الشعبية، أو الاختيارات المتصلة بالتجهيزات العمومية.

أما الصراعات الأكثر حسماً فهي تلك التي تستهدف في النهاية سياسة الدول. التي تتمتع بسلطة واسعة على المجال، عبر قدرتها على تشكيل سوق الأراضي والمساكن بالإضافة إلى جزء كبير من سوق العمل والمدرسة. وهكذا ومن خلال المواجهات والمشاورات بين كبار موظفي الدولة -على انقسامهم هم على أنفسهم- وأعضاء المجموعات المالية من أصحاب المصلحة المباشرة في تسويق القرض العقاري، وممثلي الجماعات المحلية، والدواوين العمومية، تمّت تهيئة سياسة الإسكان التي قامت بعملية حقيقية لبناء سياسي للفضاء الاجتماعي. وبقدر ميلها إلى بناء مجموعات متجانسة ذات قاعدة مكانية؛ كانت هذه السياسات مسؤولة عن جزء كبير مما يمكن ملاحظته مباشرة، في المجمعات السكنية الكبيرة المتداعية، أو الأحياء التي هجرتها الدولة.

لوييك ج. د. فاكانت

أمريكا من حيث هي مدينة فاضلة (طوبائية) مقلوبة

لم يتميّز عقد الثمانينيات بتزايد الفوارق بين سكان المدن، وكراهية الأجانب، وحركات احتجاج شباب «الضواحي» الشعبية[1] وحسب. بل تميزت أيضاً بشيوع خطاب من نموذج جديد، حول موضوع «الغيتو»، يوحي بتقارب مفاجئ بين الأحياء الفقيرة في المدن الفرنسية وبين المدن الأمريكية. وهكذا فالحديث عن الغيتو الذي غذته أفكار جاهزة مستوردة من وراء الأطلنطي (شيكاغو، برونكس، هارلم..) فرض نفسه كواحد من الأفكار المتداولة في النقاش العام الجاري حول المدينة.

ما كان لهذا الخطاب الوهمي[2] أن نتوقف عنده، لو لم تكن له نتائج سيئة. إذ أن الأصوات الناعقة بالمصائب، بتلاعبها في ميدان الإثارة عن طريق صور غريبة صُنعت في الولايات المتحدة، مذهلة بقدر ما هي مبهمة، واستحضارها بمناسبة وبدون مناسبة شبح «المتلازمة الأمريكية». هذه الأصوات وقفت حائلاً دون تحليل دقيق للأسباب الحقيقية لتحلل الطبقة العمالية الفرنسية، وللارتباك العميق للناس، الذين وجدوا وسائلهم التقليدية في إعادة الإنتاج والتمثيل الجماعي وقد أضحت عديمة القيمة، بفعل

---

[1] عادل جزولي، «سنوات الضاحية» باريس، سوي 1992.

[2] يمكن تطبيق هذا المفهوم بعد شيوعه على كل جماعة مبهمة التعريف، بغية التضخيم، مثل: «الغيتو الطلابي»، «غيتو المسنين»، «غيتو الشواذ جنسياً». إلخ.

التحول القريب العهد لسوق العمل وللميدان السياسي. ثم غذّت هذه الأصوات -على كره منها مع ذلك- دوامة الوصم، التي جعلت من المجمعات السكنية الشعبية أماكن لَعينة بقدر ما هي مرادفة لعدم الجدارة الاجتماعية والنفي المدني. وبهذا فاقمت ثقل الهيمنة الرمزية التي يتعين على سكان هذه الأحياء تحملها، علاوة على إقصائهم الاجتماعي الاقتصادي.

وأخيراً، فإن هناك مفارقة تتمثل في أن موضوع «الغيتو» قد حجب الدروس التي يمكن استخلاصها من استعمال معقول للمقارنة عبر الأطلنطي، والتي لا تقوم على البحث عن وجوه تشابه أو تقارب بين الضاحية الفرنسية وبين الغيتو الأمريكي، باعتبارهما مجموعتين اجتماعيتين - مكانيتين متباينتين بعمق سواء في البنية أم المسار والحركية. إذ تبين المقارنة التاريخية والاجتماعية أنه إذا كان الغيتو و«الضاحية» يشتركان في كونهما - كلاً منهما في النظام الوطني الخاص به- مناطق نفي اجتماعي تقع في أدنى المراتب العمرانية، فإنهما يختلفان في تركيبهما الاجتماعي، ونسيجهما المؤسساتي، ووظيفتهما ضمن الحاضرة، وخصوصاً في آليات ومبادىء التمييز والتكتل اللذان هما نتاج لها. وللتبسيط باختصار، فإن الإقصاء في الجانب الأمريكي يجري أولاً على قاعدة عرقية، ترجع لقرون خَلَت، تغاضت الدولة عنها أو دعمتها، ثم إلى الإيديولوجية الوطنية. أما في الجانب الفرنسي فالإقصاء يقوم على معايير طبقية، خففت السياسة العامة من وطأتها إلى حد ما. حيث إن «الضواحي» المتدهورة في فرنسا، على عكس هذه (البانتوستانات) الحضرية المتمثلة في أحياء الغيتو الأمريكية الكبرى؛ ليست مجمعات اجتماعية متجانسة، تستند إلى تقسيم عرقي ثنائي للمجتمع، تقبله الدولة وتتمتع باستقلال مؤسساتي ذاتي، وتقسيم متقدم للعمل، يدعم هوية ثقافية واحدة.

إلا أنه من المفيد، في المقابل، استعمال الغيتو الأمريكي المظلم كنوع من المجسم في علم الاجتماع، يسمح بتكوين فكرة واقعية عن التأثيرات التي قد يؤدي إليها مع الوقت تجذير عمليات التثنية (من ثنائي) التي توجد

بذورها اليوم ضمن الأحياء الفقيرة في فرنسا. إذ إن الغيتو الأمريكي يرينا، على غرار المرآة المشوهة والمضخمة في آن، مشهداً لنموذج العلاقات الاجتماعية القابلة للنمو، ما أن تتخلى الدولة عن مهمتها الأولى، وهي مساندة البنية الأساسية التنظيمية الضرورية لكي يؤدي مجتمع مدني معقد بمجموعه وظيفته. فالدولة بالتزامها سياسة التآكل المنظم للمؤسسات العامة؛ تترك فئات كاملة من المجتمع لقوى السوق، ومنطق كل امرىء ملزم بنفسه[1]، ولاسيما تلك الفئات التي تفتقد كل الموارد الاقتصادية والثقافية أو السياسية، وتعتمد اعتماداً كلياً على الدولة لبلوغ الممارسة الفعلية للمواطنة.

بعد الذروة التي بلغها الغيتو الأمريكي الأسود في سنوات الخمسينيات، عرف تردياً مفاجئاً وعاماً. ويظهر هذا التطور من خلال هجرة سكانه المتواصلة، والتلف المتسارع للمباني وإطار الحياة. كما يُترجَم أيضاً بالارتفاع الحاد للبطالة والإجرام وكل الأعراض المرضية والسلوكيات المرضة (الإدمان على الكحول، الإدمان على المخدرات، الانتحار، أمراض القلب والأوعية الدموية، الأمراض العقلية، إلخ) التي تصاحب البؤس العظيم عموماً، ووهن العزيمة الجمعي والفردي. وعلاوة على ذلك، فإن تسيير شؤون هؤلاء السكان المحكوم عليهم بنوع من النفي الداخلي يستتبع تكاليف متزايدة لحواضر تتناقص مواردها الجبائية، بقدر ما تعمد العائلات من البيض والميسورين لمغادرتها إلى الأحياء السكنية الخارجة عن المركز.

إن المناقشات القريبة العهد حول حل المسألة، سواء أكانت علمية أم سياسية، رجحت بالتناوب كأسباب كبرى للتدني المستمر لمنعزلات التمييز العرقي داخل المدن؛ العنصرية و«ثقافة الفقر» أو ما يزعم أنه الانحطاط الأخلاقي للبروليتاريا السوداء الدنيا، والتأثيرات المفسدة المفترضة لبرامج المعونة الاجتماعية، وأخيراً، هروب الطبقة المتوسطة السوداء وهجر

---

[1] أي لعلاقات القوة الغاشمة التي تكون في مصلحة الأقوى. لأنه إذا كان السوق وهماً اجتماعياً، كما تبينه الأعمال الأكثر تقدماً في علم الاجتماع الاقتصادي، فهو أيضاً وهم مُغرض، ليس للجميع فيه مصلحة متساوية، بينما نتائجه الاقتصادية والاجتماعية واقعية، من جهتها.

التصنيع. وعلى كلٍ فسياسة الدولة الأمريكية المعتَمَدة في التخلي عن المدن هي أفضل من يقدم الحساب عن الطابع التراكمي وذاتيّ الصيانة لعمليات التفكك الاجتماعي التي هي موضع الاتهام. لأن سياسة التخلي المدني والاجتماعي للحكومة الأمريكية، في تقويض البرامج العمومية الضرورية لسير مؤسسات الغيتو، وتخفيض الموارد المخصصة لدعم المقيمين فيه تخفيضاً حاداً، أدت إلى تهديم منظم لبنية الغيتو وصنعت منه مدينة عذاب حقيقية. ولا ينبغي للاهتمام الذي أولته وسائل الإعلام لتفجر الغضب الذي أشعل لوس أنجلس عام 1992، نتيجة الحكم ببراءة رجال شرطة بيض اتهموا في قضية رودني كينغ، أن يحجب الفتن الصامتة للحياة اليومية التي تجعل الغيتو ساحة حرب دائمة في سبيل الأمن والبقاء. فعلى الرغم من أن هذه الفتن أقل ترويعاً من الهياجات الكبرى، إلا أنها ليست أقل تدميراً. وإذ يجد الشعور بانعدام الأمن في أحياء (HLM)(*) بالضواحي الفرنسية مصدره الرئيسي في جنح الشباب الصغيرة، فإن جو التوتر الذي يرمي بثقله على الغيتو الأمريكي يضرب بجذوره في وقائع القتل والاغتصاب والاعتداءات الحاضرة دوماً بأخطارها.

وهكذا في عام 1988، بحث الاثنان وثلاثون قاضياً في محكمة الجزاء التابعة لمنطقة كوك الإدارية التي تشمل محلة شيكاغو بملايينها الثلاثة 56204 تهمة، منها 3647 حالة ضرب وجروح بليغة و8419 اغتصاباً و1584 سطواً مسلحاً و2569 حادثة «عنف موصوف باستعمال السلاح» و2009 حوادث قتل واغتيال متعمد. وقد ارتكبت غالبية هذه الجرائم في أحياء السود بالغيتو - من قبل سكانها، لكن ضدهم أيضاً على وجه الخصوص. عندما سألت زعيم عصابة سابق (لمريدي رجال العصابات السود) لِمَ يتفحص جوار بنايته دائماً، قبل الدخول إليها أو الخروج منها؛ أجابني: عليك بالحذر دائماً، أتعرف لماذا؟ إنه قانون الغاب، فإما أن تَعُض أو تُعَض. وقد اخترت منذ زمن طويل، أن لا أُعَض من أحد، وأنت ماذا تختار؟

(*) السكن المعتدل الكراء.

وبالفعل، فإن الاعتداءات وإطلاق النار أمور شائعة في المجمعات السكنية بالجهة الجنوبية (ساوث سايد) التي تعج بالعصابات لدرجة أن الأمهات يعلّمن معها أطفالهن منذ نعومة أظفارهم كيف ينبطحون على الأرض، لاتقاء الرصاص الطائش. ويقتصدن من دخولهنّ الضئيلة ما يدفعن لهم شهرياً به تأميناً على الحياة. وليس من النادر في أشهر الصيف تسجيل ما بين خمس أو ست حوادث قتل كل نهاية أسبوع بمناسبة Drive – by shooting (إطلاق النار من سيارة سائرة).

والحق أنه ليس من الصعب الحصول على مسدس يباع بحرية في الشارع بـ 300 دولار، وهي التعرفة «الرسمية» لمسدس نظيف، وبنصف هذا المبلغ لسلاح استعمل سابقاً.

«إن الوضع هنا كأرض منسية» يعلق شرطي من كتيبة التدخل في وينتوورث، التي تقع في قلب الغيتو الجنوبي للمدينة. فالمقاطعة ليس فيها في الواقع وسطياً إلا شرطي واحد لكل 277 جريمة خطيرة مرتكبة، أي أقل بست مرات من المقاطعة البيضاء البورجوازية لـ نيرنورث سايد، التي يوجد فيها حي جولد كوست الذي يتمتع علاوة على ذلك بحماية أعداد كبيرة من الشرطة الخاصة.

ومع أن شرطة وينتوورث لا تنقطع عن الاستجابة لنداءات مستعجَلة من بداية الدوام حتى نهايته، إلا أن هذا لا يمنع بقاء عدد من طلبات التدخل دون رد، لأن كل أفراد الشرطة المتوافرين خرجوا للطراد[1].

اضطر هذا العنف المستديم سكان الغيتو إلى الحد بشدة من خروجهم، والتخطيط لتحركاتهم بغية قضاء الحد الأدنى من الوقت في الشارع. متجنّبين النقل العام والأماكن العامة قدر استطاعتهم. غير أن هذا لا يعني أن المرء في أمان وهو في بيته؛ إذ يشير الشرطي نفسه: «إذا ما نشب حريق، فإنهم لا يستطيعون حتى الخروج من بيوتهم، لكثرة ما

---

[1] «وضعت 849 حادثة قتل عام 1990 في الكتاب الحزين للأرقام القياسية» شيكاغو تريميون، 2 كانون الثاني 1991.

يعتصمون به فيها من قضبان حديدية وشبابيك. ويكون خوفهم من الشدة بحيث يمنعهم من الخروج إلى الشارع». وحتى المؤسسات المدرسية ليس بوسعها ضمان السلامة الجسدية لتلاميذها ومعلّميهم، على الرغم من استعمال كاشفات المعادن، وممارسة التفتيش الشخصي بين البنايات. ويتصدر موت طلاب ثانويين بطلقة نارية أو طعنة سكين من أحد زملائهم في محيط مؤسستهم بشكل دوري الصفحات الأولى للجرائد المحلية، دون أن يثير ردود فعل سياسية إلا فيما هو تعبير رمزي تماماً عن الأسف والشفقة. ولهذا يرسل العديد من الأسر أولادها للإقامة مع أقارب لهم في الولايات الجنوبية أو المدن المجاورة للاطمئنان على أنهم سينهون دراستهم وهم أحياء.

وإذن فعلى كل امرىء أن يكون مستعداً دائماً، للدفاع عن نفسه وعياله بوسائله الخاصة؛ لأن الشرطة زيادة على كونها مصدر خوف بسبب طرقها العنيفة، معروفة بأنها عاجزة عن حماية المشتكين من الأعمال الانتقامية التي قد تقوم بها العصابات ضدهم أو ضد القريبين منهم؛ وهو احتمال يزيد من ترجيحه كون السجون مملوءة لآخرها، ولا يتم حبس المجرمين والجانحين فور القبض عليهم، بل يطلق سراحهم لنقص الأماكن. وهكذا فسجن مقاطعة كوك المكون من بناية قديمة أُنشئت في 1929 لاستيعاب 1200 سجين، يحتوي الآن حوالي 8000 سجين، يضطر ألف منهم تقريباً للنوم على فرش تلقى على الأرض مباشرة. وقد تعين على مصلحة السجون سنة 1988 وحدها إطلاق سراح 25000 مذنب نتيجة اكتظاظ السجن بالنزلاء. في هذه الظروف، نفهم بسهولة أن سكان الغيتو يترددون في طلب ممثلي القانون، كما تقول أغنية لمجموعة بوبليك أنمي: «911 نكتة» (أي «شرطة النجدة شيء زائف»).

إن الإجرام المستديم باعتباره المسؤول عن شبه اختفاء المجال العمومي داخل الغيتو، مرتبط ارتباطاً وثيقاً بتفكك الاقتصاد المحلي. فمنذ عام 1968، أكد تقرير لجنة كيرنر، التي كلفها الرئيس جونسون بتحديد أسباب موجة الفتن العرقية التي هزت مائة من الحواضر الأمريكية، بقلق

«أن حركة سحب رؤوس الأموال الخاصة متقدمة جداً، داخل مناطق التمييز العنصري في مدننا الكبرى». ويبدو أن هذه العملية اكتملت، بعد عشرين سنة؛ إذ أدى جفاف الاستثمارات والحوافز التي تقدمها الدولة، وفقدان آلاف الأعمال اليدوية الناتج عن إعادة الهيكلية الصناعية، إلى إفراغ الغيتو عملياً من كل نشاط تجاري. ويشهد على ذلك الشارع الثالث والستون في حي وودلاون، الذي كان من الشرايين التجارية الأكثر حيوية في شيكاغو بعد الحرب. أما الآن فلم يعد إلا صفوفاً كئيبة من البنايات المتداعية، وأراضي فضاء تعج بالقاذورات والمخازن المحروقة التي تتعفن هياكلها المنتصبة في ظل سكة القطار التي تعلوها. كان وودلاون عام 1955 يحتوي على 700 مؤسسة صناعية وتجارية، ولم يكن فيه مسكن واحد ولا مقسم عقاري شاغراً، والأعمال مزدهرة فيه، حتى أنه نال لقباً يبعث على الفخر هو «الكيلومتر العجيب». أما اليوم فالأعجوبة بالنسبة للمائة من التجار الصغار الباقين تتمثل في تجنب الإفلاس إلى حد ما.

وعلى عكس الحاضرة التي أخذ تركيبها الاجتماعي المهني بالتعقّد، مع الانتقال إلى اقتصاد الخدمات، فإن البنية الاجتماعية للغيتو في شيكاغو تحولت نحو تجانس أكبر بسبب تفاقم البطالة المستمر، والبطالة الجزئية. إذ كان معدل النشاط الاقتصادي في الغيتو لا يقل إلا قليلاً عن مثيله في باقي المدينة. بينما نجد في 1980 ثلاثة بالغين من كل أربعة تقريباً دون عمل. وهكذا انخفض عدد العمال خلال ثلاثة عقود من 35800 إلى أقل من 5000، وعدد الياقات البيضاء (مستخدمي التجارة والمكاتب، والإطارات والمهن الوسيطة والحرة) انخفض إلى النصف: من 15300 إلى أقل من 7400، في الوقت الذي كانت تتضاعف فيه أعداد الطبقة الوسطى السوداء خمسة أضعاف في شيكاغو الكبرى. وبالتالي فأكثر من ستة مقيمين من كل عشرة في قلب «الحزام الأسود» يعتمدون في بقائهم اليوم على المعونة الاجتماعية. وأربعة من كل عشرة كبروا في كنف عائلة تعتمد على المعونة.

ولم يجد سكان الغيتو في مواجهة انهيار سوق العمل المأجور، وعدم

كفاية المعونة الاجتماعية الصارخ أمامهم خياراً، في سبيل البقاء، إلا الاتجاه إلى الاقتصاد غير الرسمي للشارع، ولاسيما في قطاعه الأكثر نشاطاً، أي تجارة المخدرات.

فما أن شرعت العصابات الثلاث الرئيسية التي تهيمن على شبكات التوزيع داخل المدينة وهي فيس لوردز، ديسيبيل، الركن، في إعادة بيع الكراك ومشتقاته، حتى سقطت أسعار الكوكائين في شيكاغو من 55000 إلى 17000 دولار للكيلو غرام؛ حتى أن المرء يستطيع الحصول على مقدار من المسحوق بمبلغ ضئيل هو عشرة دولارات. وأصبح ترويج المخدرات بين جمهور عريض من الزبائن صناعة حقيقية، أرقام مبيعاتها تعد بمئات الملايين سنوياً. مجهّزة بتقسيم منظم للعمل. وهي تشكل إلى الآن مورد التوظيف الرئيسي المتاح لشباب الغيتو الذين لفظتهم المدرسة، ورفضهم الاقتصاد المشروع. صحيح أنهم يتعرضون لمخاطر جمة، غير أنهم بالإضافة إلى قدرتهم على العمل في سن مبكرة (حتى قبل سن العاشرة) فإن المؤهلات المطلوبة ضئيلة، وأوقات العمل مرنة، والأرباح عالية جداً بالقياس إلى قطاع الاستخدام الهزيل.

إن نمو هذا الشكل القوي لـ«رأسمالية النهب» (ويبر) الذي يمثل ترويج المخدرات رأس الحربة فيه هو أحد الأسباب الرئيسية لوباء العنف الجارف الذي يضرب الغيتو. فمن جانب الاستهلاك، تشكل السرقة وجرائم الشارع فعلاً الوسيلة الأكثر يسراً التي يستعملها متعاطو المخدرات للحصول على جرعتهم اليومية. أما في جانب التوزيع، فيشكل اللجوء إلى القوة العضلية وسيلة لابد منها لهذا الضرب من النشاط، وأداة تسيير وضبط لعمليات التبادل؛ لا يستطيع أي تاجر الاستغناء عنها تحت طائلة التصفية من قبل منافسيه. ومهما يكن من أمر، فما التوسع المدهش لتجارة المخدرات إلا العَرَض الأكثر وضوحاً لنوع من تحويل اقتصاد الغيتو إلى اقتصاد عالم ثالث. وعلامات ذلك الأكثر جلاءً هي تعميم الحرف غير المشروعة، والعمل باليومية، وتزايد «المهن الصغيرة» وعودة أعمال الجهد العضلي وأعمال

الخدمة في البيوت أو بالقطعة، وازدهار مجموعة من المناشط التي تقل شرعيتها أو تكثر -بيع الدم، البغاء، الربا الفاحش، التعامل غير المشروع بالبطاقات التموينية أو بطاقات المعونة الطبية، إلخ-.

إن تراجع اقتصاد التجارة وتدهور ظروف الحياة في الغيتو بلغا حداً، لم يعد معه القطاع العام قادراً على تأدية وظيفته الدنيا في تقديم الممتلكات الجماعية والأمن والسكن والصحة والتربية والعدالة. والأسوأ من ذلك، هو أن المصالح العمومية، باعتبار اقتصار زبائنها على الشرائح المهمَّشة للبروليتاريا السوداء، قد تنقلب إلى أدوات للمراقبة والشرطة، مهمتها منذئذ احتواء السكان في المنعزلات المتدنية التي خُصّصت لهم. جانحة بذلك إلى زيادة عزلتهم ووصمهم، عوضاً عن الإسهام في تخفيف المظالم التي يرزحون تحتها، إلى درجة جعلت تلك المصالح تجري عملية فصل واقعي للغيتو عن باقي المجتمع. وبهذا تتحول السلطة العمومية من أداة كفاح ضد الفقر إلى آلة حرب ضد الفقراء.

وبما أن الدولة فقدت الرقابة على هذا الجزء من أرضها، فهي تجد من الصعوبة بمكان تسيير المؤسسات التي عليها التكفل بها. وتلك حال السكن الشعبي، فسلطة الإسكان في شيكاغو التي تدير القطاع العام للمساكن في المدينة (وأغلبيتها ضمن الغيتو) عاجزة عن تقديم قائمة بالشقق الصالحة للسكن والموجودة تحت تصرفها. فهي تعترف بأنها تؤوي بالإضافة إلى مستأجريها الرسميين وعددهم 200.000، رغماً عنها، من 60.000 إلى 100.000 محتل غير شرعي -على الرغم من قوائم الانتظار لـ 60.000 عائلة. كما يوجد في بعض الأحياء سكان غير رسميين أكثر من السكان المسجلين في السجلات. ولهذا وضع المدير الجديد لسلطة الإسكان في شيكاغو عام 1989 برنامجاً طموحاً يهدف إلى «تنظيف» المجمعات الكبرى في ساوث سايد وإخراج المحتلين غير الشرعيين والعصابات منها. لكن «حملات المداهمة» التي خُطّط لها بكل سرية أُفشي سرها- وبعدما تلقى عدة تهديدات بالموت، تخلى عن المشروع.

واضطرت المصالح الاجتماعية للمدينة إلى الانسحاب من قلب الغيتو بسبب خطورته. فالمساعدون الاجتماعيون المعينون لمنطقة وينتوورث يرفضون زيارة «زبائنهم» في البيوت، ويكتفون باستدعائهم إلى مكاتبهم في مركز المدينة، مرة كل ستة أشهر. ولم تعد شيكات المعونة الاجتماعية توزع عن طريق البريد، بل تسلم لأصحابها مباشرة بوساطة مكاتب «تحويل الأموال» (وهي مكاتب خاصة تقوم بدور وكالة مالية وإدارية ضمن الغيتو) بغية تجنب السرقات بكسر علب البريد، وتهريب بطاقات المعونة الاجتماعية. ومهما يكن من أمر، فإن تنظيم المصالح الاجتماعية يهدف إلى تقليل عدد أصحاب الحق في المعونة الاجتماعية، أكثر مما يهدف إلى مساعدة العائلات المحتاجة؛ بغية خفض المصروفات الاجتماعية التي يراها الناخبون البيض من الأكثرية، لا تطاق. والدليل على ذلك هو مضاعفة مكتب المعونة الاجتماعية في شيكاغو للرقابة الحازمة والإجراءات البيروقراطية؛ إذ يخصص جزءاً من ميزانيته للتجسس على المستفيدين من المعونة بهدف «التقاط» المزورين المحتملين. ويستعمل شتى الوسائل لتخفيض عدد الذين يتلقون المعونة في الغيتو؛ مثل وضع رقم هاتف مجاني تحت تصرف الواشين المغفَلي الهوية، وإصدار نداءات في الصحف تحض على الوشاية، ومكافأة المخبرين المكلفين بالمراقبة، والزيارات المفاجئة للمشتبه بهم في بيوتهم، إلى درجة لا يتردد سكان الغيتو معها في مقارنة المصالح الاجتماعية بالـ KGB.

ومع ذلك فالمدرسة هي التي ترمز أكثر ما يكون إلى الإفقار الشديد الذي يعاني منه القطاع العام في داخل المدينة؛ إذ أضحت المنظومة التربوية، بعد أن هجرها البيض والطبقات المتوسطة والعليا كما تُهجر سفينة غارقة، ضرباً من «الحظيرة المدرسية» يُزَرَّب فيها أطفال الغيتو لانعدام شيء آخر. يأتي تلاميذها أساساً من عائلات السود أو اللاتينيين (بمعدل 85٪) التي تعيش دون خط الفقر الرسمي (بمعدل 70٪). ولا يكاد يصل إلى نهاية الدراسة الثانوية في وقتها الطبيعي إلا ربع التلاميذ (على الرغم من عدم وجود أي فحص انتقالي بين الصفوف) حيث توجه الأغلبية الساحقة منهم إلى فروع مهنية لا تؤدي إلى شيء. والمستوى الدراسي منخفض إلى درجة

ينهي التلميذ فيها دراسته الثانوية في ثانوية مارتن لوثر كينغ، دون أن يكون قادراً على كتابة جملة تامة، أو القيام بعملية كسور حسابية بسيطة. والحق أن مديرية التربية في شيكاغو لا تصرف على التلميذ إلا نصف المبلغ المتاح للمدارس الحكومية في المدن الميسورة المجاورة؛ ومن هنا تأتي الندرة المزمنة للمعلمين وقاعات الدرس والأدوات، التي تعاني منها مؤسسات الغيتو. ولهذا لم يرسل أي عمدة من عمد شيكاغو الخمسة الأخيرين أولاده إلى ثانوية حكومية. ومثلهم مدير التربية، وأكثر من نصف أعضاء الهيئة التدريسية. ويعترف أحد أعضاء المجلس البلدي قائلاً: «لا يرسل أبناءه إلى المدرسة الحكومية إلا من فقد عقله».

أدى ضياع المؤسسات العمومية مع الوقت إلى تصحر تنظيمي للغيتو، لأنه يحكم على المؤسسات الأهلية والمنظمات الخاصة التي ترتبط بها بالموت البطيء. كما في هذا الحي المنكوب في وست سايد الذي يعد 61.000 ساكن، يعيش نصفهم دون الخط الفيدرالي للفقر، وتقارنه إحدى ساكناته بـ«ثقب أسود» «بوسعنا تعداد ما ينقصه بسهولة. فلا مصرف فيه سوى مكتب «تحويل الأموال» الذي يقتطع ما قد يصل إلى ثمانية دولارات لكل شيك من المعونة الاجتماعية يصرف. ولا مكتبة عمومية أو دار للسينما، ولا باحة للتزلج أو ملعب بولينغ لتسلية شباب الحي. وليس للعجزة سوى عيادتين، (..) كلاهما على شفير الإفلاس وستضطران للإغلاق في نهاية 1989، مع أن معدل وفيات الأطفال يفوق مثيله في عدد من بلاد العالم الثالث كالتشيلي وكوستاريكا وكوبا وتركيا. ولا يوجد مركز لإزالة السموم عن مدمني المخدرات، مع أن الإدمان على المخدرات يتصاعد».

إن إخفاق المصالح العمومية صارخ في هذا القطاع من الغيتو. لدرجة جعلت الأم تيريزا بعد زيارتها له 1982، تعيّن راهبتين من بعثة الإحسان التي تنتمي إليها، في حي هورنر لفتح ملجأ للنساء والأطفال الذين هم بدون مأوى، وحضانة للأطفال ومطعم للمحتاجين. وعلى وجه الإجمال، فإن سياسة التخلي التي تتبعها الحكومة الأمريكية في المدن هبطت بالمؤسسات

العامة في الغيتو من منزلتها كقاعدة مفترضة للاندماج بالمجتمع إلى مجرد أدوات للتفرقة العنصرية. والقليل الذي بقي من الدولة في الغيتو يعمل باتجاه تعزيز ضروب الإقصاء التي كان الغيتو نتيجة لها.

فرنسا ليست أمريكا، وأحياء الضواحي التي يعتريها التردّي ليست أحياء غيتو بالمعنى الذي يكتسبه هذا المفهوم في السياق الأمريكي. فتفكك الأرضية العمالية في فرنسا يستجيب لمنطق خاص به، يتوافق مع تاريخها ومع الضغوط التي يمارسها إطار مؤسساتي وحكومي مختلف جداً. كما أن التمييز والعنف والفقر والانعزال الاجتماعي بعيدة جداً عن الحدة والانتشار التي تتصف بها داخل المدن الأمريكية. غير أنه على الرغم من الاختلافات الجلية في المستوى والبنية، فإن التطور الإنحداري للتفاوتات بين سكان المدن في فرنسا خلال العشرية الأخيرة، يميل مع الوقت إلى خلق الظروف المواتية للتقارب. وإذا ما ثابرت النخبة الحاكمة في فرنسا، من اليسار أو من اليمين، بقصر نظرها التقنوقراطي وتعلقها المفتون بالإنجازات المالية على المدى القصير، على سياستها الليبرالية الجديدة في إذلال القطاع العام والميركنتيلية المتصاعدة للعلاقات الاجتماعية التي كانت سياستها منذ منتصف السبعينيات، فلا ينبغي استبعاد الأسوأ: إذ يمكن للطوبائية السلبية البعيدة والمرعبة أن تصير واقعاً.

لوبيك ج. د. فاكانت

البؤرة

تعرفت على ريكي بوساطة أخيه، الذي كنت التقيت معه أثناء إجراء بحثي عن مهنة الملاكم بشيكاغو، في قاعة للتدريب تقع في قلب غيتو السود، على أطراف غابة من البنايات السكنية المتدهورة بصفة خاصة والتابعة للقطاع العام. «لقد كان ملاكماً محترفاً هو أيضاً، وهو يعود لذلك الآن، عليك التحدث معه»، قال لي نيد. وبالفعل، ظهر ريكي بعد ذلك بأيام؛ وبعدما استفسر عن الهدف من التحقيق الذي أجريه، وافق على الحديث، غير أنه كان يتهرب كل مرة في آخر لحظة، أو يختفي طوال أيام. وقد تمكنت من استجوابه أخيراً في آب 1991، بعد عدة مواعيد غير مثمرة، في قاعة الملاكمة، بعدما اطمأن قبل ذلك إلى «إمكانية الاعتماد علي».

كنت سابقاً قد استجويت أخاه، الذي يجول بقامته المديدة طوال الأسبوع في الملعب، ويتعيش من أعمال صغيرة يقوم بها هنا وهناك. وبذا كنت على علم بالوضع الأسري لريكي، كما علمت من مدربه أن محاولاته في العودة للحلبة لا أمل فيها، بعد خمس سنوات من الانقطاع، حتى وإن أبدى الجميع تصديق ذلك بنوع من الحمية.

وأعلمني مخبر آخر من الحي بعض المعلومات الثمينة عن مناشط

ريكي الخفية، وخاصة عن كونه «شاطراً محترفاً»(*) وهو تعبير غير قابل للترجمة، لأنه يصف مجالاً دلالياً -واجتماعياً- لا معادل مباشر له بالفرنسية، ويمكن تحديده بشكل تقريبي بمفهومات الحيلة الدهاء ومخالفة القانون والخداع واللصوصية والإجرام لهدف مباشر هو المال. ويدل فعل to Hustle في الواقع على مناشط تشترك جميعاً في أنها تتطلب نموذجاً خاصاً من رأسمال المال الرمزي، أي القدرة على التلاعب بالآخرين وخداعهم بالجمع بين العنف والحيلة مع الجاذبية بغية الحصول على منفعة نقدية فورية. تمثل هذه المناشط سلسلة متصلة تبدأ بصنع الكحول وتوزيعه بصورة غير مشروعة وهذا غير مؤذٍ نسبياً (لاسيما في المقامر غير القانونية الموجودة في الغيتو والمسماة After hours clubs) ثم بيع أو إعادة بيع المسروقات، ومراهنات وألعاب حظ يمنعها القانون (ورق اللعب، كرابس، البلياردو)، ويانصيب موازٍ في الغيتو يعرف بـ Policy أو لعبة الأرقام. وتمر إلى الأفعال الجنحية مثل ضروب النهب المختلفة والسرقة من السيارات والبسطات، والسطو وتفكيك السيارات و«الحصول» على الآجر والأنابيب أو إطارات النوافذ والأبواب من البنايات المهجورة، وأفعال نصب واحتيال من كل العيارات، تتناقلها الألسنة. وتنتهي إلى الأفعال الإجرامية الصريحة، كالقوادة والابتزاز تحت التهديد بالإحراق (لتجار منطقة ما) وفرض الخوّة، وترويج المخدرات والاعتداءات، وحتى القتل تحت الطلب، الذي يعرف الجميع تعرفته في بعض قطاعات الغيتو.

وإذا كان يبدو هذا التعريف غير دقيق فذلك أن الـ Hustles شخصية بعيدة المنال وعصية على الإدراك، لأن «مهنته» بالضبط تقوم في حالات عديدة على التدخل بخفة في بعض المواقف، أو إنشاء علاقات ذات مظهر خادع، ليحصل من ورائها على أرباح مختلسة إلى حد ما. وعلاوة على ذلك،

(*) رأيت ترجمة «HUSTLER» بـ«شاطر» لأن هذا التعبير يجمع المعاني التي يعبر عنها اللفظ الأصلي.

إذ جاء في المعجم الوسيط: شطر على قومه: أعيا قومه شراً وخبثاً.

الشاطر: الخبيث الفاجر والفَهِمُ المتصرف. (المترجم)

فإن الـ Hustles إذا فضل أسلوب الغواية على أسلوب الإكراه أو التهديد الجسدي، وأسلوب البرود على استعمال القوة الغاشمة (الذي سيجعله مماثلاً لنموذج اجتماعي آخر في الغيتو، يدعونه الغوريللا) فقد تضطره الظروف غالباً للجوء إلى العنف للمحافظة على كرامته أو على سلامته الشخصية على الأقل. وإذن، فليست فاصلة تماماً تلك الحدود التي تميزه عن غيره من «الناهبين الاجتماعيين» للغيتو.

إن عالم الشطار يتعارض على طول الخط مع العمل المأجور الذي نرى فيه كل شيء، نظرياً على الأقل، قانونياً ومعترفاً به، منظماً ومضبوطاً ومسجلاً بموافقة القانون، كما يشهد به عقد العمل والبيان بالراتب. أما المحرم واللاشرعي الذي يستوجب القمع والاستنكار (حتى من قبل أولئك الذين يفعلونه أنفسهم: «إنك تنال ما جنته يداك» يتفلسف ريكي وهو يستحضر محاولة فاشلة لسرقة من سيارة، أدت إلى إصابته برصاصتين في كاحله) فهو معروف ويتساهل الجميع ضمنياً فيها، لأنه مألوف وضروري بآن معاً، إذ ينبغي على المرء أن يعيش ويضمن عيش ذويه. ونتيجة لنقص التجهيزات الجماعية، وعدم كفاية الدخول الآتية من العمل أو من المعونة الاجتماعية، فإن على سكان الغيتو جميعهم تقريباً اللجوء في وقت أو آخر إلى بعض الشطارة.

إن ريكي يتمتع، كما يقال، بالهيئة واللباس المناسبَين للعمل؛ فهو طويل القامة، يتخلع في مشيته، عريض الصدر، نحيل الساقين، يرتدي بزة ذات لون أخضر غامق من المخمل، مثقلة بجيوب وكتافيات جلدية بلون البيج، وحذاءً رياضياً ذا علامة شهيرة، ناصع البياض. تبرز هيئته الرشيقة والمتراخية وتخفي بروز بطنه: إذ عليه أن يفقد 15 كلغ لاستعادة رشاقته السابقة. وتخفي النظارات بزجاجها العاكس عينيه اللتين تعلوهما جبهة عريضة نحاسية اللون. له شاربان رفيعان وبداية عثنون، تعطيه مظهر المتأمل الذي يهتم بنفسه. أما شعره الأسود فمصفف بعناية تحت قبعة بيسبول مقلوبة من القماش الأخضر، واقيتها على الرقبة. ومع أنني كنت

عالماً بشهرته «كمتكلم حاذق»، وهي صفة يقدرها الناس عالياً في الغيتو، حيث يفردون مكانة خاصة للمهارة في الكلام، إلا أنني دهشت من طلاقة لسانه. ودهشت أكثر من التحفظ بل والحياء الذي كان يتكلم بهما عن حيه ورفاق طفولته، وعن آماله وخيباته ومعركته المستمرة «ليجعل اليوم يوماً آخر» كما يقول. هو ينظر إلى العالم المهدم والمختل نظرة طبيب إلى مريضه تقريباً؛ إذ يصفه دون زهوٍ ولا تغاضٍ، دون أن يسعى إلى تجميله أو الحط من شأنه؛ ومع أنه لا يأخذه على عاتقه، إلا أنه لا يتنكر له بالمقابل. هو هنا بكل بساطة: إنه عالمه، ولا يد له في ذلك. وشعوره بأنه مكرس لهذا الحي يدفعه إلى وعي مؤلم، يعرف معه أن لا فائدة من الرثاء لمصيره.

ولد في شيكاغو، سابع الأبناء وآخرهم لعائلة تضم 11 ابناً، وسكن ريكي دائماً في مجمع سكني عمومي في ساوث سايد، اشتهر بخطورته في طول البلاد وعرضها («إنه المكان الذي يرد ذكره في الأخبار دوماً»). وأمه، التي قدمت من تينيسي 1956، وقت بدأت الهجرة الكبرى التي أتت بآلاف السود من الولايات الجنوبية إلى شيكاغو تشرف على نهايتها، مع الشهادة الابتدائية فقط، ربّته لوحدها؛ وهي تتنقل بين أعمال كخادمة منزل (وعدة حانات وملاهٍ في الغيتو، بعدما عملت بعض الوقت في مصنع للصحون الورقية) والمعونة الاجتماعية التي لم تكن تسمح للأسرة إلا بالمحافظة على البقاء. ولا يكاد يذكر شيئاً عن أبيه الذي توفي في صغره، فكل ما يعرفه عنه أنه كان يكدح دائماً «في أعمال كثيرة بالمصانع في كل مكان» دون أن يصل إلى شيء. وعلى غرار عدد كبير من رجال ونساء جيله من الجالية السوداء في المدينة، لم يعرف ريكي أحداً من أجداده.

كبر ريكي «على الشقاء» في أحد القطاعات الأسوأ صيتاً في الغيتو، جنوب المدينة، الموجود تحت سيطرة عصابة المريدين Discibles ثم عصابة الركن، التي توجد قيادتها في شارع البروجيكت (مجمع كبير) نفسه الذي يقيم فيه (هذه البناية المبنية بالآجر، بعنوانها «مركز ديني إسلامي» هدمها الـ FBI على إثر مداهمة عسكرية، كلّلت بالنجاح ومصادرة كميات كبيرة من

المخدرات، وترسانة أسلحة مدهشة، مكونة من ذخائر ومسدسات آلية وقنابل يدوية ورشاشات عوزي، وحتى قاذفة صواريخ). مشاجرات، إطلاق نار، ترويج مخدرات، فرض الخوة، مواجهات مستمرة ودموية أكثر فأكثر بين العصابات: «ما تريده، تجده في المكان».

اشتغل أخوه الأكبر بعض الوقت لحساب عصابة محلية (فتوة Enforces) أي رجلاً مأجوراً يكلف باسترداد الأموال التي يدين بها «بائعو المفرق» المتأخرون عن الدفع لشبكة المخدرات، وذلك باستعمال القوة. وليس عبثاً أن عُرف هذا الحي باسم «البؤرة» The Zone وهو لقب يفضل ريكي عليه تعبير «حقل الموت» الذي بإيجازه المرعب يعبر أفضل من كل الإحصائيات عن الخطورة الشديدة لهذا الجزء من المدينة.

تابع ريكي كل دراسته في الحي، منهياً دراسته الثانوية بعد عدة انقطاعات، في ثانوية ويندل فيليبس الحكومية، وهي مؤسسة قديمة (ترجع البناية الرئيسية إلى 1930) محصورة بين عدة مجمعات سكنية، كأنها ثكنة (بأبوابها المصفحة ونوافذها القليلة المشبكة وتجهيزاتها الرياضية المهجورة) ويتردد عليها حصراً التلاميذ الأفرو - أمريكيون الفقراء من الجوار.

يحمل ريكي للمدرسة استياءً وأسفاً في آن معاً. استياء في البداية لأن القليل من التربية الذي اكتسبه لم يفده بشيء «كانت المدرسة مسخرة بالنسبة لي أو بالأحرى لم أكن في مكاني، فلم تفدني بشيء، ولم يبق لدي منها شيء».

وقد تابع بعض الدروس لمدة قصيرة في كلية للأصاغر[1] Junior college، دون أن يدري هو نفسه لأي هدف.

أما الأسف فيما بعد فلأنه يعرف جيداً أنه لن يتوصل دون شهادة

---

[1] كلية الأصاغر Junior college هي مؤسسة تعليمية ملحقة شكلياً بالتعليم العالي، غير أنها لا تتطلب إنهاء الدراسة الثانوية، وتستخدم في الواقع كدراسة استدراكية للبالغين من مستوى الثانوية، أو مستوى الحلقة الأولى من الإعدادية. لأن معدل الإخفاق في هذه المؤسسات بشيكاغو يتجاوز 90٪.

إلى وظيفة مستقرة أبداً، وأيضاً لأن المدرسة تخالط ذكريات شباب يكاد يبدو له من بَعدُ سعيداً بالقياس إلى حياته الراهنة. وهو يتكلم عن نيته في تسجيل نفسه من جديد في كينيدي كينغ كوليج، لدراسة «التواصل» فيها، نتيجة لرغبة مبهمة في شق طريق يخرج بها من الغيتو، وواجب عقائدي ذكره به وضع التحقيق الذي أقوم بإجرائه[1].

ريكي عازب اضطراراً وليس اختياراً، ويعيش وحيداً في شقة من غرفتين بالطابق الثالث من برج مجاور للبناية التي كبر فيها. هو في التاسعة والعشرين من عمره. ولم يكن له عمل منتظم قط، بل عاش دائماً على «حيل» ومجموعة متنوعة من المناشط غير القانونية إلى حد ما. عندما سألته عن عمله، قدم نفسه في البداية كـ«بائع متجول» يعمل لحسابه: «كنت شاطراً دائماً كما ترى، أبيع جوارب وكرات وسجائر وماء الكولونيا؛ شيء من كل شيء». واعترف فيما بعد بأنه يربح ما لا بأس به من المال عن طريق اللعب، وأفهمني أن عدة «فتيات» يدفعن له مالاً. ثم أخذ يتهرب من الكلام بصراحة عن نشاطاته، مؤكداً بإلحاح يدعو إلى الريبة أنه لا يمارس أي ترويج للمخدرات -علمت فيما بعد من أحد المخبرين الموثوقين أن ريكي «يعمل» من وقت لآخر في إعادة بيع المخدرات من مثل: كراتشي، أنجل دست، كوكائين. وقد صرح خلال الحديث بأن دخله الشهري يتراوح فيما بين 600 إلى 1800 دولار (مع ذروة تصل إلى 3000 دولار). وهي مبالغ تناسب مختلف الصور التي يتمنى إعطاءها لنفسه. واعترف لي في نهاية المطاف مرتبكاً وبعد صمت

[1] يجمع الناس عملياً في الغيتو على الاعتراف بقيمة التعليم المظيمة، وضرورة التضحية في سبيله (يقول شاب من حي مجاور هذا القول المدهش: «حتى تشوي الهامبرغر عند ماكدونالو، لا بد لك من شهادة في الملاحة الجوية قريباً». وهناك مفارقة ظاهرية فقط تتمثل في كون الناس الأفقر ثقافياً هم الأكثر تقديساً للشهادات المدرسية مع تدهور قيمتها، ويصرحون (مصدقين أنفسهم) بأنهم على وشك استئناف «دراسة» «انقطعت» مؤقتاً، لمواجهة الظروف الراهنة. وعندما استجوبت الأمهات الوحيدات اللواتي يسكن في (HLM) الغيتو، ويعشن على الإعانة الاجتماعية (التي يشار إليها بالتعبير المذل Welfar mother) منذ عشر سنوات أحياناً أو أكثر، دون أية فرصة موضوعية لتغيير ظروفهن على المدى القصير، أجبن كلهن «سأسجل نفسي لإجراء امتحان GED وهي شهادة تعادل نهاية الدراسة الثانوية، ولا قيمة لها في سوق العمل. متى؟ «في أيلول القادم، عند الدخول المدرسي حينما أجد مربية لأطفالي. ومن ثم سأعثر على عمل جيد وأغادر هذا الحي».

طويل قائلاً: «ليس في ذلك ما يبعث على الفخر، إن دخلي يختلف، فقط ما يكفي لدفع الفواتير». إذ لا أحد يقبل بسهولة أن يكون خالي الوفاض في مجتمع ترتبط قيمة كل فرد فيه بدخله، وكذا ريكي في طبقته الأدنى من غيرها التي يُقدَر كل شيء فيها بالمال، ويُشترَى ويُباع بالنقود.

وإذا كانت دخوله غير منتظمة، فذلك لأنها تأتي من عدة مصادر، لكل منها مقدار شك خاص به؛ فهو يقبض معونة اجتماعية لا حق له فيها نظرياً (الإعانة العامة، أي حوالي 180 دولار شهرياً، بالإضافة إلى بطاقات تموينية). ويبتز مالاً من عدة «صديقات» يعشن هن أنفسهن من الإعانة الاجتماعية، غير أنهن يتلقين مبالغ أكبر من مكتب المعونة باعتبار أن كلاً منهن «أماً وحيدة تعول أطفالاً» أو على الأكثر، يعملن في مركز المدينة سكرتيرات أو موظفات في المصارف[1]. وأخيراً هناك الدخول من مناشطه المختلفة كشاطر في الشارع. وهو لا يملك حساباً في مصرف ولا ممتلكات شخصية ذات قيمة سوى الهاتف (أخذه القلق من نواياي عندما طلبت رقمه) وسيارة بلايموث قديمة، يصلحها بنفسه كلما حل بها عطب، لأن القدرة على التنقل شرط لابد منه لحرفته. ويحرص على دفع الكراء في وقته، بالاستعانة بصديقاته عند الحاجة، لأن ذلك أول أولوياته. ولهذا يجتهد في إبقاء علاقاته العاطفية المشبوهة، التي تربطه بعدة نساء، تعتقد كل منهن أنها «الحقيقية والوحيدة»، في الوقت الذي يعترف فيه بطيبة خاطر قائلاً: «إذا ما بحثت امرأة عن رجل، بوسعها الاعتماد عليه، لتنشئة عائلة. فلستُ هذا الرجل بكل تأكيد[1]».

---

[1] لا تختلط هذه الاستراتيجية الاقتصادية مع القوادة، حتى وإن أمكن أن تشملها. وما تدعوه لغة الشارع بأموال النساء هو مال يدفع غالباً دون إكراه جسدي، في مقابل خدمات حقيقية يقوم بها الرجل، كالحماية والرعاية والمصاحبة والمساعدة في ضبط الأطفال. وهذا النوع من المبادلة يجسد هامشية الرجال السود الاقتصادية القصوى في الغيتو، وتبعيتهم المالية للنساء، اللواتي يتمتعن بموارد مالية أكثر وأسهل (معونة اجتماعية، عمل في الصناعة لا يتطلب التأهيل، الخدمة في المنازل، البغاء). تقترب تلك الاستراتيجية إذن في جانبها الجنسي غالباً من البغاء الذكري أكثر من القوادة المعتادة.

[1] هذا النموذج من العلاقات، الذي يقوم على الحذر والاستغلال المتبادلين بين الجنسين، منتشر جداً في الغيتو.

لم أحتفظ بصورة رئيسية من الحوار الطويل (حوالي ثلاث ساعات، بوتيرة متسارعة) الذي تناول طفولته وتنقلاته اليومية في الغيتو ومحاولاته الخائبة للاندماج في سوق العمل وتجاربه في بيئة محترفي الملاكمة، إلا بما قاله لي عن حرفته كشاطر وعن الحياة اليومية في الحي. لا ينبغي في المحصلة أن نرى في ريكي شخصية غريبة وهامشية تنتمي لـ«شبه عالم» قريب من عالم اللصوص، تمكن مقاضاته بلغة تحليلية لظاهرة «الجنوح». لأن الشاطر الذي يمثل ريكي تجسيداً مكثفاً وشخصياً له، هو وجه يحتل وضعاً مركزياً في المجال الاجتماعي لغيتو السود الأمريكيين. وهو ليس بعيداً عن الندرة من الوجهة الإحصائية وحسب، بل يجمع، كمثال نموذجي حي، وبأسلوب مثالي، رصيداً من الخصال والممارسات المرموقة في سلم قيم سكان الحي. لأنه يجعل من حسن التخلص والمقدرة على البقاء بالاعتماد على «ذكاء الشارع»، وهي الشيء الوحيد المتاح للجميع، أساساً لأسلوب حياة ذي مغزى، وحده القادر على جعل الجو المتوتر والمقبض للحياة اليومية في الغيتو محتملاً، إذ يبعث فيه شيئاً من الانفراج. فريكي إذن ليس حالة لشذوذ اجتماعي أو ممثلاً لمجتمع مصغر منحرف على طريقة جماعة اللصوص، بل نتاج عبور إلى حدود مناطق الإقصاء الاجتماعي - الاقتصادي والعرقي القديم العهد، الذي يصيب جميع سكان الغيتو من قريب أو بعيد[1].

لأجل التفسير التام للمنطق الخاص لعالم الغيتو الأسود الأمريكي، الذي يكاد يكون سجناً، وللحتمية النوعية التي يخضع لها -وتنظمه من

---

[1] يبين بيتيلو فالنتين في كتابه (Hustling and other Hard work) كيف ينبغي على أغلبية سكان الغيتو الجمع باستمرار بين العمل المأجور والإعانة الاجتماعية والشطارة. للتوصل إلى البقاء في المجال الاجتماعي المضغوط والمبتور المنفيين فيه، باعتبار هذا الجمع نفسه من «الفن الاجتماعي» للشطارة. إذ يظهر من خلال تحقيق مفصل أجري على موازنات 50 أماً يعشن وحيدات مع أطفالهن من المعونة الاجتماعية في شيكاغو الكبرى، انهن جميعاً، دون استثناء، يضطررن إلى اللجوء إما إلى مساندة الوالدين أو الأصدقاء، أو «الآباء الهاربين» وإما إلى العمل غير المعلن، حتى يحققن البقاء لأسرهن في الحد الأدنى. فليس صدفة إذن أن نجد الشاطر شخصية حاضرة دائماً في الأدب الأفرو - امريكي أو سيره الذاتية.

الداخل، حتى عندما تستمد أصلها وقوتها القاهرة من خارجه[1]- والذي يشكل موقف ريكي، المتأرجح بين واقعية دون أوهام، وأحلام قدرية، الترجمة (الذاتية) لها؛ علينا تجنب الفخ المزدوج، الذي يقوم على القراءة السطحية المنفعلة بمنظر البؤس والمتعاطفة معه، وعكسها، أي القراءة الشعبوية التي تشيد بفضائل المغلوب وبراعته، وتقدم استراتيجية بطولية «للمقاومة» ما ليس غالباً سوى تكتيك اقتصادي للحفاظ على البقاء، في مواجهة نظام للهيمنة، بلغ في شموله وقسوته درجة لم يعد الناس فيها ينظرون إليه كذلك، ولا يضعونه موضع الاتهام. ولهذا ينبغي تعليق البادرة الأولى في التعاطف والاستنكار أو الاشمئزاز مؤقتاً، وقبول النظرة التي يتبناها ريكي لهذا العالم؛ أي «الموقف الطبيعي» الذي يرى أن الأشياء طبيعية هكذا.

وينبغي التسليم أيضاً، على عكس اتجاه البحث الأمريكي التقليدي للموضوع، الغائص دائماً في المناهج والاستدلالات الأخلاقية والطبيعية الموروثة عن مدرسة شيكاغو؛ بأن الغيتو لا يعاني من «اختلال اجتماعي» بل يكون عالماً تابعاً، متمايزاً بدقة ومتراتباً، ينتظم وفقاً لمبادئ نوعية يُنتج شكلاً مطرداً من التعادل الاجتماعي. ويمكن تلخيص أول هذه المبادىء الناظمة بالصيغة «الهوبزية» لـ«حرب الجميع ضد الجميع». في عالم الندرة والحاجة الملحة هذا، الذي يفلت شيئاً فشيئاً من قواعد وضوابط المجتمع المهيمن، وتضعف فيه أو تغيب المؤسسات العادية الضابطة للعلاقات بين الأشخاص؛ نتيجة للانسحاب المزدوج للسوق وللدولة. فلا الشرطة ولا العاملون الاجتماعيون ولا المعلمون أو رجال الكنيسة أو الوجهاء المحليون، ولا حتى المقيمين الأكبر سناً (الرؤوس القديمة Old Heads الذين كانوا يقومون بوظيفة الحكماء أو «قضاة الصلح» غير الرسميين ضمن غيتو ما بعد الحرب، وحتى الستينيات) يشكلون دوائر فاعلة كملجأ أو وسطاء. «سأهتم

---

[1] «عندما تكون الدخول غير منتظمة وغير كافية، يصبح ضرورياً استغلال الأصدقاء والأهل، وغياب الاستقرار يؤدي إلى انعدام الأمان (..) وهو ما يعبر عنه هذا المثل من الغيتو الذي هو تحريف للأمر المسيحي «اعمل للآخرين ما تود أن يعملوه معك»، «اعمله بالآخرين قبل أن يعملوه بك» (..).

بأخذ حقي منك». فرد الفعل الأول إذن هو أخذ المرء حقه بيده وفقاً لقانون الأقوى.

في هذا الوضع «حرب الجميع ضد الجميع» الموجود في كل مكان وكل لحظة، يكون التضامن الأكثر نزاهة موضعاً للشك بأنه مغرض -وكيف لا يكون الأمر كذلك في عالم يجد فيه كل امرىء نفسه كل لحظة أمام خيار أن يَخدَع أو يُخدع، يَقتل أو يُقتل؟- نفهم أن يكون التشكك هو القانون، وألا يكون المرء مستعداً إلا للاعتماد على نفسه، يقول ريكي باقتضاب «إنني أقود نفسي وحيداً».

إن انتشار المخدرات يزيد من حدة منطق التشكك والتحفظ، بتحويل كل معطيات الوجود اليومي في اتجاه عدم أمان أكثر عمقاً. ويشبه ريكي انتشارها بالوباء («الطاعون») الذي يجرف كل شيء في طريقه ويحطم كل صداقة مخضعاً كل اتصال إنساني إلى مجرد علاقة استغلال آني دون حد. ويصعب عليه إخفاء اشمئزازه من أولئك الذين أخذتهم هذه الدوامة، التي لا ترحم؛ بحيث لا يترددون في بيع المخدرات لأمهاتهم، ويرى في ذلك علامة على أن كل شيء يخضع اليوم لـ«الورقة الخضراء، تلك البغي[1]».

وكما أن ريكي لا يشتكي إلا قليلاً من شبابه، الذي يذكر منه خاصة أن هناك دائماً من هم أكثر بؤساً منه، «هناك أناس أسوأ مني» يلاحظ سكان الغيتو غالباً، بمن فيهم الأكثر فقراً، وكأنهم يواسون أنفسهم) فهو لا يعيش نبذه من سوق العمل على أنه صدمة. وذلك لأن الحصول على وظيفة ثابتة، بأجر مجزٍ، تضمن حياة هانئة، لم يكن حقاً ضمن تطلعاته؛ فبما أن الإقصاء جزء من نظام الأشياء، فهو يجرده حتى من الشعور بإقصائه. وهو فوق ذلك مستعد لتحمل مسؤولية هذا الإقصاء: إذ يقول عن نفسه بأنه شديد الحساسية («أعلم بأنني عصبي») وغير قادر على الخضوع لانضباط العمل المأجور. ولكن كيف لا نقرن، من جهة، بين «عصبيته» وبيئة العنف

---

[1] وبهذا يخرقون القاعدة الضمنية التي تقول بأنه «لا يجب أن نكسب أكثر مما هو ضروري للعيش. فأي شاطر مجرب سيقول لك: إن الربح المبالغ فيه هو الطريقة المثلى لدخول السجن».

المستديم، والعوز المادي المتواصل الوحيدة التي عرفها منذ طفولته[1]. ومن جهة أخرى، فإنه إن لم يكن عصبياً في البداية، فقد أدت الأعمال البائسة التي حكم عليه بها، إلى أن يصير «عصبياً»؟ وعلى كلٍ، فالصيغة التي يستعملها لتسويغ فقدانه لأية تجربة مهنية («لا أستطيع المكوث ثماني ساعات متواصلة في المكان نفسه») تعبر جيداً عن هذه «المسؤولية المشتركة». لأن الاستحالة المقصودة هنا، هي ذاتية وموضوعية في آن معاً. لست صالحاً للاستخدام لأنني شديد الحساسية، لكنني ما كنت لأمكث ثماني ساعات على كل حال وراء كُوّتي. ألم ينقص رب العمل الذي يعمل ريكي عنده ساعات عمله، مع أنه لم يكن يعمل إلا جزءاً من الوقت. في وظيفة يعترف بأنه أحبها؟

الفقر وانعدام الأمن داخل غيتو في شيكاغو

سجلت مدينة شيكاغو عام 1990، 849 حادثة قتل (أي بمعدل 28.3 لك مائة ألف ساكن، وهو معدل مشابه لمعدلي نيويورك ولوس أنجلوس. لكنه اقل من مثليه بكثير في واشنطن، عاصمة البلاد وديترويت) منها 253 وقعت على ضحايا دون 21 عاماً (و27 على أقل من عشر سنين) أطلقت عليهم النار، في تسع حالات من كل عشر. أكثر من نصف هؤلاء الضحايا كانوا يقيمون في المقاطعات الأمنية الست التابعة لأحياء «الحزام الأسود»، وكان 176 منهم (أي 73.5٪) من أصل أفرو – أمريكي. لقد تجاوز معدل حوادث القتل الرسمي –عدة أدلة وشهادات تحمل على الاعتقاد بأن عدداً لا يستهان به من حوادث القتل، لم يسجل قط- في مقاطعة وينتوورث، وهي شريط ضيق مساحته حوالي 20 كلم مربعاً يغطي قلب الغيتو التاريخي من الشمال إلى الجنوب، 106.1 لكل مائة ألف ساكن عام 1990. وقد أسقط منه مجموع 96 حادثة قتل، أي بزيادة 20 عن العام السابق.

---

[1] بينت أعمال حديثة في علم نفس الطفل أن الصبيان الذين يعيشون في المجتمعات السكنية الكبرى للغيتو بشيكاغو يعانون من اختلالات وصدمات نفسية مشابهة لتلك التي تصيب قدماء المحاربين.

من الصعب عدم افتراض علاقة مباشرة بين معدلات الجريمة هذه، والوفيات الكثيرة الجديرة بحرب أهلية -أظهرت دراسات حديثة في علم الأوبئة، أن معدل موت الشباب موتاً عنيفاً في هارلم مثلاً، أعلى من احتمال موت الجنود الذين أُرسلوا إلى الحرب في ذروة حرب فيتنام- وبين البؤس الساحق لهذا المنعزل العرقي، المفرغ من كل نشاط اقتصادي، الذي انسحبت الدولة منه عملياً فيما عدا آلتها القمعية.

في هذا الحي المقتصر على السود، ذي الـ 45.000 ساكن (في إحصاء 1980، وهو آخر إحصاء تتاح فيه أرقام يعتمد عليها) وفيه 37٪ دون 18 سنة، يعيش أكثر قليلاً من النصف تحت «الخط الفيدرالي» الرسمي للفقر (أي 9885 دولاراً لعائلة من ثلاثة أفراد، أو 12675 دولاراً لعائلة من أربعة، عام 1989) في مقابل 37٪ قبل عشر سنين. ولدى أسرة من كل عشرين أسرة فقط دخل مساوٍ أو يفوق المتوسط الوطني، باعتبار أن الدخل السنوي المتوسط 6900 دولار لا يكاد يبلغ ثلث المتوسط على صعيد البلدية. وثلاث أسر من كل أربع تقتصر على أحد الوالدين (نتيجة لفرار الأب)، ويوجد اثنان من كل ثلاثة بالغين، لم ينهيا دراستهما الثانوية، مع أن ذلك لا يتطلب أي امتحان.

أما المعدل الرسمي للبطالة البالغ 24٪ فيخفي بصعوبة واقع أن ثلاثة بالغين من كل أربعة، دون عمل. وهو ما يفسر كون 63٪ يعتمدون على الإعانة العمومية والمصالح الاجتماعية. ومن المعروف أيضاً أن 71٪ من سكان غيتو شيكاغو (ساوث سايد وويست سايد معاً) مضطرون للجوء إلى المعونة الغذائية لتأمين حياتهم اليومية، سواء على شكل طوابع للغذاء (بطاقات تموينية توزعها الحكومة الفيدرالية ويعاد بيعها في السوق السوداء، بنصف ثمنها الاسمي عند الحاجة إلى المال) أم في المطاعم الشعبية التي تشرف عليها بعض الكنائس والجمعيات الباقية في الأحياء، وأن ثلث الأسر تملك سيارة للإفلات، ولو مؤقتاً، من الجو الذي تعيش فيه، و10٪ منها تملك حساباً مصرفياً جارياً.

وعلى الرغم من هجرة السكان السريعة من الحي (إذ فقد 30.000

نسمة خلال السبعينيات، وأكثر من 61.000 نسمة بين 1950 و1980) فإن ما يقرب من ربع المقيمين في غراند بوليفار يسكنون شققاً مكتظة. لأنه تم اقتطاع خُمس المساكن المتوافرة خلال العشرية نفسها، ولاسيما بسبب الحرائق المتكررة -شيكاغو تحمل الرقم القياسي في الوفيات حرقاً- التي تجبر السكان على الرحيل بسرعة وإعادة السكن بقدر طاقاتهم في سوق لا تتوافر فيه مساكن بكراءات معتدلة. إذ إن 6٪ فقط من المساكن ملك، ويعتبر نصفها تقريباً قديماً وغير صحي.

يحتوي غراند بوليفار على كثافة غير عادية في المساكن الشعبية (20٪ من عدد المساكن المحلي، في مقابل 3٪ للمدينة في المتوسط) تتراكم حول مجمع روبيرت تايلور هومز العملاق، وهو مجمع سكني كبير يتكون من 28 بناية مسوّرة، في كل منها 16 طابقاً؛ مبنية على صف واحد بطول ستات ستريت، يمثل دون شك أكبر تركز للبؤس المدني حتى الآن، في الولايات المتحدة ثم العالم الغربي. في الوقت الذي يحده من الغرب حي 95٪ من سكانه بيض هو بريد جبورت -منطقة نفوذ عمدة المدينة، ريتشارد د. دالاي، الذي أشرف على إبقاء التمييز العنصري السكني ضد السود بشدة من 1955 إلى 1976، ثم ورثه في هذه المهمة ابنه ريشارد د. دالاي جونيور عام 1989- الذي لا يحتوي إلا على 14 مسكناً عمومياً، ويسجل معدل حوادث قتل أقل بثماني مرات، لسكان لا يتضمنون إلا 10٪ من الأسر دون «خط الفقر».

ومهما يكن من أمر، فإن العمل الوحيد الذي يدخل في إطار الممكن بالنسبة لريكي وأضرابه هو وظيفة دون مؤهل في الخدمات كـ«عامل في متجر» أو «في التنظيفات»، دون أمل في الارتقاء أو اطمئنان على العمل، دون عطلة ولا ضمان اجتماعي، بأجور لا تسمح في أحسن الأحوال إلا بالبقاء على قيد الحياة[1].

---

[1] فقد اجر الساعة الأدنى عند رفعه من 3.35 دولاراً إلى 3.75 عام 1989 (بعد عشر سنوات من الجمود على الرغم من التضخم القوي) أكثر من ثلث قيمته الحقيقية منذ 1968، إذ يربح اجير يعمل طوال العام دواماً كاملاً 6968 دولاراً، كحد أدنى مضمون، وهو مبلغ منخفض بـ 20٪ عن «خط الفقر» الفيديرالي، مع ان هذا الخط منخفض جداً، إذا وضعنا في حسابنا عدم وجود تحويلات اجتماعية (مع غياب الضمان الصحي والتعويضات العائلية، والتكليف الشامل لكل الدخول تقريباً).

فكيف لهذه الأعمال المهنية ذات الأجور الزهيدة، ومثالها العمل عند ماكدونالد، أن تستطيع منافسة اقتصاد المخدرات الذي عرف نمواً هائلاً خلال العقد الفائت مع ظهور مواد «الاستهلاك الواسع» مثل الكراك[1]؟

ما الفائدة إذن من اختيار الطريق المشروع عندما تكون مكافآته هزيلة، وبنفس القدر من الاحتمالية الملموسة والفورية، حتى وإن كان فيها مجازفة كبيرة، التي يعد بها اقتصاد الشارع، الذي يقدم بالإضافة إلى الأرضية التي تتحقق فيها قيم الشرف الرجولي، التي تشكل قاعدة الثقافة الشعبية في الغيتو، الوهم بأن المرء سيد نفسه على الأقل، وبالتالي إمكان الإفلات من المذلة والتفرقة اللتين تشكلان النصيب اليومي، لأولئك الذين يَقبلون عمل العبيد Slave jobs في اقتصاد الخدمات الجديد: «ليس هناك الكثير من الإخوان سيفعلون ذلك[2]».

وليس اقتصاد الشطارة الخفي بأقل تهديماً، وريكي يعرف ذلك جيداً -ومراسم الدفن التي يشارك فيها بأوقات متقاربة تذكره به- فهو لن يؤدي إلى شيء مع الوقت. والإحباط البنيوي الذي يولّده اقتصاد النهب هذا، يبرز عندما يحمل ريكي على مروجي المخدرات، الذين يبددون أرباحهم في مصاريف الترف (بالقياس إلى الغيتو) والملذات؛ على السيارات والنساء والملابس والمجوهرات.. والمخدرات- وهكذا تكتمل الدائرة. فأموال الشطارة، على صورة الناس الذين يمارسونها، لا تذهب إلى أي مكان؛ بل تُبذّر وتُستهلك وتحرق لتوها. لأن الأفضل هو التمتع اليوم، عندما لا يكون للمرء غدٌ يطمئن إليه.

يود ريكي الانسحاب من هذا الاقتصاد قبل فوات الأوان («إذا حصلت على شيء، فعليك تقدير قيمة ما لديك من حظ») ولكن كيف يستطيع ذلك؟ فالشطارة لا تتيح أي سبيل للتغيير، ورأس المال الذي يملكه لا

---

[1] الكراك: مادة مخدرة ذات منشأ تركيبي كيماوي. (المترجم)

[2] يعرف لص الشوارع جيداً انه «ليس سوى الانتهازيين من يستمرون في الاعتقاد بأنهم سيحصلون على أي شيء بعملهم عبيداً».

قيمة له إلا مؤقتاً وضمن سياق معين؛ وذكاء الشارع لا نفع منه إلا في الشارع، وفن «المداهنة» لا قيمة له خارج الغيتو، كما أن قوته العضلية وطاقته الجنسية لن تدوما إلى الأبد. كان يحلم بأن يكون موظفاً في البريد، وهي إدارة حكومية، كانت تاريخياً واحداً من السبل الرئيسية لنفاذ السود الأمريكيين إلى «الطبقة الوسطى»، أي وظيفة ترفعه درجة فوق المعسرة، وتتيح له الحصول على «سلة» من الممتلكات التي ترمز لتلك المكانة مثل: الأسرة والمنزل ومرئاب لسيارتين. لكن ريكي بوجوده مع أضرابه بين فكي كماشة إعادة هيكلة السوق التي أنتجت وظائف خدمية عالية الاستقطاب من جهة، ومن جهة أخرى، انهيار المدرسة الحكومية في الوقت الذي صارت الشهادات المدرسية فيه أشد ضرورة من أي وقت مضى، يرى كل أبواب الخروج من الغيتو تغلق أمامه باستثناء الاقتصاد غير الرسمي (واللامشروع) والرياضة.

وبالفعل، فهم نادرون، الأشخاص من محيطه المباشر الذين «نجحوا» وأفلتوا من الحي. فأخوه نيد «ذهب إلى الجامعة» في كلية صغيرة للجالية بميسوري، بفضل منحة لكرة السلة، دون أن يستفيد منها شيئاً. وعند عودته لشيكاغو أخذ يتعيش من أشغال صغيرة (كإعادة التجصيص والطلاء، والتنظيف لدى بعض الخواص) ويحلم هو أيضاً باحتراف الملاكمة الذي يجعل منه مليونيراً. وأخته بيرنيس فقط من بين أحد عشر ولداً، حصلت على وظيفة ثابتة كمساعدة ممرضة في المشفى الحكومي بكوك كونتي. أما الوحيد القريب منه الذي يعرفه، وقد «نجح» فهو لورواموري، رفيق طفولته الذي كان يسكن في بروجيكت مجاور، وأصبح بطل العالم في الملاكمة. ويقال إنه اشترى شقة في حي متاخم ميسور (إنه يكتريها بالفعل مواصلاً عمله كشرطي ومدرب رياضي في البلدية). فلم يعد أمام ريكي إذن فيما عدا الرياضة، إلا أن يعثر على رفيقة تقبل التكفل به: وهذا أقصى علامات الهوان، أن يصير تابعاً لإمرأة وهي الكائن التابع الأمثل.

إن الاحترام المشوب بالحسد، الذي يحمله ريكي لرفيقه الذي اتبع الطريق السوي، يعبر عن ضمير مضطرب ونادم، يشعر به لأنه «فوت

الفرصة». وكما أن مروجي المخدارت يضعونه في منزلة أعلى منهم، لأنه كان ملاكماً محترفاً (حتى وإن كان في الدرجة الدنيا في الملاكمة) فإنه يضع صديقه «المستقيم» فوق منزلته هو. والشيء ذو المغزى لديه، هو أنه عندما يتكلم عن رفاق الحي يستعمل «نحن» تارة، و«هم» تارة أخرى، وكأنه لا يدري إن كان منهم أم لا، أو كأنه يريد إعطاء نفسه الانطباع بأنه قد أفلت أو سيفلت، عن طريق الملاكمة من هذا العالم المنكوب الذي لا يتنكر له أبداً. وهو يشعر في قرارة نفسه شعوراً مبهماً بعدم واقعية الأمل في استعادة حرفته الرياضية أو دراسة تبعث بأعجوبة. وكلتاهما بنفس الأهمية مع تعارضهما. وهكذا وفي مثل هذه الظروف من الفقدان المستمر للأمان الاجتماعي، حيث تتلخص الحياة في فن المحافظة على البقاء، وفعل أفضل المستطاع بالشيء القليل المتوافر، أي لا شيء؛ يكون الحاضر متقلباً لدرجة يلتهم معها المستقبل ويمنع التفكير فيه إلا على صورة حلم.

لم يبق إذن لتفسير هذا العالم الذي ترك نهائياً فريسة للإهمال، حيث يهدد أبسط تضامن فيما بين الشباب، بجذب من تتوافر فيه بوادر النجاح إلى الأسفل، وتبديد مساعيه في الرقي الاجتماعي، وحيث تتراكم المصائب لتقود الأمور إلى الأسوأ، سوى نظرية المؤامرة. وليس بوسع ريكي إلا مساندة الفكرة المستحبة لدى قطاع واسع من الجالية الأفرو – أمريكية (تحت اسم المخطط The plane) والتي يكون التمييز العنصري بمقتضاها نتاجاً لسياسة سرية للدولة الأمريكية، تهدف إلى عرقلة تقدم ومطالب الجالية السوداء، بإغراقها في المخدرات.

شاطر بين الشطار

وهكذا وجدت نفسي في هارلم، شاطراً بين الشطار. لم يعد بوسعي بيع المخدر، لأن مفرزة المخدرات تعرفني جيداً. كنت شاطراً حقيقياً، دون تعليم ولا أهلية لأي نشاط شريف. وكنت أعتقد أن لدي من الجرأة والحيلة ما يكفي لكسب عيشي على حساب أولئك الذي يقعون في حبائلي. وكنت مستعداً للمجازفة بأي شيء تقريباً.

يوجد في أيامنا، ضمن أحياء الغيتو لكل المدن الكبرى، عشرات الآلاف من الشباب على هامش المنظومة التربوية، يتعيشون بكل أنواع الحيل (الشطارة) مثلي بالضبط. ولا مفر لهم من الغوص أكثر فأكثر، وأعمق فأعمق في طريق اللاشرعية والمنكرات. إن شاطراً يعمل كل الوقت لا يستطيع أبداً أن يسمح لنفسه بالوقفة الضرورية لفهم ما يفعل وإلى أين يذهب. وكما في أية غابة، فإن الشاطر يعي بطريقة عملية وغريزية معاً بأنه إذا ما تراخى في انتباهه، وأبطأ في وتيرة عمله، فلن يتردد كل من يصطادون معه من ثعالب وذئاب وبنات عرس ونسور، في الانقضاض عليه وجعله فريسة لهم.

– من سيرة مالكوم × الذاتية. نشر إليكس هالي، نيويورك، بالانتين بوكس 1964، ص 108–109.

لابد لنا من أن نندهش من أن ريكي لا يأتي على ذكر البيض إلا بالصورة المخففة للمكيدة الجهنمية اللاشخصية إجمالاً. ففي الحال السابقة لنظام الهيمنة، كان الاضطهاد يظهر بصراحة نتاجاً لفعل مقصود تعود مسؤوليته على البيض بوضوح. ويشهد على ذلك كثرة الألقاب المحلية التي تدل عليهم مثل: الرجل، شارلي، هونكي، بادي، وألقاب أخرى أيضاً. والتضاد بين السود والبيض، الذي كان يشكل القالب المولد لكل التصورات والمظالم، كأنه انحل من نفسه في هذه الحرب التي لا هوادة فيها، التي ينبغي على الأسود شنها ضد أمثاله، «أخ ضد أخيه». وبانقلاب القصة رأساً على عقب، لم يعد الرجل الخفي Invisible man الذي كان يتكلم عنه رالف أليسون بُعَيد الحرب العالمية الثانية، في ذروة الغيتو بشكله التقليدي، هو الأسود اليوم؛ بل الأبيض أو الغني (سواء أكان متحدراً من أصل أوروبي أو إفريقي). إذ إن كل شيء يجري، كما لو أن الغيتو، بسَيره على شكل دارة مغلقة، ونهشه لنفسه بنفسه، قد «حسن» من صورته، متحولاً إلى نظام هيمنة بلغ في نقائه وفي عتمته أيضاً درجة، لم يبق معها متاحاً كاستراتيجية للخروج والمقاومة إلا تكتيك التضحية بالذات، الذي بتراكمه يأخذ على ما يبدو هيئة انتحار جماعي.

مع شاطر في الغيتو الأمريكي الأسود

حديث مع لوبيك ج . د . فاكانت

❖ تعتبر أنك نشأت في أسرة فقيرة؟

ريكي: (صمت طويل) حسناً.. لقد كنا فقراء، لكننا متضامنون، فكانت ترسلنا أمي نظيفين إلى المدرسة دائماً، ولم يكن لدي ربما سوى سروال أو اثنين، لكنها كانت تبقيهما نظيفين. ولا أظن أننا كنا فقراء لحد الموت جوعاً، لا، مطلقاً. ولا أتذكر يوماً كنت فيه جائعاً هكذا.

❖ وإذن، كان لديكم دائماً كفايتكم من الطعام، في صغرك؟

ريكي: لن أقول الكفاية، بل كان لدينا دائماً ما نأكله. إنني أحب طفولتي أكثر مما أحب وضعي الآن، حقاً.

❖ لِمَ تفضل طفولتك؟

ريكي: حسناً، عندما كنت في المدرسة الابتدائية، كانت الأمور هادئة.

❖ كنتَ تحب المدرسة جداً، ماذا كنت تفعل؟

ريكي: حسناً، لم يكن رأسي معي، وأشياء كثيرة تفوتني، ولم أنتبه لها حقاً حينئذ. ربما أنتبه لها الآن، وأنا لم أعد في المدرسة.. في ذلك الوقت لم يكن بوسعي أن أرى وأفهم حقاً قيمة الدراسة (بحنين شديد). هذا لا يعني أن أمي لم تكن تدفعني وتوصيني. بل إنها لم تشرح لي بالتفصيل أهمية الدراسة حقاً. كانت تقول فقط «اذهب إلى المدرسة». وكانت تحصل لي مضايقات دائماً.

❖ أي نوع من المضايقات كانت؟

ريكي: كنت فقط أُرسَل إلى المدير، أتعارك وما شابه ذلك.

❖ كانت طفولتك صعبة، والحياة قاسية في صغرك؟

ريكي: حسناً، ليس حقاً. لم يحدث لي شيء أراه كابوساً في أحلامي، بل كنت أتعارك دائماً أو أبحث عن الشجار فقط، فحارتي كانت هكذا.

❖ كبرتَ إذن في حارة صعبة؟

ريكي: أجل، لقد كانت صعبة بالتأكيد، لكن الناس كانوا جد صادقين. ولم يعد الناس كما كانوا من قبل. فعندما كان أحد يقول لك شيئاً، فهو صحيح. لكن الكثير من الأشياء تغيرت؛ كالمخدرات التي جاءت كوباء، يا رجل، وغيرت كل شيء. فلا أهمية الآن إلا للمادة. ولم يعد هناك أصدقاء خلص، ولا أهمية إلا للورقة الخضراء، لم يبق إلاها.

❖ ألم تكن الأمور هكذا من قبل؟

ريكي: كلا، كلا ليس حقاً. إنني أحاول الحصول على بعض المال، لكنني وددت دائماً أن يكون لي أصدقاء حقيقيون، أترى ما أقصد؟ لدي كثير من الرفاق الذين اتخذوا طريقاً مختلفاً تماماً، وعندما نلتقي، نتحدث ولا شيء آخر. وكما قلت لك، أنا أسير وحيداً أكثر الأوقات. أتفهم قصدي؟ أعرف جيداً بعض النساء، ولكن ليس فيهن من لها خصوصية أو شيء آخر.

❖ حدِّثني قليلاً عما كان قاسياً في حيِّك؟

ريكي: حسناً، الكثير من السرقة، وشباب أعرفهم قُتلوا.

❖ أين حصل هذا؟ أقريباً من هنا؟

ريكي: في الشارع الثامن والعشرين. كثير من الحوادث تحصل، سرقات بالخطف.. ينبغي الحذر. وهذا كل شيء. تسمع إطلاق النار طوال الليل، وتحاول أن لا تكون في طريق المعروفين بفعل هذا. أعرف كثيراً من الشباب سُجنوا 15 سنة من أجل جريمة قتل، 20 سنة.. إنهم شباب كانوا معي في الثانوية. اثنان حُكم عليهما بالسجن المؤبد. وكثير من الشباب كانوا معي في الصف، ونشأنا معاً ثم وُجِدوا قتلى.

❖ وهل كنت تتشاجر كثيراً في الشارع؟

ريكي: أجل، فلقد كنت مشاكساً، لكنني كنت أتعارك فقط حين اللزوم. لم أكن جَلفاً أبداً أو مزعجاً، بل كنت أتعارك عند اللزوم

«إنهم يقتلونك لسبب تافه»

❖ هل حضرت حادثة قتل طيلة هذه السنين؟

ريكي: أجل، مرات كثيرة! فمنذ عشرة أيام فقط، رأيت حادثتي قتل (بجدية وبطء): رجل أُصيب بطلقة، في رأسه فمات، ولحقوا بالقاتل وقتلوه، هكذا.

❖ هنا، في الحي؟

ريكي: أجل، في وضح النهار وفي مثل هذا المكان، لكن في ضياء أكثر لأن الشمس كانت مشرقة وقتها. هكذا الأمور يا صديقي! تذهب إلى الدفن، وهذا كل شيء، والحياة تستمر. وعندما أتسكع أحياناً قرب المَقَامر، أرى هؤلاء الناس. إنهم يقتلونك لسبب تافه، هكذا، ويذهبون لشراء علبة جعة. أترى؟ إن عقليتهم هكذا..

❖ كيف يحدث هذا؟ أقصد لِمَ أصبحوا هكذا؟

ريكي: إنهم الصبيان الذين وَلَدوا صبياناً ولم يعلموهم، فهذا إذن كل ما يعرفونه (ريكي يحول لحسابه هنا تعبير «Babies having babies» الذي تستعمله وسائل الإعلام للدلالة على المراهقات الأمهات في الغيتو) وكل ما يريدونه هو محاولة الخلاص من هنا، ثم (بصوت خفيض) «بوم» وهاهو أخ آخر جثة هامدة، ثم أخ ثالث يزهو بنفسه متظاهراً بالقوة. إن الأمر كما أقول لك، فلا قيمة إلا للمال. وهم يفعلون أي شيء في سبيل المال، وحتى بيع المخدرات لأمهاتهم (ضحكة صغيرة مكتومة) لقد رأيت أناساً يفعلونها. بيع المخدرات لأمك، يا صديقي، وكل هذا من أجل الدولار، الدولار البغي، هل تدرك ذلك! إنه خطير.

❖ مع كل هذه المشاجرات، ألم تطلَق النار عليك أو تطعَن؟

ريكي: أجل، أُطلقت النار علي، عندما كنت أصغر، فأصابتني رصاصة في الذراع وأخرى في الكاحل الأيسر، (يكشف عن ساقه ليريني ندبة قبيحة تمتد على طول كاحله).

❖ أطلق الشخص النار عليك عمداً في الكاحل، ليوجه لك إنذاراً أم ماذا؟

ريكي: هوذا، هوذا. لقد كان قريباً جداً مني، وقادراً على إطلاق رصاصة على رأسي من الخلف، لكنني لا أعتقد أنه كان يحاول قتلي في النهاية.

❖ كيف حدث هذا؟ حدثني قليلاً.

ريكي: كنت مفلساً، أحاول خلع سيارة، كنت صغيراً ولا أعرف شيئاً. وكُشف أمري، فجريت هارباً وعندئذ أطلق الشخص على كاحلي النار. فهمت بعدها، وأخذت الأمر كما هو، لأنني كنت مفلساً، وكان علي تحمل النتيجة. أترى ما أقصد؟ عليك تحمل نتيجة ما تفعله.. كما حدث لي مع رفيق في أحد الأماكن، إذ اشتبكنا مع عصابة، ولم يكن معنا سوى مسدس واحد. أو بالأحرى رصاصة واحدة بقيت في المسدس، فتخيل! وكان شجاراً حقيقياً فهربنا إلى الطابق الثامن من بناية، فأخذوا ينادوننا للخروج، فاضطررنا لهدم الجدار للنفاذ إلى الشقة الأخرى والهرب.

❖ لماذا كانوا يلاحقونكما؟

ريكي: كنا نتشاجر مع أحدهم، فنادى كل رفاقه.

❖ هل هم من حي آخر؟

ريكي: أجل، لقد حاصرونا. وما خرجنا إلا لجرأتنا وهدمنا الجدار للتخلص منهم. أترى، يا رجل، إن الأمر كما أقول لك.. كنت اقامر أحياناً مع أناس أعرفهم طيلة حياتي، فإذا جعلتهم يخسرون مالهم، يُخرجون مسدساتهم. لقد عرفت كل ذلك. وكنت في أماكن مخيفة، فقد هاجمني شخص وضع مسدسه في فمي ليسلب مجوهراتي.

❖ هل كنت عضواً في عصابة آنذاك أو الآن؟

«كنت دائماً متمرداً»

ريكي: كلا، أبداً، فهذا غير وارد. فلم تكن لدي رغبة قط بأن أكون مأموراً من أحد. بل فعلت كل شيء وحيداً، دون أن أرتبط. لأنك عندما ترتبط وتكون في عصابة، عليك أن تكون شديد القسوة حقاً في هذا الحي. وأنا لا ابحث عن خمسين أو مائة رجل معي، فعندما يعمل رجل شيئاً معي، لا أفكر بعصابته بل به كفرد، وأول شيء أفعله هو تصفية حساباتي معه، وبعد ذلك أهتم بالباقي، لكنني أسوّي حساباتي معه قبل كل شيء. أتفهم؟ إنني لا أرى ذلك وكأنه سيبحث له عن ستة وثلاثين ألف صديق، أترى مقصودي؟ إنك تقتل مصدر القوة أو تُقتل.

❖ لكن ألم يُضغط عليك لتنتمي إلى عصابة؟ ألم تَطلب منك عصابة الانضمام إليها وخاصة لأنك ملاكم؟

ريكي: الأغلبية، نعم، طلبوا مني ولكن ليس بلهجة آمرة بل بلطف، صحيح أنني كنت ملاكماً، لكنني متمرد دوماً، وأغني وحيداً. لكنني لا أقبل أن يأتي شخص ويقول «تعال، سنذهب إلى هنا أو هناك، وسنعمل هذا أو ذاك» فليس هذا أسلوبي.

❖ عندما تكون في أماكن كهذه، عليك أن تأخذ حذرك، أليس كذلك؟

ريكي: أجل، يجب أن أكون مستعداً دائماً (لكل شيء). أعتقد أنني حملت مسدسي مرات عديدة في العام الماضي، صيف 90، لأنني كنت أقامر كثيراً في ذلك الوقت؛ كنت أقامر كثيراً في تلك الأماكن.

«وأقف وراء منضدة لثماني ساعات دون انقطاع»

❖ هل كنت تقوم ببعض الأعمال الصغيرة، مع ذهابك للثانوية؟

ريكي: حصلت مرة على عمل، عندما غادرت الثانوية. كان العمل في مصلحة الصحة التي تدعى GNC. الواقعة في مركز المدينة. وهي مركز للتغذية. لكنني تركت العمل لأجره القليل مع أنه كان يعجبني.

❖ ماذا كنت تعمل؟

ريكي: كنت أرتب الرفوف. وأعمل الجرد وما شابه. تكلمت مع رئيسي مرة فقال بأنه سينقص لي من ساعات عملي. فماذا فعلت؟ لقد خلعتُ باب المخزن، ودخلتُ ليلاً فأخذتُ كل مال ذلك اليوم. وبعد هذا، انتهى كل شيء.

❖ ماذا حدث عندئذ؟ هل اكتشفوا أنك سطوتَ على المخزن؟

ريكي: كلا في الواقع، فقد نجوت هذه المرة. وحاولت مرة أخرى، إلا أنني أنا الذي كشفت عن نفسي وليسو هم الذين كشفوني (بأسف) فقد كان علي أن أتحسب، لأنني عندما عدت إلى العمل وجدت شخصاً آخر معي ينتظر عودتي، وإذن..

❖ وإذن، قدموك للمحاكمة؟

ريكي: أجل، وقررت الاعتراف بأنني مذنب هذه المرة، وأظن أنني سجنت 20 يوماً في سجن المنطقة، أو شيئاً كهذا.

❖ لكن لِمَ لم تبحث عن عمل منتظم بعد الثانوية؟

ريكي: نعم، لابد من رؤية الأشياء كما هي، وجهاً لوجه، وعليك أن تكون صادقاً مع نفسك. فبما أنني عصبي؛ لا أستطيع البقاء لثماني ساعات دون انقطاع في المكان نفسه. ولا حاجة بي لأن أخدع نفسي، فأنا لا أستطيع البقاء واقفاً وراء منضدة لثماني ساعات متواصلة، أو حتى البقاء في مكان ما لتنظيف شيء ما خلال ثماني ساعات. أنا أعلم جيداً أنه ليس بوسعي فعل ذلك (..) وما أربحه هكذا، أستطيع الحصول على ثلاثة أضعافه في الشارع. أتفهم قصدي؟ فما يجب هو كسب المال مثل صديقي الذي نجح بعمل شريف. إذ إن ما يكسبه بعام، تستطيع كسبه في ثلاثة أشهر أو حتى أقل. غير أنه بماله ذاك يحصل على أكثر من الرجل الذي كسب المال في ثلاثة أشهر، أتفهم قصدي؟

❖ وإذن، فأفضل عمل حصلت عليه هو عندما كنت تقامر؟

ريكي: أجل، وهذه هي الشطارة، نعم هذا كل شيء.

❖ وهل ما زلت تعمله الآن؟

ريكي: أجل، أحياناً، أعرف الكثيرين في الشارع، يبخلون عليك بمائة فلس، ويسلبونك الآلاف بضربة واحدة، أتفهم ما أقصد؟ إنهم هكذا، وهذا يلخص كل شيء.

◆ لكن إذا كان شخص من الحي يبحث عن عمل بالأجر الأدنى المضمون، فهل بوسعه العثور عليه فوراً؟

ريكي: ربما يستطيع العثور على عمل، عند ماكدونالد أو برجركينغ أو وينديز، وما شابه ذلك؟

◆ لكن لِمَ لا يحاول سكان إيداب ويللز، لا يحاولون الحصول على هذه الأعمال؟

ريكي: لا، فإنك تربح أكثر في الشارع.

◆ هل هذا العمل جيد بالنسبة لك، عمل يروقك؟

ريكي: حسناً، ما كنت أقوله (وقفة) ما نوع العمل الذي أستطيع العثور عليه، وأربح الكفاية منه. كفاية للتكفل بعائلتي ودفع الفواتير والكراء مع مرئاب لسيارتين؟ أتفهم قصدي؟ ما نوع العمل الذي أستطيع العثور عليه بالدراسة التي قمت بها؟ أين رأيت أنهم يمنحون وظائف كهذه؟ فليس الأمر كما لو أنني كنت في الجامعة لأصير طبيباً أو محامياً، أو ما شابه ذلك.

◆ إن هذا يستحق العناء في هذه الحالة..

ريكي: أجل، يستحق العناء. فعندما يكون لك عمل كهذا، بوسعك الجلوس مرتاحاً ودفع فواتيرك، وإلا ستبقى دائماً تكافح وتكافح وتكافح. إن ما أريد قوله هو أنك لن تجد أخاً يأتي ليقول لك «اسمع،سأتوقف وأترك الشارع، وأبحث لنفسي عن عمل صغير بالأجر الأدنى المضمون» فذلك شاق، وليس هناك الكثير من الأخوة سيفعلون ذلك.

◆ ما هو العمل الذي تعتبره جيداً لك، عمل يروق لك؟

ريكي: سأقول لك شيئاً. إنه العمل بالبريد أو سائق حافلة، شيء مع امتيازات. إن هذا يعتمد على المستوى الذي تريده. إن هذه الأعمال ليست

بالشيء الكثير؛ غير أنه ليس بالقليل أن تلتقط واحداً منها (يفرقع بأصابعه) أليس كذلك.

(نظراً لكون التشريعات الاجتماعية في الولايات المتحدة قديمة بالية، فإن أغلب الأعمال التي لا تتطلب تأهيلاً، لا تستفيد من حماية طبية واجتماعية، ولا من عطلة مدفوعة الأجر أو عطلة مرضية. وبالتالي، فإن الوظائف التي يفضلها سكان الغيتو هي تلك التي تقدمها الإدارات الحكومية (الفيدرالية أو الولائية أو البلدية) التي تتضمن هذه «الامتيازات» لقوة النشاط النقابي فيها).

❖ هل تظن أنك ستتوصل للحصول على عمل عند الضرورة؟

ريكي: حسناً، لا أدري الآن، آمل أن أتخلص بحرفتي كملاكم من المشكلة. وليس لدي أوهام، كما قلت لك، سأستأنف دراستي هكذا، وإذا لم تسر الأمور، بوم، سأعثر لنفسي على عمل.

«كثير من المداهنة»

❖ فأنت مضطر إذن للشطارة دائماً، لكسب الرزق.

ريكي: أجل، فقد كنت من قبل شاطراً حقيقياً، لكنني تركت بعض الوقت. كنت مع اللعب وزهر النرد في الخارج طوال الليل، ثم امرأة من هنا وامرأة من هناك، وتدبيرات كهذه.

❖ كم تستطيع كسبه في أفضل أيامك؟

ريكي: علي أن أقول: 12.000 وأخرى 3000. كل تلك الأوراق المالية برزم من ألف، يا رجل، لا أعرف إن كنت تدرك هذا. كلها بالآلاف. ولكن..

❖ وهل هذا أسبوعي أو شهري أم ماذا؟

ريكي: إن هذا يعتمد، فمرات أربحها يومياً. وأحياناً أربح 700 دولار يومياً، 1000 دولار من القمار فقط. ولم أبع مخدرات قط. بل من القمار فقط.

❖ هل يمكن الحصول على كل هذا المال من القمار فقط؟

ريكي: أوه، يا رجل، لو تقامر ولديك شيء من الحظ في اللعب، يا رجل..

❖ أين يلعب الناس، هل هناك أماكن بعينها، أم يجري اللعب في كل مكان؟

ريكي: يجري هنا في كل مكان. فما عليك أحياناً إلا أن تقف في زاوية الشارع، هنا مثلاً، أو في أي مكان. ففي هذه اللحظة أستطيع الذهاب وقول «ماذا تفعلون جميعاً؟» فنخرج زهر النرد ونبدأ اللعب هكذا. يأتي الجميع وينطلق اللعب.

❖ وبكم يراهن الناس الذين يأتون للعب؟

ريكي: هذا يعتمد، أحياناً 200 أو 300.

❖ أحقاً، بهذا القدر؟

ريكي: أجل.

❖ ولكن من أين يأتون بالمال؟

ريكي: من الشطارة والمخدرات.

❖ وإذن، فهم بعدما يبيعون المخدرات، يسعون لمضاعفة أرباحهم باللعب؟

ريكي: أجل.

❖ ولِمَ توقفتَ عن هذا العمل؟

ريكي: حسناً، أحياناً تدرك الأمور، وعليك أن تقدر الحظ الذي تتمتع به. هناك أشياء كثيرة فعلتها..

❖ أشياء غير مشروعة؟

ريكي: أجل، أجل. فعندما تكون في ميدان الشطارة، وليس لديك عمل؛ تضطر عندئذ للقيام بأفعال غير مشروعة لمحاولة دفع الفواتير، وما شابه. قريباً من بيتي، إنه مثل إيداب ويللز. هل سمعت عن إيداب ويللز؟ إنه حي تجد فيه دائماً من يسبب لك المتاعب.

❖ نعم، سمعت عنه. هل هو بقسوة روبرت تايلور هومز؟ لأننا نسمع دائماً عنه وعن ستاتوي جاردن في التلفزيون.

ريكي: أعتقد أنه أسوأ حتى. إيداب ويللز قاس، يا رجل. ونحن نسميه «البؤرة» (The Zone) وأنا أسميه «حقل الموت»، لأنني رأيت الكثير من الأشخاص، (يفرقع بأصابعه) وحتى هذه اللحظة.

❖ وماذا يفعل أغلبية الرجال هنا؟

ريكي: إنهم يبيعون المخدرات، ويلعبون بزهر النرد.

❖ هل يمكن حقاً كسب المال بعمل كهذا؟

ريكي: أجل، فقد كنت أربح أحياناً (يحسب ذهنياً) ما يصل إلى ألفين وثلاثة آلاف دولار يومياً. وفي الأيام السعيدة، كنت أربح 9000 أو 10.000 دولار من اللعب بزهر النرد.

❖ ممن تأتي هذه المبالغ؟

ريكي: من المراهنات ومن اللعب فقط. ثم من بعض النساء اللائي أحتفظ بهن احتياطاً. وهذا لا يعني أنني قواد أو شخص من هذا النوع.. ولم أبع قط مخدرات حتى عندما كنت مفلساً. فهو عمل ليس لي، فلم أربح حتى عشرة دولارات من المخدرات. لأن هذا ببساطة، لم يكن مجال نشاطي. لكنني أحاول أن أحتفظ لنفسي بامرأة طيبة لها عمل أو شيء كهذا، أستطيع الحصول منها على شيء.

❖ وهؤلاء النساء، من أين يأتين، وأين يسكنّ، هل يسكنّ في البروجيكت؟

ريكي: نعم، قريباً من هنا، في إيداب ويللز.

❖ هكذا، لديك أكثر من واحدة، وتنتقل من الواحدة إلى الأخرى؟

ريكي: هوذا، هوذا.

❖ وكم تستطيع أن تربح هكذا؟

ريكي: حتى لو كانت 100 دولار من هنا و500 من هناك أو حتى 200 دولار، فإنها مقبولة. وأحاول أن أحتفظ بهذا مهما كلف الأمر.

❖ وهل ذلك سهل أم يتطلب منك عملاً كثيراً؟

ريكي: حسناً، إنه يتطلب الكثير. فلدي شيء لا يوجد لدى الكثير من الرجال؛ إذ أحسن الكلام. كلام الشارع، فبه تستطيع المداهنة كثيراً. وأنا لا أقصد أنني مزهو، بل أحسن الكلام. تتكلم وتتكلم وتتكلم، ولدي دائماً ما أقوله. ولم يحدث لي قط أن وجدت نفسي بدون شيء أقوله.

«لم أعرف أحداً من الأشخاص النادرين الذين نجحوا.»

❖ ورفاقك، الذين نشأتَ معهم وتجولت، عندما كنت في الخامسة عشرة من عمرك، ماذا حدث لهم؟

ريكي: حسناً إن من نجح منهم النساء، فتيات يعرفن ما يردن، فنجحن. أما الشباب..

❖ ماذا فعلت النساء للخروج من هذا الوضع؟

ريكي: تابعن الدراسة، وعثرن على عمل جيد، وما شابه ذلك. أما الشباب من الحي الذين نجحوا حقاً، وتابعوا الدراسة، فلم يكن بيننا شيء مشترك، أتفهم قصدي؟ تعرف..

❖ ماذا تقصد، هل كانوا جد مستقيمين، أم ماذا؟

ريكي: (حائراً) لا تستطيع قول هذا حقاً، بوسعك أن تصنفهم، ويستطيعون أيضاً تصنيفك. الشيء نفسه. كأنك تقول: «إنه وغد» أو «متشنج»، والأمر ليس بهذه البساطة، بل يعني من يستطيع الخروج من وضعه، والمرور أمام الناس. هذه هي المسألة.

❖ وهل خرج الكثير من الشباب من هنا؟

ريكي: كلا، كلا، فلم أعرف حقاً أحداً من الأشخاص النادرين الذين نجحوا في ذلك. هناك شخص واحد فقط، هو صديقي الآن، وكان لدينا أسلوبان مختلفان في الحياة، لكننا صديقان. إنه الآن (كأنما يتلو صلاة باحترام) يملك منزله الخاص، ويذهب إلى عمله كل يوم، ولم تكن له أية مشكلات قط. لم يدخل السجن، ولم يقامر. وقد نجح بشرف عن طريق العمل

فقط، العمل، العمل. لقد عمل دائماً بينما كنت أمارس الشطارة والخديعة. وعندما كنا نخرج معاً -لقد نشأنا معاً- فطريقتي بالكلام مع الناس تختلف عن طريقته، أترى؟ إن الأمور هكذا. ثم إن هناك كثيراً من النساء اللواتي يفضلن الرجال المتأنقين Slick (وهي تقال على الأخص للرجل الذي يحسن اللباس والحديث بأناقة وفق قواعد الغيتو، وهو معناها الإيجابي. لكن لها معنىً سلبياً ومهيناً (خادع، لعوب، سطحي، هوائي، أناقته وجاذبيته أكثر من اللازم ليكون شريفاً). وريكي هنا يلعب (بمهارة) على التباس اللفظ، الذي يمكن أن يفهم بالمعنيين معاً، تبعاً لوجهة النظر المتبناة). ولكن إذا ما بحثتْ امرأة عن رجل بوسعها الاعتماد عليه للتكفل بعائلة؛ فلست ذلك الرجل بالتأكيد.

❖ ماذا حدث إذن للذين نجحوا، وماذا يفعلون الآن؟

ريكي: إنهم هنا دائماً. وقد نشأت مع كثير من الأشخاص وهم حشّاشون حقيقيون. خذ مثال هذا الصديق الذي ركب مع سائق تاكسي، وحاول الهجوم عليه فقتله السائق الأسبوع الماضي. لقد كنا معاً من الابتدائية حتى الثانوية. ودفنوه بالأمس.

❖ أين حدث هذا؟

ريكي: ليس بعيداً من هنا، (مفكراً) بالقرب من الحي. أعرف، يا رجل، كثيراً من النساء، جميلات ومدمنات على المخدرات. لهن طفلان أو ثلاثة، ولا يعرفن أين أطفالهن. إنهن يتعاطين المخدرات، ولا شيء غير هذا. إنها معضلة عندما نفكر فيها (متجهماً ومتفكراً فجأة) وحتى تبدأ التفكير بالأمر جدياً.. لكنني وضعت شيئاً من المال جانباً، وأستطيع الملاكمة؛ ولذا اقول إنني بحاجة للاستمرار في ارتكاب الحماقات، لأنك تعيش حقاً، حياة مليئة بالجرائم دائماً (رافعاً صوته فجأة) فكم من الوقت تستطيع الاستمرار دون أن تقتل أو تجرح أو تجد نفسك في السجن؟ إنني أعرف كثيراً من الأشخاص على كراسٍ متحركة؛ فإما ساق بُترت وإما أصيبوا بالشلل نتيجة لطلقة رصاص. كثير منهم صغار السن، يا رجل، 13-14 عاماً، توقفوا عن الدراسة ودخلوا في العصابات..

«لقد كان حظي عظيماً.»

❖ نسمع غالباً أن الغيتو تدهور كثيراً في العشر أو العشرين سنة الماضية. فهل صار أسوأ حقاً؟

ريكي: أجل، أجل، بالتأكيد. القتل والمخدرات، يا رجل. المخدرات وباء حقيقي، انتشرت بسرعة، بين عشية وضحاها، هكذا: مثل «بانغ» (يفرقع بأصابعه) وهي تهيمن على كل شيء، دون أن ننتبه لاجتياحها.

❖ في أية سنة وصلت؟

ريكي: أذكر أن ذلك بدأ في 1983 كفورة حقيقية. لكن هذا لا يعني عدم وجود المخدرات من قبل، بيد أن ذلك لم يكن شيئاً مذكوراً بالقياس لما هو موجود الآن. إنني أعتقد، يا رجل، أنها كمؤامرة كبيرة. فنحن -أقصد السود- لم يكن أمامنا سوى الازدهار ومواصلة التقدم. لكن عندما وصلت هذه المخدرات البغي!. وكأنها «فورة» أخّرتنا 50 سنة إلى الوراء. إن الأمر بهذه البساطة: أخ ضد أخيه الآن، وكل واحد يبحث عن مصلحته الخاصة غير مهتم بغيره. أما الذين يكسبون فلا يفعلون بها شيئاً. بل كل ما يفعلونه هو شراء السيارات، يا رجل، سيارات ونساء وانتهى الأمر. فليس عليك إلا أن تذهب إلى زاوية الشارع التاسع والعشرين، وتهبط حتى الشارع 119، ولن تجد في كل الحارات عشرة حوانيت يملكها سود في حي للسود. إن هذا يبعث على التأمل، أليس كذلك؟

(كانت حوانيت الغيتو للبيض في العادة. لكنها الآن تنتقل إلى أيدي الآسيويين (من كوريا والصين والفيليبين) وإلى أناس من الشرق الأوسط من أصل لبناني أو سوري).

❖ لكن، إلى أين يذهب كل هذا المال؟ فلابد في النهاية من أن يستخدمه شخص ما لفعل شيء.

ريكي: الأمر كما قلت لك؛ فلا يهتم هؤلاء الناس إلا بشيء واحد: السيارات والنساء. إذ أعرف أشخاصاً لديهم ثلاث سيارات وأربع. لكنك (مغتاظاً قليلاً) كم سيارة تستطيع أن تسوق؟

❖ نعم، لكنه لابد من وجود نساء يملكن الكثير من المال، ويروّجن المخدرات؛ فماذا يفعلن به؟

ريكي: بعض النساء يتلقين مالاً، فهم يعطونهن مالاً، ويخرجون كل مساء ولا يفكرون بالمستقبل. أترى ما أقصد؟ فإذا لم يكن لديك هدف، كما أقول لأصدقائي كثيراً: لا يمكن أن تستمر في بيع المخدرات هكذا طوال حياتك. فلابد أن يكون للإنسان هدف في الحياة. أعرف شخصاً مَرَّ مليون دولار بين يديه؛ فمنذ 1983 وحتى الآن وهو يبيع المخدرات، وكان حظه عظيماً. لكنه الآن لا يستطيع وضع يده على 3000 دولار، مع أن مليون دولار وأكثر مرَّ بين يديه.

❖ أكان يستطيع الاحتفاظ به؟

ريكي: كان يستطيع الاحتفاظ به، ربحاً له. أما الآن فليس معه 5000 دولار، وكان يبذر هذا المبلغ من قبل في أسبوع. ومثله شخص كان يملك مطعماً، وليس معه الآن ما يكفي للأكل فيه. وهذا ما يحثك على التفكير. ولهذا أقول لنفسي: حسناً، لن أعود شاباً، أليس كذلك؟ مازلت أستطيع الملاكمة، سأجد لنفسي امرأة وأحاول التزوج بها لتعنى بي ونكوّن عائلة. أريد أن أعيش فقط، فقد جربت حظي! وكان حظي عظيماً في الشارع؛ فلم أجرح، ولم أضطر لجرح أحد، ولم يسىء إلي أحد أبداً..

كانون الثاني 1991



فيليب بورجوا

بدون مأوى ، في الباريو

سجلت هذا الحديث مع رامون في ليلة من الليالي في نهاية شهر آب 1989. كنا في الشارع، قبالة العطارة Botanica[1] التي نبتاع منها الكراك، حيث كنت أمضي أكثر لياليّ منذ عدة سنوات. هذا المكان، على بعد خطوتين من البناية المتداعية -مملكة الجرذان- التي كنت أكتري فيها شقة مع زوجتي وابني، في الحي البورتوريكي أساساً، التابع لهارلم الإسباني والمعروف باسم الباريو، كان ذلك عندما بلغ وباء الكراك ذروته في الولايات المتحدة فيما بين 1985 و1991.

كنا جاثمين ذلك المساء على مقاعد عمومية، حالتها مزرية تغطيها الخربشات، في مدخل المكتب الإداري لأبراج المساكن الشعبية التابعة لحي روزفلت؛ لنحتفل بعيد ميلاد جوليو، المدير الليلي للعطارة الشهيرة.

وحتى لا نثير انتباه رجال الشرطة، لففنا علب الجعة الكبيرة، التي كنا نتقاسمها في ورق الصر. غير أن هذا لم يمنع جوليو ولا ويلي، فتوة بيت الكراك «Crak House»، من تحطيم القناني الفارغة على الدرج الموصل إلى مساكن روزفلت. وكان أصدقائي يغمسون من وقت لآخر أيضاً مفتاح شقة أو أظفراً بنفسجياً طويلاً في كومة صغيرة من الكوكائين، ملفوفة بورقة نقدية

---

[1] Botanica: هي صيدلية عشبية، تُباع فيها أشياء دينية يستعملها الأفرو - كاريبيون في ممارساتهم الدينية. وترجمناها هنا بالعطارة. (المترجم)

من فئة الدولار، يحتفظ بها جوليو معه بعناية، ثم يحملون المسحوق الناعم إلى منخر ويحنون رؤوسهم قليلاً، ويسدّون المنخر الآخر مع تكشيرة بالشفتين، ويستنشقون فجأة بحركة سريعة ورشيقة، دون إضاعة أي شيء منه.

يحتل حي روزفلت، وهو واحد من المجمعات السكنية (وتملكها المدينة جميعها) الاثني عشر التي يحتويها هارلم الإسباني، المرتبة الثانية بين كل مجمعات منهاتن في المعدل القياسي لحوادث القتل. وتوحي صفوف البنايات في هذه الجهة، ككل بنايات الباريو، بالبؤس؛ فبنايات مهجورة، ومحلات خاوية، وأرصفة مغطاة بالنفايات. وسكان الحي، أطفالاً كانوا أم بالغين، يجتاحون الشوارع نهاراً والجزء الأكبر من الليل في أشهر الصيف القائظة.

ليست البناية التي أسكن فيها مستثناة من القاعدة، إذ كان بوسعي التزود بالهيروين والكراك والكوكائين وغيرها من المخدرات، ضمن دائرة مساحتها 200 متر مربع. وكان الكراك هو المفضل بالطبع لأنه الأرخص ثمناً والأكثر توافراً، إذ هناك ثلاث نقاط للبيع بأسعار تنافسية على بعد 30 متراً من بنايتي.

كانت المقاعد التي تكدسنا عليها تلك الليلة شديدة القرب من إحدى نقاط بيع الكراك التي أقيمت حديثاً، أي في بوابة المدخل الرئيسي لحي روزفلت. وتملك هذه النقطة عصابة غير منظمة بالأحرى من البائعين المراهقين، وتسيء كثيراً للعطارة التي يعمل فيها جوليو وويلي المقابلة تماماً، في الجهة الأخرى من الشارع؛ إذ إن «منشأة» هؤلاء المراهقين الطموحين أخذت بكسر سعر جرعة الكراك، التي انخفض ثمنها من خمسة دولارات إلى دولارين. ولهذا أخذ ويلي ينثر حطام قناني الجعة في قفص الدرج الذي «تزاول» فيه عملها، بسرور واضح. وعلى الرغم من أنه يعلم جيداً أن العصابة المنافسة تتعاطى المخدر، إلا أنه سمح لنفسه بفعل ذلك دون مخاطرة، لأن أخاه الأصغر ذا الثلاثة عشر عاماً كان في عداد العصابة، ويوحي بثقة كافية جعلتهم يكلفونه مع بعض زملائه بتخبئة المخدرات لديهم، كلاً بدوره، بعض الأيام في كل شهر.

كان علينا كما جرت العادة، أن نجتمع على الرصيف المقابل، أمام العطارة. لكن المالك طرد جوليو وويلي لأنهما كانا يصلان إلى العمل متأخرين في كثير من الأحيان، ويبدوان صعبَي المراس. وهذا ما حط من معنويات جوليو، لأنه لم يوفر فلساً واحداً. فلقد أنفق آخر بنس، خلال السنوات الخمس التي امتاز فيها بعمل ثابت كمسؤول عن بيع الكوكائين والكحول. وكانت صديقته ابنة الثمانية عشر عاماً وأختها الكبرى، عشيقة ويلي، تتصتان بإشفاق. ومضت بعض الساعات، دون أن يحدث شيء. لأن كلاً منا كان مشغولاً باستنشاق الكوكائين واحتساء الكحول.

رامون الذي كان الداعي للاحتفال، قطع نواح جوليو، لأنه سئم من سماعه يندب حظه، كما سئم من الإشفاق الذي يثيره حوله، بما في ذلك الجدية التي كنت أسجل بها شكاواه بآلة التسجيل الصغيرة الدقيقة، وهي معلقة بشفتيه، كأنني أحاول جاهداً التقاط كل كلمة يتلفظ بها، من خلال ضجيج الشارع في تلك الليلة الصيفية.

بوسعي القول، إن حياة كاملة من الإحباط المكبوت هي التي جعلت حكاية رامون تختمر، وجعلته ينفجر. فقد أدهشتني رغبته المفاجأة في التعبير عما يعتمل في صدره؛ لأنه في العادة خجول ولا يتكلم إلا قليلاً بينما كان منزوياً يتحقق بين الفينة والفينة من أن المسجلة تدور. فاعتبرته حتى ذلك الوقت إذن من أناس الشارع، الذين لا يريدون التورط مباشرة مع أحد البيض. لكن التفرقة في المدن الأمريكية لم تكن هي هَم رامون الأكبر عند حديثي معه. ولم أدرك أن رامون لم يقاطع جوليو لمجرد الغيرة -لأن جوليو كان يستقطب الانتباه- بل لأنه أراد بالأحرى إعطاء مثال مضاد لرواية جوليو حول ترويج المخدرات، إلا أسابيع من بعد، عندما كنت أدون هذه الصفحات. وكان رامون يعرف أيضاً مقدار قرب جوليو مني، والدور الهام الذي سيقوم به في بحوثي، ويخشى في الواقع أن تكون دراستي مقتصرة على أناس كسالى ومستهترين، عاجزين عن العمل بشرف -إذ سيكرر عدة مرات، مثلاً، أنه على العكس من جوليو، يبيع الكراك للضرورة حتى يطعم أسرته: «فقط لأعيل من تركتهم أمي لي»-.

وقد بدا عليه الحماس والتفاؤل، لأن زوجته دفعت عربوناً لكراء شقة مدعومة[1] من قبل المدينة. وإذا سارت الأمور على ما يرام، فسيكون بوسعها مغادرة بيت الإيواء الذي تقيم فيه مع ابنهما وسط المدينة، منذ أن طرد قبل سنة من شقة والدة رامون. وإذن فهو يأمل في أن يستطيع إعادة تكوين خليته الأسرية («الآن، وقد حصلت زوجتي على شقة، فلن نعود إلى الشارع. ولسنا بحاجة إلى شيء سوى القدرة على البقاء فيها والذهاب إلى العمل، ثم العودة إلى المنزل وإنجاب الأطفال»).

لكن رامون كان قلقاً في الوقت نفسه، إذ كان يخشى وقوع الشقة في أيدي المعونة الاجتماعية، ولم يكن متأكداً، زيادة على ذلك، من محبة امرأته له. ولم يكن يستطيع التوصل إلى قرار بالعودة إلى ترويج المخدرات، لا سيما أن أحد منافسيه هدده بالقتل فيما لو عاد إلى نقطة بيعه السابقة في جنوب برونكس. وكان هذا الخصم أطلق عليه النار في الماضي؛ فأخذ رامون التهديد بجدية جعلته يحمل مسدساً -خبّأه في جعبة رياضية متسخة من القماش- وضعها دون مبالاة تحت مقعدنا، حتى لا يلفت انتباه الشرطة. وباختصار، فإن رامون لمعرفته بأن راتبه الرسمي كساعٍ لا يكفي لإعالة أسرته، لا يجد مورداً آخر فيما عدا ترويج المخدر («لم أعد أريد مجرد المحافظة على بقائي، بل أريد العيش.. لا أدري، فربما علي استئناف بيع المخدرات، وربما أستطيع إيجاد مكان آخر أكثر أمناً، لا أدري») كانت الضائقة المالية تسحقه، وإعانة الدولة دون أي أثر، بل على العكس، وفقاً لنطق غير منتظر. إذ إن المساعدة الاجتماعية خفضت المعونات التي تدفعها لعائلة رامون عندما أصبحت بدون مأوى، بحجة أنه لم يعد عليهم كراء يدفعونه، وأنهم يأكلون في المطاعم الشعبية.

---

[1] يقدر الوقت اللازم للحصول على شقة مدعومة في نيويورك بـــ 17 أو 18 عاماً. وكان في وقت هذا الحديث 88.000 عائلة بقائمة الانتظار. ويصل عدد الشقق التي تدعمها البلدية في نيويورك كلها إلى 175.000 شقة فقط، ومعدل المساكن غير المشغولة هو 0.1٪. تمكنت إيريس، زوجة رامون، من الحصول على شقة، على الرغم من أن قائمة الانتظار تحوي 80.000 أسرة، لأنها جاءت من بيت للإيواء، عاشت فيه أكثر من عشرة أشهر.

كان رامون يشعر في أعماقه خِفْيَة، بالحنق على جوليو لعدم فهمه عمق الحب الذي يربطه بزوجته إيريس. فعلى الرغم من أقواله («لم أعد أشعر بشيء، لقد أنهكتني الحياة لدرجة لم يعد يهمنيَ معها شيء»). لاتزال حياة رامون تتضمن عبئاً عاطفياً أساسياً: إذ يحب امرأته، ويهتم بابنه. غير أن حبه المطلق لزوجته، الذي سيعبر عنه عدة مرات خلال الحديث، لا يتناسب -وفقاً لثقافة الشارع- مع السلوك المنتظر من رجل. والأخطر من هذا معرفة الجميع أن إيريس، زوجة رامون، كانت لها علاقات مع نساء أخريات في بيت الإيواء. ولم يشر رامون إلا تلميحاً إلى الصدمة التي شعر بها عندما فوجئت زوجته مع امرأة أخرى في حمامات بيت الإيواء («هناك الكثير من السحاقيات، والكثير من البغايا. وقد فاجأت بعضهن يرتكبن الفاحشة في الحمام»). ومع ذلك فهو يحب زوجته لدرجة يميل معها إلى تفسير سلوكها الجنسي بالظروف الموضوعية للحياة التي يعيشها من هم دون مأوى في نيويورك. ولم يسع قط إلى التقليل من مسؤوليته أو خطئه، إذ لم يتكلم بصراحة في الواقع إلا عن خيانته الجنسية.

أما جوليو، فهو على عكس رامون؛ لا يتساهل مع أية مخالفة للنظام الأبوي التقليدي. ويزعم بأن إيريس («ترتكب الفاحشة من أجل بضعة دولارات») بعد أن صارت «مدمنة على الكراك، وتتنشق الهيروين». ولذا أخذ في تحريض رامون منذ أشهر على أن يوقف سخرية امرأته منه ويؤدبها ويهجرها. وأصبح جوليو أكثر عدائية لإيريس، بعد الحديث بأسابيع، عندما أدخل رامون السجن ليمضي عقوبة سنة أو اثنتين؛ لأن القاضي لم يمنحه في الواقع وقفاً للتنفيذ، بل أطلق سراحه قبل النطق بالحكم، لأن سجون بلدية نيويورك كانت مكتظة كلها. لقد ذهلنا جميعاً لسجن رامون، إلا أن رامون هو الذي أصيب بالصدمة، كإيريس وابنهما ذي السنتين والنصف.

وعندما أطلق سراح رامون، عن دون انتظار، بعد أربعة أشهر؛ بسبب اكتظاظ السجون أيضاً، سكن في الشقة المدعومة التي تقيم فيها زوجته مع ابنه الآن، ووجد فوراً عملاً بدوام كامل -عملاً مشروعاً في الظاهر على الأقل- في منشأة هدم تتبع نقابة، بأجر مجزٍ وفقاً لمعايير الشارع، أي عشرة

دولارات للساعة. وبدأ رامون في تحقيق حلمه الذي تحدث عنه، أثناء لقائنا منذ عام: «أنا أحب ربح المال والعودة إلى بيتي لأرتاح وأبقى مع عائلتي». لكن جوليو حاول إقناعي، على انفراد، بأن إيمان رامون بالخلية الأسرية، ليس إلا برهاناً على ميوله للامعقول ومزاجه الضعيف: «إن رامون من هذا النوع من الزنوج ذوي القلوب الضعيفة. يقع في الحب فريسة سهلة، ولا أدري ما مشكلته».

غير أن عمل رامون المشروع ظاهرياً لم يدم للأسف أكثر من ستة شهور. حل بعدها كساد 1991 ليعصف بسوق البناء في نيويورك. ولم يكتشف إلا عند تسريحه، أنه كان مستخدماً بصورة «غير شرعية». إذ أن النقابة لم تكن سجلت عقد عمله، وأعلمته بأن لا حق له في المطالبة بتعويض عن تسريحه. وكان رب العمل في الواقع مقاولاً من الباطن يعمل، من خلال عمليات تخويف، مع نقابات البناء التي تهيمن عليها المافيا. ولذلك يشغل أصحاب السوابق من السود أو ذوي الأصل الإسبانيك لكي يصطنعوا مظاهرات عنيفة أمام مسكن شعبية، تجري فيها أشغال للتجديد وتستخدم عمالاً بيضاً بعقود سخية، للعمل من الباطن في هدم البنايات، بالأسعار النقابية. فيدفع بدوره لعماله نقداً، أجوراً بتسعيرة تزيد قليلاً عن نصف التسعيرة الرسمية المتمثلة في 18 دولاراً للساعة، التي تجري مراعاتها في نيويورك. ثم يقدم وثائق زائفة لتبرير المصروفات؛ ويتيح له هذا الاحتفاظ بثمانية دولارات لكل ساعة يعملها العامل، مدة الأشغال كلها. ولم يكن رامون ولا أي واحد منا في كراك هاوس يظن لحظة أن الأجر النقابي الرسمي في الهدم يمكن أن يكون على هذا الارتفاع.

وهكذا كان رامون يجهل ما يخبئه القدر، عندما دعانا بروح المنتصر، ليلة إجراء الحديث للاحتفال بعيد ميلاد جوليو، باحتساء الجعة وتنشق الكاوكائين.

مع مروّج بورتوريكي للمخدرات في هارلم

حديث مع فيليب بورجوا

«أريد أن أعيش، وليس مجرد البقاء على قيد الحياة»

رامون: أنت لم تعش قط ما عشته؛ فلم تجد نفسك قط في الشارع، ولا تعرف ما يعني عدم وجود المأوى. تقول دائماً إنك قمت بتضحيات، لكنك لم تضح بنفسك. أما أنا فقد فعلت!

إذ بقيت هكذا دون سقف يظلني تسعة أشهر (ثم ملتفتاً إلي وملقياً نظرة خفية إلى آلة التسجيل) نعم لقد ضحيت بنفسي عندما اشتغلت ساعياً في وال ستريت بمائة وخمسة وأربعين دولاراً في الأسبوع، وهو ما لم يكن كافياً، لأنه لم يكن يسمح لي فقط إلا بإطعام عائلتي، وشراء حذاء لابني، ولا شيء لي ولزوجتي. ولهذا أردت بيع المخدرات، لكي أشتري أشياء أخرى لابني. إنه لا يتجاوز السنتين، ويحب التسلية باللُّعب. لكن ليس لديه لُعب، لأنه يعيش في بيت للإيواء مع زوجتي. تفهم إذن أنني أردت كسب المال لابتياع سيارة جديدة -أنا بحاجة إليها- وحلية صغيرة لي من وقت لآخر. هذا ما أريده، كل ما كنت أريده.

لا أريد مجرد البقاء على قيد الحياة، بل أريد أن أعيش، لكن هذا (يشير بحركة من ذراعه إلى بنايات الحي الشعبي وإلى الزجاج المحطم المنثور في كل مكان حولنا، ثم يدخل أظفر خنصره في كومة الكوكائين الصغيرة الملفوفة في ورقة من فئة الدولار، الموضوعة على ركبة جوليو،

ويتنشق ببطء، قبل أن يأخذ جرعة من قنينة الجعة الكبيرة التي كنا نتقاسمها).. إنه مجرد بقاء على قيد الحياة، مع راتب لا يكاد يكفي. (يحتسي من الجعة بسرعة ثم يناولني القنينة). لا أريد هذا. بل أريد أن أكسب كفاية من المال، لكي أرتاح وأستطيع الشراء دون تردد.. أتفهم؟ وأكون مسروراً وأنا أعرف أن بوسعي فعل ما أشاء بمالي. أريد أن أنتزع من الحياة أكثر، ولا أقنع بما عندي. إن هذا يجعلني أفقد الثقة، ولهذا فكرت في بيع المخدرات، كما تعلم.

(..)

(التصق بي حتى يتكلم بصوت خفيض غير أنه واضح في ميكروفون آلة التسجيل الذي حملته قريباً من فمه لألتقط كلامه) كنا نسكن عند أمي مع إخوتي وأخواتي، إلا أنهم مدمنون على الكراك، ولا يودون فعل شيء للتخلص منه. فتركت أمي كل شيء فجأة، لتعيش حياتها. مثلما فعلت أنا أيضاً وفعل إخوتي وأخواتي. تركت لي أمي الشقة، في الوقت الذي لم يكن معي فيه ما يكفي من المال (..) والكراء مبلغ كبير علي دفعه. وهكذا بدأت ببيع الكراك والمخدرات في المحطة فقط للتوصل إلى دفع كراء الشقة التي تركتها أمي لي (..) أترى، يا رجل، ما أعني بكسب عيشي، والحياة الأفضل.. أتفهم؟

«حياتك تافهة هناك في مركز الإيواء»

كنت أبيع الكراك وحيداً، لكن الأمر كان شاقاً، وليس على ما يرام. ولذا قررتُ أن أعمل لحساب شخص، فأخفقتُ، إذ قُبض علي للمرة الأولى في اليوم نفسه الذي بدأت فيه العمل لحساب ذاك الشخص. وقد حصلتُ لتوي على عمل الساعي في وال ستريت، ومازلت أحتفظ بهذا العمل. ذهبت إلى السجن، لكنهم أطلقوا سراحي فوراً، فاستأنفتُ عملي. غير أن صاحب الشقة قال: «سأطردكم خارجاً»، وحاولتْ زوجتي الاحتفاظ بالشقة، ولكن بعد فوات الأوان. وجاء الشتاء فحططتُ رحالي في بيت الإيواء مع أسرتي، حيث بقيت خمسة أشهر كنت خلالها تعيساً. لأن مركز الإيواء كالسجن. تنام فيه مع 20

شخصاً آخرين، لا تعرفهم ولم ترهم قط، ولا تعرف ما لديهم: ربما الإيدز أو أي شيء آخر. ثم إنهم لا يستحمون، فمرش الحمام مقزّز. وكان على امرأتي أن تنظف الحمام قبل أن تغتسل. إن الحياة هناك مثيرة للأعصاب إلى أقصى حد. والمركز مكان فظيع، فظيع حقاً. وكنت أفضّل أحياناً لو كنت في السجن، لأنهم لا يحترمونك هناك. فهذا المكان ليس لناس جيدين وهادئين يشتغلون، مثلي ومثلك، بل لناس الشارع المتسكعين. أما أنا فأحب كسب المال والعودة لبيتي لأرتاح وأبقى في منزلي مع أسرتي. وهذا المركز لا يمت بصلة لكل ذلك. هناك أغلبية من النساء في بيت الإيواء، يتصافعن على وجوههن كل يوم، لأنهن ساقطات حقيقيات. وفيهن سحاقيات وكثير من البغايا والسافلات وما يشبه ذلك. إنهن يرتكبن الفاحشة في قاعة الحمام وما شابه. إنه مكان تجد فيه كل ضروب التوحش، إنه غابة! إنه يؤدي للإحباط (مستنشقاً الكوكائين وهازّاً برأسه) وبينما أنت نائم، تثور المشاجرات فجأة، فتستيقظ في منتصف الليل، لأن هناك في القاعة المجاورة أناساً يحطم بعضهم بعضاً لسبب لا تعلمه. وقد تبدأ في استلطاف شخص بجانبك والتعرف عليه، وفجأة يذهب ويأتي غيره إلى جانبك. وأنت تنتظر وينتابك القلق، لأن شخصاً آخر سيأخذ السرير الذي بجانبك، ولا تعرف عنه شيئاً. أهو قاتل أم لديه الإيدز أو شيء آخر، لا تدري. وتبدأ في التفكير عندما ترى الشخص، فربما يتعاطى المخدرات أو لديه الإيدز. لابد لأشياء كهذه أن تقيم بجانبك في المركز. أجل فلابد أن يكون أحد القتلة أو المغتصبين أو اللواطيين أو متعاطي المخدرات أو غيرهم، هكذا بجانبك. إذ لابد أن يكونوا على هذه الشاكلة. وإذن تكون حياتك شقاء في مثل هذا المركز. وهذا ما أخرجنا عن عقلنا، أنا وزوجتي.

«كان بوسعي أن اقتل أياً كان»

ولم يكن بإمكانك أن تعاشر زوجتك، لأنهم جميعاً هناك ينظرون إليك (مشيراً إلى الصغير باكو في عربته، وهو يصغي باهتمام) كما أن لزوجتي.. حاجات. وأنا أيضاً أعاني من ذلك، وليس لدي مال للذهاب للفندق أو غيره، فما العمل إذن؟ وكان لابد من فعل شيء، فقررت بيع المخدر من جديد. وكان

ذلك هدفي من بيع المخدر «سأبيع المخدر، وأفعل أي شيء حتى تكون حياة زوجتي وابني أفضل. حتى لو اضطرني ذلك لقتل شخص ما. سأصير قاتلاً مأجوراً، وأفعل أي شيء لكسب المال والبقاء على قيد الحياة». هذا ما كنت أفكر فيه. وقد كانت هذه العشرة أشهر المشؤومة مع زوجتي وابني في بيت الإيواء صعبة وقاسية حقاً. كان بوسعي قتل أي كان ممن يبيعون كثيراً من المخدر ويكسبون المال ويبتاعون السيارات والحلي.. كنت أود تحطيم رؤوسهم، فقط لأنني لم يكن لدي الشيء ذاته. وكان ذلك من الأنانية. أجل، لقد كنت أنانياً، وأشعر بالتفاهة لوجودي في هذا البيت الدنيء. وبالتالي كنت أنظر إلى أولاد الساقطات هؤلاء، وهم ينعمون بالحلي والسيارات وكل ذلك، بينما أنا مفلس أرمقهم (..) لكنني عوضاً عن ذلك، استأنفت عملي مع المخدرات. ومرة أخرى أخذتُ ببيع المخدرات ولم أتوقف منذئذ كما تعرف.

(..)

وما حصل هو أنني لم أعد أطيق البقاء في المركز، فقد كان قاسياً. وعانينا لخمسة أشهر، وبدأت أتصايح مع زوجتي، لأنه قد فاض بي الكيل. احتملت خمسة أشهر ثم قلت: إنني أُفضّل الرصيف على البقاء في هذا المكان! تعاركت مع زوجتي بشدة خارج المركز حتى كدت أخنقها.. وغادرت. ادركت أنني ما عدت قادراً على العيش معها، لأنني كدت أقتلها. إنني أحبها وأحب ابني، لكن كان علي أن أغادر المركز، ولم أعُد إليه قط. وبقيت أسبوعاً في الشارع حتى قلت لنفسي: «سأبيع المخدرات» وهذا ما فعلته. فعندما استرددتُ بعض المال من الضرائب التي دفعتها، استثمرته في المخدرات وبدأت أبيعها، لقد أنفقت كل المال في شراء المخدر، 400 دولار وزيادة. وبقيت في الخارج أبيع المخدر وحيداً لأربعة أشهر. وبدأتْ الأمور تتحسن في النهاية عندما استلمت راتبي كساعٍ. لكن ذلك لم يكن سهلاً، بل كانت فترة عصيبة، انتهت بشجار مع جماعة الحي -مع الشخص الذي يريد قتلي الآن (يرفع الجعبة الرياضية قليلاً مع ماسورة بندقيته الصغيرة، ثم يضمها إلى صدره قبل أن يحتسي عدة جرعات من القنينة)..

«كان علي البقاء على قيد الحياة»

رامون: (مواجهاً جوليو، مرة أخرى، كأنما يريد أن يبين أنه إذا كان مروّجاً فذلك لأسباب مختلفة عن أسباب جوليو). لكن، كان علي البقاء على قيد الحياة. فقد كنت أعيش.. في الشارع عملياً. وتركت زوجتي وابني في بيت الإيواء، بينما كنت أعيش في نقطة بيع الكوك(ملتفتاً إلي) نقطة بيع الكوك هي مكان يباع فيه الكوك بكثرة، حيث يموّن المستهلك داخل شقة. وقد عرّضت نفسي لمخاطرة بذهابي للسكن هناك، لأن الشرطة بإمكانها مداهمة الشقة ووضعي في السجن عن طريق الخطأ، لغلطة لم أرتكبها؛ فما كنت أسعى إلا إلى مكان يؤويني. ورتبت أموري مع حارس البناية. وهكذا أخذ يزعم بأن الشقة مغلقة، في الوقت الذي فتحها فيه، وتركني أقيم فيها لأنني شخص جيد، وكنت أعطيه 40 دولاراً في الأسبوع، فاستطعت البقاء شهرين إضافيين. أضعت في البداية كثيراً من المال بسبب امرأة سلّمتها الكثير من المخدر لتبيعه، لكنها استهلكته مع أصدقائها. وأمضيت سبعة أيام لاستعادة المال، لأنها ردّت لي المال بالتنقيط. قلت لها: «الأفضل لك أن تردّي لي مالي وإلا ستحصل لكِ أشياء» -كانت تعلم بأنني سأؤدبها- فأخذت بدفع 10، 15 دولار يومياً حتى ردّت لي الـ 120 دولاراً التي كانت تدين بها لي في النهاية (..) وسلمتُ لأخي بضاعة، لكنه خدعني هو الآخر، فبقيتُ خالي الوفاض. وكان لدي سوار، فرهنته لقاء 185 دولاراً، وبدأت من الصفر عندئذ.

«لا وجود لي بالنسبة للإعانة الاجتماعية»

لقد شقيت، عملت عاماً ساعياً، ولم أتغيب يوماً واحداً. وأنا غداً في عطلة لأخذ ابني، عمر ابني سنتان ونصف، مثل باكو بالضبط (يشير إلى ابن كارمن الصغير الذي بسبب تقييده في العربة، توقف عن الحركة ليصغي باهتمام، معجباً بأضواء آلة التسجيل البراقة) ويذهب إلى الحضانة. ولذا سأذهب لأخذه منها غداً بعد الظهر. إنها عطلة غير مدفوعة الأجر، فليس لي أية امتيازات اجتماعية في عملي ما عدا الراتب. أما زوجتي فهي مسجلة في مركز الإعانة الاجتماعية ولديها المعونة الطبية Medicaid (المعونة الطبية هي

نظام طبي، أقر في السبعينيات لمعونة الفقراء والمعوزين) التي لا تعطى إلا لطفل واحد هو ابني. إذ يحصلان على 144 دولاراً كل 15 يوماً، ويعطيان 129 دولاراً شهرياً في مركز البطاقات التموينية. ولكن ذلك ليس كافياً للمعيشة، ولذا عليك العمل حتماً. ولهذا نتظاهر بأننا لسنا متزوجين، فلا وجود لي بالنسبة للإعانة الاجتماعية وإلا يمنعون عنها منحة المعونة الطبية. لكننا عندما فقدنا شقة أمي، وجب علي تقديم المسوغات للإعانة الاجتماعية حتى نذهب لبيت الإيواء. فبدأت المعونة الاجتماعية منذ تلك اللحظة بتخفيض المنحة التي كانت تعطى لزوجتي، معلّلين ذلك بقولهم: «أنتم تعيشون في بيت للإيواء، وتقدَّم لكم ثلاث وجبات يومياً في مركز الاستقبال، وإذن ستُخصم من بطاقاتكم التموينية» ومنذ ذلك الوقت، لا تستلم إلا 85 دولاراً كل خمسة عشر يوماً، بدلاً من 144 من المعونة الاجتماعية، بالإضافة إلى 75 دولاراً فقط على شكل بطاقات تموينية، لأنها تتغذى مع الطفل مجاناً في بيت الإيواء. وقد طفَّ بها الكيل، لأنها لا تستطيع عمل شيء بهذا المبلغ. فلا تستطيع شراء إلا الطعام، لكن ما تشتريه من طعام ينفذ بسرعة، وليس الطعام كذلك الذي تعودنا عليه في المنزل (يتنشق الكوكائين ويشرب) كانت الشقة إشارة بأن علي التوقف عن بيع الكراك

◆ لكنك كنت تقول، يا رامون، بأن من الممكن أن تحصل زوجتك على شقة، أليس كذلك؟

رامون: ساعدها مركز المعونة الاجتماعية في الحصول على شقة، لأنها امرأة معوزة. فقد قضت تسعة أشهر مع ابني في بيت الإيواء. ولهذا حصلتْ على الشقة. ولا تدفع المعونة الاجتماعية إلا 50 دولاراً شهرياً، أتفهم قصدي؟ وتُخصم مباشرة من منحها. وليس علي أن أدفع شيئاً لأنهم لا يعرفون عني شيئاً، مع أنني أعمل ساعياً في وال ستريت. ولهذا يمثل راتبي الآن شيئاً ذا قيمة. إنه 145 دولاراً صافية. فلن يحسموا منه شيئاً للتعويضات العائلية. ولعل هذا سيجعل حياتنا أكثر يسراً، فسأقتصد وأشتري ما أشاء. وبما أن زوجتي حصلت على الشقة الآن، أظن الأمور ستسير على ما يرام. إنني أستطيع الراحة الآن، وتقرير ما أريد عمله. وهذا

ما لاحظته زوجتي لأنها تعرفني. نعم، أشعر بالتحسن، وبدأتُ بالشفاء. فعندما حصلتْ على الشقة، شعرتُ بأن هذا علامة بأن علي التوقف عن بيع الكراك. إذ كانت لدي مشكلات كما تعلم: (يشير إلى جعبته الرياضية عند قدميه، حيث يوجد المسدس) مع البائع الآخر، الذي يريد قتلي!

أما الآن وقد حصلتْ زوجتي على الشقة. فعلي الابتعاد عن الشارع والانقطاع عنه (ملوحاً بيده في اتجاه الكراك هاوس، في الجانب الآخر من الشارع). وكأنما يقال لي: «لديك الآن مكان، لا تدفع فيه سوى 50 دولاراً شهرياً، ولست بحاجة إلى شيء آخر، فاذهب إلى العمل وعد إلى المنزل واهتم بأطفالك.

(يفتح جوليو عينيه واسعتين، عند سماعه قرار رامون الجديد، ويقدّم بشيء من المناكدة الكوكائين ويتنشق رامون الكوكائين، مستأنفاً حديثه وهو مستغرق في التفكير). لا أدري، فربما أعود للبيع، ولكن في مكان أكثر أماناً. لا أدري (بعدما شرب القطرات الأخيرة من قنينتنا الكبيرة، قذفها جاعلاً مسارها على شكل قوس كبير، قبل أن تتحطم بصوت عالٍ على الإسفلت، باعثة البهجة في نفس باكو. وبالطريقة نفسها تقريباً وضع في يد جوليو دولارين، مشيراً له بالذهاب لشراء قنينة أخرى من البقالة الكبيرة). لأنني اتمنى فقط أن تحصل على الشقة حقاً. لدينا العقد وكل ما يلزم. لكن المالك لايزال يضايقها قبل أن يترك لها الشقة. وقد دفعتْ عربوناً، منذ يومين وسيأتون غداً للتحقق من حالة الشقة. وأعلَم غداً إذن إذا ما كنت ساحصل عليها أم لا. (مشدّداً قبضته في قلق). إنها الفرحة إذا حصلتُ عليها! وإلا سيكون علي الانتظار شهراً أو شهرين للحصول على شقة أخرى. والمشكلة هي في أنني لا أستطيع البقاء طويلاً حيث أعيش الآن، نعم، إنني أسكن الآن عند ابن عم زوجتي، غير أنه لم يدفع الكراء وسيطرد. وأقصى وقت أستطيع البقاء فيه أسبوعان لأن ابن عمي سيطرد. إنه يعمل ولكنه يقتصد لشراء شقة في مكان آخر بمحيط أفضل، ولهذا فهو لا يعبأ إذا ما طُرد.

❖ إذا لم تسر الأمور بالنسبة للشقة، ألا تستطيع السكن مع أحد آخر من عائلتك؟

رامون: أخي وأختي، وكانا أيضاً في مركز الاستقبال؛ يعيشان الآن في بيت للإيواء من ثلاث غرف، كالذي تعيش فيه زوجتي. وأختي الكبرى، تعيش مع زوجها الآن، وقد خرج لتّوه من السجن، وتؤويهما المدينة في فندق (تؤوي مدينة نيويورك من هم بدون مأوى في فنادق عندما تكون بيوت الإيواء الاستعجالية مملوءة). وأختي الصغرى الأخرى في السجن، وكذا أخي الأصغر. ولذا فليس منا خارج السجن سواي وأخي الأكبر وأختي الكبرى. أما أمي فرحلت إلى كوينز (دائرة من دوائر نيويورك، التي تتكون من مانهاتن، برونكس، ستاتن إيسلاند وكوينز) وهي سعيدة في بيتها، وأفهمها أن كل شيء على ما يرام بالنسبة لي، فلا أريد أن أُحزنها. فإذا ذهبتُ إليها، أرتدي أحسن ما عندي وأقول لها: «لا تحملي هماً بشأني، فكل شيء على ما يرام».

«جاء وقت كان لدي فيه ما أستطيع به شراء شقة تقريباً»

جوليو: (مقاطعاً رامون، وهو يناوله قنينة الجعة الجديدة) أسرتك، لا يمكنك الاعتماد عليها، يا رجل!

رامون: (نزع غطاء القنينة، وهو غارق في التفكير، ودلق بعض القطرات منها على الرصيف. وهي حركة بورتوريكية تقليدية، للترحم على الأموات. ثم احتسى جرعة صغيرة، دون أن يحسب أن القنينة بهذه البرودة، فبصق وهو يناول القنينة لجوليو دون أن ينظر إليه). أبحث عن شقة منذ ثلاث سنوات ونصف، ولسوء حظي لم أجد شيئاً. وكان لدي منذ بعض الوقت ما أستطيع به دفع كراء شهر تأميناً. وأعطيت لشخص مرة أخرى 400 دولار، ادعى أنه سيجد لي شقة. لكنه كان محتالاً، فذهبت لأمه وهدّدتها. واستعدت مالي بعد يومين أو ثلاثة، ليس منه بل من أخيه، ولو كان في متناولي لقتلته دون شك أو أرسلته للمستشفى. لكنني لم أسمع عنه شيئاً.

◆ هل تعلم يا رامون أن ما سجلته رائع. أعتقد أنني سأستخدمه في كتابي. لكنني منهك الآن؛ إذ لم أتنشق مثلكم، وعلي مرافقة ابني إلى المدرسة صباح الغد. ولذا سأنسحب.

رامون: (غير قادر على الكلام، لأن فمه مليء بالجمعة الباردة. لكنه يشير إلي بترك آلة التسجيل دائرة. وبنفس الحركة من يده تقريباً، يغمس إصبعه في كومة الكوكائين الصغيرة، ويتنشق بلطف).

إن نشأتي في الباريو علّمتني الكثير! (متنشقاً الكوكائين من جديد، ومسرعاً في إيقاع خطابه) لقد تعلمت كيف أتخلص من الخطر. لأنك عندما تكون صبياً، وترى الناس يموتون أمامك (متنشقاً من جديد) وقد انفجرت رؤوسهم، يسقطون ووجوههم إلى الأرض. هنا بالضبط (مشيراً إلى حافة الشارع القريبة من الصغير باكو الذي كان ينظر من عربته مأخوذاً) ترى جثة، وقِطع المخ متناثرة على الجدار (يشير إلى آجر البنايات الشعبية خلفنا). لقد رأيت هذا (يتنشق) وكنت في المدرسة، في الثانوية. في المكان الذي يقع فيه النادي بالضبط، على الجدار، هنا تماماً. رأيت المخ يتناثر هنا بالضبط (ماداً يده كأنما إعجاباً بمنظر شامل رائع).. لقد رأيت ناساً يقتتلون، يعتدون (يتكلم بسرعة أكبر) يعتدون هنا أمامي، ناساً يتعاركون، ويتطاعنون. (يبطىء من جديد). إن هذا ليس له أي معنى عندي الآن. فلم أعد أشعر بشيء. بوسعك أن تصوب بندقيتك إلي، ولن أقول لك سوى شيء واحد: «هيا اقتلني». فلم أعد أبالي. لم يطلق أحد النار علي إلى الآن.. هكذا عاملتني الحياة: عاملتني بقسوة، لم أعد معها مبالياً بها. من هنا، تعلمت كل شيء.. العقلية وكل شيء، من هنا.. من الباريو.

آب 1989



بيير بورديو

تخلي الدولة

إن إرادة الذهاب لمعاينة الأشياء، بصفة شخصية عن كثب جديرة تماماً بالثناء، إلا أنها تحمل أحياناً على البحث عن المبادئ التي تفسر ما يلاحظ من وقائع، في المكان الذي ليست موجودة فيه (ليست كلها على كل حال)، أي في مكان الملاحظة نفسه. وهكذا من المؤكد أن حقيقة ما يحدث في «الضواحي الصعبة» لا تكمن في هذه الأماكن المنسية عادة، والتي تبرز إلى صدارة الأخبار، في فترات متباعدة[1]. فإن موضوع التحليل الحقيقي، الذي ينبغي بناؤه ضد المظاهر، وضد أولئك الذين يصادقون عليها، هو البناء الاجتماعي (أو السياسي بصفة أدق) المعروض على الحدوس والتمثلات، وخاصة منها الصحفية والبيروقراطية والسياسية لهذا الواقع، التي تسهم في إحداث تأثيرات واقعية فعلاً في العالم السياسي، حيث تصنع بنية النقاش منذ البداية، وحتى ضمن العالَم العلمي.

نبذ الدولة والليبرالية :

إن كنا أفردنا هنا مكاناً واسعاً للتحليل النقدي للتمثلات، فليس مرد

[1] يتجسد التقسيم بين التخصصات من انثولوجيا وعلم اجتماع وتاريخ واقتصاد، من خلال تقطيع غير ملائم لموضوعات الدراسة، إذ إن هناك تعارضاً مثلاً بين البحوث الأحادية الموضوع، المحصورة فيما هو كلي، وبالتالي غير قادرة على تبين الآليات التي تسجل تأثيراتها، وبين التحليلات الطموحة الأكثر شمولاً، ولكنها تميل للاختيار، بصفة اعتباطية إلى حد ما، من الوقائع المعقدة من أجل بناء نماذج «مصنوعة بأسلوب شخصي».

ذلك لمجرد الاستمتاع بلذة الجدال. إذ إن هذه البناءات الجماعية تشكل جزءاً من الواقع، الذي علينا أن نفهمه، وهي مسؤولة عن جزء كبير منه. وتلك هي حالة الرؤية الليبرالية الجديدة التي أوحت بالإجراءات السياسية التي اتخذت في سنوات السبعينيات، بشأن التمويل العام للإسكان، والتي أسهمت في خلق التقسيم الاجتماعي الذي تجسد في أكثر الأحيان في المكان بمجرد شارع بسيط بين ملاك المنازل الصغيرة، وسكان المجمعات الكبرى، كما في سان - فلورانتان. ولكن من تذكر، عندما حدثت «فتن فولكسان فيلان» أو «حادثة الاغتيال في سان فلورانتان» واحتلت صدارة الجرائد المصورة وصفحات الصحافة الأولى، الكتاب الأبيض للسكن المعتدل الكراء (HLM)، ولجنتي بار ونورا - إيفينو، وكل المناقشات حول (المعونة في البناء) و(المعونة الشخصية)، التي هزت الأوساط الحاكمة قبل 15 سنة، تحت رئاسة جيسكار ديستان، وسكرتير الدولة للإسكان، جاك بارو؟ إن البيروقراطيات ضعيفة الذاكرة؛ إذ محا النسيان أسماء كل أولئك الذين أسهموا في الإعداد الجماعي لبعض القرارات الأكثر حسماً فيما بعد الحرب[1].

وهل يمكن أن ننتظر من صحفيين يسهبون بحذلقة في افتتاحياتهم عن «الحجاب الإسلامي»، أو عن «الأحداث» التي طرأت في هذا الحي أو ذاك من الضواحي الباريسية أو الليونية، أن يتساءلوا حقاً عن إسهام الصحافة في إنتاج «الأحداث» التي يعتقدون بأنهم يسجلونها ويحللونها؟

إن التعارض بين الليبرالية وسيطرة الدولة، الذي طالما شغل الكتاب، لا يصمد لحظة واحدة أمام الملاحظة. إذ يتم التثبت مثلاً من أن الدولة تسهم بطريقة حاسمة بإحداث السوق العقارية، لاسيما عبر الرقابة التي تمارسها على سوق الأراضي، وعبر شكل المعونة التي تقدمها لشراء المساكن أو اكترائها. كما أنها تسهم بالوقت نفسه في تحديد التوزيع الاجتماعي للمكان أو بالأحرى، توزيع مختلف الفئات الاجتماعية في المكان (الذي تؤثر عليه من خلال رقابتها على سوق العمل والسوق المدرسي). وانسحاب الدولة

[1] نجد كل هذه الأسماء، بالإضافة إلى تحليل لإنتاج سياسة الإسكان على الخصوص في العدد 81 - 82 من أعمال البحث في العلوم الاجتماعية، الذي نشر في آذار 1990، والمخصص لـ «الاقتصاد المنزلي».

وتضاؤل المعونة العامة للبناء، الذي تأكد خلال أعوام السبعينيات، باستبدال وانسحاب الدولة بالمعونة للشخص، هو الذي كان المسؤول الجوهري عن ظهور أماكن النفي، حيث يتركز السكان الأكثر فقراً، تحت تأثير الأزمة الاقتصادية والبطالة.

فمن المستحيل إذن فهم الأشياء في ميدان الإسكان، مثل العديد من الميادين الأخرى، دون الأخذ بالحسبان للتحول الجماعي إلى النظرة الليبرالية الجديدة الذي بدأ في السبعينيات، واكتمل وسط الثمانينيات بانضمام الحكام الاشتراكيين إليه. فلم يقتصر هذا التغيير على التحولات في المزاج الإيديولوجي، التي يعلنها «الفلاسفة» الإعلاميون، كأنها «عودة للذات» أو «موت لفكر 68»، بل صاحبه تقويض لفكرة الخدمة العامة، أسهم فيه أسياد الفكر الجدد بسلسلة من الكتابات المزورة والمعادلات الفاسدة المؤسَّسة على منطق العدوى السحرية، والخلط المهاجم الذي لجأ إليه خصومهم الماركسيون في الماضي غالباً: فهم بجعلهم الليبرالية الاقتصادية شرطاً ضرورياً وكافياً للحرية السياسية، ساووا بين تدخل الدولة و«الحكم الشمولي». وبتوحيدهم النظام السوفييتي بالاشتراكية، سلموا بأن الكفاح ضد أشكال اللامساواة التي يعتبرون أن لا مفر منها، غير ذي جدوى، (مع اتهامهم لهذا الكفاح بأنه مثبط لهمّة الأصلح) ولا يمكن أن يقوم إلا على حساب الحرية. وبربطهم الفاعلية والحداثة بالمبادرة الخاصة، أرادوا إحلال العلاقة مع الزبون، بافتراضها أكثر مساواة وأكثر فاعلية، محل العلاقة بالمرتفق (صاحب حق الاستعمال)، وطابقوا بين «التحديث» وتحويل الخدمات العامة الأكثر ربحاً إلى القطاع الخاص، وتصفية أو إخضاع العاملين المرؤوسين في المصالح العمومية، باعتبارهم المسؤولين عن عدم الفاعلية بكل أشكالها، وعن «الجمود» بجميع صوره.

يد الدولة اليمنى، ويدها اليسرى

حسبنا أن نقف على هذه السمة الأخيرة، لنرى أن كل هذه الكومة من الأفكار المبتذلة، المعدة في لقاءات هُيئت خصيصاً لتشجيع المبادلات بين

«مفكرين» متشوقين للسلطة، وذوي سلطة متشوقين للفكر (مجلات، نوادي، ملتقيات)، والتي ترددها الجرائد والأسبوعيات دون ملل ولا كلل، تعبر بصورة مباشرة جداً عن نظرة ومصالح طبقة نبلاء الدولة العظيمة، المتخرجة من المدرسة العليا للإدارة ENA، والمكونة وفقاً لتعاليم كلية العلوم السياسية[1] PO. فإنهم هؤلاء الموظفون الكبار بنهمهم للمكافآت، واستعدادهم الدائم لملازمة مكاتبهم، وسأمهم من التبشير بروح «الخدمة العامة» (للآخرين) كما في الستينيات، أو بتمجيدهم الولع بالمبادرة الخاصة، ولاسيما بعد الثمانينيات، هم الذين يدّعون إدارة المصالح العامة كمنشآت خاصة، مع بقائهم بمنجى من الضغوط والمجازفات المالية والشخصية الملازمة للمؤسسات التي يحاكون ممارساتها (السيئة) فيما يتعلق بشؤون العاملين خصوصاً. وهم الذين يحملون -باسم مقتضيات العصرنة- على المنفذين من العاملين. وهم «المحظوظون» في الملاك العمومي، المحميون من المجازفات ومن المبادرة الحرة بقوانين صلبة ومتشنجة للدفاع عن مكتسباتهم المهنية الاجتماعية. وهم أيضاً الذين يتبجحون بمزايا المرونة في العمل، عندما لا يوصون بتخفيض أعداد العمال تدريجياً باسم الإنتاجية.

وإذن، فمن المفهوم أن يشعر الموظفون الصغار، ولاسيما أولئك المكلفون بالمهام المسماة «اجتماعية» والمقصود بها تلافي التأثيرات والنواقص الأكثر قسوة، دون أن تتاح لهم الوسائل الضرورية لذلك، كرجال الشرطة والقضاة المرؤوسين، والمساعدين الاجتماعيين، والمربين، وحتى المعلمين والأساتذة، بأن السلطات تتخلى عنهم، إن لم تتبرأ منهم، فيما يقومون به من عمل لمواجهة البؤس المادي والمعنوي الذي هو العاقبة الوحيدة للسياسة الواقعية المتبناة شرعاً. وهم يعانون من تناقض دولة، ما عادت يدها اليمنى تعرف أو تريد أن تعرف، وهو أسوأ، ما تفعله يدها اليسرى على صورة «ضغوط مزدوجة» مؤلمة أكثر فأكثر. إذ كيف لا نرى مثلاً أن

---

[1] يمكن التحقق من أن التحليل الذي تم لهذا الموضوع وظروف إعادة إنتاجه، قبل انتصار الاشتراكيين بكثير، يبقى صحيحاً تماماً، على الرغم من التعديل الظاهري الذي أدخله عليه خريجو المدرسة العليا للإدارة من الاشتراكيين.

الحماس للمردود والإنتاجية وروح التنافس أو للربح ببساطة أكثر، يؤدي إلى تقويض الأسس التي تقوم عليها الوظائف، التي لا تتم إلا ببعض التجرد المهني عن الغرض، المرتبط في كثير من الأحيان بتفانٍ نضالي[1]؟

وبصفة أكثر عمقاً، فإن التعريف نفسه لوظائف هذه «البيروقراطية القاعدية» (بيروقراطية التماس مع الناس) قد تم تحويره بعمق، عن طريق إحلال المعونة المباشرة للشخص في ميدان الإسكان، وأيضاً بإحلال الدخل الأدنى مثلاً محل الأشكال السابقة للمعونة في الخدمة. وهو ما أدى إلى نتائج مختلفة تماماً. إذ إن المعونة المباشرة، بتطابقها التام مع النظرة الليبرالية «تختزل التضامن إلى مجرد تعويضات مالية». وتهدف فقط إلى إتاحة الاستهلاك (أو التحريض على المزيد من الاستهلاك) دون السعي إلى توجيه الاستهلاك أو هيكلته. وهكذا يتم الانتقال من سياسة الدولة التي تستهدف التأثير على بنيات التوزيع نفسها، إلى سياسة تستهدف مجرد تصحيح آثار التوزيع غير المتكافىء لرأس المال الاقتصادي والثقافي. أي يتم الانتقال، بعبارة أخرى، إلى صدقة الدولة المخصصة لـ«الفقراء المستحقين» كما كان الأمر في الزمن الغابر للإحسان الديني. وبهذا تسهم الأشكال الجديدة التي يتخذها عمل الدولة، مع ضعف النشاط النقابي والقوى المحفزة، إلى تحويل الشعب (بالقوة)[*] إلى جماعات متنافرة من الفقراء المفتتين المبعدين كما يدعوهم الخطاب الرسمي، الذي يُستَحضَر خصوصاً (إن لم يكن حصراً) عندما «يسببون مشكلات» أو لتذكير «المحظوظين» بالامتياز المتمثل في حيازتهم على وظيفة دائمة.

مدرسة المعدمين (Sous Proletairés)

لا مناص من هذا التعرض للدولة ولقراءاتها السياسية، لفهم ما

---

[1] لوحظ أن العاملين الذين يدخلون الخدمة العامة، ولا سيما أولئك الذين يوجدون على تماس مع الناس، لديهم غالباً نوع من التفاني في سبيل وظائفهم، ويعتبرونها نافعة اجتماعياً.

[*] المقصود بـ (القوة) هنا، المعنى الأرسطي للكلمة، أي الوجود بالقوة، في مقابل الوجود بالفعل. - المترجم - .

يلاحظ هذه الأيام «في الميدان»، أي الوضع الحرج الذي يجد «العاملون الاجتماعيون» أنفسهم فيه. وهم الذين توكل لهم الدولة (أو البلديات) مهمة ضمان الخدمات الأساسية العامة، كالتربية والصحة خصوصاً، للسكان الأكثر فقراً في الأحياء أو الضواحي التي تهجرها الدولة أكثر فأكثر. فتستغرق تناقضات الدولة هؤلاء الموظفين، بصورة يعانون فيها هذه التناقضات في قرارة نفوسهم كمآسٍ شخصية غالباً؛ إذ هناك التناقض بين المهام المفرطة التي توكل إليهم، ولاسيما في ميدان التشغيل والإسكان، وبين الوسائل الموضوعة بتصرفهم التي تكاد تكون تافهة دائماً. ثم هناك التناقضات الأكثر مأساوية والتي يؤدي إليها جزء من عملهم، كتلك التي تنتج عن الآمال وخيباتها التي تثيرها المؤسسة المدرسية.

إذ كيف يتسنى لهؤلاء الذين هم على تماس يومي مع الناس الأكثر فقراً، اقتصادياً وثقافياً، أن يجهلوا أو يتجاهلوا كون العديد من المشكلات التي تواجهها العائلات عبر أطفالها، ويواجهها هؤلاء الأطفال أنفسهم، مرتبطة بصورة مباشرة أو غير مباشرة بعمل المدرسة؟ ومن هنا فليس علينا أن نبحث في مكان آخر عن المبدأ الحقيقي لخصوصية هؤلاء «الشباب» الذين يوصفون غالباً بأسلوب ما يعجز اللسان عن وصفه، وما لم يُرَ قط. وهو أسلوب يعادل من الوجهة العلمية أسلوب الصحافة البليغ في الإثارة. فلدى هؤلاء المراهقين في سلوكياتهم، ولاسيما في علاقاتهم بالمستقبل، كل السمات التي تميز المعدمين. لكن هذه السمات متأثرة بصفة عميقة ومستديمة بتأثيرات بقائهم الطويل في المدرسة.

تتفق كل التشخيصات، دون شك، على ما هو في قلب تجربة هؤلاء المراهقين؛ إنه شعورهم بأنهم مكبلون، بنقص المال ووسائل المواصلات، إلى مكان مذل («متعفن») مصيره إلى التردي، يرمي بثقله كلعنة حلت عليهم، أو ببساطة، كوصمة تمنع الوصول إلى العمل والتسلية والبضائع الاستهلاكية، إلخ. ثم شعورهم الأكثر عمقاً بتجربة الإخفاق المتكررة التي لا ترحم، في المدرسة أولاً ثم في سوق العمل، والتي تمنع أو تثبط كل تطلع معقول للمستقبل. بيد أنه لا يظهر أن أصل هذه التجربة الزمنية، التي تميز

المعدمين الذين لعدم قدرتهم على السيطرة على الحاضر؛ صائرون إلى الاستقالة أمام المستقبل أو التقلب في تطلعاتهم، يكمن في ظروف معيشة تتصف بغموض تام فيما يتصل بالمستقبل، وتنافر داخلي في التطلعات التي تفتح المدرسة المجال أمامها، وتغلقه في الوقت نفسه.

إن هؤلاء الشباب الذين يحكم انعدام رأس المال الثقافي عليهم بإخفاق مدرسي شبه محقق، وُضعوا حتى سن متقدمة نسبياً، في ظروف من شأنها رفع سوية تطلعاتهم، على الرغم من كل شيء. إذ إن المدرسة، بإبعادهم مؤقتاً عن النشاطات الإنتاجية وقطعهم عن عالم الشغل، تفصم الدورة «الطبيعية» لإعادة إنتاج العمالة، التي تقوم على الملاءمة المسبقة للمواقع المرؤوسة. وتميل بهم إلى رفض العمل اليدوي، ولاسيما في المصنع، ورفض وضع العامل. وبهذا تدفعهم إلى رفض المستقبل الوحيد الذي يمكن أن يتاح لهم، دون أن تضمن لهم المستقبل الذي تبدو أنها تعدهم به، وتعلّمهم أن يتخلوا عنه نهائياً بتأثير قراراتها المصيرية. ويظهر وقع هذه الآليات بصورة خاصة على المراهقين ذوي الأصل الأجنبي، ولاسيما المغاربيين الذين تضاف إلى صعوباتهم الخاصة في السوق المدرسية، صعوبات أخرى في سوق العمل، تنجم عن رأسمالهم الرمزي السلبي، الذي يؤثر كوصمة، كالاسم الشخصي واللكنة ثم مكان الإقامة، من الآن فصاعداً.

إن هذه العوامل البنيوية التي تشكل العلاقة مع الزمان أو بالتالي العلاقة مع الشغل، تفسر تآلف هؤلاء الشباب باستعداداتهم المتقلبة مع الوظائف المؤقتة. غير أنه من المستحيل تقديم حساب تام عن استعدادات وممارسات هؤلاء المراهقين، ولاسيما الأكثر «انحرافاً»، دون أن ندخل في حسابنا عوامل أخرى. وأول هذه العوامل هو اضمحلال أو إضعاف دوائر التعبئة الجماهيرية كالمنظمات السياسية والنقابية، التي لم تكن تكتفي -في «الضواحي الحمراء» السابقة كما يقال غالباً- «بتوجيه وضبط الثورة» بل تضمن نوعاً من «التغليف المستمر» لكل الوجود (عبر تنظيم المناشط الرياضية والثقافية والاجتماعية خصوصاً) وتسهم بذلك في إعطاء مغزى للثورة، وللوجود كله أيضاً. ثم إن هناك أزمة البنى الأسرية، التي تضرب الأسر

المغاربية بوجه خاص، وتشكل السبب الأكبر في الخلاف بين هذه الأسر وأطفالها، وبين الأسر المهاجرة الأخرى. إذ إن الخصوبة العالية لهذه الأسر (والتي لابد أن تنخفض بازدياد رأس المال الاقتصادي والثقافي) لا تتلاءم إلا بصعوبة مع المشروع التربوي (بالمعنى الواسع) الذي تتطلبه بيئتها الجديدة ضمنياً. كما أن البون شاسع بين آباء أميين أو قليلي التعليم، وبين الأبناء الذين تأثروا ببقائهم طويلاً في المنظومة المدرسية، سواء في أسلوب الحياة أم في التطلعات أو النظرة إلى الحياة برمتها. فتأثيرات المنظومة المدرسية متناقضة، أو ظاهرها التناقض على الأقل. لأن المدرسة بالنسبة للشباب المهاجر تشكل فرصة لاكتشاف وعيش انتمائهم القانوني التام للمجتمع الفرنسي (وأيضاً، بصفة صريحة إلى حد ما، انتمائهم للثقافة الديمقراطية التي تولد تطلعات عالية كنبذ العنصرية مثلاً) وإقصائهم التام الذي يؤكده القرار المدرسي بالفعل. أما الآباء الذين يعانون الصدمات والأوجاع التي يعاني منها أولادهم فنادراً ما تكون لهم المقدرة لأن يقدموا وسائل العيش، أو أسباباً للعيش تقدر على انتزاعهم من شعورهم بأنهم زائدون عن الحاجة، ومجرد زيادة عدد. وخاصة أن البطالة تقصي هؤلاء الآباء عن الوجود الاقتصادي والاجتماعي، بالإضافة إلى أنهم مقطوعون عن مجتمعهم الأصلي، وشديدو الانعزال -وتلك مفارقة- في هذا السكن الشعبي، الذي يجمع الأسر تبعاً لتوافر الشقق ومستوى المداخيل، وليس تبعاً لعلاقة القرابة، كما كان الأمر في المدن الصفيحية. وبما أنه ليس لديهم ما يقترحونه لأولادهم للحاضر، وأقل من ذلك للمستقبل؛ فإنهم يجدون مشقة في السيطرة على تطلعاتهم الاستهلاكية، التي يحرضها تردد الأطفال على المدرسة، ومتطلبات عالم اجتماعي هاجسه البضائع الاستهلاكية المستحيلة المنال، الحاضرة في كل مكان؛ في الشارع حيث السيارات الفارهة، وفي المجمعات التجارية، أو حتى في قلب الحياة الأسرية عبر التلفزيون ونشرات الدعاية التي تملأ العلب البريدية كل يوم.

وإن كان هناك تأثير خاص لهذا التعايش في السكن الجماعي، فهو يكمن في عدم مساندة أحد لأحد في مثل هذه البيئة، حيث لا تلقى السقطات الاجتماعية المكابح أو شبكات الحماية التي قد تلقاها في مكان

آخر. كما يكمن ذلك التأثير أيضاً في هذا النوع من المزاودة بالعنف، الذي يحدث عندما تفتح «الحماقات الصغيرة» (هرب من المدرسة، سرقات تافهة، سرقات السيارات، إلخ) أو انفجارات العنف الجماعي المفاجئة (تلك التي تحمل بعض الشباب مثلاً، على إتلاف المحلات أو التجهيزات التي طالبوا هم أنفسهم بها) الطريق تدريجياً لعبث أقلية نشيطة ومنظمة؛ حيث يسود منطق العصابة، التي تكونت منذ المدرسة غالباً، فيُفرض الانضمام على أولئك الذين يودون النجاح في دراستهم، إلى الأكثر فقراً، ولا يترك لهم إلا الإذعان المستكين، والانطواء على الألم والكراهية، التي تولد إدانات جماعية ذات أساس عنصري، أو الرحيل الذي يضاعف تردي ووصم المكان الذي هُجر بهذه الصورة.

إعادة صنع التاريخ

إذا ما بدا لي ضرورياً استحضار إحدى السلاسل السببية، التي تبدأ من الدوائر الأكثر مركزية في الدولة، وتنتهي إلى المناطق الأكثر إملاقاً في العالم الاجتماعي، مع التشديد في الوقت نفسه، على البعد السياسي للعمليات التي أدت بالفعل إلى حالة لم يفكر بها أحد ولم يردها أحد؛ فليس هذا مسايرة لمنطق التنديد والمقاضاة، بل محاولة لفتح إمكانات لعمل عقلاني يستهدف تقويض ما صنعه التاريخ، أو إعادة صنعه.

إن البحث عن منظومة تفسيرية تقوم على أساس سليم، ليس مسألة مجانية في الواقع. إذ إن أماكن الإقصاء وسكانها أصبحت، من خلال المشكلات التي تطرحها، واحداً من الرهانات الكبرى للكفاح السياسي. ومن المهم مجابهة التفسيرات التي سيظهر طابعها الاعتباطي الصريح فوراً، لو لم توقَظ الأوهام الأكثر قدماً في التقاليد الغربية. (أفكر مثلاً بهذه النسخة الملطفة بشكل سيء للتفسير العنصري، الذي يمثله استنكار الطابع الاستثنائي للتقاليد الإسلامية، واعتبارها أساساً لغيرية جذرية ونهائية).

وهكذا، مع تحاشي رؤية ذلك على أنه سلسلة آلية للمسؤوليات، من المفيد كشف النقاب عن الصلة بين سياسة ليبرالية جديدة تهدف إلى انتزاع

البورجوازية الصغيرة من السكن الجماعي، وبالتالي من «الجماعية» وربطها بالملكية الخاصة لمنزلها الفردي أو لشقتها في الملكية المشتركة، وفي الوقت نفسه، بالنظام السائد، والتمييز المكاني الذي تعززه الدولة وتشجعه. وأيضاً عن الصلة الأكثر وضوحاً بين هذا التمييز بتأثيراته الأكثر جلاءً، وبين الموقع الذي يحتله اليوم، في الميدان السياسي وغيره، تعارض «أبناء الوطن» مع «المهاجرين»، والذي أتى ليحل محل التعارض بين المهيمنين والمهيمَن عليهم، والذي كان في الصدارة حتى هذا الوقت. وقد تم هذا بفضل تردي دوائر التعبئة الجماهيرية، وضعف قدرتها النظرية القائمة على تفعيل التقاليد الأممية، وقدرتها العملية بإحداث أشكال جديدة للتضامن، على تذليل الصعوبات التي تنجم عن الصراعات المتصلة بالتعايش في قلب العالم العمالي نفسه، وحتى في الأماكن التي يشكل فيها «أبناء الوطن» أكثرية واسعة (كالأحياء الأكثر شهرة: لوكاترميل في كورنوف، ليه مينجيت، أو حي بلزاك في فيتري).

ومع اقتحام حزب جديد للحلبة السياسية؛ أسس كل استراتيجيته على استغلال كره الأجانب والعنصرية، أخذ النقاش السياسي يتمحور بصورة مباشرة إلى حد ما حول مشكلة الهجرة. ففي الصراع السياسي بين الدوائر المتعارضة بشأن فرض مبدأ مشروع في النظرة والتقسيم، من أحزاب ونقابات على وجه الخصوص، أصبحت مسألة إعادة التوزيع مركزية تماماً،بالإضافة إلى مسألة تحديد أولئك الذين يحق لهم المطالبة بالمزايا المرتبطة بالانتماء الوطني. وهكذا يستطيع الوطنيون المهيمَن عليهم أن يشعروا بالتضامن مع المهيمنين الوطنيين، ضد «المهاجرين» بالفعل، على أساس المطالبة باحتكار الحصول على المزايا الاقتصادية والاجتماعية المتلازمة مع المواطنة.

نرى من كل هذا كيف أدى تخلي الدولة أو انسحابها إلى آثار غير منتظرة، ولم يتمناها أحد على كل حال، من شأنها مع الوقت تهديد السير الحسن للمؤسسات الديمقراطية؛ إذا لم تقرر الدولة من خلال سياسة حازمة أن تتخذ حقاً الوسائل لتحقيق نواياها المعلنة، على وجه الاستعجال، لتلافي تلك الآثار.

بيير بورديو

مهمة مستحيلة

اقترحت باسكال ر. تقديم شهادتها من تلقاء نفسها، إثر النداء الذي وجهتُه في ملتقى جمع بعض العاملين الاجتماعيين. كانت وقت إجراء الحديث معها رئيسة مشروع في ف.، وهي مدينة متوسطة الحجم في شمال فرنسا. وموقعها هنا، كما تقول هي نفسها، ملتبس. فلكونها متعاقدة، تدفع البلدية راتبها وتستطيع إنهاء خدمتها. لكن العقد ينص على أنها «تحت سلطة رئيس البلدية» مع أنها «مرتبطة أولاً ببنية خارجية». «إن هذا ملتبس جداً؛ إذ علي أن أكون تحت سلطته ومستقلة في الوقت نفسه، وعلي مساءلته وإطاعته». ويتضاعف هذا الالتباس لاضطرارها، من أجل القيام بعملها كما يجب، إلى التخاطب مع جهات مختلفة جداً، وجد متفرقة؛ أي 17 مديرية في المحافظة مرتبطة بالدولة (مديرية التجهيز، مديرية العمل الصحي والاجتماعي، العمل الثقافي، الشباب والرياضة، التربية الوطنية، على وجه الخصوص)، والتي لا يلتقي المسؤولون عنها أبداً، وتجد نفسها إزاءهم، أكثر الأوقات، في موقع المستجدي (في الوقت الذي عليها فيه أن تنسق، بل تنظم أعمالهم على مستوى وحدة محلية). أما على صعيد المنطقة فعليها التخاطب مع المنتجين والتقنيين، باعتبار أن القرارات المتعلقة بالميزانية، التي تتحكم في الوسائل الموضوعة تحت تصرفها، من صلاحية المُنتَخَبين.

وبما أن باسكال ر. كانت شغلت في السابق منصباً مماثلاً في مدينة

كبرى مجاورة هي ت.، فبوسعها المقارنة بين التجربتين، إذ كانت في ت. تتبع مكتب السكن المعتدل الكراء (HLM) (وليس البلدية) وذلك ما كان يمنحها سلطة حقيقية. «كنت في (HLM) رئيسة لعملية إعادة اعتبار، وبهذه الصفة كانت لدي سلطة واسعة، لأنني مالكة للمساكن، وبيدي السلطة والالتزام بإعادة إسكان الأسر، ثم البحث عن التمويل، والشروع في الأشغال وتخصيص المساكن الجديدة». وفضلاً عن ذلك «شرعنا هناك بعمل تشاوري» حيث كان بوسعها الاعتماد على جماعات معبأة مسبقاً. وبذا استطاعت إنجاز واحدة من وظائفها الرئيسية وهي «تعديل العلاقات بين الأشخاص» أي بين السكان أولاً، كما سنرى مع قضية المرأة المسنة صاحبة القطط، ثم بين السكان والسلطات البلدية أو الحكومية. وهكذا تجمعت الشروط اللازمة لتسيير ذاتي حقيقي «إذ انتهى ممثلو السكان أنفسهم إلى القيام بتخصيص المساكن» لكن باسكال ر. اكتشفت في هذه الآونة بالذات، أن المؤسسة التي انتدبتها «لم تعد تحتملها». فنجاحها إخفاق؛ لأنها وفت بالتزامات عقدها بأكثر مما يجب. وتحت هذا الضغط المزدوج شعرت بالتناقض الذي هو مبدأ المؤسسة التي انتدبتها، والوظيفة التي كلفت بها رسمياً. فما شعارات إنعاش الحياة في الحي، وإشراك السكان في الإدارة إلا كلمات وخيالات للخداع الذاتي، يسعى التكنوقراطيون من خلالها إلى إعطاء أنفسهم مزيداً من الروح. وتظهر المقارنة بين التجربتين ذلك جيداً. ففي ت. حيث كانت تتمتع بسلطة حقيقية على أحد عوامل المشكلة التي عليها معالجتها وهو السكن، استطاعت أن تسير بعملها إلى الحد الذي تتمكن فيه من كشف النقاب عن النية المتناقضة للمهمة التي أسندت إليها. أما في ف. حيث تركت إلى إمكاناتها الشخصية وحدها، أي إلى قدرات رمزية محضة، تقوم على الاقتناع والإقناع، فقد اكتشفت فجأة أنه ليس بوسعها تقديم أي شيء مما يطلبه الناس، وأنها لا تستطيع أن تقدم سوى أشياء لا يريدونها (مثل «الدورات التدريبية» التي ما هي إلا مسكنات للبطالة)؛ لأن ما يمكن أن يغير في الوضع الذي يطلب منها تغييره حقاً ليس متوقفاً عليها. بينما الذي يتوقف عليها ليس بإمكانه تغيير أي شيء في الوضع. «أنا أعرف أن

كل ما ينتظره الناس في الحي هو العمل (..) وهو الشيء الوحيد الذي لا يمكن تقديمه» ثم «إن العمل الاجتماعي هكذا يتضمن تناقضاً في ذاته، وينبغي على رئيس مشروع التنمية الاجتماعية للحي (DSQ) أن يتخيل حلولاً ويقترحها على مختلف الإدارات. وهنا أيضاً تناقض؛ لأننا عندما نعثر على شيء يقال «ينبغي أن يدخل في الاعتمادات»، وجواب الإدارة دائماً «هذا لا يدخل في الاعتمادات المالية».

ونظراً لأنها حرمت من الظروف الاستثنائية التي أفادت منها في منصبها السابق، فقد اصطدمت باسكال ر. مباشرة، بعقبتين هامتين يواجههما كل عمل اجتماعي: الأولى هي إذعان أفراد مشتتين ومثبطي الهمة، بفعل سلسلة طويلة من الإخفاقات وخيبات الأمل، والثانية هي قصور إدارة مُفتَّتة ومفتِّتة، حبيسة صلابتها وروتينها ومسلماتها («الاعتمادات»)، ولا تكون بمثل عدم الفاعلية هذا إلا عندما تمارس الديمقراطية بأمر من «بيروقراطية - اجتماعية» تكنوقراطية.

وبما أن العامل الاجتماعي ليس بوسعه إلا إعطاء ما عنده؛ أي الثقة والحد الأدنى من الأمل لمحاولة الخروج من الوضع، فإن عليه النضال على جبهتين دون انقطاع: ضد أولئك الذين يرغب في مساعدتهم، وهم غالباً مثبطو الهمة، لأخذ مصالحهم الخاصة بأيديهم، ومن باب أولى مصالح الجماعة، من جهة، ومن جهة أخرى ضد إدارات وموظفين منقسمين، حبيسي عالمين منفصلين -إلى درجة سنرى معها، فيما يتعلق بتطبيق التعويض الأدنى للاندماج (RMI)- أنها ليست المصالح نفسها ولا الموظفون أنفسهم، المكلفون بدفع التعويض للمستفيدين وضمان اندماجهم.

إن مناقضة منطق العمل الاجتماعي، الذي يقوم على نوع من الروح النضالية التبشيرية والتطوع الملهم، لمنطق البيروقراطية بأنظمتها واحتياطاتها، لا تُلحَظ جيداً إلا حينما يتحول الموظفون «بين عشية وضحاها إلى العمل الاجتماعي» إطاعة «لتوجيهات أتت من فوق» وفقاً للمخطط الثاني على وجه الخصوص: «إننا ننزل بعمل يتطلب الإبداع والاقتناع ثم العلاقات بالناس إلى عمل مؤسساتي: وهنا!.. الكارثة».

وللمفارقة، فإن المؤسسات البيروقراطية على درجة من الجمود، لا تستطيع معها العمل، إلى حد ما، إلا بفضل مبادرة وإبداع، بل موهبة الموظفين الأقل تقيداً بوظيفتهم. لأن البيروقراطية إذا ما تركت لمنطقها الوحيد، منطق تقسيم السلطات إلى وزارات منفصلة، تمنع كل عمل فعال شامل؛ ومنطق الملفات التي ينبغي «تحويلها وتحويلها» بلا نهاية؛ ومنطق الفئات البيروقراطية التي تحدد ما هو معقول بيروقراطياً («إن هذا ليس مقرراً»)؛ ومنطق اللجان التي تتراكم فيها الاحتياطات والرقابات والضوابط، فإن البيروقراطية ستحكم بنفسها على نفسها بالشلل. وهكذا فإن التناقضات الناجمة عن التقسيم البيروقراطي هي التي تفتح دون شك هامش المناورة والمبادرة والحرية، الذي يستطيع استغلاله الأشخاص، الذين بتخليهم عن الروتين والأنظمة البيروقراطية، يحمون البيروقراطية ذاتها من نفسها.

مع رئيسة مشروع في شمال فرنسا

حديث مع بيير بورديو

كنت على علم بكثير من الأشياء

باسكال ر.: أمضيت ستة أعوام، سبعة أعوام تقريباً في ت. وعندما غادرتها، فذلك لأنني كنت مشرفة على الانهيار. عقدت هناك شيئاً فشيئاً صلات مع الناس، لأنه كان لدي الوقت، وكانت هناك ديناميكية. هم جماعة واسعة من ممثلي السكان، منهم رجال ونساء ومتقاعدون وشباب، وحتى من العاملين -لأن من الصعب على شخص عامل أن يخصص وقتاً بالإضافة إلى شغله وأسرته- وكانت هناك مساعدات اجتماعيات. كنت على تعارض معهن من حيث المبدأ، لأنني ممثلة مكتب السكن المعتدل الكراء، الذي عليه إعطاء السكن، والمساعدات الاجتماعيات هن اللواتي يطلبنه، ويمثلن المستأجرين السيئين..

(كانت الاتصالات الأولى مع المساعدات الاجتماعيات سيئة. لكنها تحسنت سريعاً أثناء المخطط التاسع، إذ كان العاملون الاجتماعيون متطوعين غالباً، يضحون بوقتهم للإسهام في المشروع «وهكذا تكونت لدينا منذ البداية مجموعة تكونت من خلال آلية دينامية»)

تعديل العلاقات بين الأشخاص

باسكال ر.: تمكنا إذن في بضع سنوات، عبر عمل يقوم على فاعلي

الخير أو المتطوعين المناضلين، من عقد صلات ثم طرحنا المشكلات. لكن ذلك تم خلال سنوات ولم يأت من المرة الأولى.. والآن في ف. بدأت بالتعرف إلى الأشخاص في الميدان الجديد، غير أنني أعلم جيداً أنه ليست لديهم الثقة التي ستكون لديهم في ظرف أربعة أو خمسة أعوام. إن معرفتي الجيدة للمشكلات ترجع إلى أنني كنت أقوم بنفسي بالمهمة الموكلة إلي لحساب مكتب الـ(HLM) في ت. وهي عملية إعادة اعتبار «شاملة» لأننا اضطررنا لترحيل الجميع. فكان أول ما علي فعله، هو إعادة إسكان كل واحدة من الأسر. وهذا منحني دوراً هاماً بصفة خاصة، لأنني كنت أعرف الأسر معرفة مباشرة. وأعرف عدد كل عائلة، وفي أي نمط من السكن كانت من قبل، وفي أي نمط أعيد إسكانها.

(..)

نعم، حسناً.. سأعطيك مثلاً يستحق الاهتمام، لقد توصلنا في ت. إلى جمع ممثلي الـ(HLM) وكنت من بينهم، مرة في الشهر، مع ممثلي السكان الذين كانوا متطوعين وأهلاً للثقة بأنهم لن يرددوا ما يقال عن الحياة الخاصة للناس في كل مكان. أما المساعدات الاجتماعيات فهن في الاجتماع لمساندة الأسر وليس لعرض عيوبها، وإذن اجتمعنا وطرحنا المشكلات. ومثال ذلك سلوك امرأة شكلت موضوعاً لعريضة، وكان لديها كثير من القطط والكلاب التي تبول وتنتن كل المدخل، طلبت هذه المرأة الانتقال لتقترب ربما من صديقة لها، لكن الدافع الحقيقي هو أن مسكنها صار ضاراً بالصحة.

وهذا يتأتى من الناس وطريقتهم في استعمال المسكن. وهناك مسألة الموارد المالية؛ فمن أجل عدم الصرف على التدفئة، يقومون بسد الشقوق والنوافذ فتشيع الرطوبة. ولنقص المال لا يعيدون الطلاء، ولا غطاء الأرضية. فيفسد كل ذلك، حتى نرى سقوفاً برمتها تهدم، لأن الجص يتشبع بالماء ثم يسقط. هذه أسباب مالية حقاً، ويجب أخذ هذا الأمر بالحسبان. ثم هناك طريقة الحياة. فكيف وصل الأمر إلى هذا الحد؟ إن الأمر يستغرق

عدة سنوات أحياناً، فقد تكون امرأة فقدت عائلها أو العكس، أو حدث طلاق، أو فقد الشخص عمله أو ابناً من أبنائه. فيهمل كل شيء ويتغير السلوك عندئذ. وبعد ذلك لديك طريقة التربية، لكن الأمر هنا أكثر صعوبة لأنه يرجع إلى الأجداد والآباء، فيربى الأطفال هكذا.

(..)

فقلنا للمرأة صاحبة القطط «نحن موافقون على انتقالك، لكن شريطة أن تعيدي المسكن إلى حالته الأصلية» وكان ذلك عسيراً على الفهم؛ فهي تطلب الانتقال لأن منزلها لم يعد قابلاً للعيش فيه، فيقال لها «عليك إعادته إلى حالته الأصلية» وهذا واجب المستأجر، لأنه حينما يدخل مسكناً يكون المسكن قابلاً للسكن فيه، وحينما يتركه ينبغي أن يكون في حالته الأولى. وإلا سنصل ببساطة إلى مبلغ 15.000 فرنك كدين. وإذن يرفض الانتقال.. أما عن المرأة فقد طلب منها وافتنعت. وكانت المساعدة الاجتماعية هي التي نقلت الرسالة، وأفهمتها بأن عليها تسليم مسكنها في حالته الأصلية، وحيث أنها لم تكن قادرة على ذلك لوحدها، قام بعض الشباب من الحي بمساعدتها فأعادوا الطلاء وتغطية الأرضية من أجلها.

كانت هناك سلسلة كاملة، سبعة أشخاص من الجيران والحراس ومناضلي الحي والمساعدة الاجتماعية والـ(HLM)، وأخيراً قطاع التخصيص في الـ(HLM). اتفق هؤلاء جميعاً على أن تغير هذه المرأة طريقة سكنها في الحي، وطلب منها التخلي عن بعض حيواناتها، ففعلت مستبقية كلباً واحداً ورحّلناها. ثم غادرتُ بعد ذلك، ولا أعرف ما آل إليه الوضع. لكننا إذا واصلنا البقاء مع الناس عن كثب، يمكن إنجاح هذا الاندماج، ولولا ذلك لطردت المرأة.. وهذا مثال (..) عندما وصلت إلى المرحلة العملية، كان الناس قد شرعوا منذ سنين في عمل تشاوري، وإذن كان لدي مناضلون من سكان الحي لأحاورهم.

❖ روابط أسرية؟

باسكال ر.: إن من عرفتهم وكانوا نشيطين جداً هم من المركز الاجتماعي للحي، لكنهم لا يمثلون إلا عدداً قليلاً.

❖ وكان هؤلاء الناس يقومون بدور الكشافين، الذين يرصدون الأوضاع..

باسكال ر.: أجل، هوذا، إذ كانوا يبادرون إلى ملاقاة الأحداث، واستجواب المدير. فعندما عينت، طلب المدير مني أن أحضر قبل مباشرتي العمل بقليل، لأنه سيستقبل سكاناً جاؤوا لاستجوابه بشأني. وفي ذلك المساء كنت في مكتب المدير، في مواجهة اثنين أو ثلاثة أشخاص من المركز الاجتماعي للحي، اعتادوا على اللقاء فيما بينهم منذ سنين والمناقشة والعمل معاً. فلقد كانت هناك إذن أرضية تشاورية.

❖ وما كانت مهنتهم؟

باسكال ر.: كانوا متقاعدين، فلديهم الوقت. ثم تعرفت على بعض ممن يعملون. لنقل إن الفريق كان قوياً بما فيه الكفاية لضم أناس يجدون حَدَثاً من الأهمية بحيث يأتون بعد عملهم.

● فيمن تفكرين مثلاً؟

باسكال ر.: أذكر سشخصياً كان يعمل في مجمع تجاري كبير، لاحظ أن الإدارة ترمي بكل ما هو مخروق أو فقد لصيقته، لأن من المستحيل بيعه. فحصل على موافقة الإدارة لتوزيع تلك البضائع على المعوزين.

❖ وهل فعل ذلك بعلمك عندئذ؟

باسكال ر.: لقد فعل ذلك من قبل أن أبدأ، وحينما رأى أن هناك شبكة تضامن تقام في الحي، انضم إليها. كانت هذه الشبكة تسير جيداً. إذ لدينا جميع الممثلين تقريباً، فكنت على علاقة غير مباشرة مع الراهبات، وعلاقة مباشرة مع مرشد ديني كان يعمل مع الشباب، وعلاقة مباشرة مع المتقاعدين والمركز الاجتماعي والمساعدات الاجتماعيات من كل المؤسسات.. كما كان لدي علاقات مع صندوق التعويضات العائلية والضمان الاجتماعي والتربية الوطنية والبلدية.

❖ وهل كان يتم ذلك على شكل اجتماعات دورية، أم لمناسبة معينة وعمل معين؟

باسكال ر.: كانت نقطة الانطلاق هي لقائي مع السكان في المركز الاجتماعي. حيث طلبوا مني تنظيماً معيناً، فقبلت! طلبوا أن أقيم مناوبات في الحي أيام انعقاد السوق، لأن المكان مناسب للقاء أكثر الناس، وشيئاً فشيئاً تقرر أن نلتقي كل يوم اثنين.

لم يعد بوسع مؤسسة (HLM) احتمالي

❖ متى كان ذلك على وجه التقريب؟

باسكال ر.: لقد بدأ في 1983 وانتهى في 1988.

❖ ولِمَ انتهى؟

باسكال ر.: لأنها كانت نهاية العملية، فتوقفت في ت.

❖ أجل واستمرت البنية..

باسكال ر.: آه، كلا، كلا، كلا.

❖ هل زالت؟

باسكال ر.: زالت تماماً. أنا أعتبر أنني توقفت عن هذا العمل على مضض، لأن مؤسسة (HLM) لم يعد بوسعها احتمالي.

❖ إن هذا مدهش..

باسكال ر.: لم يعد بوسعهم تحمل إقامة هذه السلطة المضادة.

❖ أيعني هذا أنها كانت تتدخل كثيراً في تخصيص المساكن، مما أحدث صراعات مع مؤسسة (HLM)؟

باسكال ر.: صراعات مكتومة.

❖ صراعات في كل شيء، أليس كذلك؟

باسكال ر.: أجل، في كل شيء. وأصبح ذلك اتهاماً لي، إذ أصبحت مستقلة أكثر من اللازم.. وهذا ما يقال عن الشخص الذي..

❖ هدام؟

باسكال ر.: أجل، هدام وسيء الطبع، لا ينصاع للسلطة. لقد تطور موقف إدارة مكتب (HLM). فقد قال مديري في البداية «أنا أثق بها، وأريد أن تنظم الأمور». وقد فعلت. وحدث تغيير في البلدية وفي إدارة مكتب (HLM) وكان علي أن أغادر، لأسباب تتعلق بمحافظة شخصية على البقاء. فطردت عندئذ من مكتب (HLM). وتساءلت: هل هم المُنتخبون أم إدارة الـ(HLM)؟ وهل أخذت موقعاً هاماً على أرضية سياسية، وأزعجت بذلك المنتَخَبين، أم أن سير المكتب هو الذي ليس على ما يرام؟ وتوصلت أخيراً إلى أن سير المكتب هو المسؤول وحده، إذ إن إدارته تريد استئناف الأساليب القديمة، وتكنس العمل الذي قمت به.

❖ وبصورة خاصة، تخصيص المساكن..

باسكال ر.: أجل، كل شيء (..) أظن بأنني شخص كان يعرف أكثر من اللازم.

❖ وإذن، تلاشى كل شيء، أعني هؤلاء الناس الذين كانوا يعملون معك كالمساعدات الاجتماعيات والمتقاعدين والجميع..

باسكال ر.: كلا، أظن أن هؤلاء الناس مازالوا موجودين وناشطين. لكن العدد أقل، فمع تغيير المخطط تقلص الفريق إلى ممثلي السكان. لقد كان لدينا ثلاث مؤسسات؛ مكتب الـ(HLM) والمركز الاجتماعي والسكان. وقام السكان بشيء جديد، إذ عينوا سكرتيرة، بينما كانوا يوكلون هذه المهمة لمتطوع غير مأجور، وقالوا: «نريد عملاً دقيقاً وتقنياً. وسنتصرف كرب عمل».

لقد توصل ممثلو السكان إلى القيام بتخصيص المساكن.

❖ إن ما كنت تفعلينه، بعبارة أخرى، شيء هدام. فالروابط وما شابهها يحبها الجميع، لإرضاء الحمية الديمقراطية -«لدينا رابطة لسكان الشارع» «لدينا رابطة للحي» إلخ. لكنها دوائر بدون سلطة، يستشيرونها

عندما يريدون، ويستمعون إليها عندما يشاؤون، إنها ضرب من التنفيس بدون طائل. أما أنت فعملت شيئاً مختلفاً جداً، إذ قرنت ذلك بسلطة حقيقية.

باسكال ر.: أجل، هو ما تقول.

❖ لقد صنعت، بعبارة أخرى، ديمقراطية قاعدية، مخالفة تماماً..

باسكال ر.: مخالفة للقواعد المرعية.

❖ فهذا لا يطاق إذن، لأنك جعلت الناس يتدخلون بسلطة حقيقية في اتخاذ القرار، ومعارضة تخصيص المساكن..

باسكال ر.: أجل، لقد وصلنا إلى هذا الحد..

❖ وفيما يتصل بالسلطات الرئيسية على هذا الصعيد، فإنها غير راضية بالطبع، لأن المنتَخَبين، أقصد الكوادر لا يحبون هذا، فهم يفقدون كل السلطة.

باسكال ر.: هوذا، بالطبع. فقد توصل ممثلو السكان إلى تخصيص المساكن. وأصبحت إحدى المناضلات موظفة في المكتب، تنظم الزيارات للشقة النموذجية. وكانت تجيب الناس عما يتعلق بالمدارس والأشخاص المكلفين بحل بعض المشكلات.

❖ وكم كان عدد الناشطين من حولك؟

باسكال ر.: أوه، قليلون.

❖ خمسون شخصاً، ثلاثون..

باسكال ر.: وحتى ليس هذا العدد، فهم يزيدون وينقصون.

❖ وما كانت صفتهم، متقاعدون، أساتذة، مستخدمون؟

باسكال ر.: كانوا من المتقاعدين لأنهم على دراية، ولديهم الوقت. وكان المستخدمون قليلين. لأن المستأجرين الجدد من الأسر الشابة كانوا مشغولين تماماً بعملهم وأولادهم وقضاء حوائجهم، إلخ. فلم أرهم إذن. بينما رأيت نساء عاملات أو لديهن أعمال صغيرة في خدمة المنازل. ورأيت رجالاً

عاطلين عن العمل في الثلاثين من العمر، كان لديهم الوقت للمجيء، ويجدون في ذلك وسيلة للالتقاء مع من يستطيعون التحدث إليهم. المهم هو هذا: المشاركة.

❖ البحث عن معنى للوجود، أليس كذلك؟

باسكال ر.: هوذا، معنى للوجود وطريقة للعيش.

❖ وبين هؤلاء الثلاثين، أكانت مساعدات اجتماعية، عاملون اجتماعيون، منشطون؟.

باسكال ر.: كان هناك مربون - منشطون، والسكرتيرة التي وظفتها لجنة الحي، والمستشارة في الاقتصاد الاجتماعي والعائلي التابعة للمركز الاجتماعي، وأناس من صندوق التعويضات العائلية ومن الضمان الاجتماعي ومن البلدية وأحياناً من التربية الوطنية. وهؤلاء عاملون اجتماعيون أكثر اهتماماً بهذه المشكلات من عامة البيروقراطيين، وخارج المنطق البيروقراطي نوعاً ما.

❖ وبعبارة أخرى، إنهم يرسلون إلى المواقع المتقدمة..

باسكال ر.: وعندما تحدث مشكلة، فهي غلطتهم.

❖ إنهم طليعة، يمكن أن يتم سحبهم..

باسكال ر.: أجل، فلم يكن لديهم انتداب.

❖ وإذا ما نجحوا في تكوين بنية كتلك التي كونتها، يكون ذلك مزعجاً لأن فيه تغييراً..

ليس لدي من أتكلم معه

باسكال ر.: كان بوسعي أن أتكلم عما ينتظره الناس عن دراية، لأنني كنت أذهب بنفسي إلى منازلهم، فهذا ضروري جداً. أما الآن فأنا في البلدية وعلي التوجه إلى وسطاء للقاء السكان، فليست لدي سلطة على السكان، ورئيس البلدية هو الذي بإمكانه فعل ذلك. ينبغي أن أقول أنه بإمكاني شخصياً فعل ما فعله الآخرون؛ أي الذهاب للقاء الناس من باب لباب، لكنني

لم أرد فعل ذلك نتيجة تجربتي الأولى في ف. إذ قلت في نفسي: «إذا ما التقيت مع الناس فسأعطيهم أملاً. وباعتباري رئيسة مشروع، لست الوحيدة القادرة على أن أقدم لهم، بل قد يكون المعلم أو مدير المركز الاجتماعي إذا ما عدَّل من.. أما أنا فلا أستطيع تعديل موقف البلدية، ثم مواقف كل المعنيين بالحي، أعني كل الإدارات بممثليها المحليين في الميدان. لكن دوري هو تعديل العلاقات فيما بين الأشخاص، وتقديم التمويل ثم أذهب. فما لم يقم هؤلاء الناس إذن بهذا الدور فوراً، أو إذا لم يقوموا به من أنفسهم، أحثهم على القيام به. وإذا لم يأت ذلك منهم فلن أكون سوى مجرد موظفة إضافية تعطل اللعبة قليلاً.

- عندما يكون شخص مثلك في بنية ويسعى للإفلات منها -أو قد يكون مهندساً شاباً في المديرية الجهوية للتجهيز- ويثير قليلاً من الضجيج في دائرته، فإما أن يغادر أو يطرد أو يتعب..

باسكال ر.: - أج، إنه ينهك قواه، أجل.

- ... ويترك كل شيء، أليس كذلك؟

باسكال ر.: أجل، إنه ينهك قواه.

- إنهم يأخذون الناس بالإنهاك؟

باسكال ر.: نعم، نعم بالإنهاك، تماماً.

- وليس هناك البتة بنية للتنسيق بين أعوان الإدارة. فمثلما توجد روابط للأحياء، يمكن وجود روابط (بالمعنى الواسع) لموظفي إدارة مجددين، قد يستطيعون...

باسكال ر.: إن ما بدا لي الأكثر خطورة في ف الآن مثلاً، هو أنني بوسعي تحليل حاجات الحي، ونقلها إلى رئيس البلدية قائلة «سنتحرك مع هذا أو ذاك»، والمتعهد في الحي الفلاني ليس في مستوى مهمته، إذ لا يأتي ويلتقي بالناس، والإدارات غير موجودة. يمكن أن أكتب كل هذا وأنقله، غير انهم إذا قرروا أن لا يفعلوا شيئاً، اي يغطوا الشمس بالغربال، فما من أحد أستطيع التكلم معه.

إن الناس لا يظهرون.

باسكال ر.: وإذن ما الذي يمكن عمله؟ يمكن التأثير فيما يتصل بالمسكن وأوقات الفراغ، ويمكن التفكير في كل الميادين، لإعادة الثقة للناس. المهم هو إعادة الثقة إلى كل إنسان بنفسه، والتي يمكن فقدانها في كل البيئات الاجتماعية، نتيجة حادث ما، أو أي شيء يجري في حياتك. لكن هذا على وجه العموم، ولذا ينبغي السعي لإيجاد حل شخصي لكل امرئ. لكننا وصلنا إلى طريق مسدود. وقد استسلم الناس إلى نوع من القدرية.

{...}

إن الناس لا يعبرون عن وجودهم بأية طريقة. وقد قمت خلال عام بشتى المحاولات للتواصل معهم. إذ نرسل رسائل تقول «رئيس بلديتكم..». لكنهم لا يأتون، لا يأتون للبلدية لرؤية رئيسها. ونظرنا في وسائل أخرى؛ فسنطلب من رئيس البلدية أن يأتي إليهم، ونشرع في الحضور بالميدان متفقين على مكان مشترك. وبدأنا في أفضل ما يمكن من الظروف. إذ أخذت الـ(HLM) والبلدية المحل نفسه في مركز الحي، وفي الساعات نفسها؛ حتى يكون لدى الناس رغبة في المجيء، ولا يتجهوا إلى أماكن عدة. وقد عملت رسالة وزعت على كل علب البريد، 1000 رسالة فردية وزعت ودعوت فيها الناس. رسالة موقعة من رئيس البلدية تقول «سآتي في اليوم الفلاني والساعة الفلانية، إلى المكان الفلاني القريب منكم. وآمل أن ألتقي معكم» فلم يأتِ سوى أقل من عشرة.

{...}

انطباعي هو أنهم يقولون في أنفسهم أن ذلك دون فائدة. يجب تمحيص الأمر، لأنني أعتقد بأن الخطر الأكبر يأتي من صمت الناس.. فالصمت قد يؤدي في لحظة ما إلى الانفجار.

{وهكذا تزداد الهوة عمقاً بين السكان والعاملين الاجتماعيين، ناهيك عن الإدارات التي ترمي كل منها المسؤولية على الأخرى، أو تتجاهلها تاركة للأفراد، أي لكل الناس ولا أحد، هموم المرافق المشتركة وكأنها أرض فضاء صائرة إلى الهجران والتلف.}.

باسكال ر.: إن أول خط فاصل هو بين المتعهد الذي يتكفل بالمساكن، والمدينة التي تتكفل بالمساحات الخارجية. فلديك إذن، الشارع والداخل وإشكال يتكرر دائماً هو مسألة الإضاءة. فعلى السكان أن يعرفوا إذا كان المصباح المكسور، الذي لم يصلح، تابع للمدينة أو لمكتب (HLM).

- تقصدين معرفة من يتجهون إليه للاحتجاج، وعلى من يتوجب إصلاحه. لأن كل واحد منهما يستطيع القول..

باسكال ر.: على من يتوجب إصلاحه!.. إن الجواب هو: لست أنا بل الآخر. لأن من يجيب في المكتب لا يعرف هو نفسه أكثر الأحيان. وبما أن الأمر يتعلق بملكية عقارية، فينبغي معرفة ما إذا كان في طريق عام أو طريق خاص. ولا يعرف ذلك إلا موظف قديم.

- لدينا هنا مشكلة؛ فمن سيقدم الشكوى؟ لأن بوسع الناس...

باسكال ر.: أجل «هذا لا يهمني... فسيمر شخص آخر»...

- ... وبعد ذلك عليهم معرفة إلى من سيقدمون الشكوى.

باسكال ر.: نعم، لأن الناس لم يعتادوا عليه.

- ويصير الأمر أكثر صعوبة بمرور الوقت وتدهور الأوضاع وظهور الصراعات. إذ ليس هناك دوائر تحكيم أبداً.

باسكال ر.: كلا، كلا. إذ كان لدينا مجمعات سكنية كبرى (HLM) {تقصد حالة ت} يسكن فيها متقاعدون أمضوا حياة عادية. فقد حصلوا على هذا المسكن وأثثوه، وقضوا كل حياتهم في العمل. حصل بعضهم مع إصلاح التمويل عام 1977 على الملكية الصغيرة، لكن بعضهم كانوا مسنين وقالوا «لا، إن هذا ليس لنا، فشققنا جيدة وسنتمسك بها» ولم يخطر ببالهم إذن شراء منزلهم الصغير. وأظن أنهم كانوا راضين عن مسكنهم وحيهم وبيئتهم. ثم انقلب الوضع مع الأزمة الاقتصادية. وإذا بنا مع نوع آخر من الناس، جاؤوا لأنه لم يكن لديهم الخيار. وإذن فهؤلاء الذين يجيئون لهذه المساكن لا يجيئون لأنهم وجدوا عملاً، بل لأنهم لا يستطيعون العثور على مسكن آخر. ومن يطالبون ويتظاهرون هم المتقاعدون، الذين اعتادوا على

الدفاع عن أنفسهم وقول ما لديهم، لأن لديهم حقوقاً. وبالتالي فهم يستمرون في التعبير عن أنفسهم. وكلما حدث شيء، مهما كان تافهاً، يأتون للشكوى لمقر الـ(HLM) والبلدية، ليشعروا الجميع بوجودهم.

ليس موجوداً في أي اعتماد

{وليس «للعمل في الميدان» أي معنى إلا إذا صاحبه جهد متواصل لإقناع الإدارات المنغلقة على روتينها، والقليلة الاستعداد لمساندة عمل «غير بيروقراطي»، يقوم به العاملون الاجتماعيون}.

باسكال ر.: كان لدي ملف مقبول، أقنعت به كل من يفكر بقول لا.. وأخذت بالبحث عمن لديه المال، وأتساءل إن كنت سأعجبه؟ وإذا به يقول لي بأن لا أخبر أحداً بأن لديه مال باقٍ. وجرى الاتفاق هكذا، كما يجري الأمر مع بائعي السجاجيد.

❖ بِمَ كان يتعلق هذا الملف؟

باسكال ر.: إنه ملف حصلت بموجبه على مال لإعادة الاعتبار للمتاجر الموجودة. فلم يكن ذلك موجوداً في أي اعتماد. إذ لا يمكن الحصول على مال لأجل النشاط التجاري إلا إذا أُحدث نشاط تجاري. لكن الحي الذي كنت فيه قديم جداً، والتجارة فيه منذ 50 سنة. وما أردته هو استبقاء التجارة الموجودة. بيد أن هذا لم يكن مقرراً، وليس له أي اعتماد. فقمت بمساعٍ حتى مع وزارة التجارة. فجاء موظف واستعرض كل المعايير ليستخلص أن إعادة الاعتبار، لا مجال لها للتجارة. بينما كانت إعادة الاعتبار للمساكن..

❖ سهلة..

باسكال ر.: حصل عليها الجميع. فلقد كنت أعيد الاعتبار بمبالغ هائلة ثم بقي في أسفل البناية محلات كما هي. حتى إنني رفضت أن يقوم المهندس بمجرد طلائها. على الرغم من أنه جدد كل البناية، ولم يبق إلا أربع محلات بدت كالثآليل لعدم تجديدها. فقلت له: «إنني أرفض ذلك عمداً،

لأنني أريد ذلك من أموال التجارة، وينبغي أن يعرف الناس أنني لم أحصل على المال، ولن أجدد المحلات بأموال المساكن». ثم جاء شخص أمضى وقتاً طويلاً في دراسة الموضوع بمكتبه وبالقطار. منهك القوى ليقول لي: «لا، مستحيل، فهذا غير مقرر».

(بعد سلسلة من المساعي، نجحتْ باسكال ر. بإقناع مسؤولين في الوزارة بإعطائها التمويل لإعادة اعتبار المتاجر من أموال متبقية).

عثرنا على الحل الأسرع

(إن الهاجس المختص بالسياسيين لوضع قرار بيروقراطي موضع التطبيق سريعاً، قادهم إلى تكليف صناديق التعويضات العائلية بتنفيذ منحة الدخل الأدنى للاندماج (RMI)، باعتبار هذه الصناديق منتشرة في طول البلاد وعرضها. وبذلك فصلوا بالفعل بين دفع منحة البحث عن الاندماج وبين الرقابة على عقد الاندماج).

باسكال ر.: أنا أرى أن منحة الاندماج (RMI) وهم، لأن الفكرة جيدة في البداية، لكن التطبيق خاطىء (..) فلا شيء كان مهيئاً للطريقة التي سيجري بها عقد الاندماج، كانت المسألة الأولى هي من يدفع المال؟ وبعد مناقشات طويلة، استقر الرأي على صناديق التعويضات العائلة، لأن لديها الخبرة والوسائل لذلك، وتدفع كل التعويضات. وبهذا عثروا على الحل الأسرع، في الوقت الذي طلب البعض فيه ولاسيما المراكز الاجتماعية والعاملين الاجتماعيين؛ باعتبارهم على تماس مباشر مع العائلات، طلبوا بصراحة قبض الأموال لأجراء عقود الاندماج بأنفسهم، وتكون لهم بالتالي القدرة على هذا القول: «أنا أعطيك المال، المنحة، عقد الاندماج، أي ما ينتظرون من الشخص الذي سيقبض المنحة، وأنا الذي سيرى إذا ما طُبِّق أم لا».

وأعتقد أن الأمر لم يجر بهذا الشكل لأسباب تتعلق بالتطبيق السريع، لأن الأوضاع لم تكن واحدة في فرنسا. فصناديق التعويضات العائلية على نفس النمط تقريباً، أما المراكز الإجتماعية فجدّ مختلفة، ثم إنها لا تغطي كل المناطق. ولابد أن يكون التأكد من دفع المنح للجميع في فرنسا كلها عملاً

واسعاً جداً. وهكذا قامت صناديق التعويضات بدفع المنحة، ثم أخذ المسؤولون بالبحث عمن يقوم بعقود الاندماج. ولم يزل الأمر على حاله، بعد سنة.

(..)

أعتقد أن جميع من هم على علاقة بمن ينتظرون شيئاً من المجتمع، يتوصلون بسرعة إلى الخلاصة: إن أغلبيتهم تنتظر عملاً. إلا أننا لسنا هنا لنعطيهم عملاً! وقد كشف عقد الاندماج الشهير هذا عن أوضاع كانت مجهولة حول مداخيل الناس. وأدى إلى تخيل المستفيدين من منحة الاندماج غالباً على أنهم.. متشردون. سنصل إلى هذا.. سنعتقد بأنهم أشخاص كانوا يعملون ثم قبضوا منحة رابطة التشغيل في الصناعة والتجارة (ASSEDIC) ووصلوا إلى نهاية استحقاقهم لها، ويجدون أنفسهم الآن دون مورد. هؤلاء موجودون بالفعل. لكن هناك آخرون كثيرون لم يصرحوا عن أنفسهم، لأنهم لم يكونوا عاطلين عن العمل، بل هم شباب لم يكن لهم عمل قط، وأطالوا مدة دراستهم بصفة اصطناعية نوعاً ما، وكوّنوا أسرة. وهم يتدبرون أمر أنفسهم بأعمال صغيرة ويعيشون معسرين دائماً مع الأسرة وراءهم، من الممكن..

وإذن لدينا أسرة شابة مع طفل دون أي مورد. فكيف يفعلون؟ حسناً، إما أن تساعدهم العائلة قليلاً، وإما أن يحصلوا على وظائف مؤقتة،.. وإما لديهم منحة الطالب كما قلت آنفاً: «يطيلون أمد دراستهم..» أجل، ولكن بصفة اصطناعية. ولكنهم يقولون بأنه ليس هذا ما يريدونه، بل يبحثون عن الدورات التدريبية. فماذا تمثل لهم منحة الاندماج في هذه الحالة؟ والصيغة الوحيدة التي يقدمها المسؤولون للناس هي الدورات التدريبية.. لكن هناك نوعاً من السأم عندما نتكلم عن الدورات التدريبية، لأننا نعرف جيداً أنها مجرد مسكن. إن الناس يريدون عملاً، وينتهون إلى الدورات التدريبية.. وسينظر المرء إلى أية دورة يتوجه، بحسب المرتب الذي يعطى فيها. لأن المرتب يأتي في المقام الأول ثم محتوى الدورة. وإذن، فعندما تقترح دورات بمنحة الاندماج أو بغيرها، فليس هناك استجابة إلى طلب الاندماج الذي يتم بالعمل. وهذا ما كانت المساعدات الاجتماعيات اللواتي يتصلن بالأشخاص المعنيين يَقلنه لي ثم..

❖ ومحتوى عقد الاندماج..

باسكال ر.: ليس من محتوى محدد (..) فما يجري الآن هو توزيع صناديق التعويضات العائلية لجميع المنح، بحسب معايير الدخل، وما ينتظر هو تحقيق عقود الاندماج الشهيرة. وتقول المساعدات الاجتماعيات المعنيات مباشرة بهؤلاء الأشخاص: «أنا لا أريد عقد عمل فارغاً». وهناك ضغوط تمارس نتيجة مقارنات «للنتائج». فأداء لجنة الاندماج المحلية في ف. لم يكن حسناً، لأنها لم تنجز عقود اندماج كافية بالقياس إلى عدد المستفيدين من منحة الاندماج؛ بينما لدى لجنة ي. عقود أكثر بكثير: فهم يتحدثون عن الكمية، ولا وقت لديهم للبحث في التفاصيل. وما يطلب إذن هو توقيع عقود الاندماج. وعند هذه النقطة أجابتني المساعدة الاجتماعية بأنني مخطئة تماماً عندما قلت لها: «لكن، إذا لم يحترم الشخص عقده -وأنت تعرفين ذلك جيداً- تستطيعين القول: لست موافقة على تجديد العقد» وقالت: «لكن هناك غيري، أي اللجنة المحلية التي يرأسها المحافظ. وهو الذي يوقع..».

(لم تُزِل مأسسة العمل الاجتماعي الصعوبات الملازمة للمنطق البيروقراطي؛ كما تبينه الظروف التي تم فيها إعداد وفحص وتقويم المشروع الذي اقترحت باسكال ر.).

باسكال ر.: إن ما أردت وصفه لك، هو موقف الموظفين، المبعوثين..

❖ يأتون للاجتماع، استجابة لأمر..

باسكال ر.: .. استجابة لأمر، أجل! لقد كان رائعاً حقاً: فالمأسسة تتم استجابة لأمر الحكومة. وعلى الجميع أن يكونوا حاضرين في كل الاجتماعات والإسهام فيها، وذلك منذ 1989 .

❖ لقد مأسسوا التنسيق بين جميع الأعمال التي يقوم بها الناس الذين وضعتهم في خطتك؟

باسكال ر.: أجل، فمدير المنطقة ينظم الاجتماع الذي سيحضره ممثلو جميع الإدارات المموِّلة، بالإضافة إلى ممثلي الأحياء، حياً حياً. وكان

علي في زمن قياسي، تقديم وثيقة تمثل حصيلة المشاورات. وكنت انطلقت في نهاية 1989، لأن سنة 1989 برمتها انقضت في المناقشات مع المنتَخبين الذي لم يتوصلوا إلى تقسيم المواقع.

◆ ماذا تقصدين؟

باسكال ر.: أقصد المدن التي ستستفيد من التمويلات.

◆ إن تلك غايتهم بالطبع، إذ كانوا جميعاً مهتمين بالحصول على المال..

باسكال ر.: أجل، وهذا ما حصل. لأنهم لم يتخذوا قراراً إلا في ظرف سنة..

◆ سنة من الشجار؟

باسكال ر.: حتى يصلوا في النهاية إلى عملية ذر المال.

◆ وهل اشتركت في هذه العملية أم..

باسكال ر.: لم أشترك مطلقاً.

● مطلقاً. وكان الأمر يجري بين المنتَخَبين والإدارة؟

باسكال ر.: لا أعتقد. أظن أن الأمر جرى بين المنتَخَبين فقط.

◆ في المستوى الجهوي، ولا يستشار أحد مثلك؟

باسكال ر.: آه، كلا.

◆ ألم يكن هناك أناس للتعبير عن الحاجات..

باسكال ر.: كان هناك تقنيون. تقنيو الجهة الذين كانوا يقومون بتقديرات كمية وإحصائية، ويسعون إلى التوازن، وإيجاد معايير..

◆ وهل هم موظفون دائمون في الجهة، أم أنهم يعملون معها عند الحاجة؟

باسكال ر.: إنهم متعاقدون.

◆ متعاقدون. ولكن بالإمكان تجديد عقودهم؟

باسكال ر.: أجل، هوذا.

❖ .. نسبة المهاجرين، نسبة هذا وذاك. بينما يناقش الآخرون مسألة المال. أليس كذلك؟

باسكال ر.: (ضحك) أجل، إنهما عالمان متباينان.

❖ هناك على المستوى الجهوي، المنتخبون ذوو النظرة السياسية، وبعض التقنيين الذين يفيدون في تقديم المسوغات.

باسكال ر.: وفي لحظة ما، يتخذون قراراً.

❖ وقد اقتسموا ذلك بالأسلوب الأكثر تشتتاً، على شكل قطع صغيرة..

باسكال ر.: بالضبط.

❖ فصار الأمر غير معقول.

باسكال ر.: أجل، هوذا.

❖ ألم يكن هناك عمل إجمالي ذو معنى؟

باسكال.: لا شيء البتة.

❖ وحتى أنه ليس مؤكداً أن تستعمل الاعتمادات المخصصة لهذا؟

باسكال ر.: أوه، كلا. ولا هذا. لأن الأهداف غير معلنة.

❖ وإذن، كيف تجري الأمور بعد هذه الاجتماعات؟

باسكال ر.: مضت سنة في حالة طوارىء، ثم بدؤوا في نهاية 1989 بتعيين رؤساء المشاريع، ومنذ 1990 أخذوا بتعيين رؤساء المشاريع في كل مكان، لأنهم عرفوا في النهاية مواقع المشاريع. ورئيس المشروع لابد منه؛ أي أن البلدية تعين شخصاً بمؤهلات معينة.

(هنا يأتي ذكر الوضع الملتبس لرئيس المشروع)

❖ وإذن، ذلك الاجتماع؟

باسكال ر.: أود أن أقول إن المنتَخَبين على صعيد الجهة أضاعوا سنة

لذر المال. ثم عين رؤساء المشاريع سريعاً، وكان عليهم أن يتشاوروا مع أناس لا يعرفونهم مطلقاً.

◆ إنها أوهام الروابط. والاستشارات الزائفة. والديمقراطية الفارغة..

باسكال ر.: نعم، عندما نعلم الظروف التي عُمل فيها كل هذا. إنه جنون مطبق! إذ كان علي أن أثبت في وثيقة بأنني استشرت الجميع والتقيت مع الجميع. وأن الجميع شرحوا وجهات نظرهم، وأنني توصلت إلى تصميم مشروع -في ظرف ستة أشهر، إنه خيالي حقاً- مشروع إجمالي. وبالتالي يعمل شيء من أجزاء وقطع، ظاهرها التماسك ويقدم. وأنا أعرف جيداً كيف يعمل النظام..

◆ وعن ذلك الاجتماع الشهير؟

باسكال ر.: نعم، عن هذا الاجتماع. كان علي الشرح لأن حيي يطلب هذا، بينما طلبتَ ذاك.. وبما أنني على دراية، شرحت سير الإدارة السيء. وكان المفروض أن يكون لكل واحد نسخته، حتى يعطي رأيه خلال الاجتماع. وإذن، عليك وضع ملفك في مقر المحافظة على 16 نسخة، في 10 حزيران كآخر مهلة.

◆ لاجتماع سيحصل في..؟

باسكال ر.: لا أحد يعرف تاريخه. ربما في تموز أو آب. وينبغي القول إن الجميع عملوا بدأب؛ فقام الموظفون بساعات إضافية. وكل الأشخاص الذين تحملتهم، كانوا مثلي، يعانون من ضغط شديد.

◆ وهل كانوا في الاجتماع، هؤلاء الأشخاص؟

باسكال ر.: أجل، أجل.

◆ وهل قرؤوا الملف حقاً؟

باسكال ر.: كلا.

◆ أليس ذلك مدهشاً؟

باسكال ر.: كلا، لأن الموظفة الموجودة في مقر المحافظة، استقبلت 20 نسخة من 60 مرسل مختلفين بين عشية وضحاها. وكان عليها التحقق من كل شيء، فالبعض لم يحسنوا العمل، أما أنا فأرسل ملفي اليوم، وأمر على المكتب بعد عشرة أيام.

❖ ولم يرسل الملف بعد؟

باسكال ر.: بالطبع، لم يكن قد أرسل، فقلت لها: «هل وصل الملف؟ وهل لديك النسخ المطلوبة؟ ألم أخطئ في شيء؟»، «كلا، كلا، كل شيء على ما يرام» فقلت: «لأنهم قالوا لي بأن الاجتماع سيعقد خلال 15 يوماً». «أصحيح هذا؟ فأنا لست على علم بذلك»..

❖ ألم تكن الملفات قد أرسلت..

باسكال ر.: «آه، حسناً، سأرسل الملفات فوراً» فكنت أعرف إذن بأن الناس الحاضرين في الاجتماع، لم يكن لديهم الوقت لقراءة الملف.

❖ وكان في هذا الاجتماع كل السلطات المعنية بموقعك؟

باسكال ر.: هوذا.

❖ وماذا قالوا، كلاماً..

باسكال ر.: أجل، فبما أنني كنت على علم بمختلف البنود والاعتمادات، إلخ ولكي يكون تقريراً سهلاً في القراءة، قسّمته. فهنّأني الجميع عليه..

❖ كل واحد يقرأ ما يعنيه..

باسكال ر.: بالضبط. وبما أن على كل منهم أن يقرأ فصلين مختلفين؛ عرفت من خلال أجوبتهم، من الذي قرأ الفصل الأول ومن قرأ الفصل الثاني. ورأيت هنا كيف يتصرف امرؤ في اجتماع، وكيف يتغير سلوكه.. إذ يرسل إنسان في مهمة ليعطي رأيه حول شيء يعرفه جيداً، ويتمسك عندئذ بالاعتبارات المادية، فيراجع بسرعة «العمل الثقافي؟ إنه الصفحة الفلانة. حسناً. لقد قالت ذلك. فعلي أن أبدو بمظهر المهم وسأقول لها: إن هذا غير

كاف». وسيقول شخص آخر بمزاج آخر «كلا، حقاً إنك لم تفهمي شيئاً هنا». كل واحد في قطاعه، وخاصة عندما نسمع «إن هذا لا يتفق بتاتاً مع التوجيهات التي لدينا، ولا نستطيع التمويل إلا للتوجه الفلاني. وما تقدمينه لنا لا يدخل في اعتماداتنا». حقاً لقد أصبت بصدمة قوية.

❖ وكان هذا في تموز الماضي؟

باسكال ر.: كان في تموز الماضي. وما صدمني فعلاً على وجه الخصوص هو الجو الذي أثاره. أي رؤية هؤلاء الناس الذين أرسلوا في مهمة، ولم يكونوا في مستوى ما طُلب منهم -فلم يكن لدينا الوقت للحوار-، والذين كانوا مضطرين للإجابة. فلم يجدوا مخرجاً وحيداً إلا إنهاك المسكينة التي كانت وحيدة..

❖ وكانت المسكينة أنت؟

باسكال ر.: أجل، أنا.

شباط 1991

بيير بورديو

سوء نية السلطة

مع أن ديني ج. وهو قاضي تنفيذ للعقوبات، يشغل وظيفة بعيدة جداً، من الوجهة البيروقراطية، عن وظيفة باسكال ر. رئيسة المشروع في شمال فرنسا، إلا أنه يعيش ويروي تجارب شديدة الشبه بتجاربها؛ لأنه يجد نفسه دون شك في مواجهة التناقضات البنيوية نفسها. فباعتباره مكلفاً بـ« تنفيذ» العقوبات التي يقررها قضاة النيابة العامة، أي تخفيضها أو تحويلها في أغلب الحالات بمنح «حرية جزئية وتنقلات خارجية وإفراج مشروط»، فهو موضوع في نقطة تقاطع منظومتين متناقضتين في مقتضياتهما وتصوراتهما. وهو مع كونه موضع شك دائم بأنه يقوض ما يصنعه القاضي بحكمه؛ ويضعف بذلك سلطة العدالة، ينظر القضاة إليه من علٍ لأنه يمثل «الاجتماعي» بالنسبة إليهم. «إن الاجتماعي ليس مثيراً للاهتمام، بل للنكد (..) إنه من الدرجة الثانية(..) وليس من القضاء النبيل (..) إن القضاء يعني إصدار الأحكام القضائية (..) وبحث المشكلات القضائية (..). أما مرافقة الناس في حياتهم لمعرفة ما يصيرون إليه، والسعي لمساعدتهم، فهو..». وتتضاعف صعوبة وضعه حيث يوجد، ليس فقط بضرورة إقناع النيابة العامة والمحكمة بقبول إجراءات الرحمة، مع أنها مقررة في القانون، وطمأنة مديري السجون الذين يسوغون حذرهم دائماً بـ«الإخفاقات» السابقة، بل بالقيام

بدور الملتمس عن طريق «المساعي» لدى شتى المنظمات والروابط والهيئات التابعة للجماعات المحلية.

أما العلاقات الأفقية فليست أكثر يسراً من العلاقات العمودية: «فمنذ وجودي هنا، مثلاً، لم تُعقد قط جمعية عامة لجميع القضاة في المحكمة نفسها. (..) ولا وجود لفِرَق تقوم بالعمل الداخلي. إن لدي عدة مشروعات تتعلق بسياسة بديلة عن السجن؛ ولا أعرف كيف أتحدث عنها للآخرين، لأنني كلما طرقت الموضوع مع الرئيس يقول: «اسمع، فرقة عمل، جمعية عامة، اجتماع.. (لا أريد شيئاً من هذا) فلا مجال لهذا إذن».

ومن أجل تفسير «المصادمات وخيبات الأمل وعدم الفهم» التي عليه مجابهتها باستمرار، يستدعي هو نفسه، بنظر ثاقب، التناقضات الملازمة لوضعه «إن أي قرار يتخذه قاضي تنفيذ العقوبات يضع قاضي المحكمة التي أصدرت قرار الحبس موضع الشك.. كما يضع النيابة العامة. لأن النيابة العامة ليست موافقة في قرارة نفسها، لكنها لا تجرؤ على التصريح بذلك.. ويضع مدير السجن أيضاً، لأن من المزعج له أن يشرف على أناس في الخارج، مع أنهم باقون تحت سلطته. وهكذا يضع الجميع موضع الشك!.. الجميع! الجميع!. وإذن فبقدر ما تكون نشيطاً تضع موضع الشك كل (المنظومة)..».

كما يستحضر بشكل أدق «القلق» الذي يستثيره «الوضع الخارجي» للمحكوم عليهم، عند كثير من الموظفين (طبقاً لمنطق معروف جداً لمستشفى الأمراض العقلية): «أين هم؟ وماذا يفعلون؟». ويبين أن ما يتيحه القانون من إمكانات محدود بظروف تحقيقه الواقعية، بدءاً بنزعات الأعوان المكلفين بالتطبيق؛ كالتعلق بالتسلسل الوظيفي، وذلك النوع من التعصب الطبقي الذي يمنع المجابهة المباشرة للواقع أو مجابهة الآخرين ولاسيما عندما يكونون من مكانة أدنى: «إن جعل الناس المؤهلين لدراسة الموضوع يجتمعون (..) من باب المستحيل»، «إن المشكلة هي أن

لدينا إدارة للسجون تعمل على أساس علاقة تسلسل وظيفي، والشريك لا يعمل بهذا الأسلوب». «عندما يكون لديك مدير سجن لا يستطيع التكلم -لقد عشت ذلك- بالهاتف مع مؤسسة، بصفة شريك بل يصدر الأوامر، نعم يصدر أمراً. إلى هذا الحد وصلت الأمور!».

وهكذا يتوصل إلى نتيجتين متفارقتين (كما فعلت رئيسة المشروع) أولهما: إنهم الأشخاص (وهم أقل استقلالاً في وظائفهم مما قد يظن «فمنذ اللحظة التي يتم فيها تغيير شخص، يتم تغيير السياسة») من خلال روح الإبداع لديهم أو حتى مخالفتهم للقوانين، ينتزعون البيروقراطية من الجمود، بل من الشلل. والنتيجة الثانية: هي أن التفاني في الولاء للمؤسسة، وبذل الجهد لتحويل القدرات الإيجابية الكامنة فيها إلى أفعال، للتكفل الفعلي بالمهام المنوطة بها، لا يجدان من المؤسسة أية مكافأة: «تسألني إن كان التجديد يعود بالفائدة على من يجدد...، أوه، لا، مطلقاً! بل على العكس! فسأعطيك مثال القاضي الذي سبقني في وظيفتي، لقد كان يود أن يكون مدرساً بعد تجربته في ي.، ليتحدث عن قاضي تنفيذ العقوبات، لكنه لم يعين، لأنه كثير الإزعاج وجدّ عصبي وقليل.. بل عيّن مستشاراً في محكمة الاستئناف في ز. ثم في و.، ولا أعرف ما حصل له بعد ذلك، لكنهم لم يشاؤوا تعيينه حيث يكون أكثر أهمية من الوجهة التأسيسية».

ويعترف أيضاً بأنه نقل إلى x، مكان عمله الحالي؛ أي تراجعت مرتبته بعد تجربة ناجحة في ز. حيث استطاع الاضطلاع بمهمته على الوجه الأكمل معتمداً على هيبة ونفوذ القاضي الذي سبقه في المنصب، ثم على حماسته وبراعته في الإفادة من كل الإمكانات التي تتيحها النصوص التشريعية. ويستذكر دون فخر ولا مرارة مراحل حياة مهنية غير عادية: إذ بدأ محاضراً بالقانون العام في الكلية، وانتسب إلى SGEN، وهي نقابة أقلية ذات اتجاه يساري. وبعدما حصل على الدكتوراه، امتهن المحاماة أولاً، ثم القضاء، ليتوجه بعد ذلك -باختيار

أخلاقي وسياسي في آن- إلى القطاع الأكثر قرباً من الجانب الاجتماعي في السلك القضائي. حيث اعتقد أن بوسعه التعبير عن الاستعدادات المعطاءة (ليس هو الذي يتكلم) التي يرجعها إلى تأثير أمه المناضلة الكاثوليكية (تابع هو نفسه دراسته في مدرسة لليسوعيين). بيد أنه يكتشف هنا البنية المتناقضة لمؤسسة منقسمة على نفسها، على صورة صراعات متواصلة مع رؤسائه، وتوترات شخصية مؤلمة: فاليد اليمنى - النيابة العامة هنا- لا تريد أن تعرف ما تفعله اليد اليسرى، أي الأعوان والمنظمات الموكَل إليها ما يسمى بالعمل «الاجتماعي». وإذا كنا نستطيع -مع سارتر- تسمية كذب المرء بنفسه على نفسه، نية سيئة؛ فإن بإمكاننا الكلام عن نية سيئة للمؤسسة، لتسمية نزوع مؤسسات الدولة الدائم لرفض أو إنكار الإجراءات أو الأفعال المطابقة فعلاً لرسالة للدولة، من خلال نوع من اللعب المزدوج والضمير المزدوج الذي يتحمل مسؤوليته الجميع.

بيير بورديو وغابرييل بالاز

وضع حرج بين نارين

انحاز فرانسيس ت.، باعتباره ابن مثقف شيوعي، في وقت مبكر جداً إلى «جانب المستضعفين» فمنذ تجربته المهنية الأولى في إحدى مدن الصفيح المتاخمة لباريس، لم ينقطع عن مزاولة مهنة المربي في الشارع؛ باذلاً من نفسه ليلاً نهاراً، ولاسيما بعد اشتغاله بمتعاطي المخدرات.

ولكونه مناضلاً في أعوام الستينيات، فقد أوقف بسبب مشاركته في المظاهرات التي جرت بصدد محاكمة أحد القادة اليساريين، وسجن. وهو يرى أن تكوينه تم «في الشارع» مع أنه «قرأ كتباً بالطبع»، وتابع تدربه كمربٍ أثناء قيامه بعمله.

عينته إحدى بلديات الضواحي الباريسية في مهمة تتصل بمكافحة المخدرات. فأنشأ «مصلحة إعلام واستقبال بشأن المخدرات»، بيد أنه لا يكتفي بانتظار إبداء متعاطي المخدرات الشباب رغبتهم في الانقطاع عن المخدرات، بالمجيء من تلقاء أنفسهم والاستجابة للعديد من الأحاديث مع الأطباء والمربين والمتخصصين النفسيين؛ بل يحوز على ثقتهم من خلال وجوده إلى جانبهم في اللحظات الحرجة، وأيضاً حين «يأخذون جرعتهم» وتنطلق آمالهم القصوى؛ وهي آمال متزنة و«بورجوازية صغيرة» تبعث على الاندهاش، يوليها فرانسيس ت. التفهم ذاته الذي يوليه لشططهم الأكثر جنوناً.. عندما

يعتريهم العوَز، إذ يحصل لهم على بدائل دوائية من الصيدلي، ويجنبهم التوقيف أو حتى السجن، بإخراجهم من مفوضية الشرطة، وتزييف بيانات بالراتب لهم، ومساندتهم لدى قضاة ومحامين «يعرفهم جيداً». وهو بقربه من المتعاطين وأريحيته الدائمة، ينحاز باقتناع إلى جانبهم؛ مخالفاً نظم المؤسسة، غير متردد في «التزييف» و«الاحتيال». إنه بذلك يعارض الخطاب الأكاديمي الذي يرى فيه «حصراً» للمتعاطي، كما يعارض الرؤية البيروقراطية للعلاج التي بتوجهها الكلي، من خلال الأحاديث المتكررة والمتباعدة في الزمان، إلى معرفة فيما إذا كان المتعاطي مصمماً على الفطام تقود إلى «فرض حواجز أمام إرادة الخلاص لديه». فقد وضع ترتيبات بسيطة موضع التنفيذ: إذ بمساعدة رئيس مصلحة في مشفى كبير بالإضافة إلى مساعدة زوجته الممرضة هناك، يستطيع في أي وقت الحصول على غرفة لصالح أي متعاطٍ مستعد للفطام، وعند انتهاء العلاج بوسع هذا المتعاطي الذهاب إلى «عائلة استقبال» والشروع في البحث عن عمل.

ولأنه يعرف بالتجربة أن المتعاطي لا ينتظر، «وأنه حينما يريد الخلاص، ينبغي الاستجابة فوراً» وباعتباره يشكل ضرباً من الطليعة لمؤسسة يقدم لها خدمات لا تقدر بثمن، لكنها مستعدة دوماً للتنكر له؛ يبدو وكأنه الناطق بلسان متعاطي المخدرات «رجل غامض لأنه يقضي أيامه ولياليه في الشوارع والحانات». ولذا يشعر بأنه ضمير المؤسسة المرتاح وضميرها المعذب في آن. وما الأزمة التي تفجرت عندما ندد علناً بمنتدب للشباب من مناصري نوبان وأدت إلى تسريحه، إلا دليل على وضعه الحرج والمهمة الملتبسة التي أوكلت إليه: «إن ما لم يحتملوه إلا بصعوبة في البلدية هو أنني أقمت سلطة مضادة». فمن حيث هو «مرب في الشارع» ينقل السلطة إلى الشارع بمعنى من المعاني، لكنه يذكر أصحاب السلطة دون انقطاع بسلطة الشارع التي يسهم في توجيهها باعتباره في موقع متقدم «لبيرقراطية التماس مع الناس». وهو موضع شبهة أيضاً لقدرته على التعبئة.

ويتضاعف ما يشعر به من ضيق لوجوده الدائم في وضع حرج، مع

اكتشافه بمرور السنين، للقيود التي كبلته في حياته الخاصة نتيجة ممارسته «لمهنة شاقة»، يفضل الجيل الجديد من المربين تجنبها بالبقاء «في بيوت الشباب مع الألعاب والمسليات» وهي «أماكن استهلاك في النهاية، حيث نشرب ولكننا ندفع، ونلعب وندفع أيضاً». «لو ذهبت إلى وكالة تشغيل المربين لوجدت إعلانات طلب مربي الشارع.. كما هي.. وليس إلا غبي مثلي يأخذها». وهكذا يبدو وهو في الرابعة والأربعين كأنه ابن الخمسين. فعلى الرغم مما يظهر عليه من قوة بدنية، يدعمها صوته القوي إلا أنه يبدو منهكاً ومتعباً. ولهذا يبحث عن مهمة أكثر هدوءاً مثل «المعونة مع العائلات على الواجبات المدرسية»، لاسيما وأن أسرته مع أطفاله الثلاثة، وآخرهم في الرابعة من عمره، تتطلب نصيباً أكبر من وقته. وهو وإن كان يطالب بالحق في «التنفس» قليلاً، إلا أن «رد فعل قديم» يقود خطاه في الليل دائماً، للاستماع إلى المتعاطين في «أماكن اجتماعهم» (فقد ذهب إلى فراشه في الثانية صباحاً، عشية الحديث). وهو يعتقد دائماً بأن واجب المربي أن «يكون مع»: «فمنذ اللحظة التي يتعرف المتعاطون علي فيها كامرىء من خارج المؤسسة. وتنشأ بيننا علاقات وعواطف خارج العملية المؤسسية، يمكن لعملي أن يكون ذا جدوى». ولكنه من خلال دفعه لهذا الثمن فقط، يشعر بأنه «يستطيع النظر إلى وجهه في المرآة، وبأنه ليس ذليلاً».

مع مربٍّ في الشارع

حديث مع بيير بورديو وغابرييل بالاز

«إن الناس في الشارع يثيرون الخوف الشديد»

فرانسيس ت.: عندما عينني رئيس البلدية، بدأت الاهتمام بمركز أوقات الفراغ، حيث كان الشباب يأتون للعب بكرة الطاولة إلخ. وحصلت ظاهرة الاحتلال غير الشرعي في مونتبارناس التي تساهلت الدولة معها زمناً طويلاً، حيث كان الشباب يذهبون للتزود بالحشيش. وبما أن أوليفنستاين أدلى بتصريحات سمعها الشباب وفحواها أن الحشيش ليس بهذه الخطورة، وأنه يشبه قدحاً من الكحول؛ أقبل الشباب على الحشيش بابتهاج. ومن ثم انتقلوا إلى المحقن بالطبع. وتكونت شبكة كاملة لنشر المخدر في تلك الضاحية، وكنا إذا ما أردنا القيام بعملية مؤسسية وإرسالهم إلى الطبيب أو الجمعيات التي تهتم بالأمر، وجب عليهم القيام بالعديد من المقابلات قبل البدء في العلاج؛ بينما تجب الاستجابة الفورية عندما يطلب أي متعاطٍ للمخدرات الخلاص. وحتى عندما يكونون تحت سيطرة المخدر، ينبغي الاستجابة فوراً، وليس الانتظار عشر سنين لمعرفة إذا ما كان مستعداً ذهنياً، فحياة الشاب في الميزان، وساعدني الحظ بالتعرف على أستاذ في مشفى كبير، حيث كانت زوجتي تعمل ممرضة، ففتح لي غرفة في مصلحته، وهكذا أشركت أطباء الحي، كما أشركت المصلحة الاجتماعية للبلدية، التي

كانت تستقبلني كممثل عن متعاطي المخدرات، وترى فيَّ.. وهنا بدأت الحواجز. لأن المؤسسة لم تر فيَّ عضواً فيها بل امرءاً غامضاً يمضي أيامه ولياليه في الشوارع والحانات. ومع أن رئيس البلدية كان متفهماً، إلا أن مؤسسة البلدية برمتها لم تكن ترى فيَّ واحداً منها.. بل كنت المتعاطي القادر على الكلام. وبالفعل، كنت المتعاطي القادر على الكلام مع بعض السلطة.. التي لا يجرؤون على الوقوف ضدها، لأن رئيس البلدية كان ورائي يساندني.. وكذا السلطة العليا التي تعلم.

يفرضون الحواجز على مجرد الإرادة في الخلاص

❖ تقول إنه يجب الإسراع بالتعامل مع المتعاطين.. ماذا كانت تقترح المؤسسة عليهم؟ أكان عليهم الانتظار طويلاً؟

فرانسيس ت.: إنها مؤسسات الإعلام والاستقبال حول المخدرات، إلخ وهناك إجراءات طويلة لمعرفة إذا ما كان المتعاطي مصمماً حقاً على الانقطاع. وهذا يعني فرض حواجز فعلية أمام إرادة الخلاص. صحيح أن هناك من لا يريد الخلاص حقاً، بل يشعر بالحاجة للإفلات في المستشفى أسبوعاً (حتى وإن ارتكب فعلة سيئة أو ما شابه ذلك). لكن ليست هذه هي المشكلة. فبما أنهم يريدون وهناك مكان، سيذهبون ثم يعودون من جديد. وهناك من كرر الفطام عشر مرات! ثم يأتي المرة الحادية عشرة، وتتجح، ثم يأتي للبحث عن العمل.. لكن حصرهم في خطاب أكاديمي لا يفهمون منه الشيء الكثير، يذهبون إليه لأنهم مرغمون من قبل القضاء على أن يكونوا موضع متابعة، إلخ.. إنه مبدأ البرامج التوجيهية، فعندما يراد إجبار شخص لديه مقاومة، فليس عليه إلا الطاعة، لكن ذلك لا يغير مما في نفسه شيئاً. أما إذا طلب هو نفسه لسبب أو لآخر، فأنا موجود في المدينة ليلاً ونهاراً. وليس من النادر أن يرن جرس الهاتف في الثالثة صباحاً، لأن فلاناً في مفوضية الشرطة وعلي الذهاب لإخراجه. أو يأتي آخر في الثالثة صباحاً بحالة سيئة، وينبغي الحصول على حبة ترانسكين 50 كمسكن..

◆ هل كنت مستخدماً من البلدية؟

فرانسيس ت.: أجل، كنت مستخدماً من المدينة. وظهر الحشيش بعد تعييني بثلاثة أسابيع، وأتت فورة تعاطي المخدرات. وكان ذلك من قبيل المصادفة. فتراجعت للوهلة الأولى، لأن المتعاطي برأيي امرؤ تعوزه الإرادة. ولكنني غيرت أفكاري وأخذت في مساعدة المتعاطين؛ ساعدت الشباب في كل القضايا التي رفعت ضدهم حتى أصبحت مقيماً دائماً في محكمة نانتير. وجعلني ذلك، في ظرف سنتين، ثلاث سنوات، أرى القاضي قبل المحاكمة لتقرير ما سيحدث وما الحكم المناسب. ولم يكن سوى القليل من الأحكام بالحبس، لأن القضاء ممثلاً بهذا القاضي اعترف خلال ذلك الوقت بطريقتي، وبي عبر هذه الطريقة..

◆ أكان يساندك في عملك؟

فرانسيس ت.: أجل، فقد ترسخ بيننا حوار ونوع من التوافق والتعاطف حول الشباب، وهذا ما أتاح لي مؤازرة هامة. لم تساندني المدينة إلا قليلاً، لكنني أوجدت مع بنى السلطة صلات أدت إلى الاعتراف بي وإعطاء الشباب صورة للأمان. إذ حول صورة الأمان هذه نمت الثقة. لكن هذا لا يعني عدم وجود صراعات معهم.. فلقد كانت هناك العصا بيننا أحياناً. لأن الأمور كانت تتفجر بيننا عندما لا أكون متفقاً معهم، ومن ثم يحدث النزاع.

◆ كان عليك كسب ثقة الطرفين، وهو ما ليس سهلاً كل الوقت.

فرانسيس ت.: كلا، ولكن ذلك دام عشر سنوات مع ذلك (ضحك) (صمت)

إذا ما عُرِضتَ على المحكمة فسأكون هناك

◆ فكل هؤلاء الشباب إذن.. على غير هدى الآن؟

فرانسيس ت.: إنهم على غير هدى، إنهم..

◆ وهل يواصلون زيارتك؟

فرانسيس ت.: أجل، يمر بعضهم، وبعضهم يهاتفني. وهناك من يكتبون لي، وهناك من رحل إلى الأقاليم وتزوج.. وهم جميعاً مصابون بمرض نقص المناعة المكتسب (الإيدز) ويحملون فيروسه HIV.

أما كيف تمضي حياتهم، فنحن هنا لا نستطيع شيئاً.. وكل ما سعيت إليه هو إعطاؤهم الإمكانات لإعادة التأهيل، وتحضرني حالة مومو الذي صار سائقاً مناولاً؛ وهو مصاب بالفيروس. لكن الفيروس لا يزداد، وهو سعيد الآن.. وأذكر شخصاً آخر في الأقاليم وهو طباخ، وثالثاً في جنوب فرنسا، تزوج ورزق بأطفال وهم يحملون الفيروس أيضاً. يمكنني القول بأن لدي الكثير من الحالات الناجحة اجتماعياً، على الرغم من كل شيء.

(..)

عندما أعود إلى المنزل في المساء متأخراً -عدت البارحة في الثانية صباحاً- يراودني رد فعلي القديم للمرور بالأماكن التي يجتمعون فيها.. والمحقن يدور بينهم فيها. إن المثير للاهتمام هو مشاركتهم جلسات التعاطي، لأنهم من خلال هذيانهم يفصحون عن عذاباتهم الحقيقية وأوهامهم ورغباتهم. ثم إن هذا يؤدي إلى صلة قوية بالنسبة لمرب في الشارع؛ أن يتمكن من مشاركتهم الضياع.. حسناً -تعلم أنني لست موافقاً على ما تفعل- أنت في مرحلة التعاطي، لكنك عندما تريد التوقف فأنا هنا. وإذا ما عرضت على المحكمة فسأكون هناك أيضاً، لمحاولة تقريب وجهات النظر. وكم رتبت من شهادات زور، مع معرفة القاضي جيداً بأنها كانت شهادات زور.

❖ ولِمَ كانت؟ الأجل أفعال صغيرة؟

فرانسيس: أجل، من أجل سرقات صغيرة: تسمح بشراء جرعتين أو ثلاث.. إذ ببيع جرعة بثمن غالٍ يمكن شراء جرعة ونصف.

❖ تتحدث عن تطلعاتهم ورغباتهم. ماذا كانوا يقولون مثلاً؟

فرانسيس: وإحباطاتهم أيضاً، ولكنني لم أتكلم عنها. كانوا كلهم فيما عدا واحداً من المعدمين الذين يرغبون في تأسيس بيت لهم مثلاً وهو شيء

مهم جداً. فأملهم الذي كان يتردد على السنتهم دائماً هو أن أحصل لهم على شقة أو غرفة. أملهم جميعاً.

◆ أين كانوا يسكنون؟ ألدى أهلهم؟

فرانسيس: عند الأهل عموماً أو في أقبية عندما يطردهم الأهل.

◆ في المساكن المعتدلة الكراء (HLM)؟

فرانسيس: أجل، وفي منازل هدمت اليوم لبناء مكاتب أنيقة في مكانها. عندما سمعت رئيس البلدية يقول: «ينبغي على هؤلاء الناس الذهاب للسكن على بعد 50 كلم من هنا، على كل حال».. كانت مشكلة بالنسبة لي..

◆ تتحدث عن بيت لهم، فهل من شيء آخر، صديقة؟

فرانسيس: التطلع إلى بيت خاص وعمل وطفل (أميل لقول طفل - عائلة - وطن) (يضحك)

◆ إن هذا لا يصدق، فليست هذه هي الفكرة التي تعطى عن..

فرانسيس: ماذا فعلوا، أولئك الذين ذهبوا للأقاليم؟ لقد توجهوا إلى عائلات الاستقبال. كانوا يأتون إلى المشفى وينهون فطامهم، بينما كنت أعمل مع عائلات الاستقبال. وأرافقهم إلى القطار ما إن ينهوا فطامهم، دون أن يكون لهم الوقت للمرور على بيوتهم. وغالباً ما يبقون بعدما تنتهي فترة الإقامة مع عائلة الاستقبال؛ لأنهم وجدوا بالفعل عائلة بديلة، فيبقون ويعثرون على عمل وصديقة ثم على شقة، ويحصلون على رخصة السياقة لأنهم يودون شراء سيارة. وهكذا يكونون قد كونوا عالماً بورجوازياً صغيراً مثالياً، بعدما عاشوا في الحضيض.

◆ وهل كانوا شباباً تركوا المدرسة؟

فرانسيس: أجل، عموماً. وأقواهم وصلوا إلى الصف التاسع.

◆ ما كانوا يقولون عن المدرسة؟

فرانسيس: لقد نبذتهم المدرسة، فهم من المطرودين. ولديهم بالتالي عقلية المبعدين. وبما أنه ليس لديهم من المؤهلات ما يستطيعون به الحصول

على عمل، كانوا يبحثون عن الإعانة، أي عمن يعينهم. وهذا شيء رفضته دائماً، ولهذا جعلتهم يكسبون بعض المال والغذاء، بأشياء محددة وغايات واضحة.

❖ لابد أنهم كانوا ينتظرون الشيء الكثير منك؟

فرانسيس: حسناً، لقد كانوا يطلبون أن أبني لهم العالم الذي وجدوه عندما ذهبوا لعائلات الاستقبال واستقروا.

❖ كل ما كنت تستطيعه في الواقع هو الاستماع إليهم، وحمايتهم..

فرانسيس: وقد أسست أعمالاً صغيرة. أنشأت رابطة حصلتُ لها على دعم مالي من المديرية. وأحدثت فيها بنىً للعمل: إذ اشترينا شاحنتين. وكان معنا حداد سيارات فاشترينا أدوات إذن.. وكان يصلح السيارات، وهو الآن ناجح في عمله. كما كنا نقوم بنقل الأثاث من المحطة، والبيع، وطلاء الشقق. والأمور تسير على ما يرام! ثم أنشأتُ بنفسي شركة لسيارات الإسعاف مع شخص خرج لتوه من عشر سنوات في السجن.. ومازال ذلك يكلفني غالياً الآن. لكن الأمر لا يهم (يضحك) فلقد استأجرنا محلاً في حالة سيئة، وكان هناك قبو بإمكاننا استعماله؛ فاستخدمتُ الشباب الذين كنت مهتماً بهم في هذا المحل، ودفعتُ أجورهم من دعم المحافظة المالي. فما كان منهم إلا أن سرقوا سيارة وصدموا محرس المشفى (يضحك). يا للفضيحة! إذ كان السائق دون رخصة وأعاره صديقه سيارة الإسعاف. وهكذا بدأت المحاقن تختفي من المشفى وكذا الأدوية أيضاً.

❖ لقد كانت تلك مجازفة منك نوعاً ما.. (يضحك)

فرانسيس: لقد تحملت المسؤولية. وعندما رأيت القاضي قلت له أن يرتب لي الأمور، لأنني لا أستطيع تغييرهم بين يوم وليلة. فلن يتحول الرجل إلى حمل وديع بمجرد إعطائي عملاً له، أليس كذلك؟ وانا إذن بحاجة إلى مرحلة انتقالية. لقد احتاج إلى المحاقن فسرقها، وهذا يعني أنه لم يتخلص من المخدرات. وأنه سينزل في المشفى نفسه الذي سرقه، وستعتني به، زيادة

على ذلك، زوجة المربي التي يعرفها جيداً، ثم يخرج شخصاً آخر. وهكذا كانت تجري الأمور غالباً.

❖ هل كان الشفاء يستغرق وقتاً طويلاً؟

فرانسيس: أنا أضع له ثلاثة أعوام، بيد أن ذلك ليس مؤكداً بل إنه احتمال. فلا يمكن رؤية النتيجة إلا بعد الفطام وأسرة الاستقبال واللحظة التي يتم فيها الاندماج المهني. فلابد إذن من متابعة لثلاثة أعوام. وهو ما فعلته خلال عشر سنين.

(..)

لم يعد الأمر محتملاً من قبل السلطة.

❖ لقد كان لديك العديد من الحلفاء في شتى القطاعات، فقد أنشأتَ شركة لسيارات الإسعاف..

فرانسيس: لقد أنشأتُ الشركة بنفسي، مع أنني دُعمت مالياً. إن شركة الإسعاف ليست للبلدية، بل لفرانسيس ت. مع أنها هي التي أتاحت لي الحصول على الدعم المالي، وهي التي سمحت لي بإنشاء الشركة من وقت عملي، لكنها لم تتورط قط (وحتى الآن فإن الجمعية الوسيطة الموجودة في المدينة، أنشأها الكاثوليك وليست البلدية). وما يدعو إلى الاستغراب هو ما تقدمه سلطات صغيرة إلى سلطة كبيرة من خدمات. لأن البلدية حولتْ هذه الخدمات إلى مصلحتها؛ حولتها سياسياً.. رئيس البلدية.. وكل بنى السلطة ترتكز على سلطات صغيرة، مع أن هذه السلطات تتبع تلك البنى في إثبات وجودها. إذ ما كنت أستطيع إنشاء شركة الإسعاف لو لم يدعوا لي الوقت لإنشائها.

❖ ربما كانوا يساعدونك في تهيئة الملف للحصول على..

فرانسيس: لا شيء من هذا البتة. بل كان لي صديق محامٍ. وواقع الحال أنهم لم يكونوا في البلدية يحتملون إلا بصعوبة، إنشائي لسلطة مضادة. لأنني كنت سلطة مضادة. إذ كانت الأمور تسير على ما يرام

مادامت البنية لا تزعج أحداً. غير أنه منذ اللحظة التي حدثت فيها القطيعة للتحالف مع لوبان، وشرعتُ بإصدار جريدة أو على الأصح ورقة مسحوبة أخذتُ أرسلها إلى كل مساعدي رئيس البلدية، أخذتْ السلطة المضادة بُعداً جعلها غير قابلة للتحمل من قبل السلطة، وحصلت القطيعة.

❖ إذن، هناك دولة ممثَّلة بالبلدية التي لم تساندك إلا قليلاً، ومن الجهة الأخرى مجموعة من الناس كنت على صلات بهم، في القطاع الطبي، ولدى المحامين، وفي القضاء.. وآخرون كأرباب العمل..

فرانسيس: وصلات مع الصيادلة لإقناعهم بأنني أعرف فلاناً جيداً..

❖ ولماذا، هل كانوا يعطون أدوية ومحاقن؟

فرانسيس: أجل، إذ كنت أدخل الصيدلية طالباً علبة ترانسكين لأنني بحاجة إليها لشاب في حالة عوَز. فيعطيني الصيدلي إياها ثم أجلب الوصفة فيما بعد.

❖ هل ربحت الوقت في كل مرة؟

فرانسيس: أجل (صمت) لقد كانت بنية البلدية تعارضني، ولكن بما أنها غير قادرة على وضع نفسها مكاني وفعل ما أفعله، فقد كنت الأقوى. إذ كنت أعمل مع محامٍ وطبيبين، أحدهما معتمَد من قبل القضاء، وأعرف قاضي المدينة جيداً. كما كنت أعمل مع مجموع العاملين الاجتماعيين في المدينة، على الرغم من اختلافنا أحياناً. وكل هذا أدى إلى وجود بنية عملياتية تتيح.. ثم إن رئيس البلدية كان يدعنا نعمل (صمت) إن العوائق أتت في واقع الأمر من السلطات الموجودة تحت إمرته.

❖ الرؤساء الصغار؟

فرانسيس: أجل، هم الرؤساء الصغار. لكنني عند تراكم المشكلات، كنت أطلب موعداً من رئيس البلدية أو أكتب له حتى يزيلها.

أُخرجُ البطاقة المهنية

❖ أساعات عملك ثقيلة جداً؟

فرانسيس: حسناً، لو كنت في مكان ما وحدثت عملية شرطة، أُخرج بطاقتي المهنية. لكنهم إن أوقفوا شخصاً، فعلي مهاتفة وكيل النيابة والتدخل في مفوضية الشرطة، للدخول معهم في مساومات. وقد يكون شخص في حالة سيئة، فعلي البقاء معه، لأنني لا أستطيع تركه..

◆ وهل تأخذه للطبيب؟

فرانسيس: وإما أنه يهذي، وهو بحاجة للكلام؛ أي أن يهذي مع شخص آخر يستمع له. لأن أصدقاءه لا يستمعون إليه. وهذا يشكل جزءاً من عملية اعترافهم بي. فهم يعلمون جيداً بأن حياتي تختلف عن حياتهم، وحتى يعترفوا بي كشخص قادر على مساعدتهم، يتعين عليهم أن يتعرفوا على باعتباري من خارج المؤسسة التي أمثلها، وتخلق بذلك عواطف وعلاقات بيننا خارج العملية الرسمية؛ وهكذا يغدو عملي ذا جدوى.

تشرين الأول 1992

باتريك شامبانيه

رؤية الدولة

أدى النقاش الواسع في وسائل الإعلام حول «ضروب القلق الاجتماعي» إلى تكاثر منشورات وتقارير شتى، تستهدف وصف وتفسير و«علاج» هذا «القلق» الذي انتقل هكذا إلى الساحة العلنية. إلا أن وسائل الإعلام الشائعة ليست أبداً، كما يدعي البعض، مجرد شهود تكتفي بعرض الوقائع أو بطرح المشكلات على الأقل. لأنها بمجرد أن تتكلم علانية عن القلق، تغير وضعية ضروب القلق تلك: فما كان «مشكلة خاصة» أو «محلية» صار «مشكلة مجتمع» يتعين حلها سياسياً. وما كان راجعاً إلى المسؤولية الشخصية تحول إلى المسؤولية الجماعية. وما كان، باختصار «قلقاً فردياً» معيشاً كشأن حميمي أو خاص، يجنح للتحول إلى موضوع لحلقات بحث، وملتقيات للتفكير، وصفحات «جدال» في الصحف الوطنية اليومية؛ يتواجه فيها معلقون سياسيون ومثقفون مشهورون إعلامياً. وبهذا تفتح وسائل الإعلام سوقاً حقيقية رابحة من الوجهة الاقتصادية، تتقاطر عليها الشهادات والتحقيقات التلقائية أو المصطنعة. وتفرض وسائل الإعلام من جهة أخرى رؤيتها الخاصة للمشكلات الاجتماعية. تلك الرؤية التي ترتكز أساساً على تصوير الوقائع الأكثر إثارة والأكثر سطحية أيضاً في الغالب. فعبر الكلمات التي تفرضها («أحياء الغيتو»، «جريمة عنصرية» إلخ)، والأشخاص الذين تختارهم للكلام أو التحاور، تسهم في إيجاد خطاب حقيقي عام حول

«ضروب القلق» التي تتحدث عنها. وفي الوقت الذي تشخص فيه القلق («شقاء الضواحي» مثلاً أو «قلق الأساتذة») يقال لنا ما يجب أن يكون رأينا فيه. ولا تفرض هذه التفسيرات نفسها على غير المعنيين فحسب، بل أيضاً على المعنيين الرئيسيين الذين يجدون فيها خطاباً شرعياً حول قلق، قد يشعرون به بصورة مبهمة نوعاً ما، ولكنه عصي على التعبير لأنه غير شرعي.

ويشكل هذا الخطاب العلني ستاراً يحجب الوقائع، لاسيما وأنه يتمتع ببداهة تتناسب مع قربه من الأفكار المتداولة. ولأنه، علاوة على ذلك، يميل إلى وضع السلطة السياسية موضع الاتهام؛ فهو يشجع تزايد إنتاج يعتمد على إشكاليات ذات نمط سياسي، من استبيانات الرأي حتى الأدبيات البيروقراطية المتكونة من التقارير التي تطلبها السلطات السياسية التي تشعر بأنها مطالبة من الصحافة (ومن الذين يعبرون بوساطتها) بالحل السريع لهذه المشكلات التي تتصدر «الصفحات الأولى» للأخبار.

وحالة الضواحي التي تعاني من الصعوبات، هي هنا أيضاً، أوضح مثال بهذا الصدد. فقد تمت منذ نهاية الستينيات تحقيقات عديدة في علم الاجتماع الحضري، وعلم اجتماع الهجرة، وقدمت عملياً منذ ذلك الوقت كل عناصر التحليل الضرورية لفهم الوضع الحالي لهذه الأحياء (مثل أعمال هنري كوانغ وكوليت بيتونيه حول السكن الشعبي، وأعمال عبد المالك صياد حول المهاجرين أو أعمال ميشيل بيالو حول علاقات شباب هذه الأحياء مع العمل بالنيابة، والأعمال الأحدث في العدد 81-82 من أعمال البحث في العلوم الاجتماعية المخصص لـ«الاقتصاد المنزلي»). مرت هذه الأعمال التي يعرفها المتخصصون دون كبير انتباه، لأنها كانت خارج الأحداث الراهنة. وعندما طفت مشكلة الضواحي على السطح في وسائل الإعلام ولأجلها خلال الثمانينيات، لاسيما مع مواجهات حي منجيت، ثم في بداية التسعينيات على الخصوص مع حوادث فولكسان فيلان، شهدنا انفجاراً حقيقياً للنشريات والأعداد الخاصة للمجلات حول تلك الموضوعات؛ لجملة من الأسباب: أحدها الصعود الانتخابي لليمين المتطرف في هذه الأحياء خاصة الذي جعل من مشكلة الضواحي تلك مشكلة سياسية، اهتم بها الصحفيون والجمهور

الواسع أيضاً. وهكذا أسهمت الإصدارات التي ظهرت آنذاك، من الشهادات البسيطة إلى التحقيقات الاجتماعية في النضال السياسي الرمزي أكثر منه الفكري الذي استهدف فرض رؤية وتفسير «على الحامي». ولا يستطيع علم الاجتماع تجاهل هذه الإصدارات. ليس لأنها تحتل الميدان نوعاً ما وتشكل عقبة، من حيث طبيعتها ذاتها، أمام تحليل أكثر عمقاً وحسب؛ بل لأن تعبئة كهذه لابد أن تنتج معلومات هامة وتحليلات سديدة. فمن قراءة هذه المنشورات حول «الضواحي» و«الشباب» و«الهجرة» و«الشباب المهاجر في الضواحي» -التي يشق علينا اليوم عمل قائمة شاملة بها- يقتنع المرء بأن كل شيء قد قيل، بمعنى ما، ولا ينبغي أن ننتظر من عالم الاجتماع الكشف عن واقعة خفية أو غير منتظرة، أو عن سلسلة أفاعيل اجتماعية لم تخطر على بال أحد من قبل. بيد أن وفرة المعلومات والتحليلات المتنافرة تولد البلبلة وتطلق العنان للتفسيرات المجتزأة أو الوهمية؛ فبمقدور أي شخص منذ الآن أن يعثر بسهولة على التفسيرات التي يرغب في سماعها: وهكذا يمكن العثور على سبب «شقاء الضواحي» في تخطيط سيء للسياسة العمرانية أو في الأزمة الاقتصادية أو في تراخي قوى الأمن (أو العكس) أو في عدم التحكم بالهجرة أو في التفكك العائلي أو في المخدرات أو في كل ذلك مجتمعاً. ومهمة عالم الاجتماع حول هذه الموضوعات تحديداً -وهي ليست المهمة الأسهل- أن يميز فيما بين الوجيه والأقل وجاهة، وما بين المهم والثانوي أو الفرعي. ويتعين عليه على وجه الخصوص ترتيب وإدماج مجموعة عوامل ليست لها القيمة الوظيفية نفسها ضمن منظومة تفسيرية متماسكة.

ونود هنا، لإلقاء الضوء على هذه الأدبيات، تقديم مثالين متعارضين تماماً عن تلك المنشورات الظرفية: هما استبيان رأي بسيط ذو نوايا سياسية، من جانب، ومن الجانب آخر تقرير الخبير الذي يحاول أن يجمع للسلطات السياسية، المعلومات المتاحة ويلخصها.

تبدو تحقيقات سبر الآراء لدى الجمهور الواسع والصحفيين -وحتى بعض الخبراء- على أنها «علمية» لأنها تكتسي جميع المظاهر الخارجية للبحث العلمي: من عينة تمثيلية للمحقّق معهم (كأنما الأمر الجوهري هنا)

واستمارة أسئلة، وأجوبة تقدم على شكل نسب مئوية أو رسوم بيانية، إلخ. ولها بالإضافة إلى ذلك ميزة إخفاء عالم الاجتماع من حيث هو كذلك، بأسئلته النوعية المقصود منها تحليل آليات اجتماعية عبر تحقيقات تتم بطريقة تجريبية. كما أنها تحظى بتقدير الصحفيين بصفة خاصة، لأنها لا تقتضي تلك التعليقات المعقدة والمستحيلة التي يصعب إيجازها في بضعة أسطر، ولأنها تقدم بسرعة معلومات يعتبرونها صحيحة. فالأسئلة الوحيدة التي تطرح هي التي تتطلب السياسة طرحها. ولهذا تبدو هذه الأسئلة الناجمة عن الإشكالية السياسية الغالبة ومن أجلها، بديهية لأولئك الذين يوعزون بطرحها على الأقل. فتَحْتَ أية حجة يمتنعون مثلاً عن سؤال «الشعب» عن المسؤولية في جنوح الأحداث، أتقع على الأسرة أم على المجتمع؟ أفلا يحصلون عبر هذا السؤال الذي «يطرحه الجميع» بعد أن تصدرت «مشكلة الضواحي» وسائل الإعلام، على معطيات إحصائية بينة وغير قابلة للنقاش، وأرقام «تتكلم عن نفسها» تدلل على أننا بإزاء «مشكلة مجتمع (بطالة، عنف في وسائل الإعلام، إلخ) جديدة».

لكن الأسئلة التي يطرحها القائمون بسبر الآراء، أضحت بديهية كذلك للجمهور العريض، لأن معاهد سبر الآراء تطرحها وتكرر طرحها منذ سنوات، بالعبارات نفسها (للمقارنة بدقة بين التغيرات، كما يقولون) بحيث لا يندهش أحد من طرحها، لأنه سمعها عشرات المرات؛ في الوقت الذي لا تكتسي فيه أي معنى أو وظيفة إلا داخل الدائرة الضيقة للمهتمين بالسياسة. وقد أنتجت عادة سبر الآراء أنموذجاً جديداً من الرأي -هو الرأي من أجل سبر الرأي- الذي يبعد أكثر الأحيان أشد البعد عن الواقع الذي يفترض قياسه، ويحجب الأسئلة الحقيقية التي ينبغي طرحها. فواقع الحال هو إن هذه التحقيقات المكلفة والمتواصلة التي تجري دائماً بصفة استعجالية وتغذي الوهم بوجود معرفة علمية سريعة، لا تنبيء إلا عن صنوف ذهنيات الذين يوعزون بإجرائها ويصممونها ويستعملونها، إذ تبدو الأسئلة، بعبارة أخرى، أكثر أهمية من الأجوبة المعطاة، لأنها تكشف بصورة مباشرة عن انشغالات الحكام والمسؤولين السياسيين.

ولنأخذ كمثال استبياناً جرى في آذار 1991 (أي بعد بضعة أشهر من حوادث فولكسان فيلان، وإحداث وزارة للمدينة) لحساب جريدة لوباريسيان وإذاعة فرانس أنتير. والأسئلة الثمانية التي طُرحت تستحق الذكر كاملة (مع تعليق موجز) باعتبارها عينة للصيغ المختلفة التي تتخذها هذه الأسئلة عموماً. كما تشكل أنموذجاً للتساؤل السياسي.

1) هل تشعر بأن أشكال عدم المساواة بين الناس في فرنسا منذ عشر سنوات.. تميل بالأحرى إلى الازدياد؟ بقيتْ ثابتة؟ تميل إلى التناقص؟ لا تبدي رأياً (هل هذا السؤال الذي هو موضوع إنشائي كلاسيكي في مسابقات الدخول للمدرسة العليا للإدارة ENA (لاسيما بعد عشر سنوات من الاشتراكية) سؤال عن رأي أم عن واقع؟ فماذا يراد عمله بـ«مشاعر الناس» في هذا السؤال الذي يحرك الأوساط السياسية خاصة؟ وماذا سيعمل بالأجوبة الجريئة للشباب الذي سئلوا ويجدون صعوبة في إعطاء رأيهم عن التطور منذ عشر سنوات؟ الواقع هو أن علينا انتظار الأسئلة التالية لمعرفة النوايا الحقيقية الكامنة وراء هذا السؤال).

2) هل ترى أن أشكال عدم المساواة في فرنسا الآن.. لا تطاق؟ قوية؟ ليست قوية؟ ليست قوية البتة؟ لا تبدي رأياً.

(ما هو المحتوى الذي ستعطيه مختلف الفئات التي سئلت لصفات «لا تطاق»، «قوية»، إلخ لكن هذا الأمر قليل الأهمية. لأن المقصود فقط هو جر الناس إلى أرضية سياسية محضة، لتهيئة الأشخاص المسؤولين للسؤالين التاليين).

3) ما هي الميادين التي ينبغي التحرك فيها أولاً: السكن؟ الدخول والمرتبات؟ الصحة؟ التربية والتكوين؟ لا تبدي رأياً.

(إن مشكلة الأولويات هي أنموذج للأسئلة التي يطرحها السياسيون على أنفسهم «الحكم يعني الاختيار» كما كان يقول منديس فرانس. ولكنه كان يقصد الاختيار عن علم، ومن وجهة نظر الصالح العام، حتى لو تبين أن إجراءاً معيناً لا يحظى بالتأييد الشعبي من خلال سبر الآراء.

أما الآن فترتب قائمة الأولويات بناءً على استشارة المواطنين مباشرة، الذين يفترض أن تعبر أجوبتهم عما يرون له الأولوية في الميادين التي تعنيهم مباشرة وبصفة شخصية).

4) هل لك شخصياً، ثقة تامة؟ ثقة بالأحرى؟ لا ثقة بالأحرى؟ لا ثقة البتة؟ بأن حكومة ميشيل روكار ستنقص من عدم المساواة بين الفرنسيين؟

(هذا هو السؤال الذي كان يراد طرحه بالفعل منذ البداية، والذي يأتي خلاصة للأسئلة الثلاثة السابقة. فالمقصود هنا هو «مسألة ثقة» لا تطرح على الجمعية الوطنية، حيث الأكثرية البرلمانية غير مؤكدة. بل مباشرة على الشعب، على «الناس» الذين لديهم كما يبدو «رأي جيد» بروكار منذ عشر سنوات).

5) مع تطور مجتمعنا، هل الحياة في المدن الكبرى برأيك.. صعبة جداً؟ صعبة بالأحرى؟ طيبة بالأحرى؟ طيبة جداً؟

(ليس المقصود من هذا السؤال المبهم والعام جمع معلومات دقيقة، بل تهيئة الأسئلة التالية حول الضواحي التي تذكر بأحداث إعلامية محددة سياسية تعالت أصداؤها في وسائل الإعلام).

6) وضمن الضواحي..؟

(نقترب من السؤال الذي كان يحرق شفاه طالبي الاستبيان منذ البداية).

7) ما هي الفئة من بين الفئات التالية التي يستحق وضعها الاهتمام أولاً من قبل الوزير الجديد للمدينة، المسؤول عن مشكلات المدن الكبرى والضواحي، المسنون؟ التجار؟ الشباب؟ المهاجرون؟ النساء الوحيدات؟ لا تبدي رأياً.

(أفلت السؤال أخيراً. فهم يذكرون بمنطوق السؤال أن هناك منذ الآن وزيراً للمدينة وهو مسؤول ويريد إعطاء الأولوية لعدد من فئات السكان. هذه الفئات مستعارة من اللغة الشائعة (أين تصنف امرأة شابة وحيدة مثلاً، من أصل مهاجر، ولديها تجارة صغيرة؟) ومهيئة جيداً لاستبعاد المشكلات

الحقيقية. والوظيفة الوحيدة، في واقع الحال، لهذا السؤال هي معرفة نسبة الناس الذين يقبلون مساعدة المهاجرين كأولوية، باعتبارهم كما يقول الجميع أول المعنيين بمشكلات الضواحي، ويتم مزجهم هنا مع فئات أقل توريطاً من الوجهة السياسية).

8) تعلم أن البلديات تتلقى جزءاً من مواردها من المنشآت المقامة على أرضها وهي الرسوم المهنية. والحكومة تهيىء مشروع قانون يتم بموجبه توزيع جزء من الرسوم المهنية التي تجبيها البلديات الأكثر حظوة على البلديات الفقيرة. هل توافق أو تعارض هذا المشروع؟

(يبدأ هذا السؤال بـ«تعلم» والحال أن أكثرية الذين يُسألون لا يعرفون. ويستمر على شكل تذكير موجز بوساطة جمل بسيطة ومألوفة، يقوم مقام درس حقيقي في قانون الجباية (يعلم جميع المتخصصين بما دار حول الرسم المحلي من بحوث، لتعقد المشكلة) لينتهي بتقديم مشروع قانون حكومي بعبارات يتعذر معها معارضته: فقد صرح 80٪ من الذين سئلوا بأنهم موافقون على مشروع القانون الذي يقترح أخذ بعض المال من البلديات الأغنى لإعطائه للبلديات الأفقر).

ويبين التقرير الذي عمل عن الاستبيان، الوظائف الذي يؤديها هذا الاستبيان. فهو يتكون من وثيقة تحتوي على سلسلة من الجداول، دون أي تعليق. وفي أعلى كل صفحة ذكر نص السؤال والأجوبة من تحته.

صفحة أولى تعطي المجموع الكلي للتوزيعات، وتتقاطع الأجوبة في الصفحات التالية وفقاً لمتغيرات «اجتماعية» معتادة، وهكذا دواليك بالنسبة لكل سؤال. وقد تم عرض النتائج في الواقع تبعاً لانشغالات سياسية محضة؛ إذ تقدم الصفحة الأولى التوزيعات بمنطق الاقتراع أو الاستفتاء («ما تراه أكثرية الفرنسيين») بينما تذكر الصفحات التالية الأجوبة المتقاطعة واحداً واحداً، ومتغيراً بمتغير، وفقاً لمجموعات مبنية خصيصاً للمسؤولين السياسيين. وهي فئات فائدتها للعمل أكثر منها للتحليل (الجنس، العمر، المهنة، الاتجاه الحزبي، السكنى). فهذه الجداول المتقاطعة

لا تستهدف، بعبارة أخرى، التفسير بقدر ما تستهدف التعرف على الفئات التي تساند أو تعارض رأياً صنعه السياسيون، ثم تأتي أجوبة هذه الفئات لتغذي نزاعاتهم الداخلية. كما تسمح هذه الجداول بالتعرف على الفئة التي يتعين إقناعها، وتوجيه الحملات السياسية نحوها في المستقبل (الشباب أو المسنين، الرجال أو النساء، سكان المدن أو سكان الأرياف). أما المعلومة الأكثر أهمية في الاستبيان فهي تاريخه بدقة الذي يوجب قانون 1977 ذكره؛ لأنه يذكر بأن القيمة الوحيدة لهذا النمط من التحقيقات ليست في فهم مشكلة الضواحي، بقدر ما هي معرفة «مستوى الرأي العام» إزاء الحكومة يوم إجراء التحقيق (وهو ما يعبر عنه السابرون كنايةً بالصورة، إذ ليس المقصود هنا سوى «لقطة آنية للرأي العام»). كما يذكر هذا التاريخ بأن الاستبيان المعنوَن بـ«الانشغالات الاجتماعية للفرنسيين» يشير في الواقع إلى «الانشغالات السياسية لميشيل روكار» الذي كان في هذا التاريخ وزيراً أولاً.

وفي الجهة المقابلة من هذه المنشورات التي أثارتها وسائل الإعلام بصورة غير مباشرة، يمكن أخذ مثال التقرير المقدم لوزارة الدولة ووزير المدينة والتهيئة العمرانية المعنوَن بـ«المنفى». واضع التقرير هو جان - ماري دولارو، العضو في مجلس الدولة. وقد كلفه الوزير الجديد للمدينة بإيضاح الوضع في الضواحي التي تعاني من الصعوبات في أعقاب حوادث فولكسان فيلان. ويستمد التقرير الذي سلم بعد عدة أشهر قيمته من السجايا التي يتصف بها واضعه؛ فعلاوة على اهتمامه السابق بالمشكلات الاجتماعية، وهو أمر مألوف لدى شريحة «يسارية» أو «مثقفة» في الوظائف الإدارية العليا، فإنه يمتلك تأهيلاً سوسيولوجياً سمح له بتناول هذه المسألة بالحد الأدنى من الكفاءة، منددأً على وجه الخصوص بالطريقة المنحازة التي قدمت بها وسائل الإعلام هذه المشكلات. إذ نجد في هذه الوثيقة التي ترتكز على قراءة أعمال سوسيولوجية مختلفة، وعلى استماع فعلي لكل العاملين في هذه الأحياء، شروحاً هامة. وباختصار، فإن هذا النمط من التقارير قد تم إنجازه في ظروف سمحت دون شك بحشد معرفة للعالَم الاجتماعي تفوق بكثير تلك التي تحتويها العديد من التقارير البيروقراطية، وتفوق من باب

أولى تلك التي يمتلكها الأكثرية من كبار الموظفين حول هؤلاء السكان المظلومين الذين يفترض فيهم الاهتمام بهم.

ولكن لهذا التحليل حدوده المتأتية من ظروف إنتاجه الاجتماعية. فالجزء المخصص للتثبت من الوقائع، أي لفهم وضع هذه الضواحي المعسرة قصير نسبياً (عشرون صفحة مما يقرب من 200 صفحة)، باعتبار أن المهمة الموكولة لهؤلاء الموظفين الكبار -ولا ينبغي نسيان هذا- ذات طبيعة سياسية. لكن التحليل نفسه يميل إلى اتباع منطق سياسي أكثر منه فكري. إذ يجب على هؤلاء الموظفين الكبار الاستماع إلى الجميع بصفة ديمقراطية «دون تحزب» وفقاً لمنطق جمع آراء الخبراء الذي لا يتوافق -دائماً تقريباً- إلا قليلاً مع بناء عقلي صارم. وينتمي المؤلفون المذكورون، الذين اقتطفت من أعمالهم مقاطع تحليلية في غير سياقها عموماً، إلى عوالم نظرية شديدة التنافر، إن لم نقل بصراحة إنها متناقضة (تكفي إلقاء نظرة على قائمة المؤلفين المذكورين في هذا التقرير التي تشكل خليطاً غير منسجم بالنسبة لعالم اجتماع). وينحو المنطق السائد في تهيئة هذا التقرير منحى الوصف أكثر من التفسير، وإلى تنظيم فهرس بالعوامل المسببة، وليس إلى بناء منظومة تفسيرية.

فالواقع الاجتماعي مقسم وفق أصناف إدارية (ج. م. دولارو يميز بين ثلاثة عناصر «الحضري» و«الاجتماعي» و«الشباب») ليست سديدة بالضرورة من وجهة نظر اجتماعية، لكنها إطار ملائم ومفهوم من قبل السياسيين لاقتراح الحلول. لأن ما ينتظر أساساً من مثل هذه التقارير هي الأفكار والحلول؛ أفكار لحلول يفضل أن تكون محسوسة وذات أثر فوري، أي قابلة للتسويق إعلامياً. ويظهر عدم كفاية التحليلات بصورة خاصة في نمط الحلول المقترحة التي تبقى على سطوح الأشياء؛ فهي إما حلول بسيطة تعتمد «العقل السليم» (كضرورة التنسيق مثلاً بين أعمال مختلف الإدارات الجارية في الضواحي، والتي كانت مشتتة إلى الآن) وهو كثير من قبل موظف كبير، إذا أخذنا المنطق البيروقراطي الحالي بالحسبان، لكنه لا يرجع في أكثره إلى تحليل للوضع؛ وإما حلول تريد أن تكون أكثر تجديداً، لكنها بالإضافة إلى كونها لا تستند أيضاً على تحليل مسبق، فهي لا تخرج إلا بصعوبة من أوهام الإرادية السياسية، مثل

كل ما وضع في تقرير دولارو تحت مفهوم «المواطنة» التي يفترض فيها أن تحل مشكلات ليس أصلها سياسياً محضاً.

ليس بوسع هذه التقارير أن تفترق حقاً عن الإشكالية المسبقة البناء من قبل وسائل الإعلام، لأن وظيفتها الرئيسية هي الرد عليها. إذ لا يرى المقرر إلا ما ينبغي تحليله في الواقع وهو الفئات الاجتماعية المتواجدة في المكان؛ ومن ينبغي استجوابهم حول طريقتهم في إعادة الإنتاج الاجتماعي ومسار الأفراد الذين يكونونها، وما ينبغي قياسه وهو تأثيرات السياسات العامة المتصلة بالسوق العقارية ومنظومة التكوين (المدرسة) وسوق العمل على هذه الفئات، بيد أنه ليس علينا سوى الإنصات حقاً لكل أولئك الذي يعملون في هذه «الضواحي» من عاملين اجتماعيين، ومسؤولين عن وكالة التشغيل، ومديرين لوكالات التشغيل بالإنابة، لنكتشف أن الحلول ليست موجودة في «الضواحي» ذاتها. وذلك لأن أسباب المشكلات ليست في الأحياء ببساطة، بل في مكان آخر، أي في قلب الدولة نفسه غالباً.

«تكاليف» الهجرة و«الأرباح» منها

عبد المالك صياد

ليس من سبب، «في التصوّر المجرد»، لوجود الهجرة والمهاجر إلا إذا كانا «ينفعان» أكثر مما «يكلفان». فكيف تتم زيادة «الأرباح» للحد الأقصى (اقتصادياً خاصة) وتخفيض «التكاليف» (الاجتماعية والثقافية خاصة) للحد الأدنى؟ ليست هذه المسألة اقتصادية محضة، يبحثها الاقتصاديون صراحة. ولكنها مسألة موجودة ضمناً في كل الأحاديث عن الهجرة، وتفرض هذه الإشكالية نفسها بدرجة تبدو فيها أمراً بديهياً. وبما أن الممارسة الحسابية التي تعبر عنها تنطبق على أناس يتمتعون بوضع قانوني، فهي لا تماثل أية ممارسة تتناول أية فئة أخرى. فإذا تعلق الأمر مثلاً بالطفولة والشباب أو بالمسنين، يكون السؤال كيف نحصل على الوسائل اللازمة التي

يتطلبها وضعهم. أما في حالة المهاجرين، فيتعلق الأمر بحساب الأرباح والتكاليف التي تنتج من اللجوء للهجرة؛ أي وجود أو «اختفاء» المهاجرين. وهكذا تطرح عبر سؤال تقني في الظاهر مشكلة شرعية الهجرة برمتها. ولا نسمع أي كلام تقريباً عن المهاجرين ولاسيما عندما يتناول هذا الكلام عمداً وبصورة صريحة وظيفة الهجرة، كما هو الحال مع «النظرية الاقتصادية للتكاليف والأرباح المقارنة للهجرة التي تقوم على إعطاء الشرعية للهجرة تارة، وعلى التنديد بلا شرعية الهجرة تارة أخرى»

ولأن «النظرية الاقتصادية للتكاليف والأرباح المقارنة للهجرة» لم تثر إلى الآن إلا خلافات تتصل بتقدير العناصر التي ينبغي أن تدخل في الحساب. فقد حجبت سلسلة أخرى من الأسئلة كمسألة معرفة من تقع عليه «تكلفة» الهجرة وعلى من يعود «ربح» الهجرة.

فإذا كانت هناك «تكاليف» ينبغي تحميلها للهجرة، فإن أول ما يتبادر إلى الذهن هو التكلفة المالية التي يتحملها كل بلد يلجأ للهجرة، بسبب التحويلات المالية التي يقوم بها جزئياً المهاجرون أنفسهم مما يوفرونه ، وفي جزء آخر المؤسسات الاجتماعية (تعويضات عائلية، منح الضمان الاجتماعي، التقاعد، معاشات مختلفة). لكن هذه التكلفة التي تعتبر واضحة وغير مشكوك فيها تتضمن «أرباحاً» من نوع آخر: «فيمكن التساؤل عن تأثير التحويلات إلى الخارج؛ إذ يظهر أن نقص مليون فرنك من التحويلات للخارج لا يعني إلا تحسناً في التوازن الخارجي قدره 38.000 فرنك تقريباً. لأن انخفاض التحويلات للخارج يزيد من استهلاك الأسر، ويتم إشباع جزء كبير من هذه الزيادة عن طريق زيادة الاستيراد أو إنقاص التصدير. كما يؤدي انخفاض تحويلات التوفير للبلاد الأجنبية إلى الحد من اكتسابها للعملة الصعبة، وبالتالي الحد من استيراداتها، بما فيها تلك التي تتم من فرنسا».

وفي المقابل، إذا كان لبلد الهجرة «ربح» فوري وصاف من كل تكلفة، فهو يتمثل في «استيراد» رجال بالغين ومازالوا شباباً، وإذن «نافعون»

ومنتجون منذ لحظة وصولهم. إن هذا الربح الناتج من الوفر المحقق لما يسميه ألفريد سوفي «تكلفة التربية» قد هُوّن من شأنه كثيراً في تقرير فيرناند إيكار، إن لم نقل إنه تحول إلى «تكلفة» لأن «نوعية» هؤلاء الرجال الذين نشؤوا في بلاد فقيرة ومتخلفة و«بتكلفة» أقل من «التكلفة الفرنسية المتوسطة» تجعلهم «أغلى» (أو على الأقل «أغلى مما يُظَن» بسبب «تكلفة» تلاؤمهم مع المجتمع الذي يستخدمهم).

يمكننا الاستمرار طويلاً في تعداد «التناقضات» من هذا النوع، حيث يمكن لأي معيار أن يصنف «تكلفة» أو «ربحاً»، أو يتضمن على الأقل نصيباً من «التكلفة» وآخر من «الربح». وسنبتعد بهذا عن النواحي التي يتناولها الاقتصاد تقليدياً وبصورة أولية. وبعبارة أخرى، كلما اقترينا من العوامل التي تهملها التقنية الاقتصادية، لأنها عصية على «القياس» يزداد الإبهام، ويكثر بالتالي التلاعب بالمعاني وقلبها. وتظهر الوقائع التي تحلل وتفسر على أنها معطيات اقتصادية محضة، وقائع سياسية واجتماعية وثقافية قبل كل شيء ربما. فيُنظر مثلاً إلى معدل الولادات لدى العائلات المهاجرة عموماً، والعائلات ذات الأصل المغاربي خصوصاً من الوجهة الرسمية على أنه نعمة تارة لسكان أخذوا في التناقص والشيخوخة. وينظر إليه (رسمياً أيضاً) تارة أخرى على أنه شيء مؤسف لدى أناس مازالوا يسمون «بالمهاجرين» (مع أن الجيل الجديد المولود في فرنسا لم يهاجر إلى أي مكان) لأنه «مُكلِف» ويشكل عبئاً ثقيلاً على آليات معونة العائلات، باعتبار أن الحجج «الاقتصادية» أو صوغ الحجج الأخرى بتعبيرات اقتصادية يجعل الإقرار بها أكثر براءة وسهولة.

وما قيل عن معدل الخصوبة لدى المهاجرين، أي عن الهجرة العائلية، والانتقال من المهاجر القديم، العامل البسيط المنعزل بدون عائلة إلى الوالد، يصلح اليوم لوضعية العامل التي تميزه وتعرفه: فـ«الربح» المتمثل في قوة عمله -وفي مقابله المرتب الذي يدفع له والذي يستطيع تحويله- يُسعى إلى إعادة تعريفه كـ«تكلفة» مباشرة عندما يكون المهاجر عاطلاً عن العمل،

فاقداً بذلك مسوغ وجوده. و«تكلفة» غير مباشرة عندما يعمل المهاجر، وكأن الوظيفة التي يشغلها تشكل نوعاً من الخسارة، وضرراً محتملاً لليد العاملة الوطنية.

كان على هذا الضرب من «اقتصاد الهجرة» لكي يكون مقبولاً، أن يكون اقتصاداً شاملاً، أي يحتوي على كل «التكاليف» الأخرى، وكل «الأرباح» الأخرى التي تُركت أو أُهملت تماماً من قبل النظرية الاقتصادية الصارمة. وتتعقد الأمور أكثر إذا علمنا أن «النظرية الاقتصادية للتكاليف والأرباح المقارنة للهجرة» بسلوكها وفق المنطق نفسه، وبقائها خاضعة للتساؤلات والانتقادات نفسها، يمكن لها أن تنتقل إلى البلد الذي تأتي منه الهجرة، فتؤدي إلى نظرية مماثلة.



ريمي لونوار

خلل في النظام لدى أعوان النظام

إن ما يدعى بـ«القلق القضائي» أو «أزمة العدالة» أيضاً يشمل في واقع الأمر وقائع متباينة جداً. فهذان الاصطلاحان يشيران في الوقت نفسه إلى مشكلة اجتماعية («تزايد الجنوح») والصعوبات التي تلاقيها مصلحة عمومية («بؤس العدالة») والنزاعات التي يتعارض فيها القضاة مع الحكام («الفضائح»). بيد أنه لهذا المزج أساسه؛ فلا يمكن إنكار تزايد «الجنوح الصغير والمتوسط» (سرقات وترويج مخدرات)، ولا السير السيء للمؤسسات القضائية («بطء»، «أخطاء») أو تفاقم «الشعور بعدم الأمن». كما أن الصراعات بين القضاة ورجال السياسة معروفة على رؤوس الأشهاد، وفي وسائل الإعلام. لكن الكلام عن قلق قضائي يعني أيضاً نسيان أن القضاة ليسوا الوحيدين الذين يسهمون في حفظ النظام. صحيح أن الكلام يجري أيضاً عن «أزمة» لدى رجال الشرطة والدرك أو مراقبي السجون، وهي مهن تتعاون في ضمان النظام العام، لكن حالتهم لا تذكر إلا فيما يتعلق بمشكلة المرتبات وظروف العمل والتنظيم النقابي والتكوين، إلخ، أي ما يسمى «مشكلات مهنية» باختصار.

إن واقع الحال يدل على أن المصطلحات المستخدمة للإشارة إلى الصعوبات التي تعاني منها فئة اجتماعية ما، تتنوع بحسب هيبة ومكانة المهنة. وتقسيم عمل حفظ النظام الاجتماعي أكبر مثال بهذا الصدد، لأن

توزيع المهمات فيه محدد مؤسسياً كما يبينه تمهين مختلف الوظائف المشمولة بهذا النشاط (توقيف، سجن، حكم، إعادة دمج، إلخ) فصلاحيات كل فئة محددة ومثبتة وخاضعة لتسلسل وظيفي بالقانون. لكننا إن بقينا في مجال العقوبات، وجدنا القضاة يؤدون فيه دوراً مهيمناً؛ إذ لا يقتصرون على الإمساك وحدهم بكل ما هو من تخصص النشاط القضائي (الملاحقة القضائية، الحكم) بل يمارسون سلطتهم على الفئات الأخرى. فالنيابة العامة أو قضاة التحقيق يوجهون التحقيقات التي يقوم بها رجال الشرطة أو الدرك في الميدان؛ ولقاضي تنفيذ العقوبات كل الصلاحية لتحديد شروط تنفيذ الأحكام، إلخ. وبهذا تكون رفعة شأن القضاة قانونية واجتماعية معاً؛ فالقضاة على وجه الإجمال من أصل اجتماعي أرقى من أصل مفوضي الشرطة ومديري السجون، وأرقى أيضاً من ضباط الدرك الوطني. وهذه الرفعة الاجتماعية (يرى فيها البعض غطرسة) تقترن بارتقاء ثقافي يشهد عليه أدلة عديدة منها نجاحهم المدرسي.

ولهذا فليس من قبيل الصدفة، عندما يتعلق الأمر بالقضاة، الكلام عن «هبوطهم الاجتماعي» وهو ما يعبر في الوقت نفسه عن المنحدر الذي يتبعونه في المجال الاجتماعي («قضاة صغار» «مهنة صغيرة لأناس صغار») وعن «تضاؤل» سلطاتهم («فقدان الاستقلال»، «البؤس المادي»، «قاض لكل المهمات»).

أما إذا أريد التعريض برجال الشرطة والدرك فلا يشار إلى مكانتهم الاجتماعية، بقدر ما يشار إلى صورتهم؛ «المتعفنون» و«التجاوزات» للشرطة، و«البلادة» للدرك. ويتم التعريض بحراس السجون من خلال ظروف عملهم: إذ يُشبَّهون -ويتشبهون هم أنفسهم- بالمساجين الذين يراقبونهم، إذ يصفون أنفسهم بأنهم «قيد الاعتقال» عندما يكونون على رأس عملهم.

وإذا كانت أزمة العدالة متطابقة مع أزمة القضاة، فذلك لأن بوسعهم فرض تعريفهم لقلقهم على الجميع، مثلما يحدث في كل الفئات التي تهيمن

على أحد قطاعات النشاط الاجتماعي. فبمقدورهم من خلال وضعهم المهيمن في النظام الاجتماعي تصيير مشكلاتهم المرتبطة في جزء منها بانتمائهم الطبقي -«استقلاليتهم» أو «سلطتهم»- مشكلات أكثر عمومية «أزمة القانون» ومشكلات مجتمع بأسره «تزايد الشعور بعدم الأمن»، إلخ.

إن استعمال مصطلحات عامة كهذه يقود إلى إغفال تنوع العاملين على حفظ النظام، وإغفال أن الأزمات أو الصعوبات التي يلاقونها تنتج من عوامل شتى، وحتى بالنسبة لسلك القضاة وحده، فمن الواضح أنها تشتمل على أوضاع متباينة، لا يذكر الإدراك العادي منها إلا الأكثر تطرفاً: أي القضاء «الأدنى» والقضاء «الأعلى». فهل يعني «هبوط القضاء» هذين الصنفين من القضاة؟ إن طريقة انتقاء القضاة عُدلت منذ الخمسينيات، وأفسح المجال لشرائح كانت تبدو بمنأى عنه، وخاصة أبناء الموظفين الصغار. بيد أن كل الدلائل تشير إلى أن المسار المهني للقضاة مازال متأثراً بالأصل الاجتماعي، بحيث إن ما يعتبر هبوطاً اجتماعياً، قد لا يكون إلا علامة على تنويع متزايد لسلك القضاة.

إن تنامي الفوارق الاجتماعية -النسبي جداً- بين صنوف القضاة، وبالتالي عدم تجانس السلك، يرجع في جزء كبير منه دون شك إلى تراجع طريقة الانتقاء التي كان الانتماء لعائلة من القضاة يلعب فيها دوراً كبيراً. إلا أن هذا التراجع قد مس، كما يبدو، القضاء «الأدنى» أكثر من القضاء «الأعلى». ولم يخفف توحيد التكوين، بفضل المدرسة الوطنية للقضاء التي حلت محل المسابقات المحلية منذ نهاية الخمسينيات، من آثار ارتفاع التنافر الاجتماعي للانتقاء، بل على العكس إذ أدى التعيين المكثف نسبياً للقضاة، اعتباراً من السبعينيات، بفضل زيادة عدد المناصب، وأيضاً بفضل إجراءات الانتقاء الموازية (مسابقات داخلية وتعيين بالشهادة) إلى تضخيم التمايز الاجتماعي للسلك. كما أن الزيادة السريعة لعدد القضاة (جدد 40٪ من السلك خلال 20 عاماً) أثرت في تخفيض آفاق الترقية، لاسيما بالنسبة للجيل الجديد، لدرجة تزايدت فيها المنافسة بقوة ضمن السلك. وإذا أضفنا

إلى كل هذه العوامل المقلقة التدهور الفعلي لظروف العمل نتيجة تحويل القضايا المتنازَع عليها، وجدنا أن كل مكونات «الأزمة» تجمعت. ولكن هل هي أزمة وحيدة؟ وهل أصابت مجموع القضاة بالأسلوب نفسه؟

لقد فرض المرور الإجباري على مدرسة مختصة، الاعتراف بمعايير مدرسية بمعنى الكلمة (وخاصة رتبة التخرج) تسمح بتقويم القضاة بعضهم لبعض. بحيث تكون شرعية التعيينات والترقيات أكثر قابلية للرقابة، وقابلة للاحتجاج عليها. وهذه الشرعية تثير الجدل بالفعل أكثر فأكثر، لأن الحدود بين القضاء «الأدنى» و«الأعلى» أكثر إبهاماً مما كانت عليه في القرن التاسع عشر، حيث كان يكفي لـ«قضاة الصلح» أن يتصفوا بـ«الحس السليم» و«الشعور بالإنصاف»، ولم يكن طموحهم يتعدى كونهم «أعياناً» في بلداتهم التي كانوا غالباً متحدّرين منها ولا يسعون لمغادرتها. أما اليوم فلم تعد الحال كما كانت عليه، إذ بفضل تطور المنظومة المدرسية، وطريقة الانتقاء بالمسابقة، اتسعت سوق الشهادات والفرص المهنية لتشمل التراب الوطني بأسره. فبينما يتحدر ما يقرب من ثلثي القضاة من أسر كوادر عليا أو مهن حرة، إلا أنهم ليس بوسعهم جميعاً اتباع مسار مهني يتناسب مع التطلعات المرتبطة تقليدياً بشهاداتهم.

وكل هذا يعني أن القضاة لا يعانون من قلق واحد بل من عدة ضروب من القلق، يختلف أساسها بحسب كون القاضي من القضاء «الأعلى» -الذي يشكل «سلكاً ضمن السلك»- يرجع بصفة رئيسية إلى علاقاته مع أعضاء الأسلاك القضائية الكبرى في الدولة. إذ يتمتع هؤلاء بميزة أضحت حاسمة بعد نمو نشاط الدولة فيما بعد الحرب، تتمثل بإسهامهم المباشر في السلطة السياسية- والتي لا يتمتع بها القضاء العالي بنفس الدرجة. وهذا ما منح الأسلاك الأخرى أفضلية فاصلة للرقابة على الدوائر التي تتآزر لحفظ النظام الاجتماعي والتي ازداد عددها أكثر فأكثر. وهكذا فإن تضاعف عدد «اللجان» التي يرأسها غالباً عضو من القضاء الإداري، والتي تمس مباشرة بصلاحيات القضاء، يدلل على الهبوط النسبي لمنزلة القضاء. كما أن وضع

القضاة في ميدان الطبقة المهيمنة قد هبط، بصورة عامة، بسبب صعود مهن أخرى ربما في القطاع الخاص أكثر من القطاع العام، وخاصة في كل ما يسهم في الاقتصاد والاتصالات. وهما عالمان غريبان عن عالم القضاة.

أما قلق «القضاء الأدنى» فناشىء أيضاً عن تدني سلطته بالقياس إلى الأعوان الآخرين الذين يمثلون السلطة العمومية (لاسيما المحافظ وإدارته). لكنه ينشأ عن عوامل داخلية خاصة، كتدهور ظروف العمل (تضاعف وتعقد الإجراءات، وقضايا ومنازعات أقل فأقل «نبلاً») أو تأثيرات الرؤساء على أعوان يرتبط وضعهم الاجتماعي أكثر فأكثر بممارستهم لنشاطهم المهني فقط.

إلا أن هناك بعداً آخر يتصل بإعادة تقسيم العمل بين المهن، والنزاعات المتواصلة التي تنشب بينها للحفاظ على صلاحياتها وتوسيعها، وهو ما لا يبعد كثيراً عن ضروب القلق التي قد تشعر بها. وعالم المهن القضائية مثال واضح على ذلك؛ إذ أصبحت أولوية القضاة في احتكار التعبير عن الحق موضع الشك: من قبل العاملين الآخرين في الوسط القضائي أولاً وخاصة الشرطة، وبدرجة أقل الدرك الذين يَشكّون في وظيفة إدارة التحقيق التي توكل للنيابة العامة وقضاة التحقيق، ومن المهن القانونية الأخرى (المحامون والمستشارون القانونيون أيضاً)، ومن الدوائر الإدارية المتعددة التي اعتُرف لها بسلطات شبه قضائية، فيما عدا المحاكم الإدارية ومجلس الدولة (الجمارك، والضرائب، إلخ).

ترجع هذه الظاهرة غالباً لتنامي نشاط الدولة وتعقد القضايا (ضرورة اللجوء للخبراء) وكثرة اللجوء إلى العدالة، وهو ما يتجاوز قدرة المحاكم على المعالجة. بيد أنه ما كان لهذه العوامل مثل هذه الآثار لو لم يصب الاضطراب قواعد تَفوُّق القضاة الاجتماعية. فإذا اقتصرنا على النشاط العقابي وحده، نجد جزءاً متزايداً من مفوضي الشرطة وضباط الدرك يحوزون على ممتلكات اجتماعية وثقافية ومدرسية تقرب من ممتلكات القضاة. وهذه الأجيال الجديدة من الشرطة القضائية أفضل من

القديمة تسلحاً للمطالبة بما يشكل واحدة من السلطات الأساسية للقضاة وهي إدارة التحقيقات. لكن القضاة في مواجهة هذا الهجوم الشرطي خاصة يقدمون اعتراضات مبدئية يختفي وراءها أساس امتيازاتهم الاجتماعية، باعتبار أن نشاطهم تقلص بالفعل في هذا المجال. إن هذه الصراعات الجارية في السلطة ومن أجلها قد تتحول إلى صراعات مكشوفة يتكشف فيها طابعها الطبقي، مادام الحفاظ على النظام العام أحد المكونات الدائمة للحفاظ على النظام الاجتماعي نفسه.

لكن هذه الصراعات متواصلة على جميع الصعد بين مختلف الأسلاك (بين الشرطة والدرك خاصة) وضمن كل سلك أيضاً (نذكر مثلاً فيلم «حرب الشرطة») وهو ما يؤدي إلى تدعيم موقف القضاة المهيمن. ونجد بالإضافة إلى ذلك انقسامات أخرى، فإذا أخذنا مثال مفوضي الشرطة، نرى أن اعترافهم بسيطرة القضاء يختلف وفقاً للطريقة التي وصل بها القاضي إلى منصبه (هل مارس وظيفة في الشرطة أم لا؟). إلا أن أسلوب تكوين مفوضي الشرطة هو موضوع صراع داخل السلك نفسه، بين «القدماء» الذين يدافعون عن التعلم في الميدان، و«الشباب» الذين يفاخرون بالكفاءات المدرسية. وليست هذه الخلافات هي أيضاً بمنأى عن الأسس الاجتماعية. فالانقسامات الطبقية لم تعد تتطابق مع التقسيمات الوظيفية لعمل المحافظة على النظام وحدها، بل تعتري من الآن وصاعداً شتى الأسلاك. بحيث أن الصراعات في هذا المجال كما في غيره بين الأسلاك وضمن كل سلك، وخاصة في الجيش، لم تعد راجعة إلى صراعات طبقية فقط بل أيضاً إلى نزاعات ضمن الطبقة ذاتها من أجل المناصب العليا، وبصورة أخص بين الفئات المختلفة التي تكون الطبقة المسيطرة.

ريمي لونوار

شرطة الفقراء

جان في الأربعين من عمره، متحدر من عائلة من الأقدام السوداء. وكان أبوه حلاقاً. عاش حتى سن الثانية عشرة في حي شعبي بمدينة كبرى في الجزائر. ويتكلم عن مغادرته للجزائر كـ«نزوح». لم ينقطع عند وصوله إلى فرنسا عن محيطه وأصدقائه وحسب، بل أرسل لأسباب عائلية (طلاق والديه) إلى مدرسة داخلية، ما انفك يحاول الفرار منها. وبعد حصوله على الشهادة الثانوية، أدى خدمته العسكرية التي نمّت فيه الخوف من الحبس. ومع أن لا شيء كان يهيئه للدخول إلى الشرطة «غير عارف بما سيعمله» إلا أنه تقدم لمسابقة مفتشي الشرطة الوطنية، بعدما رأى إعلاناً عنها في مفوضية للشرطة. وما أن دخل المدرسة حتى ولّت مرحلة الحيرة الاجتماعية تلك «كان يبدو لي كل شيء غريباً» لتحل محلها فترة تلاحقت فيها سلسلة من الالتزامات المهنية والنقابية والزوجية.

ولم يكن قصده، من وجهة النظر المهنية، مساراً مهنياً بقدر ما هو اتباع مسلك كأنما خط مقدماً في أواسط الوظيف العمومي، مادام موافقاً لما تنتظره منه المؤسسة. وهكذا كان «تحت التصرف» كما يقول «ومستعداً لأن يلعب اللعبة». وانتسب للنقابة مثل جميع مفتشي الشرطة تقريباً. فالعمل النقابي أكثر من النشاط الشرطي بمعنى الكلمة هو الذي قاده إلى

التفكير في «مهنة الشرطي» التي يشعر فيها بالضيق، وإلى الاستعداد للمسابقة الداخلية ليصير مفوض شرطة. وقد نجح في المسابقة، وهو الآن رئيس مصلحة في مديرية جهوية للشرطة الحضرية.

إنه يجمع بين تجربة شرطي القاعدة وتفكير المسؤول النقابي حول الطريقة المناسبة ليكون المرء شرطياً. وهو يفلت هكذا، جزئياً على الأقل من اللغة الرسمية المجوجة: فخطاب منظمته النقابية يزوده بوسيلة للتعبير، وبتصور لعمل الشرطة يتناسب مع ما أصبح هو عليه، لاسيما بفضل نقابة أقلية لدى المفوضين والمفتشين (لكنها أقلية أكثر بين الأفراد من الشرطة) تربطه بها إلفة قوية جداً.

فباعتباره من أصل شعبي، ومقطوع عن جذوره الأسرية والمحلية، فهو يدافع عن تصور يمكن القول إنه «اجتماعي» للعمل الشرطي («شرطة الفقير والفقراء») مباين للتصور المهيمن لدى المفوضين والمفتشين، والذي يضع التخصص والتقنية والنتائج في المقدمة («شرطة النخبة»). ووراء هذا التضاد هناك فئتان اجتماعيتان من الشرطة تتواجهان فعلاً: فالأولى تضطر للتخصص في «القذارات»، أما الثانية فتهتم «بأفراد من مستوى معين» أي «الجنوح المنظم».

وتحليل جان بـ«دوافع» رجال الشرطة يوضح جيداً المركز الملتبس الذي يشغله في هذه المهنة التي تَبنَّى جزئياً قيمها، وقبِل «أهدافها». إنه رئيس مُبعد في مصلحة لا تتمتع بالكثير من الهيبة. إذ تهتم بـ«الجنوح الصغير والمتوسط»، حيث تتطابق مرتبة الشرطة -«الشرطة العاملة» الوحيدة ذات القيمة في نظره، وليست «شرطة المكاتب»- مع مرتبة الجانحين والصفات الاجتماعية التي تميزهم.

إن تشبيهه للشرطي بطبيب الحي («إن عناصر المفوضية هم الأطباء العامّون للمجتمع») وآماله بصدد تكوين رجال الشرطة «في القاعدة» («بجعلهم يعملون خمس سنوات في مفوضية صعبة») وحنينه لوظيفة قاضي الصلح، كلها تعبيرات عن وجعه الأصلي، وجع الاغتراب الذي يسمح له انتماؤه لقيم تدافع عنها منظمة نقابية؛ ليست مهنية حصراً، بتحمله.

ريمي لونوار

امرأة وشرطية

أنييس في الرابعة والعشرين من عمرها. وهي ابنة وحيدة. تخرجت لتوها من المدرسة العليا لمفتشي الشرطة الوطنية، التي كانت قد دخلتها بعد حصولها على الشهادة الثانوية بدون درجة. أصلها من مدينة صغيرة في الجنوب الغربي. التقيت معها منذ ثلاثة أعوام، عندما شرعتُ في دراسة حول إصلاح التحقيق الجنائي.

إذا كان صعباً الحصول من رجال الشرطة على أقوال متحررة شيئاً ما من توجيهات الرؤساء أو تعليمات المنظمات النقابية، فليس مرد ذلك للانتماء إلى سلك، كما هي الحال مع الدرك أو القضاة، بقدر ما هو للحيطة شبه الراسخة إزاء كل ما هو أجنبي («عن المصلحة»). وهذا النوع من الريبة التي تحولت إلى فضيلة مهنية -«اليقظة»- يتعزز، بخلاف المهن الأخرى حيث التحفظ والتستر، إلخ من متطلبات الوظيفة أيضاً، بالهاجس الدائم لتصحيح صورة السلك المتدنية لدى الآخرين. إن وسواس «الصورة السيئة» للشرطة يتبدى بأشكال مختلفة على حسب الوظائف والرتب؛ إذ يبدأ من الأدب الجم ليصل إلى أناقة اللغة مروراً باللغة الرسمية الممجوجة لدى الرؤساء. ومن الحرج المريك إلى الثرثرة العنترية لدى المرؤوسين.

وعلاوة على ذلك، فإن محترفي الاستجواب وهم دوماً في موقع الدفاع، لديهم في الوقت ذاته مشروع السيطرة على التحقيق ووسائله، إذ

يحاولون الحصول على مأخذ حول تعريف المشكلات واستعمال كل الحيل المعادية والخفية والحجج، إلخ.

والمشكلة تطرح بصورة أقل حدة مع أولئك الذين لم يتطابقوا بعد كلياً مع الوظيفة ومع المؤسسة. وتلك هي حالة النساء خاصة؛ إذ مازال عددهن قليلاً، وتوكل لهن أعمال ينظر إليها على أنها «أنثوية» في هذا العالم الذكَري الذي يُنَصِّب «الرجولة» وكل ما يتصل بها كمزية مهنية. ومن هنا تأتي دون شك نبرتهن الحرة وصراحتهن، وحتى روح الدعابة التي تُلحظ لدى هؤلاء النساء اللائي مع تمثلهن لـ«القيم الشرطية» يتكلمن -ما إن يقبلن الكلام- دون كثير من الحرج بالطريقة المتفق عليها.

وإذا استطاعت أنييس أن تتكلم بهذه الصراحة والواقعية، فذلك لأنها تجد في هذا الحوار أيضاً فرصة للتعبير عن تمرد مشوش ولا يمكن كتمانه في آن. ويظهر هذا التشوش في غيظها الذي يتبدى في ثلاثة أوجه متلازمة تلازماً شديداً لديها: وجه المرأة الشابة التي هي على صدام مع أبويها، ومع نمط الحياة التي يمثلانها، ووجه المرأة النشيطة التي تستذكر روتين البيروقراطية المعتاد، ووجه الصراع الاجتماعي الذي يجعلها كمبتدئة تشتبك مع الفاعلين الآخرين ومع مرتفقي الخدمة العامة الذين تتبنى موقفهم.

وإذا كانت في هذا الحديث تتكلم عن ظروف عملها وعن تكوينها فقط تقريباً؛ فذلك لأن حياتها الشخصية تختفي وراء مشاغلها وانشغالاتها المهنية التي أتاحت لها «الخلاص» والانعتاق من كل ما كان «يكتم أنفاسها»: أي أبواها والثانوية ومدينتها الأصلية، ولا شيء له حظوة في عينيها سوى مناخ «بلدتها».

إن جسمها النحيل وشعرها الكستنائي القصير ونظرتها اليقظة وهيئتها المسترخية؛ بملابسها المكونة من حذاء تنس وسروال جينز وسترة جلدية تغطي كنزة بيضاء، كل ذلك يعبر للوهلة الأولى عن إرادة قوية لتكون حرة. وكل ما يمكن أن يوقظ فيها الشعور بالاضطهاد أمر لا يطاق -وهو تعبير تستعمله مراراً- سواء أكان ذلك «التسلسل الوظيفي» في مفوضية

الشـرطة الباريسـية التـي عينـت فيـها، أو المفشـين «غـير المبـالين» الذيـن «يحطمون» الشباب.

وتتناسـب نظرتها لـ«المسنين» كـالمفوض المسـن «الـذي لا هـمّ لـه سـوى المال» والمفتشين المسنين «الكسالى» و«المرتاحي البال» مـع نظرتها لوالديها: فـالأب مراقـب لـ«الغش» (فـي إدارة المنافسـة والأسـعار) والأم ممرضـة فـي المستشفى «لم يعودا يهتمان بعملهما، هذا إذا اهتمّا به يوماً». وعلى العكس من ذلك يجسد ابن عمها الذي دفعها إلى التقدم إلى المسابقة كل مـا «تحبه في الحياة» وتعتقد أنها ستجده فـي مهنتها الجديدة، أي «التحقيق» (العمـل والمغـامرة) و«النتـائج» (فـي مقـابل العمـل المكتبـي) وذلـك الفـرع مـن الشـرطة القضـائية المهتم بـ«النصب والاحتيال» وليس بـ«القُصَّر» («فأنا أمقـت ذلـك») تلك الوظيفة التي تشتمل على أكبر عدد من النسـاء المفتشـات، وتقتـرب أشـد الاقتراب مما تمنى والدها لها «لقـد ودَّ والـداي أن أصـير ممرضـة، أو أعمـل فـي حضانـة أطفـال، أو مسـاعدة اجتماعيـة ومـا أشـبه ذلـك. والبقـاء فـي × خصوصاً».

لـم تنتسـب للشـرطة لميل طبيعـي لديها، حتى وإن أكـدت ذلـك «كنـت أريد دائماً أن أعمـل فـي الشـرطة»، بـل نتيجـة نفـور عميـق مـن كـل مـا هـو «جالس» أي كل ما يذكر بـ«المسنين» ووالديها خاصة. وعلى الرغم من كونـها ريفية وبعيدة عن أصولها ومنعزلة، فهي ثائرة على شتى أشكال العوائـق التـي توضـع أمـام سـير المؤسسـة، ويكمـن سـببها فـي أن «النـاس لا يتحملـون مسؤولياتهم» كما تقول، سواء تعلق الأمر بوقاحة الجانحين («يرمي بمحفظة النقـود، وانتـهى الأمـر، فليـس هـو السـارق») أم بإهمـال الضحايـا الـذي لا يتقدمون بشكوى، أو يسـحبونها («إنهم خـائفون مـن الانتقـام») أم انتهازيـة المحامين («حتى وإن اعترف زبونه بالذنب، فسيبحث عن الخطأ») أو أيضـاً برخـاوة بعض زملائها («يتركون أنفسـهم على هواهـا، إنهم يشـربون») إلـخ. تترافق هـذه الكراهيـة لعدم الفاعليـة التي تذكر أسبابها -التقسيم الشـديد للعمـل الشـرطي، الشـكلية القضائيـة، غيـاب الوسـائل الماديـة، لامبـالاة النـاس

بعمل الشرطة- مع رد فعل استنكاري ضد كل ما يتعارض مع الغاية التي وجدت الشرطة من أجلها وبصورة عامة ضد كل من ينتحل صفة الشرطي («إن رجال الشرطة المزورين يدخلون كما يشاؤون، أما نحن فلا ندخل!»).

وهكذا نجد في أصل ثورتها، زيادة على نبذ بيئتها الأصلية، مبادىء انتمائها إلى أسلوب إدارة فاعل للحفاظ على النظام. وهو ما تعبر عنه بطريقتها الفجة والمباشرة «معرفة (..) إن كنا عملنا لشيء ما أو بدون طائل». إذ لم يعد المقصود هنا فقط التنديد بكل ما له علاقة مباشرة بالعالَم الاجتماعي لطفولتها، بما فيه من اضطهاد واحتقار («لا أطيق شخصاً يتقدم بشكوى ثم يسحبها بعد ثلاثة أيام»)، وصِغَر («نحن مفوضية حي صغيرة، لا نهتم إلا بالجنح التافهة») إلخ. بل بكل ما «يغيظها» من العقبات التي تميز البيروقراطية الشرطية؛ أي عدم التنسيق بين المصالح («نضيع وقتاً طويلاً»)، والملل المشوب بالقنوط («لا يستحق العناء. ماذا ستعملين؟ دعيه وشأنه» «إنهم خائرو القوى»). إلا أن خواء الإرادة الشرطية وخمودها، لأنهما يكبحان تلك الطاقة التي سمحت لها بالخروج من بيئتها، هما من دون شك علّة نظرتها الثاقبة المصطبغة بالتهكم -باعتبار أن من يتوصلون إلى «منصب» غير منتظر، لا يبلغونه إلا بحدة ملاحظتهم لسير الإدارة التي يعملون فيها والعلاقات التي تتم هناك.

وليس لديها من الكلمات ما تكفي قسوتها للتنديد بالمفوضين خاصة، أي رؤسائها («إن المفوض هنا يقبض المال») أو بالتجار الذين لا يسارعون إلى تقديم شكوى، ولا يهتمون إلا بقيمة الأشياء المسروقة («القيمة دائماً! لكن القيمة لا تعنينا»). وما هذه العلاقة المنزّهة عن الغرض والحيادية تجاه المال إلا الوجه الخفي للاحتقار الذي تحمله للذين يحتقرونها هي وأمثالها كالمحامين والقضاة وقادة الشرطة، أو الضحايا الوقحين الذين تستهجن سلوكهم، معلنة بذلك أنها ليست منهم. ولكنها لاتنفك بالمقابل عن الدفاع عن هؤلاء «الجانحين المساكين» مثل ذلك الذي يخرج من السجن ثم يعود إليه لعدم عثوره على عمل، أو تلك «الفتاة المسكينة» التي لا تجد أمامها «إلا المخدرات أو الرصيف»، أو الشاب المراهق «الذي انساق مع أولاد الشوارع».

إن شعورها الغاضب بخيبات الأمل من القوة بحيث يشكل الثمن القسري والمؤلم لالتحامها الكلي بالمؤسسة التي تشعر بأنها مدينة لها بالتغيير الحاصل لمسارها الاجتماعي. لكن زوال الوهم هذا، القائم على أساس مبرر، عوضاً عن أن يثير لديها نفوراً ما إزاء ما تقوم به، لا يضع «الاهتمام» الذي توليه لمهنتها موضع الشك («إنه مثير للاهتمام» «إن ما يروق لي هو عمليات الاحتيال») حتى وإن تضعضع هذا الاهتمام أحياناً، نتيجة لتجارب مخفقة («نهيّء الأوراق ونقوم بالإجراءات، وبعد ذلك تُحفظ القضية: دون ملاحقة») وإذا ظنت أحياناً بأن «لا حل»، فذلك لا ينزع عنها على الرغم من كل شيء تلك الفكرة الثابتة بأنه يمكن الحصول على «نتائج».

إن كلام أنييس يتفق في نقاط كثيرة مع حوادث فيلم برتراند تافيرنيه L.627. حيث نجد فيها ما هو معتاد في «مهنة الشرطي» بين البعد الرياضي والنزوع للمخاطرة وما يرافقها من زمالة بين أعضاء فريق يواجهون الأخطار والعقبات ذاتها من جانب؛ وبين الروتين وتفاهة البيروقراطية الإدارية من الجانب الآخر. لكن مرتكزات قوة الفيلم مختلفة عن مرتكزات تصور أنييس. فلأن على الفيلم دون شك أن يتوافق مع القواعد المتبعة في هذا النوع من الأفلام، كانت الشخصيات والمواقف مرسومة بطريقة تقترب من النماذج الجاهزة للأفلام البوليسية.

كانت أنييس طوال هذا التفاعل الآني والفريد فيما بيننا تنتقل دون انقطاع بين الاستنكار لكل ما يعرقل «عملها» والتأكيد على كل ما استثمرت فيه (لاسيما خروجها من ظروف المرأة المتحدرة من بورجوازية الأقاليم الصغيرة). ومن هنا ربما يأتي التهكم الذي اصطبغ به حديثها. وهو منتشر لدى أولئك الذين يأخذون وظائفهم بجدية، من رؤيتهم عدم تقدير هذه الوظائف كما ينبغي، وعدم القيام بها كما يجب.

مع مفتشة شابة في الشرطة

حديث مع ريمي لونوار

«إن الشباب الذين يصلون (..)،
يُحطّمون منذ السنة الأولى»

انييس: لدينا في مفوضية الحي مشكلة الوقت أولاً والوسائل. فعندما تكون لدينا شكوى، كسرقة من البسطة مثلاً، يؤتى لنا بالسارق فنأخذ الشكوى وننتظر تقرير الشرطي. والتقرير يستغرق ثلاث ساعات لأن على الشرطي الذهاب لطبعه.. وإذا كانت السرقة من بسطة في دكان، فالتاجر لن يأتي على الفور، «إنه يعمل، وليس لديه سوى هذا ليعمله» إلخ، وسيتقدم بشكواه لاحقاً. لكننا نحتاج إلى هذه الشكوى في الحال لإحالة السارق إلى القضاء. فعلينا إذن انتظار التاجر حتى يأتي. فإذا أتى تكون الساعة السابعة إلا خمس دقائق.

❖ وهل توقفونه في المفوضية؟

انييس: نوقفه، وإذا لم تكن هناك شكوى، ننتظر شكوى التاجر. وعندما نحصل على الشكوى نُحيل الشخص، وعليه أن يمثل أمام القاضي في السادسة، والساعة هي الرابعة. فنستدعي سيارة لنقله إلى النظارة. لكن الساعة هي السادسة إلا خمس دقائق، والسيارة لم تصل لأن هناك مشكلة أيضاً، إلخ وهكذا تجري الأمور دائماً. إذ نضيع وقتاً طويلاً.

❖ ماذا يجري عندما يُقبض على الشخص متلبساً، وهل تطبَّق عليه إجراءات الجرم المشهود؟

انييس: يُحال بصورة عامة إلى القضاء، عندما يكون مقدار السرقة كبيراً أو تمرد أو جرح أحداً. أما إذا كان المقدار صغيراً فإما أن تعمل له بطاقة لدينا ولا يلاحق، وإما يستدعى للمثول، ونخبر النائب العام لإعطائنا موعداً. لكن هذه الحالة تستدعي التحقق من مكان إقامة الشخص. وهذا يتطلب وقتاً.. المشكلة الكبرى في السرقة من البسطة هي مع الأجانب ذوي الوضع غير القانوني. فهم ليسو من اختصاصنا بل من اختصاص المخابرات العامة، لكن لابد من وجود أثر لهم في المفوضية من أجل الإحصائيات على ما أظن؛ إذ نملأ أوراقاً بخانات، ثم تهتم المخابرات العامة بالقضية. وهنا لدينا مشكلة السيارة أيضاً. لأن المخابرات العامة تأخذ الأشخاص ذوي الوضع غير القانوني حتى الخامسة مساءً، وإذ أُوقف الشخص بعد الخامسة فنحن الذين نهتم بالقضية.

❖ ولِمَ هذا؟

انييس: من أجل الإحصاءات، إنه إجراء قضائي بينما لا تقوم المخابرات العامة بإجراءات بل تهتم بالأجانب لأنهم مصدر معلومات، كما يزعمون. أما المشكلات الأخرى فهي مع الشاكين. يأتون قائلين «لقد سرقت سيارتي». فنأخذ المعلومات ونعثر على السيارة، ولكنهم غير راضين: «لن يرد لي التأمين قيمة السيارة».

❖ إنهم يشكون من العثور على مسروقاتهم؟

انييس: تقريباً. نوقف في الليل سارقاً بالجرم المشهود. ونتصل بالضحية في صباح الغد «لقد أوقفنا يا سيدتي السارق الذي كسر زجاج سيارتك، ينبغي أن تأتي إلى المفوضية وتتقدمي بشكوى». نخبرهم في التاسعة صباحاً ولا يأتون إلا في الثانية بعد الظهر بحجة أنه يوم الأحد (والشيء ذاته أيام الأسبوع الأخرى، لأنهم يعملون). ثم نعيد لهم المذياع المسروق: «وإذن، هل تتقدمين بشكوى يا سيدتي؟» «أوه لا، فلدي مذياع سيارتي، ولا أريد مضايقات

مع مفتشة شابة في الشرطة

حديث مع ريمي لونوار

«إن الشباب الذين يصلون (..)،

يُحطَّمون منذ السنة الأولى»

أنييس: لدينا في مفوضية الحي مشكلة الوقت أولاً والوسائل. فعندما تكون لدينا شكوى، كسرقة من البسطة مثلاً، يؤتى لنا بالسارق فنأخذ الشكوى وننتظر تقرير الشرطي. والتقرير يستغرق ثلاث ساعات لأن على الشرطي الذهاب لطبعه.. وإذا كانت السرقة من بسطة في دكان، فالتاجر لن يأتي على الفور، «إنه يعمل، وليس لديه سوى هذا ليعمله» إلخ، وسيتقدم بشكواه لاحقاً. لكننا نحتاج إلى هذه الشكوى في الحال لإحالة السارق إلى القضاء. فعلينا إذن انتظار التاجر حتى يأتي. فإذا أتى تكون الساعة السابعة إلا خمس دقائق.

❖ وهل توقفونه في المفوضية؟

أنييس: نوقفه، وإذا لم تكن هناك شكوى، ننتظر شكوى التاجر. وعندما نحصل على الشكوى نُحيل الشخص، وعليه أن يمثل أمام القاضي في السادسة، والساعة هي الرابعة. فنستدعي سيارة لنقله إلى النظارة. لكن الساعة هي السادسة إلا خمس دقائق، والسيارة لم تصل لأن هناك مشكلة أيضاً، إلخ وهكذا تجري الأمور دائماً. إذ نضيع وقتاً طويلاً.

❖ ماذا يجري عندما يُقبض على الشخص متلبساً، وهل تطبَّق عليه إجراءات الجرم المشهود؟

انيبيس: يُحال بصورة عامة إلى القضاء، عندما يكون مقدار السرقة كبيراً أو تمرد أو جرح أحداً. أما إذا كان المقدار صغيراً فإما أن تعمل له بطاقة لدينا ولا يلاحق، وإما يستدعى للمثول، ونخبر النائب العام لإعطائنا موعداً. لكن هذه الحالة تستدعي التحقق من مكان إقامة الشخص. وهذا يتطلب وقتاً.. المشكلة الكبرى في السرقة من البسطة هي مع الأجانب ذوي الوضع غير القانوني. فهم ليسو من اختصاصنا بل من اختصاص المخابرات العامة، لكن لابد من وجود أثر لهم في المفوضية من أجل الإحصائيات على ما أظن؛ إذ نملأ أوراقاً بخانات، ثم تهتم المخابرات العامة بالقضية. وهنا لدينا مشكلة السيارة أيضاً. لأن المخابرات العامة تأخذ الأشخاص ذوي الوضع غير القانوني حتى الخامسة مساءً، وإذ أُوقف الشخص بعد الخامسة فنحن الذين نهتم بالقضية.

❖ ولِمَ هذا؟

انيبيس: من أجل الإحصاءات، إنه إجراء قضائي بينما لا تقوم المخابرات العامة بإجراءات بل تهتم بالأجانب لأنهم مصدر معلومات، كما يزعمون. أما المشكلات الأخرى فهي مع الشاكين. يأتون قائلين «لقد سرقت سيارتي». فنأخذ المعلومات ونعثر على السيارة، ولكنهم غير راضين: «لن يرد لي التأمين قيمة السيارة».

❖ إنهم يشكون من العثور على مسروقاتهم؟

انيبيس: تقريباً. نوقف في الليل سارقاً بالجرم المشهود. ونتصل بالضحية في صباح الغد «لقد أوقفنا يا سيدتي السارق الذي كسر زجاج سيارتك، ينبغي أن تأتي إلى المفوضية وتتقدمي بشكوى». نخبرهم في التاسعة صباحاً ولا يأتون إلا في الثانية بعد الظهر بحجة أنه يوم الأحد (والشيء ذاته أيام الأسبوع الأخرى، لأنهم يعملون). ثم نعيد لهم المذياع المسروق: «وإذن، هل تتقدمين بشكوى يا سيدتي؟» «أوه لا، فلدي مذياع سيارتي، ولا أريد مضايقات

مع العدالة وما شابه». وكذا الأمر في حوادث النشل، إذ نقبض على السارق متلبساً، والسيدة تراه وتسترد محفظة نقودها، لكنها لا تريد التقدم بشكوى! وكم من أشياء مسروقة وجدناها، وتعرفنا على أصحابها، ثم اكتشفنا أنهم لم يصرحوا بأنها سُرقت منهم. إن الناس لا يتحملون مسؤولياتهم.

◆ لِمَ لا يتقدمون بشكوى؟ أهم خائفون؟

انييس: إنهم يخافون الانتقام «سيعرف اسمي وعنواني».

◆ وهل تلك مشكلة بالنسبة لك أن لا يتقدموا بشكوى؟

انييس: ليس لهذا الحد، لأن النائب العام حر في متابعة القضية مادام على معرفة بالوقائع.

◆ وهل تتصلين به بصورة منتظمة؟

انييس: كلا، إنه ضابط الشرطة القضائية الذي يتصل عندما يكون لدينا موقوف بالجرم المشهود. وحتى بالنسبة لقاصر علينا الاتصال بالنائب العام لمعرفة إن كان علينا إحالته للقضاء أو إطلاق سراحه.. إن هذا يغيظني شخصياً. أما بالنسبة لضرب وجرح بين زوجة وزوجها: «أتقدم بشكوى، فقد ضربني زوجي منذ ثمانية أيام». وأنا متأكدة من أنها ستأتي بعد ثلاثة أيام عند استدعاء الزوج لسحب شكواها، لأن هناك الأطفال وكل ذلك.. وتجري الأمور على هذا المنوال؛ فقد ملأنا الأوراق وقمنا بالإجراءات ثم تحفظ القضية دون ملاحقة حتى لحادثة الضرب والجرح.

◆ ألا يستطيع النائب العام هنا الملاحقة؟

انييس: فيما يتعلق بالضرب والجرح بين الزوج والزوجة، لا أظن أنه يلاحق إلا في الحالات الخطيرة. لكنه لا يلاحق حالات التلبس والسرقة من البسطة عموماً.

نملأ الأوراق، وانتهى الأمر.

- وهل يعمل ذلك بانتظام؟

انييس: أجل، أجل، إحالة واستدعاء للمثول، لكنه لا يلاحق سرقة

200 فرنك من البسطة. بل 500 فرنك على ما أظن. إنهم التجار الذين يحرصون على تقديم الشكوى، مع علمهم بأن شكواهم ستُحفظ. أما نحن فنَحفظ القضية إلا إذا كان هناك تمردٌ أو سرقة 40 فرنكاً وجَرْحُ أحد، عندئذ نأخذ الشكوى.. لكنها تُحفظ عموماً أيضاً. والأمر ذاته للشيكات دون رصيد، فشيك بـ 150 فرنكاً أو 200 فرنكاً، سيُحفظ على الرغم من أخذ الشكوى! وهناك الكثير من هذا..

❖ ولديك العمل نفسه في النهاية، مهما كانت خطورة الأفعال، سواء أكانت سرقة حقيبة يد أم شيك بمليوني فرنك..

انييس: إن ذلك منصوص عليه في القانون عادة، لكن الواقع شيء آخر. فعندما تكون عملية إثبات واقعة بالنسبة لعملية سطو، وليس لدى الأدلة القضائية ما يكفي من الموظفين، نقوم نحن أنفسنا بالتثبت من الواقعة. ولا نستدعي الأدلة القضائية إلا عندما يكون المبلغ كبيراً، أي يزيد عن 100 ألف فرنك. لكننا نذهب للتثبت من الواقعة إذا كانت هناك بصمة واضحة على الزجاج مثلاً.

❖ ينبغي معرفة وجود بصمة مسبقاً..

انييس: إنه الشاكي الذي يخبرنا، ونذهب لنرى. لكن البصمة الجيدة لا تكون إلا على بعض السطوح فقط ويجب أن تكون مضغوطة جيداً وغير منزلقة.. هناك سطو مقداره 500 ألف فرنك مثلاً. فنستدعي الأدلة القضائية، وإذا بالأثر منزلق ولا يمكن استعماله. وربما نجد بصمة جيدة لسطو صغير، لكن الأدلة القضائية لا تأتي إلا لأكثر من 100 ألف فرنك، أو عندما يكون هناك شيء غريب. كما يجب بالنسبة للسطو مصادرة قبضة الباب والتحرز عليها، وهناك في ديوان المحكمة المئات منها، لكن كل ذلك يبقى بدون طائل. إذ إن ما نفعل في الواقع هو ملء الأوراق، وانتهى الأمر.

❖ وهل تملؤون كثيراً من..

انييس: إن الضحايا لا يأتون للشرطة للتصريح عن السرقة بل لعمل ورقة للتأمين، لأنهم يثقون بالتأمين أكثر من ثقتهم بالشرطة.

◆ وهل يطلب التأمين ورقة من الشرطة؟

انييس: أجل، ولذا يأتينا الضحايا: «ما الشيء المسروق؟» «سرقوا لي جهاز تلفزيون» «من أية علامة تجارية؟» «لا أدري، لكن لدي الأوراق. إن قيمته 3000 فرنك» (القيمة دائماً! لكن القيمة لا تهمنا). أما للتأمين فيقولون كل شيء، الطراز والعلامة التجارية. ولا شيء للشرطة. وقد وجدتُ الحل، فلا آخذ شكوى السطو إلا إذا كانت لدي الفواتير أو كل المراجع. إننا نعمل من أجل التأمين (..)

إن الضحايا يثقون بالتأمين أكثر من ثقتهم بالشرطة (..)

وإذن فلا لزوم لنا.

◆ لأن الناس لا يقومون بالتصريح؟

انييس: بلى، أحياناً. إنني أقول لهم أحياناً «هل أتيتم من أجل التأمين أم لاسترداد مذياع سيارتكم؟» إن ذلك من أجل التأمين طبعاً. وعندما نعثر على المسروق أحياناً، لا يكونون راضين. وإذن فلا لزوم لنا: «تعلمين أن التأمين قد ردَّ لي قيمة المذياع، وليس لدي الوقت. لقد كان المذياع قديماً جداً» إلخ.

◆ ألا يعتقد الناس بأنهم سيستردون مسروقاتهم؟

انييس: أجل، إن الناس مقتنعون بأننا لن نعثر عليها، ونحن نعتقد أيضاً بأننا لن نعثر عليها إلا في حالة التلبس بسطو. لأن ذلك نادر نتيجة التحقيق، فليس لدينا أي دليل، ولأنك عندما تعمل التحقيق في الجوار، لا أحد يفتح لك الباب «ليس من جثة في بيتي» بينما يدخل رجال ينتحلون صفة الشرطة كما يشاؤون، ولا أدري كيف يفعلون. أما نحن فلا ندخل: «لم أر شيئاً، فلم أكن في البيت» وحتى لو رأوا «لن آتي، فلدي عمل» «لا أريد أن يظهر اسمي» إلخ ولا أحد رأى أو سمع شيئاً. وهناك الشاكي الذي يشك بالجميع، فنحاول تهدئته -«إذا لم يكن ما تدعيه صحيحاً، فسينقلب عليك»- لأننا نعلم عموماً إذا ما كانت الشكوك ذات أساس.

❖ هل تعلمون ذلك؟

انييس: أجل، ثم إننا نرى الشخص الموجود أمامنا.

❖ إنها المهنة التي تعطي..؟

انييس: إذا كان ما تقوله ذا أساس نسجله. أما إذا كان، في البيت في الساعة كذا، وفعل هذا أو ذاك، فينبغي التحقق.

❖ وعلاقاتكم مع النيابة العامة؟

انييس: هذا يعتمد على نوع النيابة. فهناك نيابات متشددة جداً، وأخرى «يسار متطرف» ومتراخية: «الصغار المساكين، كل هذا ليس ذنبهم». وإذن يعتمد الأمر على نوع النيابة.

❖ وهل يزعجك تراخي القضاة؟

انييس، أجل، فحوادث النشل كثيرة، ومن الصعوبة بمكان القبض على النشال متلبساً. فما أن يترك محفظة النقود حتى ينتهي الأمر، فليس هو. وتسمع القاضي يقول «استدعاء للمثول أو إفراج» لأن الأدلة غير كافية. بينما المتهم معروف لديه ولديه الكثير من السوابق. ولكن لعدم كفاية الأدلة..

❖ عدم كفاية الأدلة؟

انييس: في هذه الحالة «يكون قول الشرطي مقابل قول النشال» يقول الشرطي «رأيته يأخذ الـ..» ويقول النشال «كلا، كلا، كلا، لم يكن معي شيء. كانت المحفظة على الأرض، وجدتها والتقطتها» إلخ، فهناك من يصدق النشال، هكذا، وآخرون لا يصدقون. وفي هذه الحالة يحال المتهم، لكننا لا نعرف العقوبة ولا ما سيصير عليه.

❖ ألا تتابعون..

انييس: لدينا رقم هاتف. ونود أحياناً معرفة العقوبة بعد قضية ناجحة، لنعلم أنه أخذ ثلاثة أشهر أو لا شيء البتة، أو غرامة مالية لا يستطيع حتى دفعها.

❖ هل تهمكم المتابعة؟

انييس: أجل، لمعرفة ما حدث لهم. وما إذا كان عملنا ذا فائدة أو بدون طائل.

◆ لأنكم تشعرون بأنكم عملتم بدون فائدة إذا ما..

انييس: إذا ما أطلق سراح المتهم. إذ يتجشم المرء عناءً كبيراً ليصل في النهاية إلى «الصغير المسكين. كانت هذه هي المرة الأولى». وأحياناً يحصل العكس. ولقد حصل لي ذلك ثلاث مرات وأخرجني عن طوري حقاً.

مدعاة لليأس

◆ ماذا فعلوا؟

انييس: كان منهم واحد متخصص في كسر السيارات وسرقة المذياع منها. دخل السجن ست مرات، وعند خروجه لم يجد عملاً، فعاد إلى السرقة. قال لي «لا أريد العودة إلى السجن، لقد عشت ثلاثة أسابيع بما اشتغلته في السجن، لأنني كنت أعمل، لكنني لم أجد عملاً بعد ذلك، واضطررت..» فأحيل إلى القضاء طبعاً لأنه من أرباب السوابق، ولم يكن يستطيع الإفلات. والمرة الأخرى تتعلق بزوجين مع طفل عمره 20 شهراً. سرقا محفظة فيها بطاقة ائتمان ودفتر شيكات، وذهبا للتسوق وشراء حلي وقلم حبر كارتييه. كان الرجل أنيقاً والمرأة مسكينة. اعترفا بفعلتهما، فأحيل الرجل للمحاكمة. أما هي فلم تحل لأنها أم لطفل وشعرنا بأنها المرة الأولى لها، وأن أمامها إما المخدرات وإما الرصيف إن واصلت العيش مع هذا الرجل.. الذي كان نموذجاً غريباً، أنيقاً ومن عائلة طيبة من البورجوازية الصغيرة. ولا أدري لِمَ كان يفعل هذا. وقد دخل السجن سابقاً. إن ذلك مدعاة لليأس.

والمرة الثالثة كانت سطواً توصلنا إلى فاعله عن طريق التحقيق. وكان مراهقاً في السابعة عشرة من عمره ربما. انساق مع أولاد الشوارع، ولا تبدو عليه مظاهر الجانحين حقاً، ومع ذلك فقد دخل السجن وكان في الحبس المؤقت. وأنا متأكدة بأنه لن يسرق أبداً. لكن لديك جانحين لا عمل لهم إلا هذا، ويسخرون منك لأنهم يعلمون بأن لا أدلة ضدهم ويعرفون الإجراءات.

◆ نعم، ماذا ترين كحل؟

انييس: لو أعطينا للأولين عملاً لانتهى كل شيء.

● وللآخرين؟

انييس: الآخرون كسالى، ولن يعملوا أبداً. إنهم يفضلون كسب 500 فرنك في خمس دقائق على الشغل ثلاثة أشهر. وهؤلاء نعرفهم للوهلة الأولى؛ إنهم الجانحون المعتادون. يستطيعون العمل ولكنهم سيسرقون في كل الأحوال. نراهم ونقبض عليهم: لديهم عمل.. ويواصلون دائماً.. لقد سجنوا سابقاً ويعرفون كل شيء. فلا حل بالنسبة لهم. فربما ينصلحون -أتكلم عن الجانحين ممن هم في 18-25 سنة- وقد تكون العقوبة غير كافية. فلديك لسرقة دراجة نارية أو دراجة عادية غرامة مالية و«حذاري، ستذهب في المرة القادمة إلى السجن» ولكنهم يعودون، ولا يذهبون إلى السجن لأن هناك ثلاثة شهور مع وقف التنفيذ. فالسجن ليس إلا في نهاية لا أدري من المرات. ولا أحكام بالسجن تقريباً أبداً..

❖ هل تعتقدين ذلك؟

انييس: في هذا النوع من الجنح، سرقة مذياع سيارة وجنح صغيرة. فبما أن السجون مكتظة، فهي الغرامة أو وقف التنفيذ. أعتقد بأننا لو أخذناهم بالخوف من المرة الأولى فقد يصلح أمر البعض منهم «حذاري، حسناً بالنسبة للمرة الأولى لسرقة من البسطة، لكن المرة القادمة إلى السجن» فهذا قد يخيف البعض الذين لم يتعودوا بعد كابن المهندس الذي فعل هذا لسبب لا أدريه. ولكنه بدون فائدة للشاب الذي يقضي وقته مع أولاد الشوارع. وهنا ينبغي القمع.

❖ وما علاقتكم بالقضاء؟

انييس: إنها في إطار لجنة الإنابة القضائية (لجنة الإنابة القضائية هي ترخيص مبرر يقوم قاضي التحقيق بإعطائه لإنجاز أعمال تدخل في نطاق تحقيق قضائي) التي تسمح لنا بالتفتيش أو لا تسمح. والقاضي هو الذي يقرر مبدئياً. فعندما نتصل به يقول لنا «حسناً، تواصلون الاستنطاق أو تجلبوا المتهم لي» وفي هذه الحال توجه التهمة له.

◆ وما رأيك بقرارات القضاء؟

انيس: قد يُنقض حكم بسبب الإجراءات الجزائية، لأننا سهونا عن شيء ما، إنه عيب شكلي وما شابه ذلك! ترتكب حماقات كهذه لأننا لم نفعل كما يجب. رأيي أنه لابد من الإجراءات ولكن ليست بهذه الصرامة. فالمحامي يستمر في البحث عن الأخطاء حتى عندما يعترف موكله بأنه مذنب. إن هذا غير مقبول.

◆ ما أثر أن يصير المرء ضابط شرطة قضائية؟

انيس: سأقول لك، فقبل عام من حدوث ذلك، نشرع في الخوف والقلق لأننا غير واثقين من أننا نعرف كل شيء، فهناك الكثير مما يتوجب علينا معرفته، وخوف دائم من نسيان شيء ما. والكثير مما ينبغي عمله في الوقت نفسه. وهناك خوف من عدم معرفة ما يجب عمله عندما يتطلب الوضع ذلك.

◆ نعم، لأنها مسؤوليات..

انيس: مسؤوليات ثقيلة، ثقيلة، تقع عليك.

◆ وكيف يهيئونكم لها؟

انيس: لكنني لم أدرس قانون العقوبات، ولا قانون العمل. لقد علمونا كل هذا في المدرسة نظرياً. فقد ننسى مهام الشرطة الإدارية إذا لم نمارسها. وهناك دورات للشرطة في باريس، أما الشرطة الإدارية فنتعلمها بالبقاء أسبوعاً وراء الكوة لمعالجة الأشياء المفقودة، وفقدان بطاقة الهوية، ثم حمل الأسلحة وطلبات التبني.. ولا ندرس كل هذا تقريباً بل نتعلمه في الميدان. إن المفوضية هي القاعدة، ومن أراد أن يكون مفتشاً فلابد له من المرور بها، لأن فيها نتعلم كل شيء، وبعد سنتين أو ثلاث تتم الترقية.

◆ هل الترقية ممكنة؟

انيس: الترقية في مدينة باريس سهلة جداً، لكن الانتقال إلى الأقاليم بعد ذلك شيء آخر.

◆ هل هو أكثر صعوبة؟

انييس: أجل، إذ يتطلب 15 عاماً.

◆ أحقاً؟

انييس: إن الأمر بسيط، ففي مسابقة المفتشين يكوّن الباريسيون 10٪ ربما، والباقي من الأقاليم ولا يرغبون بالعمل في باريس، بل يفضلون بلداتهم على المفوضيات الباريسية. وهكذا فالمفتشون في باريس شباب، 26 عاماً أو شيء كهذا. وكلما نزلت إلى الجنوب أكثر كان المفتشون أكبر سناً!. فهم في الأربعين والخامسة والخمسين في بلدتي.

◆ وهل تودين الانتقال إلى بلدتك؟

انييس: أود ذلك من ناحية المناخ، إلخ لكنني لا أود ذلك من جهة التفاهم مع المفتشين القدماء. فأنا أحتمل الأقدمية جيداً، لكنني لا أحتمل العقليات، لا.

◆ لماذا؟

انييس: إنهم متراخون، ولا يعرفون سوى «لا، لا لزوم لفعل هذا هنا، فلن تتم متابعته» ويتركون أنفسهم على هواها، ويشربون. فلديهم مناصبهم، وسيبقون حتى سن التقاعد مرتاحي البال، لدينا هنا واحد منهم منذ 14 عاماً، ولم يشارك تقريباً في أية عملية تفتيشية أو أي شيء من هذا القبيل. والشباب الذين يأتون ويريدون القيام بالتفتيش وما شابه، يحطمون منذ السنة الأولى: «لا لزوم لهذا، ما تريد أن تفعل؟ دعه وشأنه». إنهم متراخون.

- وهل الشرطة القضائية أكثر بعثاً للاهتمام؟

انييس: إنها أكثر بعثاً للاهتمام، والعمل أكثر أهمية. إنه يرى في التلفزيون.. ليس كما يرى في التلفزيون. بل التحقيق. بينما نقوم هنا باستقبال الشكوى. ولدينا هنا لجنة إنابة قضائية لعمليات الاحتيال المتعلقة بالشيكات الباهظة، لكن الأمر لم يكن عملياً. إذ يجب القيام باستنطاق في مدريد أو ألمانيا، ولهذا تحول إلى غرفة مختصة.

❖ هل تمر مباشرة إلى مصلحة مختصة؟

انييس: تمر إلى ضابط الشرطة القضائية، إذا كان السطو يتجاوز 100 ألف فرنك، لأن لديهم الوقت والوسائل الكافية لمعالجة القضية. فالجرائم والجنح في باريس أكثر من الأقاليم بكثير.

❖ في باريس وليون ومرسيليا، توجد مصالح مختصة. وهناك حتى قضاة مختصون..

انييس: المفرزة السابعة والمفرزة الثانية والمفرزة الثانية عشرة..

❖ وهل يعجبكِ أن تذهبي إلى مصلحة مختصة؟

انييس: أنا أتمنى ذلك، إذ ما يعجبني هو عمليات الاحتيال، وكل ما هو تزييف. فهي إذن الغرفة الخامسة في باريس، ثم إدارة الشرطة القضائية في باريس.

إن ما افضّله هو التحقيق

❖ لِمَ تهتمين بهذا؟

انييس: لأنك إذا أردت التحقيق.. فلم يعد هناك تحقيق أو نجاح في عمليات السطو، حيث لا يرى الناس أو يسمعون أي شيء. أما في عمليات الاحتيال المتصلة ببطاقات الائتمان فيصف لك التاجر الشخص، ويتساءل الناس عما إذا كان الشخص هو مالك البطاقة أو غيره. وفي أحد الأيام تكفي بطاقة ائتمانية للحصول على البنزين، إذ يسجل صاحب المحطة رقم السيارة.. ولم يعد هناك تحقيق.

❖ ولا نتائج؟

انييس: لا نتائج فيما يتعلق بالشيكات المزورة أو المسروقة، فلا نعثر عليها. إن ما أفضله هو التحقيق. هناك مصالح أخرى في الشرطة تقوم بالاستجواب فقط.. أما أنا فأفضل التحقيق.

❖ هل هناك من زميلاتك من يهتممن بالشرطة القضائية، أو بأشكال أخرى للشرطة القضائية؟

انييس: أجل، على ما يبدو. فهناك الآن نساء في المفوضيات، لكنهن

قليلات. إذ لا يتجاوز عدد النساء ربع عدد دورة المفتشين، نجدهن في المفوضيات ويترقين مثل البقية. صحيح أن على المرء أن يكون متين البنيان في مفرزة مكافحة الجريمة أو في مصلحة يتوجب فيها القبض على شخص ما.. وبالتالي ففيهما القليل من النساء. أما لدى الأحداث فهن كثيرات. وأنا أمقت هذه المصلحة. إن الناس في باريس لا يندهشون لرؤية امرأة مفتشة شرطة، أما في الأقاليم..

❖ إنهم لا يصدقون ذلك؟

انييس: لأن المفتشات لسن كثيرات منذ عشر سنوات. واللواتي تخرجن في 1979 مازلن في باريس. وقليلات هن اللواتي نزلن إلى الأقاليم، فهذا هو السبب..

❖ هل هناك فروع مخصصة للنساء فيما عدا الأحداث؟

انييس: كانت النساء يرسَلن في البداية إلى مفرزة الأحداث، ثم فتح المجال لهن في المصالح الأخرى. لكنني لا أستطيع أن أكلمك عن تلك المصالح.. فمن المؤكد أنهم لن يصطحبوا فتاة في عملية تفتيش.

❖ إن هذا يعتمد، أليس كذلك؟

انييس: إذا كان الشخص خطراً، فلن يصطحبوا فتاة.

❖ لكنهم سيحمونها؟

انييس: أجل، فقد كنا في المفوضية يوماً وسمعنا «أمسكوا بالسارق» في الشارع. وسبقت الجميع خلفه، وورائي زميلان يركضان. وعندما قبضت على الشخص قالا لي «كنا نحاول الركض أسرع منك لأننا خائفين عليك» أما أنا فلم أفكر حتى فيما إذا كان السارق يحمل سكيناً أو قنبلة مسيلة للدموع، وسارعت راكضة هكذا».

إن المفوض يعمل هذا لكسب المال عموماً

❖ ما هي علاقتك مع ضباط الشرطة القضائية؟ هل هم على حدة؟

انييس: لا علاقة لي معهم في المفوضية. فهنا -إذا شئت- تسلسل

وظيفي: المفوض والمفتشون والمحققون. وهناك ضباط الشرطة القضائية. هنا «السيد المفوض» وأنت. أما ضباط الشرطة القضائية فشيء آخر. إنها الشرطة الحقيقية التي أحبها على كل حال.

❖ والمفوض، ماذا يفعل؟

انيبس: إنه يوقع.

❖ لا يبدو أنه يعمل الشيء الكثير.

انيبس: إدارة المفوضية. إن المفوضين بصفة عامة -وهذا ليس قدحاً- هم هنا لكسب المال أي من عمليات المصادرة والطرد وترتيب الجنائز.

❖ ترتيب الجنائز؟

انيبس: عندما يتم دفن شخص ما، يجب أن يكون شخص من المفوضية قبل غلق التابوت للتأكد من أن الشخص الموجود في التابوت هو الميت. ويتعين فعل ذلك على المفوض في العادة، لكنه يرسل مندوباً عنه، ويقبض 75 فرنكاً عن كل تابوت. وهناك مفوضون يفعلون هذا لأنهم يحبونه، وآخرون يفعلونه للفلوس؛ وبالتالي يختارون حياً فيه مستشفى ومقبرة. ولذا نجد أن لبعض المفوضيات قيمة كبيرة بسبب المستشفى والمقبرة. ويكسبون في الأماكن الجيدة 10.000 فرنك شهرياً زيادة على مرتباتهم. وحتى لو حدث خطأ أو ما شابه ذلك، فلن يقع على عاتق المفوض، بل علينا، لأن اسمنا هو الموجود!. إنهم يفعلون ذلك لكسب المال عموماً.

❖ أحقاً؟

انيبس: هذا صحيح، فهم لا يقومون بالتحقيق بأنفسهم إلا قليلاً.

❖ نعم، إنهم المفوضون الحقيقيون. فعندما يكون لديك مفوض في أحد الأحياء، يشرب أو سيء السمعة، سيجدون له منصباً آخر. ومنصبه هنا.

تشرين الثاني 1989

ريمي لونوار

لوم مشخَّص

أندريه س. في الخامسة والثلاثين من عمره. وهو قاض متزوج من إحدى زميلاته، وأب لطفلين صغيري السن. أندريه وزوجته متحدران من مدينتين كبيرتين في الأقاليم، ويزاولان عملهما في إحدى هاتين المدينتين، التي سيبقيان فيها من دون شك لأسباب عائلية (وجود عائلة أحد الزوجين) ومهنية؛ لأن حظوظهما في الترقية، التي تتطلب في أكثر الأوقات حراكاً جغرافياً كبيراً، ضعيفة. إذ بدأ «مسارهما المهني» بعد تخرجهما من المدرسة الوطنية للقضاء بدرجة «متوسطة» في محاكم إقليمية صغيرة، بعيداً عن باريس، وهو ما لا يتوافق مع الترقيات البراقة. بالإضافة إلى أنهما يتصفان كلاهما بالتصلب في رفض كل «التسويات» التي إن لم تسهل حسن «سير العدالة» فهي تيسر على الأقل العلاقات (الطيبة) التي لا يتم بدونها أي ترفيع في سلك منغلق على نفسه كسلك القضاء.

جرى الحديث بيننا يوم سبت في منزل أندريه س. بينما كانت امرأته منشغلة بأعمال البيت وبالطفل الذي لم يبلغ سن الحضانة بعد. ولم يكن تواريها من قبيل الصدفة، فإن كان تفانيها في حياتها المهنية بقدر تفاني زوجها، إلا أن لدى زوجها، بحسب تعبيره، «أشياء أكثر يقولها». ومع أنهما يتقاسمان الأعمال البيتية بالتساوي تقريباً؛ غير أن الحديث عن «القضاء» حتى لو كان متقطعاً، كالذي جرى أثناء الغداء، يبقى من نصيب الزوج.

وكأنما خوّل لنفسه نوعاً من الشرعية التي لا تنازعه فيها زوجته كما يبدو، ولا ينازعه فيها زملاؤه أيضاً.

لا يتوافق أندريه مطلقاً مع التمثلات التي تبثها وسائل الإعلام عن قضاة انفض الأنصار من حولهم من مثل: «طغاة مستبدون» «شغوفون بالعدل غير مسؤولين» «أناس صغار، جبناء ومتشنجون». إلخ تذكر هذه الصور الكاريكاتورية إلى أي حد يشكل فيه نشاط القضاة موضوعاً لأحكام علنية، تنتج على الخصوص من أطراف على نزاع بنيوي معهم (مع الصحفيين بصدد سرية التحقيق ومع رجال السياسة بصدد استقلالية القضاء ومع المحامين بصدد احترام الحق في الدفاع) ويستحضر القضاة وضعهم ويقيمونه بالمقارنة مع تلك الأحكام: «يجري الكثير من الكلام عنا، لكننا لا نستطيع التحدث عنه كما نريد، وعندما نفعل يعتبروننا مهرجين». إن القضاء سلك متراتب تتم فيه رقابة شديدة على التصريحات العلنية، ويفقد الذين يقومون بها مكانتهم في أعين زملائهم، إن لم يكونوا في مناصب رفيعة ضمن التسلسل الوظيفي.

توسط الحديث بيني وبين أندريه ذلك التعريف الاجتماعي لـ«قلق القضاء». وإذا ما تكلم بمثل هذه الصراحة والاقتناع فلأسباب منها اعتقاده بوجوب تصحيح هذه الصورة، ولأنه وجد فيَّ بعض الإمارات التي توحي بالثقة. فأنا لا أتحدث فقط مع «الرؤساء» ولا مع القضاة وحسب كما أنني باحث جامعي وعالم اجتماع، وبذا أضع نفسي خارج اللعبة القضائية. وبوسعي من خلال كتاباتي ودروسي أن أشهد علناً على القلق الذي يعاني منه. وعندما أفضى لي أندريه بمكنون نفسه كان ينتظر مني في المقابل أن أنقل نظرته لسير العالم القضائي بأقل تحريف ممكن، وهي نظرة قاضٍ من «القاعدة» منكد بل حطم، على أمل أن يكتب هو نفسه كتاباً حول القضاء وما يسميه «اختلال العالم القضائي» حتى يصير صحفياً متخصصاً في هذا الميدان. أفليس هذا المشروع هو الانعكاس الخيالي لإخفاقاته الوقتية في المنظومة القضائية؟ من الواضح على كل حال بأن شروط التعبير عن القلق مجتمعة: لقاء بين إنسان مهمش وواهن حتى في حياته الخاصة، وبين

عالم اجتماع أي فاعل اجتماعي ذي وضعية غير محددة نسبياً؛ وظيفته «فهم» الآخرين وربما مساعدتهم، والذين تقترب خصائصهم من الخصائص التي يتمنى وجودها لدى القضاة.

إن الإشكالية المطروحة في وسائل الإعلام خاصة («استقلالية القضاء»، «العلاقات مع ضباط الشرطة القضائية» «العلاقة مع الرؤساء» «فقدان المكانة» «الحاجة للعدالة» إلخ) قد أسهمت أيضاً إسهاماً كبيراً في خلق هذا النوع من التحليل الذاتي لأنها تتناسب، لكن من وجه آخر، مع إشكالية أندريه. إذ يجد هذا القاضي الذي كيفت المؤسسة القضائية حياته برمتها في التمثل العلني لـ«القلق القضائي» الوساطة والأداة التي تسمح له بالإفصاح عن ألم الوجود الذي ما كان بوسعه الشعور به ربما أو التلفظ به خصوصاً لو لم يكن مصيره الشخصي، من حيث هو، مرتبطاً بمصير المؤسسة ذاتها. فبما أن القيم المعلنة للمؤسسة القضائية -«الاستقامة»، «الكرامة»، «النزاهة»، «الاستقلالية»، «الخدمة العامة»، «الصالح العام»- هي القيم نفسها التي يعرف بها نفسه، فإن استعادة هويته تمر عنده باستعادة المؤسسة لهويتها، تلك المؤسسة التي طالما خيبت أمله ومزّقته ودفعته لمفارقتها نوعاً ما. إنه يعيش القلق الذي يعتري المؤسسة في أعمق أعماقه، بفعل الانسجام المسبق بين مؤسسة تستحق أن يُتَنكَّر لها باسم مبادئها الخاصة، وأحد أعضائها الأكثر إنكاراً من قبلها؛ ولاسيما أنه يتصرف وفقاً لما يجب أن يكون عليه مبدأ سير هذا العالم الذي يفصح عنه، عندما يبسط طريقته الخاصة في إصدار الأحكام: «تطبيق القانون بلباقة وإحساس بالناس، مع الحزم في بعض الحالات، وبلوغ ما هو ضروري، والتدليل على أن وجودنا هو لتطبيق القانون وليس للانتقام».

حزن أندريه س. مثل بقية زملائه وخاصة أبناء جيله للتقهقر الجماعي الذي اعترى مهنتهم على الأقل بالقياس مع النشاطات القانونية والإدارية الأخرى، والنشاطات التي تبرز في الوظائف الحكومية العليا (وخاصة تلك التي يسمح بها التخرج من المدرسة العليا للإدارة) وفي صعود

المهن الحرة العليا أيضاً. لكن ما يضاف إلى هذا التقهقر الذي يعاني منه الجميع، ويشكل المحور الإجباري لكل خطاب راهن حول القضاء، هو خيبة الأمل لديه التي كانت بعظم الآمال التي كان يعلقها على «مهنته». إذ إن كل شيء هيئه لهذا التفاني الذي لم يحصل من ورائه على ما ينتظره من نتائج. فقد جاء دخوله لسلك القضاء نتيجة للاستراتيجيات التي اتبعتها الطبقات الوسطى في الستينيات مستهدفة تحويل جزء من رأس مالها الاقتصادي إلى رأس مال مدرسي. وكان أبوه تاجراً ثرياً متشبعاً بمُثُل الكاثوليكية الاجتماعية، فحث ابنه على متابعة دراسته العليا. وشجع لدى أندريه س. تلك الأريحية إزاء الآخرين، التي ما انفكت قيَمه الدينية تعززها. فاتخذت بحسب العمر شكل النشاط الكشفي ثم النضال السياسي والنقابي لتكتمل (كما هو الحال غالباً لدى سكان الأقاليم خاصة) في مسار مهني ضمن الوظيف العمومي. ومثل كثير من القضاة الشباب، وعلى الرغم من أن أبويه ليسا من القضاة، فقد مارس بعض أفراد عائلته مهنة قانونية (كان جده لأمه وكيل دعاوى، وأحد أعمامه محامياً) وهو ما أثر على توجهه المهني، كما ينوه هو نفسه.

إن أباه يجسد في آن معاً، ما يهرب منه («أرباب العمل» «المال» «الرؤساء» «اليمين» إلخ) وما أتاح له الهرب. فبعد صراع مع أبيه، كان صراعاً مع نفسه أيضاً، حرره الاعتراف بصلاح وجهته «للدفاع عن الصالح العام شيئاً ما ومصلحة أولئك الذين كانوا في الشقاء بصورة خاصة» ومنحه الطاقة التي تسمح بالتفوق على النفس، أي بتجاوز الشعور بالذنب الذي يولده الترقي الاجتماعي غالباً، أو بالقطيعة مع المحيط العائلي على الأقل «كان أبي يعترف لي في النهاية قائلاً: «حسناً، إن الأفضل مع ذلك أن يكون المرء قاضياً من كونه تاجراً»».

لكن مشروعات التحول لا تخلو من المخاطرة، لأنها لا تقترن دائماً باكتساب الاستعدادات والسلوكيات المطلوبة في العالم الاجتماعي الذي يتيح النجاح في المسابقة النفاذ إليه؛ فلغياب الإلفة وما يرافقها من يسر ومرونة،

يأخذ هؤلاء القادمون الجدد «بجدية» وحرفياً، التمثلات التي يقدمها هذا العالم عن نفسه. وقد حمل أندريه س. إلى العالم القضائي القيم نفسها التي جعل منها القضاة عقيدتهم المعلنة، إلا أنها ليست مع ذلك القيم التي تتحكم في ممارستهم، ولاسيما تلك التي لها علاقة مباشرة بتدبير «مسارهم المهني» الذي يشكل محور اهتمامهم وحساباتهم في أكثر الأسلاك انغلاقاً. ومساره هو مسار زوال الأوهام الناجم عن التباين بين مبادىء سير البيئة القضائية الحقيقية، والمبادىء التي يعتقد أنه يجد فيها «النزاهة» و«الاستقلالية» و«خدمة المتقاضين» و«احترام الغير». وإذا كان لم يرضخ للنظام القضائي، فذلك راجع لقوته الأخلاقية بقدر ما يرجع إلى القوة الأخلاقية التي لما تزل كامنة في هذا العالَم على الرغم من تعرضها للانتهاك على الدوام باسم مقتضيات «المسار المهني» لأن «تدبير المسار المهني لدى القضاة، شيء يستنفذ الكثير من الوقت في عقول الناس».

وهو إذ يقدم مساره المهني كشكل من أشكال درب الآلام، فليس مرد ذلك لأن سلوكياته وطريقة عمله قد «قُيّمَت دون ما تستحق» -مع أنه حزين لذلك أيضاً- بقدر ما يرجع لمثال أخلاقي صعب المنال هو «الولع بالعدالة». فلقد كان متهيئاً منذ البداية لتبني القاعدة الصريحة للعبة القضائية، وخاصة لرفض «القواعد غير المكتوبة» التي تشوه وظيفة القاضي كما كان يتصورها قبل دخوله للمدرسة العليا للقضاء: «إن النزاهة لا طائل من ورائها». والشيء الأكثر إثارة للانتباه في كلام أندريه س. هو من دون شك التطابق التام بين طريقته في تصور القضاء التي ماينفك يحاول فرضها، وبين الطريقة التي يرى بها نفسه؛ حتى أن «القضاء يؤلمه». وإذا كان بعض القضاة «مدعاة للرثاء» و«تافهين» و«مهترئين» إلخ فذلك لأن كل ما في هذا العالم يؤلمه، أي «القضاة التافهون الذين يبعثون القشعريرة في بدنه» و«الرئيس الذي يُبكي امرأة لأنها ارتكبت سرقة عند انفصالها عن رفيقها» وهو «يتضايق من مشاركة إنسان في قسوته، فذلك مخجل أحياناً». ويتعزز شعوره بالضيق من خلال تصرفات سلك القضاة؛ كعجزهم و«ردائتهم»

و«كسلهم» و«جبنهم» حيال رؤسائهم أو الفاعلين الآخرين في الحقل القانوني (رجال شرطة أو درك أو محامين) أو حتى في الحقل السياسي (وزارة العدل، الأعيان المحليين). وأقل ما يقال هو أنه يتألم منها لأنه لفرط «إرادته بفعل ما عليه بهدوء» «وفعله كما يجب» أي «بنزاهة» انقلب كل شيء ضده؛ من «الرؤساء» -رؤسائه، ولكن أيضاً رؤساء كل الأطراف المعنية باللعبة القضائية- إلى رجال النقابة المستعدين للتفاهم مع وزارة العدل، وصولاً إليه نفسه الذي «انضم إلى قيم المنظومة شيئاً ما» بعدما رأى نفسه مهدداً بالفصل.

ولعل من خلال حماس أندريه س. لهؤلاء «القضاة المتفوقين» وهؤلاء «المحامين الذي يقومون بواجبهم على خير مايرام» وحتى لأولئك المحكوم عليهم المعترفين بالجميل، أي باختصار لهؤلاء «الناس الفاضلين» يتبدى بحدة أساس ألمه. فبما أنه استثمر كل ما لديه فيما يشكل قضية («نبيلة») يدافع عنها (وهو ما يفعله في عمله وفي النقابة وفي تطوعه عموماً إزاء كل شخص في شدة) فقد منع على نفسه أي مخرج (وخاصة المحاماة) وهذا ما يدفعه، بعد أن وُضع موضع الاتهام، إلى أن «يضع الجميع موضع الاتهام» أي «المنظومة» بما فيها شخصه.

«على من يقع واجب الحكم على عمل القضاة؟» على هذا السؤال كان يحاول الإجابة طوال الحديث، محللاً في الوقت نفسه ما يتعارض مع تصوره للقضاء في طريقة ترفيع القضاة، ومعدداً هكذا ضروب الإذلال التي خضع لها والسلوكيات التي أثارت استنكاره («المعايير الخاطئة») وبعض جوانب سير العالم القضائي التي تشكل «القرارات» و«الأحكام» نتيجتها الجوهرية. ومستذكراً بأسلوب مؤثر الوسائل الكفيلة وحدها، كما يقول، برد المصداقية لهذه المؤسسة أي («شرعيتها في إصدار الأحكام») التي تقوم على «العمل الذي ينجزه القاضي بالفعل» و«سعة الأفق» و«الهيبة» اللتان تصاحبان هذا العمل، بالإضافة إلى التقويم الذي يخضع له من قبل كل الأطراف المعنية (الزملاء، المحامين، ضباط الشرطة القضائية، والمحكوم عليهم أنفسهم).

إنـه يـرى وراء اسـتقلالية القـاضي الرضـوخ للرؤسـاء، ووراء سـلطة القضاء التبعية لرجال الشرطة والسياسـيين، ووراء السكينة الكراهية، ووراء الصرامة الجبن، إلخ «إن الأمـر يصبـح مشيناً لمجـرد قيـام المـرء بعمل أشياء عادية في حد ذاتها». وبلغت خيبة أمله حداً زاد منه عدم قدرته على التخلي عن الاعتقاد بضرورة المؤسسة القضائية (وإلا فإنه «الانتقام») ولـذا فمـا مـن مخرج لديه، وهو حبيس أوهامه وأحلامه، إلا تـأليف عمـل يكتـب فيـه «هـذه الأشياء التي يتعين نقدها، ولا أحد يتحدث عنها». إذ سيكون ذلك الوسيلة الوحيدة لبقائه في هـذا العـالم الـذي لا يسعه تركه إلا إذا فقد قيمته التي يسـعى جـاهداً لجعـل الآخريـن يقـرّون بـها، أي «نزاهتـه» بالإضافـة إلـى «إنسانيته»؛ وباختصار «كل مـا هـو خير فـي نظـره» ولا يستطيع أن يجد لـه تقديراً فـي العوالم المهنيـة الأخـرى التي لا يـهم فيـها سـوى «المـال». ولـذا فالتطـابق مـع هـذه المؤسسـة التـي أذاقتـه صنـوف العـذاب هـو فـي أصـل مشـروعاته الإصلاحيـة. وكلمـا ازداد نبـذه منـها، ازداد تعلقـه بـها ولـو مـن الوجهة الرمزية؛ لأن إعادة الاعتبـار لـه يمـر بإعـادة الاعتبـار لـهذه المؤسسـة. وحتى مضمـون الإصلاحـات التـي يقترحـها يصطبـغ بمنظومـة القيـم التـي يجسدها؛ فهو يبني مشروعه على الأسـس نفسـها التي أدت إلـى نبـذه. هـذا المشروع الذي لا يمكن إلا أن يكون مشروعه ويُعترَف به من حيث هـو كذلـك. فتلك هي الوسيلة الوحيدة -فـي نظـره- كي يتصـالح تمامـاً مـع عـالم هـو كل وجوده.

قاض يتكلم

حديث مع ريمي لونوار

«من المفزع أن يصبح الأمر مشيناً

لمجرد قيام المرء بعمل أشياء عادية في حد ذاتها»

❖ ماذا يعجبك بمنصب القاضي؟

أندريه: إن ما يعجبني في وظيفة القاضي هو مفهوم الاستقلال، والحصول على مهنة.. فالوظيفة الحكومية تعني خدمة عامة دون رب عمل، وأن يكون علينا القيام بالوظيفة الموكلة إلينا من قبل القانون، واحترام القانون وخدمة الصالح العام. وما يعجبني أيضاً هو مفهوم العدالة وفي الوقت نفسه مفهوم الاتصال الإنساني؛ أي تطبيق القانون بلباقة وإحساس بالناس، مع الحزم في بعض الحالات، والتدليل على أننا موجودون لتطبيق القانون وليس للانتقام. يعجبني في النهاية كل ما هو خير في المؤسسة القضائية على صعيد المبادىء، لأنه لا غنى عن المؤسسة القضائية من حيث مبدؤها. وأرى أنها تمثل تقدماً حضارياً؛ كان كل هذا يبدو طيباً.

❖ كان بإمكانك أن تكون محامياً بهذه القيم نفسها..

أندريه: محامٍ، إن ما كان يحرجني في ذلك الوقت هو..

❖ أو طبيباً حتى..

أندريه: لم أكن أشعر بجاذبية نحو الطب؛ فليس لدي عقل علمي. أما

المحاماة، فشيئان يحرجانني فيها؛ قول أشياء لا أعتقدها، عندما يضطر المحامي للدفاع عن أطروحات لا يعتقد بصحتها تماماً، حتى وإن كان ذلك نبلاً.. وحتى لو كان البعض يقولون ما يعتقدون في كل مناسبة. ثم هناك أيضاً منطق المحامين، أي كسب المزيد من المال دائماً، وهو ما لا يروق لي. فهذه العلاقة مع المال تبدو لي معقدة، بينما أشعر بالارتياح لحصولي على راتب مقابل قيامي بخدمة عامة. نعم.. كان يظهر لي مفهوم العدالة هاماً (..) وعندما تقدمت للمسابقة في نهاية السبعينيات لم تكن موجة الربح قد اجتاحت..

❖ نعم لقد تغير هذا؟

اندريه: أجل، تماماً. فلم نكن نود العمل لدى رب عمل في تلك الفترة. ولم يكن مفهوم الربح يهمني، بل قد يصدمني. فما كنت أريد أخذ المال من الآخرين. أما القيام بالخدمة العامة فأمر حسن.

❖ هل ناضلت في شبابك؟

اندريه: لقد كنت على الدوام مناضلاً، وأنا كاثوليكي أقوم بواجباتي الدينية. وعند إجراء المسابقة كنت في الحزب الاشتراكي، وانتميت إلى حركة طلابية كنت واحداً من قادتها، وفي الجيش أيضاً، إلخ.

❖ نعم، ولكنك كنت دائماً واحداً من الذين يعملون للجماعة..

اندريه: هوذا، ويعترف أبي مثلاً بذلك، إذ يقول لي «حسناً، إن ذلك أفضل من كونك تاجراً» وهو يقصد في قرارة نفسه «أنا عملت لنفسي، مع أنني عملت بنزاهة، بينما لديك ميزة ليست عندي». لنقل أنني كنت مولعاً دائماً بالمسائل السياسية عموماً، وسعيت إلى الدفاع شيئاً ما عن الصالح العام ومصلحة أولئك الموجودين في الشدة خاصة. ينبغي القول إنني بقدر ما تمتعت بالحياة إبان دراستي في المدرسة العليا للقضاء، فإنني قمت أثناء الوظيفة بعملي حقاً، لأنني كنت مجداً دائماً، وعملت كل ما يجب علي لمصلحة المتقاضين، واجتهدت قدر طاقتي حتى لا أنسى شيئاً. وكنت أعمل بعض الأوقات 12 ساعة يومياً، فعندما يكد المرء هكذا في سبيل المصلحة العامة، ثم لا يرى الرؤساء إلا أنه غير متوافق مع فكرة النائب العام أو الشرطة.. يكون ذلك مشيناً.

(٥٠)

في هذه الآونة، ولأنني مصاب بخيبة أمل، أنتقد كل الناس نوعاً ما. ولعل هذا شيء سهل.. لكنني أرى أن الأمور لا تسير سيراً حسناً.. وأنا أشعر بكل صدق بأنني خلقت لأكون قاضياً، وأعتقد أن بوسعي أن أكون قاضياً نزيهاً، وأقوم بمهنتي باستقامة. فلدي نوع من الولع بها أعني أنه عندما تكون قضية شائكة تثير اهتمامي، أبحث وأمحص وأحلل ثم أناضل للحصول على الإفراج، وأحصل عليه مع أن الآخرين يريدون الإدانة. أو على العكس عندما أحصل على إدانة بينما الآخرون يريدون الإفراج، ويكون ذلك متوقفاً على رأيي. فأشعر بالسرور، وبأنني قمت بعملي كما يجب. أعتقد إذن أن بوسعي أن أكون قاضياً لائقاً، لأنني لا أحمل حقداً، ولا أحب تعذيب الآخرين. وأظن أن لدي بعضاً من الإنسانية؛ إذ أحب الناس مع احترامي للعدالة، وبذا لا يشعرون بأن قضيتهم لدى شخص لا إنساني همه إيلامهم. غير أنني ليس بوسعي أن أؤدي هذه المهمة بفاعلية، لأنني أعمل على التقدم بالعقليات في الاتجاه الأكثر إيجابية. وأنا لا أستبعد المحامي بالطبع لأنه يسهم في العدالة، وعندما ينقذ موكله فذلك يبعث على الفخر، وعندما يجعل المحكمة تغير رأيها فهو عمل طيب. ولا أستبعد أن أصير محامياً، لكن هناك مشكلات مادية وتقنية، وسأفكر في الأمر.. لكنني الآن عاجز عن تغيير المنظومة، فلست نائباً ولا رئيساً للجمهورية. والمنظومة كما هي إذن، فينبغي تطوير الأفكار على الأقل والدفاع عن مفهومي للعدالة أي الدفاع عن روح العدالة.. نعم.. وأن يكون القضاة ذوي عقول حرة وعلى شيء من الهيبة، وقادرين على وضع أنفسهم موضع الشك،ويقبلون احتمال فصلهم في ظرف عشر سنوات إذا لم يكونوا أهلاً لمهمتهم، فلابد من اعتبار عمل كل شخص في الواقع. لأن مما يبعث على الاستهجان رؤية من يعمل جيداً ومساره المهني سيئ، مع أن كل الذين يعملون معه يقرون بأن عمله جيد. ثم رؤية من يعمل بشكل سيء ومساره المهني ممتاز؛ لأن هناك العلاقات والمحسوبيات والدعم السياسي ربما.

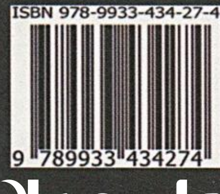
1991

الفهرس

LA MISERE DU MONDE

رحلة كابوسية متعددة الوجوه في أرجاء «الرأسمالية القائمة فعلاً». هذا هو قوام «بؤس العالم»، الكتاب الضخم، الذي أنجزه بيير بورديو ومعاونوه، متواطئين، وبشكل حميم، مع سلسلة بشرية متعددة الوجوه والقضايا، وقد يبدو الكتاب مربكاً، تتمازج فيه الحكايات الحزينة وسير ذاتية ناقصة، واستقصاء اجتماعي، وإشارات فلسفية وتعليقات سياسية، إلى درجة تُوهم «هواة الاختصاص المعرفي» أن الكتاب يهرب من «المعرفة العميقة»، ويكتفي بنثارها. غير أن بورديو، الذي يوظف المعرفة من أجل خدمة البشر المضطهدين، يقوم بغير ذلك تماماً، معطياً درساً نموذجيا في إنتاج المعرفة الصحيحة، ولهذا يدفعه مسعاه النبيل إلى حوار البشر وقراءة الشروط المشخصة التي يعيشون فيها، ذلك أن المعرفة تتراءى في أرجاء الحياة اليومية، ولا تستولد من صفحات الكتب الجاهزة، وبورديو، في هذا يقول بأولوية أسئلة الحيَاة على الجهاز المفهومي، ويقوم باختبار الأخير على ضوء المعيش العاري، الذي يتطير عادة منه «الأكاديميون التقليديون».




ISBN 978-9933-434-27-4
9 789933 434274

علي مولا

تصميم الغلاف: باسم صباغ

إشراف

بيير بورديو

بؤس العالم

LA MISERE DU MONDE

الجزء الثاني

نهاية عالم

ترجمة: سلمان حرفوش

مراجعة وتقديم: د. فيصل درّاج

بؤس العالم

الجزء الثاني

نهاية عالم

العنوان الأصلي للكتاب:

PIERRE BOURDIEU

LA MISERE DU MONDE

صدر هذا الكتاب
بالتعاون مع
وزارة الخارجية الفرنسية وقسم الخدمات الثقافية
في السفارة الفرنسية في سورية

Livre publié
En collaboration avec
Le Ministère français des Affaires
Etrangères
Et les Services Culturels
de l'Ambassade de France en Syrie

إشراف: بيير بورديو

بؤس العالم

الجزء الثاني

نهاية عالم

ترجمة : سلمان حرفوش

مراجعة وتقديم : د. فيصل درّاج

بؤس العالم / الجزء الثاني / نهاية عالم

إشراف: بيير بورديو

ترجمة: سلمان حرفوش

مراجعة وتقديم: د. فيصل درّاج

الناشر: دار كنعان

للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية

دمشق – ص.ب 443 تلفاكس: 2134433 (11 - 963 +)

E-mail: said.b@scs-net.org
E-mail: kanaanbook@yahoo.com

طبعة خاصة: 2010 / عدد النسخ 1000

إخراج: لبنى حمد

الإشراف العام: سعيد البرغوثي

يمكن الاطلاع على كتب الدار ومنشوراتها
على صفحة الشبكة التالية:

http://www.darkanaan.com
http://www.neelwafurat.com

بمنزلة تقديم

د . فيصل درَّاج

تشكّل مقولة «اقتصاد السوق»، المسيطرة عملياً ونظرياً على المستوى الكوني، المرجع الرئيسي للعالم الذي نعيش. وتبدو هذه المقولة وقد استبعدت، ظاهرياً، السياسة والإيديولوجيا، موضوعية، بل تعبيراً عن «علم خالص» شديد الموضوعية. ويمتلك السوق، في هذه المقولة، عقلاً خاصاً به، يصحح أخطاء السوق ويمنع عنه عثراته، ويلبي، لزوماً، حاجات الناس، دون الإضرار بهم على الإطلاق. وبسبب «عقلانية السوق»، التي هي صورة أخرى عن علم اقتصادي عقلاني، فإن العالم كله يسير نحو سوق متجانس عالمي، يؤمّن حاجات البشر دون تمييز. وهذا «السوق العاقل»، وقد سيطر وتعمّم، يفرض على الظواهر الاجتماعية المختلفة أن تكون تابعة له، فتخضع الثقافة والفن لمنطق السوق، وتمارس السياسة دورها بما يحفظ «استقلال» السوق و«عقلانيته».

تمثّل هذه الوقائع، التي تروّج لها الليبرالية الجديدة، مرحلة جديدة من مراحل الرأسمالية العالمية المنتصرة، مع فرق أساسي، هو أن كل مرحلة جديدة تحمل معها المزيد من الثراء والسيطرة لطرف معين والفقر والحصار لطرف آخر. فبعد أن كان التفاوت في توزيع الثروة بين ما يمثّل 80٪ من سكان الأرض، لا يتجاوز حدود نسبة الواحد إلى اثنين قبل الثورة الصناعية، أضحت هذه العلاقة، وبعد قرنين من التوسع الرأسمالي على المستوى

العالمي، تساوي نسبة الواحد إلى ستين، في الوقت الذي أصبح فيه سكان المراكز الرأسمالية العالمية يمثلون 20٪ من سكان العالم لا أكثر. وإذا كان سمير أمين يسوق هذه الملاحظة، في كتابه «ثقافة العولمة وعولمة الثقافة»، بلغة هادئة، فإن إدواردو غاليانو، وفي «اللوموندديبلوماتيك» (الربيع الماضي) يعيد صياغة هذه الهوة الفاجعة بين الفقر والغنى بالشكل التالي: «في عام 1960، كان 20٪ من سكان العالم، وهم الأكثر يسراً، أغنى بثلاثين مرة من الـ 20٪ الأكثر فقراً. وفي عام 1990 أصبح الأكثر يسراً أغنى بستين مرة. وهكذا تكوّنت بين أغنى الأغنياء وأفقر الفقراء هوة ساحقة». وبلغة أخرى، فإن مائة وعشرين شخصاً، وهم الأكثر غنى في العالم، يملكون ثروة تتجاوز ما يملكه مليار ونصف من سكان هذا الكوكب.

وعلى الرغم من أن البنك الدولي، وهو لا يكترث بالفقراء على أية حال، قد اعترف بتلك الهوة الساحقة، التي تغني البعض إلى ما لا نهاية وتفقر آخرين بلا حدود، فإن خطاب الليبرالية الجديدة المنتصرة، التي وطدت مواقعها منذ نهاية الثمانينات، يتابع مقولاته عن «اقتصاد السوق، والديمقراطية وحقوق الإنسان»، معتبراً أن العوز والبطر شأن من شؤون الآخرة. والمقصود بـ«اقتصاد السوق» تقويض جميع العوائق التي تعوّق حركة الرأسمال العالمي، لا بمعنى فتح الأسواق واستغلال اليد العاملة بأجور فقيرة واستنزاف ثروات الشعوب المهزومة فقط، بل بمعنى تحويل كل شيء إلى نقود، وهو ما دعاه سمير أمين بـ: الأمْوَلَة. وإذا كانت فكرة «نهاية سيادة الدولة»، وبعد الثورة المعلوماتية والإعلامية الجديدة، تبدو للبعض فكرة غنائية فاتنة، إذ كل إنسان ينعم بالحرية التي يريد، فإن المقصود بها هو تقويض أسس «الدولة الوطنية»، بشكل يجعل الرأسمال العالمي حراً وطليقاً، يراكم ثروات المركز الأوربي – الأمريكي، ويقوض اقتصاد دول الأطراف. وبداهة، فإن الحديث عن «نهاية الدولة» يتوجه إلى دول الأطراف، أي دول الجنوب، في الوقت الذي تتدخل فيه «دولة الشمال» في القضايا الأساسية، التي تحفظ ديمومتها وقوتها واستمرارها.

ولهذا يكون منطقياً، أن يكثر الحديث عن «حقوق الإنسان»، وهو مفرد وبلا تحديد، دون الاكتراث بـ«حقوق الشعوب»، التي يعيش بعضها إبادة بطيئة، كما هو الحال في بعض دول غربي افريقيا. وفي تصور كهذا، فإن شعار «حقوق الإنسان»، لا يلتفت إلى مفرد أو مجموع، بل يكون سلاحاً ايديولوجياً وإعلامياً وسياسياً، تستعمله الرأسمالية العالمية المنتصرة ضد البلدان التي لا تستسلم كلياً لمطالب رأس المال العالمي.

لقد أنجزت الليبرالية الجديدة، وبعد انهيار الاتحاد السوفييتي وحرب الخليج الثانية، ثلاثة انتصارات أساسية: انتصرت على البديل الاشتراكي الذي ناهضها وصارعها منذ بدايات هذا القرن تقريباً. وانتصرت على الليبرالية الرأسمالية التقليدية، التي كانت تأخذ بـ«اقتصاد السوق»، دون أن تقيم القطع القائم الآن بين الاجتماعي والاقتصادي. ومع أن «اقتصاد السوق» كان قائماً في الليبرالية الأولى، كما في الثانية، فإن المنطق الاقتصادي في الليبرالية التقليدية لم يكن منخلعاً عن المنطق الاجتماعي، كما هو الحال في الثانية، لا لأن الرأسمالية لم تكن قد دخلت مرحلتها الجديدة فقط، بل لأن السياق الاجتماعي - السياسي، المتميّز بفاعلية الأحزاب والتجمعات العمالية كان يفرض عليها التعامل مع الشأن الاجتماعي، أي المصالح الاجتماعية، باهتمام ومسؤولية أكبر. وواقع الأمر أن انهيار البديل التحرري جلب معه انهيار الأحزاب السياسية المدافعة عن المصلحة الاجتماعية، بل جلب معه انطفاء فكرة السياسة. ولذا لا يكون غريباً أن تعمل الليبرالية الجديدة على تهميش البنى الجماعية، سواء تمثلت في دول وطنية أو في أحزاب سياسية ذات مشروع اجتماعي.

ولعل تصور «النهاية» الذي بشرّ به فوكوياما، قد دفعته الليبرالية الجديدة، وفي حملة تضليل كبيرة، إلى حدوده القصوى. فبعد نهاية «التاريخ، الجغرافيا، القومية، الإيديولوجيا،..» جاءت، بالضرورة، نهاية «السياسة»، كما لو كان الزمن، الذي سبق انهيار الاتحاد السوفييتي، هو زمن الايديولوجيا والسياسة، والزمن الذي أعقبه هو زمن جديد

«موضوعـي» لا انحيـاز فيـه ولا تغيـير. وزمـن «النهايـة» هـذا، لا يعبّر عـن ايديولوجيا انتصارية إلا بقدر ما يبشّر بالاستسلام الكامل، طالما أن التاريخ قد وصل إلى مآله الأخير وانغلقت صفحاته. ومن أجل تمكين اليأس وتثبيت هندسة الخضوع، يصبح مطلوباً تدمير فكرة السياسة، من حيث هي مشروع تحويلي، وحصار كل فعل جماعي نقدي، بدءاً بالنقابات والجمعيات، وصولاً إلى العائلة، التي تضطرب علاقاتها في زمن ينبهر فيه الشباب بفتنة السلع أكثر مما ينصتون إلى نصائح الآباء.

ولن يكون الأمر مختلفاً في حقل الثقافة. فلقد شكّل إنتاج الثقافة ونشرها عنصراً داخلياً أساسياً في برامج وممارسات القوى السياسية التي كانت تكافح من أجل التحرر الوطني والاجتماعي، وذلك في صيغة تأخذ شكل البداهة، ترى في التثقيف وجهاً آخر للتسييس. أما الليبرالية الجديدة فتأخذ بمنظور مختلف. فبعد القول بـ«نهاية السياسة» يأتي القول بـ«نهاية الثقافة»، أي نقلها من حقل السياسة إلى حقل التجارة، ومن مدار الأحزاب السياسية إلى مدار رجال الأعمال. وبعد الحديث عن الإبداع والخلق والتجديد يأتي حديث الريع والربح والمردود المالي، مما يؤكد رجل الأعمال، المأخوذ بالربح السريع، مرجعاً للإبداع الثقافي، عوضاً عن الناقد والجمهور. ولا غرابة في حال كهذه، أن تصبح الآثار شأناً تجارياً - سياحياً، يحدد الربح الاهتمام بها أو اقتلاعها.

وعلى الرغم من مطاردة الليبرالية الجديدة لـ «الإيديولوجيا»، فإن الأخيرة قائمة، وبشكل غير مسبوق، في الممارسة الثقافية لليبرالية الجديدة. فالثقافة التي تدعو إليها تستأصل العقل والمحاكمة، سعياً وراء جمهور متجانس، يمجّد الاستهلاك والعنف والفردية الزائفة والقدرية البائسة، ويؤسس لكل ما يدمر أسس الذات المستقلة الواعية. وعلى الرغم من الحديث المتواتر عن ثورة الاتصالات، فإن النظر النقدي والمدقق يعثر على دلالة واحدة لا أكثر: تؤمّن ثورة الاتصالات في زمن العولمة حركية غير مسبوقة لرؤوس الأموال ومراقبة فعالة للأسواق المالية، «يصحح» فيها كل

ما يعوّق الربح أو يبطئ مساره. كأن التقنية المتطورة، وهي إبداع إنساني عام، قد كُرّست لأهداف نخبة عالمية تقف فوق البشر وعليهم في آن. ولهذا فإن زمن الاتصالات، وبالمعنى الإنساني العام، هو زمن «غياب الاتصالات» بامتياز، ذلك أن الفضائيات والأنترنيت تدفع بالإنسان إلى عزلة متزايدة، وتنتج جمهوراً جديداً ينظر صامتاً إلى ما تبثّه الأجهزة السمعية - البصرية المتطورة. وفي حدود هذا الجمهور الهائل المتماثل، الذي أنجبته صناعة الإذعان، كما يقول تشومسكي، يتطاير معنى الديمقراطية، طالما أن الديمقراطية تحيل على الشعب القادر على المحاكمة والنقد والاختيار. ولا يبقى إلا عملية الانتخابات، بعد أن تحوّلت إلى طقس شكلاني يوهم الفرد، بين فترة وأخرى، أنه قادر على اختيار السياسيين الذين يمثّلونه.

وإذا كانت التقنية المتطورة، في زمن العولمة، قد أتاحت لليبرالية الجديدة وسائل التحكم بالأسواق المالية والسياسية والثقافية، من وجهة نظر الربح والربعية، فإن التحولات الاجتماعية والسياسية، وعلى الصعيد العالمي، أعطت ما يسهّل أعمال الليبرالية الجديدة وغاياتها. فالتجربة الاشتراكية المخفقة، همشت القوى السياسية المرتبطة بها، والأجيال الجديدة، عمالية كانت أو غير عمالية، تنظر، غالباً، إلى مشاريع التغيير الاجتماعي، دون إيمان صغير أو كبير، والتطورات التقنية تلغي، بشكل متزايد، الحاجة إلى اليد العاملة غير المؤهلة. إضافة إلى كل هذا، هناك دفق المهاجرين من الجنوب الفقير الباحثين عن عمل في الشمال الغني. ولأن التهريب، أو الدخول غير الشرعي، يلعب دوراً كبيراً في رحلة البؤس من الجنوب إلى الشمال، فإن العمال المهاجرين حريصون أولاً على العمل، بشروط موافقة، أو بشروط بخسة، كما هو الأمر في أغلب الأحوال.

انتصرت الليبرالية الجديدة، إذن، على الليبرالية القديمة وعلى بديلها الاجتماعي - السياسي. غير أن هذا الانتصار أفضى بالضرورة، وبعد تداعي مشاريع التحرر الوطنية، إلى انتصار الشمال على الجنوب، أي انتصار البلدان الرأسمالية الكبرى على بقية الشعوب في العالم. وبما أن

العلاقة بين الشمال والجنوب قائمة على فكرة الانتصار فعليها، لزوماً، أن تحمل نتائج هذا الانتصار، أي أن تكون مسكونة بأكثر من مفارقة. فهذا العالم الذي يبدو، في نهاية القرن، فردوساً لدى البعض، يتكشّف جحيماً سافراً لدى بعض آخر، وآية ذلك بعض الشعوب الإفريقية المحتضرة. أكثر من ذلك، أن الاقتصاد العالمي بحاجة إلى أسواق متزايدة تؤمّن الربح المطلوب، وهذه الأسواق موجودة بالضرورة في بلدان الجنوب وبلاد أوربا الشرقية. وبسبب طبيعة الوضع الدولي، يفرض الشمال الأوامر والقواعد على غيره، أي يحدّد ما يجب استيراده واستهلاكه. وهذه العلاقة الاقتصادية، القائمة على الفرض والإلزام، أي على تهميش المصالح الشعبية والوطنية، هي في أساس «السلطات السياسية الحاكمة» في أكثر من بلد، حيث دور السلطة هو تغليب المصالح الخارجية على المصالح الوطنية.

يفسر شكل العلاقة الاقتصادية بين دول الشمال ودول الجنوب الكثير من الظواهر التي عرفتها البلدان الأخيرة، مثل الفساد، ودوره في ضخ الثروة الوطنية إلى الخارج، وظهور السلطة - المافيا، كما هو الحال في زمن الروسي يلتسن، حيث دور السلطة هو تدمير قواعد الدولة، وتشجيع النزوعات الاجتماعية التدميرية، وتقويض شروط الأمن الاجتماعي واجتياح القانون.. وإذا كان تعبير «الدولة الوطنية التحررية» هو الشعار الأكثر رواجاً بعد الحرب العالمية الثانية لدى شعوب الجنوب، فإن الخصخصة وبيع القطاع العام وتقليص دور الدولة والتخلص من المرافق الاجتماعية الأساسية هو الشعار الأكثر رواجاً في زمن العولمة، وذلك في بلدان لم تؤمّن فيها الدولة، أحياناً، شروط وجودها الفعلية. والمقصود طبعاً هو تنصيب الشركات الرأسمالية العالمية الكبرى بديلاً عن الدولة والسلطة والشعب في فضاء تفكك اجتماعي، أو في فضاء حروب أهلية سافرة أو مضمرة. وما الحرب القبلية في افريقيا، أو الاحتراب العنصري والطائفي في أماكن أخرى، إلا الأداة الملائمة لـ«تدمير الدولة» وتنصيب رأس المال الأجنبي حاكماً وحيداً. وهذا ما يجعل بلدان الجنوب، أو بعضها على الأقل، تقف على هامش السياسة العالمية، إن لم يفتها قطار التاريخ إلى أمد قصير أو إلى الأبد.

سعياً إلى تحويل الشعوب إلى سوق استهلاكية كبيرة لا أكثر، يظهر الإعلام آلة جهنمية ساحقة في العقد الأخير. وللإعلام في زمن الليبرالية المتوحشة، بلغة إدواردو غاليانو، غاياته المحددة، التي تنطوي على تقديس المال والرفاهية والفصل بين الربح وأدواته. بيد أن حلم الاستهلاك في المجتمعات الفقيرة في الجنوب، كما لدى بعض الفئات الشعبية في الشمال، لا يستقيم بطرق عقلانية ومشروعة، مما يجعل اللاأخلاقي واللاّمشروع واللاّعقلاني درباً وحيداً إلى الاستهلاك الجميل المفترض. وبهذا المعنى، فإن الإعلام الاستهلاكي، وفي أحيان كثيرة، هو مدرسة أنيقة للجريمة لا أكثر. ويتكشّف الحض على الجريمة في أكثر من اتجاه: يخلط التلفزيون، غالباً، بين مستوى الحياة وكمية الأشياء التي ينبغي استهلاكها، ويفترض، مسبقاً، أنه أمام جمهور من المتفرجين المتساويين في الدخل وقوة الشراء، أي أنه يخترع مشاهداً وهمياً قبل أن يتوجّه إلى مشاهد حقيقي. لكنه لا يلبث أن يحوّل الوهمي إلى حقيقي عن طريق الجريمة أو الدعارة والتعاطي مع كل ما هو معادٍ للمعايير الأخلاقية. ولذلك فإن تصاعد الفساد السياسي في بلاد الجنوب يتلازم مع صعود ظواهر أخرى: الرقيق الأبيض، تجارة الأولاد، تعاطي المخدرات، شبكات الدعارة، وصولاً إلى الزج بملايين الأولاد، دون سن السادسة عشرة، في عمل أسود لا رحمة فيه، كما يؤكد ديفيد هارفي. كل هذا يجعل من العنف، في كل أشكاله القائمة والمحتملة، عنصراً أساسياً من عناصر الحياة اليومية في العالم، بسبب الفقر والحرمان من ناحية، والوسائل الإعلامية، التي لا تحض على العنف إلا بقدر ما تقدم كل المشاكل في العالم كـ«فرجة» مريحة.

وبالتأكيد، فإن كلمة الليبرالية الجديدة لوحدها تبدو كلمة متطهرة، لا تتهم طرفاً بعينه، وهو أمر غير صحيح، وفي العالم القائم الآن تملك الولايات المتحدة سياسة عالمية شاملة، تحدّد معنى التجارة، والثقافة والديمقراطية والإرهاب.. والولايات المتحدة، وقد أصبحت مركز القرار السياسي العالمي، حدّدت دورها منذ بداية التسعينات، حين تكلم بوش عن

«النظام الدولي الجديد»، أو «النظام الأمريكي الجديد» بلغة سمير أمين، وأعادت تحديد دورها حين صدّق حلف الناتو في نيسان 1999، وبعد حرب كوسوفو، على «نظرية كلينتون». فوفقاً لهذه «النظرية» أصبح حلف الناتو أداة أمريكية، يحق له التدخل، ووفقاً للمشيئة الأمريكية طبعاً، في آسيا وافريقيا، لا لضرب أهداف عسكرية معادية فقط، بل للتصدي لـ«الجريمة الدولية» مثل: «تجارة المخدرات، والإرهاب والتسلح الخطير». إن الموقع العسكري والسياسي المسيطر للولايات المتحدة يقيم علاقات تناظر بين النظام العالمي الجديد والعولمة والليبرالية الجديدة والسياسة الأمريكية العالمية. ولن يكون تعامل الولايات المتحدة مع الاقتصاد أكثر عدلاً من تعاملها مع العراق، ولا تعاملها مع الثقافة أكثر رأفة من تعاملها مع الشعب الفلسطيني وإقليم كوسوفو. ففي عالم يبدأ بالربح وينتهي بالربح لا يرث الفقراء شيئاً.

كل مرحلة تنتهي لأنها مرحلة، سبقتها مراحل وتتلوها أخرى. والليبرالية الجديدة، المتوّجة بالسيطرة الأمريكية مرحلة بين مراحل أخرى. ومع أنها تبدو المرحلة الأكثر لا عقلانية في التاريخ الإنساني القريب، رغم كمّ العقل الذي أوصل إليها سابقاً وكمّ العقل الذي يوظف لأغراضها الآن، فإن على البشر الباحثين عن العدالة أن لا يتخلوا عن آمالهم، مثلما يتم التخلّي عن حصان محتضر.

ميشيل بيالو وستيفان بود

انهيارات

دائمون ومؤقتون

أيلول 1989 : الإضراب في مصنع بيجو في سوشو بدأ منذ أيام. المسيرات الأولى في قسم الهياكل. مئات من المضربين، من الـ OS (العمال المختصين)، انضم إليهم حفنات من المهنيين، وقام الجميع بالسير في الورشات الهائلة للهياكل من حول سلاسل التركيب (التي منها خرجت منذ قليل البيجو 605 الجديدة، والتي يعود تاريخ طرحها في السوق إلى مطلع هذا الشهر). وتحوّل الإضراب إلى نوع من الشعائر الثابتة. ففي كل يوم، تجري الأمور تقريباً بالطريقة نفسها. من بعد الاجتماعات العامة المعقودة في أسفل عبّارة خط الإنهاءات، يتظاهر العمال، يطلقون بأصوات عالية تصم الآذان الصرخات، والصفرات، والشعارات والهتافات. يحتلون كامل عرض الممرّات خارج السلاسل الإنتاجية ويتقدّمون، وفي المقدمة عشرة متكاتفون، على رأسهم المندوبون النقابيون.

لقد أصبح مصنع الهياكل رهان معركة بخصوص عدد المشاركين في الإضراب وآثار هذا الإضراب. فالإدارة تؤكد أن عمل السلاسل الإنتاجية لم يتضرّر إطلاقاً ذلك الضرر الملحوظ، وأن معظم السيارات تخرج بشكل اعتيادي، وذلك في محاولة لقطع الطريق على الحركة ومنعها من ضمّ غير

المضربين وباقي عمال مجموعة بيجو، وكذلك لتبرهن لأرباب المال أن الوضع تحت السيطرة. أما المضربون فقد دعوا الصحفيين للدخول إلى الورشات ليتبيّنوا، بأم العين، أن الحركة الإنتاجية مشلولة على نطاق واسع بسبب الإضراب . وللحقيقة، فالعديد من العمليات لم تعد تنجز، أو أنها لا تنجز كما يجب: فجميع السيارات المنتهية يجب إعادة النظر فيها لاحقاً.

معنى هذه المسيرات متعدد الأبعاد: فهي تهدف في الوقت نفسه إلى تعطيل الإنتاج، ودعم معنويات الذين أصبحوا في عداد المضربين، وإلى دفع عمال آخرين للالتحاق بالحركة. يمشي المضربون على مهل. في بعض اللحظات يشكّلون كتلة متراصة، متجانسة. وفي اللحظات الأخرى، يتباعدون، وترتفع نكاتهم الساخرة. في الطليعة غالباً ما يتقدم المناضلون المقاتلون، المندوبون النقابيون، يحملون أحياناً مكبرات، ويتبعهم الآخرون دونما نظام. هم يتبادلون الأحاديث فيما بينهم، والسعادة تغمر وجوههم بشكل ملحوظ. كلهم تبدو عليهم السعادة لأنهم بذلك العدد الوفير، ويعود الحديث عن إضراب سنة 81. هناك ضجيج كثير، إنما دون أي تخريب. وأحياناً يخبط بعضهم بإيقاع منتظم، زيادة في الضجيج، على خزائن معدنية.

على امتداد سلاسل الإنتاج، جرى نشر «طابور» من الكوادر، من الفنيين، من الموظفين، من عناصر الانضباط -غالباً من كبار السن، بالسترة وربطة العنق- (يبدو بعض المهندسين الشبّان كالضائعين، لكنهم تجنبوا إيجاد تماس بين المضربين وبين الشباب، جماعة الـ BTS (شهادة تعليم مهني عالٍ)، وهم من الجدد الكثيري العدد المختصين بالمعلوماتية). هم هناك، أمام سلاسل الإنتاج، تجنباً لتخريب «الأداة الإنتاجية»؛ وكان بينهم محضر. يقف هؤلاء وبين الواحد والآخر مسافة مترين لمراقبة «مرور» الموكب، مع تجنب النظر مباشرة في عيون المضربين. فمنهم من ينظر إلى قدميه، ومنهم من لا يكف عن إمالة رأسه يميناً ويساراً. إنها لحظة صعبة. وغالباً ما ينادي المضربون، وهم يسيرون، فلان أو علاّن؛ وأحياناً يدور حوار. فنفهم بسرعة

أن هؤلاء الكوادر (هؤلاء «التبّع»، واللقب يطلق عليهم غالباً في المصنع، وهو من مفردات السبعينات) قد صدرت إليهم توجيهات ألا يردّوا على الممازحات الجارحة أو «الاستفزازت».

الجو مشحون بالتوتر. ويمكن في كل لحظة حصول مشاجرة تسمّم كل شيء، بحيث لا يعلم أحد إلى أين تنتهي الأمور. عند الاقتراب من السلسلة رقم أربعة -تلك التي تابعت العمل وأرادت الإدارة عن طريقها إثبات دوران عجلة الإنتاج- يتصاعد التوتر: إذ تزداد الصفوف تراصاً، والشتائم المقذعة عنفاً، وتوضع المكبرات أحياناً على بعد سنتمترات من وجوه جماعة طابور الانضباط. وتكرر أكثر من مرّة التدافعات بالأيدي لكن الجانبين يسعون جهدهم لتخفيف حدة التماس.

والحقيقة، فالوضع حول هذه السلسلة الرابعة غريب. فمن بين العمال الذين يشتغلون، من كبار السن غالباً، من يؤدون عملهم دون أن يرفّ لهم جفن، رافعين رؤوسهم من حين لآخر للرّد على الشتائم وعلى الممازحات المقذعة، معلنين دون مواربة صفتهم كغير مضربين؛ لكن منهم، ظاهرياً، من يبدو في ضيق وحرج. بل بدا جلياً أيضاً أن منهم، تحت وطأة الحرج، من كان يغادر السلسلة حين وصول الموكب، بموافقة من رؤوسائهم. ومفهوم أنهم سوف يعودون بعد أن يمضي الموكب بعيداً. غير أن آخرين يظلون هناك، مبتعدين قليلاً إلى الوراء، مبتسمين، ممن يبدو عليهم أنهم يعيشون أغلب الأحيان هذه المواقف دون انفعال. أولئك هم «الشباب»، العمال المؤقتون. فهم إلى حدٍّ ما كما لو كانوا خارج هذا النزاع. أحياناً، يضعون أدواتهم للحظات، معطين بعض إشارات التضامن، موجهين غمزات بأعينهم إلى المضربين، ثم يعاودون عملهم. ويتجنب المضربون، عند المرور أمامهم، رفع أصواتهم بالشتائم، لكنهم يعطون بعض إشارات بأيديهم ويوجهون إليهم كلمات وديّة. هم غير معروفين بصفة شخصية، فلا يناديهم أحد بالكنية أو بالاسم. هم كتلة واحدة، هناك، بصفة جماعية (إنهم «جماعة المؤقت»). ويبدو على الجميع أنهم يعتبرون هذا طبيعياً. لقد وضع بعض المؤقتين إلى

جانبهم لوحة كرتونية، بل هي قطعة كرتون خربشوا فوقها كلمة «مؤقت»، على أن صغر سنهم الواضح للعيان يكفي للتعرف إليهم بأنهم من المؤقتين. وتشكل هذه الصفة ما يشبه درع الوقاية. فلا يمكن، بكل وضوح، أن يتوقع أحد منهم ما قد يطلب من الآخرين (وقد جرى تداول حكاية انتشرت بسرعة في الورشات مفادها أن بعضاً من «جماعة الفاصولياء» تظاهروا بأنهم من المؤقتين ليفلتوا من الشتائم). ولمن أراد الحقيقة فمن بين أولئك الذين يشتغلون أثناء الإضراب –وعلى السلسلة، في أوجع المواقع وأكثرها حساسية، حيث يتقرر نجاح أو فشل الإضراب– زمرتان: قسم تنظر إليهم غالبية العمال المضربين على أنهم من «جماعة المتحمسين»، أو «الصُفر»، وقسم يمنحون دون تلكؤ صفة الحالة الاستثنائية– وهؤلاء هم المؤقتون.

تلك مشاهد تثير الدهشة والاستغراب خاصة إذا ما ذهب الفكر إلى حدة المصادمات أثناء إضراب عام 81، أو خلال العقود السابقة[1]. فالإضراب هو ساعة الحقيقة، فأنت إلى هذا المعسكر أو ذاك. فالقول عن مطلق شخص إنه «مُضرِب» أثناء النقاشات العادية (خارج إطار أي إضراب) هو نوع من التوضيح بأنه ملتصق بالثقافة السياسية لفريق العمل (حتى لو لم يكن، من طرف آخر، مناضلاً أو تابعاً لنقابة)، بأنه ينتمي إلى جماعة

---

[1] من الجدير الإشارة إلى سوشو، ربما أكثر من أي مكان آخر، وخاصة حين نأخذ بعين الاعتبار التاريخ الخاص بالمصنع (قتيلان في إضراب عام 68 وسياسة القمع حيال المناضلين في السبعينات)، لننبه إلى أن الإضراب هنا عمل نادر، وبالغ الأهمية والخطورة. فالإضراب هو اللحظة التي على المرء فيها «أن يختار معسكره»، حيث يُجري كل فريق اختباراً لقوته، حيث مواقف المؤيدين والمعارضين يُحكم عليها من الإدارة ومن فريق المناضلين: فالذين شاركوا في الإضراب تصبح لهم «فيشة» في الإدارة التي تأخذ بالتالي كل مداها بـ «عقاب» المضربين و«ثواب» غير المضربين (بالتوزيع الكيفي للمكافآت الاختيارية، بلجم أو تسريع تحسن رواتب العمال وذلك بالتلاعب بسلم نقاط التصنيف). والذين لم يشاركوا في الإضراب تصبح لهم هوية لدى فريق المناضلين، وهكذا فالإضراب هو الفرصة لبناء وتحطيم السمعة. حتى الذين لم يُضرِبوا سوى يوم أو يومين، يجري تصنيفهم على حدة، فقد أظهروا شكلاً من أشكال التضامن، فيمكن تفهّم موقفهم، وأما الذين رفضوا بإرادة وتصميم فيدانون علانية، دون مواربة. وخلال ما يتبع الإضراب، تُصفّى الحسابات (من الجانبين)، فـ «الصُفر» يُنبذون، يُشار إليهم بالأصابع في مجموعة العمل.

العمال الذين لا يناصرون رب العمل. وحتى بعد عامين أو ثلاثة، تمارس إدانة قوية جداً على أولئك الذين لم يشاركوا يوماً في أي إضراب.

وكان المسؤولون النقابيون المحليون، بصدد هذا الإضراب، قد اهتموا بإعطاء شعارات محددة وتعليمات دقيقة كي لا يصبح المؤقتون هدفاً للمضربين. فهم في موقع حسن الاطلاع ويعلمون أن «القاعدة» غير مستعدة لتتقبل بسهولة أن يكون يتنازل «أحد» بحيث يتم إعطاء «الحق» للمؤقتين {بطريقةٍ ما} في متابعة الشغل في إضرابٍ كبير كهذا. وفي مثل هذه الشروط، فلماذا يقتنع جميع العمال، حتى أشدهم تصلّباً حول احترام «القيم» العمالية والنضالية (الذين لا يوجد عذر مقبول في نظرهم لغير المضربين)، بأن الاستثناء الممنوح للمؤقتين مشروع؟

إذا ما سألنا القدامى، يأتيك جوابهم كأنه التعبير عن حقيقة لا لبس فيها: «هذا ليس غلطهم»، «لا يمكنهم ممارسة ترف الإضراب»، «لو أنهم يشاركون في الإضراب ليوم واحد، فإن مكتب العمل المؤقت وإدارة المشروع سوف يتفاهمان على طردهم مباشرة إلى الشارع». الرهان خطير -أمل التثبيت- فلا يمكن أن تطلب منهم مثل هذه التضحية. فالمؤقتون غير المشاركين بالإضراب لا ينظر إليهم رغم موقفهم على أنهم من «مفشّلي الإضراب»، ويمنحون عن طيبة خاطر «ظروفاً تخفيفية». الكل يعلم أنه ليس أمامهم سوى المصنع للخروج من أزمتهم المعيشية لأنهم جميعاً تقريباً من الفاشلين دراسياً، وأن عقوبة الفشل المدرسي هي اليوم أثقل نتائجاً بكثير مما كان عليه الحال «في زمن القدامى». فالمضربون، الذين تتراوح أعمارهم بين 35 و55 عاماً يبدو وكأنهم يُسقطون على وضعية المؤقتين مخاوفهم بشأن مستقبل أبنائهم أنفسهم، خاصة وأنهم بمواجهة العقبة الجديدة: ضرورة الحصول على دبلوم («زوّادة» لا بد منها) للحصول على وظيفة. بهذا المعنى، لم يكن المؤقتون في نظرهم، في تلك اللحظة المحددة و «الفوّارة» من لحظات الإضراب، كمنافسين في العمل -وهم كذلك موضوعياً- وإنما هم شركاء للمعاناة نفسها التي يعيشها أبناؤهم. وما كان يمكن تفسيره، إذا ما

نظر إليه من داخل المصنع، على أنه تعارض بين عمال دائمين («عمال على الملاك») وشباب عابرين، يأخذ دلالة مختلفة كلياً فور دمج الحيّز الاجتماعي المحلي ضمن منظور الرؤية: فنلمح حينذاك تقارباً اجتماعياً تحديداً في الموقع الذي كانت وجهة النظر «المصنعية» لا تسمح برؤية سوى التباعد الوظيفي بين جيلين من العمال.

يضاف إلى تقدير حالة العجز تلك الأمل -وهو أمل قوامه المراهنة على وحدة المصالح. كل ما يجري يعطي الانطباع كما لو أن المضربين الأكثر تسيّساً يُسلفون مسبقاً المؤقتين تلك الوضعية الحساسة، ذلك الموقف الذي سيساعدهم على مقاومة رؤسائهم (وهو اعتقاد يتشجع بالإشارات الصغيرة من المؤقتين أنفسهم). فهم يقدمون إليهم روح القتال التي كانوا هم أنفسهم يتحلّون بها أيام الشباب في المصنع، وتكفيهم أبسط إشارة تضامن متواطئ، كما لو كان يكفي هؤلاء التحرّر من النير الذي يرزحون تحته ليتبنّوا بصورة تلقائية تقريباً «ردات الفعل» نفسها، ومواقف الدفاع التي ربما كانت لهم في شبابهم. لكنهم يغفلون أن البعد الذي يفصل بينهم ليس مجرد اختلاف في الأعمار بالمعنى البيولوجي، وإنما هو أكثر من ذلك. فتعاقب الأجيال العمالية انقطع تواصله بسبب عشرة أعوام توقف فيها التوظيف، وبالتالي، فهؤلاء المؤقتون، الذين هم «نتاج» سنوات من «البحث المضني» ومن الأعمال التافهة، يصلون إلى العمل وقد صاروا «خاضعين» سلفاً بدرجة كبيرة.

فكأنما هناك، على أساس من سوء التفاهم، اتفاق ضمني صامت، بين المضربين والمؤقتين، ويمكن بالتالي فهم وضع لوحة «مؤقت» لحظة مرور موكب المضربين على أنه نوع من التذكير «حكّ لي، أحكّ لك»: فكأنّ المؤقتين يقدرون «شجاعة» المضربين ويقدمون إليهم هذا التقدير، لكنهم يطلبون سلفاً بالمقابل تسامح المضربين، وهؤلاء يقابلون المؤقتين بمنحهم «الغفران» لعدم مساهمتهم في الإضراب ويطلبون التزاماً أدبياً أن يقفوا لاحقاً ، بمجرد تثبيتهم، في جانب المضربين. فالمضربون قد يميلون عفوياً إلى تأويل تلك المبادرة كإشارة بسيطة إلى العجز الاجتماعي بينما الأكثر تسيّساً بينهم

لا بد يفضلون أن يروا فيها عرضاً لاحقاً للمشاركة في المعركة العمالية، وإشارةً للانتماء الضمني إلى جماعة المضربين، ونوعاً من الإقرار بمصداقية النضال الذي يقودونه، بل والانتماء إلى الثقافة السياسية التي ينهض عليها. فاللوحة -لوحة «مؤقت»- يمكن تأويلها إذن كوعد لاندماج «مستقبلي» بالجماعة وإعادة توحيدها (على أساس تفاوت الأعمار). كأن كل شيء يُترك للزمن كي يفعل فعله بهدف استعادة نظام تعاقب الأجيال العمالية لمجراه الطبيعي.

بعد مرور عام، في تموز 90، عانت صناعة السيارات في فرنسا من تقلّص وتيرة الإنتاج، ولم ينج من ذلك مصنع سوشو، فالتنبؤات الاقتصادية باتت قاتمة، وميل الدورة الاقتصادية في الاتجاه المعاكس للنمو فاقمته أحداث الخليج العربي. وقد عُلم قبل العطلة الصيفية تحديداً أن عقود المؤقتين لن تجدد عند الرجوع من العطلة في أيلول. وقد تم منذ ذلك الحين تكييف الكوادر العمالية مع تنبؤات الإنتاج للمدى القصير. في تلك الفترة، كان التوتر شديداً جداً في الورشات الجديدة للهياكل[2] (HC1)، ولم تتحقق أهداف الإنتاج إلا بالخروج، بالوتيرة المشدودة، خروجاً خطيراً إلى هذا الحد أو ذاك على قواعد تسيير العمل، وخصوصاً بتعبئة كثيفة لكوادر العمال الذين وجدوا أنفسهم مجبرين على التكيف مع هذه الطريقة الجديدة في الإنتاج (الوتيرة المشدودة وتعميم المعلوماتية)[3]، وقد أُخضعوا لرفع إيقاع العمل في السلسلة الإنتاجية، مثلما يطلب منهم الجاهزية الكاملة دائماً. وما تزال التقانة الإنتاجية بعيدة عن أن تكون تحت السيطرة الكاملة في هذه

---

[2] HC1 (أي تجهيز الهياكل 1) وهو المصنع الجديد للهياكل، المبنى على بعد كيلو مترين من المصنع القديم. لقد بدأ بالعمل في 1989: للمعلوماتية فيه حصة أكبر في الإنتاج، ويرتدي العمال سروالاً أخضر، ويجب عليهم توقيع «عهد»، وفي لحظة الإقلاع بالعمل، لم يكن يحق لهم التدخين في الورشات.

[3] نشر المعلوماتية لتشرف على الإنتاج يتيح الإنتاج الجماعي الموحد لأكثر أجناس السيارات تنوّعاً، وهذا ما يفرض على العامل المختص أن يراعي نوع القطعة الواجب تركيبها على كل سيارة (لم يعد عليهم تركيب القطعة ذاتها مرات عديدة على الموديل نفسه) مع ضرورة القراءة السريعة لتعليمات التركيب التي توجد على ورقة ملصقة على الهيكل.

الورشة الفائقة الحداثة، ويبدو وكأن مصمّمي هذا المشروع الصناعي الضخم (مصنع عام 2000) قد بالغوا في حجم الضخامة أو «التكنولوجيا» فيه: فالأعطال تتزايد، والهدف المرجو «انعدام العيوب» يصعب الحصول عليه على سلاسل التركيب، فالسيارات الواجب «روتشتها» يزداد عددها أكثر فأكثر، و«الروتشة» تعني هنا إخراج السيارة من الخط الإنتاجي لتصبح بين أيدي عمال يشتغلون في قطاعات مستقلة تجري فيها الإصلاحات اللازمة.

الأعصاب مشدودة إلى مداها الأقصى. وإذا كانت ورشات قسم الهياكل الجديد حديثة، جميلة، فسيحة، مشعشعة، فإنه تسود فيها في شهر تموز حرارة خانقة، يكاد يتعذر تحمّلها (لم يُلحظ فيها أي نظام تكييف أو تبريد). في أيام الحر القاتل، تقدم جماعة المطافئ في المصنع مساعدتها لترطيب الورشات، برشقات ماء قوية على سطح البناء، ويقول العمال أن هذا الإجراء لتفادي تعطيل أنظمة المعلوماتية للإنتاج. وتذكر الشهادات التي حصلنا عليها من العمال أن مناخ العمل في هذه الورشات متدهور وتتزايد فيها حوادث اصطدام بين العمال يشترك فيها الشباب غالباً.

تموز 92: لم يعد من مؤقتين في موقع سوشو، إذ رحل أواخرهم مع نهاية شهر كانون أول 90. ووكالات العمل المؤقت التي ازدهرت في الفترة السابقة في جميع المدن الصغيرة المجاورة للمصنع أغلقت أبوابها الواحدة بعد الأخرى. تقديم عروض العمل المؤقت في قسم الأعمال الميكانيكية اختفى نهائياً، و «الإرسالية» المحلية للتوظيف تغصّ بروّادها: فالشباب الذين ما عاد بإمكانهم العثور على عمل «في المؤقت» يتوافدون إليها طلباً لـ «الدورات التدريبية» (يتبين المستشارون، بوعي غامض، أن هذا الأمر يسمح للشباب بقبض الـ 2400 فرنك كقرضٍ شخصي للتدريب CFI). وكعددٍ إجمالي، استُخدم مئات من المؤقتين في ذلك الموقع.

لقد جرى تشغيل المؤقتين بأعداد كبيرة في فترة ازدهار وتوسع مشروع المصنع (1987–1990). وكانت أعدادهم تتزايد تزايداً منتظماً وكبيراً:

كانوا أكثر من 1500 أثناء إضراب الـ 89، ووصلوا إلى النسبة القصوى 3500 في تموز 90. وقد تمركزوا في بعض ورشات التركيب أو الدهان (في أيام الإضراب، 70٪ منهم في قطاع التصميغ- ألك). كانت الاستعانة بالمؤقتين على قدم وساق حتى أن كثيراً من العمال أصبحوا على اقتناع أن عدداً كبيراً منهم سوف يثبّتون. في المصنع، كانوا يلحقونهم منذ اليوم الأول بمراكز على سلسلة الإنتاج؛ فيقوم عامل في المركز بشرح العمل لهم وكانوا يتقنون، أحياناً، في يوم واحد العمل المطلوب منهم. بعضهم، خاصة أبناء المنطقة، ما كانوا يبقون إلا ليوم واحد، في حين كان آخرون يمكثون لفترة أطول على أمل الحصول على «التثبيت» (عقد بمدة غير محددة). كان عملهم على وجه الخصوص في قسم تركيب مصنع الهياكل كخط الإنهاءات مثلاً، فكانوا يُكلَّفون غالباً في مراكز معروف عنها بأنها من «أشق» المراكز التي تتطلب تحمّلاً جسدياً وسرعة تنفيذ، كان يصعب على «القدامى» الصمود فيها في تلك الفترة من التصاعد السريع لوتيرة العمل. بالنسبة للقدامى، كان المؤقتون أولئك الشباب، المجهولي الهوية، الذين «يتوافدون في صباح يوم مشرق» إلى الورشة، فيقودهم «الرئيس» فوراً إلى موقع عملهم. ما كان من عملية تعريف، وكانوا يظلون غالباً لفترة هي من القصر بحيث لا يتعرف إليهم عمال الموقع؛ ومن ظل منهم، تكون علاقته قليلة مع قدامى العمال في قسمه، كما لو كان كل طرف يريد أن يظل في وضعية التأهب، بما يشبه سوء الظن المتبادل.

كان المؤقتون، من بعد انقضاء فترة التلاؤم مع العمل، يعانون أقل بكثير من العمال المختصين الموظفين منذ 20 عاماً صعوبة ملاحقة وتيرة العمل على سلسلة الإنتاج. وكانوا يستغربون في الغالب تلك الانتقادات الدائمة عند «القدامى» الذين لا يكفون عن «البربرة» والانفعال في مواقع عملهم. ولم يتم تعايش «القدامى» و «الشباب» في العمل دون مصادمات، فالتوتر غالباً على أشدّه والمشاجرات عديدة، ومنشؤها زيادة صعوبة وتائر العمل (تكثر الشهادات حول رفض المؤقتين لكل الحجج التي يقدمها العمال

لتخفيف إيقاع العمل). كما كان من مصادر النزاع عدم احترام القادمين الجدد للقواعد غير المكتوبة للتعامل أو لممارسة المعاشرة الاجتماعية التقليدية في ورشات العمال المختصين (خاصة استهلاك الكحول في الورشات)، وهي من العادات التي فرضت نفسها بحكم الأمر الواقع بالنسبة للعمال المختصين الذين دخلوا المصنع في الستينيات والسبعينيات، فالعديد من المؤقتين (على الأخص بينهم من كان غريباً عن المنطقة) يكتشف تلك العادات بذعر، وأحياناً باستنكار شديد.

لقد أصبح المؤقتون في نظر الكثير من العمال المختصين (أو من «القدامى» كما أصبح يطلق عليهم داخل الورشات)، رمزاً لتنسيقهم، ولتنسيق مواصفات معرفتهم المهنية. فكانوا إلى حد ما البرهان الحي على أن القدامى أصبح بالإمكان تبديلهم دون عناء والاستعاضة عنهم بشباب دون أي تأهيل مهني، ميزتهم الوحيدة أنهم شباب و «طازجون» بدنياً. كان وجود قوة العمل الشابة والقادرة إلى جانبهم يزيد من وطأة شعورهم بالشيخوخة، بالمقارنة العفوية التي ما كان لأحد إلا أن يلاحظها، على المكشوف أو من وراء ستار.

أصبح العمال من الآن فصاعداً مقسومين إلى فئتين، فئة «القدامى» -وقوامها الغالبية العظمى من العمال الذين دخلوا المصنع في الستينيات والسبعينيات (توقف توظيف العمال في المصنع في عام 79)- وفئة «الشباب» الذين هم، في معظمهم تقريباً، من المؤقتين القديمين الذين جرى انتقاؤهم بين 88-و89 ثم تم تثبيتهم في المصنع. يبلغ عددهم المئات، ويدركون بأنهم آخر من قدّر له تمثيل الموجة الكاسحة للمؤقتين التي إنحسرت في أيامنا هذه انحساراً كلياً. على أن اسمهم استمر في الـ 92 وهو «المؤقتون». ولا يمكن لمن يقترب منهم أن ينسى بأن الجيل «الشاب» تمثله أفواج هامة - تتعاظم أهميتها- من الفنيين الشباب الذين غالباً ما يشار إليهم بالـ «BTS»، الذين تم توظيفهم في النصف الثاني من الثمانينات، والذين يشتركون في أنهم لا يعتبرون أنفسهم «عمالاً» وإنما فئة لها وضعها الخاص. والاختلاف

بين هاتين الفئتين لا يكمن في العمر، بالمعنى البيولوجي، فحسب، بل هو أشد أهمية في الطريقة التي دخلوا بها إلى المصنع. وعلى أي حال، فبعض «القدامى» ليسوا من الكبار جداً في السن. لقد دخلوا في نهاية السبعينات فيمكن النظر إليهم، ببعض سلوكيات حياتهم، وطريقة معيشتهم، باعتبارهم من الشباب، والعكس صحيح، فهناك عدد من المؤقتين الشباب ممن ليسوا «شباباً» إلى الدرجة التي يظنها المرء، فمنهم من تجاوز الثلاثين.

ما يميّزهم فعلاً هو نمط الجيل، «جيل المصنع» فالمختصون دخلوا المصنع قبل الأزمة فهم في تعارض مع «جيل العابرين» الذين يبحثون دائماً عن عمل مستقر، ويتضاعف هذا التعارض بتعارضات مشابهة (مسيّس/غير مسيّس، نقابي/معاد للعمل النقابي..) ويمكن القول، على سبيل التوضيح، إن شباب الأمس المختصين ينتمون إلى جيل دراسي كان الكثيرون فيه يبدأون العمل في سن الـ 16، فالخروج دون شهادة كان ما يزال كثير الرواج نسبياً. بينما عابرو هذه الأيام يعتبرون أنفسهم ويعيشون حياتهم على أنهم «فاشلون» أو «مطرودون» من الحلقة الدراسية فلم يكن بإمكانهم النجاة من الـ LEP المدرسة المهنية ومن الـ CAP (شهادة تعليم مهني). مثل هذا التغيير في العلاقة بين النظام الاقتصادي والنظام التعليمي وتدعيم سلطة العقاب في النظام المدرسي الناتج عن «الأزمة» الاقتصادية شدّد الوطأة إلى أبعد حد على الشباب الذين يفتقرون إلى المؤهلات الدراسية.

وهكذا فإن تحديث مصنع سوشو (تقنياً واجتماعياً وفي مكان العمل) قد نتج عنه «قدامى نسبيّون» ليسوا فقط مستهلَكين بسبب عملهم فحسب، بل هم «قدامى» و«عجائز» بحكم ما «خسروه»، طرائقهم في العمل والحياة، تلك السلوكيات التي كانت تجعل ظروف العمال المختصين مقبولة، وكانت في أساس نشوء وعيهم الطبقي. وهم عجائز أيضاً، بسبب الاستحالة التي يعانون منها، أياً كان العمر، ألا وهي استحالة التأقلم ذهنياً مع التجهيزات الجديدة للعمل التي زُوّد بها المشروع. لقد أمضى العمال المختصون 15 عاماً على سلسلة الإنتاج، فهم حتى لو كانت أعمارهم في الـ

35-32، يعتبرون إلى حد ما عجائز كثيراً «في داخل رؤوسهم»، عجائز بالأساليب التي تغلغلت فيهم والتي يعانون للتخلص منها في هذه الأيام، كي لا يشعروا بأنهم منبوذون من «الحداثة». فكأنهم مضطرون للنضال ضد أنفسهم، ضد «ردّات الفعل» التي اكتسبوها تدريجياً. جميع الذين أخذوا مواقعهم الاجتماعية ضمن «ثقافة المعارضة» التي كانت ثقافة الورشات الكبرى العامرة بالعمال المختصين، الـ OS، في السبعينات[4] وجدوا أنفسهم كذلك وقد «شاخوا» سياسياً بسبب تدهور قيمة الآمال والمثل العليا، وبسبب زوال بريق المعتقدات التي كانت تدعمهم في مقاومتهم لنظام المصنع، وبسبب هذا التاريخ المشترك الذي يتفكك ويتحلل، وباختصار، بسبب تفكيك ترابط الجماعة العمالية. أما ما تداعى بنيانه فهو الطريقة التي كان هؤلاء العمال قد بنوا على أساسها، داخل حياة الورشة، سمعتهم وشهرتهم أي، بالتالي، الجانب الإيجابي من صورتهم الخاصة.

لقد عانى الشباب المؤقّتون الأمرّين لإيجاد عمل من بعد خروجهم من المدرسة؛ فقد خضعوا لدورات تدريبية، وأمّنوا «عقوداً صغيرة» في الأعمال المؤقتة، مع فواصل من فترات بطالة. هم دائماً بانتظار وظيفة ثابتة وسكن خاص بهم. ونظراً لأن دخولهم إلى سوق العمل (وإلى حياة البلوغ) كان دائماً موضع تأجيل إلى وقت لاحق، فقد رأوا في «المصنع الكبير» الموجود في سوشو فرصة تكاد تكون وحيدة لانتزاع عمل ثابت. لهذه الغاية، كان الكثيرون بينهم قد جاؤوا من مناطق بعيدة (من مناطق تهيمن البطالة الطويلة الأمد فيها على العديد من الشباب، كالشمال والبروتاني على سبيل المثال). وهم لايرون في العمال المختصين الذين يشتغلون إلى جانبهم جماعة متحدة ومتضامنة- جماعة «قوية»، وإنما يرون فيهم جماعة متفككة، وأناساً متعَبين، مستهلَكين، محطمي المعنويات، عجائز قبل الأوان، «نقّاقين»، «يسيئون التصرف» في الشغل (وهو موقف قد يصل حتى التخريب)، في حين أنهم، من جانبهم، متعطشون لتقديم براهينهم، لبيان ما هم أهل له

(4) ارجع إلى «حوليات بيجو»، بحوث في العلوم الاجتماعية، س.كوروج و م.بيالو، 1984-1985

ويسعون لزيادة «النقاط الجيدة» لتأمين التثبيت من بعد عقدهم المؤقت. فيحاولون «القيام» على خير وجه بالعمل في مواقعهم ويحتفظون بعلاقات جيدة مع رؤسائهم الذين «يحمونهم» من وكلاء العمل (وكالات المؤقت). ولا يشعرون بالتالي أن عليهم الالتزام باحترام التقاليد السائدة منذ فترة بعيدة في الورشات، ويمكنهم الانعتاق من العرف والعادة (مثل عادة الكحول). ولا يوليهم «القدامى» أي اهتمام خاص، باستثناء قلة من المناضلين يأتون، فيما يقولون، ليحاولوا بيعهم هويّة (أمّا هم فيشعرون بالاعتداء عليهم عن طريق هذه «المبارزة» التي تبدو لهم شبه فاضحة). هؤلاء الشباب المؤقّتون (الغريبون على المنطقة وعلى «ذهنية بيجو») لم يشتغلوا سوى فترة قصيرة جداً عند بيجو فلا يمكنهم فهم طبيعة العلاقات المعقدة القائمة في الورشات؛ كما يجهلون كل شيء حول التاريخ الذي صاغ اختلافات المواقف، والانقسامات، والعداوات والكراهيات، والجروح، والندوب، وحتى الاختلافات بين النقابات واستراتيجياتها. فما كان في صميم حياة المناضلين، ما كان يشكل مبدأ هوية لا يتزعزع، يبدو في أنظارهم وكأن لا وجود له. حتى أن جميع عمال القطاع يُعتبرون «بالجملة» تابعين للجيل نفسه، جيل الناس الذين واتاهم الحظ «فعاشوا حياتهم كلها في المصنع».

وهكذا، فالتعايش في مواقع العمل نفسها بين «عجائز» العمال المختصين و «الشباب» المؤقّتين كان بمنزلة الدليل الذي أظهر مواقف سوء التفاهم البنيوي المتبادلة. فمن جانب، كان «العجائز» يرون في المؤقّتين مجرد «شباب» يُسقطون عليهم رؤية شبابهم الخاص («اللامبالاة» و«التمرّد») علماً أن هؤلاء «الشباب» يعيشون قبل كل شيء الخوف من ألاّ يمكنهم أبداً الارتباط بسوق العمل، كما يسيطر عليهم هاجس وشبح «الاستبعاد». حينذاك «شعر» العجائز الذين تربّوا على ثقافة النضال أنهم لا يستطيعون تقديم أي شيء لهم من معرفتهم ومن خبرتهم «السياسية» كما اكتشفوا أن الخيط الواصل بين الأجيال العمالية في المصنع كان مقطوعاً. خلال تلك السنوات من الأزمة وعدم التوظيف العمالي، انتشر في

المنطقة اعتقاد ما، «إشاعة»؛ مفاده أو مفادها أن المصنع لن يوظف على الأرجح بعد ذلك التاريخ في وظائف ثابتة إلا من كان لديه على الأقل: بكالوريا + سنتي دراسة بعدها. وقد أصبحت حيازة الشهادات العليا اليوم من الأمور اللازمة وأصبح وعي هذه الحقيقة قوياً بشكل خاص (فتكاد الدراسة تقاس بعدد السنوات بعد البكالوريا) فكانت النتيجة الموضوعية، باتجاه معكوس إلى حد ما، النظر إلى العمال القدامى الذين دخلوا المصنع دون شهادة، «بلا شيء»، على أنهم أناس «أصابهم حظ». ويمكن القول إن تصعيب المنافسة الدراسية وعدم جدوى الإعداد المهني القصير الأمد (BEP, CAP)، كان من نتائجه أن الشباب القليلي أو المعدومي الخبرة (وخصوصاً منهم من اصطدم بالقرارات الباترة لسوق العمل المحلي أو القومي) مالوا إلى بناء تصورهم لجيل القدامى في المصنع، بالمقلوب، (وهذا الجيل هو بالنسبة لكثيرين جيل أهاليهم) فهم جيل لا همّ لديه وربما هو جيل «سعيد»، وذلك لمجرد أنه نجح في الماضي بالحصول بسهولة على عمل. هذا التصوّر «اللاحق» لجيل الآباء يعزل عملياً لحظة واحدة من مسيرتهم المهنية، ألا وهي لحظة دخولهم إلى سوق العمل، ويتجاهل مجموع الضغوط التاريخية التي خضع لها أيضاً أناس ذلك الجيل (كأبناء الفلاحين مثلاً الذين هربوا من عمل الأرض للوصول إلى خيرات ومسرّات «المجتمع الاستهلاكي»).

أما المؤقّتون، وعلى وجه الخصوص أبناء منطقة سوشو، الذين ما كانوا يتمنون التثبيت في بيجو، فقد تولد حيالهم انطباع لدى قدامى العمال، بمواقفهم (كثيرون منهم يعملون وسماعات الراديو على آذانهم، بالكنزة القصيرة، دون السترة الزرقاء، وهم «يتكلمون كثيراً ويعبّرون أحياناً عن رفضٍ ظاهر للتواصل مع زملاء العمل) أو بطريقة ازدرائهم للعمل وللحياة في المصنع، أنهم لا يحترمون العلاقات الاجتماعية الراسخة على امتداد فترة طويلة في الورشات (أضف أنهم لم يتعلموها ضمن الظروف نفسها) وأنهم يتصرفون «كعمال عابرين». علاقة هؤلاء الشباب بالعمل، وهم يعملون

أنهم عابرو طريق، قوامها الانعزال وما يشبه الاستخفاف («الجهنم»)، فهم في ذلك على تناقض كامل مع صورة العامل، تلك الصورة التي صاغتها الحركة العمالية الفرنسية، تلك التي كان المناضلون يجسّدونها إلى حد ما، صورة المنتج، خالق «القيمة»، المتحلّي بشرف ونبل العمل الصناعي، بقيم التضامن والتفاني في سبيل الطبقة، كل ما كان يدفع للنضال من أجل وباسم هذا «المفهوم المجرّد»: «الطبقة العاملة». وما كان المناضلون النقابيون أو «العمال العجائز» يرونه في هؤلاء «العمال العابرين» -ذلك النوع من «الخفة » في سلوك بعضهم- كان يبدو شبه معادٍ لما يتطلبه الانتماء إلى الطبقة العاملة مثل «المظهر»، و«الكرامة» العمالية التي بنيت على ما هي عليه بدأب ولفترة طويلة بالنضال النقابي والسياسي، في وجه الأشكال المسيطرة للتصور و«المحتقِرة» للطبقات العمالية. إن ظهورهم المباغت في الورشات جعل العمال القدامى يدركون أن فاصلاً ثقافياً لا يمكن إلغاؤه قد امتد بين الأجيال العمالية. وزاد من ألم التشكيك بالهوية العمالية أنه تشكيك قادم من «الداخل» ، من الوضع العمالي نفسه، بل هو في بعض الحالات، من أبنائهم بالذات. وهكذا، فـ «الشاب الهش» ، في نظر الكثيرين من عجائز العمال المختصين، هو ذاك الذي لا يمكن التفكير به على أنه «عامل» حقاً بالمعنى الذي يجعل من تلك الصفة التزاماً أساسياً بفكرة النضال، والتاريخ، والكفاح والأمل السياسي والجماعي، فهو ذاك الذي لن يكون أبداً من المناضلين.

إن الخبرة المهنية لهؤلاء الشباب العابرين ومصيرهم، قد برهنا بشكل من الأشكال للكثير من عمال المصنع، أن من الوهم الكبير، من الآن فصاعداً، الاعتقاد أن بإمكان أبنائهم الدخول إلى المصنع دون «زوّادة» ، كما بيّنوا أن الرهان على تحقيق اندماجٍ مهنيٍّ مستقر بالطريقة التقليدية للتعليم المهني (CAP أو BEP) مغامرة غير مأمونة. كان عليهم القيام بالنقيض: «الاستثمار» بالدراسة الطويلة الأجل: فالحد الأدنى الذي تبدّى لهم هو ضرورة انتزاع شهادة BTS للحماية من البطالة (وهذا ما دفع عدداً من أبناء

العمال في المنطقة إلى تفضيل الدراسة الطويلة الأجل في ثانوية عامة على الدراسة في الـ LEP، التي يقضونها وكأنهم في منفى اجتماعي).

اكتشف معظم المناضلين أنهم ليسوا أفضل تسليحاً بكثير من بقية العمال في مواجهة الضرورات الدراسية. ومن هنا خوفهم، مثل باقي العمال، حيال المستقبل الدراسي والمهني لأبنائهم، وهو خوف يزداد تفاقماً أكثر فأكثر بسبب نوع من كراهية المصنع الذي خيّب آمالهم كلها. فاكتشف قدامى العمال أنهم قد لا يتمكنون من نقل أي شيء إلى أبنائهم مما ناضلوا في سبيله لفترة طويلة، وأن خبرتهم تلك خاصة بهم وغير قابلة للنقل، وهي خبرة تجهلها (المدرسة) بل وتدوسها أحياناً (من المعلوم الاهتمام الذي نوليه الكثير من المناضلين لتعليم التاريخ، وللموقع الذي يجب أن يكرّسه للتاريخ السياسي للطبقة العاملة). والطريقة التي يتحدث بها بعض العمال عن أبنائهم لها دلالتها بصدد العلاقة القلقة، المتوترة، المترددة، التي تسود بين كثير من العمال القدامى المختصين وبين المدرسة: فهذه العلاقة خليط من الخوف (الخوف من أن يتوقف فجأة «نجاح» أبنائهم دراسياً وهو نجاح غير مؤكد ويمكن أن ينقلب رأساً على عقب)، والتوتر الشديد (ضرورة عدم التخلي أبداً عن الجهود، وخاصة تلك الهادفة إلى استبعاد العلاقات السيئة لأبنائهم)، والأمل. ويزيد من وطأة هذه العوامل أن الكثيرين منهم لا يقدرون على تقديم كبير «مساعدة دراسية» لأبنائهم، ودع عنك أنهم، بشكل من الأشكال، قد ينقلون إليهم كراهية المصنع. فيبدو المحيط المدرسي كعالم لا تسود فيه روح التضامن الجماعي، عالم لا يكفي فيه إنشاء «علاقة توازن قوى مناسبة» ، كما هو وارد في قاموس المناضلين من التعابير.

والمناضلون الذين واجهتهم في المصنع مواقف ذات طابع مدرسي، أو مواقف تخويف رمزي (المفاوضات مع إدارة العاملين، المناقشات مع ممثلي الدولة، اجتماعات لجنة المشروع، الخ..) قد «جرّبوا» أهمية السيطرة على طريقة الكلام، والسلاح المتمثل في مختلف أشكال الاطلاع الثقافي، كما جرّبوا، على العكس من ذلك، الثمن الغالي الذي دفعوه أحياناً -بالإهانات،

والتخويف، والعجز، أو الغضب المكظوم، خصوصاً في المواقف «الرسمية» بسبب «أميتهم الثقافية» -نسبياً- والجهد الذي توجّب عليهم بذله ليعودوا إلى «ساحة المعمعة»، فمثلاً بخصوص المطالعات المتعلقة بالحياة النقابية (قانون العمل، النصوص القانونية، فهْم الآليات الاقتصادية الأساسية والإحصائية، الخ.) فهم اليوم يدركون أن «ضرب البوز» في مواجهة رئيس العمل، واستراتيجيات «التغيير الرمزي» أمور ما عادت «تمشي».

لم يعد بإمكان العمال القدامى أن ينقلوا سياسياً أي شيء إلى أبنائهم إلا ما هو سلبي -العداوة مع بيجو، كراهية رؤساء العمل، «احتقار» الزملاء من «جماعة الفاصولياء» قديمهم وجديدهم، خيبة الأمل تجاه بلدان أوروبا الشرقية والشيوعية الحقيقية، الخ. ونلمس لديهم الإرادة، عبر أبنائهم، في قطع الصلات مع عالم (محيط المصنع والعالم العمالي) خيّب أملهم في الصميم وجرحهم، وفي محاولة إيجاد (كما لو بالوكالة) مصير خاص مختلف أو آفاق جديدة، راغبين في أن يروا في «صغارهم» ما كان يمكن أن يكونوا عليه (رياضي ممتاز، موظف ممتاز)، كل شيء باستثناء ذلك العامل المستهلَك والخائب الرجاء، والذي ينتهي به الأمر، ربما، إلى أن يكره نفسه بالذات لأنه أصبح ما هو عليه.. كما لو أن العنف الذي يحملونه في أنفسهم -العنف المدمّر الذي يدفعهم إلى الانعزال عن الآخرين- يجد تهدئة نسبية ومؤقتة في استحضار أبنائهم ومستقبل أولئك الأبناء.



ميشيل بيالو

العامل القديم والمصنع الجديد

عندما وصلنا، كريستيان ك. وأنا[1]، إلى د.، القرية التابعة لمنطقة ساون العليا على مسافة 50 كيلومتر تقريباً عن سوشو، حوالي الساعة الثالثة، عصر يوم من تموز 1990، كان جيرار -الذي يعمل في «الفترة الصباحية» للمصنع -بانتظارنا في الحديقة المحيطة ببيته الصغير: كان يقلب بمعزقه مربعاً من تراب الحديقة، عاري الجذع، لاما يغطي جسمه سوى سروال قصير. جيرار عامل فني متخصص في مصنع سوشو منذ 1965. وهو يناهز الخمسين من عمره ويعمل في ورشة الإنهاءات منذ ما يقارب 15 عاماً: ورغم استلامه لمسؤوليات عديدة فقد استمر دائماً «في السلسلة»، «على الخط الإنتاجي». ولما انتصب لاستقبالنا لفت انتباهي بنيانه المتماسك وقوته والحيوية الهادئة المتدفقة منه، فغالباً ما أرى عمال المصنع هرمين، مستنفدي القوة -كأنهم أعمر، كما يقال- بخمسة أو عشرة أعوام مما هم عليه حقيقة؛ أما هو فبدا لي أفضل حالاً من كثيرين، وأنه قاوم استنفاد المصنع للقوة البشرية.

تبادلنا الجمل التقليدية حول «حلاوة» العمل في الحديقة، وإرهاق

---

[1] كريستيان كوروغ عامل متخصص في مصنع بيجو سوشو ترافقتُ معه في العمل طيلة الثمانينات، وتعاونتُ معه في إصدار «يوميات بيجو» في دورية «تقارير البحث في العلوم الاجتماعية» من 1984 حتى 1986.

العمل في المصنع. يعمل جيرار في سوشو فيمضي إلى هناك يومياً، في سيارة تابعة للمصنع. تستمر الرحلة قرابة الساعة. ولا يستخدم سيارته (بيجو 405) إلا في حالات نادرة جداً. (المنطقة بأكملها منذ عقود عدّة مؤمنة في جميع الاتجاهات بشبكة سيارات نقل تنطلق، منذ الثالثة أو الرابعة صباحاً، على الطرقات. في الوقت الحالي، تضاءل عدد العمال، ولكن الإدارة حافظت على الخطوط القديمة لسياراتها). وطفنا حول البيت الصغير (خمس حجرات، قبو كبير...) بخطى وئيدة ونحن ندردش، وتناولنا بالمزاح ترتيب الحديقة: فهناك زهور كثيرة، مع نباتات زينة نائية على الأطراف، ثم مساحات صغيرة مزروعة بالخضار. وشرح لنا جيرار كيف ولماذا عمل على بناء هذا البيت في 1973، بُعيد زواجه بقليل: كان العمل في شركة بيجو يعطي شعوراً بالطمأنينة، وكانت فوائد الاقتراض غير مرتفعة، عدا عن أن الأرض لم تكن غالية الثمن -«تقريباً بالمجّان» - بفضل «دهاء» عمدة القرية، الـ «شيوعي» ، الـ «خبيث العتيق» الذي لم تخنه الحيلة يوماً والذي عرف كيف يحصل على حجوزات عقارية لقريته في الوقت الملائم. وأضاف -كان يتكلم ببطء، بصوت مكتوم إلى حد ما، دون أدنى حماس، حيث يظهر أحياناً بعض التهكم، كما لو كان يريد إيجاد مسافة ما تفصل بينه وبين أسئلتنا.. - أنه لم يكن لديه في يوم من الأيام كبير ميل للعمل الزراعي، وأنه ينصرف إليه عرضياً في الصيف (مساعدة، «يميناً أو يساراً»، يقدمها إلى هذا الجار أو ذاك القريب). يسكن والده على مقربة، لكنه لم يعد يعمل في أراضيه التي سلمها تأجيراً إلى أحد الجيران. (يدل بحركة من يده على البيت القديم للعائلة. وعلى امتداد الحديث يشير بإصبعه إلى البيوت العديدة العائدة لأصهاره، أبناء الخال والعم، أهل الزوجة..) توقفت قليلاً بإلحاح عند هذه المسألة: ألم يكن هذا العمل «الجانبي» ممكناً باعتباره مثل ساعات إضافية تضاعف ساعات العمل في المصنع؟ كلا، حقاً، «لم يشعر أبداً بإغراء من هذا القبيل». على أي حال «هذا شغل ما عاد ممكناً». فالعمال الذين كانوا يحاولون «الصمود» في المصنع مع العمل في مزارعهم اضطروا للتراجع الواحد بعد الآخر. («كان لي زميل يقوم بالعمل الجانبي،

لكنه وصل أخيراً إلى مرحلة كان لا بد له أن يختار إما هذا العمل أو ذاك، إما المصنع أو المزرعة»). فاليوم، الناس «مرهقون فوق الحد». أما من جانبه، فالانشغال الوحيد هنا، في القرية، والذي ينصرف إليه بصورة منتظمة هو قطع الحطب، في الأحراش الملاصقة، وهو احتطاب منظم حسب العرف المتوارث، حيث يكون العمل جماعياً، «ما بين الأصحاب»، وهذا العمل يوفر له تدفئة بيته طيلة الشتاء («الشتاءات قارصة البرد، ولولا الاحتطاب، لأسباب مالية، ما كان بالإمكان توفير الدفء»). ثم أضاف «أحتطب لنفسي، أقوم شخصياً بإصلاح الأعطال المنزلية، أشتغل حديقتي، لكن هذا العمل أقوم به من أجل نفسي دون سواي، فلا أعمل إلا ما يروق لي..» أما هوايته، فالصيد. وعندما قدّر لنا أن نودّع بعضنا، بعد مضي ثلاث ساعات، حوالى السابعة مساءً، استرسل جيرار في وصف غني بالألوان لما يقوم به من صيد: جولات الصيد مع جيرانه وأصهاره، مطاردات الخنازير البرية حيث يُستنفر جميع رجال القرية.. في لحظته الراهنة يفضل أن يشرح (لكن بموارية، ودون إلحاح زائد) التعب الذي بدأ يسيطر وصعوبة ترميم القوة الجسدية بعد أيام العمل: «منذ سنتين كنت أعود إلى البيت، فأقوم بالإصلاحات المنزلية، أصطاد السمك، أذهب إلى الأحراش للاحتطاب. ما كان من مشكلة. أما الآن، عندما أعود، لا تراودني أية رغبة على الإطلاق في أن أقوم بأدنى عمل...»

جيرار صاحب قديم لكريستيان.. تعارفا منذ عشرين عاماً وتربط بينهما ذكريات كثيرة مشتركة. حين وصول كريستيان إلى المصنع، عمل في فرقة جيرار نفسها، في قسم الهياكل. وأخصّ ما في علاقتهما أنه تدرب على النضال إلى جانبه في 1969 عندما كان المصنع يعجّ بالعمال الشباب والمقاتلين. «هذا الأمر أوجد روابط متينة.» وقد التقيا فيما بعد مراراً وتكراراً: في الورشات أثناء «الاستراحات»، في المقاهي القريبة من المصنع أو في الاجتماعات النقابية. لكن كريستيان لم يزر جيرار أبداً في قريته: «هذا زميل في المصنع» وليس زميل «حي» أو «قرية». والاختلاف بين هذه الحالات له أهميته. كثيراً ما حدثني كريستيان عن جيرار خلال عامي 83-

84، حالما بدأنا نعمل سوياً... في نظره، يمثل جيرار «العامل الفلاح» النموذجي، الغارق كلياً في شبكات الحياة المحلية، الذي يتمتع بأوقات فراغه كفلاح، فيصطاد الطرائد، ويصطاد السمك... هو يجسّد نموذج حياة تسحره، حياة تقف على نقيض كامل مع ما هو قائم في الكتل الإسمنتية المتراصة للأحياء العمالية (HLM: السكن ذي الإيجار المعتدل) حيث يُحكم على العمال القادمين من مناطق أخرى أو من بلدان أخرى، مهاجري الداخل والخارج أن يعيشوا. وفي الوقت نفسه، فإنّ ما يميز جيرار في نظره، هو كونه من «الحمر»؛ هو ابن وحفيد فلاح، لكنّ خانته السياسة تنسبه إلى منطقة «حمراء» منطقة منجم رونشان والقرى العمالية المحيطة به، منطقة صغار الفلاحين الذين هم منذ القديم من ذوي الميول الجمهورية المعادين للكهنوت على مدى حقبة طويلة، وهي منطقة تأثرت بشدة أيضاً بذكريات المقاومة للاحتلال النازي، حيث تكثر وتنشط البلديات ذات الانتماء الاشتراكي والشيوعي.

وبالفعل، فإنّ جيرار يوصف بأنه «أحمر» في داخل المصنع وخارجه على حد سواء. لقد ناضل طويلاً في صفوف الحزب الشيوعي ومارس فيه مسؤوليات رفيعة نسبياً وما زال يعتبر نفسه شيوعياً «حقيقياً»، رغم أنه كف عن الحصول على بطاقته الحزبية في نهاية السبعينات. وكان وما يزال منظماً في النقابة العمالية CGT، فهو من النواة التي تضم المناضلين والمندوبين القدامى الذين تتحلّق من حولهم وتتبلور مقاومة نظام العمل في المصنع. هو منخرط بالكامل في الشبكة النضالية، وهناك يجد أصحابه الحقيقيين. مع ذلك، لم يحظ أبداً بالانتخاب ممثلاً عنهم. يحضر اسمه غالباً بين مرشحي نقابة CGT للانتخابات الداخلية DP وفي لجنة الصحة والأمن الصناعي (CHSCT)، لكن دائماً في وضع عدم إمكانية انتخابه.

بعد انتهاء جولتنا حول بيت جيرار، تناول قميصاً ولبسه، ثم جلسنا في المطبخ: عصري، حسن التجهيز، مفروش بخزانة للصحون والفناجين وبكراسٍ «بسيطة» (المفروشات القديمة التي سوف نتحدث عنها ظلت في

بيت الأهل. قدم إلينا جيرار قهوة وقطعاً صغيرة من الحلوى. وقد نهض أكثر من مرة كي يجلب ثبوتيات: بيان راتبه، الرسالة التي وصلته لحظة حضوره إلى دورة مورفيلار (دورة مدتها ثلاثة أسابيع، مخصصة للعمال القادمين للعمل في المصنع الجديد لبخّ الهياكل)، منشورات نقابية احتفظ بها... زوجته (الموظفة في إحدى دوائر البلدية) جاءت في نهاية فترة العصر، لكننا لم نتبادل معها سوى كلمات قليلة؛ لم تشترك فعلاً في الحديث لأننا كنا نتحدث عن المصنع: يشعر الإنسان بهذا الصدد أيضاً بمدى عمق القطيعة بين عالم القرية وعالم المصنع.

يعلم جيرار أنني أعرف كريستيان منذ سنوات، كما أنه سبق لنا أن تلاقينا منذ عامين أو ثلاثة أعوام خارج المصنع في يوم إضراب عن العمل، حينما غادر المضربون الورشات وتلاقوا في المقاهي القريبة من المصنع.

كريستيان هو الذي اقترح وحضّر هذا اللقاء. دون أن تكون لدى جيرار فكرة محددة عن المواضيع التي نتحاور معه بصددها، قدّر أننا قبل كل شيء نريد الحصول على «شهادته» حول ورشة الإنهاءات، حول التغييرات الحاصلة هناك، مشقة مراكز العمل، الزخم الكثيف للإنتاج، «تنفيذ العمل في آخر لحظة»، الخ. ويعلم أيضاً أننا نتمنى التحدث عن «الدورة» التي بدأها في مورفيلار والتي صُرف منها بعد مضي أربعة أيام. لكنه بالتأكيد لم يفكر بأن الحديث سوف يتّخذ طابع «الاعتراف» و«المكاشفة»، وأننا، على سبيل المثال، سوف نتحدث دفعة واحدة ودونما تمهيد عن علاقته بـ «السياسة»، وهو موضوع يُفضل، على الأقل في البداية، أن يظل بصدده «متحفظاً». على أنه يعرف في الوقت نفسه حق المعرفة كريستيا نـ... (ـه)، ويشعر بغموض أنه لن يستطيع التملص من النقاش حول المواضيع «السياسية»، التي لا يريد بكل تأكيد الخوض فيها أكثر مما يجب.

وبالفعل، فإننا لن نتجرأ أن نطرح بعض الأسئلة الشديدة «الخصوصية»؛ وأسئلة أخرى لن نتمكن من تناولها بالنقاش إلا عندما سوف

نتحاور -بعد توقيف المسجلة- حواراً كاملاً، في المطبخ ونحن وقوف، أو عندما سوف نستمر، بعد اجتياز العتبة، في تبادل الحديث لأكثر من ربع ساعة في ممر الحديقة.. لم يكن مقرراً في التفاهم الضمني الأولي أن يتحدث جيرار عن خصوصياته، أن يتكلم عن نفسه. لكنه سرعان ما تعرّض بالحديث لوالده، المناضل الشيوعي النشيط، المشارك قديماً في المقاومة، المستشار لفترة طويلة في بلدية القرية («أنا تربّيت في وسط المقاومة، والدي، وجدي شاركا في المقاومة.. جدتي كانت تخبز الخبز من أجل المقاومين»). كان لوالده مزرعة وكان يمكن اعتبارها منذ ثلاثين عاماً مضت استثماراً «متوسطاً» لكنه لا هو ولا أخوه (الذي أصبح فنياً في المصنع) لم يفكرا يوماً بمعاودة العمل فيها («عندما رأى أن أحداً لا يريد الاستمرار في الزراعة، لم يستثمر، لم يوسّع المساحة.. وأُجّرت الأراضي». كان والدا جيرار قد «دفعاه» «للقيام بالدراسة»، على أمل أن يصل إلى الحلقة الثانوية. لكنه هجر الدراسة في الصف التاسع («ما كانت حالتي ماشية كما يجب، وكنت أرى الأصحاب الذين بدأوا يشتغلون، فأنا..».

بعد الخروج من المدرسة، وجد عملاً في مصنع نسيج يقع على بعد كيلومترين من بيت والده لكن الرواتب فيه كانت متدنية جداً. («كان لدي إمكانية في أن أصبح رئيس ورشة»). قرر حينذاك مغادرة المصنع ليتحول إلى سوشو. في تلك الفترة، كان راتب العامل غير المختصّ في بيجو أعلى بكثير (من 30 إلى 40٪) من راتب العامل المحترف أو حتى حامل الشهادة في معظم مصانع المنطقة. العمل في مصنع بيجو آنذاك كان مما يُحسد عليه. كما كان التوفيق يبدو ممكناً تماماً بين أسلوب النضال السياسي «الصلب» وبين تأمين صيغة ما للارتقاء وظيفياً.

وتطرّقنا أكثر من مرّة في حديثنا معه إلى مسألة ولديه ومستقبلهما المدرسي والمهني. فتلك قضية ملتهبة وموجعة تثور ولا مجال تقريباً لتجنبها كلما دار الحديث عن مشاكل مستقبله الشخصي، ومستقبل المصنع. هو خائف على ولديه (الأول في الثاني الثانوي بعمر 17 عاماً والثاني في الأول الثانوي

بعمر 16 عاماً) من أن يفشلا في الثانوية، فيستقر بهما الحال مثله، في المصنع، في العمل اليدوي، وكان ذلك الخوف يطفو باستمرار على سطح أحاديثنا. علاقته بالمستقبل مبنية أيضاً عبر مستقبل ولديه. «لا بأس بدراستهما»، قال مبتسماً، لكنه لم يجرؤ على التقدم بعيداً في موضوع لا يسيطر عليه، وفي نفسه خشية من أن يخبئ له المستقبل في هذا الميدان مفاجآت غير سارة. ولعل أكثر ما يثير الدهشة الكيفية التي فسّر من خلالها لماذا بذل كل ما في وسعه كي يجنبهما الدخول إلى التعليم المهني الذي يبدو له تعليماً لا قيمة له ولانهاية له إلا العمل في المصنع -كما لو كان يُسقط على مجمل العالم الصناعي المقت الذي يحمله، هو شخصياً، حيال مصنع بيجو.

في الوقت نفسه -وهنا أيضاً يتوضح التباس علاقته بالمصنع، الذي هو موضوع كراهية، لكنه أيضاً، بمعنى من المعاني، موضع حب ترتبط به بعض أغلى الذكريات وأقوى العواطف في حياته-كرّر أكثر من مرة أن أقوى أمنية لديه هي أن يأتي ولداه ليعملا في المصنع، بصفة «طلاب مدرسة» أثناء العطلة الصيفية. ويعني هذا في نظره نوعاً من التعليم السلبي، ليلمسا لمس اليد حقيقة المصنع، ويتبيّنا لماذا يجب الهرب منه-، لكنه يورد في الوقت نفسه يمرر ضمن كلماته رغبته في أن يُفهم ولديه ما كان يعني عمل العامل الفني، لماذا استهلك والدهما، لكن، أيضاً، كيف طوّر فيه مواقف المواجهة والقتال التي هي، في نظره، منسجمة وعظيمة -وهي أمور يستشعر أنه لن يفهمها بعد اليوم إلا النفر القليل؛ قال «أود من كل قلبي أن يدخلا إلى المصنع، حتى لمدة شهر واحد، ولكنهما من جانبهما يرفضان؛ على أنهما لو استمرا في الاستيقاظ لمدة شهر كامل منذ الثالثة صباحاً، إذن لتغيّرت الموسيقى التي يرغبان في سماعها...».

فور تحلّقنا حول طاولة المطبخ، وكما لو كان يرغب في تبديد الحرج السائد، تمركز جيرار كلياً حول الحنين إلى الماضي والتصادم ما بين عصرين، وتوجه بالحديث إليّ، ناظراً نحو كريستيان: «ذاك، أنا من درّبه». فأجابه كريستيان مثل رجع الصدى -وفي تلك اللحظة شغّلتُ المسجلة-:

«هذا صحيح فنحن أمضينا لحظات حلوة معاً، وجميع الذين اشتغلوا معنا في ذلك الوقت يتذكرون لحظاته باعتبارها أفضل لحظات حياتهم...»

حال تبادل الجمل الأولى، بدا لي مثيراً للاهتمام أن الأفكار الكبرى الثلاث أطلقت مذ ذاك على الفور- فكرة تفاقم مشقة العمل في خطوط الإنتاج، وفكرة تدهور «الجو الأليف» في الورشات، وفكرة تزايد صعوبة القيام بالعمل النقابي- وهي الأفكار التي سوف تعود باستمرار في حديثنا حتى ختامه.

لدى سماع جيرار وكريستيان يضاعفان من الإشارة تلميحاً إلى شلة «الأصحاب»، ويستذكران بحركة متشابهة «الجو الأليف» حول مراكز العمل، وأشكال وحيثيات« العمل» النقابي (التي كانت متداخلة بعمق مع ممارسات العمل) والعلاقة التي كانت تربطها مع موقف سياسي معين خيّل إليّ أنني أفهم دفعة واحدة كيف ولماذا أمكن تحقيق انتقال ثقافة سياسية معينة متغلغلة بعمق في شبكة متداخلة من علاقات العمل (التي كانت أيضاً علاقات اجتماعية بين أناس «مجبولين» من تاريخ مشترك) وكيف ولماذا تلاشت تدريجياً شروط هذا التسيّس- أو أنها في طريقها إلى التلاشي.

أما ما يصدم في هذا الحديث بادئ الأمر فهو تلك اللهجة، التي هي مزيج من العنف الملجوم للتحدث عن الحاضر، والمرح الساخر بشيء من الحدة حين التحدث عن الماضي. ويصدم أيضاً العزف المستمر على فكرة تدهور علاقات العمل والعلاقة الوثيقة التي تربط بين هذه الفكرة وبين تبدد علاقات الثقة داخل زمرة العمل، وضياع هذه الثقة يحز في النفس كأنه جرح لا يندمل. كان لا مفر في البداية من توجيه الانتباه إلى أشكال رفض المصنع: وهو رفض عنيف- باتر، لا رجوع عنه، ولا محل للتنازل عنه بحال من الأحوال. وهذا الرفض، هو الآخر، هو مثل علامة لجرح باقٍ.

وما لم يكن جيرار يكف عن الحديث عنه، وما كان يورده حيناً بصيغة معاينة موضوعية، وحيناً آخر بصيغة إدانة وتنديد، هو تفكيك النظام القديم للعلاقات الاجتماعية، ذلك النظام الذي احتل مراكز الصدارة لفترة مديدة

في الورشات (حتى في سنتي 86/85)، وكان يوفر قوة ما لـ «الزمرة» العمالية، حيث كان يحتل ممثلو العمال والمناضلون مركزاً بارزاً. وقد وضع دفعة واحدة في صميم شرحه مسألة التجمعات العمالية، وأشكال وجود تلك التجمعات، وصيغ التعاضد الاجتماعي التي كانت سائدة فيها، والطريقة التي كان يُنشر فيها وعبرها بعض العمل السياسي (وكان بالكاد يُفكر فيه على أنه سياسي)، والطريقة التي كان يتيسر من خلالها تبلور، وترابط، وتكامل المقاومة الفردية والمقاومة الجماعية، المقاومة «المعنوية» والمقاومة «السياسية»..

شعرنا لدى جيرار بما يشبه الجرح، خيبة عميقة جداً مرتبطة بالحاضر، لكنها ناجمة أيضاً عن تاريخ طويل. وهي خيبة تَسِمُ النظرة التي يوجهها إلى ماضيه، ومثلها النظرة التي يوجهها نحو مستقبله الشخصي أو مستقبل ولديه. خيبة تمد جذورها أيضاً في ذاك التوجّس بأن الأجيال العمالية الجديدة -المؤقتين- لن يكونوا دعماً، إلا بمعجزة، للأجيال القديمة، وأن أغلب أشكال النضال العمالي القديمة لن يمكن الرجوع إليها لأنها لن تطوّر بما يلائم الأوضاع الجديدة. وكلما التفت إلى الماضي، عاد إلى طريقة تغير وتفاقم شروط العمل في الورشات، منذ عشرة أعوام، وكيف تعاظم الضغط على العمال، حيث استقرت الريبة والوشاية، كيف تم تحطيم انسجام زمر العمل القديمة بنظام المكافآت خصوصاً، كيف انتهى الأمر برؤساء العمل على مختلف درجاتهم، من خلال إعادة تنظيم مجموعات العمل، ومن خلال حتى محاولة خلق تجمعات جديدة كيفما اتفق، إلى إقصاء ديناميكية الحياة الاجتماعية في أفضل الاتجاهات تلاؤماً مع مصالح أولئك الرؤساء. يبدو أن في ذلك ما يشبه حلقة مفرغة. لا يمكن القضاء على الذاكرة. وما يوضح ويقولب منظوره الخاص للعلاقات الاجتماعية في الورشات اليوم وما يعطي لوناً قاتماً لرؤيته للمستقبل معاينته لما آلت إليه آمال الماضي، خصوصاً السياسية منها، والكيفية التي تزعزعت فيها روابط الثقة القديمة. كما أن معاينة ذلك الفشل تنعكس أيضاً بشكل من الأشكال

على الماضي، فيتشجع موجهاً دفته نحو ما يشبه السخرية أو المرح الأسود الذي كثيراً ما يتوجه إليه هو ذاتياً.

وإذا كان العنف موجهاً ظاهرياً بادئ الأمر إلى «الآخرين» -زمرة قدامى الأصحاب، أبناء جيله-، فلا يمكن الامتناع عن التفكير بأنه أيضاً في جانب منه يحمل طابع التدمير الذاتي، وأنه يمكن دائماً بصورة من الصور أن ينقلب متوجهاً إليه هو شخصياً. ففي نهاية المطاف، إنّ زمرته القديمة، زمرته ذاتها (تلك التي كان عضواً فيها، هي)، تلك التي لم تكن على مستوى الآمال التي عقدها عليها.

ويسرد علينا واقعة «صدام» حصل بين بعض العمال في ورشته - هي حادثة من الحوادث التافهة التي يتألف منها نسيج الحياة في المصنع: بضع عمال على سبيل اللهو، تراشقوا على الوجوه بحفنة عزقات، فجُرح أحدهم جرحاً خفيفاً- ونستشف من سرده عنف معاناته حيال الشروط الجديدة للعمل. هو نفسه يرى على وجه الخصوص في هذه الواقعة مناسبة للتنديد القاسي بنذالة القدامى الذين، بغية تلافي «المشاكل» وتضامناً مع جيلهم، تبنّوا وجهة نظر رئيس الورشة فتواطؤا مع ظلم، قليل الشأن، بالتأكيد، ولكنه من جانبه، بنشوئه ضمن التقاليد النضالية، لا يسلّم بترك هذا الظلم يمرّ بسلام... وتبدو هذه الحكاية في حقيقتها بعيدة الدلالة باعتبارها تكشف الحركة التي تقود جيرار إلى الانفصال عن جيله من العمال، أصحابه، عن القدامى الذين، حسب رأيه، يتصرفون كحلفاء موضوعيين للإدارة- يقول «قررت ألا أكلمهم بعد اليوم» -وذلك بغرض التضامن (لكن بالكلام، للحظة عابرة وفي سياق سوء التفاهم...) مع الشباب، أو بالأحرى مع «ال».. شاب، الذي يبدو له في لحظة من اللحظات الوحيد الذي يقف بسلوكه فعلياً في وجه نظام الإدارة التي تحاول فرضه على المصنع وهو النظام الذي لا يستطيع، على الأقل وفاءً لنفسه، ألا يستمر في رفضه بكل الحزم الممكن.

على أن الوصف الذي قدمه، بعد دقائق، عن موقفه من عمل العمال

المؤقتين، وهم كثيرون في ورشته، يدل على أنه تخلى تقريباً عن كل وهم بخصوص إمكانية أن تدعم معركة الشباب يوماً ما معركة القدامى من أمثاله. فهؤلاء المؤقتون بعيدون عنه كل البعد فيما يشعر، لانخراطهم في محاكمات منطقية شديدة الاختلاف عن منطق عمال المصنع.

ما يتبقى آنذاك، ما يأتي تقريباً «بعفوية» ليحتل مركز الصدارة، هو التعبير عن كراهية عنيفة للمصنع، لرجاله، لرؤسائه، وهي كراهية تغذيها بطبيعة الحال جميع صنوف الإذلال المعانى منها اليوم، والشعور الإجمالي بالخيبة في الحياة المهنية، والخوف من العوز الذي يهدده هو وأهل بيته، مثلما تنميها أمور أخرى أيضاً، بتلك الخيبة الأعمق والأقدم عهداً: بفقدان الأمل المختلف النموذج، الأمل الجماعي الذي لم يقبل أبداً أن يتخلى عنه كلياً والذي لا يمل من رثائه.

مع عامل متخصص شيوعي

أجرى الحديث ميشيل بيالو

«ما عاد بالإمكان الثقة بأحد»

جيرار: (...) ما عاد من وقت ضائع، الوقت بأكمله مشغول منذ الدخول إلى المصنع حتى الخروج منه، ما عاد عندك فترات استجماع القوة، ما عاد بإمكانك أن تحقق ربحاً ما في الوقت [التلميح هو للطريقة التي كانوا «يريحون بها ثواني قليلة بفضل «فهلويات العمل»]، ما عاد بإمكانك تبادل النقاش (...) [صمت]. يمكن أن أقول بأن هذا بدأ في عامي 77-78، عندما شهدنا حلول الأسلوب الأمريكي الأمريكي وفق النظام الحديث العالمي.. الأمريكان هم من بدأوا بتنظيف كل شيء، هم من بدأوا توجيه العمل وفق معايير لا حيدان عنها، ومن ثم وصلت تجهيزات قياس الزمن لضبط وتيرة العمل.

كريستيان: فيما مضى، كان المشرف على إعدادك يحدد وتيرة عملك داخل مكتب بالمقارنة مع أزمنة قياسية، ثم من بعد ذلك يحضر فريق قياس الزمن لحساب سرعة تنفيذ المرشح للعمل، فهنا أيضاً، كانت مشاجرات لا تنتهي، لأنهم كانوا في كل مرة يحاولون محاصرتك، وضع بديل عنك، مع مراقب يحسب سرعته بدلاً منك لأنهم يعلمون أنك سوف تسرع إلى المنافسة الزمنية... كما أن المرشحين للعمل كانوا يخضعون لحساب سرعة العمل، لكن الصحيح أن هذا الأمر كان يطرح مشاكل لا تنتهي لأن أحداً لا يحب المشرفين على حساب الزمن، هذه ردة فعل جسدية! وقد ألغوا قياس الزمن،

حالياً، في مكاتب التهيج، فهم يكلفون فنياً بهذه العملية، ويقومون بها مباشرة في مكتب التتهيج، لكن العملية لم تعد ضمن الشروط نفسها: أنبوب الهواء لمشدات البراغي، مشكلة الجو المحيط بمركز العمل، فكل هذا أصبح في مركز الصدارة (...).

❖ وبالنسبة لحركات الفهلوة، لأبواب الشطارة التي كانت تسمح بتوفير وقت قليل..؟

جيرار: هذا، علينا نحن تدبير رؤوسنا في هذا المغطس! (...) نعم ثم إن لدينا الآن ما لا أعلم كم من أصناف السيارات.. 23 نوعاً من البيجو 405! وتقريباً 30 من البيجو 605.

❖ وأفترض أن جماعة مكتب التنهيج يسمّون هذا الأمر زيادة الوطأة ذهنياً...

جيرار: نعم، ثم إنهم في هذا الوقت يصنعون جميع السيارات للتصدير، وهذا يعني زيادة القطع التي يجب تركيبها، فهي أفضل صنفاً من السيارات المعدّة لنا، ويجب مبدئياً مراعاة الإيقاع المناسب لأداء مثل هذه الأعمال. ولكن هذا الإيقاع المناسب لا وجود له. مبدئياً، من كل أربع سيارات تكون واحدة منها مخصصة للسوق الأمريكية، لكن في حال عدم توفر هياكل، يضعون سيارتين أو ثلاث من مخصصات السوق الأمريكية على التوالي الواحدة بعد الأخرى. ونظراً لوجود عمل أكبر بكثير في هذه الحالة، ينهار الشباب تلقائياً... يصلون إلى الحد الأدنى في الأداء، فيأتي من يساعدهم لاستعادة الزخم {العامل الذي لا يعمل بالسرعة الكافية يجد نفسه ضمن دائرة عمل العامل الذي يليه على خط الإنتاج؛ يمكن لرئيس الورشة أن ينجده بالمشرف ليساعده على استعادة موقعه في السلسلة الإنتاجية}، عند توافر الطواقم، يكون الوضع هو هو لأنها الحرب المستمرة بين العناصر العاملة. العناصر الآن هي على الصفر: لـ 25 مركز عمل، 25 عامل، نقطة من أول السطر! العمال المتنقلون، العمال المساعدون، هذا أمر انتهى عهده، لكلٍ تصنيفه، لكن لكل موقعه شأنهم شأن المشرفين (...)

❖ أشعر بتشويق في فهم الكيفية التي تزداد بها الإنتاجية..

جيرار: في ورشة الهياكل في المصنع الجديد (HC1)، صحيح هذا جميل في نظر الزائر، كما أنه نظيف... لكن بخصوص شروط العمل والجوّ السائد فأسوأ حتى مما كنا عليه سابقاً. وفي نهاية الأمر، هل هناك حقاً.. الموجود هو الزجاج الأمامي والألواح الجانبية التي أصبح تثبيتها بالرجل الآلي (...).

كريستيان: الآن عندك «زلم» على سلاسل إنتاجية صغيرة... يقومون بجمع التحضيرات اللازمة للواجهة الأمامية، ولديك رجل آلي يقبض عليها ويركبها على السيارة. فأنت، أنت... ترى الجزء الكامل هذا وقد صار أمامك لكن عليك أن تعرف حق المعرفة أن عدداً غير محدد من العمال المساندين يكونون آنذاك منهمكين بالتنظيف والكشف في بداية الخط، وفي الـ «نازا» {قطاع من خط الإنهاءات القديم يطلق عليه تجاوزاً اسم النازا} وفي غيرها يكون أولئك العمال الذين يستنفذون قواهم مع العزقات الكبيرة (عيار7) التي يصعب القبض عليها بسهولة وهم يثبتونها على امتداد نهار عملهم.

❖ يوجد تقسيم جديد للعمل...

جيرار: يربحون كثيراً من جهة الإنتاجية لأن ما كان ينهك ويضني هو تأمين جميع المراكز، والانتقال المستمر من مركز لآخر، الخ.، هنا، في هذا المجال، يوفرون زمناً طويلاً بهذا النظام، فالشاب، لديه كل شيء بين يديه.

❖ إذن فهذا لا يغير أي شيء جوهري تغييراً فعلياً، هذا يوفر زمناً لكن مجمل عملية التركيب ما تزال تتم يدوياً...

جيرار: لا يوجد شيء من... في ورشة الهياكل التي أعمل ضمنها، الأمور عندنا من الجودة بحيث لا تنتهي الأعطال!! يوم الأربعاء كنا في المقرّ {النقابي}، وقد حضر حميد... لقد غيّروا موعد الوجبة الخفيفة المقررة، إذ أعلموهم عن حدوث عطل إضافي... في الأسبوع السابق، طالت الأعطال 150 سيارة، ويوم الأربعاء أصاب العطل 100 عربة خسروها، والأوضاع في تدهور موجع، لأنها أعطال مباشرة.

❖ هذه مشكلتهم الكبرى الأعطال في تلك الورشات؟

جيرار: نعم، لم يتمكنوا من حل مشكلة الأعطال، مشكلة الـ.. إنها مسألة تفاقم شروط العمل، أنا لا أعمل هناك، وإنما أنقل ما سمعتهم يتحدثون عنه. (...)

لا حديث لهم معنا إلا عن اليابان

❖ حدثني كريستيان أنك كدت تذهب إلى ورشة الهياكل الجديدة وأن هذا لم يتيسّر. كيف حصل هذا؟

جيرار: لنقل إنني دُعيت، مثل كثيرين غيري، للذهاب إلى الدورة الشهيرة، دورة مورفيلار ولمدة ثلاثة أسابيع. فمنذ اليوم الأول راحوا يتحدثون حصراً عن اليابانيين، عن السيارة عندهم.. لا حديث لهم معنا إلا عن اليابان.. (...) عن ضرورة العمل في زمر جماعية... لأن الرؤساء لم يعد القرار في أيديهم، الرئيس ما عاد له من عمل في الورشة، وإنما العمل للزمرة الجماعية. فمن أجل تحديد يوم القِدم أو العطلة أو الإجازة، الزمرة هي التي تقرر إن كان للعامل أن يأخذ يومه أو لا يأخذه، هكذا قدموا الأمر وعرضوه، الزمرة هي التي تقرر. أما الرئيس ففي المكتب، وما عاد له ما يهتم به: هناك مراقب هو همزة وصل بين الزمرة والرئيس.

❖ واستمروا يضربون ثلاثة أيام على وتر هذه الفكرة الجديدة للعمل داخل الزمرة؟

جيرار: نعم ، وبطبيعة الحال عن الجاهزية وكل شيء! أنا علقت أسطوانتي عند الجاهزية، فقلت إن من غير الممكن أن أحضر في أيام السبت {بعنف} لم أفعل هذا سابقاً، ولن أفعله أبداً. وكان ذلك في الفترة التي كنا خلالها بصدد تدارك الساعة والنصف العظيمة، من بعد الفيضانات، فقلت لـ ج. {المسؤول في التشكيل} «في هذه اللحظة لن أنفّذ الساعة والنصف كل مساء، ففي الساعة 21.30 سوف أنفّذ إضراباً عن العمل!» حينها ردّ عليَّ، «إذا كان الأمر كذلك، فأنا لا أحتاجك في

ورشتي، الله معك من حيث أتيت». لقد تم هذا بسرعة، وكنا في اليوم الرابع (..).

❖ في الواقع، إذا لم تصرح على المكشوف في الاجتماع أنك غير موافق على هذه الطريقة، يتركونك بسلام.

جيرار: نعم، نعم! اليوم الرابع كان يوم جاهزيتهم العظيمة.. يسألونك، «أيام السبت، أنت جاهز؟»-، فإذا قلت «نعم، من وقت لآخر»، فهذا يكفي؛ أما أنا فقلت «كلا»، فكان ذلك ... لأنني شخصياً كنت أعرف مآل الأمور، وفي ذلك اليوم، منذ الساعة 13- أنا استلمت الحديث عن الجاهزية. فقال لي ج. «يكفي، يكفي، سوف نتطرق إلى هذا!» وهنا، كان الموضوع واضحاً، فقال لي «مع السلامة، برّة!».

كلٌ يأخذ ورقة حسابه الشهري

ويتفحصها في زاويته الصغيرة.

❖ (...) وفي زاويتك عندك أيضاً بُدلاء؟ العلاقات معهم، كيف هي؟ لأنهم في الوقت نفسه يمكنهم الحصول على رواتب أعلى 2000 فرنك من راتبك؟

جيرار: الاثنان اللذان بجانبي ذهبا لقبض راتبهما هذا الأسبوع، أحدهما يتقاضى 9.300 فرنك والآخر أكثر من 10،000فرنك. ولكنني في النهاية لم أر كشف الدفع... هما قبضا هكذا، لكن لا أعلم كم أعطتهما بيجو حقيقةً! لكن يوجد ثالث يعمل قربنا، فقد أرادوا تثبيته لكنه لم يقبل ذلك؛ هو يعمل هنا بانتظار استدعائه للخدمة العسكرية، ولن يبقى هنا، ولم يقبل التثبيت لأنه يربح أكثر كبديل. لكن لا أعلم كم يقبض كل شهر.

❖ ليس من السهل بعد 20 أو 25 عاماً من القِدم أن ترى زيداً من الناس ينطلق إلى جانبك في العمل نفسه... يكاد العالم أن يكون مقلوباً بالمقارنة مع كل ما كان معروفاً منذ 25 عاماً حيث كان يسود نوع من احترام الأقدمية..

جيرار: إلى الآن ما تزال الأقدمية موضع شيء من الاعتبار.. لكن ما يسبب التفاوت الآن، دون أن نتحدث عن البدلاء المؤقتين، ما يسبب التفاوت الحقيقي بين الرواتب هو المكافآت الاختيارية، فأنا على يقين من وجود من يقبض من هذه المكافآت، 1000 فرنك في الشهر الواحد. لقد مضى على وجود المكافآت الاختيارية قرابة خمسة عشر عاماً، ومن العمال من يحصل عليها مرتين أو ثلاث مرات في العام.

❖ هذا لم يتطور أكثر في هذه السنوات الأخيرة؟

جيرار: الآن مشكلة المشاكل... أن الناس لديهم مكافأة اختيارية، فما عادوا يتكلمون عنها، ومن الصعب أن تعلم. حتى كشوف الدفع ما عادوا يظهرونها، فكل واحد يتناول كشف راتبه ويتفحصه في زاوية منعزلة... فيما مضى لم تكن مشكلة المكافآت الاختيارية موجودة ، فكنا نقارن ما نقبضه للتأكد من عدم وجود غلط... لقد دفعوا لنا اليوم حساب الشهر الثالث عشر. أنا، مزّقت المغلف، قرأت الكشف ووضعته على الطاولة، «هذا ما قبضت»، أما الآخرون، فوضعوه في الحقيبة، ومنهم من لم يفتحه في المصنع «كم كان ما قبضت؟»، «لا أعلم»، هم لا يعلمون، ولا يفضّون المغلّف إلا في البيت.

❖ من قبل، من كان يوزع الرواتب؟ رئيس فريق العمل؟

جيرار: نعم، والحال هو هو الآن أيضاً، سوى أن الرواتب تختفي في مغلفات مختومة. وما أثّر كثيراً في خلق الجو السيء السائد حالياً، هو مشكلة الزيادات الفردية ، فمن أجل 25 فرنك في زمننا، كان الناس مستعدين للقيام بأي شيء، كالوشاية..

❖ لكن هذا الأمر يحصل في جو الانخفاض النسبي للراتب الذي كنا نتحدث عنه منذ قليل على امتداد الثمانينات ...

جيرار: ناهيك عن أن الكشف الذي قدموه إلينا منذ فترة وجيزة عن المفاوضات بشأن الرواتب فيه «زيادة وسطية للمكافآت الاختيارية بنسبة 1،90٪ » وسطية! وسطية، وهي أعلى من الزيادة العامة للرواتب. ترى فكم

عـدد المستفيدين مـن وسـطي الـ 1،90٪؟ إذن فـهذه الزيـادة 1،90٪ ليسـت للجميع. وهـذه حـال الزمـرة، فـي حـال وجـود متقـاعس فيـها... لأن مكـافآت سلسلة الإنتاج لم تعد موجودة، الآن المكافأة أسبوعية: 75 فرنك في الأسبوع، شـرط تحقيق الإنتاجية، النوعية.. لكن قد يكون في الزمـرة مـن يتقـاعس بلادة وسهواً، فتطير مكافأة الزمرة بأكملها. هذا رهيب! لقد رأيت صاحباً يسكن هنا، وهو يعمل في الخط الآخر... هو مثلي، ليس عليه أي ممسك، لكنـه فـي أحـد الأيـام، كـان يحمل قفـازاً فـي يد، وفـي اليد الأخـرى لا شـيء، فطـارت مكافأته [روى لنـا حكايات عديـدة عـن مكافـآت أخـرى «طـارت»]. وعلمت في الأسبوع الماضي بشأن قصة المكافآت، أنـك إذا حصلت على يوم عطلة، وفاة، زواج أو ولادة، تطير مكافأتك: لا حساب إلا لأيام العمل الداخلة في القِدم المهني.. لكن إذا حصلت خـلال الأسـبوع علـى يـوم عطلـة بسـبب وفاة، فلا أعود مستحقاً للمكافأة، للمكافأة الفردية!

❖ لكـن أخطـر الأشكال هـو مـا يتصـل بـالزمرة العاملـة ككـل؛ عندمـا تضطر الزمرة للضغط في سبيل... فهذا من منطق الأمور... (...)

جيرار: خلال الأيام الأولى في مورفيلار، عرضوا علينا توقيت الدوام مع تغيبات أحدهم، كان لديه غيابات كثيرة، فهذا مـا يعرضونـه فـي البدايـة: التغيب (..) {مناقشـة بصـدد التغيّـب فـي الورشـات المختلفـة} لقـد اسـتمر التغيب في بعـض الورشـات فمـن الواجـب رؤيـة المواقـع الشـاقة فـي قسـم الهياكل!

❖ نعـم، غـير أن شـيخوخة النـاس الآن بالإضافـة إلـى الإرهـاق، مـن الأمور التي تؤدي إلـى تغيّب مختلف عن ذي قبل، مرتبـط فعـلاً بـأمراض لا يمكن كبحها...

جيرار: الأمر دائماً متشابه، فالناس لم يمتلكوا الجرأة بعد، ومنهم من يعمل حتى الرمق الأخير لأنهم دائماً حيال مشكلة المكافآت الاختيارية، لأنـك في حال تجاوز 7٪ من التغيّبات في السنة لا تحصل على مكافآت. أنا عندي تجربتي، لقد بقيت... وقـد تناقشـنا بهذا الصدد مع أخينـا ميشيل [منـدوب

العاملين في ورشته] وميشيل هذا نسخة مكررة لا تتغير، لأنه، هو أيضاً، لا يتخلف أبداً... وأنا بقيت عامين اثنين دون أن أتخلف حتى ليوم واحد، دون أن أمرض حتى ليوم... لم أطلب يوماً الخروج باكراً، ولم أتأخر يوماً، إطلاقاً.. لم يساعدني ذلك في الحصول على مكافأة! فهذا يعني وجود أمر آخر له تأثيره لمنح المكافآت الاختيارية. ليس عندي أبداً أي إنذار حول العمل، لا شيء... لأنني شخصياً أحترم مسألة الشغل... لا أريد أن يحاصروني بهذا الصدد. [بعنف] مسألة الشغل والغياب، لن يكون لهم عليّ هنا أي ممسك! على أن ممسكهم عليّ أفكاري، وغير قليل من «الأمور»... ربما أشتم رئيسي يوماً ما، لكن غير ذلك، لن يستطيعوا أن يحاصروني أبداً. على أية حال، ذات يوم [مخاطباً كريستيان] كان ذاك أثناء وجود ل. هل تتذكر؟ لم أعد أعلم ما حصل تماماً، أظن أنني طلبت يوماً فرفض.. وهو نفسه، كان يسجل مرضاً كي يذهب إلى الريف لترميم منزل هناك.. غالباً ما كان في حالة المرض خلال السنة وكان يحصل على مكافآت اختيارية كما كان ينال كل ما يريد! وقد قال لي حينذاك، «نعم ولكن جنابك لا تأتي إلى العمل يوم السبت!»

❖ هذا هو المعيار الذي كان لفترة طويلة...

جيرار: لكنهم لا يريدون سماع أي شئ عن ذلك، ففي المرة الأخيرة التي كان لي فيها حديث مع رئيسي، حديث الغاية منه أن نحصل على «علامات»، قال لي، «العمل يوم السبت، لا تأثير له إطلاقاً... لا تأثير إلا للإضرابات!»

❖ هذه هي الإشارة الموضوعية بالتأكيد، الارتباط مع بيت بيجو يتحدّد عبر هذا...

جيرار: لو لم يكن سوى، على سبيل المثال، التعطيل البسيط لمدة ساعتين في السنة وينتهي كل شيء! حسناً، دعنا من الحديث عن إضرابات عام89! فليكن معلوماً أن الذين عملوا الإضراب مضى عليهم حتى تاريخه عامين دون مكافآت اختيارية.

❖ هذه تعريفة الإضراب؟ هذا ما قاله رئيس الفرقة؟

جيرار: ضمنياً. ومن بعد الإضرابات حصل أمر آخر، وذلك أن غير المضربين نالوا مكافآت: منهم من حصل على 150 فرنك، ومنهم من كان نصيبه أقلّ وهم جميعاً لم يشاركوا في الإضراب! حينذاك جاء البعض يسأل مندوبي نقابة CGT، لا بد أن الضيق أتخمهم، «لماذا أخذ هو أكثر مني؟». فالاختلاف الذي كان من وراء التفاوت بين مكافآت هذا وذاك... فهذا بقي على سلسلة الإنتاج عندما مرت تظاهرتنا في الورشات بينما فرّ الآخر مسرعاً واختبأ في «المخراية»! فلذلك، من ذهب واختبأ حصل على مكافأة أقل من الذي بقي في خطوط الإنتاج! هذا صحيح! [يضحك الجميع]. فالذين لم يشاركوا في الإضراب عملوا لهم تصنيفاً في خانتين: صنف الطرزان الواقف بتحدٍ على خط الإنتاج، وصنف المخصي إلى حد ما، الذي ما كانت تواتيه الجرأة فذهب يختبئ في دورة المياه...

هذا هو الجو السائد

جيرار: أول أمس كان عندنا مشكلة.. فقد شتم رئيس الزمرة أحد الشباب. الرئيس المعني هو ميشيل (المندوب العمالي) وقد دافع عن الموضوع لأن الشاب وشوا به.. فعندنا شاب اسمه بيرو أصابته عزقة في عينه، فذهب إلى قسم التمريض مدعياً أن شيئاً ما لا يعرف ما هو أصابه في عينه، وهذا كل الموضوع. في اليوم التالي، وقعت للرئيس مشكلة مع شاب آخر، فكان هذا الشاب على الحمّالة الصغيرة المتنقلة، وكانت مقدمتها مرتفعة وقد وصل اللولب إلى الحد الأقصى، فانكسرت مقدمة الحمّالة وأصابته في ساقه، فقال للرئيس: «هل بك جنون، فلم يكن من الضروري رفع اللولب إلى النهاية! على أي حال، ليس لك أن تقول عني مغفل!» «لا أتهمك أنك مغفل، بل أنت هكذا، وإذا لم يعجبك الحال، نتقابل غداً». وفي اليوم التالي، جاء من يقول للرئيس «جناب بيرو إنما أصيبت عينه بعزقة، وكريستوف {الشاب} هو بنفسه من قذفه بها». حينذاك كتب رئيس العمل تقريراً حول الموضوع. كما أنني من جانبي قمت شخصياً بتحقيق صغير في

القسم لضآلة عدد العمال فيه، فهم هناك لا يتجاوزون العشرة، والحقيقة، كانوا جميعاً قد رموا حفنة عزقات في وجه بيرو من أجل الشغب والتسلية.. والواشي الذي نقل الواقعة إلى رئيس العمل رمى هو نفسه أيضاً حفنة من العزقات.. فقلت لحضرة أخينا ميشيل «هذا ما حصل، فهذا، وهذا، وذاك،... جميعهم رموا حفنة عزقات، فعليك الآن إجراء فحص خبرة على تلك العزقات والتعرف على العزقة التي أصابت عيني بيرو من بعد رفع البصمات عنها. وعليك أن تصعد عالياً وتخبر الآخرين بذلك». ثم إن الشاب ذهب وأخبر مدير القسم بما جرى، وقال له المدير «طيب، سوف نرى!» وهذا كل ما كان من موقف الإدارة. لكن أقل ما كان يجب أن يكون هو التسريح، فهذا خطير جداً جداً! لا بل «بهدلوا» أخينا بيرو لأنه لم يقل لرئيس الورشة حقيقة ما جرى معه، كيف جرى ذلك...

❖ وبيرو، هو عامل..؟

جيرار: نعم هو عامل مثله مثلنا. كانوا ثلاثة أو أربعة، وكلهم رموه بالعزقات على سبيل الشغب والتسلية... أما هو فكان وراء عربة نقل، كان يحضّر ألواح بلور فعندما رموه بالعزقات، طارت عزقة بخط مستقيم وخبطت عينه وهو يستدير نحوهم. على أن صاحبنا الذي بدأ برمي العزقات، هو الذي قام بالوشاية! هذا هو الجو السائد!

❖ كنت تتحدث عن الجو السيء... لكن ذلك الشاب، من يكون؟ عامل مؤقت؟

جيرار: هو شاب، كان في السابق مؤقتاً لكن ثبّتوه، عمره 25، 27 عاماً؛ أما الآخرون... بينهم جناب نقولا الذي عمره 52 عاماً، وحضرة شارل الذي عمره 47 عاماً، فليسوا من الأولاد (...) [بعنف] اعتباراً من هذا اليوم، حلفت ألا أتكلم أبداً مع هؤلاء الناس...

كريستيان: على أنك متفاهم، من جانبك، مع الأصحاب الأربعة الذين تعمل برفقتهم...

جيرار: نعم، أما الآخرون [بعنف] خلص، انتهى! لن يروني بعد اليوم

على طاولتهم. فليأتوا بزجاجة شراب في الأسبوع المقبل احتفالاً بالعطلة... ويمكن لرئيس الورشة أن يأتي بكأسه.. لأنه في السنة الماضية فعل ذلك... أنا، في لحظة التصافي سوف أعكر الماء ثم إنني.. في السنة الماضية قدم لي كأساً، وقد سكبته في سلة المهملات، أما هذه السنة، إذا قدم لي كأساً، فسوف أسكبه في الزبالة أمام عينيه! كلا، الموضوع أن الحال غير ماشي! أرجو أن تنتبه إلى هذا الأمر، فنحن تسعة نعمل حتى التلف سوياً ولا نكف عن تبادل الحقارات لا على التعيين، مع تعريض شاب من بيننا ليُعطى ركلة ويرمي خارج العمل علماً أن عمره لا يتجاوز الخامسة والعشرين، المفروض عدم حدوث مثل هذه الحقارات! فما هو الأمر الذي يدركونه؟ عدا عن أن الأمر غير واضح لديهم، فهل رمي شاب بعزقة أمر مستحسن؟ على أن الذي حصل أن الشاب استخف بالرئيس، بينما الآخرون أسرعوا لنجدة الرئيس.. أنا، أنا أعلم أني لم أعد أستطيع الانخراط معهم، لم تعد لي معهم أدنى علاقة. أنا أذهب إلى المصنع لأن..

❖ عندي انطباع أن عدداً كبيراً... يعانون من أمور مشابهة..

جيرار: ... وهذا ليس... هناك العمل، لكن العمل شيء، وأهم أمر هو الجو السائد... عند أول فرصة، لدى حدوث انخفاض في الإنتاج، إلغاء وظيفة، يستفيدون من الوضع للتخلص من أحدهم من أجل...

❖ من الأمور القاسية فعلاً في رأيي ألا يعود للعامل صاحب... فريد قال لنا هذا أيضاً...

جيرار: في الماضي، كنا خمسة عشر عاملاً، وكان منهم ثلاثة عشر، أربعة عشر تربطهم الصحبة؛ وكان دائماً عامل مثل النعجة الجرباء لكن...

❖ كان المنعزلون عن الصحبة أقلية!

جيرار: .. وكنا نستطيع أن نشعر بالثقة فيما بيننا بينما الآن...

كريستيان: هل تذكر الألزاسي العجوز، الكنّاس الذي كان يبيع السجائر؟ كان «يخرّينا» بإلحاحه كي يبيع سجائره لكن هذا لم يكن يمنع أنه عندما كان يضطر لترك بسطته كي يذهب ليتبّول، أو لأي أمر آخر، نحن

الذين كنا نتولى بيع سجائره نيابة عنه. هكذا كانت الأمور دائماً، بينما الآن لم يعد لها من وجود! إنها الروح الفردية المسترسلة إلى مداها الأقصى، وكل واحد ربي أسألك نفسي. كان يمكننا تحمل الجهد على خط الإنتاج تحديداً لوجود روح الصحبة والزمالة. الآن «الزلم» الذين ظلوا في سلسلة الإنتاج، الذين تزداد عزلتهم أكثر فأكثر، فعندما لا يعود بإمكانك تبادل الكلام مع خمسة، ماذا تفعل؟ تتحمل بمفردك، طيب أنت صلب لكن هذا لا يدوم سوى لفترة قصيرة، وأنت الخاسر في النهاية في هذه القصص، وليس الأربعة الحقيرون..

يركبون الباص بصدّارية المراقب

❖ الأصحاب تطايروا تدريجياً؟

جيرار: كلا، هم كسّروا الزمر العمالية. إذا أمكن إلغاء وظيفة بسبب تقلبات الإنتاج، وتيرة العمل... إذا كان صاحبان تتوافر فيهما الشخصية المميزة، إذا كان لهما تأثير على الآخرين، فعند أول فرصة سانحة يصرفون أحدهما فيجد الآخر نفسه وقد أصبح وحيداً. ورجوعاً إلى قضيتنا «العظيمة» قضية المكافآت الاختيارية، فلم يعد أحد يثق بأحد. أحياناً تثق بشاب ما، ثم تكتشف بعدها أنه روى تلفيقات للرئيس. أنا، أنا حصل معي هذا منذ فترة غير بعيدة... بالنسبة لي لا يغبّر هذا على حذائي، فلم أعد أرجو أي شيء في هذا المغطس ولكن... لم يعد بإمكانك أن تثق بأحد، إذ من أجل هذه المكافآت «العظيمة» أو من أجل الارتفاع من 180 إلى 190 نقطة (الحد الأدنى للتصنيف بالنقط لتحديد مستوى الراتب) من الشباب من هم على استعداد للقيام بأي شيء! الوشاية، أو أية حقارة! ورؤساء العمل لا يريدون إلا هذا.

❖ هناك مشكلة الرواتب، المال، لكن كل ما حدثتنا عنه، هو فعلاً رهيب. واختيار المراقبين، كل هذا... فهم ينتقون شاباً، فيعطونه 300 فرنك زيادة عن الآخرين...

جيرار: منهم كثيرون، تكفيهم صدارية المراقب... فليست القضية في زيادة الـ 300 فرنك بل لهم دور آخر... فالزوجة تعلّق الصدارية أمام البيت كي يراها الجميع: منهم من يذهبون إلى البيت.. يركبون الباص بصدّارية المراقب...

كريستيان: وهذا أوضح ما يكون مع «الحرازين الخضر» في المصنع الجديد، فيعود كل منهم إلى بيته بجلد «الحرذون».. فور حصولهم على ثيابهم تلك،.. إنهم يعملون بتوقيت مماثل لتوقيتي كما تعلم، تجدهم يخرجون من المصنع في سياراتهم بجلود «الحراذين» ...

جيرار: هذا، هذا مردّه صورة المصنع في الخارج... صورة «البرواظ» في الخارج... فإذا وسّخت صداريتك أو بنطالك، يجب ألا تخاف من تغييرهما، حتى لو اضطررت لذلك مرتين في اليوم، بسبب وجود الزوّار! فيجب خروج الزوار من الورشات وهم يحملون انطباعاً جيداً (...) هذا هو المصنع الجديد. وهم ينقشون هذا في عقول العمال! أنا، قال لي في يوم من الأيام رئيس زمرة، «أحلم بيجو، أفكر بيجو. في الليل مناماتي بيجو». هو عامل فني، وقد رأيته هذا الصباح، كان يحمل صورة سبع بيجو خلف ياقته مباشرة، مثلما كان سبع أصفر على سترته.

❖ ثيابه ماركة بيجو دون أي لبس...

جيرار: وأوجدوا أيضاً سترات مطرية بطاقيات، هل تذكرها؟ سترات دمغتها المميزة بيجو، بلونين الأصفر والأزرق، وخصصوها للتزلج، كانوا يرتدون سترات سباع [ضحكات]. هذه هي صورة الدمغة خارج المصنع، في مورفيلار، وهذا فظيع! لقد عرضوا علينا فيلم فيديو: شاب يذهب لشراء سيارة بيجو، تكون زوجته حينذاك في صالون حلاقة مع إحدى عاملات بيجو؛ كلتاهما تحت خوذة التجفيف، فتقول العاملة في بيجو، «أنا شخصياً سيارات البيجو لا تعني لي شيئاً، عزرائيل يأخذها، عندما أغلق باب سيارة بيجو، أوجه ركلة قوية له...»، فعندما عاد الشاب إلى بيته، قالت له الزوجة: «تعلم، سيارات البيجو مصنوعة لـ...سمعت كذا، وسمعت كيت..» فهرش

المغلوب على أمره رأسه ثم... ذهب لمراجعة الوكيل والوكيل أهملهما لبعض الوقت. أهملهما حتى لم يتمالك الشاب أن تحول إلى رينو...

❖ وبعد الكاسيت، ألقوا عليكم موعظة أخلاقية، هذا ما لا يجوز، وهذا ما يجوز؟

جيرار: أي نعم. مثلاً إذا كنا ثلاثة، أو أربعة، في مقهى ما، لا يجوز لأحدنا أن يقول: «فلقوا مؤخراتنا بدعاياتهم! نحن لا نغلق أبواب البيجو إلا بالركل الشديد!» بل يجب على الدوام تعداد محاسن ما نصنع، وإلقاء المواعظ حول الجودة حتى في الخارج. يجب علينا جميعاً، لم يقولوه لنا، لكن... يجب علينا جميعاً الظهور بصورة لائقة عند مغادرة المصنع.

❖ يريدون ألا تصدر عنكم أية مادة مكتوبة، أي أثر. هي من جديد ما يشبه «الوصايا العشر» التي يطالب متبعو دورة مورفيلار بالالتزام بها، وقد نشرت جميع الصحف هذا الأمر وهذا ما أثار إلى حد ما الاستنكار تجاه بيجو.

جيرار: آه أنا، أنا لم أتشرف بمعرفة هذا! فقد رحلت باكراً جداً! تمنيت فعلاً لو أنهيت الدورة، ولو لمجرد قضاء ثلاثة أسابيع مرتاح البال، الطعام وكل شيء... ليس الأمر هذا فقط، لكن... مؤكد أنهم في النقابة، أخونا بول، أو أخونا لويس، جميعهم قالوا لي.. كان عليك أن تبقى، أما أنا، فأردت الصراحة معهم، حتى لا تكون من بعد ذلك أدنى التباسات. فإن أرادوا الاحتفاظ بي، احتفظوا! كان عليهم أن... عندما عدت في اليوم التالي صباحاً، مدّ الرئيس في الورشة بوزه أمامي هكذا! أفترض أنه لم يرسلني إلى الدورة هناك إلا كي يتخلص مني؛ لا بد أنه خطر له: « صاحبنا هذا سوف نصفّيه، لن يخرّينا بعد اليوم بملاحظاته!» فعندما وصلت صباح الجمعة، راقبته من زاوية عيني، وقلت لنفسي، «عندما يراك... » لأنه لم يكن قد اطّلع على فصلي من الدورة... هناك، جاءته مثل طلقة بندقية عندما شاهدني أمامه، فشحب لونه.. قلت له، «لقد رجعت». هذا كل شيء. لم يسألني لماذا، لم يسألوني أبداً لماذا رجعت. في الأسبوع التالي، اعترضت

طريقه، وقلت له «لكن حكاية العمل الطوعي أيام السبت... عفواً فما هو معنى العمل الطوعي؟»، وقف لبرهة ببلاهة، «العمل الطوعي... كما تعلم يسألون العمال ومن ثم فالمتطوعون..» «نعم، لكن هناك، في الورشة الجديدة العمل الطوعي يفهمونه على غير ما هو مكتوب في القاموس؟» «أنا لا أعلم. لماذا؟» فقلت له، «لأنني شخصياً أعطوني ركلة فأصبحت خارج دورة مورفيلار لأنني أخبرتهم أني لن أحضر أبداً كمتطوع»... كان المفروض أن أقول لإرضائهم «ربما» أو «أنظر في الأمر» ... لكن بالنسبة لهم، مجرد قول ذلك يعني لهم شيئاً ما إذ يعلمون أن من بيننا الكثيرين... إنهم يقولون لنا «إذا لم تحضر في أحد أيام السبت، يجب أن ترتب مع رديفك كي يأتي بدلاً عنك »، فلا يعود رئيس العمل هو الذي يطلب، بل أنت المسؤول عن الأمر...

❖ من المؤكد أن ما نعلمه عن المصانع اليابانية نموذج مختلف من العلاقات الاجتماعية.. [نقاش حول اليابان، إيطاليا، إنكلترا].

جيرار: نعم، ولكن هذا يخيف الناس رغم ذلك! أما أنا، في الغد إذا تغير مدير مصنعي، وبدلاً من كالفيت، أصبح شخصاً صغير العينين، فهذا لا يغبرّ على حذائي. فليشتر ياباني مصنع بيجو... المهم هو أن نعمل في ظروف جيدة، وأن نحصل على راتب مناسب. بالنسبة لي، «لجهنّم » إذا غداً جاء محل كالفيت شخص ياباني، لأن اليابانيين كانوا على وشك شراء مصنع بيجو...

العمال المؤقتون؟ لا يهمهم من أمر المصنع شيء.

❖ والشباب الجدد، العمال المؤقتون...؟ العمل، هو صعب أيضاً عليهم برغم كل شيء؟

جيرار: نعم، ولكن بالنسبة لهم ليكن الطوفان! وعلى أي حال تعطلنا... أنا لم أتعطل إلا مرة هذه السنة... منذ خمسة عشر يوماً حين حصل إضراب العمال المؤقتين. لم يكونوا كثيري العدد، 15، 20، وعندما رأيت أن

الأمر لا يهمهم... قلت لهم،« يجب التوقف!»: فظل أربعة، خمسة عمال وأعادوا التصويت على الإضراب لليوم التالي، أربعة أو خمسة!

❖ إذن من بين المؤقتين هناك، كانت أقلية قليلة تلك التي شاركت في الإضراب؟

جيرار- من بين الـ 3000 مؤقت عند بيجو، كانوا 25 (...). الأوائل الذين حضروا، كانوا من قسم الميكانيك، وكانوا أربعة أو خمسة... في اليوم التالي. عمّموا شعار الإضراب، فذهبت أشارك، هذا طبيعي، درنا حول قسم الهياكل، الميكانيك، فاستطعنا ضمّ قرابة خمسة عشر عاملاً، وهذا كل العدد. لقد أعادوا التصويت من أجل اليوم التالي... وفي اليوم التالي، في صالة الندوة كانوا ستة تقريباً، فقلت، «أنا عائد إلى العمل! لن نلعب دور المهرجين ونحن 15 فقط»،،أربعة عمال مؤقتين، مندوبان، مناضلان أو ثلاثة، لا يمكننا رغم كل شيء أن نمضي... وذلك المساء، أعادوا التصويت من جديد من أجل اليوم التالي. المفروض الجدية رغم كل شيء! وبالمناقشة معهم، كانوا غير مبالين على الإطلاق، «نحن هنا برسم الانتظار، يوم يتخلصون منا بأهون سبيل، لا تعود لنا صلة بأي شيء!» لا علاقة عميقة لهم، ولكنهم لم يشاركوا في الإضراب. ومن بعد ذلك، قذفوا خارجاً عمالاً مؤقتين لم يشاركوا في الإضراب، والعامل من قسم الميكانيك الذي كان يحرّض ما يزال في المصنع...

❖ اتخذت بيجو عقوبات بحق المحرّضين؟

جيرار: كلا...منهم واحد هذا الأسبوع، يوم الاثنين أو الثلاثاء، جاء في الساعة الخامسة فقال له رئيسه: «مع السلامة ». كان الشاب قد جاء في الساعة الخامسة لينصرف لعمله، ما كانوا قد أعلموه من قبل، ولا قالوا له أي شيء. «مع السلامة» فمضى في حال سبيله بعظمة، وما كان له دخل بشيء. فذهب لمقابلة المدير في المكتب وقال له، «على كل حال، ما كان بنيّتي أن أقضي عمري في {كرخانتك}!». معه حق، لكن ما ألومه عليه أنه كان يستطيع أن يحضر عندما تقررت حركة الإضراب.

❖ لم يكن قد شارك؟

كريستيان: كلا، لم يشارك على الإطلاق في أي شيء!

❖ عندما كنتم تدعونه للمشاركة كان يقول إن الأمر لا يعنيه؟

جيرار: كلا، هذا لا يعنيهم، هذا لا دخل لهم به إطلاقاً. إنه مرور طريق بالنسبة لهم.

❖ هم شباب من خارج المنطقة أم...؟

كريستيان: هو، من عندنا، يأتي للعمل على دراجة..

❖ ألا يوجد أي شكل من التسييس لديهم؟

جيرار: منهم نفر قليل...أولئك الذين رأيناهم في قسم الميكانيك.. كلا إطلاقاً، لا شيء لديهم، لا شيء! بالنسبة لهم، كل يوم بيومه...لقد طردوا أحدهم منذ وقت غير بعيد، وهذا الصباح رأيته راجعاً... رجع هذا الصباح بصفة مؤقت عند بيجو كي يزور قسم الهياكل بينما كان يشقى سابقاً تحديداً في مواجهتنا. سألته ماذا يفعل عندنا، فقال لي، «غيرت ربّ عملي».. عندما كان يأتي من الصباح، غالباً ما كان يصل متأخراً... ذات صباح وصل في العاشرة، كان قد كبس عليه النوم.

❖ طردوه من بعد ذلك؟ قطعوا عليه مهمته الأولى؟ وعاد يتعاقد مع رب عمل آخر؟

جيرار: تماماً، بالضبط... لا أعلم في أي قسم كان، في CIE، في RMO، أم في BIS ... المهم، غيّر رب عمله وعاد إلى المصنع ... (...) وما «يقلّب الأمعاء» أيضاً أنهم يتخلصون من جميع المؤقتين عند اكتمال 18 شهر عمل. في الوقت نفسه، تأتي «صبّة» مؤقتين جدد، هذا الصباح كانوا قرابة الثلاثين، بالأمس أيضاً. لأن المصنع، في حال تجاوز 18 شهر عمل والاحتفاظ بالعامل لأكثر من ذلك، يصبح ملزماً بتثبيته...

❖ العلاقات مع المؤقتين طيبة؟..

جيرار: نعم، طيبة، لكن منهم بعض أصحاب الأمزجة العجيبة،

فأولئك يعملون مع سماعات آلة تسجيل على الأذنين طيلة النهار: إنهم أغرار!

❖ هذه السماعات مقبولة أثناء العمل؟

جيرار: نعم. وأمر لا يصدق عدد الأغرار الذين ينهمكون على هذه الصورة طيلة نهار عملهم.

❖ معظمهم معه هذا؟

جيرار: عندك 60٪ من المؤقتين يضعون على آذانهم. وأشعر أنهم لا يريدون الاندماج أيضاً (...) لقد تعرضوا لمشاكل بسبب هذا لأن الشباب يظلون يومين أو ثلاثة أيام و... هوب! عندما يذهبون في عطلة نهاية الأسبوع، لا يعودون إلى العمل، يجب أن نفهمهم. لكن معظمهم لا يبالون عندما يرون كيف يسير العمل: هم بيننا، وعندما ينهون عقدهم، يذهبون إلى مكان آخر، على أنهم لا يجدون رغم هذا دافعاً لخوض المعارك، اليوم عندهم هو اليوم، وغداً هو يوم آخر.

❖ لكنهم يمكن أن يتناقشوا معك..؟

جيرار: نعم، يناقشونك لكنهم لا يبالون بشيء.

❖ مستقبل الورشة لا يعنيهم؟

جيرار: كلا، ولا حتى مستقبلهم هم أنفسهم. أعمارهم أحياناً دون 20 عاماً، فلا يفكرون بشيء. اليوم الحاضر هو كل شيء عندهم...

❖ بخصوص النقابات الأمر نفسه؟

جيرار: نعم، على أي حال النقابة، السياسة، المشاركة في الانتخاب، كل هذا لا يخصهم.

❖ على أن إضراب عام 89 أثّر عليهم؟

جيرار: نعم، على الذين كانوا هناك خلال الإضرابات... وأظن لو تكرر الأمر الآن، فربما يتغيّرون...

❖ تظن أنهم سينخرطون بأعداد أكبر في الحركة؟

جيران: نعم لأنهم رأوا ما حصل، أضف إلى ذلك ظروف العمل، كل هذا، لأنهم أعطوهم وعوداً أيضاً. وعود تثبيت، وعود ترقية... «اعملوا كل يوم سبت وسوف نثبتكم..» كما أنهم يدركون أنهم يقتربون من 18 شهراً وأنهم سوف يصبحون في الشارع. منهم عامل يشتغل معي. وقد قدم اختبار المعلومات بعد ثمانية أيام من وصوله، فقال له رئيس الورشة، «سوف نثبّتك...» الآن، لم يعد الأمر وارداً قبل الإجازة الصيفية، قد يكون هذا في شهر أيلول ربما... وأرجو أن تنتبه إلى «ربما»! إنه خباز حلواني، فهو يبحث عن عمل ومن أجل إيجاده...

حزيران 1990

روزين كريستان

شغل الليل

دانييلا، عمرها 32 عاماً، وهي ابنة جولييت وميلو ك. من صغار الفلاحين وهم أقرب جيراني في آفيرون. عرفتها عندما كان عمرها عشرة أعوام وكنت أراها أكثر من مرّة كل عام إلى حين رحيلها باتجاه باريس، ثم تناقصت لقاءاتنا تدريجياً فيما بعد.

دانييلا منبتها من «طريق الحقول»، و«طريق الحقول» هي المقابل للسفح الذي ينهض فوقه وسط قرية «سان هيبوليت»، وقد أطلق هذا الاسم على الحقول المطلّة على مضائق نهر «تروبير» وبتحديد أدق، في المنطقة التي تؤدي إلى بحيرة السدّ. كان فلاحو «طريق الحقول» ميسوري الحال نسبياً حتى الحرب العالمية الثانية، فكانوا يعيشون من إنتاج الثمار ومن تجارة الأشجار المثمرة الحساسة، الكرز، الخوخ، ومن جمع الكستناء والجوز: **وكان عندهم بعض الكرمة، ويربّون بقرات قليلة، فكانت الجمعية التعاونية** تجمع إنتاجهم من الحليب كما كانوا من وقت لآخر يبيعون عجلاً. أما اليوم، فلم يبق سوى بعض الأزواج أو بعض الأرامل في البيوت العتيقة لـ «طريق الحقول» التي كانت «دروب العربات» فيها مقصودة حتى سنوات خلت اختصاراً للمسافة من كوخ إلى آخر، لكن تلك الدروب «أغلقت» كما أهملت حقول الكرمة الصغيرة، وراح العوسج والعلّيق يغزو الأراضي، أما الأبناء فأصبحوا في باريس.

دانييلا، أصغر أبناء «طريق الحقول»، كانت آخر من ظلّ هناك: شقيقها موريس، الذي يزيدها عشرة أعوام، دركي في باريس؛ شقيقتها إيفيت تزوجت شاباً من المنطقة قبل أن تستقر في باريس، هي أيضاً، كمشرفة على مقهى هي وزوجها. لم تكن دانييلا مستعجلة للرحيل؛ فمن بعد دراستها للسكرتاريا في «روديز» ظلت عامين في البيت، مؤمّنة العمل من وقت لآخر في مزرعة، مساعِدة لأهلها، مترددة على جميع الحفلات الراقصة في المنطقة: تعترف أنها «استفادت الكثير» من ذلك وتقول إن هاتين السنتين كانتا من أسعد أوقاتها؛ وقد رحلت وفي نفسها حسرة. دانييلا اجتماعية مرحة، ذات غنج ودلال، تقصّ شعرها على نمط «تسريحة اللبوة» وتحب شراء الملابس لنفسها من الأسواق، يوم الأحد، عندما تكون قادرة على الشراء.

حددتُ موعدي معها هاتفياً، ولم تعبّر عن دهشة كبيرة لأنني طلبتها على الهاتف، فنحن قد تلاقينا مصادفة في «آفيرون» منذ أسابيع واتفقنا على اللقاء ذات يوم في باريس. كانت في إجازة مرضية إثر عملية جراحية وبدا عليها السرور عندما طرحتُ فكرة قضاء ساعات معي؛ بكل تأكيد، كان عليّ المجيء إلى «إيلي» لرؤية شقتها، وهناك قالت إنها سوف تستقبلني، وتقدم لي الطعام، وتطلعني على ألبومات صورها وخاصة ألبوم زواجها الذي لم أشاهده من قبل، وإن بإمكاننا الاتصال بوالديها، باختصار، ما كان لي أن أشعر بالحرج: فهي تدعوني لزيارتها.

وقلت لها أيضاً إنني أحب أن أسألها -من أجل تحقيق أكتبه ضمن نطاق عملي- عن صعوبات الحياة في باريس، على وجه التحديد بالنسبة لشخص قادم من الريف مثلها. فهل تقبل أن تحكي لي عن انتقالها من كوخ «آفيرون» الريفي حيث ولدت، إلى مركز فرز البريد في باريس في الدائرة /15/، «الشجون» التي عانت منها في البدايات وهو ما كانت والدتها تحدثني عنه في كل عطلة؟ فأجابتني على الفور بنعم، فذاك كان صعباً لكن «ليس إلى هذا الحد، لأن الصعوبة بالنسبة لريفي ينزل إلى المدينة أقل من

الحالة المعاكسة، لأن الريفي يجد وسائل الراحة؛ أم ابن المدينة الذي قد يذهب إلى الريف، مثل آفيرون، فقد لا يتمكّن من تحمّل ذلك»

لا توجد وسيلة نقل مريحة للذهاب إلى «إيلي» التي هي تجمع سكني متواضع، قيد التوسع السريع، وتحيط به المناطق السكنية. جاءت دانييلا تنتظرني عند محطة الـ RER(*): فقد حددنا الموعد على رصيف المحطة، وصبرتُ أكثر من نصف ساعة قبل أن أراها قادمة وهي في غاية الحرج، كانت قد انتظرتني على رصيف آخر، حيث تنزل هي شخصياً في الصباح عندما ترجع من عملها. أخذنا من بعد ذلك حافلة، أمام المحطة، فاجتازت بنا مسرعة الضواحي الأنيقة، ثم قطعة من أتوستراد. قبل وصولنا إلى «إيلي»، لمحنا من بعيد الأبراج السكنية المرتسمة بشكل غريب على خلفية من رافعات وورشات بناء (أمكنني أن أرى، لاحقاً، أن بعضها كان قيد إعادة البناء) وحكت لي دانييلا كيف يقول أصدقاؤها مازحين إنها «تسكن في شيكاغو».

طيلة المسافة التي قطعتها السيارة، حدثتني دانييلا عن زوجها، سيرج، الأصغر منها بخمس سنوات، وهذا فيما يبدو يسبب لها الكثير من الانشغال، دون أن تعترف بذلك، هو ابن صاحب مرآب في فرساي، لم يرغب في متابعة دراسته بعد البكالوريا، فقد كان مشغوفاً بالشطرنج ويريد أن يكرس نفسه كلياً لذلك؛ هو لاعب مصنّف يشارك في مباريات؛ وقد فاز مؤخراً بكأس يحتل موقعاً بارزاً في غرفة الجلوس في شقتهما. من الواضح أنها معجبة به، وتقول عنه إنه مثقف: فهو يشرح لها أموراً كثيرة لم تكن تفهمها قبل اللقاء به لكن بالمقابل عليها أن تقرّ أنه ليس قوياً جداً في الناحية العملية من حياتهما المشتركة فهي تحتضن هذه الحياة تقريباً بسلطة شبه أمومية.

وفعلاً فقد خابرها سيرج أثناء تناولنا للغداء كي يسألها عن رأيها في سعر 150 فرنك لغرفة في الفندق في ليون حيث كان عليه أن يذهب هناك في عطلة نهاية الأسبوع القادم لحضور كأس العالم للشطرنج، وكان لزاماً على دانييلا أن تطمئنه المرة تلو المرة، ثم، بعد أن علّقت السماعة، استدارت

(*) RER: قطار ينطلق من باريس ليخدّم المناطق الريفية المحيطة بها. م.

نحوي باعتزاز كبير: «المسكين، إنه لطيف، يأخذ رأيي دائماً، هو يستطيع أن يصرف كما يريد، فهو يكسب أكثر مني» (تكسب دانييلا 6200 شهرياً، وسيرج 6700).

في الإياب كما في الذهاب، لاحظت أنها كانت معروفة لدى جميع سائقي السيارات الذين كانوا يتحدثون معها بزمالة وألفة أولئك الذين، دون أن يكونوا زملاء عمل، يتلاقون بشكل منتظم بحكم حياتهم المهنية، خارج أوقات الدوام العادية، بينما يكون الآخرون في بيوتهم. وكان يبدو عليها التمسك بهذه المودة الخفية.

يجب السير لعشر دقائق تقريباً ومحاذاة بعض الأبراج التي بعضها مهدّم وبعضها الآخر قيد الترميم، وذلك للوصول إلى البناء الصغير ذي الطوابق الأربعة حيث تسكن دانييلا؛ البناء بعيد قليلاً عن باقي الأبنية، في دربٍ تنمو فيه بضع شجيرات. الشقة في الطابق الأول: غرفة جلوس وغرفتا نوم إحداهما للأصدقاء (تمنى سيرج أن يجعلها صالة للتمرينات العضلية لكن دانييلا فضّلت أن تكون غرفة نوم للأصدقاء لتوضع بتصرف الأهل الذين قد يحضرون إلى باريس، وكذلك الأصحاب). في غرفة الجلوس العديد من مواد التزيين الصغيرة ومن الصور، وبالأخصّ صور عائلة دانييلا وصور زواجها، مع طاولة قليلة الارتفاع، كلها من الزجاج جعلت دانييلا ديكورها الداخلي نباتات زينة سميكة الأوراق بين قطع صخرية منتقاة بعناية. أما المطبخ فمجهز أحسن تجهيز بالأدوات الكهربائية، والخلاّط، والفرن بالأمواج القصيرة (هدايا من والدة سيرج التي تهتم كثيراً بالمطبخ).

عندما وصلنا، كانت الطاولة جاهزة مع زجاجة من خمر التفاح، لاقينا صعوبة لا بأس بها لفتحها، وهي مشتراة على شرفي، وكانت مستقرة في مركز الصدارة؛ على امتداد الوجبة، كانت دانييلا مشغولة البال وتريد أن تعرف إن كان الأكل يعجبني، وتكرر المرة تلو المرة ألا أشعر بالحرج، وتختفي باستمرار في المطبخ لتحسين تزيين اللحم المشوي بإضافة قليل من الصلصة الآنية التحضير أو لتجلب لي مقبّلاً قد يروق لي. كانت تقول لي «كلي، كلي،

تناولي الخبز، اسكبي مرة ثانية»، فكانت أحرص على القيام بدورها كربّة منزل مما هي حريصة على الرد على أسئلتي التي كانت تبدو لها في غير محلها. وأفخم ما في ذلك الغداء كان الجاتو الذي صنعته بنفسها وفق طريقة خاصة للحفاظ على الوزن تعلمتها لدى مجيئها إلى باريس بناءً على نصيحة زميلةٍ لها، حين وجدت نفسها أكثر سمنةً مما يجب.

تتكلم دانييلا بصوت مرتفع جداً خاصة عندما تخاطب أناساً لا تألفهم ويثيرون فيها الحرج، كما لو كانت تخاف ألاّ يُفهم ما تقول؛ وهذا ما يجعلها تشرح أكثر من مرّة الشيء نفسه، بل تتحدث بلغةٍ غير سليمة كما لو كانت تخاطب أجنبياً قليل الفهم إلى حد ما. وكانت لهجة الجنوب الغربي واضحة بقوة في كلامها. عندما كانت صغيرة، كانت تتكلم «الفرنسي» في المدرسة واللهجة المحلية (الباتوا) مع أهلها: وعادة الكلام باللهجة المحلية مع العائلة، باستثناء السهرات، ضاعت منها عندما رحلت، هي أصغر إخوتها، إلى «روديز» لإتمام دراستها للسكرتاريا، من بعد الشهادة الإعدادية BEPC. لكنها تنتقي بعناية كلماتها بحيث تبدو متحذلقة أحياناً! استخدام «ما» كأداة نكرة، التوضيح الزائد في بعض الكلمات كقولها «بلغ» بمعنى دخل، أو اختراع كلمات جديدة مثل: «استتبه»، وهذا ما يعطي لحديثها طابعاً غير شخصي. وبالطريقة نفسها، أظهرت اهتماماً بالغاً بدقة وصف الحركات التي يجب عليها تأديتها في عملها أو تسلسل مواقع الموظفين في البريد، باذلة جهدها كي تعطينا في الوقت نفسه المصطلحات المختصرة بالأحرف الأولى وتفصيلها والأعمال المنطبقة عليها في واقع الحال. لكن عرضها للعالم المحيط بها في مركز فرز البريد ظل بيروقراطياً، كما لو كانت دانييلا تستظهر درساً تعلمته في بداياتها، أو كما لو أن رؤساءها كانوا في أبراج يتعذر الوصول إليها، أو بالأحرى كما لو كانوا لا يعنون لها أي شيء.

طوال الحديث اشتكت من الظروف المادية للخدمة الليلية لكنها عرضت برعب تجربتها النهارية. رغم نصائح عائلتها وزوجها تابعت عملها الليلي ويبدو عليها أنها وجدت من زمالة رفاقها في الدوام الليلي دواءً مواسياً لشعورها بالنفي.

مع موظفة في مركز فرز بريدي

أجرت الحوار روزين كريستان

«لا أرى الشمس أبداً»

❖ عملك عادة في الليل؟

دانييلا: نعم، في الليل.

❖ من أي ساعة إلى أي ساعة؟

دانييلا: من التاسعة مساء حتى الخامسة صباحاً، هو إيقاع يجب الالتزام به. أذهب من هنا في حوالي الساعة السابعة، أخابر أهلي...

❖ تتصلين بهم كل يوم؟

دانييلا: تقريباً في جميع الأيام، مكالمات قصيرة لكنها منتظمة، هم اعتادوا على ذلك؛ ينتهي العمل في حدود الساعة الخامسة -في الخامسة والنصف أستقل أول مترو، بالنسبة لامرأة، الوضع محرج... المحبة واجبة، وهي شيء خاص. في البداية، كنت موزعة بريد، وقمت بالعمل منذ عام 82... أيار 82.

{تشرح من ثم لماذا فضلت ترك توزيع البريد للقيام بالعمل الليلي}

دانييلا: يعني لوجود امتيازات لا بأس بها، إجازات لا بأس بها ثم نستفيد من تبادل العمل مع الزملاء: فإذا وجدنا من يحل محلنا، يصير

عندنا، بالإضافة إلى بعض أيام العطل، فترة عطل أكبر، أي يمكننا أن نعمل أسبوعين بدوام «مسرّع» من بعدها نقضي أسبوعين استراحة.

❖ ما معنى العمل بدوام مسرّع؟

دانييلا: أحل محل زميل. نحن نعمل ليلتين من أصل ثلاث، فالليلة الثالثة بدلاً من أن تكون للراحة أشتغل محل زميل آخر، وهذا معناه أن هذا الزميل يأخذ محلي عندما أريد، ويحصل أحياناً أن أستفيد من يومي عطلة إضافيين لأنني أحياناً أشتغل الأحد مساءً فيصبح لي الحق بثلاث ساعات ر.ت.، أي راحة تعويضية؛ ونظراً لأن العمل من التاسعة مساءً حتى منتصف الليل يوم الأحد يوجب المكافأة فنستفيد يوم عطلة عن كل ثلاثة آحاد: عندما نريد الحصول على هذا اليوم، المستحق لنا في ذمة الإدارة، نطلب إلى زميل أن يحل محلنا، بالإضافة إلى عطلتنا العادية... عدا عن الوقت الحر المتوفّر عندنا بكثرة. قبل تعرفي على سيرج، كنت أحنّ قليلاً إلى قريتي، فقلت لنفسي، هذا يفيدني في الذهاب إلى آفيرون مرات أكثر، فالذهاب إلى آفيرون في عطلة نهاية الأسبوع فقط أمر غير ممكن.

❖ في ذلك الوقت تعرّفت على سيرج؟

دانييلا: كلا، تعرفت عليه فيما بعد؛ تعرفت على سيرج عندما خدمت ساعات إضافية في عام 84. يعني، تقولبت على عمل الليل، لم يكن الجو منفّراً، فقلت لماذا لا أظل على هذه الوتيرة؟ لم يكن سيرج راضياً تماماً عن عملي في الليل لكني قلت لنفسي، لقد قبلت حرتقات كثيرة، سوف يقبل هو أيضاً و.. دار الدولاب. الجو العام في الشغل.. باستثناء الوقوف، وصحيح أن الكائن البشري مركّب بحيث ينام في الليل ويعمل في النهار.. يعني هناك «خربطة في التنظيم العضوي لكن.. جو الشغل.. وكل هذا.. يعني، أنا مرتاحة..»

مركز ثابت، وقوف، وقوف

❖ كيف يجري الشغل؟

دانييلا: عندما تدخلين، عندك صناديق من الفولاذ، صناديق، يعني،

مثل الصناديق الصغيرة... وهناك طاولة اسمها «طاولة الفتح»، فهنا تفرّغ سيارات الشحن حمولتها، فيوجد عمال تفريغ أو مشرفون على التغريغ -نعم عمال تفريغ- فهم يفرغون الشاحنات، أكياس بريدية ضخمة، يضعونها على ألواح هي عربات متنقلة، فيجلبونها أمامنا على طاولة الفتح، حينها أحدهم يفتح الكيس والآخرون، من حول الطاولة، يفصلون الرسائل الكبيرة الحجم عن الرسائل الصغيرة، ثم يضعون الرسائل الصغيرة في علب، أما الرسائل الكبيرة الحجم فيضعونها في سلال، سلال معدنية كما تعرفين وهنا يبدأ الفرز في علب صغيرة.

في المرة الأولى التي دخلت فيها هناك، قلت، يا إلهي فما هذا، هذا ضخم، هذا مصنع... لا، هو شيء يبعث الرهبة... هذا فسيح ممتد... ومن بعدها، الرسائل الصغيرة في علب بلاستيكية؛ ثم في رفوف صغيرة: وهنا عندك خدمات متنوعة... لاستلام الرسائل المضمونة... التحويلات (المصرّح عنها، فهذه في كيس مع بطاقة حمراء على الكيس، فهؤلاء نسميهم «الحمر»، أو الطرود وهذه يتم فرزها بوجود مشرف أعلى ع.خ.ع، عنصر خدمة عامة، فهذه تفرز في حجرات جانبية ويتم تسجيلها، جميع هذه الرسائل، على دفتر صغير فعندما يتم توجهها إلى التوزيع يلزم الحصول على توقيع المرسل إليه.

ونظل بوضعية ثابتة وقوفاً، وقوفاً أمام الآلية، خلال أربع ساعات، يعني تفرزين بريد الدائرة 15، هذا هو عملنا الوحيد نحن، ولازم الاطلاع، يعني، كيف هو شارع فو جيرار... فالموزع الواحد لا يستطيع أن يوزع من رقم (9) في هذا الشارع وهو يقع في الدائرة 6، حتى «باب فرساي»: فهذا الشارع متوزع في أكثر من حي، فلنقل بأرقام المساكن 5 و 12... أو 14 و 20 ومن الضروري معرفة هذا. يجب علينا أن نعرف أن هذا الشارع أو ذاك امتداده من إلى هذا الرقم أو ذاك، وهذه موزعة في رفوف.

❖ يكون البريد مفروزاً نوعاً ما عندما يصل إلى طاولة الفتح، فليس عندكم باريس كلها؟

دانييلا: مفروز بما يخص الدائرة 15 لكن توجد أيضاً أخطاء، مثلاً رسائل يجب توزيعها في الدائرة 17 لكنها تصل إلى الـ 15، فهذه «اتجاهات غلط» أو الرسائل التي وضع المرسل عنوانها لا كما يجب، مثلاً، كتب بولفار راسباي، الدائرة 15.

❖ كم رفاً عليك أن تملئي، أنت، أمامك؟

دانييلا: 66 رفاً، زائد ثلاثة تحت عنوان «قطاعات» و«البطاقة» والـ«سيديكس»، «الاتجاه الغلط»، لا، هناك أكثر، لنقل 75 رفاً وزملائي العدد نفسه؛ لكن، بالمقابل، هناك قسم آخر، أقصد قسم «الوصول والرحيل» كما يسمونه، نحن في قسم «الوصول»، أما «الرحيل» ففي ملحق، مقره شارع فرانسوا بوفان، هناك العمل آلي: فهنا قسمان PIM وHM (...) من تصنيع توشيبا، هي آلات، أجهزة كومبيوتر، هنا يكون التشفير، ويوضع البرنامج في الـ PIM، ويعني، القائم بالعمل، من جانبه يسجل مثلاً 75014، فتحصل دفعة، ومن بعدها تصل الرسائل إلى الـ HM (...) في ... يعني... وتمر الرسائل إلى الرفوف المقطّعة... لا أعرف كيف أعبر وأشرح لك بوضوح... هذا، هذا قسم الرحيل.

❖ وأنت واقفة كل الوقت؟

دانييلا: نعم، الآن أعطوا الأمر أهمية، لأن من الموظفين من هم في عمر ما، فهم منذ × زمن يشتغلون في الليل، ولديهم مشاكل في سيقانهم، فيراجعون أطباء الأوردة، وكل هذا... فأعطوا الأمر أهمية وانتبهوا لضرورة استخدام التابوريه، تابوريه متناسبة مع الرفوف المقطّعة، لكن الأمر ليس ممكناً بهذه السهولة لأن الرفوف لدينا قديمة؛ قد يكون بالإمكان وضع رفوف جديدة لكن الرفوف عديدة، سوف تحدث تقاطعات كثيرة، لكنه مشروع، تطويع المقاعد الخاصة بالرفوف، لأنهم أحياناً يضعون مقعدي تابوريه الواحد فوق الآخر، كما تعلمين، مقعدي بار الواحد فوق الآخر، ويجلس الموظف، إننا نسبياً نعاني من التعب.

❖ أنتم تستريحون في منتصف الشغل؟

دانييلا: عندنا استراحة قصيرة من الواحدة إلا ربع إلى الثانية لتناول وجبة خفيفة أو للاستراحة.

❖والزملاء، كم عددكم؟

دانييلا: تقريباً في حدود الثلاثين.

❖ تعرفينهم جميعاً؟

دانييلا: نعم، لنقل إن هناك تنقلات، لكني أعرفهم منذ فترة طويلة... يوجد جو شغل، فنحن في النهاية متقاربون... أنا حتى لي زميل... هو جامع طوابع كبير، يعشق الصور المتحركة، وعنده هوايات لا بأس بها.

يمكنه أن يصير مستقبل رسائل...

ثم رئيس وزارة... ومن جميعه!...

❖ و، يوجد رؤساء عليكم؟

دانييلا: نعم، لأن عندك مراتب ودرجات عديدة، يعني أدنى درجة هو المساعد، بل حتى ليس له درجة، من فوقه موزعة وموزع البريد. يعني... من فوقه قائم بالعمل أو ...AXDA من فوقه عندك الـ CDTX، فهو الرئيس، المشرف على توجيه العمل، المشرف على الموزعين، لكنه رئيس عمل؛ هناك أيضاً الـ CT، المنسق للخدمة العامة، كما هو عمل سيرج، لكن هذا عمله «المكتب»؛ وعندك مشرف القسم CTDIV وهناك ما هو أعلى... فكل هذا تحت إمرة مفتش.

❖ وكلهم هناك معك؟

دانييلا: نعم، نعم، بعضهم.

❖ لكنهم لا يقومون بالعمل نفسه؟

دانييلا – لا، لا، يصدرون الأوامر، يكتبون... لكل منهم واجبه المحدد بدقة، لكن بالمقابل فالـ CTDIV هو أدنى من المفتش وأعلى من الـ CDTX، ومن ثم عندك المفتش، ومن بعدها هذا كل شيء... لأن المفتش المركزي يعمل

نهاراً: فهناك، مستقبل الرسائل.. فهذه درجة... ومن ثم يمكن أن يصير مستقبل رسائل... { لا تجد الكلمة المناسبة} ثم رئيس وزارة، يعني، من جميعه!

❖ كيف يتصرف رؤساء العمل معكم؟

دانييلا: ماشي الحال، هم «دغري» تمام، لنقل إنني أحاول أداء عملي؛ توجد سيئات وحسنات كما في كل مهنة.

أستيقظ، يحل الليل

❖ خصوصاً في حياتك الزوجية...

دانييلا: نعم، لأننا نشاهد بعضنا... نشاهد بعضنا... لنقل لو كان سيرج يعمل ليلاً، لكان الأمر أنسب، لكن بعمله في النهار وأنا في الليل، نشاهد بعضنا أقل، لا مجال إلا أن نشاهد بعضنا أقلّ. عرفت سيرج حين صرت في الخدمة الليلية؛ كانت معرفته بي وأنا في الخدمة الليلية.

❖ تقضين ليلة من كل ثلاث ليال في بيتك؟

دانييلا: نعم، لكني أعوم! نحن مع ذلك لا نعيش مثل من... يعني -كما ترين، لم أستطع استعادة الوتيرة العادية {هي في إجازة مرض منذ ثلاثة أسابيع بعد عملية جراحية}. ما زلت لا أنام ليلاً.

❖ وفي العطلة؟

دانييلا: الشيء نفسه: ساعات نومي من السابعة صباحاً إلى الثالثة عصراً. لنقل إنني أحياناً في أوج الشتاء لا أرى الشمس بتاتاً، أستيقظ... ليس في الظلام... ليس كذلك لكنني أستيقظ، فيحل الليل وأذهب لأكدح، وأرجع... الدنيا ظلام ما تزال، هناك مرات مثل هذا.

❖ لابد أنك لا ترين زوجك.

دانييلا: بلى، بلى لأنه من جانبه يعمل غير بعيد، ودوامه جيد، فأتمكن من رؤيته. ثم إنه يشتغل في نوبات، نوبة صباحية، نوبة بعد الظهر. هذا الصباح هو حر، فيعمل بعد الظهر. له ساعات عمل محددة: السادسة

صباحاً-حتى الثانية عشرة ونصف/ ومن الساعة 12 إلى الساعة 18.30؛ فهذا هو الدوام الأصعب، عندما لا يعمل في الصباح بل يعمل بعد الظهر: فأنا أصل، أكون مرهقة، أما هو فيستيقظ، أجد صعوبة في تبادل الحديث، وهو عليه أن يذهب في الساعة 12 ظهراً، فأنهض، وأحضر له ما يأكله، عقلي لا يكون معي، ويذهب فيما بعد عندما أعوم في بحر النوم. ليس إلزاماً {تحضير الطعام له} لكنه لطيف جداً، فالرجل رجل، أقول لنفسي، طيب، يعني... لن يمكنه أن يعرف... بلى، يمكنه أن يعرف ماذا يأكل ولكن... دائماً أرغب أن «يستتبه» لي. {تعرض الصعوبات التي قد تجرها ولادة طفل.} مع وجود نساء متزوجات، عندهن أطفال، لتجنب دفع أجرة مربّية أو دار حضانة، فأحد الزوجين يعمل ليلاً، هذا وارد جداً عندنا؛ لتربية الصغير، حتى لا يدفعوا أجر مربّية أحدهما يعمل مربّية ليلاً، والآخر نهاراً، والذي يتولى التربية ليلاً، يحصل على رزقه في النهار. أنا تأقلمت، فنحن عائلة للعائلة. والديّ كانا كل شيء بالنسبة لي، كنت مشغوفة بوالديّ وأنا أحب الريف، الخضرة، هذا افتقرت إليه كثيراً، في باريس كنت أختنق، أما هنا (في إيلي)، لنقل إنني على مسافة 30 كم في أطراف باريس، ليست مسافة بعيدة جداً... لسنا فعلاً في الريف لكنها منطقة متوسطة.

بقيت في آفيرون حتى سن العشرين، وتابعت دراستي في روديز، هي مدينة صغيرة، كنت أدرس السكرتاريا، نوع من الدراسة ما بعد البكالوريا للتأهيل المهني BEP-CAP كموظفة سكرتيرة في مكتب، لكن، فعلاً، كانت مدينة صغيرة؛ بالمقارنة مع المدينة الكبيرة، ليست روديز أكثر من قرية. أنا، كان يمكن أن تروق لي المزرعة لكن... هناك، عند والديّ، الحياة شاقة جداً، لا يمكن للمرء التمدّن، كان المفروض... يعني، بناء بيت ما... بعض وسائل الراحة... كان المفروض... حتى ليس هذا... إنما استثمار مهما كان ضئيلاً! فهي منطقة شديدة الوعورة، يعني في الماضي كانوا يعيشون من زراعة الخضار والفواكه أما الآن بوجود فواكه إسبانيا، والسوق المشتركة، فإن كل شيء قد.. يعني، ثم أن تكون امرأة... الخلاصة، كان يمكن أن يروق لي ذلك... لكن ما العمل! قال لي والديّ، «ليس لأننا لا نود الاحتفاظ بك لكن

يجب أن يكون لديك بعض الطموح، أن تتقدمي إلى مسابقات» ؛ ثم في تلك الفترة، كانت تأتيهم صحيفة فرأيت: نرغب في العديد من الأشخاص، اتصلوا بالمؤسسة الفلانية، فكتبت، وأعطيتهم معلومات عني، يعني...

❖ ما كنت تعلمين أن الأمر يتعلق بالبريد؟

دانييلا: بلى، كان هذا موضحاً دون التباس. الصحيفة كانت سنتر- بريس أو ميدي- ليبر، لم أعد اذكر. طلبت تسجيل اسمي وكنت في روديز وهناك، قبلوني لم أعد أذكر تحت أي رقم. أعلموني أني قُبلت وأن بإمكاني إجراء الفحص الطبي و«سوف تلتحقين كموزعة بريد في باريس» لكنهم لم يعلموني في أية دائرة؛ كانوا قد سألوني ماذا أفضّل، روان، الشمال، إيل- دو- فرانس أو الشرق؛ حينها اخترت إيل-دو-فرانس: فأصبحت في المنطقة الباريسية وما عرفتُ الدائرة إلا قبل التحاقي بالبريد بثلاثة شهور، «عليك الالتحاق في مهلة 15 يوماً بالدائرة 15» فأتيت هكذا.

الوصول إلى باريس

دانييلا: في البداية، بقيت يومين عند عمتي في سان-دنيس {هي زوجة شقيق والدة دانييلا، مالك لمقهى- مطعم في سان دنيس، ثم انتقل إلى رواسّي واستقر في المنطقة الباريسية منذ أكثر من 30 عاماً، وقد احتفظ ببيت قريب من بيت الأهل كان ينزل فيه لأسابيع صيفاً، وفي عيد القدّيسين، وهو يرتّبه بحيث يوفر الكثير من الراحة بغية قضاء التقاعد فيه} . السيد ريرول {أحد جيران الأهل} هو الذي أخذني إلى محطة القطار في روديز، كنت حزينة بشدة، ما كان عمري سوى 20 عاماً، كنت أخاطب نفسي، عليك أن تكسبي رزقك، فهذا كان فيه بعض الحزن.. لكن الحزن كان بعد ذلك: إخوتي وأخواتي كان لهم حياتهم، فوجدت نفسي وحيدة دون معين في ستوديو وعليّ أن أواجه مشاكل الحياة، الانخراط في حياة العمل، أكوام من الأمور مما شابه، كنت ضائعة تقريباً، لكن مع هذا ارتبطتُ بعلاقات حسنة مع الزملاء، كنت أخرج، في عطلة نهاية الأسبوع، لم أكن أبقى أبداً

وحيدة، مـرّات قليلـة، بلـى.. لكـن كـان لـي.. ليـس أصدقـاء إنمـا.. معـارف عابرون.. كنا ننظم بعض المشاوير.

❖ كأني أتذكر أنك كنت في مجمّع سكني؟

دانييلا: في البداية، كنـت فـي مجمّـع اسـتقبال تـابع للـبرق والـبريد والـهاتف، بولفـار باسـتور، هـو مجمّـع يسـتقبلك علـى الأقل ثلاثـة شـهور، مـن بعدهـا دبّـري رأسـك: ومـن هنـا العبـور إلـى بـاريس. من بعـد ذلـك، كنـت فـي مجمّع يسمحون لنا بالبقاء فيه لفترة أطول، لم نكن هنـاك سـوى أربعـة، ثم بعد ذلك، أكيد، يحضـر دائمـاً وافـدون جـدد، فيجب تـرك المكـان للجـدد. كل واحد، عندما يكون قد تأقلم جيداً مع باريس وحياتها، يجب أن يدبّـر وكـراً: أنـا فتشـت عـن مطلـق... شـقة صـغيرة، فوجـدت سـتوديو... كنـت أشـعر فيـه بـالضجر... لأنـه كئيـب، فـي شـارع فرمـان-ديـدو، فـي الدائـرة 15 قـرب «بـاب فرسـاي»، مكان شديد الكآبة... ثم من بعدها أصبحت في شـارع بلومـي، ثم انتقلت إلى شارع سان-لامبير...

❖ لماذا كنت تبدلين سكنك طيلة الوقت؟

دانييلا: لأنني أولاً كنت أشعر بالضجر، لم تكن فتحات التهوية كافيـة، فـلا هـواء كالواجب، وكـان فـي الطـابق الثـالث، الوصـول إليـه بـالمصعد لكنـه يبعث على الحزن، لم أتمكن من التكيّف. مـن بعدهـا كنـت فـي غرفـة خادمـة، يعنـي لـم يكن فيها أية وسيلة للراحة. ثم بعد ذلك خـاطبت نفسـي، يمكـن الذهـاب عند إيفيت {شقيقتها، مشرفة على مقهى}، لكن هذا مضجـر، دبّـري لنفسـك زاويـة مـا، إنمـا قبـل ذلـك... كـي أسـتعيد التـأمين الـذي دفعتـه لأول سـتوديو، اضطـررت خـلال زمـنٍ معـين أن أدفـع إيجـارين: غرفـة الخادمـة والإيجار الثاني، وعشت في غرفةٍ الخادمة لمدة عـام، وبعدهـا قـال لـي زميـل مـن معـارفي، «دانـي، وجـدت لـك سـتوديو بسـعر مقبـول رغـم كـل شـيء، إذا أحببت أن تريه»، فقلت أو.كي، هنـاك، كانت شروط الراحة متوفرة. كـان فيـه مطبـخ، زاويـة صغيرة كصـالون هـي فـي الوقـت نفسـه غرفـة نـوم، ثـم زاويـة صغيرة للمهملات، وزاويـة صغيرة كحمـام؛ هنـاك بقيـت × زمـن، مـن بعدهـا تعرفت على سيرج، فاستأجرنا في شارع دينويت ثم جئنا هنا.

نوع من المسكّن

❖ هل تذكرين انطباعاتك الأولى خلال الأسابيع الأولى لمجيئك من البلد؟

دانييلا: لا أذكر الكثير، لكن كنت أصغر، ولم تكن عندي رؤية، الآن لو رجعت إلى الحياة نفسها فسوف تكون أصعب وأقسى. أما تلك الفترة... غير مبالية قليلاً... كنت أقول لنفسي، سوف أتعرف على الناس، سوف أتزوج، ألتقي بفارس الأحلام، مشدوهة، خفيفة العقل قليلاً على ضفاف السين؛ يعني عند الوصول... لكن سبق لي أن عشت في روديز، إذن كنت قد جرّبت مدينة ما. باريس، كنت أراها... نعم، باريس جميلة جداً لكن في نظر قادم من الأقاليم لزيارتها، في ذلك الوقت، كان مقبولاً لو جئت كسائحة، كنت سأقيم عند أصدقاء شهرين، ثلاثة شهور لزيارة جميع المعالم، جميع المتاحف، جميع التسليات الموجودة في باريس، وأستفيد منها، كنت سأقدّر كل ذلك، أما في وضعي، كنت أرى باريس... سوف أقول لك... لأنك حين تصلين، ليس الآن بعد على الأرجح، إنما في تلك الفترة، يكون لديك دائماً الأمل بالارتقاء، أنت في حالة انتظار، وهو انتظار، فيقولون لك، «أنت في دورة» فإلى حين الانتهاء والحصول على شهادة يحتاج الأمر لعام، فتقولين لنفسك «عظيم، خلال عام سوف أعيش عام تضحية وبعدها إلى مسقط رأسي». وهذا في حد ذاته ليس بالحل الصحيح، لأنك تفترضين أنك مجرد عابرة، ولذلك فلا تقدّرين ما حولك، تنتظرين انقضاء العام للرجوع إلى مسقط الرأس، إلى المنطقة... وجميع ما شابه. هم يدفعونك لتقديرات خاطئة في البداية، بغية استمالتك، نوع من المسكّن. هذا إلى حد ما نوع من الابتزاز، فلا يريد الواحد أن يتكيّف لأنه يقول لنفسه، يجب الاعتياد على الريف، لعلّني لا أنتقل إلى حيث أرغب، في قرية الوالدين أو أن هذا قد يحتاج لزمن. كل هذا يدفع إلى انشغال البال بالأفكار، ويجد الواحد نفسه وهو في دوخة، في دوخة كبيرة، تأخذه في جميع الآفاق، ليس عندي النظرة نفسها الآن كما كنت في عام 76.

❖ **أمك كانت تحدثني دائماً عن حقيبتك في تلك الفترة.**

دانييلا: نعم، كانت خرجاً بحمالات جلدية. الآن لديهم عربات صغيرة على الدرّاجة عندما تكون الرسائل في الجوار، لديهم مستودعات، والباصات الخاصة بالبريد تنقلك للقيام بالجولات؛ يعني نصف الجولة في حقيبة وهناك شخص ما، مشرف سائق، مشرف يقود سيارة، يُحضر لك الرسائل إلى هذا الرقم أو ذاك، نصف المسافة. مثلاً، أوزّع في شارع «برجير»، سوف أبدأ وأملا خرجي بما يخص هذا الشارع، ثم عند الانتهاء يُصبح خرجي فارغاً، حينذاك، سوف أتناول المزيد من البريد في حقيبة يناولني إياها الشخص نفسه. أنا أكون قد رتبت ووزعت جولتي لكن صحيح أنها كانت... ثم ماذا عن ثلاث مرات في اليوم! كنا نشتغل كل صباح، كان يجب علينا الحضور إلى مراكز العمل في السادسة صباحاً، فإذا وصلتِ متأخرة، طلبوا منك تقديم تفسيرات، وتنالين تقديراً سيئاً، وينجم عن هذا أشياء غير بسيطة. كنا نشتغل كل صباح، وعصر كل يوم من أصل يومين: أفظع الأيام حين كان علينا العمل صباحاً وعصراً، فكنا نقوم بثلاث جولات، جولة مالية، حوالات، رسائل مسجّلة، أموال مصرّح عنها، أشياء من هذا القبيل، أشياء هامة.

❖ **هذا يكاد يكون أقسى من الليل.**

دانييلا: نعم، سيرج، من جانبه، كان يفضل... لكن حيث هو موجود، لا بأس، يعني، إذا أردت، فموزع البريد يقدم روزنامة للأهالي وهنا تكون مكافأة صغيرة لا بأس بها في نهاية السنة، ليست الراتب الثالث عشر لكن... تأخذين الروزنامة بثلاثة أو أربعة فرنكات وتقدمينها إلى الزبون الخاص، هذا الأخ يقبل أو لا يقبل، ويعطيك على التيسير 50 أو 100 فرنك، فهذا مرتبط بميزانية الأخ، وهذا يكون لك. هي «حصّالة» صغيرة في نهاية السنة بدلاً من الحصول على شهر إضافي كان راتباً إضافياً. هذا له قيمته في الخدمة النهارية.

❖ **لكن هل كان هذا يدرّ الكثير؟**

دانييلا: أوه لا! يجب على أي حال أن يحبّ المرء ذلك، والقيام بالتسول، هذا أمر خصوصي، يجب على الموزع ألا يخجل من التأرجح يميناً ويساراً، فالأمر ليس بهذه السهولة.

تشرين الثاني 1990

❖ ❖ ❖

أثناء حديثنا الأول، كانت دانييلا قد رضيت أن تطلب لي إذناً للسماح لي بالحضور، ليلاً، أثناء قيامها بالعمل، في مركز الفرز بشارع آليراي حيث تعمل؛ لكنها مع ذلك أدهشها فضولي فقالت لي إنه «لا شيء أراه زيادة» على ما قامت بوصفه لي، على أن المركز المتعامل مع الشيكات البريدية كان على نظام المعلوماتية وسوف يثير اهتمامي الكبير. على كل، السيد ت.م. المشرف على توزّع العمل، رئيسها المباشر، كان حالياً في العطلة الصيفية ولا بد من انتظار عودته، لأن ذاك الذي كان يؤدي العمل نفسه، بالنيابة عنه، هو «مهووس شغل»: فأفهمتني هكذا بلطف أن مثل هذه الزيارة لم تكن مألوفة إطلاقاً وأن من الضروري التحضير لها.

وبعد مرور ما يقرب من أسبوعين، خابرتني ذات مساء، بالضبط قبل شروعها بالعمل، دون شك من هاتف السيد ت.م. ودفعة واحدة، حتى قبل أن تذكر سبب اتصالها، كلمتني طويلاً ودون سبب ظاهر عن الزيارة القريبة التي سيقوم بها إلى باريس أحد الجيران من آفيرون، علاقتها به، كما علاقتي، ليست عميقة، لكنه «أحد أفضل أصدقاء رئيســ {ـها}» (كانت دائماً تسميه هكذا في حديثها معي لكن، مثل باقي «الفارزين»، فهي تناديه عادة باسمه). إن عرضها العابر لوضع «الرئيس» ت.م. كان يسمح لها في الوقت نفسه التأكيد على علاقاتها مع رئيس لها يمكنها أن تطلب منه

حظوة، ثم التعبير عن اعتزازها، حتى في موقع المرؤوس، بتبعيتها لمؤسسة لها ترتيبها الهرمي المعقد، من أصغر الموظفين وأبسطهم (والذي له حتى بعض العلاقات مع القرية التي جاءت منها) إلى أقواهم وأبعدهم عن التناول ممن لا يمكن الوصول إليهم («حتى رئيس الوزارة»). فهي بحديثها عن رؤسائها وباسم رؤسائها إنما كانت تحتمي أيضاً وراء سور المؤسسة الكتيم.

وقد سبق لي أن لاحظت، أثناء الحديث الأول، أنها كانت تشعر بالحرج ولا تريد أن تحكي عن حياتها في باريس، فكانت تحرف الحديث دائماً لاسترجاع ذكرياتنا في آفيرون، ولاستعراض آخر الأخبار عن والديها أو عن السكان الآخرين في القرية. كانت بهذا تُدخل «البلد» في عالمها الباريسي، تاركة لقليل من قرية آفيرون الصغيرة إمكانية التسلل إلى داخل مركز بريد شارع آليراي. وهكذا، فإيراد اسم هذا الجار وإعلامي بصداقته مع ت.م. كان من شأنه أن يساهم في جعل مركز الفرز البريدي في الدائرة 15 مكاناً مألوفاً لدي، مثلما كان يخفف من كون اهتمامي بعملها أمراً في غير محله..

اتفقنا أن يكون لقاؤنا أمام البناء رقم 19 في شارع آليراي، وهو البناء الذي يضم مقر مكتب البريد، وذلك في مساء أحد الأيام الساعة التاسعة مساءً: وقلت لها إنني سوف أجيء ومعي صديق. شارع آليراي، الواقع في حي فوجيرار، يكون خاوياً في المساء؛ المتاجر الصغيرة، حتى المقاهي، مغلقة منذ بعض الوقت وبما أن الشارع لا يؤدي إلى أي مكان من أمكنة النشاط الليلي، فالسيارات العابرة فيه نادرة جداً. وما تجاوزتنا سوى شاحنات البريد الضخمة الصفراء المتمايلة بقرقعة على أرضية الشارع المخرّبة بأعمال الطرق. لكن البناية المربعة ذات النوافذ المسوّرة بالقضبان بدت لنا على العكس باهرة الإضاءة في طوابقها الثلاثة. كانت دانييلا تنتظرنا، كانت قد «وقّعت» إذن «فلا مشاكل». شعرتُ رغم ذلك أنها عصبية، وأنها في الوقت نفسه ثرثارة وخجلة. درنا حول البناء باتجاه الخلف وصولاً إلى باحة تفريغ الشاحنات البريدية التي تسلّم طوال الليل البريد المرسل إلى الدائرة 15.

في الطابق الأرضي، كانت «السياسة» هي موضوع الفرز، أي، على مدى أسبوع، الصحف اليومية مضافاً إليها، في بعض الأيام، المجلات وبصورة عامة الصحافة الدورية...

تشتغل دانييلا في الطابق الأول، فهناك يجري فرز الرسائل؛ وللوصول إلى هذا الطابق يجب استخدام درج مبلّط ببلاط أصفر ورمادي مما نجد مثله في كثير من الإدارات العامة؛ وعلى استراحة الدرج، في منتصف الطابق، توجد لوحة نقابية مثبت عليها بدبابيس كبس أوراق مسحوبة على ورق الحرير وإعلانات صغيرة.

في ذلك المساء كانت دانييلا تلبس الجينز الضيق مع بلوفر أبيض مبرقع بالأسود، وحذاء أسود بكعب صغير. شعرها الطويل المتفاوت الانتظام في الخلف مسرّح بتسريحة «اللبوة» من حول الوجه ويحمل دلائل المعالجة بغية تفتيح لون بعض الخصل. موقعها في العمل في بداية الرواق، فعلى يمينها زميلة من فيلفرانش-دو-رويرغ وهي تتحدث معها «عن البلد»، وعلى يسارها مشرفة من الفيين «تعرف سيغوندي» لأنها دعيت إلى حفل الزواج في 1985: علاقات جوار تمّ اكتسابها بأناة وصبر، بمناسبة رحيل أو غياب زملاء أقل ألفة، وبفضل أذونات أُعطيت لها بحسن نية.. كان 21 شخصاً يعملون ذلك اليوم (العدد يمكن أن يرتفع إلى 31 حسب حالات الغياب، العطلة الصيفية والتبديلات). ثلاثة أرباع العاملين من النساء: جميعهم من الشباب من 20 إلى 35 عاماً؛ هناك مع هذا متقدم في السن «40 عاماً»، لكنه لم يكن حاضراً ذلك المساء. منهم من يرتدي بلوزات نايلون زرقاء مقدمة من الإدارة لكن ارتداءها غير إلزامي والكثير من النساء بالجينز مع قميص أو بلوفر. بالنسبة لهن، كما بالنسبة لدانييلا، يقدم العمل فرصة اختبار التسريحة الجديدة، والبلوفر الجديد.

صالة الفرز كبيرة جداً، بطول 40 م وعرض 25 م أما ارتفاع السقف فيبلغ سبعة أو ثمانية أمتار، وهي مقسّمة إلى ثلاثة أروقة بواسطة صفين من الأعمدة. ضمن هذا المحيط ظهرت دانييلا فجأة وكأنها بعيدة جداً،

ضائعة وسط هذا «المصنع» الخارج عن الزمن، فهي طيف بسيط ضمن حلقة «الفارزين»، الواقفين طوال الليل، لأنهم لم يلحظوا في تلك الصالة أي مقعد أو حاجز للاستناد. كل شيء مدهون بالرمادي الغامق حتى ارتفاع متر و50 سم من الأرض، وبالرمادي الفاتح في المساحة المتبقية، الإضاءة الباهتة المنتشرة من أنابيب نيون محجوزة في علب مستطيلة ذات زجاج شديد السماكة تبدو شديدة الشحوب باستثناء الرواق الأوسط (ذاك الذي يجري فيه شغل الليل) فهو حسن الإضاءة بينما الرواقان الجانبيان يغرقان في العتمة. رواقا اليمين واليسار مخصصان لتوزيع رسائل كل حي في حقائب موزعي البريد، فكل فارز يعزل الرسائل التي سوف توزع في اليوم التالي بواسطة موزعي بريد، أما الرواق الأيسر فيضم أيضاً «الحجرة» التي يتم فيها فرز الأغراض العينية والرسائل المسجّلة. على الحائط بعض الإعلانات، لوحة فيها تشريح العمود الفقري، لوحة أخرى تصوّر، بالرسوم، الطريقة الصحيحة لدفع العربات لكن اللوحتين على ارتفاع كبير بحيث تتعذّر قراءتهما. على يمين المدخل زاوية غائرة فيها مشجب مغطى بالسترات، بقبعة ودون قبعة. في مواجهة الرواق الأوسط «المكتب» الذي لا يفصله شيء عن باقي الصالة، طاولتان، هاتف، وثلاثة مقاعد منجدة بالجلد الصناعي، بمساند معدنية، كل شيء قديمٌ ومستهلك ولا من ديكور تزييني سوى روزنامة البريد بلونين أصفر وأبيض، لوحة دعاية تمثل زورقاً شراعياً من ورائه بحر أزرق؛ وكانت تلك المقاعد الوحيدة في تلك القاعة الكبيرة، هي مخصصة لرئيس الورشة ولم يستخدمها ت.م. أثناء زيارتنا. منذ سنوات حاول أحد المسؤولين أن يبدأ بصياغة مشروع مقاعد تابوريه دوّارة للفارزين. لكن ذلك المشروع لم ينجز قبل رحيله فلم يعد إليه أحد من بعده. قال ت.م. «كان لا مهرب من تحريك أشياء كثيرة، وإقناع الإدارة، لكن أحداً لا يبالي بذلك. وحده الإضراب... » أضاف وهو يخفض صوته.

عند وصولنا، كان «الفارزون» قد أخذوا مواقعهم في العمل في طرفي الرواق. واقفين أمام الـ 66 علبة معدنية المتراتبة شاقولياً والواجب

عليهم معالجتها (بمعدل 1500 رسالة في الساعة) والتي خصصت كل واحدة منها لبريد شارع واحد، أو في الغالب، لقسم صغير من شارع. ومن فوق هذه العلب جميعاً لوحات كرتونية تحمل أرقام شوارع الحي، وهي موضوعة على ارتفاع لا يتيح قراءتها. كل شيء هناك يدل على الإهمال، ويعلوه الغبار قليلاً، فكأن القسم مصنع حُوّل لصالح البريد.

إلى يمين «المكتب»، مقابل المصاعد، كان الأشخاص الأربعة الذين يتولون العمل على «طاولة الفتح» قد بدأوا بفتح أكياس البريد الأولى: هم أيضاً وقوف. الطاولة التي سوف تفرز عليها 30000 رسالة تقريباً تلك الليلة لا تتجاوز أبعادها مترين للطول و 60 سنتمتر للعرض. والبريد المرسل حصراً إلى الدائرة 15 (لأنه فرز سابقاً في مكاتب بريدية أخرى) جرى ترتيبه بحسب «الحي». في «صناديق» بالنسبة للرسائل الصغيرة أو في عربات معدنية بالنسبة للمغلّفات الضخمة. فكل «فارز» يأتي ويأخذ الصناديق المطابقة لقطاعه. لا يتحدث إلينا ت.م. طويلاً، فمن عادته المساعدة في بدء الفتح ولم يشأ أن يستنكف عن ذلك استثناء بسبب زيارتنا. وبالقرب من هذه الطاولة تحديداً عُلّقت على خزانة برفوف البطاقات البريدية الملوّنة، ذكرى الإجازات الصيفية، وكانت مثبتة إلى جانبها، بدبابيس كبس، «روزنامة المسافرين» من إصدار شركة الخطوط الحديدية ترشد إلى الأيام التي يمكن السفر فيها بسعر مخفّض. في تلك القاعة الهائلة، كانت تلك الخزانة المكان الوحيد الذي استولى عليه الموظفون. وكان مكبّر صوت أجش يذيع موسيقى، على الأرجح لحن روك يستحيل التعرف عليه بسبب العربات المليئة بالأكياس الضخمة المغبرّة التي تتصادم بينما يخرجها عمال النقل من المصاعد بدفعات عنيفة.

جاءت دانييلا أكثر من مرّة لترانا وتعتذر «عن عدم تمكنها من الحديث معنا»؛ على أن كمية الرسائل التي كان عليها ترتيبها لم تكن كبيرة جداً وكان يبدو بوضوح أن ت.م. ما كان ليحتج لو فعلت. فهي محرجة لأنها تركتنا مثلما هي محرجة لعدم التحدث معنا، وقد ذعرت بشكل مفاجئ من

ذلك التدخّل الذي لم تكن متأكدة منه إلا حدساً، فالتزمت بسلوك معتدل مؤكدة لنا باقتناع أنها فعلاً ما كانت تستطيع تبادل الحديث معنا، ثم عادت إلى جانب زميلتها وحمرة الخجل تعلو وجهها.

ميشيل ب. رجل قصير القامة أسمر اللون بشاربين، في الستين تقريباً، وهو مشرف القسم والرئيس المباشر للسيد ت.م.؛ أمضى حياته الوظيفية كلها في البريد، في الخدمة الليلية. تمعّن فينا لبرهة دون أن تواتيه الجرأة ليشرع بالحديث معنا، فكان يروح ويجيء في الرواق، وعينه على كل شيء، بنشاط وصمت. وإذ لم يعد يستطيع تجنبنا، تشجّع «آه! الصحافة». فكان مستعداً لتكريس بعض الوقت، لو كنا نريد، كي يرافقنا في زيارة الأماكن، وتلك ذريعة لإبعادنا عن سلسلة الفرز لاستعراض بعض الذكريات.

ما زال يذكر مجيئه إلى باريس: كان عمره حينها 18 عاماً عندما ترجّل ذات يوم في محطة أوسترلتز، قادماً من سان -جان -دو -لوز. المدينة التي ولد فيها، حاملاً حقيبته بيده، وقد توجّب عليه الاستدلال على وزارة البريد، لكن كان الأصعب بالنسبة له، إيجاد غرفة للسكن. يقولون إن الأمر أسهل اليوم على الشباب القادمين إلى باريس بسبب مراكز الاستقبال لكنه غير متيقّن من هذا فعلاً. فلم تتغير الأمور كثيراً: فالفتيات الشابات في الخدمة الليلية، كما أضاف، هن جميعاً من بنات الأرياف أو قادمات من المستعمرات الفرنسية عبر البحر، فلا يعرفن في الغالب عن باريس إلا محطة القطار (المتصلة بمناطقهن)، ومكتب البريد، والغرفة التي تسكنها كلٌّ منهنّ. هن يأتين من بروتاني أو من الجنوب الغربي، وقد ابتعدن لأول مرّة عن الأهل، فيشعرن بالخوف ويعشن على انتظار أيام العطل القليلة المتراكمة كي ينطلقن من جديد كلٌّ إلى مسقط رأسها. ويعمل «الفارزون» ليلتين من أصل كل ثلاث ليال من الساعة 21 حتى الخامسة صباحاً (الرؤساء ليلة من كل ثلاث من الساعة 21 حتى التاسعة) إنما لا عمل إطلاقاً يوم السبت، وإن كان بالإمكان، عن طريق حكاية «العمل محل الزميل» جمع عدد كافٍ من

أيام العطل لقضاء أيام في «مسقط الرأس». هذه الامتيازات تفسّر كيف يتطوع الجميع للشغل في الليل لأنه لا ينتج عنه ضرورة ترك العمل بلا رجعة.

لدى وصولهن إلى باريس، فإنّ هؤلاء الريفيات الشابات (معظم العاملين في الفرز من النساء) لا يعلمن أنهن لن يرحلن أبداً وخلال سنوات، مثل دانييلا، يعشن على أمل وظيفة مشرف في قراهن. فيكتشفن شيئاً فشيئاً أنها خدعة موهومة لأن عليهن الانتظار عشرة أعوام في المرتبة نفسها، أي دون تحسن ودون ترفيع، قبل أن يأملن بالاقتراب من مناطقهن (خاصة منهن القادمات من غرب فرنسا أو من المارتنيك: «فالمارتنيكيات لا رحيل لهن أبداً»).

مضى الآن على وجود دانييلا في باريس 12 عاماً، و 7 أعوام على زواجها من سيرج. أم سيرج، «امرأة شديدة التسلّط وتدقق في أتفه الأمور» تأتي أحياناً لقضاء النهار ويوم الأحد عندهم، ويذهبان في أغلب الأحيان عند إيفيت، شقيقة دانييلا، التي تدير مقهى في باريس. مساء السبت الذي يكونان دائماً خلاله بلا عمل، يستغلانه في المشاوير مع أصحاب. دانييلا، من جانبها، تتابع عن كثب نشاطات جمعيات الصداقة الباريسية الخاصة بقرى آفيرون. وهكذا، كانت قد أمضت مؤخراً يوم عطلة نهاية الأسبوع بأكمله «بمفردها، دون وجود زوجها» في «عيد بايلرول» الذي أتاحت لها مأدبتاه والحفلات الراقصة التي أقامها «أن تعود إلى أيام يفاعتها».

بعد فترة من زيارتنا تلك في شارع آليراي، صارحتني دانييلا، على الهاتف، «أن الحال لا يمشي كما يجب» بينها وبين سيرج وأنها منذ فترة «ترى كل شيء باللون الأسود».



روزين كريستان

الامتلاك

كورين عمرها 50 عاماً. وهي موظفة منذ عامين في نقابة مهنية من بعد قضائها أكثر من 15 عاماً كسكرتيرة تجيد لغتين في مشروع صناعي صغير، صُرفت من الخدمة فيه لأسباب اقتصادية من بعد تصفية المشروع. أصبح راتبها الآن أقل ووجدت نفسها مجبرة على التخلي عن موقعها ككادر الذي استمر لسنوات طويلة موضع أخذ ورد مع رب العمل ورمزاً للكرامة التي تتعرض دائماً للإهانة.

قليلاً ما تتحدث عن أهلها، من المهاجرين الإيطاليين؛ كان والدها «مسلّم مواد بناء»، لكن لم تعد تتذكر جيداً عمل والدتها: «معلّمة عند عائلة»، ذكرت على عجل. «ما كانوا يملكون شيئاً» عندما كانت طفلة، وفيما بعد، بعد زواجها، «أرادت أشياء»، كسب المال، «الصعود»، «الكفاح». «هذا مضني، لكن هذا يشدّ عزيمتك، فتتقدمين.»

في سن الـ 20، من بعد البكالوريا وسنة في كلية الحقوق، تزوجت كارين من طيار مقاتل، هو اليوم متوفّى. وقد لحقت به لأكثر من عشرة أعوام في تنقلاته العديدة وربّت ولديهما. لكنه حين تخلّى عن الحياة العسكرية بغية احتلال مركز عمل ثابت في الحياة المدنية، ونظراً لتناقص المزايا المادية، فقد سعت إلى تدبير عمل. كان عمرها 31 عاماً؛ فوجدت وظيفة مكتبية غير بعيد عن سكنها، وتسجّلت في دورة لتعلّم الإنكليزية في

مدرسة برليتز ودورة تأهيل على الآلة الكاتبة. فأتيح لها بشهادة الآلة الكاتبة وبفحص قدمته لدى غرفة التجارة الفرانكو-إنكليزية أن تستلم وظيفة سكرتيرة في إدارة مشروع صغير، في زمن لم يكن إيجاد الوظيفة فيه قد أصبح بعد بتلك الصعوبة الفائقة. بعد مضي عشرة أعوام، بيع المشروع للسيد روجيه ج. وهو محاسب قديم في مطبعة جزائرية، من أشباه «تابي أو ماكسويل إنما على أصغر»، فكان يشتري كل عامين شركات قيد التصفية، «كي يربح عملة طرية».

كانت شركة هولدنغ تضم قرابة أربعين موظفاً وتعمل بالأسلوب التسلطي لأرباب العمل كما هو مألوف في المشاريع الصغيرة. كان روجيه ج. يردّد بسهولة ويسر: «في شركتنا، الجميع عائلة، ويجب أن تعيشوا مع عائلتكم.» بُعيد دخوله كمالك للمشروع، حاول التودّد إليها فصدّته. فكانت بداية «خمسة أعوام في جهنم»: روت بأسلوب المضحك المبكي تهديدات التسريح («نهايتك أن أرميك برّه»)، والإهانات العلنية («سعرها أعلى مما يجب!»)، طردُها من العمل المكتبي، وإحالتها إلى «جماعة الورش»، وكل التنغيصات الصغيرة في كل مناسبة وخصوصاً الضغط اليومي، والخوف من الوقوع في أي خطأ يؤخذ عليها كمستمسك ولو أنها «حولت الأمر إلى نكتة، لم تكن النكتة تمر.. كانت حرباً حقيقة(...) واستمرت لفترة طويلة».

كانت «تعيش في عزلة» (...): «في هذه المشاريع الصغيرة، يأخذ ربّ العمل حجماً كبيراً!»، «كانت الطاعة واجبة». الجميع يعاملون معاملة سيئة دون أن يحتج أحد، دون أن يترك العمل أحد لأن روجيه ج. «كان يدفع جيداً». كان في الوقت نفسه بحجم النجاح وكان مثلاً عليه، مرهوب بسبب قسوته لكنه موضع إعجاب بسبب حسن تصرفه الظاهر أمام الجميع. ما كان لها أن تنتظر من زملائها أي عون أو مواساة: كانوا خائفين. بل تراءى لها أن بعض النساء كن يتلذذن بمعاناتها («فماذا تظن نفسها صاحبتنا»). كان وضعها الوظيفي الملتبس بعض الشيء يحميها من التسريح، هو باهظ الكلفة بالنسبة للمشروع لكنه يجبرها من طرف آخر، كي تبرر وضعها

المتميز وراتبها المرتفع، لبذل الجهد يومياً وللالتزام بموقف وظيفي لا غبار عليه. بالنسبة لكورين، كما بالنسبة لروجيه ج.، اللذين انطلقا كلاهما دون أي تأهيل حقيقي، لكل شيء ثمن، ولا مهرب من «القتال» في سبيل النجاح. فالحديث عن «مضايقة جنسية» مثل باقي «صغار السكرتيرات»، ليس أكثر من تملّص رخيص، ووسيلة للتنكّر للإمكانيات والكرامة. فهي لا تشتكي، ولا تسعى للانتقام؛ هي تطالب بقليل من العدالة حيال رغبتها، هي أيضاً، في أن تلعب لعبة النجاح.

«لا رغبة كبيرة لي خارج نطاق العمل»، هذا ما قالته لتفسير انكبابها على عملها وتبرير الاهتمام البسيط الذي كانت توليه لحياتها الشخصية. ورغم جميع الجراح الصغيرة أو الكبيرة، أو ربما بسببها تحديداً، كانت الحياة في المكتب تهبها جميع الانفعالات أو الأحداث الأبلغ أثراً في النفس، الخوف، المذلّة، إنما أيضاً روح العمل الفعّال والنجاح وهذا الارتباط المتناقض ميلاً ونفوراً بربّ العمل روجيه ج. الذي كان يغرقها كل مساء بمهام متراكمة؛ حيال كل ذلك، كان دورها الخاص في الحياة «خارجاً»، ذاك الدور الروتيني الخالي من المفاجآت، يبدو لها باهتاً لا طعم له، بل «فيه ظل حزن وكآبة».

سرعان ما تعرّفت في روجيه ج. على الميل نفسه الذي يشدّها إلى العمل الفعّال، وهو ميل كان لديه بحجم رجولته المسيطرة، كما تعرّفت فيه على ذلك الإحساس بالاعتزاز الذي هو دائماً في حالة استنفار. كان يشتري المشاريع المفلسة، الواحد بعد الآخر، ولذلك كان يستولي على الرجال والنساء، ثم يفرض عليهم إرادته وقوته كرجل وكربّ عمل. فعلى جميع النساء «المرور عبر أحضانه»، بأبسط ما يمكن، لكن كل واحدة حسب مرتبتها، من الشغّالة «التي تُبطح على الموكيت» إلى السكرتيرة و «الهدية الصغيرة»، حتى كورين التي جرّب عضلاته فيها دون توفيق بادعاء علاقة عاطفية: «هل تحبينني؟». لم تكن كورين مغفلة وكانت تعلم أن الحب، من وراء الغرض الظاهر، لم يكن في قاموس روجيه ج. وأنه كان يسعى إلى إرضاء رغبة امتلاك أكثر حدة لكنها مستحيلة الإرضاء.

ناهيك، أن الرجال أنفسهم ماكانوا في منأى، حيث كانت رغبة الإخضاع تتجلّى في التنغيصات والمواقف المذلّة العلنية بما فيها من إهانة وما يرافقها من مساومة ضمنية بخصوص الوظيفة، والراتب، وإعطاء أجرة الشهر الثالث عشر. لكن روجيه ج. كان يعرف أيضاً كيف يكافئ؛ فهو «ربان سفينة» يتسلّى بتمييز هؤلاء، ونبذ أولئك على مزاج مناورات استراتيجية معقدة وعابرة، وبحجة إيجاد «التنافس»، كان يتفنّن بخلق الشك والغيرة، ممارساً بذلك على حياة كل واحد سيطرة يريدها قطعية. ونظراً لتمتّعه ببطاقة نادرة، كان تحت تصرف روجيه ج. جميع الامتيازات لخلق عالم مغلق، منتظم بأكمله انتظاماً تاماً حول شخصه، وتلك محاولة يائسة لإرضاء شهية هيمنة لا يمكن إشباعها.

مع سكرتيرة

حديث أجرته روزين كريستان

«لا أحد يمكنه أن يمسّ مثل هذا النوع من البشر»

[...]

كورين: كنت سكرتيرته. كان شخصاً متطلباً جداً يغرقني بعمل هائل وبالغ الصعوبة. كان لديه عشيقة معروفة. بالتالي، لمدة عامين، كنت مرتاحة... (...) يعني، عندها كنت تقريباً كذلك... ومن بعدها ترك هذه المرأة و «حطّ عينه عليّ»، يعني عندها شيء فظيع. لقد أُلحقت بفرع آخر، لعامين تاليين...

❖ مصادفة؟ أو بأمر منه؟

كورين: لا، مصادفة لأنني كنت أعرف الإنكليزي وأنهم كانوا يصدّرون كثيراً، وبالتالي فقد ارتحت. من بعد ذلك، عدت إلى مقر الإدارة... وهنا، كان الأمر صعباً للغاية، كان، إذا شئت... حسناً لقد عانيت من هجمات هذا الرجل، فأنا لم أكن أريد أن أنام معه لأني لم أكن راغبة في ذلك، فتحول هذا إلى... بادئ الأمر كومة من العمل الهائل، أكبر بكثير من أن يمكن إنجازه في يوم عمل، يعني، كما ترين.

❖ أي نوع من العمل؟

كورين: مثلاً، كان عليّ أن أقوم بتحضير جميع الفواتير، وإرسالها وأخذ نماذج، وتسجيل المرتجعات المالية، والرد على الهاتف...

❖ وهو ما كان يجب أن يوظف شخصاً آخر للقيام به...

كورين: كان يمكن أن يكلف به غيري ولكن... على كل عندما رأيت أن الحال لا يمشي هكذا، راجعت رئيسي المباشر حينها وقلت له، قلت له: «إذا كان روجيه ج. يريد تسريحي، فليسرّحني، أنا لا أقدر أن أستمر هكذا». فكان الجواب، «لا، لا مانع من أن ترحلي لكن دون تسريح».

[...]

لا، أصبح هذا عذاب كل يوم، فأنا ، كان يدخل إلى مكتبي، أكون غارقة في الملفّات، فيقول لي، «يا كورين هاتي الملفّ الفلاني»، كان عليّ فوراً الاستجابة وإعطاؤه الملفّ في ثوانٍ. كنت أعيش عذاباً مرعباً. لقد عشت، أستطيع أن أقول، طيلة خمسة أعوام... معذّبة. كان لديّ مفكّرة تلازمني كيفما تحركت. في البيت، كنت أستخدمها. كان زوجي يجيء أحياناً، «ما هذه الروزنامة، هي مليئة بالأسود»، لأنني كنت أحمل الروزنامة معي مساءً، فأستعيد كل ما قمت به، وكل ما يجب عليّ القيام به في اليوم التالي، وهذا من، بعد إذنك، كي لا أنسى. عشت خمسة أعوام!.. فهنا، بالفعل أشتغل – مؤكد هو شغل غير سهل- أعترف بهذا لكنه يبدو لي.. يعني، كما ترين..

❖ قلت إنه «حطّ عينه عليك»، فكان إذن يستمر في مضايقتك جسدياً أم أنه...

كورين: هذا لا. لأنه بين وقت وآخر كان يجد غيري. لأنه... يعني كان ينام مع الجميع، هه. هذه كانت قاعدة عنده. لا صبيّة، لا سكرتيرة صغيرة إلا ودخلت سرير روجيه ج. هذه كانت قاعدة عنده. وأنا، لو لم يكن إلا لهذا السبب، لم أرد الاستجابة له. لكن، من بعد إذنك، من وقت لآخر، كان يجد عشيقة، فيأخذها لفترة، لكنها من بعد ذلك لا تعود مناسبة، عندها كانت تعاوده عدوانيته تجاهي، أرأيت؟... كانت، يمكن القول، عدوانية نفسية مستمرة. مثلاً، أنا بقيت عامين دون أية زيادة شخصية في راتبي. كنت

أمشي -كما كان يُقال من حولي- طريق العذاب إلى دمشق. لكن كان هذا الأمر مرعباً. مرعب، أنه، من بعد إذنك، كان دائماً، كان على الدوام، باستمرار...

❖ وكنت أحياناً معه وحدك في حجرة أو...؟

كورين: نادراً.

❖ نادراً.

كورين: كان يُظهر... عدوانيته تجاهي أمام الجميع. هذا الرجل استدعاني في يوم من الأيام. إلى مكتبه، لم أكن أعلم ماذا فعلت، وكان الجميع عنده -دائماً يكون عنده الجميع، كان يفعل هذا عن قصد، لإغاظتي أكثر- فقال لي، «أحبُّ ما عندي أن أرميكِ إلى الشارع» ...

❖ آه هكذا، كان يخاطبك بصيغة المفرد...

كورين: كان يخاطب الجميع بصيغة المفرد. فقلت له، «افعل ما تشاء، يا سيدي»، فقال لي، «نعم، حتى مع أنني مضطر لتشغيل اثنين محلّك، لأنني لم أعد أطيق تحمّلك».

❖ ولم يكن يوضّح لماذا؟ لم يقدم أبداً تفسيراً؟

كورين: لا

❖ كان دائماً...

كورين: كان دائماً بشكل مضمر، يعني...

❖ طيب، لابد أن شيئاً ما قد حصل قبل نقلك إلى الفرع الأول، هناك؟...

كورين: في البداية...

❖ في اللحظة... يعني، أنت قلتِ منذ قليل «حطّ عينه عليّ»، فماذا حصل في تلك اللحظة بالذات؟

كورين: حصل هذا كالتالي، ففي يوم من الأيام قال لي، «يا كورين، هل تحبينني؟»، فقلت له، «نعم يا سيدي، مثل ميداليتي الصغيرة، هكذا قلت

له -أكثر من البارحة، وأقل من الغد، هكذا قلت له، ودائماً سوف تكون الأمور هكذا».

❖ فماذا أجابك، عندها؟

كورين: لم يقل شيئاً، رحل. لكنه قال لي ذات يوم، «سوف تندمين على ذلك». لكن من بعد إذنك، لم يكن هذا الرجل مغرماً بي، بالنسبة له هذا الأمر ليس له أية أهمية: كان من فرنسيي الجزائر، وكان بحاجة، من بعد إذنك، إلى أن ينام مع كل النساء كي يفرض نفسه. في العمل لم يكن يحب كفاءة النساء، هذا لم يكن...

❖ لم يكن يثير اهتمامه، على ما أتصور، في العمق؟

كورين: لا. إطلاقاً. يعني. شيء مضحك مثل هذه النوعيات، هذا لم يكن يثير اهتمامه. كفاءتي، في العمق... كان يفضل لو أنام معه. إذن لكان تركني مرتاحة، لكان بإمكاني، بعدها، أن أظل في مكتبي، دون أن أفعل شيئاً، لمدة عامين ونصف، إن أن الأمر يستمر عادةً مدة عامين ونصف. لكن كان هذا مخيفاً، لكنني الآن نسيت، نسيت أشياء كثيرة، لأنني من بعدها، فقدت عملي، فقدت زوجي، يعني مرت بي أمور كثيرة، لكن أنا أستطيع أن أقول لك مثل هذا السلوك موجود، غير أنه في رأيي غير موجود كثيراً في المشاريع الكبيرة، هذا موجود في الصغيرة. لأنك في الكبيرة، إذا حصل هذا، يمكنك دائماً التوجه إلى النقابة أو إلى «لجنة المشروع»، عندنا هذا لم يكن موجوداً.

يا مدام، بلا دندنة...

❖ وماذا كان رأي الآخرين؟

كورين: كانوا خائفين. لكن، في العمق، عند بعض النساء، كان منهن من يتلذذن قليلاً، «تستحق هذا تماماً، فماذا تظن نفسها»، يعني أشياء هكذا؛ عند الرجال، لم يكونوا يتكلّمون عن هذا... لقد حصلت على امتيازات عندما ألحقوني بالفرع، حصلت على امتيازات مالية وعلى معاملة لطيفة...

❖ لأنه نكّل بك ولأنك رفضت النوم معه لأن الجميع كانوا يعلمون...

كورين: بالضبط، لكن على وجه الخصوص لأنني... تعرفين، الأخلاق في مجال الصناعة لم تكن يعني... الناس كان الأمر سواء بالنسبة لهم، أن أنام معه أو لا أنام، لكن، من بعد إذنك، ما يهمّ كان الجانب الظالم، الظلم من الناحية المهنية، وليس على مستوى الأذى الجسدي أو الجنسي، بل على المستوى المهني، أظنهم كانوا يقولون لي، «لكن هذا أمر غير ممكن، من الضروري..» أنا في يوم من الأيام كان عندي مدير قال لي -أنا من طبعي المرح وغالباً ما أدندن- فقال لي، «يا مدام، بلا دندنة، لحسن الحظ السيد روجيه ج. بعيد، لأنه إذا سمعك سوف يضربه الجنون». كان الانتباه بصدد تصرفاتي مستمراً..

❖ إذن ظل طيلة خمسة أعوام يتذكر رفضك له، رغم أنه لم يعد بعد ذلك إلى التودد؟

كورين: لا.

❖ لكن في النهاية كان ينتظر ربما أن تنهاري، أن تأتي للارتماء عند قدميه... في يوم انهيار، ليحصل عليك هكذا...

كورين: أظن... أظن...و، من بعد إذنك، عندما قمنا بتصفية الممتلكات، ضُغط عددنا، وكنا بإمرة نقابي، إداري قضائي، إذن حصلت تسريحات كبيرة، وبقينا قلة من أجل تشطيب الملفّات... كنا حفنة. وحتى بهذه المناسبة أنا لم أغير موقفي لكنه من جانبه ظل على عدوانيته.

❖ لكنه أصبح على الحصير، في ذلك الوقت..؟

كورين: كان على الحصير، وكان، يعني، ناقماً عليّ لأنه كان يقول، أعلم أنه قال لبعض المدراء «لقد رأت المصيبة قادمة». هذا صحيح. لكني لم أقابله لأقول له، «سيدي انتبه، أرى كذا، رأيت كيت»، لم أفعل شيئاً. ولم تكن قضية انتقام لأن ذلك كان مثل الانتحار بالنسبة لي. لو أني ذهبت لرؤية روجيه ج.، لو أني قلت له، «هل تعلم يا سيدي أرى بعض الأمور التي تؤدي إلى كيت وكيت»، كان سيطلب حضور الجميع إلى مكتبه وكان سيقول،

«تفضلوا واسمعوا... ماذا تروي السيدة م..»، إذن، هذا كان كالانتحار بالنسبة لي. بالتالي، لم أكن راغبة في هذا. لكن هذا كان مخيفاً. سوف أحكي لكِ، ففي يوم من الأيام كان لدينا حلقة محاضرات، وكان هناك عمال حضروا من مصنع في «جيان»، من الورشات -وأنا ليس لي أي اعتراض على جماعة الورشات- فكان الجميع جالسين إلى الطاولة الرئيسية، أنا كنت في صدر القاعة مع عمال الورشة، علماً أنه لم يكن لي علاقة مع هؤلاء الناس. فكم من الأمور كانت هكذا! وعندما جلس الجميع لتناول الغداء، حول الطاولة، كأني أرى المشهد من جديد... كل واحد استلم علبة طعامه المحضّر ولم يكن للسيدة م. علبة. آه لا، بالتأكيد، العلبة هي هناك في البعيد. هذا المقلب لعبه معي مرتين، ثلاث مرات...

❖ لماذا لم يكن يصرفك من العمل...؟

كورين: بكل بساطة لأن عليه أن يدفع، كما ترين فأنا كادر، فلم يكن يستطيع تسريحي هكذا. ولكن، بالنسبة له، كان تسريحي من أسوأ الأمور عنده، لو أراد تسريحي، لكن... حتى آخر لحظة، كان وسخاً ودبقاً معي. كنت الوحيدة التي تعرف لغتين في المشروع، فعندما وضعونا بإمرة إداري، وجدت ملفّات مع نيجيريا، وكانت ملفّات معقدة جداً، وكان علينا التعامل مع شركة «لويد» في لندن، يعني، هذا احتاج إلى عمل وجهد. فأنهيت هذه الملفّات على الوجه الحسن وعندما انتهيت، طلبت، يعني مثل كل الآخرين، إعفائي من فترة نهاية الخدمة، كما ترين... لأن الجميع جرى إعفاؤهم من الخدمة الإضافية في مثل هذه الحالات! عظيم، أما أنا، فرفض إعفائي من هذه الخدمة الإضافية...

❖ كم كانت الخدمة الإضافية؟

كورين: مدة الخدمة الإضافية، إذا سرّحوكِ لنقل في أول شباط فيكون بذمتك ثلاثة شهور...

❖ آه هكذا، وأنت في النهاية، عندما كنت تريدين الانصراف...

كورين: بالضبط! أنا كان تاريخ تسريحي 8 آذار على ما أظن، أو في

حدود هذا التاريخ فطلبت إعفائي، لأن الجميع! لا أحد نفّذ الـ... لكن أنا، لم يكن يريد.

❖ لكن هل كان ما يزال عمل للقيام به؟

كورين: لا. فكنت أصل صباحاً إلى مكتبي...

❖ كم من العاملين كانوا ما يزالون هناك؟

كورين: أوه، أظن أننا كنا خمسة أو ستة، ما كان سوى مدراء عامّين وأنا. كنت أصل إلى مكتبي، فأجلس: في المصنف، توجد أحياناً رسالة -فكان عملي لا يتجاوز خمس دقائق؛ فكنت أُحضر جهاز الراديو معي، وأقرأ طيلة النهار، لأنني لم أكن أقدر أن أفعل شيئاً. وهذا، أنت لا تقدرين على شيء حيال هذا. في الشركة الكبيرة لا يمكن وجود هذا. لكن الذين لم يشتغلوا أبداً في المشاريع الصغيرة والمتوسطة لا يمكنهم أن يعلموا مدى خضوع الموظف هناك لرئيسه في العمل. لا أحد يمكنه تصوّر هذا. تكونين خاضعة خضوعاً مطلقاً لمن هو أعلى منك. فإن كان مستقيماً، ماشي الحال، وإلا... هي جهنم لأنه لا تكون هناك لجنة مشروع لدعمك في المشاريع الصغيرة والمتوسطة (...). هذا هو الحال غالباً، وهذا مريع. لا تقدرين... أنا لم أكن أقدر أن أجابه... فما كان أحد ليساعدني! كلا، لا أحد!

اشخاص خُلقوا للأذى

❖ والبنات اللواتي كان رب العمل ينام معهن، في مدى عامين ونصف، عندما يكون قد ملّ منهن...

كورين: آه لا لا، انتبهي! حكاية العامين ونصف، هذه بخصوص العشيقات...

❖ آه يعني نظراً لوجود أكثر من نوعية...

كورين: بالضبط. فأما الصغيرات، يعني الـ... كان ينام معهن...

❖ لم تحصل معه أبداً أية مشكلة؟

كورين -بالمرّة. (...) واسمعي، اشتغلت مع ذلك الرجل طيلة أكثر من عشرة أعوام، فلم أرَ أحداً يترك العمل في يوم من الأيام. أولاً، كان يدفع أحسن دفع للكوادر. وأما صغار العاملين، فلم يكن منهم الكثير حيث كنا في مقر الإدارة، إذن لا، كان الأمر... أنا، بالنسبة لي، كنت على «النيشان»، والسبب -العفو منك سوف أقولها بسوقية- يعني كلها في الأصل حكاية «تعريص»؟

❖ نعم، يعني، لقد اغتاظ لأنك...

كورين: مغتاظ، تماماً. وأنا من حولي، رأيت في.. كان هناك مصانع، حيث كان يوجد 1800 عامل مأجور في المشروع الذي كنت أعمل فيه. فكان هناك فروع مع مصانع. وقد سمعت عن نساء نُكّل بهن أيضاً. بالنسبة لهن، كان الأمر يتم على مستوى رئيس الورشة أو أمور من هذا القبيل ولا يكون عندك أي معين! أنا أيضاً، لم يكن عندي أي معين، على الإطلاق... أحياناً، كنت أقول لنفسي، «ماذا أقدر أن أفعل، لا أستطيع قضاء كل وقتي هكذا»، لكن لم يكن عندي أي معين... لا أقدر أن أشرح لك. لبعض الوقت، كنت في أحد الفروع، فجاء لزيارتنا، كانت المكاتب نظيفة ومن جميعه، فدعا جميع العاملين للغداء، إلا أنا، لأنه كان الربّ بعد الربّ. (...) تعلمين هذا النوع من الحثالة الذي ينشئ هكذا شركات من نوع «تابي»، من نوع «ماكسويل»، على مستوى مختلف، لكن يعني، هؤلاء أناس يحملون سيئات حسناتهم، أي أنهم شعلة من النشاط إنما إلى جانب هذا، فهم أشخاص خُلقوا للأذى. لعلّهم لا يقدرون على إنشاء مشاريع هكذا بالطيبة، واللطف، و... كلا! على أنني من جانبي كنت أشتغل، من بعد إذنك، في ملفّات كانت تقرّبني منه، لكن كان بينه وبيني مديران، كانا بالنسبة لي ستارتَيْ وقاية. لكنهما كانا يقولان لي مثلاً، «عليكِ ألاّ..»، يعني ونحن كان عندنا ممرات كبيرة، فكانا يقولان لي، «يا مدام، ابقي في مكتبك، لأن روجيه ج. هنا، لا تتحركي من مكتبك»، فكان لا يجوز أن يراني!

[...]

عندما كنا نعلم أن روجيه ج. مسافر! آه! هذا رهيب فالجميع يتنفسون أخيراً! لأنه إذا أحببت أن تعلمي، عندما يبدأ بـ «الجعير» في وجه الناس، عندما يناديك بالأنترفون، يسمع الجميع صراخه، فلا يبقى أحد في الممرات، لا يعود بإمكانك أن تري أحداً، أن تسمعي شيئاً.

❖ طبعاً، يَلزم كل واحد مكتبه...

كورين: لأن الجميع يعلمون أن الشخص المنادى على اسمه سوف يأخذ حسابه. كان هذا فظيعاً. فظيع، أوه كان هذا يوم الـ... أوه، سوف أحكي لك «نهفة» محددة. في يوم من الأيام، حصل أني وصلت إلى مكتبي في الثامنة صباحاً، فمشيت أنا وإياه جنباً إلى جنب، ولم يكن لدينا ما نقوله لبعض، فوصلنا إلى البهو، حيث رأينا علبة كرتون ضخمة -هي من الكرتون المقوّى للنقل البحري، وهذا كما تعلمين قاسٍ جداً- فأخذ «يجعر» بلا مناسبة، ووجه ضربة هائلة بقدمه إلى علبة الكرتون، فأنا كان الأمر أقوى مني، فانفجرت ضاحكة لأن قدمه علقت بعلبة الكرتون، على كلٍّ كان يمكن أن تنكسر قدمه، فجعل من القصة فيلماً طيلة ذلك النهار، «ارفعوا لي جميع أغراضها، لقد سخرت مني، سوف أرميها إلى الشارع»، وطيلة ذلك النهار دار «يخرّي» الجميع بهذه الحكاية! وطلب من المحاسبة أن تصفّي حسابي كي يعلم كم يُستحق لي بذّمته لو سرّحني من العمل، ثم أهمل الفكرة، فهذا يكلفه كلفة باهظة. يعني، هذا لتأخذي فكرة دقيقة عن هذه الشخصية. كل العاملين استنفروا كل النهار من أجل هذا... أنا أعلم أن هناك نساء غيري، هه، لا يجوز التوهّم بأنه لم يكن أحد غيري، لا، ولا، ولا، لكن كان هناك، من طرف آخر، النماذج البائسة... كان هناك ويظل. دائماً هناك من هذا النوع!... طيب، هل يقدر أحد أن يفعل شيئاً؟ لا، لا أحد بيده شيء، لأنه الآن يملك مشروعاً صغيراً، هناك في سيرين، لكن لا أحد يذهب ليراه في مكتبه، إذا (...)، إذا لم يقدم الشهر الإضافي الثالث عشر، إذا كان بعض عامليه قد طُردوا، كما ترين، لا أحد.. لا أحد يقدر أن يمسّ مثل هذا الصنف من البشر.

❖ ماذا كان تأهيله؟

كورين: (...) يعني لم يكن عنده أي تأهيل بصفة مدير، لكن كان عنده ذهن خارق، وطاقة عمل هائلة، في هذا كانت مزاياه ضخمة؛ وأنا، من بعد إذنك، كنت آسف لهذا، لأنه «نمرة» على مستوى... الأفكار، الشطارات، أشياء كثيرة، فهلويات خارقة. كما أقول لك هو تابي، ماكسويل، على أصغر، لكن هذا كان مثيراً للاهتمام، دون أي تلكؤ، فلا يمكن إهمال أي ملف وتأجيله.

[...]

بالنسبة لي المشاجرة، أنا الآن أهرب من المشاجرة؛ يعني لن أستسلم، من بعد إذنك، لكن قد أقع في المرض، أو يحصل لي أي شيء، وهنا فأنا أقاتل، لم أكن أريد، لم أكن أريد أن أقبل، فهذا شيء فظيع. هذا وكان عنده موظفة عملها بالضبط، كما تعلمين، حجز الغرف في الفنادق، يعني، ورأيته أنا عملياً «يخبط» بيده على مواضع من جسمها. هذا رهيب، رهيب.. كما تعلمين..

كانوا يطلقون عليه: «زبّورة» التوتياء

❖ وماذا كان رأي زوجك بكل هذا؟

كورين: ما كان زوجي يعلم أي شيء!

❖ أمكنك إخفاء الأمر؟

كورين: أبداً لم أحدّث زوجي عن مشاكلي.

❖ لكن حين كنتِ تغادرين صباحاً..

كورين: أبداً! لم أتحدث أبداً عن مشاكلي في البيت. أبداً، أبداً. زوجي لم يعلم عن هذا الأمر أي شيء. أنا، زوجي كان يعمل في مؤسسة أميركية (...) سُرّح من عمله بين ليلةٍ وضحاها (...) بعد مرور عام عاد للعمل مع شركة كمبيوتر «ماترا-أنفورماتيك»، ترك العمل القديم ثم

الالتحاق بالعمل الجديد تمّ دون أن يشغلني به. لم يحدثني عن ذلك. لا، لا، ليس هذا من طبعي.

❖ لعلّك كنت لا تعودين إلى التفكير بذلك حين تعودين إلى البيت؟

كورين: بلى، بلى!

❖ لو الأمر معي ما كنت لأنام...

كورين: لا، أنا، يعني على العكس، كنت أنام -آه نعم- مثل القتيلة من التعب، مثل القتيلة! ومفكّرتي معي لا تفارقني أبداً. يعني حول هذا أحياناً زوجي كان يقول لي، «ضعي مفكرتك في مكان آخر» كنت أسجّل كل شيء. كل ما كنت أفعله من أجل أولئك الناس، كنت أسجّل كل شيء! كنت أعيش في عملي على الدوام!

❖ لكنه كان على حق، في تلك القصة تحديداً... من وجهة نظر ما..

كورين: من وجهة نظر ما، لو أن رئيسي لم يكن يطاردني كما كان حاله.. كان على حق.. كان ينجح في تنفيذ.. يعني مبدأ العمل هو هكذا، وهذا شأنه مع جميع العاملين، انتبهي، لم أكن أنا الوحيدة هكذا. جميع المدراء، حالتهم مثلي (...) نعم! وفي لحظة من اللحظات لامتني ابنتي ذات يوم، لكن بعد عشرة أعوام، فقالت لي، «طيب يعني، جميل أنك خرجت من ذلك العمل، لأنك لم تكوني تنتبهين، يا ماما، لكن لم يكن في ذهنك سوى الشغل». كان هذا (...) ما يجب فعله، هذا نعم! على كلٍ، نعم! ما كان يسمح أن يغادر أحد الشغل إلى بيته مرتاح البال، وذلك يسري على جميع العاملين عنده. لكن، يعني، في النهاية، بالإمكان تفهّم موقفه (...) كنا نعمل كثيراً، لكن العلّة لم تكن الشغل وإنما السلوك. آه، هنا، هنا، هنا، كان بعض العاملين يتلقّون أسوأ معاملة، وهذا فظيع، فظيع، فظيع.. أقول لك إن بعضهم كان يتلقى الإهانة بأقذع الكلام، وهؤلاء المهانون تحت إمرتهم 300 أو 400 عامل. مدراء مصنع. عدا عن أنه كان يعاملهم هكذا أمام مطلق إنسان، ليس على انفراد، وإنما أمام الجميع، علانية! كنا قد تعاقدنا مع شغّالة، فوصل صباح يوم إلى المكتب، ونادى على الشغّالة بالأنترفون. قالت لي الصبيّة المسكينة حينها،

«يا مدام، أنا سوف أضطر للذهاب إليه، فهو يريد أن (يقوّص ضرب) على الموكيت »، فهذا كان نوعه، هذا الرجل... كما حكيت لك، فهو من مجانين العظمة، أولئك الذين ينشئون مشروعاً، فيصبحون هُم المشروع. وهذا صحيح، أنا أقول لنفسي «لو كنتِ محلّ مثل هذه النوعية، كيف كنت تتصرّفين؟» صحيح على مستوى العمل، كنت سأتصرّف بقسوة. وكان قاسياً. لا توجد كلمة أخرى. لو استطاع أن يشغّلنا ليلاً، لكان شغّلنا ليلاً. هذا صحيح، وهذا كان مرعباً... ما كان لأحد إرادة.. ولا حيلة لنا في شيء. لكن هذا جزء من لعبة، أُقر بذلك، لأنني كما قلت لك كنت سأفعل مثله. لكن، خارج إطار العمل، هناك حدود لكل شيء مع ذلك. عنده، لم يكن يوجد أيّ حدّ. وأظنّ أنه.. (...) يعني، كان الجميع، هذا أتذكّره، كانوا يطلقون عليه«زبّورة» التوتياء..

❖ ماذا؟

كورين: زبّورة التوتياء، هذا لتري، أنه.. لم يكن بالإمكان إيجاد صفة أصدق. فلا يجوز لامرأة أن تروق لهذا الرجل، لا يجوز لامرأة ذلك.. (...) لكننا لا نقدر أن نفهم كيف أمكن لهذا الرجل أن يكون بكل تلك القسوة. كان يجيء، فإذا لاحظ أقل فوضى في مكتبك، رمى كل ما لديك على الأرض؛ أنا من جهتي أظن، عندما يصير الإنسان على بعض القوة ويكون كتفاه أضعف من حمل هذه القوة فهو يصير (...) لا أعلم كيف تكون نهايته في يوم من الأيام. لكن باستثناء هذا، كان عنده بعض اللمسات الإنسانية، إنما «لناس وناس».. ليس تجاه الجميع، مفهوم؟ عدا عن أنه كان يمارس سلطة ربّ العمل. كان بحاجة إلى هذا، كان يلزمه... هذا صعب جداً، كما تعلمين، أن تشتغلي هكذا، هذا يترك أثره، هذا يترك أثره عليك مدى الحياة. هذا يجعلك سيئة التعامل من طرف آخر، لأنك لا يمكن أن تعيشي باستنفار هكذا، طوال سنوات، دون أن تصيري سيئة التعامل بعض الشيء، قليلة الثقة. أنا فيما بعد... عندما وصلت هنا، كنت في غاية الاندهاش. كنت كثيرة الحذر وسوء الظن. لكني وجدت الناس هنا في غاية اللطف، ولم أكن

معتادة على هذا. في العمل الصناعي، كما تعلمين، لا يراعي أحد الآخر، حتى بين الزملاء، لا أحد يراعي غيره.. هذا قاس كجوّ عمل، في الصناعة، هذا لا يشبه إطلاقاً كما في... يعني، والسبب وجود التنافس والمزاحمة، فكل واحد يريد أن يعمل أفضل من زميله. أما هنا، لا، فهذا غير موجود...

❖ لا، هذا لا وجود له في الوسط...

كورين: إطلاقاً! لا ضرورة للمشاجرة من أجل الصعود...

❖ كل واحد عنده عمل يقوم به..

كورين: بالضبط، عمل محدد. فيظل الجميع.. يعني هذا محزن قليلاً.

تموز 1992



بيير بورديو

نهاية عالم

«الفرصة الوحيدة لإيجاد عمل هنا هي في نشوء مشروع صغير. أما في الماضي، فلم يكن الدخول إلى المصنع مشكلة. فأهالينا، كيف كان يتحدث أهلنا، عندما كان عمري 14 عاماً، كيف كان أهلي يتكلمون: لن تفيدك المدرسة بتاتاً، سوف تذهب إلى المصنع. هكذا كان الأهل يحكون معنا. لماذا كانوا يذهبون إلى المصنع؟ لأنهم كانوا يعلمون بوجود التوظيف عملياً على مرّ الأعوام، كل عام 300 أو 400 شخص. لم تكن فرصة العمل مشكلة. أما الآن، فالأهل لم يعد بإمكانهم أن يقولوا هذا، سوف تذهب إلى المصنع، فلم يعد هناك مصنع..»[1] هذا ما قاله نقابي من منطقة لونغوي، هو أحد قدامى العمال في قسم التعدين (مثل والده وشقيقه)، عمره 44 عاماً (أ)، يعمل حالياً في البلدية، فأقواله تلخيصٌ مكثّف لمجموع العوامل التي فرضت أزمة الحركة النقابية المزدهرة سابقاً، والتي هي اليوم، كما يقول مسؤول قديم غيره، بالفعل «منكوبة»[2]: إغلاق القسم الأعظم من مصانع الحديد، وما

---

[1] من بين الأحاديث الخمسة الواردة هنا، ثلاثة أجراها باسكال باس. وحرصاً على كتمان أسماء الأشخاص، مع نقل ما يقولونه حرفياً حسب المواصفات الاجتماعية للمتحدثين، أوردنا أسماء النقابيين الذين طرحنا عليهم أسئلة بأحد الحروف الهجائية (أ،ب،ج...) ومن بعد إيراد هذا الرمز المشفّر لأول مرة، نعيد كتابته كما هو كلما عدنا إليه.

[2] بصورة إجمالية، خسرت الـ CGT في 20 عاماً أكثر من 2/3 عناصرها، بينما تراجع عدد المنتسبين إلى الـ CFDT بنسبة 30٪. عام 1990 عدد النقابيين في الـ CGT 600.000، وفي الـ

رافقه من إلغاء عقود العمل أو الإحالة المبكرة إلى التقاعد لنسبة كبيرة من العمال، ووقف التوظيف، وبنتيجة هذا، توقّف تجديد الطاقم العمالي بما كان يرفده من الشباب، الذين كانوا يدخلون إلى العمل اعتباراً من مركز التدريب، وغياب التجمّعات العمالية الكبرى، بغياب المصانع التي تضم 4000 إلى 5000 عامل، لصالح المشاريع الصغيرة، بأقل من 50 موظفاً، وهي دائماً مشاريع يصعب الوصول إليها، والبطالة والتهديد الدائم المسلّط بسببها فوق رؤوس من لهم عمل، وهو ما يحكم عليهم بالخضوع وبالتزام الصمت.

ناهيك أيضاً ما يشبه الإحباط المعنوي جماعياً، وهو ما يذكره بوضوح هذا النقابي الآخر، البالغ من العمر 36 عاماً، وهو أيضاً عامل تعدين قديم وابن عامل تعدين (ب): «كان الجميع يحسبون أن التقاعد في سنّ الخمسين سوف يساعد الجمعيات على استقاء دماء جديدة. لا شيء! كان الظن أن يمكن ضم أعداد كبيرة وها نحن نلاقي صعوبة كبيرة في إيجاد الناس، حتى للدفاع عن السكن، عن أجور السكن التي ترتفع ارتفاعاً هائلاً، مع عمليات الترميم وإعادة البناء (..) لكن أكثر ما أدهشني، هو المندوب النشيط الذي قاد نضالات: يتجه تفكيري إلى صاحب كان نشيطاً، وكان مناضلاً ممتازاً: عظيم، فهذا الصاحب من بعد إحالته إلى التقاعد أوقف كل شيء، انقطع كلياً عن كل نشاط.» وهذا ما يشير إليه مسؤول آخر، عامل

CFDT 428000، وهكذا لا تنجح النقابتان الكبريان في فرنسا في جمع أكثر من مليون منتسب، منهم 860.000 من النشطاء، بينما نجحتا في 1970 في تنظيم ما يزيد على مليونين ومائتي ألف نقابي. وقد ترافق هذا التناقص الإجمالي بحدوث تعديل في علاقة القوى ما بين هذين التنظيمين. إذ، بينما كانت الـ CGT في 1970 تمثل ¾ المنظّمين في النقابتين معاً، لم تعد تضمّ في 1980 إلا 2/3. ومن بعد مرور عشرة أعوام إضافية، تضاءلت الفروق تضاؤلاً ملحوظاً، لأن الـ CGT أصبحت تضم تقريباً حوالي 58٪ -والـ CFDT ما يقرب من 42٪- من مجموع المسجّلين في النقابتين. وإذا اقتصرت الحسابات على النشطاء، فإن النقابتين من الآن فصاعداً متقاربتان جداً بخصوص عدد المنتسبين. في السبعينات، تراجعت نسبة النقابيين، النشطاء منهم لا غير، بمعدّل 13٪ إلى 10٪. أما الثمانينات فأكّدت على فقدان النفوذ. وهذان التنظيمان الأكبران يمثلان أقل من عامل مأجور من كل 20 (ارجع إلى د. لابي، م كروازا، أ بيفور، «التنظيم النقابي في فرنسا، التعداد، والجمهور، والبنى، منذ 1945، التقرير الختامي، غرونوبل، سيرا، 1991).

قديم في التعدين هو أيضاً (ابن عسكري متطوع)، في الرابعة والخمسين من عمره (ج) . فهذه الخيبة مشتركة لدى جميع ضحايا تدهور مشاريع التعدين: «التقاعد في الـ 50 لمن لم يستعدّ له كارثة (...). أنا أعلم أنني في الـ 50 تحضّرت لـ (تقاعدي). فكنت أعلم أنني سوف أتابع نضالي في الاتحاد المحلي، سوف أحاول أن أكون ذا فائدة... لكن الاتصال مع رفاق الورشة، هذا خسرته، فهذه هي عزلتي (...). لقد أخذ المتقاعدون الآخرون بطاقتهم كنقابيين متقاعدين من جماعة الـ CGT لكن العديد بينهم لا يقومون بأي عمل على الإطلاق (...). نعم، اللعب بالكريات الحديدية، التسوق، ومن بعدها المجادلات التي لا تنتهي في المجمعات التجارية الضخمة (..). هم يتناقشون، يستعيدون الذكريات القديمة، ولكنهم لا يقومون بأي عمل. وكان من نتيجة هذا، الآن، في لونغوي، وجود مشكلة كبيرة، مشكلة الطلاق، سوء العشرة، عدم التفاهم في البيوت. لأن العائلة مع التقاعد تعيش حياة مختلفة: فأخونا الذي كان يعمل في إحدى الورديات الثلاث خلال اليوم، أي أن معظم وقته في المصنع، أصبح طيلة الوقت مع زوجته، فهذه حياة مختلفة تكون قد بدأت (...). وعندنا، ليس العشرات، بل المئات من حالات الطلاق في الـ 50 في منطقة لونغوي (...). كما وقعت حوادث انتحار، للأسف، حصلت عشرات الحالات، سمعنا بها، بينما غرق بعضهم في الإدمان على الكحول.»

فكل المجريات تشير كما لو أن الأزمة، وما نجم عنها من صعوبات في جميع المجالات، قد حطّمت حتى الأساس الذي نهضت من فوقه مظاهر التضامن القديمة: هذا ما أورده مسؤول نقابي آخر، أصوله إيطالية، وهو اليوم في الـ 72 من عمره (د.): «هناك عناء كثير، عذاب كثير، معنوياً وجسدياً، نحن نتعذب، نحن نتعذب (...). في التجمّعات السكنية، يسود الاضطراب والقلق، يسود الضيق عند الناس، فينقطعون عن الكلام إلا قليلاً (...). هذا قاسٍ، هذا قاسٍ (...). حتى داخل الأسرة، هم منقسمون، لأن الشباب يشترون المسكن، ويريدون من العجائز أن يرحلوا، لإعادة الترميم،

لتأجيره (...). البطالة تفرّق بيننا، وتُظهر أسوأ ما هو موجود فينا، الفردية، الحسد، الغيرة؛ بينما العمل يوحّدنا، الأخوّة، التضامن..»

وتترافق هذه الخيبة مع اضمحلال الروح النضالية والمشاركة في السياسة وهو ما يصيب حتى أكثر المسؤولين النقابيين إيماناً ويقيناً: «حتى في البلديات التي يقولون إنها عمالية، لم يعد للنشاط السياسي من وجود. فالبلديات الاشتراكية أو الشيوعية فيها نشاط إداري وأما النشاط السياسي فأصبح في خبر كان (...). هم ينشطون إدارياً، ينشطون، كما كان يمكن لليمين أن يفعل، ربما بأسلوب مختلف قليلاً، لكن عملهم الإدارة... (...) ما عاد هناك شيء، ما عادت هناك فعاليات. وبالتالي، فما عاد هناك من مناضلين، فقد صار الناس مثلي، يرون هذا من بعيد ولا يشعرون بالحماس للقيام بأي شيء..» (أ).

ومن المفروغ منه أن «الخيبات» (خاصة بشأن الاشتراكيين والسياسة التي اتّبعوها منذ 1981) وتبدّد الأوهام (بشأن الدول الشرقية والأنظمة «الشيوعية») هي في نظر الكثيرين من وراء عدم الثقة من الآن فصاعداً بالمناضلين النقابيين، وهذا ما يساهم دون شك في تكسير معنوياتهم: «أنا ضائع قليلاً في كل هذه الأمور. لا أعلم كيف هي حال الآخرين... (صمت طويل). لعلّي تغيّرت، أو أن العالم هو الذي تغيّر من حولي، أو أنني لم أشعر بتغيّر الأمور، لا أعلم، لكن، على كلٍ، أنا ضائع قليلاً. لعلّ السبب مردّه الزيادة القليلة في العمر بحيث تقلّ رغبة الإنسان في إشغال نفسه بالآخرين. هذا ممكن، هه؟ لأنني شخصياً، كنت من بين المؤمنين بأن الأفكار التي أدافع عنها، الأفكار التي كنت أصرف فيها كل همّتي، هي أفكار راسخة..»(أ).

لكن أخشن الانتقادات وأشدّها لسعاً بحق الـ CGT والحزب الشيوعي، والأنظمة ذات النسق السوفياتي، نسمعها من فم أكبرهم سناً، وهو مناضل معروف، وقد انتشر صيته في المنطقة بأكملها بسبب نشاطه في الإضرابات الكبرى لبداية الخمسينيات: «آه! أقوله لك بضمير مرتاح، لو

حصلنا على السلطة، لكنّا ارتكبنا الأخطاء نفسها (أخطاء الدول الشرقية).»
لأن هذا ترجمته كما يلي: «قال لينين»، «قال ستالين»، «قال موريس توريز»، الخ. لكني قلت له في يوم من الأيام، لأحد الميامين، وكان نائباً وعضو لجنة مركزية: «والعمال ماذا يقولون، هل تستمع إليهم؟» يعني، هذه الحكاية وما فيها. هنا المشكلة. (...). كل واحد عمل من أجل نفسه، كل واحد بنى فيلا في الكوت دازور! يعني، هذه هي الوقائع!» (د) ثم انتقد التصويت برفع الأيدي، وميل القسم الأعظم من المناضلين إلى التغيّب، ومنطق «الارتقاء الاجتماعي» الذي يهيمن على المسؤولين: «لأن لهم مستوى معيشة فيه تميّز، فهم متعلّقون بتأمين التقاعد على الملاك للكوادر العليا، الخ. نحن أيضاً أوجدنا طبقتنا المستفيدة. فهناك بيوت الاستجمام المخصّصة لهم، حيث هم ينزلون فيها فعلاً، ولكنهم لا يدفعون.»

ويوردون جميعاً الخيبة الهائلة التي أحدثتها حكومة اليسار، بعد 81، خصوصاً في منطقة لونغوي، إذ عادت بعد وقفة قصيرة بين 81 و 83، إلى سياسة إغلاق المصانع الأمر الذي نجم عنه تحركات الاحتجاج الضخمة في نهاية الثمانينات: «ومن ثم، 82-83، كان عزل الوزراء الشيوعيين، ومن ثم راحوا يعلنون في مراكز صناعة الحديد أن الحال ليس أفضل، وأنهم سوف يغلقون هذه المنشأة، وهذه المنشأة... ومن هنا بدأ الشعور بالاستياء. يعني، هكذا، تقابياً، نخسر بعض الأوراق. (...) في عام 83، يجب أن نعترف بنزاهة، كانت الخسارة 10، 20، 30٪ في أعداد المنتسبين إلى الـ CGT» (ج.). وكان الحزب الشيوعي في الوضع نفسه: «ما عاد هناك حزب (...). ما عاد هناك كوادر ولا منتسبون (...). لقد انطلقنا (في عام 1988) وكنا 7 أو 8، من بعدها، لسوء الحظ، لسوء الحظ ما عاد هناك كوادر (...). ظلّ المناضلون، عندهم مناضلون بالبطاقة، متعاطفون، لكن ما عاد هناك كوادر قيادية» (ج.). هناك على وجه الخصوص، كما لاحظ مناضل آخر في الـ CGT، يبلغ 36 عاماً وعاطل عن العمل حالياً (هـ.) الافتقار إلى التجديد عن طريق تنظيم الشباب : «أنا شخصياً، أعرف من أبناء الشيوعيين من يقول: والدي

مسطول!» (العفو منكم، لكن هذا يعني ما يعني). لكن هذا، عموماً، فيه دليل الفشل مع الشباب. لن نتكلم عن الحزب الاشتراكي. (...) فالشبيبة في صف النظام. وهذا يفسر ارتماءها في أحضان رجل مثل لوبن (...) فللمرة الأولى، كان هناك أصوات مع لوبن.»

وأمام الأشكال الجديدة للاستغلال، بتشجيع خاص من تفكّك أنظمة العمل وانتشار العمل المؤقت، باتوا يشعرون بعدم كفاية الأشكال التقليدية للنشاط النقابي: «يجب الذهاب إلى المشاريع الصغيرة التي فيها أقل من عشرة موظفين. يجب أيضاً الذهاب إليها، يجب التمكّن من التمركز فيها، والذهاب لإلقاء نظرة (...). ولهذا السبب فالخطاب يجب حتماً أن يتغيّر داخل رؤوسنا، فلم يعد بالإمكان الذهاب إلى المشاريع، مثلما كنت أفعل شخصياً في الورشة المركزية. كنت أصعد على العربة الصغيرة، فأصفّق بيديّ، وأصفّر، و... بُم، يتجمّع حولي 100 شخص فأستلم الكلام. لقد انتهى، كل هذا. ثمّ، يجب تقديم النقابة بطريقة مختلفة. في المشاريع الصغيرة، يعلم الله كم عندهم من المشاكل: ساعات إضافية دون أجر. يطلبون منهم تنفيذ ساعات، ولا يحصلون بالمقابل إلا على القليل، بكل صعوبة. وهناك ظروف العمل. عندهم مشاكل هائلة» (هـ). وهذا ما يقوله غيره: «الآن، نحن في وضع تسود فيه البطالة، وعدد لا بأس به من المشاكل، والناس ساكتون. أنا شخصياً أجد أن من غير المقبول إطلاقاً غضّ النظر ونحن نرى من يعمل ثماني ساعات كالمجنون، نعم هذا جنون، مقابل 5300 فرنك شهرياً. هذا من الصعب القبول به! لكن، صحيح أنه ما بيدهم حلّ آخر: هم مجبرون على السكوت. وهذا، هذا أيضاً لا يمكن التسامح حياله. يمكن أن تحصل تحركات، وقد عاينّا هذا، هناك أحياناً ردود فعل، بما في ذلك في المشاريع الكبيرة. يعني، رأينا أيضاً في الغالب أن النقابات الرسمية والتقليدية ناءت بما تحمله من أشكال التنسيق وأمور من مثل هذا. ويمكننا التساؤل حول السبب: هل الخطاب النقابي ما يزال مطابقاً للواقع؟ لماذا تحصل الأمور هكذا؟ لأن الواجهة النقابية جاءتها ضربة.. فعندما يقول

أحدهم، «أنا في النقابة»، يأتيه الجواب، «لكن النقابات تشتغل بالسياسة، فلا تفاهم بينها.» ربما، ربما.. توجد أسئلة كثيرة مطروحة اليوم وأنا لا أستطيع أن أقدم إجابات عليها، حتى في ما يتعلق بي شخصياً. ما عاد عندنا شيء نستطيع أن نتعلّق عليه. ربما كنّا قد أضفنا الكثير من الأوهام لقد صدّقنا أكثر من اللازم. وعندما ينهار كل شيء، لا يعود لك من سند وراءك» (أ.).

كانون أول 1990- شباط 1991



ميشيل بيالو

اضطراب المندوب

كان المفروض أن أجتمع مع حميد منذ فترة طويلة. فغالباً ما حكوا لي عنه؛ عندما كنت أستعرض «مشاكل» المهاجرين في المصنع، كانوا يقولون لي: «لم تقابل حميد حتى الآن؟ يجب أن تذهب لمقابلته.» وفي واقع الأمر، فقد تلاقينا عرضاً، ولمحته مرات عدّة، خاصة أثناء إضراب تشرين أول 1989؛ أعرف هيئته القصيرة، المربوعة، وقد رأيته على رأس المتظاهرين. تحضر صورته في العديد من الوثائق المصوّرة. فيظهر في فيلم عن المصنع تم تصويره عام 1990: ظهر في الفيلم للحظات قليلة في موقع عمله، وكان يشرح بنفسه حركاته، العمليات التي يقوم بها، وتكلّم عن مشقّة هذا العمل. كما رأيته في التلفزيون، في الأخبار على القناة الثالثة. فعندما يريدون من يشهد على شروط العمل في HC1 (تجهيزات الهياكل، وهو المصنع الجديد للهياكل)، كانوا يطلبونه في الغالب. لأنه مندوب، ولأنه «لا يخاف» من التعبير. هم يقيمون لرأيه وزناً في النقابة. فهو من عداد ذلك العدد الصغير من «المندوبين» القادرين على تقديم أنفسهم كناطقين باسم العمال، والذين ازداد بينهم، منذ خمسة أو ستة أعوام، تمثيل النساء والمهاجرين بقوة متعاظمة.

يشتغل في منطقة مونبليار منذ زهاء عشرين عاماً، وفي مصنع سوشو منذ 15 عاماً. لكنه لم يتجاوز الأربعين من عمره. وقد اشتغل في

مواقع مختلفة، لكنه دائماً على سلسلة الإنتاج، واشتغل لفترة طويلة جداً في الإنهاءات. انتسب إلى النقابة بعد عامين أو ثلاثة أعوام من وصوله إلى المصنع، لكنه لم يقبل أن يصير مندوباً إلا بعد إضراب 1981 واستمر بصفته تلك منذ تلك اللحظة. منذ شهور قليلة، ومن بعد الدورة الشهيرة لمدة ثلاثة أسابيع في مورفيلار، يشتغل في مصنع الـ HC1، الورشة الجديدة التي افتتحت مع نهاية عام 1989. مندوبو الـ CGT والـCFDT فيه قلّة قليلة («حفنة»). فمعظم المناضلين والمندوبين كانوا ما يزالون آنذاك على خط الإنهاءات «القديم». إنما، أثناء انتخابات الـ DP (مندوبي العاملين). في آذار 90 حققت الـ CGT في الورشة الجديدة نسبة غير متوقعة بتاتاً، إذ تجاوزت 70٪ في بعض الأقسام.

حدّدتُ موعداً مع حميد، قبل ثلاثة أيام، وكان موعدنا في يوم أحد، عصراً، أثناء أعياد الـ CGT في سوشو. ففي كل سنة تجري الأعياد في ملاعب الرياضة في بيتونكور، وهي قرية قريبة من المصنع بلديتها شيوعية. كان هناك مئات من المشاركين. وهم يأتون مع عائلاتهم. ينتظم العيد حول مباريات في كرة القدم تتنافس فيها فرق مرتجلة: جماعة التصويج مقابل جماعة خط الإنهاءات، الشباب مقابل العجائز، جماعة الهيكل مقابل جماعة السبك، النساء مقابل الرجال. ليست مباريات حقيقية. بعض اللاعبين المشاركين يكونون متنكّرين، والضحك كثير. رجال كثيرون يتنكّرون في ثياب النساء أو العكس. وتحظى النساء بالتصفيق طويلاً. أما الوجوه الشعبية المعروفة في الورشات فتجد لزاماً عليها أن تكون حاضرة، وأن تنزل إلى أرض الملعب للمشاركة ولو لم يكن إلا لخمس أو عشر دقائق. فترات اللعب محددة تقريباً بما يقرب من 20 دقيقة (منذ ثلاثة أو أربعة أعوام، كانت المدة تتجاوز بكثير نصف الساعة، لكن تقدّم العمر بالمشاركين، وأصبحت الأنفاس تتقطّع بسرعة). فيسود جو من الفرفشة الخالية من القيود في أرض الملعب وخارجه. الدخول إلى الملعب والخروج منه لا يتوقف حسب المزاج (أذكر أنني عندما رأيت هذه المباريات ذهبت أفكاري إلى الفرق الموسيقية لنقابة

التعدين، الـ IG للتعدين، والتي رأيت صوراً عنها في فيلم عن مصانع الفولكسفاكن في ولفبرغ). ويخيّل لي أن العمال الحاضرين هنا جميعهم من المختصين فهم كما هو ظاهر بعمر واحد؛ وقد يكون بينهم بعض الحرفيين، إنما بأعداد صغيرة جداً، عاملين فنيين أو ثلاثة، وهم الذين يشتركون دائماً، لكن لا يوجد أي مدير أو مهندس. ويخيّل لي أني الوحيد، في هذا العيد بأكمله، الذي، لا تبدو عليه هيئة العامل.

على هذه الصورة قابلت حميد. كان قد انتهى من اللعب، من الركض طويلاً، وكان يلهث قليلاً، مستلقياً نصفَ متمدّد، على طرف المرج الأخضر. كان مع زوجته وابنته الصغيرة، وسط جمع من «الأصحاب». وكنت أنا أيضاً مع جمع من المناضلين ممن أعرفهم منذ زمن بعيد. قدّموني إليه: «صاحب لنا ربما تكون قد سمعت عنه، كتب مقالات عن المصنع، وهو يزور سوشو منذ سنوات عديدة.» لا أدري تماماً الكلمات التي وصفوني بها «باحث اجتماعي» أم «صحفي». فتصرّف حميد كما لو أنه لا يجهلني كلياً. وبالفعل فلا بدّ أن يكون قد رآني سابقاً مع هذا أو مع ذاك. فتابعوا التقديم: «يجب أن يتناقش معك بشأن الشغل في الـ HC1، الحديث عن الجو العمالي في الورشة، عن عمل المندوب.» وقلت كلمات مما أعرفه عن الـ HC1، عن الزيارات التي قمت بها إلى هناك، عن بعض العمال الذين قابلتهم. فتمّ الاتفاق مباشرة، دون مشكلة، دون أي تحفّظ.

عندما وصلت في الساعة 10.30 إلى الشقة التي يعيش فيها، في الـ ZUP (السكن الشعبي) في مونبيليار، كان هناك «حاجز» كبير تزدحم فيه عائلات العمال المهاجرين -لا يستعملون هنا إلا كلمة واحدة لتسميتهم فيقولون عنهم: «الكتل»-، وكان حميد بصدّارية من فوق كنزة قصيرة وسروال جينز، منهمكاً بتحضير وجبة العائلة، تلك التي سوف يلتهمها بعد قليل على السريع قبل أن يمضي لعمل العصر (يشتغل بدوام «دوّار»، وهذا الأسبوع، عمله «في العصر»، أي أنه يعمل من الساعة 13.15 إلى الساعة 21). كانت النافذة مفتوحة بالكامل. السماء في الخارج صافية الزرقة، والجو شديد الحرارة. كان

واضحاً بأن حميد مستمتع غاية الاستمتاع بتحضير الطعام: كان قد انتهى من تقشير بعض الخضار وتنظيف بعض أفراخ من السمك سوف يرميها مع الخضار لتنضج بسرعة -ومن بعد قليل أعطاني طريقة التحضير: طريقة من عندياته، من الجنوب، مطبّقة حسب الإمكانيات المحلية.

استقبلني بلطف كبير، كما لو كنت لا أزعجه ولا أثقل عليه، وقال لي إنه لم ينس موعدنا، وإنه كان بانتظاري. لم أشعر أن من واجبي أن أفسّر مجيئي إلى بيته. تراءى لي أن كل شيء يجري كما لو كنا متعارفين منذ فترة طويلة وأننا نتابع حديثاً سبق أن بدأناه وتوقفنا في منتصفه. فقلت لنفسي، هذا حديث «دون مشكلة».

من ثم -وكنا ما نزال وقوفاً في المدخل، فلم أطلب منه بالتأكيد السماح بتشغيل المسجّلة- هاهو وقد انطلق في حكاية مشوشة قليلاً عما حصل قبل يوم في ورشته، وبحماس منعني من أن أقاطعه! كانت الحكاية في أولها ضبابية قليلاً، لكن، مع عنف الكلمات المستخدمة- «هذا فوق طاقتي»، «لم أرَ أبداً مثل هذا»، «هذا ما لا أستطيع فهمه»-، فهمت أن حدثاً قد حصل وهو خارج المألوف، خارج «روتين الحياة النقابية». حدث يمسّه، هو شخصياً، وهذا الحدث، في نظره، منشؤه نسق آخر مما كنا قد خطّطنا للتحدث عنه.

فماذا حصل؟ باختصار، قبل يوم، في قطاع من المعمل، قريب من قطاعه، عقب حرب الخليج، مجموعات العمل يعاد تنظيمها باستمرار، وفيها يدخل دون توقف «عجائز» قادمون من قطاعات أخرى في المصنع (عمال من عمره، هم من قدامى خط الإنهاءات، وهم (أناس يعرفهم حق المعرفة، «أصحاب ممتازون»، «عمال ممتازون» شاركوا في إضراب 1981 و1989 على حد سواء، لا مشاكل عندهم، ويصوّتون للـ CGT حتى وإن كانوا غير نقابيين) وهم بالتالي مشاركون مبدئياً بتبنّي قيم التضامن القديمة، وقد وقّعوا عريضة بتشجيع أو دون تشجيع من «الرؤساء» للمطالبة بـ «طرد» عامل، ليس من القطاع فحسب، وإنما من مصنع سوشو- وهذه العريضة كانت بحق عامل، كان هو نفسه نقابياً، وقد اشتغل 10 أو 15 عاماً في المصنع، لكنه،

لعدم اشتغاله في يوم من الأيام على السلسلة الإنتاجية، ما كان يستطيع أن يماشي وتيرة العمل. جرّب حميد ثنيهم عن قرارهم. لكنه فشل فشلاً كاملاً.

فهذا ما تركه في حالة ذهول، تلاشي. وهو، الذي كان عادة هادئاً، معتدلاً، راح يتكلّم بانفعال ولهوجة، فكأنه يعيش من جديد الانفعال الذي سيطر عليه قبل يوم. فأخبرني بدهشته، باضطرابه، باستنكاره، بالطريقة التي راح فيها -في أثناء ساعات عمله كمندوب- يجعر مع أصحابه، يسأل الرؤساء، يضعهم أمام مسؤولياتهم، تجاه حادث يبدو له «فاضحاً» ولا يمكنه القبول به. مثّل أمامي إيماءً دهشة الرؤساء الذين سألوه: «فلماذا انفعالك هذا؟»، «لماذا يؤثر فيك هذا كل هذا التأثير، علماً، يعني، أننا عادة لا نتساهل معكم، أنتم بالذات، المندوبين؟». وشرح لي من جديد كيف ثار، وعاد خمس أو ست مرات، لمقابلة الرؤساء، وطالب بعقد مقابلات واجتماعات. فما حصل هو أمر جرحه في الصميم، يكاد يشعر أنه موجّه إليه على مستوى شخصي، أمر يمسّ شرفه كمناضل وعامل.

رأيت في احتجاجه جانباً أخلاقياً أكثر مما هو بالفعل سياسي. فلم ينخرط في خطابٍ لإدانة ممارسات الإدارة، من نوع تلك الخطابات التي قد يستفيض بها معي مناضل مقاتل، متمرس في النضال النقابي. فاستنكاره -علماً أنه استنكار مسيطر عليه، لا يتم التعبير عنه بتعابير ضخمة، ولا برفع الصوت، وإنما بتلوين النبرة- موجّه إلى أمرين اثنين.

فهو ناقم على «الأصحاب»، «العجائز» الذين تجاوزوا حدود ما يمكن غفرانه -الذين خرقوا القواعد «الأولية» في التضامن العمالي. بُعيد ذلك، حدثني عن موقف العمال الفرنسيين وعلى الخصوص المتعاطفين منهم مع الـ CGT أثناء حرب الخليج، والطريقة التي عبّر فيها العديد من قدامى النقابيين عن عدائهم للعرب أكثر من بعض عمال بيجو الآخرين. وعادت إليه لهجته نفسها، لهجة استنكار تحت السيطرة: إذ رغم أنه لا يعذرهم، فإنه لا يستطيع أن يصل به الأمر إلى حدّ الإدانة

الكاملة، لأنه يعلم حق العلم مقدار وطأة البؤس الذي يرزح أصحابه تحت ثقله.

مثلما هو ناقم أيضاً على الإدارة، على الكوادر ذوي المقام الرفيع، «الرؤساء الكبار» الذي يريدون تجاهل جماعة العمال «الحقيقية» لتشجيع انبثاق جماعة وهمية من حول مراقبي ورؤساء الزمر، بإثارة النعرة الفردية، والتنافس، والحسد، يمارسون سياسة عمياء، تكاد تكون خارجة على كل حسّ سليم، وهي ذات يوم، في رأيه، سوف تنقلب وبالاً عليهم.

وقد صُدمت بالصلة التي يقيمها بين عنف ممارسات الفردية المغالى فيها، وتحطّم ما يرى أنه علاقات اجتماعية في الحدّ الأدنى، تلك العلاقات التي، حتى في أكثر الورشات تطبيقاً للمنهج التايلوري، كانت تؤمّن شكلاً من أشكال الحياة الاجتماعية المنظمة نسبياً. لأنّ، وهذا ما قاله وكرّره مراراً، العلاقات الاجتماعية الأساسية هي التي تتأثر بالممارسات التي تستهدف أناساً يمسك الخوف بأعناقهم ويحرّك المستقبل فيهم مكامن القلق الشديد. ومن هنا الخطر، وقد أكّد على ذلك، الذي يتعرّض له الرؤساء، خطر الوقوع هم أنفسهم ذات يوم في هذا التهديد بشكل غير مباشر.

على أنه بعد مضي فترة، اقترح أن نجلس. فاستقرّينا في المطبخ حول الطاولة التي كان، منذ قليل، يحضّر الخضار والسمك فوقها. استأذنت منه أن أشغّل مسجّلتي، فوافق دون أدنى مناقشة. بعض جمل عادية لا أهمية لها. وعدنا من جديد نتخاطب بصيغة الجمع للاحترام. «لا أعلم ماذا تتوقّعون.» فقلت له إن علينا أن نتكلم عن «عن كل هذا»، عن كل تلك «القصص» التي لا نعيرها في العادة حقّها من الاهتمام، والتي يجب الرجوع إليها، وأنّني شخصياً، أنا أيضاً، يبدو لي «كل هذا» هاماً، وأنه لا يتم إطلاقاً الإصغاء «حقاً» إلى المناضلين في النسق الأمامي.

ظللنا طويلاً على هذه الصورة، جالسين حول الطاولة. شربنا بيرة وقهوة. وكنا ننهض من وقتٍ لآخر على التناوب كي يراقب أحدنا الطنجرة. وبعد مضي فترة، شرعت أنا نفسي بتقشير بعض الخضار، على سبيل الاستسلام للعفوية أولاً، ولأن مثل هذه اللفتة «يتطلبها» إلى حد ما الجو المحيط بي.

لم ينقطع حديثنا إلا بوصول زوجته التي دردشتُ معها قليلاً (حول البلد). ولم يكن بالإمكان تأخير حميد عن موعد ذهابه إلى المصنع.

مع عامل متخصص OS مندوب لنقابة CGT

حديث أجراه ميشيل بيالو

«تضافر فريق العمل كان حرياً على الرؤساء ، الآن، ينضمّ عمال لمواجهة عمال آخرين»

❖ الأفضل أن تحكي كما يحلو لك ومن بعدها أطرح عليك أسئلة..

حميد: نعم، على خط الإنهاءات في أحد الأنساق... يعني السلسلة الإنتاجية! الخط رقم 35، ويسمّون هذا «خطاً» لأنها تبدو أفضل! سلسلة إنتاج، الـ 405 والـ 205. عندما كنت أشتغل هناك، ما كانوا بدأوا بتصنيع الـ 605، الآن لا أعلم...

❖ وكنت هناك منذ فترة طويلة؟

حميد: منذ عام 72، دائماً على نفس الخط. هناك جرى إطلاق الـ 604، الـ 205، والـ 405، وكانت سلسلتنا الرائدة لأن الناس الذين اختيروا لهذا الخط، هم من الناس الذين يتقنون عملهم...بالقياس إلى... يعني، ليس عندهم عيوب كثيرة. علينا أن نذكر أن رؤساء العمل، أنهم يعترفون رغم كل شيء بأن مسؤولي الـ CGT[*]، التنظيمات النقابية وعلى الأخص الـ CGT، يمكن أن يكونوا مزعجين لهم إلى حد القرف على مستوى المعركة النقابية

---

[*] CGT: الاتحاد العام للعمال، منظمة نقابية قريبة من الحزب الشيوعي. م.

ومثل هذه الأمور، لكنهم على مستوى الشغل، فهم يؤدون شغلهم كما يجب، على كلٍّ فلا شكوى في هذا الشأن، وهم يردّدون دائماً هذا على مستوى مصنع الـ HC1، فهم يقولون، «نعم، لم تكن عندنا أبداً مشكلة مع مندوبي الـ CGT ».

❖ بخصوص قضايا الشغل؟

حميد: قضايا الشغل، لأننا، نحن، عندما نذهب ونقول لهم، «هه، هناك من لا يتمكّن من أداء العمل المكلّف به في موقعه..» يقولون لنا، «نعم، لكن معكم، أنتم المندوبين، لم تكن لنا أبداً مشكلة معكم»، لكننا نحن، على الفور نلتفّ حول هذا القول لأننا لا نريد، أن نقع في الفخ، أن نستسلم للتملّق، من جانبنا، وإلاّ... فيمكن في الحدود القصوى أن نشعر، في هذه اللحظة أو تلك، كيف لا يؤدي باقي العمال مهمّاتهم كما يجب، ولماذا، وكل هذه الأمور، حينها، نقول، نحن، «نتمكّن من ذلك، نعم، إنما بمساعدة الآخرين.» ولكن من الضروري الاعتراف أن المندوب عندما لا يتمكن من القيام بشغله، فهو يعلم آنذاك أن ذلك الموقع ينوء بالشغل الزائد، فيأخذ قلمه ويسجّل هذا الأمر، ويعلم أيضاً بوجود مختص لمعالجة هذه القضايا ويقبض أجراً على ذلك. أما بالنسبة للعامل، فهذا، حتى وإن كان مسنّاً، غير واضح تماماً بشكل دائم. هو لا يتجرأ: ورأيت شخصياً أناساً يبتعدون عشرة أمتار عن مركز عملهم لاستدراك شيء تافه.

❖ فيتأخّرون، ومن بعد ذلك لا يقدرون على تدارك الأمر...

حميد: ... والمراقب عندما يلاحظ أن شخصاً ما قد نسي شيئاً ما، فبدلاً من أن يقوم بهذا العمل التافه وأن يقول للعامل هذا، كلا، بل هو يأتي إلى العامل ويجعله يبتعد عن موقعه حتى لمسافة عشرة أمتار... والرجل يعيد العمل المستدرك على بعد عشرة أمتار ومن بعدها يعود إلى مكانه إذا لم يحل المراقب محلّه أو إذا لم يكلّف زميلاً له ليحلّ محلّه. وهكذا يقع الشباب في هذا الفخ. لكن منذ أن بدأنا نتحدّث معهم، وكل ما تريد، نقول لهم، «إذا جعلك تبتعد، يجب أن تطلب إليه أن يأخذ محلّك. إن كان هناك روتشة يجب

القيام بها، اذهب للقيام بذلك، لكن أثناء هذا الوقت، عليه أن يأخذ محلّك!».

رئيسهم هيجهم

❖ هذا مع العلم أنهم أناس مضى عليهم، معظمهم، 10 أو 15 عاماً في المعمل، فهم يعرفون هذا، والمفروض ألا يخافوا إلى هذا الحد من مخاطبة رئيسهم أو معلم الورشة، هذا هو المفروض!

حميد: في مصنع الـ HC1 لا يسود جو التآلف السائد في خط الانهاءات: على سبيل المثال... فقد جاؤونا بأناس من قطاعات أخرى، فهناك الفنّي P1، والفنّي P2، ومن هذه الأمور، فوضعوهم على سلسلة الإنتاج، وهؤلاء الناس غير معتادين لأننا نحن، من جانبنا مضى علينا، حتى تاريخه،17 أو 18 عاماً على سلسلة الإنتاج، لدينا رغم كل شيء.. يعني، وتيرة الشغل بالنسبة لنا أيضاً، ازدادت تدريجياً. ففي بحر سنوات قليلة... في كل عام يضيفون لنا شيئاً، في كل عام، توجد نسبة متزايدة للإنتاج، فنحن تقولبنا، يعني، على فكرة أن السنة المقبلة، سوف يزيدون فيها من تسارع العمل، فهذا الأمر نفسي، نحن جاهزون سلفاً لهذا. أما بالنسبة للناس الذين يهبطون علينا في قطاعنا، وكانوا أساساً حرفيين في قسم التصليح، وكانوا يقومون بتوفير النوعية الجيدة فإنهم يجدون أنفسهم بين عشية وضحاها على خط الإنتاج ولا يقدرون على مماشاة وتيرة العمل...

❖ وعندكم منهم كثيرون؟

حميد: نعم الآن... على سبيل المثال، هم يأخذون سائقي العربات الصغيرة ويضعونهم على خط الإنتاج، فلا يتمكنون من القيام بعملهم، وهناك حرفيون جاؤوا من قطاعات أخرى... منهم عدد جاؤوا من «التم»، من مخازن التموين... وبالأمس تحديداً جاءنا اثنان من التصويج وما سبق لهما أبداً العمل على خط الإنتاج... هما فنيان اختصاصهما التصليح على المكبس، ربما، فهبطا علينا ولم يتمكّنا من مماشاة وتيرة العمل... وهناك

حصلت المشكلة التي تحدثت عنها {صمت} وألعن ما في الأمر أن عمالاً من زمرته هم الذين وقّعوا عريضة... بكل تأكيد، نتيجة لتحريض الرئيس... فقال لهم، «أنتم في (التعتير) على طول النهار وحضرته سلّمناه مركزاً بسيطاً لا قيمة له على الإطلاق ومع ذلك لا يحسن القيام بشغله!» عندها انتشر الخبر بسرعة، بعد توزيع بيانات، وعلمنا ما حصل فذهبت لأرى هؤلاء الأصحاب، على أي حال أنا أعرف جميع هؤلاء الأصحاب لأنهم اشتغلوا على الخط 35 معي... فتناقشت معهم، واحداً بعد واحد، وقلت، «كيف حصل هذا...؟» «نحن، من جانبنا، نقوم بشغلنا، أما هو، فلا يحسن ذلك! ».

❖ عملوا عريضة كي يُطرد من عمله؟

حميد: ليس لصرفه من ذلك القطاع، وإنما لصرفه نهائياً من شركة بيجو! وكانوا من العمال! وكانوا، في النهاية، من العمال الممتازين لأن منهم عدداً لا بأس به شاركوا في الإضراب، أثناء إضرابات {عام 89}. فلم أتمكن أن أفهم، فبذلت جهدي معهم واحداً بعد واحد، وبدأت أعرف السبب. فقد تبيّن لي أن رئيسهم حرّضهم، ونظراً لأن الشخص المعنيّ لم يكن موفّقاً في شغله، وأنه كان يسهو عن بعض العمليات اللازمة... وهكذا فلم يكن باستطاعة المراقب والرئيس الاعتماد عليه ليحلّ محلّ الذين يتغيّبون في إجازة... فهذا يمسّهم مباشرة، عدا عن وجود مكافأة 50 فرنك عن الجودة، وهم لن يحصلوا عليها بسببه، بين قوسين، فقد استقرّ عندهم أن هذا بسببه. حينها انطلقت موبّخاً وقلت لهم، «غير مقبول منكم، أنتم العمال، كتابة عريضة لتسريح عامل!» وفي النهاية، تناقشت مع الجميع، بمن فيهم رئيسهم، وتكلّمنا مع مندوبين آخرين وذهبنا لمقابلة نائب رئيس العاملين ومن ثم، قلت لهم، «انتبهوا، إذا حصلت أشياء من هذا النوع فنحن، من جانبنا، لن نقف مكتوفي الأيدي! سوف نكتب أسماء الشباب وسوف نجعلهم حديث المصنع وسوف يعلم جميع العمال أنهم.. من الدسّاسين، وأنهم أناس عندهم..». وتناقشت مع أحدهم وقلت، «هل أخذت بعين الاعتبار: إن كان عنده أسرة، إن كان عنده أولاد، إن كان عليه ديون.. هل تتخيّل المشاكل التي

سوف يقع فيها لو أنه سُرِّح!»، فقال لي، «لجهنّم، فهذا لا يعنيني أنا، ما عليه إلا أن يفعل مثلنا!».

◆ ذاك الذي أرادوا الإطاحة به، هو مع ذلك ليس صغير السن، وموجود في المصنع منذ 10 أو 15 عاماً أيضاً؟

حميد: عمره37 عاماً، لكن مضى عليه بالحد الأدنى 15 عاماً في المصنع، بالحد الأدنى... مشكلته أنه في السابق كان يقوم بمراقبة الجودة، ولم يشتغل أبداً على خط الإنتاج، والإنتاج شيء مختلف. فسرعان ما شعر بعدم التأقلم... لأنه، من جانبه، كان يعتقد من البداية أنهم غيرّوا له عمله لأنه من تصنيف P1 فوضعوه APF3، لنقل إنه التصنيف ذاته، ولكنه هو، من جانبه، شعر من البداية بالإهانة. والعن من كل شيء، أن أصحابه في الشغل لفظوه كلّياً، هم جميعاً... لقد نجح الرئيس في إفهامهم بأنه خامل، تنبل، وأنه لا يجوز وجود مثل هذه «النمرة».

كراهية العمال لذلك البني آدم، ما رأت عيني مثله أبداً

◆ لكن يعني، الناس الذين أعطيتهم ما يشبه الدرس الأخلاقي، كانوا هم أيضاً من العمال الذين أمضوا 15 عاماً في المصنع وأسلموا قيادة أفكارهم لوجهة نظر الرئيس...

حميد: لرب العمل، نعم... هذا ما علمونا إياه في دورات التأهيل في مورفيلار، أنا شخصياً، كان ظني أنه كلام نظريات، وأننا بمجرّد خروجنا من هنا فالناس... لكن هاهم يطبقونه، لأنهم عندما يتكلمون، فكلامهم عن «الزمرة»، «هو يزعج الزمرة، يمنع الزمرة أن تشتغل»، هم لا يتكلمون إلا عن الزمرة.. فقلت، «نعم الزمرة، لكن... نحن، هانحن منذ سنوات نعمل ضمن زمر... سنوات قدمكم مثل هذا الأخ، فإذا في يوم من الأيام وضعوكم، أنتم أنفسكم، في الموقع الذي شغله، لن تحسنوا عمل أي شيء... لأنه، هو، لديه تأهيل يسمح له أن يقوم بعمل ما، إنما... ». وعندها، قابلت رئيسه، وقلت له، «اسمع، أنا أضرب مثلاً بنفسي شخصياً: ففي إحدى المرات وضعوني

فـي موقـع امـرأة، ولـم أسـتطع أبـداً أن أنفّـذ العمـل؛ علمـاً أن رئيـس الـورش، عندمـا وضعنـي فـي ذلـك الموقـع، كل ظنـه كـان أنـه يقـدم لـي مسـاعدة. مـن بعدهـا، سـلّمني موقعـاً أقسـى وأصعـب، كـان ذلـك بخصـوص أنـابيب الكبـح وأحسـنت تدبير أمـوري»، لهذا يجب الانطـلاق من الحالـة المناسبة... «فـإذا كان هذا الشخص لا يحسن شغل هذا الموقع، هنا، لماذا تستقتلون لتركه هنـا؟ المصنع هائل، أرسلوه إلى موقع آخر، فتشوا له عن موقع آخر في مصنع آخـر أو عـن قطـاع آخـر، حيث يمكن استكمال الإعـداد، لفترة يتعوّد خلالها على نمط الإنتاج ومن بعدهـا أرجعوه إلـى خطنـا». لأنني أنـا قلت لـه، «التـأزيم، سـلاح ذو حدّيـن: فإذا أردتم تـأليب زمـرة علـى عـامل فيـها، نحـن مـن الآن، بصفتنا مسؤولين نقابيين، لن نستسلم لمثل هذا، وسوف نقوم بكل شـيء كـي يحصل هذا الشـخص علـى عمـل آخـر... لكـن فـي الوقـت نفسـه، أنتم عليكم القيام بواجباتكم، وإذا فعلتم في يوم مثل هذا الأمر، فسوف تتدهور الأحوال تقريبـاً فـي كل موقـع، ثـم تتفـاقم الأمـور، وتنعكس عليكـم فـي يوم من الأيـام أسوأ انعكاس.» عندها، بدأ رغم كل شيء بتوجيه الانتقادات. [صمت] إنمـا كراهية العمال لذلك البني أدم، مـا رأت عينـي مثلـه أبـداً؛ فمنـذ بـدأت عملـي فـي المصنـع، رأيت أناسـاً يبعبعـون، و... أمـا فـي هـذه الحالـة، فـهو الرفـض الكـامل، لا يريـدون سـماع أي شـيء عـن ذلـك البنـي آدم، فـي نظرهـم، «إنـه خـامل، تنبـل... لا يريـد أن يشـتغل».. فقلت لهـم، «لكـن أنـا أعمـل فـي زمـرة مثلكم، وعندما لا يريد زملائـي أن يشـتغلوا، هـذه قضيتـهم؛ أنـا أقـوم بعملـي، والذي لا يتمكن من تنفيذ عمله، لـن أنجـرف فـي حكايـات الإدارة، لأقـول لـه: يـاأخ، أنت مهمل لا تقوم بعملك! أنت تتغيّب! أنت تسجل ادعاءً أنـك مريـض!» نحـن فـي زمـرة، نتبـادل التحيـة، نشـتغل، وعلـى أي حـال فليس عندنـا وقـت لنتكلم لأن السلسلة سريعة الإيقاع أكثر مما يجب. وقلت لـه، «فهل يزعجـك جسديـاً، هل يمنعك من أداء عملك؟» فقال لي، «كلا». عندهـا قلت لـه، «لمـاذا إذن كل هـذه الشراسـة ضـده؟» أنـا متـألّم لأن مـن بين الذيـن وقّعـوا، هنـاك عنـاصر ممتـازة، وأنـا شـخصياً، منـذ شـهر، ذهبـت لأعطيهم دفـتر مطـالب.. فقبل الرجـال.. وكلمـا وقعت مشـكلة، يسـجّلونها، والدفـاتر ماشـية تمـام علـى

خطوط الإنتاج... وهؤلاء الناس كانوا يساهمون في تجميع الأسئلة، وفجأة انخدعوا واستسلموا لـ «الطعم» فعلقوا بصنّارة الرئيس -لا أعلم بماذا وعدهم. على أن هناك اثنين أو ثلاثة، قادمين من قطاعات أخرى، لم يوقّعوا، وقالوا، «نحن، من جانبنا، لا علاقة لنا بهذا... هذا لا يزعجنا، يشتغل كما يريد؛ نحن، من جانبنا، نقوم بعملنا، وحل هذه المشكلة على الرئيس، وليس علينا أن نوقّع!» لكن غالبية العاملين في القطاع وقّعوا.

❖ الغالبية وقّعوا.. يوجد إذاً ما يشبه القبول بمثل هذا السلوك، يوجد قسم من العمال يدخلون ضمن المنظومة...

حميد: بكل تأكيد ضمن المنظومة فبالنسبة لهم... تخلّى الرئيس عن عدد لا بأس به من المهام، فهو لم يعد ينظّم أيام العطل ومن جميعه. «عليكم أنتم أنفسكم تدبير أموركم داخل الزمرة.» فإذا وصل أحدهم في السابعة بدلاً من الخامسة، يسأل رئيس العمل الزمرة إن كان عليه أن يدفع له أو لا يدفع، ويقول له، «سوف أدفع لك لأن الزمرة قررت هذا.» لم تعد بيجو هي التي تدفع للعامل، أصبح رئيس العمل هو الذي يدفع، فبالنتيجة، تعود الأمور إلى، «يا معلّم، ألا يمكن أن تدفع لي الساعتين؟ فقد وصلت متأخراً؟» وهكذا، فالرئيس يطلب منهم أحياناً البقاء حتى الساعة 23.30 أو منتصف الليل، أو أنهم يذهبون في الساعة 22 ويدفع لهم حتى الساعة 23.30..

اصبح بيننا مذهب رب العمل

❖ يقدمون إليهم الوسائل لممارسة جميع هذه المساومات الصغيرة، جميع هذه «الأبواب» من النعومة...

حميد: نظام العمل على سبيل المثال: فالدوام يبدأ في الساعة13 أو في الساعة الخامسة صباحاً، فعندما يبدأ الشغل، يقول الرئيس، «لا توجد قفازات اليوم»، أو، في اليوم السابق، يأتي ليقول لنا، «لا ترموا قفازاتكم، لأنني لم أعد أستطيع تسليم قفازات، لأنه عندي ميزانية وقد تجاوزتها»، حينها يشتغل الناس بالقفازات نفسها طيلة أسبوع وبوجود مثل تلك الحرارة،

فعلاً هذا قاسٍ وشاق. من المؤلم أن نكون وصلنا إلى هذا المستوى في المصنع الجديد؛ لحسن الحظ، أن هذا الأمر لم يتعمّم، لكن إذا لم يتم الانتباه، فهذا قد يصير خطيراً.. هذا خطير للطرفين على أي حال، لأن التأزّم النفسي مع الحرارة يتفاقم كثيراً ومن الناس من يتمرّد على بيجو، وإذا كان هناك من يقع في الفخ.. فهذا نهايته وبال على بيجو وعلى العمال على حد سواء.. هذا شيء لن يكون بالإمكان السيطرة عليه.. وعلى كلٍّ، فالبارحة، انعقد اجتماع لم يكن لنا من حديث فيه إلا عن هذا لأنه لم يكن بالإمكان السكوت وترك الأمور تمرّ بسلام..

❖ كان اجتماع مندوبين؟

حميد: نعم، من بعد أن رأينا هذا، دعونا جميع الزملاء من القطاعات الأخرى، وعقدنا الاجتماع في HC1، وتكلمنا من بين مواضيع أخرى عن هذه المشكلة. إن من الواجب الكلام عنها لأنه لا يجوز أن نترك الأمور تتجاوزنا، لأن بيجو إذا فعلت مثل هذه الأمور، فمن الممكن لها أن تفرّق بيننا ومن بعدها تفعل ما تريد... وفي الشهر القادم، سوف تضيف الشركة 50 سيارة على كاهلنا... في شهر أيلول، سوف تحصل بطالة... الآن، نشتغل ساعات إضافية ومن بعدها نصبح في بطالة... في الأسبوع، سوف نكون عاطلين عن العمل مثلاً ليومين، الجمعة والاثنين، فلا نعمل إلا ثلاثة أيام، ولا بدّ مع ذلك من تحقيق إنتاج الأسبوع كاملاً لأن بيجو سوف تزيد وتيرة الشغل، عدد السيارات. عدا عن أن الناس سوف يقولون، «في جميع الأحوال لن نخسر تلك الخسارة ما دمنا لا نشتغل سوى ثلاثة أيام، وعندنا يوما بطالة... ». وقد تأكدنا من هذا طيلة فترة البطالة، فكلّما كان هناك بطالة، حصلت زيادة تلقائية في عدد السيارات الواجب إنجازها. لكن الناس يقولون رغم هذا، «سوف نتحمل هذا الموقف لأن عندنا يومي بطالة، فهذا يوفّر لنا ثلاثة أيام راحة مع حساب السبت والأحد.» لكن هذا ليس بالحل... منذ سنوات وبيجو معنا على هذه الصورة والآن بدأ الناس يقولون، «يجب الانتباه، فإن كان لا بد من البطالة، مع زيادة وتيرة الإنتاج، فهذا نهايته

سيئة!» (...) إذا تركناهم يتصرّفون هكذا، بالفعل، لا أحد يعلم إلى أين النهاية (...).

أعتقد أن نظام المكافآت هو أسوأ ما عرفنا

❖ يوجد أيضاً نظام المكافآت الذي هو وسيلة ضغط...

حميد: اعتقد أن نظام المكافآت هو أسوأ ما عرفنا، لأنه حتى مع التصنيفات وكل ما شابه، بيجو لا تتلاعب بحدود الشرعية. فهي بخيلة جداً في موضوع التصنيفات، بالمقابل، فهي توزع مكافآت، «تظل حتى منتصف الليل فنعطيك مكافأة، تأتي يوم سبت فنعطيك مكافأة، وإذا لم تفعل شيئاً، لن نعطيك أي شيء على الإطلاق..» عدا عن الأمر الصحي، فهي تعقد أحاديث مع العمال، «أنت أخذت هذا اليوم وذاك، أنت عندك نسبة لأيام المرض، وأنت قد تجاوزتها.. تلزمك نسبة جودة، وأنت تقريباً حققتها... نطلب إليك الحضور في جميع الأيام تماماً قبل الشروع بالشغل، بخمس أو عشر دقائق قبل الدوام لحضور الاجتماعات التوجيهية، فإذا لم تأت... فعلاً زوّدتها ولا يمكن إعطاؤك المكافأة!».

❖ وخصوصاً مكافأة الزمرة، فإذا سبّب أحدهم خسارة المكافأة لزمرته، فلهذا دون شك كتب عمّال قطاعه عريضة بحقه؟

حميد: نعم التأزّم من هنا منبعه، عدا عن أن الرئيس صرّح بذلك، فقال، «بسببه أنتم تخسرون مكافآتكم»، طيب، والناس بسطاء التفكير إلى حد كبير، فيعتقدون أن خسارة50 فرنك سوف تكلفهم غالياً... بالنسبة لهم، خسارة 50 فرنك بسبب ذلك البني آدم، أمر لا يمكن القبول به. «أنا أقوم بشغلي» وألعن ما في الأمر أن بيجو ترتب تنظيم العمل بحيث تعطى أصعب المواقع لهؤلاء الناس، وأما من يجادل فيدبرون له عملاً سهلاً نسبياً، وسهل بين قوسين، لأنه لا يوجد عمل سهل فعلاً... في جميع الأحوال، المؤكد أن موقعه أفضل من مواقع زملائه. لهذا يقول الآخرون، «هاهو في موقع (سهل) ولا يوفق في ضبط أموره، ونحن في مواقع صعبة ونقوم بالشغل،

(وزيادة البّلة)، فهو يرتكب أخطاء ونحن لا نرتكبها.» نظراً لأنه لم يعد يوجد... يعني الآن كل شيء، كل شيء جماعي، الزمرة هي الأساس... إذا أنا، مثلاً، أطرح اقتراحاً ما، هذا لا يعود عليّ بنفع كبير، هذا يعود بالنفع على الزمرة، فريق العمل، وإذا عملت «رذالة» ، فالفريق هو الذي يدفع الثمن، إذا رغبت في التغيّب ولا أخابر هاتفياً... فريق عملي هو الذي يقول لي، «لماذا لم تخابر؟» وعندك عمال من المعمل يتصلون هاتفياً بالعمال المتغيبين... أنا شخصياً أعرف واحدة خابرت زميلتها لأن الرقم كان عندها وقالت لها، «ما هذه الحالة معك! أنت لم تأتي، لم تُعلمي سلفاً، أنا كنت قد أخبرتهم أني أريد يوم عطلة وأنت... »، كان الرئيس هو الذي قال لها، «كان بودي أن أعطيك يومك المستحق لكن زميلتك غائبة»، تصوّر، لم يخابر الرئيس، البنت هي التي خابرت صديقتها وبعبعت في وجهها. فالزميلة اضطرت لاختصار إجازتها المرضية. لم تأخذ سوى ثلاثة أيام لأنها قالت لنفسها، «سوف (تقلب خلقتها) معي لسنوات»، ولهذا لم تأخذ سوى ثلاثة أيام... أنهت أسبوع الاستراحة في المصنع مع العلم أنها كانت مريضة. أنا شرحت لها أنه كان عليها أن «تخرى» على رفيقتها. وأنا تمكنت أن أفهمها أنها ارتكبت حماقة وقالت لي، «في المرة القادمة، لن أفعل هذا»، لكن ما حصل حصل وهي قد رجعت، عادت إلى شغلها مع أنه لم يكن من حقها هذا... طبيبها كان قد وصف لها استراحة لأسبوع... وعندنا واحدة أخرى عندما لا يعطونها قفّازات، تأخذ القديمة الوسخة وتغسلها في بيتها، ومن بعدها تشرّف لتتباهى أمام العمال قائلة، «اعملوا مثلي». بل عندنا واحدة ثالثة قالت لي، «إذا طلبت مني بيجو نصف راتبي، فهو مقدّم لها»... قلت لها، «لن يفيد راتبك بيجو شيئاً، لا نصف الراتب ولا الراتب بأكمله.» أنا أفحمتها وألقمتها حجراً. لكن بالنسبة لها، فالأمور هكذا. أصبح بيننا مذهب ربّ العمل، ثم هم لا يسمحون للعمال، مثلاً، القيام بالتوزيع... فأنا أوزّع بياناتي، فلا يقول لي الرئيس شيئاً أو ربما، «سوف أسجّل عندي أنك توزع بيانات أثناء وقت العمل»، فأقول، «ولا أبالي، افعل ما تريد». لكن من العمال من يقول لي، من الشباب، «ليس هذا وقت توزيع البيانات: البيانات

توزيعها في الخارج، وليس هنا!»، وهؤلاء يكونون من ذوي النوايا الحسنة... لأنهم علّموهم، «عندما ترون أحداً يفعل رذالة، لا تفعلوا مثله». على أنني أقول لهم، «لكن بأي حق؟ ألا يكفيك البراز في عملك حتى تتجادل معي، وتشغل نفسك بما أفعل!» عندك بشر من هذه النوعية...

الناس يتعوّدون هكذا...

من كثرة الإصغاء، يقعون في الفخ

❖ بخصوص خطّ الإنهاءات القديم... كانت قد بدأت مظاهر هذه «البيجوية» في الأفق... لكن الأمور هنا مختلفة؟

حميد: هناك ما هو جديد ومختلف باعتبار أن... لن أذكر سوى مثال واحد: البارحة في صالة، قال لي رئيس ورشتنا، «اتركوا المكان نظيفاً مثلما استلمتوه!»، قلت، «حاضر». دخلت، كان هناك فتاة، زميلة كانت تريد التدخين وزملاء لها قالوا، «لا، لا يجوز التدخين!» لأنهم، عندما التحقوا بدورة، قالوا لهم ألاّ يدخّنوا، وبالتالي فهم لا يدخّنون وفي هذه القصة، انطلقوا بالمعارضة آلياً. لكن وجد زملاء آخرون قالوا، «لا، دعوها، لماذا لا تدخّن؟ إذا لم تُرمَ الأعقاب على الأرض، فلا موجب لعدم التدخين!» ومن بعد تناول الطعام، انبرى من يقول، «يجب ترك المكان نظيفاً كما دخلنا إليه»، فجمع كل واحد حاجياته وقالت زميلة، «نعم، لا يجب ترك المكان كما في المصنع الآخر، لأنهم هناك، عندهم شغالة تأتي للتنظيف، أما هنا، فلا شغالة ولا يحزنون». فالناس يتعوّدون هكذا، رغماً عنهم، على بعض الأمور، فمن كثرة ما يقولون لهم، ومن كثرة ما يصغون، يقعون في الفخ... أحياناً ينتفضون مباشرة ليضعوا حاجزاً بينهم وبين هذه الرذالات لكنهم في أحيان أخرى يردّدونها بأنفسهم، آلياً، وحتى عندما لا يؤمنون بها، يقولونها لأن من حولنا من يقولها، والأمر كذلك.. حتى بالنسبة لي، الأمر كذلك.

❖ الحركة الأولى، هي الدخول في هذا المنطق...

حميد: الذهاب لطلب قنينة ماء من أجل حملها إلى موقع العمل...

هذا أمر غير سهل. الآن في مصنع HCl ، قالوا لهم مراراً وتكراراً أنهم لا يجب أن يكون بحوزتهم أي غرض شخصي في موقع العمل... قال لي زميل، «أنت تجلب قنينة؟»، قلت، «نعم، لماذا؟ لقد تشاجرنا من أجل هذا فأعطتنا الإدارة الإذن بجلب قنينة»، «طيب، أنا أيضاً سوف أذهب وأجلب قنينة أثناء فترة التصليح كي أشرب بلعة» وجلب قنينة.

❖ والقنينة، هي قنينة ماء؟

حميد: نعم... أو تكون أحياناً ماء بالنعناع...

❖ ما كان يحصل في المعمل القديم: جلب الخمر، البيرة، هذا لم يعدله وجود...؟

حميد: هذا موجود دائماً... [ابتسامات] حتى في المصنع الجديد، هذا موجود، بالتأكيد.

❖ مسموح به، الخمر؟

حميد: الخمر... كل شيء مسموح في المصنع الجديد، يعني، هذا لأن العمال أصرّوا عليه... لأنهم في المصنع القديم، الرؤساء كانوا في مكتبهم والعمال في قاعة الطعام. هنا، الجميع يتكلمون مع الرؤساء: فيأكلون سويّاً، لا أحد يمكنه أن يأكل في مكان آخر... في فسحات الاستراحة، تجد عمالاً، ورؤساء، ومعلمي ورشات جالسين جنباً إلى جنب. فالعمال منذ 30 عاماً يعملون في المصنع وهم معتادون على إحضار زجاجة نبيذ كلٌّ بدوره، فلم يكن بإمكانهم أبداً القيام بعكس هذا... إذن هذا مستمر. لكن، تحديداً، فالذين يشربون كثيراً، للرؤساء وسائلهم في الضغط عليهم... من بين الذين وقّعوا العريضة البارحة، يوجد عامل قديم يشرب دون توقف، وهو في النهاية مدمن قليلاً، عندها قالوا له، «أنت، إذا لم توقّع، سوف نشي بك، سوف نعمل عنك تقريراً، فيقذفونك خارجاً، ماذا تظن»، عندها وقّع. يعني هكذا... هذا تخويف، هذا ضغط يمارس عليهم...

❖ توجد فعلاً هذه المشكلة، مشكلة التخويف التي يتابع العديد من الرؤساء تبنّيها...

حميد: هذا صدى لما كان عليه الحال في المصنع القديم: في المصنع القديم سبق أن وُجد هذا... كل هذه «الحركات» الموجودة في مصنع الـ HC1، سبق اختبارها في المصنع القديم... لقد وُضعت على المستوى العملي باحتمال نجاح نسبته 20 أو 30٪ في خط الإنهاءات القديم لكن النسبة تحسّنت في الجديد... فالناس، هم يقعون في هذا الفخّ، بالفعل، لكن مع هذا، هناك أقلية لا تماشي التيار... وأذكر لك على سبيل المثال، فعندنا مراقب لم يعد يستطيع أن... يعني طفح به الكيل لأنهم كانوا قد وعدوه أن ينتقل تصنيفه من 225 نقطة إلى 265... «إذا أخذت محل الرئيس...» عندها صار يجيء يوم السبت، ومن جميعه... والآن، طفح به الكيل، فقال للرئيس، «اقذفني إلى أي عمل!»، علماً أنه كان يقوم بمبادرات... كي يبرهن أنه يعمل من أجل بيجو أكثر مما يعمل من أجل الطبقة العاملة... ودفعة واحدة، أصبح يعيش بوسواس بيجو، في الليل لا بدّ أنه كان يفكر ببيجو، في بيته، وأنه كان لديه كمٌّ من صور كالفيت، ومن جميعه، لأن (المعلّم) هو الذي يدفع لنا...» {ضحكات} لكن مع هذا فهو الآن قرف من كل هذا، بعد أن تبيّن له وجود شباب صغار يتوافدون من خلفه، وخبرتهم أقل من خبرته... فطلب تسليمه عملاً ما... لأنهم أحياناً يُفجعون، أيضاً، بـ(بيجو)...

❖ نعم، المفجعون بالنزعة البيجوية، هذا شيء موجود...

حميد: لأنهم يحسبون أن عملهم دائماً في صالح بيجو. لكن بيجو...لها حقيقتها الواقعية... ولا تستطيع جعل الجميع سعداء... يأتي وقت يتم فيه الوصول إلى الحد الأقصى، حيث الناس لا يتقدمون بعد ذلك في سلم الوظيفة، ولا في مستوى الحياة، ومن جميعه. فهناك في هذا الوقت، ما يشبه التمرّد... ليس دائماً، لكن لنقل إن هذا يحصل.. بيجو لا تنجح دائماً بما تفعله على مستوى التأهيل، كل هذا أو الإعلام، أمور كثيرة انعكست عليها بالضرر. جميع الذين وصلوا إلى مصنع ميلهوس يقولون، «هذا غير ممكن، لأنهم قالوا لنا إنهم سوف يرفعوننا إلى 180 نقطة تلقائياً،

وقالوا لنا إننا سوف ننال علاوة 200 فرنكاً بمجرد دخولنا العمل ولم نحصل على هذا؛ وعدونا بمكافأة إنجاز قدرها 300 فرنكاً، ولم نحصل عليها أبداً، لأننا حتى عندما ننجز الشغل، يكفي أن يحصل عطل في السلسلة في الطابق العلوي فينقص عدد السيارات التي ننفّذها...» عندك مقاييس لا عدّ لها تدخل في حساب مكافأة الإنجاز تلك. بالمقابل، في المصنع القديم كان عندنا مكافأة وكان الجميع يحصلون عليها آلياً.

❖ لكن نظام المكافآت كان يشغل حيّزاً أصغر، في المصنع القديم، منه في الجديد. كانت المكافأة أضعف ولكن كانت فرصة الحصول عليها أكبر؟

حميد: في النهاية كان للجميع حظ في الحصول عليها: جميع المرضى... الآن، هناك من يُستثنون.. وعندما نحن، من جانبنا، نتناقش مع مسؤولين، يقولون لنا، «نحن لا نفهم، هناك 90٪ يحصلون على مكافأة الإنجاز، بينما أنتم تدّعون بأن..» -«أنا أقول لكم أن هناك 70٪ لا يحصلون على مكافآتهم.» عندها هم يقولون، « 80٪ يحصلون عليها»، فنقول نحن، «70٪ لا يحصلون عليها».. على أن الحق معنا أكثر مما هو معهم..

من الأصحاب الجيدين أو من الأصحاب غير الجيدين،

الناس لا يحبّون إظهار بيان الراتب!

❖ في جميع الأحوال الناس يتكلمون عن مكافآتهم؟ يقولون ذلك أم لا يقولون؟

حميد: يقولون ذلك لكن لنقل إن... منذ أن عرفت خط الإنتاج، من الأصحاب الجيدين أو من الأصحاب غير الجيدين، الناس لا يحبّون إظهار بيان الراتب، وثم أنا لا أعلم إن كان هذا غيرة أو ما لا أعلم، لكن يوجد انزعاج، «كم أخذت؟» - «أخذت 6000 فرنك» فعندما ترى بالفعل كشف ما قبض، لا يكون فيها 6000 فرنك، إنما قبض 6500 فرنك مثلاً. «كم أخذت؟» - «أخذت 4500 فرنك». ولا يكون قبض 4500، بل قبض 4000 لا غير. وحتى الرؤساء لا يقولون الحقيقة أبداً... زميل لي قال يسألني، «كم

أخذت؟» - «أخذت 5600»، عندها قال «5600 هذا جيد، أكثر مني بقليل». لكني ألقيت نظرة عفوية، من خلفه، ورأيت أنه قبض 6200، فقلت بعدها، «رأيت أنك قبضت 6200» - «نعم، 6200، هذا مع حساب أيام السبت، أما أنت فلم تشتغل أيام السبت». عندها قلت له أنا، «لكني لم أطلب منك حسم أيام السبت...» ثم هم يأتون للتلصّص على بيان راتبك لكنهم أبداً لا يسمحون لك برؤية بياناتهم... بالمقابل، منهم من هم مثلي: فأنا أنزع الظرف، أرميه إلى سلّة المهملات، وأترك كشف راتبي في الورشة لأني لا أخاف من... أنا بتصنيف 170 نقطة، أنا في الورشة منذ 18 عاماً، فأحياناً أقبض 5600 فرنك، 5700 فرنك، 5900 فرنك... أحياناً 6000، حسب، أنا لا أخاف من... على العكس لأنني أبدأ العمل في الساعة الرابعة صباحاً لمدة أسبوع وأعود إلى البيت في الساعة 21.30 في الأسبوع الذي يليه..

❖ لكنّ قليلون من يُظهرون كشف رواتبهم؟

حميد: بعضهم بسبب، يعني، مثلاً، بما أنني مندوب، طيب الناس يخافون أقل، فيقدّمون إليّ كشف رواتبهم، «انظر، عندي مشكلة.. هذا السبت لم يدفعوه لي.. وهنا، اقتطعوا مني.. أنا لا أفهم»، فإذا استطعت أن أشرح، أشرح على الفور، وإذا لم أستطع أراجع التدقيق كي أحصل على الجواب.. الناس يعرضون عليّ بيان رواتبهم دون تردد كي أقدمه إلى النقابة أو.. لأنهم يعلمون أن هذا في صالحهم.. إنما فيما بينهم، لا يوجد..

❖ وإذا قابلنا بين هذا وبين ما كان موجوداً في السبعينيات، يوجد دون شك اختلاف، لأنهم حينذاك كانوا يعيشون التضامن داخل الزمرة، بقوة...

حميد: تضامن الزمرة كان ضد الرؤساء، ضد هيئة المراقبة، الآن يتضامن العمال بعضهم ضد البعض الآخر... فالعمال الذين يناهضون، الذين لا يقبلون بعض المظالم، الذين يرون أن أعباء الشغل فوق ما يطاق، هؤلاء ينظرون إليهم بنظرة الاستياء لأن رئيس العمل عمّم الاعتقاد بأن الناس الذين يبعبعون سوف يحطمون البيت على من فيه، وإذا انساق الجميع

مع البعبعة، فلن يكون بالإمكان إنجاز أية سيارة، ولن يكون لأحد أي راتب، ولن يعود أمامهم سوى إغلاق المصنع والمغادرة، وهكذا تمشي الأمور. في السنوات 70-78، عندما كانوا يدفعون لنا أجورنا، كنا نجمعها على طاولة، وننظر إليها جميعاً جنباً إلى جنب ونجري المقارنة على أساس الأقدمية، و، «كيف يمكن أنك لا تقبض أكثر مني؟»، فالعامل الذي كان راتبه أكثر هو الذي يقول لي، «هيا اذهب وراجع رئيسك، أنت أقدم مني وتقبض أقلّ مني...» العامل نفسه هو الذي كان يحرّضني، في وقت لم أكن قد صرت فيه بعد مندوباً نقابياً... كان هذا في حدود 74 - 75... كان يقول لي أن أذهب لأطالب بحقي. الآن، صاحبنا الذي تطلب منه إلقاء نظرة على كشفه يردّ عليك، «لا، لا، لا!»، وحتى إذا أراد هذا الأخ، إن كان شجاعاً حقاً وشاء السماح بإلقاء نظرة على كشفه، يطوي أعلى الكشف ولا يُريك إلا أسفل الورقة، حيث قيمة المبلغ مسجّلة، هو لا يريك الحيثيات والتفصيلات المدوّنة في الأعلى. لنقل إنها... «مسألة شخصية»...

❖ هذه مفاهيم متوجهة نحو تكريس الفردية ومن المهم تحليلها لأنها لا ترد غالباً، ومن الصحيح أن بيجو في هذا المجال حققت نصراً..

حميد: نعم، بالنسبة لبيجو، هذا نصر... ولكن أقول دائماً إن انتصارات بيجو سلاح ذو حدين لأنها تبالغ في الرذالات بحيث يمكن أن تنعكس عليها... لأن العمال لا يقبلون... طيب، هناك من النوعين: عندك من لا يريد إظهار كشف أجره لأنهم يخافون، هم لا يقبضون ما يكفي بالقياس إلى الآخرين فيقولون لأنفسهم، «لسنا أغبى من الآخرين، ومع ذلك نقبض أقل»، وعندك بالمقابل من يعملون ساعات أكثر... فتكفي أقل شرارة لإشعال المستائين من أجورهم، عدا عن أن الراضين دفعوا الثمن غالياً... لأن الذين سجّلوا ساعات إضافية، الذين داوموا حتى منتصف الليل، قد يكون المسجّل في كشف أجورهم أكبر، إنما مقابل أية تضحيات؟ يجب النظر إلى التضحية التي قدموها: فهم عادوا إلى بيوتهم... يعني الأخ المعنيّ إذا كان يعود عادةً إلى بيته بعد خروجه في الساعة 21.30 فإنه لا يصل إليه قبل الساعة

22.45، فإذا كان خروجه من المصنع في الساعة 23،30، أصبح وصوله إلى البيت في الساعة الواحدة صباحاً. عدا عن أن الناس هم يرتّبون أنفسهم بأنفسهم، عندما يكون النقل مؤمّناً، فبالنسبة لجماعة الضواحي، يجلبون معهم زملاء آخرين... إذن بالنسبة لأولئك الذين يسكنون بعيداً، فذاك الذي يكون «جاهزاً» قد يدفعون له البنزين، ولعل بيجو تدفع بالعملة النقدية... إذا لم يكلّف الرئيس بدفع المستحق ضمن بند الساعات الإضافية... فخلال فترة يُعيد «الجاهز» زملاءه إلى بيوتهم، أربعة أو خمسة زملاء إلى بيوتهم، فهذا يُلزمه بدورات لا بأس بها، ليصل إلى بيته منهكاً... وفي اليوم التالي، يبدأ عمله من جديد.. هو يشتغل ويعيش من أجل بيجو.

العمال هم الذين هاجموني:

«سدّ بوزك، لا شغل لك كل الوقت إلا أن تبعبع»

❖ معنى هذا أن عند الرؤساء هامش مناورة للمفاوضة بشأن هذه الحكايات «أوّلاً بأوّل»... فهذا إلى حد ما منطق مقلوب لزمرة الأصحاب...

حميد: نعم، هذا منطق زمرة الأصحاب: فإذا وصلت متأخّراً... أنا، من جانبي، في هذا المصنع، المرّة الأولى التي وصلت فيها متأخّراً... من بعد إذنك، حتى إذا استيقظت في الساعة 5،15، لا أصل في الساعة 5.30 أو الساعة 6، إنما أصل مع أولئك أصحاب التوقيت الاعتيادي في الساعة 7... أصل مع أصحاب التوقيت العادي، لأنهم في جميع الأحوال، يحسمون مني ساعات، فلا فائدة من إرهاق النفس... وفي ذلك اليوم قال لي الرئيس، «قرّرنا أن ندفع لك ساعاتك»، قلت له، «فهذا جديد، في حياتي منذ أن اشتغلت عند بيجو ما دفعوا لي حتى ولا ¼ ساعة. فهذا، كيف حصل هذا؟»، أجابني، «هنا الزمرة هي التي تقرر وحيث أنك تتغيّب للمرّة الأولى قرّرت الزمرة أن تدفع لك ساعاتك»، قلت له، «فهذا عال العال، تابعوا على هذا الأسلوب، وأنا سوف أرتب نفسي لأتأخّر أكثر مما فعلت حتى الآن!» عندها، قال لي، «لا بالمرّة، فهذه زهرة يتيمة قدمها إليك العمال، زملاؤك،

ولذلك فلا يجوز.»، معنى هذا أنهم يدفعون لك ساعاتك لمرة واحدة، ومن بعدها، حذارِ! في المرات القادمة لن يتحمّلوك، إذن هم يُلبسون الناس التهم.. كان العديد يجيئون متأخرين وفور أن سمعوا بذلك، لم يتأخروا أبداً... هم بهذا يشترونهم!

❖ صحيح، يشترونهم إلى حد ما، لكن في الوقت نفسه، يستثيرون مفهوم الأخلاق الجماعية.

حميد: في مرّة ثانية كانت الـCGT قد طلبت مني الذهاب إلى اجتماع توجيهي خارج المبنى، رئيس الورشة هو الذي رتّب هذا الموضوع... فاستلمت الحديث وقلت، «جميل جداً إعطاؤنا الكلام لكن اتركوا لنا على الأقل عشر دقائق لنعبرّ عن معاناتنا، فالعمال من حولي يقولون عن مستوى وتيرة العمل، عن مستوى الجودة، هذا غير ماشي... يقولون إن السيارات لا تخرج نظيفة تماماً... وهذا طبيعي لأننا مجبرون على تركيب قطع، ثم إخراجها، ثم فك وإعادة تركيب في الجهة المقابلة لوجود أمور لا تمشي كما يجب... فبدلاً من ترك السيارة تمرّ على مهل، يجبروننا على تنفيذ عمليات كثيرة، ومن بعد ذلك تركّبون، فهذا معناه تركيب، إعادة تركيب، فك، إعادة تركيب، ومن أجل السيارة هذا الأمر غير مستحبّ... عدد السيارات أصبح كبيراً وفي كل شهر تضيفون سيارات علينا، فهذا له تأثير.» عندها كان رئيس العاملين يريد الردّ عليّ، لكن لم يردّ الرئيس، العمال، الشباب بينهم هم الذين هاجموني، «أنت، سدّ بوزك، كل الوقت لا شغل لك إلا أن تبعبع! هذه أول مرة نراك فيها!» عندها قلت، «بالتأكيد، هذه أول مرّة، فمنذ ستة شهور أو عام وأنا هنا وهذا ثاني اجتماع يحصل، لكن أنا جئت، وما جئت للنقاش معك، أيها الشأب، أنا جئت أتناقش مع رئيس العاملين؛ فأنت بالكاد تشتغل هنا منذ عامين أو ثلاثة أعوام، أنا في الشغل منذ 20 عاماً، إذن سدّ بوزك أنت...». إنما، العادة، أن مثل هذه الساعات مأجورة، فيدفعون لنا وقت الاجتماع، وقد دفعوا للآخرين، أما أولئك الذين بعبعوا... {إشارة معناها: «لم يدفعوا لهم»}. عظيم، رئيس العاملين كال لي المديح، لكنه من

بعد ذلك قال لرئيس الورشة، «هو، هو تشطب له ساعاته». عندها قلت له هكذا، «معلوم، حتى لا أُعصّب...» لحسن الحظ أن من العمال من دافع عني، من قال للشاب، «سكّر بوزك»، ومن جميعه... بل تدخل الرئيس، ودافع عني، فقال، «على أي حال، حميد هذه طريقته في الكلام، هو يشرح لنا وجهات نظره، أفكاره» (...) صحيح أننا، في المصنع القديم، كنا معتادين على نمط حياة مختلف... ففي الماضي، كان الشباب في عجلة كي ينطلقوا إلى بيوتهم بعد الشغل... الآن يظلّون «باتجاه» مواقع عملهم... فيبدأون بالدوران... كي يرى الرئيس أنهم مازالوا هناك...

❖ «جاهزون؟»

حميد: نعم.. مع وجود الحرارة، ومن جميعه.. لكنهم «جاهزون».. لأن بيجو.. ماذا تظن.. هي في موضع الرئاسة عليهم... فلا يجوز.. وشغل النقابة الآن بين العمال المختصين، يزداد صعوبة.. أكثر فأكثر.

❖ لماذا؟ لأن الرؤساء يتجهون الآن إلى تحمّل جزء من أعباء العمل الذي كانت النقابات تقوم به سابقاً..

حميد: نعم.. ثم الآن كثير من العمال يلعبون بالفعل هذه اللعبة.. أولئك الذين كانوا أول الموّقعين على طرد عامل، كانوا من جماعة الـ CGT..

مراقبون صغار لا قيمة لهم على الإطلاق

ويريدون احتلال موقع مرموق

❖ هيئة المراقبة لم تعد تواجهكم مثلما في السبعينيات؟

حميد: لا، أقل بكثير... لأنهم أصبحوا قليلاً {يفتش عن الكلمة المناسبة..} «أخبث». فواحدهم يقول لي على سبيل المثال، «كما ألاحظ أنت تنشط في توزيع بيان... » فأقول لهم، «يعني؟ الآخرون، ألا يفعلون ذلك أيضاً؟» - «نعم، إنما هي مجرّد ملاحظة، وأنا أسجّل هذا ... » ويقولون لي، «أما نحن، فلا نريد التفريق في تعاملنا مع مختلف النقابات». بينما أعلم شخصياً أنهم يفرّقون تفريقاً كبيراً بين النقابات، على سبيل المثال بين

الـ CFTC[*] والـ CGT ... وقال لي أحدهم {يقلّد اللهجة المطعّمة بلطف كبير}، «أنا فقط أقول لك هذا..» هذا معناه أنه لم يعد هناك وجود، كما في المصنع القديم، لفكرة النعاج الجرباء التي يُشار إليها بالأصابع.. إنما اليوم تفاقمت مسألة تأمين موقع مرموق. أنا رأيت شباناً منعوني من توزيع بيانات، أوقفوني.. قائلين، «أمثالك لا يجوز أن يكونوا هنا..» كان هذا منذ عامين، والأخ {الذي قال لي هذا}، ما كان له في المصنع سوى.. عامين، بل أقلّ، هو مؤقت قديم، ومن ثمّ شرحت له، بأننا نحن، من جانبنا، نقاتل منذ سنوات.. فقال لي، «نعم، وبسبب الناس من أمثالك سوف نصبح عاطلين عن العمل» {صمت طويل} خطاب الإدارة أصبح تمريره يتم بسهولة، بسهولة متزايدة باستمرار.. بفضل مراقبين صغار لا قيمة لهم على الإطلاق، ويريدون احتلال موقع مرموق.. كل هذا، هذا يلعب دوراً.. وصحيح أن شغل النقابات بات.. أكثر فأكثر مشقة..

❖ نعم، المندوبون إلى حدٍّ ما أصبحوا كالضائعين.. فالمراقبون إلى حدٍّ ما في طريقهم لأخذ محل المندوب. فهل في ورشتكم «مستشارو ورشةٍ»؟ كما في قسم الصهر والصبّ مثلاً. فالناس الذين قد تواجههم مشاكل شخصية يتشجعون لمراجعتهم..

حميد: عندنا، «مستشارو الورشة»، هم موجودون، لكن هناك على وجه الخصوص جماعة المراقبين. على سبيل المثال عندما يتحدث معلم الحرفة أو الرئيس في مقابلة.. فإذا، من بعدها، لا حظوا أن الأخ متغيّب، يستدعونه، «يعني، لا نعلم، لكن نحن مستعدون للنقاش بعمق في كل شيء، إذا كان عندك مشاكل عائلية، مالية، قرض للبنك، من جميعه، نحن مستعدون لمساعدتك.. لكن لا يجوز {يخفضون الصوت} أن تتركنا هكذا. إذا كنت مريضاً، تعال وقل لنا إنك مريض». بدأوا يؤثّرون على الحياة العائلية.. من بعدها يأتي شخص آخر.. فيقولون له، «انظر السيد {يقدمون اسم السابق} لقد جاء لمراجعتنا، قال لنا إن زوجته تريد الطلاق..» ويقولون،

---

[*] CFTC: نقابة عمالية مسيحية.

«نعم السيد.. حكى، وتمكنّا من حلّ مشاكله.. فذهبنا لرؤية السيد أو المدام..» هذه هي ألاعيبهم: يعطون أمثلة.. حتى لو كان الأمر يتعلق بأمور خاصة، سرية.. بين الناس.. يقولون، «أرأيت، نحن أنهينا مشاكل السيد..».

❖ هذه طريقة إضافية لإغراق الناس، لتوريطهم؟

حميد: نعم، نعم {صمت}.. لأن هذا بالفعل غير صحيح، فوق وبعد كل شيء! عندما يكون لديك قضية مع الابن، ومن جميعه.. أناس غير مرتاحين.. حينذاك يقولون، «نعم، لقد حكوا لنا عن مشاكلك.. نعلم أنك في حالة مرض.. أن عندك مشكلة. إذن نحن على استعداد لمساعدتك.» عندها يفكرّ الأخ، «على الأقل هم يبذلون بعض الجهد..» وحتى إن كان مريضاً، فهو يأتي! عرفت من هؤلاء واحداً، كان في حالة طلاق، يعني. فاستدعوه، ومن بعدها صار يتغيّب... قليلاً، بينما في الماضي كان كثير الغياب. فرجع، وذهبت لرؤيته، فقال لي، «الـ CGT لم تدعم موقفي هكذا..» كان ناقماً على الـ CGT! قلت له، «لكنك لم تأت لمراجعتنا... ثم نحن، يعني هذه مشاكلك الشخصية، نحن لا نريد التدخل في هذا... » قال، «نعم، لكن يلزم فعل هذا الأمر! يجب التدخل في القضايا الشخصية... » إذن، كما ترى، مداخلات الهرم الإداري، لها مفعولها.

❖ لكن أليس هذا ما تخشاه النقابات؟

حميد: آه، بلى! هذا أمر له خطره على النقابة... [صمت] لكنه خطر أيضاً على العمال... نحن من جانبنا نقول، «بيجو لها أجهزة التقاط في كل مكان.. هي تعرف كل شيء.. كل شيء بيدها وطوع أمرها.. في داخل المصنع وفي خارج المصنع على حدٍّ سواء..». لكنْ صحيح، كما يقال أيضاً إن المشاكل التي تنتظر العمال سوف تكون كبيرة إذا استمرت الأمور هكذا..

❖ وفي الوقت نفسه، يصوّتون مع الـ CGT بنسبة 60٪ في الانتخابات.

حميد: نعم، في قطّاعي أنا، كانت النسبة 77٪ أو 78٪. فهم يعلمون أن بيجو هي التي تضعهم في «الخرى» .... ويعلمون أيضاً أنه يمكنهم

الاعتماد على الـ CGT. إنما، في الوقت نفسه توجد ضرورة مراعاة بيجو، فهي ربّ العمل، يجب «تمشية» الأمور... [صمت]. لقد نجحت بيجو على طول الخط في إيهام العمّال بأن الـCGT غير قادرة على إدارة الـ CE.. فالعمال، هم أنفسهم يقولون، «في كل ما يتعلق بشروط العمل، أنتم، جماعة الـ CGT، أنتم أبطال، لكن بشأن كل ما يتعلق بمواردنا، الـ CGT هي الوجه الآخر للحزب الشيوعي، يعني... [حركة لفقدان الثقة]. لقد نجحت بيجو في إفهامهم أن الـ CGT، إذا ما سلّموها مسؤولية إدارة الـ CE، ومن جميعه، فأموال العمال سوف تُحوّل إلى الحزب الشيوعي، أو إلى منشآت أخرى... وهذا، له سوقه! فعندنا، من رجالنا، كثيرون يقولون، «نحن، نحن لا قدرة لنا على الإدارة... ».

العمال الذين يتشاجرون في ما بينهم،
هذا ما لا اقدر ان اتقبّله...

حميد: الحكاية التي أكثر ما تصدمني، لعلّها ذلك التصوّر لعمّال يتواجهون بعضهم على بعض. هذا أشدّ ما أخشاه بشأن المستقبل... أما أنا، فشعوري الشخصي، هو أن علينا عملاً يجب القيام به على مستوى الفصائل النقابية... أتكلّم عن جماعتنا، عن الـ CGT ... في هذا الاتجاه تحديداً يجب أن نسير... أن نجرّب جميع الوسائل... هذا النظام البيجوي... يجب أن نشير إليه بإصبع الاتهام...

❖ يجب تحليله...

حميد: قلت لرئيس زمرة كان يقول لي، «لكن لماذا تتحمّس إلى هذه الدرجة من الشراسة؟ لقد جئت خمس أو ست مرّات في النهار نفسه... ». قلت له، «شراستي لها سبب وحيد: فعندما يكون لعمال توترات مع رؤساء، مع معلّمي حرفة، أنا هذا لا يطرح عليّ مشاكل خاصة، فأحاول أن أرى، أن أرى أين هو مصدر الشقاق... لكن بمجرّد أن أجد نفسي في مواجهة موقف يتشاجر فيه عامل مع آخر، أو يحاول فيه عامل طرد عمال آخرين، أقول، أنا

إذا لم أفعل كل شيء، كل شيء من أجل تبديد هذا الـ.... [يفتش عن الكلمة المناسبة] هذا «الاعتلال» ... أنا، لا أعتبر أني قمت بشغلي». قلت، «العمال الذين يتعاركون في ما بينهم، هذا لا أتقبّله، أنا لا أقدر أن أتقبّل هذا». قلت، «هم شباب ممتازون، أولئك الذين وقّعوا، عمال اشتغلت إلى جانبهم، وشاركوا في إضراب عام 89 معي... لذلك عندما أراهم «ينبذون» أحد زملائهم شارك هو أيضاً لمدة أربعة أسابيع في الإضراب!.. هنا، أنا أقول «هذا فوق طاقتي، هذا ما لا يمكن أن أفهمه!» ثم، عندها، قال لي، «نعم...» فقلت له، «نعم، وحتى أنت، كن على حذر... لأنها سكين بحدّين... لأن العمال «المحرِّضين» هكذا، فغداً هدفهم سيكون الرئيس أو معلّم الحرفة». تحدثت عن النزاع الذي حصل معنا في إضرابات عام 89. قلت على سبيل المثال عن الإضراب الذي قمنا به: لقد أظهر قدرة العمال {على الانضباط}. لم نهاجم عناصر مراقبة النظام، الرئيس، معلّمي الحرف.. رغم أنهم أزعجونا، وأنهم أحاطوا بنا.. باستثناء بعض الشتائم.. لكن هذا لم يتدهور كما في أمكنة أخرى.» قلت له، «لكن إذا استمرّ يتم بالسماح بـ(هذا) ففي اليوم الذي يحصل فيه إضراب.. أنتم.. أنتم.. سوف تذبحون في حال التفاقم، بالعزقات الكبيرة، بقضبان الحديد، بأي شيء لا على التعيين، لأنكم أنتم مهدتم لهذا الأمر وما شابه.. بكل ما أنتم بصدد القيام به حالياً. هذه الممارسات، قلت له، أعتبر شخصياً أنها لا يجوز أن توجد. كنت سابقاً قد أخذت موعداً مع زميلين مندوبين لدى رئيس عناصر العاملين لمحاولة... التغيير قليلاً في هذه الأمور». والأمر الثاني الذي أراه هاماً أيضاً، هو أن معلّمي الحرف والرؤساء، يلعبون بورقة المعاشرة الاجتماعية، ورقة الاهتمام بالناس، لكن في نظري، هذا من باب النفاق...

❖ هم يؤمنون بهذا أيضاً؟ جزئياً..

حميد: يؤمنون بها جزئياً، هذا صحيح. ولكنهم، لنقل، لا يمارسونها! يريدون حلّ كل شيء، يريدون حلّ مشاكل العامل. لكن عندما يواجهون عاملاً عنده بالفعل مشاكل، ينزلون الحمل عن أكتافهم، «ما من اختصاصنا،

هذا». ما دام الناس يعملون، ما دام بالإمكان التأثير عليهم كي يعملوا أكثر... البقاء إلى ما بعد الدوام... المجيء قبل الدوام، في هذا عال العال! لكن عندما تصل النار إلى ذقونهم، عندها، هم ينفضون أيديهم، رغم كل شعاراتهم المرفوعة، «نعم، لكن لسنا هنا لحل مشاكلك الشخصية.» وبهذا الشأن، عندنا أمثلة ملموسة... لأن من الواجب تحقيق النظر، لنفهم أنهم ما عادوا يقبلون بالمرضى! وبهذا الشأن، الأمر واضح وبسيط، هم يعلنونه دون مواربة! فالمرضى عندهم، هم من المعوّقين. ويكادون يقولون هذا، «المريض لا يجوز أن يكون له عمل. العمل يجب تركه للآخرين، لأصحاب البنية السليمة. فالمرضى، العمل لا يليق بهم.» وهذا، أمر في غاية الأهمية: فنحن بهذا نعود سنوات وسنوات إلى الوراء.. علماً بأن الأخ المعنيّ لا يجوز عدم مجيئه أو أنه مجرّد من حقوقه.. بسبب أنه معوّق..

❖ هو نوع من منطق النبذ قيد التحضير؟

حميد: هم ينبذونك دون أي لبس.. {مقلّداً أحد رؤساء العمل}: «هو مريض، هو دائماً مريض، إنه لا يأتي، هو مريض..» هم يبرزون هذا الأمر، يوردونه في جميع المناقشات. والعمال، من كثرة سماعهم لهذه الأحاديث.. صحيح، يبذلون كل جهدهم كي لا يمرضوا.. ولكن، في ظني، على العمال أن ينتبهوا.. هذا ما أشرحه للناس.. ففي غدٍ لا يمكن لأحد أن يتأكد من أن صحته ستظل جيدة، حتى مع ممارسة الرياضة، وكل ما يخطر على البال.. ففي هذا اليوم أو ذاك، يقع واحدنا مريضاً، يتعرّض لحادث (...).

آذار 1991



النظام القديم (في الستينات والسبعينات)، المرتبط بحالة من حالات توازن القوى بين المناضلين، والعمال، وعناصر مراقبة الانضباط، كان

يفترض مجموعة كاملة من الشروط المسبقة. وبادئ ذي بدء، كان يفترض «توفيقاً» بين استعدادات تمّ تحضيرها على مرّ الزمن. لكن هذا النظام تخلخل في العمق، بسبب العديد من التغيرات في جميع مجالات الوجود. فالإدارة، في رأي حميد، بصدد تكريس نمط فاسد في الإدارة، بمراقبيها، ومكافآتها، والاستنهاض المستمرّ للمصلحة الفردية الذي يعدّل جذرياً شروط العمل والحياة الجماعية كما يهدد العلاقة «الطبيعية» (في نظره) بين، العمال والمندوبين.

وهو غير مخطئ عندما يفكر بأن الإدارة تلعب بشكل منهجي منظم تلك الورقة. وهو، بالطبع، يوجه انتقاده بادئ الأمر إلى الطريقة التي أوصلت بعض أعضاء الإدارة إلى تشجيع عمال الزمرة. ويضع يده دون شك على نقطة شديدة الأهمية: فالنشاط الذي يقوم به عناصر المراقبة (الجدد) يدخل في إطار استراتيجية تسير على عكس استراتيجية كانت موجودةً في الورشات القديمة وعمادها تأليف زمر عمل جديدة... لكن الأمور أكثر تعقيداً مما يظن عندما يوجه الإدانة إلى عمل الإدارة لا غير. وإذا تشدّدنا قليلاً، قد نجد أنفسنا مدفوعين لنقول إن مجموعة كاملة من التغيرات قد حصلت ضمن الظروف التي كانت تسمح للنظام الرمزي والسياسي القديم (الذي كان يُسند مثلاً مهاماً محدّدة، أدواراً دقيقة لكلٍ من المندوب ورئيس الزمرة) أن يستمر ثابتاً وأن يعيد إنتاج نفسه (مثلاً، المراقبون الجدد هم، في غالبيتهم العظمى، مختلفون كل الاختلاف، اجتماعياً ودراسياً، عن الرؤساء القديمين للزمر: فمنهم عمال مؤقتون قدامى ترقّوا في السلم الوظيفي).

فيما مضى كان كل شيء يجري كما لو ،ضمنياً، أن العلاقة بين المندوبين وعناصر مراقبة الانضباط، كانت منظمة بما يشبه الاتفاق الضمني، العقد الأخلاقي. والخلافات التي كان يمكن أن تضعهم وجهاً لوجه، هي من الخلافات التي كان يمكنها أن تكون عنيفة، ولكن كان لكل واحد سجلّه الخاص عن مجال التدخّل، وهو ما لا يتعرض له الآخر. كان

لكل واحد تقنياته (وكانت العريضة إحداها)التي لا يستخدمها الآخر. وكان كل واحد يعلم إلى هذا الحدّ أو ذاك القواعد الرائجة و «إلى أين لم يكن يجوز الذهاب أبعد». فهذه الحدود هي التي تمّ تجاوزها، قواعد التقاسم تلك أصبحت مخروقة.

وفي الوقت نفسه، ما يكتشفه حميد، دون أن يعترف لنفسه صراحة به، هو أن أصحابه، «المضربين» كما قال عنهم، هم الذين دخلوا من تلقاء أنفسهم في منطق الهرم الإداري، ربّ العمل، وهو منطق يتأسّس في وجه جميع مبادئ التضامن العمالي من النمط القديم _حتى أن كاتبي العريضة وصلوا إلى حد المطالبة بطرد «مُضرِب قديم». وما يشعر به حقاً هو أنه في هذا الأمر أمام اكتمال عملية بدأ العمل بها منذ فترة طويلة وهي لا تكتفي بنقص التأثير المخرّب للإدارة، وإنما تندرج ضمن عملية بطيئة لتفكيك الهيكلية التنظيمية.

وهكذا فنحن نرى الاضطراب الأخلاقي لمندوب من النوع التقليدي تربّى، رغم أنه أجنبي ورغم أنه شابّ نسبياً، وفق منطق النموذج القديم للمناضل، وهو النموذج الذي استمر طويلاً، لمجموعة من الأسباب المعقدة، في سوشو، وقاوم هناك أفضل بكثير مما هو في باقي المصانع. ويكتشف في الوقت نفسه أنه لم يستطع القيام بمهامه («عمله» كمندوب) كما في السابق، أن هناك شيئاً غير طبيعي في الموقف الذي عليه أن يتصدّى له، وأنه، من طرف آخر، يجب عليه أن يكون حاضراً أكثر من أي وقت مضى في المعمل لتأمين الدفاع عن «الأصحاب»، فهو لا يقدر أن يتخلّى عن هذه المهمة، وأنه لا يستطيع «التخلّي عن كل شيء»، في وقت أصبحت فيه شروط العمل أسوأ منها في أي وقتٍ مضى.

يشعر حميد من الآن فصاعداً أن الفنيين الذين يتزايد عددهم باستمرار في المعمل، جماعة الـ BTS (الفنيين المختصين) كما يسمّونهم، وعناصر المراقبة الجدد (الذين يتقارب تأهيلهم مع تأهيل الفنيّين)، وغالبية المراقبين هم جميعاً في شِباك منطق آخر، وقد أصبحت أقدامهم فوق أرض

مختلفة كلياً عن الأرض التي كان يقف عليها رؤساء «الزمرة ذات النمط القديم ». فيما مضى، في الورشة القديمة، كان كل واحد يعرف معنى الحصول على بلوزة رئيس زمرة، بالنسبة لعامل مشهور بأنه من المتملقين للإدارة وكان يمكن التنبؤ بما سيكون عليه منطق سلوكه. أما اليوم، فمن الصعب فهم ما ستكون عليه استراتيجيات الفنيين الجدد.

المفاهيم الواضحة تتصدّع اليوم. والعلاقات من النمط القديم آلت ببطء إلى الفساد، كأنما لحقها التدمير من الداخل. وهاهي تأثيرات هذه الخلخلة تقفز دفعة واحدة أمام ناظري المندوب. فهو منها في حالة اضطراب .

ساندرين غارسيا

الإبداع المسروق

قابلت كلودي للمرّة الأولى في «بيت المرأة» في باريس، وهو مقرّ يقع في الدائرة الحادية عشرة، وتجتمع فيه سحاقيّات ومناضلات من أقل فروع الحركة النسائية شأناً في الميدان «الثقافي». كانت مسجلة في «دورة إعادة تأهيل» من بعد فترة طويلة من البطالة، وموضوع الدورة الأساسي ما يتعلق بأمور الاستقبال والإدارة، وهي تفتح الطريق للحصول على وظائف مؤقتة و«تحت التصنيف» إذا ما أخذنا بعين الاعتبار دراستها الصحفية وخبرتها المهنية (كانت سابقاً قد حصلت على عمل ثابت في إدارة الشؤون الاجتماعية الـ INSEE. ثم أدارت ملجأ لضحايا العنف الزوجي).

لقد صدمني فيها، منذ أول لقاء بيننا، ذلك المظهر «المأساوي»، وما يشبه الرصانة التي تبترها انفجارات مفاجئة من الضحك الحادّ، كما لو كانت تحمل في داخلها مأساة شديدة الوطأة؛ وهي من الشدّة بحيث أنها، كُلّما عزمت أمرها على أن تكشفها لنا، لم تكن تستطيع السيطرة على نفسها من الاسترسال في حديث لا ينتهي، راجعة إلى كل فصل من حكايتها بانفعال لا يفتر، حتى لتعجز في أغلب الأحيان عن ضبط دموعها، حتى عندما تحاول جهدها لإبراز «الجانب الإيجابي» في تلك المغامرة، مغامرة إيجاد ملجأ، هو «إبداعها»، وهو، بالتأكيد قد «سُرق» منها، لكنه «احتفل مؤخراً بمرور عشرة أعوام على إنشائه».

أمضت طفولتها في الريف ضمن وسط عائلي يهيمن عليه أب عنيف من عادته ضرب زوجته ضرباً وحشياً، وتعرّفت على استغلال النساء في البيئة الزراعية، فكان من نتيجة جميع هذه التجارب أن دفعتها لتحمل منذ الطفولة الباكرة «نظرة نقدية إلى المجتمع، إلى صنوف الظلم، وخصوصاً الظلم الواقع على النساء» وقد وجدت طريقها للتعبير عن هذا الاستعداد للتمرّد النسائي أثناء لقائها بالـ MLF (حركة تحرر المرأة)، في السبعينات. فعاشت آنذاك حقبة من الفوران، من زخم الحماسة الجماعية، فانتقلت من فرقة إلى فرقة، من نقاشات إلى نقاشات، من أعمال نضالية إلى أعمال نضالية. فأخذت مكانها بين «المناضلات الثوريات»، وانضمت إلى «السحاقيات الحمر»، وهي فرقة سحاقيات شيوعيات، ثم أصبحت في فرقة «التوعية»، حيث خالطت علماء اجتماع وأطباء نفس و «تطور تفكيرها». وتبدو لها تلك الخبرة ذات غنى كبير لأنها قطعت دراستها العليا بسرعة كبيرة فصار شعورها أنها بحاجة عميقة للتعلّم. فمن بعد فترة أولى من النشاط –العمل في التحقيقات وهو ما أخذها من مدينة إلى أخرى–، ورغم الارتياح الذي كانت تجده في مخالطة النساء وخصوصاً ذوات الميول الجنسية المثلية اللواتي تلتقي بهن في ذلك الوسط المهني، أتعبتها تلك الحياة الجوّالة، فعادت إلى (إ).، المدينة التي ولدت فيها، كي تستقرّ هناك وتفتش عن وظيفة. حينذاك اشتغلت لسنوات في الـ INSEE. وفور استقرارها في (إ).، تلك المدينة من شرق فرنسا، حاولت عبثاً إيجاد المناخ النضالي الباريسي. فلم تجد في تلك «المدينة الميتة» إلا مناضلات الـ MLF، المشغولات حصراً وتحديداً بـ «النضال الطبقي» ضمن المنظور الخالص لتحركات أيار من عام 68.

فتكاثرت نقاط الاختلاف: الأولوية يجب أن تكون لقضية «العمال» أم لقضية «الفلسطينيين»، للنساء في مواجهة السيطرة الذكرية، أم الأفضلية المعطاة للتفكير النظري أو لـ «النضال الإيديولوجي» أو المساعدات العملية لصالح النساء المضطهدات، فتخلت بسرعة عن تلك الفرقة التابعة لـMLF

-ذلك التنظيم الذي ما ينفك يحاول «تحريكها»، بحقد ومشاعر متعاظمة باستمرار، منتقداً في ذلك الطابع «البورجوازي النموذجي» لخطوتها- لتتخرط في أعمال محسوسة لصالح النساء.

يعود الفضل إلى «صاحبات باريس» اللواتي أوحين لها أن تؤسّس في (إ).، على نمط الـ SOS النسائية في باريس آنذاك، فرقة ملحقة بـ «رابطة» حقوق النساء في باريس (وكانت سيمون دوبوفوار رئيسة الشرف لها)، غايتها النضال في وجه جميع أشكال العنف في الحياة الزوجية. منذ تلك اللحظة، رمت كل حياتها وكل طاقتها في ذلك المشروع: فعلاوة على عملها في الـ INSEE، نشطت، على مدى سنوات، في تلقّي مكالمات النساء اللواتي يعاملن معاملة سيئة، فتساعدهن على إيجاد الحلول، خاصة القانونية، ليتخلّصن مما هنّ فيه، وحاولت تحريك حساسية الرأي العام وإجبار المؤسّسات على الاهتمام بهنّ. وشيئاً فشيئاً تبرعم في ذهنها ما سوف يصير مشروع الفرقة: إيجاد ملجأ للنساء اللواتي يُضربن، بما يسمح لهن بالنجاة من تسلّط الشريك الزوجي، وبإعادة تنظيم حياتهن.

وانخرطت روحاً وجسداً في معركة صعبة من أجل أن تقوم المؤسّسات المعنيّة -الـ DASS، الأطبّاء، مندوبة «الوضع النسائي»، هيئات السلطة المحلية- بالاعتراف بضرورة فتح ذلك الملجأ وتأمين المساعدات المالية اللازمة لتأمين سير العمل فيه. وقد نجحت، أحياناً على حساب صحّتها، في التغلّب على جميع العقبات وجميع المقاومات التي رفعتها المؤسّسات في وجهها قبل الموافقة على الاعتراف بـ «عملها». على أن النضال لصالح النساء، الذي أصبح علّة وجودها، لم يتوقف: فكانت تطمح بإيجاد ملجأ ثانٍ وأن تشرع بنشاطات جديدة.

تلك المعركة التي أثارتها في (إ).، والتي كانت فيها أكثر المشاركين نشاطاً، وضعتها وجهاً لوجه، لوحدها في أغلب الأحيان، مع أزواج النساء المحتميات بها، وجعلت منها المحاوِرة الرئيسية مع المؤسّسات التي يجب إقناعها، وما كان لتلك المعركة أن تنجح، كما تقول، كما قادتها بكل حزم، لولا

صديقاتها مناضلات باريس، الأكثر خبرةً والأقوى سلاحاً منها، فهنّ اللواتي قدّمن النصائح، والمساعدات، والدعم المعنوي وأحياناً المساعدة المباشرة (فبفضلهنّ، على سبيل المثال، أمكنها أن تفرض الاهتمام بإضبارة مشروعها على الـ DASS، التي ترتبط بها المعونات المالية الضرورية لتشغيل مشروع الملجأ، أو على مندوبية «الوضع النسائي»)؛ وقد وفّرن لها أيضاً اليقين بصحة المعركة المعزولة التي كانت تخوضها في تلك المدينة الريفية المنغلقة أكثر مما هي الحال في باريس، وحيث كانت الفرقة النسوية الوحيدة فيها معادية لها عداءً لا رجوع عنه: فكانت بحاجة، كما تقول، للشعور بـ «الأمان» من خلال الاقتناع الراسخ بأن نشاطها، المرتبط بنشاط صديقاتها في باريس، هو نوع من الامتداد الطبيعي لذلك النشاط.

وفي اللحظة التي تحقق فيها الانتصار ظهر التباعد، الذي كان موجوداً دون شك منذ البداية، بين نشاطها النضالي وبين نشاط باقي أفراد فرقتها: فقبيل افتتاح الملجأ، خرج من الفرقة عدد كبير من صديقاتها، بعضهن لمتابعة الدراسة، وبعضهن الآخر لأنهن عندهن «أشياء أخرى يعشن من أجلها»، كما تقول كلودي، التي ليس لها، حسب كل الظواهر، أية حياة عاطفية خارج الفرقة، ولا أي طموح خارج حدود مشروعها النسائي. فظلت وحيدة حيال ما أصبح عملياً «إبداعها»، ولم يكن لها في وحدتها حتى أن تستمتع بانتصارها الذي بدأ ومعه طعم الهزيمة، إذ لم يعد بإمكانها الاعتماد إلا على قواها الخاصة، وأنها أصبحت تفتقر مذ ذاك إلى الاندفاع بأمل التحريك الجماعي للمرأة.

على أنها لم تتوقف هناك: فاستقالت من وظيفتها لتحتل موقع مديرة الملجأ، موليةً عناية نشطة لأعمال الترميم، ومن ثم استقرت هناك، وعاشت مذ ذاك غارقةً، ليل نهار، بجميع المهام الجديدة التي تستجدّ لتشغيل الملجأ. في ذلك التاريخ من بداية الملجأ، عندما لم يعد بالإمكان إدارته بالاعتماد على العمل الطوعي لا غير، أطلت جميع الصعوبات برؤوسها. فوظّفت سكرتيرة، وطبّاخة، وحارسة ليلية: «لم يكن في هذا مشكلة»، كما تقول،

ولكن كان عليها أيضاً أن تؤمّن «مربية وطبيبة نفسية» فاكتشفت على الفور بشاعة التعاون المستحيل، بشاعة التعارض المطلق بين منظورين مختلفين للعالم: منظور المناضلة التي تستجيب قبل كل شيء لنوازع القلب، للتمرّد، للتعاطف، والتي تتصرّف في أغلب الأحيان على أساس الإسعاف المستعجل والارتجال السخيّ والخلّاق، ومنظور «المهنية»، الذي تستجيب تصرّفاته المحايدة والمنظّمة سلفاً لمنطق بيروقراطي خالص. فـ «المربيّة، هذه مهنة... ولا بد من إبراز جواز المرور» حيال متطلباتها، كما تعلّق كلودي، التي تستعمل، بنيّة محدّدة ودقيقة، كلمة «مهنة»، بالطريقة نفسها التي استعملت فيها في تكملة حوارها، عن قصد، كلمة «موظفين» (بشأن الملجأ) الذين «لم تعد تربطهم صلة -كما شرحت- بالعقلية النضالية»، فهذه «تفكر بنقابتها» ثم هي، «تقول لي: هذا ليس عملي». وقد دفعها عرضها المشحون بالانفعال للمواجهة بينها وبين تلك الموظفة «المصنّفة» إلى تحليل تفصيلي دقيق للأمور الإجرائية المعروفة في مجال البيروقراطية، بكل ما هناك من تسميات وتصنيفات إدارية تجريدية ومحايدة، وتأثير الفاصل الاجتماعي الذي توجده هذه الأدوات المعدّة للتفكير والفعل بين العمال الاجتماعيين الذين يحملونها في رؤوسهم ويستخدمونها وبين «زبائنهم»، ما فيها من توزيع وتخصّص في منتهى ضيق الأفق للمهام بحيث تنتفي جميع المبادهات، استخدام المصادر المؤسّساتية والجماعية الذي من نتائجه غضّ النظر عن تحريك مصادر الشخص ذاته وتحريض مسؤوليته الشخصية. فمن ملاحظاتها، على سبيل المثال، أن مربيّة الملجأ «ما عاد عندها حتى مجرّد الأمل بتلك النسوة، إذ هن جمهور لا غير عليها التعامل معه! ذاك كان عملها». كما قدّمت وصعاً لاضطراب نساء الملجأ اللواتي يتشكّين «من خندق يفصل بين العاملين وبينهن». وشرحت لي، «معي أنا، لم يكن هناك خندق يفصل بيننا»، فما يجري للنساء اللواتي يُضربن، «كان يمكن أن يجري معي أيضاً»، «فلا أشعر انني فوق، عند السقف، والأخريات على الأرض»، وأضافت، «القضية وما فيها أن بعض النوعيات من البشر يقول واحدهم: يعني، أنا عندي مهنة، أنا مربية، أو طبيبة نفسية». وبشأن جميع أصناف الوظائف التي تطرّقت إليها،

أبـدت الفكـرة ذاتـها دون أي وهـم، إنمـا دون أيـة نيّـة سـيئة: فالأطبـاء، والمشرفات الاجتماعيات لا يتحمّلون أية مجازفة، دون شك لأنهم يحترمون جميع أشكال السلطة، ويحتمون وراء «دليل النفي» المريح الذي توفّره لهم مبادئ السلوك الوظيفي. وقد دفعتها أريحيّتها إلى التخفيف نسبياً من حدّة انتقاداتها فأوردت الاختلاف بين الأفراد في مجال «الانفتاح العقلي والعاطفي» في مختلف ميادين العمل («من بين البشر من هم فعلاً أطباء»)، وهاهي تستنتج ببراءة بشأن نشاطها الخاص: «... كانت بالنسبة لي مسألة مزاج، فأنا كنت أحب هذا. صحيح، كان هناك مجازفة، وكان هناك مواجهات لا غنى عنها، وأنا، في نهاية المطاف، كنت أفعل ما لم يفعله أناس يتلقّون أجورهم من المجتمع.»

«المربّية، (نمرة) نقابية» تحتمي داخل «النظام الداخلي» وذكر «حقوقها»، «تتزايد طلباتها أكثر فأكثر» ولا تهتم بنساء الملجأ، ولهذا سرعان ما أصبحت لا تطاق وحاولت التخلّص منها قبل انتهاء فترتها الاختبارية: وإذ أحسّت بالتهديد فوق رأسها، لم تتردّد هذه الأخيرة من استنفار مدام دو (×). شقيقة أديبة شهيرة قامت بدور هام في الحركة النسائية، وكانت كلودي، بعد أن أصبحت مديرة للملجأ، ولأنها لا تستطيع الجمع بين وظيفتين، قد طلبت منها أن تستلم بدلاً عنها الوظيفة، الفخرية كلّياً، وظيفة رئيسة الجمعية، على أمل أن تستفيد من الرأسمال الرمزي المرتبط باسمها لاستخدامه في علاقاتها مع الهيئات السياسية والاجتماعية؛ فهذه الرئيسة، التي كانت، حتى تاريخه، تعيش بعيداً حياتها كفنانة- رسّامة دون أدنى انشغال بحياة الملجأ، ثارت ثائرتها عند إعلان التسريح وقرّرت بغتة أن واجبها يُملي عليها التدخّل لإنقاذ الأرثوذكسية النضالية المهدّدة: فعندما دُعيت كلودي إلى جلسة عامة، لمعاينة ما قامت به من نشاط، وجدت نفسها بكل بساطة في مواجهة عدوّاتها الدائمات، جماعة الحركة النسائية القائلة بـ «صراع الطبقات»، وهؤلاء كانت الرئيسة قد نجحت في إدخالهن إلى التجمّع من وراء ظهر كلودي فأصبحن في صف الرئيسة وتحالفن جميعاً معها للسيطرة شيئاً فشيئاً على مقاليد الأمور في الجمعية؛ لقد أمكنهن،

متكاتفات، وضع استراتيجيات مختلفة بغية إقناع كلودي بخطئها الوظيفي، ثم حاصرنها في وضع لم يعد له من مخرج ممكن سوى الاستقالة.

انهزمت كلودي، و «جَرَحها في الصميم» تكالب المناضلات اللواتي لم يغفرن لها نجاحها في تحقيق شيء ما حيث لم يستطعن هن أنفسهن تحقيق أي شيء ما عدا جمل وشعارات فارغة وعديمة الفعالية، وقد استغرقت وقتاً طويلاً في التغلّب على الشعور بأنها أضحت لا شيء وبأنها لم تعد تملك شيئاً، وهي التي «وضعت كل كيانها في الملجأ»، الذي «أعطاها كل شيء» حتى أصبح هو «كيانها الكامل». لكنها ما زالت تؤكد، مترفّعة عن الحقد: «الملجأ يمشي كما يجب، وهذا، هذا هام»؛ كانت تجربتها الشخصية قد علّمتها أبلغ الدروس، تلك المغامرة التي هي مثل ملخّص مكثّف عن تاريخ الحركة النسائية بأكملها، وهي تعترف «أنها صارت حذرة متشكّكة حيال الآخرين»، حيال فرق مناضلات الحركة النسائية، واجتماعاتهن، ومناقشاتهن؛ لقد فهمت أن السيطرة الاجتماعية والثقافية تخترق أيضاً الحركة النضالية النسائية، فهنا أيضاً، للسلطة وجودها وهي بيد «تلك التي تتكلم أفضل» والتي عندها «معلومات أفضل». قالت، «هناك أناس، يدعونهم يناضلون، يدعونهم يعملون، لكن لا يجوز على وجه الخصوص أن ينجحوا. هم، خصوصاً، غير مكرّسين لهذا. ليس هذا من حقهم. فأنا لست مدام دو (×). أنا كلودي».

مع مناضلة في الحركة النسائية

حديث أجرته ساندرين غارسيا

«هنّ ينتقدن المجتمع،
لكن الأسهل بكثير التوجّه إلى الداخل،
عن طريق التهديم»

كلودي: أنا سوف أبدأ من الفرقة التي أسّستها. وعلى أي حال، سوف أعود إلى نقطة الانطلاق. نقطة الانطلاق تلك هي الطفولة، وفي طفولتي، رأيت على الفور اضطهاد المرأة. فكما قلت لكِ في المرة الأولى، أمّي كان أبي يضربها في كثير من الأحيان... وكان أبي رئيس محطة قطار، بعد أن بدأ عمله كعامل، بكل بساطة.

❖ وأمّك؟

كلودي: أمي اشتغلت في المحاسبة، يعني موظفة إدارية، إلى حين زواجها، حيث لم يكن من المقبول أن يكون لدى امرأة أطفال وتستمرّ في شغلها. كان هناك مشاهد كثيرة، فأبي كان في غاية العنف. بمعنى أنه كان يرميها أرضاً، ويروح يرفسها، وأن الطاولات تُقلب بما عليها، إلخ،إلخ. لم يكن يشرب، لكنه كان في غاية العنف. طيب، يعني، لن أدخل في التفاصيل. كان قاسياً لأنه ببساطة كان يود الاحتفاظ بماله، الخروج مع نساء أخريات، وما كان يرغب أبداً أن يتحمّل مسؤولياته. كانت رغبته أن يعود، فيجد

طعامه جاهزاً، ثيابه مغسولة، وهي، لم تكن تقدر إلاّ أن تقول له، «لكن عندك أطفال، لكن عندك مسؤوليات» باختصار، وتنطلق المشكلة.

❖ كان عندها يأخذه الغضب...

كلودي: كان يأخذه الغضب. وكان للقضية جانب آخر، جانب القرية، أي أنه كان صورة مصغّرة لعالمٍ بأكمله. وهكذا أمكنني أن أرى، فيما يخصّ جدتي، وعرّابتي، كيف كانت معاملة الرجال للنساء.

❖ بمعنى؟

كلودي: كنت أرى خاصة عمل النساء المرهق وكان ذلك في الفترة التي بدأ فيها عمل أول مجموعة من الجرّارات. فمنذ تلك الطفولة، صرت أنتبه، فكانوا يقولون لي: الرجل هو الرئيس، هو الأقوى، وكنت أرى تلك النوعيات فوق الجرّارات والنساء يعزقن من خلفهم!

❖ وكنت تشاركين في تلك الأعمال، أنتِ؟

كلودي: كنت أتفرّج، أراقب، كنت أقضي العطلة الصيفية، فوجود هذه القسوة التي كنت أراها باستمرار فتح عينيّ بسرعة كبيرة، كبيرة. وتكونت عندي نظرة انتقادية للمجتمع وأنا صغيرة جداً، جداً. خصوصاً ما يتعلّق بالظلم الواقع على النساء. وكنت أسمع أشياء خرقاء: عندما يضرب الرجل، يكون دائماً على حق، فهو يعلم لماذا يضرب، وبالتالي كان هذا قاسياً جداً، جداً، لأنني، أنا، من جانبي، كنت أعلم ما كنا نعيشه. إذن، هي حالة وعي، لكنها حالة منعزلة. لأنني حتى لو رحت أتحدث عن ذلك مع صاحباتي في المدرسة، فما كان عندهن التجربة نفسها ولا النظرة نفسها.

❖ كان يمكن أن يعشن الأمر ذاته إنما لا يحملن النظرة النقدية؟

كلودي: يجوز. لكني كنت على يقينٍ عميق أنني في يوم من الأيام سوف ألتقي بنساء يفكّرن مثلي، ويحملن الحساسية نفسها، لماذا، لا أعلم، حيث أنني كنت وحيدة، ولكن كنت على يقين أنني سوف ألتقي بنساء يفكّرن مثلي. إذن في سن التاسعة عشرة جئت إلى باريس. وكنا في عام 70 وبسرعة كبيرة، بعد مضيّ شهور قليلة، وجدتُ «الحركة». يعني، كان هناك

تجمّعات كبيرة، مناقشات كبيرة، فوجدت نفسي بين فتيات قادمات من الأقاليم، ولديهن التجربة نفسها. فعشت فرح الالتقاء بهنّ.

❖ ما كانت تلك الفرق؟ لأن الـ MLF (حركة تحرير النساء) كان فيها أكثر من اتجاه؟

كلودي: في البداية، كان الأمر اعتباطياً إلى حدٍّ بعيد. فكنت مع ميول المناضلات الثوريات، وكان هناك فرقة أخرى هي فرقة «السحاقيات الحمر»، فكانت يعني مجموعة فرق تنشط في عطلة نهاية الأسبوع، لأنني، أنا شخصياً، كنت أشتغل في الأقاليم، كنت محقّقة، ولم أكن أرجع إلا مساء السبت. بالمقابل، الفرقة التي ساعدتني مساعدة كبيرة هي فرقة «التوعية». فتطور تفكيري تطوراً كبيراً لأنهم في هذه الفرقة... أنا كنت قد درست في مدرسة للصحافة، ثم توقّفت، بالكاد دخلت إلى كلية الصحافة، وفي تلك الفرقة كان هناك بنات باحثات اجتماعيات، ومنهن مختصّات بعلم النفس، وكنّ أعمر منّي بقليل، وبالتالي، تعلّمت أموراً كثيرة جداً. وفي الوقت نفسه، التضامن الكبير، الرفقة الجميلة، يعني. من بعدها، وهنا نحن في عام 75، سافرت لفترة قصيرة إلى إسبانيا ثم رجعت إلى (إ).

❖ بسبب عملك؟

كلودي: رجعت إلى (إ). لأنني كنت قد سافرت كثيراً في سبيل عملي، من أجل التحقيقات، كنت أتنقّل دائماً من أجل تحقيقاتي. أسبوع في غرونوبل، آخر في ليل. كنت دائماً في سفر.

❖ ما الجهة التي كنتِ تعملين من أجلها؟

كلودي: كنت أجري تحقيقات من أجل ل. {مشروع غذائي ضخم} وهناك أيضاً، كنت مع نساء، ولكنهن لا يشاركن في الحركة النسائية، لكن كان التضامن بيننا كبيراً لأننا كنا وحيدات، مع بعضنا، من الأقاليم، صغيرات في السن، كان لدينا رغبة في العمل، لكن كان لدينا أيضاً رغبة في أن نتسلّى، كان دخلنا جيداً لأن التحقيقات لم تكن منتشرة بعد بشكل كبير، وكان علينا القيام بكل الشروح اللازمة في الوقت نفسه. فتلك أيضاً خبرة

موازية إلى حدّ ما للنضال في الحركة النسائية، مع نساء يعشن حريتهن المطلقة، مستعدات للسفر، وبالتالي، كان لا بدّ من وجود عدد كبير من السحاقيات، لكن يعني، بعد مضيّ وقت ما، فنادق، مطاعم، يأتي الشعور بالانزعاج، فكان عندي رغبة أن أستقرّ قليلاً. فعدت إلى (إ). وفيها وجدت عملاً في الـ INSEE، كان هذا أول شيء فعلته وكانت مدينة ميتة، بالمقارنة مع باريس، وبالمقارنة مع كل تلك السنوات. رغم كل شيء، كان هناك فرقة ناشطة، واسمها الـ MLF. ذهبت إليها إذن، لأرى فيها فتيات، تقريباً خمس عشرة، منهمكات بالنقاش حول موضوع عامل جرى تسريحه من عمله... (...) عندها قلت لنفسي، هذا لا يمشي. وكان في الفرقة فتاة لديها مثل ردّة فعلي، كان اسمها «آنيك»، وكانت قادمة من الولايات المتحدة. وقد سبق لها أن نشطت لمدة عام مع الحركة النسائية الأميركية. كنا إذن اثنتين، نحمل خبرة حقيقية في النضال النسائي، ضمن منظور نسائي، بنظرة انتقادية نسائية، وكان لنا حظ اللقاء ضمن هذه الفرقة التي يمكن أن نَصِفَها إلى حد ما بأنها: «عمّالويّة». لذلك كنت أتركهن يسترسلن في الكلام قليلاً، والكلام هو هو على مرّ الأسابيع، فقلت لهن، «اسمعن، يخيّل إليّ أنكنّ لا ترين الـ MLF، وأنه لا علاقة لكنّ بتاتاً بالـ MLF ولا مع قضية النساء، أنتنّ لا حديث عندكنّ إلا عن العمال. عن العمال من الرجال! ما علاقة هذا بحركة الـ MLF؟» كان هذا تعليقاً على جميع المناقشات التي أجريتها معهن... وبالتالي فقد جاوبنني، «عندما صراع الطبقات يشق طريقه، تنحلّ قضايا النساء طبيعياً..».

فرقة لا تكون فرقة تنظير

إنما فرقة عمل

❖ كان موضوعهن صراع الطبقات!

كلودي: نعم، هذا كان عن صراع الطبقات! علماً أنني أنا شخصياً كنت قد درست قليلاً من التاريخ، لأن هذا يهمّني، وبالتالي، كنت أعلم تماماً

أن كلامهن غير صحيح وقلت لهن إن من المستحيل الاستمرار هكذا، لأنني كنت قد رأيت نساء عندهن مشاكل بالفعل، مشاكل نسائية، وأنهنّ، حرفياً، يُطردون من المركز، والتوضيح «هذا لا يهمّنا، هذه القصص لا علاقة لنا بها». إذن، كنّ يخدعن النساء. فقلت لهنّ على المكشوف، «لا يمكنكنّ الاستمرار هكذا. يجب أن تحملن اسماً مختلفاً. أما القول بأنّكن ممثلات الـ MLF، وخداع النساء، ومن جميعه، هذا لا يمكن أن يمشي على أي حال، إذا لم تغيرّن الشعار في مدى ثلاثة أسابيع، أنا سوف أخبر جميع صاحباتي في باريس، وسوف يصبح الأمر معروفاً». كان هذا واضحاً، صريحاً ودقيقاً. فدبّ فيهنّ الخوف، وغيرّن اسم المركز. {تعرض بعدها «العيد النسائي الكبير» الذي نظمته تلك الفرقة نفسها، وكان الموضوع المحوري فيه فلسطين، وعنف الانتقادات التي وجّهت إليها على مداخلاتها، وخيبة النساء القادمات من ألمانيا لحضور تظاهرة لصالح المرأة تُستبعد فيها المرأة عن كل المحاور ليتبيّن مدى «الإساءات» التي يمكن لمناضلات الـ MLF إلحاقها}.

ثم بعد مرور شهور لا غير، قرأتُ في صحيفة محلية خبراً عن ثلاث نساء لاقين الموت تحت عنف الضرب من أزواجهن وذلك على مدى ثلاثة شهور وفي كل مرة كان الخبر يصدمني. وجاءت عرّابتي تزورني في يوم من الأيام، وتقول لي، «هذا شيء غير معقول فعلاً، في (إ). توجد امرأة رُميت من النافذة وماتت تحت الضرب، والعرص زوجها ولا أبالي». لأنني حصلتُ بعد ذلك على مقالة الصحيفة، وكان مسجّلاً على الخبر أنه أزمة قلبية. جعلتني هذه الأمور مجتمعة أتصل بصاحباتي اللواتي كنت على علاقة معهن لأخبرهن بما كان يحصل. فقالت لي إحداهن بعد ثمانية أيام، «اسمعي، هنا بدأنا بتأسيس SOS (مركز إغاثة) للنساء، قد يكون من المهم أن تفعلي مثلنا» قلت، «نعم، آنيك وأنا، نحن وحيدتان، وليس لدينا شيء، فعلاً لا شيء، ماذا تظنين، فكيف يمكن الإقلاع بالمشروع؟» فجاوبتني، «بلى، بلى، يمكنك رغم كل شيء المباشرة يا كلودي» -هنّ قد دفعنني دفعاً بشكل ما، شجّعنني. وكان أن بدأنا بالاستعانة بهاتفي الشخصي، فكنت أشتغل نهاراً في الـ INSEE،

يعني بدوام المكاتب، وهكذا على هاتفي الشخصي في البيت، الذي بقي في بيتي ثلاثة سنوات، تلقّيت 10.000 مكالمة من نساء يعانين من الضرب. فرحتُ أعمل فعلياً ليل نهار.

❖ كان هناك صيغة استقبال؟ كيف كانت تجري الأمور؟

كلودي: لا، كان هناك هاتف، لم يكن لديّ جهاز ردّ على الهاتف لأنه لم تكن بيدي إمكانية تركيب جهاز ردّ. بدأنا بكل بساطة وما حيلتنا إلا هذا الهاتف الشخصي. {تعدّد نشاطاتها: النصائح للنساء المضروبات، تحضير إحصائيات عن النساء اللواتي يعانين في أزمةٍ وبؤس انطلاقاً من عدد المكالمات الهاتفية، المساعي عند محاميات للاستنجاد بدعمهن، البحث عن أماكن للسكن، الاتصال بـ «فرق للتوعية»، تنظيم مناضلات من أجل مشروع الملجأ المقبل، مناضلات يُطلب منهن الحضور للقيام بـ «الأفعال» لا من أجل «الأقوال على مدى ساعات»}.

وبالفعل، سرعان ما جاءت فتيات. فبعضهن جئن مرّة أو مرّتين، وبعض تعلّقن بالعمل أكثر، ومنهن من كنّ يأتين فتقول واحدتهن، «عندي فراغ في اليوم الفلاني الساعة الفلانية، إذا كان ما نفعله، قوليه». كان هذا في غاية التنظيم. وبسرعة كبيرة، عدن يحشرن «الصراع الطبقي» وهذا كان يجعلنا نخسر الوقت والطاقة بشكل ملحوظ. طفيليّات حقيقيات لا يفارقننا. يعني، عندها على الفور كان من الواجب الذهاب إلى «المندوبية» المختصة بالوضع النسائي لتنظيم أضابير، إلخ. المندوبة الأولى في «الوضع النسائي» كانت طبيبة استقبلتنا أحسن استقبال، ولكنها قالت لنا، «تعلمن، أنا طبيبة، ولكني لم أسمع أبداً في عيادتي امرأة تتكلم عن مثل هذه الأمور. قصصهن عن إدمان الخمر، وقصص عن... أنتنّ تبالغن في تضخيم القضيّة»، وزاد في الأمر سوءاً أنها دوّنت هذا كتابة. عظيم، فأنا، على الفور ارسلتُ ذلك إلى صديقات باريس، فكانت بالنتيجة حركة ملحوظة إلى حد مقبول، حيث أنهن، من جانبهن، كنّ صديقات لفرانسواز جيرو، التي كانت حينذاك في أمانة سرّ «الوضع النسائي». لكن من بعد ذلك، هذه المرأة، أنا

مصرّة أن أؤكّد على الأهمية الكبيرة، سياسياً وإنسانياً لدورها، لأنها، في مدى شهور قليلة، فهمتُ، قرأتُ مقالات في الصحافة، سمعتُ، يعني، مناقشات أيضاً في باريس، فتراجعتْ عن خطئها، وأعطت تصريحات علنية، أمام الصحافة، في كل مكان، ومقابل هذا، نرفع لها القبعة احتراماً! لأن أي رجل سياسي ما كان ليفعل هذا. وقد وقعت في مشاكل سياسية فيما بعد. كانت امرأة من اليمين وقيل لها: «الله معك، شغل الصوف أنسب لك، إلخ.» وقد استقالت أيضاً من منصبها كمندوبة في «الوضع النسائي». فهذا يدلّ إلى حدٍّ ما على العقلية التي كانت سائدة في ذلك الوقت، ما دام باستطاعة رجال سياسيين آنذاك التحدث أمام الصحافة، علانية، بمثل تلك الآراء وكانت تلك الآراء تمرّ بسهولة كبيرة. ونحن، نحن كنا نفتّش عن مكان في تلك المدينة الطيّبة، مدينة (إ). لنضمّ فيه النساء المضروبات، في ظلّ تلك العقليات الرجعية. عندها، حصلتُ رغم كل شيء على موعد مع القائم بالأعمال الاجتماعية، وهذا قال لي استخفافاً وازدراءً، «ليس في المدينة شيء». على أني كنت أعلم أن المدينة تمتلك أراضٍ شاسعة وفيها أماكن حدّثي ولا حرج فهي رغم كل شيء مدينة هامة. طيب. كان هذا في نهاية الـ 75، مطلع الـ 76. في مطلع الـ 76، بدأت بإجراء تحقيقات حول موت النساء، حول النساء اللواتي متن تحت ضرب أزواجهن، فأمكنني الحصول على عناوين، كنت معتادة على التحقيقات، فأنا كنت على أي حال تلميذة قديمة من تلميذات مدرسة الصحافة. وقد أجريت هذه التحقيقات مع الجيران. في أول الأمر، مع أسرة الميتة، بالتأكيد، طبعاً. مع والديّ الضحية على سبيل المثال. عندها لاحظتُ بالفعل أن عائلة المرأة أفرادها مرعوبون مما يحصل، وعندما يجدون من يمكنهم الكلام معه، يوافقون دون أية ممانعة وفي أغلب الأحيان، يقدّمون الشكر. ثم مع الجيران. فمنهم واحد، خاصة، قال لي، «اسمعي، نحن نسكن في أجنحة متجاورة، وانظري قرب المسافة الفاصلة، كانت الحالة مع الجار في أقرب جناح مجاور. فعندما كان يعود إلى بيته في المساء، حتى الكلب لا يعود يجرؤ أن يتحرك، ولا أن ينبح». وقد قال ذلك الرجل الرهيب لجاره، «أنا ألعب رياضة، إذا أردت ألاقيك في الشارع،

وأكسر لك بوزك فوراً». وبالتالي، عند هذا الحد، لم يقم الجار بأية حركة، لم يعد إلى التدخّل. وظلّت المرأة تتلقّى الضرب، وماتت بالنتيجة، أمام أعين أولادها الذين كانوا موجودين، بعد احتضار طويل في المطبخ دام طوال الليل. فهذه المعلومات ما كنتُ لأحصل عليها إلا بهذه الطرق. وعندما حوكم هذا النذل، كان يرتّب أموره لتخليص نفسه، فهو من أركان المجتمع، بل وكان عنده مشروع، وغير قليل من المال وكان يعتقد بأن الأشهر الثلاثة من التوقيف الاحترازي كافية، ومن بعدها، سوف تتحلّ. أما المظاهرة التي قررتُ تنظيمها فكانت من أجل مجمل النساء، من أجل العدد الكبير للنساء اللواتي متن تحت الضرب، أمام الأطفال، ومن أجل سلبية المجتمع حيال هذا، وقبول مجموع الأهالي بالأمر. وقد ساعدتنا نسوة لطيفات لطيفات، قمن بنشاطات كثيرة، وأعني بهنّ نساء «تنظيم الأسرة». عندهن نضالهن الخاص، لكن عندما كنا نحتاج لمساعدة، كنّ دائماً حاضرات، وكان هناك احترام وتقدير. يعني، عندها بالفعل، شرعت تلك النسوة المناضلات يقلن، «آه، يا عيني، مظاهرة! إذن سوف نرفع أصواتنا بالصراخ». لأن رفع الصوت بالصراخ والتنديد، على ما يبدو، أمر خارق، وأننا عندما نصرخ في المظاهرات لمدة ساعتين، مرّة كل عام، فكل شيء يترتّب! أما نحن، من جانبنا، فكنا نريد مظاهرة صامتة كلياً. لأن الناس عندما يرون مظاهرة يقولون بهدوء، طيب توجد مظاهرة، لكنك عندما تقومين بمظاهرة صامتة فعلاً، فالناس سوف يُستثار فضولهم ويتساءلون على الفور ماذا في الأمر؟ هذا ما يجذب الانتباه. حسناً، هذا هو الخيال اللازم توفّره عند من يريد النضال. خصوصاً عندما لا يكون لديه المال... {تستعرض تلك المظاهرة الرمزية، وسط الباقات التي بعثت بها الاتحادات النسائية من جميع أنحاء البلاد، ثم الدعم الذي قدمته الصحافة.}

كنت أفعل ما لم يكن يفعله الناس
الذين يتلقّون أجوراً من المجتمع

❖ كانت تأتيك مكالمات من نساء من جميع البيئات؟

كلودي: نعم، و أعطيك مثالاً على هذا. من المتّصلة بنا؟ كانت زوجة مدرّس حقوق، فالحقوق، كان حضرته يعرفه جيداً. مثلما كان يعرف أيضاً أين يضرب. وزوجة طبيب أيضاً. زوجات متعهّدين. وكان عدد كبير من النساء ربّات بيوت، بينما بعضهن من الموظفات. يبدو لي أنه لم يكن هناك مِهن حرة، ربما تجارية، لكن ليس مهن حرة. على أن عدد النساء دون وظيفة كان أكبر، وخاصة أولئك اللواتي لديهن أطفال. ثم، اصطدمنا بموقف الأطباء. فقد طلبنا من هؤلاء النساء الحصول على شهادة طبية لتقديم شكوى. فما قولك بأن نقابة الأطباء أصدرت تعميماً أنه، منذ ذلك التاريخ وصاعداً، للحصول على شهادة طبية عن الضرب والجروح فلا تُدفع التعرفة العادية فحسب، وإنما تدفع التعرفات المضاعفة K 5، K 6، لم أعد أذكر الرقم، لكن كان المبلغ المطلوب 350 فرنك، فذهبت أستعلم عن السبب على الفور، فقالوا لي، «هذا لأننا سوف نغرق تحت طوفان من الطلبات!». إذاً، كانوا يعترفون بأن المشكلة موجودة. وغايتهم هي الحدّ من الطلبات، وعلى حساب من؟ لكن علينا ألا ننسى، من طرف آخر، وجود أطباء يحملون الحسّ الإنساني، وهؤلاء، من جانبهم، كانوا يفعلون العكس، يخابرون هاتفياً لتقديم المساعدة، ليقولون نحن هنا... ومنهم من قام بإيواء نساء لم يكنّ يعلمن إلى أين يهربن. في أعماقهم، كان أولئك من الأشخاص الحسّاسين وكانوا ينظرون إلى المشكلة إنسانياً. أحياناً، كان المستشفى هو الذي يتصل بنا، لإعلامنا عن نساء قُذف بهن من النافذة، فهناك كسور في الجمجمة. كما كانت تتصل بنا النساء أنفسهن، المستشفى، الجيران، أرباب العمل، مثلاً من أجل الشغّالات عندهم، المعلّمات. وهذا يبرهن على أن علاقات الصداقة لها وزنها. وكان يتصل بنا الأطفال، وتلك أصعب المكالمات... عندما نقرأ في الصحف، عن الأبناء الذين يغتالون آباءهم، نلاحظ، في معظم الحالات، أن ذلك إنما كان دفاعاً عن أمهم فاضطروا للتدخل. ومع ازدياد الاطلاع على هذا، ازدادت المقالات في الصحافة، وازداد تشجّع الناس فجأة للتعبير عما في نفوسهم وأصبحوا يدركون مسؤولياتهم. وكانت المقالات تذكّر بمبدأ عدم مساعدة من هو تحت الخطر. على أي حال، لقد أخذ الناس علماً بالوقائع.

ومن بعد هذا، وغيره، جاء دور الوزارات. لأنهن، في باريس، بالفعل، كنّ قد قمن بعمل ضخم لدى الوزارات. أما في (إ). فكان لدينا الـ DASS {استعرضت مقاومة وعطالة الـ DASS التي رمت الأضابير في الأدراج ومساعيها في باريس لدى الوزارة التي من اختصاصها هذه القضية.}

كنت أجيء إلى باريس أيضاً من وقت لآخر، لأنه كانت تلزمني بعض المعطيات الجديدة، تطورات القضية، وهذا كنت أجده في باريس علاوة على الاستعداد الذهني الشديد النضالية في سبيل المرأة، فكنت أتمثّله، وأنقله معي إلى (إ). ذلك التضامن النسائي على انسجام وتساند، ذلك التعميق للبحث، إلخ. أما فرقتنا في (إ). فكان فيها طالبات، ونساء مثلي، ومن بعدها، صار بيننا نساء متقدمات بطلبات طلاق وهنّ ضحايا لمختلف أنواع العنف فشعرن بالحاجة كي يلتحقن بفرقتنا لأنهن كنّ بحاجة للأذن المصغية، وألا يعشن بعد في عزلة، بحاجة للتضامن، للتفهّم، ولأن يكون مسعاهنّ جزءاً من كل. وكان هناك امرأة لا تعلم كيف تعبّر عمّا بها فكانت تحمل إلينا قصائد شعرية. لكن معظمهن كنّ من المناضلات الشابات اللواتي لم يعشن المشكلة. وكان هناك الصاحب المناصر لصاحبته والمتفهّم لمعنى الحركة النسائية، وأنها حركة نضالية، فكان هو أيضاً يقدم أحياناً مساعداته. كان باستطاعة الرجال، في كل هذا، القيام بدور مفيد جداً، هو التكلّم مع الرجال العنيفين والتناقش معهم في هذا... ما كان يمكنهم الانضمام إلى الفرقة، لكنهم يستطيعون القيام بذلك العمل. لأننا نحن، من جانبنا، كان اهتمامنا بالحالات الإسعافية. يعني، كان هناك شغل لمن يريد، والذي حصل أنّ بينهم من قام بالشغل وكان لطفاً منهم، وكان هاماً. الآن أحدثك عن بروكسل. كان عندنا اجتماع، لكن حضرته نساء، مناضلات نسائيات من أقطار العالم، لمناقشة ما يقع على النساء من اعتداءات عنيفة. كان هذا في عام 76، كان الاجتماع نسائياً نضالياً، وكان عالمياً وعيداً من الأعياد الكبيرة. وهناك، سمح لنا اللقاء بالتعريف بأنفسنا، باللقاء مع الناس، بإدراك وحدة وتشابه مشاكل النساء في كل مكان. وأن القضية كانت بالفعل قضية حضارة مبنية على السيادة الذكرية. إذن، دار البحث عن المعتدين، وعن الاعتداءات

العنيفة. ونظّمنا من بعد ذلك 24 ساعة في مقرّ «المعونة المشتركة» للتنديد بالاغتصاب. ورأينا فعلياً نشوء اتجاهات كبرى. من بينها اتجاهنا لإنشاء ملاجئ SOS، وهو اتجاه عملي جداً، وفعّال جداً، لكن كان هناك نساء يسعين بالدرجة الأولى إلى إيجاد هوية، فهنّ يقفن في وجه مظاهر العنف الذكري، غير أنهن، على سبيل المثال، يرين أنْ علينا نثي النساء عن رفع قضايا في المحاكم، وأن من الواجب عدم الخوض في هذا الميدان. يعني، أنا منذ قليل كنت أتكلم عن فرقتنا، وعن تدخلاتنا المباشرة لكنني لم أقل إلا القليل جداً. فيجب أن أقول إنّ من النساء من كنّ يخابرن أيضاً، ليقلن لنا إن الشرطة ترفض الحضور، وهكذا، فقد حصل معي أني ذهبت بنفسي، شخصياً. في تلك المرّات، رأيت ردود فعل تلك «النمِر» من الأزواج. فمن بينهم واحد أوقفني أمام جرس الباب قائلاً، «انظري ما المكتوب هنا!» فما المكتوب هناك؟ اسم حضرته. وقال لي، «أنا هذا بيتي» بمعنى أن الآخرين، زوجته والأطفال، هم قطيعه، يعني، كل شيء ملك يمينه. وقد دخلت بعدها إلى البيت. بطبيعة الحال، كان الهاتف مسحوباً، فقد استطاعت المرأة مغافلته وخابرتنا، لكنه مباشرة سحب منها الهاتف. وأضيفُ أنه كانت توجد آثار دم على الحائط. وطبعاً، كان هناك طفلان صغيران جداً، يقفان أبكمين من الرعب، وقد انكمشا بانتظار رؤية ما سوف يحصل. وراح هذا الزوج -«النمِرة» يشرح لي أنه يعمل في المصنع، وأنني لا أعرف ماذا يعني ذلك. وكنت قد اعتدت على حمل محفظة صغيرة معي كي أدوّن عليها الملاحظات. إذن كان يُنظر إليّ بصفتي من المثقفين. وأضاف إذن، بما أنه يعمل في المصنع وأنه يتعب في عمله، فهذا يفسّر لماذا يضرب زوجته. ردّاً على هذا قلت له، «لكن من النساء من تشتغل في مصنع. وعلى حدّ علمي، فالعاملات في المصانع لا يضربن أزواجهن». عظيم، في تدخّلي ذاك، كان واضحاً بأن الطبيب رفض أن يأتي فأجبرته على ذلك. لأن تلك المرأة كانت بحاجة إلى شهادة طبيب. يعني، وكان هناك أمور أخرى، مثل قصة الحبل الذي يربط به الكلب أيضاً. {تروي كيف هدّدها أحد الأزواج بكلبه، وكيف استطاعت أن تخلّص جزائرية شابة من عائلتها التي كانت تريد منعها من متابعة الدراسة.}

إذن، كانت التدخّلات متنوّعة ومختلفة. الآن، بعد مرور الزمن، يجب أن أقول إن تصرّفي كان بنتيجة مزاج شخصي لأنني كنت أحب هذا. وصحيح أنني كنت أجازف -ولكن- في النهاية كان لا بدّ من إحداث اختراقات، فكنت أفعل ما لم يكن يفعله الناس الذين يتلقّون أجوراً من المجتمع.

هناك دائماً أفراد لا يقبلون التسلسل الإداري...

والمسألة تحتاج إلى انفتاح القلب

❖ وحكاية الملجأ؟

كلودي: نامت الأضابير ما فيه الكفاية، فيطلبونك، آسفين ليس عندنا مقرّات، لأن الـ DASS (الشؤون الاجتماعية) تعطيك معونات مالية، لكنها لا تعطيك مقرّات، فكان لا بدّ من البحث عن المكان المطلوب، يعني. على أنني اشتغلت مع صاحبات باريس سوياً، ليس على مستوى العمل المباشر، إنما هذا كان يعطيني شعوراً كبيراً بالأمان لارتباطي بنساء مناضلات، إلخ.. فأقول: فرقتنا هامة، فهي مرتبطة بفرقة باريس، وبناءً عليه... تلك كانت مسألة توجّه استراتيجي. عليّ أن أعترف مع ذلك بوجود حملٍ ثقيل من العمل المخيف. كنا في الفرقة نتقاسم العمل، لكن بعض الصديقات لم يكن بإمكانهنّ تقديم الشيء الكثير، لأنهن يتابعن الدراسة، إلخ. يعني، إلى حدٍّ ما، لم يكن هناك توزيع حقيقي للعمل. علاوة على ذلك، كان هناك طالبات مدارس يأتين، وهذا، بالنسبة لي، كان هاماً جداً جداً. فمثل هذه الأمور يمكن للإنسان رفضها، قائلاً، «ما عندي وقت»، أو ما شابه، أما في نظري، فبدا لي هذا هاماً جداً جداً من أجل الحركة النسائية، نعم من المهم مجيء طالبات المدارس، خصوصاً أولئك اللواتي يدرسن في أقسام علم الاجتماع أو الاقتصاد المنزلي، إلخ. خصوصاً انتشار هذا الأمر على مستوى الفتيات، والأساتذة، وعلى المستوى الاجتماعي ككل، أي حيث الناس...

❖ .. سوف يقومون بهذا العمل.

العنيفة. ونظّمنا من بعد ذلك 24 ساعة في مقرّ «المعونة المشتركة» للتنديد بالاغتصاب. ورأينا فعلياً نشوء اتجاهات كبرى. من بينها اتجاهنا لإنشاء ملاجئ SOS، وهو اتجاه عملي جداً، وفعّال جداً، لكن كان هناك نساء يسعين بالدرجة الأولى إلى إيجاد هوية، فهنّ يقفن في وجه مظاهر العنف الذكري، غير أنهن، على سبيل المثال، يرين أنّ علينا ثني النساء عن رفع قضايا في المحاكم، وأن من الواجب عدم الخوض في هذا الميدان. يعني، أنا منذ قليل كنت أتكلم عن فرقتنا، وعن تدخلاتنا المباشرة لكنني لم أقل إلا القليل جداً. فيجب أن أقول إنّ من النساء من كنّ يخابرن أيضاً، ليقلن لنا إن الشرطة ترفض الحضور، وهكذا، فقد حصل معي أني ذهبت بنفسي، شخصياً. في تلك المرّات، رأيت ردود فعل تلك «النمِر» من الأزواج. فمن بينهم واحد أوقفني أمام جرس الباب قائلاً، «انظري ما المكتوب هنا!» فما المكتوب هناك؟ اسم حضرته. وقال لي، «أنا هذا بيتي» بمعنى أن الآخرين، زوجته والأطفال، هم قطيعه، يعني، كل شيء ملك يمينه. وقد دخلت بعدها إلى البيت. بطبيعة الحال، كان الهاتف مسحوباً، فقد استطاعت المرأة مغافلته وخابرتنا، لكنه مباشرة سحب منها الهاتف. وأضيفُ أنه كانت توجد آثار دم على الحائط. وطبعاً، كان هناك طفلان صغيران جداً، يقفان أبكمين من الرعب، وقد انكمشا بانتظار رؤية ما سوف يحصل. وراح هذا الزوج -«النمِرة» يشرح لي أنه يعمل في المصنع، وأنني لا أعرف ماذا يعني ذلك. وكنت قد اعتدت على حمل محفظة صغيرة معي كي أدوّن عليها الملاحظات. إذن كان يُنظر إليّ بصفتي من المثقفين. وأضاف إذن، بما أنه يعمل في المصنع وأنه يتعب في عمله، فهذا يفسّر لماذا يضرب زوجته. ردّاً على هذا قلت له، «لكن من النساء من تشتغل في مصنع. وعلى حدّ علمي، فالعاملات في المصانع لا يضربن أزواجهن». عظيم، في تدخّلي ذاك، كان واضحاً بأن الطبيب رفض أن يأتي فأجبرته على ذلك. لأن تلك المرأة كانت بحاجة إلى شهادة طبيب. يعني، وكان هناك أمور أخرى، مثل قصة الحبل الذي يربط به الكلب أيضاً. {تروي كيف هدّدها أحد الأزواج بكلبه، وكيف استطاعت أن تتخلّص جزائرية شابة من عائلتها التي كانت تريد منعها من متابعة الدراسة.}

إذن، كانت التدخّلات متنوّعة ومختلفة. الآن، بعد مرور الزمن، يجب أن أقول إن تصرّفي كان بنتيجة مزاج شخصي لأنني كنت أحب هذا. وصحيح أنني كنت أجازف -ولكن- في النهاية كان لا بدّ من إحداث اختراقات، فكنت أفعل ما لم يكن يفعله الناس الذين يتلقّون أجوراً من المجتمع.

هناك دائماً أفراد لا يقبلون التسلسل الإداري...
والمسألة تحتاج إلى انفتاح القلب

❖ وحكاية الملجأ؟

كلودي: نامت الأضابير ما فيه الكفاية، فيطلبونك، آسفين ليس عندنا مقرّات، لأن الـ DASS (الشؤون الاجتماعية) تعطيك معونات مالية، لكنها لا تعطيك مقرّات، فكان لا بدّ من البحث عن المكان المطلوب، يعني. على أنني اشتغلت مع صاحبات باريس سوياً، ليس على مستوى العمل المباشر، إنما هذا كان يعطيني شعوراً كبيراً بالأمان لارتباطي بنساء مناضلات، إلخ.، فأقول: فرقتنا هامة، فهي مرتبطة بفرقة باريس، وبناءً عليه... تلك كانت مسألة توجّه استراتيجي. عليّ أن أعترف مع ذلك بوجود حملٍ ثقيل من العمل المخيف. كنا في الفرقة نتقاسم العمل، لكن بعض الصديقات لم يكن بإمكانهنّ تقديم الشيء الكثير، لأنهن يتابعن الدراسة، إلخ. يعني، إلى حدٍّ ما، لم يكن هناك توزيع حقيقي للعمل. علاوة على ذلك، كان هناك طالبات مدارس يأتين، وهذا، بالنسبة لي، كان هاماً جداً جداً. فمثل هذه الأمور يمكن للإنسان رفضها، قائلاً، «ما عندي وقت»، أو ما شابه، أما في نظري، فبدا لي هذا هاماً جداً جداً من أجل الحركة النسائية، نعم من المهم مجيء طالبات المدارس، خصوصاً أولئك اللواتي يدرسن في أقسام علم الاجتماع أو الاقتصاد المنزلي، إلخ. خصوصاً انتشار هذا الأمر على مستوى الفتيات، والأساتذة، وعلى المستوى الاجتماعي ككل، أي حيث الناس...

❖ .. سوف يقومون بهذا العمل.

كلودي: وهذا هو عملهم. إذن، كان عليّ تكريس هذا الوقت للطالبات. إذن، كان هناك أيضاً بحثٌ عن الموارد، من جهة ثانية، وكانت الفكرة المحورية فكرة الملجأ، ولكن كان من اللازم أن يتم تعريف المنطقة بأكملها، لأننا بدأنا نجمع حولنا جمهوراً من المنطقة، بالحركة النسائية بصورة أفضل. وكان في الفرقة شابّة أو شابّتان مهتمّتان بالفن. فقرّرنا عرض أسبوع للفيلم النسائي. كان هذا في عام 77.. {تروي كيف حصلوا على مقرات لجمعيتهم بفضل تنظيم تظاهرات فنية وبإحداث تنافس بين بلديّتين متعارضتين سياسياً. ولكن لم يتمّ الأمر إلا بصعوبة: إذ قدّموا إليهن في البداية «برّاكات نائية قرب موقع للحصى»، ثم، حيال احتجاجاتهن، عرضوا عليهن مقرّاً يحتاج استصلاحه إلى 300.000 فرنك.}

عندها، أصبحتُ أرزح تحت ما لا أستطيع تحمّله. وقد حصلتُ، بعد أن رأوا الأعمال المنفّذة في المقرّ، على معونة مالية لتعيين مناوبة دائمة، لأن العمل كان يستمرّ طيلة النهار، ولم يعد الأمر ممكناً بالنسبة لي، فلم يعد عندي أي وقت للراحة، لم يعد عندي أي شيء. كانت المعونة من أجل هذا، على أي حال، من أجل مناوبة، أثناء فترة العمل، قبيل شهر من افتتاح المقرّ. لهذا، كان من الواضح، لقيامي بكل الأعمال، واطّلاعي على الأضابير، إلخ.، أن أستقيل من الـ INSEE كي أستلم المناوبة. يعني، تابعت جميع الأعمال. أما الشؤون الاجتماعية... لأنني تكلّمت عن كل شيء، سوى عن الشؤون الدينية، والشؤون الاجتماعية. إذن، الشؤون الاجتماعية، الـ DASS، هي أمر قائم بحدّ ذاته. فمن مهامّ الـ DASS معرفة إن كانت هذه الجمعية أو تلك صالحة أو غير صالحة ومن بعد هذا فمهمّتها مجرّد تسهيل الإمكانيات إن توفّرت. أوف! فبخصوص المشرفات الاجتماعيات، والمشرفين الاجتماعيين لا غير، عدنا من جديد إلى المشكلة نفسها التي عانينا منها مع الأطباء. بالفعل، ليست القضية قضية فرد ما، إنها قضية انفتاح العقل، والقلب. وهي مسألة انفتاح المجتمع، فهاهي، على سبيل المثال، مشرفة اجتماعية تخابرني في يوم من الأيام، من بعد افتتاح الملجأ، لتقول لي، «عفواً، الموضوع بخصوص مدام فلان الفلاني، فقد هربت». وكان جوابي، «كيف هذا، كيف هربت؟ فهل هي قاصر أم راشدة؟». بالطبع لا!

لكنها جاوبتني، «الموضوع يخصّ السيد فلان الفلاني، زوجها، فهو يبحث عنها، ورجاءً أن تُرجعيها إليّ». كأنّما هي كلب يجب إرجاعه، ما قولكِ، دام فضلك؟ يعني، وقصص أخرى من هذا النوع مع المشرفات الاجتماعيات. فهناك امرأة، ولم يكن الملجأ قد افُتتح بعد، جاءت تراجعنا، وكانت فعلاً لا تعلم إلى أين تذهب. ولا نحن كنا نعلم أين نضعها. كنت قد بدأت بإيواء امرأة أو اثنتين عندي في البيت، مع بداية عمل الفرقة، لكن لم يعد هذا ممكناً، لم يكن بالإمكان الاستمرار هكذا. عدا عن وجود طفل صغير. إذن، جاءت تلك المرأة، وكانت واقعة، فعلاً، فعلاً، في المشاكل، لأنكِ بحكم العادة، تعرفين اللهجة، تعرفين الموقف، وتعلمين إن كانت المرأة التي تراجعكِ معرّضة للخطر، أو أنها يمكنها الصمود أيضاً لمدة 15 يوم. فتلك المرأة كانت فعلاً في خطرٍ كبير. فنصحناها أن تفعل كل ما في وسعها، إذا أمكن أن تذهب إلى فندق، إنما... استدعتها المشرفة الاجتماعية بعد هذا، وأصدرت إليها أمراً بالرجوع إلى بيتها! فيما بعد، في الصحافة، قرأنا أن تلك المرأة طُعنت بما لا أدري كم ضربة سكين وماتت. وليست تلك مسؤولية المشرفة الاجتماعية بالطبع. وامرأة أخرى جاءتني (...) لتقول لي إنها في تلك اللحظة تهتمّ بزوجها، لكنّ عنده عادة تجنّن وهي أنه يربط ابنه على السرير وينهال عليه بالضرب. وقالت لي إنها لا يمكن أن تفشي السرّ لأحد غيري، لأنها، هي شخصياً، لا تستطيع أن تفعل هذا، لأنها إذا فعلت هذا، فثقة ذلك الرجل بها، سيشعر بأنها خانت ثقته بها. لكنها لا تستطيع مسايرته، لكنها لا تستطيع إفشاء السرّ، فهي تقول الأمر لي، فأنا أستطيع أن أُخبر عنه! عندكِ من الناس من يتصرّفون هكذا، فيقولون، «لكن أنا، أنا لا أستطيع الاتصال بالشرطة، فما رأيكِ بهذا التفكير! يقولون: لكن هذه وشاية!» {ضحكة}. تصوّري كيف لا يميّزون! لقد درسوا ثلاثة أعوام دون أن يفهموا الفرق بين الوشاية، التي هي التبليغ عن شخص بريء إلى سلطة كريهة، وبين إنقاذ ضحيّة على وشك أن تموت. هذا ما لم أفهمه أبداً. إنما هو نوع من أنواع الخوف من السلطة، الخوف من السيّد ومن الأقوى، أي الخوف من ذاك الذي يضرب. على أن الأمر كان معكوساً تماماً بخصوص بعض المشرفات الاجتماعيات..

{تحكم على أعضاء الفرق الدينية بأنهم أكثر انفتاحاً وأكثر استعداداً لمساعدة النساء اللواتي يكنّ في خطر} .

وأنا، من جانبي، أميّز بين الأفراد والمؤسسات. فهناك أفراد لا يقبلون، ولن يقبلوا يوماً التسلسل الإداري... فمن بعد ستة شهور عمل، أصبح الملجأ مفتوحاً. كنا ما نزال فرقة، لكن من بعد فترة، طلبوا منّا أن نصبح جمعية. هي قضيّة شكل إداري، قضيّة مسؤولية، إلخ. في تلك اللحظة، كنت رئيسة، وكانت آنيك نائبةً لي، وكانت صاحباتي قد اشتغلن أحسن شغل... فطُرحت دون تأخير قضية السلطة لمن، منذ الانطلاق، وعلى امتداد العمل، لكن مسألة هذه السلطة حُسمت بسرعة كبيرة. فالفكرة التي كانت منتشرة، أينما كان، لم تكن فكرة السلطة، فلم نكن نريد سلطة، إنما نحن نشتغل كفرقة متضامنة. لكن سوف تلاحظين، بهذا الشأن، إذا ذهبتِ إلى فرقة ما، أن تلك السلطة موجودة رغم كل شيء. وهي لتلك التي تتكلّم أفضل، المطّلعة أكثر، التي تتكلّم بصوتٍ أعلى من الأخريات، وما لا أعلم، لتلك التي تناور أفضل، على أي حال، فالسلطة موجودة، إنما هي بكل بساطة، خفيّة وسلبية. فقلنا، «طيب، توجد دائماً سلطة، فلا يمكن أن نمنعها، لكن ليكن معيار السلطة هو العمل، والفعاليّة». أنا شخصياً، كنت متمسّكةً أن تُتّخذ جميع القرارات دائماً بصورة جماعية. طيب. الملجأ. يعني كان يجب شراء مفروشات، إلخ.، إلخ.

❖ كان ملجأً كبيراً؟

تعبٌ رهيب

{تستعرض نهاية فترة نضالية بإنشاء ذلك الملجأ المعدّ لاستقبال 20 امرأة: تعب صديقاتها، شعورهن بإنجاز واجبهن، رحيلهن، إرهاقها الخاص، والحزن حين عادت وحيدة، رغم عزمها الأكيد على متابعة وتوسيع نشاطها} .

كلودي: لم تكن تلك النهاية! وهذا، دون أية انتقادات، هه، لأن كل ما قمن به كان لطيفاً، هه. لم يكن بإمكان أية واحدة منهن العمل في الملجأ.

فهذه في منصب هام جداً، في هيئة تحكيم، وإنما كانت من وقتٍ لآخر تتكرّم علينا بالتوجيهات والنصائح، وهي صديقة من خيرة الصديقات... حتى أنها اتصلت معي، بالأمس، وهذا يبرهن كم... {تبكي} هي قوية الروابط التي استمرت تربطنا. ومن المؤكد أنه ما كان يُتوقّع من أية واحدة أن تتخلّف في دراستها، أو أن تتخلّى عن منصبها كي تهتمّ بالملجأ. إذن، أصبحت المشكلة مطروحة، والشؤون الاجتماعية، الـ DASS، أصبحت تطالب بالعديد من المناصب، ولم يكن هناك مجال للنقاش حول هذا. إنه حد فاصل شديد، شديد الوضوح. بخصوص السكرتيرة والطبّاخة، لم تكن هناك أية مشكلة. لكن المربّية، هذه مهنة، ولا يمكن تشغيل مناضلات. يجب تحديد الأمور في هذا المجال. وبناءً عليه... {تصبح اللهجة صعبة ومتعثرة}، بناءً عليه، حينها، وظّفنا بعض الناس. بعدها، كان من اللازم طلب أشخاص، نساء، للقيام بهذا العمل. إذن، عندها، كان هناك سكرتيرة بنصف دوام، كانت جيدة جداً، وكانت تعرف عملها جيداً، وكانت تعمل في ملجأ آخر سابقاً، ملجأ لمتعاطي المخدّرات، إذن كانت تعرف نظام العمل. كما كان هناك حارسة ليلية أيضاً، ومن هذا القبيل. عظيم. وكان هناك فتاة ثانية سبق أن التحقت بالفرقة قبل ستة شهور، هي مربّية وأخصائية نفسية في الوقت نفسه. فقلت لنفسي، «طيب يعني، ما المانع، فنحن بحاجة إلى أخصائية نفسية، بنصف دوام، من أجل الأطفال»، يعني، لأن الأطفال يصابون بهزّة نفسية، وكان إقلاعنا جيداً، فقد جاءت إلينا النساء ورأيتُ أمراً عجيباً. فالتضامن بين أولئك النسوة، تمّ على الفور. لأن النساء عندما يغادرن هاربات، على عجل، لا يكون معهن حتى حذاء، لا يكون معهن شيء، حتى لأطفالهن. إذن، كان يجب الذهاب معهن لجلب الثياب، وفي هذا ما فيه من الخطر الشديد، فقد طلبتُ مرّة إلى إحدى المربّيات الذهاب، لكن هيهات، وهنا اصطدمت بالمشكلة الحقيقية. فلم تعد أمامي مناضلة، بل أصبحتُ حيال موظفة تفكر بنقابتها، فقالت لي إن هذا ليس شأنها. بالتأكيد، كانت خائفة، يعني! لكن في هذه الحالة، ما كان لها أن تتوظّف في ملجأ، أم ماذا! فأنا كان عندي أكوام من المهام الأخرى أقوم بها، لأنني كنت في منصب مديرة المركز. يعني، كان

عندي عملي مع الأضابير، إلخ.، لأن هذا الملجأ كان مقدمة لملجأ لـ 50 امرأة قيد التحضير. كان الأمر سهلاً جداً إذن، لأنكِ بعد افتتاح ملجأ أول وبعد أن تبرهني.. يجب التماسك لمدة عام. أن تبرهني أن إدارتك جيدة. ألاّ تتجاوزي.. حسب تخيّلاتهم، لأن الـ DASS قالت لي فيما بعد أنهم كانوا يظنون بأن كلمة (عمل نسائي) معناها: الجهل بأمور الإدارة. معناها: التصرّف لا على التعيين. كما ترين. هذا ما قالوه لي فيما بعد. إذن، من وجهة نظر النساء، كان لا بدّ من التضامن، من التعاون المتبادل. وأيضاً الاعتراف بالجميل لبعض... فالسنة الماضية بالذات، جاءتني مخابرة من امرأة، علماً أن قصّتها مضى عليها عشرة أعوام، وقالت لي «شكراً، إلخ.، ونويل(*) سعيد!».

{تستعرض طريقة عمل الفرقة، التوزيع المتضامن للأعباء الكثيرة والمنوّعة.}

إذن، من البداية، من المستحيل الاعتماد على تلك المربّية لجلب أبسط قطعة ثياب. بالنسبة لي شخصياً، عندما كنت أذهب في موعد إلى الطبيب، كانت النساء، الصديقات، فيما بينهن يرتّبن الأمور في غيابي. لكن، شيئاً فشيئاً، بدأن يتساءلن، ويسألنني. كنّ يقلن لي، «عندنا شعور بوجود ما يفصل بين الموظفين وبيننا. لماذا يوجد هذا الفاصل؟». لأنهن معي، ما كنّ يشعرن بما يفصلهنّ عني. وعندما كنّ يقلن لي، «هذا لا يحصل إلا معنا، هذا لا يحصل مع غيرنا»، كنت أقول لهنّ، «أنا آسفة، لكن بقليل من سوء الحظّ كان يمكن أن يحصل معي أيضاً ما يحصل معكن». أنا لا أشعر أنني فوق وأن الآخرين تحت. ولكن، عندكِ «نِمر» من الناس، ليس الجميع، يقولون لأنفسهم، «عال، أنا عندي مهنة، أنا مربّية، أخصائية نفسية، وهذا كل عملي». فتكفي مثل هؤلاء النساء نظرة واحدة ليشعرن أنهن أصبحن في الحضيض. إنهن متهافتات في أساسهن. وليس هذا الهدف من الملجأ. هذا عكس المطلوب.

(*) Noël: عيد ميلاد السيد المسيح.

❖ هكذا كانت الأمور مع الموظفات؟

كانت بلوتي مع «نِمرة» نقابية

كلودي: لا، ليس جميع العاملات. واحدة فقط. وهي لسوء الحظ كان دورها أن تكون مربّية. لكن ليتها، توقّفت عند القيام بعملها ولا غير، فهي كانت في فترة.. يعني كانت تمضي الشهور التجريبية الثلاثة في بداية العمل. لكن؛ تلك الفتاة قد بدأت تقول لي «النظام الداخلي». على امتداد النهار، ما كنت أرى سوى هذا. كانت تحتمي بالنظام الداخلي هرباً وخوفاً. فعندما كان من اللازم القيام بعمل ما، تقول، «أنا عندي حق في يوم راحة». ومن حقي الاتصال بمحامية، وسوف أقول لها، «هنا، لي حق في فرنك علاوة، وهنا، ينبغي أن يكون راتبي مضاعفاً لي حق بيوم عطلة». يعني، نظراً لوجود مشاكل دائمة بشأن تسيير العمل يومي السبت والأحد، في الملجأ، وبالتالي حكاية التعويض. كانت بلوتي مع «نمرة» نقابية تزداد طلباتها أكثر فأكثر، دون أن تهتم بما تفعله النساء والأطفال، فهذا لم يكن يشغلها. عظيم، فاستدعيتها وقلت لها، يعني، على بركة الله، فأشهر التجريب الثلاثة لم تكن أبداً مطابقة لتصوراتي، وفي جميع الأحوال، من الأفضل أن نفترق، ومن الواجب التفاهم، وأنني مستعدة ما دامت تريد أن تعمل لحسابها، لمساعدتها، وكان هذا لطفاً وكياسةً مني، من بعد كل شيء. فأنا كنت أعرف العديد من الناس في (إ). وأن هذا من شأنه تسهيل عملها لحسابها الخاص. تناقشنا في الأمر، وقالت لي إنها موافقة. عظيم، فقلت لها، «سوف أحضّر رسالة، ونوقّعها غداً معاً». فقالت لي، «لكن أنا لن أوقّع أبداً أي شيء». بالمختصر، ذهبتُ من بعدها، فأنا كنت رئيسة الجمعية، لكن بمجرد أن تصبحي مديرة، لا يعود بإمكانك أن تكوني رئيسة الجمعية، لا يحقّ لكِ، فأنتِ بهذا تجمعين بين منصبين. وأنا ارتكبت حماقة عندما طلبت من سيدة معروفة جداً، فنانة، يعني، وكان عندها... كان اسمها مهماً، مهما قلنا، فسألتها إن كانت تقبل برئاسة الجمعية، وكنا قررنا هذا بموافقة عدة أصوات، إذ قلنا لأنفسنا، هذه سيكون لها ثقلها في مواجهة السلطات. لكن، كنا قمنا بجميع العمل لوحدنا، كدنا

نموت من الإرهاق، يعني، فقالت لي، قالت، «نعم، بطيب خاطر، أنا أيضاً مناضلة نسائية، لكن، إلخ. لكن في جميع الأحوال لا علاقة لي أبداً بقراراتكن، أنتن لكنّ عليّ استلام هذا المنصب، وغير هذا، لا شيء، موافقة على هذه الشروط». فهذه الفتاة لا غيرها، هي وحدها فقط لا غير، ذهبت وقابلت تلك المرأة. وهذه المرأة هي شقيقة س. دو (×) {مناضلة نسائية شهيرة}. وكان اسمها مدام دو (×).، كانت تعيش في الألزاس، وكانت فنانة-رسّامة. وكانت، يعني في النهاية لها عذرها، تغار من شقيقتها، يعني، فذهبت الفتاة إليها، ومدام دو (×).، تحمّست، «ما هذا، آه لا، هذا لا علاقة له أبداً بالنضال النسائي، ماذا، القيام بمثل هذا الأمر، تُردن تسريح شخص من عمله! أكيد أصابكن الجنون!». يمكنهم القيام بكل شيء لا على التعيين، يمكنهم أن يفسدوا عليكِ كل شيء، لكن لا يجوز تسريح مناضلة نسائية! قلت لها، «ليس الموضوع موضوع تسريح، إنّما نحن نضع حداً لفترة تجريبية». لكن تلك الحمقاء البليدة لم تكن تعرف الفرق بين هذا وذاك، كانت فنانة. أنا لا أعترض في شيء على الفنانين، أنا أيضاً هاوية تصوير فوتوغرافي، إلخ.، لكن قصدي، لا يجوز لأحد دسّ أنفه في أمر لا يعرفه. طيب، عظيم، تطوّرت الأمور بحيث عقدنا مجلس الإدارة، فهي، هي كانت الرئيسة، وهي بالتالي من بين أعضاء مجلس الإدارة. كان هناك أيضاً آنيك، التي اشتغلت كثيراً، وكنت أنا، وكان هناك امرأة أو اثنتين كن قد اشتغلن كثيراً، فاجتمعنا في جلسة لمجلس الإدارة، فشرحتُ الموقف، وشرحتُ بأن الفتاة حاولتْ تخريب كل شيء، وأنها ليست مناضلة نسائية والأمور معها سيئة، ويجب إنهاء فترة عملها تحت الاختبار. وهاهي تنتفض لتقول، «مكانكِ، أنا الرئيسة، ماذا أنت بصدده، آه؟ هذا لن يمشي بتاتاً! أنا سوف أدعو الهيئة العامة للانعقاد! لأنني معارضة لقراركن!». وراحت تصرخ. في وجوهنا نحن اللواتي أنشأنا كل شيء، عملنا كل شيء! أثناء ذلك، في الملجأ، لم تعد النساء يفهمن شيئاً على الإطلاق، لأنني فعلياً كنت هناك، كنت أشقى، وأشقى وكان ينقصنا عمل واحد شاغر. بمعنى أن الشؤون الاجتماعية كانت قد أعلمتنا، «يجب على الدوام وجود موظف ما في الملجأ». فإذا وقع عندكِ أتفه حادث، ولم يكن هناك أحد،

عندها، أنتِ المسؤولة. إيه، فنحن كان عندنا هذا الشاغر. ثم كلّمونا في النهاية عن سلطتي، فقلت، «لو قسّمت ساعات عملي الفعلي على راتبي، فأنا أطلع بأجر أقل من أجر الطبّاخة!» ولم يكن هذا طبعي في النقاش، لكن ما العمل وقد قيل لي، «أنتِ لك مركز، وكيت، وكيت»، إيه، قلت لهنّ، إيه، نعم... أنا أفعل كل هذا لأنني أعلم بأنه يجب عليّ تقديم بيان نظيف في نهاية العام. فالملجأ يمشي على ما يرام. وعندنا فيه مسؤولية الـ 50 امرأة، في الملجأ الجديد الذي نحضّر له من بعد هذا الملجأ. أما الصاحبات، اللواتي لم يكنّ يعملن معنا لكنهن قمن بكل النضال، كنّ قد فهمن استراتيجيتنا، ليس هذا فقط، بل وفهمن ما كان يجري في الملجأ بسبب تلك المرأة. أما نساء الملجأ، فلم يكنّ مطّلعات على أي شيء! وكن يطرحن عليّ كل يوم أسئلة جديدة! يعني، كنّ يشعرن أن شيئاً ما لم يكن على ما يرام. لماذا أمورهن تمشي معي، ومع أختنا تلك لا تمشي! كنّ يطرحن الأسئلة على أنفسهن! أما هي فلم يعد لديها أي رجاء حيال تلك النساء، فهنّ بالنسبة لها جمهرة.. وعليها التعامل معهن هكذا! يعني، هذا عملها. (...).. لقد تعلّمت هذا التصرف، وتعوّدت على هذا. كانت طريقة مختلفة في التصرّف، ولا علاقة لها إطلاقاً بالنشاط النسائي، مهما قيل. لكن مدام دو (×). لم تكن تقبل أن تسمع كل هذا بتاتاً. عندها نحن قرّرنا هذا إنما في مجلس الإدارة. وهي طلبتنا إلى الهيئة العامة. فمن كان معه الأوراق؟ أنا، بكل تأكيد، لأنني كنت قد اهتممت بكل شيء. وبالتالي، كانت عندي قائمة بالناس، بالنساء المنتسبات إلى الجمعية، بالذين دفعوا اشتراكاتهم. فقالت لي فجأة، «مطلوب منك رجاءً تقديم هذه القائمة». أنا لا أحبّ إطلاقاً تسليم قوائم لكن لا يمنع، وافقت بطيب خاطر.

{في الهيئة العامة، رأت «أكداساً من النساء اللواتي لا علاقة لهنّ بالجمعية أبداً» يدخلن إلى قاعة الاجتماع.}

عملية القتل

كلودي: ورأيتُ أمامي، خصوصاً، صويحبات البداية الصغيرات! جميعهن! (...) جماعة الصراع الطبقي! جميعهن! لم تتخلف واحدة منهن!

وعلى رأسهن مدام دو (×). طبعاً هي قالت، «أنا رئيسة الجمعية! لأنني أنا مدام دو (×). طبعاً!». فقلت، «لكن كيف حصل هذا وهؤلاء الأشخاص لم يكنّ أبداً في الجمعية؟ وهؤلاء الأشخاص لم يدفعن أبداً أي اشتراك؟» فقدمت إليّ قائمة، وقدّمت إليّ أوراقاً، 37 ورقة. 37 ورقة عضوية موقّعة. «هنّ عضوات في الجمعية، وهذا التوقيع.» عندما أسّسنا جمعيتنا، وضعنا في اللوائح الإدارية إمكانية الانتساب بأكثر من باب، وأنا في حينها، لم أعِرْ الأمر أهميته. وفي الوقت الذي كنت أهتم خلاله بالنساء المضروبات، بالنساء الملتجئات عندنا، أثناء انشغالي بالأضابير، أنام في الملجأ لأحلّ محلّ الحارسة الليلية. وإذن فالأوراق وُقّعت، لوجود وسيلة أخرى للدخول إلى الجمعية، وبينما أنا كنت أقوم بكل نشاطاتي، ذهبن ورتّبن أمورهن قانونياً، وتكاتفن يداً واحدة. لكني سألتها، «لكن من وقّع هذه الأوراق؟». فأجابتني، «يمكنك أن تنظري لتعرفي أن أختي هي التي وقّعت هذا» وبيني وبينك، كان يمكن لأختها أن توقّع على أية ورقة دون أي تدقيق. أنا لا أنتقد أعمالها الأدبية، لكنها ببساطة إنما أرادت تقديم مساعدة لأختها...

❖ لم تكن دون شك تعرف التحتيّات والألاعيب...

كلودي: لم تكن تعرف دون شك تلك الأبواب، وهذا يعود إلى عمرها، هذا مردّه لتلك الأمور. ما علينا، من بعدها، جاءتني صدمة كبيرة. أظنّ أن بالإمكان فهم كل هذا. على أي حال، جميع نساء الملجأ، أقول جميعهن دون استثناء، شرعن بكتابة رسالة من صفحتين، يقلن فيها إنهن لا يفهمن هذا الموقف، وإنهن يشاهدنني أعمل طوال الوقت، إنني مديرة ممتازة، إنهن لا يفهمن لماذا أُوضع في موضع الاتهام والتشكيك، إلخ. وهكذا، انعقد مجلس الإدارة مرة ثانية، ولم يعد هناك امرأة واحدة من الملجأ، ولا من أولئك النساء من باريس اللواتي قدّمن المساعدة، لا أحد إطلاقاً، ولم تعد القضية قضية نضال نسائي، كان هذا واضحاً. إذن، مجلس إدارة من جديد والمطلوب مني فوراً ومباشرة تعيين امرأة، هي التي يجب أن يكتمل بها الملاك. لأنكِ مرتبطة مع الشؤون الاجتماعية بعقد. فإذا تخلّفتِ عن شروط

هـذا العقـد، تتوقـف المسـاعدة الماليـة، ويطـير الملجـأ فـي خـبر كـان. فـي ميزانيتكِ، هـذا واضح، عندك وظائف محددة في الميزانيـة. ولا يجـوز لـكِ تجاوز هذا خصوصاً في السنة الأولى. فطُلب مني تعيين امرأة. دون أن أعلم من أين أدفع لها رواتبها، أو من أين أدفع التزاماتي تجاهها إلى الشؤون الاجتماعية. وكنت بين نارين، إمّا تعيين امرأة جديدة للعمل معنا، وفي هذه الحالة أُثبتُ أنني إدارية فاشلة، لأنني مستنكفة عن التزاماتي بموجب العقد حيال الشؤون الاجتماعية، وإمّا عدم تعيين أية امرأة، وفي هذه الحالة أرتكب مخالفة، لأنني أخرج على أوامر مجلس الإدارة. يعني. على أن الشؤون الاجتماعية كانوا قد سمعوا بكل هذا، وقالوا لي، «اسمعي، كل هذا، هذا لا يمشي على الإطلاق. أنتِ، أنتِ فعلاً تعملين جيداً جداً جداً. نحن متمسّكون بأن تستمرّي في منصبك. لأننا واثقون بك. لأن إدارتك جيدة». عظيم، لكن، هنا، اخترعوا لي أشياء جديدة، أقصد أنني طُلبتُ للحضور، أنا لم أكن أعرف مثل تلك الحركات، فأنتِ تُستدعين ويجب عليكِ تلبية الاستدعاء، والاستدعاء هذا يدسّونه خلسة بين ورقتين من دفترك، أنا لم أرَ هذا الاستدعاء إلا في آخر لحظة. وهنا أيضاً، هذه زلّة: أنتِ لم تحضري إلى مجلس الإدارة. وشيئاً فشيئاً بدأت هذه الأمور. حكايات جديدة في كل يوم. فذهبت لمقابلة صاحبة لي من باريس، محامية، فشرحت لها الموقف، وقلت لها، «كانت عندنا انتخابات غير نظامية، تعداد الأصوات جرى دون تدقيق، هكذا أخبرني بعض الذين ظلّوا في القاعة». فقالت لي، «يا كلودي، أنتِ في حلبة صراع. إذن، إمّا أن تغادري الحلبة، وإمّا أن لا تغادريها، على أنهم يريدون قتلك حتى الموت. وهم يقذفونكِ الآن بالسهام». نعم كنتُ في حلبة. يعني، وهنّ كنّ يملكن السلطة، ولكن القضية خصوصاً هي أن هناك أناساً، يتركونهم يناضلون، يتركونهم يعملون، لكن لا يجوز خصوصاً أن ينجحوا. هم خصوصاً غير مكرّسين لهذا. فليس هذا قدرهم. أنا لست مدام دو (×). أنا كلودي؛ كلودي التي بإمكانك إرسالها هنا، بإمكانك إرسالها هناك حيث الرشّاشات، السكاكين المشرَعة، وهي تؤدي لكِ العمل تمام التمام. لكنّ

أن تكون كلودي مديرة لملجأ هي نفسها التي أنشأته؟ لكن فوق كل هذا كنتُ قد تعبتُ إلى أقصى حد، وفي النهاية قلت لنفسي، يعني كيف أعبّر لكِ، في الشؤون الاجتماعية قالوا لي إن عليّ الانتباه، إنّهم تأتيهم أخبار عن هذه القصص، بالمختصر، من الممكن إغلاق الملجأ. يعني، أنا إدارية جيدة، لكن إن كنتُ لا أنجح في إعادة النظام والانضباط، فمن الممكن إغلاق الملجأ. ومن جهة ثانية، فمدام (أ). قالت لي، «الملجأ المقرر لـ 50 امرأة، لم يعد أحد يتحدث عنه، فملجؤكم فيه مشاكل، ولم يعد أحد يتحدث عن الملجأ الكبير. انتهى». عندها، فكّرت بحكاية الثور في الحلبة، قبل الشروع بقتله حتى الموت، وقد شعرت حقاً بهذا، وقلت لنفسي، لن أقدر أن أدفع لتلك الفتاة المطلوب تعيينها، لن أعيّنها. وقد وجدتُ نفسي مضطرة للاستقالة. بسبب «حيونة» مدام دو (×). عفواً، لكن لا بدّ من تسمية الأمور بأسمائها. لقد تخلّيت عن منصبي، ويوم تركتُ العمل، وُلد كلود، أقصد أن هناك امرأة جاءت إلى الملجأ، وكانت حُبلى، وأنا نصحتها بالتعامل مع جماعة تنظيم الأسرة، فضّلتها على باقي الجمعيات، كان لدينا بعض المال، وكانت نساء تنظيم الأسرة يحضرن بشكل نظامي لإجراء نقاشات مع النساء في الملجأ. عظيم، فتلك المرأة كانت حُبلى، فطلبت توضيحات، دون أن تكون ثابتة على الموقف الذي تريده. فبدءوا في الإدارة يحضّونها «اعملي إجهاض، ماذا تنتظرين، عليكِ بالإجهاض؟» عندها قالت لي، «قرفتُ منهن». حيال هذا، أنا لم أكن موافقة على تصرّفهن، لأنني مع حرية النساء في اتخاذ قراراتهن، أمّا أن أقول للواحدة: عليكِ بالإجهاض، أو ليس عليكِ ذلك، فهذا نوع من الاستغلال والغش! عندها، نهرتهنّ، «الآن، هذا يكفي! لا أحد يقول لها بعد اليوم أي شيء عن هذا». والذي حصل أنها قررت الاحتفاظ بالجنين، وأنني، عرّابة هذا الطفل. لقد وُلد يوم غادرتُ الملجأ وأطلقتُ عليه اسم كلود (...)، إذن، هناك أيضاً أشياء حلوة، جداً جداً، ولا يجوز الاكتفاء بالنظر إلى الجانب السلبي. لكنّ الأشياء الإيجابية جاءت إمّا من المناضلات، من الفرقة بأكملها، ومن النساء اللواتي لاقين المأوى عندنا، منهن كثيرات، كثيرات. لكنّ

لا شيء من جهة الموظفات. وأنا عن قصد دقيق أستعمل كلمة «موظفات»، أي نعم، لأن هؤلاء لا علاقة لهنّ أبداً بالعمل النسائي. رغم أن بعضهن كنّ لطيفات وحبّوبات جداً جداً.

{وصلتها أخبار أن المربّية انتهى أمرُها إلى الطرد من الملجأ.}

[...]

❖ واستمرّ هذا الملجأ؟

كلودي: هو مستمرّ لأنني أنشأته، هو مستمرّ. سوف أطلعكِ على مقالات عنه، هو يمشي تماماً. وهذا، هذا مهم. لقد احتفل بالذكرى العاشرة لتأسيسه في كانون الأول. بالنسبة لي، شعرتُ بالضيق لسنوات بعد تركي العمل. شعرت أنني فقدتُ استقراري كلياً. لأن كل كياني كنتُ قد وضعتهُ هناك...

❖ كل طاقتكِ...

كلودي: كل شيء، وهبتُه كل شيء. وهاهو يستمرّ في عمله. هو موجود. وهذا، رغم كل شيء جانب إيجابي. لعلّي لو أقمتُ دعوى، كنتُ ربحتُ الدعوى. طيب، تركتُ العمل، لكن الملجأ موجود. إذن، ما أقدر أن أقوله لكِ، يعني، ربما، بعد ضربة مثل تلك، عموماً... على فكرة، هناك شيء نسيت أن أقوله لكِ. كانت علاقاتنا جيدة مع جماعة البيئة. لأننا إلى حدٍّ ما من العقلية نفسها، وقد طلبوا منا مقالات، من وقتٍ لآخر، اتصالات هاتفية، لكن ما أستطيع قوله لكِ هو أنني بقيت مناضلة نسائية، بقي عندي منظور العمل النسائي، فما حصل لم يغيّر إطلاقاً ما هو مستقرّ في أعماقي، كما ترين، لأن ما في أعماقي هو قضية المرأة، كما ترين. على أني، من طرف آخر، أصبحتُ سيئة الظن. سيئة الظن بالآخرين، فأنا على حذر شديد. لكن إذا كان ما يجب القيام به، نعم، فأنا موجودة. منذ عامين، رافقت مسيرة باريس-جنيف من أجل الأطفال المخطوفين. إذن، عندما يكون ما يمكن القيام به، فأنا أفعله. وعندما يتعلّق الأمر باجتماعات، بتشلّلات، هذا لا يثير

أي اهتمام عندي بتاتاً. فقد قرفتُ من هذا. وعندكِ نساء يدّعين النضال النسائي ولسن على الإطلاق كذلك، لأنهنّ هنّ اللواتي وجّهن إليّ تلك الضربة، وجّهوها إليّ، ووجّهوها إلى غيري أيضاً. لقد حكوا لي أنهنّ فعلن الشيء نفسه مع أحدهم وكان قد أنشأ جمعية في الحيّ، فتدفّقن إلى هناك للبهرجة والدعاية، إلخ. مع أصحابهن الصغار النفوس. فحكوا لي أنه قد انتحر. لأن مشروعهن التدمير الكامل. تدمير شخصية الإنسان. بالكامل. وفعلن هذا لماذا، في النهاية، لا لشيء إلاّ لأنهنّ يردن انتقاد المجتمع، لكن لا أسهل من التدمير بالاتجاه نحو الداخل، وهو ما تفعله بعض المناضلات النسائيات، وأمّا الصعب فهو القيام بالفعل الحقيقي، بالاتجاه نحو الخارج.

1991

روزين كريستان

شاهد صامت

وصلت إلى لونغوي، مساء يوم أحد من شهر شباط، قرابة الساعة 20. كان الثلج يتساقط. نزل الركاب القلائل من القطار الذي تخفّف شيئاً فشيئاً من مسافريه؛ كانت بضع سيارات تنتظر، مضيئة رصيف المحطة بأضوائها، ثم، في دقائق، عادت المحطة تغرق مع ما يجاورها في الظلام، كان رئيس المحطة قد أغلق الأبواب وعاد ليتدفأ؛ سوف يعود القطار نفسه ليرحل بالاتجاه المعاكس في صباح اليوم التالي. في الساحة الكبيرة الموحشة، كانت واجهة القصر البلدي المضاءة تبدو كأنها ديكور، شاهد وأثر باق من الثروة الغابرة للمدينة. من وراء الساحة، في شوارع القسم الأدنى من لونغوي، كان الليل يخفي جزئياً الوحشة، والمتاجر المغلقة منذ فترة بعيدة، وإعلانات العرض للبيع.

كنت على موعدٍ مع ماريز، وهي امرأة في الـ 45 من عمرها، تعمل محاسبة صندوق في سوبر ماركت. فبينما كنت أبحث عن مقابلات أجريها مع نساء عمال عاشوا أزمة صناعة الحديد والتعدين في منطقة اللورين، حدثني ابن أخيها عنها (طالب في العشرين من عمره)؛ عن ترمّلها مؤخراً، وقليلاً عن حياتها. لاقيتُ صعوبة في تحديد الموعد معها، فهي تعمل نهاراً، وكانت، على وجه الخصوص، تعيش في بيت والديها في قرية نائية قليلاً؛

ولعلّها، هي أيضاً، ما كانت تتمنى حضوري على مقربة من والديها العجوزين والمريضين. لكن أحد إخوة زوجها، وهو وكيل تجاري، اقترح أن يستقبلنا نحن الاثنتين ذات مساء في بيته، على مسافة عشرة كيلو مترات تقريباً من المدينة. البيت، يقع في مشروع سكني حسن الإعداد والإضاءة، وكان يبدو دافئاً وحميماً من بعد الليل والثلج، بمفروشاته المصنوعة من خشب الصنوبر الفاتح اللون وبترتيبه الكامل؛ بعد انتهاء الوجبة، جلس مُضيفانا مع ماريز حول الطاولة التي رُفعت عنها الصحون، وكان يبدو عليهما ما يوحي بالصلابة، والنجاح، والتلاؤم مع الحياة. أما ماريز فبدت لي صغيرة السنّ، أو لعلّها عزلاء من كل قوة، ببنطال الجينز، وقوام طالبة، وبنظرة لا أعلم إن كانت تعبّر عن الريبة أو العزاء كونُها تتحدث مع امرأة لا تعرفها. ثم استقرّ مجلسنا، نحن الاثنتين، حول طاولة المطبخ، بينما عائلة (ب). كانت تتفرج على التلفزيون في الحجرة المجاورة: فحديثنا تبدّى لنا في ذلك اللقاء الأول كتبادل عادي للمكاشفة بين امرأتين من بعد وجبة في جوٍّ عائلي.

ولدت ماريز في عام 1947، في قرية تبعد حوالي عشرة كيلو مترات عن لونغوي؛ من أب «كان يشتغل في السكك الحديدية» ومن أمٍ ربة منزل. كانت الثانية بين أربعة أبناء، جميعهم الآن متزوجون، ولم يكن فيهم أحد «تقدّم في دراسته إلى مراحل عليا »؛ هم يعانون حالياً من «مشاكل بطالة». ماريز ذهبت في دراستها إلى الصف الحادي عشر، لكنها توقفت هناك. كانت طالبة جيدة، ولذلك نصحها أساتذة مدرسة القرية بمتابعة دراستها في ثانوية لونغوي، بعد نهاية المرحلة الإعدادية. هناك كانت جنباً إلى جنب مع فتيات المدينة، بنات كوادر وفنّيين صناعيين، و «شعرت بالفرق»، خاصة عندما بدأت تخرج، و«تلبس كما تشتهي الفتاة في عمرها أن تلبس (...)»؛ لم يكن في جيبها «خرجية»، حتى لتناول فنجان القهوة: «في الحياة اليومية، فلمثل هذا الأمر أهمّيته بالنسبة للفتاة.» وكان نجاحها لا بأس به عموماً، رغم بعض الصعوبات في الرياضيات، لكن «بدأت تشعر بالقرف»؛ فعزمت أمرها على توقيف دراستها كي تعمل وتكسب بعض المال. حصلت على عمل

في البريد صيفاً، «وهذا أعجبها تماماً»، فاتخذت قرارها النهائي ألا تعود إلى الثانوية في مطلع العام الدراسي في تشرين الأول؛ بُعيد هذا بقليل، «أصبحت بائعة في بريسونيك»(*).

من بعد زواجها الأول وولادة ابنها، طلّقت وهي في العشرين من عمرها، لتتزوج في 1968، ذاك الذي لن تلفظ أبداً اسمه خلال جميع أحاديثنا المسجّلة ودردشاتنا الخاصة (وأنا ما أزال لا أعرف اسمه)، كما لو أنّ تعميم اسمه يمكن أن يبعده عنها. فـ «زوجها»، كما تذكر دائماً، تعبيراً منها عن وفائها ومحبّتها، كان لحّام كهرباء في ورشات لونغوي (SAF)، والـ (SAF) هو مشروع صغير كان مزدهراً بالطلبيات التي يتلقاها من المصانع الكبيرة في المنطقة. لقد بدأ زوجها متدرباً، ثم «لموهبته في هذا المجال»، ارتقى شيئاً فشيئاً إلى «أعلى تصنيف، لحّام كهرباء درجة P3 »؛ كان يكسب من عمله أجراً ممتازاً، مع الساعات الإضافية التي تضاف إلى الراتب لتوفّر في نهاية الشهر كل المصاريف. عدا عن التنقّلات، في جميع أنحاء فرنسا تقريباً، مما كان يوفر لهما الشعور بأنهما يعيشان حياة ممتدة الآفاق. وتحتفظ ماريز بذكرى استثنائية جداً عن فترة ثلاثة شهوراً أمضياها في منطقة سافوا-العليا، وكانت قد لحقت بزوجها هناك مع ولديها.

عندما تتكلّم ماريز عن لونغوي ذلك العهد، يأخذها الحماس: «كانت مدينة عمّال، وكانت فعلاً بالعقلية العمّالية. صحيحٌ أننا كنا نلتقي بمعلّمي الحرف الذين يظنون أنفسهم دائماً فوق الآخرين قليلاً، لكن كنا نلتقي بالأصحاب في كل مكان، فنذهب إلى المقهى. كان الناس في معظمهم ميسوري الحال، ولا يحرمون أنفسهم كثيراً» اليوم، كما تقول، «إنه التزحلق، (...)»، هم «نوع من الرعاع جاءوا لا أعلم من أين، وتعجبين كيف يعيشون، ثم، عندكِ جميع أولئك الذين حصلوا على تقاعدهم مبكراً، فهم راضون، قانعون بحياتهم الصغيرة، بيتهم الصغير، سيارتهم الصغيرة».

البيت الكبير الذي اشتروه في الـ 75، تقريباً دون أية دفعة أولية،

(*) Prisunic: شركة كبرى تملك العديد من المخازن الضخمة في كافة أنحاء فرنسا.

بقرض مصرفي لم يكن لهم فيه رجاء، ما زال بقيّةٌ باقيةٌ من تلك الدنيا المسحورة: «برّاكة خشبية كبيرة »، (...) ثماني حجرات، خلوات، لكنه آنذاك، بالفعل... كان بحاجة إلى ترميم كل ما فيه.. «كان مخرّباً، لكن أنا، كان هذا ما يروق لي، القيام بمشاريع مع زوجي، فخطّطنا لهذا، وخطّطنا لذاك (...). ما كان يمكن أن نصل إلى النهاية براتبه، إنما لا بأس، لا بدّ أن تتيسّر». «ما كان معنا قرش واحد، لكن سعداء... فكان زوجي يعود من عمله، تكون الساعة عندها الثانية والنصف وبالتالي، هوب! كنا نمضي إلى الحديقة، ونتناقش مع أبناء البلد.» بدأت مشاكلهما بعملية الشراء اللامعقولة تلك، ضمن مناخ اقتصادي كان في تدهور مستمر. كان القسط الشهري في حدود 700 فرنك، أي ما يعادل أعلى أجرة سكن و«بدأ الدفع يزداد صعوبة شهراً بعد شهر».

كان الوقت قد فات، رغم جميع محاولات الإنقاذ التي أعقبت المظاهرات العمالية في بومبي عام 78، في سبيل إنجاز الآمال بحياة عمل راسخة بقوة في تلك المنطقة. فمنذ عام 75، أغلقت المصانع أبوابها الواحد بعد الآخر بإيقاع متسارع وكانت سنة 79 سنة سوداء. فمن بعدها بقليل، مصنع شيبي، الـ SAF، أغلق أبوابه هو أيضاً، وأغلقت من بعده مصانع فولاذ سينيل دريون. وتطايرت الروح العمالية المتضامنة هباءً مع عروض التقاعد المبكّر ومكافآت التسريح. تعود الذكريات إلى ماريز: «كان زوجي في نقابة الـ CGT، لقد شرحوا كل هذا، وهو، كان يفكر هكذا أيضاً، وعندما كان يتكلم عن الأمر مع الآخرين، حتى مع أسرتي نفسها (...) فكانوا ينظرون إلينا من طرف العين على أننا من الثوريين أو من الناس الذين لا يرضون بما قُسم لهم».

وانصياعاً لنصائح زميل قديم، قَبِل أن يتوظّف كعامل مؤقت لصالح مشروع تابع للأشغال العامة، الـ SPIE. فكان عليهم الانطلاق إلى ورشة معمل كهرباء غرافلين، في بيت-نقّال تمّ شراؤه بسعرٍ مخفّض بمساعدة الأسرة وما تيسّر معهما من بيع بعض قطع الموبيليا عندهما. ويبدو، من شدة

قسوة قدرهما وظلمه في نظرهما-حول هذه النقطة، حكايات ماريز المتوعة فيها تناقضات-أنهما حملا دائماً لفترة طويلة الأمل بالرجوع إلى لونغوي: حتى عندما راحت الـ SPIE، باستلامها أمور شركة العمل المؤقت، توظّف العمال، احتفظا ببيتهما الكبير غير مسكون، و، أثناء خمسة أعوام، لم يحاولا تحسين سكنهما إلى ما هو أكثر راحة. في غرافلين، جعلا مركز بيتهما-النقّال في المخيّم البلدي مثل جميع العاملين في المحطة، القادمين من جميع أنحاء فرنسا، فهم جمهور رحّال حسب حاجة ورشات الـ SPIE، أو غيرها من المشاريع.

كانا قد رضخا شيئاً فشيئاً للأمر الواقع، بل كانا تقريباً راضيين لأنهما «أمّنا شيئاً ما»، خائفين من البطالة، ومتجاهلين، كلاهما، منغّصات العسر وضيق المكان فهذان أمران تعوّدا عليها منذ الطفولة. فـ «البرّاكة الكبيرة» حلم كان لا غنى عن وضع حد له وبيتهما-النقّال «جميل» بأمتاره الستة طولاً فهو «يضمّ كل ما يجب» و«كان المطبخ مرتباً». لكن مع مرور الزمن-قُدّر لهما أن يعيشا فيه خمسة أعوام، عام ونصف في غرافلين وأكثر من ثلاثة أعوام في سان فاليري-أن-كو-، بدأت معاناتهما تتفاقم بسبب ضيق المسكن وعدم توفر الحميمية فيه، فكانت حجراته مثل خزائن بأبواب جرّارة، «الصغار، كانوا في حجرة كم مساحتها؟ بطول السرير (...)، وكانت الأسرّة فوق بعضها، كان لكل منهم سرير، وحجرته سريره. يعني: أطفال في ذلك العمر، ما كان بإمكانهم سماع موسيقى، ما كان بإمكانهم أن يفعلوا شيئاً. (...) كان هناك حجرة أخرى يمكن اعتبارها مثل صالون صغير: إذن، هناك كان يوجد مقعد صغير متطاول الشكل، وطاولة صالون صغيرة، ثم قطعة موبيليا وضع فوقها التلفزيون. حياتنا في البيت النقّال كانت هي التلفزيون».

في مخيّم غرافلين، كانت المعاشرة نادرة، فالجميع غارقون في العمل ورازحون تحت وطأة حياة شاقة التدبير لعائلات تعاني الأمرّين من البطالة ومن الغربة. هناك جيران جاءوا ذات مساء لتناول كأس عندهم، وهم ردّوا

على هذه الزيارة بزيارة مماثلة، لكن هؤلاء الناس الذين كان يمكن مصادقتهم رحلوا بُعيد ذلك إلى ورشة أخرى. وبعد مرور عامين، أصبح الدور على ماريز وزوجها كي يغيّرا موضع بيتهما-النقّال: فالـ SPIE أرسلتهما إلى سان-فاليري- أن-كو؛ فحطّا الرحال في حقل استأجراه من أحد الفلاحين، في قلب الريف. فكان الذهاب إلى المدينة يستلزم استخدام سيارة. لذا لم تكن ماريز تخرج إلا لشراء حاجيات البيت ولتوصيل ولديها: الكبير، في الساعة 7 صباحاً لأوتوكار دييب، للذهاب إلى الثانوية، والصغيرة في الساعة الثامنة والنصف للذهاب إلى إعدادية سان - فاليري، ومن ثمّ كانت ترجع إلى البيت -النقّال. كان النهار يطول كثيراً عليها بانتظار عودة زوجها والصغيرين؛ كانت الأعمال المنزلية تنتهي بسرعة فتمضي باقي النهار في قراءة الكتب المستعارة من المكتبة، دون تمييز، كما تقول، من روايات وقصص بوليسية.

في ذلك الحيّز المخنوق كان على كلٍ منهم الانتباه إلى تصرفه في كل لحظة: فالحركة الزائدة الانفعال قليلاً، أو صرخة الاحتجاج، أو مجرّد التأفّف كان من نتائجها توتر موجع. والابن البكر الذي حرم من الأصحاب، والذي فُرضت عليه العزلة بسبب بعد بيتهم -- النقّال، لم يعد يشتغل في الصف واحتمى خلف حاجز من الصمت المعادي، كما لو أراد أن يعكس على ذاته جميع آلام الأسرة. وداخل البيت النقّال كانت العلاقات متأزّمة أغلب الأحيان بين ابنها وزوجها: «(...) كانت جهنم... جهنم لأني كنت في خوف دائم أن تطيش من أحدهما كلمة... فتكون القاضية، يعني؛ (...) كان منغلقاً بالفعل على نفسه ولم نكن نستطيع أن نأخذ منه أية كلمة، كان عمره 16 عاماً، كنت أكلّمه، فيخفض رأسه، ولا يجيبنا». ظلت ماريز لفترة طويلة تنسب صعوبات ابنها إلى ظروف ولادته (وُلد من الزواج الأول لأمه لكن والده لم يجرّب أبداً أن يراه)؛ هي اليوم، توافق على أن مردّ اضطراب ابنها في حداثة عمره تزعزع الوضع العائلي وعدم استقراره، بالإضافة إلى اكتشافهم، في عام 1981، إصابة ربّ

الأسرة بالأورام الكيسية الكلوية، وهو مرض وراثي كان والده قد مات بسببه قبل سنوات قليلة.

عندما علمت ماريز بمرض زوجها، علمت أيضاً النهاية المنتظرة. ثم سرعان ما علمت، لأنها تحدثت بهذا الشأن مع الطبيب، أن زوجها لن يكون بإمكانه الاستمرار في عمله لفترة طويلة. فيجب التخلّي عن ذلك العمل، مورد رزقهم الوحيد، ذلك العمل الذي من أجله غادرا بلدتهما، عائلتهما، بيتهما. وهكذا راح التوازن الهش يتداعى. كان لزاماً عليهم الانطلاق مرّةً جديدة نحو المجهول، دون أي أمل بالرجوع إلى لونغوي التي كانت قد تفاقمت فيها مأساة الوضع الاقتصادي المتردّي وانتشار البطالة. لقد تكررت الظروف المأساوية بالنسبة لهما، واستمرا يرزحان تحت وطأة التشرّد و«الغربة». «فوق كل هذا كنا نشعر بأننا غرباء حيثما ذهبنا، وخصوصاً، في المخيّمات، لأننا في تلك المناطق نعتبر دائماً من.. الأجانب». في عام 83، جمعا كل ما تبقّى لديهما، الرأسمال الصغير الذي جاءهما من بيع بيت لونغوي، وخبرة ماريز في البيع لشراء متجر للصحف والقرطاسية في آنيير عثرا عليه بفضل إعلان صغير من بين إعلانات البيع العقارية في الصحف؛ حصلا حينها على أكثر من قرض لدفع 380.000 فرنك ثمن المتجر.

كانت قد بدأت تدرك منذ تلك اللحظة أنها في وضع معلّق مؤجَّل الانهيار، وبدأت تنتابها نوبات عنيفة من اليأس كتلك التي سيطرت عليها أثناء استقرارها في شقتها في آنيير: خلفية حانوت دون نافذة تقرّر أن تكون غرفة جلوس ومن فوقها ثلاث حجرات، متناهية الصغر، يكون الوصول إليها بسلّم لولبي. كان كل شيء يدل على الاهتراء، ومن بعض الجوانب، كانت الشقة أقل راحة من البيت-النقّال. كانت قد نقلت إليها قطع الموبيليا القليلة المتبقية من مفروشات لونغوي لكن الشقة كانت أصغر من استيعابها: «لم نستطع وضع الخزانة المرتبطة مع السرير، ولذلك وضعنا الخزانة في حجرة، والسرير في حجرة، باختصار حالة مزرية! مرعب، مرعب، مرعب. عندها في إحدى المرات، سوف أقول لك ماذا فعلت، في مرّة من المرات. كان

عندنا كنبة جميلة من المخمل... كانت طويلة إلى حد ما، ولذلك رفعها الحمّالون إلى الطابق الثاني وأدخلوها من النافذة لأنه لم يكن بالإمكان المرور بها من الأسفل. أما أنا، فكنت أريد بأي ثمن إنزالها إلى غرفة الجلوس، تحت، ففي إحدى المرّات جرفني الهياج لأنني لا أستطيع إنزالها وأنني لم أعد أريد إبقاءها فوق، فتناولت مطرقة وحطّمتها قطعاً صغيرة.»

لم تكن السنة الأولى زائدة الصعوبة، لأن الأعباء المالية الواجب دفعها لم تكن قد استُحقّت بعد، لكن بعد ذلك، ورغم الأرباح، كان اقتطاع أقساط الـ 10.000 فرنك شهرياً شديد الوطأة. وقد تملّكهما الحنين لمسقط الرأس: «لا أستطيع أن أقول لك من منّا كان الأول في الحديث عن هذا، لكن، على أي حال، بخصوص هذا الموضوع كانت عندنا الجرأة لنعبّر سوياً عن الرغبة في رجوعنا نحن الاثنين إلى هنا.»

في السنة التي سبقت موت زوجها، كانت ماريز تخطط معه لمشروع العودة. فتوجّها إلى س...، في قريتها التي وُلدت فيها، حيث والداها ما يزالان يعيشان، وذلك لاختيار بيت، الأخير في البلد، فيه عين ماء في نهاية الحديقة، وكانوا سيشترونه من بعد بيع الحانوت. كان الابن البكر قد تزوّج وكان قد حصل على عمل ثابت في دائرة المساحة في آنيير، أما البنت التي كانت طالبة فهي الوحيدة التي أظهرت بعض التحفّظ. وكان يمكن لماريز أن تجد وظيفة لها كبائعة، و، بوجودها قرب عائلتها، كانت الحياة ستصبح أخفّ قسوة، بل حتى المرض أيضاً. على أنه مات قبل تلك العودة فـ «باعت برخص التراب» المخزن كي ترجع إلى لونغوي في كانون الثاني 91.

في اليوم التالي من بعد حديثنا الأول، توجهت لأراها في موقع عملها، في (فويّوري)، وهو محل بمساحة متوسطة يقع على بُعد بضعة كيلومترات من المدينة. لا غنى عن استخدام السيارة للوصول إلى هناك، على الطريق السريع ميتز-بروكسل أولاً، ثم الانعطاف على جسر فوق الطريق وفوق أراض بائرة مخصصة للصناعيين قبل الوصول إلى منطقة تجارية، هي في أساسها منطقة صناعات خفيفة تحولت إلى التجارة:

مكعّبات ضخمة من الأسمنت المسلّح متوضعة هنا وهناك، سوبر ماركت للأسعار الرخيصة، مكتبان للسيّارات، مستودع للمنتوجات المثلّجة. أما «الفويّوري، السوق الضخم للجميع» فيتقاسم أحد تلك المستطيلات الأسمنتية مع محل لبيع أدوات المطبخ: و بهو «للأحذية». يعرض المخزن على مساحة 1200 متر أخلاطاً من الأغراض المكدّسة دون تصنيف، من صحون، ومنافض سجائر، وأواني زهور، طواحين خضار، صور قديسين، أفلام مصرية من مجموعة «شمس مصر»، سناجب من القطيفة التركيبية. هنا لا وجود للدعاية الكاذبة، لا وجود للزخرفات، هنا العري الكامل. كانت ماريز وراء صندوق المحاسبة، وهي تلبس كنزتين بياقة طويلة لأن المكان شديد البرودة؛ إلى جانبها، مقعد دون مسند (تابوريه)، «لكنه غير عملي لإرجاع الفكّة للزبائن». ما يقرب من عشر بائعات يعملن، معظمهن يمضين الوقت بإلصاق الأسعار وبترتيب السلال الكبيرة المنبوشة دون توقف أو بمساعدة الزبائن في شراء قطعة ثياب. في بحر الأسبوع، في منتصف النهار، لا يكون عدد الزبائن كثيراً جداً، منهم من المتقاعدين القادمين لتمضية الوقت ومن الأطفال الذين يتفرّجون على أسعار الألعاب. وكان مكبرّ صوت لا يكفّ عن بث ألحان روك الخمسينات بالتناوب مع أحدث الأغاني الرائجة.

في ذلك العالم من البضائع الرخيصة، تحت أضواء النيون الباردة، كان يبدو على ماريز رضوخ من فقدت حتى كرامتها الشخصية، كما أنها اشتكت، دون جرأة زائدة، من حرمانها من حرّيتها بتضامن عائلتها الذي يخنقها قليلاً: «عند الظهر، عليّ أن أذهب عند الجميع لتناول الغداء؛ لأن من اللازم أن أتغدّى مرة مع حماتي، مرّة مع أخت زوجي، مرّة عند أخي... (...) هذا مرهق. أنا لا أحبّ الذهاب لتناول الطعام، لكن.... يجب أن آكل، أحياناً لا أكون جائعة، عال، لكن يحضّرون الطعام خصّيصاً من أجلي، فيجب أن آكل، فآكل؛ عدا عن أنني أحياناً قد أرغب في ألاّ أرى أحداً، أرغب رغبة قوية في أن أكون وحيدة تماماً، ثمّ أن آكل دون.. أي أن أسترخي!»

اليوم، وقد مضى عام على وفاة زوجها، وتشعر أنها جُرِّدت من كل شيء، امرأة بلا رجل، بلا هوية اجتماعية، غريبة في مسقط رأسها، بلا سكن خاص بها لتحتمي داخله، لتطبخ ما تريد، لتستقبل ابنتها الطالبة في نانسي. لم تعد تملك شيئاً ولم تعد تعلم من تكون، وهو شعور تتفاقم مرارته بسبب التعاطف الحاني لعائلتيها اللتين تسلبانها الهامش البسيط من الحرية والاستقلالية التي يمكنها تحقيقهما، وإن كانت لا تطالب بهما حقيقةً. «عندنا أختي التي كثيراً ما تأتي لتناول الطعام يوم الأحد، فيظلّون عندنا طيلة فترة العصر، نكون جميعاً موجودين، جالسين من حول الطاولة، بانتظار انقضاء يوم الأحد. ثم عندك أم زوجي، عندما تستطيع تأمين من يجلبها فتأتي لزيارة المقبرة، ثم تمرّ على والديّ، ومن ثمّ، نمضي كل فترة العصر سوياً. عندها، أنا شخصياً، من بعد ذهابهم أشعر بصداع (...) لقد سئمت من هذا».

عادت تقول من بعد أيام أمضتها عند ابنها، «هذه الحياة ليست حياتي». كانا مسرورين ومن جميعه... أنا أحبهما فعلاً. (...) لكن، أراهما يعيشان ومن جميعه فأقول لنفسي، انتهى الأمر بالنسبة لي...»؛ ابنتها، التي أصيبت هي أيضاً بالتكيّسات الكلوية والتي ظلت حتى تاريخه قريبة جداً من والدتها، التقت بشاب، «كانت دوماً متعلّقة بي، لكن هاهي، يعني سنّة الحياة...».

في الأيام الحلوة، تأخذها أفكارها إلى البيت الصغير، بيت س. الذي كانت قد اختارته هي وزوجها والتي انتهى بها المطاف إلى شرائه بعد بيع الحانوت. هي «لا تسكن فيه لأنه لم يعد يضمّ سوى الحيطان»، هو بحاجة إلى «بعض الإصلاحات». لن يمكنها أن ترتب سوى القبو، فهذا سوف يكفيها ويفيض؛ لكنها بحاجة لمساعدة أخيها لمتابعة أعمال الترميم التي بدأت بالكاد، إنما «يوم الأحد، يشعران بالرضى، فيأتيان للتنزّه» دون أن يفكرّ أحد بأي انشغال. لعلّهم يشعرون هم جميعاً أيضاً بالحاجة إلى «اللمّة» حول الوالدين العجوزين فهم غير مستعجلين لرؤية ماريز تستقر في بيتها،

رغم أنه قريب جداً، على مسافة 700 متر من بيت الأهل... هي نفسها لم تعلم بعد ماذا ستفعل؛ هي في النهاية، لم يعد لديها أسرة «هي الوحيدة الآن التي تعيش وحيدة تماماً؛ بينما للآخرين هذا زوجة وهذه زوج».



اضطررنا للقاءات عديدة قبل أن نتجاوز السرد البارد قليلاً في حديثنا الأول[1]، وهو حديث مستهلك كثيراً من كثرة ما قالته بعد رجوعها، حتى لم يكن ممكناً معرفة إن كانت تؤمن فعلاً بما تقول أم لا. شيئاً فشيئاً، بمساعدة الألفة، على امتداد تلك الدردشات، مع توجيهي أسئلة عنها شخصياً، والطلب إليها أن تصف لي بأدق ما يمكن كيف تمضي أيامها، الأماكن التي سكنت فيها، أو أن تقول رأيها ببعض الحوادث، أمكنها أخيراً أن تستعيد تلك السنوات العشر بشكل حميم.

وكنت أحياناً، لدى استماعي لماريز، أشعر بالصدمة للتشابه بين حياتها الفريدة الخاصة وبين القدر الجماعي لمنطقة بأكملها. كان يبدو لها دوماً أن حياتها قد انتهت فهي تذكّرني، في وضعها كأرملة خائبة الرجاء محاطة بالعطف الزائد، بأولئك المتقاعدين النشطين والمفعمين بالحنين الذين نراهم اليوم يتيهون على غير هدى في المناطق الصناعية في لونغوي أو في ما جاورها، مسترسلين مع أحلامهم التي تعود بهم إلى الأيام التي كانوا فيها النخبة العمالية.

فعندما كانت تكلمني عن نفسها، كانت تعرض أمامي، بعد انكسارها في موشور المشاغل النسائية، حياة العامل التي عاشها زوجها، وبشكل أعمّ، واقع عالم كان قيد التفكّك. وظهر لي أنّ من الواجب الإصغاء بطريقة

---

[1] هذا الحديث لم أورده هاهنا. فمعظم المعلومات التي أعطتني إياها ماريز كانت في مناقشات غير مرتبّة، أحياناً على الهاتف، غالباً غير محفوظة على آلة التسجيل. وهكذا فقد اضطررت لتركيب ذلك السرد المتسلسل زمانياً مع إيراد أهم الجمل التي تحمل دلالة خاصة.

مختلفة إلى أولئك الذين، مثلهم مثل ماريز، ليس عندهم، إذا ما أرادوا عرض حياة مخترقة بالتاريخ الجماعي، إلا الكلمات الخاصة، و«القصص الصغيرة»، قصص امرأة، وهي دائماً وأبداً قصص ينبذها {التاريخ}، حتى عندما تكتب النساء ذلك التاريخ. لقد استعرضتُ أمامي ذكرى حياتها، مراهقة ابنها الصعبة، البيت-النقّال، الخوف المقيم من البطالة، المرض، تلك الذكريات الكثيرة المشوّشة بالحكايات المتلاحقة، وهي بذلك قد أتاحت لي، أفضل من أي متحدث قد يكون أكثر «أهلية» وأكثر سلطة، كما قد يكون أكثر استعداداً لإلقاء حديث رسمي عن البؤس، أن أدرك مدى البؤس اليومي لأسر العمال في صناعة التعدين، ولمأساة النساء، الممثلات البسيطات للوسط الاجتماعي، اللواتي تتجمّع عندهن لا محال، في نهاية المطاف، عواقب جميع الأزمات.

أيلول 1992

بيير بورديو، غابرييل بالاز

توازن هشّ للغاية

كان أنطونيو وليندا دمورا قد غادرا البرتغال منذ ما يزيد على 20 عاماً، وجاءا إلى فرنسا بحثاً عن عمل. هو لاعب كرة قدم جيد، وقد حصل بدايةً على عقد لمدة ثلاثة أعوام في البناء وكان قد رحل، تاركاً زوجته وأولاده الثلاثة الذين كانوا ما يزالون صغار السن، بانتظار أن يصير في مقدوره أن يستقبلهم، في بحر عام من تاريخه، في شقة متناهية الصغر. «دون لحاف أو شراشف، أو موبيليا للنوم»، فقد اضطروا لشراء كل شيء، تدريجياً. وتعاون الاثنان على العمل، هو كمعلّم ميكانيك صيانة، وهي كمستخدمة في المدارس وفي بيوت وجهاء المدينة، فأمكنهما بالجهد المضني والحرمان المرير جمع مبلغ يكفي لبناء بيت صغير في حي هادئ، إلى جوار المساكن الصغيرة المعتدلة الإيجار (HLM)، في سان مارسلان. وكان شعورهما أنهما وُفّقا أخيراً في «العيش مثل باقي خلق الله».

بل كانا يعتقدان أنّهما حقّقا مركزاً لا يُنكر، بفضل تفانيهما واندفاعهما، عند وجهاء تلك المدينة الصغيرة، هو، من جهته، بعمله كمدرّب في نادي لكرة القدم، ممّا كان يتيح له التعرّف على الشخصيات المحلية في أكثر من مناسبة ويساعده على تأدية خدمات شتىّ لمجموع الأهالي (على وجه الخصوص بتكريس وقته وماله للنادي وباستضافة

الـزوّار)؛ وهـي بنخوتـها وتجاوبها لأداء الخدمـات فـي جميـع الأوقـات: «حتى في أعياد نويل، كان الوجهاء يستدعونني. وكنت أذهب، ماذا، لـم أكن أتجـرّأ أن أقـول لا.» وبفضـل تبـادل المجـاملات اللطيفـة، والتمــازج العاطفي الذي يسهّله عمل الخدمة في البيوت، كانت تشعر إلى حدٍ مـا كما لو أنها من أفراد العائلة.

من بعد هذا العمل الطويل المضني («14 ساعة عمل في النهار») ومن بعد التفاني دون حساب، مـن بعـد بنـاء بيتـهما الصـغير ونجاحـهما في مساعدة أولادهما للتقدم في الدراسة، صار بإمكانـهما تـذوّق ثمـرة طريقهما الطويل من البرتغال إلى فرنسا. هـي خصوصاً كانت مسرورة، لأنها عرفت اليتم في سن العاشرة، فاضطرت لترك المدرسـة بـاكراً كـي تهتم بشؤون أخواتـها الثـلاث، قبـل أن تصـير عاملـة فـي ورشـة صياغـة للذهب. كانا يؤمنان «بأن من حقّهما الخلاص من حياة البؤس».

لكن العالم المسحور تهاوى بغتةً: فقد أصيبت بالشلل النصفي في عـام 1985، وهـي فـي السادسـة والأربعـين مـن عمرهـا؛ أمـا هـو فبُـترت أصـابع قدمـه بسـبب جزّازة عشـب فـي عـام 1990. منـذ ذلـك التـاريخ، تزعزع كل شـيء: لقـد صـارا دون عمـل، وتخلـى عنـهما الجميـع، ففقـدا ذلـك الشـعور الواهــم بأنـهما كانـا قـد «اندمجـا» بـالمجتمع الفرنسـي (الراقي). أما التوازن الاقتصادي الذي كانا قد حصلا عليه بجـهودهما معاً، فانكشف أمامهما عن توازنٍ في منتهى الضعـف وسـرعة العطـب. لقد سُرّح من عمله، فاضطر للنزول إلـى «عمـل يدوي، بتعويـض 24.06 فرنك للساعة». وهي من جانبـها اكتشـفت بأنـها لا تسـتطيع الاسـتفادة من مساعدة البطالة، وأن الضمان الاجتماعي لم يكن مسؤولاً عنها. فلم يعد بإمكانهما تسديد القـروض التـي حصـلا عليـها عنـد شـراء بيتـهما، وأصبحا في وضعٍ ماليٍّ صعب، دون أية تغطية. أما ابنتهما البكـر التـي تحضّـر الــ DEUG فـي كليـة الحقـوق فـي بـاريس» فـاضطرت لقطـع دراستها.

من بعد مساعٍ عديدة للحصول على الاعتراف بحقوقهما، شعرا بأنهما «ملفوظان من الجميع». وباتا يشعران أنهما راحا ضحية الخداع: فأرباب العمل الذين عملا عندهم، في القطاعين العام والخاص، كان من واجبهم إعلامهما بحقيقة وضعهما القانوني («أما كان يمكنهم أن يقولوا له، أما كان يمكنهم أن يُعلموه، في المحافظة؟») أو، على أقل تقدير، تقديم النصيحة لهما. ويعبّران عن ذهولهما إذ اكتشفا فجأة أن الأشخاص الذين كانا ينظران إليهم على أنهم أصدقاء لا يفعلون شيئاً لمساعدتهما على الخروج من المصاعب التي وقعا فيها؛ ناهيك عن خيبة أملهما وهما يريان كيف أن «المجتمع الفرنسي» الذي رغبا دائماً في الانتماء إليه، لا يعرفهما، ولا يعترف بهما. («ما كنت أتوقّع هذا، لا. كنت أتوقّع بالفعل أنّ المجتمع الفرنسي، وخاصة المؤسّسات التي تدفع، تعترف بالضرورة بالإنسان الذي اشتغل طيلة حياته.» علماً بأنهما كانا يخططان لطلب التجنيس وأنهما كانا المثل الناصع على «الاندماج» الناجح، ولكنهما الآن يشعران بأنهما من «المعادين للفرنسيين».

لقد انبهرا بنجاحهما، رغم نسبيته، واستمتعا بشعورهما أنهما مقبولان كلياً، رغم قدومهما من البعيد، فغفلا بنتيجة ذلك عن هشاشة التوازن الذي كانا يتمسّكان به، بثمنٍ باهظ من اليقظة الدائمة، مثلهما في هذا مثل جميع الذين يستفيدون من فرصة الحصول على عمل ثابت، فينسون الخطر المهدّد باستمرار، خطر التهاوي والسقوط. وما أكثر تنوّع الحوادث التي يمكن أن تسبّب ذلك السقوط، من ضياع العمل، موت أحد الأقارب، الطلاق، المرض، وكلها حوادث تبدو، في ظاهرها، وكأنها طارئة؛ لكن، قبل أن نحكم بإفلاس تفسير هذا الأمر بالأسباب الاجتماعية، يجب أن نتبيّن كيف أن هذه الحوادث، بالإضافة إلى كونها أكثر ترجيحاً في بعض ظروف الحياة، ليست إلا الأسباب العرضية التي تكون بمنزلة دفعة الانزلاق التي تحرّك جميع المؤثرات الموجودة هي

أيضاً، في حالة الكمون، ضمن بعض الشروط الاقتصادية والاجتماعية. ولا تؤثّر «نقفة» السبّابة بكل تلك القوة إلاّ لأنها تصيب أناساً مثل السيد والسيدة دمورا، هذين المهاجرين النموذجيين، اللذين بالغا على الأغلب قليلاً حين اقتنعا بنجاح اندماجهما في الاقتصاد والمجتمع الفرنسيين، بالضمانات التي كانا يعتمدان عليها؛ ويزيد من مرارة شعورهما بالبؤس والاضطراب أنهما في لحظة التهاوي لا غير اكتشفا مدى افتقارهما إلى الضمانات القانونية وإلى العلاقات العائلية أو علاقات الصداقة التي توفّر لـ «الفرنسيين الأقحاح» (على الأقل، هذا اعتقادهما) آخر شبكات الوقاية.

مع أسرة برتغالية

حديث أجرته غابرييل بالاز وجان باران

«فعلت كل شيء كي أندمج في حياة الفرنسيين»

السيد دمورا: تعلمان، صعب جداً شرح تلك «التركيبات»، لوجود الكثير من أبواب الظلم ... وأن ...

❖ تماماً، تماماً... كيف كان وَقع هذا الظلم...

السيد دمورا: أنا، فكرتُ كثيراً بفرنسا، هذا أول شيء، وقبل خمس سنوات، ما كنت أريد أن أسمع أي سوءٍ بحق فرنسا، لأنها بلد التضامن، بلد يتعاطف فيه الجميع مع بؤس الآخرين؛ لكن منذ خمس سنوات، أصبح الأمر عندي، فعلاً، فعلاً، على العكس، وعندي أشياء كثيرة، كثيرة جداً أقولها.

❖ فماذا منذ خمس سنوات؟ ماذا حصل؟

السيد دمورا: الحكاية من أبسط ما يمكن قوله. فعندما يكسب الإنسان جيداً، ويصير جزءاً من مستوى ما، مستوى اجتماعي... حتى المتوسط، مقبول. لكن بمجرّد أن يصبح هذا الإنسان جزءاً من... فعلاً جماعة المؤخّرة، يُنظر إليه على أنه لا شيء.

❖ من ينظر إليه؟

السيد دمورا: الجميع. جميع الناس، تقريباً... عندما أقول جميع الناس، بالطبع فأنا أعني من هم مثلي...

السيدة دمورا: تنظر إليه هكذا المراكز الرسمية، خصوصاً جماعة المحافظة، فرأيتُ أننا لم نعد نستطيع الاتصال بأحد، وأن أحداً لا يعير انتباهاً لرجلٍ اهتمّ بـ...

السيد دمورا: اسمعا، سوف أكتفي بتلخيص حالي. فمنذ أن صرت في فرنسا، فعلت كل شيء كي أندمج في حياة الفرنسيين. لأنني، أولاً، كنت في بلدٍ غير بلدي؛ ثانياً، ما كنت أقدر أن أفرض لغتي وعاداتي، إذن كان عليّ أنا أن أندمج وأن أفعل العكس. طيب، اندمجت أحسن اندماج، وسرعان ما صرت في فريق المدينة لألعاب القوى. فشكّلنا، نحن البرتغاليون، فشكّلنا اتحاداً، وشكّلنا فرقة فنون شعبية، وشكّلنا نادي كرة القدم، وبنينا بمساعدة المحافظة بناءً للاتحاد، وكان هذا طبيعياً للغاية. وكنت جزءاً من هذا لوجودي المستمر في هذه المدينة، كنت مدرب كرة قدم لمدة ستة أو سبعة أعوام، وحتى إلى ما قبل سنتين كنت ما أزال عضواً في النادي [بعصبية كبيرة]. عال، عندما ساهمت، عندما أمكنني أن أقدّم، كانت الأبواب العريضة مفتوحة أمامي، وبمجرّد توقفي، لم يعد أمامي شيء: فقد انغلقت الأبواب. ولم يعد لأصدقائي وجود.

❖ عقب الحادث الذي وقع لك؟

السيد دمورا: هذا هو واقع كرة القدم، فيوم كنت أقدر أن أكون حاضراً وكنت أكسب جيداً في حياتي، وكنت أقدر أن أساهم وأن أعطي دون أن أطلب قرشاً واحداً، فلا مشاكل على الإطلاق، كل الأمور كانت «تكرج» على زلاجات. استقبلت هواة من تولوز-عندما كانوا يأتون، أستضيفهم في بيتي، فكنت جزءاً من المجتمع وأحد أعضائه - لكن في اليوم الذي عجزت فيه عن تلك المساهمة، لم أعد أحد أفراد ذلك المجتمع.

❖ نعم، فهمت، معك، نُبذتَ خارج اتحاد كرة القدم؟

السيد دمورا: نُبذتُ كلياً، حتى... 18 عاماً في خدمة النادي وأنا أقدّم، لأنني ساهمت بمال كثير، حتى المال، دفعتُ نقداً وأجور التنقّلات، والوقت الضائع، مع دفع إصلاحات النادي في نهاية كل موسم، دون أن يعطيني النادي

قرشاً واحداً. أنا الذي دفعت من جيبي، لأنه كان العالم المحيط بي؛ يا عيني، واليوم كي أدخل إلى الملعب، يجب أن أدفع. إذن، بإمكانكما رؤية مدى الظلم الكبير الواقع عليّ. 19 عاماً في خدمة النادي، دون أن أستفيد أبداً من أي شيء كان، وساهمت دائماً وأبداً؛ بصفة مدرب، أنا الذي قدّمتُ أكبر عدد من الألقاب، أنا الذي حقّقتُ أحسن إعدادٍ هنا وأنا يعتبرونني نكرةً لا شأن لها على الإطلاق. كل واحد منهم جاءته ميدالية من المحافظة للخدمات المقدّمة. أما أنا، لم أحصل أبداً على شيء أي شيء كان، هه.

❖ نعم، ما فعلته لم يُعترف به.

السيد دمورا: أي نعم، لأنه، لو كان اسمي ديبون أو ديران، كنت حصلت على ميدالية. لكن اسمي دمورا.

❖ تظن أن الأمر يعود إلى هذا؟

السيد دمورا: نعم ونعم. أنا ما كنت لأصدّق هذا سابقاً... (...) لكن أصدق بالفعل الآن. الآن وقد أصبحت في الجانب الآخر من السور، فأنا...

[...]

لأن اسمي دمورا

السيد دمورا: ما هو حاصل في فرنسا، أن هناك مجتمعين، فهناك الخراف وهم الأغبى؛ ونحن من هذه الخراف. هذا هو الاختلاف الموجود. عدا عن وجود أشياء أخرى كثيرة على المستوى الاجتماعي لا يمشي حالها، لأن هناك من يعرف القانون جيداً، فهؤلاء يصلون إلى الأمور الإدارية الرسمية، سواء إلى الضمان الاجتماعي، سواءً إلى أي مكان يريدونه، فهم لهم حقوق؛ أما نحن، فيجب أن نقاتل إلى حتى النهاية. على أن البرتغاليين، بين البرتغاليين، نسبة عشرة بالمئة من الفضلات الواجب رميها، كما في جميع الأجناس (...) فهؤلاء ما باليد حيلة تجاههم. لكن النسبة الباقية، لها حقوق، وعليها واجبات، فإذا كنتُ أحترم واجباتي، لا أعلم لماذا لا أحصل على حقوقي. هل تفهمان؟

❖ لم يعد أحد يعترف بك، هه؟

السيد دمورا: لم يعد أحد يعترف بي. حتى أنني سوف أعطيك مثالاً حالتي والحادث الذي وقع معي. توقفت أيضاً عن العمل حتى 27 تشرين الثاني بسبب الحادث، وكان عليّ تسوية أموري مع التأمينات الاجتماعية لأن اسمي دمورا، فالطبيب المستشار قال، «اعتباراً من تاريخ 19 لا يحقّ لك أي تعويض» وأنا متوقف عن العمل بموافقة ممنوحة حتى 27 تشرين الثاني. لكن في اليوم 19 يجب أن أذهب إلى العمل. انتباه، سوف أشرح لكما.

السيدة دمورا: لا، إنما أنا لا أجد...

السيد دمورا: {مقاطعاً زوجته، بانفعال شديد} انتظري، انتظري، دعيني أتكلم. التأمينات الاجتماعية وافقت على منحي حذاءاً طبياً. كان عليّ أن أذهب للعمل هكذا، بحذاء قماشي، هل في رأيكما هذا طبيعي؟ التأمينات الاجتماعية تحظر دخول المصنع دون أحذية واقية ومنحتني حذاءاً طبياً وأرسلتني التأمينات الاجتماعية إلى العمل دون مراعاة هذا الأمر. فوصلت إلى العمل، ليقول المعلّم، «لا اقبل أن يعمل ما لم يلبس حذاء الوقاية»، طيب دبّرنا الموضوع مع طبيب العمل؛ وخابر طبيب العمل التأمينات الاجتماعية، الأخ الذي أجرى لي العملية خابر التأمينات الاجتماعية، فمنحوني حتى تاريخ 7 كانون الثاني، لكن من يمكنه أن يؤكد إمكانية أن أعود إلى العمل؟ في مثل الحالة التي أنا فيها؟ لكن، حيث أن طبيب العمل هو الذي كان يريد...

السيدة دمورا: لكن هذا ...

السيد دمورا: [متابعاً، دون إعارتها أي انتباه] أنا مُجبر على الذهاب، ما باليد حيلة.

السيدة دمورا: {معتبرة أنه يبوح بأكثر مما يجب ورغبةً في إسكاته} لا حاجة لمعرفة هذه الأمور.

السيد دمورا: تفضّلا... بلى، وبلى، يجب معرفة هذا، لأنه هذا الأمر،

هذا الأمر (...) [مخاطباً زوجته] ماذا حصل لكِ، أنتِ؟ [مخاطباً إيّانا.] وهي لم تحصل على أيّ حق، لم تحصل على أيّ حق، كانت مشلولة، أما اليوم فلم تعد كذلك.

السيدة دمورا: ما زلت أعاني قليلاً. في الجهة اليمنى.

السيد دمورا: تعلمان لماذا لم تتكفّل التأمينات الاجتماعية بها؟ إذ أنها حينذاك لم تقبض...

السيدة دمورا: أنا أتألّم بشدّة.

السيد دمورا: التعويضات اليومية، ومع ذلك، فخلال عام، كان من الضروري مرور عام للحصول على الحقّ في التعويضات اليومية؛ فمن جرّدها من التعويضات اليومية؟ التأمينات الاجتماعية دون سواها. قالوا لنا إننا لم نقدم طلباً على الإطلاق، لكن، لكن معي الرسالة التي تثبت أننا قدمنا الطلب، وقد رُفض الطلب لعدم مرور عام.

السيدة دمورا: جاء لزيارتي صحفي مؤخراً للتحقيق، وبالمناسبة، فقد اشتكيت قليلاً من المجتمع الفرنسي، من الإدارة الفرنسية، لكن أنا لم أشتكِ من جيراني. فإذا أطلق عليّ شخص ما حكماً سلبياً... أظن، يعني، لن يحبّني، وهذا أسكت عنه؛ لكن عندما أصل إلى هيئة فرنسية حيث يلاحظون قليلاً لكنتنا الأجنبية، فنطلب شيئاً ما، لكن لا أحد يقدم إلينا المعلومات. فنتعذّب...

السيد دمورا: نحن أصلاً معلوماتنا ناقصة.

السيدة دمورا: تُقدّم لنا المعلومات الناقصة. لذلك، كما تعلمان، عندما لا يكتب واحدنا جيداً بالفرنسية، وعندما لا يكون عنده... يعني، لا يتدبّر أموره جيداً، وأنا، شخصياً، عنيدة نوعاً ما، فأنا، عندما يزعجني أحد...

السيد دمورا: وتوجد مشكلة اللغة، أنا، أنا أتكلّم الفرنسي.

السيدة دمورا: نعم، فأنا تذهب بي الأمور بعيداً، فليس هذا كل شيء، لأننا لا نعلم كل شيء والناس لا يقولون لنا الحقيقة، وهذا، هذا مزعج.

{تكلّم السيد والسيدة دمورا عن مصاعبهما مع اللغة الفرنسية: فهي لا تكتبها، لأنها لم تدرسها أبداً في المدرسة، بعكس زوجها، الذي يشتكي من أنه «تعلم اللهجة السيئة هناك».}

لفظوني في كل مكان

السيدة دمورا: فوجدت أني ملفوظة، لفظوني في كل مكان. لفظوني في التأمينات الاجتماعية، حيث كان لنا أحاديث متنوعة مع مدير المصلحة الذي خدعنا قليلاً مع بعض الكلمات المعسولة، فقال، «اسمعي، أنا، يعني...»، فقلت، «اسمع، هل أخذت بعين الاعتبار أنني بعد كل شيء اشتغلت في فرنسا 20 عاماً، ولم أعمل ثماني ساعات في اليوم؛ أنا كنت في كل مكان تقريباً، على هوى حاجة المعلّمين الذين كنت أعمل عندهم، لم أقل لهم أبداً لا، كنت أكسب، هذا أكيد، لكن أبداً لم أعرف كيف أقول لا، وعندما جاءني المرض...».

❖ متى جاء المرض؟

السيدة دمورا: منذ سبعة أعوام.

السيد دمورا: في عام 85.

السيدة دمورا: بدأت أبالغ، نعم، في عام 85. كنت في تلك الحالة، وكنت أظن أنّ لي تغطية نظراً لأنني كنت لدى ربّ عمل في المدينة. أنا كنت مستخدمة في... المدارس.... لمدة 13 عام. فبعد 13 عام من الشغل في المدارس، ظننت أن لي دون شك تغطية ولو قليلة؛ وتعلمان أنني حتى اليوم، كنت أقبض رواتبي أثناء مرضي، وكان هذا طبيعياً، ولكن... (...). يعني عفواً، على كل حال، أثناء مرضي الطويل، دفعوا لي نصف الأجر ومن بعدها ثلاثة أعوام لم أقبض فيها قرشاً، فلم أحصل... اشتغلت طيلة حياتي في فرنسا، منذ 20 عاماً.

❖ لكن، هكذا هي القوانين الاجتماعية، نظام الإدارة العامة، فهناك فعلياً ثلاثة أعوام للمرض الطويل الأجل، من بعدها لا تدفع أجور.

السيدة دمورا: نعم، ولكن في حالتي، كنت في وضعية البالغ المصاب بعاهة. كان عندي زوج، يعمل ويكسب... لكنه لم يكن يسدّ نفقاتنا. كان عليّ قروض، وكنت أقبض 113 فرنكاً في الشهر لمدة عامين...

السيد دمورا: 107.

السيدة دمورا: 107 فرنكاً شهرياً لمدة عامين، إذن لن تقولا لي أن المحافظة لا تدرك هذا، والشرطة أيضاً، والتأمينات أيضاً، فإذا كان عندهم أجانب يشتغلون في المدينة أيضاً، فكان من الواجب استدراك البطالة على أقل تقدير! فلماذا يستخدمون أناساً لهم حالات خاصة، برتغاليين أو جزائريين أو أسبان ولا يرون أن المرض يمكن أن يأتي، كما جاءني أنا وكما حلّ بغيري، لماذا لم يقولوا، «حسناً، نحن علينا رغم كل شيء استدراك البطالة إذا ما حلّت بهؤلاء الأشخاص»، كنت سأسرّ أكبر سرور لو كان للبطالة...

❖ نعم، ولكن الوظائف العامة لم تلحظ تعويض بطالة الـ...

السيد دمورا: ما لا أفهمه أنها، وهي مريضة، تُسرّح من عملها دون أن يمكنها...

السيدة دمورا: دون تعويض.

السيد دمورا: دون تعويض، لكي تبدأ... ودون أن تستطيع... دون النظر في أنها قد يمكنها القيام بعمل آخر في الوقت نفسه...

السيدة دمورا: أي نعم، عرضوا عليّ...

السيد دمورا: ... هي صرفت من العمل، هكذا، دون طلب أي شيء، حتى دون أن يعرف أحد أنها صُرفت!

السيدة دمورا: نعم، وأنا لم أكن قد أنهيت شهري.

❖ هذا هو نظام الوظائف العامة. فأنتِ تصرفين من العمل بسبب العجز، بعد مضي فترة محددة.

السيدة دمورا: التأمينات الاجتماعية لم تعترف بي.

السيد دمورا: سرّحوها بسبب طول فترة المرض... لأنها لو اشتغلت في مصنع، لكان لها الحق في...

السيدة دمورا: نعم، كنت سأعامل كعاطلة عن العمل.

[...]

❖ أنتِ عشتِ هكذا كم سنة؟

السيدة دمورا: 20 عاماً، منذ مجيئي إلى هنا، إذ عندما وصلت هنا، ما كان عندي لحاف، ولا شرشف، ولا قطعة موبيليا لأنام عليها، إنما بفصل السيد ×...، رئيس اتحاد كرة القدم، وصلت... مع أولادي الأربعة، وكان عنده في مستودع المؤونة بعض الأشياء، مفرش سرير، بعض الأغطية...

السيد دمورا: لهذا السبب لا أريد أن أذكر فرنسا بسوء لأن الناس ساعدوني على الفور، عندما وصلت.

السيدة دمورا: عندما وصلت هنا، بدأت أشتغل على الفور. دون أن أكون على علم، كنت أسجّل بيدي ما تكون ممسحة الأرضيات، لأتعلّم في اليوم الثاني ما تكون المكنسة-الفرشاة، إذ رحت أشتغل هنا وهناك عند أرباب العمل...، في فندق، عند الطبيب أ.، عند المحافظ، عند مدام س.، أصحاب المصانع، وحيث كانت الحياة شاقة، بوصولي وفي رقبتي أربعة أولاد. ولا شيء سوى بيت فارغ، يعني رغم قسوة الحياة في البرتغال، كان عليّ أن أدبّر رأسي. كان بالإمكان كسب المال. ومن ثمّ، بدأت فوراً بالعمل، بدأت بتجديد الأشياء التي نحن بحاجة إليها. الأسرّة بشكل رئيسي، لأننا لم نكن مرتاحين في سكننا؛ من بعد ذلك المفروشات بحيث أمّنت شيئاً فشيئاً حاجياتي يعني على التيسير، وهكذا فقد وصلنا، وتوهّمنا أننا سوف نظل في نفس... حتى رغم الشغل الكثير (...) [صمت، تنهيدة]. كنا نظنّ أن المرحلة الأصعب انقضت.

❖ نعم، ظننتما أن الشقاء انتهى...

السيدة دمورا: الآن، المرحلة الأصعب رجعت، لأنني، عندما حصل معي هذا، كان عليّ القرض.

❖ آه، كان عليكما التزامات بسبب البيت؟

السيد دمورا: ومازلنا.

السيدة دمورا: وما زلت. لمدة أربعة أعوام. لمدة أربعة أو خمسة أعوام. لكن هذا ليس بالكثير. فعندما وقع ذلك الحادث، يعني، لحسن الحظ كان عندنا تأمين صغير، يعني لولا شركة التأمين ما كنا نستطع... أن نعيش.

وقعت عليّ مظالم هائلة...

بعملي الدائم في خدمة الفرنسيين.

السيدة دمورا: أنا مبسوطة جداً لوجودي في فرنسا وأحب الفرنسيين حقاً، لكن وقعت عليّ مظالم هائلة. الكثير، هه، خصوصاً أنا! بعملي الدائم في خدمة الفرنسيين.

❖ نعم، بالعمل الذي قمت به كمستخدمة في...

السيدة دمورا: لأنني أستطيع أن أؤكد لكما في حال توجّب اليوم أن يقولوا، «كانت حاضرة في كل يوم اقتضت الحاجة حضورها» فسوف أحصل على أكثر من وثيقة. من الأشخاص... كان لي عجوز، وكانت والدتها مريضة، وهي عضو في نادي الروتاري وبعض الأمور، هه - فكانت تقول لي، «يا ليندا، أنا بحاجة لك لأن أمي لا تريد غيرك، إذن تعالي اليوم الفلاني أو اليوم العلاّني في الليل، فساعة رجوعنا أعيدك إلى بيتك». وتعلمان، غالباً ما كانت تدوّر هذه الأسطوانة، على أني كنت أقول، ليست القضية قضية مال، القضية أن هذه الإنسانة تحبني ثم أنا لا أريد أن أقول لا. كم من المرات، على مدى ثلاثة أعوام، أمها العاجزة في البيت... وأنا أعود، أعود في الرابعة صباحاً، عندما يرجعون، لأن اجتماعات الروتاري غالباً، تستمر إلى وقت متأخر، هه، في الليل. إذن، كانوا يوصلونني في الرابعة صباحاً. أنا غير نادمة على شيء؛ فأنا أدّيت خدمات حتى وإن أعطوني أجري، لأنها بالفعل دفعت لي، فهي ساعات كان يمكن أن تكون غالية الأجر ولكنني قبضت دائماً بسعر الساعة العادية. يعني، بالتالي، لم أفعل...

السيد دمورا: وأحياناً لم يدفعوا.

السيدة دمورا: كان هذا بالنسبة لآخرين غيرها وهذا عادي، لكن، على أي حال، لم أكن أتوقّع هذا، لا. لا، كنت أتوقّع رغم كل شيء أن المجتمع الفرنسي، خاصة المؤسسات التي تدفع، لا بدّ أن تعترف بإنسانة اشتغلت طيلة حياتها، أنا في الحقيقة... لو كنت أعلم أنني سوف أمرض وأن هذا سوف يحدث لي، إذن لكنت بحثت عن عمل في مصنع. كنت بحاجة للعمل حينها، فكان يمكن أن أبحث عن عمل في مصنع. ما كنت لأشتغل في مؤسسة لا توفرّ تأمين تعويض للعاملين فيها. وفوق هذا، لو كانوا لطيفين معي، إذن لنصحوني أن أتابع العمل قليلاً، لأن من الضروري تمضية 15 عاماً، على ما أعتقد، ليكون لي الحق في قبض، في قبض...

السيد دمورا: (باستنكار) ما كان بإمكانهم أن يقولوا لها، ما كان بإمكانهم إعلامها في المحافظة؟

السيدة دمورا: ما كان بإمكانهم أن يقولوا لي؟ آه، بلى، كان بإمكانهم! بلى، كان بإمكانهم!

❖ آه، نعم، نعم.

السيد دمورا: يوجد بالفعل مستوى اجتماعي، في هذه القصة.

السيدة دمورا: في هذه القصة، يوجد بالفعل إهمال، في...

السيد دمورا: لكنهم كانوا مستهترين كلياً بالقصة!

السيدة دمورا: مضى عليّ 13 عاماً من العمل في المحافظة، بالضبط 13 عاماً ونصف. 13 عاماً ونصف.

[...]

السيد دمورا: على كلٍ، هذا معقّد جداً، على الفرنسي معقّد، فكيف بالنسبة لنا، ونحن أجانب... ما رأيت شبيهاً لقصتها وإضبارتها، هذه إضبارة وزير...

❖ ما كان يجب عليهم، هو... القصة أنهم لم يشرحوا لكما هذا.

السيدة دمورا: هذا هو لومي لهم، ثم في داخلي، لم أكن أريد استخدام صفة «عنصريّ»، ولكن... في رأيي، مع ذلك، أنه كان هناك من لم يكن يريد وجود أجانب في الخدمة. وهذا، يظل في رأسي، حتى عندما لا أقوله، فأنا أفكر به مع ذلك. أفكر بالفعل لأنني في يوم، كنت أتكلم مع مستشار في البلدية، هنا، على هذه الطاولة، وهذا الإنسان، كنت أظنه صديقاً لنا، ثم هو قال لي، «على أي حال، أتمنى الاّ يُعرض عمل... عمل واحد في الإدارة على أجنبي»، فقلت له، «اسمع...»

السيد دمورا: مثله مثل الأخ الثاني الذي لم يكن يريد أن نأخذ تعويضات عائلية.

السيدة دمورا: نعم، بالضبط. عندها قلت، «فكيف هذا؟».

السيد دمورا: ما كان يعلم لماذا يقبض الأجانب تعويضات عائلية.

السيدة دمورا: عندما طلبوا مني القيام بذلك العمل، لم أقدم حتى أي طلب إلى المحافظة، لأنهم حينها كانوا يعرفون بأنني أسارع من مكان لآخر، وكان هذا في السنة التي ارتفعت فيها الحرارة كثيراً، في عام 76...؟ في عام 76... فكانت المستخدمات مريضات جميعاً : لأنهن لم يكن باستطاعتهن تحمّل الحرارة، ثم هناك اثنتان أجريت لهما عملية المرارة... فجاءني هاتف، لأنني كنت أريد الذهاب للعمل، خابرتني مستخدمة في المدارس كنت أعرفها. فقلت، «نعم، سوف أبدأ فأشتغل بضع ساعات لمساعدتك في...»، ثم، من بعد ذلك، أبقتني المحافظة في العمل. إذن، حتى لم أقدم طلباً، هه، هل تلاحظان، لم يكن ينقصني عمل حينها. لا، لا، العمل كان ينزل دائماً عليّ مثل التراب وكان عندي منه فائضٌ عن استطاعتي. ثم من بعدها، ابقوني عندهم. وفيما بعد... قال لي مستشار في إحدى المرّات، «لا، أتمنى إعطاء هذا العمل للفرنسيين»، لا... فهذا ظلّ في رأسي، وأخونا، أقدر أن أقول لكما من يكون، لكن...

السيد دمورا: لا، لا، لا تقولي.

السيدة دمورا: وأنا قلت، «فكيف هذا؟»، على أي حال فقد تجادلت

قليلاً معه، وقلت «إيه! هات نوِّرنا، فنحن ندفع الضرائب مثل جميع الآخرين، ونساهم في جميع النفقات»، علماً أنني، من جانبي، لم أحصل أبداً على معونة، حتى الآن، وحول هذا النقطة، لم أحصل أبداً على معونة، مع أنني كان يجب أن أحصل عليها. نقطة، من أول السطر، لأنني لم أعد أستطيع تدبّر الأمور. على أنني أتكلم عن تلك الفترة، فقلت له، «اسمع، أنا أشتغل مثلي مثل الآخرين، وقد عرضوا عليّ هذا العمل، طيب، فوجدت أنه، يعني الأولاد بدأوا يكبرون، كان بإمكانهم أن يعيشوا دون أن أعمل في التنظيف، هنا وهناك، كان هذا أكثر ثباتاً ومن جميعه»...

السيد دمورا: غلط، غلط، غلط خطير.

السيدة دمورا: وثمّ، قبلتُ، «آه لا، لا، أقول لك بصراحة، هذه الأعمال لا يجب إعطاؤها للأجانب، أتمنى أن تُعطى للفرنسيين». كان في المحافظة أجانب، لكنهم مجنّسون كفرنسيين. (...) وقدمت طلباً كي أتجنّس، ثم، من بعدها، لم أكن أعلم ماذا نقص على مستوى... على مستوى النتائج فأهملت الموضوع، ثم لم يكن يخطر لي أنني سوف أمرض، علاوة على أنني لم أكن أعرف هذه الحقوق، لأنني لو علمت، لكنت جعلت طلب الجنسية ينطلق من جديد. (...) مدام دو لـ. كنتُ أظنها إنسانة جيدة، أمام اليوم فأنا قليلاً عندي... أشك فيها قليلاً، (...) فلو قالت لي، يوماً مدام دمورا، تعالي لمراجعتي لأنني أحتاج إلى رؤيتك بخصوص عملك عندنا، تعلمين أنك مريضة منذ عامين، فبعد انقضاء ثلاثة أعوام نحن مجبرون، إما أن نعرض عليك عملاً بنصف دوام، وإما...»، لا أحد تحرّك! لو علمت لكنت... في جميع الأحوال ذهبت وقلت، «يا مدام دو لـ.، لا بدّ أنك سوف تكلّمين المجلس أو حضرة المحافظ إن كان هناك ما أُندب لعمله بنصف دوام»، لو علمت أن الأمور سوف تجري هكذا، لكنتُ قلتُ شيئاً ما.

السيد دمورا: بقيتْ، وُسرّحتْ. وفي المجلس البلدي، كانوا على علم أنها في مدى شهرين أو ثلاثة شهور سوف تُسرّحَ.

السيدة دمورا: نعم، في شهر أيار من هذه السنة.

السيد دمورا: إذن، تلاحظان تماماً كيف تجري الأمور. [رافعاً صوته.] كان يجب عمل شيء! كان يجب عمل شيء!

عليهم أن يعلمونا هل يريدون منا الاندماج

أو يريدون منا الكذب، والتهريب...

السيدة دمورا: يعني، زوجي، بدأ يفقد قسماً ضخماً من راتبه، إذ، في الشهرين التاليين لمرضه، دفع المصنع راتبه إنما دون مكافآت، لكن بعد نهاية الشهر الثالث، صار يقبض 4000 فرنك وأنا، أنا لم أكن أقبض شيئاً، 107 فرنكات. إذن لم نستطع مواجهة أعباء الحياة، وعندها جاءتني فاتورة ماء بقيمة 1100 فرنك. عندها، أنا، عفواً، كنت في غضب كبير، فكتبت رسالة، أخذتها إلى سيادة المحافظ، وقلت، «للمرّة الأولى، أطلب المعونة، فلا أقدر على مواجهة مصاريفي من بعد المرض، فمن جهة إهمال المحافظة، وثانياً زوجي الذي وقع معه مؤخراً حادث- وكل الناس كانوا يعرفون هذا- فأنا لا أستطيع أن أدفع... لذلك أطلب من مكتب العون الاجتماعي أن يسدّد هذه الفاتورة عني بشكلٍ استثنائيّ». من بعد شهر، أرسل الجابي لي إنذاراً. فخابرت يوم جمعة أطلب المحافظة، وقلت، «أريد أن أكلم سيادة المحافظ»، فقالوا لي، «لا يمكن، هو غير موجود»، فقلت، «يا مدام، من الشخص المسؤول عن مكتب العون الاجتماعي؟»، «آه، أنا بنفسي، مدام أ.»، فقلت، «يا مدام أ.، أنا مدام دمورا، قدمتُ إليكم رسالة منذ شهر ونصف أو أكثر، وذلك لطلب...»، فقالت لي، «أه،لكن طلبك مرفوض!»، «كيف؟ فلا أستحق حتى مجرّد الجواب، فما تكون هذه المحافظة؟ الجواب لا، تعلمون هذا، ولم تتكرّموا حتى بالردّ» قالت، «حسناً، اسمعي، إذن تعالي لرؤية السيد ×.»، أي الشخص المسؤول في المكتب الفني، هناك، أو ما لا أعلم، فقلت، «أنا لا شغل لي عند السيد×. شغلي هو عند المحافظ، أريد أن أراه»، فرجعت إلى المحافظة دون أن أخبر زوجي بشيء، وقلت، «يا سيادة المحافظ، نحن قصدناك»، فقال، «مدام أ. حكت لي، فاتورتك سوف ندفعها عنك»، سيادة المحافظ، أنا عاتبة عليه قليلاً في هذه القصة، لأن زوجي خدم دون كلل في

ملعب كرة القدم جميع الآحاد وفي جميع الأيام؛ فهذا [بلهجة استعطاف] هذا كل شيء. وفي قصّتنا، حتى لم يتنازل بمكالمة هاتفية من بعد حادث زوجي؛ علماً كان هناك... شرطة البلدية، وبعض الذين كانوا معه في كرة القدم، وجميعهم، عندما سمعوا صوت سيارة الإسعاف، كانوا على علم أنه هو المصاب، فجاءوا هنا، كانوا أصدقاء، فحضروا هنا. وهناك آخرون غيرهم، من المجلس البلدي، يعني علموا بالحادث في 20 أيار عندما قدّمتُ طلبي، عندما تحدّثتُ عن حالتي وتخلّفي عن الدفع، وفي اليوم التالي، كان يوم سبت، جميع مستشاري البلدية، تلفنوا لنا، قالوا لنا، «هذا مرعب فعلاً، علمنا منذ قليل ما حلّ بكما، نحن لم نكن على اطلاع، ولذلك، يعني... إذا كنت بحاجة لشيء، اطلبيه».

{مناقشة حول المجلس البلدي.}

السيدة دمورا: ومنذ ثلاثة أعوام، وأنا مريضة، تلفن المحافظ وقال لي، «يا مدام دمورا، عفواً، الموضوع محرج جداً، لكن هذا وقت عيد المناولة هنا» كان في أيار، و، «نحن محرجون جداً، فالفرنسيون الذين قبلوا باستقبال الوافدين... يعني، هناك عدد كبير ولا أعلم أين أوفرّ لهم المبيت»، فقلت، «يا سيادة المحافظ، ماذا تريدني أن أفعل، يمكنني كالعادة إطعام شخصين، وبشأن المبيت أستطيع استقبال العازبين»، فقال، «عظيم، هذا لطف منكِ». ما كنت أريد نشر هذه الأشياء من فوق الطاولة، لكن أعتقد أني في يوم سوف أقول له، لأنهم حتى هذا اليوم، عندما يحتاج إلى شيء، فهم يعلمون أن الناس الذين يتجاوبون هم دائماً حاضرون. أما عندما يتعلق الأمر بإعلامٍ بسيطٍ للمجلس والقيام بأقل الواجب كي لا تصبح حياتنا في خطر... ثم كما تعلمان فأنا حتى الآن غير محجوز على بيتي، سوف أقول لكما لماذا لم يُحجز البيت بعد، فهذا لأن أولادي تربّوا بالروح... البرتغالية، وهم أعطوني المال، لأن بيتنا لم تُدفع أقساطه لبعض الوقت، وهناك قرض السيارة، لكن هذا، هذا القرض انتهى.

[...]

السيدة دمورا: أنا لا أوجّه كلامي إلى الناس، ليس الناس من أشعر أنهم عنصريّون، بل الإدارة الفرنسية.

السيد دمورا: تعلمان، في بعض الأوقات أقول لنفسي، لماذا الاندماج بالمجتمع الفرنسي؟ فالحقّ معهم؛ أنا، كان الأفضل لي لو عشت بالمعونة الاجتماعية هنا، فأوفرّ منها وأرسل إلى البرتغال. الحصول على المعونة الاجتماعية هنا، وتجميع ثروة في الطرف الثاني، أليس أفضل؟ نعم، فهذا باب من أبواب البلاهة! عليهم أن يُعلمونا هل يريدون منا الاندماج أو يريدون منا الكذب، والتهريب، والتلاعب من وراء ظهر القانون، لا، نحن لنا حق، لنا حقوق والتزامات. طيب، نحن أدّينا التزاماتنا، فليعطونا حقوقنا. هذا ما يجعلني أنفعل وأثور. (...) فعندما كنت من العائلة، كان كل شيء على ما يرام، أما في اللحظة التي «يطبس» فيها الواحد في «الكع كع»، لا يرى أحداً بجانبه. حتى وإن كان له حقوق.

كانون الأول 1990

بيير بورديو

معلّقة بخيط

ترجع ببداية مآسيها إلى تاريخ شراء بيتها، «ذلك الجنون»: 12 مليون بالإضافة إلى أجور الكاتب بالعدل لإنجاز نقل الملكية وكانت تظن تلك الأجور من ضمن ثمن البيت. تحاول إيجاد الأعذار لنفسها، على امتداد الحديث الذي دار بيننا. كانت غير مرتاحة في الكتلة الأسمنتية التي كانت تسكنها، وكانت راغبة بأن يكون عندها حديقة. عندما كانت شغّالة في شركة للتنظيف الصناعي (أحد القطاعات التي لا يمكن فيها الاطمئنان إلى احترام حقوق العمل)، كانت قد سعت إلى شراء بيت، كان سيكلّفها أقلّ، لكنهم رفضوا طلبها، بحجج مختلفة.

وتلاعب بها القدر: فمن بعد ذلك الشراء، جرى «تسريحها اقتصادياً»، كنتيجة غير مباشرة لـ«إعادة هيكلة صناعة الحديد»، وظلّت سنة بأكملها، على عاتق والدتها. التحقت حينها بـ«كوم من الدورات»، من بعدها وُفّقت بعمل في اللوكسمبورغ لكن، لعدم توفّر وسيلة النقل (فأولئك الذين كانوا ينقلونها في سيارتهم سُرّحوا من العمل)، اضطرت للتخلّي عن تلك الوظيفة.

كان عمرها يقارب 35 عاماً. في ذلك اليوم، كانت خارجة من دورة أطلقوا عليها اسم «أميّة» - هي أيضاً إجراءً مؤقتاً، أو بالأحرى، مهلة - وعقدوها في المكاتب الكبيرة لشركة «إيزينور» التي تحولت إلى «دار

للإعلام». تتكلّم بعنف يظل تحت السيطرة، موقّعةً أقوالها بحركات صغيرة وعنيفة من رأسها تعقبها فترات صمت، بلهجة مباشرة وشديدة الخصوصية هي لهجة مرافعة أكثر منها لهجة مكاشفة. موقفها بأكمله، نظرتها، يعبرّان عن رغبتها العارمة في أن تُعار أذناً صاغية هذه المرّة، أن يتم الاستماع لما تقول، كما يعبّران عن سرورها بإيجاد من تتكلّم معه، من تشرح حججها أمامه، أو، على الأفضل، أن تشعر أن الآخرين أعذروها، قبلوها؛ ومقابل هذا، تغمرها مودة شديدة، حتى أنها، شيئاً فشيئاً، هي التي تولّت توجيه دفّة الحديث، مطلقةً أسئلة أو اقتراحات مستوحاة خصوصاً من أملها في الحصول على تشجيعات أو مواساة.

وتستعرض اللائحة الطويلة للأقساط المستحقة عليها شهرياً، للسيارة، للبيت، لكاتب العدل، للهاتف، وتتضاف إليها جميع النفقات الجارية، رغم تقليص مصروفها إلى الحد الأدنى، حتى بالنسبة لابنها، وضريبة السكن، وضريبة التلفزيون، أي ما يقرب من 3000 فرنك كل شهر؛ وتعبرّ عن سخطها حيال الاضطهاد الحقيقي الذي تلاقيه من موظفي البنك، إذ يتصلون هاتفياً بمنزلها، أو حتى ببيوت معارفها، مهدّدين بإجبارها على بيع بيتها، لعجزهم عن أن يدركوا أنها تودّ من كل قلبها أن تدفع، لو كانت قادرة على ذلك: «أنا إنسانة شريفة، أريد فعلاً أن أدفع، هاتوا لي المال وأنا أدفعه لكم على الفور، لكن إذا لم أقدر، فهذا يعني فعلاً أنني لا أقدر، هذه كل الحكاية، لا أقدر أن أتصرّف بشكل مختلف» (فهذا أيضاً ما قاله، تقريباً كلمة بكلمة، مهاجر جزائري عاطل عن العمل).

وأقسى ما يعانيه من يعيش في تلك الظروف هو دون شك الكراهية، التي تحمل بعض الاحتقار، كراهية ومعاداة العائلة، وما ينتج عن هذا من عزلة. فباستثناء صاحبة لها، هي أيضاً بلا عمل، وباستثناء أمها، وهي عاملة قديمة، تركها زوجها فاضطرت بمفردها لتربية بناتها الأربع، الجميع، في محيطها، بدلاً من مساعدتها، يكيلون لها اللوم على وضعها: حَمْوهَا، العامل اليدوي المدمن على الكحول، والمكرَه هو نفسه على البطالة، حماتها،

التي تمنعها من استعمال الهاتف أو تتأخر في تبليغها معلومات بخصوص وظيفة ممكنة، وخصوصاً أختها البكر، الغيورة من المساعدة التي تقدمها أمها، فهؤلاء مجتمعين يتفنّنون في تذكيرها بوضعها، بإسماعها أنها هي وزوجها ليسا في بطالة إلاّ لأنهما من الخاملين وأنهما لا يفعلان شيئاً في سبيل الحصول على شغل، متجاهلين تلك الجهود والتضحيات الخارقة التي يقدمانها بغية إيجاد العمل، والعقبات الخارقة هي أيضاً التي تقف في طريقهما.

هذه العزلة المخيفة، المفروضة في جانب، والمرغوبة في جانب، بنوع من أنواع عزّة اليأس، تجد تعبيراً لها في غياب أي ملجأ يقصدانه لمواجهة التهديد المرهوب كل الرهبة، تهديد انقضاء الأجل الأقصى للدفع. وعندما هيمن علينا التعاطف مع هذا الشقاء العميق، وأصبحنا تحت وطأة الرغبة في تقديم التشجيع أو المواساة، استعرضنا على التوالي أبواب الدعم التي قد يمكنها أن تلجأ إليها في عائلتها، عند أخواتها أو أزواجهن، عند والدَيْ أو أخوة زوجها، شاهدنا، في كل اقتراح، انصباب صنوفٍ جديدة من البؤس. فأختها الصغرى، ألطف في تعاملها معها من الأخت الكبرى، لكنها معاقة، والشاب، العامل اليدوي، الذي تزوجته منذ فترةٍ وجيزة هو الآخر عاطل عن العمل. فلا يمكنها إلا الانطواء على نفسها، على زوجها، الذي تدافع عنه بحنان كبير في وجه اتهامات الأسرة، وعلى ابنها، الذي تساعده جهدَها في التغلّب على الصعوبات الدراسية، المرتبطة بمشاكل نفسية خطيرة.

لقد أطبقتْ عليها حلقة البؤس المفرغة، فهي لا تستطيع شراء دراجة بمحرك خفيف أو سيارة لتتمكن من الاستجابة لعروض العمل المطروحة في نهاية الدورة (كما أنها ليس معها شهادة سواقة ولا تستطيع أن تحصل على مثل هذه الشهادة لعدم إمكانية دفع كلفة التدريب). كانت، مع زوجها، عرضة للتكرّر المثبّط للوعود ومن بعدها الرفض، لقسوة أرباب عمل مجردين من كل رادعٍ أخلاقي يستغلّون سوء وضعهما لتقديم رواتب بائسة مع التلويح الكاذب بأمل التوظيف الثابت نهائياً، وهذا ما دفعها لتجرّب عبثاً إيجاد سند في

مكاتب المعونة الاجتماعية التي أرهقتها بطلب ثبوتيات لا تنتهي («لكن غير ممكن أن يطلبوا كل هذا!») وأجبرتها على إعادة المساعي إلى ما لا نهاية للحصول على معونة الجدّ الأدنى للإدماج RMI، التي تعلّقت بها جميع آمالها.

ونفهم كيف تعرض على التناوب، تقريباً في الجملة نفسها، الثورة المقهورة على ظلم دون اسم ودون وجه، واليأس الذي يدفع إلى ترك كل شيء. «هذه ليست حياة، على هذه الصورة؛ أحياناً تراودني الرغبة في التخلّي، وحتى أحياناً، عندما تعترضني مشكلة أوراق رسمية، تراودني الرغبة في ترك كل هذه القصة تنام في الأدراج، من شدة شعوري بالقرف.»

وأما إحساسها بأنها تُقابَل كيفما تحركتْ بسوء النيّة والأذى («كان المجتمع شريراً معي حتى أصبحت ناقمة على جميع الناس») فقد يكون ذا صلة بذلك النوع من الكابوس الذي غالباً ما يسيطر عليها، الاستذكار اليائس لقصة بدأت بهجرة وموت الأب، مع مضايقات الأخت الكبرى، وهذا ما يبدو أنه يتكرر دون انقطاع: «هناك أيضاً القليل من... هناك أبي، فقد مات، إيه، يعني افتقدته كثيراً، ثم، يعني، لقد تركنا أيضاً في البؤس، وكل هذا... فهذا، عندما أقع في مشاكل، هنا أرى كل هذا كمن يقرأ في كتاب.»

وتقول وتعيد أكثر من مرّة إنها تشعر بأنها على حافة هاوية، معلّقة كما لو بخيط باستمرار أمها على قيد الحياة، لارتباطها الكامل بها في كل شيء: «عندما رأيت أن أمي جاءتها النوبة، هنا، قلت (وصلنا، أنا انتهى كل شيء بالنسبة لي، أنا سوف أصير في الشارع، لن يعود لي بيت، سوف أصير، لن يهتمّ أحد بي.)» كم من الوقت يجب عليها، ويمكنها، التماسك هكذا بين الحياة والموت الاجتماعي، بين بيت أمها الذي تشعر أنه يُؤويها، وبين بيتها الذي لم يُستكمل، وهو الآن دون كهرباء، بانتظار تدخّل المساعِدة الاجتماعية التي قد تنظر في تقديم «إضبارتها بصفة الاستعجال» للحصول على الـ RMI، أو التوظيف، الدائم أخيراً، لزوجها؟

مع عاطلة عن العمل

حديث أجراه بيير بورديو

«كل الأحوال واقفة...»

❖ بقيتِ لفترة طويلة جداً، جداً، دون أي مورد...

ليديا د.: نعم. عام، عام تقريباً وبحبوحة، نعم، لم أكن أحصل إلا على 200 فرنك في البداية كي أعيش، هذا كل شيء. لم يكن عندي أي مورد. لا هو، زوجي، ولا أنا.

❖ كانت أمكِ هي التي تؤمن لكما الطعام؟

ليديا د.: نعم، نعم، كانت تؤمن لنا الطعام، ومن جميعه... نعم.

❖ وهذا معناه لم يكن لكما طلعات، ولا شيء، ولا...

ليديا د.: آه لا، كنا نلازم البيت. هذا كل شيء، وهذا ما كان غير ملحوظ.

❖ طبعاً، وبالنسبة للثياب، وكل هذا...

ليديا د.: الثياب، أنا عندي ثياب كنت قد اشتريتها سابقاً، في الماضي عندما كان معنا مال؛ اشتريت لابني فيما بعد؛ وعندما تكون هناك مشاكل، فأمي، أحياناً، كانت تشتري للصغير، يعني. من غير هذا، ما كان بإمكاني أن أشتري، هذا ليس...

❖ وهذا، هذا وقع فجأة على رأسك. ففي العمق، كانت الأمور تمشي جيداً، وكنتِ مسرورة، كان عندكِ صغير، وكان عندكِ بيت...

ليديا د.: حينما اشتريت البيت، لم تعد الأمور تمشي، في كل شيء.

❖ كان عليك دفع أقساط كبيرة؟

ليديا د.: آوه نعم، يا لطيف! عندي قسط السيارة الذي لم ينته بعد وعندي قسط «ماذا يسمونه»؟... للبيت، وماذا يسمونه؟... الكاتب بالعدل، وعندي الهاتف، يعني، عندي استحقاقات 100،000 فرنك، ولم أكن أستطيع الدفع، فبدأ الدّيْن يتراكم فأصبحت تحت، حيث تأخرت بسبب البطالة، أصبحت تحت مليون و «بحبوحة»، وقد صفّيت أيضاً قسماً لأنني كان عليّ ضريبة السكن، وضريبة التلفزيون، فدفعت كل المتأخرات السابقة، ففي هذا، هنا، كنت نظامية، كنت أدفع عند كل استحقاق، ثمّ ترتّب عليّ أيضاً، لم أعد أعلم ماذا... آه، نعم، قرض مستحق عليّ لأحد البنوك، وأمور أخرى من هذا القبيل، لم أعد أتذكر جيداً، أعلم أنها مبالغ لا يستهان بها، أن هناك مبلغاً لا يُستهان به من الديون، نعم.. لا يُستهان به.

❖ كم يستحق عليك كل شهر؟

ليديا د.: 3000، 3000 فرنك وبحبوحة، كل شهر، ويجب أن يكون هذا...

❖ ومتى يتوقف كل هذا وينتهي؟

ليديا د.: بعض القروض عليّ تنتهي في مدى عام، بعضها في عامين، وعندي لمدة ثلاثة أعوام، ولمدة 60 شهراً. القروض متنوعة، ليست نفسها. لو معي مال، كنت صفّيت بعضها مثل الهاتف، 1000 فرنك، كان يمكن تصفيته بوجود المال، لكن غير ممكن... غير ممكن... لأنني طلبت قرضاً لسداد الديون الفائضة، وبشكل طبيعي، فقرض الديون الفائضة، يعملون له سلّماً على أساس ما لدينا، لكنهم وضعوا سلّماً مرتفعاً أكثر بكثير مما أستطيع دفعه، فقلت لهم... قالوا، «إما هكذا أو نبيع لك بيتك. اختاري»- فأنا لم أعد أعرف ماذا أفعل، أنا قلت، «طيب، يعني»...- لم أكن أريد أن أقول لأنه

كان يعمل في بانيفرانس [شركة صناعية لصنع المعجنات والحلويات] وعادة فكان هناك احتمال (قال يعني، حسب قولهم، لكن عندك أرباب عمل أنجاس) احتمال أو إمكانية توظيف دائم؛ عندها، كان قد التزم بعقد لمدة شهر، كان العقد لشهر لا غير، ثم من بعدها إمكانية التوظيف؛ عندها، لم أكن أريد الكلام عن هذا، نظراً لأنه بالكاد، بدأ العمل منذ أسبوع، لهذا قلت، «طيب سوف نتحدث في هذا، نظراً لأنهم يريدون بيع البيت، طيب، قل لهم أنك وجدت عملاً»؛ لكن كان هذا كي نتدبّر أمورنا، لأن من البنوك المقرضة من كان يتصل بنا هاتفياً، «متى تدفعون إذن؟»، كانوا يقولون لنا هذا، كما لو أننا لم نكن نريد أن ندفع! فقلت، «أنا إنسانة شريفة، أريد فعلاً أن أدفع، هاتوا لي المال وأنا أدفعه لكم على الفور، لكن إذا لم أقدر، فهذا يعني فعلاً أنني لا أقدر، هذه كل الحكاية، وما بيدي أن أتصرف إلا هكذا!»، والشخص المكلف نغّص علينا حياتنا، ومن جميعه؛ بل لقد اتصل بأناس حتى ما كانوا يعرفوننا، ولا أعرف من أين علموا باسمنا، لأننا، نحن، لم نكن نعرفهم، فقالوا، «قولوا لها أن تتصل»، من بعدها، عندما عاد زوجي، بعد دقيقتين، وكان قد اشتغل هناك، في بانيفرانس، اتصل بنا الشخص المكلّف ثانيةً كما لو كان يعلم أن زوجي عاد مباشرة وعلى الفور كي ينكدّ علينا، وكان هناك دائماً إضبارة، ولم يكن أبداً الشخص نفسه المسؤول عن القرض من يهتمّ بأمرنا، بل كان دائماً غير السابق، وسيط ومن جميعه، ونحن كنا نجد أسماء غريبة، وما كانوا يقولون من طرف من، يعني كان لدينا أسماء ورقم هاتف ولم نكن نعلم من أين جاء هؤلاء، «أشياء» من هذا النوع، وكان من غير المقبول رؤية مثل هذه الأشياء. كان ذلك من أنواع الخبث!

❖ نعم، هو باب من أبواب التعذيب والاضطهاد...

ولماذا لا تعملون؟

ليديا د.: نعم. أنا، لو حتى استطعت القيام برذالات، ما كنت لأتأخرّ، لأن المجتمع هو وحده الذي كان سيئاً معي، أساءوا إليّ حتى صرت ناقمة على الجميع، صرت ناقمة أكثر مما... حتى بشأن العمل، عندما كانوا كلهم

يكلموني عن العمل، لأن حَمْوي، كان يتكلم عن العمل، فيقول، «آوه، ما عندك عمل ولا أي شيء»، كان يتكلم عن العمل ودائماً، فقلت، «لا تحكي عن الشغل، لأني صرت أكرهه»، لأنه لم يكن يحكي إلا عن هذا، فقلت، «توقّف عن هذا، عن هذا...»

❖ نعم، كما لو أنك تتقصّدين البقاء دون عمل...

ليديا د.: نعم، وكان يعتبرني خاملة؛ ودوماً، دوماً ينظر إلى ابنه على أنه خامل؛ كنا نسمع هذا في كل مكان، «ولماذا لا تعملان؟» و «لا يحصل هذا إلا معكما»، من هذا القبيل. فأقول، «إذا لم يكن عندنا حظ، فهذا ليس غلطنا»، ثم عندك أرباب عمل، في مجتمعنا الحالي، عندك أرباب عمل، لا يريدون أن يدفعوا للناس، فالشباب اليوم، يريدون أن يعمل الناس مقابل لا شيء على الإطلاق. لأنه اشتغل في بعض المواقع، فقالوا له، وعدوه بالدفع، لكن في النهاية لم يحصل على شيء، فتوقف عن التعامل معهم، بل لقد اشتغل في محافظة «موز»، معلوم، يجب عليه، وإلا فهو خامل، وكان حتى ينام في السيارة! إذن، كي يحصل على عمل في المنشرة في محافظة «موز»، في بلدة لك. إيه، فكان ينام في السيارة، بل إنّه كان يكابد الفشل، لأن أحدهم كان قد أعارنا أرضاً، وكان يأكل هناك، ولولا ذلك لما كان لديه عمل، لكنه لم يكن يكسب سوى... ليس كثيراً، 200، 300 فرنك، هذا كل شيء، وهو غير كاف. أنا قلت له عندها «إذا كان القصد العمل، تحقيق شيء، فإنّ ما تحصل عليه لايكفي بالنسبة لمسافة الطريق وغيره، فلا ضرورة لتستمر في مثل هذه الظروف، هذا غير ممكن، هذا غير ممكن» حتى مع عائلتي، فبقائي... طيب، أنا آكل عند أمي، لكن تواجهنا دائماً حكايات، «نعم، حضرتك لا تدفعين أي أجر للماما» ومن هذا، ومن ذاك...

❖ من يتدخل في هذا؟

ليديا د.: أختي، هي حسودة... عندي مشاكل على هذا المستوى.

❖ ماذا تشتغل؟

ليديا د.: تشتغل في المسبح على صندوق المحاسبة. لكنها تغار دائماً،

«نعم، أنتِ لا تدفعين أجرة»، وما شابه. علماً أن عندها البيت وكل شيء، عندها كل اللازم، لكنها حتّى لا تبقى في بيتها، بل تأتي لتتفّص على أمي، ومن جميعه؛ وهي تقوم بحضانة طفلٍ عمره عامان، وحتّى لو كانت أمّي مرهقة، بل إنها كادت تموت العام الماضي، كدت أفقدها؛ عندما كنت أشتغل في اللوكسمبورغ، كدت أفقدها، فعانيت من المشاكل بهذا الشأن أيضاً. فكان عليّ، كان عليّ... الذهاب لرؤيتها في المستشفى، كانت قد أصيبت بوذمة رئوية، يعني، كل المشاكل تراكمت، فعلاً في عام 90، ثم حتى الآن كم من الهموم.

❖ نعم، هي فترة سيئة. وهذه الأخت، ألا يمكنها تدبير شغل لكِ...؟.

ليديا د.: يعني، كانت تقول لنا عن مراكز شاغرة فهذا كل شيء، لكن في كل مرّة كانت تلك المراكز تطير منا، فجميع الناس... هناك بطالة كبيرة. فهم يسارعون فوراً إلى كل شاغر. وهذا غير ممكن، هذا لا يُصدّق. ثم، يعني يكفي أن يأتينا الخبر متأخراً قليلاً، يجب أن نعلم. أحياناً، يقولون، «لا، الأمر فوري» فنتصل هاتفياً فيكون المركز الشاغر قد طار في هذه الفترة القصيرة. على أي حال، يجب القول أيضا أنّه لم يكن من السهل عليّ الاتصال بالهاتف. حماتي لم تكن تسمح لي بأن أتصل من بيتها، كانت لا تريد، يعني. كان لديّ هاتفٌ في فترةٍ معيّنة، ثمّ لم يعد لديّ هاتف، والمشكلة نفسها عندما كنت في بيتي في س.، فكنت ألاقي صعوبة في الاتصال مع أمي، كان عندي مشاكل، ولم أكن أستطيع الاتصال هاتفياً بسهولة؛ كان بالقرب من مسكني كابينة هاتف لا تعمل إلاّ نادراً جداً، لم أكن أستطيع الاتصال هاتفياً، فهي أحياناً لم يكن عندها أية أخبار عني، ولهذا...

❖ كنت ساكنة في البيت الذي اشتريته؟

ليديا د.: نعم، نعم.

❖ إذن ما كان باستطاعتك تحسينه، لا شيء؟

ليديا د.: لا. فعلاً لا. كان هناك إصلاحات يجب القيام بها، حتى لا أعلم ما هي بالضبط، فكان عندي الباب، يعني هناك نهفة بخصوص الباب،

فالهواء يتسرّب منه، لكن كان عندي ماء ساخن مع هذا، وكان هناك بعض الأمور المريحة، أفضل من قبل. لأنني من قبل ما كان عندي ماء ساخن، ما كان عندي شيء، لم أكن أدفع مبلغاً كبيراً، 400 فرنك، لكن لم يكن عندي أي شيء. لم يكن عندي ما يلزم للراحة، وما شابه، كنا نشعر بالبرد في الشتاء، لم يكن للبيت عزل وكل شيء، كنت ساكنة في الطابق الرابع، في مجمّع سكني، ثم، يعني، حياة المجمّعات، أنا ما كنت أحبها ثم كنت أريد حديقة، عندها كان زوجي يزرع، فكان هذا يساعدنا قليلاً، موضوع زراعة الحديقة، إذ بغير هذا ما كنا لنستطيع تدبير أمورنا، نعم هو هذا.

❖ وفوق هذا، فمن حولك يرى الناس..

ليديا د.: نعم، مشاكل كهذه، فهم ينتقدون. هم حتى ينتقدون ويزيدونها..

❖ حتى في الأسرة؟

ليديا د.: ولهذا فأنا، الأصدقاء، من الأصدقاء ليس عندي الكثير. أنا أستبعدهم. أنا وحيدة وحدة كاملة، أكاد لا أختلط بأحد. لعلّي انعزالية، لكن أنا هكذا، صرت هكذا، أشعر بأنّ هذا أفضل بالنسبة لي، لأن الجميع ينتقدونني وما شابه، «أنا لا أفهم كيف تبقين مع زوج كهذا، لا يشتغل»، كم من التعليقات كهذه، فأقول، «من لا يصدّق، فليشرّف معي إلى البيت، ليس إلا أن يُشرّف ويرى الرسائل لديّ، هذا غير ممكن، أوه! سوف نحتفظ بالطلب إلى حين يتوفّر عندنا شيءٌ ما»، ولا نسمع إلا هذا، «زعبرات»، ووعود، وأختام أيضاً، فبالنسبة لهذا (...) في وقتٍ معيّن، لم يكن هناك إلاّ الأختام، جدول كامل من الأختام والمضمون لا شيء بالمرّة.

أنا محاصرة في كل شيء...

❖ وما هو اختصاصه في..

ليديا د.: إيه، هو عامل يدوي دون تأهيل. كما ليس معه شهادة التأهيل المهني CAP. هو يفهم قليلاً في كل شيء، فاشتغل كلحّام، ودهّان

بناء، وفي البناء. فماذا اشتغل أيضاً؟ وكيل شركة، وقام بأعمال صغيرة غير قليلة من هذا النوع. في أي شيء، هو، لا يبالي.

❖ ما دمتما متفاهمين بشكل جيد، فهذا سلفاً...

ليديا د.: في هذا، هو لطيف، هو لطيف... هو لطيف.

❖ هذا شيء مهم.

ليديا د.: لكن المشكلة التي حلّت بي، أنني فقدت أبي في عام 89، والبيت، كان مقدّراً أن أحصل عليه في عام 89، لكني لم أتمكن من تدبير الحصول عليه إلا في عام 90. وهذا البيت حينها كان قد أعطاني مليوناً لأعيد تدبير البيت قليلاً. وفي النهاية، عادةً يشمل قرض البيت، كان المفروض أن يشمل تكاليف التسجيل عند الكاتب بالعدل، ولكن هذا لم يحصل، عندها سحبوا مني المليون- الخبثاء- لاستكمال معاملة التسجيل عند الكاتب بالعدل، فهذا يعني أني تكلّفت مليونين إضافيين، وهنا أصبحت عندي شركتان مختلفتان بهذا الشأن.

❖ كم كلّفكِ البيت؟

ليديا د.: 12 مليون. وأخذته في الحالة التي كان عليها. لم أجدّد أي شيء.

❖ وهذه الدورة كيف حصلت عليها؟

ليديا د.: حدّثتني المساعِدة الاجتماعية عنها، ثمّ قالت، «لكن، هذا غير طبيعي، قالت لي، طيب، هل بدأتِ؟»، فقلت، «لا، حتى الآن، لا»، فقالت لي، «مستحيل، تكلّمنا معهم من أجل أن تنتسبي إلى دورة وكل شيء»، لكن كان هناك أيضاً مكتب العمل إلى حد ما، فهم اتصلوا واستدعوني، يعني من هذا القبيل، لأني كنت في نهاية فترة الاستحقاق. عندها طلبوني ومن ثم انتسبت إلى الدورة. وهناك، حالهم مثل حالي، فهناك يؤمّنون عملاً لمدة اسبوع في المشاريع، قال يعني، وربّ العمل، على ذمته، كان راضياً عني ومن ثم قد تكون هناك إمكانية توظيف دائم؛ وهنا، تكون عندي مشكلة لأنني لا أملك واسطة نقل، ما معي شهادة سواقة، ثم أين أجد السيارة، فزوجي

بحاجة لها، فأينما أردت الذهاب لأشتغل، لا أستطيع، إن كان هنا في موقع قريب، عال، ماشي الحال، ولكن بالنسبة للباصات فلا تشتغل على خط ف. انطلاقاً من م. لا يوجد باصات. وبالنسبة للدراجة الخفيفة، أنا، لا أستطيع أن أصمد عليها، جرّبت، فلم أنجح في الموضوع، عدا عن أنه يجب عليّ في هذه الحالة شراء الدراجة الخفيفة، وهذا أيضاً لا اقدر عليه، أنا، بالراتب الذي أحصل عليه، هذا غير ممكن. أنا محاصرة في كل شيء. ولا حلّ بيدي: لا أستطيع شراء سيارة ثانية لأن الإمكانية المالية غير متوفرّة، طيب، وشهادة السواقة ليس معي إياها هي أيضاً، يعني كل أموري واقفة.

❖ وهنا، ألا يقبلون بـ «حركات» من أجل شهادة السواقة؟ نعم، فعلى قولك أنتِ محاصرة في كل شيء، فعندكِ مشكلة المال، ولا سيارة ولا عمل...

ليديا د.: نعم، كل شيء، كل شيء عندي يتشابك وتختلط أوراقه في الوقت نفسه. لا يوجد مخرج. الأمر مزعج، لا يوجد مخرج. لا يوجد حلّ. لا يوجد مخرج، أعلم... توجد حلول، وأنا أرغب فعلاً بالدراسة من أجل شهادة السواقة، لكن عليّ في هذه الحالة أن أتمكن من الذهاب إلى مدرسة السواقة، فأنا بودّي حقاً الحصول عليها...

❖ نعم، إلا إذا حصل زوجكِ على شغل دائم، فهذا كفيل بإخراجكما من هذا المأزق.

ليدي د.: نعم، لكن ما دام يعمل في منطقة م. سان م. وساعات عمله غير معقولة، فإنه لا يقدر، لأنّه يبدأ في الرابعة صباحاً، ولا يوجد باص في الرابعة صباحاً في م. سان م.، فهذا غير ممكن. هو بحاجة إلى السيارة.

❖ ما دوامه إذن، دوامه في الرابعة صباحاً...؟

ليديا د.: دوامه من الرابعة صباحاً حتى الواحدة عصراً، من بعدها عنده من الواحدة عصراً إلى التاسعة مساءً؛ فهذا دوام دوّار هكذا... نعم، هكذا، وهذا غير ممكن.

❖ ويكسب جيداً؟

ليديا د.: هذا لا نعرفه، فهو بالكاد بدأ الشغل، هو يشتغل من ثمانية أيام لا غير، فلا نعرف.

❖ لم يقولوا له كم سيكون أجره؟

ليديا د.: عادة، سوف يأخذ الحد الأدنى للراتب، وهو شيء لا يُذكر، يعني 5400، وحتى هذا غير مؤكد أن يكفي لدفع كل ما عليّ فعله عدا عن فترة التأخير، لن أخرج من هذه الورطة أبداً، هذا غير ممكن! كم من الوقت ينبغي أن أحرم نفسي هكذا، هذا غير ممكن، هذا غير ممكن!

كنت أرى كوابيس ...

❖ لا بدّ أنك لا تنامين دائماً في الليل، هه؟

ليديا د.: كنت أرى كوابيس فيما مضى، كوابيس، وكل هذا من أجل..

❖ يعني؟

ليديا د.: يعني، كنت أحلم بالمشاكل التي على كتفي، كنت أرى نفسي، يعني، كنت أرى نفسي أعيش في الشارع لأنني عندما رأيت أمي وقد جاءتها النوبة، عندها، قلت، «اكتملت، عظيم، عال العال، انتهى كل شيء بالنسبة لي، أنا سوف أصير في الشارع، لن يعود لي بيت، سوف أصير، لا أحد سيهتمّ بي لأن أختي لا تشغل نفسها بي».

❖ وأهل زوجك؟

ليديا د.: إيه... ليس لي أن اعتمد عليهم. هم مؤذون، فعلاً مؤذون. حتى معي. حتى معه و... (...) فالأب، يشرب. ثم هو مؤذٍ، فكل النهار، يلوم هذا، وذاك، كل الناس. فنحن جميعاً في العائلة تنابل برأيه. حتى بشأن ابنه، يقول عنه، تنبل، حتى بعد أن وجد الشغل، فهو يعامله على أنه... لمجرّد أنه لفترة معيّنة كان عاطلاً عن العمل، إيه يعني، فقلت، «الدولاب يدور يوماً، لا يجوز أبداً التهكّم، قلت، يوماً ما، إذا حصل ما حصل، سوف تصبح عاطلاً عن العمل»، إيه عظيم، وهذا ما حصل فقد وجد نفسه عاطلاً عن العمل

وأحيل باكراً على التقاعد، وجد نفسه عاطلاً عن العمل، علامات تصنيفه ضعيفة، عندها صار في بطالة.

❖ نعم، فما كان عمله؟ كان في مصانع الحديد؟

ليديا د.: كان إلى حد ما كعامل يدوي، هكذا إلى حد ما.

❖ في صناعة الحديد؟

ليديا د.: نعم، في صناعة الحديد، كان. (...) لكن حماتي، هي أيضاً لا يستهان بأمرها، فهي تلوم وتنتقد، من جميعه، ليست عائلة طيبة، فوق كل شيء. أنا، أنا لا أذهب لزيارتهم. تقريباً بالمرة.

❖ كنت تقولين أنكِ ترين كوابيس، فهل كان لها علاقة بشغلك؟

ليديا د.: نعم، كل هذا. وما شابه من المشاكل، ثم العائلة إلى حدٍّ ما وما شابه.

❖ تفكرين بحماتك وكل هذا؟

ليديا د.: نعم، وبنات الحمي... كل هذا... فبنات حميّي من النوعية نفسها، فلا نخالط بعضنا، منهن واحدة أخالطها، وواحدة ثانية أيضاً، أما الأخريات فلا اختلاط لي بهن.

❖ نعم، وهذا مرتبط دوماً بالعمل والانتقادات التي توجّه إليك، أشياء من هذا القبيل؟

ليديا د.: تماماً. نعم، هي مشاكل من هذا النوع.

❖ نعم، وهذا كان شديد الوطأة عليك... كل هذا... نعم.

ليديا د.: هذا صحيح. يعني، وعندك أيضاً إلى حدٍّ ما... هناك أبي، فقد مات، إيه يعني، افتقدته كثيراً، ومن ثمّ فهو، يعني، تركنا في البؤس، وكل هذا، عظيم، فهذا... عندما أقع في مشاكل، هنا، أرى كما لو كنت أقرأ في كتاب، كما لو أن هذا...

❖ كان يتكرّر؟

ليديا د.: أرى شريط حياتي، منذ أن كنت صغيرة، والمشاكل التي وقعتُ فيها، ومن ثمّ حتى الآن، هذا...

❖ ماذا تقصدين... أنك تتذكرين كل شيء؟

ليديا د.: نعم، أرى كل شيء يمرّ أمام نظري.

❖ وعندما تقولين أنك ترين المستقبل مغطّى بالسواد، فما قصدك؟

ليديا د.: هذا... هذا بسبب جميع المشاكل التي عشتها، منذ كنت صغيرة، حتى الآن. هو هذا، فلا أرى...

❖ وأنتِ خائفة بشأن المستقبل؟

ليديا د.: ممم، ممم، لا أرى... لا أرى التحسّن في الأفق. لا أعلم. أنا لا أصدّق هذا. لم أعد أصدّق شيئاً. لا لم أعد أقدر أن أصدّق، مع كل تلك الوعود التي قدموها إليّ، يعني، أنا لا أقدر. هذا غير ممكن. لا أقدر. فأقول، أو حينها، إذا أمكن أن يحصل شيء طارئ غير متوقّع، فأقول، «ستحصل معجزة إذن». وأقول، «هذا غير ممكن». لن أتمكن من إصلاح ما تخرّب، أقول، «هذا غير ممكن». لا أؤمن بأي شيء على الإطلاق، حتى ولا بالقمار، ولا بأيّ شيء، أنا لا ألعب القمار وضربة الحظ وكل ما شابه، لا أؤمن بشيء.

❖ لا، بهذا الشأن، أظن بأنّه ليس من هذا الجانب عليكِ أن...

ليديا د.: لا، لا، بهذا الشأن، أقول... حتى ألعاب القمار، لأن زوجي، أحياناً، هناك ألعاب من باب الضحك على اللحى، وهو يكتب ويعيد الكتابة، بأمل، «لقد ربحت...» وأنا أقول له، «لا تكتب، هذه زعبرات، هذه زعبرات»، وأقول، إذا لم يتدبرّ العمل لنا، لن نحصل على شيء، فهذا هو الحل لنا. أنا لا أؤمن بأي شيء. أنا من جهتي، أؤمن بأننا إذا لم نشتغل، فأنا أؤمن أنه لن يكون حلّ. فنحن الذين نصنع (علامتنا؟)... وليس الآخرون، يعني، وهذه هي الحالة.(...)

لأن هذه كارثة...

ليديا د.: هذه هي الحالة. وهذا غير مفهوم [ضحكة صغيرة]. لكن أعلم أني لست الوحيدة التي تواجه مشاكل كهذه، فأحياناً، هذا يواسي، أقول

هناك من هو أسوأ حالاً مني، عال العال، لحسن الحظ، أقول لحسن الحظ أني لست الوحيدة وإلا لكانت كارثة، لكني أقول، «هذا غير ممكن أننا نعيش في عصر مثل هذا»؛ أنه ما تزال هناك مشاكل مثل هذه. يقولون عن التطور إنه في تقدم لكن هذا غير صحيح. أنا، في رأيي أنه في تراجع أكثر مما هو في تقدم. هذا غير ممكن، يجب إيجاد حلول، يجب أن يتحرّكوا. هذا غير ممكن، لا مجرّد إعطاء وعود، ومن بعدها لا شيء في الواقع. هذا، هذا سهل، أنا أيضاً أستطيع إعطاء وعود، أو أن أكون في مكتب أقول، «عملنا الأوراق»، ومن ثم يتغاضون عن الأمر – هذا، أنا سبق أن رأيت هذا – يتغاضون في جهة ثم يقولون، «سوف ننهي هذه، ولن ننهي هذه»، هذا، أنا أعرفه؛ أستطيع أنا أيضاً أن أكون بيروقراطية وأفعل هذا. أنا بإمكاني أن أكون بيروقراطية هكذا، أفعله مباشرة، بكل سهولة، بسبب انتشار الفوضى، هذا غير ممكن، بشأن الأوراق الرسمية. سبق أن قدّمت أوراقاً وضيّعوا الأوراق، فكان عليّ إعادة تحضيرها من جديد. حتى عندها استخدموا الحواسب الإلكترونية، بقيت الزعبرات، شيء غير ممكن. أنا، أعطوني رقماً في الحواسب، على أساسه صرت مولودة في الخارج. وأنا لم أولد في الخارج، أنا مولودة في فرنسا. اعتنت بي سيدة، بعينيّ، أجريت لي عملية في العين، في إحدى المرات، كانت لديّ مشكلة، اضطررت لمراجعة، لا أدري كم، 50 مكتباً! «آه لا، لا، لست أنا المسؤولة» يصرفونني من ثمّ ويطلبون مني انتظار استدعائهم لي، ومن بعدها، «لا، ليس هذه، بل تلك»، وأنا، يعني الحياة هكذا ما هي حياة؛ أحياناً تراودني الرغبة في التخلّي، وحتى أحياناً عندما تعترضني مشكلة أوراق رسميّة، تراودني الرغبة في ترك كل هذه القصة تنام في الأدراج، من شدة شعوري بالقرف...

❖ لا أعلم إن كان بإمكاني صنع معجزة، بودّي فعلاً.

ليديا د.: نعم، هذا غير مفهوم. هذا قاس. هذا غير مفهوم. وأحياناً أتساءل كيف يمكن أن العالم، صار هكذا، لأن العالم من قبل، كان أقل سوءاً منه الآن، بل أحياناً عندما تذهب أحياناً إلى بعض الأمكنة حتى لمجرّد طلب

معلومات، يتهرّبون من الإجابة أو رذالات من هذا الباب، أحياناً. كما حصل مع زوجي، ففي إحدى المرّات، طلبوا منه مقابلةً بتاريخ 20، للحصول على معونة RMI (الحدّ الأدنى للإدماج)، لقد ربحت، فقال لهم، «أوه! لكن لا أعلم إن كان بإمكاني الحضور في هذا الموعد؟»، فهل تعلم بماذا أجابوه؟ «أوه! عفواً، لم تعد لك حاجة بتلك المعونة التي تطلبها؟» فعندما قالوا له هكذا، قال، «بلى، لكن ماذا إذا لم يكن بإمكاني الذهاب؟»، هل لاحظت؟ ومن ذلك التاريخ وهو على مواعيد، يعني مع المحافظة، لكن لم يتحقق أي تقدم. لم يتحقّق أي تقدّم.

❖ ولم يحصل بعد على تلك المعونة؟

ليديا د.: لا، ليس بعد.

❖ هل طلبها؟

ليديا د.: حضّر جميع الأوراق ومن جميعه، لكنه لم يحصل حتى الآن على شيء. لا يزال في النقطة نفسها. (...) فالمحافظة قالت إنها إذا لم تحلّ القضيّة، فسوف تتدخّل لأنها قالت، هذا غير ممكن، وقالت: «ملفٌ كهذا، قالت، يمشي فوراً»، قالت. وقالت، «هذا غير ممكن». فصرت أقول أحياناً لنفسي، هل هناك من يزرع الفوضى هكذا! في حياتي دون علم مني، لأنني صرت أفكر، من غير الممكن أن يرى المرء أموراً كهذه!

❖ أن يكون لدى المرء مثل هذا الحظّ السيّء المتفاقم؟

ليديا د.: بدأت أتساءل إن كان هناك من يتسلّى بتعذيبي.

❖ إن كان هناك من يرميك بقدر منحوس؟

ليديا د.: نعم، بدأت أسأل نفسي.

❖ إلى هذه الدرجة؟

ليديا د.: أي نعم، لأن هذه كارثة، لا أعلم إن كان هناك من هو مثلي، حالياً، أنا لا أعرف ما يشبه حالتي؛ أعلم عن وجود من عندهم مشاكل لكن ليس بقدر مشاكلي، حتى على مستوى الدورة.

❖ حتى هناك؟ علماً أنهم في الدورة أناسٌ عندهم مشاكل...

ليديا د.: عندهم مشاكل، لكن ليس مثل مشاكلي؛ أعرف مشاكلهم، فهي ليست بقدر ما أعانيه؛ فليس عندهم... منهم من عنده مشاكل، لكن لا أحد عنده ديون مثلي، وحكايات هكذا، يعني، مثلاً، مشاكلي مع الأوراق الرسمية؛ هم حصلوا على معونة الـ RMI، بينما أنا لم أحصل عليها. أنا الوحيدة التي وضعُها «قيد الدرس»، حتى أنني دوّنت هذا، لأننا عند التسجيل في الدورة، دوّنت أن معاملتي هي «قيد الدرس»، لأنني لم أكن أعلم... هكذا فأنا أسأل نفسي أحياناً، إن لم يكن هناك من يتعمّد إيذائي على مستوى الأوراق، أو شخصٌ يعرفني ممّن لا يستطيعون مواجهتي...

❖ يخرّب ما تقومين به؟

ليديا د.: نعم، يخرّب كل أوراقي ومن جميعه، هذا غير ممكن! هذا غير ممكن! طلبوا مني أوراق أرسلتها إليهم، وعادوا يطلبونها منّي ثلاث مرّات.

❖ نعم، من المؤلم أن التأمين الاجتماعي هي هكذا...

ليديا د.: لا، لا، إنما أنا بشأن معونة الـ RMI. لا تعلم ماذا قالوا لي أيضاً على الهاتف، أنا قلت، «أريد أن أعرف ماذا بشأن إضبارتي عن معونة الـ RMI، يعني كل هذا، لأنني لم أحصل حتى هذا التاريخ على شيء» فهذا لأنهم قالوا لي سابقاً، «في بحر عشرة أيام، تستلمين المبلغ»، وما شابه. لكن دائماً لا شيء، فمرّ شهر، يعني، فقلت، «طلبتم البيان لعام 90 عن زوجي، بيان مصادر الدخل، وأنا أرسلته إليكم، ولا يمكن إلا أن أقول، هذا غير ممكن!» هذا ما قلته. من بعدها، قالت لي، «لكن هناك أمر آخر» فقلت، «لا، مسجّلٌ على الورقة 90، مصادر الدخل عند زوجي». والآن، صاروا يطلبون الورقة التي تثبت أني كنت مريضة. قلت، «لكن المفروض إعلامي، أنتم سجّلتم لي طلباً واحداً على ورقة، ولم تسجّلوا الطلبين! ثم، لحسن الحظ أني اتصلت هاتفياً، وتطلبون مني شيئاً آخر»، قلت، «لا، لا يجوز الظن بالناس أنهم مغفّلون!» عندها، راحت تجعر، «لا، نحن لا نظن بالناس

أنهم مغفّلون، ليس غلطي إذا كانت المحافظة في فوضى»، هذا ما قالوه لي، ردّت عليّ هكذا. فهل أدركت الموقف؟

[...]

إضبارة قيد الاستعجال

ليديا د.: يرمون المسؤولية على غيرهم...

❖ بالضبط، بين المحافظة والـ...

ليديا د.: نعم، عدا عن أنها سلسلة لا تنتهي حلقاتها.

❖ ... ومعونة الـ RMI. فكل هذا، ولم يسألك أحد ليحقّق بشأن معونة الـ RMI، لم يكن إذن تحقيق...

ليديا د.: لا، أنا يعني، زوجي ذهب إلى اجتماع، إلى موعد، شيء من هذا. فقالوا «لم تحصل عليها»، هذا ما قاله له المسؤول، «على كلٍ، سوف أكتب رسالة ثم أؤكّد على تفعيل الموضوع، إلى أين انتهى الأمر، وما شابه، وسأقول بأنّ هذا غير عادي؛ سوف أسجّل رسالة هامة». وما زلنا ننتظر. وقد قال خلال 15 يوماً، أو لا أعلم كم من الزمن، «سوف يصلكم الجواب». ونحن الآن تجاوزنا المهلة، تجاوزناها. أنا لا أفهم، أو ربما أنهم نسوا أمر الرسالة، أو ربما أهملوا عملهم، هذا غير ممكن، جماعة المحافظة. القصة فيها ما يريب.

❖ وأنت التي تحضّرين كل الأوراق، كل شيء مع زوجك؟

ليديا د.: زوجي وأنا. فأنا أعرف كيف أنظّم البيانات، وما شابه، فلا بأس بمعرفتي. بل أعرف هذا الأمر أكثر بقليل من زوجي، لذلك، فأنا التي ملأت جميع البيانات، وأعدتُ إرسالها؛ حتى أنني سريعة في هذه الأمور، ففور استلامي لأي شيء، أعيده ثانيةً على الفور. قيد الاستعجال، في كل مرة يرسلون لي ورقة عليها، «إضبارة قيد الاستعجال»، هذا ما هو مدوّن على جميع الأوراق أيضاً. هذا غير ممكن!

❖ لعلّ هذا في طريقه إلى التسوية.

ليديا د.: لا أعلم. لا أعلم. فبهذا الشأن، من فترة غير بعيدة، كان لزوجي مقابلة مع مشرِفة اجتماعية في س. تابعة للمحافظة. فقالت له، «أنا سوف أرسل الرسالة، حول موضوعك». الآن أنا على انتظار، وحتى هذا، فات موعده، فقد أرسلت الرسالة في شهر شباط، وهي كان المفروض أساساً إرسالها في كانون الثاني. أظن الأمر في منتصف كانون الثاني، على ما اعتقد. وحتى الآن لا شيء. هذا غير ممكن. علماً لا تحتاج الرسالة إلى أكثر من ثلاثة أيام، أو أسبوع، لا أعلم كم... هذا غير ممكن! توجد مشكلة. لا أعلم من يخلق مشاكل من هذا النوع، لا أعلم، لا أستطيع أن أحدّد. (ألا يوجد إلا مشاكل كهذه؟) من بعدها طلبوا ورقة لإثبات أنني لم أعد أقبض التعويض عن الولد، فهذه آخر ورقة أرسلتها إليهم؛ وأنتظر، ودائماً لاشيء. ويطلبون مني أوراقاً مستحيلة. متى كنت مريضة، كيف دفعوا لي، وبيان الـ 90 عن المصادر المالية وبيان الـ 89 عن المصادر المالية، وأنني لم أعد أتقاضى التعويض العائلي عن الولد، كومة من الأوراق، وأمور بدأت بعدها أشعر بدوخة، من طلب كل هذه الثبوتيات هكذا. هذا، هذا غير ممكن. هذه الأوراق كلها، ما فائدة كل هذا!

❖ لعلّ هذا سوف «يتحلحل» فجأةً، ممكن جداً.

ليديا د.: بل جعلوني أفتح حساباً لصالح إعانة الـ RMI عندما نُظمت لي الورقة، ولم أحصل حتى الآن عليها. منذ 5 تشرين الأول من عام 90! نعم، لم أحصل بعد على شيء، وهم جعلوني أفتح الحساب من أجل هذا. هل لاحظت... هذا غير ممكن. بل حتى دفعت؛ قالوا لي، «لن تدفعي»، ومع هذا دفعتُ 50 فرنكاً، كانوا قد قالوا لي، «عادةً حكاية إضبارة الـ RMI لا تُلزمك بدفع شيء»، ودفعت 50 فرنكاً. لم يكن معي حتى 50 فرنكاً، فأمي هي التي أقرضتني إياها. هذا غير ممكن! في الحكاية ما فيها! لا أعلم كيف يتصرّفون. حتى بهذا الشان فعندي الكهرباء مقطوعة؛ قطعوا عني التيار؛ لأن عليّ تسدد فواتير بقيمة 10،000 فرنك، فقطعوا الكهرباء، لم يقطعوا التدفئة لأنهم لم يستطيعوا، فالتدفئة في الداخل وكان البيت مغلقاً،

لكنهم قطعوا الكهرباء. أحياناً نظلّ في الظلام، لأنني في يوم العطلة، أعود إلى بيتي. من أجل الترتيب، وما شابه، فعندي أيضاً كلب. كلب لي، وعليّ الاهتمام به.

❖ وهو يظلّ هناك؟

ليديا د.: لا أقدر أن أجلبه معي، عند أمي، لأن الشقة صغيرة، شقة من نوع F3؛ كما أن حماتي ترفض إيواءه عندها، كان عندها كلب، لكن حَمْوي يختلق الأعذار، فهذا ينبح، الخ.؛ علماً أن عندهم كوخ مناسب للكلب، فلا يكون منه إزعاج. إنما، يعني، هو أيضاً ضخم بالقياس إلى الكلاب. فهذا يزعجهم. أنا، كلبي، احتفظ به. أحب الحيوانات. أموت في الحيوانات.

❖ نعم، خصوصاً عندما يكون تعلّق ولهفة. وزوجك، يشتغل قليلاً في الحديقة.

ليديا د.: في الحديقة، البستنة، من جميعه.

❖ يذهب هناك من أجل هذا؟

ليديا د.: نعم، من أجل الحديقة، وما شابه، يرتّب بعض الأُصص، ومن جميعه. نعم، يرتّب الأُصص... يهتم كثيراً بكل هذا...

❖ نعم، وهذا يساعدكما على العيش؛ هذا يوفرّ لكما دخلاً.

ليديا د.: نعم يعني. م م م، لكنّ ... ليس بالضرورة.

❖ لا، هذا صعب... ليس بالضرورة.

ليديا د.: هذا صعب، هه (...)؛ وأقول، «لماذا برأسي وليس برأس الآخرين» وكنت لا أقبل في البداية. كنت أبكي، أغرق في الدموع، وأمي كانت تقول لي، «توقفي!». ثم تراني أبكي، فتقول لي، «ما الذي حلّ بك، شيء أبداً». وكانت تنهرني أيضاً. فأقول لها، «أنتِ، لستِ على ما يرام، ومع ذلك فأنا لا أبربر في وجهك، إذن، اتركيني بحالي، هذا كل طلبي». هذا ما قلته لها. لأنني أعلم بأن أمي وقعت في المشاكل ذاتها وأنها لا تريد أن تراني أبكي. تعرّضتُ لمشاكل مالية. وأنا قلت، «لا يمكنكِ عند المشاكل أن تمنعي

نفسك من البكاء». فكانت توافقني، وتبكي معي. فأقول، «أنا، حالي من حالك، أرجوكِ لا تزعلي مني لأنني أبكي. الأمر ما بيدي».

❖ أكيد، وهناك سبب وجيه.

ليديا د.: هذا كما كان شأن شقيق زوجي، فكان يريد مني أن أرحل إلى مرسيليا على أني، أنا، لم أقبل؛ من أجل إيجاد عمل. قلت، «أنا لا أريد، فعندي بيتي، ولم أنتهِ من الدفع، وأنا، عليّ ديون وما من حقيّ الرحيل هكذا. غير ممكن»، هذا ما قلته. ثم، أين سأشتغل؟

شباط 1992

بيير بورديو

حياة ضائعة

بيير ل.، البالغ 59 عاماً، وهنري ف. مزارعان نشطان جداً يمكن القول عنهما إنهما قد نجحا، في تلك المنطقة التي عانت بشدّة من الهجرة الريفية ومن العزوبة، وذلك على عكس معظم الرجال من جيلهما.

لقد ورث هنري ف. أرضاً زراعية صغيرة بمساحة 18 هكتار، تقع بعيداً عن القرية، على الهضاب ذات المنحدرات القاسية جداً- مما جعل استثمارها صعباً وباهظ التكاليف. لكنه من بعد بذل جهود مضنية («لم أسافر في مدى تسعة وعشرين عاماً لأكثر من يومين») تمكّن من زيادة المساحة القابلة للزراعة بما يقرب من عشرة هكتارات. وبغية تمهيد وزراعة الأرض التي انتزعها من الغابة، اضطر لاقتناء معدات هامة جداً، هامة بما يكفي، حسب ظنه، لاستثمار ملكية 100 هكتار في السهل. عندما تحادثنا معه، كان قد علم لتوّه أن ابنه البالغ 27 عاماً والذي تزوّج مؤخراً من ابنة مدينة، قرّر، نزولاً عند ضغط زوجته، أن يترك البيت العائلي الريفي، ليعيش في بيت جدة زوجته. فكانت خيبته كبيرة وزاد من وطأتها أنه لم يتهيأ مسبقاً لمثل هذا الانعطاف المباغت كلياً: فمن بعد رجوعه إلى المزرعة، بعد دراسة في ثانوية زراعية، كان ابنه قد أظهر عزمه الوطيد على متابعة المشروع الزراعي الذي بدأه والده. كان الوالد فائق الحيوية والنشاط، فساهم بقوة

في الدفاع عن هذه المهنة، وعلى هذا الأساس دعاه بيير ل. للاشتراك معنا في هذا الحديث.

يمتلك بيير ل. أحد أكبر وأهم استثمارات المقاطعة زراعياً، بما لديه من هنغارات بالغة الضخامة، مخصصة لتجفيف التبغ وتخزين الأعلاف، بناها بالكامل هو نفسه، شخصياً، أو تقريباً كذلك، وبما لديه من إسطبلات حديثة للغاية، مجهزة بكل المعدات اللازمة للحلب، ولمعالجة وحفظ الحليب، وهذه الإسطبلات معدّة لإيواء القطيع العائد له وفيه ما يقرب من مائة بقرة حلوب. كان عضواً ناشطاً في حركة الـ JAC في شبابه، فشارك في الزخم المجدّد الذي عُرف في الخمسينات، وتزوج (في زمن كان فيه معظم رفاق عمره قد حافظو فيه على عزوبيتهم) ورزق بابن، هو الآن في حوالى الثلاثين، وكان قد أمضى سنتين في مدرسة زراعية، عاد من بعدها يعمل معه في المزرعة، لكنه ما يزال عازباً. والأب معروف وموضع تكريم لدى القرية بأكملها، وخاصة في التجّمع التجاري، حيث يقوم هو نفسه بتسليم الحليب كل يوم، وقد شغل لفترةٍ مديدة منصب مستشار بلدي، أبدى فيه نشاطاً فائقاً. توفّيت زوجته منذ سنوات قليلة من بعد مرضٍ طويل. وقد أجريت له، هو نفسه، عملية جراحية خطيرة، لإصابته بالتهابٍ في مفصل الورك، يعرج منه عرجاً قوياً.

وهكذا فالأب والابن يعيشان بمفردهما، مستثمرين دون مساعدة خارجية، إنما بفضل معدات ضخمة، مساحة كبيرة من الأراضي، هي في معظمها على نظام الاستئجار الزراعي. وعندما يحلّ عليهما الزائر فجأة وهما يعملان (كما هو الحال مع تلك الاقتصادية الصينية التي قُدّر لي أن أرافقها لاطّلاعها على أوّليات الزراعة الأوربية) يجدهما منشغلين بنشاط، في بدلة العمل الزرقاء، ومن حولهما الطين وروث البقر، في وسط يوحي قليلاً بالإهمال (الأواني العتيقة، الأدوات الزراعية البالية المرميّة هنا وهناك)، وتفوح منه في كل مكان رائحة خانقة مقرفة، رائحة الأعلاف المحفوظة في سيلوات.

كان لدى هنري ف. وبيير ل. في بداية حياتهما تَرِكة صغيرة جداً، لكنهما تمكّنا من توسيع استثمارهما، مضحّين في سبيل هذا باستثمارات ضخمة، بالمال، «بفضل» القروض وبالعمل على وجه الخصوص، كما استطاعا تجميع رأسمال هام نسبياً، بشكل أراضٍ زراعية، وخاصة أبنية، وأدوات، ومواشٍ. على أن موضوع الإرث في حالتهما وأوضح من أية حالة أخرى، لعب بهما لعبة القدر أو ما شابه ذلك: فهناك، كما يذكران بشيء من مرارة، من كان أوفر حظاً منهما بما ورث عن أسرته لكنه هاجر إلى المدينة، مثلما هناك أيضاً أولئك الذين تقاعسوا عن العمل المضني، واستسلموا للحياة السهلة تاركين «بيت العائلة» يموت بهدوء فقدره دون شك أن يزول بزوالهم، أو أنهم يؤمّنون من بيع بعض قطع من الأراضي الوسائل الكفيلة بالمحافظة على استثمارهم وبيتهم دون اللجوء إلى القروض؛ أمّا هما ف «بقيا ملتصقين بالأرض»، كما يقال، ربما وفاءً منهما للأم أو الأب؛ لقد استدرجهما بادئ الأمر ذلك الإرث، ثم انجرفا مع الاستثمارات الاقتصادية، بل والنفسية أيضاً، تلك الاستثمارات التي كرّساها للأرض، فعلقا في ما يشبه شبكة من المسنّنات المتداخلة المترابطة، مسنّنات التجديد السابق الذي يستوجب التجديد اللاحق: وقد سارا، كما لو رغماً عنهما، على هدي التوجيهات والتحريضات المتنوعة للمرشدين الزراعيين، وغرف الزراعة، والهيئات المانحة للقروض، والجمعيات المختصة بتسويق الحليب، إلخ.

هما الآن يسيطر عليهما التناقض: فهما رأسماليان لكنهما لا يستطيعان جمع رأسمالهما (إلا ما كان من «خسارة بيع» هائلة على المستويين النفسي والاقتصادي، إذا ما طرحا ممتلكاتهما للبيع)؛ وليس تحت تصرّفهما إلا سيولة قليلة، فما يعود عليهما من دخل أقرب إلى دخل العامل المختص منه إلى دخل العامل المجاز (ولو أرادا تجاهل هذا الأمر، سرعان ما يذكّرهما به رجوع الأهالي المهاجرين إلى المنطقة أثناء العطلة)؛ وهما عاملان مأجوران متنكّران، يشتغلان لصالح مشروع معمل ألبان لديه كل الصلاحية في التعامل معهما أو الامتناع عن ذلك، وهو يفرض عليهما توجيهاته بـ «تعليمات إدارية»، كما في إدارةٍ مركزية، ويحدّد لهما فعلياً

ساعات العمل، ويشرف بانتظامٍ على جودة المعدات والمنتوجات لديهما، إلخ. هما يستطيعان التوهمّ، ذلك التوهّم الذي يدعمانه معاً، أنهما سيدان في مزرعتيهما، وأن يستثمرا الأسطورة المتوارثة عن الأجداد، أسطورة حرية الحياة الفلاحية. وكما تبدّى لي فجأة أثناء طرحي الأسئلة عليهما من أجل الاقتصادية الصينية التي كنت أرافقها، فقد رأيت في وضعهما إلى حدٍّ ما ما يشبه وضع كولخوزيين قاما شخصياً بتمويل كولخوزهما. أمّا تقلبات القرارات السياسية للدولة أو المتطلبات الاجتماعية فهي، رغم بعدها عنهما، تتحكّم مباشرة بدخلهما المادي، وأحياناً بقراراتهما بشأن الاستثمارات الإنتاجية، بصورة مشابهة في قسوتها ومباغتتها لما كانت تفعله في الماضي- بل واليوم، تقلبات المناخ والكوارث الطبيعية رغم أشكال الحماية والضمانات، الظاهرية أكثر مما هي واقعية، التي تقدّمها الدولة - الرحمانية-.

فالمزارعون المنتشرون أينما كان، في مزارعهم النائية المعزولة والمرتبطون بحكم الأعراف المتوارثة بطمأنينة العمال المستقلّين باتوا اليوم مرتبطين بخيوط خفية تشدّهم إلى عجلة «الدولة»، المتمثلة بينهم باستمرار من خلال قراراتها التنظيمية، وبمساعداتها الضرورية والمشكوك فيها على حدٍ سواء. وهكذا يمكننا أن نفهم كيف أن هؤلاء الناس، الذين شبّوا على النفور الشديد من الفوضى «وترك الأمور على عماها»، وهو ما يصمون به عالم المدينة الذي بنوا جميع حياتهم على رفض النزوح إليه، باتوا الآن مدفوعين، كما لو كان رغماً عنهم، إلى قيادة المظاهرات التي تصبّ احتجاجاتها جميعاً بنسقٍ موحّد عند أسوار دور المحافظة؛ وهم إمّا يندفعون إلى الحدود القصوى بتضحيات انتحارية (كما حصل على سبيل المثال في القتل المجاني لحيوانات المزرعة) تحت ضغط عنف طائش لا هدف محدّداً له بنتيجة ازدواجية القرار المتحكم بهم، وإمّا تدفعهم نزعاتهم «التي لا يمكن التعبير عنها سياسياً» إلى البوح، عند توقّف شريط التسجيل، بتعاطفهم مع رئيس الجبهة القومية التي كانت آنذاك في بداية صعودها، وهذا التعاطف يعبرّون عنه مع إطلاق تنهيدة عميقة. ويصلون إلى هذا الموقف، من بعد دورات والتفافات حذرة، مفعمة بالحرج والتشويش إلى أن تنجلي وتصبح

ضمن نطاق الفهم، حول مظالم العدالة، حول كلفة اليوم الواحد في المستشفى وكلفة الاعتناء بالمجرمين قيد الحبس، حول البطالة «التي تتلقى مساعدة زائدة»، حول الهجرة ومظاهر الفوضى في المدينة (الأمر الذي ليس لديهم عنه أية تجربة مباشرة) حول تواطؤ رجال السياسة، رغم تعارضاتهم (وقد حصلت الجبهة القومية، بُعيد سنوات من حديثنا، على 72 صوتاً في ذلك التجمّع الريفي البالغ تعداده قرابة ألف نسمة).

وهكذا، فازدواجية القرار الماثلة في بنية المشروع اقتصادياً وبشرياً هي في صلب منظومة متناقضة في داخلها، ومنقسمة تقريباً على نفسها، منظومة قوامها قابليات وآراء يحكمها التناقض، المأساوي بحق، لكنه تناقض يتخفّف من أستاره فينجلي، إنما متخفياً باستمرار، بمعنى أنه دائماً يجد تعبيراً عنه في الجزئيات، دون شك لأن كشف الأستار كلياً قد يكون فاجعاً لمن يقوم به، أو هو يداور ويناور باتجاه البدائل، مع إطلاق أفكار عنصرية غامضة، كفيلة بخداع صانعها مثل قائلها سواءً بسواء. وأفضل ما يكشف كشفاً كلياً عن التمزّق الداخلي وعن انصهار الفرد وقوف هؤلاء الوارثين المرتبطين بإرثهم أمام أنفسهم عندما يضطرون لطرح مسألة نقل هذا الإرث إلى وارث لا يريد أن يرث (أو أنه، بحكم العزوبية، لن يكون بإمكانه إكمال التوارث من بعد)، ويواجهون بداهة الاستمرار المستحيل لمشروع، هو في الأساس ما كان يجب أن يوجد أصلاً. فالابن كان لهنري ف. «نهاية» مشروع حياته بأكملها، الهدف الضمني لمخطّط حياةٍ حفلت بالنشاط والعمل حتى النهاية، مثلما هو بالنسبة له «الشرط اللازم» لاستمراره، فما بالك وهو يرى هذا الابن رافضاً لأن يخلفه في الأرض، فيرى كل شيء ينهار بضربة واحدة، ويتلاشى «معنى» وجود بأكمله، ذلك الوجود الذي إذا ما رجع به إلى الوراء رأى فيه العبث اللامعقول منذ لحظة الاختيار الأولى، وكان اختياراً بعيداً عن التعقّل. فرحيل الوارث توقيع على صك موت المشروع الزراعي- الذي بيّنّا أن أخصّ خصوصياته الاستمرار البيولوجي للعاملين فيه، أي لقوة العمل اللازمة لاستمراره وتجدّده؛ كما أن ذلك الرحيل حكمٌ في الوقت نفسه على الانتظار الطويل لحياة بأكملها، وعلى ذلك الذي عاش هذا الانتظار، وهو

الآن لا يستطيع إلا أن يشعر (دون أن يمكنه بالضرورة مصارحة نفسه) أنه لا يمكن أن يندب ابنه نفسه، هذا الكيان الآخر المجسّد له اجتماعياً والذي وضع فيه «جميع الاستثمارات»، للالتزام بمشروع محكوم عليه بالموت حسب كل الظواهر. وهكذا، فالابن الذي يرفض أن يرث تركة الأب ينجز «قتل الأب» بأرهب من الجريمة الساعية إلى أخذ موقعه، خلفاً له، أي «لإعادة إحيائه» كما يقول «رجال القبائل»، لقتله إنّما بغية تأمين استمراره، وتجاوزه من خلال الاحتفاظ به، بما يشبه الـ Aufhebung (الإلغاء) المرتّب والمعترف به اجتماعياً. على أن الابن، في حالتنا هذه، يلغي ليس القبول بالأب، والخضوع للعرف بشأن الإرث وحسب، وإنما يلغي أيضاً وخصوصاً الإنجاز الأبوي، ذلك الإنجاز الممتد لعمر كامل، لأن الإرث ها هنا يكون بأكمله تقريباً من تحصيل المورّث الذي يريد نقله إلى الوارث. فهو يضع أباه أمام اختيار من شدة الوطأة بحيث أن هذا الأب لا يستطيع ذكره إلا في حديث، وقفات الصمت فيه، وتلميحاته، ومواربته، وتناقضاته، تعمل على الإخفاء والكشف سواءً بسواء؛ فإمّا أن يدفع ابنه ليعلق بتلك المسنّنات الفاجعة التي علق هو نفسه فيها (اشتغلت بزخم واندفاع خلال سنوات عديدة وأنا أقول لنفسي: «هنا، أنا عندي مصدر رزق، والأمر يستحق الجهد»)؛ وإمّا ينقذه من ذلك القدر المحتوم مشجّعاً إياه على هجر الأرض (تركت له الاختيار. قلت له: «انتبه، توجد ملكية صغيرة؛ ويمكنك أن تشتغل موسمياً في الجمعية»). وهو اختيارٌ على جميع صغار الملاّكين مواجهته في يوم من الأيام، مواجهةً مباشرة تماماً، عندما يحضّهم الابن، بنوعٍ من الابتزاز اللاشعوري إلى هذا الحدّ أو ذاك، على شراء أيٍ من المعدات الغالية الثمن (بشأن هذا الموضوع، كان المطلوب: «جهاز التعبئة وإلاّ فلا»، فهذه الطلبات قد تبدو لازمة من خلال تخيلّ ما سيؤول إليه المشروع مستقبلاً وهذا ما يشدّ إلى عجلة المسنّنات المتشابكة)، وتحت ضغط التهديد بالرحيل.

وحده الوهم الذي ترعرع عبر التاريخ حول الفرادة المستعصية للإنسان الفرد يعيقنا عن «قراءة الأعراض» الظاهرة للعيان في التجارب التي توصف بكونها فردية، والتي يمكن فعلاً أن يعيشها الأفراد بصفتها هذه

دون أن ينتقص ذلك من كونها نتاج دمغة يفرضها على النسق الاجتماعي نوعٌ خاص من التجارب الاجتماعية المبرمجة سلفاً لتكون قادرة على التحقق من خلال مظاهر فردية متمايزة. فليس من باب المصادفة إذن إذا ما فرض أتفه الأحاديث المقبولة أغلب الأحيان نفسه، في أشد مناسبات الحياة اليومية جدّيةً، باعتبارها الطريقة الوحيدة لقول مالا يمكن قوله: إن أشدّ الأمور ابتعاداً عن الطابع الشخصيّ لا يتوافق مع التعبير عمّا هو معاش بصفتها أكثر تلك الأمور شخصيةً إلاّ لأنّ أشدّها شخصيةً كثيراً ما تكون غير شخصية، كما هي الحال هنا. ومن قال، مثل قول أولئك الذين يوضعون غالباً في وضع الشخصين اللذين حاورتهما، بأن «الأرض الزراعية عليها السلام»، فهو إنما يستخدم السبيل الوحيد المعقول، بالنسبة لأناسٍ تماهى وجودهم مع مشروع زراعي لا أمل له في الحياة والاستمرار، فيتكلّمون عن موتهم الشخصي، ويصرخون دون أن يكونوا بذلك محطّ سخرية، العبارة القلقة والحاملة للتدمير الذاتي في داخلها، والتي يرتفع بها صوت الممثل على المسرح: «أنا من الأموات».

مع مزارعين من منطقة بيارن

حديث أجراه بيير بورديو

«هذه سلسلة مترابطة، نحن مجبرون»

بيير ل.: مستقبل الزراعة سوف يزداد صعوبة أكثر فأكثر. بسبب مشاكل الاستثمار أولاً، ومن ثمّ هناك في كثيرٍ من الأحيان المشاكل العائلية. فهذه على سبيل المثال هي الحال عندي شخصياً. مشكلة الوضع الصحي تلعب دورها هنا. يعني، أنا، بسبب ضعف همتي (...) فمبدئياً يجد الابن نفسه بمفرده تماماً... على الأقل في مواجهة الأعمال الضخمة. والمزارع فوق أرض زراعية شاسعة، الإنسان الذي يعمل بمفرده لا يستطيع أن ينجز ما يريد... (...) في مدى عشر سنوات... يصبح لدينا هنا سبعة من العازبين من بين كل عشرة أشخاص (...). فلا بد أن يتمّ تحرير عددٍ كبير من الاستثمارات الزراعية. لكن، كيف ستكون عملية التحرير تلك؟

هنري ف.: لا بد أن بعض أبناء المزارعين سوف يبقون وسوف يشعرون بالحرج في اختيار الأراضي: فلن يمكنهم الاهتمام بكل شيء.

بيير ل.: لكن هل سيتمكنون من الحصول عليها؟

هنري ف.: يعني إذا كان باستطاعتهم الحصول عليها...

بيير ل.: لأنك سوف ترى... انظر إلى وضع الجار، تاجر المواشي الذي أراضيه بالاستئجار. لقد تكلمت معه. فأنا أعرفه (...) وعلمتُ إلى حدٍّ

ما المبلغ الذي يطلبه. قال لي، «أنا أعترف بذلك، فأنتم المزارعون لن يكون بإمكانكم دفع هذا المبلغ... نحن، تجار الماشية، نضع في الأرض المواشي، فهذه تسمن هناك، بينما أنتم، أنتم لا تستطيعون» ... (...) يجب «شمل المزارعين المستأجرين بالضمان الاجتماعي».

خيبة، خيبة كبيرة جداً

هنري ف.: الآن الشباب، يعني يتزوجون من فتيات لسن من... لهن وظيفة غير الزراعة مثلاً. وبالنسبة لي، لأنني مسؤول زراعي في المقاطعة، فأنا أتجادل في هذه الحكاية مع الشباب (...). أنا أقول لهم، «هذا يمشي تماماً ما دام الأهل العجائز إلى جانبهم للمساندة. لكن في اليوم الذي يصبح فيه هؤلاء الشباب- أو بالأحرى الشاب بمفرده لأن مدامته العزيزة سوف تكون بعيدة عنه- أمام الصحن الفارغ عند الظهر» : فإن كان عنده صغير يجب الاعتناء به، وهو وحده في العمل. عندها، في ذلك اليوم، لن يفيده في شيء كونه قد أراد الحصول على أراضٍ كثيرة من أجل... لأنه لن يعود بإمكانه العناية بها...

[...]

أنا زوّجت الابن منذ وقت قصير (...)، وهو لا يسكن عندنا. رحل عند الجدّة. بالنسبة لي، هذه خيبة، خيبة كبيرة جداً. لأنني كنت قد قضيت هذه السنة في ترتيب البرّاكة بعض الشيء. ففي آخر لحظة، قال لي: «زوجتي قرّرت أننا لا نستطيع أن نعيش من بداية زواجنا مع الأهل. على أنها لن تكون وحيدة في السكن، هي سوف تسكن عند جدّتها... » فهذا، هذا أصابني بالخيبة... بمجرّد أن يكون الزواج من فتاة لا علاقة لها بالزراعة، ممّن يعملن موظفات أو عاملات (...) أولئك الشباب عندهم أوقات فراغ كبيرة بالقياس مع المزارع. فتلقائياً يندفع المزارع إلى الاستقالة من عمل الأرض، أراد ذلك أم لم يُرد، فالاعتبار عنده يصبح لعطلة نهاية الأسبوع، لساعة السهر مساءً، وفي الصباح لجهنّم إذا رنّ المنبّه أم لم يرنّ

في ساعة مبكرة... هذا الواقع أصبح خطيراً. نحن، من جانبنا، إذا تمكنّا نحن وأبناء جيلنا من تحقيق شيء، فذلك لأننا لم ننظر إلى الساعة.

[...]

بيير ل.: وأين يمكنك أن تجد الفتاة المرتبطة بالزراعة؟ على أي حال، البنات وجدن أنفسهن مضطرات، حسب إمكانياتهن، لمتابعة الدراسة، في سبيل الوظيفة، من أجل... إذن هنّ لم يعدن في الأراضي الزراعية، بالكاد أنك تجد بعض الوارثات، وهذا كل شيء...

[...]

هنري ف.: أنا أفكّر بالمستقبل أكثر مما أفكّر بالحاضر، عندما يصبح الشاب فجأة دون معينٍ من أهله. (...) ففي اليوم الذي يصبح فيه بمفرده، حينذاك سوف (...) أو أنه يستقيل فعلياً، ويلحق بزوجته ذات الوظيفة (...)

بيير ل.: وماذا يفعل حينذاك؟ أي شيء لا على التعيين؟ حتى ولو أصبح سائق شاحنة... أو أي شيء. لعلّ ابن المزارع يجد عملاً بسهولة كبيرة. (...)

❖ الذهاب لسواقة شاحنة بينما يكون لدى السائق زوجة في البيت... بيني وبينك...

هنري ف.: يعني العمل الشهري هو الذي يتغيرّ...

بيير ل.: فالعمل الشهري على المضمون، عدا عن ذلك الوقت الحرّ... وقت الفراغ... إذا كانت زوجته تحرّضه...

هنري ف.: نعم الحكاية حكاية وقت الفراغ. حتى يومنا هذا لم نكن قد سمعنا عن هذا، لكن في كل يوم نزداد اقتناعاً أنه قد يكون من المفيد إحداث وزارة لوقت الفراغ، لوجود أناس (...) عندهم الكثير من وقت الفراغ. وهذا ما يجعل بعض المزارعين الشباب يستقيلون...

[...]

{في رأي بيير ل.، هذا طبيعي: فالعلاقات بين الأجيال كانت في أغلب الأحيان قائمة على التنازع الشديد.}

هنري ف.: أنا ما أوجّه إليه اللوم... لا أعلم... يعني... هو أمرٌ شخصي، بمعنى ما يحصل في البيت. فالشباب هذه الأيام أصبحوا شديدي القسوة، ولا يعبأون بكونك ضيّعت كل حياتك، فهم يريدون كل شيء وعلى الفور. مثلاً أذكر من سنتين تقريباً، كنت أريد شراء حصّادة لتأمين الحصاد على الأقل بسهولة. لا ثمّ لا، جهاز التعبئة وإلاّ فلا. لكن، جهاز التعبئة وإلاّ فلا، فيها الحكاية مليون ونصف زيادة عن الحصّادة... هم كثيرو الطلبات، ومن بعدها لا يتابعون حتى النهاية. في بعض الأحيان، كان يقول لي، «ليس إلا هذا، لا نفعل إلا هذا...». ليس إلا أن يفعل ما يريد، فأنا قرفت أيضاً. فبعد أن تقضي أكثر من... لعلّي أنا ماركة خاصة. لقد حصلت على ملكية بمساحة 22 هكتار في عام 53، خمسة منها فقط صالحة للزراعة. في مدى 30 عاماً، جعلت 18 منها صالحة للزراعة. لكن كان من اللازم التشمير عن الزنود... ففي تلك الفترة لم تكن البلدوزرات موجودة.

بيير ل.: خصوصاً أنها ليست من الأراضي السهلة.

هنري ف.: هي كلها أراضٍ أصلح ما تكون للتزلّج، لو كان يوجد ثلج. هي من الأراضي الشهيرة بوعورتها...

بيير ل.: عدا عن أنها «مخنّقة» بالماء...

هنري ف.: .... واضطررنا لتأمين تصريفها... وفي الهضاب... نحن، نحن ثلاثة نعمل على هذه الأرض، فلو كنا نكسب نحن الثلاثة فعلاً الحد الأدنى للدخل SMIG، لكان معنا الآن قليل من المال (...). ليتني انصرفت إلى إعادة التشجير بدلاً من الاستصلاح، إذن لكان هذا حقق دخلاً أفضل؛ لأننا عندما كانت الأرض مغطاة بالأشجار، لم نكن نرى الماء تحتها. فمن بعد سبع- ثماني سنوات، أصبحت مستصلحة، فطلعت لنا المياه.

[...]

عند استكمال الاستثمار، لا بد أن تستمر. هي حلقات مترابطة. وشيئاً فشيئاً، تصبح عالقاً بالمسنّنات، ومن ثم تستهلك كل جسدك في العمل. وتستسلم للتيار...

[...]

يجب فعلاً معاينة الأمر على الواقع، رؤية الأمر، لإدراكه... فالملكيات الصغيرة في الهضاب، للمحافظة عليها في وضع سليم، يلزمك عمل كثير، وهو عمل يدوي (...). الشباب يزداد عزلة أكثر فأكثر فهو بمفرده... نحن، نحن أمضينا عمرنا في بعث الحياة في هذه الأرض وفي شراء معدّات ورؤية الشباب الذين... سوى أنني، شخصياً أخاف من أمر واحد، أن يهجرونا نهائياً وبشكل قطعي، أن يستقيلوا. فأنا أشعر أنهم لم يعودوا مطمئنين... وهذا يجعلك قلقاً، لأنني أنا، أجد نفسي... في الشهور الأخيرة، صرت قلقاً... لأنني أولاً لم أكن أتوقّع أن أراه يرحل وأعتقد أنه بدأ بالرحيل (...) كي يرحل دون رجعة (...) وهذه الحالة عندنا في البيت، وهو، من بعد تقدّمه في العمر (عمره 27 عاماً)، يجب عليه أن يكون قادراً على أن يستقرّ في الأرض خلال ستة أو سبعة أعوام كي يستفيد من المساعدات المقدّمة للمزارعين الشباب، وأنا، من جهتي، أفتى من أن أتحوّل إلى التقاعد. ليس عندنا ما يكفي من الأرض لتأمين GAEC. يلزمنا ضعف المساحة... يلزم 26 هكتار تقريباً.

[...]

فهنا، هذا ما يؤسف له، نحن في منطقة وعرة، هذا نعلمه، كان المفروض على الأقل اعتبارنا منطقة هضبية. لأنك إذا رأيت مثلاً سهل أزاب (عندك عشرة كيلومترات، مسطّحة هكذا، بمجموع استثمارات في حدود 60 هكتاراً، مسطحة هكذا، وكل مستثمر عنده 70 أو 80 رأساً من الماشية، فهم يجنون منها ثروات)، في آخر التصنيف فهم منطقة جبلية. كان ينبغي إجراء كل تصنيف على حدة، لكلّ مزرعة على حدة. ففي آسّون أضخم مستودع للحليب لصالح معمل ألبان فيلكونتيل، هنا في روتينيون، 4500 ليتر حليب، في منطقة جبلية، ومن جزّ الصوف يربحون عن كل رأس 150 فرنكاً...

بيير ل.: هم يأخذون مساعدات أكثر من الآخرين.

هنري ف.: أما نحن، في منطقتنا غير المحظوظة، مثلاً، لتكن أرضي مبدأ للقياس، فما عندي فيها شبر يمكنني أن أستهلك فيه أقل من 80 ليتراً

للهكتار في الفلاحة الواحدة. (...) طلبت أن نحصل على... الوقود الأخضر (...)، أن تُرفع الضريبة على الوقود في المنطقة الوعرة كما في المنطقة الجبلية، لكن رفع الضريبة أيضاً في السهول.لأننا، نحن، نستهلك وسطياً 80 إلى 100 ليتر في الهكتار في مروج الرعي، أما في السهل فيستهلكون 25 إلى 30 ليتراً في الهكتار.

{الأرض مصنّفة إلى أربع فئات: منطقة جبلية، منطقة هضبية، منطقة وعرة، سهل. الفئتان الأولى والثانية تستفيدان من رفع الضريبة عن الوقود؛ أما المنطقة الوعرة فلا تستفيد. فإذا حسبنا ثمن 80 ليتراً بواقع 2،50 فرنك لكل ليتر يكون المصروف 200 فرنك، لكل فلاحة (تحضير الأرض). في السهل، يستغرق وقت فلاحة الهكتار الواحد ثلاث ساعات، أما في الهضاب فيبلغ ثماني إلى عشر ساعات لتحضير الأرض ومثلها للفلاحة.}

هذا الاستثمار المستمر
ودوماً يتجدّد، دوماً يتجدّد.

هنري ف.: لن يعود بالإمكان إيجاد أناس من معدننا يقبلون بالعمل لسنين عديدة أكثر فأكثر، ليربحوا بالنتيجة أقلّ فأقلّ. هذا يحصل منذ عشر سنين... الشبان الآن لن يكون لهم رغبة في هذا... هم سوف... لقد ذهبوا إلى المدرسة أكثر منّا، فلعلّ الطبيعي ألا يقبلوا هذا. هذا ما حصل. لقد رجعت إلى بعض الفواتير من عشر سنين. شيء مخيف معاينة ما حصل. في عام 73، بليتر الحليب كان يمكن شراء 2،06 ليتر من الوقود، أما اليوم بليتر الحليب الذي ثمنه 1،50، لم يعد بالإمكان شراء سوى نصف ليتر، أي ربع ما كان يمكن شراؤه في الماضي. وعندك جرّارات ازدادت قوتها أكثر فأكثر فازداد استهلاكها من الوقود أكثر فأكثر. فإذا ما أراد...

بيير ل.: نحن مجبرون. هي سلسلة من حلقات مترابطة، ونحن مجبرون. فعندما كان عندنا جرّار واحد لا غير بقوة 20 حصان، كان الأمر... - بالقياس مع زوج الثيران، كنا في السموات العليا - لكن الآن ماذا تستطيع

أن تفعل بجرّار قوته 20 حصاناً؟ لا يمكنك فعل أي شيء بالمرّة... هذا الاستثمار المستمر، دوماً يتجدّد، دوماً يتجدّد... أقلّه، كما تقول، أن يكون عند الشباب القليل من الطموح، فهم لا داعي لإجهاد أنفسهم في حساب الاستطاعة عندك في...

هنري ف.: أنا، من جهتي، عندي معدات تكفي لتشغيل مساحة 100 هكتار، أنا متأكد أن المستثمر لـ 100 هكتار في أرض سهلية لا يحتاج لجميع المعدّات التي لديّ...

بييرل.: نعم، هذا عبء زائد له وطأته الكبيرة...

هنري ف.: إذن، هي لعبة، هي لعبة. لأنني فيما مضى، منذ سنوات قليلة، كنت أستبدل الجرّار كل ست سنوات. كان هذا سهلاً، بوجود ضريبة القيمة المضافة الـ TVA ... فكنا نضيف القليل من المال، فيكون عندنا دائماً معدات جديدة. الآن آخر جرّار عندي، مضى عليه ست سنوات ونصف... وأنا غير جاهز لشراء واحد جديد، لأن الثمن خلال هذه الفترة تضاعف. فالجرّار، الذي ليس فيه أية وسيلة للراحة، هو نفسه كما كان من ست سنوات، ولكن ثمنه الآن (...). يتطلّب الأمر التفكير لتحصيل الضعف، وعلى الرغم من حذف ضريبة الـ TVA، فسوف نحصّل، لنقل مليونين من الـ TVA، لكن هذا عبء ثقيل. بينما في الماضي في السنوات التي كان الدولاب فيها يدور، حوالي... حتى الأزمة... كنت أبدّل بسهولة كل خمس سنوات... مع البال المرتاح بعدم وجود أي إزعاج... فهذا ما سوف يسوء كثيراً، فبعد وقتٍ ما، سوف تكون الأحوال مخيفة...

{الاستثمارات الزراعية التي ظلّت ناشطة قليلة العدد، تقريباً 150 (مقابل 220 في 1970)؛ من بينها ما يقرب من خمسين يُقدَّر لها الاستمرار، بوجود الوريث، من تاريخه وحتى عشرة أعوام}.

بييرل.: في هذه الاستثمارات الخمسين، هناك علامة استفهام فالحالة التي نقلتها لنا عن الشاب المستثمر والذي... الذي رِجْل في البيت، ورِجْل خارجه، ففي جميع الأحوال مثل هذه الحالة، فكأنه عازب...

❖ هل لن يكون بإمكانهم إيجاد حلول أخرى...

هنري ف.: هنا، في زاويتي قد يكون الحل في الكرمة، التي قد يكون من ورائها دخل، لكن الشباب، عموماً، لا يحبونها.

❖ لكن هذا يكلف عملاً كثيراً...

بيير ل.: نعم، هذا وقطيع الحيوانات اللبونة، فيه جهد كبير...

هنري ف.: أعرف بعض مزارعين جرّبوا إفهام الابن، أنه، باللجوء إلى الكرمة، يمكنه الراحة في الويك- إند، إلا في فترة القطاف. أما بالنسبة للمواشي فهذا غير ممكن. (...)

❖ لا توجد طريقة منظمة يمكن بها التعاون...

هنري ف.: يجب أن يكون الشخص ابن المصلحة... وموجود في المكان نفسه... لكن هذا أصبح الموضة الدارجة: فالشباب يرحلون. نحن، من جهتنا، لم نرحل. مضى على زاوجي 29 سنة أظن أنني لم أتغيب إذا ما حسبنا بالأيام (...) في 29 سنة لم نتغيّب أكثر من يومين اثنين.(...)

{إيجاد البدلاء لاستلام العمل يكلّف غالياً. والمساعدة العابرة أيضاً (أجر وضمان اجتماعي).}

هنري ف.: يجب أن تكون قادراً على القيام بالعمل بنفسك، يعني مع العائلة، وغير هذا فالأفضل ترك هذا العمل. الآن، عدد العمال الزراعيين هنا قليل جداً.

بيير ل.: أوه! فهذا باب من أبواب الترف... والرهيب في الموضوع، أنك لا تجد أحداً، رغم انتشار البطالة إلى حدٍّ كبير...

هنري ف.: البطالة يُدفع لها تعويض أكثر مما يجب - لو أن جميع العاطلين عن العمل كانوا من جماعة الحد الأدنى للراتب، فربما كانوا سيحاولون إيجاد عمل... لكن هناك فارقٌ كبير... فالعاطل عن العمل الذي يحصل على الحدّ الأدنى للأجر يجد لنفسه عملاً. لكن ذاك الذي صار عاملاً مؤقتاً... (...). يعني بسبب نقاط كثيرة معلّقة... ذاك المساء، في

الجمعية التعاونية، عندما أخبرتهم أننا سوف نأتي لمقابلتك، طلب مني رئيس الجمعية التذكير بخطة إعادة التنظيم الهيكلي لأراضي الكرمة. فهذا حبر على ورق، فهم، على ما أعتقد، أعلنوا عنه منذ بداية هذا السنة، فاندفع الشباب. وغرسوا، وهم الآن ينتظرون «الفلوس»... فكلفة غرس هكتار بالكرمة، هذا شيء يبعث على الإحباط... دائماً يجب الانتظار هكذا... طيب، الأشياء الموعودة يجب أن تحصل...

❖ متى كان الوعد، بهذا ...؟

هنري ف.: هذا متداول من عام 82. (...) والعقد مع مناطق الـ «بابيز» أيضاً. ولم نر وصول أي شيء. انطلقنا في مصاريف، في هذا المجال... ولم نرَ أي شيء. (...)

{وقفة جانبية بشأن عمل الجمعية التعاونية للكرمة في «جورانسون». احتجاج على التنظيم الريفي الذي يُلزِم بتقطير النبيذ الفائض، علماً بأنها سنة ممتازة على مستوى إنتاج العنب. والأشخاص أنفسهم يتعرضون للأذى في سنة (بشراء الفائض منهم بأسعار حقيرة) أو للعجز المادي في سنة تالية (بعد حصول بَرَد مثلاً). «فهذا ما يحرق القلب، أنك خاسر في الحالين»}.

هنري ف.: والحكاية نفسها مع الحليب. شيء رهيب تطبيقهم الضريبة علينا في الوقت الذي تنصبّ علينا كل مشاكل العالم لتحقيق الإنتاج وعندك صناعة الألبان التي تطالبنا دائماً بالمزيد من الحليب؛ هم واقعون في الخسارة لتأمين دوران عجلة الإنتاج ويصرّون على تطبيق النظام علينا... مثل أصحابنا (اللهمّ إلاّ في الجبال حيث...). عندنا هنا الطلب على أشدّه... فعندنا التعاونية الزراعية في منطقة لون (ULP). (...)

{تتفق أقوالهما بشأن التنظيمات الريفية قانونياً، حيث يصفونها بأنها ظالمة خاصةً بحق المنتجين الفرنسيين؛ وأن المساعدات الموعودة يتأخر وصولها كثيراً أو أنها لا تصل بالمرّة وأن الكثيرين يروحون ضحية لتلك الوعود. «كم عندك هنا من خائبي الرجاء... ».}

هنري ف.: أنا، ما يخيفني قليلاً، هو أنهم {الشباب} لا يريدون تحمّل الكثير من المسؤوليات. نحن، من جهتنا، اعتدنا في فترة كان شغلنا فيها بمحض اختيارنا. كما كنا... كنا نحاول أن نجاري وقتنا... هذا يؤلمني. لأنه حين يرى المرء شخصاً مثل ذاك الذي عندي.

❖ هذا أمرٌ يرتبط بالمدرسة. إلى أي عمر ظلّ يذهب إلى المدرسة؟

هنري ف.: آه، لا! لم يكن هناك سوى السنتين اللتين قضاهما في «مونتوندون». من بعدها ...

❖ كان في المدرسة حتى سنّ 16-17.

هنري ف.: حتى سن 18. لكن أظنه كان أكثر ارتياحاً عند انتهائه من المدرسة. لأنني كنت قد تركت له الخيار حينذاك. قلتُ له، «انتبه، عندنا أرض صغيرة، يمكنك أن تشتغل موسمياً في الجمعية التعاونية للحبوب وتكسب (...)». كان يريد الاحتفاظ بكل شيء. «فكر إذن، عليك آجلاً أو عاجلاً التفكير في شيء محدّد».

[...]

فكم اشتغلت بنفسٍ راضية طوال سنوات وأنا أقول لنفسي، «لديّ مورد، وهو يريد منه». لكن عندك... عندك الشباب يحرّضون بعضهم أيضاً. أحدهم لديه شيء، والآخر لديه شيءٌ آخر...

[...]

الأفكار التي تأتيني الآن، منذ... لم تكن هذه تصرفاته في الماضي، لكن منذ سنتين، حصل هذا معه مرتين في كل سنة، فيقول لي: «أنت أجدب، لماذا لم تغتنم الفرصة لتأخذ إجازة». وأقول له «ما شاء الله، لو فعلت ما كان عندك كل هذه المعدات تحت تصرّف جناب حضرتك». يعني، أنا أتذكرّ بهذا الشأن أن ابنتي عندما حصلت على البكالوريا، أحد وكلاء التأمين مرّ عليّ، «يمكنك أن تدفع لابنتك تكاليف عطلة جميلة». أدفع لقضاء عطلة؟ بالنسبة لي العطلة هي شراء أداة جديدة علاوة على ما عندي... بالمال الذي يلزم كلفة قضاء عطلة، أشتري أداة قد تجعلني أعمل

بسهولة أكبر قليلاً، يعني (...)، لأن من الآخرين من لم يشتر كل هذه الأدوات لكنه يعمل مع ذلك. أقلّ منّا. ربما كان في جيوبهم مال أكثر مما لدينا. الخلاصة، لم يكن عندهم الطموح نفسه. نحن لعلّنا... الانطلاق من لا شيء والرغبة والتصميم على فعل شيء، فهذا... هذا سيء جداً.

بيير ل.: الخطير، هو أن الأب يضيّع وقته في التفكير (...) بابنه، لأن الابن لا يرى أبداً ما يراه الأب... وعندك المحيط الذي له تأثيره...

هنري ف.: منذ سنوات قليلة ظننت أنه أصبح إلى جانبي على طول الخط، يعني، لأني عندما عرضت عليه أن يظل في الجمعية التعاونية...

❖ وزوجته، ما وظيفتها؟

هنري ف.: هي الآن موظفة في مكتب كسكرتيرة. عندها بعض التأهيل. ففتّشتْ عن عمل لكن لم تجد. والآن، هي في أمانة سرّ دار للعجزة في س. لكنه عمل مؤقت (...).

بيير ل.: هنا أيضاً، أصاب الإحباط هؤلاء الشباب الذين كان عندهم زوّادتهم من بعض التأهيل فهم... اشتغلوا... فإذا لم يحالفهم الحظ للقيام بعمل آخر، رضي بعضهم أن يتعلّق بعمله، بينما الآخرون أصابهم القرف، وهذا نهايته القيام بـ...

[...]

هنري ف.: (...) إنّما جميع الشباب الذين أخلي سبيلهم هم الآن يشتغلون بتهريب المخدّرات، إلخ.، من غير المقبول رؤية (...) عندما نرى الآن من الشباب من عنده أسلحة في بيته...

[...]

أعتقد أنهم في الحكومة السابقة، أعطوا رجال الشرطة بعض الحريّات لاستخدام السلاح، لكن أظن أنه كان من الأفضل القبول ببعض التجاوزات بدلاً من رؤية... (...) أنا شخصياً لا أفهم... عندما يقررّون وضع حاجز للشرطة، ليس عليهم إلا حسن الاستعداد، فأول مشاغب يتحرّك... (...) ليس لنا أن نصيح في وجوه رجال الشرطة (...) حتى عندما يكون

أحدهم قد أطلق رصاصة إضافية، (...) هم يدينونه. أنا شخصياً عندما أقتل خنزيراً بريّاً، فإن لم يمت من الطلقة الأولى، أناوله الثانية، وأ... وأضع نفسي مكان رجل الشرطة إذا... (...) يطلبون منّا... يوجد شيء صدمني. يطلبون (...) أجرة السرير في المستشفى لإنسان ذهب هناك للتداوي، ثم عندما نحسب كم يكلّف إيواء أحد كبار المجرمين في السجن، هذه فعلاً كارثة. الأفضل إخلاء بعض الأماكن هناك لتوفير الدفع على المواطن البسيط عندما يمرض ويضطر إلى دخول المستشفى... على أني أرى من بعيد... أنا لست من رأي جميع الآخرين. لكنني أرى بعض الأشخاص الذين يوجد أربع أو خمس قتلى برقبتهم (...) لا يمكنك أن تشفق على مثل هؤلاء الناس... فالمجتمع بأكمله هو الذي يُطاح به...

بيير ل.: نعم، نعم، البوصلة اتجاهها غلط (...).

هنري ف.: هم [رجال السياسة] من واجبهم التضامن رغم كل شيء في ما بينهم (...) إلى حدٍّ ما مثل محاميَيْن متواجهين: كل منهما يدافع عن موكّله، لكن في النهاية هما متفقان قبل المجيء إلى الجلسة. فهنا، في السياسة، يجب أن يكون الأمر مماثلاً...

❖ أحياناً يكون الأمر أسوأ بكثير في نفس...

بيير ل.: ... في نفس المجموعة.

هنري ف.: لكن مع ذلك، هناك الكثير من التساهل. مع كل ما يجري، ينبغي الاعتراف بأن المرء يفهم أولئك الذين يدافعون عن لوبان... هو، على الأقل، يقول بعض الحقائق...

1983



كان من الصعب جداً تدوين هذا الحديث، وأحياناً تعذّر ذلك، بسبب سوء حفظ الشريط الذي سُجلّ عليه.

❖ ❖ ❖

كنت قد أدرت هذا الحديث، في 1983، بنيّة غامضة الملامح، نيّة إجراء ما يشبه تجربة ثنائية الأبعاد سياسياً وعلمياً: كنت بصدد إعطاء أناسٍ أعرفهم منذ فترة بعيدة، من المزارعين، والعمال، والحرفيين، وصغار الموظفين، إلخ.، فرصة التعبير عن الضيق والاستياء العميقين، أي ما يصعب التقاطه ونقله على الأدوات العادية للتواصل بين «القاعدة» والـ «قيادات»، سواء أكان ذلك بالأفكار والتحريض من خلال المؤتمرات أو من خلال عمليات استقصاء الرأي العام. كان من رأيي بأن علاقة التحقيق التي يتم فيها التعامل مع الأشخاص الذين يتم استجوابهم عبر مستجوِبٍ يُنظر إليه على أنه قادرٌ على نقل أقوالهم إلى الجهات المعنيّة، ويستحق بهذه الصفة أن يُؤخذ على محمل الجدّ، سوف يحرّضهم على الخروج من الموقف الذي يتصّف بشيءٍ من عدم المسؤولية الذي تصفهم به التحقيقات العادية، ويجعلهم بالتالي يقدّمون أنفسهم بصفتهم ناطقين مفوَّضين، مصممين على طرح مشاكلهم، وهمومهم، ومطالبهم (مثلما فعل هنري ف. الذي كان بيير ل. قد طلب إليه أن يشاركه، نظراً لصفته «التمثيلية»، فأخذ على عاتقه الاتصال بالجمعية التعاونية للكرمة قبل المقابلة كي يكون أمامي على مستوى النقل الأمين لطلباتهم والوعود التي ينتظرون تحقيقها). وواقع الحال أنني أخذت وضعية المتلقّي كليّاً، وهذه وضعية استثنائية تماماً في الحياة السياسية وحتى في الحياة اليومية، فبنى الاثنان منطق حديثهما معي على اقتناص هذه الفرصة لقول كل ما كان يحزّ في نفسيهما: لقد فرضا عليّ، في معظم الأمور، المشاكل الشخصية تماماً في الظاهر (مثل مشكلة رحيل الابن)، وهي المشاكل التي يرزحون تحت وطأتها، والتي، إذا نحّينا جانباً بعض الأمور مثل سعر الأرض أو المساعدات من أجل الوقود، تشترك جميعها بأنها مستبعدة كليّاً من عالم الخطاب السياسي الخالص. وفي هذا ما يكشف، بالاتجاه المعاكس، عن زيف وتكلّف الإجابات، التي يقدمها «المحقَّق معهم» العاديون، بشكل من أشكال الاستخفاف، ودون بذل أي جهد للتفكير، على المشاكل التي تفرضها عليهم (وغالباً تطرح طرحاً سيئاً) التحقيقات

الكثيرة المتمحورة، مثل معظم استفتاءات الرأي، على مصالح أولئك الذين يموّلونها و«يصيغونها في أذهانهم».

لقد جاءا ونُدبا لطرح بمشاكل سياسية، وعامة، فعرض عليّ محدِّثاي مشاكل توصف بأنها شخصية أو خصوصية. فالقسم الأكبر من الحوار (لمدة أكثر من ثلاث ساعات) في ما بيننا دار حول رحيل ابن أحدهما. ورغم انتباهي، منذ فترة طويلة، لأهمية هذه المشكلة (وكنت قد وضعت في الستينات دراسة حول عزوبية الابن البكر في المنطقة)، لم أستوعب حقيقة ما كانا يقولانه لي. وهذا مردّه دون شك إلى أنني لم أجد في الأقوال التمهيدية (خاصةً بشأن «الشباب») للشخص الذي كان حاضراً أمامي بصفته «المسؤول الزراعي في المنطقة» إلا افتتاحية قسرية كان لا مهرب من «تحمّلها» قبل الوصول منها إلى «الأمور الجدية»، أي إلى ما كنت أنتظر منهما سلفاً. وأجد لزاماً عليّ الاعتراف هنا أنني لم أستطع، إلا من بعد تدوين الحديث بأكمله وتمثّل جميع ما ورد فيه بعمق، إدراك معنى ما لم يكفّ هنري ف. عن ترديده أمامي بلغة التزم فيها ضرورات التحفّظ الإعلامي، دون شك بغية المحافظة على اللياقة والكرامة، وأيضاً لتجنّب ألم اعتراف شديد الصراحة، وهي لذلك لغة صيغت بشكلٍ جيد كي توقظ الانتباه الشارد الذي نوليه لمظاهر البؤس عند الآخرين. لقد قال لي، إنما دون كلمات، لأنه لم يكن قادراً على قول هذا لنفسه، إن ابنه، بالمعنى الحقيقي، كان قد قتله. وكان لا بدّ لي من ملاحقة تسلسل الشرح، ذلك التسلسل الفريد والتعميمي، عن رفض استلام الميراث وبالتالي قتل الأب الذي أنتجه، لكي أفهم عندها، وعندها فقط، بعض الجمل من مثل هذه: «الشباب هذه الأيام قاسون جداً، ولا يأبهون بكونك ضيّعت كل حياتك» (فهنا «الشباب» استخدمت بدلاً من «ابني»، كما في جميع حديثه تقريباً)؛ أو هذه الجملة الثانية التي قالها بيير ل.؛ الذي وضعه أقل مأساوية إلى حدٍّ ما، إذ ابنه باقٍ معه في البيت، لكنه عازب، وهكذا فهو قريب جداً في وضعه من صديقه هنري ف. فلا يصعب عليه فهم مأساة ذلك الصديق، وها هو يقول: «يضيّع الأب وقته في التفكير بابنه، لأن الابن لا يرى أبداً بطريقة

الأب.» فالفهم الحقيقي لما هو مأساوي في العمق لا يمكن تحقّقه إلا بالالتفاف عليه بواسطة ما هو أبعد الأمور عن الذاتية، أي بالكلمات التعميمية، هنا، في بحثنا، ما كان بشأن تحقيق استمرار المورّث من خلال الوارث، وهو ما يندرج ضمن وحدة إطار وضعٍ اجتماعي يُخشى منه في مجمله. وليس ما يمنع من التفكير بأن النموذج المبني بخصوص حالة خاصة قد يمكنه مساعدتنا على فهم الهمّ المقيم (وهو همٌّ ليس بالطبيعي ولا الشمولي)، همّ الاستمرار على قيد الحياة من خلال الوريث أو الميراث (المادي أو المعنوي)، مثلما نراه يتجلّى في (وتحت) بعض الشروط الاجتماعية؛ أفلا يجب أن نرى فيها انتزاع الوجود بأكمله من قبضة العبث، وذلك بتجنّب انتهاء الغايات الفردية بانتهاء الفرد، تلك الغايات التي جعلت للحياة معنى (كما هو حال حماية اسم وشرف العائلة، إذا كان الفرد من النبلاء)، فهي إذا ما صارت إلى العدم والتلاشي جرّدت الحياة من معناها، الذي حملته عند خطّ الانطلاق؟

باتريك شامبانيه

السقوط

بيير ك. تاجر نبيذ في مدينة ريفية صغيرة عدد سكانها 3000 نسمة تقريباً، وتقع في شرق فرنسا. عمره يزيد عن 65 عاماً لكنه يرفض التقاعد، متعلّلاً، من بين أسباب عديدة، بالصعوبات، الحقيقية جداً، جداً، التي قد ترافق تصفية تجارته. أعرفه منذ فترة طويلة وكان لي معه، في لقاءات عديدة، من تلك الأحاديث العابرة التي تستثيرها تداخلات الحياة اليومية والزيارات العفوية أو الاضطرارية التي يدور الحديث فيها كيفما اتفق، عن حياة البلدة، عن أحوال الجو، عن العائلة، أو عن كل ما يُعتبر، من خلال نشرات الأخبار المتلفزة، «الأخبار اليومية» الوطنية. على أن المناقشات مع المقرّبين منه، من أصدقاء وأقارب، خصوصاً المناقشات المتعلّقة بمواضيع سياسية، بدأت منذ فترة من الزمن تقلّ وتصبح نادرة لأنّ خاتمتها تكون في كثير من الأحيان سيئة. هو خدوم، كريم، «قلبه فوق كفّه»، لكنه بالمقابل «إنسان حازم الطبع»، كما يقال، ولذا سرعان ما ينفعل، مطلقاً كلمات تُعتبر مُفرطة وتُحدث بعض الحرج، بل الاستنكار أحياناً («كيف يمكنك أن تقول هذا !»). ولذلك يتجنّبون الحديث معه في السياسة، تلافياً لهذه المشاحنات غير المجدية، علماً بأن كل حديث معه يمكن أن يؤدي إلى موضوع السياسة. وإذا ما انفعل، يتركونه يتكلم «النقاش معه غير ممكن » بانتظار أن ينتهي بلهجته الحادّة، من قول ما هو حريص على قوله، وما «يحفظه عن ظهر قلب» جميع من حوله.

يعطي الحديث فكرة صحيحة عن أقواله وعن طريقته في التحدث من خلال مونولوجات طويلة، دون أن يستمع فعلاً للأسئلة التي تُطرح عليه أو للاعتراضات التي يمكن أن توجّه إليه - فهو مقتنعٌ تماماً بأنه على حق - وهي مونولوجات يمكنه الانتقال فيها من الزيادة الأخيرة لنسبة ضريبة القيمة المضافة TVA على المشروبات الكحولية، إلى «الرجل والأب الطيب بيتان»، الذي كان معه كل الحق، وإلى ديغول، الذي يصرّ على التذكير بأنه «كان فاراً من الخدمة في عام 40». لقد أعدتُ تركيب هذه الأقوال كلمة بكلمة تقريباً وهو ما سمعته منه في السابق أكثر من مرّة، وهذه الصياغة الدقيقة تشكل الأهمية الأولى لهذا الحديث الذي أنقله دون أن يكون قد تشوّش بتكلّف التحقيق الصحفي، بل بيير ها هنا في وضعية تكاد تكون «طبيعية»: وقد قبل بسهولة وجود المسجّلة ثم نسيها تقريباً بعد فترةٍ وجيزة. لكن هذا لا يعني غياب كل رقابة ذاتية داخلية. فهو لن يقول مثلاً، إنّه يصوّت مع لوبن كما أنه يخفّف من معاداته للثقافة والمثقفين وهو ما سمعته يتحدث عنه على المكشوف في ظروف أخرى (أما هنا، في الحديث فيكتفي بالإشارة إلى أولئك «الذين قاموا بدراسات عليا » لكنهم يعجزون عن قراءة كشف حسابات).

وإذا كنت لا أستطيع أن أندهش فعلاً من أقواله العدوانية التي كنت أسمعها منذ فترة طويلة دون أن أفهمها حقيقةً، فأنا بالمقابل أدهشني مدى انسجامها سوسيولوجياً فور إرجاعها (وهذا ما لا يحصل في الوضع العادي أو هو يحصل إنما بصورةٍ إشكالية) وربطها بالوضع الاجتماعي لقائلها. ربما كان جميع القريبين من بيير يعلمون أن تجارته لم تعد موفّقة ومزدهرة منذ فترة بعيدة وكنا جميعاً نتشكك قليلاً في مواقفه المتطرفة (فهو «رجعي» سياسياً، «أصوليّ» على المستوى الديني، «تقليديّ» في كل شيء) ونقول إنها على الأرجح انعكاس لوضعه المهني الصعب. ولكن، للإشارة إلى هذه التصرّفات وتلك الآراء وتسميتها فالأوصاف السياسية («هو عنصريّ»، «عنده أفكار يمينية مغالية قليلاً»، إلخ.) أو النفسية («هو مزاجي»، «نزق»)، التي غالباً ما ترد عند الحديث عنه، تعبرّ عن الرغبة في دمغ الأفراد بدمغة ما أكثر مما تعبرّ عن الرغبة في فهمهم.

وهـذا الحديـث، دون كـل مـا سـواه، لا يمكـن تقديمـه كمـا هـو لأننـا نجازف، حسب وضعية كل فرد في الحيزّ الاجتماعي، بأن نجعل منه روائز إسقاطية، نعرف من خلالها ردود الفعل تأييداً أو استنكاراً لا غير. فأقواله تعبرّ- بالاستنكار الأخلاقي («كلّهم يتنصّلون ويهربون، ما عاد من احترام لشيء»)- عن سقوط اجتماعي يبدو له غير عادل. وهو، بحدّ ذاته، التجسيد الحقيقي للفضيلة المعاقَبة، فيقول، إنه (إن كان لا يعرف كيف يخرج من ورطته فما ذاك إلا لأنه «أشرف مما يلزم»)؛ وهو ليس عليه أي لوم بل ولا يشعر بأنه، في وقت ما من حياته، لم يفعل ما كان يجب فعله: فجميع مصائبه، كما يرى، برمجها له «متآمرو المالية» والـ «سياسيوّن». فكل شيء جرى التخطيط له مسبقاً، وعن قصد. وإذا كان لا يتمالك نفسه من أن ينفجر، فذاك لأنهم اغتالوا التجارة الصغيرة الشريفة بوسائل غير شريفة (فما تفعله محلات السوبر ماركت الكبرى، هذا ما كانوا يطلقون عليه في الماضي اسم الشعوذة والتحايل).

يعانى بيير من تدهور اجتماعي جاءه بثلاث صيغ مختلفة. كان وجيهاً هاماً في منطقة، ولم يعد اليوم سوى مواطن عادي من بين مجموع سكان البلدة. وكان تاجراً غنياً، فأصابته محلات السوبر ماركت بالإفلاس. وكان، أخيراً، يبيع نبيذ المائدة، المشروب النبيل، سابقاً، والعابق بروح وطنية صوفية، بل وحتى قومية (كان آنذاك المشروب الذي ساعد، على الأقل كما يتخيّل أبناء الشعب، «ذوي الشوارب في الأعوام 14-18»على الصمود وعلى كسب الحرب)، أما اليوم فقد فقد قيمته، حتى بات أحياناً موضع الازدراء (« الأحمر الفجّ») واستُبدل في الاستهلاك اليومي بالمشروبات التي هي، في نظره، أقل فرنسيّة، مثل الكوكاكولا أو الويسكي، أو الأقل طبيعية مثل عصير الفواكه المجفّف.

كان وارثاً عن أهله، ولكنه مع ذلك استلم الميراث دون حماس. فلم يكرّس أبداً كل الطاقة والوقت اللذين كان يجب تكريسهما لتجارته، مفضّلاً قضاء الساعات الطوال في ورشته الميكانيكية، ممارساً هوايته الحقيقة في

تصليح ما تيسرّ من الأدوات. والمشروع العائلي، عندما استلمه، منذ ما يقرب من 40 عاماً، كان في الواقع من أهمّ مشاريع المنطقة. فتجارة النبيذ، في ذلك النطاق الزراعي الفقير حينها، الواقع على مقربة من كروم الشامباني الغنية، كانت مجالاً مزدهراً غاية الازدهار: كان هناك، بعد الحرب، ثمانية تجار في المنطقة (اثنان منهما في بلدته نفسها). أما اليوم فلم يعد هناك سوى اثنين، و، عشية تفكيره بالتقاعد، ها هو يكتشف- وهو ما كان يعلمه الجميع على أي حال، إلى هذا الحد أو ذاك، ومنذ فترة طويلة- أنه عملياً في وضع الإفلاس. فمنذ سنوات عديدة، لم يعد يمكنه الصمود إلا «بالإنفاق من أصل رأس المال» وبالاعتماد على المدّخرات الشخصية لزوجته (التي تدفعه، قدر استطاعتها، للانسحاب والتقاعد). وبينما كان يتنقّل في شبابه مستخدماً سيارة «هوتشكيس» فخمة اشتراها أبوه، هاهو اليوم يتنقّل في سيارة عتيقة مهترئة «أم حصانين» 2CV.

وقد بدأ سقوط هذا الولد الأصغر المدلّل لعائلة من أربعة أطفال منذ شبابه، حين رفض، على الرغم من تحريضات والديه، إنهاء دراسته الثانوية وتزوج، قبيل استلامه للمشروع، صبيّة منبتها من عائلة عمالية في البلدة. ورغم وقوف زوجته بنشاط إلى جانبه، لم يمكنها أن تؤمّن له رأس المال ولا الكفاءة (فهي لم تدخل المدرسة) اللذين كانا لازمين ليقوم بنجاح بالتغييرات الجذرية ولمساعدته في المحافظة على النشاط التجاري في قطاع اهتزّ اهتزازاً عنيفاً بتبدّل العادات الاستهلاكية ومنافسة أسواق السوبر ماركت. ولم تكن تلك حالة أخيه البكر، الذي استلم هو الآخر تجارةً للنبيذ في بلدة صغيرة واقعة على مسافة ما يقرب من ثلاثين كيلومتراً من المشروع العائلي، وقد استطاع التخلّص من التدهور بزواجه من ابنة عائلة فلاّحيّة غنية في المنطقة. أخته، هي أيضاً، نجحت اجتماعياً: فمن بعد دراستها الثانوية (وهو ما كان نادراً بين الفتيات آنذاك)، كان من حظّها «زواجٌ موفّق» من بائع تحف أثرية سليل عائلة معروفة من العائلات البورجوازية في مدينة ليون (وزواجها آخر زواج عظيم الأبهة في تلك البلدة الصغيرة وذكراه ما تزال في أذهان

الناس): فصعودها الاجتماعي، الذي تَمثّل رمزياً، من بين أمور كثيرة، بالمسكن الإضافي الفخم الذي استطاعت الحصول عليه في الجنوب، لم يكن من شأنه إلا أن يعمّق لدى بيير وعيه لسقوطه الاجتماعي، ويجعله أقلّ احتمالاً، وهو الذي كان يلتقي بأخته بشكلٍ منتظم، خصوصاً في العطل.

على أن هذا السقوط إنما هو سقوط مهنة بأكملها وشكل كامل من أشكال التجارة. فتجارة النبيذ، التي كانت مرتبطة أوثق ارتباط بالحياة التقليدية في الأرياف، عانت مثل لسع السياط من صدمة معظم التغيّرات الكبرى- الاقتصادية والثقافية- في فترة ما بعد الحرب، وجميع هذه التغيّرات كان من نتيجتها الغياب الكلّي تقريباً لأنماط الحياة القديمة، وفي الوقت نفسه، تحطيم هذه المهنة بصيغتها القديمة. لقد هاجر أبناء الريف تدريجياً ممّا أنقص عدد زبائن المقاهي- المطاعم في الريف، وترافق هذا التطور وتدعّم بالانطواء العامّ على جوّ الأسرة. وهكذا تباطأ نشاط هذا الصنف من التجارة تباطؤاً شديداً، واضطر معظم التجار إلى التلاشي. والاحتفالات الريفية، التي تمثّل إحدى أواخر المناسبات لتكريم فئة يزداد تمزّقها يوماً بعد يوم، تشكّل اليوم إحدى اللحظات القوية النادرة اقتصادياً واجتماعياً على السواء لهذه التجارة عندما تكون لا تزال موجودة. وطيلة فترة طويلة، كانت هذه الاحتفالات المحلّية القناع الذي أخفى عن بيير، جزئياً، سقوطه، لأنها كانت إحدى المناسبات النادرة التي يستطيع فيها أن يشعر أنه ما يزال لازماً وضرورياً، بل ولا يمكن الاستعاضة عنه بأيّ بديل: فهو يُنفق حينذاك دون أن يحسب وقته وطاقته، ويقدّم المشروبات، ويُعير بهذه المناسبة الطاولات والمقاعد الطويلة (التي يسمّيها في كشوف حساباته «زينة الاحتفال»، وهو ما يسبب له نزاعاً صغيراً مع مصلحة الضرائب)، إلخ.

علاوة على ذلك، كان على تجارة النبيذ، شأنها شأن تجارة المفرّق، مواجهة منافسةٍ اقتصادية تتمتع بقوةٍ استثنائية. فالتوجّه الفردي المتزايد في استهلاك المشروبات تولّته بشكل رئيسي شبكات التوزيع الجديدة التي

توسّعت في السبعينات، وخصوصاً شبكات المخازن الكبرى- السوبر ماركت. (فقد افتُتحت ثلاث صالات كبرى عام 1992 في البلدة التي يسكنها بيير). وهو يندّد تنديداً عنيفاً بالمخازن الكبرى التي، من وجهة نظره، تمارس منافسةً غير شريفة. وينتقد عدم كفاءة البائعين وأساليب الإدارة التي لا ترتكز إلى إدارةٍ شريفة كالتي يقوم بها ربّ أسرةٍ صالح، بل إلى « التآمر المالي» («فما عادوا تجّاراً، إنما هم مموّلون»).. لقد تغلغل النظام الرأسمالي المالي في منظومة التوزيع، وتحوّل المنطق الاقتصادي والمالي فجأةً إلى الاستقلالية المتزايدة، وما كان لهذا التغيير إلا أن يصدم قيمه الأخلاقية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتجارة الريفية التقليدية. وهاهو يعود، بشكل طبيعي تقريباً، إلى الاتجاه المعادي للسامية في انتقاده للرأسمالية المالية، أو في التنديد، بمنطق إيجاد كبش فداء، بالجمعيات الماسونية التي يصل تأثير نشاطها حتى إلى قلب الوسط السياسي.

يجسّد بيير تجسيداً تاماً التاجر الريفي التقليدي. فهو ينتمي، ويفخر بهذا الانتماء، إلى عائلة تجارٍ استقرّوا في البلدة منذ أكثر من قرن من الزمان، أمّا المخازن الكبرى التي توزّعت ضمن دائرةٍ لا يتجاوز محيطها كيلومترات قليلة، فيتولّى إدارتها مدراء يتغيّرون باستمرار، ويحتلّ بيير منذ بداياته وحتى تاريخه مستودعاً قديماً في عمق باحة داخلية، فزبائنه الدائمون هم حصراً وتحديداً من أبناء المنطقة. وقد تكدّست البضاعة في محله في فوضى كبيرة. وترى في تحرّكه مشية المتمهّل الهادئ الذي لا يستعجل أبداً. الزمن لا يكلّف شيئاً بالنسبة له، فلماذا يحسبه، يستوي في ذلك زمنه وزمن زبائنه، الذين يتوجّب عليهم في كثيرٍ من الأحيان الانتظار إلى حين تلبية طلباتهم. ولم يتمكن النشاط التجاري الذي يمارسه أن يستقلّ في يومٍ من الأيام استقلالاً كاملاً عن العلاقات الشخصية التي تربط بينه وبين زبائنه: فهو يتأخر في إرسال الفواتير إليهم وهم بدورهم يتأخرون أكثر في دفعها دون أن يخطر له أن يتشكّى من هذا، مقدّماً إليهم على هذه الصورة قروضاً مجانية، وتاركاً لزوجته مهمّة التحصيل عندما يبالغ بعض

الزبائن. وأخيراً، فهو ميّال إلى التكتّم بما يخصّ إدارة مشروعه، ليس بغية إخفاء عمليات مشبوهة، لكن لشعوره بضرورة إفساح هامش من الغموض حول الدخل الذي يحصل عليه. باختصار، فهو جزء لا يتجزأ من تجارة تدور اليوم رحاها باتجاه الخسران و الضياع، ويجد دائماً سبباً وجيهاً لتأخير موعد تقاعده رغم أن زوجته تدفعه إلى الانسحاب.

وتثور ثائرته على الدولة التي لا تكتفي بأن تدفع للموظفين من أموال الضرائب، وهم في رأيه عديمو الفائدة وأعدادهم أكثر مما يجب، وإنما تمارس أيضاً علاوة على ذلك، إعادة توزيع لهذه الأموال في غير وجه حق: {ففي الماضي} «لم نكن ندفع الـ RMI، لم نكن ندفع هذا، لم نكن ندفع ذاك. هم مبسوطو اليد كل البسط في الحقل الاجتماعي، (فيزيدونها) فعلاً» .لا يعرف بيير إلا ما يمكن أن نسمّيه «الدولة الشريرة»، الدولة التي تسبب الدمار والإفلاس للتجار بالأعباء الاجتماعية الثقيلة، وتبتز و تختلس أموال المواطنين الصالحين بالضرائب، الدولة التي تجعل من «الدعاية» المعادية للنبيذ سياسة لها، رغم أن النبيذ نصح به - كما يقول - العالم باستور، أو هي الدولة التي تضطهد دافع الضرائب الشريف بمراسيمها المحكومة بوسواس التطبيق الحرفي. والتشدّد الأخلاقي الذي دمّر تجارته اقتصادياً يقوده إلى منازعات، خاسرة سلفاً، مع الإدارة الضريبية وهذا لا يمكن إلا أن يعمّق حقده وكراهيته حيال الدولة، والسياسيين والبيرقراطيات. وهو يرى، على أي حال، بأن وجود وزارة المالية في بيرسي، على موقع سوق النبيذ القديم، إنما يحمل ما يشبه الدلالة الرمزية. ورغم أن العديد من التعديلات في تجارة المشروبات لا علاقة لها إلا قليلاً، وأحياناً بالمرّة، بالتدخل الإرادي المقصود للسياسيين، فالإغراء كبير لدى أولئك الذين هم ضحية لها، كي يحمّلوا الدولة ورجال السياسة المسؤولية عن جميع المصائب.

هو مندمج اندماجاً قوياً بالحياة المحلية، وبالتالي فهو سجين العادات والقيم التقليدية، ولذلك فقد عانى، دون أن يفهمها حقاً، من التحوّلات التي أصابت مهنته والمجتمع الريفي. وهكذا، فقد رفض، على سبيل المثال،

التشارك مع تاجر آخر من المنطقة لشراء النبيذ بكميات كبيرة من المنتجين لأنه لم يكن يريد أن يختفي اسمه في المعاملات التجارية. وبتحويله لعجزه عن التغيّر إلى اختيارٍ انتخابيٍّ في الماضي، فلم يكن بإمكانه أبداً أن يتحلّى بالقدرة على التنبؤ بالتغيّرات - وهذا ما يقوله، إنما إنكاراً، عندما يردّد أن «كل هذا كان متوقعاً»-، كما لم يستطع اتخاذ القرارات اللازمة للصمود في هذا القطاع. وحتى هذا اليوم، مازال يتكلم عن التغيرات السالفة كلاماً مبهماً، والاستراتيجية الوحيدة التي يتبناها، «لو كان عليه الرجوع من البداية»، مازالت هي، على وجه الخصوص، أنه ما كان ليفعل أي شيء. ولا يدلّ عجزه على افتقاره إلى بعد النظر: فهو يعرف جيّداً الآليات الاقتصادية التي انهالت ضرباتها على تجارته (وقد اقتطعنا كثيراً من تحليلاته التقنية جداً أثناء الحديث). هو لا حاجة به لفهم ما يحصل، لأنه يعلم ذلك سلفاً. إلا أن كل شيء يدفعه إلى رفض هذه التحوّلات ويقوده إلى دمار يعلم أنه لا مهرب منه.

ويطرأ على قريته التحول حتى ليصعب التعرف عليها، فهو لم يعد يشعر فيها أنه بين أهله و إخوانه. ويسيطر عليه الشعور بأنه ضحية غزو من الغرباء الذين يرى فيهم علّة شقائه (هو لا يعرف المهاجرين الذين يثور عليهم إلا من خلال الأحداث المتنوعة المبثوثة تلفزيونياً). ولذا تراه يؤمن بحراسة الحدود التي تحمي و تطمئن. وهو مع إعادة إقامة الحواجز المادية، ويأسف، مثلاً، لسقوط «جدار برلين» الأمر الذي يخشى أن يفسح الطريق لتدفق الروس على أوروبا، ومن بعدها، مجيء «الوباء الأصفر». هو مع إعادة تأسيس الحواجز الأخلاقية، وإذ ينـدّد بالحقوق المتجددة باستمرار والمطالَبِ بها، فهو يقدّر أن من الأفضل التذكير بالواجبات والالتزامات التي، في رأيه، هي الوحيدة التي تسمح بتحديد التطلعات تحديداً معقولاً.

وقد كانت أقواله العنيفة متناسبة مع عنف المجتمع، خصوصاً السياسي والاقتصادي، وهو العنف الذي حل به وقاسى منه والذي، يوماً بعد يوم، دمّره وأصابه بالإفلاس هو، وزوجته أيضاً، وقد وصل الزوجان مراراً

إلى حافة الانفصال. لقد سجن نفسه داخل مفهوم الرجل الفحل المسيطر، الذي يعلم كل شيء ولا يحتاج، خصوصاً، لأن يتلقّى دروساً من النساء («النساء الصالحات لا يفهمن شيئاً» هذا ما قاله لاحقاً في الحديث أثناء ظهورٍ خاطفٍ لزوجته)، وهو بهذا لم يحسن الإصغاء إلى ما كانت تشير به زوجته عليه منذ فترة طويلة («عنيد عناد البغال»، هذا ما تردّده في اغلب الأحيان)، واضطر إلى أن يواجه بمفرده وضعاً متأزماً كان يتجاوزه. ولقد اكتفى، خاصةً، في إطار ذلك المجتمع الريفي الصغير الذي لا يغيب فيه شيء عن كائنٍ من كان، بالتنديد بالإجراءات النادرة التي اتُخذت في صالح التجارة وهو يقارنه بالمساعدات الهامة التي قُدّمت إلى المزارعين كي يتمكنوا من تحديث عملهم. فكيف يمكنه ألا يكون على يقين من أنهم «فعلوا كل شيء» من أجل أن «ينفلق التاجر ويخلي الساحة» وكيف يمنع نفسه من التفكير بأنه «لم يعد باقياً أمامه إلا تناول الحبل ليشنق نفسه»؟

مع تاجر ريفي

حديث أجراه باتريك شامبانيه

«نحن، اغتالونا»

❖ عندما أخذت موقعك {في بداية الخمسينات}، هل كان لتجارة النبيذ أهمية في نظرك، وهل كنت تراها ذات ديمومة، كيف حصل معك ما حصل؟ ومتى بدأت تشعر أن الأمور في تدهور؟

بيير: كان من المناسب استلام تلك التجارة والاستمرار فيها. كانت مهنة متماسكة، تقف على قدميها بقوة. أما الآن، فتوجد سياسة ضد النبيذ، ضدّ استهلاك الكحول، وقد استندت السياسة المعادية للكحوليّة ضدّ النبيذ وليس الويسكي أو باقي المشروبات الروحية، ومن ثمَّ شهّروا بالفرنسيّ باعتباره أكثر المدمنين رسوخاً في العالم قاطبة، متناسين المدمن الروسي، أو المدمن الأمريكي على الويسكي و البيرة. وفي جميع التشخيصات للإدمان الكحولي، لم يأخذوا أبداً بعين الاعتبار استهلاك البيرة، بحيث ظهرت فرنسا أكثر بلدان العالم إدماناً. فلو أخذوا استهلاك البيرة بالحسبان، يعني، ما كنا ظهرنا أسوأ من أي بلد آخر.

❖ تقصد أن الأمر بدأ يسوء شيئاً فشيئاً في هذه التجارة، مع الحملات الدعائية لمحاربة تعاطي المشروبات الروحية في ظل حكومة منديس؟

بيير: أي نعم! منديس فرانس! كان على رأس مهزلة حدّث ولا حرج، وهو الذي بدأ بإنشاء مصنع للحليب في منطقة تورنوس. وأنا رأيت المصنع وهو يُبنى في عام 56. وبدأوا يقدّمون الحليب في المدارس وفي الجيش، لكن خانهم التوفيق. فالمصنع الذي أنشأه هناك، كان محض حلمٍ مجنّح تسيطر عليه فكرة ثابتة لا علاقة لها بالواقع، إذ أن منطقة السون واللوار لم يكن باستطاعتها إمداد المصنع بحاجته الكاملة، فتوجّب جلب الحليب الطازج من الآردِن ومن جميع المناطق الأخرى حيث يتوافر البقر الحلوب. وهذا معناه أن الحليب الطازج الذي كان يصل إلى المعمل يكون قد حُفظ لمدة ثلاثة أيام، فهو لا يعود طازجاً بالمرّة. من بعد هذا، وضعوا تشريعاً، بشأن الحليب، يمنع بيع الحليب الطازج في البلدان التي يقلّ عدد سكانها عن 3000. وهم اليوم يسقونك الحليب الخالي أو نصف الخالي من الدسم، بينما الحليب الطبيعي الطيب، الخارج من «بزّ» البقرة، لم يسبّب الموت أبداً لأي إنسان. ولم يكن عند المواطن نسبة كولسترول أعلى مما هي عليه الآن. وعلى أي حال، ففي يومنا هذا، لم يعد في زاويتنا أية بقرة حلوب. لقد اختفى البقر الحلوب، لأن الاتفاقات الأوروبية كان من شأنها إغراق السوق بالحليب (....) فكانوا يبيعون حليب البودرة إلى إيطاليا من أجل تربية العجول الفرنسية. ومع معونة من أجل التصدير! ومتى قلت معونة، فحدّث ولا حرج عن الفهلويات وتنافس مراكز القوى، في بعض المستويات، بين الناس المسكين بمقاليد اتخاذ القرار.

هذه هي النهاية، فرنسا في حالة إفلاس

❖ هل يمكنك أن تحدّد متى بدأت تجارتك بالتدهور؟

بيير: أوه! يمكن بكل سهولة تحديد كل هذه الأمور. كان هذا متوقعاً. فالعسكري الجيد هو سياسي رديء، صحّ أم لا؟ والسياسي الجيد اقتصاديّ رديء. هذه «الشوربة» التي غطسنا فيها - أقول شوربة، لأنّنا لسنا الوحيدين، بل كل شيء {في كلّ مكان}. على أننا لا يجوز أن نُجري مقارنة مع البلدان الأخرى، نحن علينا أن نرى ما يجري في فرنسا. فلم يكن أسهل

عليهم من أن يقولوا، «أغلقوا مصانع الحديد، فالأفضل شراء الحديد من بلدان أخرى بدلاً من إنتاجه محلياً، لأنه يكلّف كثيراً عندنا». هذه مناقشة منطقية قائمة على المغالطة بالتبسيط. وهي ليست سياسة يمين أو يسار، هي قضية أفراد ارتأوا اتخاذ قرارات. فخلقوا العاطلين عن العمل، الفلزّ ما يزال موجوداً في ترابنا، لكننا لم نعد نحسن استثماره. خلقوا كل هذا وها نحن اليوم ولم يعد لدينا ما نفعله، وكل ما يبرعون فيه إخراج النقود ليشتروا بها من الآخرين. من اللازم معرفة المطلوب! نريد أن نشتغل أو ألاّ نشتغل.

❖ لكن، تجارتك أنت بالذات، يعني، متى شعرت..؟

بيير: عظيم، يعني أنا، تجارتي من أبسط ما يمكن، فقد تطوّرت في اتجاه معيّن، مثل كل ما يتطوّر وهذا طبيعي إلى حدٍّ ما. لكن اقتصاديينا أخطأوا في حساباتهم، أو هم، على أقل تقدير، قاموا بهذه الحسابات في ظل منظومة شاءوا لها تعطير قسم من الناس على حساب جميع الآخرين السائرين في طريق الانهيار، بل هم انهاروا. ليسوا في طريقهم إلى النهاية، بل هم انتهوا. هذه هي النهاية، فرنسا في حالة إفلاس في وقتنا هذا، بعد أن اصبح بإمكانها جرّ القدمين نحو أوروبا لتطلب من أوروبا أن تتولّى أمورها لأنها غير قادرة على إدارة أمورها بنفسها والآن من المستحيل معاودة النهوض. من اللازم ما لا يقل عن عشر سنوات، إذا مشت الأمور على ما يرام، وإذا أراد الجميع العمل من جديد، لإعادة إنهاض الموقف على قدميه، وهذا، أنا غير مؤمن به. كل ما حصل كان متوقّعاً. أما أولئك الذين لم يتوقّعوا هذا! ولم يتنبّأوا به فمن الواجب إعدامهم بالمقصلة. من الواجب «درزهم» بالرصاص. لأنهم كانوا يعلمون ماذا سيحصل.. أو أنه لم يستمع أحد لرأيهم، أحد احتمالين لا ثالث لهما.. فلعلّ إشارة الخطر وصلتهم، ولعلّهم قالوا، «أوه أما انتهينا من هؤلاء المجانين العتيقين.. هؤلاء الرجعيين المتخلّفين، فالمستقبل هو..». المستقبل عليه أن يمشي هكذا، فلا يجوز الوصول إلى السقف، لأنك عند السقف، تصبح في بداية الهبوط المتدحرج. وها نحن الآن و قد «سقّفنا»، وها نحن وأنوفنا في طريقها للتمرّغ بالتراب. هذا بسيط جداً، هه.

❖ أنا أسألك عن تجارتك أنت بالذات، متى شعرت بذلك؟

بيير: إيه، يعني، تجارتنا، هوجمت- أقول عن عمد هوجمت- بالنبيذ. فهم «قرّفوا» الناس من شرب النبيذ.

❖ في أية فترة حصل هذا؟

بيير: آه! عندك منظومتان. منظومة للدعاية تُثمر جيداً. ومتى قلت دعاية، فأنت في حقل الإعلان. لقد دعموا سياسة عصير الفواكه المصنوع لا من عصير الفواكه الحقيقي، إنما من الفواكه المجففة، المحوّلة إلى مسحوق، المجففة بالتجميد، التي نضع الماء داخلها و«نعبّها» هكذا، التي إن وضعتها في زجاجة، ثمّ نظرت إليها تحت عدسة المجهر بعد ثلاثة أيام، تجد الجراثيم تملؤها. هذا ممتازٌ للأمعاء، لأولئك الذين لديهم نوعٌ من الكسل من هذه الناحية، فهي فعالة! لكنها ليست طبيعية. بدءاً من اللحظة التي تأخذ فيها حبّة فاكهة وتعصرها، وتضعها في كأسك، فإنّك تستهلك شيئاً طبيعياً. أما إذا أخذت مسحوقاً ووضعته في الماء...، أثناء تناول الناس لهذه القذارات، يعني! ما عاد أحد يشرب أي مشروب آخر، مثل نبيذ المائدة. هم قرّفوا الناس من شرب النبيذ عندما أطلقوا عليهم اسم: مدمنين على الكحول. لقد انتبهوا إلى الخطأ الذي وقعوا فيه، وفي عام 78، اتخذ جيسكار ديستان قراراً بنشر الدعاية للنبيذ(...). وقد فُرضت ضريبة سنتيم واحد لتمويل الدعاية الموجّهة لإعادة الروح إلى استهلاك النبيذ، بعد أن أمضوا عشرين سنة وهم « يخبطون» على ظهر النبيذ لأنه كحول وسُكْرٌ وعربدة! وكان هذا قولاً مغلوطاً. خذوا ما كتبه باستور، فالنبيذ جزء من النظام الغذائي. وهو مثل جميع ما سواه، فإذا أفرطت في شرب الويسكي، سكرت. وإذا أفرطت في شرب النبيذ، أطاشك السكر، وهذا لا يعني أنك مدمن. ثم، هم غيّروا طريقة التوزيع، ومع هذا التغيّر لم يعد الناس يأكلون في المطاعم الصغيرة. فهذا المطعم - المشرب تدحرج منقلباً ثلاث مرّات. فهو يأخذ أسعاره معفاة من الضرائب {على المشروبات التي يشتريها}، فيضاعف سعر البيع ثلاث مرّات. وهو مجبر على هذا لأن هذه المشروبات

في تصنيف الأعمال التجارية تُستوفى منها في النهاية ضريبة على أساس ثلاثة أضعاف السعر المعفى من الضريبة الذي يدفعه التاجر أساساً. أما الناس عموماً، فوُجّهتهم إلى المخازن الكبرى لبيع الكحول التي هي أقل سعراً حتى من مصدر الإنتاج، يستوي في هذا الريكار والويسكي. هنا أيضاً لديك نشاز فظّ معيب. وعبثاً يحاولون التستّر باسم الشراء بالجملة، أو كيت، أو كيت، فهذا غلط في غلط(...). فهل تتكرّم وتشرح لي كيف يمكنهم بيع الويسكي حتى بكميات كبيرة بهذه التسعيرة المنخفضة؟

❖ لابد أنك تعرف، أنت، كيف يتمكّنون من هذا؟

بيير: كيف يفعلون؟ على عيني، فلا بد من استمرار نص عتيق من القانون السابق لعام 68، قبل تعميم الـ TVA. {شرح لي التشريع المالي الشديد التعقيد حتى أن النواب أنفسهم، في رأيه لا يعرفونه معرفة صحيحة.} باختصار، أقول لك إن المشكلة هي في أولئك الذين باضوا بنود تشريع دون أن يعلموا كيف يمكن تطبيقه. وهم لا يعلمون هذا حتى تاريخه(...). فالمخازن الكبرى لا تدفع الـ TVA في مديرية الضرائب في المحافظة، بل يدفعون مباشرة إلى وزارة المالية حيث لا يدري أحد كم يدفعون(...). قد يكون للمخازن الكبرى مستحقّاتها من الـ TVA أو امتياز ما على التجارة التقليدية، وأما نحن، فعالقون في الفخ... والعامل المأجور عالق مثلنا، فهو... بالمختصر، يشتري الآن كل ما يلزمه من السوبرماركت فمنذ 15 سنة -لأن تاريخ هذا، حكاية عام الـ68، يعود إلى 15 و20 سنة) - بدأ افتتاح المخازن الكبرى في 68... 69 أو 70. وفي ذلك التاريخ، تبيّن لي بالاستقصاء، وجود شطارة الـ 20٪ على الـ TVA.

[...]

المخازن الكبرى، أنا اسميّها «الوكالات الاستعمارية»

❖ إذن، أنت، من بعد الـ 68 حصل معك...

بيير: بعد الـ 68، كان.. «الخرى». نعم، «الخرى» بسبب تعميم

الـ TVA. فمن جهة، خسرت مراكز الأقضية ضرائبها المحلية. لم يستعد رؤساء البلديات ميزاتهم أبداً. علاوة على هذا، في الأرياف، اضطر جميع صغار التجار للهرب، لأنهم خضعوا من بعد عامي 72 أو 73 للتأمين الإلزامي بحسب الضمان الاجتماعي. فاصبح على السمّان الصغير، أو الفرّان الصغير، أو اللحّام الصغير الكثير من الالتزامات الباهظة، بحيث لم يعد بإمكانه حتى أن يؤمّن لقمة العيش. كان يمكن له أن يعمل عشر ساعات أو 12 ساعة يومياً، وحين ينتهي من الدفع - أحياناً كانت امرأته تعمل معه - لا يتبقّى بحوزته حتّى راتب شخصين في نهاية العام حين ينتهي من دفع الضريبة المهنية. (...) حسناً، حسناً، كل هذه الأمور قلبت الأحوال رأساً على عقب، ثم اختفى كلّ شيء. وحين بدأت تظهر المخازن الكبرى بعد بضع سنوات، وجد صغار التجار أنفسهم مضطرين، إمّا بسبب العمر أو لأسباب مالية، بسبب نقص المبيعات... وفي مطلق بلدة صغيرة كان عندك الفرّان الصغير وما شابه من الخدمات. كان عندك كل ما يلزم لتموينك في متناول يدك، عند باب الدارّ، عظيم، فالآن تدوخ في ست أو ثماني مناطق قبل أن تتوفّق بتاجر في هذه الزاوية أو تلك. لقد فرّغوا كل شيء. لقد وضعوا الضريبة من أجل هذا، يعني تحديداً (...) لأن هذا كان مخطّطاً له «و على الدوزان» لدى اقتصاديينا، أن «الوكالات الاستعمارية»- أعني المخازن الكبرى فأنا أسميها «الوكالات الاستعمارية» - أن الوكالات الاستعمارية سوف تلتهم جميع صغار التجار حتى لا يستطيع أحدهم في النهاية أن يبيع تجارته. وحينذاك تدفع هذه الوكالات الاستعمارية ضريبة الغرض منها توفير دفع تعويض للتاجر الذي يصل إلى سن التقاعد ولا يبيع تجارته. إذاً، من البداية كانوا يقدّرون لهذا العجوز أن «يفطس» و«ينقلع». والمبدأ نفسه بشأن صنف تجار النبيذ، إذ قدّروا لهم أن يفطسوا وأن ينقلعوا. لقد نظّموا سياسة معادية للنبيذ، والدليل على ذلك في باريس، حيث النبيذ هناك... لأنّ تجارة النبيذ كانت طاقةً كامنة، بشراً، شيئاً قائماً بذاته، تديره المؤسسة المختصة، وتدرّ الأموال على الدولة. سوق النبيذ، لقد بدأوا سياسةً ضدّ النبيذ... لقد قاموا بسياسةٍ ضدّ النبيذ، لكن هذا الأمر أفادهم للإستيلاء

على مساحات كبيرة (من الأرض) في باريس. فطار أول ما طار سوق هال النبيذ الذي بنوا فوقه المدرسة الطبية {في الواقع قام هناك بناء كلية العلوم}. معي في هذا؟ ثم استمرّ دوران الدولاب، إيه فعندك اليوم بيرسي، التي جُعلت مجمّعاً رياضياً، ثم تابعوا في بيرسي فانشأوا وزارة المالية. أي نعم، أجهزوا إجهازاً تاماً على مهنة بأكملها كي يشيّدوا وزارة المالية على طرف من نهر السين، وتقابلها في الطرف الآخر المدرسة الطبية {يستطرد حول الطب}. إذن، بالطبع، الطبّ هو أيضاً نظام... لديك شبانٌ صغار، ولا تعرف ما الذي تفعله بهم، تجعلهم يقومون ببعض الدراسة، تجعل منهم... نبدأ بالطبّ البيطري، هو أقوى، فالطبيب البيطري كي يصبح طبيباً، يجب أن يقتنع بهذه المهنة. إن لم ينجح في الطب البيطري، بإمكانه أن يتحوّل إلى الطبّ البشري، {وإن فشل} في الطبّ البشري، بإمكانه أن يدرس طبّ الأسنان، و{إن فشل} في طبّ الأسنان، يمكن أن يجد نفسه معالجاً فيزيائياً، ثم ينتهي الأمر بهذه الصورة، ربما صيدلانياً. {الأطباء} آلة توقيع، فالضمان الصحي هو من يدفع الفارق! إن كنت مريضاً، فالضمان! حين كنا نمرض، ولم يكن هناك ضمان، ربما لم يكن الأمر أفضل، لكن كان الأمر مبالغاً به جداً (...). لو كان الطبّ مجانياً، لكان لديك طبيبك الذي يعالجك، ولكان عدد الأطباء أقل، لأنه ينبغي أن يكون لديهم حماس لهذا العمل، ولن يعودوا تجاراً، وهذا يثقل على نظام إعادة الربحية في إنتاجية فرنسا. هذا شديد الثقل.

ويشرح رأيه في إجحاف نظام التأمينات الاجتماعية والصحية التي «تشفط قروش الربح القليلة عندك دون أن تؤمّن لك بالمقابل عناية علاجية أفضل».

ما عاد هناك تجّار، هؤلاء رجال مال

❖ هناك إذاً أعباء وتكاليف، لكنك قلت أيضاً إن هناك تنظيماً يشجّع نشوء المخازن الكبرى.

بيير: لأنهم يشترون كمية كبيرة، فلهم أسعار خاصة. وأنا رأيتهم في

بعض المخازن الكبرى يبيعون البيرة في صناديق صغيرة لست زجاجات، مع جميع الضرائب ضمناً بالسعر نفسه الذي أشتري أنا به البيرة بالتعليب الكامل، ومعفاة من الضرائب، ومن المصنع مباشرة!

❖ كيف يكون هذا ممكناً في رأيك؟

بيير: عال، وأنا طرحت هذا السؤال على المصنع، لكنهم لم يردّوا أبداً. سوف يقولون لك في جوابهم إنني أشتري صندوقاً أو خمسة صناديق أمّا هم فيشترون مقطورتين أو ثلاث مقطورات، أو أربع مقطورات بيرة. فمن جهة، كانوا قد منحوا في يوم من الأيام حتى 120 يوماً مهلة دفع- وقد منع هذا اليوم وعادوا إلى 90 يوماً. لكن تخيّل المبلغ المرقوم بالقياس إلى ما يباع يومياً والمال الصافي الذي يدخل إلى جيوبهم قبل أن يدفعوا ثمن المقطورة الأولى من البيرة أو من الويسكي أو من النبيذ. فماذا يفعل هذا المال؟ وأين يذهب هذا المال؟ فهذه شركات مع حواسيب، فينظّمون الجَرْد الأوّلي في 15 يوماً، ويعلمون بالتالي النتائج الفعلية لمشروعهم- هم ما عادوا تجاراً، هؤلاء رجال مال- ويرتّبون بالتالي ما يُسمى فوائض الجَرْد. (...) وهنا يكون التنافس التجاري والتلاعب. فلا تعود أمام تجارة تقابل تجارة منافسة؛ لأن القانون التجاري لا يعني «بلف» الزبون. وفائدة تاجر من التجار، هي تحقيق توازن ميزانيته، وما يتبقىّ له فهو مقابل الخدمة التي قدّمها لزبونه عندما قام بتموينه، ووضع بضاعة في متناول يده، وهكذا دواليك. أما المخازن الكبرى فليست تجارة. هي تجني فوائد مالية... وأنا أسمّي عملهم بالتحايل. أنت معي، في زمننا كان اسم هذا السلوك البيع الاحتيالي: فالسلعة تباع ثلاث مرات قبل أن يكون ثمنها قد دُفع.

{يضرب بيير مثالاً إحدى بيوتات النبيذ التي قام أصحابها بتحديثها كي يعملوا مع المخازن الكبرى ولم تستطع الالتزام بالأسعار التي فرضتها تلك المخازن}.

في المخازن الكبرى، يتجمّع المال في الصندوق قبل أن تدفع للمورّد! المخازن الكبرى تبتلع جميع مورّديها. (...) في مدى أربع سنوات من الزمن،

أصبحت بيوتات النبيذ جرداء! لقد ابتلعوا كل شيء، الكروم، والقصر، وكل شيء! كل شيء بيع لنمرة من لندن كان قد سبق له شراء ملكية في منطقة بوردو. واليوم، هو في لندن، باقٍ هناك- فهكذا تكون البطالة - وعنده مكتب، ما أدراني، وأربعة أو خمسة موظفين، شيء من هذا القبيل، وفي المستودع هنا، بقي موظفان أو ثلاثة. فيُخزّن المحصول في الأواني، ويأخذون صهاريج النقل المليئة بالنبيذ إلى بوردو، حيث تكون التعبئة في القناني، ومن ثم يُشحن كل شيء إلى الخارج، وعلى الدنيا السلام. أما الفرنسيون، فلم يعد لديهم نبيذ، وأما المشروع الفرنسي، فكبّر عليه، لأنه اختفى. هو مشروع يفتقر إلى كوادره. كل شيء انتقل إلى يد الأجانب. لماذا؟ لأنهم لعبوا ورقة المخازن الكبرى!

الرأسمالية المالية نوع من أنواع القوادة.

❖ من يقف وراء الإجراءات لصالح المخازن الكبرى؟

بيير: هي تمر من خلال السياسة، من خلال رجال السياسة وراء ستار...

❖ من تحديداً يريد هذا؟

بيير: النظام المالي! نعم، هذه هي المضاربات المالية. ومن لفّ لفّ هذا الوسط. عندك فِرَق. الفرق الدينية لا نريد أن نتكلم عنها أكثر مما يجب. فالكاثوليك لا شأن يذكر لهم، هم يصلّون؛ والبروتستانت مثلهم. بالمقابل، عندك فرق متماسكة وأصلب مما يخطر لك، فمن جهة اليهود، ومن جهة جماعة الماسونية. هم متلاحمون عندهم قنواتهم في الوسط السياسي، عندهم القنوات في الميدان المالي، والمال عصب كل شيء. النظام الرأسمالي في حدّ ذاته لا غبار عليه. أما الرأسمالية المالية فهي نوع من أنواع القوادة. فنحن، المشاريع، صغار التجار، لو أعطونا في الصناعة والتجارة من 30 سنة التسهيلات المالية للاقتراض بفائدة أقل من 10٪، لكنّا بألف خير. نحن في هذا القطاع منذ 30 سنة، من 50 سنة، بل أقول من 100 سنة أيضاً لأن

أجدادي آنذاك كانوا قد بدأوا بمزاولة هذه التجارة، لكن، على أي حال، لنقل إن بيتنا التجاري كان في موقعه منذ مطلع القرن. كان علينا القيام بكل شيء. فليتهم أعطونا تسهيلات لشراء المعدات، وللدخول في النمط الحديث، مجاراة لتطور الزمن... لأننا بدأنا توزيع النبيذ في براميل خشبية، ثم انتقلنا بعدها إلى عبوة الليتر، فكان يجب أن نتزوّد بالصناديق، بالقناني، بآلات الغسيل، ومن جميعه. فهذا قسم من التطوّر.

[...]

وحالياً، «تتصبُ» علينا البنوك. إن كان لديك عجز، فالفائدة تبلغ 18٪. قل لي، فبأي ثمن يجب عليك أن تبيع السلعة كي تتمكن من دفع فائدة الاقتراض البالغة 18٪؟ وعلى فرض أنك وفرت بعض سنتيمات قليلة كريح تأتيك الدولة «لتركب عليك» بورقة الضرائب! خبّرني، فماذا يبقى لك؟ يبقى لك الحبل لتشنق نفسك. فهكذا تنتهي أعمالنا. أترى، إنها سلسلة كاملة. حسناً، خلال الحرب، فإنّ الأب بيتان، الذي كان عجوزاً ماكراً - لحسن الحظّ أننا حصلنا عليه، لأنّ جماعة بوش كانوا سيأخذون على مراكبهم عدداً أكبر من الفرنسيين وربما كانوا سيرمون بالبزة على ظهر الفرنسيين بالقوة، لقد أخذوا متطوّعين، لكن موضوع المتطوعين هو شأنهم الخاص - لكن لولا الأب بيتان... لأنّ هتلر كان يحترم بيتان، فقد كان من المحاربين القدماء في حرب الـ 14، وكان من الذين يوصفون بالصلابة. على كل حال، أنا أعتبر أنّ ديغول، الذي هرب في العام 1940، وكذلك توريز، حيث أنّ توريز ذهب إلى روسيا عام 40، وهو هرب، أي أنّه هرب مثله في ذلك مثل الكثيرين الذين كانوا في إنكلترا ثمّ بقوا فيها.

{يستعرض بيير تحديث مزارعي المنطقة ويندّد في تلك الأثناء بالفوائد التي جناها بعضهم من القروض ذات الفائدة التشجيعية بتحويلهم لجزءٍ من هذه المساعدات إلى إيداعاتٍ للمضاربة والاحتكار. ويورد، بقليلٍ من المرارة، كيف أن الفلاحين الذين كانوا فيما مضى فقراء أصبحوا أغنياءً (يقصد أغنى منه) رغم انهم يعملون كموظفين «120 يوماً في السنة، أو 150

يوماً في السنة، أي تقريباً دوام المعلّم الابتدائي.. فهم ينتظرون نموّ مزروعاتهم(¹)».}

❖ ❖ ❖

طالما قلت وأعدت، إنّ عار الرأسمالية المالية يتمثّل في أنها عملت على تكريس التضخمّ، إذن، فاعتباراً من اللحظة التي بدأوا فيها بذرّ الرماد في العيون، راحت الأمور تتهاوى وازدادت سرعة السقوط بعد عام 68. لكن حتى من قبل الـ 68، صار من الصعب المحافظة على التوازن. وأبونا ديغول، رضي أن يمتطيه جماعة الجزائر، عندما أعاد فرنسيّي الجزائر من عام 62، فضاعت منه مقاليد الأمور بعد الـ 65. لأن الفرنسيين العائدين من الجزائر، فهؤلاء مستعمرون كانوا قد تمرّسوا باستغلال العرب (...). فهؤلاء الناس، في سنوات قليلة، عادوا إلى التسلّل، والتغلغل في جميع الخدمات - إلى حدٍّ ما مثل الماسونية - فتمركزوا قليلاً في السياسة، في المال، ومن ثمّ في جميع القنوات المتشابكة. وهم أعادوا إلى حدٍّ ما استيراد نظامهم السابق، طريقتهم التي اتبعوها في استغلال العرب. ولا ننس أنهم هم الذين جاءونا بالعرب كي يلمّعوا لهم أحذيتهم، فالأهل الذين كانوا يعملون كخدمٍ لهم استقدموا أبناءهم وكانت فرنسا بحاجة لهم لنقص اليد العاملة في فترة من الفترات، هذه حقيقة. على أي حال، كان من اللازم قبولهم، إنما بعقود قصيرة الأجل. وباختصار، فجميع قوّادي البنك أولئك هم الذين قضوا علينا. فكانت الأعباء الاجتماعية شديدة الوطأة علينا وتحالفت البنوك على المشاريع. والدولة التي أصبحت مشاركة في المشاريع بواسطة الـ TVA. عندما كانت حدودنا محفوظة، كان نظامنا الداخلي يمشي، لكن منذ أن بدأوا يصنعون أورُبا الموحّدة تفجّر كل شيء، ونظامنا الاقتصادي، لم يعد يستطيع الوقوف على قدميه. لا يعرف إلى أين وجهته. فالنظام الاقتصادي بأكمله أخذ يتأرجح بتأثير ضربات

نظام جماعة الجزائر، وهو نظام استغلال اليد العاملة بأرخص الأسعار. فعدّلوا وبدّلوا بهذا النظام الفرنسي.

[...]

فهل تعتقد بأن هذا سوف يدوم طويلاً؟ وهل يمكن أن ترى العديد من الناس الذين يستلمون ورقة الضرائب ويستطيعون الدفع؟ لم يعد إلا القليل ممّن يستطيع الدفع! فالتجارات، لم يعد عندك تجارة تمشي، لم تعد التجارة تمشي، هذه حقيقة! هنا، ثلاثة أو أربعة مطاعم - مشارب مطروحة للبيع. وعندك فندق- مطعم، لكن لا أحد يشتري.

❖ وأنت، بكم تقدّر قيمة تجارتك، لأن القضية واردة عندك أيضاً؟

بيير: قيمة التجارة تحسب بمعدل 10٪ من الربح الصافي من الضرائب.

❖ يعني، كم يساوي هذا حالياً؟

بيير: 15 مليون. لكن أين من «يشيل»؟

❖ لا يوجد من يشيل بـ 15 مليون؟

بيير: جاءني من يشتري، وهو نصّاب. وأنا كنت في غاية الشرف. فقد حضروا عندي ومعهم زوج وزوجته. كانوا يريدون الاحتيال على الزوجين ب 10 أو 15 مليون، إذ كانوا يريدون تقديم قرض لهما لشراء متجري...

❖ كانوا يريدون استلام المتجر منك؟

بيير: نعم، يستلمون المتجر، وكان الزوجان بعمر 35 سنة. الزوج كان عليه التجوال، وأما الزوجة فتستلم المكتب. لكنهم طالبوا الزوج بأن يتكفّل بتأمين 60 أو 80 زبوناً في اليوم. هذا غير ممكن. أنا ابن مصلحة، وأفهم فيها. في أحسن الأحوال، عندك 35، وفي الصيف، عندما يطول النهار ولا تبالي بعدد ساعات جلوسك في المتجر، يمكنك أن تحصل على 45 زبوناً، لكنهم كانوا قد ضلّلوا الزوجين وأوهموهما بأنهما سوف يربحان شهرياً مليون ونصف على أساس 60 إلى 70 زبون يومياً.

❖ إذن، أنت قلت لهما، «لن يكون عندكما 60 زبوناً؟»

بيير: قلت، «يا ليت، يا ليت، لكن، إذا أردتما الصدق والأمانة فلن تحصلا أبداً على 60-80 زبون». كان الزوجان قادمين من هال أحذية، سوق للأحذية الرخيصة التي تباع بالكيلو، فتأتي وتشتري مثلاً 500 كيلو «صرامي»، ثم تبيع هذا، تعرضها على طاولة. حينها، أسرع السمسار التجاري الذي رأى أنني أتبحبح في الكلام وأقول لهما الحقيقة فطلب منهما كتابة العقد. لكنهما لم يكتبا شيئاً على الإطلاق. فلو لم أقل لهما أي شيء، واكتفيت بأن أطلب منهما التوقيع على العقد، يعني، تمام التمام، كنت وضعت في جيبي 20 مليوناً، وعليكم السلام.

[...]

هذا ما عاد له علاقة بالتجارة.

❖ الأمر المسيطر الآن هو التوزيع، المخازن الكبرى؟

بيير: نعم، المخازن الكبرى! (...) وهناك قانون «روبير». روبير ذاك، خسفوا به الأرض، سخروا منه في فترة من الفترات، واصفين إياه بالمضحك، وكيت، وكيت. لكنه كان رجلاً مستقيماً ويدافع عن التجارة. كان رجلاً... ممتازاً. لكنهم سخروا منه لأن جميع الآخرين الذين كانوا مطّلعين على أحوال البنوك، من جماعة المال ومن قوّادي النظام، جميع هؤلاء كان من مصلحتهم تسيير الأمور وفق منظور مختلف. (...) المخازن الكبرى فعلت دائماً ما تريد! ففيها عمولة، فيرفضونك في مركز المنطقة، ويرفضونك في البلدية، فتمضي صاعداً حتى الوزارة، وهناك يكون عندك صاحبنا أبو الماسونية أو رفيق الحزب، على اليمين أو على اليسار، لأنهم جميعاً في مغطس واحد. أنا شخصياً لا أفرّق بين الأحزاب السياسية، فالنظام الاقتصادي لا سياسي، وليست القضية قولك، «هؤلاء هم الاشتراكيون» أو «هؤلاء جماعة اليمين» أو «هؤلاء هم اليساريون»، فهذا غير صحيح! النظام الاقتصادي هو نظام... هو إدارة مشروع، هو الأب «بيني». فماذا فعل بيني؟ كان رئيس مشروع، كان عنده مدبغة، فكان يعلم ماذا يعني الجرد، والميزانية،

والأعباء، ما كان يجب دفعه، ما لم يكن من الواجب دفعه. عندما تضع بعض الناس في مواقع في الوزارات ويكونون من أصحاب الدراسات الرفيعة المستوى (باحترام مزيّف)، فأنا معهم في الرأي، لكن هل يحسنون قراءة أي كشف؟ أنا أعرف نائباً، أنا الذي حسبت له معدّل الـ TVA. كافة المخازن الكبرى تمثّل طاقةً شرائيةً كامنة، تمثّل طاقةً قابلةً للتمويل، إنها مالٌ طازج يصل إلى المصارف. (...) إذن، لم يعد لها أية علاقة بالتجارة.

[...]

بالنسبة لنا، انتهى كل شيء، نحن، اغتالونا، اغتالتنا المخازن الكبرى. وقد تحدثت في هذا مع المحاسب، منذ خمس سنوات، قلت، تأمّل ماذا سيحصل في أوروبا. لنفترض أن عمري 35 سنة، فأغلق دكاني، وألمّع أدواتي وأجعلها جاهزة دائماً للاستعمال، أجدّد كل شيء وعندما تصير أوروبا الموحّدة - الموحدّة أخيراً، الملتحمة الأجزاء وليست أوروبا عرجاء، حين تصبح أوروبا جاهزة، يعني بعد ثلاث أو أربع سنوات من ذلك التاريخ أعود فأفتح من جديد وأشتغل. لكن، حتى ذلك الحين، ... نحن نغوص في الوحل ولن نستطيع الخروج». ولن نستطيع الخروج. ومن ثم، يعني، لن نجعل السياسة حديثنا لأن...



{يروي بيير حينها أنه قَبِل أن يدرّب عنده طلاب مدرسة مهنية في المنطقة، ولكن رفض أن يضع بين أيديهم كشوف مشروعه، لاقتناعه بأن هذه المعلومات عن الحالة الصحيحة لمشروعه قد تستخدم أسلحة في وجه مشروعه الشخصي، وفي وجه التجارة الصغيرة عموماً: «قلت، طلابكم النجباء، لا، لن أصفهم بأنهم من الجواسيس، لكن بوجود النظام المعلوماتي صاروا يعرفون كل ما يجري في أية منطقة، وفي جميع أنواع المهن. من تاجر النبيذ حتى تاجر الأحذية، حتى بائع الفستق، حتى بائع الثياب الجاهزة، وهذا، وذاك.»}

حقوقك، لا اعتراض عليها، لكن عليك واجبات

بيير: نحن بلوتنا كانت مع ذاك السخيف ميتران ولوائحه حول حقوق الإنسان التي «خرّى» بها جميع بلدان العالم! الواجب هو الواجب، وهذا حال حقوق الإنسان. حقوق الإنسان! حقوق المرأة! حقوق الطفل! والواجبات، أين هو محلّها؟ حقوقك، لا اعتراض عليها، لكن عليك واجبات والتزامات، ولا بد من حدود في بعض المواقف لنقول، «عظيم، حرية الأفراد تتوقّف عندما تبدأ حرية الآخرين». فلو كانوا يضعون هذا موضع التطبيق، كان العالم سيعيش بسلام، وينتشر تفاهم عميق ممتاز بين الجميع، لكن بمجرّد أن يصبح المنطق، «انقلع من مطرحك لأجلس محلّك، أناولك دفعة قوية وآخذ مطرحك، ومن بعدها لجهنّم مهما حصل»، نكون في بداية طريق الفوضى. عظيم، لكن الأخ الفصيح، صاحب حقوق الإنسان، غورباتشيف، أراد منح الحريات، دون أن يكون شعبه مهيّأً للحرية بين عشية وضحاها. أنت يعالجونك بالأوكسجين، تتنفس اصطناعياً الأوكسجين، لأن صحتك معلولة، وفجأةً، يقال لك، «مبروك، شُفيت»، ويقطعون عنك الأوكسجين، ويضعونك في الهواء الطلق، فتمضي راكضاً، فأنت... أنت تشعر بالاختناق، لا يمكنك التصدي لهذه المفاجأة المباغتة، فلا بدّ من مرحلة انتقالية.

[...]

وهنا أيضاً نجد المضاربة والتنافس، التنافس التجاري المالي، تجارة المضاربة، وليس التجارة التجارية النزيهة، فمثلاً، عندما كانت ألمانيا الشرقية تنتج أبقارها، فهذا كان من أجل تغذية الروس. فبين عشيّة وضحاها، اعتمدوا القوانين الأوروبية، وتحدثوا في بروكسل عن أبقار ألمانيا الشرقية... وها هم تجار اللحم المشبوه، المضاربون بالمال، جماعة تجارة المضاربة، يشترون الأبقار بأسعار زهيدة هناك. فماذا كانت النتيجة؟ كانت النتيجة تجويع الروس الذين كانوا بحاجة لتلك الأبقار من أجل توازنهم الاقتصادي، من أجل أن يأكلوا. كما أن هذا التصرّف جوّع مربّي الأبقار الفرنسيين الذين كان عندهم أبقار ولم يتمكنوا من بيعها. يعني، فما هو هذا العالم العظيم، الباهر الجمال؟ هل كل هذا إلا من باب «التعريص»؟

❖ صحيح، المشكلة الروسية شديدة التعقيد...

بيير: «الرذالة» التي ألوم الفرنسيين عليها، لجميع أفراد طاقم عام 1989، جماعة حقوق الإنسان، والحريّات، وكيت، وكات... أن الواجب يقضي بوجود الحرية، محاربة التضييقات والمنغّصات، لكن من الواجب أن تكون في جميع الأحوال حرية ذات حدود! لا يمكن إعطاء الخبز الأبيض لجميع الناس، لا يمكن إعطاء عطلة صيفيّة لجميع الناس، لا يجوز أن نسترسل مع الأحلام، هذا لم يوجد أبداً، ففي أي مكان يمكنك أن تجد المال؟ وحين تترك صنفاً معيناً من الناس يموتون، أين ستجد البقية؟ فهذا نظامنا الاقتصادي والاجتماعي، وهو غير مطابق للواقع. علاوةً على ذلك، هناك أجانب في فرنسا، تتكفّل بهم الدولة، فهم عاطلون عن العمل، وهم.... طيب، مادام معهم بطاقة أجنبي، إذا لم يعد لدينا عمل لهم، فمن الواجب تقديم مبلغ للعاطل عن العمل، ليعود من حيث أتى مع هذا الرأسمال، وهناك في بلده يشتري بقرة، خنزيراً، ما يريد، ويؤمّن رزقه في بلده. الأب بيني كان رجلاً عظيماً، رئيس مؤسسة، وكان يعلم ما هي الإدارة. أنت ترى، حين يكون لدينا وزراء، فإنهم يوضعون تارةً في التعليم الوطني وتارةً في الزراعة، تارةً إلى اليمين، وتارةً إلى اليسار، وسوف تقول لي، «لا يمكن تغيير الوزارات، فالوزارة إلى استمرار دائم»-، أمّا أنا فرأيي أنّه يلزمنا رجال من أصحاب الاختصاص ويعرفون ماذا يقولون.

❖ نعم، نعم، نعم، معك على طول الخط في هذا.

بيير: لكن المشكلة التي لا يفتح سيرتها أحد، والتي تنبّأ بها الأميركان، فهي أنهم بتقسيم روسيا مثلما فعلوا، فإنهم يقومون بإضعافها، سواءً في المجال التقني، لأن الروس كانوا أول من ارتاد الفضاء. إيه، فالحالة الخطيرة فعلاً في عام 2000، هي حالة الصين، لأن روسيا هي درع حماية أوروبا من الاكتساح الصيني، فإذا تقسّمت روسيا، إيه، يا عيني، فسوف يحصل الصينيون على أجمل فرصة. وسوف يتقدّمون، فذاك هو الوباء الأصفر. والروس في عام 2000 سوف يلعبون في الساحة مع الصينيين، سوف يتدافعون مع الصينيين، وهدفهم إزاحة أوروبا.

❖ هل تقصد أن سياسيّينا ليس فيهم من لديه الاستعداد لافتداء زميله، وأن ليس فيهم من...

بيير: .. من يخبط بقبضته على الطاولة ليقول، «انتهى زمن التهريج، المطلوب العمل والمطلوب وضع العدّاد على الصفر»، هذا ما تريد قوله؟

❖ لا أعلم، أنا أطرح السؤال كي أعلم كيف ترى الأمور؟

بيير: على عيني، لتأمين الإصلاح الاقتصادي {يجب خفض} معدّل الفائدة، معدّل الإقراض للبدء بإصلاح الوضع المصرفي في جميع المشاريع. فكل المشاريع مدينة للبنك، هي مضطرة للاستدانة من البنوك، والبنوك تعهّر جميع المشاريع. وما قولك في نظام البطاقة المصرفية للحصول على المال، هل تجد هذا الأمر طبيعياً؟ ألا يوجد لديهم ما يكفي من الموظفين لأداء هذه الأعمال؟ علماً أن منهم من يتقاضى رواتب 17 شهراً في السنة، فهم متخمون من القبض. وعشية يوم عيد وتعطيل لا يعملون!...(...) معك أن هذه تقنية جديدة، حكاية البطاقات، والكيت، والكات، عظيم، عظيم، ولكني ضد هذا النظام : فعندما تفرغ حصّالات التوزيع، لا يحصل الناس على المال المطلوب! أنا لم أحمل أبداً بطاقة مصرفية لأنني ضد هذا. معي دفتر شيكات، فأنظّم شيكاً بما هو مطلوب مني. وعندما أحتاج إلى مال، أذهب إلى محاسب المصرف. وكل هذا كي لا يزعج موظف المصرف بنفسه، فيقع العبء في العمل على صاحب العلاقة. تماماً كما يحصل في المخازن الكبرى: فالناس يخدمون أنفسهم بأنفسهم، عندك عاملان أو ثلاثة عمال يرتبون البضائع على الرفوف، وأما الزبائن فيخدمون أنفسهم ويمضون إلى الصندوق حيث المحاسبة التي تقوم بالعمل. فهذا يتولّد عنه عاطلون عن العمل، لأن هذا النظام لا يخلق فرص عمل، أقصد نظام المخازن الكبرى، على عكس المشاريع الصغيرة التي توجد أعمالاً مختلفة. ولماذا لا يوجدون فرص عمل؟ بكل بساطة، لأنهم وضعوا القوانين الاجتماعية. فعندما تشغّل عندك أحداً ما، لا يمكنك بعد ذلك طرده (...) ثم أنت مجبر على أن تسحب دفتر شيكاتك «وتجبر خاطره». لقد ذهبنا بعيداً في هذا النظام، ويجب

التراجع عنه. وليس في هذا أي موقف رجعي... إذن، أول شيء البنوك أغلى مما يجب، يأخذون أكثر مما يجب، ويتقاضون نسبة فوائد ونسبة مضاربات أعلى بكثير من طاقة أي مشروع يريد أن يتطور. حتى الشاب الذي يريد توفير تجهيزاته، يخنقونه. بمختلف الأعباء والضرائب. فلديه ضريبة مهنية. أي نعم، إذا اشتغلت بـ«زبّورتك» وسكّينك، فهنا لا تندب لدفع شيء! أما، بمجرّد أن تشتري سيارة صغيرة للنقل، مجموعة تعبئة، آلة لغسيل القناني، عربة رفع أثقال، يحسبون لك الضريبة على معدّاتك.

❖ إذن، العلاجان في رأيك، هما، واحد، البنوك، طيب، واثنين...؟

بيير: رقم اثنين، الأعباء الاجتماعية حسابها غير صحيح من أساسه. ولتخفيف وطأة الأعباء الاجتماعية، فالأمر الأول اللازم فعله: الطب المجاني. فيجب إلغاء الضمان الاجتماعي مدى الحياة. إذن الأعباء الاجتماعية، الطب المجاني من أجل تخفيف الأعباء الاجتماعية، والضرائب المهنية الباهظة.

[...]

لا نحتاج إلى نصوص قوانين، نحتاج للمنطق السليم

بيير: عليّ تقديم بيانات سنوية إلى اتحاد استرداد تعويضات الضمان الاجتماعي والتعويض العائلي (الـ URSSAF)، لكني في بعض الأحيان، أشعر بضيق شديد. تفضل، فهذا ما استلمت منذ فترة [يُريني بيانات فارغة]، فهذا هو التصريح السنوي الذي يجب تقديمه عن العمال المأجورين عندي. يجب تقديمه لبنك المعلومات في 31 كانون الثاني. في عام 91، عملت كل هذه «التركيبات»، ومعي النسخة الثانية الخاصة، وتاريخها 23 كانون الثاني، وقد أرسلتها أصولاً. ففي الأول من آذار، جاءتني رسالة مسجّلة من الـ URSSAF تُعلمني أنهم استلموا أوراقي بتأخير عن الموعد المحدد، وأنه نظراً للبند الفلاني، والفقرة الفلانية - لا يوجد ما يمكن دفعه، فذمّتي بريئة، والبيان في أساسه مجرّد إعلام عن الرواتب التي دفعتها لعمّالي كي ينظّموا لكل منهم إضبارة التقاعد لاحقاً- فأنا يترتّب عليّ غرامة تأخير 400 فرنك! عندها

قلت، «يا سلام سلّم!» (...) أخذت الإشعار، وذهبت أقابلهم وأطلب تفسير هذا. قلت، «هاتوا المغلّف وختم البريد، أريد أن أتأكّد، لأنني كلّفت شخصاً غيري بإرسال البيانات»، - «آ، إي، آ، نحن لم نحتفظ بالمغلّف!»، فقلت، «أنا غير موافق، كان يجب أن تبلغوني في 2 شباط، أو في 5 شباط، أو حتى في 10 شباط، إذا فرضنا أن الاستلام كان في 10 شباط، لكن ليس بعد مرور شهر كامل من آخر مهلةٍ للاستلام». (...) في نهاية أيار جاءني توضيح يبيّن انني دفعت منذ سنتين، مستحقاتي للـ URSSAF، لكنها أكثر مما يجب، فهم قرّروا التعويض عليّ بعد سنتين قائلين، «طيب، اطّلعنا على كشف حسابك، ونحن مدينون لك بـ 3200 فرنك سوف نحوّلها إليك في شيك بتاريخ 31 تشرين الأول 91». (...) بتاريخ 31 تشرين الأول، لا شيك ولا يحزنون. في شهر تشرين الثاني، لا شيك ولا يحزنون. ففي 10 كانون الأول تقريباً، مررت في طريقي على «تروا»، وقلت، «ماذا جرى؟ على أساس أنكم سترسلون لي شيك بـ 3200 فرنك »،- «آ، إي، آ، نعم، بخصوص الشيك، نعم، بالفعل، سوف نرى هذا، لكن علينا أن نحسم الـ 400 فرنك المستحقة عليك كغرامة تأخير»، قلت، « هذا ملفّ، وهذا ملفّ، كيف أمكنكم رؤية أنني...؟»- «في الحاسوب!» «قلت، هذا معقول، لكن رأيي أن القضية مختلفة، فكل مبلغ وله ملفّه، وهما قضيتان مختلفتان.»،- «طيب، سوف نرسل لك الشيك». وقد أرسلوا لي الشيك، إنّما بمبلغ 2800 فرنك، «لطشوا» عليّ 400 فرنك. فهذا التصرّف منهم غير شريف. قلت لهم بعدها، إذا كنتم تريدون ملء الصندوق عندكم بـ 400 فرنك من هذا وذاك، وأنتم تقولون لأنهم أشخاصٌ طيبون، لن يقولوا شيئاً، وسوف يرسلون الـ 400 فرنك.

❖ ولم تصل بعدها أخبار عن هذه الحظوة الرحمانية؟

بيير: سوف أنتظر شهراً آخر. لكن صدّقني، إذا لم تصلني أخبار ولم أقبض المبلغ المقطوع، فسوف أبعث إليهم برسالة مسجّلة «من كعب الدست»، وسوف أودع لهم فيها بطاقتي الانتخابية، مخبراً إيّاهم، أنه ما دام هناك إدارات غير شريفة، فلا حاجة بي للانزعاج والذهاب إلى صندوق الاقتراع!

إذا كانوا لا ينظرون إليّ على أنني مواطن، فليس عليهم سوى النظر إليّ على أنني عربي أو مشاغب، وقد قلت للسيد ×. «إذا رأيتني لا أشارك في الانتخاب، فهذا لأنهم لطشوا مني 400 فرنك». وليس الغرض موضوع الـ 400 فرنك، لكن لماذا أشارك في «تعريصة» انتخاب المجلس الوطني العام. فما قولك، وكل شيء على هذه الشاكلة... نحن لا نحتاج إلى نصوص قوانين، نحتاج للمنطق السليم. والمنطق السليم يهدينا إلى الحلول. ذات يوم، وكان ذلك في بداية حكم ميتيران حين نجح عام 81، لا أعلم إن كنت تتذكر، كان هناك تخفيضٌ ضريبيٌ بنسبة معينة، لم أعد أتذكّر كم كانت، 3-4 ٪ أقل على الرواتب المنخفضة. كافة الرواتب التي لم تكن تتجاوز 4200 فرنك صافية كانت تدفع إعانة، لم أعد أتذكر، لا أريد أن أعطيك رقماً غير صحيح، بدلاً من 14 ٪ مثلاً من الضرائب الاجتماعية، فإنّ كافة أولئك الذين لم تكن رواتبهم تتجاوز 4200 فرنكاً لم يكونوا يدفعون إلاّ - لا أتذكّر، أقول رقماً تقريبياً - 10 ٪. تخفيض بمقدار 4 ٪. كنت لمدة ستة أشهر حيث كان لديّ موظّفون تقلّ رواتبهم عن الحدّ المعين، ثم حصلت زيادة في الرواتب. لم يرسل أحدٌ لنا بورقة تقول: «انتبهوا، أنتم تتجاوزون 4200 فرنكاً، نذكّركم بأنّ...» كان لديّ موظّف داوم بضع ساعات إضافية وتجاوز راتبه 4200 فرنكاً. لكن، امسك أعصابك، أعتقد بأنّ راتبه بلغ 4208 فرنكاً و20 سنتيماً، كانت الزيادة لديه 820 سنتيماً. وبعد عام، جاء مراقبٌ من URSSAF وأخذ كافة الملفات. آه، يا لها من قضية! كان هناك 820 سنتيماً زيادة لهذا «الزبون». إذن، صدّقني إن شئت، أنا قلتُ لنفسي بأنّ المبلغ تافه. «آه! قال لي، الأمر ليس كذلك، هناك 4 ٪ إضافية.» وحسب نسبة الـ 4 ٪ بالنسبة لـ 4200 فرنكاً، لكن بما أنه جاء متأخراً سنة أو سنتين، فإنّ الفوائد... كذا بالمائة. فقلتُ، ربما كان نصّ القانون هكذا، لكنني أقول، ضع نفسك مكاني، وأضع نفسي مكانك، وتجلس مكاني».- «آه، قال لي، لديك دائماً إمكانية الاستئناف، يمكنك أن تناقش إن كان هذا...». فرفعتُ الملفّ، واستأنفتُ، وأزعجتُ نفسي في إدارة قلم القضايا الإدارية في المجمّع الإداريّ للمحافظة. فنظروا إلى ورقتي، وقالوا لي: «أوه! بلى، لا يمكننا فعل الكثير،

ينبغي طلب هذا، ينبغي طلب رأي القاضي.» وذهب الملفّ إلى المحكمة، وكانت القاضية واحدة «شخاخة» خرجت بالتأكيد لتوها من شرنقتها، ووصلتُ مع كافة أوراقي، وكافة العناصر التي لديّ كي أبرهن على أنّه في ما يتعلّق بالفرنكات الثمانية والسنتيمات العشرين التي تجاوزت الحدّ، هناك مشكلة منطق... لم أوكّل محامٍ لأنّه في تلك اللحظة... امسك أعصابك، لقد تقدّمتُ وبحوزتي أوراقي، وأردتُ أن أرافع، والقاضية لابدّ أنها وُلدت هكذا، وقالت، «حسناً، القضية التالية!». فقلتُ، «لكن لم يتسنّ لي الوقت الكافي لأدلي بأقوالي»، «لا، لا، انتهينا. القضية التالية!». لم تعطني الوقت كي أشرح، لا شيء على الإطلاق، وذهبتُ وأنا أشعر بالغثيان. كان هناك امرأة محامية أو محاسبة من الـ URSSAF كانت تمثّل... التقيتُ بها في الممر، وقلتُ لها، «أتعلمين، أنتم بصدد قتل المشاريع الصغيرة، قلتُ، أنتم تجعلونني أشعر بالغثيان»، وقد كلّفني ذلك 1200 فرنكاً، من أجل 820 سنتيماً زيادة! اللعنة! هل هذا نصّ قانون؟ قلت، «هل هذه هي العدالة الفرنسية؟ ثم قلتُ، لا أبالي، سوف يدخل إلى خزانتكم 1200 فرنكاً، وسوف تحصلون عليها، هل أنتِ مسرورة؟ قلتُ، أتعلمين، المؤسسات التي من نوع مؤسستنا سوف تختفي، وسوف تذهبين للبحث عن ذلك في المخازن الكبرى». وكل هذه تفاصيل صغيرة. هل تعلم، غداً هناك انتخابات، لن أزعج نفسي بالذهاب. ومنذ فترة طويلة كان يمكن لي ألا أشارك في الانتخابات. لولا أن البلدة صغيرة، وهم يرون من أتى ومن لم يأتِ إلى صندوق الاقتراع. لأن جميع هؤلاء الميامين عندنا بمجرّد انتخابهم، لسان حالهم، «لجهنّم، نحن في المجلس لمدة ستة أعوام..» أوه، فهؤلاء لن يكونوا مع تخفيض تعويضاتهم.

❖ فعلاً مثل هذه الحكايات تثير الغضب.

بيير: هو أمر محزن، فهم من صغار النفوس. هم، ربما، يقبضون رواتب عالية ضخمة، لكن، في نظري، هم من صغار النفوس. وأرى أنهم لا يستحقون إلاّ الإهمال والتجاهل.

كانون الثاني 1992

لويس بانتو

مسارات مهنية محطّمة

يُخرج التسريح الأفراد من اللعبة إلى أجلٍ غير مسمّى ويعجّل بانهيار ما بُني من أحلام: فعلاوة على تناقص الدخل، يصيب بالاعتلال المزاعم البّراقة حول المستقبل، بما يشلّ أو ينتقص من مجموع الاحتمالات التي كانت ممكنة في الوضع الوظيفي السابق. ومن بين النتائج الأليمة الناجمة عن فقدان العمل التكذيب الصريح للنرجسية التي يشجّعها المشروع أحياناً في أوساط كوادره الإدارية القائمة على رأس عملها. والعمل والطاقة المبذولة فيه شرطهما اللازم لدى العديد منهم الإيمان الفعّال بالآمال المرتبطة بفكرة «المستقبل المهني»، الذي يراكم منافع مادية (راتب، مكافآت...) ورمزية (شهرة، علاقات...). وهذا الضمان هو الذي يسمح بالتزامات وثيقة إلى هذا الحدّ أو ذاك، سواء كان هذا في العمل (منصب في الأقاليم، في الخارج، تخصّص...) أم في الإطار الخاص (الحياة الزوجية، الزواج، الأطفال، أوقات الفراغ والتسليات، القروض العقارية...). والتسريح من العمل ينتج عنه التشكيك بكل التزام من خلال الشخص، من مزايا «فردية» («مثل الديناميكية»، والاندفاع، والأمانة)، ومن طموحات وظيفية وخاصة على حدٍّ سواء. وذاك أن التسريح يُغرق المستقبل في ظلالٍ القلق ويُجبر صاحبه على ما يشبه إجراء جرد بالمصادر المالية التي يمكن الاستعانة بها ويُظهر بوضوح، عند بعض المسرّحين، نواقص كانت حتى تاريخه مكتومة أو متخفّية. وما يجعل نظرة الآخرين لا تطاق، نظرة الشريك

الزوجي، الأصدقاء أو الجيران، هو أنها تساعد على إظهار التنافر الماثل بين الوضع الراهن والمزاعم التي كانت موضع التأكيد لفترة طويلة في الماضي.

ولا يمكن لهذه المحنة أن تأخذ الدلالة نفسها عند الجميع. فالطريقة التي يعيش بها المسرَّح محنته، وكيفية تجاوزها أمرٌ يرتبط بالرأسمال المتوفّر لدى المعنيّ. ويمكننا في هذا المجال الحديث عن طرفي نقيض في حدّهما الأقصى، فمن طرف، لدينا الكوادر الإدارية الذين يتحلّون بمجمل الخواص الإيجابية - درجات علمية نادرة، جنس مذكّر، شباب...- ومن طرف أخر، أولئك الذين حرموا من كل هذا حرماناً تاماً. وهكذا، يوجد تفاوت في الانتساب إلى «الكوادر الإدارية» (تبعاً للتعريف الاجتماعي السائد في وقت من الأوقات)، وبالتالي تتفاوت الأضرار التي تتعرض لها تلك الكوادر في مجال البطالة. وأوّل المتضرّرين هم الذين كان انتسابهم إلى هذه الشريحة هشّاً ولا مقاومة له، وخصوصاً أولئك الذين استلموا مناصبهم بفضل ملابسات استثنائية ونادرة، وهي ملابسات على ارتباط وثيق بربّ العمل. فهؤلاء الأفراد ضحايا للحدود التي فرضتها عليهم طريقة وصولهم إلى وضعية كادر، ولما ينجم عن سيرتهم الشخصية والدراسية، وكذلك لمظهرهم الخارجي، ولغياب شبكة العلاقات عندهم، ولكفاءتهم التي يُحكم عليها بأنها محدودة أكثر مما يجب، الخ. فيكتشف هؤلاء آنذاك أن التقدير الذي نعموا به، والكلمات اللطيفة من الرؤساء، وحتى صفة «كادر» التي حملوها، لم تكن جميعها إلا علامات نجاح سريعة العطب والزوال.

صالة انتظار

منذ 10 سنوات يبحث السيد سابان عن عمل دون أن يُوفّق في بحثه حتى انتهى به الأمر إلى فقدان الأمل. لكنه في الـ 51 من عمره، وما يزال خفيف الحركة وبمظهر خارجي صلب، فهو أبعد ما يكون عن سنّ التقاعد. كان قد اشتغل في شركة لك.، وهي مشروع ضخم لتعبئة المياه المعدنية عمل فيه من سنّ 26 إلى سنّ 43، ما يطلقون عليه اسم «كادر متنقّل». لم يكن في جعبته من شهادات إلا البكالوريا (حدثنا عن شهادتيه في البكالوريا)، لكنه

سرعان ما ترقّى إلى صفة كادر بوظيفة زائر محلّي مهمّته إجراء اتصالات مع الهيئات الطبية. فهو قد نجح دون أدنى شك في فرض الاحترام والاعتراف لحسن تصرّفه وقدرته على إقامة العلاقات الإنسانية. وقد رفض أن يكون مجرّد «وكيل تجاري» يقتصر عمله حصراً على الترويج للسلعة في المخازن الكبرى، وأراد بالمقابل أن يكون مُحاوراً للاختصاصيين الذين كان يمكنه أن يخوض معهم في مناقشات «هامة». كان يسافر، ويقابل الكثير من الناس، وكانت له «مسؤوليات» (في الحصول على الطلبيات وفي التأهيل). أمّا بشأن تسريحه، فيبدو اليوم موزّع الرأي حول الأسباب بين تفسير الأمر بالسوق الذي أعطى الأفضلية لضرورة تحديد عدد العاملين في قطاعٍ بدأ بالتدهور، وبين تفسيره بسياسة التوظيف، التي أعطت الأسبقية على المكشوف لـ «الشباب» على حساب «القدامى».

ولم يكن من الصعب مقابلته بمناسبة «الأيام السنوية» التي يُنظّمها اتحاد كرّس نفسه للدفاع عن العاطلين عن العمل. هو أنيس المعشر وسريع التجاوب، فيُعطي الانطباع بأنه يسعى لاقتناص أية فرصة ليتكلّم عن نفسه وبشكلٍ ثانوي عن نظامٍ اجتماعي تقع عليه مسؤولية البطالة. ويبدو ظاهراً للعيان اعتياده لاستلام زمام الكلام أمام الجمهور، فقد ظهر ذات مرة في التلفزيون. وتشاهد رغبته في الحصول على الاعتراف الاجتماعي واضحةً في الوسواس المسيطر عليه في أن يستثير اهتمام محدّثيه. هو ابن عائلة متواضعة من الشمال وقد أصبح يتيماً منذ وقت مبكر في حياته، وكان قد داعبه الأمل لفترة في متابعة دراسته العليا لكنه أوقف هذا المسعى في بحر سنة واحدة، وهذه العلاقة البائسة مع نظام التعليم فيها بعض سمات التجربة الشخصية الأساسية التي حُكم عليه أن يعيشها مراراً وتكراراً. فرغم عدم تمّتعه بشهادة رسمية، يعتبر أنه من نفس المستوى. ولكن افتقاره لتلك الشهادة المكفولة رسمياً هو من وراء تناوب الثقة والشك اللذين يظهران باستمرار في تعابيره: فيقول عن نفسه إنه تلميذ نموذجي لكنه «غير لامع»، ويؤكد حصوله على دبلوم في علم الصحة ليضيف من ثمّ أنه ليس من حملة الدبلوم فعلياً، وهو كادر إداري، لكن ليس بالمعنى الدقيق للكلمة، الخ. هو

مزدوج الشخصية في العمق، لتأصّل مشاعر النجاح والفشل فيه على حدٍّ سواء («في داخلي شخصيّتان»). وكان من الموظفين الإداريين، لكنه الآن عاطل عن العمل، وفي الوقت نفسه يعيش كصاحب دخلٍ ثابت لأنه وفّق، بفضل مجموعة تركات موروثة من العائلة، في جمع رصيد من الملكية المنقولة وغير المنقولة يستمدّ منها عائدات إضافية، وهي مصدر طمأنينة نسبية لديه. يكاد يعتبر نفسه من الأغنياء لكنه، بفعل وسواس التوفير، يعيش عيشة متواضعة. هو تلقائياً «يساري»، ولذلك يرى أنه يختلف عن جيرانه المالكين للبناء الميسور الذي يسكن فيه (وقد أخبرهم بالصوت العالي حقيقة بطالته). وهو «معاد لما هو تقليدي»، ولذلك يرفض المظاهر البورجوازية: فشعره طويل تقريباً، مشعّث إلى حدٍّ ما، كما يلبس كنزة بياقة طويلة حول العنق. ويظهر هذا الازدواج نفسه في آرائه السياسية: هو «يساري» لكنه يعادي المهاجرين، والنساء، والشباب، والمعلّمين، إلخ. وتبدو في ثقافته أيضاً «دمغة» النبذ والإقصاء: فيتحدّث بافتخار عن كتبه الـ«3500»، وينثر في حديثه استشهادات متفاصحة، أحياناً في محلّها وأحياناً في غير محلّها، ويتباهى بقدرته على «التحدّث لنصف ساعة» في موضوعٍ مثل بولونيا في فترة حكم بولسودسكي، بل يفوز أحياناً في بعض برامج الألعاب في التلفزيون. ورغم اهتمامه بالسياسة، فالتزامه معتدل، إنما بدقة ووجدان، بالدفاع عن العاطلين عن العمل ويؤدي بعض الخدمات التي تُطلب منه. وهو أبعد ما يكون عن الاستسلام لأوقات الفراغ، فيجد دائماً ما يشغل نفسه به، ويبدو في هذا وكأنه قد وجد المفتاح، المرغوب والمطلوب، مفتاح البطالة «الموفّقة» بمعنى من المعاني. وإذ تعلّم كيف يستسلم، فهو يبوح، عن طيب خاطر، ببعض النصائح المفيدة حول فن التقتير والاقتصاد. ويُلزم نفسه بأسلوب حياةٍ «متقشفة»، لكنه لا يفعل هذا إلا في محاولة للتوفيق بطريقةٍ بارعة بين حاجاته ومدخوله المتقلّص، وفي الوقت نفسه لتعليل التزامه شبه الأخلاقي الذي يرتكز، جزئياً، على إعادة رسم الحد الفاصل بين مستوى الضروري والكمالي.

هذا هو الانطباع «الإيجابي» إلى حدٍّ كبير، الذي يريد السيد سابان

إعطاءه بصدد الوضع الذي هو فيه. لكن، من بعد استرساله في الكلام لمدة ساعة تقريباً، هاهي سيدةٌ شابة تتبثق أمامنا في الحجرة، وتقاطعه مع الاعتذار، طالبةً أن تتكلم هي أيضاً، مصرّحةً بأنها مصرّةٌ على أن تتدخل في الحوار. هي عصبية المزاج: ونظراً لمعاناتها المريرة من وضعها كعاطلة عن العمل، تأتي كلماتها أقل رضوخاً واستسلاماً.

كانت مدام لوران مشرفة في أحد أقسام العاملين بمسؤولياتٍ لم يُعترف بأنها من مسؤوليات «الكوادر». و«النقمة» التي أدّت إلى تسريحها جعلتها تفهم كل ما كان في وضعها السابق من حظوة. فهي امرأة، وكان عملها في وسطٍ غير متعاطف بشكلٍ خاصٍّ مع النساء، ولم تكن حائزة على أي دبلومٍ عالٍ لتكون في منأى عن مزاجية رب العمل: علماً أن تلك الدبلومات، حتى عندما تحمل صفة «اختصاصي» (DESS أي دبلوم عالي متخصص في إدارة العاملين) تكون من بين «الدمغات» الهابطة أمام الشهادات الحديثة التي يمنحها النظام التعليمي لتلبية تزايد عدد طلاب المدارس. وكأنما أيقظت هذه الأقوال الواقعية السيد سابان يقظة مباغتة فهاهو، حينذاك فقط، يسمح بتسرّب «نثرات» من الحسرات (فأسنانه لن يستطيع مداواتها، والعطل تفوته لأنه لا يملك المال ولا الرغبة تحديداً)، ومن المخاوف، والرغبات المكبوتة، أي كل ما كان قد أخفاه أولاً في حديثه، حتى في لحظات الاندفاع.

مع كادرين عاطلين عن العمل

أحاديث بإشراف غابرييل بالاز ولويس بانتو

«لا أعلم ما هو المستقبل»

السيد سابان: أنا غير مصنف في أية فئة...

❖ لماذا؟

السيد سابان: لماذا؟ لأنني بالولادة ضد ما هو تقليديّ، فلم أكن أبداً في توافقٍ مرحليّ مع اتجاهات الرأي العام، باختصار أبداً، فكنت ضد الديغولية حتى العظم في سن الـ 25، وميتراني أربع مرّات متوالية، أما الآن... أنا أنتظر، أنتظر تغيّر الأكثرية، ليس بسبب الانتماء إلى اليمين (فأنا لست في الأساس من اليمين) لكن نظراً لكوني ديمقراطياً، ففي رأيي أن التناوب ينظّم المشاكل تنظيماً مفيداً؛ باختصار يجب فهم بعدي عن النمطية، لأن حياتي سارت في طريق غريب: فقد أصبحت يتيم الأم في سن السادسة، ويتيم الأب في سن التاسعة عشرة، ودخلت سن الرشد مبكّراً، فكل هذا جعل مني نموذجاً فريداً بعض الشيء؛ وفوق هذا، طريقي في الوظيفة، كلا ليس هو بالطريق اللامع، لكن أسعفتني مع نهاية الدراسة المجيدة شهادتا بكالوريا، مع سنة دراسية في مدرسة عليا للتجارة؛ وأذكر أنني اجتزت المسابقة، وكان ترتيبي الثاني على 275، لكنني لم أتابع لأن أبي مات في السنة نفسها، فرأيت أني دون سند عائلي لمتابعة الدراسة العليا بنجاح. أقول هذا لأن ابنتي عمرها 21 سنة، وهي من جانبها، سوف تمضي

بعيداً في الدراسة، في الوقت الحالي هي في الليسانس، لكن، بشكل طبيعي، كان يجب أن تكون أستاذة... أنا نجحت في البكالوريا الأولى فرع العلوم الاقتصادية، وكان هذا الفرع متعثراً ما يزال في بداياته، ومن بعدها قرفت منه فحصلت على بكالوريا فرع الفلسفة... بشهادَتَيْ بكالوريا في ذلك الوقت، مهنياً، كان يمكن العمل في كل مكان، ولم أكن منسجماً مع الدراسة كما يجب، ولم يكن لديّ وجهة محددة، ولم يكن لديّ السند العائلي، الإطار العائلي الواقي. تعرّفت على المرأة التي أعيش معها منذ 35 عاماً - هذا الوضع مستمرٌ منذ 35 عاماً - وكان عمري وقتها 16 عاماً، فتزوجنا سريعاً. اشتغلت لبعض الوقت موجهاً في وزارة التربية، وكانت زوجتي تعمل، زوجتي ليست مثقفة لكنها على أي حال امرأة ذكية جداً، قدماها راسختان على الأرض، وذهنها متفتّح. كانت تعمل سكرتيرة في إدارة؛ كانت مندمجة تماماً في دنيا العمل وهي موضع تقدير وذات فعالية عالية.

❖ كان عملك في أساسه...

السيد سايان: كنت أزور الأطباء، يعني، في البداية كان هذا في الشمال من فرنسا وكان القطاع الذي أعمل فيه قد سبق له الانتفاخ قليلاً لفترة في الشمال، في البيكاردي ومقاطعتَيْ النورماندي؛ كنت أسكن في مدينة «ليل»، فأُمضي نصف السنة أعمل لأعود إلى بيتي مساء وأمضي النصف الآخر في السفر، مثل الطيور المهاجرة، كنتُ أرحل منذ شهر آذار، لأعود في الشتاء إلى بيتي... كنت أطوف في سيارة كارافان، وهذا استمر لبعض الوقت، لأنني من بعد مخبر أو مخبرين صيدلانيين، انضممت إلى شركة لك. في سن السادسة والعشرين، وهذه الشركة جعلت مني بسرعة كادراً إدارياً في مدى سنتين. وقد حوّلوني بناءً على طلبي إلى قطاعٍ آخر في مدينة نانت. لقد حوّلوني لسببٍ وجيه. لأنني لم أعد أنفع لشيء. وجدتُ نفسي في نانت، وكانت مهمتي إقامة علاقات عامة مع الناس، وكما ترى فأنا كنت من الذين يتصلون بسهولة كبيرة جداً مع الناس ويقيمون العلاقات بسهولة ويسر. (...) فلا أخاف من شيء، وفي آخر مناسبة من «الأيام

السنوية»، تحدثت أمـام 600 شـخص، ووجّـهت خطـابي إلـى مديـر الوكالـة الوطنيـة للتشـغيل ANPE فـي حينـها؛ لا أعـرف الحـذر... لكـن هـذا بحكـم العادة لأن مهنتي جعلتني ألتقي بعشرات من الأشخاص المختلفين؛ شاركت في مؤتمرات عديدة جداً لأننا كنا نلتقي مع أعضاء الهيئة الطبية (..) في نانت، وجدت نفسي عملياً مع 20.000 شخص يجب الطواف عليهم، وهكذا فكانت مهنتي ساحرة في نظري... كنت أزور من أشاء، من ممرّضة المستوصف إلى المدير الأعلى الذي كنت ألتقي به في مؤتمرات أو أحضر معه أمام طلابه حيث كنت ألقي حديثاً لمدة 20 دقيقة عن موضوع حمض البول، والاستطباب، إلخ. كان عملي في غاية التنويع، فلم يكن عندي نهار يشبه الآخر، بل كنت دائماً في أماكن جديدة، ولسبب وجيه. إذن لم أكن محبوساً داخل جدران المؤسسة، ومن يريد أن يفهمني، (وهذا أساسي في رأيي) فعليه أن يرى: 25 عاماً من النشاط المأجور إنما ليس داخل المؤسسة. وحيث أنني لم أكن مرتبطاً بنتائج، فلك أن تتظر...

❖ أي نعم... ولكن، كنت مع ذلك مرتبطاً بـ ...

السيد سابان: كانت نتائج غير مضبوطة بأرقام. يعني، نعم، كانت الإدارة في البداية تتقبلنا باستحسان، ومن بعدها، عندما جاء من يشتري شركة ك. فالمدراء المالكون للشركة أنزلونا لتخفيف الحمولة. وعندما أتيت إلى نانت كنت أعلم حقّ العلم أن الشركة في وضع متأرجح، لأنهم كانوا لا يستعيضون عن الذين يتركون العمل، ولا عن المتقاعدين، ثم، من بعد ستة أعوام عقدوا اجتماعاً للجنة المؤسسة، إلخ.. وما عادوا يريدون الاحتفاظ بنا كزوّار طبيين، وكان معهم حق؛ فالإعلان في التلفزيون احتل مكاننا، ولم تعد لنا فعلاً فائدة. حينها. صرفوني...

❖ اسم العمل الذي كنت تقوم به، هو زائر طبي؟

السيد سابان: نعم، كان الاسم زائر أدوية، مندوب، مندوب أدوية، لكني كُلّفت في السنوات السبع، الثماني الأخيرة، رغم أني كنت قبلها من الكوادر الإدارية، لكن حينها فعلاً كنت من تلك الكوادر إذ أشرفت على إعداد

50 شخصاً في تلك الأثناء، وكان ذاك في زمن توفرت فيه فرص العمل بكثرة، كانوا من الوكلاء التجاريين، وكي أعطيهم المبادئ الأولية عن الجانب الطبّي في منتجاتنا، أهّلتُ أكثر من خمسين شخصاً، ووظّفتُ منهم ما يقرب من ثلاثين، وعندما يريدون توظيف عناصر جديدة، كانوا يستدعونني إلى باريس مع زميل آخر هو بمثابة مثيلي في مونبلييه، فكنا نقرر بصدد كل متقدّم... فنأخذه أو لا نأخذه. ومن بعد التوظيف، كنت مكلّفاً بالتأهيل، حتى لقد اضطرني هذا عملياً، على مدى سنوات طويلة، إلى تكريس أيام الأحد لاكتساب مزيد من المعرفة الطبية؛ وعندما كنت ساكناً في الشمال، أرسلتني شركة ك. لمدة ثلاثة أعوام إلى مشفى أوتيل ديو، فهذا أتاح لي تحصيل المستوى المناسب لتأهيل الناس. أما «معلّمتي» التي كانت طبيبة فكانت تثق بي: فكنت أوظّف، وأؤهّل، وأرافق الناس ... (...) وإذن كان هذا عامراً بالحيوية لأنني كنت أرى الناس، عدا عن أنني أختار من أريد من الأطباء، فكان زملائي الطبيّون يذكرون لي أن الطبيب فلان هو بعبع، سيء الطبع، كان عندي أسماء 20،000 في فهرسي الخاص وقمت باتّصالات رائعة مع الأطباء (...).

لقد شاركتُ بمؤتمراتٍ كثيرة في باريس وفي أماكن أخرى، شاركتُ في مؤتمراتٍ في الخارج (أتكلم الألمانية بصورةٍ صحيحة جداً جداً وكذلك الإنكليزية)، يعني. فعلاً، كان الأمر ممتعاً لأنها قضيّة علاقات خالصة مع أطباء كانوا يستقبلونني بالأحضان لأني كنت حاسماً بشأن الجانب المنغّص لدى المختبرات. وكان معظم الأطباء الشباب يجهلون وصف العلاج بالمياه المعدنية لأنهم لم يتعلّموا ذلك، لا، كان عملي في غاية الظرافة. كان نهاري ينتظم بشكل مرن...؛ وكان أسبوع العمل عندي يشمل ثلاثة أيام ونصف، أما عندما أسافر، فأكاد أموت من كثرة العمل لأنني كنت أشتغل أحياناً 12 ساعة يومياً؛ فكنت أبدأ مشواري عند أطباء يستقبلون مرضاهم في السابعة صباحاً، وأكون قبلها قد خرجت من عند أطباء بعد منتصف الليل بنصف ساعة. لكن هذا لم يكن يزعجني نظراً لأنني كنت حراً طليقاً، عدا أن هذه

المهنة قائمة على التنقّلات الكثيرة (إنما أقلّ مما قد يخطر بالبال). فكنت إذن أتنقّل مع ما في السفر من وطأة العزلة، بالطبع العزلة قاسية لكن كان عندي امرأة صامدة؛ ثم، إذا دخلنا إلى العمق، فعلى صعيد العواطف الزوجية، كان هذا... يعني هذا أيضاً كان له حسناته.

ثقافة وتركة من الأهل.

❖ لماذا قلت إن الشركة صارت في وضع متأرجح، ماذا حصل...؟

السيد سابان: سرعان ما اكتشفوا وجود مياه معدنية أرخص، فانهار سوق المستشفيات، انهار! تخلّوا عن كل الموضوع، وبالنسبة لي اقترحوا عليّ إعادة تأهيل لعمل آخر لا يناسب على الإطلاق، لأنني كنت قد تقدمت في العمر. عندها قالوا لي، «إذا أردت، نعم، إذا ما أردت: عندك التسريح إنما نسرّحك ونحفظ لك حقوقك بالكامل»، فتركت العمل بتعويض 45000 فرنك. وطبعاً لم أشتر بهذا التعويض سيارة B-MW، إنما شغّلته على الفور، وهذا ما يسمح لي، بالرجوع إلى ما كنت أقوله بالأمس عندما استعرضت هذه الشروط: الثقافة، روح النكتة، السخرية، والإرث؛ فأنا شخص يمكنه أن يعتبر نفسه ميسوراً بالقياس إلى مجموع العاطلين عن العمل. (....)

❖ لأنك شغّلت هذه الأموال بالإيداع، أودعت هذه الأموال...

السيد سابان: ورثت عن جديّ بيوتاً، الخ.، حتى، إذا شئت، يمكن اعتباري من الذين نجحوا، بحيلة ضريبيّة، في ألاّ أكون خاضعاً للضريبة (...) لكن، طبعاً، لا أمشي على الذهب. لنقل إنني حالياً أعيش بـ 9000 فرنك شهرياً. وحيث أنني نملة مقتصدة وأعرف جميع الحيل لأعيش حياتي دون أن أصرف إلاّ أقلّ ما يمكن، فإنني أحافظ على نمطٍ بورجوازيٍّ في الحياة؛ أسكن في بناء بورجوازي لا يسكن فيه إلا الموظفون، بل عندنا في البناية نائب محافظ سابق، وقائد شرطة، إلخ.، ويعلم الجميع في بنايتنا أنني عاطل عن العمل، لأنني أعلنت هذا، دون أي تكتّم...

❖ بالصوت العالي وبقوّة...

السيد سابان: نعم، بالصوت العالي وبقوّة. فبعضهم أردت إزعاجهم، وبعضهم أردت ببساطة أن أقول لهم الحقيقة؛ هذا لا يسبّب لي أية مشكلة، هذه ميزة التأهيل والثقافة، فأنا في حوزتي بعض المهارات الاجتماعية وأساليب الكلام التي تسمح لي تماماً بتجاوز هذا الفاصل الاجتماعي الحاصل بيني وبينهم. على أي حال، فأنا الآن راقت أحوالي أكثر بقليل، الأقساط التي أدفعها للبيت تناقصت، وفي سن الـ 60، سوف يكون واردي الشهري التقاعدي 12000 فرنك.

❖ نعم، معك، اعتباراً من ذلك سوف تكون الأمور على ما يجب...

السيد سابان: لأنهم في وكالة التشغيل ANPE صرّحوا لي ذات يوم وجهاً لوجه- وأنا أشكرهم على هذا، والذي كلّمني كان ممّن سبق أن دخلت معه في علاقات إيجابية جداً... إذن، حصل أنه قيل لي في الـ ANPE، «شخص مثلك لن يجد أبداً» ... ظهرتُ في التلفزيون، ونظروا نظرة إعجاب لانتقادي اللاذع للنبذ بحكم التقدّم في العمر. فوضّحت (لأنني إلى حدٍّ ما ممثّل وأعرف كيف أعطي لكلماتي وقعها)، «أعتبر شخصياً العنصرية بحق المتقدّمين في العمر معادلةً للعنصرية حسب لون الجلد»، وهذه العبارة أذيعت! ما عاد عندي أمل في إيجاد عمل، على الإطلاق، وإليك البرهان، فعندي صاحب عتيق، بقي من جانبه في الشركة، ثم قَبِل أن يكون في قسم المبيعات كوكيل تجاري... أما بالنسبة لي، فهذا العمل التافه، ما كان لي أن أقبل به، لأذهب إلى المخازن الكبرى وأساوم، وأفاوض حول الميزانية... لا، ثم لا! هذا فوق ما أحتمل...

❖ هذا لم يكن يناسبك بالمرّة...

السيد سابان: لم أدرس كثيراً لكنني شخص يقرأ 150 كتاباً في العام، يقرأ صحيفة «لوموند» من 30 عاماً، فأنا رغم كل شيء مثقّف إلى حدٍّ ما. وكي أعطيك فكرة عن مستواي، فأنا أحلّ الكلمات المتقاطعة في اللوموند والفيغارو في نصف ساعة فقط؛ فهذا يوضح لك مستواي الثقافي ولن أيأس في الظهور يوماً ما على التلفزيون، في برنامج «أسئلة لبطل»، فعندي

ذاكرة هائلة، أنا في هذا المجال أكثر قدرة مني في مجال الذكاء، لا، لا أعرف نفسي فريداً في الذكاء، لكنني متفوّق التأهيل، متفوّق الـ... أي نعم، والسبب المهنة التي مارستها، حيث الناس الذين لا أعرفهم سابقاً، الأطباء، فأدخل إلى مكتب الطبيب، وتعلم أهمية الوصول إلى ما تريد في 30 ثانية، فتعلم مبدأ الكلمات الثلاث الأولى، الخطوات الثلاث الأولى، والنظرات الثلاث الأولى... كان عليّ أن أفهم حتماً! كل شيء حتماً كل شيء، حول الشخص الماثل أمامي: «نموذجه وطبعه»، والديكور... حيث أكون قد استوحيت شخصيته مما هو موجود في صالة الانتظار، إلخ. وهذه هي نوع من الرياضة الذهنية، يل هذا مخيف لأنني اكتشف ما في داخل الإنسان في 15 ثانية. (...)

في داخلي شخصيتان

❖ ذكرت أن الأمر كان قاسياً في البداية...

السيد سابان: نعم، بالفعل، إذا أردت، لكنني الآن أمامك وأقول، ما شي الحال. فالصفعة التي يتلقاها الإنسان في وجهه، عندما يقولون له في سن الـ 45 «الله معك» ! فهذه لا تُحتمل. على أنني، في الحقيقة، لم أكن داخل المؤسسة. وأنا في الوقت ذاته جبّار في العمل، فأستطيع أن أشتغل 12 ساعة في اليوم، وقد شاركتُ في مؤتمرات في باريس طيلة شهر كامل، لكنني بالمقابل أستطيع أن أكون كسولاً عند اللزوم؛ فعندي، لنقل، تصوّر متقاعس إلى حدٍّ ما عن الوجود دون أن ينتقص هذا من كوني من أصحاب الحيوية... على أي حال، لقد أبرزت مهنتي جدارتي لأنها كانت مهنةً شديدة السخاء. فكان عملي الاتصال بأطباء، كانوا، من جانبهم، في غاية اللطف! فكانوا يدعونني إلى تناول الطعام معهم.. إلى تناول كأس، وكانوا... ذات يوم، وقعت على طبيب قال لي، «سوف نستمع سوياً للموسيقى»، وترك جميع من كان في صالة الانتظار... أنا لم أكن في يوم من الأيام مدمن عمل، كانت محاور اهتماماتي متعدّدة، وكنت أعرف جميع متاحف النورماندي. لكن حتى إذا كنتَ من جماعة التنبلة، حتى لو حملتَ علانية احتقار العمل وكنتَ

من المتأثرين بعمق بـ «تقريظ الكسل» كما جاء عند لافارغ [صهر ماركس]، فلن تشعر بمشكلة عندما تقع في الفراغ والكسل. على أي حال، أنا قابلت حظي المنحوس بطيب خاطر...

❖ نعم، لكنه توجّب عليك إعادة تنظيم حياتك...

السيد سابان: يعني، بهذا الشأن، اسمع، أن أعيد تنظيم حياتي، فهذا لم يكن بالأمر الصعب، فأنا لم أكن داخل المؤسسة، كنت سيّد جميع أوقاتي، فلم يتغيّر الأمر عليّ... وقد استعدت، لأن في الموضوع جوانب إيجابية، استعدت أسرتي، لأنني قضيت معظم وقتي في التنقّلات، وهذا لا يسلّي، لحسن الحظ...

❖ نعم، بالفعل، يكدح واحدنا لأنه لا شيء آخر لديه يفعله.

السيد سابان: لا، أنا كنت أتناول الكتب.. جميع الصحف، لكن الحياة في الخارج، ليست مسلّية، مسلّية، مع أنني قابلت أناساً مهمّين، من الرجال والنساء، الخ.، ولكن هذا لا يسلّي، فلا يمكنك ممارسة نشاط رياضي، ولا يمكنك ضرب مواعيد منتظمة للتسلية ضمن الأسبوع، متى كان عملك الانتقال من مكان إلى آخر، فأنا كنت قد قلت هذا لأسرتي.. يعني، كان عندي علاقات لا بد من إقامتها، وأنا في أيام السبت والأحد كنت أحشو رأسي بالمجلاّت الطبية. إيه ما العمل؟ نعم أمضيت أيام أحد كاملة في قراءة الصحافة الطبية، في تحضير ملفات، في كتابة محاضرات لزملائي، إلخ. ولذلك أشعر أنني استعدت عائلتي.. ولست ذاك المهووس بالعائلة، بل وعلاقاتي سيئة جداً مع ابني؛ أنا وزوجتي متفاهمان وأحوالنا ماشية جيداً؛ ابنتي من الفتيات المثقفات، لكننا «لا نبثّ على الموجة ذاتها»؛ على سبيل التوضيح، فهي صوّتت بالرفض [في الاستفتاء على معاهدة ماستريخت] لأنها مصابة بعدوى أفكار لوبن. علماً، لا أعرف كيف يمكن.. يعني، أب يساري، وابنة يمينية. ما العمل، لكنني أتقبّل، هكذا ببساطة.. وسوف تتغيّر، سوف تتغيّر.

❖ هل غيّر هذا ليس فقط تنظيم حياتك، وإنما غيّر أيضاً رؤيتك للعالم؟

السيد سابان: نعم، رؤيتي للعالم! آه، وهذا بسيط! كنت في اليسار دون تحفّظ، لكنني قاطعت الانتخابات عندما كانت لليسار المتطرّف.. فالتصويت للشيوعيين، لا. وأبعد من خيبة الأمل بالانتخابات، فأنا من المتشائمين، أنا متشائم، متشائم يعلن وقوع المصائب لأن عندي الأمل ألا تتحقّق. (...) ثم أنا لا أؤمن إطلاقاً بالأبراج لكني من برج الجوزاء بشكل نموذجي: الأبراج أمر سخيف، لكن من هو جوزاء أكثر مني، لا يمكن أبداً أن تجده، لا يمكن أبداً أن تجد جوزاء أكثر مني! آه لا، إنما في داخلي شخصيتان، أنا أعلم هذا.. هذا لا يصدّق! في داخلي ازدواجية، ومن هنا بعد النظر، على أي حال!

[...]

لا أفرط في الاستهلاك.

السيد سابان: على سبيل التوضيح، ورثت عن أهلي ما يعادل تقريباً ثلاثة ملايين فرنك، بالإضافة إلى شقتي... إيه أنا أدفع 600 فرنك عن هذا البيت؛ إذن أنا عاطل عن العمل غير نموذجي، من خارج هذا الصنف، ولا أستطيع طبعاً أن أحكي هذا لجميع الناس. (...) الإرث الذي بحوزتي غير مثمّن كما قد أستطيع، لكنني عن قصد تركته موزعاً هنا وهناك، لأنني لا أريد وضع البيض كله في سلّة واحدة. فإذا سمحت لي، أنا، عندي جانب فاسد الذمّة، فأنا عرص بورجوازي رأسمالي ملاّك. أي نعم! نعم، هذا جنباً إلى جنب مع الأفكار اليسارية، لكن، في النهاية، أنا هكذا، وهذا لا يسبّب لي أية مشاكل (...) ولا أفرط في الاستهلاك، كما هو حال معظم الناس: فلا رحلات، والسيارة سوف أحافظ عليها، ما دام يمكنها الاستمرار، حتى التقاعد، ولا ما يشير خارجياً إلى الثروة، فأنا ثيابي كما هي عليّ مناسبة وسليمة، ولكن أقضي الأسبوع بأكمله في الجينز، لم يعد لديّ الإمكانيات لإتلاف ثيابي، والبنطال الذي ألبسه، هو لشخص كنت قد أصلحت له النافذة، فأتحفني بأربعة بنطالات، بنطالات رائعة، أعادت امرأتي ضبطها على قياسي، يعني، زوجتي تقوم بأعمال خياطة، نحن من الشمال، وهي

تذهب معي دائماً عندما نذهب إلى الشمال مرّة في السنة - ويعني، عندما أقول، «أنا لا آخذ عطلة صيفية»، فأنا ذهبت إلى الشمال في السنة الماضية (لكن، هل الذهاب إلى الشمال عطلة؟). أنا، بعض الأمور لا يمكن أن تخدعني، ولا أخفي عنك، مثلاً، أنني من خصوم الحدّ الأدنى للإدماج RMI، وسبق لي أن قلت هذا. وإذا كان هناك بطالة، فالسبب وجود عدد من النساء سرقن فرص العمل، فـ «طار» بسببهن آباء أسر مثلي أصبحوا عاطلين عن العمل؛ أنا، هذا الرأي مصرٌ عليه لا أتراجع عنه.

❖ هذا ما تفكر به...؟

السيد سابان: هذا رأيي، لكن، مع مراعاة أنني لست من أدعياء الفحولة. فللنساء الحق في الخروج إلى ميدان العمل، في رأيي هذا واضح وصريح. ولكن يجب التجاوز، أنا شخصياً أتجاوز، أتجاوز بحلٍّ أساسه تقسيم العمل. وعلى كلٍّ، فقد أضيف، إذا سمحت، حبّذا لو أنقصنا قليلاً عدد المهاجرين، وأنقصنا قليلاً عدد المطرودين من الأرياف، إلخ.، إلخ... في جميع الأحوال، أنا أنتظر تحقيق أمرين اثنين، أنتظرهما، ولا يخطر لك أن هذا من باب الـ Schadenfreude [الفرح الخبيث]، من باب سياسة الأسوأ، ولكني أنتظر أولاً خفض نسبة الولادات، وثانياً، تطوير صناديق التقاعد إلى أقصى ما يمكن. فالنساء العاملات، (...) الولد الوحيد كارثة، النساء اللواتي يكتفين بولدٍ وحيد يجب معاقبتهن، من الأفضل في هذه الحالة عدم الإنجاب إطلاقاً؛ فهؤلاء أناس لهم في الأسرة رواتب مضاعفة، مليونان ونصف المليون شهرياً؛ في بنايتنا، عندي جارٌ متقاعد تتطّح وأمّن لنفسه مرسيدس مستعملة بـ 17 مليون (يمكن إذن أن تلاحظ ما هو الوسط الذي أعيش فيه)، إيه، قال BMW لحضرة السيد، والفولفو لجناب المدام... أنا لا أقدر أن أفهم عقل النساء! فشروط العمل عبودية حقيقية، «يخرى» الموظف على نفسه، يجب أن نقولها صراحة، في مشروع من المشاريع مع المؤامرات، والدسائس، والسلوك الديكتاتوري عند ربّ العمل. طيب، أنا لا أستطيع أن أفهم ما هي الفائدة في الذهاب وقضاء العمر في العمل. أنا، لو كنت امرأة

وكان عندي زوج يكسب ولديه دخل جيد، فأول ما سوف يشغلني خلق جو من التفاهم الزوجي ثم إن المرأة عندما تختار رجلاً، فالغاية محاولة البقاء إلى جانبه، فلا شيء يعادل الوفاء في الحياة، طيلة حياة بأكملها؛ أنا عندما أرى الطريقة التي يعمل بها الناس ذهـ... أقضي ثلاث سنوات مع مثل تلك المرأة، أوه! والتكاليف التي يدفعها المرء من أجل الأبناء! أوه، لا، فلا... ثم لا! وإذن فعمل المرأة هو السبب في، ما علينا...

{ظهرت حينذاك سيّدة شابة، مدام لوران، فقدمت نفسها، وطلبت أن نسمعها}.

هذا شيء نسيت أن أقوله لك

مدام لوران: ... الأمر الرهيب، إذا سمحت، هو فقدان الحلم، وهذا معناه، أننا لا نعلم كيف سيكون الغد، فنحن ننتظر وفي هذا الانتظار، الأمر الخطير أنه حتى عائلتك نفسها لا يعود بإمكانها التخطيط لمشاريع أيضاً... هذا ما كنت أريد أن أقوله لك لتقوله (...).

السيد سابان: آه، معها الحق، كل الحق! فهذا شيء نسيت أن أقوله لك... أوه، كم أشكركِ، كم أشكركِ! أنتِ بعثتكِ العناية الإلهية! لأنّ هذا... نسيت أن أقوله لك... نسيت...

مدام لوران: ... لأن هذا الأمر خطير، فأنا لم تتراكم عندي بعد مشاكل كثيرة، لأن تعّطلي عن العمل لا يعود إلى فترة بعيدة جداً جداً، ومع ذلك ففي أعماقي، هذا الأمر يسبب لي الأذى، هكذا، نعم، حتى يصل بك الأمر إلى أن تقول، «لا أعلم ماذا يمكنني أن أفعل غداً»، والحقيقة، لا شيء...

السيد سابان: يا دانييلا، لقد تفاديت الضربة، بالعيش في حاضر خالد...

مدام لوران: هذا ما كنت أود ببساطة أن أقوله لك، لأن الجميع كانوا يتكلمون، فالأمر هكذا، الأمر هو أنك تعيش دوماً في هذا الحاضر، بينما

حتى هذه اللحظة، حياتي، ومعها حياة أسرتي، أقاربي الأقارب فعلاً، كانت في التخطيط لمشاريع، في أن نكون دائماً إلى حدٍّ ما في المستقبل... فليتنا على الأقل كنا من جماعة أبيقور القائلين بأن يعيش الإنسان في الحاضر لأنه أمر خارق، فهو أروع...

السيد سابان: «استمتع باللحظة الهاربة» ...

مدام لوران: لكن ليس حاضرنا الحاضر الأبيقوري، ليس الحاضر على هذه الصورة...

السيد سابان: هذا حاضر شديد الوطأة، نعم. حاضر من الصعب هضمه.

مدام لوران: بالضبط. وهذا الحاضر عندي يكاد يكون بفقدان الرغبة في رؤية الغد لأنني خائفة، خوف من يستيقظ من النوم... وكما لو أن الإنسان يقول لنفسه، «ما يزال الحال هو هو، أنا ما أزال لا أملك شيئاً، لا أعلم ماذا سيكون بإمكاني أن أفعل».. وفي الوقت نفسه يأمل الإنسان، «سوف تصلني رسالة أو يرن جرس التلفون بمخابرة هامة». هذا بكل بساطة ما أردت قوله لك.

السيد سابان: لا، معها حق، كلّ الحق ...

مدام لوران: كما تعلم من الخطير في الحياة أن يموت الحلم، وكلمة «حلم» هنا بكل ما تحمله من معان...

السيد سابان: لا، ولهذا سألت، أي أحلام؟ حلم الليل أم حلم...

مدام لوران: أنا كان لي دوماً حلمي! كل ما كنت أفعله في حياتي، صحيح، هو الحاضر تحديداً، لكني كنت أقول لنفسي دوماً، «في الشهر المقبل، في الأسبوع المقبل سوف نفعل هذا» في العمل وفي الحياة الخاصة سواء بسواء. أما الآن، فلا أستطيع أن أفعل شيئاً.. وبالفعل فالأمر هو هذا، هذا عندي أمر خطير، يعني.. يوجد هناك أمور رهيبة أكثر بكثير، على عيني، إنما.. صحيح، ليس معنا قرش، لا، إنما من الخطير على الإنسان.. ألاّ يكون لديه مشاريع، أن يكفّ عن الأحلام.

السيد سابان: خصوصاً في ما يخصّني، حيث عندي البديل الممكن... بوجود ولدين- فابني ليس ذلك النجاح الاستثنائي، يعني، لكنه، في النهاية يكدح، وعنده مشاريع، وابنتي، نظرياً، المفروض أن تذهب في شوطها بعيداً، ربما لا أدري... أقل تقدير الماجستير أو... إذن هما يتابعان بعض الشيء مشروع مستقبلي. لكن في ما يخصّني شخصياً، فالمستقبل لا يخطر لي أبداً على بال. وهذا الأمر صحيح جداً- فأشكرك لأنني قد نسيت تماماً، أنا مستسلم، مستسلم لموجة الحاضر تدفعني... أما المستقبل فلا أعلم ما يكون. وبالتالي، بالتأكيد، أقول لنفسي، «تماسك أيضاً ثماني سنوات قبل التقاعد»، أما التفكير بالغد، لا. ولهذا فإنّ إحساسي بالزمن اختفى تماماً. وأقدر أن أقول لك شيئاً: لم يصبني الأرق أبداً بسبب البطالة، لكن لحظة الاستيقاظ صعبة عليّ؛ فلمدّة شهور استمرّيت أستيقظ على الحلم نفسه: كنت أرى نفسي دائماً في صالة انتظار في عيادة طبيب، والصالة دائماً مختلفة. فإذا كنت قد زرت من الصالات 25000- لعلّي أبالغ قليلاً- وكانت مختلفة بعضها عن بعض. لكني لم أُصب أبداً بالأرق. وأما الانهيار العصبي، في رأيي، فأنا لا أعلم ما يكون.

❖ {الخطاب موجّه إلى مدام لوران} فماذا كان عملك؟

مدام لوران: كنت في قسم الإشراف على العاملين، أقصد.. كما ترى، دائماً أتكلم بصيغة الماضي، «كنت..»! أنا.. يعني هذا هو عملي (لكن لا أستطيع أن أمنع نفسي من أن أقول.. من المؤلم التكلّم هكذا).. زميلتي وأنا، كانوا يعدوننا منذ سنتين أو ثلاث سنوات أن نحصل على صفة الكادر- ووضع الكادر هو فخٌ نوعاً ما، كما تعلم..

السيد سابان: نعم، فهذه هي الجزرة..

مدام لوران: لعلّنا حتى ما كنا نطالب كثيراً بالراتب، إذا شئت، إنما.. كنا نكافح قليلاً لنأخذ الصفة. وكانت مشكلتنا إلى حدٍّ ما إثبات حضور وشخصية في مواجهة مدير عارض باستمرار فكرة أن تحصل امرأتان.. لكنهم، ما كانوا عموماً من محبّذي الترفيع، خصوصاً في قسمنا، لأنهم كانوا

يعتبرون الانتقال إلى وضعية الكادر الإداري- مع أننا كنا مكلّفات بالإدارة والإشراف مع ما في هذا من مسؤوليات كثيرة-، فكانوا يخشون ألاّ نكون قادرتين على إظهار السلطة الكافية بعد الحصول على تلك الصفة الإدارية: فنكون من جماعة الكوادر، ولا نكون منهم.

[...]

عمل «رائع»

مدام لوران: أنا لست من الإداريين أصحاب المراكز ولكن معي CV (وذاك أن هناك من اتصل هاتفياً بربّ عملي، فأسندت إليّ مسؤوليات كثيرة وهذا قد يبدو غريباً)؛ لكني أعترف، بفضل الشركة التي عملنا فيها، ورغم بعض المشاكل مع شخص في مركز رفيع ضمن التسلسل الإداري، كان حظنا كبيراً (أستخدم صيغة الجمع لأننا كنا اثنتين، وكنا فعلاً على ارتباط كامل في العمل). باختصار، امتيازنا بالضبط هو أننا حصلنا فعلاً على فرص في العمل، وأن نقوم بأمور فائقة. لهذا استفدنا من عملنا لفترة من الزمن، وقلنا، «هذا رائع، يعهدون إلينا بمهمّات، وعندهم ثقة بنا، سوف نتفوّق على أنفسنا، فنحن للإشراف، ونراقب التنفيذ أحياناً»، هذا عظيم بالنسبة لنا! لكننا من بعد ذلك قلنا، «اللعنة!»، فكنا نرى أكواماً من العاملين يرتقون إلى مرتبة الكوادر، وتساءلنا، «لماذا؟». فداخل مؤسسةٍ أغلب العاملين فيها من الرجال، مع قلّة من النساء... وبالتالي تساءلنا، «فلماذا لا تصيبنا نحن هذه الترقية؟». كان هذا سؤالنا في المرّة الأولى، «لماذا ليس نحن؟»- ففي كل سنة كان لنا محادثات، حديث سنوي مع مسؤولينا للتخطيط للسنة التالية- ومن ثم، في السنة التالية، قالوا لنا، «لا» لأسباب واهية كلياً لا أساس لها من الصحة. ومن ثم، ساء الوضع، وعلى التوالي تشوّهت جميع العلاقات، فمديرنا الإداري والمالي، الذي كان يفهم في الإدارة المالية أكثر مما يفهم في شؤون العاملين، لم يكن في الحقيقة يعرف أمور عمله الإداري، كان يشعر بأن القسم الإداري ليس في يده، مع أننا كنا نقوم بشغلنا على خير وجه. كان يرى بأننا عبء زائد، إذا شئت، كان لا يفهم عملنا، وكان يقول، «أنا لا أفهم،

في هذه الشركة، قسم المحاسبة ليس عندي مشاكل فيه؛ وأما قسم العاملين فليس لديّ فيه إلاّ المشاكل».

السيد سابان: لو كنتِ تزوجت ورزقت بأولاد، لما أمكنكِ القيام بالعمل.

مدام لوران: لا، ولكن صديقي قال لي ذات يوم، «أنتِ قدمتِ كل هذه الوثائق، وأنا سوف أرميها من النافذة » كان قد أصابه الضيق! وكان هذا مثيراً حتى قلت لنفسي... أنا لم أعد أريد.. أحياناً، في الويك- إند، كنت أريد أن أعرف، كنت أريد أن أقوم بعملي، ثم، يعني، كنت أيضاً في تنقّل دائم، يعني. فطيلة سنة، كنت أُمضي 15 يوماً كل شهر في سفر، في الخارج، بوردو، كليرمون- فيرّان، وما شابه. إذن، كان الموضوع يتجدّد كل شهر. لهذا، في البداية، ورد الأمر مرّة أو مرّتين، لكنه، من بعد ذلك، أصبح يتردّد بإلحاح دائم دائم و... صديقي بدأ ينشغل باله... وقد انزعج انزعاجاً كبيراً وهو يرى عجزي عن تحصيل حقي في الترقية إلى ملاك إدراري. لأنه كان يعلم أن الأمر بالنسبة لي... أقولها لك، لعل الأمر لم يكن له عندي أدنى أهمية مالياً، بل هو...

❖ نوع من الاعتراف بالجدارة...

مدام لوران: بالضبط! كان سيشعر باعتزازٍ كبير في ما لو... وكان يقول لي، «على الأقل، حقّك وأنتِ جديرة» ...

لا شيء يقع بسبب لا شيء

دُهشنا قليلاً لرؤية مدام فورنيي في وسط أناس لا يجمع بينها وبينهم شيء. فالبطالة لا يجوز، في نظرها، أن تسمح لكائنٍ من كان بإهمال العناية الواجبة بالمظهر الخارجي. كانت ترتدي «تايور» غامق اللون بتموّجات متفاوتة، وتلبس حليّاً من الذهب، مع قصّة قصيرة لشعرها الأشقر، فكلّ ما فيها يوحي إلى حدٍّ ما بالصورة المنتشرة الآن عن «المرأة العاملة» التي تحتلّ مركزاً مرتفعاً نسبياً في المشروع. تتكلم بثقة، لكن بكلمات مدروسة، في محاولة منها لدفع محدّثها على تقبّل «طبعها»، دون أن تطالبه، على ما يبدو بالاستحسان والإعجاب.

أما الطاقة الداخلية التي عبّرت عنها وسط كل المحن فهي على علاقة مع الثقة الراسخة بالنفس التي حصلت عليها بالعديد من الألقاب الدراسية (علوم اقتصادية، شهادات تخصّص متنوّعة) مثلما هي على علاقة أيضاً بخبرتها الوظيفية في مجال الإشراف على الإدارة والخدمات المالية (تحكم على نفسها بأنها «قوية جداً جداً في هذا الميدان»). لم تبدأ بالعمل إلا من بعد طلاقها، في أحد المشاريع المتخصصة ببرامج المعلوماتية في المنطقة الباريسية. وقد استقرت مع ابنتها الوحيدة في الأقاليم ضمن منظور «النجاح الوظيفي» أو بتحديد أدق، بأمل الحصول على منصبٍ هام كمدير مالي: فلّما لم تتحقّق تطلّعاتها في باريس، كان لا بدّ من أن تقبل الذهاب إلى نانت، في شركة مشابهة لشركتها، للقيام بالإشراف على الإدارة وللوصول أخيراً إلى المركز الذي طالما اشتهته منذ البدايات. كان عملها يقوم على إدخال المعلوماتية في إدارة شركة كانت في أوج توسّعها، وقد شغفها هذا العمل: فكان المطلوب «تركيب نظام المعلوماتية، تأمين انطلاقها، تنظيم فرق العمل، الإشراف على المعدات الحديثة للمعلوماتية، تأهيل الناس لوضع برامج، تأهيل الناس للعمل على المعدّات، وفي النهاية هيكلة كل شيء مع تقدم العمل». ولكنها، ضمن «التركيبة العائلية» لذلك المشروع، لم تتأخر في اكتشاف التناقض بين تطلّعاتها المشروعة ظاهرياً وبين رغبة أرباب العمل في التخلص من هذه المنافِسة المحتملة بمجرّد أدائها للوظيفة المكلّفة بها.

ولقد تعرضت مدام فورنيي لخيبات عديدة، خصوصاً «رفض تعيينها، ثلاث مرّات على التوالي، كمدير مالي لأنهم ماكانوا يريدون لها في باريس حضور مجالس إدارية لا يوجد فيها غير الرجال». وهي في النهاية لم تقبل على عجل وظيفة الإشراف على الإدارة في نانت إلا على سبيل القبول بالأمر الواقع، مع الأمل بالعثور هناك على الفرصة البعيدة المنال، فرصة الترقية رغم المنغّصات التي شعرت بها سلفاً منذ البداية. وهل كان بيدها اختيار آخر؟ «بسرعة كبيرة، علمت أنني سوف أتصادم مع شخصين، المدير وزوجته. كنت أعلم عن يقين وجود مشكلة في العمق، لكني دائماً أمنح الناس

ثقتي، وقلت لنفسي لعلّ وعسى... على أي حال، كنت أنوي الرحيل فيما بعد، فلم يكن يخطر لي أن... لأنني لم أكن آمل هناك بأي مستقبل وظيفي، وأنا كنت أبحث عن هذا المستقبل، فقلت لنفسي، عندما أنجز تماماً...». أمّا ما فاتني حسن التقدير فيه فهو أنني كان المفروض أن أرحل قبل ذلك بقليل، حتى لو لم يكن كل شيء قد... ولكني من النوع المدقّق جداً، وبالتالي كان من الضروري إيصال كل شيء إلى المرحلة المثلى، فجاءتني الضربة المباغتة. لكن ربما أن المشكلة ما كانت لتتغيرّ، لأنني على الأرجح كنت سأكتشف أن تلك المنطقة لا يوجد فيها عمل.»

لقد انفجر خلافها مع الإدارة، انفجاراً له دلالته، أثناء نقاش لم يكن بينها وبين المدير وإنما بينها وبين زوجته، الحائزة من جانبها (عائلياً) على صفة مدير مالي، علماً أنها «بالفعل لا شيء»، فهي، حسب رأي مدام فورنيي، مجرّدة من أية كفاءة وهي ليست سوى التجسيد الحيّ لمنطق «عائلي» لا تفسير له عندها. وكانت الصيغة التي تم بها تسريحها مقصودةً لتذكّر مدام فورنيي بأنها امرأة: فالزوجان المديران دفعاها للاستقالة بمحاولة مسّ كبريائها (مهمّات مستحيلة، مواقف بائسة، إلخ). «ففي أحد الأيام طلبت مني زوجة المدير شيئاً ما كان بالإمكان إطلاقاً القيام به (غير ممكن القيام به لأنني كنتُ أعمل على نظامين، نظام يدوي، وفي الوقت نفسه نظام معلوماتيّ قيد التأسيس). كنت بمفردي، وكان عندي عمل فوق ما يحتمل فعلاً، كنت أعمل يوم الأحد، وكنت أعمل في الليل، ما علينا... إذن طلبت مني شيئاً ما يوم الجمعة من أجل يوم الاثنين، لأن أميركيين كانوا سيحضرون يوم الاثنين. فقلت، «اسمعي، الأمر مستحيلٌ تماماً، لا أستطيع أن ألبيه لك، هذا غير ممكن». فقالت لي، «لكنني أريده من كلّ بد». وأنا قلت، «لا، هذا غير ممكن». «لكن زوجي يريد هذا الأمر ليوم الاثنين من كلّ بدّ» فقلت، «اسمعيني، أقول لك لو كان ذلك ممكناً من الناحية العمليةن لو كان باستطاعتي أن أعطيكِ إياه، لكان ذلك من دواعي سروري، لكنني لا أستطيع أن أقوم به» يعني، وأخذت أشرح لها «كما تعلمين، فإنّ...» حينها،

انطلقتُ بنوعٍ من الضحك الساخر، فهذا كاد بالفعل أن يسبب لي ما لا تُحمد عقباه، والحقيقة فقد أصابتني نوبةٌ انفعالية! وهنا، تحت تأثير تلك النوبة، قلتُ لها، «أمّا بصراحة، أنتِ نكرة، أنتِ نكرة بشكلٍ رهيب!» لقد انتهى كلّ شيء، وكان بإمكاني أن أزم حقائبي، لكنني مع هذا انتظرت لأنني كنت أريد بأي ثمن أن تقول السبب الذي من أجله سوف تسرّحني، إذ لم يكن هناك أي سبب إطلاقاً؛ فانتظرت لبعض الوقت لأرى كيف تكون مناورتها. حينها وظّفت شخصاً جعلته صلة وصل بيني وبينها، بحيث تجعلني أرحل من تلقاء نفسي. لم تتوفرّ عندها الشجاعة شخصياً لتقوم بتسريحي، إنما... أنا عندي قدرة على المقاومة، وعندي قدرة فائقة على التأقلم، فهذا جزء من تكوين شخصيتي. وهي بالتأكيد أدهشتها قدرتي على التأقلم. أما الأخ- اللزقة (كما يمكن تسميته) فقد نكّل بي على مدى ستة شهور؛ كان يجلس مقابلي، في مكتب زجاجي فلم يكن بمقدوري أن أفعل شيئاً دون أن يتابع ما أفعله، وما كنت أتلقّى مكالمة هاتفية إلا وأجده قد أصبح بجانبي. وكان لا يكفّ طيلة النهار عن القول، «إلى أين وصلت، ماذا فعلتِ؟»، إلخ. لكن لم تبدر عني أبداً حركة عدوانية، أو ما شابه، لا شيء أبداً... كنتُ أريد أن أرى المدى الذي يمكن أن تصل إليه هذه العلاقة الرهيبة كلّياً. وهذا جعلهم يضطربون فعلاً لأنني لا أقول شيئاً واضطروا بالنهاية إلى اتخاذ قرارات، ففي نهاية السنة، قال لي، «أنا لا أريدك ضمن فريق العمل». فقلت حينها، «عظيم، عليك أن تعطيني الأسباب الدقيقة»، «هكذا، دون سبب، أنا لا أريدك ضمن فريق العمل»، فقلت، «اسمع إذن، عظيم جداً، سوف أناقش الأمر مع المديرة المالية»، وعندها، لم تعد تعرف رأسها من قدميها، فقلت لها، «الآن سوف تقولين لي لماذا؟»، «آ، إي، آ... أنا... أنا ...»، لم يكن هناك أي سبب، لم يمكنها أن تذكر لي سبباً، فعندها، أنا قلت لها، «اسمعي، أنا غير نادمة على ما قلته لكِ، ففي هذه المصلحة، أنتِ نكرة، وليس لكِ أي وزن. نعم، أنتِ زوجة المدير وتفعلين ما تشائين، لكني الآن أستطيع أن أقول لكِ إنكِ لا شيء. وأنتِ لا تستطيعين تحمّل هذا، فهذه مشكلتكِ، ولكنكِ

مخطئة بتسيير الأمور هكذا، لأني كنتُ مستعدة لتحمّل كونك لا شيء بالمرّة في مجال العمل، لو أنكِ أعطيتني جميع الإمكانيات لأتمكن من أداء عملي، حتى وإن كان عملاً مفرّغاً من كل مضمون، إيه». ثم قلت، «يا خسارة، يا خسارة بالنسبة لك خصوصاً»، فعندها كتبوا سبباً للتسريح «فقدان الثقة.»

تريد مدام فورنيي التغلب على وضعها بالتحليل والفهم: «لا شيء يقع بسبب لا شيء... ومن مطلق عذاب يجب أن يستمّد الإنسان طاقة كي لا يدمّر نفسه... فعند الإنسان قابلية كبيرة لحلّ الأمور لو أراد أن يستفيد منها...». ورغم أنها عاينت ضيق الإمكانيات المحلية في مجال العمل، فهي ترفض الاستسلام لأية قدرية بل وترعى في داخلها بعض الأفكار لحلّ مصاعبها (على وجه الخصوص إيجاد هيئة محلّيّة تكون صلة وصل بين مجموع الكوادر الإداريين الذين يعيشون في بطالة وبين عالم المشاريع الذي احتفظت بعلاقات مع بعض عناصره). وتساعدها ثقتها الراسخة بقيمتها الشخصية وظيفياً على تلافي مشاعر الحقد والخيبة إذ تيسّر لها إعطاء قيمة نسبية للخيبات التي لا تستطيع أن تجد لها حلاً. ومن هنا تلك النظرة المحايدة تقريباً التي توجّهها، رغم طموحاتها وما وراء تلك الطموحات، إلى العالم الذكوري في مجال المشاريع، ذلك العالم الغريب قليلاً «الذي صنعه الرجال». أمّا وضعها، كالرجال سواءً بسواء، لكل «ذاتها» في «العمل» فهو أمر يبدو لها امتيازاً موهوماً.

أيلول 1992

الفهرس



LA MISERE DU MONDE

تشكل مقولة «اقتصاد السوق» المسيطرة عملياً ونظرياً على المستوى الكوني، المرجع الرئيسي للعالم الذي نعيش، وتبدو هذه المقولة وقد استبعدَت، ظاهرياً، السياسة والايديولوجيا، موضوعية، بل تعبيراً عن «علم خالص» شديد الموضوعية.

ويمتلك السوق في هذه المقولة، عقلاً خاصاً به، يصحح أخطاء السوق ويمنع عنه عثراته، ويلبي، لزوماً، حاجات الناس، دون الإضرار بهم على الإطلاق.

وبسبب عقلانية السوق، التي هي صورة أخرى عن علم اقتصادي، فإن العالم كله يسير نحو سوق متجانس عالمي، يؤمّن حاجات البشر دون تمييز.

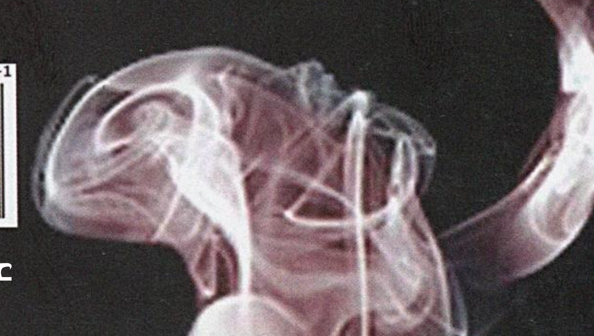
وهذا «السوق العاقل» وقد سيطر وتعمّم، يفرض على الظواهر الاجتماعية المختلفة أن تكون تابعة له، فتُخضع الثقافة والفن لمنطق السوق، وتمارس السياسة دورها بما يحفظ «استقلال» السوق و «عقلانيته».

تمثّل هذه الوقائع، مرحلة جديدة من مراحل الرأسمالية العالمية المنتصرة، مع فرق أساسي، هو أن كل مرحلة جديدة تحمل معها المزيد من الثراء والسيطرة لطرف معين والفقر والحصار لطرف آخر.

تصميم الغلاف: باسم صباغ




ISBN 978-9933-434-28-1
9 789933 434281



إشراف
بيير بورديو

بؤس العالم

LA MISERE DU MONDE

الجزء الثالث

منبوذو العالم

ترجمة: رندة بعث

مراجعة وتقديم: د. فيصل درّاج

بؤس العالم

الجزء الثالث

منبوذو العالم

العنوان الأصلي للكتاب:

PIERRE BOURDIEU

LA MISERE DU MONDE

صدر هذا الكتاب
بالتعاون مع
وزارة الخارجية الفرنسية وقسم الخدمات الثقافية
في السفارة الفرنسية في سورية

Livre publié
En collaboration avec
Le Ministère français des Affaires Etrangères
Et les Services Culturels
de l'Ambassade de France en Syrie

إشراف: بيير بورديو

بؤس العالم

الجزء الثالث

منبوذو العالم

ترجمة : رندة بعث

مراجعة وتقديم : د. فيصل درّاج

بؤس العالم / الجزء الثالث / منبوذو العالم

إشراف: بيير بورديو

ترجمة: رندة بعث

مراجعة وتقديم: د. فيصل درّاج



الناشر : دار كنعان

للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية

دمشق – ص.ب 443 تلفاكس: 2134433 (11 - 963 +)

E-mail: said.b@scs-net.org
E-mail: kanaanbook@yahoo.com

طبعة خاصة : 2010 / عدد النسخ 1000

إخراج: لبنى حمد

الإشراف العام: سعيد البرغوثي

يمكن الاطلاع على كتب الدار ومنشوراتها
على صفحة الشبكة التالية:

http://www.darkanaan.com
http://www.neelwafurat.com

بمنزلة تقديم

د . فيصل درّاج

«بؤس العالم» حدث ثقافي بامتياز، يدلّل على أن الصحيح قادر على مواجهة المسيطر، حتى حين يكون المسيطر عليه واهناً إلى تخوم التهشيم. فهذا الكتاب، الذي أنجزه باحثون اجتماعيون بإشراف بيير بورديو، وزّع في فرنسا مئة ألف نسخة، وتحوّلت أجزاء منه إلى عمل مسرحي، وترجم إلى لغات عدة. وبعد أن ظهر للمرة الأولى قبل سبع سنوات، أعيد طبعه من جديد قبل سنتين تقريباً في «طبعة شعبية»، مبرهناً على أن كتاباً في «علم الاجتماع»، تتجاوز صفحاته الألف، يمكن أن يلتقي بجمهور واسع، لا يجذبه عادة «علم متخصص» ولا يلتفت كثيراً إلى «البحوث الأكاديمية».

يطرح الكتاب أسئلة تمس القراءة ومنظور الكتابة والموقع الذي ينظر منه الكاتب إلى قضايا الذين يكتب عنهم ولهم. وعلى المستوى الأول يقف القارئ أمام بشر متعبين يبوحون بمشاكلهم اليومية، أي أمام حكايات فردية ومصائر فردية. لكن الحكايات، التي يعيد «تنظيمها» عالم الاجتماع، لا تلبث أن تربط بين الفردي والعام، محاصرةً «الوعي الزائف»، الذي يشتق الظواهر الاجتماعية من الأحوال الفردية، كما لو كان المجتمع مجموعات من الأفراد لا أكثر. ولهذا، تبدأ الحكايات بالأفراد وأماكن عيشهم وشروط عملهم ومسار حياتهم، وذلك في استقصاء متصاعد ينتهي إلى السببية الاجتماعية، التي تنتج كائناً بائساً «يفسّر» فقره بوعي أكثر بؤساً. ولعل هذا الاستقصاء الحكائي، إن صحّت

العبارة، هو الذي يمدّ كتاب «علم الاجتماع» ببعد تربوي. كأن الكتاب يضع القارئ، إن أحسن القراءة، أمام شروطه الاجتماعية، بعد أن يحرره، ولو نسبياً، من منظور زائف، يخطئ الأسئلة والإجابات في آن. وهذا ما يجعل بورديو، وهو يحيل إلى كتابه، يتحدث عن «طريقة أخرى لعمل السياسة» أي عن «طريقة تربوية» تدفع الفرد إلى التمرد على الأسباب الموضوعية التي تنتج بؤسه. وبسبب المسافة بين بدايات الاستقصاء والقول الأخير الذي ينتهي إليه، يبدو عنوان الكتاب غير مطابق لرسالته، لأنه، وهو يرى إلى البؤس في مرايا مختلفة يرى إلى التمرد في مرايا متعددة موازية.

تتعيّن القراءة في «بؤس العالم» أثراً لكتابة معينة، ذلك أن شكل القراءة لا ينفصل، غالباً، عن شكل الكتابة المرتبط به. ولهذا فإن الكتاب، وهو يطرح أسئلة متعددة على من يحاورهم، لا يقدّم «عملاً تسجيلياً»، يعيد صورة الواقع كما هو، لكنه يعيد تركيب صورة الواقع المعيش وتفكيكه، كي يكشف عما يجب وعيه بشكل صحيح، كشرط لنقده وتحويله لاحقاً. فطبيعة الأسئلة، التي يقترحها الكتاب، تؤثر في طبيعة الإجابات المستقاة، بل أن هذه الأسئلة، وهي تبدأ بسؤال بسيط لتصل إلى آخر أكثر عمقاً، تسعى، وفقاً لمنطق بحثي صارم، إلى الانتقال من العام والضبابي والعفوي إلى المحدّد والواضح والمرئي.

مهما تكن الأسئلة، الكثيرة التي يثيرها كتاب «بؤس العالم»، فإن السؤال الجوهري، ومحوره بورديو على أية حال، هو: «المعرفة الأخرى»، التي تبدأ أكاديمية، أي منعزلة عن قضايا البشر، ثم تنزاح، وبشكل متواتر، عن «الأكاديمي الرصين»، إلى أن تصل إلى مهاد جديدة تكون فيها نقداً لـ«المعرفة الأكاديمية» ونقضاً لها. والأكاديمي الرصين، أو المترصّن، وكما تراه الثقافة المسيطرة، هو ذلك القول المتطهّر الذي يذهب سعيداً إلى ما جاءت به الكتب التقليدية المتواترة، مُعْرضاً عما هو خارج الكتب، كما لو كان ما يجيء في الكتب هو المقدس، وما تقول به حكايات الحياة زندقة كاملة. وبسبب هذه الزندقة المفترضة، وهي مرآة لأخلاقية الكتابة، يحوّل بورديو

الكتابة إلى «طريقة أخرى لفعل السياسة»، ويمزج بين علم الاجتماع والتاريخ، ويرى في العلمين معاً مجالاً لأسئلة سياسية. غير أنه وهو يؤالف بين المعرفة والسياسة، سواء كانت سياسة واضحة أو ملتبسة، يسخر من «المعرفة الأكاديمية» ويعبث بها، لا لأنه يحتفي بقضايا المسيطر عليهم الذين لا يحسنون قط الرطانة الأكاديمية، بل لأنه عارف بـ«المعرفة الأكاديمية» بامتياز. وإذا كان المثقف ينظر إلى بورديو بانزعاج، وهو يجري «لقاءً صحفياً» مع شاب مغربي فقير اللغة، فإن بورديو يؤجج غضب «المثقف الأكاديمي» وهو يضع «المناهج الأنيقة الكبرى» في خدمة بشر مفتربين طردتهم المدارس الرسمية قبل أن يدخلوا إليها.

وواقع الأمر أن بين بورديو والمثقف التقليدي نقطة خلاف وأكثر، فالأول يرى أن الفكر لا يصحح ذاته بمقاييس فكرية، لأنه إن فَعَلَ لن يرى من حدوده شيئاً، ذلك أن الفكر لا يكتشف حدوده، أي نقصه وأخطاءه، إلا على ضوء واقع موضوعي خارجه. ومع أن الفرق بين الطرفين يبدو «معرفياً» إذ أحدهما يشتق الفكر من الفكر وثانيهما يصحح الفكر والكتب بأسئلة الواقع المعيش، فإن هذا الفرق لا يلبث أن يردّ إلى موضوع آخر يتجاوز المناهج المعرفية. والموضوع الآخر هو التحوّل والتبدّل والنقد والانتقال، والذي، إن تم القبول به، شمل السياسة والسلطة والمعرفة في آن. فالقول بأن الفكر يستولد ذاته بأدوات فكرية منه، يساوي القول بأن السلطة تعيد إنتاج ذاتها وتتوالد بأدوات سلطوية منها. وفي الحالين، فإن الفكر، كما السلطة، يظل ثابتاً ومستقراً هادئاً، أي يظل ميتاً خارج الحياة والتاريخ. ولذلك، فإن بورديو، الذي يحتفي بأحلام البشر لا بثبات المفاهيم، يواجه الفكر بما هو خارج عنه، ليضع في الفكر حياة يحتاجها، ويضع الفكر الحي في خدمة من يحتاجه أيضاً.

يطرح تصوّر بورديو موضوع المثقف والسلطة، وسلطة المعرفة. فإذا كان بين المثقفين من يرنو بهيام إلى محراب السلطة، وهي حالة مسيطرة، فإن السلطات السياسية ترى إلى المثقفين أيضاً، وإن كانت المقارنة المجردة فارغة

وبليدة المعنى. فالمثقف ينظر إلى السلطة بحثاً عن تميّز اجتماعي حقيقي وسلطة وهمية، بينما تتخذ السلطة من المثقف جسراً لإلغاء الثقافة، أي أنها تلغي المثقف وهي تعترف به، ذلك أن اعترافها به يُترجَم بتحقيق مصالحه الشخصية، عوضاً عن أن يُترجِم ذاته بتطوير وتحرير وإغناء الحياة الثقافية. والمقايضة هنا واضحة وقوامها إلغاء النقد وتزوير الحقائق، أي إضفاء فضائل متعددة على السلطة هي غريبة عنها، مما يجعل تثبيت الواقع، إن أمكن، وظيفة وحيدة للمثقف السلطوي. وبالتأكيد، فإن ثقافة السلطة، أو الثقافة السلطوية، تختلف من بلد إلى آخر، وفقاً لمدى تطوره. فإذا كان جوهرها، في البلدان التي همشّها التاريخ، تدمير المحاكمة وتهديم العقول، فإن دورها، في البلدان المتقدمة، هو الفصل بين الثقافة والأسئلة الاجتماعية، بهذا المعنى، فإن بورديو يحمل ثقافته الأكاديمية ويحاور المضطهَدين، دون أن يكون مرحَّباً به سلطوياً، ويضع كتاباً عن هموم المغتربين، ولا يكون مرحَّباً به أيضاً. وفي الحالين فإنه يقترح ثقافة متمردة تقاوم ثقافة مسيطرة، ويحرّض المغتربين على مقاومة ما يُنتِج اغترابهم. ومهما يكن الحيّز الاجتماعي والثقافي الذي يتحرك فيه، فإن هذا الحيّز يظل بعيداً وقصياً عن «مثقف الجنوب» الذي إن تمرّد فقد عمله «الأكاديمي الفقير»، وإن التقى بمتمرّد من «العامة»، تقاسم وإياه التنكيل والمطاردة.

يرفع بعض المثقفين، وهو يطرح موضوع الثقافة والسلطة، شعاراً لا تعوزه الشهرة، هو: سلطة المعرفة. وهذا الشعار، الذي لا تنقصه الحذلقة، واضح الدلالة، أي: إن كانت مراتب الحياة قائمة على مفهوم السلطة، فإن السلطة المعرفية نظير للسلطة السياسية، طالما أن السلطة توّحد بين العلاقتين. والواضح في القول هو مفهوم الاختصاص، إذ السلطة السياسية اختصاصها قيادة البشر وتحديد المسموح والممنوع، وإذ السلطة المعرفية اختصاصها قيادة الأفكار والفصل بين المقبول والخاطئ. لكن مفهوم الاختصاص، رغم أقنعته الفكرية الملونة، يردّ مباشرة إلى مفهوم المرتبة الذي يرفض الاعتراف بمساواة البشر. فبما أن الناس مراتب، أي أن بعضهم

أعقل وأذكى وألمع من البعض الآخر، يكون لزوماً على الأقلّ ذكاءً أن يخضع لمن كان أكثر لمعاناً منه. ولهذا يكون على العامة أن تخضع لمن يسوسها، دون تأمل الأسباب التي جعلت الحاكم حاكماً، وعلى «العوام» أن يخضعوا لمن يمتلك المعرفة، دون السؤال عن وظيفة العارف وغاياته. وهذه السلطة التي تقرّر منذ البداية التفاوت بين البشر، هي التي تسوّغ وتبرّر تحالف المعرفة والسلطة، طالما أن العارف وصاحب القرار ينتميان إلى عالم يختلف كيفياً عن العالم السفلي الآهل بالفقراء والبسطاء والمستضعفين.

يأخذ كتاب «بؤس العالم» بمنظور مختلف. وفي منظورٍ كهذا، لن تَشتق المعرفة سلطتها من داخلها، أي من عقول المفكرين وبطون الكتب، بل من فضاء خارجي هو الفضاء الاجتماعي، المعمور بالبطر والفاقة والمعرفة والتجهيل والظلم والشكوى والتنكيل والكرامة الإنسانية والوطنية المستباحة. فسلطة الثقافة، وبالمعنى النبيل للكلمة، لا تتحقق، إن تحقّقتْ، إلا حين تصبح الثقافة شأناً اجتماعياً عاماً، بعيداً عن ثقافة الملكية الخاصة ودعاوى الاختصاص الثقافي، التي تقول ببشر يملكون العقول وآخرين لا عقول لهم. وثقافة الملكية الخاصة تتعامل، بداهة، بمعايير البيع والشراء، على خلاف «الثقافة الأخرى» الحالمة بتقدم اجتماعي شامل. أكثر من ذلك، أن «الثقافة الأخرى» ترى في المستقبل مرجعاً لها، على نقيض ثقافة الملكية الخاصة، ومرجعها السلطة، التي ترى في الحاضر زمناً أبدياً.

في هذه الحدود، فإن بورديو يحلم «بسياسة أخرى» وهو يحاول «ثقافة أخرى». ذلك أن كتاب «بؤس العالم» يمارس الثقافة كشأن اجتماعي وكمحاولة مقاومة ترى حاضر المجتمع من وجهة نظر مستقبله، أي من وجهة نظر التحويل الاجتماعي الذي يعيد للمغبونين والمستضعفين حقوقهم. وبسبب هذا يكسر الكتاب ايديولوجيا الاختصاص السلطوية بمعنى مزدوج: يكسرها وهو يمزج بين منهج علم الاجتماع وتقنية المقابلات الصحفية وأسئلة السياسة والعمل السياسي. ويكسرها ثانية وهو يقيم حواراً مباشراً بين من يملك «المعرفة الأكاديمية» ومن يملك «المعرفة الأخرى». ولعل هذا

الكسر المزدوج هو الذي يضع «سلطة المعرفة»، إن صحت العبارة، داخل مشروع سياسي - اجتماعي، يعيد تعريف السياسة والمعرفة بشكل جديد. كأن سلطة المعرفة الوحيدة هو نقدها المستمر لكل السلطات السياسية والمعرفية والاقتصادية والتربوية التي تخفض من قيمة الإنسان وتثلم كرامته، وهو ما يضع «سلطة المعرفة» خارج العارفين وخارج الأسئلة المعرفية أيضاً.

تتضمن «سلطة المعرفة الأخرى»، كما يراها بورديو، تصوراً آخر للقراءة والكتابة. ويعني هذا التصور قراءة الظواهر الاجتماعية من وجهة نظر تحويلها الاجتماعي، الأمر الذي يقيم علاقة وثيقة بين حامل المعرفة والإنسان العادي، طالما أن كليهما لا يرى في الحاضر لحظة سعيدة أو مقبولة. أكثر من ذلك أن هذا الإنسان العادي يملك معرفة خاصة به، يعبر عنها بطريقته العفوية، ويقوم «عالِم الاجتماع» بإعادة تنظيمها ليعطيها الاتساق والانسجام والوضوح. بيد أن هذا العالم لا «ينظّم» المعرفة العفوية والقلقة إلا لاعترافه بصاحبها. شيء يُذّكر، ولو من بعيد، ومع تحفظات عديدة، بأفكار الماركسي الإيطالي غرامشي، التي ترى أن «جميع البشر فلاسفة» وأن «جميع البشر مربّون». وبسبب هذا «الجمع البشري»، الذي يتمتع بأقساط متساوية من العقل، فإن المعرفة الشعبية العفوية قادرة على تحرير «المعرفة الأكاديمية» من فضائها المغلق والمتعالي، مثلما أن «المعرفة العالية» قادرة على تحرير المعرفة الشعبية من جوانبها السلبية. غير أن هذا النقد المتبادل لا يستقيم خارج موقف سياسي ينقد الثقافة المسيطرة والمدرسة المسيطرة، التي تقدم معرفة مجردة تفصل بين المنهاج المدرسي وأسئلة الواقع المعيش.

اتكاء على ما سبق، فإن كتاب «بؤس العالم» يقوم بتسييس أسئلة علم الاجتماع، ويحيل إلى الفعل السياسي كإطار يعطي الأسئلة الإجابات التي تبحث عنها. ولعل هاجس التسييس، حالماً كان أم واقعياً، هو الذي أملى على بورديو تأمل أشكال السيطرة الاجتماعية، وتأمل الشروط التي تعيد إنتاج هذه السيطرة بشكل مفتوح. بل أن هذه السيطرة، وبسبب نتاجها السلطوي،

تكاد تبدو معطى بيولوجياً وقاعدة من قواعد الحياة، مثلما أشار في كتابه «السيطرة الذكورية». ومع أن لمفهوم السيطرة أشكالاً مختلفة، تظل الدولة في العالم الحديث هي الموقع الذي ينظّم السيطرة ويجدّدها باستمرار عن طريق مؤسساتها المختلفة. وبقدر ما يرى بورديو أن الدولة تعيد إنتاج السيطرة إلى ما لا نهاية فإنه يرى، وفي اللحظة ذاتها، أن المسيطر عليهم، وفي الوضع الذي يعيشون فيه، عاجزون عن وعي السيطرة وأسبابها. فالمسيطر عليهم، أو الخاضعون، يملكون أسئلة وينطقون ببعض الإجابات ولديهم أشكال من المعرفة، غير أن هذا لا يعني أبداً أنهم يتمتعون بوعي متسق، أو بوعي عفوي، يكشف لهم عن السيطرة الواقعة عليهم وأسبابها. وتنبثق عن هذا الموقف إرادة المثقف، أو عالِم الاجتماع في حال بورديو، في تحرير المسيطر عليهم من «عماهم الأيديولوجي»، لأنهم عاجزون لوحدهم عن إدراك صحيح لظواهر السيطرة. وعلى هذا يكون على «المثقف الرسولي»، رغم تقادم التعبير، أن يمدّ المضطهدين بوضوح يحتاجونه، وأن يجعل آليات وأشكال السيطرة واضحة لمن ينقصهم الوضوح. وهو ما عكف عليه بورديو في «نبالة الدولة، وحب الفن، السيطرة الذكورية، والتناتج..» وفي كتبه المتعددة التي تصل إلى ثلاثين كتاباً. وبداهة، فإن المعرفة النظرية لا تنفصل لدى بورديو عن مواقفه العملية، كدفاعه عن الإصلاح المدرسي ودعم المظاهرات والإضرابات العمالية، والتنديد بالعنصرية وبالإجراءات التي تمنع عن الإنسان حقوقه في التعبير والعمل.

السؤال الأساسي الذي يطرحه درس بورديو هو: كيف يكون المثقف تنويرياً في شروط اجتماعية جديدة غير تنويرية بل مناهضة للتنوير؟ وإذا كان الحديث عن تداعي وتقوّض العناصر المرتبطة بالتنوير ميسوراً إلى حدود التخمة، فإن الحديث المقابل عن رسالة ثقافية تنويرية فاعلة صعب ومعوّق ومجلّل بالضباب. فقد انطفأت الأحزاب السياسية والنقابات والمبادرات الجماهيرية الواسعة وتراجعت الثقافة والحس النقدي، وأصبح «الماكدونالد» الاسم الأكثر شهرة في العالم، بل موضوعاً وإشارة، موضوعاً قوامه «طعام أمريكي جاهز ويسهل حمله» وإشارة إلى «حلم» وزّعه الأمريكيون على شعوب

تعيش بلياقة وعلى أخرى يخترقها الموت البطيء. وقد يبدو أن بورديو لا يقدم مشروعاً سياسياً - ثقافياً متماسكاً، ولا تصوراً للسياسة يقف على قدمين ثابتتين. مع ذلك، فإن هذا «المثقف المسيطر»، بلغة مجلة فرنسية، يتمسك بإرادة التغيير ويحض على المقاومة ويؤمن بكرامة الإنسان ويبشر في فضاء غريب، لا هو بالصحراء المزدانة بالصمت ولا هو بالشارع الصاخب المدمن على التمرد والمواجهة. وفي الأحوال جميعاً، فإنه مفتون بوظيفة المعرفة، ومفتون أكثر بفضح كل ما يُنتِج صناعة التجهيل والإذعان.

بهذا المعنى، فإن هذا المثقف «المقيم في الشمال»، والشمال فردوس المحرومين في «الجنوب»، يمثّل، ربما، درساً للمثقف العربي الذي يميل، غالباً، مع الرياح قبل وصولها، فيشرّق إن شرقّت ويغرّب إن غرّبت ويصاب بالذعر إن عجز عن تحديد جهة الرياح القادمة. فالمثقف العربي، ومنذ هزيمة حزيران، ينتقل، ولكن بخطا ثابتة، من حقل المعرفة كشأن وطني عام، إلى حقل ثقافة الملكية الخاصة، إذ الثقافة تبرير وتسويغ، وإذ التبرير تسويق والتسويغ تسليع، وإذ الاسم الشهير يباع في الأسواق بسعر يساوي الأكاذيب الكبيرة التي ينشرها. ولم يكن غريباً أبداً في مناخ تسوق فيه الرياح المسيطرة الأفكار والكتب أن يتم التصفيق، وبأكف ملتهبة، لما دعي بـ«التطبيع الثقافي»، وبأن يبادر مثقفون لهم ألقاب كبيرة في اقتراح «حزب للسلام مع إسرائيل»، وأن يتهافت الكثيرون من مشاهير «العارفين» على «المنظمات اللاحكومية» الغربية، حيث «العمل العلمي»، الذي لا يعرفه بورديو ولا يعترف به، شكل من أشكال المقاولات، و«المركز البحثي» أحجية وتغريب وتخريب، وحيث على «المثقف السعيد»، أن يتحدث عن كل شيء، باستثناء الكرامة الإنسانية الوطنية، والكرامة القومية.

كلمة أخيرة: إن كان بورديو يقرأ بلد «الثورة الفرنسية» بمقولة «البؤس»، فما هي المقولة التي يمكن أن يقرأ بها بلاداً عرفت ثورات مجهَضة وأخرى موؤدة، ودفنت، لاحقاً، كل ذكريات الثورة في قبور مجهولة؟

بيير بورديو، باتريك شامبانيه(*)

منبوذو الدخل

غالباً ما دار الحديث عن «وعكة التعليم الثانوي» بمناسبة الأزمات، وعلى الأخصّ بمناسبة أزمات كتلك التي حدثت في تشرين الثاني 1986 أو تشرين الثاني 1990، ولكننا بهذا المصطلح ننسب إلى مجمل هذه الفئة الشديدة التنوّع والتبعثر، ودون تمييز، «حالة» (صحية وعقلية) هي نفسها غير محدّدة، ودون مضمون واضح. فمن المؤكد أن عالم المؤسّسات المدرسية والمستفيدين منها من فئات الشعب هو عبارة عن شبكة متّصلة، لا يلتقط الإدراك العادي فيها إلا الطرفين المتقابلين في الحدود القصوى: فمن طرف، المؤسّسات التي أحدثت وتكاثرت كيفما اتفق، على عجل، في الضواحي الفقيرة لاستقبال فئات التلاميذ المتزايد عددهم باستمرار، والمتزايد ضعفهم الثقافي باستمرار، والذين لم يعد لهم ما يربطهم حقاً بالمدرسة الثانوية القديمة التي استمرّت حتى الخمسينات؛ ومن الطرف المقابل، المؤسّسات التي احتفظت بمستواها الرفيع، حيث الطلاب من أبناء العائلات الغنية يمكنهم حتى يومنا هذا ممارسة حياة مدرسية لا تختلف جذرياً عن الحياة التي عرفها في السابق آباؤهم وأجدادهم. وقد يجمع «مرض المدرسة» الواسع الانتشار حالياً، خلال المظاهرات، التلاميذ (أو الأهالي) الذين يعانون من وطأته، ولكنه مع ذلك يكتسي أشكالاً في غاية التنوّع: فالمصاعب، وحتى القلق،

(*) من الصفحة (1) حتى الصفحة (112) ترجمة الأستاذ سلمان حرفوش.

التي يعرفها تلاميذ الشرائح الفنية في الثانويات الباريسية الكبيرة هم وأهاليهم تختلف اختلاف الليل والنهار عن المشاكل التي يقابلها طلبة الثانويات الحكومية للتعليم الفني والصناعي في الضواحي الفقيرة للمدن الكبرى.

لقد عرفت مؤسسات التعليم الثانوي حتى نهاية الخمسينات استقراراً شديداً الرسوخ أساسه التصفية المبكّرة والقاسية لأبناء العائلات ذات المستوى الثقافي المتدني (وهي تصفية في لحظة الانتقال إلى الحلقة الثانوية). كان هذا الانتقاء على أساس اجتماعي مقبولاً إلى حدٍّ كبير من التلاميذ الذين يروحون ضحيّةً له ومن أهاليهم، لأنه كان يستند، في نظرهم، حصراً وتحديداً إلى مواهب ومزايا الذين يتم قبولهم، ولأن الذين لا تقبلهم المدرسة يتم إقناعهم (خاصة من قبل المدرسة) بأنهم لا يريدون المدرسة. وكان تسلسل مراتب التعليم، البسيط والواضح الهوية، وعلى الأخصّ التقسيم الحاسم إلى مرحلتين، ابتدائية (إذن «الابتدائيّون») وثانوية، يحافظ على علاقة وثيقة من التجانس مع التسلسل الاجتماعي؛ وقد أسهم ذلك بشكل معقول في إقناع أولئك الذين يشعرون أنهم غير مؤهلين لـ (المدرسة)، بأنهم غير مؤهّلين للمراكز التي تفتح (المدرسة) الطريق إليها أو تغلقه، ونعني بتلك المراكز المهن غير اليدوية، وبشكل خاص، المواقع القيادية داخل تلك المهن.

ومن بين التغيرّات التي أصابت نظام التعليم بعد انتهاء الخمسينات، تغيرٌ حافلٌ بالنتائج الكبيرة، ألا وهو، دون أدنى شك، دخول فئات اجتماعية جديدة إلى ميدان اللعبة المدرسية، وهي الفئات التي كانت تنبذ المدرسة أو أنها كانت عملياً منبوذة من المدرسة حتى ذلك التاريخ، مثل صغار التجار، والحرفيين، والمزارعين؛ وحتى عمال الصناعة (نظراً لتمديد التعليم الإلزامي حتى سن الـ 16، والتعميم المترابط للدخول إلى الصف الأول الإعدادي)؛ وقد أدت هذه العملية إلى توسيع دائرة التنافس وازدياد الاستثمارات في الحقل التربوي للفئات التي كانت في الأساس من كبار المستفيدين من النظام المدرسي.

ومن أغرب آثار عملية «التوسّع الديمقراطي» التي تحدثنا عنها، بقليل من التسرّع وكثير من التحفّظ، الاكتشاف التدريجي، في قلب أكثر الفئات الشعبية حرماناً، للجانب المحافظ في المدرسة التي يُفترض أنها توفرّ «التحرير». فمن بعد فترة من الوهم المطمئن وحتى من الفوران الحماسي، فَهِم المستفيدون الجدد شيئاً فشيئاً أن الوصول إلى الحلقة الثانوية لا يعني النجاح فيها، وأن النجاح فيها إذا تحقق لا يعني الوصول إلى المراكز الاجتماعية التي كانت في متناول الحائزين على الألقاب المدرسية، وبخاصة البكالوريا فيما مضى من الزمن، حيث لم يكن لأمثالهم القدرة على الدخول إلى التعليم الثانوي. ولا نستطيع إلا أن نفترض بأن انتشار المكتسبات الأساسية للعلوم الاجتماعية فيما يخصّ التربية، وخاصة فيما يتعلّق بالعوامل الاجتماعية للنجاح والفشل المدرسيين، كان من شأنه المساهمة في تغيير المفاهيم حول المدرسة بين أبناء وعائلات سبق لهم أن عرفوا تأثيراتها عملياً. وكان هذا دون شك لصالح التغيرّ التدريجي في الخطاب السائد بصدد المدرسة: فرغم الرجوع أحياناً إلى أفكار الرؤية والانقسام الراسخة في الأعماق اللاشعورية (مثلاً عند الحديث عن «الأفذاذ»)، أصبحت المقولة التربوية الرائجة، وكل ما لفّ لفّها من تصوّرات غامضة، تدّعي الأخذ بالمعايير السوسيولوجية، مثل «المعوّقات الاجتماعية»، «الحواجز الثقافية» أو «النواقص التربوية»، هي أن الفشل المدرسي لم يعد ينسب، أو لا ينسب فقط، إلى نقاط الضعف الشخصية، أي الطبيعية، عند المنبوذين. وهكذا بات منطق المسؤولية الجماعية يميل تدريجياً إلى أن يحلّ في الأذهان محلّ منطق المسؤولية الفردية الذي يؤدي إلى «تحميل الضحيّة كل اللوم»؛ وأما الأسباب ذات المظهر الطبيعي، مثل الموهبة والميل، فأزيحت لصالح عوامل اجتماعية غير محدّدة بوضوح، كنقص الوسائل التي تستخدمها المدرسة، أو نقص الكفاءة أو التأهيل لدى المعلمين (الذين ازداد اتهامهم بالمسؤولية، لدى الأهالي، عن النتائج السيئة لأبنائهم)، أو حتى، بغموض أكبر أيضاً، منطق نظام فاشل برمّته، ويجب إصلاحه.

قد يكون من المناسب أن نبيّن في هذا المجال، مع تجنّب تشجيع وهم الحتميّة (أو، بتعبير أدقّ، القول بالسيرورة الحتمية باتجاه الخراب) كيف تغيرّ النظام المدرسي تغيراً كاملاً عند وصول الوافدين الجدد إليه، وكيف استمرت، مع ذلك، بنية التوزيع التفاضلي للمنافع المدرسية والمنافع الاجتماعية المترابطة فيما بينها، لكن بشكل أساسي على حساب نقلة شاملة للتفاوتات السابقة. ولكن، هناك رغم كل شيء، اختلاف جوهري: فعملية التصفية أصبحت مؤجّلة وممتدة في الزمن، وبذلك فهي «متمدّدة» في الديمومة الزمنية، بحيث أن المؤسسة المدرسية أصبحت تضم بين جدرانها عدداً كبيراً من المنبوذين، يحملون معهم إليها التناقضات والنزاعات المرتبطة بفترة دراسية ليس لها من غاية سوى المكوث في المدرسة. باختصار، فالأزمة المزمنة المعشّشة في المؤسسة المدرسية، تلك الأزمة التي تعطي مواربة مؤشّرات مقلقة، هي الوجه الأخر للتسويات غير المحسوسة وأغلب الأحيان غير الواعية للهيكليات والترتيبات التي من خلالها يتم إيجاد صيغة لحل التناقضات الناجمة عن وصول شرائح اجتماعية جديدة إلى التعليم الثانوي، وحتى إلى التعليم العالي؛ وإذا أردنا استخدام تعابير أكثر وضوحاً، إنما أيضاً أقلّ صحةً، وبالتالي فهي أشد خطورة، فنقول إن هذه «اللاوظيفية» هي بكل مظاهرها «الثمن الواجب دفعه» من أجل الحصول على المنافع (السياسية خاصة) من عملية «التوسّع الديمقراطي» في التعليم.

من الواضح أنه يمكن توفير وصول أبناء أكثر العائلات حرماناً اقتصادياً وثقافياً إلى مختلف مستويات التعليم الثانوي، وعلى الأخص إلى المراحل العليا، دون إجراء أي تعديل عميق للقيمة الاقتصادية والرمزية للشهادات الممنوحة (ودون تعريض الحائزين عليها لأية مجازفة، ظاهرياً على الأقل)؛ لكن من الواضح أيضاً أن المسؤولين المباشرين عن ظاهرة تجريد الشهادات من قيمتها بنتيجة التزايد الكبير في عدد الشهادات وفي عدد الحائزين عليها، أي الوافدين الجدد، هم الضحيّة الأولى لتلك الظاهرة. فالتلاميذ أو الطلاّب من أبناء أكثر الأسر حرماناً على المستوى الثقافي لم يعد أمامهم اليوم، على الأرجح، في نهاية الدراسة الثانوية، التي

غالباً ما يكون ثمنها تضحيات شديدة الوطأة، إلا الحصول على لقب علمي غير ذي قيمة؛ وأمّا إذا ما فشلوا، وهذا هو القدر المرجّح لهم، فهم رهن عملية نبذ اشد إيلاماً واكثر شمولية مما كان عليه وضعهم في الماضي: أشدّ إيلاماً، لأنهم جرّبوا، في الظاهر، «حظّهم» ولأن المؤسسة المدرسية أصبحت هي التي تحدد تحديداً شبه كامل الهويّة الاجتماعية؛ واكثر شمولية، لأن العدد الأكبر المتزايد باستمرار لفرص التوظيف في سوق العمل أصبح مخصصاً بحكم القانون، ومعطىً بحكم الواقع، إلى الحائزين على الشهادات، وهم في تزايد مستمرّ (وهذا ما يفسر كيف أن الفشل المدرسي أصبح يعاش أكثر فأكثر ككارثة أو مصيبة، حتى في الأوساط الشعبية). وهكذا، أصبحت المؤسسة المدرسية في نظر الأهالي والتلاميذ أنفسهم، خدعة مضلّلة، ومنبع شعور هائل بخيبة جماعية: فتلك الأرض الموعودة، شأنها شأن الأفق، تبتعد كلما أمعنتَ في السير باتجاهها.

ويترافق تنويع الفروع بعمليات توجيه واصطفاء مبكرة أكثر فأكثر، مما يساعد على ترسيخ ممارسات نبذ، «على الناعم» أو، بتعبير أفضل، لا يشعر بها أحد، على مستويين، فهي عمليات متواصلة، متدرّجة مثلما هي غير ملحوظة، ولا يمكن التقاطها، سواءً من الذين يمارسونها أو من الذين تقع نتائجها عليهم. فهذه التصفية بكل نعومة هي بالمقارنة مع التصفية القاسية الفجّة مثل لعبة التبادل في عملية الأخذ والعطاء: فإطالة أمد العملية عبر الزمن يساعد الذين يعيشون التجربة على إخفاء الحقيقة عن أنفسهم، أو، عل أقل تقدير، على الاستسلام إلى فعل المراوغة المضلّلة التي يمكن للمرء من خلالها أن يتوصل إلى أن يكذب على نفسه بشأن ما يقوم به. ويمعنى من المعاني، فـ «الاختيارات» الحاسمة يصبح موعد اتخاذها أبكر فأبكر (منذ الدخول إلى الصف العاشر، وليس كما كان الأمر في الماضي، بعد البكالوريا وحتى أبعد من ذلك أيضاً)، وهكذا يتحدّد القَدَر المدرسي بالدمغة الحاسمة أبكر فأبكر (وهذا ما يفسّر وجود طلاب يافعين من الحلقة الثانوية في الظاهرات الكبرى الأخيرة)؛ لكن، إذا ما نظرنا من زاوية مختلفة، فالنتائج المتضمّنة في هذه الاختيارات يتأخرّ ظهورها أكثر فأكثر،

كما لو كانت كل الأمور متواطئة لتشجيع ودعم التلاميذ أو الطلاب، «المحكومين مع وقف التنفيذ» على القيام بتأجيل إجراء الجرد النهائي، أو ساعة الحقيقة الفاصلة، حين سيتبدّى لهم الوقت الذي أمضوه في المؤسّسة المدرسية وقتاً ميتاً، وقتاً ضائعاً مبدّداً.

وفعل هذه المراوغة المضلّلة يمكن أن يستمر إلى مالا نهاية، في أكثر من حالة، إلى ما هو أبعد بكثير من نهاية الدراسة، خاصة بما يساعد على اختلاط الرؤية والتردد في اتخاذ القرار الحاسم لدى بعض الأوساط الاجتماعية الضائعة الملامح، التي تترك هامشاً أكبر للمناورة لهذه اللعبة المزدوجة، نظراً لصعوبة تصنيفها في خانة محددّة. فهذا أحد أقوى الآثار، وأكثرها تخفّياً أيضاً- والسبب وجيه- الناجمة عن المؤسسة المدرسية وعلاقاتها مع مختلف المواقع الاجتماعية التي يفترض بها أن تنفتح عليها: فهي تزيد يوماً بعد يوم من تخريج أفراد مصابين بذلك القلق المزمن الذي تكرسه التجربة- المكبوتة كلّياً إلى هذا الحد أو ذاك-، تجربة الفشل الدراسي، المطلق أو النسبي، ومُجبرين على أن يحافظوا، بنوعٍ من «البلف» الدائم للآخرين ولأنفسهم، على صورتهم الشخصية مخدوشة، أو مجّرحة، أو مبتورة. والمثل الأعلى الذي يعبّر عن هؤلاء «الفاشلين النسبيين» الذين نلتقي بهم حتى في أعلى مستويات النجاح - ومعهم، على سبيل المثال، تلاميذ المدارس الصغيرة مقارنة مع تلاميذ المدارس العريقة، أو المقصّرين في هذه المدارس العريقة نفسها بالمقارنة مع المتفوّقين، وهكذا دواليك- هو دون أدنى شك عازف الكونترباص باتريك سوكند الذي يكمن بؤسه العميق جداً والحقيقي للغاية في أن كل شيء، في صميم العالم الرفيع الامتياز الذي هو عالمه الخاص، يبدو وكأنه معدّ ليذكّره بأنه يشغل فيه موقعاً هابطاً.

على أن طمس الحقيقة الموضوعية للوضع داخل النظام الدراسي (أو داخل الإطار الاجتماعي) لا ينجح أبداً نجاحاً كاملاً حتى عندما يكون مدعّماً بمنطق المؤسّسة التعليمية وبأنظمة الدفاع الجماعية التي ترعاها تلك المؤسسة. فـ«مفارقة الكذّاب» تُعتبر لاشيء إذا ما قيست بالصعوبات التي يثيرها الكذب على النفس. وخير بيانٍ على ذلك أقوال بعض هؤلاء

المنبوذين مع وقف التنفيذ، الذين يجمعون إلى البصيرة القصوى التي تدرك حقيقة تلك الفترة الدراسية التي لا أفق لها على الإطلاق، قرارهم شبه الإرادي في الدخول في لعبة الوهم، فلعلّهم يودّون الاستمتاع استمتاعاً أفضل بحقبة الحرية والمجّانية التي تقدّمها لهم المؤسسة التعليمية : فذاك الذي يتبنّى الكذبة التي تلفّقها له تلك المؤسسة قدره، تحديداً، أن يعيش ازدواجية الوعي: المستتير المضلّل، وأن يستفيد من الحماية المزدوجة للأمل والوهم.

كما أن التفريع الرسمي (إلى أقسام) وشبه الرسمي (إلى مدارس أو صفوف مدرسية متفاوتة المستوى خصوصاً من خلال اللغات الحيّة) كان من آثاره أيضاً المساهمة في بعث مبدأ، يتمّ إخفاؤه بعناية استثنائية، ألا وهو مبدأ التمييز والتفرقة: فالتلاميذ الذين ولدوا في بيئة متميّزة وتلقوا من أسرتهم الحس السليم في تحديد «النيشان» الذي يسدّدون عليه، مع الأمثلة والنصائح الكفيلة بدعم هذا الحس السليم في حال التردد الحيرة، هم مؤهّلون لاستثمار معارفهم في اللحظة المناسبة والمكان المناسب، أي في الأقسام الأفضل، والمدارس الأفضل، والاختصاصات الأفضل، الخ.. وعلى العكس منهم، فالتلاميذ من أبناء أكثر الأسر حرماناً، وعلى الأخصّ أبناء المهاجرين، غالباً ما يُتركون كلّياً لأنفسهم منذ نهاية المرحلة الابتدائية، وهم مجبرون على الاستسلام لأوامر المؤسسة المدرسية أو للمصادفة كي يبحثوا عن دربهم في عالم يزداد تعقيداً يوماً بعد يوم، وقدَرَهم بالتالي أن يوظفوا، فيّ غير وقته، وفي غير مكانه، رأسمالهم الثقافي، الذي هو في نهاية المطاف، منخفضٌ جداً.

إنها إحدى الآليات التي تجعل، بالإضافة إلى منطق نقل الرأسمال المعرفي، أرقى المؤسسات المدرسية، وعلى الأخص تلك التي تقود إلى المواقع العليا في السلطة الاقتصادية والسياسية، ما تزال موقوفة حصراً على فئة محددة كما كانت في الماضي. لقد انفتح النظام التعليمي على الجميع، ولكنه رغم ذلك ظل مقصوراً بكل دقة على قلّة قليلة، فنجح نجاحاً بهلوانياً في الجمع بين مظاهر «التوسّع الديمقراطي» وبين حقيقة إعادة تكريس ما هو قائم، وهذا أمر يتم تحقيقه بأعلى درجة من درجات المواربة و التخفّي، أي بتأثيرٍ متصاعد للتبرير الاجتماعي.

لكـن هـذا التوفيـق بـين المتناقضــات لا يتـم دائمـاً دون مشــاكل. فالمظاهرات التي تنبثق نادراً، منذ قرابة عشرين سنة، تحت أعذار متنوعة، أو تظاهرات العنف الكبرى أو الصغرى التي تجـري دون انقطـاع فـي أكثر المؤسسات المدرسية بؤساً وحرماناً ليست في مجموعها إلا التعبير البـادي للعيان عن الآثار الدائمة لتناقضات المؤسسة المدرسية، وعن عنف جديد كلّياً توقعه بمن هم غير مؤهّلين لها.

والمدرسة تنبذ كما كان شأنها دائماً، لكنها باتت تنبذ بشكل متواصل، على مختلف مستوياتها التعليمية (فما بين الصفوف الانتقالية و الثانويات الصناعية والفنية لا يوجد على الأرجح إلا اختلاف في الدرجة لا في النوع)، وهـي تحتفظ داخل أسوارها بـأولئك الذين تنبذهم، مكتفية بتحويلـهم إلـى أقسام مجردة من القيمة إلى هذا الحد أو ذاك. وينتج عن هـذا أن منبوذي الداخل هؤلاء يتأرجحون، دون شك بسبب تقلّبات وتناقضات العقوبات التي توقع بهم، بين الانسياق المبهور وراء الوهم الذي تقدمه لهم وبين الاستسـلام لقراراتـها، بـين الخضـوع القلـق وبـين التمـرّد العـاجز. فـلا يسـعهم إلا أن يكتشفوا، عـاجلاً أو آجـلاً، أن وحدة معـاني هـذه الكلمـات («ثانويـة» «طـالب ثانوي»، «أستاذ»، «دراسة ثانوية»، «بكالوريا») تخفي فـي واقـع الحـال تنوعـاً كبيراً، وأن المؤسسة المدرسية التي وجّهتهم إليها النظام التعليمي هـي مكان لتجميع أكثر الفئات حرماناً، وأن الشهادة التي يحضّرون لها لقبٌ برخص الـتراب («أنـا أسـتعد لشـهادة G2 صغيرة، كمـا يقـول مثـلاً أحدهـم)، وأن البكالوريا التي حصلوا عليها، دون العلامـات اللازمـة، تحكم عليهم بالتوجه نحو الأقسام الصغيرة فـي تعليمٍ عـالٍ، ليس فيه مـن علوٍ إلا الاسـم، وهكذا دواليك. لقـد اضطرتـهم العقوبـات السـلبية فـي المدرسـة إلـى التخلّـي عـن التطلعات الدراسية والاجتماعية التي كانت أساساً من إيحاء المدرسة ذاتها، وأكرهـوا علـى النـزول فـي السلّم الاجتمـاعي، فـتراهم، دون اقتنـاع، يقضـون بتكاسل وإهمال حياتهم المدرسية التي يعلمون أنها مسدودة الآفاق. فـالوداع يـا زمـن الحقـائب الجلديـة، والثيـاب ذات المظهر المتقشّـف، والاحـترام الـذي يُعامل به المعلمون، تلك العلامات المعبرة عن انخراط أبناء العـائلات الشـعبية

بالمؤسسة المدرسية، لقد انتهت هذه المظاهر وحلّت محلّها اليوم علاقة أكثر بعداً: الإذعان الخائب الذي يتخفّى وراء الإهمال اللامبالي، والذي يظهر في الفقر البادي على المعدّات المدرسية، كالمصنف المربوط بخيط أو بقطعة مطّاط والذي يُعلّق بإهمال على الكتف، وأقلام الحبر الناشف التي تُرمى بعد انتهائها بدلاً من قلم الحبر ذي الريشة الغالية الثمن والذي كان يُقدّم هدية للتشجيع على الدراسة بمناسبة عيد أو ما شابه، الخ. وتظهر هذه القطيعة أيضاً في تكاثر إشارات التحدّي حيال المعلّمين، مثل مسجلة «الوكمان» الفردية التي يتم الاستماع إليها أحياناً حتى داخل الصف، أو الثياب، التي تُختار عن عمد لتعبّر عن الإهمال واللامبالاة، وغالباً ما تكون مغطاة بأسماء فرق الروك الرائجة، مكتوبة بجميع الخطوط والأقلام، لتذكّر، حتى في قلب المدرسة، أن الحياة الحقيقية هي في مكان آخر.

أما الذين يحركهم ميلهم المأساوي أو سعيهم إلى ما هو خارق، فيطيب لهم التحدث عن «وعكة التعليم الثانوي»، بإرجاعها، استناداً إلى تبسيطات الفكر اللامنطقي السائدة في الأحاديث اليومية، إلى «وعكة الضواحي»، المصابة هي أيضاً بلوثة وهم «المهاجرين»، فيلامسون دون علم منهم أحد أهم التناقضات الأساسية في الحياة الاجتماعية بوضعها الحالي: فهذا التناقض يظهر بأجلى صوره في أداء مؤسّسة مدرسية ربما لم تلعب في يوم من الأيام الدور الهام الذي تلعبه اليوم، وهو في جانب منه بالغ الأهمية للمجتمع، وهذا التناقض هو تحديداً في صلب نظام اجتماعي يريد أن يعطي أكثر فأكثر كل شيء لجميع أبنائه، وعلى الأخص في مجال استهلاك المنافع المادية أو الرمزية، أو حتى السياسية، إنما خلف مظاهر وهميّة، خادعة ومزيفة، كما لو كانت تلك الوسيلة الوحيدة لتخصيص هذه المنافع لبعض أبناء المجتمع بصورةٍ حقيقيةٍ وشرعية.



بيير بورديو

آخ ، على الأيام الحلوة!

عمر مالك 19 عاماً ومع ذلك فهو قد «عاش الكثير». عندما التقينا به، كان يتّبع، دون أوهام كثيرة، دورة لا تعويض لها وقليلة التأهيل اضطر هو نفسه أن يبحث عنها تلبية للاحتياجات التي تُفرض على تلاميذ قسم مبهم التعريف تابع لثانوية ضعيفة المستوى من ثانويات الضاحية. كان يعيش في جناح مستقل، مع والده الذي ظل بمفرده من بعد طلاقه الذي وقع منذ سنوات قليلة. لكنه كان يذهب دائماً لزيارة والدته في «تجمّعها السكني»، وهو محيط يعتمل في نفسه الحنين الدائم إليه، لجو التضامن الذي كان يقدّمه والذي يسمّيه «جانب المشاركة». وربما لأنه، خلف مظهره الضحوك، كان يحمل همّ تحقيق وحدة أسرته، الذي يبدو أحياناً أنه يحمل مسؤوليته على عاتقه، فقد كان يحمل لشقيقه الأكبر، نموذجه الأمثل لفترة، مشاعر متناقضة: هو ما يزال يحبّه باستمرار حباً كبيراً، لكنه يلومه قليلاً، دون أن يدينه أبداً بشكل قاطع، للامبالاته تجاه والده، الذي جُرح في الصميم من تصرفاته السيئة. كان مالك يتكلم عن والده بكثير من التسامح والفهم، مفسّراً مخاوفه أو صرامته المفرطة والعقيمة في آنٍ معاً بـ«أصوله» ورغبته في أن يلقى الاعتراف ويُقبل في المجتمع. كان يبذل جهده لحمايته، وإعادة تربيته، إذا أمكن استخدام هذه الكلمة. فالمسؤوليات التي يحملها على عاتقه «حيال»

هذا الرجل المقطوع من جذوره، والمتقلّص المكانة، والمحروم من جميع مقوّمات السلطة الأبوية، رغم أنه في «موقع» الأب، هي دون شك، مع الخوف من الحياة ومن الوسط الاجتماعي، في صلب تلك الرغبة الجامحة في الاستقرار، تلك الرغبة التي تقوده كي يحاول الاستمرار في المدرسة الثانوية حاملاً صفة الطالب الثانوي، وهي صفة مؤقتة وغير راسخة، لكنها، في النهاية، تعطي بعض الارتياح النسبي. لقد روى لنا حياته كما لو كانت حياتين، من وجهتي نظر مختلفتين لم يحاول التوفيق بينهما: أولاً من وجهة نظر المدرسة، وثانياً من وجهة نظر «التجمّع السكاني» الذي أمضى فيه طفولته وقسماً من مراهقته. وهذان عالمان متباعدان، لا بل متعارضان، كما أنهما مجموعتان من الذكريات لا تأخذان معناهما إلا بعد الربط بينهما.

كل ما فيه، وجهه، هيئته، هندامه، وحتى لغته، يعطي شعوراً بالارتياح الكبير، على ارتباط لا شك فيه مع سحر شبابه، الذي لايغيب عن إدراكه، لكنه يعطي أيضاً الشعور بالضعف وعدم الاستقرار، كما يعبر أحياناً علم نفس المدرسة الرديء. إنه لا يستقرّ في مكان ويبدو في حركة لا تهدأ. فهو خير مثال عن التشابه الذي تقول به الميثولوجيا الأمازيغية بين المراهقة وبين الربيع بتناوباته اندفاعاً وتراجعاً، بفترات الصحو تعقبها هجمات للمطر والبرد، وكذلك شأنه حين ينتقل دون توقّف من الانفلاش شبه الطفولي إلى الجدّية القلقة. وكثيراً ما يضيع منه خيط الحديث فيقلق لهذا قلقاً ظاهراً، بصورة مفرطة نوعاً ما، كما لو كان معتاداً على هذا، ومتعوّداً على أن يتلقى اللوم بسببه. وقد لاحظ عند بداية الحديث، من بعد صمت طويل، أنه «لا يجد كلماته»؛ بعد ذلك بقليل، علّق بكثير من التوتّر، بأنه نسي «كلمة ثانية»، وجهد للعثور عليها، مشجّعاً نفسه بصوت عالٍ، كما لو كانت لعبة مرتّبة، «لن أضطرب، لن أضطرب!»؛ وفي الحالتين، كان الأمر بصدد كلمة من القاموس المدرسي أو حتى البيروقراطي - المدرسي، وهما «تقنية البحث عن وظيفة»، و«شروط الدورات». وكما لو كان يتبنّى شخصياً التقديرات المدرسية،قال إنه يجد صعوبة كبيرة في قراءة الكتب («لا أنجح في هذا، أبدأ بالقراءة ثم أترك الكتاب لوجود أحداث خارجية، بينما قد أستطيع أن أجد فيه ما أنا

بحاجة إليه، إذ من الصحيح أن الكتاب نبع لا ينضب وكله عبقرية {تنازلات لفظية أمام المفاهيم المدرسية}، لكن من أجل تحقيق هذا لا بدّ لي أن أعيش عيشة النسّاك، بجانب مكتبة عامرة»)؛ ثم يلوم نفسه على اختلاط المعلومات («أنا مضطرب، أقولها لك، ما أقوله لك مشوّش مضطرب») الذي يقع فيه أحياناً، عندما يتخوّف حيال موقف التحادث، وهو بالتأكيد ناتج عن تجاربه المدرسية، فتراه ينطلق في جمل يتركها معلّقة دون نهاية.

وإذ يجعل أحياناً من الضرورة فضيلة، يجد نفسه وقد جعل من عدم الاستقرار موقفاً إرادياً: «عندي انطباع بأنني أحتاج إلى.. إلى الفرار.. إلى الفرار المستمر، وهو هرب أكثر منه أي أمر آخر، هه، يعني، فأنا.. يجب.. أنا لا أحب الاستقرار. أحتاج أن يهتزّ ما حولي باستمرار، أن تكون أحداث، أن يكون شيء ما.» أو أيضاً، «لنقل.. الوضع متشابه، ففي الدورات التدريبية، سوف يجدون طبعي أيضاً لأنني أبحث في كل مشروع أنوي القيام به، أريده أن يكون مختلفاً». كل شيء يدعو إلى الاعتقاد بأن العلاقات التي أنشأها في المدرسة وحول المدرسة (أصدقاؤه وأيضاً المرأة الشابة التي يحبّها والتي تعلّم في مدرسته) قد قدّمت إليه الوسائل الكفيلة باختراع نوعٍ من الحياة المغامرة على نمط حياة الفنان (وهو ما يظهر بوضوح في القصة، التي لا نذكرها هنا، عن العطلة الصيفية التي قضاها في إسبانيا): «أن أصبح مديراً عاماً PDG فلا أعود أشتم بصديقتي.. وإلاّ.. مثل هذا لا يهمني..».

وواقع الحال أن وجوده بأكمله كان رهن عدم الاستقرار والتغيير الدائم، في العمل، والسكن، والمدرسة، والصداقات. فوالده الجزائري الأصل، المولود في تلمسان، والذي جاء إلى فرنسا قُبيل ولادته، غيّر مهنته ومكان عمله أكثر من مرّة: «غيّر شغله كثيراً، فهو.. أعتقد أنه بدأ كـ.. كان عاملاً ميكانيكياً، إنما على عربة نقل صغيرة، وما شابه؛ من بعدها اشتغل بعض الأشغال، ثم اشتغل عامل ثقب، ثقّاب في أحد المشاريع، وهناك استمرّ أطول مدّة، ثم أفلس المشروع؛ فوجد لنفسه مشروعاً آخر لبعض الوقت أفلس هو أيضاً، وتنقل قليلاً إلى أن صار حيث هو الآن..» ونظراً لارتباطه مع تنقّلات والده، ومع تنقّلات والدته أيضاً، المهاجرة اليوغسلافية التي كانت على التوالي

أمينة صندوق في مسبح (وهناك سكنوا لفترة) ثم في مخزن كبير، فهو، كما يقول، «غيّر سكنه، غيّر سكنه، وغيّر مدرسته» مرات عديدة.

لقد حملت تجربته سمات القلق العميق بشأن الحاضر والمستقبل، مدعّمة بمصادفات وخيبات حياة مدرسية مضطربة دون شك بسبب ما فيها من ضغوط منطق «التجمّع السكاني» في الضاحية:منطق «الرذالة» التي يفعلها الشاب كي لا يكون دون أي نشاط، كي «يتحرّك الواقع من حوله»، دون أن ننسى التضامن مع من هم أكبر سناً، مع الشقيقة الأكبر وأصحابها الأعمر الذين يأخذونك إلى الملاهي في سن الـ 12، ومع الشقيق، الأكبر بسنتين، والذي اندفع في مزاودات «الرذالة» التي تستدعي «رذالة» مثلها («فهذا تيار متصاعد، هذا في تزايد مستمر، هذا ينتقل درجة درجة») كما اندفع وراء الحاجة إلى المال فكان مصيره السجن، من بعد سطو مسلّح.

ونفهم من هذا أنه، على طريقة من هم دون -البروليتاريا مثله، أولئك الذين لا يستطيعون إطلاقاً الإمساك بدقّة حاضرهم أو مستقبلهم، لا يستطيع إلا أن يحاول الاستمرار في تلك الحالة من القلق وعدم الاستقرار التي تحرمه تحديداً من السيطرة على فترة الدراسة «في الحقيقة، يشعر المرء بالسرور في المدرسة في نهاية الأمر» (« في النهاية، هذه هي الطريق التي اخترتها، وهذا ما سمح لي بالبقاء لفترة أطول في المدرسة») ونفهم أن يجمع بين الواقعية القصوى والطوباوية المغامرة. فمن جانب ، يمكنه أن يؤكد (مع ضحكة أو ابتسامة غالباً) ادعاءات مجنّحة: «حذار! أنا شديد التطلّب! فما أريده هو مهنة تروق لي من الباب للمحراب!» بل يمكنه أيضاً أن يذكر، في ختام الحديث، المشروع المغرق في لا واقعيته والذي خطط له، مثلما في الأساطير القديمة، مع صديقين له، صنوين له في الضياع: تأسيس ناد متوسطي، أو ما أشبه، لأصحاب المليارات في بلد من الشرق الأقصى لم يزره في حياته. لكنه، من جهة أخرى، لا ينفك يبرهن بألف وسيلة، بأنه يعلم دائماً حقّ العلم موطئ قدميه، وأن مدرسته هي «ثانوية زبالة» (يصف، باقتصاد كبير في الشرح، كيف فهم بسرعة إلى أين انتهى به الأمر باكتشافه أن الجالسين أمامه، وإلى جانبه، ووراءه، هم جميعاً مثله)؛ وتحدّث عن

الدبلوم، «ذلك الدرب المسدود»، وبعد أن عبّر عن رغبته في الرحيل بأي ثمن، تلك الرغبة التي ما فارقته أبداً، منذ طفولته الأولى، ختم مؤكداً ثانيةً صحّة الحقيقة التي ينفيها حلم الهروب لديه: «على الأقل، أنا على يقين من أمر واحد، هو أنني سوف أظلّ هنا. ولكني حالياً غير راغب في ذلك».

وخير ما يمكن أن يدلّ على ما يجب أن نسمّيه لديه بـ«الحكمة» تلك النظرية التي يقترحها عن اقتصاد المبادلات المدرسية، وذلك في الختام عندما قال، («في المدرسة لا يطلبون مني العلامة التامة.. فيكفي الحصول على الحد الأدنى»)، مقدّماً بهذه النظرية ما يشبه الأساس العقلاني لفن الاستمرار مراوحةً بأقل كلفة ممكنة داخل العالم المدرسي المحميّ: فبالإضافة إلى انه يؤجل الدخول إلى الحياة ويسمح بالفرار من رعب «المصنع»، الذي ربما ساهمت الفترة الدراسية، بمعنى التأقلم مع حياة المدرسة، في التلويح به، يوفّر هذا الفن في الاستمرار الفضيلة المثلى المتمثلة في إطالة أمد حالة التردد والقلق في المدرسة، ويتيح على هذه الصورة البقاء الخيالي للرغبات التي لا تكفّ المدرسة نفسها عن القضاء عليها وخنقها حتى التلاشي.

مع شـاب

حديث أجراه بيير بورديو وروزين كريستان

«حياتي لطيفة»

◆ ما هذه الدورة؟ ماذا تفعل هنا؟

مالك: المفروض أنني أدرس البيع. البيع والوكالة. وبالتالي، فأنا هنا في الصباح، أدرس الزبائن نظراً لأنني لا آخذ طلبات، فأنا لاأعرف البضائع الموجودة غير ذلك.. غير ذلك، فأنني بعد الظهر أبقى قليلاً في المخزن وأراقب، أحاول أن أتعلّم. بدأت أتعلّم.

◆ إلى أي مجال يتبع هذا؟

مالك: مجال القِطع بالمفرّق للسيارات.

◆ وهذه الدورة مأجورة؟

مالك: إطلاقاً.

◆ والمدرسة هي التي وجدت هذا أم أنت بنفسك؟

مالك: آه، لا،لا، فهذا جزء من.. هذا جزء من.. عفواً لا أجد كلماتي؛ الخلاصة، لا يهمّ، هذا جزء من تقنية البحث عن عمل، لنقل إن المفروض علينا أن نبحث. وهذا عليه علامة، الخ. فكل شيء مرتبط، كيف نجد العمل، ماذا نجد، الخ.

[...]

◆ إذن يمكننا الرجوع قليلاً، لا أدري، إلى دراستك كلها، ومن جميعه، كيف كانت دراستك..

مالك: حسب، فإذا أردت نبدأ من الحضانة حتى..

◆ معلوم، معلوم، ولم لا؟

كانت مدرسة زبالة أكثر منها أي شيء آخر

مالك: الحضانة ممتازة، سوى أنني لم أكن أذهب إليها كثيراً في فترة ما بعد الظهر لأني كنت على الخصوص مع أمي (...) في ذلك الوقت، كانت تشتغل بنصف دوام في كازينو {سوبرماركت} (...). بعد الصف التمهيدي الـCP، تمت دراستي الابتدائية كلها بشكل عادي في الحقيقة، بشكل عادي، ومن بعدها كانت سنتي الأولى في الصف الأول الإعدادي، لأنني امضيت فيه سنتين: الفصل الأول عادي، الثاني ليس كما يجب، الثالث كارثة.

◆ وأين كان هذا؟

مالك: كان هذا في كاشان. في كاشان، يعني لأعطيك فكرة أين المكان. إذن، كنت هناك. ومن ثمّ هناك لنقل، كان الدخول إلى الحلقة الإعدادية، أعتقد أن هذا فيه تفتّح، وفور أن تصل إلى هذه «التركيبة»، لا تفكّر كثيراً بالدراسة، فالمفروض التفكير قبل ذلك، يعني. (..) من بعدها أعدت سنتي في الأول إعدادي في مدرسة خاصة إلى حدٍّ ما، يعني تحت الإشراف. أهلي وضعوني فيها. وكان فيها إقامة داخلية. بالنسبة لي لم يكن وارداً الدخول إلى القسم الداخلي لأني أخاف قليلاً من الأماكن المغلقة. يعني، وقد جرت الأمور كما يجب. جرت الأمور عال العال. أما في الصف التالي، فكان الوضع كارثة.

◆ بمعنى؟

مالك: بمعنى أني لم أبذل جهدي. القضية إلى حدٍّ ما.. لم تكن العلة في المدرسة، إنما كان كان عقلي في مكان آخر.

❖ لكن لماذا هذا، إذا كان لنا أن نعلم؟

مالك: (..) كلا، لا أعرف، لعلّهم الأصحاب، لا أعرف. كلا، حتى لم تكن القضية في ما كان محيطاً بي، في النهاية، بل كانت.. أعتقد أني شعرت بالحاجة كي أستريح فترة من الزمن لأستطيع أن أتوقف وأن أراجع بعض الأمور من أجل إدراكها.

❖ وأهلك، هل كانوا يساندونك في تلك الساعة أم..؟

مالك: كلا. تعلم، المشكلة للأسف، هي أن أهلي استطاعوا مساعدتي حتى مرحلة الابتدائي باعتبار أنهم.. ومن ثمّ، بعد فترة، يصبح هناك فاصل.

❖ لكن في المدرسة الابتدائية كانوا يساندون عملك؟ كانوا يساعدونك..

مالك: نعم، كانوا يراقبون، الخ.. كانوا يستطيعون أن يساعدوني، الخ.

❖ بالضبط، ووالدك ماذا يعمل؟

مالك: آه، والدي، هو -حالياً- في مخبر ويَعمل، يَعمل كل ما يمكن أن يُعمل: يؤدي خدمات، يقود السيارات؛ هو متعدّد الأعمال، يعني. ليس له في الحقيقة مركز.. مركز ثابت.

[...]

❖ لكن تلك المدرسة الخاصة لا بدّ أنها كلّفتهم كثيراً، أليس كذلك؟

مالك: كلا، لأنها كانت مدرسة، يعني، اسمها «ركن البريد والبرق والهاتف»، والدفع فيها حسب دخل الأهل. هناك، كانت الأمور حسنة، ثم أنا قررت، ما علينا، يعني هم اقترحوا عليّ أن أعيد الصفّ، إنما أنا لم أقبل ومن بعدها..

❖ في الثاني الإعدادي، صحيح؟

مالك: نعم، في الثاني الإعدادي ومن بعدها قررت اختيار طريقي، فهو كان شهادة التأهيل المهني CAP. وبالتالي تركوني في هذه المؤسسة.

❖ وأهلك، هل ساعدوك في ذلك الحين على قرارك في ما يتعلق بشهادة الـ CAP أم..؟

مالك: كلا، أنا كنت عنيداً، كلا. أنا أردت هذا الفرع، وما كنت أعلم إلى أين يؤدي..

❖ لكن أي اختصاص إذن؟

مالك: موظف مكتب، محاسبة..

❖ إلى حدٍّ ما مثل والدتك؟ فوالدتك محاسبة؟

مالك: لا، لا، بالمرّة. هي أمينة صندوق. طبعاً، في النهاية هي لها علاقة بالمحاسبة، ولكن..

❖ لماذا اخترت المحاسبة؟

مالك: المحاسبة؟ لأني كان عليَّ أن أختار بين الإلكترون- ميكانيك أو الميكانيك.. بالتالي، نظراً لأنني كسول..

❖ المحاسبة أفضل، لأنك تعمل وأنت جالس، صحيح؟

مالك: نعم، أظن الأمر هكذا. فأنت جالس ثم لنقل، لا يُطلب منك أن.. ما كان يخيفني على الأرجح، لا ليس يخيفني، يعني حكاية الورش، والضجة العالية..

❖ نعم، المصنع.

مالك: معلوم، المصنع. معلوم، المصنع، هذه هي الكلمة الصحيحة. نعم، لا بد أنه كان يخيفني. (..) ثم من بعدها، يعني، اجتزت السنة الأولى CAP، والثانية، والثالثة، ثم، ورغم كسلي، لا أعلم لماذا أتقدم من صف إلى صف..

❖ ودائماً في المدرسة نفسها؟

مالك: في المدرسة نفسها. وأنا أقول هذه السنوات الثلاث هي أفضل سنواتي الدراسية لأن.. لكن بالنسبة للعلامات، لا، خصوصاً مع الناس الذين كانوا حولي، مع الصف، فهناك عملت صداقة مع اثنين ثم مع

آخرين، الخ. من بعدها.. يعني هناك بدأت أمور، يعني أنا كنت.. باختصار اجتزت شهادة الـ CAP وهناك في نهاية سنة الـ CAP، يوجد مجلس أعلى الخ.، يعني «تركيبة»، فيقرّرون إذا كنت تستطيع المتابعة أو لا تستطيع المتابعة. في رأيي كل هذه الحكاية سخيفة لأنهم من المفروض أن يتركوا للجميع فرصتهم. يعني، حكاية سخيفة، لا أعلم، ربما، لأنهم في النهاية.. هذا سخيف بشأن الـ CAP، يعني؛ قصدي، لا يتركون لك، المفروض أن يتركوا لك فرصة لكن لأن الصفوف مليئة. في الواقع، هي مليئة، ومن هذه الناحية أفهم أنهم لابد لهم من الانتقاء.

❖ أي نعم! ليس عندهم أماكن كافية. هذا صحيح.

مالك: إيه، يعني حينها، إذن لم يسمحوا لي أن أتابع، لم يكن رأي المجلس في صالحي، بمعنى أن إضبارتي لم تُقدَّم إلى الإدارة، إذن لم يُعَدّ تصنيفها، إذن من بعدها أصبح علينا أن نبحث بأنفسنا، إذن ذهبت من مدرسة إلى مدرسة، من مكتب إلى مكتب، الخ.، ثم في النهاية وجدت مدرسة، لكن يعني هذا..

❖ أنت قمت بهذه التحرّكات؟ لتجد المكان..

مالك: كان عليّ هذا، فلم يكن وارداً أن أتوقف، لأنني في تلك اللحظة كان حظّي أوفر من.. يعني، لم تكن الـ CAP هي التي يمكنها أن ترتب مستقبلي . (..) فتّشت في البيع (..) حينها فتّشت في البيع لأنهم كانوا قد افتتحوا فرعاً للبيع؛ بيع- أسهم- بضائع، وأنا كنت أفتّش (..) إذن، لم أجد شيئاً، كانت الصفوف مليئة. كانت.. أخيراً اهتديت إلى عنوان لأني كنت مسجّلاً في مركز المعلومات والتوجيه CIO في مدينتي، الخ.، فقالوا لي عن وجود أماكن سوف تشغر في إحدى المدارس، وكانت النهاية أنهم قبلوني. لكن ليس في البيع، ولا في المحاسبة، في السكرتاريا. وأوهموني أنني في السنة الثانية، يكون بإمكاني دراسة المحاسبة.

❖ هه! وأين كان هذا؟

مالك: في جانيتي. في جانيتي، وإذن مع تقدم الوقت، لاحظت أنها مدرسة زبالة أكثر منها أي شيء آخر..

◆ ماذا كان اسمها؟

مالك: الثانوية المهنية في فال- دو- بييفر. ما علينا، هذا قاس، عندما يكتشف الإنسان هذا..

◆ كم من الزمن استغرقت لتكتشف هذا؟

مالك: بسرعة كبيرة وأنا أتناقش مع جيراني.. وأنا أتناقش مع جيراني الذين كانوا في مثل وضعي. فعندك الذي كان أمامي، فكأن وضعه مثل وضعي. وعندك الثاني الذي كان خلفي، فكان وضعه مثل وضعي، باختصار اكتشفنا أنها (..)، و، بالتالي فقد علم كل من هم جواري برأيي..

◆ فماذا قلتم مجتمعين حينها؟ هل تناقشتم فيما بينكم؟

احب بصدق، لا اعلم لماذا، احبّ بصدق.

مالك: يعني، المشكلة، أنك بمجرّد أن تعلق، بمجرّد أن تدخل.. فعليك التسليم بالأمر، فهنا أنني.. قلت لنفسي: طيب، هذا غير خطير، فأنا سنتي الثانية سوف تكون محاسبة؛ ثم ، في النهاية، للحقيقة، طاب لي المقام. يطيب لك المقام لوجود أصدقاء في الصف، وتبدأ بالتعرّف على الأساتذة، الخ. إذن كان الأمر لا بأس، ولا يعني هذا أن ما يعلّمونا إياه لم يكن جيداً؛ المشكلة مشكلة المدرسة، يعني.. هي طريق مسدود، يعني، يكون عندك انطباع أنك فيما بعد، في جميع الأحوال سوف يتوقف كل شيء عند شهادة الدراسات المهنية B E P، وعندك انطباع أنها شهادة على الرفّ، ولكن لا بد من المرور من هناك متى فاتتك الفرص الأخرى العادية، أنت مجبَر أن تمرّ من هذه المدرسة. هذا غريب قليلاً.

◆ والأساتذة لطيفون؟

مالك: آه، نعم! هم لطيفون جداً.

◆ لكن يعلمون هم أنفسهم..

مالك: آه، نعم! يدركون الأمر جيداً، فهم ليسوا مجانين..

◆ هم يفعلون ما بوسعهم، آه؟

مالك: عموماً. عموماً. لا يمكن أن نقول.. فقسم منهم هناك، كمرحلة انتقالية، فهم يريدون إنهاء سنتين أو ثلاث سنوات لأنها أيضاً مدرسة للأساتذة..

◆ الزبالة؟

مالك: ليس زبالة بل هم في فترة انتظار لمدة ثلاث سنوات..

◆ لإيجاد شيء آخر، نعم، هذا صحيح.

مالك: ثم كثير من الأساتذة بدايتهم من هناك. من تلك المدرسة. أساتذة شباب، الخ.، فيضعونهم فيها، فيصيرون (..)، لا أعلم، عندك «تركيبات» كثيرة من هذا النوع. ثم من بعدها، طيب، عملت سنتي الثانية، ولم يسمحوا لي بالتسجيل في المحاسبة فعملت السنة الثانية في السكرتاريا. إذن، من بعدها، من بعد وصولي إلى السنة الثانية.. إذن، أنا كنت أريد المتابعة بأي ثمن، وأريد أن أعمل الصف الحادي عشر، حادي عشر تأهيل.

◆ نعم من أجل الاستدراك..

مالك: من أجل استدراك الفصل الدراسي، لأنني حينذاك قلت لنفسي: الأفضل اللحاق بالفصل الدراسي، وتكرّر الأمر: مرفوض. (..) يعني لم أشتغل أبداً كما يجب، لكن في النهاية، لم أشعر بالحاجة إلى الدراسة، إلى النجاح، لا أعلم، إنما من بعدها أنا.. أنا نجحت بشكل عادي، دون مشاكل، لكن كان يجب عليّ أن أدرس أو اثبت اني أدرس، ربما من أجل.. لأنهم، هم، يقولون لأنفسهم، إذا لم يدرس فربّما أنه في الحادي عشر لن يدرس أيضاً. صحيح، عليّ أن ادرس بالتأكيد. لكن بالمقابل، يعني للأمانة كانوا لطيفين معي جداً عندما سمحوا لي أن أدرس حادي عشر «تعميق معلومات»، فهذا ما فعلته. ثم، إذن، كانت المرّة الأولى التي أختار فيها بالفعل، بالفعل. إذن، كان أمامي البيع، فاخترت البيع، ثم يعني، ها أنا هنا.

❖ من قليل، تكلّمت عن أصحاب، أمامك، وراءك، الخ.، ثم قلت، «يدرك المرء أنها..»، نعم، ما قصدك بهذه العبارة؟

مالك: يعني، يقبل المرء، يقول لنفسه، هكذا هي الأمور. هكذا هي الأمور، لكن لم تكن كلّها سلبيّة، فعندما نلاحظ، نتوصل إلى.. (..) نعم، على كلٍّ كان الوقت حلواً، أنا أحب المدرسة بصدق، فهي.. أحب بصدق، هذا صحيح، لا أعلم لماذا أحبها بصدق.. لا من أجل الأصحاب ولا في النهاية من أجل ما أتعلّمه فيها؛ أنا لا أعلم لماذا.

❖ وعندما قلت أنك كسول، وأنك..

مالك: آه، لا! أنا كسول جداً، جداً، جداً. أنا صورة الكسل.

❖ نعم، إنّما تحاول أن تتشبث، عندما تذهب للبحث عن مدرسة في كل ناحية، الخ.، فأنت بذلت مجهودات كبيرة؟

مالك: يعني، أنا لا أرى أنها مجهودات، لأنني كنت سأبذل الجهود من قبل. فهنا، أنا {صوت غير مسموع}، بمجرّد وصولي أمام الحائط، فإنني أقول لنفسي، يجب أن أحاول شيئاً، إذن أحاول أن أعلّق خطّافي، لا يهمّ أين، فيجب أن ألحق بالمركب لبعض الوقت. لكن، يعني، هذا صعب. هذا صعب.. ليس بكل تلك الصعوبة، لكن في النهاية، على أي حال.. لا، معلوم أنا خامل لأنني، على الأقل.. لو كنت كل مساء بعد عودتي من المدرسة أجهد نفسي، طبعاً لعلّي كنت وفّرت لنفسي حظّاً أكبر، خيارات أكثر، هذا صحيح.. ليس لأنهم.. لا، في النهاية، هم موجودون، هذا أكيد، هم يدفعونني، يدفعونني، يقولون لي، «عظيم، هنا ما دمت مواظباً، لا توجد مشكلة»، الخ؛ لكنهم ليسوا سنداً لي.

كان على قواعده

❖ لا يعلمون ماذا يفعلون لمساعدتك، هه، هكذا الأمر؟

مالك: أظنهم يثقون بي الآن. أعتقد بأنهم يثقون بي، وأظنّ أن الأمر لم يعد موضوع ثقة، فهم يقولون لأنفسهم، طيب، في النهاية، حتى إذا لم

يشتغل، لا نعلم كيف، لكن، يعني، هو.. لكن صحيح، على الأقل، غريب ما سوف أقوله، لكن، يعني، عندي أب، في النهاية، لا يعلم حتى ماذا أفعل. بالضبط. لن يمكنه أن يقول لك ماذا أفعل بالضبط. فهو لا يعلم إن كان فرعي المحاسبة، إن كان البيع، فقد يخلط في رأسه بين أمور كثيرة، لكنه لا يعلم بدقة ماذا أفعل.

❖ لا تتحدث كثيراً عن هذا معه؟

مالك: لا، لا نتكلم كثيراً عن هذا؛ خاصة وأنه هو أيضاً لايكلّمني عن شغله، فأنا لا أكلّمه كثيراً عن نفسي.

❖ وهذا صعب أيضاً عليه، هه؟

مالك: طيب، أظن أن هذا لا بد أن يكون.. في لحظة ما، يعني، فهو ليس أمّيّاً بالمطلق، لكن لنقل أنه يعلم تقريباً ألف، باء، جيم، دال، لكن تصعب عليه القراءة، الخ.

❖ أصوله جزائرية؟

مالك: نعم، هكذا.

❖ من أي مكان في الجزائر؟

مالك: لقد ولد هناك.

❖ في أي زاوية، لا تعلم؟

مالك: بلى، هو من تلمسان.

❖ آه، نعم! من تلمسان. إذن هو يعاني.

مالك: نعم، هو يعاني، وعلى الأقل لا أعلم لأنه على الأقل تدبّر أموره، يعني هو لم يدخل أبداً إلى المدرسة، دخل المدرسة مرة واحدة بقدميه ثم لم يرجع إليها من بعد ذلك. لكن لم يعد لدي انطباع أن الأمر، بالنسبة له، شكلّ حرماناً كبيراً، حينما وصل إلى فرنسا، الخ.، أو أنه تنغّص بسبب هذا، أو ما لا أعلم، لكنه الآن يلاحظ بأنه (..) هو يريد الآن ولا يهمه كثيراً ما أفعل، في الحدّ الأقصى لا يهمّه ماذا أفعل، ما دمت أحاول الارتفاع

قليلاً. وصحيح أنه إلى جانبي، ويفعل كل ما يستطيع. بمعنى أنه سوف يساعدني مالياً، الخ.، طالما أنني في المدرسة. لكن، صحيح، إذا ما تراخيت، وانسحبت، فعندها هو لا يكون مسروراً، بالمرّة.

[...]

❖ وبالنسبة لأخيك، ماذا يفعل؟ أخوك معكما في البيت؟

مالك: لا، هو الآخر غريب، نهايته، هو يعيش مع صديقة لانعرفها؛ فأحياناً يأتي إلى البيت، وأحياناً لا يكون فيه. ماذا يفعل؟ هو {يقصد والده} نفض يديه. أظن الأمر هكذا. أظن أنه نفض يديه، يعني. لشعوره بأنه خرج نهائياً عن طوع أمره، وكان هذا باكراً جداً، هه، منذ كان عمر أخي 17،16 سنة، خرج تماماً عن طوع أمره..

❖ ماذا تعني بقولك «خرج عن طوع أمره»؟

مالك: خرج عن طوع أمره لأن أخي كان تماماً، كان لا يبيت معي في البيت تقريباً، لأنه كان في أغلب الوقت خارج البيت، الخ.، إذن لم يتابعه خلال سنتين، ثلاث سنوات، ولم يمكنه أن يلاحظ ما طرأ عليه من تطوّر، الخ.

❖ وهذا لا بدّ قد عذّبه كثيراً؟

مالك: أظن أن.. ما فيه الكفاية.. أظن. لكني الآن رغم كل شيء بدأت أدرك هذا، لأنه قد أصبح بمفرده تماماً..

❖ ألا يزيد من الكلام؟

مالك: يحاول أن يزيد من الكلام؛ يجب أن يتكلّم أكثر. لكن أظن أنه كان بحاجة لهذا أيضاً (..)؛ نهايته، هذا أكثر، هذا سوف يكون أقل إزعاجاً، هذا سوف يكون أقل إزعاجاً، هذا أكثر..

❖ حدثني قليلاً عن الأمر.. (..)

مالك: إذن من بعد الطلاق- نهايته، هذا الآن، هذا مع نظرتي الآن، وانتبه فهذا غير موضوعي- إذن، من بعد الطلاق، لنقل إنه سابقاً لم يكن

يدرك.. لقد تعامل دائماً معنا على أساس العلاقة أب- أبناء الخ.، ثم، هو لم يتركنا، نهايته، نكبر، لا أعلم، لكن، نهايته، المناقشات لم تكن ممكنة إلى مرحلة معينة، لأنني كنت أكلّمه عن أمر، فلا يتابعني؛ بالنسبة له، العلاقة كانت سطحية، ولهذا، من بعد الطلاق، رحلت أمي، وبقينا في البيت، أنا وأخي، أما أختي، فكانت قد رحلت مع صديقها. ولم يكن أخي يلازم البيت كثيراً، فعملياً لم يكن هناك غيري. لكن حتى أنا. كنت أتغيّب أيضاً- أكثر من أخي لفترة ثم أقلّ-، فهذا جعله بمفرده تماماً منذ.. يعني مضى الآن عشرة شهور، في الواقع سأقول منذ افتتاح المدارس. وإذن، فهنا بدأ بـ .. نظراً لنبذه جانباً، وهنا أنا واثق أنه يشعر في أعماقه بأنه نُبذ جانباً. على الهامش. بينما أمي ظلّت ألصق بنا، وهو أنا عندي انطباع بأنه.. (..) وهنا يجب عليه أن..

◆ أن يفكر؟ {مالك ضاع منه خيط الكلام وهو متألم لذلك} (..) لكن في العمق لو أنه سبق لك أن تكلّمت معه هكذا، في الماضي، أكان الأمر اختلف؟ ألم يكن هذا ممكناً؟

مالك: نعم، لكن هذا لم يكن يمشي إلا باتجاه واحد، فهذا ما كنت أقوله لك، فهو كان على قواعده، كان على قواعده لا يتزحزح، فأنا كان عليّ أن أقطع المسافة إليه، وهذا لم يكن يمشي إلاّ في اتجاه واحد، لهذا أنا أكلّمك عن نفسي. لكن عملياً، كان الأمر هكذا عند الجميع، فهذا.. إنه، إنه الأب الذي..

◆ .. بالضبط، الأب الذي هو على صواب.

مالك: هو الأب المركزي الذي هو.. الذي لا يقال عنه.. فهذا، يعني، إنّما أنا أفهم تماماً، بالقياس إلى أصوله، الخ.

◆ بالتأكيد، هذا طبيعي.

مالك: إنما هو عبقري لأنه، على الأقل، تخلّى عن كل شيء، الخ. أريد أن أقول دينياً فهو ليس على الإطلاق.. هو، ما يريده في النهاية هو الاندماج بالمجتمع الفرنسي؛ حتى يكاد يكون معه فِصام لأنه لا يريد المشاكل؛

بمجرّد أنه تأتيه غرامة، يُجنّ جنونه، بمجرّد أن تكون هناك مشاكل، الخ. لا يحبّ أن يتورط في قصص وحكايات على الإطلاق، هو يحاول تثبيت موضع قدمه. لكن عنده، أظن عنده خوف، عنده خوف رهيب لكل ما هو خارج النظام، لكن هذا أيضاً، هذا سببه أنه من.. بالضبط. أريد أن أقول، هو تأتيه ورقة، أو ما لا أعلم، فيضطرب تماماً. أريد أن أقول، هو يتلقى ورقة، لا أدري، أنا مثلاً حدث أن تلقيت (فاتورة)، إلخ..، وبعد فترة، حدث.. كان الأمر على الحاسب، ثم هوبا، يرسل لي على الفور، كانت تلك النهاية، وهو لم يستطع أن يفهم بأن غريمه حاسب وليس شخصاً، إلخ. فهو فصامي جداً، يعني، فعلاً هذا خطير، إنما (..) في داخله، يجب أن تشرح له. يجب أن تشرح له، لكنه يعاني ويجد صعوبة، صحيح أنه يعاني، كثيراً. وهذا مسلٍ وغير مسلٍ على الإطلاق. فنحن نمزح ونضحك وقتها، ثم..

أنا بحاجة إلى أن يتحرك ما حولي باستمرار.

[...]

◆ وماذا عن المستقبل، بماذا تفكر؟

مالك: {ضحكة} ليس هنا. ليس هنا.

◆ يعني؟

مالك: ليس هنا، هه، ليس في باريس. الخلاصة، أحب باريس كثيراً، انتبه، باريس مدينة أعشقها، أريد أن أقول، أنا مسرور كثيراً لأنني أعيش فيها، ولكن الانطباع عندي أني بحاجة إلى.. الهرب.. إلى الهرب باستمرار. لكن هو هرب أكثر منه أي شيء آخر، هه، هذا.. أنا.. يجب.. أنا لا أحب الثبات. أنا بحاجة إلى أن يتحرّك ما حولي باستمرار، أن تقع أحداث، أن يحصل شيء ما. فإذا من بعد فترة جلست وشعرت أن الأمر بدأ يتكرّر، أبدأ بـ .. أنا لم أرد أن أربط نفسي بأية عجلة تدور حالياً. هذا على وجه الخصوص. لكن لعل هذا يتغيرّ. وحتى، هذا ليس معنا فقط، فهذا يتغيرّ على أي حال، هذا أكيد. على الأقل، الأمر الذي أنا واثق منه هو أنني سوف أبقى هنا. لكنني في هذه الساعة غير راغب بهذا.

❖ نعم، هكذا، لا تريد أن تعلم بالأمر، هه.

مالك: معلوم، معلوم، بالضبط. لكني سوف أرحل {ضحكة}.

[...]

❖ إذن هذه الدورة التدريبية، إلى أين ستوصلك، من بعد، على الفور، هنا؟

مالك: الدورة؟ الدورة. بلى، هي مهمّة، لنقل إن.. الأمر هو هو في جميع الدورات فأنا سوف أعود أيضاً إلى طبعي لأنني أبحث في كل مؤسسة أعمل فيها، فأنا أريد أن تكون مختلفة. إذن أنا خارج من مخزن كبير، «الأوريال» الخ. لأبحث من ثم عن مؤسسة صغيرة افتتحت مؤخراً، منذ ستة شهور، هه. هي SARL(*)، صغيرة، صغيرة جداً (..). لكن الحال هي هي، لأنه بحسب التقرير.. فاليوم الذي سوف أتقدّم فيه، يعني في النهاية عندنا.. حول الامتحان، وعندنا حديث شفهي، وحول التقرير عن الدورة الذي يجب تقديمه، الخ.، الدورة كلّها شفهية، يعني ففي ذلك اليوم، لن أريد، إذا سألوني عن الدورة، لن أريد إعادة الدورة نفسها مرّتين. فهذا، هذا لا يثير اهتمامي. هذا لا يثير اهتمامي لأنهم، هم من جانبهم، سوف يملّون ثم إنني، سوف يفيض بي الكيل من الأمر، ويعني هذا أمر يمكن الشعور به. لهذا، إذا كان لديّ دورتان أو أربع، عليّ إجراء أربع دورات خلال هذين العامين، يعني، سوف أقبل بالسنتين، لكن أريد أن تكون الدورات متباينة ومتكاملة.

[...]

❖ ومن بعد أن يضعك المخزن في عمل، ماذا يفعل؟

مالك: آه، لا، لا، من بعد.. أنا حتى لم أفكر في هذا، أن المؤسسة يمكنها أن تضعنا في عمل {ضحكة}، كان هذا ربّما في الماضي لكنه لم يعد وارداً الآن.

(*) SARL: شركة مغفلة محدودة المسؤولية.

◆ فما هي إذن، هذه الدبلومات التي..

مالك: الدبلوم الحالي؟ هي شهادة بكلوريا مهنية، طريق مسدودة، يعني. أنا أقول، هذه «تركيبة» مسدودة، لا أمل فيها. لا أعلم، ما عندي انطباع أن هذا الأمر يجب القيام به، يعني، هذا الفرع لم يفتحوه منذ فترة طويلة، ثم أنا لا ثقة لي بهذا النوع من الشهادة. {الدورات غير مأجورة.}

◆ نعم وبالتالي فكيف تدبّر نفسك كي تعيش؟ يعني يلزمك في جميع الأحوال بعض العملة..

مالك: أنا؟ يعني، حسب، أحياناً أكدح، يحصل أحياناً أني أكدح..

◆ خارجاً، نعم هكذا.

مالك: يعني ليس كثيراً، فأنا لست.. قلت لك هذا، نهايته، حصل أني اشتغلت وكدحت، أيضاً.

◆ ثم، البابا يساعدك..؟

مالك: لا، على الخصوص البابا والماما، هما لطيفان في هذا. كانا لطيفين جداً، جداً، في هذا.

◆ لماذا تقول «في هذا»؟

مالك: {صوت غير مسموع.} هذه نذالة، هه؟

هذا يؤدي إلى مشاركة كبيرة.

◆ قد يمكننا الكلام قليلاً عن المجمّع السكني، حيث تعيش، منذ كم من الوقت، كيف أن..

مالك: أوكي. طيب أنا كبرت في (..) فأنا رحلت عن باريس ومن ثم جميع الأماكن التي عشت فيها. يمكن حتى أن أكلّمك عن أهلي. أمي وأبي وصلا إلى فرنسا في عام 64 على ما أظن، 63 أو 64 لم أعد أعلم؛ فالتقيا. كان والدي يعيش في كاشان، وكانت والدتي تعيش في باريس منتقلة من غرفة لغرفة، (..)، من بعدها التقيا، عظيم، وقع الحب بينهما، فجاءا يعيشان معاً في باريس في غرفة، يعني عند أصدقاء فرنسيين صاروا فيما

بعد من أحسن الأصدقاء. من بعدها وجدا عن طريق مكتب الـ HLM (المساكن ذات الإيجار المعتدل) بناية في كاشان. إذن هنا ظهرت أنا (..)

ليس ذلك المجمّع هائلاً، هو كبير، لكن لا يوجد عدد كبير من الناس، على عكس الواقع في المجمّعات السكنية الأخرى. فهناك إذن نقول.. صحيح، من المهم والمحبّب أن تعيش في مكان من السهل جداً فيه التعرف على صاحب، أصحاب، لا يهمّ، صاحبات، الخ. فأنا أجد أنك تندفع إلى هذه العلاقات أسرع بكثير ممّا لو كنت متكوّماً في جناح معزول، الخ. ثم إنّ هذا يخلق أشياء كثيرة، هذا يؤدي إلى مشاركة كبيرة. يعني، في النهاية، هذا شعوري، لا أعلم إن كان هذا مصدره أهلي أو أي شيء، لكن هذا يستمر في الذاكرة، فأنت يكون معك 20 سنتيماً، يمكنك أن تشتري بها حبّتي مربّى، فلا تأكل الحبّتين إذا كان رفيقك إلى جانبك. ولا أعلم في الواقع.. لا أعلم، إما أن نشعر أننا نفتقر إلى المال وبالتالي فكل ما نملكه يجب أن نتقاسمه مع الآخر، لأن الآخر سوف يتصرّف مثلك في يوم ثانٍ. لا أعلم. أنا هناك كبرت، الخ. وإذن فأمي كانت قدّمت طلباً للحصول على مسكن في المسبح، وإذن فنحن صرنا هناك، في المسبح، إذن في الحيّ بأكمله.. (..)

ومن ثم، نعم، تعلمت السباحة ومن جميعه ثم بعد وصولي إلى مرحلة معينة في السباحة، لاحظت أنه، حسناً، كنت قد أصبحت في سن 13،13 سنة؛ فكانوا يدفعوننا، يدفعوننا، يدفعوننا، لأنهم لاحظوا أننا نتدرّب في جميع الأيام، على سبيل المثال يوم السبت سباق، لا بل يوم الأحد، فهذا مستوى معين، فهذا يعني أننا وصلنا، الخ.

◆ وكنت قوياً بما يكفي لتفعل كل هذا، يعني، من أجل السباق؟

مالك: فيما يبدو. كنت سبّاحاً، يعني! وبهذا الشأن، لا أعلم، شعرت أنه شيء غير صحّي. غير صحي بالمرّة. أن يدفعوني على تلك الصورة، لم أجد هذا طبيعياً. (..)

◆ يعني فيه ما يشبه جوّ المدرسة.

مالك: لا، ففي المدرسة لا يدفعوننا هكذا. هذا مختلف.

◆ ليس كما يجب.

مالك: ثم.. أعتقد أن الأمر هكذا. أعتقد الأمر هكذا، هذا هو بالتمام. ليس كما يجب. باختصار، هناك تربية عامة راسخة جداً، أكاديمية جداً، ولكنك تلاحظ عدم وجود الناحية الفردية، لا يأخذون العنصر على حدة..

[...]

ما كنا نريده، أن يتحرك هذا..

◆ الأصحاب، هل كان أمرهم يهمك كثيراً؟

مالك: أوه، نعم!

◆ كانوا كل ما لديك من تسلية؟

مالك: معلوم.

◆ وفي المجّمع السكني؟

مالك: كانوا كثيرين في المجّمع السكني، إذن هناك.. هناك كنت مع.. إذن كنت ما أزال في الابتدائي عندما انتقلنا إلى المسبح وإذن (..) غيرت سكني، غيرت سكني، غيرت المدرسة، إذن في كاشان كانت الأمور تمشي على ما يرام. بدأت بالتعرف تحديداً على أناس كانوا يعيشون هناك. إذن لم يتغير شيء بالنسبة لي بالمرة لأنني عشت دائماً، لم أكن أشعر أنني ثانوي، الخ.، بالمرة. إذن، بنيت علاقات سهلة، الخ. إذن كانت الأمور تمشي على ما يرام، في الصف الرابع CM1، والخامس CM2 .. ومن ثمّ لنقل مع نهاية الـ CM2 -لأن تاريخي أربطه مع سنوات الدراسة-. إذن، مع نهاية الـ CM2 بدأت أرى أشياء جديدة، يعني، أقول لنفسي لا أدري، كنت أقوم برذالات شاب صغير، هه، بدأنا نسرق أشياء بسيطة، رذالات، فعلاً رذالات، وشيء سخيف. لكنها رذالة مخيفة، لأننا ربما كان يمكن لنا أن نسرق بنك فرنسا، ولا شك كان هذا سيثيرنا أكثر. لم يكن عندنا طموح كبير، يعني. معلوم، بنك فرنسا أحلى، لكن، نهايته، أظن الموضوع في أساسه موضوع مجازفة، يعني..

عندما نكون صغاراً، فليس الموضوع أن أسرق لأنني بحاجة للخروج من مأزق؛ نعم؛ هكذا؛ لم تكن عندي تلك الفكرة، إنما أسرق للسرقة، رذالة وسخافة، يعني بضع برتقالات، مجرد رذالة، المهّم وجود المجازفة، يعني! ما كنا نريد، هو أن يتحرك هذا {ضحكة}. نعم، كنا كما.. كان الأمر وكأنه فعلاً (..). عظيم، إنما، تطورت معنا الحالة قليلاً؛ فكان أن حصل معي، يعني بعدها، لمرة واحدة فغيرت طريقي، كنا نتغير كثيراً.. إذن كنت دائماً مع أخي، وهذا الذي على الأقل هو ما.. كنا دائماً معاً ونحن صغار، وحتى عندما وصلنا إلى ذلك الموصول، يعني كنا دائماً معاً، كنا نتجول معاً، عندها كنا نصلح دراجاتنا، وكنا ننطلق معاً، هه. لاكتشاف كاشان.

[...]

◆ لكن ماذا حصل؟ هو..

مالك: هو كبر. هو كبر ونحن كنا صغاراً. صغار، مع أننا في سن 14، نستطيع تدبير حالنا، ماشي الحال، على ما أظن. لكن هناك أخذنا طريقين مختلفين. أنا، ما حصل.. هو سنوات الـ CAP، قلت لك هذا، «مشي الحال» {صوت غير مسموع}. لا، صحيح، هذه ليست سخافات، قصدي، كان عندي.. لا أدري، لا أستطيع أن أحكي لك هذا، يجب أن نتكلم طويلاً فهذا شيء مليء بالذكريات، مليء بالنهفات، مليء.. هذا عبقري، هه! هذه نهفات لا تُنسى، يعني. كانت هناك رذالات أيضاً مع الأساتذة، كم من النهفات حتى البكاء معاً، نهفات مجنونة، يعني، على كلٍ، أنا لم أبكِ أبداً مع صاحب. بلى، اضطررنا للبكاء إنما في قسم الشرطة وهذا شيء مختلف؛ {صوت غير مسموع} في قسم الشرطة، لكن هذا كان من أجل رذالة سخيفة. وإذن، رجعنا من هناك، وإذن غيرنا الكثير من الأصدقاء في تلك اللحظة.

◆ أنت تقفز قفزاً هنا: فماذا فعلت لتذهب إلى قسم الشرطة؟

مالك: إذن.. كنت مع اثنين.. هذا مسلٌ لأنني أنا، أنا أرى ما يجري {يشير إلى رأسه} أما أنت، انت لا ترى. أنا أستطيع أن أتخيل واستطيع..

◆ أنت لا تقول لنا كل شيء.

مالك: لا، معلوم لا .. {ضحكة}

❖ يمكنك، كما تعلم، وهذا يبقى هنا.

{شرح أنه «ارتكب حماقات» مع بعض الأولاد، «ليسوا ممن تحسن معاشرتهم، لكنهم ظريفون» : سرقات «حباً بالمجازفة»، اللعب بالنار وحرائق غير مقصودة ،الدخول إلى بيوت مهجورة أو شبه مهجورة، فأثناء إحدى هذه العمليات «لقطته» الشرطة وأبلغوا أهله}

مالك: (...) إذن عند وصولنا إلى قسم الشرطة، وصل أهلي. يعني، خصوصاً أمي، لأن أمي.. ليست -على الأقل هي لم تصفعني أو تضربني أبداً- لكن عقوبتها قاسية، فعقوبتها قص الشعر، فأنت لا ترغب أن يقصّوا لك حفرة في وسط الرأس، يعني. فعندما تصل يوم الاثنين إلى المدرسة وعلى رأسك (..) أنت بالتأكيد لا تكون مسروراً. يعني، وهكذا. كانت الأمور تمشي، ولم يكن هناك من تصرفات شريرة، أنا لم أفعل أيّ شرّ أبداً، وأنا دائماً في هذا الوسط، ولكن الصحيح، أن الأمور تتفاقم، فهذا شيء يتزايد باستمرار، ثم وصلنا إلى مرحلة.. فأنا حوالى.. يعني الصف الثامن، أصبحت في الـ CAP، وبدأت أتعرف على أشخاص، فأنا بالنسبة لهذا الموضوع، أنا تماماً، أنا تركت تماماً.. أنا انفصلت عن كل هذا الوسط، بينما أخي ظل فيه..

❖ هذا هو الأمر، فهو قد استمر في..

مالك: استمر في تلك الرذالات، وحتى وقت متأخر. وبالتالي فمن بعد..

❖ هل وقع في مشاكل، من جانبه؟ هل..

مالك: أوقف. أوقف، لكن لم يحبس، لكن لم يكن بعيداً عنه في الحقيقة.

❖ لماذا؟ من أجل سرقات، وأمور من هذا النوع؟

مالك: يعني.. كان هذا في إحدى المرات من أجل.. لأنه، حينها كان.. لأنه في فترة من الفترات- كان هذا بعد بعض الوقت- إذن في فترة من

الفترات، كان قد انقطع عن المدرسة ثم دائماً هذه الحاجة للمال، علماً أنه لا يعرف كيف يصرف فلوسه، لست أفهم. هذا ما لأفهمه، فهو ليس بحاجة للعملة لهذه الدرجة، لكنه ظل في المخدّرات في الحقيقة. إذن فقد دخل مع خلع وكسر إلى سوبرماركت. ذات مساء، ذات مساء. ثم إنه كان موسم تصنيع نبيذ الريكارد. لكنه لم يكن يشرب، كان يبيع المشروب إلى (..)، فهذا موضوع غرقوا فيه، يعني، وهو من جانبه، تطورت أحواله، وبالتالي فقد أوقفوه أكثر من مرة، نعم، وجد نفسه في...، ثم هو يعني حظه كان من أسوأ الحظوظ. إذن، وجد نفسه، في مساء يوم مع أصحاب من شلته، كانوا على درّاجة آلية، هو كان يتحدث، فمرّ رجال الشرطة، فأوقفوه مع شلّته، ودائماً في كل المرات الحكاية نفسها. أو أنه ينزل إلى باريس، فيلزم الهدوء، يكتفي بتدخين الحشيش بهدوء وراحة بال، فيعلق ويوقفونه، هذا سخيف، شيء بليد، أمور من هذا النوع. فهنا يعني لنقل، .. وأنا بصراحة كنت في البداية أكثر منه قليلاً؛ فعندها قابلت أولئك الذين أنا معهم الآن في صداقة متينة..

[...]

هو يحب تأسيس مركز على البحر

❖ هذا هو الموضوع، لكنك كنت تسرّ كثيراً لدرجة أنك لا ترغب كثيراً في..

مالك: الرجوع إلى البيت. لا، لم أكن أرجع إلى البيت. يعني، كنت أرجع إنما حوالي الساعة الثامنة مساءً. فكنت أبقى في قاعة المطالعة، يعني مع.. وتمام، الأمور تتالى، ثم هناك مناقشات، ثم الخ.. ثم يلاحظ المرء أن..

❖ ألم ترغب في أن تشتغل في تلك الفترة؟

مالك: لا، بالمرة. أظن في تلك الأثناء تحديداً تعرفت على هؤلاء الأشخاص، فنفرت، إذا أمكن القول، من العمل لأن.. لأنه كانت ما تزال هناك فترات كهذه ينبغي قضاؤها. فترات أخرى، لقاءات أخرى، لقاءات أخرى لها أهميتها. ولا أعلم إن كانوا جميعاً، يعني، قد فهموا التركيبة، أي التقطوا التركيبة أثناء ذلك.

❖ ماذا تعني بقولك هذا؟

مالك: الحاجة إلى التبادل..

{حكاية طويلة عن رحلة إلى إسبانيا مع أصحاب له.}

❖ ماذا يفعل الآن هذا الصاحب؟

مالك: هو، يحضّر البكلوريا المهنية؛ هو في السنة الثانية، لأننا تقدمنا كطلاب أحرار، فهو حصل عليها، أما أنا، لا.

❖ ماذا قلت؟ لم أسمع.

مالك: حصل عليها وأنا لا..

❖ حصل على ماذا؟

مالك: شهادة الـBEP (البكالوريا المهنية) كطالب حر. أي قبل عام، قبل عام. لأنه هو لم يتمكن من اجتياز الـCAP ، فقد حصل معه حادث؛ هذا لا يمنع أنه عنصر جيد جداً، جداً.

❖ وتخططا معاً لمشروعات مشتركة؟

مالك: لا أعلم ماذا تعني بالمشروعات..

❖ لا أعلم بالضبط، لأنني أظن أن..

مالك: {لهجة زهو} يعني، عنده مشروع، لنقل، أننا نرغب في تأسيس قاعدة بحرية.

❖ أين؟

مالك: في الفيتنام {ضحكة}.

❖ لماذا ؟

مالك: لأن الفيتنام في أوج توسّعها، وهي قد انفتحت لتوها على العالم.

❖ نعم، فكرة ذكية.

مالك: هي قد انفتحت مؤخّراً، فهي يبدو أنها بلد سوف.. سوف يزدهر بالمشاريع، يعني..

◆ نعم، النادي البحري فكرة ذكية.

مالك: لا، لا أتحدث عن نادي، لا أقصد إنشاء نادي، أنا لا أحبّ هذا..

◆ فماذا يكون إذن؟

مالك: ... النوادي، مثلما كنت أقول لك من قليل. لا، أنا مثلما كنت أقول، نحن نريد الأصالة من البداية حتى النهاية.

◆ بمعنى؟ مثلاً ؟

مالك: أمور كثيرة؛ الصوت، الروائح، الانتباه لكل شيء، فهو ليس لمطلق إنسان لا على التعيين. لأننا نحب تأسيس قاعدة بحرية، مماثلة، في غرب فرنسا، على الشاطئ، على كل (..) نحن لا نعلم بعد أين؛ في هذه اللحظة، نحن نحاول الاتفاق مع الناس.. يمكنك أن تقول، نحن بصدد تقديم اقتراح بالخدمات إلى المشاريع، فيلزمنا إذن للعمل نوعية خاصة من الناس. وأثناء هذا الوقت.. -لن نقول لأحد، لا أحد سوف يطّلع- إنما سوف نرى من هو القادر بين هؤلاء الأشخاص.. من يبحث عن مثل هذه الأفكار، نهايته، هذا هو، هذه مواصفات المشروع. وأثناء هذا الأمر سوف نقترح على هؤلاء الأشخاص.. فقط وليس على من يتخلف أن يتساءل. أي أنّ الأمر جيد.

◆ لا، لا، هذا ممتاز، نعم.

مالك: لا، لا، بلى هذا ظريف. فهذا سوف ينطلق من البداية، لنقل، سوف نقدّم كل شيء من البداية إلى النهاية، يعني، سوف نقدّم.. نهايته، سنجعل انطلاقه من الأكل، كل شيء، كل شيء، هه.. حقاً كل شيء، لأننا أخذنا نضيع هذا الأمر، وهذا يفقدني أعصابي، اليوم نحن نضيع هذا الأمر، لكننا أرذال، وسوف نجني المال منه، بما أننا سوف نفعله، لا أدري.. لكن هذا الأمر يضيع، وأنا لا أحتمل أن أرى أشخاصاً..

◆ وأنتما سوف تبدأان بالذهاب هناك سوياً لرؤية..

مالك: لا، لأنه، هو، هو رحل إلى تايلاند، مع صديق له، إذن الصديق الثاني فريدريك، الذي يسافر بما فيه الكفاية من خلال والده لأن والده،

يعني، مهندس، وهو مندوب للاتصالات السلكية واللاسلكية، يعني، هو يسافر دائماً؛ فهو عنده إمكانية، ومن خلاله علمنا أن الفيتنام..

❖ وماذا يفعل هذا الصاحب، فريدريك؟

مالك: هو في الصف الحادي عشر تأهيل مهني في ثانوية باريسية. والأخر يعيد البكالوريا المهنية لكن بالتناوب؛ هو لا يعيش عند أهله؛ حصلت معه (..) مشاكل، بسرعة كبيرة، تركوه بسرعة كبيرة.

❖ من تركه ؟ أهله ؟

مالك: آه! نعم، ليس أهله. لا أعلم، هذه القصة «مشريكة» على أي حال. هو، سوف يرتاح كثيراً في هذا الموضوع.. هذا صحيح.. يعني، الموضوع، فهذا هو، يعني. إذن، هو عنده شقة بمفرده، فهو مستقلٌ بأموره تماماً و..

❖ إذن أنتم تخططون لهذا المشروع على أساس أنكم ثلاثة، هه؟ مع فريدريك..

مالك: معلوم، لكن..

❖ وحتى هو ذهب ليرى هناك؟

مالك: نعم، لكن لم يذهبوا ليستطلعوا، هم رحلوا إلى تايلاند بأمان الله مع لوران..

❖ فهذا معناه أن معهم الكثير من المال، فالمكان بعيد هناك؟

مالك: طيب، إنهم يتدبّرون أمورهم.

❖ يشتغلون؟

مالك: يعني، الآخر يعيد البكالوريا، إذن هو يشتغل، لكنه عاش بحالة فاقة لمدة ستة شهور بعد الرحلة.

❖ وماذا سوف تعمل في هذا الصيف؟

مالك: أنا سوف أحاول إذن أن أسافر مع لوران، إذن سوف أجرّب

الرحيل لأسبوع، إذن اقترحنا معاً القيام بتركيبة على اتحاد مراكز الهواء الطلق UCPA

◆ هه، وأين هذا؟

مالك: في مصب نهر فردون، فنفكرّ بالنزول.. في المياه الجارية، الخ.

[...]

◆ فعلاً هذه أفكار جهنمية وجميلة. نعم، إنها منهكة، لكن..

مالك: معلوم، منهكة جداً؛ إنما، هناك سوف نرى، يجب أن نبدأ بسرعة، وإلا فسوف نذهب لأسبوع آخر، هذه المرّة إلى غرب فرنسا، وسوف نرتّب بعض الـ (..)، الكاتا.

◆ بعض ماذا؟

مالك: الكاتا؟ الا تعرف ما هي؟ إنها تسليات لأوقات الفراغ مثلما تشاهد في مونتي. يعني، لكننا نبقى هنا في فرنسا، إيه. فهي حلوة، هذه الأحاسيس. آه، هكذا تمام ! ثم عشرة أيام أيضاً في.. يعني مع.. مع.. مع صديقتي في إسبانيا، فأنا أحب من كل قلبي..

هي جزائرية، والأمر لم يكن عن قصد

◆ صديقك، من هو؟

مالك: إنها صديقة.

◆ نعم، من طريقتك في الكلام، لم أكن أجرؤ على أن أقولها. هكذا الأمر إذن.

مالك: صديقة.

◆ ومن هي الصديقة، إن كان السؤال غير فضولي..

مالك: {ضحك} هي «فدا الله». هي لطيفة.

◆ وما عملها؟

مالك: هي مدرّسة.

◆ مدرّسة ماذا ؟

مالك: في ثانوية LEP {ثانوية دراسة مهنية، وهي ثانويته بالذات}. هي مدرّسة، تدرّس الحقوق، والاقتصاد وتركيبات من هذا النوع.

[...]

نعم، سوف أرحل لعشرة أيام؛ معلوم، لا، فهذا أظرف لأنها لا تعرف المنطقة، هي لا تحبّ الماء، ولا تعرف السباحة، فأنا سوف أجعلها.. سوف أعلمّها، لا حاجة لتعليمها، فيكفي أن تضع قدميها في الماء عند جبل طارق، لم أجد مكاناً إلا هناك، فقلت لنفسي بأنه من الأفضل أن تتعرف على مكان جيد. فهناك يلتقي المتوسط والأطلسي!

◆ ما هي أصولها؟

مالك: جزائرية ولم يكن الأمر عن قصد {ضحكة}. لم يكن الأمر عن قصد، لأن كلّ ما هو.. ما علينا، هذا لا يهمّ. معلوم، بلى، هذا يمكن أن يكون ظريفاً، لا أعلم.

[...]

{حدثنا مالك عن الجناح الذي يسكن فيه مع والده عندما لا يكون مع صديقته.}

هذا يخيفني أنا أيضاً، مجالات المستقبل..

◆ وتسكن كل الوقت، هناك، مع صديقتك، أو تذهب إليها لا غير..

مالك: لا، عند صديقتي؟ نعم.. لأن.. {ضحكات}.

◆ لا، لا، أنا أتابع فكرتي، على الإطلاق.. على الإطلاق..

مالك: لا، ولكن لأني موزّع بين الاثنين. وصحيح، صحيح، ألطف بكثير أن يستيقظ الإنسان وبجانبه..

◆ إذن والدك يعرفها، صديقتك؟

مالك: نعم، يعرفها. يعرفها، والأمور كما يرام، فهما متفاهمان، كلاهما..

❖ كلاهمـا.. متفاهمـان كمـا يـرام.. وأهلـها هـي، هـم.. والدهـا جزائري..؟

مالك: أبوهـا جزائـري، وأمـها جزائريـة. وكمـا فـي المصادفـات، فكلاهما من تلمسان أيضاً.

❖ هـ.. هه، نعم، فهذا طريف. ألم يكونوا يعرفون بعضهم..

مالك: كلا، ما كانوا يعرفون بعضهم لأن أهلها.. يعني، أبوهـا وصل باكراً إلى هنا؛ هو جاء هنا في الثلاثينات، وإذن..

❖ نعم، هكذا إذن، فوالدك جاء بعده بكثير.

مالك: بالضبط.

❖ هل حكيت لنا كل شيء عن هذا؟

مالك: نعم، باستثناء (..) نعم، لعلّي أبقى لبعض الوقت في الثانويـة، فـي المدرسـة، أحبها كثيراً. هـذا كل شـيء، أنـا أتـابع كـي أتـأكد مـن وضعـي، يعني. ثم، إذا تركت في يوم، وبحثت عن أرض جديدة..

❖ نعم، يجب أن يكون عندك..

مـالك: ... أن أكون قـادراً علـى البقـاء هنـا ثـم يكـون لي مركزهـا بمحاولة التعويض عن طريق الماديات، فهذا ما يفعله كل الناس.

❖ لم أفهم معنى ما قلته؟

مالك: باختصار، رأيي في المـال غريـب، فانطبـاعي هـو أن المـال يوفـرّ خصوصاً التعويض. وانطباعي أن جميع النـاس لديهم مـا يربكهم، وأن المال يسمح بـالتعويض عـن بعض الأحـلام بالماديـات التي تبقى ثابتـة.. فـهذا هـو التعويض؛ بينمـا أنـا لا رغبـة شـديدة عنـدي فـي هـذا، أنـا رغبتـي أن أعيـش، لاأن أعوّض بشيء ما.

❖ في الحقيقة المال ليس بالأمر الجوهري، يعني؟

مالك: ليس هو، ليس هو.. ليس هدفي الأول. لكن، صحيح، فما أريد أن أفعله، يحتاج إلى المال. لنقل إنـه هـو أسهل وسيلة، أكثر الوسـائل جذريـة للوصول إلى ما أريد أن أفعله. لكنه لن يكون الهدف الأوّل.

◆ هل فكّرت قليلاً من أين ستدبّر المال، يعني من أجل مشروعك؟

مالك: أمامي بنك فرنسا {ضحكة}. لا، لا، لا أعلم.. لإيجاد العملة، ينبغي العمل كما يجب، ويعني، محاولة إيجاد عمل ظريف إلى حدٍّ ما، لطيف، نهايته، أريد مهنة فيها تشويق. حذار! فأنا شديد التطلّب، وأريد عملاً يعجبني من البداية إلى النهاية. لكن ليس مهنة أبد الحياة، أو تؤمّن الأكل فقط، من بعدها {صوت غير مسموع}، {ضحكة}. لنقل: لا أن يتقمّص الإنسان شخصية ثانية عندما يذهب إلى الشغل، إنما يبقى على حقيقته (..) للعلم، هذا مهم. لا يجب أن يخرّ شك العمل، الوظائف الثابتة، مجالات المستقبل، هذا يخيفني أيضاً.

◆ نعم، بمعنى ما، فالمدرسة جيدة.

مالك: أن أكون رئيس مجلس إدارة ثم أن أترك، ألا أعود لرؤية الصديقة، ثم.. هذا النمط لا يثير اهتمامي.

[...]

◆ لكن عالم المدرسة، هل هو عالم يروق لك؟ هل تروق لك المدرسة؟

مالك: بلى، معلوم، معلوم، هذا يروقني كثيراً. وأظن أنها أصبحت الآن جزءاً من، أقول، في النهاية، هي الطريق الذي اخترته، وقد سمح لي اختياري بالبقاء لفترة أطول في المدرسة. وأقول لنفسي..

◆ في الحقيقة، ما ينغّص العيشة في المدرسة هو العمل المطلوب منك، يعني؟ ولولا هذا لكانت ممتازة.

مالك: إيه، وأنا لا أعمل.

◆ آه، هكذا، نعم هي إذن ممتازة.

مالك: هي ممتازة. لا، لا، هي جيدة، هه. هذا ظريف (..) والأساتذة ظرفاء.

◆ بمعنى؟

مالك: يعني، يتساءلون. يعني يحاولون معرفة سبب تقاعسي.

◆ نعم، يتساءلون، لأنك لو أردت، سيكون بإمكانك تحقيق نجاح ممتاز.

مالك: لا.

◆ بلى.

مالك: لا، لا، يعني أنا ممتاز هكذا. لماذا، لماذا.. هذا ما لا أفهمه، في المدرسة لا يطلبون مني علامة 20. بالمقابل في الشغل عليك أن.. يعني إذا لم تحصل على العلامة التامة، أما عشرون أو الصفر، ليست 14 أو 12. وهنا يتركون لنا الفرصة لنختار الحصول على 12، 13، 10، لكن ليس 9، لأن الأمر لن يكون جيداً حينذاك. إذن الأمر سيان إن حصلت على الحد الأدنى المقبول {ضحك}، الحصول.. أن تأخذ 10 وفي نهاية الفصل تكون محصلتك 12 ثم تهرب، ولن تكون قد عملت شيئاً لكنهم يدعونك تترفّع. فهذا ما يخلق المشاكل عندي، أقول لك، أنني أستطيع الوصول إلى ما أريد، لأن انطباعهم أن الأمور سوف تكون دائماً هكذا، هذا كثير، فعلاً، هذا كثير، لكني بدأت أفهمهم أفضل نظراً لأن صديقتي مدرّسة، في الطرف الثاني من حاجز التعليم، فهي.. هي ترى قليلاً ما يحصل. لكن.. هذا ظريف. حياتي ظريفة {ضحكة}.

حزيران 1991

سيلفان بروكوليشي

جنة مفقودة

تتقاسم كلير، وموربيل، ونادين مع عدد كبير من التلاميذ المعاناة من الانخفاض الحاد في قيمتهم الدراسية لدى وصولهم إلى المدرسة الثانوية. ويترافق هذا الاكتشاف، عند الثلاث مجتمعات، بضربة أوقفت آمالهن بالإضافة إلى ظهور الوضعية الحرجة في مواجهة هيكليات وشروط العمل في المدرسة الثانوية. هنّ الثلاث من مدارس إعدادية مختلفة وقد التقين في ثانوية فيرلين لتزول عن أعينهن غشاوة الأحلام باكتشاف عالم متراتب المواقع بكل وضوح، حيث ينال سوء التقدير أولئك الذين لا يوفّقون في الدخول إلى «الطريق الملكي العلمي» وحيث لم تعد القيم نفسها سائدة. كنّ حتى تاريخه من «التلاميذ الجيدين» في مدارس حبتهنّ بالرعاية اعترافاً وتشجيعاً، ففوجئن بشكل استثنائي بالمعاملة التي ووجهن بها بسبب الصعوبات الجديدة في المستوى الثانوي للدراسة: لقد وجدن أنفسهن فجأة وجهاً لوجه مع العنف الذي يمارسه الوسط المدرسي على التلاميذ الذين لا يستطيعون مجاراة متطلباته.

في تلك المحافظة التي حافظت بدقة على مبدأ التنظيم القطاعي للمدارس، تقع ثانوية فيرلين، ذلك البناء الهزيل المنظر، المشيّد خلال الخمسينات، في منطقة دراسية تلبي حاجات مدينتين يغلب عليهما الطابع

العمالي (مع وجود تطور واضح لفئات «الموظفين» و «المهن الوسيطة» ولقطاع الخدمات عموماً) وإحدى هاتين المدينتين غير بعيدة عن باريس. وهي الثانوية الوحيدة للتعليم العام في المنطقة التي تحضّر الطلاب للبكالوريا العلمية بقسميها (C و D) وللبكالوريا الأدبية بأقسامها الثلاثة (A1، A2، A3)؛ وهي تضم خيرة طلاب 12 مدرسة إعدادية في ذلك القطاع باستثناء أولئك الذين يهاجرون باتجاه الثانويات الباريسية. أما الطلاب الأكثر التصاقاً بتقدير «الوسط» فيتوزعون في ثانويتيّ التعليم العام والفني التي تحضّر طلاّبها للبكالوريا التكنولوجية، وكذلك لشهادتي البكالوريا B و E. وينجح مدرّسو وإداريّو الثانوية في الحدّ من «تسرّب» الطلاب بالمحافظة على مستوى مرتفع، خاصة بشأن الوصول إلى الصف الأخير C (وهنا نسبة النجاح في البكالوريا مؤشّر رئيسي على سمعة الثانوية)، ولذلك يتم رحيل التلاميذ ذوي الحالة الميسورة إلى ثانويات باريس منذ الحلقة الأولى خصوصاً.

وعلى ضوء النتائج في مادتي الرياضيات والفيزياء بصفة خاصة، الحاسمة للتوجه نحو السنة الأولى/ الفرع العلمي S، يكتشف معظم الطلبة ما في الثانوية من تصعيب بشأن الحصول على معدّلات مرتفعة: فالنتائج بالنسبة للكثيرين بينهم، هي أدنى بكثير مما يأملون، و«قفزة التصعيب» المطلوبة منهم لدى وصولهم إلى الثانوية تتكشف تحديداً بضخامة «العلامات الهابطة». وبالفعل، قياساً إلى الثانويات الأخرى التي لا تحضّر طلاّبها مثل ثانوية فيرلين للتقدم إلى المستويات «الرفيعة» من فروع البكالوريا، فإن هذه الأخيرة تقدّم النموذج الأمثل عن نظام يعتمد أقسى الشروط، وأصعب سلالم التصحيح لتقدير العلامات، وهو ما تشهد عليه العلامات المنخفضة لطلاب المرحلة الثانوية في الصف العاشر (في الرياضيّات واللغة الفرنسية خاصة) بالمقارنة مع العلامات في الصف التاسع، فهي أعلى بكثير في تلك الثانوية مما هي عليه في الثانويتين الأخريين في المنطقة، علماً أن الصفوف هي نفسها من وجهة النظر الرسمية.

ويمكن أيضاً إرجاع مقدار «انخفاض العلامات» هذا إلى تأثير

المدرسة الإعدادية التي وفد منها الطالب، خصوصاً منذ أن تناقص «تقويم وإصلاح» المواصفات الاجتماعية والدراسية للطلبة عمّا كان عليه في السابق نتيجة لكثافة القبول. فالرغبة الحكومية هي توفير وصول 80% من الجيل الجديد إلى الصفوف العليا، لكنها بدلاً من أن توفّر الاستيعاب الأقصى لنظام التعليم، كانت ترجمتها على أرض الواقع مجموعة من الإجراءات (على مستوى إمكانيات الاستيعاب في مختلف الفروع) والضغوط الإدارية الرسمية، بما يفرض إلى حدٍّ ما على العاملين في المدارس الإعدادية السماح للطلاب بالنجاح «بالتقادم» حتى الصف التاسع، وهو ما لم يكن بالإمكان الوصول إليه في الوضع السابق للنظام التعليمي، وفي الوقت نفسه تخفيف الصعوبات الدراسية على مجموع الطلبة الذين يقضون في تلك المدارس أربع سنوات (على الأقل). ولا تظهر الإحصائيات المأخوذة تقليدياً من مصادر خدمات وزارة التربية الوطنية هذه الاختلافات، التي تبدو جليّة في الصف العاشر حيث يتنوّع المصير المدرسي للطلبة تنوّعاً ملحوظاً تبعاً للمدارس الإعدادية التي قدموا منها (على سبيل المثال تتفاوت نسب الرسوب أو الفرز إلى شهادة الـ BEP بين 8% و50% في ثانوية فيرلين تبعاً للمدرسة الإعدادية السابقة). وهكذا تغيب عن الطلاب بشكلٍ كبير نسبية العلامات التي حصلوا عليها في الإعدادي، ويزيد من صدمتهم هبوط مستواهم الفجائي في الصف العاشر، ويتفاقم هذا الهبوط بوجود طلاب أفضل بكثير مما عرفوه في الإعدادي.

وقد التقيت بثلاث طالبات من ثانوية فيرلين، كلير، وموريل، ونادين، ضمن إطار بحث أقوم به منذ سنوات حول التعليم الثانوي في المنطقة الدراسية التي تتبع لها هذه الثانوية، أمكنني خلاله عقد اتصالات عديدة مع العاملين في التربية الوطنية، ومع أهالي الطلبة، والطلبة، على حدٍّ سواء. وقد أجبن، ثلاثتهن، باندفاع، ولبّين طلبي في التحدّث معهن عن المشاكل التي صادفنها في الثانوية؛ وقد أبدين أيضاً الرغبة في تقديمي إلى طالبات أخريات متطوعات، قريبات منهن فيما يخصّ أوضاعهن، وحكاياتهن مع المدرسة، وأيضاً في التزامهن السياسي مع الشبيبة الشيوعية. وقد لاحظت في نهاية الحديث الأول

معهن جماعياً الطريقة التي كن يتشجّعن بها للإدلاء بشهاداتهن حول أكثر ما أثّر فيهنّ في الثانوية (وخاصة جواب الثانوية حين عرض صعوباتهن بالانتقاص من تلك المعاناة وتوجيه إصبع الاتهام إليهن)، فقررّت أن أقترح عليهن حديثاً ثانياً، جماعياً أيضاً، يدور في قاعة ضمن الثانوية إنما معزولة أكثر من القاعة الأولى وبعيدة نسبياً عن أية صفة «رسمية»، بحيث يُتاح لهن استخدام تعابير أقل خضوعاً للرقابة حول الإدارة والأساتذة.

ومنذ الشروح الأولى عن اضطرابهن وعدم إمكانية الخوض في مصاعبهن مع الراشدين في الثانوية، ألححن على أنهن يجازفن بسمعتهن إذ سوف يُنظر إليهن على أنهن «مهرجات صغيرات» يسعين لإيجاد معاذير بغية إخفاء نقاط الضعف والتقصير لديهن. ومن هنا حرصي على استخدام صيغة الغائب بدلاً من صيغة المخاطب، كما لو أردت أن أشعرهن بتأييدي لوجهة نظرهن وبالتالي تخفيف وطأة الكبت والقمع.

كلير ر. : «فقدنا القيمة تماماً»

كلير عمرها 15 عاماً. هي في ثانوية فيرلين منذ ثلاثة شهور لا غير، في الصف العاشر، ولذلك كانت أقلّهن كلاماً طيلة الحديثين. وكانت ابنة عامل ومشرفة في مستشفى، أمكنها أن تستفيد طيلة فترة دراستها من مساعدة أختها البكر، الحاصلة على البكالوريا A1 مع تقدير، وهذه الأخيرة كانت قد تلقّت هي أيضاً دعماً مدرسياً مماثلاً من عمّة، تعمل مشرفة عامة في مستشفى.

كانت على عكس زميلتيها موريل ونادين المنحدرتين من أسرتين متميّزتين اجتماعياً وثقافياً ولديهن الجرأة للتأكيد على بعض الأمور (صحافة، تصوير) وفقاً لميولهما ومحاور اهتمامهما خارج المدرسة، فهي تذكر بحرج وخجل هدفاً وحيداً- التجارة الدولية- وهو هدف اختارته تحديداً للاحتمالات المعقولة في العمل («قالوا لي عن وجود توظيفات في هذا القطاع») ووفقاً لإمكانياتها المدرسية («أنا خصوصاً جيدة في اللغات الأجنبية»). وكانت فيما يبدو، «بمستوى» موريل ونادين في الإعدادي (تقدير

جيد يعود إلى الظهور سبع مرات في جلائها «كشف العلامات» الفصلي في نهاية الصف التاسع)، غير أنها تظلّ الوحيدة التي استبعدت بكل وضوح، سلفاً، التوجّه نحو البكالوريا/ الفرع العلمي، مع عدم جهلها بما في هذا الاختيار من جانب سلبي: فهي في كل مرة تتدخل فيها لتشارك برأيها تتكلّم عن البكالوريا «C» التي ترى فيها القيمة الوحيدة الموثوقة في هذه المرحلة من تعميم الدخول إلى البكالوريا ومن فقدان الثقة بالعثور على عمل وتشكو أكثر من مرّة من أن الفروع الأخرى التي تتفتح أمامها بحكم نتائجها الدراسية المتدنّية هي «غير ذات قيمة بالكامل». وخير ما عبّرت فيه عن قلقها الداخلي بشأن مستقبلها حديثها عن صورة من مجلّة أطلعهم عليها أحد الأساتذة في الصف العاشر وهي تمثّل «سيّداً صغير الشأن يكنس» إلى جانب البكالوريا «A»، بينما «كانت البكالوريات هي مدير المؤسسة». فهذه الصورة أثارت حساسية استثنائية عندها، لأنها تذكّرها بوالدها الذي لا يحمل أي توصيف مهني والذي اشتغل لفترة طويلة في «قسم الصيانة».

كانت كلير فيما مضى قد «أمّنت» باستمرار نجاحاً جيداً في جميع المواد دون أن تسعى لتكون الأفضل في بعضها، أما الآن، في السنة الأولى من المرحلة الثانوية، فلم يعد بإمكانها المحافظة على نتائجها الجيّدة إلا في اللغات الأجنبية؛ وفيما تبقىّ من المواد، تنخفض علاماتها بعلامتين إلى سبع علامات حسب المادة، وهي في هذا منسجمة مع التطوّر الوسطي للطلبة القادمين معها من المدرسة الإعدادية نفسها. ففي تلك الإعدادية ذات الجمهور الطلابي المتدّني اجتماعياً، والتي يهجرها التلاميذ المتفوّقون في المنطقة بالتدريج (بانسجام متناسب طرداً مع سياسة إضعاف مستوى الاختيار المطبّق فيها نظامياً)، تكاد كلير تكون الوحيدة القادرة على التجاوب مع توقّعات المعلّمين وعلى الدخول معهم في علاقة متبادلة من العرفان. وهكذا فالحديث العامر بالحنين للطالبات الجيدات (سابقاً) حيال مدارسهن القديمة، بعد أن وجدن أنفسهن فجأة ضائعات وسط حشد من الطلبة الذين يُنظر إليهم على أنهم «ضعاف المستوى» في الثانوية، لا يأخذ معناه الكامل إلا عند استعراض مجموع لفتات العناية والاهتمام حيالهن فيما مضى: ففي

الإعداديات، حيث «يتقاعس» الكثير من الطلاب في بعض المواد مما يجعل عمل المعلّمين في غاية الصعوبة، يندفع هؤلاء لتقديم التقدير والاستحسان لـ«الطيور النادرة» من أمثال كلير حتى ليتمنّون الاحتفاظ بها في المدرسة نفسها، مع إقرارهم بما لديها من جدارة استثنائية بما تبذله من جهد في مثل ذلك الوسط غير الملائم. وهم، في كل مناسبة، يجودون بالتشجيع أو بكلمات الإعجاب الشخصية التي توطّد العلاقة المتبادلة معلم/ تلميذ وتقترب بها من مستوى أب/ ابن، مما يجعل كلير تهتف فجأة: «في الإعدادية، كنا مثل أسرة صغيرة.. كان عندنا دائماً معلّم يدعمنا»، وأما في الثانوية، «انطباعي أن من غير الممكن محاولة رؤية أي أستاذ».

موريل ف. : «هذا أصبح متنافراً بالكامل»

منذ أن تعرّضنا لفكرة إجراء حديث عن «الوجع» الثانوي كانت كلير، ومثلها غيرها ممن اتصلت بهن، قد حدثتني عن موريل. «موريل بالتأكيد عندها أشياء كثيرة تحكيها. ثم هي عندها وقت، لأنها في البكالوريا A1...» هكذا قالت لنا إحدى زميلات والد موريل (المدرس في EPS)، مشيرة تلميحاً على هذه الصورة إلى التعارض بين ابنتها هي بالذات- التي «تشقّفت» للحصول على بكالوريا علمية- وبين موريل التي كانت قد اختارت بمعنى ما السهولة علماً أنها كانت طالبة لامعة، بل وكانت أصغر بسنة من زميلاتها (وحافظت على هذه الأسبقية) لدى وصولها إلى الصف العاشر. وكانت موريل محطّ هذا الإجماع بسبب صفتها كممثلة منتخبة للثانوية وعضوٍ في مكتب التنسيق الوطني لطلبة الثانوي (ميوله مع الشبيبة الشيوعية). وقد قبلت عن طيب خاطر، أثناء الحديث، ألاّ تتمترس خلف صفتها الاعتبارية لكونها «ناطقة باسم الطلبة» (وهذا ما خشينا منه بداية)، بل انطلقت تتكلّم ببساطة عن قصتها الخاصة.

تستعرض قطيعتين اثنتين في حياتها الدراسية: الأولى عند الانتقال من المدرسة الابتدائية القريبة من بيتها ذات العدد القليل للتلاميذ فيها- حيث الشعور بنوع من «الألفة العائلية»، خاصة بوجود العلاقة الودية التي

تربط أمها، معلّمة الابتدائي، مع باقي الراشدين في الابتدائية- إلى الإعدادية الكبيرة «الرمادية الباردة » ذات الـ 600 تلميذاً، كانت سابقاً جزءاً من ثانوية فيرلين. والثانية، قطيعة الانتقال إلى الثانوية حيث أولوية المواد العلمية (التي لا تشعر فيها بالراحة) زعزعت الصفة التي رافقتها دائماً على أنها طالبة جيدة.

كانت إعدادية فيرلين أقرب الإعداديات من الثانوية التي تحمل الاسم نفسه من حيث انتماء الطلبة اجتماعياً- أعلى الفئات الاجتماعية في المنطقة-، ومن حيث مستوى التشدّد الدراسي (فانخفاض العلامات في السنة الأولى من الثانوي أقلّ ما يكون لدى الطلبة القادمين من تلك الإعدادية). وتبدو موريل وكأنها تسير عكس التيّار بالمقارنة مع وسطيّ طلبة إعداديتها: فهي قد رجحت كفّة التحسّن عندها في معظم المواد، لكنها بالمقابل تراجعت في الرياضيّات والفيزياء (فقد نزل معدّلها في المادّتين من 12 «من أصل 20» إلى 7). ورغم ما بذلته من جهد كي تقنعنا بأن توجهها إلى البكالوريا A1 كانت نتيجة اختيار حرّ من جانبها، فهي تعترف أحياناً أن ميولها الأدبية حديثة العهد نسبياً ولها بعض ارتباط بالصعوبات التي واجهتها في الرياضيات والفيزياء في الأول الثانوي بالإضافة إلى نفورها الشديد من اختيار اتجاه كان سيجبرها على «العمل بجنون لتأمين القبول في الفرع العلمي S » وبنتائج غير مضمونة.

ونظراً لإدراكها بأن «اختيارها» تسبّب في خفض مركزها الدراسي، فقد بذلت جهدها لوضع الأمر في نطاقه النسبي منددّةً باعتباط ذلك التمييز علمي/ أدبي ومدافعة لتثبيت مبدأ الكرامة المتساوية للفروع، ولذلك فهي تنتقد بما يشبه الثقة اليقينية ذلك العالم «المتنافر بالكامل» حيث «من الأفضل الحصول على بكالوريا C للدخول إلى الصف التحضيري للفرع الأدبي»، حيث ينصح أساتذة الأدب أنفسهم خيرة الطلاب بالدخول إلى هذا الفرع. لكن انتقاداتها لا يمكن أن تعيقها عن أن تشعر وتعبّر، ولو بالكثير من عبارات النفي، عن شعورها بالفشل لأنها أصبحت في موقف منقوص القيمة

ضمن تسلسل المراتب مدرسياً، وهو شعور يزيد من وجعه المقارنة مع بعض الزميلات القديمات في الإعدادية ممّن «نجحن»: «كنا بالفعل متشابهتين. ثم وصلنا إلى الأول الثانوي وهنا- الرياضيات أصعب بكثير في هذا الصف- إيه، يعني، كنا نتراخى معاً. لكن أنا، في البيت، لم يكن بمقدور أحد أن يساعدني في الرياضيات (..). أمّا هي، فكانت تشتغل طيلة الوقت، طيلة الوقت مع والدها.. إيه، يعني، فهي نجحت. نهايته، نجحت.. أقول بأنها نجحت، ولكن لنقل، أصبحت في البكالوريا S، يعني.» ولم يمكنها إلاّ أن تلحّ على الدور السلبي الذي لعبه في هذا المجال أستاذ الصف الأول الثانوي الذي جعلها تقرف من الرياضيات، هي وغيرها كثير.

نادين ب. : «نزلتُ من سماء أحلامي»

نادين، البالغة من العمر 18 عاماً، في البكالوريا A1 حين تبادلنا معها الحديث، لكن بالنسبة لها، فمن الواضح أن السنتين اللتين أمضتهما في الأول الثانوي هما الحاسمتان والأصعب في حياتها الدراسية. لقد جاءت من إعدادية مشابهة اجتماعياً ومدرسياً لإعدادية كلير، وهي مثلها تحمل النفور نفسه من الثانوية والحنين نفسه إلى مدرستها الإعدادية، حيث كانت تلميذة جيّدة، باستثناء الرياضيات، وهي تحمل مسؤولية نفسها بمفردها، دون أن تطلب أي عون من والدها، المسؤول النقابي الدائم في الوكالة الوطنية للتشغيل الـ ANPE، أو من والدتها التقنية الكيميائية في المركز الوطني للأبحاث العلمية الـ CNRS، وكان الاثنان يوليانها الثقة.

مشروعها أن تصير مصوِّرة فوتوغرافية، فجمعت المعلومات بهذا الشأن خلال سنتها الأخيرة في الإعدادية بالرجوع إلى مستشارة توجيه الطلبة وعلمت بأن معظم مدارس التصوير الفوتوغرافي من بعد البكالوريا يطلبون البكالوريا/ الفرع العلمي: «فإما يكون تسجيلك على أساس بكالوريا C أو D، وإما تتركين هذه الفكرة » هكذا قيل لها بهذا الصدد . فأدركت أهمّية التفوّق في المواد العلميّة، ولذلك بذلت جهدها لتحسين نتائجها بشكل ملحوظ في الرياضيات في آخر المرحلة الإعدادية وتمكنت من ذلك.

لكن، شأنها شأن معظم القادمين من إعداديتها، انخفضت علاماتها انخفاضاً كبيراً عند الدخول في الثانوي: فكان الانخفاض أربع علامات وسطياً، اما في الرياضيات فأكثر بكثير، حيث كانت علامتها 20/2 في الفصل الأول مع ملاحظة: «ثغرات هائلة !» وهنا كانت خيبتها عظيمة: فباتت ترى أنها لن تتمكن أبداً «من القيام بدراسات ذات قيمة»، أو أن توفّق في الوصول إلى البكالوريا C، فغيرّت رأيها. لكنها، استجابة لنصيحة أهلها، ونظراً لصعوبة التخلّي عن مشروعاتها، تعلّقت حينذاك بأمل أن يكون بإمكانها تحسين مستواها عن طريق إعادة الصف. لكنها طيلة السنة الثانية في الصف ذاته عانت من «التوتر» أشدّ ممّا عرفته في السنة الأولى، وظلّت علاماتها في المواد العلمية غير كافية وأتمّت «إنزالها من سماء أحلامها».

رواية نادين، والتأثر والاضطراب الملحوظان في صوتها أمور تجعلك تفهم أن الصف الأول الثانوي جعلها تعاني ليس من تبدّد مشروعها الدراسي والمهني فحسب، وإنما كانت معاناتها أيضاً من تشوّه نظرتها لنفسها، وللمدرسة، ولعالم الراشدين، بالخيبات والإحباطات المتعاقبة: الفشل الدراسي (وكان أبعد ما يكون عن التفكير قبل شهور قليلة)، فقدان القيمة الاعتبارية والتخلخل العام في العلاقات على عكس الانسجام والتناغم في الماضي. «طالما كنت على وفاق وتفاهم معهم»، هذا ما تقوله في حديثها عن أهلها وأساتذتها على حدٍّ سواء، وأما في الأول الثانوي فأنا «{علقت} مع كل العالم»

وإذا كانت كلير، وخاصة مورييل، قد تمكنتا كلاهما من إقناع نفسيهما أن البكالوريا العلمية «ما عادت لها أهمية عندهما»، وأنهما تبقيان طالبتين جيّدتين على الأقل في المواد التي تروق لهما، فإن نادين، بإعادة صفها، فقدت تماماً هويّتها كـ «طالبة جيدة» وجاءها الفشل مثل لسع السياط لأنها أصبحت ملزمة بمتابعة الحادي عشر S فهي معبر إجباري منعها بشكل من الأشكال من المطابقة بين آمالها والإمكانات المتاحة في الوقت المناسب للاختيار. علاوة على ذلك، فقد اكتشفت نادين في وقت متأخر أنها افتقرت إلى الواقعية برفضها لفترة طويلة، انجرافاً وراء صورة

مثالية عن المدرسة، المساعدات التي كان أهلها يعرضونها عليها، وبصفة خاصة في الرياضيات. كانت قد اعتادت على النجاح والتفوّق دون مساندة من الراشدين ولم تعتمد إلاّ على أساتذتها، ولذلك باتت تشعر أن من حقها إيراد مثل هذه الملاحظة: «هناك أبناء ليس عندهم أهل قادرون على مساعدتهم، (..) فالأستاذ هو الذي من واجبه أن.. يجعلني أنجح. (..) ما يدور في ذهني دائماً: من غير الطبيعي أن يكون الأهل مضطرين للتدخّل.» ودون أن تتنكّر في صميمها لهذا المبدأ، انتهى بها الأمر إلى إهماله عملياً وقبلت بأخذ دروس خاصة قبولاً منها بأن «هذا ما يحصل» بشكل شديد الرواج للتغلّب على بعض المصاعب.

تضم كلير، وموربيل، ونادين، مسيرة واحدة علامتها الفارقة الانتقال من تجربة دراسية سعيدة في الإعدادية إلى تجربة موجعة من الانكسار الدراسي في الثانوية. ويبدو هذا الشوط المشترك في أقوالهن بصيغة حكاية تبلورت إلى هذا الحّد أو ذاك بمساعدة تصنيفات سياسية استقينها من انتمائهن المشترك إلى الشبيبة الشيوعية، وحكايتهن هي الانتقال من عالم الإعدادية الجماعي الدافئ، القائم على غياب النبذ وعلى التضامن (وهو ما يهزهن الحنين إليه) إلى عالم الثانوية البارد والمجهول الهوية، القائم على عنف التمييز والتنافس (وهو ما ينتقدن روحه، وتنظيمه، وطريقة أدائه). وهنّ الثلاث، مجاراةً لنموذج النجاح المدرسي الشائع بين الفتيات، كنّ أقل تمكّناً في الرياضيات أو في الفيزياء مما هنّ عليه في المواد الأخرى. وافتقرن جميعهن على التساوي، عندما تحوّل ضعفهن البسيط في المواد العلمية، في الأول الثانوي، إلى صعوبات مدرسية حقيقية، لمساعدة حاسمة من الأهل (وهو ما رفضته نادين) بما كان يمكن أن يساعدهن على تسوية أوضاعهن. فعند وصولهن إلى الأول الثانوي، جعلهن هذا الوضع الدراسي أمام اختيار لا يتغيّر (وهو الانعكاس لاختيار ما بعد البكالوريا: صف تحضيري أم جامعة): فإما بذل الجهد والعناء للتمكّن من ولوج «الطريق الملكي العلمي» والمجازفة بمواجهة الفشل فيه، وإما تأمين الانتقال إلى فرع أدبي «غير ذي اعتبار» واستعادة راحتهن السابقة في هذا الفرع.

وتبيّن تجربة نادين بكل وضوح الخطر الحقيقي الذي يهدّد بتحطيم توازن العلاقات وبخلق شعور شخصي بالنقص حسبما هو وارد في الاختيار الأول إذا ما انتهى إلى الفشل. كما أن العديد من الطلبة الذين يجعلون هدفهم في بداية الأول الثانوي الدخول إلى الحادي عشر العلمي S، ثم يصطدمون بالصعوبات غير المنتظرة، ينجم عن نجاحهم الصعب في هذا الصف نتائج شديدة الوطأة، وهو ما يشهد عليه الحديث الرائج عن هذا الطالب أو تلك الطالبة ممّن «تكسّروا» (انهيار نفسي، فقدان شهية، محاولة انتحار) في الصف الحادي عشر (الثاني الثانوي).

فالطلبة الجيّدون / سابقاً الذين لا يستطيعون التكيّف منذ الصف العاشر مع عالم الثانوية، حيث يصطدمون بقواعد أكثر تشدداً مما ألفوه وبوجود سلّم قيم جديدة للمواد الدراسية، يمكن لصفA1 ، الفرع الأدبي، أن يكون مكاناً لتدارك النقص، لأنه يعيد ترتيب العالم الجديد بما يشبه إلى حدٍّ بعيد، في نقطتين، نظام الأمور في السابق: فمن الممكن من خلاله استعادة الوضع الجيّد في الصف، كما أن المواد التي أصبحت ضئيلة القيمة في الصف العاشر تعود لتأخذ أهميتها وقيمتها. أما عيبه الوحيد، إذا أمكننا الحديث عن عيب، فهو الظل القائم المنعكس عليه من الفرع C، الذي يُعتبر بالإجماع فرع الطلبة المتفوّقين.

وإذا كانت الطالبات الثلاث قد تحدّثن عن التعارض بين جهنّم ثانوية يسيطر عليها «منطق الانتقاء» وبين جنة الحياة المشتركة في السابق، فهنّ إنما يُبرزن وجوه الاختلاف بين الإعدادي والثانوي كما عشنها موضوعياً. فهناك بادئ الأمر غياب «التمييز» في الإعداديات حيث جميع الطلبة تقريباً، خصوصاً في الصفوف الجيّدة، يترفّعون معاً إلى الصف الأعلى، بينما في نهاية الأول الثانوي، يُفرض على الطلبة التوزّع في فروع متفاوتة القيمة تفاوتاً بيّناً. ثم إنهن كنّ «معروفات» في الإعدادية طيلة أربع سنوات، فأصبحن «مجهولات» لدى وصولهن إلى الثانوية، ويتضاعف شعورهن هذا بالغربة بازدياد عدد الطلاب في الصف. وأخيراً، فإنّ كمية العمل المطلوب تصبح أكبر بكثير في الثانوية. إلا أن هذه الفروقات لا تفسر كل شيء ويبدو جيداً بأن

هـذه التجربـة العـامرة بالسـحر والحنـين فـي المدرسـتين الابتدائيـة والإعداديـة والتي يتم التعبير عنها باستعارة العائلة (المفقـودة) والبيت تمثل تجربـة مميزة لفئة محدودة مـن طـلاب المرحلـة الثانويـة: هـم الفتيـان، وبـالأخص الفتيـات، الذين كانوا -في مدارس شعبية- جزءاً من الفئة الصغيرة التي تضم الطلاب الجيدين، وأحيطوا -لندرتهم- بالرعاية والاهتمام، والذين فقدوا فجأة هـذه العلاقات الودية والصفاء الذي يتولد عنها لدى وصولهم إلى ثانوية متطلباتها المدرسية أعلى. وعلى وجه الخصوص، من وجهة نظر الطلبة الذين يعانون من وضع دراسـي سـيّء، إذ أنـه من الواضـح أن المدرّسـين أكثر اسـتجابة وتعاطفـاً حيـال «الطـلاب الأفضـل» (إلـى الحـدّ الـذي يجعـل «الأقلّ جودةً » يميلـون إلــى إقصاء أنفسهم ذاتياً عن كل علاقة مع الأسـاتذة، بتكليفهم، على سـبيل المثـال، للمتفوّقين بطرح الأسئلة نيابة عنهم)، كما أن مـن يتمتعون بمثل تلك العلاقـات الطيّبة (مثل كلير، وموريـيل، ونادين، قبل وصولهن إلى الثانويـة) ينسـبونها إلـى المودّة الشـخصية التـي لا علاقـة لها بالمستوى الدراسـي. تبـدو نـادين أكـثرهن وعياً لتعلق تلك العلاقات الإنسانية بالترتيب في الصف، ولعلّ مردّ وعيها هـذا بقاؤهـا بكلّ وضـوح، طيلـة سـنتين دراسـيتين، فـي وضعيـة الطالبـة «الفاشـلة»، ولذلك تقول بمرارة: «فماذا أكون في نظرهم؟»، وهي تلاحظ أن أسـاتذتها، بل وحتـى والديها، مـا عـاد لـها اعتبـار عندهـم مثلمـا كـان الوضـع فـي الفـترة التـي سبقت فشلها الدراسي.

وتلاحظ كلّ من كلير، وموريـيل، ونـادين «بـأن طـلاب العلمـي يُخصّـون بالتقدير»، وأن «الطلبة المتفوّقين، على أي حـال، يوضعـون فـي الفـرع العلمـي دون سـواه». لكنـهن عندمـا يسـتعرضن تدهـور علاقتـهن بالأسـاتذة فــي الأول الثانوي، ينسـبن هــذا إلـى تغـيّر طبيعـة العـالم المدرسـي وليـس إلـى تراجـع مستواهن في العالمين المتعاقبين، الإعدادي والثانوي، فهناك: في الإعداديـة كـانت «روح التضـامن» أكـبر وأقـوى وكـان هنـاك دائمـاً «أسـتاذ يقـف وراء الطـالب ويشـجّعه» وأمـا فـي الثانويـة فيكتشـفن منطـق الانتقـاء والفــرز، بالإضافة إلى «تجريم» الطالب وإشعاره بالذنب، ومن ثم «عزله»، مما يؤدّي، مع الفشل الدراسي، إلى تعريض الطالب لخطر «التحطّم».

ولم يخطر لهن أبداً البحث في ما إذا كانت هذه المشاكل قد عانى منها أيضاً طلبة مدارسهن الإعدادية القديمة مثلما عانين تماماً (فهذا ما لاحظته عندما سألتهن حول هذه النقطة بعد انتهاء الحديث المسجّل)، وأعتقد شخصياً، حسب انطباعي، أن استشهادهن بالعالم الدراسي السابق الجميل والجيّد هو الشرط الضروري لتتوفرّ عندهنّ إمكانية التعبير عن الاستنكار وانتقاد دنيا التعليم الثانوي. ومن الملاحظ بالفعل أن قابلية الاستنكار تتبدّد بسرعة: فتجنباً لجلب المتاعب لنفسه على المدى القصير، لا يكون عموماً أمام الطالب الغارق في مستوى سيّء من خيار آخر ضمن الحالة الراهنة للطواقم المدرسية، إلا تبني سلوكيات (إخفاء صعوباته، النقل عن المتفوّقين) تحول بسرعة بينه وبين أن يشعر أن من حقّه انتقاد نقص المساعدة والتقدير بخصوص مستواه. وأما كلير، وموريبل، ونادين فهنّ في وضع يسمح لهن باستهجان الفكرة السائدة وهي «أولئك الذين لا ينجحون في مماشاة المستوى الدراسي، فلجهنّم» أو ما قلنه بحق «بمجرد أن يفشل المرء في أمر يصبح هو المذنب»، فهنّ كنّ يُعتبرن قبل ذلك من بين الطلاب المثاليين، ويؤمنّ بمدرسة تعرف كيف تمدّ يد المساعدة للطلاب الذين يعانون من بعض الصعوبات.

لقد نشطت كلير، وموريبل، ونادين في حركة طلبة الثانوي لخريف 1990 التي، دون أن تعبرّ دائماً عنه صراحةً، تشير إلى ذلك التناقض في نظام يتيح لعدد متزايد باستمرار من الطلاب الوصول إلى المدرسة الثانوية، مع توجيه غالبيتهم إلى فروع مجردّة من القيمة. علاوة على ذلك، يعلّل هذا النظام جميع هذه التوجيهات المتضاربة مع الأمنيات الأساسية بعدم كفاية المستويات المدرسية، في الوقت الذي لا يؤمّن فيه «شروط العمل» الجيّدة، ويُضطر الكثير من الطلبة للبحث عن العون خارج الثانوية، ذلك العون الذي لا تخطط له الطواقم الدراسية ولا تعيره أدنى اهتمام.

لقد استندت السياسة الوطنية للتعليم على تأخير عملية الانتقاء والفرز، وبدأ التطبيق المتسارع لهذه السياسة منذ خمس أو ست سنوات،

وهي سياسة تُحدث، فيما يبدو، لدى الكثير من الطلبة تقديراً لإمكانياتهم وآمالهم مختلفاً عمّا كان ينجم فيما مضى عن التوجيه انطلاقاً من الفشل في المدرسة الابتدائية. ونرى على وجه الخصوص في المدارس ذات المستوى الشعبي، حيث الانتقاء أبكر وأشد كثافة، أن الطلبة الذين قد يعترفون تدريجياً بـ «ضعف» مستواهم عن طريق إقصاء الأكثر ضعفاً في التقديرات الدراسية، يستمّرون أكثر فأكثر بتقدير وسط أو جيد. وهذا التطوّر منشؤه التدابير والضغوط الإدارية أكثر مما منشؤه إعطاء الفرص المتكافئة لتلبية متطلبات المدرسة الثانوية، وهو ما يكشفه تواتر وكثافة «الرسوب في الأول الثانوي». لكن طلبة الثانوي أولئك، بعد أن اعتادوا على تصنيف أنفسهم بتقدير «وسط»، بات من الصعب عليهم تحميل أنفسهم المسؤولية الكاملة في الفشل (بالنسبة لآمالهم) الذي يصيب عدداً لا بأس به منهم، في عمر يكونون فيه أمْيَل إلى المواجهة بانتقاد ولوم الظروف التي فُرضت عليهم.

على أن سياسة تعميم الوصول إلى مستوى البكالوريا لم تصل بعد حتى إلى منتصف الشوط، فهي استوعبت 30% من جيل الشباب لحظة البدء فيها وتخطط لنسبة 80% في عام 2000. فإذا ما استمرت قائمة على ما هي عليه من خفض عتبة التشدّد في بداية الدراسة في المدارس التي تضم أبناء الطبقات الشعبية، ومن إنكار تجاهل التفاوتات الاجتماعية التي من شأن الحالة الراهنة للنظام التعليمي ترسيخها وإطالة أمدها، فيمكننا توقّع ازدياد وتفاقم التناقضات التي عرضناها. وبما أن التوجيه إلى الفروع المختلفة عن طريق الفشل لم يعد مبكراً ومقسماً كالسابق، فإنه سوف يجعل المزيد من الطلبة، مثل كلير، وموريل، ونادين، قادرين على التنديد بشروط فشلهم.

مع ثلاث طالبات ثانوي في ضواحي باريس

حديث بإدارة سيلفان بروكوليشي

«في الثانوية، لا يقيمون لنا أي اعتبار»

ميريل: أنا، تعود إلى ذاكرتي قصة، فعندما كنت في الابتدائي، في مدرسة، مدرسة حديثة، تجريبية.. يعني، فعلاً، كنا مسرورين بالذهاب إلى المدرسة. وعندما لا يكون لدينا دوام في المدرسة، يوم الأحد، كنا نضجر (..). ثم وصلت إلى الإعدادية..

◆ أي إعدادية؟

ميريل: إعدادية فيرلين {كانت سابقاً ملحقةً بثانوية فيرلين}. كانت كبيرة، كانت قاتمة، كانت ضخمة، لم يكن فيها شيء يعني، كانت باردة، كانت باردة جداً.. بل إن الأمر كان شديد الصعوبة.. في الابتدائي، كنا نعيش جميعاً معاً، كنا نعرف بعضنا جميعاً. كانت لطيفة، وكنا نتحدث مع المعلّمين دون كلفة، كانت فعلاً ما يشبه الأسرة.. ثم وصلنا هناك.. لا أعلم، الثانوية أكبر مرّتين من الإعدادية، لكن الإعدادية كانت من نوع 600 طالب وطالبة {في الواقع أكثر من 1000}. لا أحد يعرف أحداً (..) ندخل ونخرج.. هي مثل مصنع، لم تعد بيتاً. لهذا فيما بعد، عند وصولنا إلى الثانوية، رأينا ما هو أسوأ أيضاً.. فحين نخرج من حصّة درسية، لا يكون لدينا وقت حتى للنقاش في ما بيننا، فإذا أردنا البقاء للمناقشة دقيقتين، يكون هذا أحياناً

على حساب الحصّة اللاحقة.. ثم، صفوفنا مزدحمة، فنحن 35.. أحياناً لا نعرف أسماء الجميع في الصف. هذا بارد، يعني!

نادين: أنا، ما شعرت بهذا إلا عند الوصول إلى الثانوية؛ في الإعدادية، كان الحال تمام (..) كان هناك مشكلة الصفوف المزدحمة، البناء العتيق، لكن هذه قضية مختلفة.. أنا أجد في هذه الثانوية توتراً مستمراً، لم أكن أشعر به أبداً في الإعدادية. وهذا يزيد من حسرتي على الإعدادية، ولكني لن أتحسّر يوماً على الثانوية. ما أرغب فيه، هو أن أرحل بعيداً عنها.. هكذا كان شعوري عندما وصلت: توتّر دائم. وغالباً ما يحصل أن أجد نفسي مضطرة لتناول مهدّئات قبل المجيء إلى المدرسة، وأشياء من هذا القبيل.. أو مساءً كي أنام.. يعني، منذ سنتي الأولى في الصف العاشر، أصابني أرق لا يطاق. لا أدري، الجو العام، نوع من عدم التواصل..

ليس لنا الحق في الخطأ

موريل: أعتقد أيضاً بوجود لعبة، هه، يعني الراشدين يدفعوننا دفعاً لنُصاب هكذا بالتوتّر، لأن الأول الثانوي، صحيح، فكرة الجميع فيه، الذهاب منه إلى الطريق الملكي.. هو الطريق العلمي. ويضعون هدفاً أن على الجميع الذهاب إليه، وأن الجميع قادرون على الذهاب إليه.. أمّا الذين يقصّرون، فلجهنم.. عليهم ألاّ يقصّروا، إيه! فإذا كان هذا لا يشغلهم، إيه، فهذا لتعاستهم، لأنهم يجب أن يتوجّهوا مثل الآخرين.. ولهذا، فنحن متوترون باستمرار، ولدينا شغل فوق الرأس، هذا جهنميّ.. ننام لا همّ في أي ساعة وذلك كي ندرس. فإذا «فطسنا» يوماً ولم نستطع أن ندرس، يمكن أن نتخلف عن كلّ شيء أن نخسر الفصل بأكمله. {نادين تؤيد} لأنني فقط مرضت.. (أصابني «كريب» في السنة الماضية، وقد «تعثّرت» به مرّتين على التوالي، بفاصل أسبوع، في كانون الأول)، لم أستطع متابعة برنامج الفيزياء حتى نهاية السنة.. وكانوا قد بدأوا بالكيمياء.. ولم أكن قد درستها سابقاً بالمرّة، فلم أفهم شيئاً طيلة السنة.

نادين: ثم هناك تجريم الطالب وإشعاره بالذنب.. فبمجرد الفشل في

شيء، يصبح الطالب مذنباً، يعني. مجرّد الخروج يخلق مشاكل.. عند الأساتذة أفكار أجدها أحياناً مخيفة.. مجرّد الخروج يخلق مشاكل.. يحق للطالب أن يغيب فقط عندما يكون مريضاً.. فهم لا يأخذون أبداً أي اعتبار لحالتنا النفسية.. في السنة الماضية كان عندنا مدرّسة مات لها شخص من عائلتها، أحد أقاربها، وبالتالي ظلّت متغيّبة لمدة أسبوع. وأنا أجد أن هذا مفهوم. في الوقت نفسه، بعد فترة، عندنا طالبة مات لها صديق قريب جداً منها، قُتل بحادث على دراجة نارية.. فما قولك، بأنها لم تستطع أن تعبّر عن هذا. تغيبت عن المدرسة لمدة أسبوع وأكثر، وكان ردّ فعل تلك المدرّسة نفسها هو، «نعم، هي حتى ليست مريضة، وأنا رأيتها ذاك اليوم في الشارع.. هي تتغيب عن المدرسة، لكنها ليست مريضة». أحياناً، انطباعنا أنه لا يحق لنا أن نخطئ. لا يحقّ لنا أن يكون لنا نحن أيضاً..

موريل: حالاتنا النفسية. (..) مرّات، نتمنىّ لو نقول لهم، لكن لا اعتبار لنا بشأن.. عندنا فعلاً الانطباع بأن.. يدخل الأستاذ، فهو الربّ، يعني، وعلينا أن نصغي.. بالتأكيد، ليس جميع الأساتذة هكذا، لكن كثيرين منهم هم من هذا النوع. بمجرد أن ينهي درسه، يخرج، ولا يكلّم أبداً أي طالب خارج الصف.

نادين: باستثناء بعضهم الذين يأتون من تلقاء أنفسهم، لكنهم نادرون.. من الصعب الذهاب لرؤية أستاذ وأن نقول له: طيب، أنا تغيبت عن المدرسة، ولكن هذا سببه أنني لم أكن بخير.. في رأسي شيء يشغلني.. فهذا صعب جداً.

❖ هذا صعب جداً، لدرجة لا تسمح بالقيام بالتجربة؟

❖ لا {الثلاث بصوت واحد}.

موريل: في الحقيقة كما لو أننا في خوف من الفشل مباشرة، يعني. عندنا انطباع.. نعلم.. عندنا انطباع أننا نعلم سلفاً، أن الأمر، في جميع الأحوال، لن يفلح. ولذلك لا نقوم حتى بالتجربة، يعني. في الحدّ الأدنى، سوف يُنظر إلينا على أننا مهرّجات صغيرات- «لكن هذا سبب وجيه لعدم

الذهاب إلى الدروس، هه..»- كما لو كان ممّا يسرّنا عدم الذهاب إلى الدروس.

نادين: أنا لا أفهم لماذا هم.. عندما حصل معي هذا وتغيبتُ وتأخرت في فروض مدرسية كثيرة، ذهبت لأرى المشرفات التربويات والأساتذة، فوبخوني. كان انطباعي الفعلي أنني في نظرهم، كنت مجرّد مهرّجة صغيرة وأنني غير مبالية إطلاقاً بمستقبلي.. علماً أن هذا غير صحيح. فعندما أتغيب عن أحد الدروس، يشغلني هذا ويخيفني.. يشغلني لأن الأمر يتعلق بمستقبلي . لا حاجة لهم كي يقولوا لي هذا. عندما أقصّر في درس بالتغيّب عنه، يسيطر عليّ توتر شديد إلى أن أنجح في تعليل غيابي عن تلك الحصّة أو استدراك ما فاتني.. مرّات، انطباعنا أنهم يعتبروننا أطفالاً صغاراً لا يدركون أن مستقبلهم في الميزان (..)

❖ وأنتِ يا كلير، شعوركِ مشابه أم لا؟

كلير: العلاقات مع الأساتذة ليست.. يعني الأساتذة هم.. نحن نذهب إلى الدروس، ونجتهد. لكن لا توجد علاقة..

❖ حتى في حال وجود مشكلة استثنائية، أليس عندك الانطباع أن بالإمكان إفهامهم هذا؟

كلير: لا، يعني.. أنا لست هنا من فترة طويلة، لكن ليس عندي انطباع بإمكانية مقابلة أستاذ والحديث معه.

❖ وفي الإعدادية؟

كلير: في الإعدادية، كنا مثل أسرة صغيرة.. كل الناس يعرفون بعضهم. والأساتذة يعرفون من تكون. فهناك دائماً أستاذ يقف وراءك ويشجّعك (..).

التقدير يخصّون به جماعة الفرع العلمي

❖ في الأول الثانوي، يُشعركنّ الأساتذة بوجود هدف وحيد، الحادي

عشر العلمي S، وفي الوقت نفسه، من أجل الوصول إليه تلاحظن أنه يقتضي بذل جهد فائق، إذن، في هذا نوع من الضغط..

موريل: والصحيح أننا أحياناً لا نرغب في هذا.

◆ عندما لا يرغب الطالب في هذا، يمكن الافتراض أن توتّره سوف يصبح أقلّ..

موريل: آه، لا، بالمرّة!

نادين: يصبح الطالب موضع عدم التقدير إلى درجة كبيرة.. فالتقدير يخصّون به جماعة الفرع العلمي. في سنتي الثانية بالصف العاشر، كنت قد اتخذت قراري الثابت. كنت أريد البكالوريا A، وفي المواد الأدبية، كانت أحوالي عال العال. لكنهم أعطوني تقديرات سيئة لأنني كنت مقصّرة في المواد العلمية. أنا، قلت لجهنّم.. يعني، أنا أحب الرياضيات، والفيزياء. بصدق، وكنت أتابع. لكن ما كان يشغفني هو المواد الأدبية، فكانت علاماتي جيدة فيها، لكنّ التقديرات لم تكن جيّدة. عندما لا تكون التقديرات متناسبة مع العلامة، فهذا يسبّب صدمة. عندما لا يقدّرون جهودك بشأن ما تريد أنت أن تختاره.. علاوة على هذا، أنت تعلم أنهم يستطيعون جعلك ترسب لأسباب لا علاقة لها بذلك.

◆ من المحيّر أن يدخل أساتذة المواد غير العلمية في هذه اللعبة..

موريل: هذه مشكلة لأنهم الآن في الفرع العلمي، لا يضعون الطلاب دائماً على أساس تفوّقهم في الرياضيات، في الفيزياء، في العلوم الطبيعية.. يمكن أن يكون تقديرهم «وسط» في تلك المواد. لكنهم يقدّرون أن الطلاب في العلمي سوف يجتهدون وخيرة الطلاب في النهاية لا يضعونهم إلاّ في العلمي. فخيرة الطلاب في مادة اللغة الفرنسية، يجعلونهم يكدحون مثل المرضى في الرياضيات.

◆ يدفعونهم..

موريل: بالضبط. فأنا كانت علاماتي ممتازة في اللغة الفرنسية-

وفي الرياضيات، في الفصل الأول، ثم لأنها كانت لا تشوّقني كثيراً فلم أعد أدرس كثيراً، وبالتالي اصبح تقديري وسط. وسط جداً- فأستاذ الرياضيات في نهاية الفصل الأول، جاء ليراني وقال لي، «بالنظر لعلاماتك في المواد الأخرى. عليكِ أن تحصلي على علامتين إضافيتين في الرياضيات، وسوف أجعلك مقبولة في الفرع العلمي ». لا، لم يكن في هذا أي تشويق لي. وقال لي، «نعم، ولكن أفضل الطلاب يُقبلون في الفرع العلمي S ».. «لا، هذا لا أجد فيه متعة. وأنا لا أرغب أن أهلك في السنة القادمة للنجاح في الرياضيات والفيزياء، أنا أفضّل أن أدرس حسب رغبتي». وقد بدا لي مندهشاً، هه.

نادين: آه نعم، عندما نقول هذا للأساتذة، تأتيهم الدهشة، هه! (..) أعلم أننا في عامي الأول في الصف العاشر، كنا في معظمنا نرغب في الفروع الأدبية، A1، A2، A3؛ وكان عندنا أساتذة في المواد العلمية، من خيرة الأساتذة، إلا أنهم لم يهتموا بنا أبداً، وكانوا في مواجهة عدوانية مستمّرة معنا طيلة السنة. فمنذ اليوم الأول، قالوا لنا، «أنتم اخترتم دراسة ثلاث لغات، فنحن لا نحبكم.. أنتم لا تحبّوننا، ونحن لا نحبّكم»، بالخط العريض، هذا كان خطابهم. بالمقابل، من جانب الأساتذة، لنقل الأقرب إلى المواد الأدبية، كانت الأمور أفضل. وفي عامي الثاني في الصف العاشر، كان نصيبي أن أقع في صف معظم طلاّبه مقبولون في العلمي؛ وكان أستاذ اللغة الفرنسية، باعتراف الإدارة، غير كفء للتعليم (..).

كلير: أنا، في بداية العام الدراسي، اخترت لغة ثالثة. كنت أريد دراسة البكالوريا A1، لكني كنت في الوقت نفسه أريد أن أدرس لغة ثالثة. فوضعوني دون أي تساهل في صف A2– A3 {الذي يعتبر مثل ملجأ للطلاب الضعاف في الرياضيات} . ففي بداية العام الدراسي، قالوا لنا، «طيب، نعلم أنكم غير جيّدين في الرياضيات، وأنكم لن تقدروا على النجاح فيها، لذلك لا نريد أن نركز عليها». هذا الأمر صدمني قليلاً، عندما قالوا لنا هذا من اليوم الأول..

◆ من اليوم الأول..؟

موريبل: آه نعم، من البداية! «ضربتك قتلتك»!

كلير: مبدئياً، الأول الثانوي، من المفروض أنه غير محدّد. (..) أنا لا أدري، لكن عندما يقولون لك، «أنت (عدم) في الرياضيات، لن نركز عليها».. {على إثر هذا، تمكنت كلير من تغيير صفها}.

{تتحسّر نادين على ضعف روح التضامن بين الطلبة، بالمقارنة مع ما سبق لها أن عرفته، خصوصاً في الإعدادية.}

نادين: بدأت تظهر لي مشاكل مع أهلي منذ وصولي إلى الثانوي، في السنة التي بدأت أتراجع فيها دراسياً. باستثناء العامين اللذين قضيتهما في الأولّ الثانوي، لم تكن لي بالفعل أبداً أي مشاكل مع أهلي؛ إيه، لكن في هذه السنة، أعلم أنهم بدأوا يأخذون بعين الاعتبار.. لم أكن معتادة إطلاقاً على اهتمامهم.. بعملي في المدرسة. نظراً لأنني كنت طالبة ممتازة، لم أكن معتادة إطلاقاً أن يهتموا ذلك الاهتمام الكبير بعملي، عدا عن أنه خلق منازعات في العائلة.. منازعات حقيقية، فعلاً!

موريبل: {مقاطعة نادين} علاوة على ذلك نشعر بحرمان كبير، بتوتّر شديد طيلة الأسبوع، فنصل إلى يوم السبت وقد فقدنا رغبتنا في كل شيء. نرغب في النوم، المشاوير، التسلية، زيارة الأصحاب، عدم النوم طيلة ليلة السبت، أن نفعل أي شيء لا على التعيين.. والأهل، يجن جنونهم، يعني! في الوقت نفسه، لا يستطيعون منعنا من هذا، لأنهم يعلمون إذا لم نفرح قليلاً، طيب،.. يعني، فلن نتابع الدراسة. لن يعود بإمكاننا ملاحقة الدروس، يعني. في الوقت نفسه، إذا تسلّينا، فقد نجد صعوبة في تحصيل الدروس. إذن..

دائماً المدرسة، المدرسة، المدرسة

نادين: هناك أمرٌ آخر في هذا النزاع. فاعتباراً من اللحظة التي بدأ أهلي يهتمون تحديداً في الأول الثانوي بعملي لأنني بدأت بـ.. كانوا يرون العلامات تنزل، وتنزل كثيراً! فلم يكن من نقاش في البيت إلا عن المدرسة!

مـا كـان بإمكانـهم الحديـث عـن أي شـيء آخـر! دائمـاً المدرسـة، المدرسـة، المدرسة.. وهذه المادة؟ وتلك المادة ؟ أما أمي، التي لديها رغبة ملحّة أن أكون فـي البكالوريـا S فمـا كـان مـن هـمّ لـها إلا الرياضيـات. كنـت أقـول لـها:- «علامتـي 20/15 فـي اللغـة الفرنسـية.» -«والرياضيـات؟.. والرياضيـات؟» الـ15 في اللغة الفرنسية تلقى في المهملات. فهذه كانت الحالة، ودون توقّف. و.. في بعض اللحظات أتذكر أنني بدأت أتساءل بيني وبين نفسي، فماذا أكون بالنسبة لهم؟ (..) كانت أوقات.. كان هذا صعباً، صعب فعلاً، يعني. تشاجرنا كثيراً. ومن بعدها، عدنا للحديث في الموضوع (..) فبالنسبة لأمي، «مشي الحال»؛ لكن الأسطوانة كانت تعود عندما تنزل العلامات، لكن مشي الحال إلى حدٍّ كبير. على أي حال، فقد كان الوضع قاسياً فعلاً في العامين اللذين أمضيتهما في الصف العاشر!

❖ وهناك أوقات يقع الضغط نفسه من جانب الأساتذة ومن جانب الأهل؟

نادين: نعم. لكن أعتقد أن التوتّر الكبير هو ما عانى منه أهلي بسبب دراستي، ثم بسبب دراسة أخي. توتّرهما كبير جداً! يعني، أمي على وجه الخصوص. التوتّر، لا أدري ليس هو دائماً الشيء نفسه، لكن، أعتقد: هو توتّر شديد جداً.

موريبل: والأهل أيضاً يتوتّرون، بشكل كبير، لأن.. طيب، نحن نعلم مثلهم تماماً أن مصيرنا في كفة الميزان، مستقبلنا معرّض للخطر. بالتأكيد هم مهتمّون مثلنا بمستقبلنا. لكنهم ربما يرونه ليس من وجهة نظرنا، لأنهم هم يعيشون المستقبل. يعيشون مستقبلهم. نحن لم نصل بعد إلى مستقبلنا فربّما كان يمكنهم، يعني، في ظنّهم أننا نستطيع تجنب بعض الأمور والأخطاء التي ارتكبوها هم أنفسهم. وفي الوقت نفسه، وبالنسبة لهم، من الصعب تقديم النصائح إلينا، لأننا لن نستمع إليهم {ضحكة}. يعني، لا توجد عندنا رغبة كبيرة في الاستماع إليهم.. {تؤيّد نادين}. لأنهم، طيب، يكونون قد أتخمونا بالمواعظ في الصف.

[...]

موريبل: على أي حال، كنت أقول لنفسي، أنا، إنني كنت أعلم ما أريد دراسته، وأنه ينبغي أن أعتاد على هذه الضغوط، لا بل أن أتجاهلها. (..) كنت أقول لنفسي، ما الفائدة في أن أدرس كالمجنونة لأكون في البكالوريا S بينما أنا لا رغبة لي فيها، يعني..

◆ أنتِ أيضاً كان أهلك يضغطون عليك لاختيار الـ S ؟

موريبل: لا،لا، (..) أظنّ هذا كان واضحاً من الأوّل. حتى عندما كنت في الإعدادية، وكنت طالبة جيّدة في الرياضيات، هه، لكن هذا ما كان يثير اهتمامي، يعني.

نادين: أمّا أنا، فأهلي لم يمارسوا أبداً أي ضغط مباشر عليّ.. ما قالوا لي أبداً «سوف تدرسين البكالوريا S وليس أي شيء آخر» (..) هذا غريب، لأنهم في السنة التي كانت الأسوأ بالنسبة لي (في عامي الأول في الصف العاشر)، لم، لم.. يزعجوني كثيراً، يعني، لنقل هذا. لكن تحديداً في عامي الثاني في الصف العاشر، عندما بدأت علاماتي تزيد قليلاً. ففي تلك السنة، حصل التوتّر النفسي! اما عند أمي فالأمر كان.. شيئاً لا يصدق! فبمجرّد أن ترتفع علامتي وسطياً في الرياضيات، تقول، «لعلّك تقدرين على اجتياز البكالوريا العلمي، S، أو ربّما يمكنك اجتياز الـ D..»

[...]

ادرسوا الفرع C!

كلير: هناك أيضاً نهفة مجنونة، يعني.. فأختي دخلت إلى مدرسة هنري الرابع {كانت في الصف التحضيري لمدرسة الوثائق}. حصلت على بكالوريا A1 بكالوريا أدبي و.. قصدي أن أقول: لم يدرسوا إطلاقاً الرياضيات والفيزياء، وما شابه (..)، أما ثلاثة أرباع الصف فدرسوا بكالوريا C: فأولئك هم الذين أخذوهم قبل غيرهم. (..) باقي شهادات البكالوريا كانت غير ذات قيمة على الإطلاق. ثم، أنا أرى أيضاً أساتذتنا،

فهم يقولون لنا، «ادرسوا الفرع C، ادرسوا الفرع C!». لأننا فيما بعد، إذا أردنا الرجوع إلى مدرسة، فالأفضلية هي هكذا، للحاصلين على الفرع C. هم يقولون لنا هذا على المكشوف، إذن..

موريبل: للدخول إلى الصف التحضيري لكلية الآداب، يفضل أن يكون الطالب معه بكالوريا C، إيه! فهذه «خريطة» لا مثيل لها!

نادين: يجب ألا يكون هناك سوى بكالوريا واحدة!

[...]

◆ في الأول الثانوي، هل تتذكرن نسبة الطلبة الذين كانوا يريدون، يحاولون الوصول إلى الفرع S؟

موريبل: أوه! نحن، كنا أربعة؛ من أصل 35 كنا أربعة نريد، من البداية، الانتقال إلى البكالوريا A1، (..) جميع الباقين كانوا يريدون الفرع S.

نادين: في البداية تماماً، في البداية تماماً، عندما وصلت إلى الثانوي، كنت أريد دراسة الفرع S. لكن لا أعلم، كنت أريد الانتساب إلى مدرسة للتصوير. ثم يعني، الآن زالت أوهامي. كنت قد قلت لنفسي، وما المانع؟ كنت أدرس جيداً حتى ذلك التاريخ، حينها ما كان هذا يبدو لي.. ثم، يعني، بعد شهرين في الثانوي، قلت لنفسي، على أي حال، لن أصمد أبداً في دراسات كبيرة، ولا من أجل الوصول إلى الفرع C، وإذن، غيّرت رأيي.

كلير: ثلاثة أرباع الصف يريدون الفرع S. (..) أنا على أي حال، لم أكن أريد الفرع، لأن الرياضيات تُرعبني فعلاً.

[...]

نادين: طيلة سنوات دراستي في الإعدادي، كنت دائماً على تفاهم ووفاق مع الأساتذة. فتلك السنة، في الثانوي، «علقت» مع كل الناس، دون استثناء.. كانت النهضة الغريبة فعلاً أنني حتى نهاية الإعدادي كنت طالبة جيّدة. وكانت الأمور كأنها قائمة على: يعني، لا يمكن أن يحصل معي.. الفشل الدراسي لا يمكن أن يحصل معي. ومن طرف ثانٍ، فالصحيح أن الأول الثانوي صعب، ومن الطبيعي أن أرسب وأعيد صفّي. أخي كان قد

رسب وأعاده. (..) الموضوع، ربّما أن أمي ، دون إرادتها، يعني، فعلاً دون إرادتها، فهذا ما أشعر به في العديد من.. غالباً عندما نتبادل الحديث، لا يظهر عليها أنها تفتقر إلى الثقة بي.. لكن، إيه، لنقل لها ثقة بأخي أكثر مما هي واثقة بي. ومنذ بداية الثانوي، أذكر أنها قالت لي- ولم يكن هذا بقصد الإساءة، على العكس كانت تريد طمأنتي-، «على أي حال، إذا أعدت صفك فليس هذا خطيراً، أخوك قبلك رسب فيه وأعاده»، (..) يعني، عندما أفكر بهذا، (..) صحيح، كان هناك.. هناك نقص ثقة في الصف العاشر ذاك.. وهذا مصدره الأساتذة، ومصدره الإعدادية، ومصدره الأهل، يعني، بحيث تكون إعادة الصف الأول الثانوي والرسوب فيه أمراً طبيعياً، فنقص الثقة مصدره كل شيء. وهذا جعلني في الأول ثانوي ، غير شديدة التوتّر، بالفعل. أما في العام الثاني لدراستي للصف العاشر. فهنا التوتر الشديد!

❖ لكن، تحديداً، ألم تكن هناك إلى حدٍّ ما الفكرة بأن إعادة الصف، سوف تؤدي تلقائياً إلى تحسين المستوى؟ (..).

نادين: (..) بالنسبة لي، تقريباً كان الجميع يرسبون ويعيدون الأول الثانوي.. لكن الحقيقة، عدد كبير من أصحابي مرّوا بسلام. فوجدت نفسي في صف لا أعرف فيه أحداً على الإطلاق، (..) مع طلاب «يتشّقفون»، يشتغلون أصعب شغل. وكانت لي علاقات في هذا الصف، مع اثنتين فقط، أما الآخرون، فلم أتكلم معهم أبداً، كنت لا أتفاهم معهم بسهولة (..) عدا أنني كان يجب أن أرتّب أموري لأرتفع.. وبدأت أكتشف، أن كل ما يراه المرء جديد، حتى إن كان راسباً. كان عليّ أن أضبط نفسي بوتيرة عمل مناسبة. كان عليّ أن أرتفع بمستوى علاقاتي. كنت قد بدأت أفقد أصدقائي، فهذا حصل على البكالوريا، وهذا انتقل إلى الحادي عشر. إذن، حتى حين نلتقي خارج الدروس، فإن هذا الأمر يخلق فاصلاً ما. و.. يعني، لنقل إني نزلت من سماء أحلامي.. سنتي الثانية في الأول الثانوي قضيتها وأنا أسأل نفسي: ماذا افعل هنا؟ خصوصاً أنني بالفعل أدركت أيضاً، أنه كان بإمكاني ألا أعيد سنتي (..).

من يتحطّم أولاً، لجهنّم

نادين: أغلب الأحيان، في الصفوف، لاحظت هذا. يعني هناك شلل، وهناك أشخاص انعزاليون، وعموماً فالعديد بينهم يتحطّمون..

❖ الأشخاص الانعزاليون يتحطّمون؟

❖ نعم {الثلاث بصوت واحد}

نادين: شعرت بهذا (..) في سنتي الثانية في الصف العاشر. لكني لاحظت وجود أشخاص، إما بمفردهم تماماً، أو مع صديق واحد فقط، وهم تحطمّوا؛ إما بالكامل فتركوا المدرسة، وإماّ في الحالات الأخطر، حيث قاموا بمحاولات انتحار. فعلى معرفتي- أنا منذ أربع سنوات في الثانوية-، أقول، على معرفتي، هناك خمسة أشخاص قاموا بمحاولات انتحار في الثانوية. وأجد أن هذا العدد ضخم. (..) والموضوع الأهم، عدد حالات المرض ذات المنشأ النفسي. عندي صاحبة توقّفت عن الدراسة، ولم ترجع منذ شهر ونصف. (..) وعندي صاحبة، وقعت في السنة الماضية في أطنان من الأمراض المختلفة، وكلّها، حرفياً، بسبب التوتّر النفسي (..) كانت في الصف الحادي عشر، وتكره بكالوريا اللغة الفرنسية... إيه، آه، لا يوجد ما هو أكثر من الأمراض الصغيرة التي لا تفسير لها.. أنا، كان «ينفر» جسمي، يتغطّى بالبثور..

[...]

❖ عندكن انطباع أنهم لم يخطّطوا لأي شيء بغية مساعدة من قد يواجه في لحظة من اللحظات بعض المصاعب.

[...]

نادين: هو إلى حدٍّ ما قانون البقاء للأقوى. فالذين لا يتحطّمون هم الذين ينجحون. كما هي الحال في الكلية الجامعية، فالذين لا يتحطّمون ولا ينهارون، يواتيهم الحظّ ليكونوا مجرّد 200 في المدرّج بدلاً من أن يكونوا 500. ومن يتحطّم أولاً، لجهنّم. الأقوى هم الذين يَصِلون..

◆ على الأقل ، يبدو لكنّ طبيعياً تقريباً الاّ تكون هناك أمور مقرّرة للمساعدة، تنظيمات هيكلية للمساعدة..

نادين: لا يبدو لي هذا طبيعياً . هذا يبدو لي ضمن منطقهم هم، يعني. لأنهم سلفاً لديهم منطق الانتقاء والفرز. لديهم سلفاً منطق الفرز، منطق التثبيط.. لا أعلم إن كان التثبيط فعلاً في منطقهم، لكن، يعني.. نظراً لأنهم يريدون بأي ثمن إجراء الفرز والانتقاء، كي تكون عندهم ثانوية النخبة الخاصة بهم، وبكالوريا النخبة الخارجة من تحت أيديهم.. ثم، يعني.. أقصد.. لن يكون اهتمامهم مساعدتنا بحيث ينجح الجميع؛ فهم سلفاً يبدأون بتصفيتنا..

موربيل: هم يقيسون الظواهر الخارجية.. ليس لنا أن نطالبهم بالكثير!..

كانون أول 1990



سيلفان بروكوليشي، فرانسوان أوفرار

المسننات المتشابكة

منذ ما يقرب من ثلاثين سنة، كانت أكثر التغيّرات بروزاً في مجال المؤسّسات المدرسية الميل إلى التوحيد الشكلي (مدرسة إعدادية، مدرسة ثانوية للتعليم العام والفني) الذي أخفى في حقيقته عملية تمايز عميقة الأبعاد. فلم تختفِ الاختلافات القديمة المرتبطة بالأسس التنظيمية أو بأقدمية الأساتذة في التعليم الثانوي، لكنها دُمجت مع مجموعة تغيّرات مازالت تُبرز حدّة الاختلافات بين المؤسسات، خاصة بشأن التجميع غير المتكافئ لأكثر الطلبة فقراً من الناحية الثقافية، أي للمهيئين أكثر مما سواهم لـ «إثارة مشاكل» في المدرسة. واليوم، أصبحت ظروف ممارسة مهنة التعليم متباينة أكثر فأكثر وتزداد تبايناً يوماً بعد يوم كما أنها تتنوّع تنوعاً شديداً حسب المؤسّسات التعليمية المعنيّة.[1]

والأساتذة، خصوصاً منهم من كان يعلّم في أكثر المؤسّسات المدرسية تضرّراً، يزيد من معاناتهم للصعوبات التي تصادفهم كون النقص في معرفة أسباب ومصادر تلك الصعوبات يفسح المجال لاتهامهم بأنهم هم أنفسهم

[1] اهتمّت وسائط الإعلام باستقصاء ظاهرة «العنف في المدرسة» أو «الوجع التعليمي» وكان في إمكانها تقديم تفسيرات، فهي حيناً تقترح رؤية موحّدة لا تمايز فيها تخلط بين مهنة المعلّم وظروف الطلبة التي تخلق اقطاباً متعارضة: «جيد» / «سيء» (المدارس، الطلبة، المعلّمون، المدراء..) او: «متوحش» / «متمدّن».

مسؤولون عن ذلك، وبالتالي لتحميليهم الذنب كله. فالمدرسة التي يُفترض فيها أعلى درجات العدالة في نقلها للمعلومات، تبدو هي الأخرى بعيدة عن فهم وتبيّن ما يحرفها عن مهامّها، حتى لتغيب كلياً الأسباب التي تجعل مهنة التعليم «مستحيلة» في بعض المدارس.

ضغط الطلب والاختيار الديماغوجي

لقد توسّعت وتكثفت عملية التمايز، على الأخص اعتباراً من أواسط الثمانينات، وكان من نتائجها تمركز المشاكل في بعض المؤسّسات التعليمية[2]. فالملحوظ أن إطالة سنيّ الدراسة بدءاً من الثمانينات جاء عقب عقد من السنين ضعُف فيه رفد التعليم الثانوي بالطلاب، خاصة الوصول إلى الأول ثانوي والحصول على البكالوريا العامّة. ولدى مقارنة أوراق امتحان دخول التلاميذ إلى الصف الأول إعدادي في 1973 وفي 1980، لاحظت الجهات الإدارية غياب «التحسّن الفعلي لمستوى التحصيل الدراسي لدى الفئات المدرسية كلها على حدّ سواء» (بعد أخذ المنشأ الاجتماعي وسن الدخول إلى الأول إعدادي بعين الاعتبار). «وإذا كان معدّل (الدخول إلى الثانوي) قد ارتفع خلال سبع سنوات من 41 إلى 46%، فهذا لأن الفئات المحظوظة، من أبناء الأطر وذوي المهن الحرّة، الذين دخلوا إلى الإعدادي في سنّ 11 سنة، هم أكثر حضوراً في الحلقة الثانوية في 1980، مما كانوا عليه في 1973»[3]. وبينما طلب القبول في دراسات أطول مدةً كان قد صار أقوى وأعمّ، استمرّ

---

[2] على المستوى الوطني العام والمستوى الجغرافي الأصغر (محافظة، مدينة)، تبيّن على حدّ سواء ترسيخ الاختلافات بين المؤسّسات التعليمية من وجهة نظر الانتماء الاجتماعي للطلبة. فقد تعمّقت، على سبيل المثال، التفاوتات بين المدارس الإعدادية بحسب نسبة الطلاب ذوي المنبت الشعبي، أو الطلاب المتقدّمين في السنّ، أو الطلبة الأجانب. ويتبيّن النموذج نفسه من التطور على مدى عشر سنوات، بين الإعداديات المصنّفة ZEP (مناطق دراسة ذات مشاكل) وبين الإعداديات الأخرى، وهو تطوّر يترافق مع تمركز أقوى للمعلّمين الشباب غير الحائزين على شهادة جامعية في أقلّ المؤسّسات حظوةً وانكدها حظاً.

[3] راجع «ملحق الخطّة» من أجل مستقبل «التربية الوطنية»، المنشور في مجلة «التربية والتأهيل»، عدد نيسان – حزيران 1988.

أداء النظام المدرسي بإنتاج التفاوتات القديمة نفسها في تحقيق النجاح الدراسي، وهي التفاوتات المحكومة بالتوجّهات الانتقائية ذاتها.

حيال هذا الأمر، فالهدف المحدّد على أساس «80% في عام 2000 في صفوف أعمار طلابها بمستوى البكالوريا» وسياسة نسبة 80% المطبّقة بدءاً من 1985، يمكن فهمهما على أنهما تعبير عن الرغبة في تلبية الطلب الاجتماعي المتزايد بقوة للوصول إلى مستويات دراسية أعلى، مع غضّ النظر أكثر فأكثر عن الأخذ برأي المعلّمين. أما قرارات توجيه الطلاب إلى الفروع فازدادت بعداً أكثر فأكثر عن التقدير الدراسي الذي تقرّره اللجان التربوية وفي الوقت نفسه يتعاظم ضغط الأهالي الذين يؤمّنون انتقال أبنائهم إلى الصف الأعلى، رغم رأي مجالس الصف. وهذا ما جعل نسبة الدخول إلى الصف الأخير في الحلقة الثانوية (من التعليم العام، والفنيّ، والمهني) ترتفع في شريحة عمرية معينة من 36% في عام 1985 إلى 58% في عام 1991، أي بزيادة 22 نقطة في ست سنوات، مقابل 10 نقاط زيادة خلال الـ 15 سنة الماضية.

فوضى وتوتّرات

كان للنظام القديم على أقل تقدير بعض الانسجام، رغم ما فيه من قسوة وعنف الفرز التعليمي. فكان يعمّق ويثبّت الاختلافات (خاصة في امتلاك ناصية المعارف والميل نحو المدرسة) بفصله، منذ وقت مبكّر إلى هذا الحدّ أو ذاك، الطلبة القادرين على «متابعة الدراسات لفترة أطول» عن الذين كانت مواصفاتهم الدراسية والسلوكية «تبرهن» للأساتذة أنه ما عاد لهم مكان في الإعدادية أو في الثانوية: فيتم توجيه أولئك نحو الفرع «الفنّي» أو نحو «الحياة العملية» منذ سنّ الـ 16 سنة.

ضغط الأهالي

كان للطرق الحالية في ترفيع الطلبة نتائج أجلى ما فيها طابور المراجعين في مكتب المدير. فتلك، كما يُقال، أسواق القسطنطينية بالنسبة

للأهالي الذين يضغطون، يضغطون، يضغطون لقبول أبنائهم في الثانوي، إلى أن يضيق المدير ذرعاً بهم فيقول، «أوكي موافق على الترفيع». (..) ونحن في الإعدادية صرنا مجبرين على هذا. يمكننا فقط المناورة قليلاً حتى الآن بشأن الانتقال من نهاية الإعدادي إلى المرحلة الثانوية، لكن في جميع الأحوال، وأكثر فأكثر على جميع المستويات أصبحنا وجهاً لوجه مع طلبة دون مستوى الصف. فنحن، في الواقع، أمامنا خياران - وهنا تسير الأمور على هوى الميل والعاطفة- إما أن نبذل الجهد ونشدّ الطالب، إلخ، وإما أن نعلن بأن الكيل قد طفح، فنترك ذلك الطالب في زاويته ناعم البال، ما دام لا «يخرّينا» فوق ما يطاق؛ فإذا «خرّاها» وزاد، «خبطناه» وأكثرنا فـ«يخرّينا» أكثر وأكثر، وهكذا. ويظلّ الطالب هنا منتظراً والسنوات تمضي (..)

وقد اعتاد الأهالي في أيامنا هذه على مراجعة مدير المؤسّسة التعليمية وفهموا أنه يمكن أن يلين. وهكذا، كان توزيع وتشكيل الصفوف فيما مضى على عاتق الهيئة المدرسية، فما تتخذه من قرارات، مقبول حتماً. أمّا الآن فقد بات الأهالي يشعرون أن الضغط يمكن أن يحرك الأمور بالنسبة لتحديد فروع الدراسة، فيقولون لأنفسهم على الأرجح، «لماذا لا نجرّب حظّنا أيضاً في هذا..» (..)

ونظراً لأن القبول في مدرستنا موزّع مناصفة بين المجمّعات السكنية الكبيرة وبين الساكنين في أجنحة متفرّقة، ما تزال الإعدادية تقف على قدميها لأن لدينا تحديداً صغار يعملون ويجدّون (..) وفي الوقت نفسه، بالنسبة لنا وبالنسبة للصغار، هكذا يتمّ العمل عادةً. فمتى لا يعود لأولئك الصغار من وجود، لا يعود للإعدادية من وجود، وهذا أمر بدهي (..) وأهاليهم، بالتأكيد، هم الذين يمارسون الضغط دون توقّف، ولهذا السبب نستسلم للضغوط، مثلاً لتشكيل صفوف جيّدة، إلخ. (..) فهناك الأهل الذين يقولون، «إذا بنتي وضعت في الصف الفلاني، مع الأستاذ العلاّني، سوف أنقلها إلى الخاصة» (..) فعندما كانت القضية قضية حالات فردية، كان بالإمكان التصرّف. أما الآن فقد تزايد هذا الضغط واشتدّ، وأصبحنا حيال

أهـالي طلبـة متوسّطي الإمكانيات إلى أبعـد حد، فهؤلاء الأهـالي، إلى هـذا الحدّ أو ذاك، يدوسون على الجميع، فهم يريدون أن يكون «حبيب الماما» في صفّ جيد.

(..) ولهذا، فمن جانب نتحدّث عن ضرورة العمل الجماعي، ومن جانب آخر لدينا الزملاء الذين قرفوا إلى أقصى حد، فلسان حالهم، «ما فائدة أن أشارك في اجتماع ما دام القرار النهائي هو في يد المدير الذي سوف يتصرّف من بعد أن يكون قد (دبّر رأسه) مع الضغوط الواقعة عليه». وهكذا، لم يعد مجلس الصف يشعر أبداً بأن له أي نفع. (..)

لم تعد هناك قوانين الآن، وهو وضع يتفاقم يوماً بعد يوم؛ فالأمور تجري كيفما اتفق، ويرفّع الطلاب منتقلين من صف إلى صف كما لو عن طريق السحر، ولأنهم على أيّ حال ليس لديهم مكان آخر يذهبون إليه..

❖ {مقتطف من حديث مع أستاذ رياضيات يعلّم في إعدادية في الضاحية الباريسية.}



مع اعتماد الأسلوب الجديد في إدارة الأفواج المدرسية، انقطع كل التوازن بين ممارسات التعليم وبين ممارسات توجيه الطلاب إلى الفروع. وإذا أردنا فهم الآثار التي يتركها هذا الأسلوب لدى الطلبة وردود الفعل التي غالباً ما يثيرها لدى المعلّمين، لا بدّ من أخذ هذه النقطة الحاسمة بعين الاعتبار، وهي: لا يتيح التنظيم الحالي لنظام التعليم أن يُقدّم المعلمون للطلبة المساعدة الكثيفة المتمايزة تبعاً لتباين الحالات؛ علماً بأن هذه المساعدة تصبح لا غنى عنها كلّما تزايد عدد الطلبة المفتقرين للرأسمال الثقافي، وهم بالتالي بحاجة إلى أن يتعلّموا أكثر في المدرسة. وهكذا، فالاحتفاظ في المدرسة بالذين كانوا سيصيرون إلى «النبذ» منها في الماضي دون إيجاد الظروف المساعدة على القيام بعمل تربوي فعّال حيال الطلبة الذين زاد ارتباطهم بالمدرسة بغية اكتساب كل ما تطالبهم به، هو أمر من

شأنه خلق المصاعب من كل نوع وصنف ممّا هو قادر على الحطّ من ظروف عمل المعلّمين دون تحقيق التحسين الفعلي لمصير الطلبة. وهذا ما يجعلنا نفهم الآثار الخارجة عن السيطرة للسياسة الديماغوجية الخالصة، سياسة الـ 80%، حين تجعل العديد من المعلّمين يتحسّرون على النظام القديم. «أقوم بعملي، ولكنني لست في المدرسة لكي أجتهد سعياً لرفع مستوى طلاب ما كان لهم أن يكونوا في الصف» وهذه العبارة تكاد تصبح مألوفة بين معلّمي الإعدادي والثانوي، في غرف الأساتذة. وكما كان متوقّعاً، تفاقمت المشاكل المرتبطة بالتواصل التربوي وبالعلاقات بين الطلبة والمعلّمين، وكان التفاقم أكبر حيث وُجدت تلك المشاكل أصلاً، أي في الإعداديات التي طلابها من منبت شعبي، وحيث كان التوجيه الانتقائي إلى حينه يُستخدم لتقليص التوتّرات والصعوبات المرتبطة بالعجز عن مواكبة المدرسة، وفي الثانويات المهنية التي تستقبل أقل الطلاب كفاءةً وأكبرهم سناً.

كان الاحتفاظ في الإعدادية حتى نهاية المرحلة بالطلبة «ذوي الصعوبات» يجري ضمن ظروف لا تتمّ فيها تسوية تلك الصعوبات رغم تزايدها، وقد أمكن ذلك بتوجيه التعليمات حول هذا الشأن إلى مدراء الإعداديات وبإلغاء تدريجي للصفوف التحضيرية للشهادات المهنية: CAP، وCPPN، وCPA.[4] لكن ما يزعج المعلمين ويخيّب أملهم ويبعث اليأس في نفوسهم، ليس فقط أن يتحملوا حتى سنٍّ قد يبدون فيها أكثر خطورة طلاباً يجعلهم «سلوكهم الجهنميّ»، أو «غياب الحافز» لديهم، أو «عجزهم الكامل عن الاستيعاب»، «لا يطاقون»، «ميؤوساً منهم» و«يبعثون على اليأس». بل يضاف إلى ذلك إضعاف صلاحية تقويم عمل الطلبة، وحفزهم على النشاطات المدرسية، وتوفير الحدّ الأدنى من احترام ومراعاة توجيهات

---

[4] تدل إحصائيات توجيه الطلاب إلى الفروع في كل مدرسة أن أكثر من ثلث طلبة معظم المدارس الإعدادية في المدن والأرياف ذات الجماهير الطلابية الشعبية، لم يكونوا يصلون إلى الثالث الإعدادي في أواسط الثمانينات. ونجد نسبة قريبة من 40% من عدم القبول في الثالث الإعدادي على المستوى الوطني العام فيما يخص الطلبة ذوي المنبت الشعبي، بينما نسبة 3% فقط من أبناء المعلّمين أو ابناء كبار الموظفين في تلك الحالة.

المعلّمين، حتى لدى أكثر الطلبة تقصيراً. لقد تحوّل الترفيع إلى الصف الأعلى غير مرتبط كما في الماضي، بعمل الطلبة واجتهادهم، فتولّد عند المعلّمين الشعور بأنهم خسروا ركناً أساسياً من أركان سلطتهم على بعض الطلبة، وباتوا يشعرون أنهم «عاجزون» حيال أقل الطلبة استعداداً لأداء النشاطات المدرسية المطلوبة في الوقت الذي تزداد فيه الوطأة النسبية لمثل هؤلاء الطلبة في كثير من الإعداديات.

مدرسة الفقراء

❖ انطباعنا الراسخ أن الأمور تسير نحو مزيد من السوء، وأن أولئك الأولاد يزدادون صعوبة إلى حدٍّ بعيد (..). وعندما أقول إلى مزيد من الصعوبة، فإنني أقصد من هذا صعوبة تشغيلهم، فهم يفتقرون إلى الحافز، في رأيي. انطباعنا أنهم يضجرون كثيراً.

❖ أنهم يضجرون، فتزداد سلبيتهم؟

❖ ليسوا بالضرورة أكثر سلبية، لا، يمكن ترجمة الأمر وفهمه بشكل آخر... من خلال العدوانية.. (..) أظن الشعب قد تغيّر.. أظن أن أبناء العمال المهاجرين قد ازداد عددهم، وأن الطلبة الجيّدين يزداد تركهم للمدرسة. إذاً، فنحن مدرسة الفقراء. وأكثر ما يخيفني، أن المدرسة الحكومية مآلها السريع أن تصبح مدرسة الفقراء.

ثم، لنكن صريحين، فأنا نفسي لم أسجّل أولادي في مدرسة ف.. فعندما كان ابني إيريك في الصف الخامس CM2، كنت أدرّس في صفّ للأول الإعدادي، وكانوا قد جمعوا فيه سبعة طلاب من أصحاب المشاكل. كانوا قد جمعوهم هناك حتى لا يزعجوا باقي الصفوف (دائماً يتصرّفون هكذا، إلى حدٍّ ما). فهذا ما حفزني على أن أقرر إرسال إيريك إلى باريس. ولست الوحيدة في تصرّفي في مدرسة ف. وهذا يفسّر كيف لم يعد لدينا في الصفوف سوى «الأذناب» (..)

على أنني هذه السنة، توفّقت بأول إعدادي جيد، والفرق بينه وبين

صف السنة الماضية كالفرق بين الليل والنهار. (..) في الصف الجيّد، إذا شئت، تمضي الأمور عفوياً. هي متعة حقيقية: فأنت هناك، ترى الحياة تنبض في صفك وتعيش معه، فهم الذين يقودونك إلى.. لا أدري، تقول أشياء، فتنطلق الأمور من تلقاء ذاتها! إذن، هذا ما يجري معي في الأول الإعدادي وأجد الأمر في غاية الروعة. في نهاية المرحلة الإعدادية، ليس عندي مشكلة انضباط في الصف، لكنهم بطيئون. لا بد من محاولة.. محاولة تحريكهم، لكن حتى هذا لا يمكن القيام به، لا أدري، هم.. لا بدّ من تجنّب إزعاجهم. فأنا حتى لا أعود معلّمة بل أحاول ألا أزعجهم. (..) وأقسى ما في الأمر أنني في بعض الأوقات أتساءل إن كانوا يحسنون أي شيء، وإن كنت أستطيع أن أقدّم إليهم أي شيء.. (..)

وهذا لا يعني أني أطالب بتوفّر مستوى الصف الأخير في المرحلة الإعدادية. فأنا بالفعل خفضت مطالبي منهم. (..) أعلم مع هذا أن بعضهم سوف يصبح في الثانوي، ولذلك، فهؤلاء، أحاول دفعهم أكثر، لكن في جميع الأحوال، لا أكثر من الذين لا يريدون ولا يتجاوبون، من البداية، فهم قرفون من المدرسة ويعلمون أنهم سوف يكتفون بشهادة التعليم المهني BEP فهم ينتظرون مرور الوقت..

❖ {مقتطف من حديث مع معلمة للغة الإنكليزية مثبتة منذ قرابة اثنتي عشرة سنة في الإعدادية (والإعدادية تصنيفها ZEP منذ سنتين) القريبة من مسكنها، في ضواحي باريس}.



من الاختبار المدرسي إلى اختبار القوة

ممّا لا شك فيه أن نتائج هذه التغيّرات ملموسةٌ أكثر في الثانويات المهنيّة. فتلك الشريحة الطلابية التي كانت في السابق تتقدّم إلى الشهادة المهنية BEP ، أصبحت تصبّ الآن في معظمها في المدرسة الثانوية. وكان

الطلبة في السابق يدخلون إلى الثانوية المهنية بأعمار تتراوح بين 14 أو 15 سنة، لكنهم الآن يتحولون إليها بأعمار 17 أو 18 سنة وخلفهم ماضٍ مدرسي مثقل بالحساسيّات، ولديهم بالتالي «حسابات يجب تصفيتها» مع المدرسة. هؤلاء الطلبة الذين احتفظت بهم الإعدادية لفترة طويلة في وضعية الفشل وما ينتج عنه من سلبية أو عنف، قد اكتسبوا سمات تجعل عمل معلّمي الثانوية المهنيّة أكثر صعوبة وأشدّ إثارةً للمعاناة.[5] والظروف العامة في المدرسة لا تتيح تأمين دور تعليمي فعلي، ولهذا يلاحظ ازدياد ظهور «رؤساء عصابات» يميلون إلى التحدي المكشوف للمعلمين، ويعملون على مضاعفة اختبارات القوة الجسدية التي تقوم بدور الثأر من المدرسة لدى أولئك الطلبة الذين حشرتهم المدرسة نفسها في خانة الفشل.

قانون السوق

ولقد تدعّمت هذه العملية، عملية التمايز بين المؤسّسات التعليمية وتمركز الصعوبات، المرتبطة بالاحتفاظ بالطلبة في الإعداديات ثم الثانويات، تدعّمت بإجراءات «لا مركزية» وإثارة التنافس بين المؤسسات التعليمية ممّا يولّد حلقات مفرغة جديدة. فالمؤسسات، في واقع الأمر، لديها هامش مناورة متزايد باستخدام وسائلها الخاصة. فهي قد تريد ويجب عليها التكيّف مع جمهورها الطّلابي، لكنها تهتمّ أيضاً بصورتها في السوق المحلّية وبالتأثير الذي تمارسه هذه الصورة على زبائنها الذين يمكن أن تجتذبهم أو أن تجعلهم يفرّون. وأمّا الوسائل التي تحت تصرّفها «بحريّة»، فهي محدودة، ولذلك عليها أن تحسم أمورها. كالاختيار، مثلاً بين

---

[5] رغم الالتباس الحاصل من استخداماتها المتعدّدة، فإن بعض المفردات مثل «فشل» أو «عدم تكيّف» مع المدرسة تفيد بالتذكير بأن أقلّ الطلبة شأناً، في الوضع الحالي للتجهيزات المدرسية، يوضعون دائماً بشكل منظم تحت خانة « انعدام الذكاء» في مواجهة النشاطات المدرسيّة (التي ينصرفون عنها ولا يبالون بها كل يوم أكثر من اليوم السابق): وهذا الوضع يفرض عليهم أحد خيارين، فإمّا القبول السلبي بمستواهم المتدنّي (حيال أولئك الذين يسمّونهم «الأدمغة»)، وإمّا محاولة إثبات الذات في ميادين أخرى كالعنف الجسدي (وهنا يفضّل الطالب «القاسي» على الطالب «الضعيف» مثلاً).

أمر له بريقه، مثل اللغة اليونانية، لتجنّب رحيل الطلبة إلى مدارس منافسة، وبين إجراء الغاية منه مساعدة الطلبة الذين يعانون من صعوبات. بهذه الطريقة، يمكن أن تنشأ أو توطّد تراتبية بين المؤسسات التعليمية التي تتوصل إلى تعريف نفسها بأنها «أقطابٌ بامتياز»، وتلك التي ليس لها تخصّص ممكن آخر (قليل الأهمية وغير مرغوب) سوى التعامل مع الطلاب الذين يعانون من الصعوبات.

وبينما كانت الاستقلالية تفترض تشجيع تكيّف المؤسسة التعليمية مع جمهورها، فإن ضغوط التنافس تحضّ، على العكس، تلك المؤسّسة على تجاوب مع الطلب فتعطي الأولوية لمنع حركة «تسرّب الطلبة الجيّدين» التي ترافق عادة ارتفاع نسبة الطلبة «ذوي المراس الصعب» (ويُحكم بأنهم أكثر عدداً مما يجب في هذه المرحلة من ضعف عملية الانتقاء). ونظراً لأن الأسرة المتمتّعة بإمكانيات اجتماعية ودراسية أفضل هي الأقدر على الاختيار لأبنائها مع الإدراك الكامل للتبعات وهي التي تستطيع تحقيق الاختيار الذي أرادته، فإن ضرورة «ملء» المؤسّسات التعليمية الأكثر معاناةً من التسرب ينتج عنها، بالتأكيد أكثر مما كان عليه الحال فيما مضى، أماكن «للنفي» تتجمّع فيها المشاكل وتتمركز.

وحتى في المحافظات التي ما تزال تشكّل وحدة مناطقية تعليمياً، كما هو الحال في محافظة فال- دو- مارن، يمكننا أن نعاين في معظم المدن تمايزاً متزايداً في الانتماء الاجتماعي للطلبة في الإعداديات، وهذا التمايز على ارتباط بعمليات التسرّب تلك. ولكن حركة التمايز تزداد حدّة وكثافة في القطاعات العمرانية غير الموحّدة تعليمياً فتكثر فيها الهجرة أو التسرّب، وهذا على ارتباط بمقولات «دعائية» أو بمقارنات غير أكيدة بين مؤسّسات متنافسة رغم تقاربها يتعلّق بها أولياء أمور الطلبة.[6]

---

[6] تبيّن البيانات عن تجارب تفكيك الوحدة المناطقية تعليمياً (في عام 1985 وعام 1987) أخطار بروز وتبلور التفاوتات الاجتماعية التي تؤدّي إليها تلك الإجراءات. على أن هذا لم يمنع التوسّع فيها، دون أي تقويم للعواقب؛ فشملت ما يقرب من نصف الإعداديات.

فما هو الحل الأسلم عموماً في نظر الأهالي من فئة اجتماعية محدّدة؟ ببساطة، الهرب من المدارس غير المرغوبة، والالتجاء إلى المدارس المرغوبة، وبالتالي فالأفكار السائدة لدى الغالبية العظمى عن وجود تفاوتات (غير مؤكدة أوّلياً) بين المؤسّسات التعليمية يدعمّ وجود الاختلافات ويزيد من تلك الاختلافات الأولية. وكما نعلم، فجودة المصنف المدرسي (ذاتية الطالب) مرتبطة بمنبته الاجتماعي، وهذه الذاتية المدرسية عنصر حاسم في فرص القبول للتسجيل في المؤسّسات العامة أو الخاصة. وهكذا نرى في القطاعات غير الموحّدة تعليمياً على أساس المنطقة أن ذاتية الطالب هي التي تجعل حرية اختيار المؤسّسة المدرسية حقيقية أو وهمية (وهمية عندما تقتصر على تقديم طلبات مرفوضة ليصار من بعدها إلى توجيه الطالب قسرياً إلى المؤسّسات غير المرغوبة على الإطلاق).

فهذه العملية الدائرية التي تبدّل تدريجياً الظنون إلى براهين قاطعة عندما يتجّمع في المدارس المغضوب عليها حشود الطلبة «ذوي المشاكل» من بعد رفضهم في المدارس المرغوبة، ينجم عنها في واقع الأمر ما يساوي الظاهرة التي يندّدون بها بالإجماع، ظاهرة «المجمّعات السكنية- الغيتّو»[7]. وهذا ما جرى في باريس، حيث ظهرت موجات رعب - آثارها أشدّ فتكاً من السبب الأوّلي غير اليقيني في ذلك الرعب - وانتشرت في العديد من الإعداديات، بل حتى في ثلاث ثانويات ذات ماض عريق مشرّف حيث أُعلنت بشكلٍ شبه رسمي «منكوبة» من وجهة نظر «هرب الطلبة الجيّدين» الذي أصيبت به بالإضافة إلى الهبوط الحادّ في نتائج الإمتحانات بسبب هذه التسرّبات، وهذا الهبوط في حد ذاته سبب وجيه لعمليات هروب جديدة..[8]

---

[7] المؤسسات المدرسية ومكان السكن يشتركان في انهما يتحدّدان جزئياً من خلال الأهالي- الزبائن فيهما. وقد فاقمت التطورات الأخيرة هذه الظاهرة على مستوى جمهور المؤسّسات التعليمية: فالاختلافات التي هي اصلاً كبيرة بين سكان الحي، تزداد عمقاً بسبب الشروط الجديدة بـ«اختيار» المؤسسة التعليمية التي يُراد للطالب أن يتابع دراسته فيها.

[8] تبدو مصيبة هذه الثانويات مرتبطة بادئ الأمر بـ «سوء موقعها» جغرافياً في مدى المنافسة الباريسية، لأنها جميعاً تقع بين الأوتوستراد الخارجي والاتوستراد المحلّق.

ويزيد من وطأة معاناة الأساتذة حيال تجميع الطلبة غير المهيّئين مدرسياً أن عملهم سيقابل بمزيد من العقوق: «لا أكثر من طلبات الاستقالة (..)؛ فنحن نبذل طاقة كبيرة جداً، أحياناً في سبيل لا شيء، وأحياناً في سبيل مردود بسيط جداً، فيقول واحدنا لنفسه: لا، هؤلاء لا أستطيع معهم أي شيء، يعني. (..) ومنهم، من أتركه وأهمله عن قصد.» وبدلاً من التساؤل حول طريقة أداء المدرسة لمعرفة ما يجعل مهنة المعلّم مستحيلة بالشكل المُرضي، تراهم، على العكس، يميلون إلى تحميل المعلّمين صعوبات ونواقص الطلبة الذين يتزايدون أكثر فأكثر مع تزايد إهمال عملية الاصطفاء الصحيح، وبالتالي: فهم أقلّ تمتّعاً بالخصائص الاجتماعية التي كانت «تسهّل» عملهم في الماضي. فعلى مستوى التعليمات الإدارية أولاً، لدينا التأكيد «بأن جميع الطلبة مدعوون للنجاح» (بُعيد تعميم الدخول إلى الأول إعدادي)، وترافق هذا مع الأوامر الموجّهة إلى المعلّمين (خاصة في عام 1985، ضمن التعليمات الموجهة إلى معلّمي الإعداديات) بـ «تحقيق التنويع والتباين الفردي في التعليم» بما يجعل من ذلك التغيير عملية تجريدية ذهنية. وزاد في الطين بلّة منذ سنوات قليلة التأكيد على «استقلالية المؤسّسة التعليمية» وهذا ما يلزم الطاقم التربوي المحلّي بحلّ المشاكل الناجمة في معظمها عن السياسة المركزية بصدد نسبة الـ «80%». إن معاناة الأساتذة أكبر بكثير مما هو ملحوظ رسمياً في تلك «التعليمات» المختلفة، وسواءً نسب المعلّمون المسؤولية لأنفسهم أم رأوا في كل هذا تنكّراً لهم، حقيقياً أو مفتعلاً من قِبَل أولئك الذين يفترض فيهم أن يتورّهم. فنصوص تلك التعليمات إنما تكشف في الحالتين مدى «البعد عن المثل الأعلى المنشود».

وبينما يقدّمون المدرسة والتأهيل بشكل منظّم على أنها أوليات وطنية، فإنّ التناقضات بين الرؤية الرسمية لنظام دراسي يؤمّن «النجاح للجميع» (أو «المساواة في الفرص»)، وبين التنفيذ الواقعي، تستمر بسهولة يزيد من وطأتها عدم الاعتراف بالقسم الأعظم من تلك الاختلافات.

والتحقيقات الإحصائية المتخصّصة في الاستدلال على أفواج الطلبة أو الاختلافات بين المعاهد أو بين المدارس، تترافق، دون أي اتصال متبادل، مع التحقيقات الأتنيّة الكاذبة التي تهمل النظر موضوعياً إلى الظروف المرتبطة بشكل منتظم ببروز مختلف أنماط المشاكل، وغياب مثل هذا الفهم الموضوعي من شأنه لا محال توجيه اللوم إلى الضحايا، مثلاً، بالحديث عن «إمكانيات والتزامات أصحاب العلاقة»،[9] وهكذا تقف موقف التعارض المانوي المدارس التي توجد فيها «إرادة الانطلاق إلى الأمام» والتي يتمّ فيها حتى «تأويل» التغيرات على أنها «فرصة» («فالمعنيّون لا يغريهم الانطواء رجوعاً إلى الماضي») والمدارس التي فيها «يحمل المعلّمون والإدارة على حدّ سواء نظرة سلبية إلى الطلبة ووجهات نظر متباينة بشأن الحلول الممكن تقديمها». فالتقليل من شأن الصعوبات أو نسبها لأولئك الذين يعانون منها، هو في حدّ ذاته إعاقة للفهم العميق لواقع مشاكل المؤسّسات التعليمية. وهو أيضاً مساهمة في التحطيم المعنوي لأولئك الذين تدهورت ظروف عملهم إلى حدّ كبير. والتأكيد على إطالة فترة الدراسة على حساب ظروف التعليم، بالإضافة إلى خلق التنافس الاعتباطي بين المدارس التي تواجه صعوبات شديدة التفاوت، هو، على الأرجح، ما ساهم مساهمة كبيرة في تمركز وتفاقم المشاكل حيث يُحشر العدد الأكبر من الطلبة المحرومين. لقد عانى نظام التعليم الأمرّين من غياب الإجراء الساعي إلى الوقوف في وجه آثار السياسات الديماغوجية غير المسؤولة، وهو اليوم في أزمة عميقة يلعب فيها التحطّم المعنوي للأساتذة دوراً مزدوجاً: فهو أثر من آثارها مثلما هو في الوقت نفسه أحد عواملها.

---

[9] هذه الأقوال بين معترضتين والأقوال اللاحقة مقتبسة من مقالة أوليفييه كوزان وجان فيليب غيومي، «تنوعات الكفاءات المدرسية وتأثيرات المدرسة» (المنشور عام 1992 في العدد 31 من مجلة «التربية والتأهيل») وقد تمركز البحث على إبراز تعارض فجّ بين الثانويات «الناهضة» والثانويات «الهابطة».



روزين كريستان

حياة مزدوجة

كنا نعتقد بأننا نعرف عنها كلّ شيء: أصلها الريفي، جدها الفلاّح وأبويها العاملين اللذين ذكرتهما بسرعة، جوائز الامتياز التي حازت عليها في الثانوية، ثم دراستها للآداب في تولوز، وصعودها في باريس، وأخيراً الإعدادية في منطقة فال دواز Val-d'Oise وخمسة وعشرين عاماً من حياةٍ قضتها في التدريس في ضواحي باريس.

في لقاءٍ أوّل جرى في كانون الثاني 1991، تحدّثت عن حماسها في البدايات وعن نضالها كمدرّسةٍ شابّة، وعن توقّعاتها غير المحدودة أحياناً لما سيقدّمه طلاّبها، وأيضاً عن العنف في بعض الأحيان، وعن نادي الفيديو، وعن الزملاء، وأولئك الذين ينهارون، وكللها الخاص؛ لقد تحدّثت عن نفسها، ووصفت نفسها بأنها «لا هي موظّفةٌ صغيرة مسترخية» ولا «الأم تيريزا»، وتحدثت أيضاً عن الانطباع الذي يلازمها بأنها «تقوم بعملٍ مقرف».

في ذلك الموعد الأول، حضرت فاني بصحبة إحدى صديقاتها، وهي مساعدةٌ قديمةٌ لمدير المدرسة التي تعمل فيها. لقد جعلتنا نراها بصورة طالبةٍ أكثر منها امرأةٌ في الثامنة والأربعين من عمرها بهيأتها وطريقة لباسها وشعرها الطويل الأشقر المجعد والكنزة العريضة المزدانة بالجاكار وحديثها الحيويّ نوعاً ما، والحيوية التي أبدتها لنا. جرى الحديث الذي تمّ

التحضير له من الطرفين في يوم أربعاء، وهو يوم عطلتها الوحيد، وكان ذلك في مكتبٍ من مكاتب دار العلوم الإنسانية. وخلال المحادثات العديدة السابقة للمقابلة، سألت فاني عدة مرات عن عملنا قبل أن توافق على الإجابة عن أسئلتنا، وذلك بسبب مزاجها القلق والمرهف. صحيحٌ أننا كنا نعرف العديد من المدرسين المصابين «بانحراف المزاج الخاص بالمدرسين» وكنا قد سألناهم في السابق، لكنّ فاني كانت تتحدّث بتركيزٍ وحساسية عن إعداديتها الكائنة في منطقة فال دواز Val-d'Oise التي تضمّ في رحابها سبعمائة طالب من أبناء الموظفين والكوادر الذين هم في طريق الصعود نحو ملكية منازل مستقلة، وهي تدرّس في هذه الإعدادية منذ حوالى عشر سنوات. وقد استطاعت في ذلك اليوم أن تحيي لنا عدة مراتٍ يوميات تلك الإعدادية، من المدير الذي «يريد أن يمتدحه الآخرون»، إلى الزملاء الذين يراكمون حالات الانهيار والإجازات المرَضية، إلى «الأولاد الذين يلحّون عليها» ليمارسوا نشاط الفيديو.

كما أنّ فاني عرفت أيضاً كيف تعبّر عن فقدانها للحماس، لكن دون أن تذهب مع ذلك إلى أن تتكر ذاتها أو أن تحطّ من شأن ذاتها. لقد شكّلت صورةً نموذجية بالنسبة لنا كانت تذهب إلى عمق الأشياء كما بدا لنا. إلاّ أنه لم يُذكر أمام المسجّلة سوى الحياة المهنية لفاني، كما لو أنّ الديكور غير الشخصيّ والموقع الرسمي للمقابلة قد حجبا نوعاً من الألفة الوليدة التي هي طبيعيةٌ نوعاً ما بين النساء اللواتي ينتمين إلى جيلٍ واحد، واللواتي يجمع بينهنّ عددٌ من المراجع والمعتقدات، إن لم يكن نمط الحياة ذاته.

فيما بعد، ولدى إعادة قراءة الكلام المسجّل الخالي من كل ما عرفناه «خارج اللقاء»، تلاشت فاني، التي ربما كانت تمثّل أكثر مما ينبغي انحراف المزاج المنتشر والذي كتب عنه لدرجة أنه فقد واقعيته، واختبأت خلف العبارات العادية التي تنطبق على كثيرين غيرها، وعلى مهنةٍ بأكملها. لم نعترف بذلك في بداية الأمر، ثم اكتشفنا فيما بعد شيئاً فشيئاً بانفتاحٍ أكبر أننا قد خدعنا أنفسنا بأنفسنا على نحوٍ ما حين سررنا بالحصول على

صورةٍ جميلة، وأننا توقفنا عند ظاهر الأشياء. إلاّ أنّه كانت تبزغ من بين السطور بعض الملاحظات الصغيرة التي لم تُقل، والمرئية بالكاد، وكأنها نداءاتٌ تستجرّ الأسئلة: لماذا أيام العمل هذه التي تمتد إلى عشر ساعات، لماذا هذا النقص في ساعات الفراغ الذي كان زوجها يشتكي منه لتلك الدرجة، لماذا هذا التفاني في العمل «الذي تعيبه ابنتاها عليه اليوم» على حساب كلّ حياةٍ عائلية، وذلك الطلاق الذي بالكاد تحدّثت عنه؟ «إنها لا تعرف أبداً زوجين أحدهما مدرّس لم يشهدا مثل تلك المشاكل»: هل هو مجرّد تأثير التفاني لصالح مهنةٍ مقدّسة تتطلب استثمار كلّ لحظة من الوقت، أم هو التصاقٌ لا يمكن مقاومته بالشخصية التي ينبغي أن تلعب دورها أمام الآخرين وأمام ذاتها، وحتى ضمن الحياة العائلية؟

كان ينبغي أن نذهب في حديثنا معها إلى ما هو أبعد، أن نعرف أكثر لنفهم ما كانت دلائلُ كثيرةٌ تجعلنا نخمّنه، ذلك النوع مَن الأداء المدمّر للحياة المهنية وللحياة الخاصة في تلك الحالة الخاصة، وربما في حياة عددٍ من المدرّسين.

بعد بعض المبادلات الهاتفية، تم تحديد موعدٍ آخر في نيسان. وقد اتفقنا على أن يجري اللقاء في بيتها هذه المرة، وصورناه بكاميرا فيديو صغيرة؛ أعجبت الفكرة فاني التي ستكون لأول مرة أمام الكاميرا. واعترانا الأمل أن تسمح لنا الوثيقة بأن نلتقط ونحلّل على هوانا حركاتٍ وتعابير ونظراتٍ حجبتها عنّا حيوية فاني في المرة السابقة.

يقع منزل فاني على بعد ثلاثين دقيقة من بوابة لاشابيل La Chapelle في جادةٍ طويلة، لا هي حزينة ولا هي مرحة، بعيدة عن مركز المدينة، خالية في هذه الساعة من بعد الظهر، تحف بها على الجانبين أبنيةٌ لائقةٌ صغيرةٌ من أربعة طوابق، جُمّعت كأبنيةٍ سكنية فاخرةٍ نوعاً ما ويحيط بها القليل من النباتات. هي تعيش هنا مع ابنتيها التوأمين البالغتين ثلاثةً وعشرين عاماً. غرفتان وصالة صغيرة، تلك هي الشقة التي عاشت فيها مع زوجها أكثر من خمسة عشر عاماً. لقد أثثاها معاً، ولم يتحرّك فيها شيء وكلّ ما فيها

يحتاج إلى الإصلاح: فورق الجدران بحاجة إلى تبديل، والأثاث بحاجة إلى التصليح؛ إنها تدرك ذلك جيداً، وهي تعاني قليلاً بسبب هذا الأمر، لكن «ترميم علاقتها» مع ابنتيها بعد أن رحل زوجها في أيار عام 85 استهلكها. إحدى البنتين تحضّر لدبلوم في التعليم، والأخرى بستانية.

حياة فاني محفوفةٌ بحوادث الانسلاخ والتخلي والقطيعة. والدها عامل نسيج، وهو ذاته ابنٌ لفلاّح من منطقة آرييج Ariège. وقد احتفظت من أصولها بلهجةٍ واضحة تضفي سمةً من الغرابة على بعض أقوالها، وخاصةً أكثرها «ثقافية»، رغم محاولتنا أن نمنع أنفسنا من مثل ذلك الشعور. ترك والدها قريته حين كانت لا تزال صغيرةً جداً «ليتعلّم مهنته» في بلدةٍ مجاورة «ولكي يعمل بجد في المصنع». لقد كانت طفلةً صغيرةً آنذاك، لكنها لا تزال اليوم تذكر أوّل انتزاعٍ لها من جذورها فقد كان من القسوة عليها بحيث لم تخرج من المنزل لأكثر من شهر. بعد ذلك، أدخلت فاني إلى مدرسةٍ داخلية ثمّ ذهبت إلى تولوز Toulouse ثمّ إلى باريس ثم إلى آفينيون Avignon كذلك، ثم عادت لفترةٍ قصيرة إلى منطقةٍ أخرى من الجنوب الفرنسي، «وفي نهاية الأمر لا يعود المرء يعرف أين هو». لو أنها بقيت في الريف مع زوجها لكانت حياتها أكثر هدوءاً وطمأنينةً، لكانت حياةً «دون مشاكل»، لكنّ هذين النازحين، هذين المهاجرين «سُلّما لنفسيهما وأسيئت معاملتهما» بعد أن ابتعدا عن موطنهما وعن عائلتهما.

والدة فاني ابنةٌ لمهاجرٍ إسباني و«لعاهرة القرية»، وقد تولى أحد أخوالها رعايتها في شبابها، وكان ممثلاً تجارياً «شقّ طريقه» و«لديه أموال»؛ وقد وصلت في دراستها حتى الشهادة الإعدادية العليا قبل أن تتزوج وتعمل بهدوءٍ في معمل هي الأخرى؛ وقد حلمت بأن تقوم ابنتها بالدراسة التي لم تتمكن هي من إتمامها، بأن تمتهن التعليم، بأن تحصل على زوجٍ غنيٍّ وأن تكون لها حياةٌ مختلفة. كانت فاني طالبةً لامعة في صفّ الفلسفة في إعدادية بافي Pavie، تطمح إلى «أن تكون طبيبة»، لكن والديها عارضا تلك الرغبة، هذه المهنة ليست مناسبة للمرأة -بل إنّ أم فاني تعرف طبيبةً لا تمارس

المهنة-، كما أن الدراسة مكلفة. وبصورةٍ خاصة، فإنّ مهنة التعليم التي تجمع بين «السلطة والطمأنينة» تحوز على الكثير من الاحترام في العائلة. وتشعر فاني بالكثير من المرارة. إنها اليوم «قد غفرت لهم، بل إنّ الأمر يضحكهم قليلاً»، لكن ذلك الأمر شكّل قطيعةً أولى مع أهلها وهي في الثامنة عشرة من عمرها. فاختارت الفلسفة وسجلت نفسها في الصف التحضيري في ثانوية بيير دو فيرما Pierre-de-Fermat في تولوز، مما سمح لها بالاستفادة من منحة. سرعان ما نسيت الطب واكتشفت الكلية والمدينة الكبيرة والنقاشات الثقافية، وأخذت «تكثر من التسلية» ورسبت في امتحان القبول في دار المعلمين العليا، دون أن تشعر بالكثير من الندم. وحصلت على إجازةٍ في الآداب «كالجميع»، وأخذت تهتم بالمسرح والموسيقى: إنّ اهتمامها بالثقافة هو بالنسبة لها نوعٌ من الإنجاز الفرديّ أو من المهارة الفريدة، لكنه ليس ضماناً جدياً وضرورياً لدخول حياةٍ حُكم عليها أصلاً بأنه لا يمكن الوصول إليها، كما لو أنها لم تكن تجرؤ على محو أصلها.

تعرّفت فاني في تولوز على زوج المستقبل، الذي يصغرها بثلاث سنوات: وهو لم يكن طالباً. هنا أيضاً، لا تصبو كغيرها من الطالبات إلى الزواج من أستاذٍ مثلاً أو إلى أن ترتفع بلعبة الارتباط والإغواء، حيث يبدو بأنّ الحجج الغامضة للواقعية والتواضع قد حلّت دون أن تدري محلّ الحبّ. وسوف يتوجّب عليها أن تعتمد على قواها وحسب وعلى أشباهها. بيرنار هو «من بيئةٍ شديدة التواضع»؛ كان تلميذاً في ثانوية الملاحة الجوية ويحلم بأن يصبح طياراً. أرادا الزواج لكي يذهبا إلى باريس حيث ستسنح لهما كلّ الفرص وحيث ستتاح لهما كلّ الحرية («في تلك الفترة، كان لا بدّ من الزواج لكي يعيش اثنان معاً»). لقد اعتقدا بأنّه بالإمكان أن يكون لهما مستقبلٌ جميل، فالزمن يتطور ولم يكن يجري الحديث عن البطالة عند الشباب، كما أنّ العثور على عملٍ وشقة لن يكون صعباً. لقد كان لديهما طموحات، لكنه ينبغي أن يعرف المرء كيف يقدّم التضحيات.

ترك الشاب كلّ شيء، وتقدم لمسابقة في هيئة البريد والبرق والهاتف

PTT وسُميّ على الفور معتمداً للاستثمار في باريس: «حينذاك أيضاً، الأحلام الكبيرة..» ولخّصت تلك الفترة بهذه الطريقة: «حصلت على شهادتي الجامعية عام 66؛ ثم تزوجت ولحقت بزوجي إلى باريس. هذا كل شيء» لقد أعطت لنفسها بهذه الطريقة الصورة الرومانسية للعروس الشابة الخاضعة لكادرٍ شابٍّ تمّت ترقيته باكراً. لكنها تعتقد مع ذلك أنّ «مشاكلها تلك مع زوجها قد بدأت من هنا».

وفي تشرين الأول، امضت فترةً تدريبية في ثانوية شارلمان Charlemagne ؛ كان عمرهما حينذاك تسعة عشر عاماً واثنين وعشرين عاماً وولدت ابنتاهما التوأمان فوراً (في تلك الفترة، لم يكن منع الحمل مسموحاً، على الرغم من انتشاره بين أكثر النساء اطلاعاً، وكان بالتالي غير متاحٍ للكثير من الشابات)؛ هناك أحداثٌ حتمية، هذا كل شيء. وإذا كان العمل يبدو لها (بسبب أصولها) وكأنه فتوحات، فإنّها لم تكن تنظر إلى واقع القيام بنفس الوقت بالنشاط المهني والحياة العائلية على أنّه مأثرة، ولم يكن يتم التطرق لهذا الأمر. الأمر لا يتعدى كون الحياة الاعتيادية مخيبة للآمال أحياناً.

تزوجت فاني رغم معارضة أمها، لذلك فقد كانت تخفي عنها مصاعبها بسبب كبريائها، وذلك حتى رحيل الزوج؛ وفي الواقع، فقد «كنا نتباهى عندما نهبط كما يقولون إلى الجنوب.» لكنها ربما كانت تخفي على نفسها، مثلما تخفي على أهلها، المؤشرات الأولى للكارثة. فقد كانت شديدة النهم لحياة المثقفة تلك التي كانت تبدو بأنها تتفتح أمامها.

«كانت الطفلتان تحملان (..) إلى كلّ مكان»؛ وكانت تعهد بهما أثناء ذهابها إلى عملها إلى «حارسات أبنية كنا نعثر عليهن كيفما اتفق، بالصدفة (..) كان الأمر اعتباطياً، وكثيراً ما كان يُسمع صوت صراخ الطفلتيْن لأنهما كانتا أحياناً تظلاّن وحدهما في الشقة، وكانت كلتاهما في نفس المحبَس، لذلك..». لقد «قدّمت الكثير» من ذاتها «لعملها»، وهي تحبّ طلاّبها الذين تبدي تجاههم صبراً «خارقاً» لكن حين كانت ابنتاها صغيرتين، كانت تعود إلى المنزل في المساء وهي نافذة الصبر، «فقد استنفذت صبرها كلّه خلال النهار»،

وكان لا يزال يتوجب عليها تحضير بعض الدروس وتصحيح بعض الأوراق. في المنزل، «لم تكن تحتمل شيئاً»، وكانت وظائف ابنتيها «كارثة». فكان يجب العمل بسرعة، بسرعة، لم يكن لديها أبداً أيّ وقت. لا بدّ أنها كانت «بغيضة». تقول لها ابنتاها، لكن الآن فقط، بعد كلّ تلك السنوات، أن الأمر «كان مريعاً». لقد تجاهلت بلبلتهما واقتنعت نفسها بأنه يكفي أن تحبّهما.

لم يترقّ زوج فاني في عمله؛ لقد حكم على نفسه بالبقاء في هيئة البريد والبرق والهاتف بتخليه عن دراسته؛ وقد كان يحلّ محلّ الغائبين من المفتشين أو ممن يستقبلون البريد؛ لم يتحدّثا أبداً عن الأمر، إلاّ أنها تعرف بأنه كان يتألم لأنه تخلى عن دراسته هو. وهي لم تكن تبدي أيّ اهتمام بعمله، وذلك بصورة مكشوفة، كما أنها لم تكن تحبّ أصدقاءه الذين ينتمون مثله إلى هيئة البريد، فقد كانوا مختلفين أكثر مما يجب عن زملائها هي الذين يعاملون باستخفاف في كثير من الأحيان «زوجَ السيدة» كما يدعو نفسه. وهي تلوم نفسها الآن لأنها تركت أصدقاءها الذين تصفهم بأنهم «مثقفاتيون حقيقيون» يسيئون معاملة ذلك الرجل الذي يشبهها على نحو ما. وهي تعترف بأنها شعرت بالخجل منه في بعض الأحيان، تماماً مثلما خجلت من «والديها العاملين الفقيرين نوعاً ما» بمواجهة رفيقات صفّها «اللواتي كان لم يكن ينقصهنّ شيء». هذا هو الثمن الذي دفعته لتكون لها حياة «هانئة»، كما تحبّ أن تقول، الحياة الموعودة التي حلمت أمها بها لها: فقد كانت تنمّي ذلك «الجانب المثقّفاتي» وتمارس الرسم وتقرض الشعر.

ذكّرها الواقع بنفسه عام 85، في اليوم الذي رحل فيه زوجها، «ذلك الرحيل الذي لم ترَ مقدّماته»؛ لقد تمّ الطلاق بينهما بعد ذلك، لكنها لا تزال حتى الآن تضع خاتم زواجها في إصبعها وهي تعترف بأنها تأمل في عودته. وفي نفس اليوم، تركت إحدى ابنتيها الثانوية؛ حينذاك، بدأ بالنسبة لكلٍ من التوامين تَيَهانٌ مؤلمٌ لم ينته حتى هذا اليوم: مخدرات، هروب، فشل، «قصص كبيرة، كبيرة جداً».. وفاني لا ترغب كثيراً في الحديث عن هذا الأمر، وتتصاعد الدموع إلى عينيها.

ربما لم تكن فاني قد عرفت كيف تتوقّع هذا الانهيار أو تستدركه،

فقد كان ذلك يتطلّب الاعتراف للذات بالكثير من الأمور، كالحياة الشاقة، والانسلاخ، والصغيرتين اللتين كانتا تُقذفان من يد إلى أخرى، والزوج الذي يتعرّض للاستهزاء، والقطيعة، وكل تلك التضحيات التي قبل بتقديمها من أجل صعود غير أكيد، وسراب مشاركة بالثقافة أشد ريبةً. لدى فاني اليوم انطباعٌ بأنها قد سمحت بأن يتم الاحتيال عليها، وهي ترتاب «بكلّ ما هو مثقّفاتيّ»، كما أنها لم تعد تشتري أية اسطوانات، فليس لديها «النقود» اللازمة ولا حتّى «جهاز جيد لتستمع إليها». كل ذلك انتهى الآن.

وفي مهنتها أيضاً، تراجع اندفاع وحماس المدرسة الشابة ليحلّ محلّه القنوط، والإحساس التدريجي بأنها قدّمت الكثير من وقتها وطاقتها «وحياتها بالذات»، دون أن تحصل على شيء بالمقابل.

مع مدرّسة للأدب في إعدادية

أجرى اللقاءات غابرييل بالاز وروزين كريستان

«عملٌ مقرف»

❖ قبل قليل، قال البعض بأن العديد من المدرسين في هذه الإعدادية يودّون الرحيل.

فاني: نعم، هناك العديد وأنا منهم. البعض الآخر يشعرون بأنهم محاصرون قليلاً وقد تراودهم الرغبة في الرحيل؛ وهنا يخطر ببالي (..) وهو زميلٌ يدرّس الموسيقى؛ في المدرسة الآن عدم ارتياحٍ نتج على ما أظن عن تبديل المدير. لدينا منذ العام الماضي مديرٌ جديد لم يحصل إطلاقاً على الإجماع ، إطلاقاً، وبالتالي فإن الناس يحكمون عليه بصرامة (...). إذن، هناك عدم ارتياحٍ بسبب هذا الأمر، وكذلك بسبب وضع التدريس. أعتقد أن الناس لديهم انطباعٌ، وأنا أتحدّث عن انطباعي الخاص على الأقل، بأنّهم قد عُصروا مثلما يُعصر الليمون وأنه غير مُعترَفٍ بهم. وهذا هو الوضع حين أتناقش مع زملائي من مدرّسي اللغة الفرنسية، إذ نشعر بأننا فعلاً لاشيء، وأننا نقوم بعملٍ- مرّرا لي التعبير- عملٍ مُقرف، هذا هو الواقع! وقد سمعت ذلك التعبير. إذن، فنحن نشعر بأننا قد حاربنا من أجل لاشيء، وأننا سُرقنا. وحين يصل المرء إلى لحظةٍ معيّنة في عمله الوظيفي- في أية درجةٍ وظيفية أنا؟ إني لا أعرف حتى ، العاشرة ربما؟ عمري الآن ثمانية وأربعون عاماً-

فإنه يتكوّن لديه الانطباع بأنه بالفعل لاشيء على الإطلاق، سواءً كان محقّاً في ذلك أم لا. عندما يكون المرء شاباً يصل إلى لحظةٍ يرغب فيها بأن يقوم بشيءٍ آخر. يقول زميلي مدرّس الموسيقى بأنه يشعر بمتعةٍ فائقةٍ في الحفلات، وهو محظوظ لأن لديه عملٌ آخر، أما أولئك الذين ليس لديهم شيءٌ إضافيّ (...). الزميل الشيوعي لديه نضاله... وهو علاوة على ذلك لم يعد مقتنعاً به كثيراً وقد عاد للدراسة؛ وهكذا، فإنّه يجد معنىً لحياته بهذه الطريقة.

كل شخصٍ يهرب إلى جهةٍ أو إلى أخرى...

فاني: نعم، هذا مؤكّد، هناك هروب، وهكذا يكون تغيير المدرسة هروباً أيضاً، لكنّه قد يكون هروباً من المدرسة ذاتها. صحيحٌ أن الكيل قد فاض بي من المدرسة، إلاّ أنني لا أعلم ما الذي سأجده خارجها. لديّ رغبةٌ بالتعليم في ثانوية لأنني أرغب بأن أستمتع، كما يقول الشباب، بتثبيت قدميّ قليلاً بينما، حتى الآن، أعطيتُ وأعطيتُ مقابل لاشيء كما يبدو لي. هذه هي الحال!

فاني: الناس لديهم الرغبة في أن يعيشوا. والمدارس الإعدادية أو الثانوية لم تصبح مكاناً للحياة. حين أتناقش مع الأولاد، لديّ أوراق مليئة بالأخطاء اللغوية ويُستشفّ منها رغبةٌ في التحدث مع الكبار؛ ربما تمثّل تلك الأوراقُ أيضاً رغبتهم بأن يعيشوا حقاً، وأنا أعتقد بأن الشباب يترجمون بطريقةٍ ما انحراف مزاج أساتذتهم، بل وحتى انحراف مزاج المجتمع. لا أعرف إن كانوا يدركون ذلك جيداً كما لا أعرف إن كان ذلك قد قيل، لكن هنالك شيءٌ من هذا القبيل.

❖ إنهم يشعرون بأنهم ليسوا منسجمين مع ذاتهم.

فاني: هذا هو الأمر، كما أعتقد. مع طلابي، الأمر يتعلّق بي ولا أستطيع أن أقول بأن ذلك يجري بنفس الطريقة مع الجميع؛ الأولاد رائعون لأن لديهم رغبةٌ حقيقيةٌ في أن يساعدونا، وحتى في أن يحبّونا، ويتجلّى ذلك خاصةً في طلاّب الصفّ التاسع. لذلك، فحين أسمع زملاء لي يقولون:

«أوه! نحن لسنا هنا من أجل ذلك، نحن لسنا هنـا لكـي نحـبّ الأطفـال»، فإنني أجد هـذا الأمـر خاطئاً تماماً، فالأولاد بحاجـة لـهذا الحـبّ و كذلـك الأستاذ: على كل حال أنا أحتاجه. إذا أردت أن أقوم بعمل جيّد فأنا بحاجـة لأن أكون بحالة حسنة معهم من جميع الجوانب. وهـذا الأمـر جـزءٌ من كلٍّ، فالنـاس لديهم الرغبة في أن يعيشوا. وفي المجتمع الحـالي، يعيـش الأولاد تلك الرغبة، حيث تُقدَّم لهم نماذج يكون فيها المال سيداً و...حسناً، أظنّ أن تلك أيضاً مشكلة. (...) فإنه يتراءى لهم بأنه يتم استدراجهم إلـى أمـور غير صحيّة، هـذا هو الوضع.

❖ وحين تقولين بأنه لا يعترف بالأساتذة، وأنك أنتِ بالذات تشعرين بأنه لم يتم الاعتراف بك، فمن قِبَل من وكيف؟

فاني: لنقل أولاً من قِبَل السلطة العليا التي ... كثيراً ما لاحظت بـأن رؤسـاء المؤسسـة المدرسية-ليس جميعهم لأنني أسمع أيضـاً أن فـلان مثـلاً رائع، الخ... - يعملون غالباً كرؤساء مؤسسات، أردت أن أقول... إن المبنى أو علـى الأقل القوانين التي تحكم فيه، ليست لصالح البشر الخـاضعين لـها، سواءً كانوا أساتذةً أم طلاّباً. الرؤساء موجودون ليزعجوك، وليطلبوا منك أن تقوم بأعمال ليست من صلب اختصاصك، وأنت تشعر بأن هـذا ليس في صالح الأولاد على الإطلاق، بل إنه في صالح الترقية أو ما يشبه ذلك؛ وهـذا الأمر قد ينطلي على الأستاذ فترةً من الزمن، في ما لو أبدى سروره بالقيام بعملٍ ما، فهناك العديد من الأساتذة على هذه الشاكلة. بالإضافة إلـى ذلـك، فالاعتراف بنا مطلوبٌ أيضا من الأهل ومن مجموع السكان.

❖ نعم، من مجموع السكان.

فاني: لأنه بصراحة، حين نسمع الخطابات حول الأسـاتذة (...) هـذا الأمـر قديمٌ قِدَم العـالم... أو حين نسمع رأي عـائلتي الخاصة، فإنـه يتولّـد انطباعٌ بأننا نقوم بعملٍ هيّن. ودائماً يذكرون العطل المدرسية في المقدّمـة...، الخ.

❖ نعم.. العطل (...) ماذا كان أهلك يعملون؟

فاني: كان أبي عامل نسيج. لقد عانى الكثير فأيام عمله كانت قاسية. وكنت أرغب بدراسة الطب لكن لم يكن لديه المال الكافي. لقد قالوا لي الكثير، وبالنسبة لهم فإن مهنة التعليم تعني أن يكون للمرء وظيفة وأن يكون مرتاحاً بعمله. كان أبي يرى في التعليم وظيفة حكومية.

كنت قد وقّعت باسم: «الأخت تيريزا»

فاني: هذا هو الوضع، فقد رأى في المعلم موظفاً حكومياً، منسجماً أو غير منسجم مع ذاته، لا أدري. ربما كان المعلّم الموظّف منسجماً مع ذاته لأنه في الواقع.. هناك من الأساتذة من لا يطرح الكثير من الأسئلة على نفسه. أمّا الأستاذ الذي يريد القيام بدور المربّي- أعود هنا إلى الموضوع الذي يؤرّقني- فأنا أعتقد بأن ما يخيف المعلم هو أن عليه أيضاً القيام بدور المربّي. لقد تشاجرت في العام الماضي مع بعض الزملاء لأنني أنظر إلى الأمر بهذه الطريقة؛ إنها كلمة كبيرة للغاية ولا أريد التلاعب بالكلمات، لكن دور المعلّم اليوم لا يقتصر على نقل المعرفة؛ إننا نتبع وزارة التربية الوطنية والأطفال يطالبون.. هم لا يطالبون أن يحلّ المعلّم محلّ الأهل، بل أن يكون شخصاً راشداً مرجعياً يمكن لهم التحدّث معه، وحين نقبل بهذا الوضع، فإنّ الأمور تسير على ما يُرام. بعض المعلّمين يرفضون هذا الدور. في العام الماضي كان لديّ صفٌ صعب، وكان الأولاد مثيرين حقاً للمشاكل؛ وعلى سبيل المزاح، على سبيل المزاح بالتأكيد- ربما كان مزاحي ثقيلاً - استدعيتُ الناس إلى مجلس أولياء مبكر لأن الصف لديه مشاكل، ووقّعت باسم «الأخت تيريزا». لمَ فعلتُ ذلك؟ لا أدري، ربما كان وحياً ربانياً. يا إلهي.. لقد أثار تصرفي استنكاراً عاماً.

إن مهنة التعليم هي باعتقادي مهنة شاقة للغاية، شاقة لأن المعلم يعطي من ذاته للأولاد، بيد أنه لا يستطيع أن يقوم بعمله دون هذا البذل، لكن في نفس الوقت الذي أقول فيه بأنني أشعر بأنه لا يُعترف بي فإنّ علاقتي مع طلابي جيدة وهذا ما يجعلني أستمر. فحتى عندما يكون لديّ صفوفٌ صعبة أو يكون هناك ضجيجٌ أو عندما تتوتر أعصابي، فإن شيئاً ما

يحدث بيني وبين طلابي، فأنا أحبهم وهم يحبونني وهم الذين يجعلونني أستمر في التعليم. لولا هذا الأمر لقمت بأي شيء، ولقبلت أي عملٍ كان! فحين يكون بينك وبين الطلاب مثل ذلك الحب فإنهم يعترفون بك، إنك تحصل على الاعتراف بك من الطلاب. (..)

◆ وبالنسبة لعائلتك، كنتِ تقولين، وأنتِ محقة في ذلك، بما أنهم يعملون بجدٍ... هل كانت أمك تعمل؟

فاني: كانت أمي قد توقفت عن العمل. لقد عملتُ حين كنت صغيرةً جداً؛ كانت عاملة مصنعٍ أيضاً وكانت تشعر بالغبن قليلاً لأنها وصلت في دراستها حتى الشهادة الإعدادية العليا في ذلك الوقت، لكن أمها أرادتها أن تعمل من أجل كسب المال، فكان عليها الذهاب إلى المصنع. إذن أمي ذهبت إلى المصنع وأعتقد بأنني كمعظم الأبناء في تلك المرحلة قد سلكت الطريق الذي أرادته لي... (...) أو الذي كانت تودّ لو أنها هي نفسها قد سلكته. وحين كنا نناقش الأمر، أعتقد بأنها كانت تراه مثل... كيف أعبّر؟ بالنسبة لها فإن المعلّم هو القمة. لقد كانت تحتفظ بعقلية أهل الريف؛ وفي بيتنا كان يطلق لقب وصيّ régent على المعلم؛ وجدي أيضاً كان يُكنّ احتراماً بالغاً لمن ينقل المعرفة. لقد كان جدّي أمياً، وبالتالي فالوصيّ كما يُقال بلهجتنا المحليّة شخصٌ مرموق؛ أمي تأثرت بتلك النظرة، أكثر مما تأثر أبي...

[...]

أمي تخلّت عن أوهامها

◆ ألم تشعر عائلتكِ بأنك قد نجحتِ بالنسبة إلى تلك... الأهداف التي يمثّلها كونك معلّمة، الخ...؟

فاني: بلى، بلى. كانت تعتبر أنني قد نجحت لكن أمي تخلت عن أوهامها الآن، لقد تخلت عنها...

- صحيح؟ أي أن ذلك كان في مرحلةٍ سابقة؟

فاني: نعم، في البداية... بالنسبة لها، كنت ناجحةً لأنّ دراستي كانت

جيدة وكنت أنجح في الامتحانات. والآن حين ترى كيف أعيش، و ما لدي من الهموم فإنها تقول لي: «لكن مع ذلك، في النهاية..».. هذا كل شيء. في كلامها ما لم يُقَل، إذ أنها تشعر بأن هناك شيءٌ فاسد حتّى في مملكة وزارة التربية الوطنية. و لكنها لا تحلله كما أنني لا أتحدث عنه كثيراً معها لأنها تلوم نفسها. شعورها ذاك ملتبس لكنني أشعر به. وحين ذهبت إلى منزل أهلي في عيد جميع القديسين كان معي عملٌ للمدرسة فقالت لي: «أنت لا ترتاحين أبداً» وهي لا ترى إلاّ هذا الجانب. أو أنها تقول لي حين تجدني مُحبطة: «في نهاية الأمر، فإن أختكِ أكثر سعادةً منك.»

❖ إذن، فهي تظن أن ليس هذا ما كانت تنتظره.

فاني: نعم. إنها تظنّ... أنا لا أدري حتى ما إذا كان يمكن أن نقول بأنها تظنّ، لكن... أترين، الموضوع غائم... ولا يعبر عنه صراحةً. لو تحدّثنا عن أمور شخصية، فإنني قد تزوجت، ثم طلقت عام 1985، وكان زوجي يلومني على الدوام لأنني مشغولة بعملي أكثر من اللزوم. وكم أسمع عن زملاء لديهم مشاكل مماثلة مع شريك الحياة. خذي هذا المثال، فزميلتي التي تحدثت معها البارحة في الهاتف مريضة، وهي معلمة في روضة أطفال. لقد أوقفها الطبيب عن العمل حتى الخامس عشر من الشهر. كان يريد توقيفها حتى الثاني والعشرين منه وقالت له بأنها قد راجعت طبيباً نفسياً من «الصحة المدرسية» أخبرها بأن مشكلتها هي الرفض. الرفض التام. لقد قالت لي: «لم أعد أحتمل الضجيج». وهكذا أصيبت بانهيار..

[...]

❖ أي أن الشريك غالباً ما يجد أن الأستاذ يعمل أكثر من اللازم؟ أنه مشغول جداً...

فاني: نعم، نعم... مشغول أكثر مما ينبغي. هذا يحصل في كل مكان؛ منذ بضعة أيام، قال لي أحد أصدقائي هاتفياً، وهو مفتّش في الضرائب- ولديه دوماً وقتٌ حرٌّ - بأنه يريد الذهاب إلى بولونيا في عطلة عيد الميلاد، لأنه يريد الالتقاء ببولونيين. حينذاك سألته مونيك بالهاتف: «وماذا تفعل

زوجتك؟» فأجاب: «أنت تسألين! لقد سئمتُ من أوراقها». حسناً، هذا مزاح، حسناً..

❖ لكنه مزاح ذو مغزى! وماذا كان زوجكِ يعمل؟

فاني: زوجي كان يعمل في مصلحة البريد والبرق والهاتف PTT و لا زال يعمل هناك وهو مرتاح، (...) إنه يعمل محصّلاً. (...) حين كان يذهب ليحلّ محلّ زميلٍ غائب في منطقة بعيدة نوعاً ما، كان عليه الاستيقاظ باكراً جداً لأنه يجب أن يكون موجوداً حين تصل شاحنة البريد. لكن بالنسبة للمعلم، وهذا ما يقتلني ويمنعني من أن أكون مُبتكِرة، فإن عمله لا ينتهي أبداً – وهذه هي دائماً مشكلة التعليم. فحين نعود إلى المنزل، هناك تحضير الدروس، وفي هذا العام، سيكون الوضع أشد وطأةً لأنّ ساعات اللغة الفرنسية قد قُلّصت وبات على الأستاذ أن يدرّس أربعة صفوف ليغطي نصابه البالغ ثماني عشرة ساعة. أربعة صفوف لغة فرنسية في إعدادية، اثنان منها بثلاثين طالباً، هذا يعني عدداً ضخماً من الأوراق، وفي الإعدادية، ينبغي تدقيق كلّ شيء؛ أنا أقوم باستخراج شرح النصوص وإلاّ فإنّ الطلاّب لا يقومون بهذا العمل ولدي باستمرار أوراق.. لذلك، فبعد يومٍ من العمل..

لدي أوراق كل يوم. كل يوم. في البداية، كنت أستخرج بعض شروح النصوص. ثم لاحظت بأن بعض الطلاب لا يقومون بشرح النصوص بعد أن يتم امتحانهم أول مرة، في الوقت الذي أركّز فيه كل تعليمي على النصوص، على المكتوب، على التفكير في النصّ، على النقل بعد التواصل، وكانوا لا يقومون بذلك... لقد فهموا الآن والأمور على ما يرام، لكنهم في البداية لم يكونوا يقومون بذلك، ولذلك كنت أستخرج كلّ شيء. لن يقول لك الزملاء الآخرون نفس الشيء، ففي الموسيقى مثلاً، ليس لدى الزميل الذي حدّثتك عنه نفس حجم العمل الذي لديّ. وضعي خاصٌ فعلاً فأنا أعمل يومياً هكذا. وأشعر دائماً بأن عملي.. يستنزفني. إنه يستنزفني بالفعل.

❖ هل كان ذلك ما عابه عليك زوجك حقاً؟ هل كان يعيب عليك انشغالك؟

فاني: نعم، الأمر كذلك. وحين أنظر إلى الوراء اليوم فإنني أعترف بأنني قد استثمرت نفسي في العمل بشكلٍ أساء لي ولأولادي. لقد أهملت ابنتيّ في وقتٍ كانتا فيه بحاجةٍ لي، حقاً..

❖ لديكِ ابنتان؟

فاني: لدي ابنتان توأمان. وهما تقولان لي ذلك، تقولانه! في الوقت الذي كانتا فيه بحاجةٍ لي، كنت أنا.. إنها مسيرةٌ شخصيّة. لقد استثمرت نفسي بشكلٍ كبير في العمل لفترةٍ طويلة وكنت أجد متعةً كبيرة فيه، ولا أستطيع القول بأنه لم يمنحني الكثير من الرضى، هذا صحيح. صحيحٌ أنني كنت أقدم الكثير لعملي وكنت أجد متعةً كبيرة بوجودي مع الأطفال، لكن إلى جانب ذلك، قدمت الكثير لدرجة أنني حين كنت أعود إلى المنزل، يكون صبري قد نفذ. الآن ابنتاي تقولان لي ذلك، وحين كنت وسط..

❖ ما هو عمرهما الآن؟

فاني: إنهما في العشرين... ابنتاي عمرهما ثلاثة وعشرون عاماً، ثلاثة وعشرون.

❖ لم تعودا صغيرتين..

فاني: لا، لكنني أقول دوماً «صغيرتيّ» لأننا الآن نعود لنعيش أموراً لم نعشها كما ينبغي في ذلك الحين. صحيحٌ أننا قد التقينا من جديد الآن، وهما الآن، في الثالثة والعشرين من عمرهما، تسترجعان أجزاء من طفولتهما. نحن نحاول القيام بالتحليل النفسي على طريقتنا. ماذا كنا نقول؟ لم أعد أتذكر..

أنا لا أعرف زوجين يعملان في التعليم لم يتعرضا لمثل هذا النوع من المشاكل، حتى لو لم يكن الاثنان معلّمين بالضرورة، لكن واحداً منهما معلّم. البعض يتمكّن من السيطرة على هذه المشاكل لكنها تلعب دوراً ما، ويوجد دوماً إحساسٌ بأن الشخص يعطي، يعطي من ذاته، من حياته بالذات دون مقابل. ويتلازم ذلك، كما في حالة الممرضات، مع الشعور بأننا لا شيء في نظر الآخرين، ومن هم الآخرون... الأولاد يقولون لي هذا، يقولون لي:

«العمل الذي تقومين به يا آنسة رائع لكننا لا نرغب به»، وهم يتساءلون لماذا؛ السبب هـو أننـا نقـدّم لـهم فـي الكتـب نمـاذج مـن نمـط الذئـاب الصغـيرة الناجحة، الخ...، بزة، ربطة عنق، المال، المال، المال..

اقرأ نتفاً من بعض الكتب

فاني: أعتقـد بـأن المطالبـة بحيـاةٍ أفضـل وكذلـك الرغبـة بـاعتراف الآخرين بك موجودة فـي كل مكـان وفـي كُل المـهن، فقـد رأيـت المسـاعِدات الاجتماعيات يطالبن بالشيء نفسه، رأيت لديهن الرغبة في أن تكون لـهن قيمة، لا أن يُعتَبرنَ من فئة الموظفين الصغار الذين يقومون بشيءٍ ليس له أهمية. فـي أحـد الأيـام وفـي فترة ثورة الثانويـات، كنـت قـد انضممـتُ إلـى العصيان وكنت أستمع لإذاعة فرانس أنتير France Inter فـي سيارتي- لـولا ذلك لما كان لـدي وقـت – أنـا أستمع للراديو، وهـذا تثقيف. ليس لـدي وقت للقراءة أثناء العام الدراسي (...)، أنا أقرأ نتفاً من الكتب، نتفاً...!

❖ وأنت أستاذة أدب!

فاني: نعم ، وأنا حين أقرأ، ينبغي أن انغمس في قراءتي؛ إلاّ أنّ ذهني مشغولٌ دوماً، هذا ما كنت أقوله لك، لـدي انطباعٌ بـأنني لم أنتـه مـن عملـي، ذهنـي مشـغولٌ دومـاً بشـيءٍ مـا، ولا أسـتطيع ان أسـتمتع بـاي كتـاب إلا فـي العطلة. لكني خلال العام الدراسي لا أستمتع بالقراءة لأنني فجاةً أتذكّر بـأن عليّ إنجاز شيءٍ ما. أعترف بـأن السـن أيضـا يلعب دوراً، فقـد بلغـت الثامنـة والأربعين من عمـري، وكذلـك التعب.. فأنـا أشعر بـأنني لست كمـا كنت فـي السابق، كان لديّ دائماً في السـابق أفكـار تجعـل الـدرس أكثر إمتـاعـاً؛ وحـين كنت أشعر ببعض التعب، كنت أقول لنفسي إنني سأتجاوزه؛ أما اليوم، فحـين اداوم يوماً كاملاً ويأتي الأهالي لرؤيتي.. لـديّ أهـالي كلّ يـوم تقريبـاً يـأتون ليروني..

❖ هل يأتون بموعد أم دون موعد؟

فاني: موعد، لا، وهم لا يأتون كل يوم، بل فـي معظـم الأيـام. ستعتقد

لدينا في هذه الفترة مجالس الصفوف ويسود الآن شيء من الاضطراب بالنسبة للأمور التي لم ينتهِ حسابها؛ البعض يضطربون بدافع النزاهة، والبعض الآخر بدافع التمكن من...

❖ .. نعم، التآمر

فاني: تماماً. صحيحٌ أن الأمر طبيعي، لكن حين نحسب الساعات التي نمضيها بالقيام بأعمالٍ لا يُحتسب أجرها، لقد ملّ الناس من هذه الأشياء، ولدي إحساس.. أشعر بأنني امدح نفسي؛ إنني اقول بصدق بأنني لا أريد أن أكون مجرد موظفة، لذلك فإنني لا أحبّ أن أعدّ ساعات عملي؛ لكن بعض زملائي يقولون لي: «إنك تُرهقين نفسك كثيراً وبسبب أشخاصٍ مثلك فإننا نبدو...»، وبما أنه لازال يوجد الكثير ممن يقولون: «إنك تعطين الانطباع بأن الآلة تدور...» فإنه ينبغي التوقف عن العمل خارج أوقات الدروس لنظهر للناس بأن الأمور لم تعد تسير كما ينبغي لها. لا أستطيع، وإلاّ... ليس لديّ طرقٌ اخرى خارج هذا الإطار. صحيحٌ أننا نمضي في عملنا الكثير من الوقت، والناس يجهلون ذلك.

❖ بكم تقدّرين ساعات عملكِ أسبوعياً؟ الا يمكنك تقديرها؟

فاني: هذا العام، لم أقم حتى الآن سوى بالتوجيه يوم الثلاثاء، لم أقم بشيء خارج أوقات التدريس... حتى الآن، لأن الأمر سوف يبدأ، وأنا ضمن مشروعين للمؤسسة – واحد حول الصحافة والآخر حول الميراث – هذا يعني ساعات عملٍ إضافية وأفلاماً وعمليات مونتاج واموراً كهذه، وأنا لا أعمل هذا العام... أنا أعمل حوالى عشر ساعاتٍ في اليوم.

{هنا تذكر فاني المقارنة الشائعة في وسائل الإعلام والتي تذكر بشكلٍ سلبي ضمنياً المقارنة بين الأساتذة والـ «موظفين»، وتذكر مثالاً على ذلك برنامجاً للممثل فيليب ليوتار في إذاعة فرانس انتير يتحدّث فيه باحتقار عن المطالبات المتعلّقة بأجور الأساتذة، ويرسم صورةً غير لطيفة لما أسماه «عقلية الموظف» التي يحملونها.}

❖ أود أن أعود معك قليلاً إلى ما كنت تقولينه في البداية، فقد قلت: «يتشكل لدى المرء انطباعٌ بأنه قد كافح كثيراً وخُدِع»؛ وأنت تقولين في واقع الأمر بأنك قد كافحت، وأن كفاحك قد امتدّ ليصل إلى المستوى الشخصيّ، حيث دفعتِ الثمن غالياً لأنك قد طُلِّقتِ في نهاية الأمر ولديكِ انطباعٌ بأنّ ظروف عملكِ كانت أحد أسباب طلاقك..

فاني: أحد الأسباب، نعم؛ لكنها كانت جزءاً من المآخذ..

❖ أنت تقولين: «لقد كافحنا كثيراً...»؛ ماذا يعني «كافحنا كثيراً»؟ هل يعني أنكِ قد استنزفتِ نفسكِ كثيراً في العمل، وأنك قد ناضلتِ...

فاني: بالنسبة لي، نعم، لقد ناضلتُ في بداية حياتي المهنية، ناضلتُ وحرّرت التقرير تلو التقرير حين كنتُ في ثانوية سان جرمان أن ليه St-Germain-en-Laye المدعوة بثانوية كلود ديبوسي Claude Debussy والتي كانت في ذلك الوقت تُعتَبَر ثانويةً نموذجية، وكنت ضمن مجموعة عملٍ تبحث في الفشل المدرسي وكنّا، منذ ذلك الحين نقوم بالتجارب، ونعمل... لقد قمت إذن بكتابة تقارير حول هذا الأمر. يتكوّن لدينا انطباع بأن كلّ ما يمكن أن نكون قد قلناه في المقام الأول يأخذ وقتاً طويلاً ليتحقق لدرجة أن الأمور تكون قد تبدّلت حتى ذلك الحين، فالمادّة الدراسية مادّةٌ حيّة، وهي تعيش وتتبدّل؛ حينذاك، يبدو حصول الإصلاح الذي تمنّيناه قبل عشر سنوات متأخراً جداً! في العام الماضي، كان هناك مشاورةٌ على الصعيد الوطني (..) وقد احتفظتُ بشريط تسجيلٍ صغير؛ لقد ضحكنا في الشريط، وقمنا بتسجيل شريط فيديو، وتحدّثت مارييت عن تلك «النماذج» الشهيرة، عن تعليمٍ نموذجيّ (..)؛ كان يتم الحديث عن هذا الأمر منذ بعض الوقت وأنا أسمع الآن بأنه أصبح على الموضة. (..) المؤسسة التعليمية آلة ثقيلةٌ جداً، هي من الثقل بحيث يصعب كثيراً تحريكها.. لدرجة أنه يبدو لنا بأن كلّ شيءٍ يصل متأخراً.

❖ نعم، لقد قمتِ بالكثير من الأشياء والمردود بطيءٌ لدرجة أنّ..

نعم..

فاني: نعم، وأنا لا أريد اتّهام وزارة التربية الوطنية فأنا لا أعلم جيداً كيف تسير كل الأمور، كما أن لديّ انطباعٌ بأنه يوجد داخل هذه الآلة الضخمة تبديدٌ ضخمٌ فعلاً، هناك حقاً تبديدٌ للمال وللطاقة؛ (..) وأرى أيضاً خطرَ كلّ ما يمكن أن أقوله، فقبل قليل كنا نتحدث عن التنمية الإقليمية المتوازية، لأنه صحيحٌ بأنه إذا كانت الآلة ثقيلةً على المستوى الوطني، فإنّه يمكنني أن أرى من هنا كل ما قد يظهر. (..) وحين نتحدّث عن المطالبات، وعن الإمكانيات، وعن أمورٍ كهذه فإنه كثيراً ما تحصل في الإعداديات أمورٌ ليست سوى مال مهدور. مهدور! أنا مثلاً أهتم بالفيديو، وقد مللت من مهمتي لأن لديّ مشاكل في الرؤية ولديّ أيضاً حياتي. أنا أطالب بأن يكون لي الحق في التوقف عن القيام بأمورٍ قمتُ بها في السابق حين كانت لدي الإمكانية؛ لكن لا، أنت تلاحَق لأنه ينبغي عليك أن تستمر. كنت أقوم بالعمل بالفيديو مع مجموعة. منذ فترة.. قمنا بعمل فيلم، فيلمنا الأول...

{هنا تذكر فاني نشاطاتها في العام السابق ضمن ورشة الفيديو التي تديرها}

❖ كيف هم الطلاب؟ كيف يمكن لك أن تعرّفيهم؟

فاني: هناك بصورةٍ عامة في إعداديتنا نوعان من الطلاب، فهي إعداديةٌ تقع ضمن ضاحية، وليست في الريف. إنها على حافة البحيرات، لذلك يمكنكِ أن تتخيلي أنها صغيرة... أنا لا أشتكي، وليس لدينا مشاكل كبيرة كما في الضواحي الشمالية، ليس الأمر كذلك على الإطلاق؛ لكن لدينا نوعان من الطلاب، طلاب من وسطٍ مرتاح مادياً، فهنا توجد مؤسستان كبيرتان، لذلك فإن لدينا الكثير من أبناء المهندسين، وهؤلاء الطلاب يتدبرون أمورهم. ثم هناك وسطٌ ريفي، موظفون صغار أو عمال بسيطون ذوو مستوى منخفض نوعاً ما. الأولاد من هذا الوسط ليس لديهم طموحاتٌ كبيرة؛ لدينا إذن بصورةٍ عامّة هذان النمطان من الطلاب.. (..) وبالتالي، وكما في كلّ مكان، لدينا طلابٌ من أصحاب المراس الصعب، يفشلون، و..

❖ كيف يتجلّى ذلك داخل الصف؟ أقصد قضية أن يكون الطالب صعباً.

فاني: هذا العام مثلاً لديّ طلاّب في الصف السابع لا يتجاوز عددهم الأربعة والعشرين، والمجموع ليس.. المستوى ليس مرتفعاً جداً وبينهم ثلاثة أولاد يمثّلون مشكلةً ضخمةً في السلوك، وعلى كلٍّ، ففي الأسبوع الفائت كان هناك اثنان، لا بل ثلاثة، (..) ضُبِطوا وهم يسرقون، أحدهم أتى من خارج المنطقة وقد حوِّل من ثلاث إعداديات وهو يعاني بشدة من عدم الاستقرار، وآخر لا يقوم بشيءٍ على الإطلاق.

(...) إذن، فقد أعادهم رجال الشرطة إلى منازلهم على إثر ذلك لأن (...) تلك ليست المرّة الأولى التي يسرق فيها هؤلاء الأولاد، وهم دوماً معاً، يشكّلون تكتّلاً. لذلك فهم يلعبون دور النجوم في صف يعاني أصلاً من المشاكل؛ كما أنهم أكبر سناً من الآخرين ، وهؤلاء الأولاد..

❖ أكبر سناً؟

فاني: أكبر سناً، لا، فعمرهم حوالى أربعة عشر عاماً، ثلاثة عشر عاماً ونصف، أربعة عشر في الصف السابع؛ أترين، البعض أكملوا الرابعة عشرة وقد تبنّت أجسامهم، وهم، لا أستطيع أن أحدد (..) ليس لديهم أي مرجع، لا يخشون شيئاً ، أي شيء. العقوبات المدرسية كالإنذار والطرد، حتى الطرد من الإعدادية يبهجهم، يجعلهم سعداء؛ أنا أتجنّب ذلك، والأهل أنفسهم أُسقط في يدهم. سوف يطرَد هؤلاء الأولاد لمدّة ثلاثة أيام؛ والنتيجة ستكون تشردهم في الشارع، وهذا ليس.. هم إذن يعلمون جيداً بأننا لن نفعل شيئاً إزاء ما فعلوه، لذلك فإنهم يستثيرون الآخرين، يستثيرونهم إلى الحدّ الأقصى، وهذا أيضاً عبارةٌ عن نداء، فهم أيضاً بحاجةٍ للاهتمام ولكنهم يريدونه بشكلٍ دائم، وهذا على المدى البعيد قاتلٌ حقاً!

في أحد الأيام، حضر أحد الأساتذة إلى مجلس الصف وكان مريضاً. حضر ومعه تقريرٌ مرضيّ وقال: «أنا لا أستطيع البقاء في المجلس»؛ لقد استخدم التقرير الطبي كعذرٍ وهذا آلمني كثيراً لأنه كان لدى الطلاب

والأهالي المدوبين ما يلومونه عليه؛ فتصور الآخرون بأنها طريقةٌ للهروب؛ لقد حضر ومعه تقريرٌ طبيٌ وقال: «إنه صفٌ مريع، ونحن نُنهك في العمل من أجل الطلاب، نحن نُنهك مجاناً، فهم سيئون جداً ولا يمكن احتمالهم، وأنا لم أعد أستطيع المتابعة! لم أعد أستطيع!»، هذا ما قاله، ثم ذهب. قالت إحدى الأمهات: «أتمنى لك صحةً افضل، يا أستاذ» وانتهى الأمر هنا. إنه لا يستطيع تدبّر أمره مع هؤلاء الأولاد، لا يستطيع، فهو يريد أن يكون الأستاذ الذي ينقل المعرفة وحسب، إنه الأستاذ وهذا دوره، و... والأمور لا تسير على ما يرام... هذا هو الوضع. وهو شخصٌ رفيع الثقافة. أعتقد بأن أستاذ التاريخ هو الذي قال ذلك لي بالهاتف، لأنهم قد تحدثوا عن الموضوع في اجتماع أولياء الأمور، وهو شخصٌ موهوبٌ إذا كان لديه طلاّبٌ جيّدون. لكن الموضوع أنه ليس كلّ الأساتذة جيّدين!

❖ إذن ينبغي أن يكون عند كلّ الأساتذة صفوفٌ ليس فيها إلاّ الطلاّب الجيدون {ضحك}.

فاني: (...) في بعض الأحيان، أُضطرّ للعب دور الشرطيّ؛ منذ يومين، كان لدى الطالب الشهير A.، المطرود من ثلاث مدارس، وأقول ذلك لأعطيكم فكرةً عنه، كان لديه رغبةٌ في أن يتحرّك. لقد تظاهر بأنه مهمّ، والواقع أنّه كان يبحث عن التواصل. لكن من الصعب أن تكون في نفس الوقت أستاذاً ومربّياً. (...) حين يكون لديك فتى مثل هذا في صفٍّ يحتوي على طلاّبٍ لديهم مشاكل دراسية، وتثير انتباههم ذبابةٌ تطير، طالبٌ يجلب الأنظار إليه كلّ الوقت، ويستثير الآخرين، الخ... يكفي أن يكون لديك طالبان بهذا الشكل حتى يتراجع الصف؛ بعد ظهر البارحة مثلاً، هربوا من الدروس (...) وذهبوا للقيام بحماقات، إنهم أولادٌ في خطر. مثل هذا الأمر يزعجني كثيراً. احياناً أشعر بأنّه لا حول لي ولا قوة أمام مثل هؤلاء الأولاد ولا يبقى لي سوى أن أتكلّم وأتكلّم...

❖ هل كانت الحال على هذا الشكل في الثانويات التي كنتِ فيها قبل ذلك؟

فاني: لا، لا، لا. حين كنت لا أزال مدرّسةً شابّة، لم أضطر أبداً لحلّ مثل هذه المشاكل، أبداً، أبداً، كنتُ مدرّسةً قبل عام 1968، كنتُ على نمط أساتذتي. لم تكن لديّ علاقاتٌ كهذه مع الأولاد. لكن التغير الذي طرأ على مهنتنا يكمن هنا، هنا بالذات. بالنسبة لي، إنه هنا وأعتقد بأن الكثير من الأساتذة يرفضون تماماً هذا الدور.

لقد انهارت

◆ الجمهور لم يعد نفسه أبداً..

فاني: تماماً. لم يعد الجمهور نفسه والناس يقولون: «ليس علينا أن نقوم بهذا الدور...» في العام الماضي، كان لدينا مناقشة بصدد ذلك الصف الصعب، كان الحديث حينذاك نفاقاً أيضاً، فقد طلبوا أن يتطوّع أحد الأساتذة للعمل مع هؤلاء الطلاّب الذين كانوا كلّهم فاشلين وغير مستقرّين، وغير اجتماعيين في كثير من الأحيان، على عتبة الجنوح، وفي نهاية الصف السابع لم يعد أحدٌ من الأساتذة يريدهم. ولم أكن أعرف أحداً من الأولاد، فتطوّعت، وقد درّست هذا الصف للعام الثاني، في الصف الثامن، نفس الأولاد الذين لم يعد الأساتذة يريدونهم. بعض الأساتذة لا يقولون الأمر بوضوح: «كلاّ، لا تضعوا هذا الطالب في صفي.. كلاّ، لقد سئمتُ، يكفيني أنني تحمّلته عاماً كاملاً، هذا يكفي».

قبل بضعة أيام، ثارت أعصابي أمام أحد الأهالي، بصدد أولئك الثلاثة الذين حدّثتك عنهم، «ماذا نفعل به؟»، قلتُ لأحد الأهالي، فقال لي: «اطرديه!»، والد أحد الطلاب الآخرين قال: «إذا شئت، يمكننا أن نحضر إلى الصف لنقوم بحفظ الأمن»، فقلتُ: «كلاّ، هل تريد أن نضع هؤلاء الأولاد في المحرقة؟ ماذا نفعل بهم؟ لو كنت أباً لأحد هؤلاء الأولاد، ربما أردتَ مساعدة؟» ومع ذلك، فقد عادوا. أما أنا، فقد ثارت أعصابي، مما زاد الطين بلّةً، لكن.. لكنني من جهة أخرى أشعر هنا بأنني مجرّدة من أسلحتي تجاه مؤسسة التربية الوطنية والمؤسسة المدرسية والمدير، فأمام مثل هؤلاء الطلاّب، لا نعرف كيف يجب أن نتصرّف. فمن جهة أخرى، أنت منتقد لأنك

تعتني بهؤلاء الأولاد، فتقول: «هؤلاء ديماغوجيون»، وأنا لم أعد أحتمل هذا الوضع. فهنا أقول: «غير مُعترفٍ بنا..»

نريد أن نعتني بهم، لكن بشكلٍ إنساني. فنحن نساعد أناساً في إفريقيا، الخ...، وأنا أنتمي إلى نادي أونيسكو UNESCO، إن الأمر بسيط من الناحية المادية ومن السهل تقديم المال أو الكتب، وحين يكون أمامنا بحقٍ فردٌ ما أو مسؤولية تجاه طفل، فإن ثلاثة أرباع الناس يتملّصون، لذلك يحصل لديك... ثم قرفٌ من كلّ شيء. إنها المشكلة الكبرى: ماذا نفعل أمام مثل هؤلاء الأولاد؟ المؤسسات لا تعيننا ولا أعرف إن كان هذا الأمر سيتغير؛ ولدينا عددٌ متزايد من مثل هؤلاء الأولاد، فكلّ الطلاّب يرفّعون إلى الصف السادس، وبما أن الحياة هي على ما هي عليه، عائلاتٌ مشتتة، فهناك العديد جداً من الأولاد من ذوي المشاكل؛ قلتُ هذا لأفسّر الصفوف الصعبة. (...)

❖ هل يحصل أن تمرضي؟ قبل قليل، كنت تتحدّثين عن مدرّسةٍ مريضة؛ هل هناك في المدرسة أناسٌ مُحبَطون، مرضى؟

فاني: نعم، بالطبع، ومنذ فترةٍ طويلة، كانت الأستاذة .G مدرّسة ابنتي وقد انهارت كما يُقال لأنها كانت ضعيفة، هذا التعبير سهل. حسن، بالنسبة للزميلة، فهي مخطئة بالنسبة لهذا الصف الذي يحتوي على الأولاد الثلاثة المذكورين، أتمنى ألاّ تُذكر أسماء، لكنها ترتكب أخطاء كبيرة تجاه هؤلاء الأولاد. الأولاد يحكون لي بأنها تشتمهم، ولن أذهب لألقنها دروساً. هنا أيضاً، حين يكون المرء مدرّساً، فإنه لن يفتري على زميله أو يلقنه دروساً، ولكنها هي... كيف أقول؟ ربما تحلّ مشاكلها الخاصة معهم، لكنها تواجه صعوبةً كبيرة لأنهم صعبو المراس، فتنهار وتشتمهم، وفي اجتماع أولياء الأمور، أو في مجلس الصف ذُكرت هذه المشاكل المتعلّقة بالنظام فقالت: «لم أعد أستطيع، لم أعد أتحمّل! وإذا استمرت الأمور على هذا النحو، فإنني سأتوقف عن العمل ثلاثة أشهر!» هذا أيضاً هروب، وهناك غيرها أيضاً...

❖ هل هناك الكثير غيرها؟

فاني: لا أستطيع أن أعرف دائماً إن كان الطلاّب هم السبب في كلّ الحالات، لا أعرف..

◆ ربما كان بسبب الانزعاج..

فاني: هذا أكيد، فحين تبكي زميلةٌ لنا في أحد الاجتماعات.. هؤلاء الأولاد حين.. حين يشعرون بالاحتقار عند أحد الأساتذة.. أو حتى الكراهية، فهناك حقاً أساتذةٌ لا يحبون الأطفال -إنهم يحبون المدرسة لأنهم لم يخرجوا منها أبداً - لكنهم لا يحبون الأطفال، وهم ينزعجون منهم، حين يشعر الأولاد بذلك، يمكنهم أن يكونوا شرّيرين! الفتى المنضبط والمقولب جيداً تسير دراسته جيداً، وفي الواقع فإنّ مثل هذا الطالب لا يحتاج أصلاً إلى مدرّس، هذا صحيح.. لكن حين يشعر الطالب الصعب المراس بعدم حبّ الأستاذ، فإنه يمكن أن يكون شرّيراً (..) أنا لا أوقع كلّ اللوم على الأساتذة، لكن هنالك شيءٌ من ذلك. في العام الماضي هددوا تلك المدرّسة، لم أعد أذكر ما قالوه لها، لم أعد أذكر.. قالوا لها بأنهم سوف يفجّرون لها سيارتها..

◆ وهل حدث مثل هذا الأمر أم أنها كانت مجرّد تهديدات؟

فاني: مجرّد تهديدات، وفي أحد الأيام، في اجتماع، كنا نذكر تلك المشاكل في اجتماعٍ عام حضره أساتذة المدرسة كلهم، وانخرطت في البكاء بصورةٍ عصبية.. نعم، لم يعد البعض يحتملون وأنا أتفهم ذلك ، ولهذا فإن هذا الأمر، ينبغي أن يكون المرء.. أعتقد بأنه حين يكون لدى المرء طلاّبٌ كهؤلاء، فإنه ينبغي أن يكون قوياً، قوياً من الناحية العصبية. أو أن يحبّهم.

«أنا كنت في مكانٍ آخر»

فاني: بالنسبة لزوجي- صحيح، لقد تحدّثنا عنه مسبقاً، صحيحٌ أن تلك مشكلةٌ أبدية- أظنّ أنه كانت لديه عقدة تجاهي لأنني درستُ أكثر منه... لكلّ هذه الأسباب؛ الآن، أنا أعرف ذلك. لكن في ذلك الحين، عندما يكون المرء لازال شاباً، فإنه يقول لنفسه بأن هذا غير مهم، هذا صحيح.

◆ ألم يكن لذلك أهمية بعد ثلاثة أو أربعة أعوام من الزواج؟

فاني: بالنسبة لي لم يكن له أهمية، لكن بالنسبة له، بلى. لقد قال لي فيما بعد بأنه كان يشعر بأنه زوج السيدة. فمثلاً، كان أصدقاؤنا أصدقائي أنا، أصدقاؤنا كانوا أصدقائي. في كلّ مرة كنا نخالط فيها أحداً.. إذا شئت أن أتحدث معك كما يتحدّث المرء مع الطّبيب النفسي، فقد كنتُ مخطئةً جداً وأعرف ذلك الآن. لكن حين يعيش المرء المرحلة، مثلاً في مرحلة آفينيون Avignon كنتُ جديدةً مثله..

◆ ما هي مرحلة آفينيون؟

فاني: بعد بقائنا عشر سنوات في مارلي لوروا Marli-le-Roi في المنطقة الباريسية، أردنا العودة إلى الجنوب. وقد تم تعييننا، هو في مدينة نيم Nîmes..

[...]

◆ ذهبنا إلى منطقة آفينيون – ماذا كنت أريد أن أقول..؟

مرحلة آفينيون...

فاني: نعم، كنا جديديْن هناك وفي الواقع أننا تعرّفنا على معلّمة تسكن في العمارة التي كنا نسكنها وتعمل في المدرسة التي أعمل فيها، وأصبحنا صديقتين، زوجها كان صيدلانياً، حسناً، في ذلك الوقت كان لا يزال في الجيش والآن لديه صيدليةٌ في بير ليتان Berre-L'étang وتعرّف زوجي على أشخاص في نيم، أشخاص يعملون في البريد والبرق والهاتف PTT، لكنني أنا وجدتُ صعوبةً في تحملهم. أتذكّر شجاراً مريعاً – أنا أخجل منه اليوم – هذا صحيح، أقول لنفسي..

◆ لكن لماذا؟ لأن..

فاني: لماذا؟ أولاً لأنهم كانوا أناساً، كيف أقول لك؟ أولاً كانوا أشخاصاً من نيم يحبّون مصارعة الثيران..

◆ حسناً، لكن هذا..

فاني: بلى، بلى، لأن.. حسناً، أنا لم أكن احتمل. لم أحتمل. وقد قمت بصخبٍ غير معقول. (..) أعلم بأنني لم اكن أحتملهم. بالمقابل، وقبل الطلاق، عرّفني زوجي على أشخاص يعملون في الـ PTT ووجدتهم رائعين، وأنا لازلتُ أراهم حتى الآن، لذلك أقول لنفسي.. على كلّ حال، فإنني لا أضع كلّ اللوم على نفسي، ليست كلمة PTT هي التي كانت تخيفني، لكن.. أعرف أنني قد لُمتُه على ذلك في الكثير من الأحيان. لا، لقد تسبب ذلك في الكثير، الكثير من المشاكل. لم تأتِ هذه المشاكل من هنا، لكنها، حسناً، كانت تتبلور حول كلّ ذلك، والحقيقة أنه كان لدى زوجي عُقدٌ لامعقولة.. أنا لم أتعامل معه بالكثير من الحنان، وأنا صريحةٌ نوعاً ما، لذلك فقد كنت أحياناً أتلفظ ببعض العبارات التي لم تكن لطيفةً جداً.

❖ ماذا كان يعمل أبواه؟

أنا التي خنقته

فاني: إنهم أناسٌ بسيطون تماماً، عمّال، فأبوه كان صانع قدورٍ نحاسية، ولكي أقول لك ماذا كان يعمل بالضبط، فقد كان يشتغل في ورشة ميكانيك صغيرة.. أعرف أنه كان يذهب إلى عمله الذي يبعد عشرة كيلومترات بالدراجة نصف الآلية؛ أما والدته، فقد عملت فترةً طويلة في صناعة النسيج فنحن من منطقة نسيج، لكن لم يكن لديها أي نوع من التأهيل؛ أنا أعلم بأنها كانت - لا أريد أن أقول بأنها كانت أمّية- حسناً، لقد كانت تعرف الكتابة لكن.. بالكثير جداً من الأخطاء؛ لقد كتب كلاهما لي وكانا يرتكبان من الأخطاء أكثر مما كانت أمي تفعل.

لا، إنهما حقاً عاملان، وشقيق زوجي عاملٌ أيضاً، عامل متخصص، وهو يعمل في ورشة للميكانيك. أما شقيقته، فقد توقفت عن العمل لأنهم كما قيل قد سرّحوا العديد من العمال في صناعة النسيج لذلك فهي الآن في المنزل؛ إنها وزوجها إذن عاملان أيضاً، ولديهما ثلاثة أولاد، وأولادهما ينجحون في المدرسة. ابنهم البكر- تحدّثت البارحة مع حماتي بشأنه- في البكالوريا وهو يريد أن يصبح مهندساً، وهو ينجح. أترين، إنه ليس، لا أدري

ما إذا كان الوسط مناسباً. أنا أعتقد بأن لديهم وفاقٌ عائلي، لذلك فالأولاد ينجحون بشكلٍ أفضل. فعندهم، يمكنك أن تقولي بأن وسطهم هو تماماً... شقيق زوجي مثلاً لا يكتب لي أبداً لأنه لا يعرف الكتابة. إنه يرتكب أخطاء في كلّ كلمة.

[...] لم أطرح على نفسي أبداً مسألة المساواة بين الجنسين؛ بالنسبة لي، حين تعرّفت على زوجي تزوّجته دون أن أطرح على نفسي هذه الأسئلة، وفي الواقع... أظنّ بأنني أنا التي خنقته، هذا ما يُقال لي، لست أدري، لا أعرف إن كان هذا الأمر صحيحاً لكنني أعتقد بأنه صحيح. حسناً، هذا الأمر مرتبطٌ بطبعي. أنا لديّ الكثير من الكبرياء، وأحبّ أن أفرض نفسي في مكانٍ ما؛ نحن الآن نقوم حقاً بتحليلٍ نفسيٍّ رخيص، لكنّ هذا صحيح؛ إنه طبعي.

❖ لكن ما الذي كان يضايقه في مهنتك.. ماذا؟

فاني: أقول هنا..

❖ مع ذلك، فإن لدى المدرّس الكثير من الوقت، أليس كذلك؟

فاني: لا، لا، بصراحة، موضوع العطل جيدٌ جداً لكن في المنزل، ليس لدى الأستاذ الكثير من الوقت، على عكس ما يعتقده الناس. في العام الأول، حين كنت أدرّس في باريس، كنت أصل إلى المنزل في السابعة أو السابعة والنصف مساءً، وبعد ذلك مباشرةً كان عليّ أن أقوم بتصحيح الأوراق أو تحضير الدروس. إنني أعتقد بأن هذه المهنة تأخذ من الوقت الكثير؛ حينذاك، كان أصدقائي هم زملائي في العمل وكنا حين نلتقي نتحدّث عن عملنا كثيراً؛ هذا الأمر شديد الإزعاج للأزواج. هذا أمرٌ لا يُحتمل، أنا أدرك ذلك الآن. لكن في تلك الفترة، كنا نستمر. هذا يحصل؛ لديّ صديقان، الزوج طبيب، والزوجة معلّمة، وحين نتناول الطعام معاً فإننا مجبرون على عدم التكلّم في العمل. فمن الواضح أنه.. قد فاض به الكيل. لا أعرف ما إذا كان هذا الأمر.. حسناً، كان هذا يزعجه، يضايقه. أعتقد بأنني كنت أكثر من الكلام، وهذا أيضاً كان يضايق زوجي كثيراً. لكن ما الذي كان

يزعجه أكثر من أي شيءٍ آخر فيّ.. لقد قال لي عدة مرات: «لقد كنت زوج السيدة»، أعتقد أن السبب ليس فقط عملي، ليس عملي فحسب، صحيحٌ أنه لعب دوراً، لكن هذا الأمر نتج أيضاً عن طبعي أنا.

❖ نعم، لكنك قلتِ مع ذلك بأنه لم يكن لديك الكثير من الوقت.. لم يكن لديك الكثير من الوقت له في نهاية الأمر..

فاني: هذا صحيح، كما لم يكن لديّ وقتٌ كافٍ لابنتيّ؛ هذا صحيحٌ وقد أُضيف إلى ما كنتُه، وقد زاد الأمر سوءاً. أظن بأنني لو كنت ربّة منزل، لا أريد أن.. لكانت حياتنا مختلفة.

❖ لكنني أرى، ولا أعرف ما إذا كنتُ على حق، أن الأمر تمثّل في أنكِ كنت تسلكين طريق تحوّلك إلى امرأةٍ مثقّفة بينما كان هو يسلك طريقاً آخر، في الوقت الذي كان لديه مشاريع، مشاريع دراسية أصلاً..

فاني: نعم، أظن بأن الأمر كان كذلك على نحوٍ ما، وربما لهذا السبب أمقتُ الآن المثقفاتيين بهذا القدر. لقد توقّفتُ في منتصف الطريق. هذا صحيحٌ، فأنا أعتقد بأن فشل حياتي كامرأة يجعلني أرتاب كثيراً في كلّ ما هو.. لأنني في تلك الفترة التي أصبحت بعيدةً جداً كنت أحب الخروج والذهاب إلى المسرح. لم أعد الآن أشتري اسطوانة إلاّ نادراً، ثمّ إن الجهاز الذي لديّ صوته رديء، وليس لديّ المال الكافي لأشتري لنفسي جهازاً جيّداً. في تلك الفترة، كنتُ نَهِمةً لمعرفة كلّ شيء، وللقيام بهذا أو ذاك من النشاطات، ولم أعد كذلك إطلاقاً منذ طلاقي. لماذا؟ حاولي أن تعرفي لماذا. صحيح أنني كنت كذلك قبلاً، وقد كان يحبّ الخروج كثيراً، لكنه كان يقول لي: «لم أكن سوى زوج السيدة». لديّ انطباعٌ بأنني أنا من كان يدير الدفّة.

الفشل الكبير في حياتي

❖ وماذا عن الأولاد؟ لم يكن لديكِ الكثير من الوقت للأولاد، أليس كذلك؟

فاني: كلا، أعتقد بأنّ ابنتيّ قد عانتا الكثير من كل هذا، وبدايةً فقد عانتا من عدم تفاهمنا. صحيح، لم يكن لديّ الكثير من الوقت لهما.

[...]

❖ ماذا تفعل الابنتان الآن؟

فاني: لقد كبرتا، تماماً.. لورانس التي تسبب لي الهموم مربّية متخصصة وسوف تتقدّم لامتحان الدبلوم عمّا قريب. لا أعلم كيف هي حالياً لأنني لم أرها كثيراً منذ شباط الماضي، وهذا أيضاً ليس مصادفة. أظنّ بأنها عانت كثيراً خلال طفولتها.. نحن نتحدّث عن هذا الأمر، نتمكّن الآن من التحدّث عنه، لقد عانت كثيراً حين كانت صغيرة، فأخذت الآن تهتمّ بالأطفال الذين لديهم مشاكل. إنها تعمل في مركز وتهتمّ بحالات اجتماعية، تهتمّ بأولاد في الصف السابع. وفاليري تركت المدرسة يوم رحل والدها ولم تقبل العودة إليها أبداً، فهي أيضاً اعتبرت حينها بأن كل الأساتذة نكرات، وبأنهم أناس مساكين، أشخاصٌ يستحقّون الشفقة، بمن فيهم أنا. فالأساتذة برأيها ليسوا مؤهّلين لفهم أي شيء يتعلّق بالصغار؛ ثم إن الأمر كان لعدّة سنوات يشبه المحرقة، كما يقول الشباب، وحصلت مشاكل كبيرة جداً - أنا الآن أضحك إلا أنه ضحك عصبيّ نوعاً ما.

❖ كم كان عمرها حين تركت المدرسة؟

فاني: حسناً، لقد كانت في الصف الحادي عشر. كم كان عمرها إذن؟

❖ ستة عشر أو سبعة عشر عاماً؟ والآن...؟

فاني: نعم. والآن هي تعمل في مجال الزراعة لكن هذا يعجبها لأنها تعمل خارج الجدران؛ فاليري فتاةٌ هامشية جداً، والأخرى... ابنتاي توأمان؛ أعتقد بأنها تجد صعوبةً في تحملّ المتاعب وقد جرّبت تقريباً كلّ شيء، جرّبت العمل في المكاتب، وأجرت دورات تدريبية، والآن هي تعمل خارجاً على الرغم من... إنني أستغرب أصلاً مثابرتها في العمل رغم البرد أو الحر، وهي مستمرّةٌ في الاهتمام بالزهور. بعد عامين، عامين، لا، لقد ذهب زوجي عام 85، لقد رأيت معها نهاية النفق في العام الماضي. لكن هذا الأمر هو بحق الفشل الكبير، الفشل الأكبر في حياتي.

❖ لماذا، طالما أنها قد وقفت على قدميها ثانيةً؟

فاني: لا أدري، لأنني أظنّ بأنهما كانتا تعيستين. سوف أبكي إن قلتُ لكِ أشياء كهذه. هذا صحيح، فإنه يصعب عليّ التحدّث بهذا الموضوع.

❖ نعم، لكنّ كلا منهما قد شقّت الآن طريقها وأصبح عمرهما...كم أصبح عمرهما؟

فاني: إنّهما في الثالثة والعشرين، وأظنّ بأنهما قد... كيف أعبّر لكِ؟ لقد جرحتهما حياة والديهما جرحاً لا شفاء منه.

❖ هل عشتِ مع زوجك فترةً طويلة؟

فاني: نعم، عشرين عاماً. إلاّ أنني أعتقد بأن كلاً منا قد ارتكب الكثير من الحماقات، لأننا لم نكن ناضجَيْن بما يكفي للزواج. لأنني أنا كنت في مكانٍ آخر؛ لأننا لم نكن جاهزَيْن لأن يكون لدينا أولاد؛ ومهنة التدريس لا تقدّم شيئاً في هذا المجال. لم تساعدني أنا في علاقاتي مع البنتين. إطلاقاً.

❖ هل تعتقدين أن مهنةً أخرى كانت ستكون أكثر سهولةً؟

فاني: لست أدري. لا، لا أستطيع أن أقول لك لأنّ هناك أمثلة أخرى أقول لك فيها.. فأصدقائي، السيدة، صديقتي - أقول السيدة وهذا غباءٌ مني- صديقتي معلّمة، والزوج طبيب، إنه وسطٌ آخر، كان لديهما مالٌ أكثر مما كان لدينا؛ وكانا يعانيان أيضاً من مشاكل زوجية لأنها.. بالنسبة لها، فإنها هي التي كان زوجها يحتقرها وهو لازال حتى الآن يقول لها عندما يتناقشان: «أنتم المعلمون كلّكم نكرات، الخ..، الخ..، أنا أرى (هو طبيب) أولاداً يأتون إليّ ويريدون أن يصبحوا بنّائين أو أن يعملوا في البناء، أميين، الخ...ما الذي تفعلونه في المدرسة؟»، باختصار فإن لديهما مشاكل، مشاكل زوجية - من الصعب على المرء أن يتحدّث عن شخصٍ آخر - لكن، هناك مشاكل. لديهما ولدان رائعان لم يعانيا كثيراً، رغم أنهما كانا مطلعين على مشاكل أبويهما وكانا يسمعان كل شيء. والأمور تسير رغم كلّ شيء. الأول

في الصف التحضيري لمدرسة عليا في سافينيي Savigny والآخر في الصف التاسع، هما إذن متوازنان تماماً وليس لديهما مشاكل دراسية، على الإطلاق؛ لكن مع ذلك، فإنّ لدى هذين الزوجين مشاكل زوجية، وهذا الأمر يستمر. فهي - أنا أقارنها نوعاً ما بزوجي - هي كانت تبحث خارج الإطار الزوجي عن تعويضٍ ما بسبب وجود مصاعب في علاقتها بزوجها، وهكذا كان يفعل زوجي، فقد كان يبحث عن التعويض خارج المنزل. لست أدري إن كان ذلك ناتجاً حقاً عن المهنة.

❖ لكنك مع ذلك قلتِ منذ بضعة أيام بأن جميع الأزواج تقريباً من زملائكِ الذين أحد الطرفين فيهما أو كلاهما معلّم (فالعديد منهم قد تزوجوا زملاء لهم) والآخرون أيضاً يعيشون مشاكل في حياتهم الزوجية في وقتٍ ما، أليس كذلك؟

فاني: صحيح، الأمور لا تسير على ما يرام لكن البعض يقاومون. بعض الأزواج يقاومون تلك ال: «الأمور لا تسير على ما يرام»؛ هناك عددٌ هائل من الزيجات التي لا تسير على ما يرام لكنها تستمر. لكن هذا .. بالنسبة لي، فإن مشكلتي الكبيرة هي التأثير الذي قد يُحدثه هذا الأمر على الأولاد. لقد سارت الأمور بشكلٍ سيئ للغاية في زواجي. أنا أعرف زيجاتٍ ليست على ما يرام وأسمع تعليقاتٍ، لكن مع ذلك..

❖ هل الأمور تسير بثباتٍ وهدوء بالنسبة للأولاد؟

فاني: إنها تستمر، هناك خيانة من طرفٍ أو آخر، وأنا لستُ على علمٍ بأمور الناس الحميمة. لديّ على سبيل المثال أصدقاء في منطقة بروتانيا Bretagne، الزوج مفتّش ضرائب، والزوجة مدرّسة للّغة الإنكليزية. حين يتحدّث عن زوجته فإنه يقول: «أوه، ماذا تظنّين بأنها تفعل؟ إنها منغمسة في أوراقها، وأنا سئمتُ، الخ...».إنه الآن يذهب وحده في الإجازات ولديه أصدقاء في بولونيا؛ لقد استقبلوا بولونيين وهاهو الآن يذهب وحده. ما الذي يجري؟ لست أدري. إن كان باستطاعة المرء أن يقاوم كلّ هذا، فالأمر حسن، لكنه يسبب مشاكل، هذا مؤكّد.

كنتُ عاطفيةً جداً

❖ هل تباعد مسار عملك عن مسار عمل زوجك تدريجياً؟ قلتِ بأنه كان في البداية عريفاً ثم أصبح محصّلاً. أنا لا أفهم جيّداً ما الذي يمثّله ذلك في مجال العمل.

فاني: إنه الآن محصّل، كان لا يزال عريفاً حين تركني. تباعد.. لا، لم يكن عمله يهمني كثيراً. لم أجد يوماً أهميةً في عمله.

❖ وماذا عن اهتمامكما المشترك؟ لقد عشتما معاً عشرين عاماً، ولا بدّ أنه كانت لكما أوقاتٌ جيدة معاً، أليس كذلك؟

فاني: نعم، اهتمامنا المشترك -كيف أقول لك؟ - بالنسبة لي فإن ما سأقوله لك ساذج، - بالنسبة لي كان حُبّ فترة الشباب، كنتُ عاطفيةً جداً ثم تزوّجت، وظننتُ بأن ذلك سيدوم. هذا كل ما في الأمر. حسناً، أما اهتمامنا، فقد كنا سويةً، وكنا نخرج كثيراً. كانت تلك أوقاتاً جيدة. لكن صحيح.. بلى، لقد كانت لنا أوقاتٌ جيدة. أقول لكِ، لقد كنا نذهب إلى المسرح، ونذهب في العطل مع العائلة، كانت حياتي هادئة، أنا لست طموحةً جداً وكنت أكتفي بكل ذلك. لم أعرف جيداً أين كان الخطأ؛ وحين بدأ يبحث في مكانٍ آخر ليستعيد لنفسه صورةً مغايرةً عن تلك التي كنت أعكسها له كان الأوان قد فات، هذا كلّ شيء. لكنني لم أدرك ذلك؛ وقد دام هذا الأمر طويلاً؛ لكنك محقة، فأنا لم أهتم بعمله أبداً. هذا صحيح؛ فقد كنت أمتلك ذلك الجانب.. المثقفاتي. بلى، ربما، كنت أهتمّ بالعديد من الأمور ولم يكن عمله من بينها، فقد كان عمله يبدو لي.. لم يكن عمله يبدو لي ممتعاً، لم أهتم به. صحيحٌ أنني كنت أبذل جهداً بين الحين والآخر لأنني كنت أقرأ في المجلات النسوية عن ضرورة الاهتمام بالآخر. لكن هذا صحيح، أنا مُلامةٌ جداً في هذه الناحية. لم أهتم بعمله والآن انقطعت عن كلّ ذلك، حقاً.

❖ كانت حياتك المهنية تكفيك؟ كانت بالمحصلة تملأ حياتك، أليس كذلك؟

فاني: نعم، أصدقائي الذين كانوا يرون كيف أعيش قالوا لي: «مهنتك

هي كلّ شيء بالنسبة لك»، لكنني أدافع الآن عن نفسي لأنني لم أكن أشعر وقتها أن الأمر هو بهذه الصورة.

❖ لكن ماذا عن العمل وكل ما يحيط به؟ ليس الأوراق فحسب، كان هناك بالتأكيد شيءٌ آخر غير الأوراق، أليس كذلك؟

فاني: نعم، العمل والطلاب والزملاء، كل هذا كان يملأ عليّ حياتي.

❖ هل الزملاء مهمون؟

فاني: نعم، نعم، إنهم أصدقاء. بعض الزميلات أصبحن صديقاتٍ لي. كانت هذه العلاقات تملأ عليّ حياتي. لذلك فإنه يبدو لي بأن زوجي كان ثانوياً. ثم إنني أعتقد بأنه شعر بالأمور على هذا النحو. وحين يقول لي: «كنت زوج السيدة» فهذا ما كان يقصده، لكن..

❖ هل كان لديكِ نشاطات إلى جانب حياتك في الثانوية؟

فاني: ماذا تعنين بالنشاطات؟

❖ لقد قلتِ لي بأنك لم تكوني مناضلة، لكن..؟

فاني: أوه! مناضلة (..) لقد مررت بمرحلة؛ حين كنا في آفينيون كنت أمينة خلية، فقد كنا كلانا، أنا وزوجي، في الحزب الشيوعي، وكان هو منخرطاً أكثر مني، وأصبحت أمينة خلية خلال فترةٍ معينة. هل كنت أمينة خليةٍ بكامل قناعتي؟ لا أعلم.

❖ كم دام ذلك؟

فاني: عامين. في تلك المرحلة، كنت أؤمن بالعديد من الأمور، أما الآن.. الآن فترتُ فعلاً. ماذا كنتُ أعمل؟ كنتُ أمارس الرياضة والرسم..

❖ أليس ذلك كثيراً، مع ولدين وزوج، بالإضافة إلى عملك في الثانوية؟

فاني: لم أكن أمارس هواياتي في كل الأيام. ما الذي كنتُ أعمله أيضاً؟ كنتُ أكتب قصائد، أشياء كهذه. لقد كان لديّ حياة لطيفة فعلاً. لطيفة، لا، كنتُ على ما يرام هكذا، لم أكن أدرك شيئاً.

كان ذلك يكفيني..

◆ ألم تدركي شيئاً على الإطلاق؟ لا بدّ أنك كنتِ تدركين قليلاً ما يدور حولك، قليلاً على الأقل، أليس كذلك؟

فاني: لا، لا، لا. لا، لا، لا، لم أدرك بالفعل إلاّ حين قال لي زوجي- كنت أعرف بأنه كان يخدعني، وبأنه كان له مغامرات- بأنه قد سئم حقيقةً وجوده إلى جانبي. أما أنا، فلم أشعر أبداً بمثل ذلك. كنت أظن بأنّ...لست أدري..

◆ ألم تلحظي قدوم العاصفة؟

فاني: لا، والآن أتساءل.. أتساءل ما إذا كان الأمر ناتجاً حقاً عن عملي، عن العمل الذي كنت أمارسه، أم ربما عن أشياء أخرى أكثر عمقاً آتية مني، من طفولتي، من أمي، من رغبتها في أن تراني على هذه الصورة أو تلك. لا أعرف، لقد أردت حقاً أن أكون مختلفةً عن أبويّ اللذين كانا عاملَين.

◆ أي أن زوجك كان مثلهما بشكلٍ ما؟ من بعض النواحي..

أصدقاؤنا كانوا أصدقائي

فاني: صحيح. نعم، في نهاية الأمر.. أنا أظنّ بأنه عانى الكثير من الملاحظات، وهنا أتذكر أموراً سخيفة جداً. أصدقاؤنا كانوا أصدقائي، وكانوا من سلك التعليم. أحد أصدقائي قال في إحدى المرات عن زوجي وبصوتٍ مرتفع أثناء تناولنا لوجبة طعام: «إنه ليس شديد الذكاء». أعتقد أن هذا الأمر آلمه بشدّة. في ذلك الحين، أخذنا الأمر بمرح. كانت هناك أشياء أخرى أيضاً؛ أظن أيضاً بأنه كان لدي أصدقاء في الوسط التعليمي أيضاً.. وخاصّةً أصدقاء المنطقة الباريسية، حين كنا فيها، كانوا من المثقفاتيين حقاً. مثقفاتيين بالمعنى الحقيقي للكلمة، يضعون المناقشات الفلسفية في المرتبة الأولى، الخ.. هناك واحدٌ منهم، لا أعرف ما الذي يفعله الآن، وقد قرأت اسمه في مكانٍ ما في أحد الأيام خلال أحد المؤتمرات، لا بدّ أنه صعد،

(..)، وكانوا من أبناء البرجوازيين، لم يكونوا أبداً من وسَطنا، لقد كانوا بحقٍ أبناء برجوازيين، هؤلاء الذين أدعوهم أنا بالمثقفاتيين. وكانوا يزدرون الآخرين كثيراً. اعتقد.. بلى، هذه الملاحظة تُظهر ذلك؛ أنا لم أشأ أن أقبل ذلك، لم أشأ الاعتراف بذلك. وكنت أبدو أمامهم مرتاحة، أشعر معهم بالارتياح، أما زوجي فلا، وأنا لم أكن أرى ذلك. لم أشأ أن أراه. أظنّ بأن ذلك كله قد آلمه كثيراً، ومع أنه ليس غبياً، لكنه لم يستطع أن يدافع عن نفسه في هذا الوسط الثقافي البرجوازي. لقد قطعت الجسور مع كلّ أولئك الناس بصورةٍ كلّيّة (..). كما أنه لدى ابنتيّ كرهٌ حقيقي تجاه المعلّمين.

❖ صحيح؟

فاني: نعم. ما عدا لورانس التي قابلت معلّمة لطيفة؛ لو سمعتِ ماذا تقولان عن المعلّمين! لكن هذا بسببي.

❖ ماذا تقولان؟

فاني: معظم المعلّمين الذين قابلتاهم كانوا أشخاصاً أنانيين، منغلقين على ذاتهم، ولم تكونا قادرتين على التحدّث معهم، الخ.. حسناً، صحيح أنني أنا أيضاً قابلت مثلهم.

❖ ممّن لا يمكن التحدّث معهم؟

فاني: نعم! حين قامت فاليري بالهروب كنتُ في عزّ الانهيار، كان ذلك يوم رحل الأب، يوم العودة من عطلة الفصح عام 1985، في ذلك اليوم بالذات تركت فاليري المدرسة. أنا لم أعلم بذلك فوراً فقد كانت تأخذ حقيبتها في الصباح وتذهب إلى الثانوية. وحين أردتُ أن أتحدّث مع الأساتذة، احتموا خلف القانون؛ بالنسبة لي فإنني أفهم لأنني أنا أيضاً معلّمة وأعرف القاعدة، لكن لم يكن هناك أحدٌ لمساعدتها حقيقةً، وأنا نفسي لم أكن مفتوحةً لها بصورةٍ كافية، وكنت مشغولةً بمشكلتي، لذلك كنت أقول لها: «يجب الذهاب إلى الثانوية»، وكنا نتحدث قليلاً عن هذا الأمر، الخ.. لكنني لم أجد أحداً ليساعدها. لقد ذهبت عدة مراتٍ إلى الثانوية. فكانت هي (...)

❖ أي أنها تركت الثانوية بصورةٍ كاملة، ولم يساعدها أحد على العودة، أليس كذلك؟

فاني: نعم، أظنّ ذلك، لو أنها التقت بأحدٍ ما.. لقد وضعتها مثلاً معي في المدرسة، وقد غاب أبوها فترةً.. هذا ما تقوله ابنتاي، تقولان أنه لم يكن لديهما أب. لذلك فقد تعلّقتا على الدوام بأساتذةٍ ذكور؛ وحين كانت فاليري في مدرستي كان فيها أستاذ تاريخ وجغرافيا يشبه، بلحيته، زوجي قليلاً، وقد حقق المعجزات مع فاليري، وتمكّن من إعادة دمجها في الوقت الذي كانت فيه صعبة المراس. لدى ابنتيّ كرهٌ مقدّس للمعلمين. أنا الآن أدين، ولست فخورةً حين أقول.. لذلك، وربما بسببهما، أحاول أن أكون معلّمة شديدة الإصغاء لطلاّبي.

[...]

❖ ألم يكن أسهل لو أنكم بقيتم في الجنوب؟

فاني: لكنني أنا التي لم أشأ البقاء في الجنوب. أنا التي اتخذت القرار. لقد مللتُ كثيراً في الجنوب. في الواقع، فإن هذه هي مشكلة الـ.. لقد رحلتُ باكراً جداً من القرية التي وُلِدتُ فيها والتي كنت أحبها كثيراً إلى المدينة لأن أهلي قرروا الذهاب للعمل في «المدينة»، -وأضع كلمة مدينة بين قوسين لأنها كانت عبارةً عن قرية كبيرة. لقد شكّل ذلك الانتقال أول انسلاخٍ لي وكنت لا أزال صغيرةً جداً، لم أكن بعد في الثانوية لكنني حبستُ نفسي شهراً كاملاً في المنزل؛ كان ذلك أول انسلاخٍ لي. لقد تشكلت لدي ذكرى.. حارقة جداً لذلك الرحيل فيما بعد. حسناً، بعد ذلك، هناك سنوات المدرسة الداخلية، ثم تولوز Toulouse، ثم باريس، وفي نهاية الأمر لا يعود الإنسان يعرف أين هو. وأنا أعتقد بأن حياتنا كانت ستكون أكثر هدوءاً لو أننا بقينا في الريف، على مثال حياة شقيق زوجي التي هي أكثر هدوءاً واستقراراً. وأظن بأن عدم وجود المرء قرب عائلته يمثّل إعاقةً حين يكون في طور البداية. أنا مع نظام الأسرة، أصبحت أعود إلى قيم الماضي تلك، وأعتقد بأن الصلات العائلية هامة، كل ذلك النسيج العائلي، الأهل المتواجدون، الخ...هذه الصلات تجبر الناس على..

الانتباه لأنفسهم، وعلى الانتباه للآخرين. بالنسبة لنا، فقد كنا من هذه الناحية متروكين لأنفسنا، لقد أُسيئت معاملتنا في هذا المجال.

[...]

❖ إذن فقد عاد زوجك إلى الجنوب. وبعد؟

فاني: نعم، نعم، لقد عاد هو إلى الجنوب عام 85. هو الآن محصّل في مكتبٍ صغير، وأظن أنه قد تخلّى هو أيضاً عن...، لابد أنه يعيش حياةً صعبة للغاية، وقد تخلّى نوعاً ما عن أي طموح. ما يريده الآن، مثلي، هو أن يقوم بعمله بهدوءٍ في المكتب الذي يعمل به. لا أعرف تماماً كيف هو لكن ابنتيه لا تريانه أبداً على كل حال.

● منذ يوم رحيله؟

فاني: نعم. وقبل ذلك أيضاً، قبل أن يترك منطقة باريس، كان يأتي إلى المنزل أحياناً، لكنه لم يبدِ أبداً اهتماماً حقيقياً بهما. هذا أيضاً يلعب دوراً وهو لا علاقة له لا بعمله ولا بعملي، وأظنّ أن ذلك ربّما يعود إلى أنه كان صغيراً جداً حين وُلدتا، فقد كان في التاسعة عشرة حين توجّب علينا أن نتحمّل مسؤوليّتهما؛ والواقع انه لم يهتم أبداً بأطفاله. هذا ما تقولانه الآن بينما لم أكن أنا أرى ذلك. أعتقد أن الخطأ الأكبر في تركيبتي النفسية هو أنني أظن دائماً- لم أعد أظن ذلك الآن - بأنّ الآخرين مثلي، بأن ردود افعالهم مثل ردود أفعالي. إنني أعمل وأرى الأمور بطريقتي، وأتمنى أن أُدخلها ضمن... أتمنى ولا أدري الآن، إنني أعرف بأنني هكذا وهي نقيصةٌ عندي. لكنني أُدخل كلّ شيءٍ ضمن رؤيتي. لذلك، فإنني أريده أن يكون مثلما أريد، مثلما أريده أنا أن يكون. إنني أرى الأشياء على هذا النحو ولم أكن أُدرك كل تلك المشاكل. كانت تحصل في بعض الأحيان صداماتٌ، و.. لذلك، فقد كنتُ أتولّى الأمور، وكانت الأمور تسير.

❖ لأنه كان ينبغي لأمور البيت أن تسير؟ لقد كنتم أربعة أشخاصٍ، وأنت التي كنتِ تسيّرين أمور البيت؟

فاني: نعم، كانت تسير، كانت تسير بالفعل.

❖ هذا إنجازٌ بحدّ ذاته.

أنا أحبّهم، وهذا يكفي

فاني: حسناً. إذن، لم أكن أرى كل المشاكل الداخلية للناس، أو أنني كنت أقول: «هذا ليس بذي قيمة، فأنا أحبّهم وذلك يكفي.» إذن، ماذا نقول أيضاً؟ لست أدري، أنا أحدّثكِ عن نفسي ولا أعلم ما إذا كان ما أقوله ضمن الاتجاه الذي تريدينه.

❖ بلى، بلى، تماماً..

فاني: يظهر الأمر كما لو كنتُ عند الطبيب النفسي.

❖ كلا! ليس لهذه الدرجة!

فاني: آه! لكنه قد سبق لي الذهاب إلى الطبيب النفسي مع ذلك!

❖ صحيح؟ سبق لك الذهاب؟

فاني: نعم، لكن ليس من أجلي، بل كان ذلك حين تعاطت فاليري المخدرات، فذهبت إلى الطبيب النفسي.

❖ ألم تعد الآن تتعاطى المخدّرات؟

فاني: لا، لكنها لا تزال تتناول بعض الحبوب. لقد قرأتُ في الكتب الطبية بأن هذا ليس خطيراً جداً؛ على كلّ حال، فإنه يمكن شراء هذه الحبوب من الصيدلية ببساطة. لكنها تعاطت الهيروئين لمدة عامين بصورة غير منتظمة. وحين انتبهتُ للأمر، فإن ذلك لأنها أرادتني أن أنتبه له. كنت أعلم بأنها تعيش حياةً مضطربة، لكنها كانت تعيش معي لحسن الحظ. لقد أرادتني أن أعرف، تصرّفتْ بحيث أعرف.

❖ إذن، فقد ذهبتِ حينذاك إلى الطبيب النفسي من أجلها طلباً للمساعدة؟ ذهبتِ معها؟

فاني: لا، ذهبت وحدي. حين انتبهت للأمر في البداية، ذهبت لرؤية مديري، المدير السابق، فهو الآن مدير في تراب Trappes، وهو كان يعرفني جيداً، يعرف مشاكلي وأعرف مشاكله، لم نكن صديقين حقاً لكننا كنا مع ذلك مرتبطيْن، وقد أعطاني عنوان مركز في إيفري Ivry يُدعى استقبال النجدة، مهمته العناية بأولاد مثلها، لديهم شيءٌ من الانحراف؛ قال لي

الطبيب النفسي: «سوف نبدأ بك»، فأجبتُ بنعم، وقلتُ له كلّ ما أقوله لك الآن؛ وهو، الأطباء النفسيون... لقد جرى ذلك، ولم أستفد قيد أنملة. لا. خلال ذلك، توفّي أبي وبعد ذلك، شعرت ببعض الإحراج من العودة إليه لأنني لم أعد أعرف ماذا أقول له، قلت له: «اسمع، لن أعود، أبي توفّي»، وكنت أهضم ذلك الموت، كان ذلك الموت حدثاً مهماً في حياتي. (...)

❖ هل حدث ذلك منذ فترة قريبة؟

فاني: 87. لقد نظرت للأمور بطريقة أخرى في ما يتعلّق بابنتيّ. لأنني لم أكن أتقبّل، ودوماً بصفتي مدرّسة، ألاّ تكون ابنتاي قد سارتا في طريقٍ مستقيم، وكان الكثير من المشاكل ينبع من هنا. وأمام ذلك الرجل الذي مات قلت لنفسي بأنه ليس لكلّ ذلك أهمية.

❖ لكنك في البداية لم تكوني تريدين أن تخرجي من زاويتك، والآن لا تريدين العودة إليها.

اولئك الناس المخادعون

فاني: لا، الأمر لا يتمثّل في أنني لا أريد العودة إليها. أعتقد أنّ أصدقائي هنا مهمون للغاية، وسأجد صعوبةً في أن أتركهم. فقد سبق لي أن تركت أصدقائي في آفينيون، لا... هنا سأجد صعوبةً حقاً. أنا أقول كلّ عام بأنني سأطلب تغيير عملي. {كلامٌ حول الفيديو.} أنا أشعر بالخزي أيضاً، لماذا؟ أنا لا أنكر أصلي إطلاقاً. هناك أشخاصٌ يأتون من الريف، كان بإمكاني ان أمحو لهجتي، أن أبذل جهدي في هذا المجال. لا زلتُ أحتفظ بعلاقاتٍ مع أهل زوجي. حماتي تقول لي: «أتعلمين يا فاني، كنت أحبّ فيك أنكِ كنتِ بسيطة».

❖ «كنتِ»..

فاني: كنت، فأنا الآن... بالنسبة لها فإن الطلاق... أظنّ أنّه قد سبّب الكثير من الألم، لأهلي أيضاً مع ذلك؛ لقد شعر أبي بالكثير من الحزن، وأهل زوجي أيضاً؛ إنها تقول لي: «كنتِ» لأنّ الأمر انتهى، لأنني لم أعد أستطع الذهاب إلى منزلهم كما كنتُ أفعل في السابق، إنها تقول لي: «كنتِ

بسيطةٌ، ولم تكوني تتصنّعين»، لم يكونوا في السابق ينظرون إليّ على هذا النحو، وأظنّ أنه بالنسبة لأناسٍ من العمال، فقد كنت... لدى أختي صديقاتٌ معلّمات، مدرّسات، يمارسن ما أسمّيه بالخداع. هل هذه هي الحقيقة أم أنني أنا التي أشعر بالأمر على هذا النحو؟ إنني أرتاب كثيراً بالأشخاص المخادعين، لكن حين يكونون مع الآخرين، يشعر المرء على الفور بأنهن معلّمات، هنّ يُظهرن ذلك.

❖ يشعر المرء بذلك؟ هذا غريب! مع ذلك، فقد قلتِ بأن أمك تشعر بالخيبة لأنّ لديكِ الكثير من العمل، وأنها حين تراكِ قادمةً، كانت تظنّ بأنّ المدرّس موظّف...

فاني: نعم، أعتقد أنها أدركت ذلك، فحين أتت إلى هنا خلال العام الدراسي، أدركت بأن هذا العمل يأخذ الكثير من الوقت. أظنّ أنها قد فهمت بعض الأمور لأنّ ما تعرفه عن بناتي- حتى لو لم تكن تعرف كلّ شيء - يكفي لترى بأنّ المقاييس النظامية لا تنطبق على هذه المهنة، الخ. لذلك فقد وضعت كلّ المسؤولية - وهي محقّةٌ في ذلك - على مشاكلنا الزوجية وعلى طبعي، الخ، الخ، إلاّ أنّها لاحظت مع ذلك بأن مهنتي ليست مريحةً كما كانت تعتقد: ليس لدينا ما نفعله ونعود إلى المنزل ولدينا العطل، كلّ شيءٍ رائع، الخ، الخ، هذا ما كانت أمي تظنه. لكن حين أتت، وقد أتت عدّة مراتٍ مع أبي خلال العام الدراسي، فقد لاحظت بأنني أكون مزنوقةً في المساء!

وحتى خلال العطل، يحصل أن أعمل... قريباً سوف أذهب في عطلة عيد الفصح، وبالتأكيد، فإنّ لديّ تسعون نسخةً للتصحيح. هذا هو الحدّ الأدنى الذي عليّ أن أقوم بتصحيحه. يجب عليّ القيام بذلك، كما أن هناك ما سوف أقوم بتحضيره. ابنتاي تكونان أكثر استرخاءً خلال العطل، إلاّ أنني أشتغل مع ذلك من أجل المدرسة. (...) حلمي الكبير أن آخذ البنات معي هناك (إلى آرييج Ariège) لكنني ربما لن أفعل لأنه ستتم تسميتي في مدرسةٍ ثانوية؛ لكن مع ذلك، فقد كان بودّي أن أعرّفهما على منطقتي قبل أن تصبح شنيعة بشكلٍ نهائي، حيث أنّ الاهتمام ينصبّ على السياحة في آرييج، وأظن أنها قريباً لن تعود كما كانت.

◆ في اية منطقةٍ من آرييج؟

فاني: لقد وُلدت في قريةٍ صغيرة تُدعى ليران Léran، وأمي تسكن في لابلانيه Lablanet وهي بلاد النسيج ولعبة الروغبي rugby لكن فريقهم هبط الآن قليلاً. آرييج منطقة صغيرة جداً، ومركز المنطقة يُدعى... فوا Foix. المحافظة هي فوا. لا، ليست كبيرة. لكن يوجد فيها قصرٌ جميلٌ جداً. كما أنها منطقة جميلة، وأنا أحبها كثيراً. لكنه لا يمكنني أن أستقرّ فيها. على كلّ حالٍ، وضعي هنا جيد، وقد وجدتُ لنفسي مكاناً، إنها سياستي، أنا هنا، وليس لديّ سوى خشيةٌ وحيدة هي أن أُجبر على الانتقال، وعلى تغيير العديد من الأشياء، فأنا وزوجي في حالة شيوع؛ أنا دوماً خائفة من... لقد عانيتُ خلال السنوات الماضية لدرجة أنني لازلتُ أخاف من التغيير. ذلك سوف يحصل، لكنني سوف أنزعج إذا توجّب عليّ أن أسكن في مكانٍ آخر. وفي الواقع، حين يكون المرء مُقتلَعاً من جذوره – أنا أشعر بأنني حقاً مُقتَلعة من جذوري– فإنه يصبح مجبراً على البحث عن جذورٍ أخرى. أنا وجدت مثل هذه الجذور عبر الأصدقاء الذين كوّنتهم هنا. وربماً كنت متعلّقةً بهذه المنطقة لأنني عشتُ فيها مع زوجي. أقول ذلك على الرغم من أن تلك السنوات لم تكن أفضل سنوات حياتي.

لكنني سأجد صعوبةً لو عشتُ في آرييج، فأنا أحبّ باريس. أنا أذهب إلى هناك بين حينٍ وآخر، لكنني أحبّ باريس، لقد أحببتُ هذه المدينة. لستُ أدري لماذا، أحبّ الشوارع، وكثيراً ما كنت أتنزّه حين كنت أدرّس في شارلمان Charlemagne، فقد كان لديّ العديد من ساعات الفراغ في برنامج دروسي حين كنت مدرّسةً شابّة، فقد اعتنوا بيْ ساعات فراغ في كل مكان. لذلك، كان لديّ الوقت الكافي للتنزّه وأنا أحبّ هذه المدينة بالفعل. حين كنت أقول ذلك للجنوبيين، كانوا يقولون لي بأنني مخبولة. بالنسبة لهم، فإنّ باريس مُقرفة. إنها سوداء تماماً.

روزين كريستان، نيسان 1991

روزين كريستان

صف اللغة الفرنسية

اليوم، ترى كوليت ف. بأن «وضعها» ليس سيئاً جداً، فهي قد حصلت للتو على تكليف بتدريس شعبتين من الصف التاسع وشعبتين من الصف الثامن، أي ما طلبته، وذلك في إعدادية مو Meaux التي تدرّس فيها منذ عامين، بعد نجاحها في الحصول على الإجازة في التدريس؛ ستحصل المعلمة الوكيلة التي أتت مؤخراً على ما تبقّى، أي على تدريس الصفوف الأكثر صعوبةً وفي الأوقات السيئة، وليس من المؤكد أنها ستتمكن من الصمود.

بعد حصولها على الإجازة وفشلها مرّةً في الحصول على إجازة تدريس المرحلة الثانوية، قررت كوليت أن تحصل على وظيفة مدرّسة مساعدة مع استمرارها في الدراسة. فوضعت ملفّها في عدّة مؤسسات تعليمية قريبة من باريس ووجدت نفسها تُعيَّن كبديلة في بوفيه Beauvais لفترة طويلة. كان راتبها يتجاوز بقليل الحدّ الأدنى للأجور، «وبدا لها الأمر في بداية الأمر خرافياً» لأنها لم تكن قد قامت حتى ذلك الحين سوى بأعمال صغيرة؛ ففي النهاية كان الراتب معقولاً، كما أن العطل تأتي بسرعة. وسرعان ما فقدت أوهامها حين عملت في صفوفها «المريعة».

بعد عامين، رسبت كوليت في امتحان إجازة التدريس الجامعية CAPES، لكنها حصلت على إجازة تدريس المرحلة الثانوية، واختارت وضعية

المدرّسة الأكاديمية الأصيلة، تحت تصرّف أكاديمية أميان Amiens ، وأتاح لها هذا الخيار البقاء في المنطقة الباريسية مع استمرارها في التعليم عاماً دراسياً كاملاً في نفس المدرسة. حينذاك، عُيّنت مدرّسةً للّغة الفرنسية في مدرسة تقع في منطقة صناعية قرب كريي Creil. هذه الإعدادية المسمّاة «بايورون Pailleron» والتي تتكوّن من مستطيلين من الإسمنت المسبق الصنع وتدفئها مدافئ تعمل بالمازوت، يرتادها أبناء عمّال، معظمهم من المهاجرين الذين يعيشون في المدن العمالية أو في أبنية صغيرة ذات إيجار منخفض HL M. في هذه الإعدادية، الشجار والعنف اللفظي يوميّان، لكن إذا كان بعض الأخوة الكبار «معروفين من قِبل الشرطة»، فإنّ الطلاّب لازالوا حتّى الآن قريبين من الطفولة، وهم غير مستقرّين ومضطربون أكثر مما هم جانحون. لا زال هناك بقيّة من النظام المدرسي، وللوهلة الأولى، فإن كانت القواعد العامّة لا تُحترم، إلا أنها لا تزال تُذكر: هكذا تبدو هذه الإعدادية العادية، كما تحدّثنا عنها كوليت ف.، وهي تشبه العديد من المدارس الإعدادية المنتشرة في أرجاء فرنسا. المخدّرات موجودة في بعض الصفوف، حتى الدنيا منها، وإن كان يبدو ظاهرياً بأنه لا تجري أية تجارة للمخدرات داخل المدرسة نفسها، وهذا ما يجعل الأساتذة يتنفّسون الصعداء، لكن تبرز أحياناً بصورة تراجيدية حالات هبوط جسدي وإغماء بسبب جرعة مفرطة من المخدرات.

في السنوات السابقة، قامت كوليت بالتعليم في شاتو-تييري Château-Thierry في ثانوية «دون مشاكل»، ولم تضطر خلالها إلى معاقبة اي طالب بحجزه في المدرسة، اللهمّ إلا بسبب «عدم القيام بالواجب المدرسي». شعرت كوليت بالاطمئنان بسبب تلك التجربة النظامية في التدريس، فتمّ «قطافها بكلّ أناقة»، كما تقول هي ذاتها، فقد شعر طلاّبها الجدد بضعفها منذ عيد جميع القدّيسين(*) واضطرّت للنضال خلال العام الدراسي كله لتجنّب التجاوزات.

عليها أن تؤدّي ثمانية عشر ساعةً من التدريس موزّعة على خمسة

(*) في الأول من شهر تشرين الثاني.

أيام؛ القدماء في المدرسة، وكذلك الأكبر سناً، والحاصلون على شهادة التدريس العامّ الإعدادي PEGC ، الذين استقرّ وضعهم جيداً في المنطقة وفي المدرسة، والذين تعرفهم الإدارة جيّداً، كلّ هؤلاء طالبوا بجدول تدريس مفصّل على القياس الذي يريدونه. أما «المؤهّلون الأكاديميون» الذين يجولون في الأكاديمية ويعيّنون لعام دراسيٍّ واحد في كلّ مدرسة، وهم أصغر سناً وكثيراً ما يكون حصولهم على شهادة CAPES حديثاً، فحصّتهم أسوأ. ما إن نجحت كوليت في الامتحان حتى تركت الغرفة التي كانت تسكنها كطالبة وسكنت في أستوديو أفضل قليلاً في الدائرة الثامنة عشرة، بالقرب من محطّة قطارات الشمال التي تخدّم منطقة أميان. عدد القطارات التي تسير خلال النهار قليل، وعليها أن تستقل قطار السابعة وأربع دقائق صباحاً أربع مرات في الأسبوع. لذلك، فهي تستيقظ في السادسة إلاّ ربعاً وتترك حجرتها في السادسة والنصف. على رصيف المحطة، ترى كوليت أساتذةً آخرين، ويكون عددهم وافراً في بعض الأيام. يتم تبادل التحية من بعيد، وكما لو أن هنالك اتّفاقٌ غير مُعلَن، فإنّ كلاً منهم يبحث لنفسه عن مكانٍ بين أناسٍ لا يعرفهم ليكمل بهدوءِ نومه أو ليصحح بعض الأوراق الأخيرة. حين يصلون إلى وجهتهم، لا توجد حافلةٌ لنقلهم وعليهم التجمّع ليستقلّوا سيّارات أجرة. تقول كوليت: «السائقون يقبلون بثلاثة ركّاب، وينبغي دفع مبلغ إضافي للراكب الرابع، وكذلك في حال وجود حقيبةٍ كبيرة».

تشعر كوليت «بالانقباض» منذ تلك اللحظة، وتفكّر بالصفوف الصعبة؛ ما الذي ستفعله اليوم كي يكونوا هادئين. لديها، في أصعب الأيام، ثلاث ساعات تدريس في الصباح واثنتان في فترة ما بعد الظهر. في الفترات الفاصلة بين الدروس، تأخذ كوليت قليلاً من الراحة في غرفة المدرّسين، وهي صالة كئيبة، يتكوّن أثاثها من بضعة كراسي من البلاستيك المصهور ونبتتَين وآلة كهربائية للقهوة يتدفأون حولها ويتهامسون ويشتكون، وتمثّل تسليةً كبرى. الجو السائد في تلك الصالة ليس جيداً جداً ويوجد فيها باستمرار طيلة العام الدراسي تنافسٌ خفيٌّ بين الحاصلين على شهادة PEGC و«القدماء» وبين الأساتذة الأكثر شباباً.

المدرسة معزولةٌ في منطقةٍ صناعية وليس وارداً الذهاب إلى مقهى أو «المغامرة بالتسوّق». وفي المساء، «يقوم أولئك الذين يملكون سياراتٍ بنقل زملائهم الذين يسكنون في باريس إلى أقرب محطّة قطارات أو حافلات؛ إنه أفضل أوقات النهار، كما تقول كوليت، ففيه يتم تبادل الحديث، ويكونون أكثر استرخاءً ».

إنها تتذكّر بصورةٍ خاصّة أحد صفوف الثامن، يتراوح عمر الطلاّب فيه بين أربعة عشر وستةَ عشر عاماً. تقول كوليت: «كنت أشعر بشيءٍ من الانقباض يوم يكون لديّ درسٌ عندهم.. لم أكن أنام جيداً في الليلة السابقة، وأقول لنفسي: «حسناً، ما الذي سأفعله هذه المرّة لإبقائهم جلوساً؟»».

ما إن يتصاعد الضجيج الدائم من الأدراج والممرات ذات الجدران المطلية بالكتابات، وهي أماكن دائمة للمجيء والرواح، حتى يشعر المرء بأن «الأمر ميئوسٌ منه» (قِدْر بخارٍ حقيقية). في كلّ طابق، وعلى جانبيْ ممرٍّ مركزيٍّ، توجد عشرة صفوف، تمثّل حواجزها الزجاجية التي ترتفع على مستوى الرأس مصدراً هاماً للتسلية، لأنه: «يكفي أن يقفز أحدٌ ما قليلاً ليهرّج ويزعج الدرس الجاري داخل الصفّ». وطيلة النهار، يتقابل المتأخرون والمتباطئون مع أولئك الذين «خرجوا من الصفوف» وأُرسلوا إلى الموجّه التربوي الذي يقع مكتبه في الطابق الأول من أحد الأبنية.

يشكّل الاصطفاف أمام باب الصف أول معاناة: «حتى هذا الأمر غير ممكن،.. صحيحٌ أن خمسة عشر طالباً (من أصل ثلاثين) يصطفّون، لكن هناك دوماً واحدٌ ينادي صديقاً من صفٍّ آخر، ويقبّل أحدهما الآخر، ثم تحصل مشاجرةٌ لسببٍ لا أعرفه.. الشتيمة لا تتوقّف (أكثرها وروداً «أمك!») وكذلك الأمر بالنسبة للعنف اللفظي. إذا حصل أن داس أحدهم على قدم آخرٍ على الأدراج، يتدفّق فيضٌ من الشتائم، بينما يظن الآخر بأن شرفه قد تلطّخ ويحاول كيل الضربات للأول».

أحياناً، يستغرق الدخول إلى الصف حوالى عشر دقائق. لم يجلسوا بعدُ، لكنهم على الأقل «في الداخل»؛ في هذه اللحظة، «يصل أحدهم

وبجعبته قصةٌ لا تُصدّق، فقد مرّ بالموجّه التربوي لأنه كان متغيباً في اليوم السابق، وقد وجّه له الموجّه التربوي ملاحظةً لم تعجبه، وهاهو يصل وهو في فورة غضبه، ويريد أن يشاركه الآخرون غضبه، والآخرون يساندونه.» وهكذا، تذهب بضع دقائق إضافية.

عددهم لا يكتمل أبداً. البعض يأتي في الصباح، والبعض الآخر بعد الظهر، أو يختفي لعدّة أسابيع. في بداية العام، وضعت كوليت مخططاً للصف يحدّد لكلّ طالبٍ مكانه طيلة العام. وبعد بضعة أسابيع، مازال المبدأ محترماً نوعاً ما، لكن الهيجان يعود مع البحث عن المقاعد أو الكراسي. في الصف عدة مقاعد خشبية قديمة ومكسّرة ومليئة بالكتابات، وعلى الطلاّب الأكثر ضعفاً أن يقنعوا بها. «كان لدى أضعف طلاّب الصف أحد تلك المقاعد، وهو طالبٌ أمضى كل المرحلة الابتدائية كلها في مركزٍ نفسي-تربوي (...) وكان يُمضي كلّ فترة الدرس في حفر المقعد إما بمشرط أو بالفرجار، ذلك أنه لم يكن يتمكن من الكتابة- الأمر بسيط، فلم يكن يتمكن حتى من كتابة اسمه. وفي أحد الأيام، كان بادي السرور، فقد تمكّن من إجراء الثقب، لقد وصل إلى الطرف الآخر». أفضل المقاعد يتسع لطالبيْن، وهي مصنوعة من الفورميكا، ويمكن تعديلها بحيث تناسب طول الطالب، وذلك بواسطة فرضاتٍ وبراغي، «حينذاك يبدأ السيرك.. يأخذون برفعها وإنزالها..». معظم المقاعد مكسورة، وينبغي قبل بداية الدرس تبديل الكراسي، بحيث يتنازل الطلاّب الأقوى للضعفاء عن تلك المثقوبة والمخلّعة والعرجاء، «لأنه حين يكون المرء زعيماً، حين يكون رئيساً، فإنه ينبغي أن يكون السيّد، وهو يستحوذ على الكرسي الجيد وعلى المقعد الجيد».

مرّت عشرون دقيقة ويمكن للدرس أن يبدأ. لدى حوالى عشر طلاّب دفاتر للّغة الفرنسية، أمّا الآخرون، فليس بحوزتهم شيء، ويتم تبادل الأوراق والأقلام. نصل إلى تمرين قراءة نصٍّ، إلى القراءة «الصامتة» - «هناك عشرة طلاّبٍ يقومون بها حقّاً، والآخرون يقومون بأشياء مختلفة تماماً»-، ثم القراءة بصوتٍ مرتفع، «إنهم يريدون أن يقرأوا، لكنّهم لا يعرفون القراءة..».

بعد ذلك، هناك تمرين الإجابة على الأسئلة: «أملي عليهم السؤال والجواب بحيث يكونون هادئين، أحاول أن أستخدم الكثير من الكتابة كيلا يصبح التمرين الشفهيّ فرصةً للتجاوزات». يتمثّل التمرين في إعمال الذاكرة والإجابة على أسئلةٍ حول لون ملابس أحد الأبطال أو ميزةٍ أخرى له. هناك أيضاً أسئلةٌ تتعلّق بفهم النصّ والمنطق والنحو. نادرون هم الذين يقومون بالتمرين؛ أما الغالبية العظمى من الطلاّب، فهم يتخلّون بسرعةٍ عن إجرائه ويقفون ليروا ماذا فعل جارهم، وذلك رغم الحثّ على القيام بالتمرين. لاشيء يجعلهم يشاركون، لا جاذبية العلامة ولا الأهمية الثقافية ولا حتى طعم المنافسة. اهتماماتهم خارج هذا المكان. «هناك الشلة، وفيها يحكون لبعضهم أشياء... لكن هناك قصصٌ رهيبة في ما بينهم. أي أنهم يشكّلون جسداً واحداً حين يتعلّق الأمر بمواجهة المدير أو الموجّه التربوي، لكن في نفس الوقت هناك في ما بينهم شتائم مريعة. فهم مثلاً يأخذون الدفاتر اليومية التي تخصّ غيرهم، وعلى أية حال فإن هذه الدفاتر لا تفيد كثيراً، ويكتبون فيها تعابير قذرة، وشتائم كبيرة، ويكون ذلك في كثيرٍ من الأحيان بين الصبيان والبنات.»

وكما هي الحال بالنسبة للطلاّب في هذا العمر، فإن الاسترخاء في الألفاظ والملابس هو القاعدة؛ هذا الاسترخاء هو في نفس الوقت مفروضٌ ومشترك، تأكيدٌ فرديٌّ وجماعيٌّ أكثر منه آداباً سلوكية. هذا العام تقضي الموضة بارتداء سترةٍ واسعة وحذاءٍ رياضيّ يفضّل ترك رباطه مفكوكاً وبحيث يتدلّى لسانه.

في بعض الأحيان، يظهر جهاز تسجيلٍ على أحد المقاعد. تبدأ حينذاك مساومةٌ حول «إعادته إلى الحقيبة». لا فائدة من محاولة مصادرته: «على كلّ حال، فإن مثل تلك المحاولة تؤدي إلى مواجهةٍ قاسية للغاية، وبعض الأولاد أكثر منّا طولاً، لا داعي للأمر. فلو حصل ذلك، يتصلّب المرء وتحصل مواجهة جسدية.» ينبغي النقاش ومحاولة إقامة علاقة سُلطةٍ وثقةٍ احتمالية نوعاً ما، لكن ينبغي البدء من جديد في كلّ درس، «لا يتمّ

اكتساب أي شيءٍ أبداً». في بعض الأيام، يُفضِّل أن يتجنّب الأستاذ الكتابة على السبّورة كيلاً يدير ظهره لهم، ويعطيهم الفرصة «ليعملوا بجدّ».

تتجول كوليت أحياناً بين الطلاّب أثناء التمارين الكتابية ويعلّق حينذاك أحد الزعماء على نوعية بنطلون الجينز الذي ترتديه، ليبرتو Liberto أم ليفيس Levis، يسألها عن سعره وينظر إلى حذائها وقميصها عن قرب، وذلك ليحدّثها عنها وعن نفسه أيضاً ويجرّب إقامة حوار لامعقول. «نعم، نحن أيضاً نعرف هذه الماركات، لا نلبسها لكننا نعرفها، ثمّ إنّ أخي يسرق من منتجات ماركة شوفينيون Chevignon».

حزيران 1992



سليفان بروكوليشي

ميزان قوى

كانت زوجة أخ هيلين قد قالت لي بأنها تبدو منشغلةً جداً بتطورات الأوضاع في الثانويات المهنية. وحين سألتُها إن كانت تقبل بالحديث عن هذا الأمر، ردّت بالإيجاب على الفور لأن الموضوع خطير وهي تريد أن تجرّب الإدلاء بشهادتها. تقع المدرسة التي تدرّس فيها مادة السكرتارية منذ عام 1985 في باريس، وتغلب عليها السمعة الحسنة. لقد قال لها بعض الزملاء بأن الأمر في العديد من الثانويات المهنية «الصناعية» أسوأ في كثيرٍ من الأحيان (في ثانويتها أقسام خدماتية وصناعية)، ويصعب عليها تخيّل ذلك.

كانت هيلين تريد أن تصبح معلّمة تربية رياضية، لكنها اضطرت لقبول توجيهٍ فنّي في الصف العاشر. وهكذا، أصبحت سكرتيرة، رغم أنها عرفت «منذ الساعات الأولى من التأهيل» أن تلك المهنة لا تناسبها، وتعزز هذا الانطباع منذ بداياتها المهنية في المدرسة التي كانت تعمل فيها. وحين عملت «مرشدةً في أحد المخيمات»، اكتشفت أنّ لديها «ميلاً لتعليم الأطفال، واليافعين» وحين سمعت بـ«دوراتٍ تدريبية للأولاد» عام 1981، اغتنمت الفرصة على الفور. لديها «العديد من الأفكار» حول ما يمكن عمله بتلك الإجراءات الجديدة لصالح اليافعين المطرودين من النظام التعليمي وأصبحت مسؤولةً عن دورات إعادة التأهيل، ثمّ منسّقةً للمبادرات من أجل اليافعين في القطّاع السكني الذي تعمل فيه. إنها تحبّ هذا العمل، لكن بما

أنه لا يوجد ما يضمن استمرار تلك الإجراءات، فقد حصلت عام 1985 على تسميتها في وزارة التعليم الوطني كمدرّسة لمادّة السكرتارية.

حين بدأت هيلين بالعمل، كانت تنظر إلى الثانوية المهنية كبُنية مطمئِنة نوعاً ما، تستقبل طلاّباً أقرب إلى الهدوء «ومشاكلهم الاجتماعية أقلّ» من اليافعين الذين اهتمّت بهم فيما سبق. إنها تعرف هنا بعض اللحظات «المدهشة»، «حين يلاحظ بعض الأولاد بأنهم قادرون على فهم شيء ما»، وحتى في عمر الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، «ينادونها «ماما» سهواً... وهم مأخوذون بالنشاط... سواءً أكانوا فتياناً أم فتيات». منذ بضع سنوات، أصبحت هيلين تشعر بالكارثة بسبب تراجع الشروط التعليمية وبسبب نمط العلاقات التي تميل إلى النشوء بين الطلاّب والأساتذة: «نحن في حالة افتقاد للعلاقات الذكية. تكون لدينا رغبةٌ في أن نستقبلهم كأصدقاء لكننا نصبح أعداء؛ نتحوّل إلى حرّاس سجن.»

إنها تعتقد بأن ماضيها قد هيّأها بشكلٍ ممتازٍ لمواجهة الأوضاع الصعبة. لقد عرفت حتى الآن كيف «تواجه»، لكنها بدأت تفكّر في اليوم الذي ستكون فيه «متعَبةً حقاً». «أن أتشاجر وألعب دور المهرّج لأفرض نفسي بمواجهة الطلاّب الذين يقومون بالاستفزاز «بتصغيرهم» أمام زملائهم لا يكلّفني الكثير حتى الآن. لكن بعد سنوات، سيفيض بي الكيل... ربما سيتوجّب عليّ الهروب إذا استمرّت الأمور هكذا.»

الأسوأ بالنسبة لها ليس المعاناة العصبية ولا الشعور بـ«أننا نخدع الجميع» حين نعطي الطلاّب شهادات لا قيمة لها. الأسوأ هو الإحساس بأن الرسالة التربوية التي كان يبدو لها بأنها توصلها حتّى الآن مرهونةٌ بصورةٍ متزايدة للفشل. إنّ عدم كفاية الكوادر ونقص تطوّر الطلاّب مسؤولان بنظرها عن إضعاف العملية التربوية لصالح العصابات التي ينجح زعماؤها في فرض قانونها حتى داخل المدرسة، بضرب وإهانة الذين لا يتبعونهم. «إنّه قانون الأقوى. الطلاّب يتعلّمون الخضوع لهذا العنف، والصمت، والانسحاق».

لقاء مع معلّمة

أجراه : سيلفان بروكوليشي

هيلين ا.: يدخل المرء إلى الصف ويكون وحيداً أمام حوالى ثلاثين طالباً لدى معظمهم قرارٌ مسبق - ألاّ يقوموا بأي شيء أو القيام بأقل ما يمكن - وحساباتٌ يريدون تسويتها مع توجيههم (التعليمي). وبما أنّ محادثهم الوحيد هو المدرّس، فإنهم يبدأون بمحاولة معرفة مقدار تماسك المدرّس وما إن كانوا سيتمكّنون من تفريغ شحناتهم من وراء ظهره أم لا. (...) وهم يبدءون أولاً بالحيل البسيطة، كالطلاّب الذين يديرون لك ظهرهم بإصرار ويتابعون النقاش بعد أن تدخل إلى الصف ولا يستجيبون لطلباتك المتكررة بالتزام الصمت أو الهدوء، والطلاّب الذين يطلقون الصيحات والصرخات حين تطلب منهم شيئاً ما، حتى لو لم يكن سوى قلمٍ أو ورقة. وهم، في الواقع، يحاولون معرفة كيف سيكون ردّ فعل الأستاذ على الاستثارة، وذلك مثلاً بتفكيك آلاتٍ كاتبة أو أدوات مخبرية. (...)

❖ وما الذي يشعر به المرء أمام هذه الحقيقة؟

هيلين ا.: أنا لم أخف من ذلك أبداً، فقد رأيت أولاداً يُخرجون المشارط أو يضربون بعضهم بالخوذات. لقد مررتُ بمسارٍ جعلني أواجه الحقيقة القاسية (...) وهيّأني مسبقاً لحالاتٍ من الإهانة ينبغي على المرء فيها أن يدافع عن نفسه، حالاتٍ من العدوانية. لكن بعض الأساتذة يخافون؛

ثم إن هناك فعلاً ما يخشى منه المرء أمام ثلاثين طالباً يقيسون حوالى المتر وثمانين سنتيمتراً، ولا يكون مؤهّلاً لذلك (...) بالنسبة لي، فقد قلتُ دوماً لنفسي بأنني سأجد الحلّ مهما كان الوضع (...) ربما كان هذا هو استعداد المعلّم في أيامنا هذه. لكنه صحيحٌ أنه يوجد أيضاً أساتذة يخافون ولا يستطيعون التغلّب على صفٍّ يتعامل معهم هكذا. يتزايد انغلاق هؤلاء الناس على أنفسهم لأنهم يشعرون بنوعٍ من الخزي الناتج عن عدم تمكّنهم من السيطرة على الوضع، وهم لا يتحدثون مع الزملاء حول هذا الأمر، ولا نراهم في صالة المدرّسين...

❖ وهم ليسوا أقليّة، أليس كذلك؟

هيلين أ.: كلاّ، أبداً! أنا أقول بأنهم يشكّلون النصف.

❖ في الأماكن التي يوجد فيها طلاّبٌ صعبو المراس...

هيلين أ.: أنا أعتقد بأنه حتى في الأماكن التي يُقال بأنه لا يوجد فيها إلا عددٌ قليلٌ من مثل هؤلاء الطلاّب، فإن هناك أستاذٌ من اثنين يعيش بألمٍ شديد وضعية «الصخب» تلك. هناك زملاءٌ تستهويهم إحدى المواد كاللغة الفرنسية أو التاريخ والجغرافيا ويتألمون بشدة في أعمق دواخلهم بسبب عدم تمكنهم من إشراك الطلاب معهم في ذلك الولع. بالنسبة لي، فإنني أدرّس مادّةً لا يمكن لها أن تسبب مشكلةً كهذه. لقد كنت في البداية أودّ أن أصبح معلّمة رياضة، لكن السكرتارية ليست مادّةً شيّقة. (...) لديّ زميلة محبَطة باستمرار بسبب عدم تمكّنها من ممارسة مهنتها كما تبغي بإشراك الطلاّب حبّها للأدب. هذا الأمر يُمرضها. (...)

❖ هل لمستِ تغيّراتٍ على مستوى الشهادة التكميلية المهنية B.E.P؟

هيلين أ.: اليوم، لم يعد لشهادة التأهيل المهني C.A.P من وجودٍ تقريباً. لم يعد هناك سوى الشهادة التكميلية المهنية B.E.P. ونحن نعلم بأنه، منذ بضع سنوات، لم يعد يتمّ توظيف الطلاب الحائزين على تلك الشهادة. لذلك، عليهم الذهاب إلى مرحلة دراسية أبعد بتقديم امتحان الشهادة الثانوية المهنية. وهذا مناسبٌ جداً لأنّ التعليمات الوزارية توصي بوصول

ثمانين بالمائة من هذه الشريحة العمرية إلى هذا المستوى. لذلك، يتوجّب على الطلاّب الحصول على تلك الشهادة التكميلية: وهنا نرى كيف تتم الأمور. نراه أولاً من محتوى الاختبارات الذي يتناقص بصورةٍ واضحة جداً بين عامٍ وآخر. ففي الاختبارات التي كُلّفتُ بتصحيحها وغيرها، يحصل الطالب على نصف العلامة بمجرد أن يتمكن من النقل من زميلٍ له. (...)، كما أنّ الإجابات موجودة ضمن النص ذاته ويكفي أن يعرف الطالب القراءة حتى يحصل على الإجابة. الأمر سواءٌ في الفرنسية والمحاسبة وفي كل المواد... ورغم هذا كلّه، فحين يريد أساتذةٌ يصححون الاختبارات أن يقوموا بعملهم ويضعون علامات سيئة لطلاّبٍ لا يتمكنون حتى من القراءة لاستخراج الإجابات، فإمّا أنْ تعيد السلطات الإدارية المحلية أو سواها تقييم العلامات بصورةٍ مباشرة لكي تحصل نسبةٌ معينة من الطلاّب على الشهادة، أو أن يتلقّى مسؤول مركز الإصلاح اتصالاً هاتفياً ويمرّ على الزملاء قائلاً لهم: «يبدو أننا أكثر صرامةً مما ينبغي في إعطاء العلامات بالمقارنة مع مراكز إصلاحية أخرى، الخ...» الأمر شبه منهجيّ. وهكذا، يصل الطلاّب إلى البكالوريا المهنية، وبما أنه ينبغي أن تُحقَّق نسبة الثمانين بالمائة المطلوبة، فإن الأمر يتم بنفس الصورة بالنسبة للبكالوريا المهنية.

[...]

أنا لستُ نخبوية، لكن مثل هذه الإجراءات تعني خداعاً للجميع. إنّه خداعٌ للطلاّب لأنهم يتخيلون بأنّ بمقدورهم أن يتدّبروا أمورهم بهذا الشكل في الحياة بينما هم في الواقع لن يجدوا عملاً ولن يفهموا ما الذي جرى. كما أنه أمرٌ سيئٌ بالنسبة للأساتذة لأنه مُحبِط... نحن لسنا هنا لنقوم برعاية أطفالٍ صغار السن؛ لدينا رغم كلّ شيء رغبةٌ في تعليم أشياء للطلاّب. لقد مللنا من التظاهر! (...) خلال الاستراحة، يمضي الطلاّب وقتهم بقصّ منجزاتهم في التهرّب من الدراسة وإزعاج الأساتذة، الخ... على بعضهم البعض: «لقد تمّ طردي» «لم نحضرِ الكتاب مرةً واحدة خلال العام كله»، ثم يحصلون على شهادتهم الإعدادية. لذلك، فإنهم يعتقدون بأنهم ماكرون، ويتخيلون بأنهم رؤوس كبيرة وأنهم «بُعصوا» – هذا هو

التعبير الذي يستخدمونه- الجميع. (...) أنا لستُ رجعية، على الأقل هذا ما أظنه، لكن المدرسة كانت في السابق مكاناً ذا قيمة وكان المرء يتعلم فيها أن يحترم قليلاً الأشياء والناس والرفاق، وكان يتعلم الحياة مع الآخرين، وكانت مكاناً تأخذ فيه الأشياء موقعها. أما الآن، فربما أذهب للقول بأن الوضع معاكس. لقد تحوّلت المدرسة إلى مكانٍ لانعدام التربية؛ أي أنّ أولئك الذين يأتون إليها قبل أن يستسلموا والذين يؤمنون بما ستقدمه لهم الثانوية المهنية هم في خطر. هذا الجو، ذلك العنف والخوف الذي يولّده عند أولئك الذين يعانون منه طيلة سنوات لا يمكن إلاّ أن يترك آثاراً على الفرد، على والد المستقبل غير المسؤول، على المواطن.

[...]

اليوم، لم يعد يوجد تقريباً لا مراقبون ولا كل ذلك. لذا، فحين يكون لدينا أربعون أستاذاً لخمسمائة طالب، ويرتفع عدد الطلاب في الصف من خمسةٍ وعشرين إلى ثلاثين طالباً(...) فإن ميزان القوى يميل لصالح الطلاب، وبشكل خاص الزعماء منهم، زعماء الصفوف وزعماء المدرسة، الخ. ونحن نعرف طلاّباً يسجّلون أنفسهم في المدارس كعصابات. إنها أمورٌ من الممكن معالجتها لو أخذنا بعين الاعتبار واقع أن المدرسة لم تعد مكاناً للتأهيل المهني وحسب، بل هي أصلاً لم تعد تقدم بالفعل مثل ذلك التأهيل، لكنها أولاً مكانٌ لاستقبال الطلاب الذين لفظتهم الإعداديات والثانويات العامة: والاستقبال يعني وجود أنظمةٍ لتحقيقه، وكذلك كوادر من الراشدين كالموثّق والمساعدة الاجتماعية والطبيب المدرسي ومراقبي القسم الخارجي وموظفي الصيانة.. ينبغي أن يتمكن اليافعون من أن يشعروا باحتواء الراشدين لهم، بمساندتهم لهم. وحين يتمّ ذلك، حين يُعاد خلق ظروف استقبالٍ إنسانية، تستعيد وزارة التربية الوطنية دوراً تربوياً.

◆ وما هي أكثر التطورات بروزاً اليوم ؟

هيلين ا.: إن ما يبدو لي الأكثر بروزاً هو انخفاض مستوى الطلاّب الذين يصلون إلينا(...) مهما قال وزيرنا عن ذلك. ثم إنّ ما أجده شديد

الخطورة... ويرعبني... لا أعرف كيف أشرح لك ذلك. {يعبّر وجهها وصوتها عن شكلٍ من الإرهاق}. إننا نجد أنفسنا مع قطيعٍ يمكن أن يكون شديد اللطف، بل ربما مليئاً بالإرادة الحسنة، لكننا نشعر ضمنه بصورةٍ متزايدة بثقل الزعماء الذين يمكنهم هنا أن يمارسوا زعامتهم وقيادتهم...، ويجرّون ذلك «المجتمع» الشديد الضبابية الذي تشكّله جماهير مؤسسةٍ مدرسية ما إلى أمورٍ لا تصدّق إطلاقاً. (...) لأنّ هناك هوّةً قائمة بين ما هم عليه جسدياً وبين ما تحتوي رؤوسهم عليه. (...) بالنسبة لهم، فإن ملاذهم هو اللجوء بصورةٍ متزايدة إلى فرض أنفسهم جسدياً. (...) قبل بضعة أيام، سمعت بعض الطلاّب يقصّون منجزاتهم في المدرسة التي كانوا فيها سابقاً: «كم غرقنا في الضحك مع مدرّس السكرتارية! هل تذكر؟!...» فقد تسلّى أحد الطلاّب بتفكيك الآلة الكاتبة. جاء المدرّس وطلب منه التوقف، لكن الطالب تابع ما يقوم به. اقترب المدرّس وقام بحركةٍ ليقف بين الطالب والآلة. حينذاك قذف الطالب الأستاذَ على مشعّ التدفئة المركزية. وحين نهض الأستاذ، كان عنقه ينزف... «كم تسلّينا!» ففي ذلك اليوم مال ميزان القوى لصالحهم. هذه الحادثة مؤشّر واضح على تطور الأوضاع الحالية... لا أظن بأن هناك أستاذاً واحداً بمنأى عن ذلك.

❖ هل يبدو لك هذا الأمر أخطر بكثير من السابق؟

هيلين أ.: نعم، وبشكلٍ واضح. فحين كنت أقوم بدوراتٍ تدريبية في مجال التأهيل قبل عشر سنوات، كنت أتعامل مع أولاد تمّ تحويلهم من وزارة التربية الوطنية، وكنت في بعض الأحيان أذهب لأُحضرهم من السجن لمساعدتهم على العودة إلى الدورة التدريبية. كانوا يقومون بالتكسير أو أشياء كهذه وكانوا إذن أوغاداً صغاراً. لكنهم لا شيء بالمقابل مع البعض الآن. لم أكن أشعر بهذا العنف!

تشرين الأول-اكتوبر 1992

غابرييل بالاز وعبد المالك صياد

عنف المؤسسة

في أيام الأزمة هذه، بدا لمدير تلك الإعدادية التي تقع في «حيٍّ صعب» صُنِّف كـَ «منطقة لها أولويةٌ تربوية» أنّ إجراء لقاءٍ مع عالميّ اجتماع قدّمهما له مسؤولٌ عن دراسات المدينة أمرٌ بديهي. كان من الممكن لهذا المعلّم القديم البالغ حوالى الخمسين من عمره والمنتمي لنفس المنطقة أن يتوقّع ما هو أفضل. فقد تبدّلت وظيفته تدريجياً بفعل المصاعب التي يصادفها ويثيرها في التعليم الثانوي أبناء الأوساط البعيدة جداً عن المدرسة من الناحية الاجتماعية، والتي تجلّت من جديد في التوترات التي ظهرت في المدرسة منذ تشرين الأول-أكتوبر عام 1990؛ لقد أصبحت وظيفته تقضي بأن يحلّ يوماً بعد يوم تظاهرات العنف، كبيرةً كانت أم بسيطة. وبالإضافة إلى انتباهه الدائم للحفاظ على نظافة المباني رغم التجدد السريع للكتابات على الجدران وللوقاية من هذا النوع من التشويه، فإن عليه أيضاً أن يقف أمام باب المبنى أثناء كل دخولٍ وخروجٍ للطلاّب وذلك لتجنّب أيّ اعتداء على الأساتذة والطلاّب وليمنع المشاجرات بين الطلاب داخل حرم المدرسة. ولكي يؤمّن فعالية هذا النظام العام، ولكي يحاول أن يخلق الظروف الكفيلة بجعله غير ضروري، فإنه مُجبَر على السكن في المدرسة ولا يلتقي بزوجته، التي تدرّس الفيزياء في ثانويةٍ كبيرة في مدينة ليون Lyon، وبأولاده إلاّ في عطلة

نهاية الأسبوع. كما أنّ عليه أن يقيم علاقاتٍ منتظمة مع مجموع سُلطات المدينة؛ وعليه بشكلٍ خاصٍّ أن يتأقلم مع خصائص الناس الذين يتعامل معهم، وأن يأخذ على عاتقه نوعاً ما العنف دون أن يضخّمه، وذلك بفضل معرفته لتلاميذه ومختلف حيَل فرض النظام.

من وجهة النظر المدرسية، فإن نتائج هذه الإعدادية ليست أسوأ من غيرها وذلك على عكس الآراء التي سمعناها؛ إنها تُوافِق المعدّل الوسطيّ للمقاطعة، وبصورةٍ خاصّة في ما يتعلق بالنجاح في الشهادة الإعدادية (وإن كانت نسبة الطلاب المتأخرين دراسياً في الصف الأول الإعدادي هي 65% بينما هي 35% في المقاطعة). ومن حيث الإحصائيات الاجتماعية المتعلّقة بالطلاب- معظمهم من أوساط شعبية وثلاثة أرباعهم من أبوين أجنبيين- فالمدرسة هي من بعيد الأكثر فقراً في المقاطعة؛ فمثلاً لا نجد فيها أي ابنٍ لمعلّم. هناك صفٌّ لاستقبال الأطفال الذين وصلوا لتوّهم من إفريقيا أو من آسيا أو من أوروبا، إلاّ أنّ الغالبية العظمى منهم تنحدر من عائلاتٍ جزائرية استقرت في فرنسا منذ فترةٍ طويلة. ويرتفع عدد الطلاب الحاصلين على منحةٍ دراسية إلى 75%، في حين أنها لا تمثّل سوى 30% في المقاطعة ككلّ. ولا يكفي الأساتذة أهمية الانتماء منذ عام 1982 إلى «إعدادية تجريبية للتجديد» ولا كون عدد الأساتذة 36 أستاذاً لـ400 طالبٍ فقط- مقابل 600 في الثمانينات-، ولا حتى القرب من ليون لاستبقائهم، فهم دائماً في حالة انتظارٍ للانتقال. إن وجود وصايةٍ مكثّفة، وبعموميةٍ أكبر، وجود عددٍ لا بأس به من الكوادر لا يمنع الطلاّب الذين يسكنون في الأحياء الهامشية أو بعض التجمعات السكنية ذات الإيجار المعتدل HLM من الفرار من الإعدادية. ويطلب آباؤهم استثناءاتٍ لنقلهم إلى المدارس الحكومية الأخرى.

يبرز من لهجة خيبة الأمل لأقوال ذلك المعلّم الجمهوري القديم ذي الأصول الشعبية والذي يقول بأنه لطالما أرّقه همّ أن يعرف «ما الذي ينبغي عمله لإنقاذ أكبر عددٍ ممكن من الطلاّب»، يبرز كلّ الحزن الذي تُمليه عليه تجربته: فنفوره من عنف الطلاّب، وكذلك نفوره من ذلك الذي تمارسه

المؤسسة المدرسية يتنازعان فيه ويجعلانه يشعر بعدم الارتياح حين يجد نفسه مكرهاً على استخدام العنف خلافاً للتصور الذي كان لديه عن المدرسة وعن مهنته كمربي. إنه لا يستطيع أن يتقبّل أن توصَف المدرسة اليوم بأنها مركزٌ للشرطة وأن يرضى بأن يعتبر نفسه مجرّد حارسٍ للنظام، مجبر على «القيام بإجراءاتٍ عنيفة ومفاجئة». لقد دخل دار المعلمين في السادسة عشرة من عمره، وبدأ سلكه الوظيفي كمعلّم في ضاحيةٍ معدمة، ثمّ علّم ثلاثة عشر عاماً في أحياء فقيرة، وبالتالي فقد عمل كلّ ما بوسعه ليقوم بصورةٍ لائقة برسالة المؤسسة التعليمية كما يراها، أي تقديم ما هو الأكثر جدوى، والذي لا غنى عنه بالنسبة للأطفال المأسورين في الأحياء التي توصف بِ«الصعبة» ، أي الاحترام المطلق الذي يقدّمه لهم الأساتذة، وتقديم الوسائل القليلة المتاحة لمساعدتهم على الخروج من تلك الأحياء، وربما على أن يكونوا مستقلّين يوماً ما. لذلك كلّه، فهو يجد صعوبةً في أن يغفر للمؤسسة المدرسية أنها تضع أكثر موظّفيها ولاءً لمهنتهم ضمن ظروفٍ تمنعهم من أن يقوموا بشكلٍ حقيقي بهذه المهمة، هذا إن لم تجبرهم على النكران التام لما علّمتهم إياه، أي المعتقدات والقيم ذاتها التي اختاروا من أجلها في العشرين من عمرهم أن يقترنوا كما يُقال «برسالة المعلّم».

مع مدير إعدادية

أجرى اللقاء غابرييل بالاز وعبد الملك صياد

«لقد عانينا الكثير هذا العام»

م.راموس: تمرّ فترات توتر شديد ثم فتراتٌ أخرى أكثر هدوءاً بقليل. هذا العام، كانت الأمور معقولة في بداية السنة الدراسية، ثمّ حصلت تلك المظاهرات. وشارك طلاّبنا فيها، بعضهم على الأقل، بشكلٍ فعال. البعض الآخر شاركوا عبر عائلاتهم، أشقائهم أو شقيقاتهم الأكبر منهم سناً. لقد كان هناك نمطان مختلفان جداً من ردود الأفعال عند الأهل، لكن الأولاد عاشوا في جوٍ من الهستريا خلال خمسة عشر يوماً، ثلاثة أسابيع، شهر. هستريا مناصِرة للمتظاهرين أو هستريا معادية للمتظاهرين. وقد عملت إعداديتنا كلّ يوم، دون أي انقطاع. تناقش بعض الأساتذة مع الطلاّب في بداية دروسهم، فقد رأوا بأنّ التوتر كان من الشدة بحيث لم يكن يفيد في شيءٍ على الإطلاق البدء في الدرس، لذلك فقد كان ينبغي الحديث عن الأمر... لكن مع ذلك، وحتى خلال الأسبوع الأول من المصادمات، حدث أن قال بعض الأساتذة للطلاّب: «هل تريدون أن نتحدّث في الأمر؟» فأجاب الطلاّب: «كلاّ، ابدأ الدرس». لذلك، فقد تفاوت الأمر كثيراً من صفٍ إلى آخر، وربما حسب شخصية المدرّس.

❖ ألم تحصل حالات غياب خلال المصادمات؟

م.راموس: أبداً، حضـر الطـلاب إلـى المدرسـة وكنـت مسـروراً جـداً، فالمدرسة هي المكان الوحيد الذي يُفلتون فيه من الهستريا العائلية، مهما كان الجانب الذي تميل إليه. وقد تلقينا كمية كبيرة من الاتصالات الهاتفية...

❖ من العائلات، من الأهل؟

م.راموس: مـن العـائلات التـي كـانت تقـول لنـا: «مـا الـذي يجـري؟ إننـا نسمع ضجيجاً، سوف تُهاجَم المدرسـة. هـل الأمـر خطـير؟». جـاء رب إحـدى العـائلات وقـال لـي: «هـذا مستحيل. سوف أهـرب»، وذهـب لمدّة أسبوع إلـى منطقـة دروم Drôme. لكن هـذه الحـالات تبقـى مـع ذلـك هامشـية. بعـض الأهالي جاءوا وقالوا لي: «اسمع، سوف نُخـرج أولادنـا، لا يمكننـا أن نتركهم هنـا، لا يمكن لنا أن نجازف» فقلت: «اسـمعوني، بالنسـبة للخطـر، لقـد رأيتـم بأنفسـكم، لقـد أتيتـم، ليس هنـاك كارثـة»، إذن، أُخـرج طـالبٌ أو اثنـان وليـس أكثر بتلك المناسبة، بالارتباط مع تلك المناسبة.

❖ إخراجاً نهائياً؟

م.راموس: نعم، نعم، هناك طلاّبٌ رحلوا بصورةٍ نهائية.

الهيجان لم يتناقص

م.راموس: حصل ذلك خلال شهر تشـرين الأول. لقـد كـان غليانـاً إذن؛ وخـلال شـهر تشـرين الثـاني حـدث التحـرّك الكبـير لطـلاّب المرحلـة الثانويـة وحصلت بعض النتائج مما أدّى إلى استمرار شكلٍ من الـهيجان. عـلاوةً على ذلك، فلو ذهبتم إلى مركز البلدية سوف ترون بأن الهيجان لم ينتهِ تماماً منذ تشـرين الأول وأنـه تبقـى هنـاك كميـةٌ لا بـأس بـهـا مـن الأمـور المسـتوطِنة. فـالاعتداء برمـي الحجـارة أصبـح طريقـةً فـي التعبـير، بمـا فـي ذلـك بالنسـبة للشـريحة التـي تـتراوح أعمـار أفرادهـا بـين عشـرة أعـوام وأربعـة عشـر عامـاً، وهذا ليس مسلّياً أبداً. هنـاك خطّان للحافلات يمرّان من أمام المدرسة. وفي شهر شباط، كانت الحافلات تمتنع عن المرور بمجرّد أن يحين موعد الدخول إلـى المدرسـة، ربمـا كـانت خسـائر حـافلات الركـاب بحـدود خمسـين مليـون

سنتيم، ما بين نوافذ محطّمة ومقاعد ممزقة؛ فحين تتوقف الحافلات في موقف المدرسة، يصعد إليها الطلاب ويكسرون كلّ شيء ثم ينصرفون. لقد جرى إذن إيقافٌ لبعض الخطوط في ساعاتٍ معينة. كانت تلك إذن فترة توتر. بعد ذلك، في كانون الأول، هطلت الثلوج؛ تبدو الثلوج وكأنها لاشيء، لكنها مشكلة...

❖ هي مناسَبة لصنع كراتٍ من الثلج.

م.راموس: نعم، كرات من الثلج، وأنا أذكر أنني لعبت فيما مضى بكراتٍ من الثلج، هذا مسلّي، لكن بما أنني لست قمعياً جداً ولديّ رغم كل شيء ذكريات طفولةٍ مع الثلج، فإنني لم أتخذ إجراءات منعٍ لكرات الثلج، في حين أنّ زملاء آخرين لي اتخذوا مثل تلك الإجراءات. لكنني اضطررت لاستدعاء رجال المطافئ وإرسال الطلاب إلى المشفى. لم يكن ما قذفوه كراتٍ من الثلج بل كتلاً من الجليد. كان أقسى شيء، أسوأ ما في الأمر، فقد حصلت إصاباتٌ في فروة الرأس، أشياء من هذا القبيل. وحصلت بصورةٍ خاصة اعتداءاتٌ على أناسٍ من الحي عند الانصراف.

❖ على أناسٍ من الحيّ؟

م.راموس: نعم، أشخاص كانوا يمرون بسياراتهم فقذف عليهم الأولاد عشراتٍ من كرات الثلج على الزجاج الأمامي وكان سائقو أو سائقات السيارات يتوقفون ويفتحون النافذة ويتلقون تلك الكرات ملء وجوههم؛ إذن، نتج عن ذلك جرحى، وسُجِّلت شكاوى. إذن، لم تتحسن صورة المدرسة في الحيّ. حصل هذا في كانون الأول، وفي كانون الثاني وشباط حصلت حرب الخليج، وتجلّى انعكاسها مثلاً في دروس التربية الرياضية باستخدام عباراتٍ من نمط «صدام حسين، صدام حسين» أثناء الإحماء؛ هذا بالإضافة إلى الكتابات. في شهر شباط الذي بدأت في الحادي والعشرين منه العطلة الانتصافية، حصل توتر شديد للغاية. لقد كانت الأمور في الإعدادية صعبةً جداً. بعض الأساتذة أخذوا إجازات مرضيّة؛ في وقتٍ معيّن، كان لديّ خمسة مدرّسين مجازين صحياً ولم يعوّض سوى واحدٍ منهم

فقط، لذلك ليس من داعٍ للقول بأن المشاكل تصاعدت، وأن غياب المدرّسين- وهو مبرر، وليس لديّ أية انتقادات حول هذا الموضوع - قد زاد في تفاقم المشاكل؛ إذن، في ذلك الوقت، كان الجميع منهكين.

أتت عطلة شباط في الوقت المناسب. وبعد انتهائها، مرّت فترةٌ هادئة. حصل هدوءٌ كبير لأن شهر رمضان لم يترك مجالاً للهيجان. لكن في رمضان عندنا وفي يوم العيد أي في السادس عشر من آذار الماضي، كان عدد الطلاّب المداومين 160 طالباً من أصل 410 أو 420، وفي بعض الصفوف، كان هناك أربعة طلاّب من أصل خمسةٍ وعشرين. إذن، هذا الحيّ موسومٌ بصفة خاصة. أذكر مشاجراتٍ في طفولتي، حين كان طالبان يتشاجران في الباحة، فكان ثلاثة أو أربعةُ طلاّب يقفون ليتفرّجوا؛ أما هنا، فالطلاّب شديدو الشراسة ولا يمكن لنا أن نقبل ببدء أية مشاجرة والطلاّب الذين ينحازون...

◆ لأن ذلك يجرّ مشاجراتٍ أخرى أم ماذا؟

الجو السائد هنا يتسم بالقسوة والعنف

م.راموس: نعم، لأنه حين يتشاجر اثنان، يلتف حولهما مائتان، لأنه لا يمكن للأولاد الذين يتشاجرون أن ينهوا مشاجرتهم إلاّ بصورة عنيفة جداً لأنهم يُدفَعون، ولأنهم مستثارون... وبالتالي لا يعود بالإمكان السيطرة على الوضع. والنتيجة أنني استطعت أن أمنع حدوث 99،5% من المشاجرات داخل الإعدادية، وكلامي هذا مؤكّدٌ إحصائياً. المشاجرات تتم الآن في الشارع أمام المدرسة، ولست متأكداً من أن صورة المدرسة قد تحسنت بشكلٍ واضح. إذن، يحصل أن أعاني أحياناً من بعض المشاكل... لنقل أن الجو السائد هنا يتسم بالقسوة والعنف.

[...]

إذن، يحدثوننا عن بعض الأمور مثل المخدرات... حسناً، الناس هنا في هذا الحي، حي سان جاك Saint-Jacques، الناس الذين يسكنون في

الأبنية الشعبية مُستَقطَبون تماماً حول مشكلة المخدّرات: إنهم يحدثونني عن المخدرات في كلّ مرة أتحدّث فيها في اجتماعات الحيّ. المخدرات، المخدرات، المخدرات. لقد ذهبت لأرى، وشاركت في دورات تدريبية، لديّ بعض المعلومات عن المخدرات؛ رأيت الحشيش والهيروين لأول مرة في حياتي منذ حوالى الشهر، وذلك في دورة تدريبية، ورجال الشرطة هم الذين أروني إياه في حقائبهم.(...) أظنّ بأنه يمكنني أن أقول في كافة الاجتماعات أنه، في المقام الأول، لا علم لديّ بوجود مخدّرات قوية في مدرستي. لقد سمعتُ الكثير لدى مجيئي وكنت مذهولاً لكلّ ما كان يُقال لدرجة أنني سألتُ، وطلبت المعونة من مديرية التربية، فعيّنوا، أعاروني طبيبين مندوبين تعاقدت معهما الدولة، ودُفعت لهما رواتبهما بهدف محدّد هو إجراء أبحاث حول المخدرات وما شابه ذلك.

إذن، وخلال فصلين دراسيين، فصل في عام دراسيّ وفصل آخر في عام دراسيٍّ آخر، أمضى طبيبان مختلفان فصلاً دراسياً كاملاً في الإعدادية. لقد استطاعا أن يريا كلّ الطلاّب، رأيا بشكل منهجيّ كلّ طلاّب مستوى معيّن هو مستوى الصف التاسع. ثم فحصا كلّ الطلاّب الذين لديهم بداية شروع مشكوك بأمره... أتعلمين، حين أذهب إلى اجتماع ويقول الناس الذين يعرفون كلّ شيء: «يكفي النظر إلى الأولاد المذهولين نوعاً ما أو الذين يبدو عليهم النعاس في الصباح» فإنّ هذا يضحكني، لأنّ 80% من الطلاب لديّ يبدو عليهم النعاس صباحاً، ذلك لأنهم شاهدوا التلفزيون حتى الثانية صباحاً. لم يُظهر أيٌّ من التقريرين اللذين أعدّهما هذان الطبيبان اللذان قاما بالدراسة في الإعدادية أية شبهة بتعاطي المخدرات. لقد وجدا مشاكل سوء تغذية وأشياء من هذا القبيل، لكنهما لم يجدا على ما أظن أية شبهة بتعاطي المخدرات، أقصد القوية منها. أما بالنسبة للمخدرات من نوع الحشيش فإنني أقول أنني حلتُ دون 99% من حالات تدخين الحشيش في الإعدادية مثلما تمكنت من منع قيام 99% من المشاجرات فيها؛ لقد وضعت حواجز شبكية لأنه لم يكن بإمكاننا أن نراقب الطلاب في كل مكان. إذن وضعت هناك ذلك الحاجز الشبكي الذي يحدد الباحة، وهو يمنع الطلاب

من الذهاب للتدخين هناك خلف المباني؛ ففي أول عامٍ أمضيته هنا كان ينبغي الركض باستمرار حولها..

[...]

◆ بهذه الطريقة يبقى الطلاب تحت الأنظار.

م.راموس: نعم، الأمر كذلك. وبما أنه لا يتم التدخين ضمن المباني، فالمكان الوحيد الذي قد يتم فيه التدخين، وليس كثيراً، هو المراحيض، المراحيض التي هي قلعة تقاليد تدخين الحشيش، لكن الأمر مع ذلك محدودٌ جداً. وبعد أن قلتُ ذلك، فأنا أضيف بأنّ هناك أيضاً طلاّب يصلون صباحاً إلى الإعدادية، وعلى بُعد 45 سنتيمتراً مني، لا أكثر ولا أقلّ، يسحقون سيجارتهم علناً ليُظهروا لي بأنهم يدخّنون فعلاً، وليست لديّ أية وسيلة للتأكد إن كان يوجد شيء غير التبغ في السيجارة؛ هذا كل شيء، هذا كل ما أستطيع أن أقوله حول المخدرات. أما بالنسبة للمشاجرات، فإنني أخشى، إنني أخشى. لقد حصلت مشاجرة لم نتمكن من كبحها خلال الثواني الثلاثين الأولى فانتهى الأمر ببقاء ولدٍ في المشفى لمدة شهر نتيجة تلقّيه ضربة سكينٍ في بطنه. حصل ذلك منذ عامين، ومنذ تلك الحادثة، أصبحتُ نوعاً ما..

◆ .. حذراً؟ أنت تصف قليلاً الجوّ السائد أو العدوانية أو العنف، لكن هل اختلف الوضع منذ الأحداث الأخيرة؟ إذ تبعاً لما وصفتَه شهراً فشهر، فإنّ العديد من الأمور قد..

م.راموس: أقول لك بأن الأولاد الذين شاركوا في المصادمات، وكلّ ذلك، ليسوا هم الآن الذين يزرعون عدم الوفاق أكثر من سواهم، إنّ من يقوم بالاعتداءات ويجعل الحياة في الحيّ مُضنية هم الذين تتراوح أعمارهم بين عشرة أعوام وستة عشر عاماً. خلال الأحداث، سُرقت سيارة الإعدادية وحُرقت؛ لا أعلم ما إن كنتم قد رأيتم الأخبار في التلفزيون... لا أعلم إن كنتم تتذكرون، لقد كانت شاحنةً صغيرةً قامت بالعديد من الرحلات بين مركز الأمن والمتظاهرين، وكان...

◆ هل كانت تلك سيارة المدرسة؟

م.راموس: المرحومة سيارة المدرسة. لم تحصل منذ ذلك الحين تجاوزاتٌ أخرى، لا أعلم، لقد قدّمتُ شكوى مرّتين هذه السنة، إحداها من أجل سيارة الإعدادية والثانية من أجل سرقة في مكتب المسؤولة. لكن هذا الأمر هو تقريباً...

إننا نتقبّل اموراً غير مقبولة في امكنة اخرى

❖ هل يمكن أن يكون هناك طلاّب مبتدئون متقدمون نسبياً في العمر؟

م.راموس: نعم، نعم! في الأول الإعدادي، لدينا طلاّب يأتون من صف الملاءمة الذي نحاول فيه تحويل الطلاّب بأسرع ما يمكن إلى الصفوف النظامية، ويتراوح عمر الأولاد الذين يأتون إلى الصف الأول الإعدادي من صف الملاءمة بين أحد عشر عاماً وخمسة عشر أو ستة عشر عاماً. أظن أن لديّ طالبٌ أو اثنان في الأول الإعدادي بعمر ستة عشر عاماً.

❖ وأنتم تتقبلونهم لأنهم عادةً يرسلون إلى أقسام التربية الخاصة...

م.راموس: هذا أكيد، هذا أكيد. لكننا نتقبّل أموراً لا يتم تقبّلها في مكانٍ آخر، هذا أكيد (...) لقد مرّت فترةٌ من الاضطراب، ثمّ إنّ الناس متعَبون ويوجد شيءٌ من المرارة وخيبة الأمل لأننا أُنهكنا كثيراً هذا العام وتعبنا كثيراً. وأنا أبوح لكِ بأمرٍ شخصيّ، فأنا محظوظٌ لأنّ بنيتي الجسدية قوية وأنا كنتُ أعتقد يا سيدتي الطيبة بأنّ أموراً كهذه لن تحدث لي أبداً، أنني لن أتعرّض أبداً لأن أذهب إلى الطبيب وأقول له: «لم أعد أحتمل، لم أعد أحتمل»، وأن أتناول المنوّمات، لم أكن أعتقد أنّ ذلك يمكن أن يحصل لي أنا. كنت قد قررت بأن هذا لن يحدث لي أبداً. حسناً، لقد اضطررتُ لتناول المنومات في شباط لأتمكن من الصمود خلال الخمسة عشر يوماً الأخيرة قبل العطلة. لقد أحزنني ذلك كثيراً، وذلك بالتحديد لأنني كنت شديد الاعتداد بنفسي وكنت أظنّ بأن أموراً كهذه لا يمكن لها أن تحصل سوى للآخرين، لكن بالتأكيد ليس لي أنا. (...) إذن، فقد كنت في بعض الأحيان أشعر بالضياع

وبالتعب الشديد - وأنا لست الوحيد الذي يعاني من هذه الحالة. (...) أتمنى أن أتمكن من النوم بشكلٍ طبيعي خلال عطلة عيد الفصح. وأنا لست أشتكي، لكنني أحكي لك ببساطة.. لقد جرت أحداثٌ أثّرت على المباني، وحصلت عودةٌ للعدوانية تجاه الأساتذة. أحد زملائي في الإعدادية رأى بأم عينه محاولةً خطيرةً جداً لإشعال حريقٍ في المدرسة بعد فترةٍ وجيزة من أحداث تشرين الثاني. ومنذ خمسة عشر يوماً أحرقت سيارة، ومنذ أسبوعٍ نُقلت إلى المشفى إحدى الناظرات، وكانت تراقب دخول الطلاّب صباحاً، لإصابتها بحجرٍ في رأسها. في إعدادية ب. وإعدادية ن.، يوجد أيضاً ذلك العنف الكامن المصحوب بالاعتداءات وما شابه ذلك. وخلال عيد الفطر، ذهب ثلاثةٌ من طلاّبنا إلى إعدادية ن. ورموا الحارسة وكلبَها بالحجارة. بيد أن الناس قد سئموا الآن ولم يعودوا يخرسون بالضرورة، لذلك فقد قدمت الحارسة شكوى وسجلها رجال الشرطة الذين سئموا هم أيضاً، وكان للأمر تتمة فتمّ استدعاء الطلاّب إلى مخفر الشرطة، واستدعاهم أيضاً أحد القضاة، ويبدو بأن أخصائيي التربية قالوا للأهالي: «لا تستسلموا» فجاءت ريتا منزل لمقابلتي وزجري لأن ولديهما... إذن، إذا شئت، فالأمر مسلٍّ نوعاً ما، فالتلاميذ يدرسون في مدرستنا، وهم خارجها خلال يوم عيدٍ ديني يُقبَل غيابهم خلاله؛ وقد ذهبوا ليثيروا الفوضى في إعداديةٍ مجاورة، وقدّم الناس من الإعدادية الأخرى شكوى، ثم يكون الزجر من نصيبي أنا.

[...]

بعد أن حرقت سيارة مدير إعدادية ف.، اجتمع الأساتذة العاملون في الإعداديات الأربعة الموجودة في المنطقة وفي الثانوية المهنية يوم الثلاثاء الماضي على أثر شيءٍ من الغليان، وكنا ثلاثة مدراء مشاركين في الاجتماع. والحقيقة أنه انتهى برسالةٍ أرسلها أساتذة كلّ تلك المدارس إلى مفتّش الأكاديمية، إلى مدير التربية، وقالوا فيها: «نودّ لو تؤخذ أخيراً بالحسبان ظروف عملنا وحياتنا الصعبة»، فالواقع أننا نتحملّ من المصاعب أكثر بكثير مما يتحمّله غيرنا، ونتحمّل من الطلاّب أكثر بكثير.

حين يرتكب أحد الطلاّب حماقةً في مؤسسة تسمّى بالعاديّة، فإنه يُطرد، لكننا نحن لا نطرده إذا ارتكب نفس الحماقة، بل نوجّه له الإنذار الأول أو الخمسين. وحين نُدفع لطرد تلميذ، حين أهتف لأحد زملائي وأقول له: «اسمع، سوف أرسل لك تلميذاً، وهو خاضع لالتزامٍ مدرسي؛ إن أنا طردتُه من الإعدادية فسأكون مُجبراً على حبسه في مكانٍ ما»، فيقولون لي: «اسمع، أنت لطيف جداً، نود فعلاً لو نقدم لك خدمة، لكن إذا جاء أحد طلاّبك، فلن يقبل الأساتذة به، وسوف يضربون عن العمل، وكل ما هنالك»؛ والنتيجة أننا نُساق نحو تبادل التلاميذ في ما بيننا، لكنهم لا يتركون المنطقة، وقد دُفعت للقول بأن إحدى الطرق لمساعدتنا هي مثلاً في طلب المعونة من التفتيش. وحين نُدفع حقاً للتخلص من أحد التلاميذ لمصلحته ولمصلحة الطلاب الآخرين فربما يساعدوننا في العثور على مهبط لهذا التلميذ، أي أن لا نُجبر نحن على القيام بالتسوّل... أن يقول مفتّش الأكاديمية الذي له صفة المقرّر: «الطالب الفلاني سوف يوضع في المؤسسة الفلانية، والأمر انتهى.»

❖ لقد حصل منذ فترة قريبة، هذا الذي تتحدث عنه هنا حول الناظرة التي...

م.راموس: تماماً، كان ذلك في الأسبوع الماضي. وبعد ذلك... لقد عُيّن مدير التربية الجديد في ليون منذ شهر. كان قد وصل لتوّه وكان عليه المجيء إلى إحدى إعداديات المنطقة، وذلك في إطار مبادرةٍ تربوية هي مبادرة الصحافة في المدرسة؛ كان الموعد المحدد لمجيئه يوم الجمعة، ومساء الخميس حُرقت سيارة زميلي. إذن، فقد سألنا المدير بكلّ تهذيب إن كان بإمكانه الاجتماع بنا بمناسبة قدومه، فاستقبلنا وقلنا له بأنّ الأمور ليست على ما يرام، بل إنها ليست جيدة على الإطلاق في القطّاع، وذلك دون أن نُظهر الأمر وكأنّه كارثة، فقد مرّت علينا ظروفٌ سيئة أخرى. وسألناه، فأجابنا قائلاً: «حسناً، هناك تفسيران مُحتَملان، إمّا أن الأمر جزءٌ من الحركة الاجتماعية، وفي هذه الحالة يكون الوضع عامّاً وربما يكون هناك حاجة لحلولٍ عامة، أو أنه جزءٌ من محاولةٍ لزعزعة وزارة التربية الوطنية؛

وتكون وزارة التربية الوطنية في هذه الحالة هدفاً لِ...»، إذن، فقد قال: «أنا بالكاد وصلت إلى هنا»، وهذا يتضمّن كما تعلمين... لأنني هنا أبسّط الأمور كثيراً، فقد لاحظ مراقبون من وزارة التربية الوطنية أو أنّهم رأوا من المناسب أن يلاحظوا أنّه خلال الأحداث، فإنّ المراكز المدرسية، الثقافية، لم تطلها الأحداث، أي أن الحرائق وعمليات السرقة طالت المراكز التجارية، لكن المعدّات الثقافية والمدرسية لم تُمسّ، وقد صاغوا الكثير من النظريات انطلاقاً من هذا الأمر، حسناً. إلاّ أنني لستُ مقتنعاً... [...]

وفي نفس اليوم الذي جرت فيه الأحداث، حُرق أحد صفوف المدرسة الابتدائية التي تقع مقابل الإعدادية، هناك في الخلف بالكامل أثناء الاشتباكات، وقد قامت الحواسيب مقام القذائف لكسر النوافذ، وتلك المدرسة تتمتع بأقصى الميزات (نحن نقوم بالابتكار، لكن إذا قورنّا بهم، فما نقوم به مسخرة؛ أي أنّ لديهم أساتذة مؤهّلون في مجال المعلوماتية، ولديهم مركز للمعلوماتية، لديهم في المدرسة معدّاتٌ معلوماتية لا أعرف تماماً ثمنها). لا يمكننا إذن القول بأن تلك المدرسة قد نجت كثيراً. ولست أقول أيضاً بأن تلك المدرسة بالذات كانت مستهدَفة..

في الأيام التالية، احترقت دار حضانة، واستوجب الأمر إغلاقها لمدّة خمسة عشر يوماً، إذن فالأمر ليس دون أهمية. وأنا لا أتحدّث هنا عن سيارة الإعدادية، ولا أتحدّث عن بداية تشرين الثاني حين احترق في ب. صفٌ بأكمله ونصف صف آخر، لقد وجدوا لدى حضورهم عشرين لتراً من البنزين في أوعيةٍ لم يتم إفراغها. لقد حُرق صفٌ واحد، ولو أُفرغت العشرون لتراً لكان حقاً حريقاً كبيراً نوعاً ما، ولو لم ينطلق جهاز الإنذار... هكذا هو الأمر، لذلك فإنني لا أظنّ...

لكن المدير الذي كان قد جاء لتوّه وقرأ تقريراً يقول بأن وزارة التربية الوطنية قد رُحمت خلال الأحداث، وقدمنا له نحن وضعاً يظهر فيه بأننا لم نُرحم كثيراً، كانت ردة فعله أن قال: «إذن ربما كان هناك... لقد قاومت وزارة التربية الوطنية جيداً خلال الأحداث، أتساءل إن كان هناك الآن

محاولة لزعزعة مؤسسة قاومت جيداً مثلما حدث قبل بضعة أعوام حين كان هناك محاولة لزعزعة الشرطة...» إذن، فقد طلب المدير مقابلة رئيس جهاز الشرطة واستقبلنا المسؤولون في الشرطة منذ أسبوع نحن المدراء الخمسة ومعنا مدير ثانوية التعليم المتعدد المواد حيث ذهبنا إلى إدارة المقاطعة لشرطة المدينة منذ أسبوع وحاولنا أن نناقش مع رجال الشرطة ما يمكن عمله، ولم يكن هذا مسلياً...

لا أستطيع السماح بوجود الكتابات

❖ خلافاً لمناطق أخرى، فإنه يبدو أنّ الناس لا يستسلمون، وقد أدهشني ذلك، لأنه في حالاتٍ كهذه، فإنّ الناس، الهيئة التعليمية، المدراء... كل أنواع العاملين، من المعتاد أنْ يكونوا ربما مُحبَطين نوعاً ما، لكن هذا كل شيء. يكونون فاقدي الأمل... أما هنا، فقد تشكل لديّ انطباع بأن هناك العديد من المبادرات...

م.راموس: ينبغي البقاء على قيد الحياة... نعم، ينبغي بالطبع البقاء على قيد الحياة، فلا يمكننا خلاف ذلك. أنا أستطيع مثلاً أن آخذك في جولة داخل الإعدادية وسترين، أنا لا أتسامح بوجود أية كتاباتٍ على الجدران. سوف نقوم بجولة في الإعدادية لكي ترى بنفسك -حين يكون هناك كتابة على أحد الجدران فالأولوية تكون لإزالته: ذلك أنّه ينبغي إزالة أية كتابة على الفور، لأنها لو تُركت ساعةً واحدة سيكون هناك بعد ساعةٍ عشر كتابات، وبعد ساعتين سيكون عددها مائة وخمسون، هذا كلّ شيء. بالنسبة لي، فإنني لا أكترث أبداً بالتشريعات المتعلّقة بعدد ساعات عمل المستخدمين، فأنا أتفاوض معهم بصورةٍ مباشرة وأقول لهؤلاء المستخدمين: «نصابكم إحدى وأربعون ساعة ونصف، وأنا لا يهمني أن يكون عملكم صورياً في المبنى إحدى وأربعين ساعةً ونصف؛ عليكم أن تساعدوني في المراقبة داخل الممرات حين يتحرّك الطلاّب. النتيجة أنهم سيرتكبون عدداً أقلّ من الحماقات إن كنتم هنا. وإن كانت حماقاتهم أقل فسيكون لديكم مقدار أقل من العمل. وبمقابل العمل الذي أطلبه منكم والذي ليس سوى

عمل مراقبة وليس من اختصاصكم، سوف أعطيكم إجازات إضافية، سأعطيكم إجازات وتذهبون...»

❖ أي أنّها ترتيبات...

م.راموس: تماماً، وبالفعل فقد أتى مفتّش من الإدارة وسألني «كيف أمكن أن يكون لديّ كل ذلك العدد من المستخدمين في ساعة معيّنة»، لن يجدوا الإجابة، لكن المدرسة نظيفة، هذا مؤكّد. (...) سوف آخذك في جولة في أرجاء الإعدادية. نحن نتمسّك بهذا الأمر، وهو، على الصعيد الجسدي، أول شروط البقاء على قيد الحياة، فلو تدهورت الأحوال لانتهى كل شيء.

❖ لنُرجِع الأشياء إلى حجمها الحقيقي: في السابق، كان الطلاّب يحفرون الأحرف الأولى من أسمائهم بالسكين على المقاعد. الآن توجد طرقٌ أخرى، حيث يتمّ بخّ كتابات على الجدران؛ إن العمل على فرض النظام أمر ضروري، هذا مؤكّد، هذا صحيح، إلاّ أنّ استئصال تلك الممارسات في الأماكن العامة لم يحصل بعد.

م.راموس: في الأماكن العامّة عدا إعداديتنا. أنا واضحٌ جداً في هذا الأمر لأنّ تلك إحدى النقاط التي لا يمكنني أبداً التنازل عنها.

❖ وكذلك عدم إعطائك معنى لِ...

م.راموس: لا، لستُ أعطي هذا الأمر معنى انحراف، لكنني أقول بأنني لو قبلتُ بداية التدهور، فإنّ...

❖ لقد سنحت لي الفرصة لإجراء تحقيقٍ في مرسيليا لصالح البلدية التي كانت تريد تنظيف الأحياء، وقلتُ لهم حينذاك أنهم إذا قاموا بجهد بادٍ للعيان، إذا نظّفوا الشوارع الأخرى مرّةً كلّ يوم ونظّفوا تلك الأحياء مرّتين يومياً، فإن الأمر سينتهي بالسكان إلى التصرف بشكلٍ نظيف.

م.راموس: تماماً، هذا ما أومن به فعلاً، لذلك، فإنني أجد الأمرَ مسلّياً بالنسبة لي حين يأتي بعض الأشخاص، أناس من أصحاب السلّطة ويقولون للزملاء: «الوضع ليس سيئاً، المكان نظيف، ممّ تشتكون؟» أنا لا أشتكي، أنا

أحارب لكي يكون المكان نظيفاً. بعد ذلك، أقول بأنّه يوجد لديّ... ربما كان ذلك من قبيل الوراثة عن العائلة، لكن لديّ احترامٌ شديد جداً للمستخدمين. لذلك فإنهم يقابلونني بالمثل. وأنا أضفي أهميةً أكبر على ألاّ يشتم أحد الطلاّب مستخدماً، وأشعر بأنني قادرٌ على أن أكون أكثر شراسةً بكثير مما أكونه بالنسبة لأحد الأساتذة. وأنا أستطيع أن أؤكّد لكم بأنه لم تحصل سوى حالتان اثنتان من شتم المستخدمين في أربعة أعوام، وقد شعر الأولاد بأن الأمر قد مرّ؛ بينما الأمر أكثر تواتراً بالنسبة للأساتذة. لكن ربما يعود الأمر إلى أنّ أمي تقاعدت كغاسلة للصحون في أحد المطاعم، ربما يعود لذلك أيضاً. ربما كنتُ أحترمها هي حين أحترم المستخدمين.

❖ كم رجلاً وامرأة من المستخدمين لديك؟

م.راموس: عدد النساء أكثر بكثير من عدد الرجال. هذه الصفة مميزة للتعليم لكنني هنا حذر، لأنني حين أحاول النقاش مع المديرية فإنني أقول بأنه من الناحية الإحصائية، فإنّ الشابّات يصادفن مصاعب أكبر حين يكنّ في وسط مغاربيّ... (...) إنّه ليس حكماً أطلقه على النساء، بل هو واقع إحصائي. وحين يقومون بجهد لتعيين الذكور لديّ، فليس صحيحاً بالضرورة أن يكون ذلك أفضل دوماً؛ في العام الماضي عيّنوا هنا شاباً بصفة مراقب وكان... كان لطيفاً جداً. لكنه صمد شهراً واحداً لا غير. كان ذاك شاباً، وبعده أرسلوا لي فتاة بقيت حتى نهاية العام، أي أن الأمر كما ترين ليس... إذن ينبغي على المرء أيضاً أن يكون حذراً جداً.

في هذا العام، عيّنوا لي مراقباً مغاربياً، شاباً مغاربياً، وهو طالب يدرُس الرياضيات، سيكون مدرّس رياضيات، ونجح في شهادة التأهيل للتدريس في المرحلة الثانوية، ولم أكن أعرفه. حين رأيت استمارة تعيينه في شهر آب، كان أول ردّ فعل لي أنني قلت: «ربما ظنّوا في المديرية أنّ ذلك جيد، وأنّ الأمور ستجري بصورة حسنة» وانتظرتُ باهتمام، فتلك كانت المرة الأولى التي يكون فيها عندي مراقبٌ مغاربيّ. لكن المسكين عانى الكثير، رغم أنه لم يكن يفتقر إلى السلْطة، أظنّ أنّ صورة المغاربي هي التي برزت، صورة المتعاون، وقد شُتم بالفعل أكثر من غيره بكثير؛ إنّ المرء يتعلّم كلّ يوم.

لقد قلنا، نحن المدراء، للمفتش ولمدير التربية وللشرطة أنّ أصعب ما في الأمر هو أنّه لا يمكننا توقّع شيءٍ مسبقاً. الكوارث تأتي في الوقت الذي لا نتوقّعها فيه، كما أننا نشعر دائماً بأننا في وضعٍ خطير غير مستقر، وأن حادثة صغيرةً مهما كانت ضئيلة وتافهة تكفي ليكون لها ذيول، ثم لكي تتفاقم. هذا هو الوضع، ينبغي أن يكون المرء حقاً شديد الانتباه (...) حسناً، سأقول شيئاً لكنه يقع ضمن إطار حياتي الشخصية، أنا لا أمانع في أن أكون مديراً لهذه الإعدادية اثنتي عشرة ساعةً يومياً، وألاّ أكون كذلك في الساعات المتبقية... أنا نفسي لم أعد قادراً على القيام بهذا التوازن.

يصعب على المرء أن يهان حين لا يكون مهيأ لذلك

❖ وكيف هي علاقاتك مع الأهالي؟ لقد ذكرت قبل قليل بأن بعض الأهالي توجهوا إليك خلال الفترة الخاصة، لكن في الأيام العادية...

م.راموس: مشكلتنا هي إقامة أوثق ما يمكن من العلاقات مع العائلات لأننا نلاحظ...

● هل تطالبونهم بالحضور؟

م.راموس: نعم. إننا نجبرهم على الحضور إلى الإعدادية. وإنّ إجبار أناسٍ على المجيء إلى الإعدادية وهم لم يعتادوا على ذلك لأمرٌ صعب التحقيق. لقد وُضِعت بعض الإجراءات قبل مجيئي بكثير. نحن لا نرسل إلى العائلات أي بيان علامات فصلي، لا نرسل بياناً واحداً. العائلات هي التي تأتي لاستلام البيانات من الإعدادية. نقوم إذن بالتنظيم، ونصل إلى نسبة تبلغ 90%. ولثلاث مراتٍ في السنة – تصل النسبة إلى 90% في الثلثين الأول والثاني من العام الدراسي لكنها تكون أقل في الثلث الأخير، حيث نصل إلى 65 إلى 70% ، لكن في الثلثين الأول والثاني يأتي 90% من العائلات إلى الإعدادية لاستلام البيانات، أي أنّ المدرّس الأساسي للصف، الوصيّ على الطلاب، هو الذي يستقبلهم. إذن، وخلال ثلاث أمسيات من العام تبدأ في الرابعة مساءً بالنسبة للبعض وفي الخامسة بالنسبة للبعض الآخر، وحتى الثامنة والنصف أو التاسعة، حتى الإنهاك، نستقبل 70% والآخرون

نلحّ عليهم حتى يأتوا، أي أننا نجبرهم على أخذ موعد، وما إلى ذلك. إذن، فإن عدد الممتنعين لا يُذكر. ورغم كل شيء، فإنّ هذا لا يكفي.

لقد شاركتُ بشكلٍ فعالٍ جداً بإقامة مجلسٍ لأولياء الأمور؛ صحيحٌ أنّ أولياء الأمور في مدارس أخرى، في مدرسةٍ عادية، ليسوا بالنسبة للمديرين سوى أناسٍ مزعجين، أما هنا، فأنا بحاجة إليهم. إن كان هؤلاء الأولاد يعانون من المشاكل فلأنّ الأهالي لا يفهمون أبداً، وقد لاحظت بأنه طالما كان هناك تواصل بين الأهل وأولادهم، حتى لو كان أولئك الأهل يعانون من الفاقة، فإنّ الحماقات التي يرتكبها الأولاد تكون أقلّ عدداً، كما أنّ دراستهم تكون أفضل، لذلك فإنني أحاول، نحن حالياً نحاول البدء، نريد أن ننشئ مبادرة لإثارة اهتمام أولياء أمور الطلاب الذين سيدخلون إلى مدرستنا في العام الدراسي القادم، أن ندعوهم لقضاء أيامٍ بأكملها في الإعدادية حيث يقابلون الأساتذة ويتناولون معهم الطعام ويحضّرون معهم بعض الوجبات... ينبغي أن يأتوا إلى الإعدادية دون أن يخافوا، فالإعدادية، والمدرسة عموماً، تمثّل بالنسبة لمعظم الآباء الذين ذهبوا إليها الفشل الدراسي، كما أنّ هناك العديد منهم، وخاصّةً النساء المغاربيات من جيل أربعين إلى خمسة وأربعين عاماً لم يذهبن قطّ إلى المدرسة. إطلاقاً. إذن فهنّ أميّات، لا يعرفن القراءة ولا الكتابة، وبالكاد يتحدّثن القليل من الفرنسية لكنّهنّ يتحدّثن بالعربية، ولا يعرفن أيضاً القراءة ولا الكتابة (بالعربية). ينبغي ألاّ تكون المدرسة مكاناً... لقد سئمتُ من رؤية أناسٍ...

❖ هل يحضرن؟

م. راموس: كلا، نادراً، نادراً ما يأتين، هنّ يحضرن لاستلام البيانات وأنا قد فاض بي الكيل وهنّ يأتين وأنا أستدعيهنّ لأقول لهنّ: «الأمور ليست جيدة بالنسبة لابنك» أو: «الأمور ليست جيدة بالنسبة لابنتك» وأودّ كثيراً لو أراهنّ، أود كثيراً لو يحضرن، لو يأتين ويسألن: «كيف هي الحال؟» دون أن يعرفن وربما سيكون بإمكاني أن أقول يوماً ما: «نعم، الأمور حسنة جداً»... أودّ كثيراً. لأنّ... سأحكي لك قصّةً طريفة. لدينا هنا مدرّسة رياضة لديها

علاقاتٌ صعبة مع بعض الصفوف التي تعلّمها. إنها هنا منذ اثني عشر عاماً وهي مُتعَبة... ثم إنّ الطلاّب يعتبرون درس الرياضة فرصةً للانفلات؛ بينما هي تنظر إلى درس الرياضة على أنّه درسٌ مثل غيره ومستوى تطلّبها مرتفعٌ جداً. في أحد الأيام، أخذت الطلاب إلى المسبح، وحين خرجت من المسبح وجدت نوافذ سيارتها محطّمة. إنها تعتقد، وأنا كذلك، ان طلاّباً من صفّها هم الذين كسروا نوافذ السيارة؛ لكن لا يمكن إثبات ذلك. إذن، فقد أتت وهي في حالة غضبٍ شديد وقالت لي عدداً من الأشياء، قالت بأنّ هناك ستة طلاّبٍ يضايقونها بشدّة، وطلبت مني فرض العقوبات. فقلتُ: «قبل فرض عقوبة الطرد المؤقّت، سوف نستدعي العائلات».

استدعيتُ العائلات في أحد الأيام وكانت المدرّسة موجودة، وكذلك معاوني، وكان أمامنا ست عائلات. سأحكي عن اثنتين من العائلات الستة. هناك ربٌ عائلة اضطررت لطرده من مكتبي لأنه شتم المدرّسة ووصفها بالكاذبة وبالقذرة وما شابه، لذلك، فقد اضطررنا أنا ومعاوني إلى الإمساك به... فقد طلبتُ منه الخروج لكنّه لم يفعل، لذلك رميناه خارج المكتب. وابنته التي كانت في الخلف كانت مسرورةً جداً حتى ذلك الحين، فوالدها كان يقول تماماً ما كانت تقوله هي للمدرّسة، إذن فالأمور كانت جيدة جداً... ما الذي تريدين منا أن نفعله مع مثل هؤلاء الطلاب...

وعلى الجانب المقابل بالكامل، كان هناك أبٌ آخر، كان جالساً هنا، وابنه كان في الخلف، تكلّم الأب مطأطأ الرأس، ولا أدري إن كان يتحدّث إليّ أم إلى ابنه، أخذ يقول: «أنا في فرنسا منذ ثمانيةٍ وعشرين عاماً، وأنا أعمل في نفس المكان منذ سبعةٍ وعشرين عاماً ونصف لأنني أعتبر أن الرئيس هو دائماً على حق؛ وحين يقول شيئاً ما، فانّ على المرء أن يقول نعم حتى لو لم يكن مقتنعاً، وأن يكون متواضعاً، وأن يقبل بكل شيء، والاّ يحتجّ، هكذا ينبغي أن يكون. وبفضل هذا السلوك استطعتُ إحضار زوجتي إلى فرنسا، واستطعتُ تنشئة أولادي». ظننتُ بأن الابن الذي كان واقفاً وراء والده سوف يضربه؛ لم أرَ في حياتي مثل ذلك الحقد، لأنّ ما قاله الأب لا يمكن قبوله أبداً.

❖ وكم كان عمره؟

م. راموس: ستة عشر عاماً. إنّ الحالة القصوى من الخضوع التام أمام المؤسسة والعدوانية الكاملة تؤدّي بالنسبة للأولاد لنفس النتيجة تماماً. سأعطيك مثالاً آخر عن الحالات التي يمكن أن نواجهها. في العام الماضي حصل إضراب للحافلات وكثيرٌ من اليافعين كانوا يسكنون في الأحياء التي لم يعد فيها حافلات، لذلك فقد اعتادوا على التسكّع في فترة ما بعد الظهر خاصّةً، فأخذوا يقفزون من فوق البوابة التي ارتفاعها مائة وستون سنتيمتراً، وهو ليس بالقليل، ثم يأتون، ويصعدون إلى الصفوف ويفتحون أبوابها ويبصقون على الطلاّب وعلى الأساتذة، ويشتمونهم؛ وما إن أُعلَم بالأمر حتى أذهب بحثاً عنهم ويهربوا راكضين. في أحد الأيام، دخل ثلاثةٌ منهم ورآهم أحد الأشخاص يدخلون، في لحظة دخولهم. وأُعلمت بالأمر فهيأتُ ترتيباً لقطفهم واستطعت أن أمسك بواحدٍ منهم. كان عمره تسعة عشر عاماً.

❖ هل كان طالباً قديماً لديكم؟

م. راموس: لا، ذاك الذي أمسكتُ به لم يكن من طلابنا القدامى. لقد اضطررت للصراع معه لأنه حاول أن يجعلني أفلته. أمسكت به وقال لي: «ماذا تريد أن تفعل؟» فقلتُ: «سآخذك إلى مكتبي.» فقال: «لا»، فقلتُ: «بلى»، وأضفتُ: «ربما لن أتمكن من ذلك لو رُميتُ أرضاً، لكن إذا لم تقتلني، إذا لم تجرحني، فسوف آخذك إلى مكتبي» وأخذته إلى مكتبي. وفي مكتبي قال لي: «هل تريد أن أقول لك ماذا ستفعل؟ سوف تتصل بالشرطة، وسوف يحضرون، ويشبعونني ضرباً. سيأخذونني إلى مركز الشرطة ويشبعونني ضرباً، ويتصلون بأبي. أبي سيأتي وسيبكي، ورجال الشرطة سيعطونني لأبي الذي سوف يعيدني إلى البيت. سيدوم ذلك ساعةً ونصف الساعة. بعد ساعتين، سنعود ولن يبقى شيءٌ في الإعدادية. تصرّف كما تريد».

كان عددهم حين دخلوا ثلاثة، وأثناء وجوده في مكتبي وحديثه معي، انسحب الاثنان الآخران، وذهبا ليحضرا خمسين آخرين. والخمسون وقفوا

في الباحة على شكل قوسٍ دائرية. ذهب معاوني ليحضر كلّ الذكور من الأساتذة. في ذلك اليوم، تمكن من إحضار سبعة أو ثمانية شكلوا قوساً دائرية أمام مكتبي. كان الأمر على هذا النحو. وحصلت نقاشات لا نهائية غير مجدية. وقفتُ في منتصف الباحة ودخل مندوبان منهم وقالا: «ما الذي ستفعله؟ إنك لن تتصل بالشرطة من أجل لا شيء، لأمرٍ بسيطٍ كهذا. ماذا جرى؟ لقد بصق، والأمر ليس خطيراً، كما أنك لن تزعجنا وستترك زميلنا، ثم إنّك إن أزعجتنا فالأمور ستسير بشكلٍ سيئ». الأساتذة انقسموا، فنصفهم قال: «اتصل بالشرطة، فمن غير المعقول أن نستسلم»، ونصفهم الآخر قال: «أنا أحذّرك، إن أنت اتصلتَ بالشرطة فلن يعود بإمكاننا القدوم إلى العمل بالسيارة». إنه لأمرٌ قاسٍ إن تُهان حين لا تكون مهيأً لذلك. حين لا تكون مهيأً نفسياً لتقبّل الإهانة؛ حين يكون لديك كبرياء ولديك معنى معين للشرف، فإنه أمرٌ قاسٍ.

أنا أرفض أن أعرّض المستخدمين للإهانات عند البوابة، لذلك فإنني أراقب بنفسي، ومعي معاوني، دخول الطلاّب كل يومٍ في الصباح وبعد الظهر؛ أنا لا أتذكر الوجوه جيداً، فيقف معي الحارس، عامل الصيانة، الذي هو من فرنسيي الجزائر وهو يتذكر الوجوه بصورةٍ ممتازة، ويقول لي: «يوجد هناك ثلاثة ليسوا من الإعدادية»، لذلك، فإنني أقول لهم حين يصلون إلى البوابة: «أيها السادة، أنتم لستم من الإعدادية، هل لديكم عملٌ ما هنا؟ إن كان لديكم ما تعملونه هنا، فإن عليكم أن تقولوا لي ما الذي قدمتم من أجله، وإلا، فأنتم لن تدخلوا. لا لن تدخلوا». حينذاك، يتراجعون ثلاثة أمتار، ويقفون على حافّة سور المدرسة ويبدأون بتبادل الحديث في ما بينهم. يبدأون بتبادل الحديث بحيث أسمع قولهم إنني أحمق: «انظر إلى بوزه»، الخ، الخ، ويستديرون ثم يبصقون. يبصقون باتجاهي. وحين يكون على بُعد خمسة عشر سنتيمتراً من قدميك سبع أو ثماني بصقاتٍ خلال عشر دقائق ويكون لديك كبرياء ولديك معنى للشرف وما إلى ذلك فإنّ الأمر يصعب عليك. الأمر يصعب عليك جداً. حسناً، هكذا هو الأمر. لذلك، فإنني في كثيرٍ من الأحيان أتمنى لو كنت في مكانٍ آخر (...).

م. راموس: إنهم يحقدون على المدرسة بصورة فظيعة، لأنّ المدرسة لم تسمح لهم بأن يتدبروا أمورهم؛ أنا لا أستغرب ذلك كثيراً. ثم إنّ المدرسة وسطٌ مليء بالمضايقات. وقد عشتُ خلال الأحداث ظروفاً قاسيةً. في بداية العام الدراسي الماضي، أي في أيلول 1990، كان في الثانويات المهنية الموجودة في منطقة الرون Rhône سبعمائة مكانٍ شاغر، لا يحتلها أحد، لم يكن هناك من مرشحين لاحتلالها. خلال شهر أيلول كله وبداية تشرين الأول، كان هناك سبعمائة مكانٍ شاغر كل يوم، فنحن هنا نقرأ المينيتِل Minitel[*]، نقرأ المعلومات في المينيتِل وفيه كان يُذكر عدد الأماكن الشاغرة في كل مؤسسةٍ تعليمية.

حين حصلت الأحداث، كان التفسير الغالب كما يلي: نعم، لقد بنينا وأعدنا طلاء الواجهات وكل ما إلى ذلك، لكننا لم نتحاور معهم، لقد ثاروا لأنّ الحوار كان غائباً، فلنتحاور إذن؛ لقد ذهبنا إلى اجتماعات الحي وما شابهها للحوار- لدرجة الغثيان- وفي اجتماعات الحي سمعنا شباناً صغاراً يقولون: «نعم، ولكن المدرسة لم تفعل شيئاً من أجلنا، ليس لدينا شيء، ليس لدينا أي تأهيل» وفي نفس الوقت كان هناك سبعمائة مكانٍ شاغر في الثانويات المهنية، ماذا تعني تلك الثانويات؟ إنها تعني اثنتين وثلاثين ساعةً من العمل أسبوعياً دون راتب. حسناً، هم ليسوا موافقين على الذهاب إلى هناك؛ ولو فكرنا بالأمر، فما الذي يريده هؤلاء الشبان الفقراء ساكنو الضواحي في النهاية؟ إنهم يريدون مورداً يعيشون منه. ربما كانوا يطلبون عملاً شيقاً لكن البلاد ليست قادرةً على إعطائهم عملاً شيقاً في حال كونهم غير مؤهلين، ثم إنني أنا نفسي حاصلٌ على تأهيل، وعملي ليس شيّقاً كلّ يوم؛ لذلك، فإنني لا أفهم؛ ليس هناك معجزات، لذلك... هم إذن يحقدون، يحقدون على المؤسسة، إنهم مستعدون لتكسير كلّ ما هو صورة، أو ما يعكس لهم صورة فشلٍ معيّن، لكن لا يوجد عندي الكثير من الحلول.

---

[*] المينيتِل: جهاز في فرنسا يوصل بالهاتف وهو عبارة عن بنك معلومات مرئي.

❖ نعم ولكن، لديهم أخوةٌ وأخوات لا زالوا في المدرسة...

م. راموس: نعم. حين يسمعون أخوتهم الكبار يقولون لهم: «ينبغي أن تدرسوا جيداً، انظر إليّ، أنا في الأول أو الثاني أو الثالث ثانوي وأنا أتدبر أمري جيداً»... لديّ طالبةٌ هي ابنة أخ أستاذٍ جامعي مؤلّف {كتب روايةً هي سيرةٌ ذاتية عن طفولته كتلميذٍ مهاجر في حيٍّ شعبيٍ} وعمها يقول لها: «لا ترتكبي حماقات» وهي لا ترتكب حماقات. إنها تقوم بما تقدر عليه، ربما ستكون دراستها أقلّ لمعاناً من دراسة عمها، لكنني أظنّ بأنّها سوف تتدبر أمرها وهي الآن في الصف العاشر، وبعد ذلك،... هناك عائلاتٌ يظنّ المرء معها بأنّ الأخوة الكبار يتناوبون بحيث يكون هنالك دائماً واحدٌ منهم في الخارج بينما يكون الآخرون في السجن، كيلا يكونوا كلهم في السجن في نفس الوقت. هناك عائلة أبناؤها الثلاثة الكبار في السجن بتهمة القوادة، والأم هي التي تدير الحانة التي يملكونها وهي مصدر رزق العائلة الوحيد. وهي تخرج من المنزل في السادسة صباحاً وتعود إليه في الثانية عشرة ليلاً أو الواحدة صباحاً، تاركةً للأولاد الحبل على الغارب، وهم يفعلون ما يريدون، ولديّ منهم ولدان أحدهما في الصف الثامن والآخر في السابع. وهما منكّدان بارعان وتنتابني الرغبة أحياناً في أن... في أن أمزّقهما، لكنني لا أعرف حقاً كيف يمكن أن يكونا هادئيْن ووديعيْن وصبوريْن ولطيفيْن في مثل هذه الظروف. ستكون معجزةٌ حقاً لو كانا مثلما ذكرتُ.

سأعطيكِ مثالاً آخر. هذه حالةٌ من تلك الأمور التي لا أستوعبها وتفلت من فهمي. في العام الماضي وفي الساعة الثامنة والربع، سمعت خريشةً على مكتبي ولم يتحرّك أحد، فذهبت لأستكشف الأمر ووجدت أماً مغاربية محجّبةً بالكامل قالت لي بفرنسيةٍ تقريبية نوعاً ما، «ابنتي التي في الصفّ التاسع، لقد أتت صباح هذا اليوم، لم أكن أريدها أن تأتي، لكنّ أباها ضربها ثانيةً طيلة الليل، هل رأيتَ هيئتها؟» لم أكن قد رأيت الفتاة لأنها خبأت نفسها جيداً. «إنه يُسند رأسها إلى المغسلة ثم يضرب رأسها بزوايا الطاولة أو زوايا المغسلة». ثمّ حكت لي عن أمورٍ مشابهة...

ذهبتُ لأرى الفتاة في الصفّ فوجدتها بالفعل مورّمة، مليئة بالكدمات... أنزلتها من الصف واقفلت باب أحد المكاتب على الأم وابنتها واستدعيت المساعدة الاجتماعية لأنّ مثل هذه الأمور تسوّى بين النساء. فقالت لي المساعدة الاجتماعية: «لا بدّ من إجراء إثبات حالة طبيّ للأم والابنة». لم يكن لدينا طبيبٌ مدرسيٌ في العام الماضي، وقد رفعت صوتي عالياً بالمطالبة حتى أعطوني واحداً يداوم نصف نهار كلّ خمسة عشر يوماً؛ أما في السنة الماضية فلم يكن لدينا أي طبيب. استدعيتُ طبيباً معالِجاً فأتى وعاينهما وكتب التقارير الطبية وجاء إليّ وقال: «المطلوب منكم 160 فرنكاً»، أنا ليس لديّ بند في الميزانية لدفع المائة وستين فرنكاً؛ دفعتُ مائة وستين فرنكاً من جيبي الخاص، أعني أنّ الطبيب قبِل بأن يجري تصريحاً كاذباً كيلا أدفع المائة وستين فرنكاً، أي انه صرّح بأنّه قد أتى لمعاينتي أنا، وقد دفع لي الضمان الصحي بعد ذلك مائة وعشرين فرنكاً. لقد كلّفني الأمر مع ذلك اربعين فرنكاً، وأنا لستُ اشتكي.

وبعد حصولنا على التقارير الطبية، استدعينا الأب فحضر، أنا كنت في موقع حماية وراء مكتبي كمدير، وجلس الأب في المكان الذي تجلسين فيه الآن، وعلى هذا الكرسي جلست المساعدة الاجتماعية وهي شابةٌ جذّابة في الثلاثين من عمرها، وتحدّثت مع الأب وقالت له: «ألا تدرك بأنّ مثل هذه الأمور غير مقبولة؟ وإذا تابعتَ ممارستها فإننا سوف نمنعك، سوف نشتكي؛ لدينا تقارير طبية»، فنهض الأب، وقد قلت للمساعدة الشابة فيما بعد: «اسمعي، لم يكن سيتمكن من أن يصفعك في المرة الثانية لأنني كنت سأضربه قبل ذلك؛ أما الصفعة الأولى فلم أكن سأتمكن من تفاديها، فحتى أقفز من فوق مكتبي...»، حسناً، لقد توقف على بعد ملليمتر واحد تقريباً؛ ثم توجّه نحو الباب وهو يرسل إليّ لعنات الله حتى... لست أدري أي جيلٍ من أسلافي. ثم هل تقولين لي كيف كنتِ ستجيبينه؟

إنه يسكن في أكثر المناطق فقراً. إنها فعلاً منطقةٌ شديدة الفقر. لقد قال: «جيراني الذين يسكنون في الشارع نفسه.. أولادهم يتغيبون عن

المدرسة ويتعاطون المخدرات ويسرقون وهم منحرفون، لديهم كلّ ما يسر الآخرين، ولا أحد يقول شيئاً. أما أولادي أنا، فإنهم لا يتغيبون أبداً»، هذا صحيح، «ونتائجهم جيدة»، هذا صحيح، «وهم مهذّبون»، هذا صحيح، إنهم غير منحرفين كما أنهم لطيفون ونظيفون «وأنتم تزعجونني أنا؟ وأنتم تريدون إرسالي أنا إلى الشرطة؟ أنتم لا تقومون بأي إجراءٍ ضدّ الآخرين و... أما أنا؟» ثم ذهب؛ حقاً إنه لم يفهم شيئاً.

❖ أعتقد بأنه في المساء، فإن الزوجة والابنة قد نالتا نصيبهما...

م. راموس: ليس في المساء نفسه، كلا، لقد انتظر بضعة أيام. هذه هي القصة الحزينة... لا أدري، حين قدمتُ إلى هنا كان لدي العديد من اليقينيات... التي أصبحَت الآن أقل عدداً لأنه يبدو لي...

❖ لكنك توصلّتَ مع ذلك إلى عدم وجود العنف في المدرسة.

م. راموس: لا يوجد عنفٌ جسدي، لا توجد مشاجرات. أما العنف اللفظي... وحول هذا الأمر، أقول لك بأنه يوجد هاتف في الإعدادية، وحين لا يوجد عامل مقسم كما هي الحال الآن فإنّ الهاتف لا يرن هنا، وإذا اتصل أحدٌ ما بالإعدادية فالهاتف يرنّ في شقتي؛ لا يوجد عامل مقسم لذلك فالهاتف يرنّ في شقتي؛ وحين تكون زوجتي هنا، لقد أتت منذ بضعة أيام وكنت في شقة معاوني وذهبنا لتناول مشروبٍ معاً، وجاءت زوجتي، وكنت أنا ومعاوني نحضر اجتماعاً في المركز الاجتماعي من الخامسة حتى الثامنة والنصف؛ أما هي ، فكانت في شقة الخدمة. وفي الثامنة والنصف صعدتْ لتناول مشروبٍ معنا. لكنها قالت لي: «لقد فاض بي الكيل، اقطع الخط الهاتفي إذا كنتُ أنا هنا ولم تكن أنتَ موجوداً»، فكلّ عشر دقائق توجد شتائم على الهاتف.

❖ شتائم؟

م. راموس: شتائم. تتناول زوجتي السماعة، «هل السيد راموس موجود؟»، «لا، ليس موجوداً»، «أنتِ زوجته، أيتها القذرة، أيتها القحبة... أمك، ...أمك ...»، عشرين، ثلاثين مرة، وأضافت قائلة: «إذا لم أرفع

السماعة فالهاتف يرنّ، يرنّ، يرنّ» لقد عدّت في إحدى المرات سبعاً وعشرين رنّة هاتف، ولم ترفع السماعة قبل أن يتوقف الرنين.

❖ لهذا السبب لا يستطيع المرء أن يفصل الحياة الخاصة عن الحياة العامة...

م. راموس: لا، بالفعل، ولم أضع خطاً هاتفيّاً خاصّاً بي لأنني قلت لنفسي بأنني لو ركّبت خطاً شخصياً فإنه يكفي العثور على اسمي في الدليل، وأنا لن أضع اسمي على اللائحة الحمراء، لا أريد أن أضع اسمي في مثل هذه الأشياء... إذن، فأنا أغلق على نفسي باب شقتي بعد ظهر الأربعاء لأنه يكون لديّ عمل أو لأنّ لدي رغبةً في القراءة أو الاستماع إلى الموسيقى مثلاً، وإذا فصلت خطّ الهاتف فإنّ هذا يعني بأنّ أبنائي أو أمي أو زوجتي لن يتمكنوا من الاتصال بي. لقد قلتِ لي بأنني تمكنت من منع العنف الجسدي، هذا صحيح؛ أما العنف اللفظي فلا؛ وهو صعبٌ للغاية بالنسبة للإنسان. ماذا كان معنى سؤالك، كنت تريدين الوصول إلى طرح سؤالٍ عليّ...

❖ ... حول المشاجرات.

م. راموس: نعم، لكن حين أقول المشاجرات فإنني مع ذلك أقصد مشاجراتٍ بين التلاميذ، توصّلتُ إلى إلغائها في الإعدادية لكن ليس في الشارع...

❖ ليس في الخارج...

م. راموس: وليس في الخارج؛ لقد أطلنا فترة دوام الحارسة، فهي تعمل حتى الثانية عشرة وربع حين يخرج التلاميذ في الثانية عشرة، وتعمل حتى الخامسة والربع حين يخرجون في الخامسة، وذلك لترى كيف تجري الأمور. وبمجرّد أن ترى تجمّعاً، فإنها تتصل بي مباشرةً، وحينذاك، يمكن أن تكوني أنتِ في مكتبي ونكون منخرطيْن في النقاش الهام، وإذا اتصلت بي الحارسة... فإنني أتركك وأذهب، ونصل أنا ومعاوني، وما إن يرونا قادمين، لأننا نصل ركضاً، نركض لنلفت الانتباه لأننا نريد أن نخيفهم، حتى تتوقف المشاجرات. ما إن نصل إلى الشارع حتى يفرّوا، وربما تتوقف المشاجرات

عند هذا الحدّ وينتهي الأمر، وفي بعض الأحيان نشعر بأنها لن تتوقف... لذلك نذهب في بعض الأحيان حتى ما بعد منعطفَين للشارع ولا نستمر أبعد من ذلك (...).

حين أقول ذلك لرجال الشرطة، فإنهم ينظّرون علينا ويقولون: «هناك ثلاثة مسارات، هناك القمع وسنمارس حينذاك القمع، وهناك الردع، ثم هناك الوقاية»؛ حسناً، لكنني أقول لهم: «الردع يكون بتواجدكم» فأنا أتمنى لو أنّ سيارة الشرطة تمرّ دون أن تتوقف في ساعات خروج الطلاّب. لكنّ رجال الشرطة يقولون: «لا يمكننا مراقبة كلّ الإعداديات، هذا ليس عملنا» (...).

◆ وماذا عن الطلاّب الجيدين؟

م. راموس: الطلاّب الجيدون يشعرون بالمضايقة لأنهم يُعامَلون كمداهنين. لقد كتب أساتذة الرياضة مقالاً في النشرة النقابية (...) يقولون فيها أن الطلاّب الجيدين يشعرون بالمضايقة {يقرأ هنا جزءاً من المقال}. هناك مدرّسة مساعدة تدرّس اللغة الإسبانية كلغة ثانية وهي شابّة وتسكن في ر.. وتعمل في ظروف سيئة لأنه ليس لديها سيارة ولديها ابنة صغيرة وتمضي ساعة ونصف في المواصلات بينما هنالك أساتذة لا ينقلونها معهم، لكنها فتاة خارقة. إلاّ أنها عانت كثيراً جداً في البداية.

ونحن مدركون تماماً لما يحدث، أي أننا ساندناها بإصرار وساعدناها كثيراً على الصمود، وقد حدث أن استقبلتها حين كانت تبكي وواسيتها كما ينبغي، ومنذ أيام، أبديتُ ملاحظةً معادية تماماً للمرأة في الاجتماع العامّ لأنّ النسوة تشاجرن في ما بينهنّ وقلت: «يا رب، أنا أحلم بمؤسسة لا يكون فيها إلاّ الرجال وحيث يتم حل مثل هذا الأمر حول كأس، سيكون من الممكن حلّ مثل هذا الأمر خلال ساعة واحدة في الحانة»، قلت ذلك كاستعارة فأتت لتعظَني في نهاية الاجتماع وقالت «صحيحٌ أنني عانيتُ الكثير في هذه الإعدادية، إلاّ أنّني سآسف عليها لأنّ فيها حرارةً إنسانية...»، أعتقد بأنّ فيها علاقات وجدانية وذلك أحد العناصر القاسية، أنا أعتقد بأنّ ذلك هو أحد العناصر التي تؤرّقني، إنه عدم استطاعة المرء في هذه الإعدادية الا

يتورّط وجدانياً. أي أنّه حين تكون الأمور جيدة، فإننا نشعر بأننا بحالة جيدة، وحين لا تسير على ما يرام فإننا نشعر بالاضطراب الوجداني، هذا خطأ، لكنني لا أرى كيف يمكن تجنب ذلك؛ والعلاقات بين الأساتذة...

❖ لا يمكن للمرء أن يحافظ على مسافات...

م. راموس: نعم، هكذا، العلاقات بين الأساتذة هي إما وجدانية أو نزاعية... على كلّ حال فحتى النزاع حالة وجدانية؛ الأساتذة إما أصدقاء جداً أو أعداء؛ واليوم ظهراً كنت أقول بأنّ هناك من الأساتذة من لم يعودوا يستطيعون التحدث معاً في اجتماعٍ للهيئة العامة للأساتذة، وأنا أقول بأنني كنت سأكون محظوظاً لو أنّ الأمر يتعلّق بحلّ نزاعاتٍ أو اختلافاتٍ سياسية أو نقابية أو تربوية، لكنها هنا اختلافات غير عقلانيةٍ، إنها تتعلق بالشكل. إذن، هناك مظاهر عاطفية جداً.

❖ وزميلك في الثانوية، ماذا قال عن كلّ ذلك؟ لديه نفس الطلاّب(...)

م. راموس: ليسوا نفس الطلاب؛ ليسوا نفس الطلاب؛ ليس لديه سوى نصف عدد الطلاب.

❖ نعم، لنقل بأنّ لديه نخبة...

م. راموس: ليسوا نفس الطلاّب، ليست نفس الأعمار وليس لديه نفس الصعوبات. وعلى سبيل المثال فقد لامني بوضوح واتهمني بأنني أقوم أكثر من اللزوم بدور الحاضنة وبالمساندة مما يجعل الأولاد يفتقرون إلى الاستقلالية ويجعل دراستهم أقل جودةً في الثانوية. بالنسبة للبعض، فإنهم يضيعون وقتهم في الثانوية.

❖ ومشاكل الانضباط أقل...

م. راموس: أوه! الأمر مختلف تماماً؛ في الثانوية التي تدرّس فيها زوجتي لا توجد مشاكل انضباط أبداً؛ لكن مع ذلك، فإنها موجودة في ف.؛ في العام الماضي حصلت في ف. اعتداءاتٌ على سياراتٍ للأساتذة تم تخريبها بالكامل، إذن هذا قد يحصل. وفي ثانوية ب. أيضاً، ضرب طالبٌ

مغاربي أصله من المنطقة إحدى المدرّسات العام الماضي أثناء خروجها من مجلس الصف. حسناً، هكذا تجري الأمور. لكن ليس لهذا علاقة بالمعتاد في الإعداديات؛ ففي الإعدادية لدينا حقاً كل أنواع الطلاّب. (...) أنت تسألينني لو أنهم كانوا فرنسيي الأصل لكن فقراء، هل ستكون المشاكل هي ذاتها؟ لو كان ذلك هو السؤال فجوابي هو نعم. نعم، تماماً، أنا أدرك ذلك تماماً، المشكلة تنبع من تكديس العائلات ذات المشاكل مهما كان أصلها الاجتماعي، مهما كان أصلها العرقي؛ نحن على وفاقٍ تامّ حول هذه النقطة.

❖ أنا أشكّ أن يتم العثور على حلّ، وبالتحديد حلّ اجتماعي...

م. راموس: لكن هناك مثال على ما يمكن أن يجري: ففي فينيسيو Vénissieux ، في مانفيت Minguettes عام 81، أخلوا الشقق، أخلوا الأبراج من السكان ثم هدموها، ومنذ ذلك الحين تناقصت المشاكل لأن تكدّس السكان نقص. أنا أصلي من فينيسيو، وكذلك عائلتي كلها، وقد ولد أبي وأعمامي وعماتي وأولاد عمومتي جميعاً في تلك المنطقة. وبالفعل، فإن الوضع كان عام 81 فظيعاً؛ أما الآن، فإنّ السكان من نفس النمط تقريباً لكنهم أقل تكدّساً بكثير مما كانوا عليه. صارت المساحات أكبر. لقد بدأ الناس يتنفسون من جديد. هناك إذن الطبقة الاجتماعية، لكن ربما كان هناك أيضاً فعل التكدّس على ما أعتقد.

نيسان 1991



بيير بورديو

تناقضات الميراث

تبعاً لهيرودوت، فإن كلّ شيء سار على ما يرام عند الفُرس طالما أنهم تمكنوا من الاكتفاء بتعليم أولادهم ركوب الخيل والرمي بالقوس وعدم الكذب. من المؤكد بالفعل أن المسألة الأساسية في كل مجتمع والمتمثلة في نظام الميراث، أي إدارة العلاقة بين الآباء والأبناء، وبصورة خاصة استمرارية السلالة واستمرار ميراثها بأوسع معاني الكلمة، تُطرح بطريقة شديدة الخصوصية في المجتمعات المتمايزة. فمن جهة، ولاستمرارية الأب الذي يمثّل السلالة في مجتمعاتنا، وما قد يشكّل جوهر الميراث الأبوي، أي ذلك «الميل للاستمرار من خلال الإنسان»، ولإدامة الوضع الاجتماعي الذي يلازمه، ينبغي في كثير من الأحيان التميز عن هذا الأب وتجاوزه وإنكاره بمعنى ما؛ وهي عمليةٌ لا تمرّ دون مشاكل، سواءً بالنسبة للأب الذي يريد ولا يريد هذا التجاوز القاتل، أم بالنسبة للابن (أو الابنة) الذي يجد نفسه بمواجهة مهمة قاسية قد يعيشها كشكلٍ من الانتهاك[1].

من جهة أخرى، فإن نقل الميراث أصبح، بالنسبة لكافة الفئات الاجتماعية، يتعلق بدرجات متفاوتة بقوانين المؤسسات التعليمية التي تعمل بصفتها مبدأً للواقع فظّاً وقوياً ومسؤولاً عن الكثير من الإخفاقات وخيبات

---

[1] خلال كل هذا التحليل، اضطررتُ لتفضيل حالة الابن، تاركاً لفرصة أخرى تمحيص التغيرات في علاقة الميراث حسب الجنس بين الآباء والأبناء.

الأمل بسبب تكثيف المنافسة. إن مؤسسة الوارث- التي كانت حتى الآن موزعة بين قرار الأم أو الأب، حارسيْ إرادة وسلطة العائلة كلها- والفعل القدري الذي تمارسه هذه المؤسسة أصبحا أيضاً اليوم من مسؤولية المدرسة التي يمكن أن تؤكّد أحكامُها وعقوباتُها تلك التي تصدر عن الأسرة أو تعارضها وتقف في وجهها، والتي تساهم بشكلٍ فعال في بناء الهوية. ربما فسّر ذلك الأمر أننا كثيراً ما نجد المدرسة في أصل آلام الأشخاص الذين تم سؤالهم والذين خاب أملهم إما بمشروعهم الشخصي أو بالمشاريع التي رسموها لأبنائهم أو بسبب تكذيب سوق العمل لوعود وضمانات المؤسسة المدرسية.

إنّ العائلة، وهي قالب المسار الاجتماعي والعلاقةِ بهذا المسار، وبالتالي قالب التناقضات والمضايقات المضاعفة التي تنشأ بصورةٍ خاصّة من أشكال عدم التوافق بين ترتيبات الوارث وبين القَدَر المسجون في ميراثه، إنّ العائلة هي التي تولّد التوترات والتناقضات العامة منها (التي يمكن مشاهدتها في كل العائلات لكونها ترتبط بنزوعها إلى الاستمرار) والنوعية (التي تتباين بصفة خاصّة). الأب هو موضعٌ وأداةٌ «المشروع»[2] (أو، وهو الأفضل conatus[*]) ينتقل، بما أنه مكتوبٌ في استعداداته الوراثية، بشكلٍ لا واعٍ ضمن طريقة وجوده ومن خلالها، وكذلك بشكلٍ تفسيري من خلال أفعال تربوية توجّه نحو استمرارية السلالة (استمرارية ما يدعى بالبيت في بعض التقاليد). الوارث الناجح يعني قتل الأب بإيعازٍ منه، أي يعني تجاوزاً للأب يهدف إلى الحفاظ عليه، على «مشروعه» في التجاوز الذي يدخل بصفته هذه ضمن النظام، نظام التوارث. إن تطابق الابن مع رغبة الأب بالاستمرار عبر ابنه يجعل الوارث دون تاريخ[3].

إنّ الورثة الذين ينجحون في الاستحواذ على الإرث بقبولهم له،

---

[2] لتجنب منطق النيّة الواعية الذي تستدعيه كلمة مشروع، فسوف نستخدم كلمة conatus مجازفين بأن يعتبرنا القارئ نستبدل العامية بالفصحى.

[*] conatus: الجهد المبذول للاستمرار عبر الذات.

[3] إن التماثل مع الأب ومع رغبة الأب بالاستمرارية هو أحد الوسائط الأساسية للدخول في الوهم الذكوري، أي للانخراط في الألعاب والتحديات التي تعتبر مثيرةً للاهتمام في جوٍّ اجتماعيٍّ محدّد.

وبالتالي بقبولهم أن يكونوا موروثين بالوراثة، (كمَثَل خريج كليّة العلوم التقنية الذي تخرج أبوه من الكلية نفسها أو عامل التعدين ابن عامل التعدين) ينجون من تناقضات التوريث. فالأب البرجوازي الذي يريد لابنه ما لديه وما هو عليه يمكن له أن يتعرّف على نفسه تماماً في هذا المثيل الذي أنتجه، وهي إعادة إنتاجٍ مطابقة لما هو عليه وتأكيدٌ لامتياز هويته الاجتماعية الخاصة. وهذا ينطبق أيضاً على الابن. كذلك، وفي حالة الأب الذي قُطع طريقه إلى الصعود، فإنّ الصعود الذي يؤدي بابنه إلى تجاوزه هو، على نحوٍ ما، إنجازٌ شخصيٌّ له، هو التحقيق الكامل لـ «مشروعٍ» تحطّم يستطيع بهذه الطريقة أن يكمله بالوكالة. أما بالنسبة للابن، فإنّ رفضه لأبيه الحقيقي يعني أن يجيّر لنفسه ويقبل مثلاً أعلى وضعه أبوه الذي يرفض نفسَه هو أيضاً وينكرها ويدعو إلى تجاوزها.

لكن، في هذه الحالة، تتضخّم رغبة الأب أحياناً بصورةٍ مفرطة، خارج حدود الواقعية، مهما كان واقعياً في ما تبقى: فالابن أو الابنة اللذان تشكّلا كبدائل للأب يكلّفان بالوكالة بصورةٍ ما، بدلاً عنه، بتحقيق ذاتٍ مثالية تتفاوت إمكانية تحقيقها: وهكذا نصادف العديد من الأمثلة على آباءٍ أو أمهات يسلّطون على أبنائهم رغباتٍ ومشاريع تعويضية، ويطلبون منهم المستحيل. هذه هي إحدى الأسباب الهامة للتناقضات ولأشكال المعاناة: فالعديد من الأشخاص يعانون بصورةٍ دائمة من التفاوت بين ما حققوه وبين ما ينتظره منهم أهلهم، فهم غير قادرين على تحقيقه وغير قادرين على رفضه[4].

[4] يكون الأمر مشابهاً عندما تكون توقّعات الأهل التي تشكّلت في ظروفٍ اجتماعية سابقة بعيدة وغير منسجمة نوعاً ما بالنسبة لمتطلبات العالم الراهن، التي تتوافق معها بصورةٍ أفضل توقعاتُ الأبناء التي تشكّلت في ظروفٍ مجتمعيّة مختلفة. وهناك مصدرٌ آخر للمعاناة هو وجود مسافةٍ بين توقعات الآباء وتوقعات الأمهات، وكثيراً ما ترتبط تلك المسافة بعدم التوافق الاجتماعي بين الأبوين أو بين أفراد ذريتهما، واللذين يحاولان إطالة امتدادهما بإدامة إرثهما (وهذا بالتناقض مع الحالات التي تفيض فيها رغبة الأم عن رغبة الأب). وهناك سببٌ آخر للتناقضات ولمضاعفة المضايقة، وهو وجود تناقضات في المشروع الأبوي.

إذا كان التماثل مع الأب و«مشروعه» يشكّل أحد الشروط الأساسية للنقل الصحيح للإرث (وربما ينطبق الأمر بصفة خاصة حين يكون المشروع ثقافياً)، فإنه لا يكون شرطاً كافياً لنجاح مؤسسة الإرث التي تتبع، بالنسبة للمتمتعين برأسمال ثقافي بخاصة، وكذلك بالنسبة لكل الآخرين بدرجة أقل، تتبع قوانين المؤسسة المدرسية وتمرّ بالتالي عبر النجاح الدراسي. وأولئك الذين تُطلق عليهم عادةً تسمية «الفاشلين» هم بصورة خاصّة أولئك الذين لم يحققوا الهدف الذي حدّده لهم اجتماعياً «المشروع» المسجّل في المسار الأبوي وفي المستقبل الذي افترضه هذا المسار. وإذا كان تمرّدهم ينصبّ دون تمييز على المدرسة والعائلة، فذلك لأنّ لديهم كلّ الأسباب التي تجعلهم يشعرون بالتواطؤ الذي يجمع هاتين المؤسستين، رغم تعارضهما الظاهري، والذي يتجلّى في خيبة الأمل التي يشكل هؤلاء «الفاشلون» سببَها وموضوعَها. ولا يبقى أمام أولئك الذين قتلوا آمال الأب وما ينتظره منهم سوى الاستسلام لفقدان الثقة بأنفسهم وتلبّس الصورة الشديدة السلبية التي تعكسها لهم أحكام المؤسستين المتحالفتين، أو الإجهاز الرمزيّ على «المشروع» الأبوي وذلك بمعارضة كلّية لنمط الحياة العائلية، كما يفعل المراهق الذي يقوم بأكثر المهمات حقارةً في حزب يميني متطرف، بينما أبوه مهندسٌ يساريّ.

ينبغي أن نتفحّص بصورة أشمل الأشكال المختلفة التي يمكن أن تأخذها الصلة بين أحكام المؤسسة المدرسية التي كثيراً ما تكون ذاتيةً وكلية، وبين الأحكام الأبوية، تلك التي تسبق أحكام المدرسة أو بصورة خاصة تلك التي تليها: فتلك الصلة شديدة التأثر بتصوّر العائلات ل«العَقد التربوي»، الذي يختلف كثيراً تبعاً للفئات الاجتماعية، والذي يختلف بدرجة الثقة الممنوحة للمدرسة وللأساتذة، وبدرجة تفهّم متطلّباتهم المعلنة منها والضمنية، وبشكل خاصّ الضمنية. والمؤسسة المدرسية، المنغلقة ضمن رؤية تتعلّق بقدرة الطالب الذاتية لا تؤهلها كما ينبغي لملاحظة ومواجهة اختلاف الاستعدادات الذهنية عند الطلاب، كثيراً ما تحدث صدمات نوعيّة تنشّط الصدمات الأولى: فالأحكام السلبية التي تؤثّر على صورة الذات تجد سنداً لها، ربما يكون متبايناً جداً بقوته وشكله، عند الأبوين، مما يضاعف المعاناة

ويضع الطفل أو المراهق أمام خيار الخضوع أو الخروج من اللعبة بأشكال مختلفة من الإنكار أو التعويض أو التراجع (تأكيد الرجولة وإقامة علاقات قوّة بدنية يمكن أن تُفهم كطريقة لقلب علاقات القوة الثقافية والدراسية إما بصورة شخصية أو بصورة جماعية).

هنالك نموذجٌ آخر قريبٌ من السابق، لكنّه أكثر مأساوية من زاوية معينة، وهو نموذج الابن الذي عليه، كي«يؤسس حياته» كما يقولون، أن يُنكر حياة أبيه وذلك برفضه التام والقاطع لأن يرث ويورِّث، لاغياً بذلك بمفعول رجعيّ كلّ المشروع الأبوي الذي يجسّده الميراث المرفوض. وتكون تلك المحنة مؤلمةً للأب بشكلٍ خاصٍ (وربما للابن أيضاً) حين يكون قد أنشأ بنفسه ذلك الميراث من أوّله إلى آخره، ذلك «البيت» (المهنة) الذي سيتوقف عند ذلك، كما هي حال المزارع الذي سألناه؛ إذ يلغى كل ما أنجزه، ويلغى بالتالي وجوده كله ويُنزع عنه معناه ومصيره.

من بين كل المآسي والنزاعات، الداخلية منها والخارجية، والتي ترتبط بالصعود بقدر ما ترتبط بالانحدار، والناتجة عن تناقضات التوارث، فإنّ اقلّها توقّعاً قد يكون التمزق الذي ينتج عن النجاح كفشل، أو بتعبير أفضل، كتعد: فكلّما نجحتَ (أي كلما حققت رغبة الأب في أن يراك تنجح) كلّما فشلتَ وقتلتَ أباك أكثر، وانفصلتَ عنه أكثر؛ وعلى العكس من ذلك، فكلّما فشلتَ، (محقّقاً بذلك الإرادة غير الواعية للأب الذي لا يمكن أن يريد في أعماقه أن يتم إنكاره كلّياً، بالمعنى الفعال للكلمة)، كلّما نجحتَ. ويبدو الأمر كما لو أنّ موقع الأب الذي كان يجسّد حداً ينبغي عدم تجاوزه قد أصبح يشكل نوعاً من منع الاختلاف معه والتميّز عنه وإنكاره ومقاطعته.

يمكن أن يمارس هذا التحديد للطموحات في الحالات التي حقق فيها الأب نجاحاً كبيراً (وتستحقّ حالة أبناء الشخصيات المشهورة تحليلاً خاصّاً). إلاّ أنّه يكتسب قوّةً خاصّة في الحالات التي يحتلّ فيها الأب مركزاً خاضعاً سواءً من الناحية الاقتصادية والاجتماعية (حيث يكون مثلاً عاملاً أو موظفاً صغيراً) أم من الناحية الرمزية (حيث يكون عضواً في جماعة

موصومة) ويجد نفسه بحالة تناقض تجاه نجاح ابنه وتجاه نفسه أيضاً (حيث يكون منقسماً في داخله بين الفخر بالابن والخجل من الذات الذي يسببه استبطان نظرة الآخرين له). فهو في الوقت نفسه يقول لابنه: كن مثلي واعمل ما عملته، وكن مختلفاً، اذهب. إنّ وجوده كله يشتمل على حكمٍ مزدوج: انجح، تغيّر، تحوّل إلى برجوازي، وابقَ بسيطاً، متواضعاً، قريباً من الشعب (مني انا). إنه لا يمكن أن يريد أن يتماثل ابنه معه في وضعه واستعداداته لكنه مع ذلك يجتهد بصورةٍ مستمرة لإحداث هذا التماثل في كلّ جوانب سلوكه، وبصورةٍ خاصة بلغة الجسد الذي يساهم بقوة في تشكيل المظهر. إنه يتمنى ويخشى أن يصبح ابنه نسخةً عنه، وهو يخشى ويتمنّى أن يصبح صنواً له. إن الابن، وهو نتاج ذلك الإيعاز المتناقض، منذورٌ للازدواجية تجاه الذات وللإحساس بالذنب لأنّ نجاحه هو بالفعل قتلٌ للأب في هذه الحالة: فهو خائن إذا نجح، ومخيب للأمل إذا فشل. ينبغي للخيانة أن (تُنصف) الأب، ومن هنا ينبع الإخلاص لقضية الشعب الذي هو إخلاصٌ للأب، (وكما تثبت ذلك مثلاً شهاداتٌ قمنا بجمعها، فإنّ بعض حالات الانتساب إلى الحزب الشيوعي مستوحاةٌ من البحث عن مصالحةٍ مع شعبٍ وهميّ، يتم العثور عليه بشكلٍ خياليّ في صفوف الحزب)؛ ويمكن فهم العديد من التصرفات، غير السياسية بالضرورة، على أنها محاولاتٌ لإجراء تحييدٍ سحريّ لتأثيرات تغير الموقع وتبدّل الاستعدادات التي تفصل الابن عملياً عن الأب وعن الأنداد («لم تعد تطيقنا») وللتعويض عن استحالة التماثل الكامل مع أبٍ خاضع[5] بالوفاء لمواقف ذلك الأب.

تميل مثل هذه التجارب إلى أن تُنتج أناساً ممزّقين، منقسمين ضدّ أنفسهم، يتفاوضون باستمرارٍ مع أنفسهم ومع تناقضهم الذاتيّ، وهم بالتالي

---

[5] هنا نفكّر بذلك الشاب من أصلٍ مغاربي الذي يجد نفسه محاصراً بين عالميْن لا يمكن لهما أن يتصالحا، فلا هو يجد نفسه في المدرسة التي ترفضه ولا مع أبيه الذي عليه هو أن يحميه، والذي يبدو بأن توتره يجد بدايةً للحلّ حين يجد في ابوي صديقته عائلةً بالتبنّي، ويجد عبر صديقته نفسها إمكانيّةً ليستعيد انسجامه مع المدرسة.

منـذورون لشـكلٍ مـن الازدواجيـة، لإدراكٍ مـزدوجٍ للـذات، ومنـذورون كذلـك لتعدد الهويات ولأشكالٍ متعاقبة من الإخلاص.

وهكذا، فإنّ العائلة تفرض في معظم الأحيان أوامر متناقضة، سواءً بذاتها أم بالعلاقة مع الشروط المتوفرة لتحقيق تلك الأوامر، وذلك على الرغم من أنها لا تحتكر إنتاج المآزق الاجتماعية وأنّ المجتمع يضاعف الأوضاع التي تُنتج تأثيراتٍ مماثلة تماماً. إنها السبب الأساسي والأكثر شمولاً للمعاناة الاجتماعية، بما فيها ذلك الشكل المتناقض ظاهرياً للمعاناة المتجذرة في الامتياز. العائلة هي التي تجعل ممكنةً تلك الامتيازات المفخخة التي كثيراً ما تستجرّ المستفيدين من هدايا التكريس الاجتماعي المسمومة إلى أشكالٍ مختلفة من المآزق المَلَكية، الطرق المَلَكية التي تتكشّف عن كونها طرقاً جانبيةً دون مستقبل (وهنا، نتذكر عبارة: «الوجاهة تقتضي» وكلّ المستفيدين - الضحايا لشكلٍ من أشكال التكريس الاجتماعيّ أو الانتقاء، كالنبلاء والرجال والأخوة الأكبر سناً وحاملي الألقاب العلمية النادرة). ربما تكون العائلة هي المسؤول الأساسيّ عن هذا الجزء من المعاناة الاجتماعية التي يكون الضحايا أنفسهم موضوعاً لها (وبشكلٍ أدق، المسؤول عن الظروف الاجتماعية التي تنتج عنها استعداداتهم).

وبعدئذٍ، ينبغي الحذر من جعل العائلة السبب الأخير للمشاكل التي يبدو وكأنها تثيرها. وفي الواقع، وكما نرى في العائلة الفلاّحية حيث يحصل التوقف النهائي للعمل بسبب عدم الزواج أو رحيل الابن الأكبر، فإنّ العوامل البنيوية الأكثر أهمية (كتوحيد سوق الممتلكات المادية، والرمزية منها بصورةٍ خاصّة) موجودةٌ ضمن العوامل المسجّلة في قلب المجموعة العائلية. وهذا يجعل التكوينات الأكثر عمقاً في عالم المجتمع والتناقضات الكائنة في ما بينها تعبّر عن نفسها في كثيرٍ من الأحيان عبر سرد الصعوبات الأكثر «شخصيّةً» للتوترات والتناقضات التي هي ظاهرياً ذاتية جداً. وأشد ما يكون هذا الأمر وضوحاً في حالة الأشخاص الذين يحتلون مراكز غير مستقرة والذين يَظهرون بصفتهم «محللين عمليين» بارعين: فهم يوجدون

في مراكز «تفعل» فيها البنى الاجتماعية، وتجعلهم، تالياً، ينفعلون بتناقضات هذه البنى، فيضطرون، كي يعيشوا أو يصمدوا، لأن يمارسوا شكلاً من التحليل الذاتي الذي يفضي، غالباً، إلى التناقضات الموضوعية التي تتحكم بها، وإلى البنى الموضوعية التي تعبّر عن ذاتها من خلالها[6].

ليس هنا المجال المناسب لطرح مسألة العلاقة بين طريقة استكشاف الذاتية التي نقترحها والطريقة التي يمارسها التحليل النفسي. إلاّ أنه ينبغي على الأقل أن نحذّر من إغراء تصوّر العلاقات بينهما بصفتها خياراً بديلاً. إن علم الاجتماع لا يدّعي إحلال أسلوبه في التفسير مكان أسلوب التحليل النفسي؛ بل إنّه يريد فقط أن يبني بطريقة مختلفة معطيات معيّنة يدرسها التحليل النفسي أيضاً، وذلك بالتوقّف عند مظاهر للحقيقة يستبعدها التحليل النفسي باعتبارها ثانويةً أو غير ذات دلالة، أو يعتبرها حواجز ينبغي عبورها للوصول إلى ما هو جوهري (كالخيبات الدراسية أو المهنية والنزاعات في مجال العمل، الخ.) والتي يمكن أن تتضمن معلومات صائبة حول الأمور التي يعالجها أيضاً التحليل النفسي. ينبغي أن تجرى دراسةً حقيقية للعوامل الاجتماعية المكوّنة للأفراد التي تؤدي إلى نشوء الاضطرابات النفسية، وأن تجهد هذه الدراسة لفهم تأثيرات النظام الاجتماعي على التطورات النفسية، كيف يأسرها أو يحدد مسارها أو يقويها أو يقف في وجهها، وذلك تبعاً لوجود تماثلٍ وزيادةٍ وتعزيزٍ بين المنطقين، أو على العكس تناقض وتوتر. وبديهي أنّ البنى الذهنية ليست انعكاساً بسيطاً للبنى الاجتماعية. فالفرد يقيم مع حقلٍ ما علاقة تضامنٍ متبادل ويتحدد الوهم من الداخل عبر اندفاعات تحرّض على الانخراط في الموضوع؛ ويتحدد كذلك من الخارج انطلاقاً من عالمٍ خاصٍ من المواضيع التي يقدّمها المجتمع. إنّ فضاء الممكنات المميّز لكلّ حقل، دينياً كان أم سياسياً أم علمياً، الخ.، يعمل، وفقاً لمبدأ الانقسام النوعي الذي يميّزه،

---

[6] كثيراً ما تكون تلك حالة العاملين في المجال الاجتماعي الذين خطر ببالنا أن نسألهم أساساً بصفتهم مصادر للمعلومات والذين أصبحوا مواضيع مفضّلة لتحليل يزداد غناه بالاعترافات الموضوعية بسبب تعمقه في استكشاف التجارب الذاتية.

كمجموعة متكاملة من المزادات والاستجداءات، بل والممنوعات أيضاً؛ وهذا الفضاء يؤثّر كما تؤثّر لغة ما، كنظام للممكن وللممنوع في العبارات، وهو يمنع أو يشجّع التطورات النفسية المتباينة في ما بينها والمختلفة على كل حال عن تطورات العالم الاعتيادي؛ وهو يفرض على الرغبة نظاماً خاصّاً فتتحول بالتالي إلى وهم نوعي، وذلك عبر نظام الرضى الذي يقترحه. وكما يلاحظ جاك ميتر Jacques Maître ، فإنّ الحقل الديني مثلاً يستحوذ على بعض التطورات النفسية ويشرّعها، وقد تبدو هذه التطورات للفعاليات التي تدير الوجود الاعتيادي كأشكال مَرَضية لرفض الواقع. فتسمح الكائنات السماوية- وهي أشكالٌ خيالية تُذكر ضمن رمزيةٍ مقبولةٍ اجتماعياً وتُشرّع ويُعترف بها- والنماذج المستعارة من تقليدٍ أسطوري مستقل بقدرٍ متفاوت من الإدراك، تسمح بإسقاط أوهامٍ معترفٍ بها من الوسط المحيط وتؤمّن «تنظيماً دينياً للوهم» (مناظراً تماماً لما تؤمّنه النماذج الأدبية في مجال الحُبّ)[7]. وبنفس الطريقة، يمكننا أن نبيّن كيف تحدّد الرغبة ذاتها وتتسامى في كلٍّ من الفضاءات المقترحة لتعبير هذه الرغبة عن نفسها، لتأخذ أشكالاً مقبولةً اجتماعياً ومُعترفٍ بها، كأشكال الشهوة المسيطرة libido dominandi هنا والشهوة المُدركة libido sciendi هناك.

في تحليله لـ «الرواية العائلية للعصابيين» لاحظ فرويد بأنّ أحلام

---

[7] انظر ج. ميتر، «سوسيولوجية الإيديولوجيا والمحادثة غير الموجهة» في المجلة الفرنسية لعلم الاجتماع، المجلّد السادس عشر، عام 1975، صفحة: 248-256. لم يظهر كافّة الذين حاولوا التوفيق بين علم الاجتماع وعلم التحليل النفسي نفس الصرامة ونفس الحذر اللذين أبداهما جاك ميتر في أعماله حول الروحانيات، ويمكن لنا أن نستخرج من بعض المحاولات الجديدة الهادفة للتقدّم في هذا الاتجاه أشكالاً من التحريض على أشد حالات اليقظة. وإذا أردنا ألاّ يكون التحليل الاجتماعي نوعاً من التقاطع السلبي، كما يحصل في كثيرٍ من الأحيان في العقائد الوسيطة، حيث يُفلت من مقتضيات العقيدتين المعنيّتين، فإنه ينبغي بالفعل أن نحذر بأيّ ثمن من أشكال التوفيق النخبوية لـ «تحليلٍ نفسيٍّ» صحفيٍّ يكتفي بإعادة تسمية أكثر أفكار علم النفس التلقائي سذاجةً، حيث يصبح الطموح مثالاً للأنا، أو رغبةً نرجسيةً كليّةَ القدرة، والفشلُ فقداناً للهدف، وينبغي أيضاً أن نتجنّب علم الاجتماع الرخو الذي يتلاعب، باسم «التعقيد» و«ما بعد الحداثة»، بالأفكار الفارغة لميثولوجيا مبنيةٍ على تعارضاتٍ بين التعابير المتضادّة، وذلك دون أن يكون له موضوعٌ مرجعيٌّ، مرددين برتابةٍ مرّةً أخرى اللازمة البرجسونية حول المغلق والمفتوح.

اليقظة لفترة ما قبل البلوغ كثيراً ما تستحوذ على «موضوعة العلاقات العائلية» بنشاط تخيّليّ يهدف إلى رفض الأبوين اللذين أصبحا منبوذين ليحلّ محلهما آخران غيرهما من «وضعية اجتماعية أعلى»، أي «أرفع مقاماً». ولاحظ في نفس الوقت بأنّ هذه الأحلام «تفيد في تحقيق رغبات معينة وإلى تصحيح الوجود كما هو، وبأنها تهدف بصورة أساسية إلى أمرين: جنسي وطموحيّ». وأضاف على الفور بين قوسين: «لكن خلفه (خلف الهدف الطموحيّ) يختبئ أيضاً في معظم الأحيان الهدف الجنسيّ»[8]. لست أملك أن أؤكّد أو أنفي هذا التأكيد. لكنني أودّ فقط أن أذكّر بالتأكيد المتمم الذي يغفله التحليل النفسي: في كلّ حقل (ورأينا مثالاً مع الحقل الديني)، لاتتظاهر الرغبة إلاّ بالشكل النوعي الذي يحدده لها هذا الحقل في لحظة معينة من الزمن، وهو يتمثّل في أكثر من حالة بالطموح.

[8] س. فرويد، العصاب والذهان والفساد، باريس PUF 1973، صفحة 158 – 159.

آلان أكاردو

المصير المدرسيّ

سيباستيان ك. صحفيّ سياسيّ في إذاعة يتجاوز مستمعوها الإطار المحليّ. في عام 1981، تابع- متأخراً نوعاً ما، فقد كان في الثامنة والعشرين من عمره - دروساً في مدرسة مشهورة للصحافة، وذلك في نهاية مسيرة دراسية ومهنية مضطربة نوعاً ما. تمّ اللقاء في مسكنه الجديد، وهو بناءٌ برجوازيٌّ قديمٌ، إلاّ أنه مجدّد، يقع في وسط مدينة كبيرة في الريف، وهو ذو مستوى أكثر تلاؤماً مع التطور الجديد في وضعه المهني. ورغم النجاح الذي يُظهره سيباستيان، فإنّه يبدو مسكوناً بألم يمكن أن يخففه مع الزمن الاستغناءُ التدريجي الاجتماعي (فهو يسلّم قائلاً: «التمرّد يضعف...»)، لكن مع ذلك دون أن يختفي تماماً.

سيباستيان هو الابن البكر لعائلة من البرجوازية الصغيرة جداً اكتسبت وطوّرت استعداداً للارتقاء، وذلك ببذل العديد من التضحيات الشجاعة؛ وبما أنها لم تستطع الوصول فوراً وبشكل كامل لتغيير وضعها، فقد طبّقت على أبنائها آمالَها في تحقيق حقيقيّ لهذا التغيير عن طريق دفعهم الحثيث على طريق الدراسة. والد سيباستيان من عائلة أصلها إسباني مهاجرة من المغرب، وكان أبوه عامل سكك حديدية. فقد بدأ تأهيلاً بعد حصوله على شهادة الدراسة الابتدائية، لكنه اضطرّ للتخلي عنه ليشتغل عاملاً في هيئة السكك

الحديدية المغربية، ثم أصبح رئيس مجموعة بفضل الدروس المسائية وتدريبات الإملاء العديدة التي فرضها على نفسه بمساعدة زوجته التي نالت قسطاً أوفر من التعليم. وبالفعل، فقد درست زوجته في المدرسة الإعدادية حتّى الصفّ الثامن، حيث اضطرت لترك الدراسة بسبب نقص الإمكانيات المادية، في ما يشبه تكراراً تعيساً لتاريخ العائلة، فقبل سنوات عديدة، وجد والدها أحلامه تنهار بسبب الموت المفاجئ لوالديه، وهو الذي كان قد حصل على الشهادة الثانوية وكان يحلم بأن يصبح كاتباً بالعدل. وهكذا، وجد سيباستيان نفسه منذوراً منذ نعومة أظفاره بحُكمٍ عائليّ لرفع سوية العائلة بأكملها عن طريق النجاح المدرسيّ المرتقب.

لقد جثمت على صدر الطفل ضخامة الحمل المعنوي- حتى لو لم يدرك إلاّ بصورةٍ مشوّشة أهميةَ رهانٍ يتجاوز شخصه- وساهم ذلك الأمر على الأغلب في إعطاء منحى مأساويٍّ للصعوبات التي صادفته في المدرسة. مع ذلك، فحين بدا لوالديّ سيباستيان المسكونين بـ«حرمانٍ هائلٍ» وبـ«هاجسٍ» دراسيّ «حقيقيّ» أن ابنهما «يقدم لهما الآمال»، اعتقدا أنهما سوف يتمكنان أخيراً من القطيعة مع سوء الطالع الذي عرفته العائلة حتى ذلك الحين، وصبّ الأبوان كلّ اهتمامهما على مسيرة سيباستيان الدراسية، وكذلك على مسيرة أخيه الذي يصغره بخمس سنوات، فقد تخليا مثلاً عن اقتناء جهاز تلفزيون كيلا يعيق دراسة الأبناء. عملت الأم في تنظيف المنازل لتدفع تكاليف دراستهما، وبصورةٍ خاصة لتدفع تكاليف دروسٍ خاصّة في الرياضيات، بينما اهتمّ الأب بشكلٍ حثيثٍ بدراستهما، وذلك بعد أن «احتدمت» طموحاته منذ نجاحات سيباستيان الأولى؛ فهذا الأب كان يشارك في كافّة مجالس الأولياء ويضاعف مقابلاته للأساتذة، رغم أنّ كلاً من هذه المقابلات مثّلت، كما يقول سيباستيان، فرصةً «ليتلقى «صفعةً» من الوسط المدرسي بسبب كونه لا يتكلّم بصورةٍ ممتازة».

وعلى الرغم من أهمية تلك التعبئة العائلية، فإنّ سيباستيان، الذي قد يكون ضحية «القسر» المدرسي الذي خضع له، سرعان ما رأى نجاحه يراوح في مكانه (منذ الصف الخامس، كما يحدد هو نفسه)، وذلك بعد أن

كان يعد بالكثير في البدايات (وهو دخل المدرسة قبل السن النظامية). وإذا كان سيباستيان يحكي قصّته المدرسية بإحساسٍ هو مزيجٌ من العرفان والإحساس بالذنب تجاه والديه ويعزو لنفسه في الماضي الدور السلبي (لم أكن شديد الذكاء)، «أبواي هما اللذان حملاني حقاً، كانا يحقنانني باستمرار، ولو لم يكونا موجودين (...)، لما تمكنت من الوصول حتى النهاية»، فإنه لا يخفى واقعَ أنه كان من الصعب عليه أن يتحمّل ذلك الضغط المقلق الذي يلازم في كثيرٍ من الأحيان مشاريع الصعود الاجتماعي.

يُظهر العديد من التفاصيل العلاقةَ النزاعية التي يقيمها الأب مع المؤسسة المدرسية، وهي الموضوع شبه الحصري لكلّ الاستثمارات، وبالتالي لكلّ الملامات. فقد تشاجر مثلاً مع معلّمة سيباستيان الذي كان في الصفّ الثالث لأنه اتهمها بحرمان ابنه عن قصد من المرتبة الأولى في الصف لصالح ابنة الصيدلاني، ويعلّق سيباستيان على هذه الحادثة فيقول بأنها كانت حادثةً مريرة ويضيف: «كان أبي قد أخطأ في جمع علاماتي!». ويسترجع الأب الذي كان مناضلاً عمالياً منضوياً تحت لواء اتحاد العمال العام CGT والذي «طالما ثار على وضعه بدرجاتٍ متفاوتة»، يسترجع برعونةٍ استعداده للمطالبة حتى في علاقته مع المؤسسة المدرسية؛ فقد اعتقد، في بدايةٍ مسيرة سيباستيان الدراسية على الأقل، بأنه- وهو الفقير ثقافياً والذي لا يملك من سلاحٍ يعارض فيه المدرسة سوى سلاح الرفض والتعنّت المرتاب- يستطيع أن يخدم مصالح ابنه بصورةٍ أفضل إذا اختار تجاهل الأحكام المدرسية في حال تناقضها مع طموحاته. وهكذا رفض في بدايةٍ عقد الستينات أن يُدخل ابنه في أقرب إعداديةٍ عامّة إلى مسكن العائلة الذي يقع في محيط المدينة، وذلك رغم أنّ ابنه قد نجح بصعوبة إلى الصفّ الأول الإعدادي، وسجّله في أكبر ثانويات المدينة (وذلك على عكس رأي المعلّمين في تلك المرحلة)؛ وتقع تلك الثانوية في مركز المدينة، وتتمتّع بسمعةٍ تميل إلى النخبوية، ويفرض عليها التقسيمُ حسب المناطق استقبالَ طلاّب مناطق حدودية معينة ينتمون إلى الأوساط البرجوازية، وتحضّرهم للبكالوريا وتأهّلهم للمدارس العليا.

وهكذا، ارتكب الأب خطأً ذا نتائج وخيمة حين أراد «الأفضل لابنه»،

لن يكرره مع الابن الثاني. وشعر سيباستيان الذي غُمس بصورةٍ مفاجئة في المحيط الغريب عنه وعمره لم يتجاوز التسع سنوات ونصف بـ«صدمة» أدّت عنده إلى ما يشبه الشلل الدراسي: فقد حصلت «الكارثة الفورية» منذ الصف الأول الإعدادي وحدث لديه فشلٌ جعله «لا يفهم ما يجري». عانى سيباستيان من الإحساس بالغربة التامة، بالاقتلاع الكامل من الجذور، جغرافياً ومدرسياً واجتماعياً: الانتزاع من العائلة والمحيط المألوف لرفاقه في المدرسة، الرحلات بالحافلة في وقت مبكرٍ جداً، قضاء نهاراتٍ كاملة خارج بيته؛ وتغيّر مستوى المتطلبات المدرسية- فقد اكتشف على سبيل المثال في الأول الإعدادي «ضعفه الشديد بالإملاء»-، وغرابة محيطٍ مدرسيٍّ «يتم فيه إملاء الصولفيج»، وحيث يبدو له «الأساتذة الذين يدرّسون الفرنسية واللاتينية واليونانية وحوشاً، أنصاف آلهة، غرباء»، وباختصار، أشخاصاً «من عالمٍ مختلف» عن عالمه؛ كما أنه شعر أيضاً بغرابة وضعه الاجتماعي الذي كانت تذكّره به دائماً نظرات وتعليقات زملائه وأهلهم وأساتذة الثانوية؛ كان يشعر بأنه ليس في مكانه، ودعّمت لقاءات ومواجهات أبيه المؤلمة مع الجهاز التدريسي هذا الإحساس، «فهو ليس حنوناً دوماً مع الناس الذين ليس لديهم مقاييسهم». لقد كانت ثلاثَ سنوات سوداء، ثلاث سنواتٍ من الألم والفشل المتزايدين. ولن يستطيع أبداً كما يقول «الدخول إلى المدرسة دون أن يشعر بالخوف»، ورعبه المتزايد في الصفّ، بمواجهة أساتذةٍ جاهزين «للسادية» أو للتجاهل المزدري، لا يجد عزاءً في المنزل، وهو أيضاً مسرحٌ «للحملات الشعواء»، العنيفة في بعض الأحيان، ينساق إليها الأب أحياناً لشعوره «بالمرض» من فشل ابنه («أعفيكم من المشاجرات العائلية ومن الهزات»). وبعد الصفّ الثاني الإعدادي «السيئ» لدرجة أنه يكفيه أن يتذكره لكي يتعرّق، «حُوِّل إلى صفٍّ انتقالي»، أي أنه طرد فعلياً من الثانوية وبشّره أساتذته «بمستقبلٍ مظلم»، وهذا الحكم يشكّل تكذيباً فظاً لطموحات أبيه التي «ليست في مكانها» اجتماعياً، لأنها مُغالية. وبسبب الألم الذي سببته له تلك التجربة التي جعلته «معقّداً بشدة» ومهاناً، فإنّ سيباستيان لم يستطع لفترةٍ طويلة أن يقطع سلسلة الفشل، حتى بعد

أن أصبحت المتطلبات المدرسية أقل من السابق. وتمكّن، بفضل معارضة أبيه القوية، من تجنّب التوجيه المهني القصير الأمد. وحصل على شهادة ثانوية فنية دنيا بعد رسوبه عدة مرات. خلال تلك المسيرة الدراسية الصعبة، تمكّن سيباستيان من إقامة علاقات شخصية أفضل وأقلّ صدامية مع بعض أساتذة المواد الأدبية، وحصل في الإعدادية العامة وفي الثانوية الفنية على الاهتمام الذي رفض أساتذة الثانوية المرموقة التي كان فيها منحَه له، وربما كان ذلك تحديداً لأنه قد سبق له أن كان طالباً في تلك الثانوية ذاتها. وقد سمح له اكتشاف حركات طلاّب الثانويات والنضال الفعال عام 1971-1972، حين كان في الصف العاشر، بأن يؤكّد ذاته حين منحته تلك الحركات وذلك النضال وسيلةً للتعبير ودعماً لتمرده الضبابي. وساعده التدرّب على وظيفة الناطق الرسمي بصفة خاصة على التغلب على «خجله» و«عقده» وتلعثماته، وقدّم له بالتدريج كفاءةً ويسراً سمحا له بمتابعة دراسته وبإطالة نضاله من خلال المشاركة بحركات سياسية. إلاّ أن نفوره «العميق» من كافة أشكال السلطة المؤسساتية الذي ولّدته داخله تجربته الأولى مع الوسط التعليمي أوصله إلى أن يقول عن نفسه بأنه «يساريّ ليبراليّ مناصرٌ للبيئة» وإلى الإعلان بأنه غير قادر على البقاء طويلاً في منظمة سياسية أو نقابية.

يمكن فهم الجاذبية التي مارستها مهنة الصحافة على سيباستيان، أو على الأقل الصورة الباهرة التي قد يشكلها بعض اليافعين في أذهانهم لها خلال مسيرتهم الدراسية الفاشلة جزئياً، والذين يحتفظون مع ذلك بطموح اجتماعيٍّ كبير ولديهم استعدادٌ مسبق للتمرد ولكشف حالات الظلم، بدءاً من تلك التي يتعرضون هم بالذات لها. لكنه تردد مع ذلك قبل الانخراط بتلك المهنة؛ ربما كان ذلك لافتقاده في حينه للعلاقات الاجتماعية التي يقال بأنه لا غنى عنها في تلك المهنة، لكن ذلك أيضاً لأنّ الصلة التي كان يقيمها مع الصحفيين إشكاليةٌ بعمق، إذ أنهم كانوا يمثّلون أيضاً بالنسبة له الناطق الرسمي للمهيمنين. وهذا جعله يحضّر أولاً دبلوماً تجارياً تقنياً عالياً وينجح بسهولة في الحصول عليه، ويقوم «بأعمال صغيرة متنوعة»، بل يخطط للتحضير «لشهادة مهنية في الطبخ»، وذلك قبل أن يدرس في مدرسة الصحافة.

وإذا كان سيباستيان قد تمكّن من إجراء تصحيحٍ رفعه إلى وضعٍ اجتماعي هامٍ نسبياً، فإنّ هذا لا يمنع من أنّ هذا المسار يدين بالكثير لمصادفة اللقاءات والأحداث التي قد تؤثر على مسيرة أولئك «الصاعدين» من النظام المدرسي. وعبر أنصاف النجاحات التي تجعلها ممكنة الحدوث، فإنّ هذه الدفعات المساندة التي يقدمها القدر-نذكر هنا تدخّل أستاذٍ قديمٍ لسيباستيان في الإعدادية العامة عضوٍ في لجنة تحكيم البكالوريا قابله صدفةً قبيل الامتحانات- إن لم تُثرِ النجاح، فإنها تؤدي على الأقل إلى إيقاف الفشل المتتابع وإلى إعادة تنشيط الآمال التي أنتجتها التربية الأسرية والتي أدى الفشل المتتالي إلى إخفائها.

ورغم كونه اليوم صحفياً محترفاً راسخاً ومعروفاً، فإنّ سيباستيان لا يستطيع، أو لا يريد، الانخراط في وسط الصحفيين: فهو لا يعترف بأي صديقٍ صحفيّ، ويرفض أن يحتلّ وظيفةً أعلى في التراتب الوظيفي، حيث رفض مثلاً وظيفة مساعد رئيس تحرير. ربما يكون هذا الابتعاد المُعلن تعبيراً عن رفضٍ أكثر عموميةً للدخول في عالَم المهيمنِين يمكن لمسه بصورةٍ خاصة من خلال استخدامه للغة حافظت قليلاً على بعض التعبيرات الشعبية؛ إلاّ أنه في ذلك الابتعاد يتجلّى أيضاً الرفضُ الأكثر نوعيةً لوسط الصحفيين الإذاعيين. وبالفعل، فإنّ سيباستيان ينظر دون تساهلٍ ودون أوهامٍ إلى ذلك الوسط الذي لا يرضيه فيه شيء: كالعمل الذي ينبغي إنجازه دوماً بسرعةٍ ودون تحضيرٍ جيد، والوقت غير الكافي على الهواء، والمعلومات المثيرة، وزملاؤه الذين يميلون للخضوع لمصيرهم، بل الراضون عنه، والذين ترسخت مواقعهم في الروتين المهني والوضاعة الثقافية. وهو يذهب إلى إدراج نفسه، بطريقةٍ مدمّرة للذات نوعاً ما، ضمن الحكم السلبي الذي يطلقه على المهنة ككل، مدفوعاً بوضع المقابلة التي سنذكرها بعد قليل، والتي يريدها أن تكون مناسَبَةً لشيءٍ من التفكير «بنفسه»، بل إنه يعلن بشيءٍ من المغالاة بأنه اختار الصحافة لكونها «مهنةً ليس مطلوباً ممن يمارسها أن يعرف الكثير، وينبغي أن يكون ثرثاراً وأن يكون عنده بعض المهارة في الخداع».

في واقع الأمر، فإنّ سيباستيان لم «يهضم» بعدُ تجربةً مدرسيةً عاشها ككارثةٍ مشينة. إنّ المؤسسة المدرسية، برفضها منحه الاعتراف به، هي التي ساهمت بقوّةٍ في تشكيل حساسيته المتفاقمة تجاه كلّ أشكال الاحتقار في الصف. إنّ شعور سيباستيان يمثّل ردّاً مزدوجاً على الخيبات الانفعالية، التي هي الوجه الآخر لانبهارٍ ورغبةٍ ممزوجةٍ بالعرفان، وهو في الوقت نفسه ردّ فعلٍ على الإهانات المدرسية (سواءً أكانت ملاحظة وليّ أمرٍ أو أستاذ، أو مجرّد الجو العام لثانويةٍ نخبوية)، وبصورةٍ عامّة على كلّ تلك التصرفات التي تعيد من خلالها الأرستقراطيات الاجتماعية الدخلاء إلى أماكنهم، وهذا الشعور هو أيضاً تعبيرٌ عن كرهٍ للذات، كما لو كان الصحفي الشابّ يمارس بداخله ما تعتبره الأحكام الاجتماعية مكروهاً، وذلك حين يمارس على نفسه تحقيراً للذات وحين يصبح «جلاّد نفسه».

ويفهم المرء أيضاً ألاّ يكون سيباستيان محايداً تجاه المكاسب والامتيازات المترافقة مع وضع الصحفي، وبصورةٍ خاصة حين تعطيه فرصةً للانتقام الاجتماعي، كما يحدث خصوصاً حين يقابل شخصاً من الأشخاص المهيمنين، وبالأخص من الأساتذة، سببِ كلّ ذلك الألم والخوف والكراهية بحيث لا يستطيع أن يمنع نفسه من أن يذكّرهم برعبه أمام اللوح الأسود حين كان طالباً، وذلك حين يرى اضطرابهم وخجلهم المفاجئ أمام الميكروفون. وإذا كان يعتقد أحياناً بأنه يمكن القيام بعملٍ صحفيٍّ أكثر نضاليةً وأكثر انخراطاً بالنضالات الاجتماعية في إطار الإذاعة التي يعمل فيها، فإنه لا يفقد أبداً ذلك الصفاء الذهني الذي أصبح يمنعه من الاستسلام للأوهام، ويكبت بشكلٍ خاصّ طموحه الحقيقي المتمثّل في أن يمارس يوماً ما صحافةً رفيعة المستوى على مثال مقالات جريدة لوموند ديبلوماتيك Monde Diplomatique. وربما لأنه تعلّم بصورةٍ مبكرةٍ جداً أن يرتاب بالمشاريع شديدة الطموح، فإنه يبدو بأنه لا يستطيع بعد الآن أن يتخيل المستقبل إلاّ كانعكاسٍ بسيطٍ لحاضرٍ بائسٍ يتكرر بصورةٍ لا نهائية: فهو «يرى نفسه {في نفس المدينة} صحفياً بالمستوى نفسه والدرجة ذاتها بعد عشرين عاماً».

مع صحفي

مقابلة أجراها آلان أكاردو

«كانت متابعتي لدراستي هاجس أبويّ»

[...]

سيباستيان: دخلت المدرسة بعمر أربع سنواتٍ ونصف، حيث دخلت الصف الأول وذلك لعدم وجود دار حضانةٍ في ذلك الوقت، وقد أعدتُ الصف الأول في العام التالي. لم يكن ذلك رسوباً، فقد كان عمري صغيراً جداً؛ بعد ذلك، درست الصف الثاني ثم الصف الثالث وكانت الأمور جيدة. سأروي لك حكايةً صغيرة: فحين كنت في الصف الثالث، زجر أبي المعلّمة لأن ترتيبي كان الثاني على الصف، في حين أنه كان يُفترض أن أكون الأول؛ الأولى كانت ابنة الصيدلاني، وبدأ أبي يقول إنها لم تصبح الأولى إلاّ لأنها ابنة الصيدلاني... كان قد أخطأ في جمع العلامات، تلك هي الحكاية التعيسة. بعد ذلك، انتقلت الأسرة إلى ف. حيث بنى أهلي منزلاً صغيراً، ودرستُ فيها الصف الرابع، وكنت جيداً؛ أعتقد بأنني كنت الأول على الصف. وبعد ذلك، في الصف الخامس، بدأت الأمور تسوء، لا أدري لماذا، لكنني نجحت إلى الصفّ السادس(*). كان كلّ من أبي وأمي يأسفان كثيراً لتركهما للمدرسة ويشعران بحرمانٍ كبير، وبالتالي ، فإنّ هاجسهما الحقيقي

(*) تبدأ المرحلة الإعدادية في فرنسا اعتباراً من الصف السادس. المترجم

كان في أن يكمل ابنهما دراسته؛ أظنّ بأن ذلك الأمر هامّ بالنسبة لمسيرتي وأنا أدين لهم بالكثير في هذه النقطة، حتى لو كان الأمر شاقاً بالنسبة لي.

❖ كم ولداً أنتم؟

سيباستيان: اثنان، فلديّ أخٌ أصغر مني بخمس سنواتٍ وهو قد ولد في فرنسا.

❖ إذن، فقد حمّلك والداك آمالهما؟

سيباستيان: تماماً، تماماً، ومن الصعب التعايش مع هذا الوضع، لكنه يفسر وصولي إلى نهاية المطاف تقريباً، لأنه لولا ذلك لما وصلت، أنا مقتنعٌ تماماً بذلك! إذن، فقد نجحتُ إلى الصف السادس فسجلني أهلي في ثانوية م. وذلك لأن لديهم أيضاً تصوّر للعَظَمة، سجلوني في تلك الثانوية على الرغم من رأي المعلّمين المضاد لتلك الخطوة. وكانت الكارثة! لقد حصلت الكارثة على الفور. إنّ ما أتذكره عن تلك المرحلة هو الأساتذة. لقد كنت صغيراً جداً وكان يتوجب عليّ البقاء خارج المنزل طيلة النهار، وكنت أرى الأساتذة الذين يدرّسون الفرنسية واللاتينية واليونانية كالوحوش! لقد كانوا وقتها أنصاف آلهة. إذن، لم أفهم شيئاً في الصف السادس؛ قبل ذلك، لم أكن سيئاً في الإملاء، (وفي الثانوية) وجدت نفسي سيئاً جداً فيه، وأخذت أرتكب كمياتٍ كبيرة من الأخطاء.

تقييم المدير لي كان: «سيكون له مستقبل مظلم»

سيباستيان: إذن، رسبت في الصف السادس لأنني كنت ضائعاً تماماً؛ ثم نجحت إلى الصف السابع؛ كانت سنةً كارثية، كارثيةً حقاً! لازلت حتى الآن أشعر بالخوف كلما تذكّرت تلك السنة، وكان تقييم المدير لي في نهاية أو منتصف العام بأن «مستقبلي سيكون مظلماً»، وحُوّلت إلى مجلس التأديب لأنّني تبادلت الأوراق مع زميلٍ لي؛ كان عاماً مريعاً حوّلتُ في نهايته إلى صفٍّ انتقالي. فمرض والدي، وحدثت مشاحناتٌ يومية في العائلة.

❖ هل كنت مشاغباً؟

سيباستيان: لا، أبداً، لم أكن مشاغباً، بل ربما كنت أتحول بالتدريج إلى شخصٍ معقّد فقد كنت أشعر بأن شيئاً ما يقع فوقي.

❖ وماذا عن علاقاتك مع زملائك؟

سيباستيان: كانت جيدة.

❖ ووجودك في ثانوية م. في تلك الفترة؟

سيباستيان: بالنسبة لأبي، كان يهتم بي كثيراً، ويذهب إلى المدرسة... كان يصادف في صالة الانتظار بعض الأهالي، وهو يذكر تعليقاً وجهه له أحد الآباء حيث قال: «مكان ابنك ليس تماماً في م.»، كما أنني أذكر أحد زملائي في الصف، وقد التقيت به ثانيةً في ثانوية الفتيان الفنية، وكان قد أصبح في الصف الثالث الثانوي بينما كنت في الصف العاشر: «أنا مندهشٌ لوجودك هنا، فقد كنت أتوقع ألاّ تتمكن من المتابعة». في الصف الثامن، ذهبت إلى إعداديةٍ عامة في س. وكانت تلك الإعدادية أكثر مناسبةً لقدراتي. هناك، سارت الأمور بشكلٍ أفضل وقد اضطر أهلي لدفع أجور دروسٍ خصوصيةٍ لي في الرياضيات، وساعدني ذلك كثيراً في النجاح إلى الصف التاسع. في ذلك الصف، كانت الأمور جيدة في الفصل الأول، وبعد ذلك تدهورت أحوالي، وكان ذلك عام 68. ففي نهاية العام الدراسي حصلت اضطراباتٌ؛ رأيت الأحداث عن بعد، فقد كنت في الرابعة عشرة من عمري، ولم أتمكن من النجاح إلى الصف العاشر. ذهبت إذن إلى الثانوية المهنية لأدرس الإلكترونيات. أما أبي، فلم يكن يريد ذلك! إذن، فقد رسبت، وأجريت ما يدعونه بالصف التاسع الخاصّ؛ أي أنهم كانوا يضعون في هذا الصف كل الراسبين ويقدمون لهم دروساً متقدمة. أي أنه لم يكن رسوباً حقيقياً. ثم بعد ذلك، دخلت إلى التعليم الفني. لماذا التعليم الفني؟ إنهم دوماً أهلي، وخاصةً أبي، الذي كان يقول لي بأنني إذا لم أتمكن من الوصول إلى البكالوريا، فإنه يمكنني دائماً أن أتعلم مهنةً، بينما في الفرع الأدبي... ثم إنني لم أكن أعرف أبداً ما الذي سأفعله، وحين وصلت إلى الثانوية الفنية، شدتني مواد اللغة الفرنسية، بينما لم تستهوني مواد التاريخ

والجغرافيا، لكنني كنت قد بدأت أتخذ طريقاً. كان مستواي في الصف العاشر متوسطاً جداً وبالكاد سُجّلت في القسم F1. أفضل الطلاب كانوا يذهبون إلى القسم E، والذين بعدهم إلى القسم F3، ثم F2، وأسوأ الطلاب كانوا يرسلون إلى القسم F1؛ كما أن الثانوية الفنية كانت صعبةً في ذلك الوقت. وبعد ذلك نجحت إلى الصف الحادي عشر حيث كان مستواي ضعيفاً، لكن في البكالوريا كان الوضع أفضل، لكنني رسبت في ذلك الصف في السنة الأولى وأردتُ أن أعيد السنة لأنني كنت أكره الورشات على كل حال. كان لدينا اثنتا عشرة ساعةً من الدوام في الورشات أسبوعياً، وكنت لا أفقه شيئاً في الرسم الصناعي، وكانت علامة الرسم الصناعي في البكالوريا تُضرب بستة، وقد حصلت في العام الأول على علامة أربعة، وفي العام الثاني على علامة خمسة. لذلك، فحين يكون لديك مثل تلك العلامات، يصبح التعويض من الصعوبة بمكان! في العام الثاني، نجحت بزيادة علامةٍ واحدة عن علامة الرسوب، علامةٍ واحدة فقط لأنني قابلت بالصدفة أستاذي السابق في الرياضيات في الإعدادية، وأعتقد أنه قدّم لي مساعدةً فائقة، أظن أنه قد توسّل إلى الأساتذة لكي يضعوا لي علامتين أو ثلاث علامات إضافية وحصلتُ على البكالوريا! كان عضواً في اللجنة لكن حين رأيته، لم أكن أعلم بأنه عضوٌ فيها، رأيته بالمصادفة حين كان على وشك الدخول وكنت مشتاقاً له... أظن أنه كان ينقصني ثمانية علامات، وحصلت على علامةٍ زائدة؛ لقد وضع علامةً هنا وعلامةً هناك، لكن حين تضرب العلامة بمعاملها، فإن المجموع يرتفع. هكذا حصلت على الشهادة الثانوية. حينذاك، أردت بأيّ ثمنٍ أن أترك ذلك التعليم الفني، وتقدّمت بطلبٍ لأصبح صحفياً؛ ذهبت إلى التوجيه الدراسيّ وسألوني هل لديك علاقات؟ أجبت أن لا. فقالوا لي: «حسناً من الأفضل لك ألاّ تعمل بهذه المهنة إذا لم يكن لديك علاقات». وبما أنه لم تكن لي علاقات، وبما أنني كنت معقداً نوعاً ما من التوجه الفني، فقد بحثت عن شيءٍ آخر.

كان الاقتصاد يثير اهتمامي نوعاً ما بسبب علاقته بما هو نضاليّ؛ كل ما يتعلق بالاقتصاد كان يثير اهتمامي. اخترت بالتالي الدراسة في معهدٍ

فنيّ تجاري في ت. هناك، جرت الأمور بشكلٍ جيد جداً، فقد كنت في المكان المناسب لي. حصلت إذن على الدبلوم بسهولة شديدة، بل إنني أعتقد أنني حصلت على تقديرٍ جيد، ثم بحثت عن عمل.

كنت محتاراً بعد ذلك بين شهادة التأهيل المهنية في الطبخ وبين مدرسة الصحافة

سيباستيان: عملتُ في مخزنٍ لعدة أشهر ثم عملت قليلاً في مجال التأمين على الحياة، ثم في مؤسسة و. {وهي مؤسسة صناعية متعددة الجنسيات}؛ تلك كانت أعمالاً صغيرة غير متناسبة مع مؤهلاتي، لكن عملي الأول كان في مخزنٍ لشركة سينجر في قسم خدمات ما بعد البيع، حيث أرادوا استخدام شخصٍ فنيّ. لقد كانوا منذ ذلك الحين يفضّلون أن يكون لديهم شخص حائز على شهادةٍ فنية، واستخدموني؛ صحيح أنه لم يكن اختصاصي لكن الموضوع كان مع ذلك يتعلق بالإدارة، ففي مخزنٍ، هناك أعمال إدارة المواد في المستودع. إذن، كانت شهادتي أكثر من المطلوب لكنني بقيت مع ذلك ثلاث سنوات، وتركت العمل بعد ذلك لأنني مللت منه. ثم إن بقائي ثلاث سنوات لم يكن اعتباطياً لأنه كان لا زال من الممكن في ذلك الحين الحصول على تأهيل مأجور؛ إذن، فقد قمت بذلك ثم تركت العمل. عملت في مطعم في س. وكان العمل فيه يتم بالإدارة الذاتية، كما أنني كنت أهتم بالطبخ. ترددت بين شهادة التأهيل المهني في الطبخ ومدرسة الصحافة، ثم توقفت التجربة وانتابتني الرغبة في تنفس بعض الهواء النقي، فذهبت إلى الريف. وهناك قمت ببعض الأعمال الزراعية لأكسب قوتي، كنت عاطلاً عن العمل نوعاً ما، وبعد فترة، قلت لنفسي: «ينبغي أن تفعل شيئاً! لا يمكن أن تبقى هكذا!» ثم ذهبت إلى مدرسة الصحافة لأن أحد أصدقائي كان قد درس في مدرسة الصحافة قبلي مباشرةً، وعمل معي في مؤسسة و، وسُرّح من العمل. إذن، عادت لي الرغبة في الانخراط بذلك المجال. هذه هي على وجه التقريب مسيرة حياتي. كيف وصلتُ إلى هنا؟ التفسير هو أهلي الذين استمروا في إمدادي طيلة الوقت. ولولاهم، لما

وصلتُ، ففي الحيّ الذي كنت أسكن فيه، ليس هناك شاب واحد حائز على البكالوريا!...

❖ هل كنت تسكن في تجمّع سكني؟

سيباستيان: كنت أسكن في تجمّعٍ سكنيٍّ، مؤلف من منازل تحيط بها حدائق صغيرة، وقد اشترى أهلي منزلهم بالتقسيط، ولم يكن ثمنه مرتفعاً في ذلك الحين، ويقع في بداية مدينة ف. كان معظم السكان من العمال والموظفين الصغار؛ ثلاثة أرباعهم يعملون في مؤسسة السكك الحديدية.

❖ ربما كنت أحد الطلاب القلائل في ذلك الحي في دخول ثانوية م.

سيباستيان: نعم، كنت الوحيد، لم يذهب إلى م. أحدٌ غيري ولم يرتكب أهلي نفس الغلطة مع أخي الأصغر وأرسلوه إلى إعدادية ف.؛ إذن، كانت النقلة أسهل بكثير ولم يتعرض لصدمة. أنا لم أستوعب ما حدث حتى الآن، أجد صعوبةً في فهم ما حدث.

❖ هل كان لديك إحساسٌ بأنك تدخل محيطاً أجنبياً بالنسبة لك؟

سيباستيان: نعم، بشكلٍ كلّي! صحيحٌ أيضاً أنني كنت صغيراً لأنني دخلت المدرسة بصورةٍ مبكرة، ورغم كل ما عانيته من رسوب، فإنني كنت صغيراً، لم أكن أتجاوز التسع سنوات والنصف من عمري، وكنت لا أصل إلى قبضة باب الحافلة، كان عليّ الاستيقاظ في السادسة والنصف صباحاً، والذهاب، والبقاء خارج المنزل طيلة النهار، كنت أتناول وجبة الغداء في المدرسة، كل تلك الأشياء... الصغار يتأقلمون، ليس هناك مشكلة، هذا ليس خارقاً، لكن بالنسبة لي، أعتقد أنها كانت صدمةً؛ ثم ثانوية م.! في تلك الفترة، كانت م. أفضل ثانوية، وكان أهلي قد اختاروا الأفضل، كان ذلك الخيار هو الأفضل بالنسبة لابنهم. لقد كنت أثير الآمال في المدرسة الابتدائية، هذا أكيد، ثم تراجعت في الصف الخامس، لكن ليس تماماً، الواقع أنني لم أعد بنفس التفوّق، ، لكن ينبغي مع ذلك معرفة كيف كانت المدرسة في س. وفي ف. في ذلك الحين. لم أر أياً من رفاقي بعد ذلك. في ذلك الحين، كان أقصى طموحٍ دراسي لا يزال الشهادة الابتدائية؛ أظن أن

الكثير من رفاقي لم يحصلوا سوى على الشهادة الابتدائية. كانت س. في الستينات تشكّل القاع دراسياً، وكذلك الأمر بالنسبة لِ ف. إذن، حين ذهبت إلى م.، كان هناك فرق كبير، كان هناك دروس موسيقى، كانت هناك علامةٌ للموسيقى، كانوا يجرون في الثانوية إملاءً في الصولفيج وأنا لم أكن أفقه شيئاً، بينما كان هناك طلاّب يعرفون العزف على آلاتٍ موسيقية وكان الصولفيج بالنسبة لهم مادةً سهلة.

❖ هل كنت تقرأ كثيراً؟ هل كنت تحبّ القراءة؟

سيباستيان: كلاّ، لكن فيما بعد، قرأت كثيراً، قرأت الأدب الكلاسيكي، كلّ الأدباء الكلاسيكيين.

❖ وكنت لا تزال في م.؟

سيباستيان: كنت أقرأ للمتعة، وللواجب. قرأت من أجل المتعة، لكن متأخراً؛ لا بدّ أنني قرأت حين كنت صغيراً جداً لأنه لم يكن لدينا جهاز تلفزيون. لم يصبح لدينا جهاز تلفزيون إلاّ بعد فترةٍ طويلة جداً، حين أصبحت في الثامنة عشرة من عمري. لم يشترِ أهلي جهاز تلفزيون إلاّ بعد فترةٍ طويلة جداً لأنهم لم يكونوا يريدون أن يكون عندهم تلفزيون كيلا يمنعني من الدراسة. بل إنهم لم يكونوا قادرين على شرائه. لقد اشترى أبي أول سيارةٍ له حين أصبح في الأربعين من عمره، وحصل على شهادة السواقة في ذلك العمر. لذلك فقد كنا نتنقّل بالدراجة الآلية أو بالدراجة الهوائية.

كنت طالباً ليبرالياً يسارياً مناصراً للبيئة

❖ هل لُمحت قبل قليلٍ إلى نشاطاتٍ نضالية؟

سيباستيان: لم أفهم شيئاً من أحداث أيار 1968، فقد كان عمري حوالى 14-15 سنة كما أنني كنت متأخراً دراسياً، وأخي عاش تقريباً ما عشته في نفس الوقت، رغم أنه أصغر مني بخمس سنين. وقد جعل هذا الأمر مسيرته الدراسية أسهل بكثير من مسيرتي. ينبغي عليّ أن أشرح أمراً، فوالدي كان عضواً في اتحاد العمال العام CGT حين كان في المغرب؛ ولدى عودته إلى

فرنسا، تعامل معه أعضاء الحزب الشيوعي على أنه مستعمِر، فمزق بطاقة عضويته في اتحاد العمال، ولم ينضمّ بعد ذلك إلى أية حركةٍ نقابية.

◆ في أي عامٍ عاد إلى فرنسا؟

سيباستيان: لقد عاد بين 1953-1956؛ كانت العقليات قبل أحداث الجزائر...

◆ بدأت الأحداث في الجزائر عام 1954.

سيباستيان: تماماً، وحصلت في المغرب أيضاً بعض الأحداث، فعاد أهلي، وهم ديغوليون كما كانت حال الكثير من أفراد الشعب، وأنا كنت نوعاً ما مثل أهلي، أي ديغولياً. بعد ذلك، رأيت الفارق نوعاً ما. كان هناك فارقٌ في المؤسسات المدرسية. حين رسبت في الصف التاسع، كان لديّ مدرّسةٌ للغة الفرنسية كانت تناقشنا، وكان عملنا مع هذه المدرّسة مثيراً للاهتمام. ثم نجحت إلى الصف العاشر، وهناك لا أدري ما جرى، قابلتُ أناساً لم يكونوا مسيّسين كثيراً؛ ثمّ في الصف الحادي عشر، قلتُ لنفسي بأنني سوف أصبح مندوباً طلاّبياً، فقد كنتُ معقداً نوعاً ما وكانت تلك رغبةً في تجاوز نفسي، في أن أغيّر ذلك، وكان ذلك في عام 71-72... وبعد ذلك بقليل حصلت تحركات طلاّب الثانويات. إذن، تلك كانت استراتيجيةً استخدمتُها بصورةٍ لاواعية، ثم انخرطتُ في حركة التمرّد، لكنني لم أنتسب لأية حركة؛ لم أكن منضماً لأي تنظيم.

◆ ألم تنضوِ أبداً تحت لواء أية منظمة بعينها؟

سيباستيان: كلاّ، في عامي الأول في المعهد الفني العالي، ذهبت إلى اجتماعٍ للطلاّب الاشتراكيين ، لكن ذلك كان عن طريق الخطأ... فقد كنت أحاول الانضمام إلى من يجرون مونتاج جريدة ليبراسيون Libération ، فأخطأت في الاجتماع، وذهبت إلى اجتماع الطلاّب الاشتراكيين. {ضحك} كما أنه لم يكن في ذهني أبداً أي استعدادٍ للانضمام إلى «حزبٍ سياسي»؛ بالنسبة لي، كان هناك الناس الذين يناضلون والناس الذين يقبَلون. لم أبقَ في منظمة الطلاّب الاشتراكيين إلاّ فترةً قصيرةً لأنني لم أكن أشعر

بالارتياح. لقد بقيتُ فيها في فترة 74، انتخابات ميتيران-جيسكار، أول مبارزة على الانتخابات الرئاسية بين فرانسوا ميتيران وفاليري جيسكار ديستان. عدا تلك الفترة، كنتُ ليبرالياً -يسارياً- مناصراً للبيئة، أي أنني كنت كلّ ما كان يُعتبر في تلك الفترة...

❖ معادياً للنظام القائم؟

سيباستيان: تماماً. لكن هناك أمرٌ يجب عدم إغفاله، وهو أنّ أبي كان دائماً بطريقة ما ثائراً ضد... وضعه. لقد كان لفترة طويلة نقابياً في اتحاد العمال العام، وكانت لديه بالتالي حساسية خاصة؛ لقد شارك في إضرابات كبيرة، الخ.، وكان لديه دوماً معارضة كبيرةٌ جداً للنظام التراتبي، لكن بطريقة فردية نوعاً ما، أي أنها ليست مميزة جداً، ولا بدّ أنه تلقى الكثير من الصفعات في تلك المواجهات مع الأساتذة! أضع نفسي مكانه، هو الذي لا يتكلّم جيداً، والذي يكتب بشكل سيئ، الخ.، لا بدّ أنه عانى كثيراً، فالوسط التعليمي ليس دائماً حنوناً جداً مع الناس الذين ليست لهم مقاييسهم، كالمعلمين والمدراء، الخ.، لابد أنه تألم كثيراً.

لقد تأخرت كثيراً جداً في تخيل أن تكون غالبية المعلمين يساريين

❖ لماذا كان يواجه المعلمين؟ لمتابعتك دراسياً؟

سيباستيان: نعم، لمتابعتي، كان يذهب إلى كلّ اللقاءات مع المعلمين، كان يحضر كافة مجالس الصفوف - وكان مندوباً لأولياء الأمور. لكن هدفه الوحيد كان البحث عن كافة الطرق لمساعدتي، وقد جرى الأمر بنفس الطريقة بالنسبة لأخي. أريد أن أضيف بأنه حين يكون المرء فتياً ويقال له: «مستقبل مظلم»، فإما أن يشعر بالانسحاق الكامل، أو أن يبقى لديه شيء؛ بالنسبة لي، أدى ذلك الأمر إلى نشوء عقدة لديّ، وكنت خجولاً، الخ. وهناك أيضاً تأثير الأشخاص الذين يلتقي بهم المرء؛ حين كنت في الصف الحادي عشر، كان لدينا أستاذٌ ممتاز للتاريخ والجغرافيا دفعنا إلى التفكير العميق بالتاريخ، كما كان لديّ أيضاً أستاذةٌ ممتازة للغة الفرنسية؛ كانت تلك السنة

مهمةً في حياتي، وحصل خلالها أيضاً تصارع أفكار، كانت الأفكار تنبثق من كل حدبٍ وصوب، ولم يكن من الصعب أن يتأثر المرء بها.

❖ إذن، فقد كنت تشعر بأنك إلى جانب من يحتجّون، حتى لو كان احتجاجهم غائماً.

سيباستيان: كان الأمر ازدواجياً جداً حتى لو كان غائماً: فهناك البيض وهناك السود، أولئك هم اليساريون وأولئك هم اليمينيون، هكذا كانت الأمور طيلة سنوات عدة؛ لم أفهم قليلاً الدقائق إلاّ فيما بعد، لكنني كنت أفكر بتلك الطريقة في ذلك الحين. أريد أن أقول لك أنني كنت خجولاً في فترةٍ معينة، ولم أكن أجرؤ على التحدث أمام جمعٍ من الناس- وهذا لا يزال يحصل لي أحياناً- لكنني كنت مع ذلك فضولياً نوعاً ما، وذهبت إلى اجتماعاتٍ كنت أرغم نفسي فيها في كل مرة على التحدث أمام الآخرين، حتى لو لم يكن لما أقوله أهمية، حتى لو كان ما أقوله هراءً تاماً، فقد كان ينبغي أن أرغم نفسي على السيطرة على نفسي، على التحدث، على تعلم الكلام، الخ.، كان ذلك رهيباً!

❖ لكن، بما أنك لم تكن تنتمي إلى أية منظمة، هل كنت تتحدث بصفتك الشخصية؟

سيباستيان: نعم {ضحك} باسمي أنا، فقد كان من الصعب عليّ دائماً أن أنتمي إلى منظمة. لقد تركت الاتحاد العام للعمال بسرعة.

❖ هذا يعني أنك انتسبت إلى الاتحاد؟

سيباستيان: نعم، بعد شهرٍ من وصولي إلى الإذاعة.

❖ وكم من الزمن بقيت فيه؟

سيباستيان: ربما سنة، لكن انتمائي كان... لم أتأقلم أبداً بسبب...

❖ هل تركت الاتحاد بسبب مشكلةٍ هامة، أم أنك ابتعدت بالتدريج؟

سيباستيان: لا أستطيع أن أقول بأنّ تلك الفترة كانت تتسم بتطرّفٍ يساريّ، لكن كان هناك رفضٌ كامل لكلّ ما هو سلطة، ولعمل الأحزاب، وللنقابات، الخ.، وللبيروقراطية، وكان هناك رفضٌ لكل ذلك.

❖ هل تعني النزعة المعادية للمؤسسات التي ظهرت عام 68؟

سيباستيان: تماماً! لقد كانت تلك النزعة أساسيةً حقاً بالنسبة لي ولا زلت أحتفظ بها، ربما أصبحت الآن ثانوية، لديّ زهوٌ يجعلني أعتقد بأنها أصبحت ثانوية، لكنها عميقةٌ جداً، فقد كان لديّ مثلاً على الدوام شعورٌ بالكره تجاه الأساتذة! كنت أكره الأساتذة.

❖ وأنت تتحدث عنهم أحياناً الآن بلهجة العرفان.

سيباستيان: نعم، لكن ليس كثيراً! إن كنت أستثني ثلاثةً أو أربعة، إلاّ أنني أكره الباقين، أكرههم، أكرههم! حين تكون في الصف الثامن وتنسى ثلاثة دفاتر لنفس المادة، وتحصل على ثلاثة أصفار في الصباح، حين تكون مجبراً على حلاقة شعرك بالكامل، على الصفر، لأنّ الأستاذ يشدك من شعرك ويحملك هكذا، حين تتلقى ضربات بالمسطرة على مؤخرتك لأنك لم تكتب الواجب، فإنّ هذا مريع، بل أريد أن أقول بأنه تصرفٌ سادي! لقد لزمني وقتٌ طويلٌ جداً لكي اتخيل بأنّ غالبية المعلمين يساريون، لزمني وقتٌ طويلٌ جداً. لم نكن من نفس العالم، هذا أمرٌ مؤكد في اللاوعي، الأساتذة كانوا شيئاً آخر. بالنسبة لي، فإنّ اللغة الفرنسية واللاتينية واليونانية كانت عالماً غريباً عني تماماً، كانت غريبةً عني، كانت تقع على كوكبٍ آخر. كما أنني كنت أشعر دائماً بالرعب، وقد لزمني وقتٌ طويلٌ لأعرفَ أن هناك فتياناً ليس لديهم مشاكل مع المدرسة، ويذهبون إلى المدرسة دون خوفٍ وبشكلٍ طبيعي؛ أما أنا، فلا أذكر أنني ذهبت يوماً إلى المدرسة دون أن أشعر بالرعب.

❖ هل كنت تشعر بذلك في المدرسة الابتدائية أيضاً؟

سيباستيان: لا، لا، كنت أتحدث عن الإعدادية؛ وفي المرحلة التالية، في العاشر والحادي عشر والبكالوريا، جعلني الالتزام أتراجع، كما أنني كنت قد سيطرت على بعض الأمور، كما تشكل لدى بعض الأساتذة اعترافٌ بي؛ لم يكونوا يعترفون بي بسبب نتائجي الدراسية- فأنا لم أكن لامعاً في هذا الجانب- لكنهم اعترفوا لي بدورٍ وبوضعية... ربما كانت تلك أيضاً طريقتي

بالتواجد، فبسبب عدم تمكني من التواجد بفضل نتائجي المدرسية، كنت أتواجد بالمقاومة.

درست في مدرسة الصحافة وأنا أكره المهنة

❖ لماذا انتسبت إلى مدرسة الصحافة؟

سيباستيان: كنت أريد أن أدرس الصحافة بعد أن حصلت على البكالوريا، فالجانب الملتزم لديّ جعلني أهتم بالشؤون الراهنة الدولية التي كانت غنيةً في تلك الفترة، وبالشؤون الراهنة الوطنية السياسية والاقتصادية. كنتُ إذن مستهلكاً كبيراً للصحف، وكنت ثائراً على الراديو والتلفزيون، لكنني كنت أتعاطى كثيراً الصحافة المكتوبة؛ أنا لم أكن يوماً شيوعياً، لذلك فإنني لم أكن أقرأ صحيفة الأومانيتيه l'Humanité، لم تكن ضمن ثقافتي؛ ثم جاءت بدايات جريدة ليبراسيون، Libération وقد كانت متنفساً لنا، كما ظهرت في تلك الفترة صحفٌ أخرى مثل شارلي الأسبوعي Charlie-hebdo والشدق المفتوح La Gueule ouverte؛ حسناً، هكذا كانت علاقتي بالأمر. أذكر أنني كتبت عروضاً للصحافة حين كنت في الصف الحادي عشر، وذلك في إطار التاريخ والجغرافيا؛ إذن، بما أنني كنت مستهلكاً نهماً للصحف، فسرعان ما أصبحت شديد الاهتمام بالأمور الراهنة، وذلك على الرغم من تواضع قدراتي {ضحك}. أردت أن أقول بأنني لم أكن موهوباً في مجال الرياضيات أو اللغة الفرنسية. والموهبة الوحيدة التي كنت أمتلكها نوعاً ما هي موهبة الثرثرة، التكلم، التعبير الشفهي، وكنت قد بذلت جهوداً لتنمية تلك الموهبة، ونجحتُ نوعاً ما في ذلك. فقلت لنفسي بأن مهنة الصحفي لا تتطلب معرفة الكثير، بل تتطلب أن يكون لدى المرء القدرة على الثرثرة، أن يعرف قليلاً من الخداع. إذن، فقد تمكنت من ممارسة هذه المهنة بعد الدراسة. بعد ذلك، مررت بمرحلة... تباً! {ضحك} لقد كنت أكره أيضاً الصحفيين مثلما كنت أكره الأساتذة... ولا زلت أكرههم نوعاً ما، لكن تلك الكراهية أصبحت ثانويةً. لقد درست في مدرسة الصحافة في حين أنني كنت أكره المهنة. كانت لديّ كراهية حقيقية،

كما أنني لم أعد وقتها أقرأ شيئاً، بل إن هناك جانباً تحريضياً في ذلك الموقف: أنا لا أقرأ شيئاً من الصحافة! أذكر أنني قلت لأحد أساتذتي، وكان مستنكراً لموقفي بشدة: «كلاّ، لم أعد أقرأ شيئاً، الأمر لا يهمني» {ضحك}.

❖ هل ذهبت مباشرةً من المدرسة إلى إذاعة- ز؟

سيباستيان: نعم. لقد صادفني الكثير من الحظّ في هذا الشأن لأنّ رئيس التحرير جاء ليتسوق، أي ليجري اختبارات، ولم أُقبل أنا في تلك الاختبارات، لأنني لا أمتلك صوتاً استثنائياً، والصوت هو الذي كان يهمه، لكن أحد الأساتذة قال له: «أعطِه ميكروفوناً وسوف يعطيك مقابلةً». تم توظيفنا إذن، وكنا ستة طلاب، على أساس الأجر حسب العمل، وبقيت أنا بعد ذلك. كما أنه كان عندي خبرة مهنية؛ إن كل من عمل سابقاً يعرف عالم العمل، ويعرف بالخطوط العريضة ما الذي ينبغي أن يفعله لكي يتم توظيفه، وقد ظهرت أمامي مصاعب كبيرة لأنهم لم يكونوا يريدون أن يستخدموا خروفاً أسود(*)؛ كانوا قد جمعوا عني بعض المعلومات في مؤسسة و. وهذا ما جعلهم لا يرغبون في استخدامي؛ والمفارقة المُضحكة تتمثّل في أنه تم استبقائي بين صحفيي راديو-ز. الذين تدفع لهم أجور بمقدار ما يعملون أثناء زيارةٍ لمؤسسة و. مع صحفيٍّ من ن.ك. NQ {وهي صحيفةٌ محلية يومية}!

❖ والآن، هل أنت مجاز؟

سيباستيان: نعم، أنا الآن مجاز، وقد تخرجت من قسم الصحافة السياسة، أي أنني اليوم صحفيٌّ متخصص، وهذه عموماً أول درجة على السلم، وكانوا يريدون مني أن أتبوأ مركز معاون رئيس تحرير، لكنني لا أريد الصعود في السلك الوظيفي، أنا لا أمانع في الصعود، من أجل الكفاءة ولزيادة معلوماتي، لكنني لا أريد أن أصعد إلى مراتب أحوز فيها على سلطاتٍ وظيفية. إذن، لقد رفضتُ ولا زلتُ أرفض. لقد عرضوا علي منصب معاون رئيس تحرير في CNT كنوعٍ من التحريض لأنهم كانوا يريدون أن يعرفوا رأيهم في حالةٍ مثل حالتي، وقد عابوا عليَّ أني أخاطب المدير بصيغة

(*) المقصود شخصاً مختلفاً عن المجموع. المترجم.

الاحترام بعد أن كنت أخاطبه بصيغة المفرد قبل أن يصبح مديراً، إنها أمورٌ صغيرة...

◆ هل لا زلتَ «تكره» الصحفيين؟

سيباستيان: نعم {ضحك} أريد أن أقول أنني لا أخالط أحداً؛ في ما عدا شخصين أو ثلاثة خارج العمل، فأنا لا أخالط الصحفيين. بلى، لديَّ علاقة مع ثلاثة أو أربعة أشخاص، لكنني أخالطهم «على الرغم» من كونهم صحفيين. لديَّ صديقة استقالت من إذاعة ز.، وهي كوليت د. وقد تعرضت لمشاكل مع العدالة. لديها مسيرتها هي الأخرى. لديَّ صديقةٌ أخرى هي فاني ر. التي كانت ممرضة في المجال النفسي وهي الآن تحاول القيام بعملٍ آخر، ثم هناك جيرمينال ج. الذي لديه ماضٍ خارقٌ نوعاً ما، فأبوه لاجئ إسباني خاض الحرب الأهلية ودفع ابنه للدراسة؛ وهو حائز على ماجستير في الآداب وأصبح صحفياً، لكنه... أي أنّ أصدقائي ليسوا شباناً صغاراً تخرجوا لتوهم من المدرسة.

نحن نمثّل نوعاً ما أشواك الآلة

سيباستيان: إنه ليس كرهاً للأفراد! إنّه كرهٌ للعمل الذي يتم، والناس من أمثالي يمثلون نوعاً ما أشواكاً في الآلة التي هي أقوى منّا، ونحن نقوم بِ 99% من العمل «القذر». كما أنه ينبغي ألاّ يكون لدينا الكثير من الأوهام، لكن هناك عدد من الصراعات، حتى على الصعيد اليومي، مثل الزمن الذي تستغرقه المقابلات. ففي بعض الإذاعات مثلاً، لا يتجاوز الوقت الممنوح للمقابلة الواحدة 35 ثانية، 35 ثانية! ولكي يرتفع الزمن إلى دقيقةٍ واحدة، فإنه ينبغي أن نناضل! وحين يتجاوز زمن المقابلة الدقيقة الواحدة ويصبح دقيقةً وعشر ثواني أو دقيقةً واثنتي عشرة ثانيةً، فإنه ينبغي أن... إنها مسألة دولة! هذا أمرٌ سخيف. بالنسبة لشخصٍ من خارج وسطنا، فإنّ هذا الصراع سخيفٌ لكنه صراعٌ على المحتوى.. كما أنه ينبغي أن نحاول تمرير بعض الأفكار. بالنسبة لي شخصياً، فإن نضالي الآن هو الصحافة، لكن هذا الأمر شديد الصعوبة، كما هي الحال في كافة الأوساط. عليك أنت في

التعليم أن تناطح جبالاً، والنظام مصاغٌ بطريقةٍ يعرف فيها الآخرون إذا ربحنا المعركة.

◆ انت تنتقد النظام وليس الأفراد؟

سيباستيان: اعني ان الأفراد هم مسؤولون وغير مسؤولين في نفس الوقت، فالصحفي هو أيضاً شخصٌ يتوجب عليه أن ينقل ما يراه. والناس الذين في السلطة يجيدون أكثر من غيرهم استخدام وسائل الإعلام، كما أنّ صوتهم يُسمع أكثر. سوف أقدّم لك مثالاً: مساء البارحة، أقام نائب العمدة «حفلاً» كبيراً تحت يافطة: «مدينة س. والبحر»، وفي هذا الصباح أجرى مؤتمراً صحفياً حول: «الأعمال الكبرى في مدينة س.» ولم يقل فيه شيئاً. لم يكن ذلك سيُقبل من أي شخصٍ آخر، ولو حدث ذلك من غيره لعاد الصحفيون وهم شديدو الغضب ولنشروا مقالاتٍ غاضبة؛ أما في هذه الحالة، فالأمر سوف يمر. لقد جنّد نائب العمدة الصحافةَ طيلة مساء البارحة وحتى الواحدة ليلاً، وهذا الصباح قدّم «إفطاراً» صحفياً لكي لا يقول شيئاً! وأريد أن أقول بأن كلّ الصحافة منبطحة. إنه مثال، لكن هناك غيره؛ إنّ ما ينبغي معرفته هو أنّ المجتمع يعمل، هناك غطاءٌ من الرصاص يجثم فوق المجتمع! حاول ان تجعل العاملين في إدارة الأعمال الصحية والاجتماعية DAAS التي تغطي الحقل الاجتماعي كله يتكلمون. مستحيل! لا يمكن للموظفين أن يتحدثوا عن عملهم؛ يمكن للمساعِدة الاجتماعية أن تتحدث عن خمسين أمراً.. عن المزارع الكبيرة في المنطقة التي تعامل المستخدمين لديها وكأنهم زجاجات نبيذ، وعن الأماكن الضيقة والقذرة، والأمية المتفشية، والرجال الذين يقيمون في منازل من التراب الممهد؛ لن تسمع أبداً أي ريبورتاج عن هذا الموضوع. فالمساعدات الاجتماعيات اللواتي يذهبن إلى تلك الأماكن لا يستطعن قول شيء بسبب التزامهن بسر المهنة. وبالطبع، فإن العمال الزراعيين أيضاً لا يستطيعون التكلم. كما لا يمكنك الدخول إلى هناك؛ إن كل ما تستطيع عمله بالطول والعرض هو الاستمتاع بطعامٍ لذيذ مثلاً. أما عن حقيقة البلاد، فإنك لن تُجري أبداً أي ريبورتاج.

❖ ألا يمكنك، وأنت صحفي، أن تقترح تحقيقاً صحفياً؟

سيباستيان: بلى، أستطيع، بإمكاني بالفعل أن أقترح مثل ذلك التحقيق الصحفي. لكنه تحقيقٌ معقّد! بالنسبة لنا، فإنّ الوقت يستهلكنا؛ في إذاعتنا إنتاجٌ يوميّ، لذلك، فإن علينا أن نجري ثلاث، أربع، أو خمس تحقيقات في اليوم. إذن، كلما كان علينا إجراء عدد أكبر من التحقيقات، كلما انخفضت قدرتنا على رؤية الأمور في عمقها، وتعقيد آليات العمل، الخ. لكي أجري مثل هذا التحقيق، عليّ أن أبقى في المكان الذي أجري عنه تحقيقاً، فصحافة الاستقصاء تعني الوقت. ينبغي التوصل إلى فك الحصار. كل الناس يشعرون بالخوف في هذا المجتمع، وقلائل هم الذين يتحدّثون عن عمق الأشياء، وهذا صحيحٌ على كافة الأصعدة. فأنت تذهب مثلاً إلى النقابات للتحدث عن المدرسة، عن الشركات، الخ. لكنهم لن يتحدثوا إليك عنها لأنهم ملزمون بدور الدفاع عن الموظفين، لن يحدثوك عن الكيفية الحقيقية التي يعمل بها المجتمع. ولكي تفهم تلك الكيفية وتتحدث عنها حقاً، فإن عليك أن تقوم بعمل عالم اجتماع، ونحن ليس لدينا تلك الإمكانية؛ كما أننا نعاني الكثير في حال أردنا العمل مع الوسط الجامعي... هناك أمور ثقيلة في مثل هذا التعامل، وما إن ألفظ كلمةً مثل: «أستاذ جامعي»، أو «حلقة بحث» حتى يبدأ الجميع بالاحتجاج: «مرةٌ أخرى! لقد أضجرتنا بقصصك، الخ.»

❖ هل هناك نزعةٌ معادية للثقافة في عالم الصحافة؟

سيباستيان: نعم، هناك نزعة معادية للثقافة. خذ مثلاً كلمة «عامل»، ينبغي ألاّ تقول كلمة «عامل»! أنا أشهد بنفسي إزالة كلمة «عامل» من برامجي! ينبغي أن أقول: «ماذا دهاكم؟ هل تلك كلمة بذيئة؟».

❖ ما الذي ينبغي قوله إذن؟

سيباستيان موظف، مستخدم...

الرقابة تجري على كل المستويات

❖ من الذي يجعلك تحذف تلك الكلمة؟

سيباستيان: إنهم الصحفيون، وليس بالضرورة الرؤساء. إنها الرقابة السائدة. إنه الضغط. وهو موجود في كافة المستويات. فخلال حرب الخليج مثلاً، وفي ما يتعلق بنداء بيرو Perrault لترك ميدان المعركة، حصلت رقابةٌ على إذاعة هـ .-فقد أجروا مقابلةً مُنعت من البث على أمواج تلك الإذاعة. فكُتبت مقالةٌ عوضاً عن المقابلة الإذاعية، وكردِّ فعلٍ، ذهبتُ في اليوم التالي إلى المظاهرة. طلبوا مني أن أتحدث مع الناس، فخاطبتُ شاباً وقلتُ له: «وماذا عنك أنت؟ هل كنت ستترك الميدان؟» أجاب: «نعم». وحين تمّ بث البرنامج، حذفوا تلك الفقرة! حسناً، في أوقات الأزمات، تكون الرقابة موجودة! أثناء حرب الخليج، كان ينبغي على الناس أن يكونوا مع حرب الخليج، أما الأفكار الأخرى...

❖ هل الرقابة دوماً غير رسمية؟

سيباستيان: المشكلة هنا بسيطةٌ جداً، وأنا ألاحظ ذلك، فألطّف من لهجتي وكلماتي ...

❖ لكن لست أنت الذي حذف إجابة الشاب؟

سيباستيان: صحيح، تماماً! لقد قُطعت الإجابة بضربة مقص! إنها ضربة مقصٍ هنا، وقد تم التنديد بتلك الضربة واعتُبرت منعاً. لا يمكن تطبيق القضاء على الصحفيين؛ هذا يعني أنه يمكن أن نقذف الناس ونُجري ما نشاء من المؤامرات، لا أحد يستطيع شيئاً، القضاء لا يحرك ساكناً ضدنا، وحين يفعل القضاء شيئاً ما، يحصل تمرّدٌ، ويعتبر الموضوع «مساساً بحرية الصحافة، الخ.»، في حين أننا نحن الذين نمس الآخرين... مثلاً في المقابلات المنوعة، في تلك «المنوعات المقدّسة»، يقابل الصحفيّ على الدوام أشخاصاً عاديين تتم السخرية منهم عن طريق جعلهم يقولون أشياء مختلفة؛ إنهم يتكلمون بصورةٍ سيئة ويرتكبون هفواتٍ وتجري السخرية منهم، ويمر هذا الأمر! إنه إذن احتقار ما هو شعبي! إذن،..

❖ برأيك، هل هذا الاحتقار صفةٌ للوسط الصحفي؟

سيباستيان: آه نعم، نعم! إنه احتقارٌ للشعب، أي أنهم يعتبرون أنّ

«الشعب يحب الأغاني الدارجة»، نقطة، انتهى. إنه احتقارٌ للشعب، وهو أيضاً احتقارٌ لكلِّ من ليس صحفياً، احتقارٌ أيضاً للطبقات الثقافية العليا.

❖ لكن ربما كان لديهم في الوقت ذاته نوعٌ من الانبهار بتلك الطبقات العليا؟

سيباستيان: السلطة هي ما يبهرهم. ليس لدى الطبقة المثقفة سلطة، بينما يحوز على السلطة كل ما هو اقتصادي. لأي مستثمرٍ صغير الحق في التعبير عن نفسه وفي أن يكون له أفكاره حول كل شيء، ثم السلطة السياسية، ثم كل ذلك الجو السائد تابي Tapie وسيغيلا Séguéla،..

❖ يبدو لي بأنك لستَ صحفياً سعيداً... هل يحصل أن تشعر بشعور انتقام؟

سيباستيان: نعم، نعم، صحيحٌ أن أكبر شعورٍ لي بالثورة هو حين أرى... لقد ذهبت مؤخراً لأجري تحقيقاً في منطقةٍ قريبةٍ بعد جسر المحطة، وهي مدينةٌ عمالية انتقالية يعود بناؤها إلى فترة الحرب الأخيرة. إنهم أشخاصٌ يكسبون 4700 فرنكاً في الشهر، وقد تورطوا في مشكلة، فقد أراد صديق ابنتهم أن يشتري دراجةً نارية، فكفلوه، ثم حصل حادثٌ للدراجة واشترى الشاب دراجةً آليةً أخرى، وكفلوه ثانيةً، وهرب ولم يعد يدفع ثمن الدراجة، ووجدوا أنفسهم بقرضٍ يبلغ 30000 فرنك، مقابل لا شيء. هناك من يستدينون لشراء منزل، لكن في هذه الحالة، لا شيء سوى 30000 فرنكاً، ولم يعد لديهم شيءٌ من المال. وتبدو الأم وكأنها قد حاربت على الدوام، وأصبحت مسمّرةً بأنبوبة أوكسجين لأنها لم تعد تستطيع التنفس. يتساءل المرء كيف يستطيعون السكن في تلك المنازل! سوف يجددونها، وسوف تتضاعف بالتالي الأجرة. حسناً، حين أعود من مثل تلك الأماكن، فإنني أشعر بالكراهية، إنّ ما أشعر به هو حقاً كراهية. لكن هل أشعر بالانتقام؟ سأحكي لك دعابةً: حيث أجريت لأول مرة مقابلة مع أستاذ، قال لي: «اعذرني، لكنني لست معتاداً، جسمي كليّ يرتجف» فقلت له: «نعم! هذا يشبه ما كان يحصل لي حين كنت أذهب إلى السبورة، فأنا أيضاً كان جسمي

كله يرتجف!» {ضحك}. صحيح أنه حين يكون مقابلي أشخاصٌ من السلطة، فإنّ الأسئلة التي أوجهها لهم تهدف بالضرورة لهزمهم، بالضرورة، إنها بالنسبة لي معركة. إنّ أكثر ما ينقصنا هو الأسلحة، المعرفة. إن مهنة الصحافة تتطلّب من ممتهنها أن يمتلك ذخيرة كبيرة من الثقافة، ونحن لا نمتلك من الثقافة ما يكفي.

❖ هل هي مشكلة تأهيل؟

سيباستيان: نعم، لكن هذا هو المجال الذي لم أعد أشعر فيه بالعُقد، فقد رممتُ النقص الذي كان لديّ بطريقةٍ ما، وربما كان ذلك جزئياً بسبب الفضول الاجتماعي، أي أنني الآن أمتلكُ معارف عن المجتمع على أرض الواقع تتجاوز ما يمتلكه أناسٌ لديهم معرفةٌ مدرسية أو جامعية، لديهم ثقافةٌ أرفع من ثقافتي. كما أنه صحيحٌ أنه من المفيد للمرء في هذه المهنة أن يعرف الآلية التي تسير بها الأمور.

● هل ما تكسبه يرضيك؟

سيباستيان: يبلغ راتبي الصافي أحد عشر ألف فرنكاً، مع تخفيضٍ على الضرائب بنسبة 30%، والدخول المجاني للسينما والحفلات الموسيقية، والحصول على الكتب بسعرٍ شبه مجانيّ، أحد عشر ألف فرنكاً. إضافةً إلى ذلك، فإنني أعطي في بعض الأحيان درسين أو ثلاثة، وهذا أمرٌ أستمتع به أيضاً لأنه يسمح لي بالعودة إلى مهنة الصحافة، بالتفكير بطريقةٍ مختلفة؛ لقد حسبتُ ما كسبته خلال العام الماضي، وكان ثلاثة عشر ألف فرنكٍ شهرياً، بعد حذف الضرائب. هذا راتبٌ ممتاز، بل إنه يتجاوز ما ينبغي للصحافي أن يقبضه بالمقارنة مع ما يعمله. الصحافي يدرس عامين بعد البكالوريا، أما الممرضات، فهنّ يدرسن ثلاثة أعوام بعد البكالوريا، وراتبهن نصف راتب الصحافي {ضحك} وأي عمل! {ضحك}.

ثلاثة ارباع الصحافيين يلازمون مكاتبهم وتحت تصرفهم سكرتيرة

❖ كثيراً ما يجري الحديث في هذه الأيام عن آداب المهنة عند الصحفيين.

سيباستيان: إنّ آداب المهنة هي أيضاً مشكلةٌ اقتصادية، أي أنّ ما ينبغي أن نأخذه بالاعتبار على الدوام في هذه المهنة هو مفهوم الزمن. كيف تريد أن يقوم شخص... حين يحصل أي شيءٍ في مكانٍ ما من العالم، فإنك تُرسل صحفياً إلى ذلك المكان الذي جرى فيه الحدث. الأمر المثالي هو أن يكون الصحافي دارساً للمسألة. إنه لم يذهب إلى هناك منذ عامين، وسوف يذهب هذه المرة، وعليه، خلال ساعتين أو ثلاثٍ من وصوله أن يكتب تقريراً؛ كيف تريد منه أن يتصرّف؟ كيف تريده أن يعكس ما حدث؟ سوف يذهب إذن إلى وكالات الأنباء وسيرى الشخص الموجود هناك، وسوف يقابل شخصين أو ثلاثة، والسفير، وسوف يكتب ورقةً حول هذا الموضوع؛ هذا في أحسن الأحوال. أما في أسوأ الأحوال، فإنّه لا يعرف شيئاً عن الموضوع، لذلك فإنه سوف يأخذ ثلاث... وينبغي أن يضع عنواناً مثيراً وأن يكون هناك جانبٌ محبّب في الموضوع، الخ. وهذا صحيحٌ بالنسبة لكلّ شيء، ينبغي العمل بسرعة.

لماذا تبدو المقالات التي تُنشر في جريدة لوموند ديبلوماتيك Monde diplomatique مختلفةً تماماً؟ لأنّ أمامهم أولاً شهرٌ بين العدد والآخر. وثانياً، لأنهم أناسٌ أمضوا سنواتٍ في دراسة المسألة نفسها! صحيحٌ أنّ دراسة المسألة نفسها لسنواتٍ عديدة أمرٌ معقّد؛ كما أنه صحيحٌ أيضاً بأنّ المرء لا يكون في مقدمة الأحداث، كل هذا صحيح. إلاّ أن ذلك يُنتج عملاً أكثر جدّيةً بكثير، أكثر عمقاً بكثير، يشرح الأشياء حقاً. كما أنّ ثلاثة أرباع الصحفيين، والأمر هنا أسوأ بكثير، يعلّقون على الصور بالاعتماد على وكالة الأنباء الفرنسية. أذكر لك مثالاً هو ب.، الذي يعمل مقدّماً في إذاعة هـ. وهو ذلك الذي يمرر صيغةً معينة قبل الخبر، لأنه ينبغي أن يمر الخبر عبر صيغته- لديه صيغة مسلية أو مدهشة- وينبغي أن يدخل الخبر ضمن الصيغة! وهو يرسل صحفيين ويقول لهم: «أريد هذا!». وأنا لديّ صديقةٌ تقدم برامج أخبار منوعة، أعادت منذ بضعة أيام بداية المقابلة أربع مراتٍ لأنه كان ينبغي على الشخص الآخر أن يقول لها الجملة التي يريدها مقدّم

البرنامج قبل أن تنطلق! هكذا هو الأمر! كما أن هناك العديد من الصحفيين الذين لم يضعوا قدماً خارج مكاتبهم أبداً منذ سنوات عديدة! إنهم في مكاتبهم، ولدى الواحد منهم سكرتيرة؛ ولديهم وكالة الأنباء الفرنسية، هكذا! في أحسن الأحوال، فإنّ هؤلاء الأشخاص يقومون بالحوار الودّي مع السلطة، مهما كانت تلك السلطة. إنهم لا يرون شيئاً من المجتمع.

◆ هل هناك أمثلةٌ حولك على ما تقوله؟

سيباستيان: كافة المذيعين!

◆ أنت تتحدث على الصعيد الوطني...

سيباستيان: نعم، لكن في ما حولي أيضاً. أعرف مذيعاً يقدم نشرة أخبار «الثامنة عشرة»، وهو لم يظهر منذ فترةٍ من الزمن. تصوره للمجتمع هو جدّ... لقد ذهب إلى المدرسة، وهو الآن في وسطٍ من المحامين والقضاة، أما ما تبقى، فهو لا يعلم عنه شيئاً. فهو مثلاً لم يعرفْ ما الذي تعنيه عبارة «العجل تحت الأم»[*] لم يعرف إن كانت تلك طريقةً في توليد البقرات {ضحك}. كلامي أكيد، أنا لست أحكي لكم نكتة! إذن، فإن الشبان الذين يتخرّجون من مدرسة الصحافة يعملون مباشرةً كمذيعين في محطة France-Info الإخبارية. مباشرةً! إنهم لم يروا شيئاً من الواقع، هؤلاء الناس! إنهم لا يعرفون كيف يجرون تحقيقاً صحفياً! إن ألف باء هذه المهنة هو أن تأخذ ميكروفوناً أو كراساً ثم تذهب إلى مكان الحدث، وأن تبقى في ذلك المكان فترةً، أن تنغمس، أما هو فلا، إذن، فإنه يحصل على النتائج التي يحصل عليها! إذن، فإن ما يقوم به يعطي ما يعطيه! إنها مشكلة تأهيل، إنها مشكلة فضولٍ معرفيّ، إنها مشكلة اقتصاد.

◆ وكيف ترى إلى مستقبلك في المهنة؟

سيباستيان: أعترف بأن المهنة ليست كلّ شيءٍ بالنسبة لي، أعني أنني

---

[*] المقصود: العجل الرضيع. المترجم.

أحبّ أن ألتقي بأصدقائي، أن نشرب كأساً سويةً، أن أسافر، أن أذهب إلى البحر، أن أتسلّق الجبال، أن أمشي. أصلاً، بالنسبة لي، هذه هي الحياة، فالعمل هو...

❖ هل يعني هذا أنك لا تحاول أن ترتقي في مهنتك؟

سيباستيان: لا! لكنني أرى نفسي صحفياً في س.، بنفس المستوى، بنفس الدرجة، بعد عشرين عاماً.

تشرين الأول 1991



شارل سولييه

نجاح مثير للشبهة

بشعرٍ مقصوص وحقيبةٍ بنفسجية على الظهر وشيءٍ من الحزن على وجهها، هكذا بدت لي كورين في المقهى الذي تمّ فيه اللقاء، قرب محطة مونبارناس، وهي معلّمة في الثانية والثلاثين من عمرها تعمل في أحد أكثر أحياء محيط ز. فقراً، وهي مدينةٌ ريفية تعدّ خمسين ألف نسمة. ربما كانت السرعة المدهشة التي أسرّت لي فيها بمكنوناتها نابعةً من أنّ أختها هي التي قدّمتني إليها، وإلى أنني أعيش وضعاً اجتماعياً مشابهاً لوضعها، مما سمح بشكلٍ من التحويل. كما أنني سرعان ما شعرتُ أنا أيضاً بالودّ تجاهها.

أهلها مزارعون يعملون في أرضٍ مساحتها خمسةٌ وسبعون هكتاراً، وهي مساحةٌ متواضعة نسبياً بالنسبة للمنطقة التي تقع على تخوم منطقتيْ بوس Beauce وبيرش Perche. وبعد متتاليةٍ طويلةٍ من النكبات، وجدوا أنفسهم مثقلين بالديون وموضوعين تحت وصاية محاسب، ومجبرين على القيام بعمل إضافيّ ليعيشوا بصورةٍ «لائقة» (يقود والد كورين منذ أربع سنوات حافلةً مدرسية). وحسب كورين التي تحدّثت إليها مطوّلاً، فإنّ لديهم إحساسٌ بأنهم «خُدعوا» وبأنّه قد تمّ «نزع ملكيتهم»، وبأنه لم يعد بإمكانهم كما في السابق أن يعرضوا ذلك «الفخر بكونهم فلاحين» الذي ورثوه عن الأجيال السابقة. وقد زاد من حدّة إحساسهم بالانزعاج أزمةٌ عائلية حدثت

بمناسبة ميراث الجدّين: فقد بقي والد كورين يعمل في مجال الزراعة مع اربعة من أخوته وأخواته، وهو الابن الثاني في عائلة تتألف من عشرة أبناء، لكنه وجد نفسه يحوز أقلّ مقدار من الميراث. ورغم أنه كان طالباً مجداً، إلاّ أنه اضطر لترك المدرسة في وقت مبكر جداً ليعمل في مزرعة الأب، مما جعله لا يقدر على التخلّص من الإحساس بأنه قد تمت التضحية به كي يتمكن والده من أن يجعل أملاكه تزدهر، وللسماح لأخوته الأصغر منه سناً بإكمال تعليمهم، ويتأجج هذا الإحساس على الدوام عندما يقارن وضعه كمزارع مأزوم بوضع أخوته الأصغر منه سناً (حيث أصبح اثنان منهم أطباء، والثالث قائد طائرة نفّاثة ومدرّبٌ في سلاح الطيران، وإحدى أخواته مساعدةً اجتماعية)، وخاصّةً حين يفكّر بموقفهم تجاهه الذي لا يُظهر عرفاناً بجميله ولا تضامناً معه.

لقد تابعت كلٌّ من كورين وأختيها دراستهن، وذلك رغم أن والديهنّ لم يدفعاهنّ لذلك بسبب خيبتهما لعدم إنجابهما لابن ذكر. فقد انتسبت كورين دون حماس إلى دار للمعلّمين بعد حصولها على الشهادة الثانوية، وإحدى أختيها تقوم الآن ببعض الأعمال ذات الراتب غير المناسب بعد أن حصلت على البكالوريا قسم ج وتخلّت بعد ذلك على دراستها للتمريض؛ وحدها الأخت الثالثة يبدو كأنها لم تعرف في دراستها أشكال التردد والصعوبات المادية والنفسية التي عرفتها أختاها: فهي تحضّر حالياً أطروحةً من الحلقة الجامعية الثالثة ستسمح لها بالتفكير في صعوبات العالَم الزراعي التي عبّرت عنها المظاهرات الفلاّحية، وذلك بعد حصولها على إجازة في علم الاجتماع.

لدى إجراء اللقاء، كانت كورين في إجازة سنوية للتأهيل تسمح لها بتحضير إجازة في علم النفس، وذلك «لتفعل شيئاً آخر» (ربما تحلم بأن تصبح محللةً نفسية): فهي تشعر، على الرغم من الاستثمار الكامل للطاقة الذي يتطلبه ذلك التحضير منها، أو ربما بسببه، بأنها ليست على ما يرام في مهنة المعلّمة تلك التي تمارسها في مدرسة تستقبل أبناء عائلات شديدة الفقر.

الحيّ الذي تقع فيه مدرستها، في موقع تحيط به طرق المواصلات

الكبيرة، كان أصلاً مدينةً مؤقّتة تهدف إلى الإسكان «المؤقت» لسكان المنطقة المنخفضة من المدينة الذين تم طردهم من المركز التاريخي نحو المناطق المحيطة بالمدينة إثر عملية تجديدٍ لها. تحوّل هذا الحيّ إلى منفى يرسِل إليه مكتب الإسكان في المنازل المنخفضة الإيجار الذي يدير المدينة الانتقالية كلّ أولئك الذين لا يفون بالتزاماتهم المالية وكلّ تلك العائلات التي «استُنزفت تماماً»؛ وحسب أقوال عددٍ من الناس، فإنّ هذا الحيّ يمارس «تأثيراً ضاراً» على كافّة القادمين الجدد، «الناس الذين رأيناهم يقعون، الذين عرفناهم يعيشون بصورةٍ طبيعية في أماكن أخرى، حيث كانوا متزوجين ولهم أولاد». إن الغالبية العظمى من السكان، وثلاثة أرباعهم من الفرنسيين، يعيشون من المعونات التي تمنح لهم أو من تعويض البطالة أو من الإعانات العائلية (العائلات الكبيرة الحجم شائعة) ويعيشون أحياناً من السرقة. فكورين تذكر تلك العائلات التي يستضيف السجن واحداً من أفرادها على الدوام، والتي تلفت الانتباه برخائها الماديّ الاستثنائي، حيث يرتدي الأطفال «أحذيةً رياضية من أنواع مشهورة»، و«أحذيةً آخر صيحة على الدوام، وليس تلك التي تشترى في المخازن الكبيرة». علاقات القرابة في العائلات معقّدة في كثيرٍ من الأحيان، فهي «مفككة» بفعل «انفصالاتٍ متكررة» ويمكن فيها أن يكون الأبناء «أخوةً وأبناء عمٍّ في آنٍ معاً».

إنّ المشاكل الاقتصادية والاجتماعية المركّزة بتلك الصورة في المساحة ذاتها تنعكس على مستوى المدرسة، حيث وجدت كورين نفسها بمواجهة ردود أفعالٍ رافضة من قبل العائلات: «العلاقات مع العائلات صعبةٌ للغاية.. فمثلاً، حين أتيتُ إليها، كانت المدرسة تمثّل كلّ ما يرفضونه. فالعائلات ترفض المدرسة، والأولاد يرفضون المدرسة، والكتابات في كلّ مكان. والطريقة التي كانوا يتكلّمون بها عن المعلّمين، والمدرسة بالنسبة لهم قذارة، كما لو لم تكن المدرسة تمثّل جزءاً من عالمهم..»

حاولت كورين، بمشاركة عددٍ من زملائها من المعلمين الشباب، أن تواجه ذلك الوضع. وباشروا عدّة فعاليات، كالمساندة المدرسية المكثّفة التي تقدّمها كورين بشكلٍ خاص، المعلّمة المتخصصة في تلك المدرسة المصنّفة

ضمن منطقة ذات أفضلية تعليمية، ومشاركة المدرسة في عملية التجديد الحضري في الحيّ: فقد صنع الأطفال لوحات صغيرة من الخزف الملوّن وُضعت في أقفاص الأدراج، وأحدثت صالة جودو، والأهم من ذلك أنّ المعلمين حاولوا أن يفتحوا المدرسة أمام الأهالي للسماح لهم بالدخول إليها كي يبدؤوا بالاهتمام بما يفعله أولادهم فيها. وكان أكثر النتائج وضوحاً أنّه أصبح بإمكان المعلمين أن يركنوا سياراتهم في المدينة دون أن يخشوا من أن يعثروا عليها مكسورةً، إلاّ أنّ النتائج المدرسية للطلاّب تظلّ مخيّبةً جداً للآمال (فمن بين اثني عشر طالباً نجحوا إلى الصفّ السادس في العام الماضي، لم تتمكن سوى بنتٍ واحدة من النجاح إلى الصفّ السابع). ولتفسير هذا الفشل، ترى كورين بأنّ السبب يكمن في نقص الدافع عند بعض أعضاء الجهاز التعليمي أكثر مما يكمن في الوسط الاجتماعي والثقافي البائس بصورةٍ خاصّة الذي ينتمي إليه الطلاب. إنّ خمول بعض زملائها يثقل عليها («إذا لم تتطور الأمور في رأس المعلّم، فإنّها لا يمكن أن تتطور في رأس الأولاد»)، وهي تهاجم بصورةٍ خاصة موقف أحدهم، وهي امرأةٌ يبدو بأنها من وسطٍ غنيّ، لم تدخل دارً المعلمين مثل الآخرين ولا تشاركهم تصوّرهم للدور المهنيّ للمعلّم ولا تكريس أنفسهم للأولاد، ولا استثمارهم لكلّ الأوقات في المدرسة، الذي ترى كورين بأنه ضروريّ للنجاح مع أولادٍ محرومين بهذه الدرجة. إنّ التجربة الشخصية لكورين، وهي تجربة شكلٍ من الحرمان الثقافيّ، تؤهّلها مسبقاً لترى نفسها في هؤلاء الأطفال الذين يتعرّضون للفشل، وهي لا تستطيع أن تستسلم لفكرة أنّ أبناء هؤلاء المحرومين يفشلون في المدرسة، في مدرستها، وسوف يعرفون نفس مصير أهلهم لمجرد أنهم «وُلدوا في مكانٍ ما» وأنهم «يشعرون بأنهم على الهامش تماماً»، وأنه، كما تضيف أيضاً، «ليس لديهم أيّ تصوّرٍ للمستقبل»؛ وعلى العكس من العديد من المعلمين الذين استسلموا للأمر الواقع، فإنها لا تتقبّل جيداً كون «المدرسة تعمل بشكلٍ جيّد بالنسبة للأولاد الذين ليس لديهم مشاكل» ولا تعير اهتماماً للآخرين، لأولئك «العشرين بالمائة الذين يُسمح برسوبهم في البكالوريا». إنها تريد أن تؤمن بفعاليّة تربيةٍ موجهة بصورةٍ

خاصّة لهؤلاء الأطفال، وذلك على الرغم من أنها ترى مخاطر التكفّل التربوي المتقدم الذي قد يؤدي إلى نقل المسؤوليات التربوية من العائلة إلى المدرسة وإلى حرمان العائلات منها، كما هي الحال بالنسبة للمساعدات الاجتماعيات اللواتي يُنظر إليهنّ أحياناً في الأوساط الشعبية على أنهنّ «سارقاتُ أطفال» حقيقيات.

لم تكن كورين ستشعر بكل المصاعب والتناقضات في نشاطها المهنيّ بتلك الحدّة لو لم يكن الانزعاج الذي تتسبب به المؤسسة المدرسية يذكّرها على الدوام بانزعاجها الخاصّ، ذي الأصل العائليّ: فهي لا تحتمل بصورة جيدة القطيعة التي حصلت موضوعياً، رغماً عنها، بينها وبين أهلها؛ فهي تشعر بأنّ هناك «فارقٌ يتأسس» بينها وبينهم منذ أن ابتعدت عنهم اجتماعياً، وهذا الفارق مؤلمٌ للجميع، ويؤثّر عليها ككابحٍ دائم: «لديّ انطباعٌ بأن عليّ أن أتمهّل، إذا استطعنا أن نقول ذلك، كي.. كي أنجح.» ومما يزيد من ألمها لاحتمال إنكارٍ اجتماعيّ لها انتماؤها للتاريخ العائلي لأبيها الذي لم يتجاوز بعد كون أخوته وأخواته قد خانوه بشكلٍ ما ورفضوه اجتماعياً. وهذا قد يفسر أنها قد حددت بصورةٍ إرادية نوعاً ما دراستها في مجال التعليم الابتدائي المقبول من قبل أبويها. «لقد كانت لديّ رغبةٌ شديدة في الذهاب إلى الجامعة، لكنني كنتُ في وضعٍ حرج منذ ذلك الحين، (...) ثمّ إنه نظراً لأصلنا الذي يمكن أن يقال عنه بأنه فلاّحيّ، فإن كوني معلمةً لم يكن مثار انزعاجٍ للعائلة، بل كان جيداً من الناحية الرمزية بالنسبة لأهلي، بل كان هاماً، وحتّى مادياً، فإنني أظنّ بأنّ الأمر كان هامّاً أيضاً، وإلاّ فلست أدري ما إن كنتُ سأتابع أم لا.»

كورين مقتنعة اليوم بأنه من الضروريّ بالنسبة لها أن تترك هذه المهنة المخيبة للآمال يوماً ما التي «يشعر فيها المرء بأنه حبّة رمل» والتي تعاني من أزمةٍ جماعية حقيقية (ثلاثةٌ من المعلّمين الخمسة في مدرستها يتابعون الدراسة أو يفكرون بذلك). إنها تتوقّع أن تساعدها إجازة علم النفس التي تحضّرها على تحليل وبلورة انزعاجها، وأن تفتح أمامها بشكلٍ

خاصّ إمكانية أن تفعل شيئاً آخر يوماً ما، تلك الإمكانية الممنوعة على مجرّد معلمة بسيطة بحوزتها شهادةٌ «لا يعترف بها أحد إطلاقاً خارج إطار التعليم» إلاّ أن تصميمها يكبحه نفس العائق، نفس التثبيط الماضي الذي كانت تشعر به أثناء الفترة الأولى من دراستها: فهي تجد من جديد في الكلية المشاكل التي عرفتها حينذاك، في العلاقات مع الطلاّب الآخرين، وبصورةٍ خاصة في العلاقة مع اللغة المدرسية التي تفهمها تماماً والتي لا تتمكن مع ذلك من إعادة استخدامها وتجييرها لنفسها، كما لو كانت لا تستطيع تجاوز شكلٍ من المانع الأبويّ الداخليّ، وكما لو أنها تخشى من أن تخون بدورها أباها، كما حدث لها في السابق: «لديّ انطباعٌ بأنني إذا استخدمتُ أيضاً المفردات، فإنني سوف أنتقل إلى الجانب الآخر، لا أعرف كيف أشرح الأمر.» هذا الشكل من الشلل يضعها في موقفٍ لا يُحتمل، على حدود عالَميْن لا يمكن أن يتصالحا: «إنني لا أتمكّن حالياً من أن أعرف حقاً أين أنا، لا هنا ولا هناك. وفي الوقت ذاته، يمكن أن يكون لديّ توقٌ لأحد العالمين دون أن يؤدي ذلك إلى أن ألفظ الآخر، كما أنني لا أشعر بالراحة في هذا العالم ولا في الآخر».

مع معلّمة مكلّفة بتعليم الأطفال الفقراء

أجرى اللقاء شارل سولييه

«يبدو لي بأنه عليّ أن أتقدّم ببطء»

[...]

❖ أنتِ تعيشين وضعك بشكلٍ سيئٍ ولديك الرغبة في التغيير، أليس كذلك؟

كورين: نعم، فأنا في الحقيقة لا أتمكن.. وأنا لا أعرف إذا كان الأمر مرتبطاً بي، فأنا شخصياً أتغير، ونحن لا نتمكن من الحصول على النتائج التي نودّ الحصول عليها مع الأطفال. أقول لنفسي بأنني صامدةٌ حتى هذه اللحظة، إلاّ أنه ربما ينبغي أن يعطي المرء من ذاته أكثر مما يجب، وربما لن أكون قادرةً دوماً على التقديم للآخرين. وأقول لنفسي بأنه ينبغي أن أؤدي عملاً آخر حينما لا تعود لديّ الرغبة بعملي الحاليّ، ينبغي ألاّ آتي إن لم يكن لديّ الرغبة بالمجيء.

❖ أي أنك لا تريدين أن تفعلي مثلما يفعل زملاؤك، أليس كذلك؟ {ضحكات}

كورين: تماماً. أي أنني حين أستيقظ في الصباح، فإنني لا أزال أشعر تقريباً بالسرور بالذهاب إلى المدرسة. وأقول لنفسي بأنه يجب أن أتمكن من أن أقوم بعملٍ آخر عندما لا تعود الرغبة موجودة. وبصورةٍ عامة، فحين يكون المرء معلّماً، فإنه لا يستطيع أن يقوم بعملٍ آخر إن لم يعد للدراسة، لأنّ

هذه المهنة غير معترف بها أبداً في الخارج، فلو قدّمت نفسي مثلاً وقلت إنني معلمة وأريد أن أقوم بعملٍ آخر لضحكوا عليّ.

[...]

يبدو للمرء وكأنه حبة رمل

◆ لكن لنعد إلى غياب الحافز عند زملائك، أليس لديك فرضيات؟

كورين: البعض خاب أملهم، أي أنّ أملهم قد خاب بالنسبة للنتائج التي يحصلون عليها بطريقةٍ ما مع الأطفال.

◆ ألا يمكن أن يكون الأمر ناتجاً عن عجزهم؟

كورين: بلى، أنا أشعر بالعجز... لديّ انطباعٌ بأننا، لا أعلم، {ضحكات} لقد حان الوقت كي أخرج من المدرسة لأنّ... لقد كنتُ بحاجةٍ إلى التراجع {ضحكات} يشعر المرء وكأنه حبّة رملٍ، وبالتالي فإنّه ليس لديه الكثير من القدرة. (...) هناك الكثير جداً من العملِ الواجب إنجازه.

◆ هل كنتم ستكونون أكثر فعاليةً لو كنتم فريقاً حقيقياً؟

كورين: بلى، لكن هناك مع ذلك... أعتقد أننا كنا سنكون أكثر فعاليةً مع بعض الأطفال، لكن هناك أطفالٌ آخرون...

◆ لكن ألا تكمن المشكلة قبل كلّ شيء في الناس الذين لديكم، في تلك العائلات؟

كورين: العلاقات مع العائلات شديدة الصعوبة، فهم في نفس الوقت.. على سبيل المثال، حين وصلتُ إلى المدرسة، كانت المدرسة تمثّل بالنسبة لهم كلّ ما يرفضونه. كانت العائلات ترفض المدرسة والأطفال يرفضون المدرسة، وكانت الكتابات منتشرةً في كلّ مكان. والطريقة التي كانوا يتكلّمون بها عن المعلّمين، كانت المدرسة بالنسبة لهم قذارةً. كان الأمر كما لو لم تكن المدرسة تشكّل جزءاً من عالمهم... (...) بالنسبة لهم، كان ذلك الرفض طريقةً يعبّرون من خلالها عن فشلهم، أنا أعرف ذلك، كان الرفض يحيلهم إلى فشلهم. لست أدري، لكننا نحن نظرنا إلى الأمر بهذه الطريقة. إنهم يشعرون تماماً بأنهم لم ينجحوا، ولا يستطيعون بالضرورة أن يساعدوا

الطفل. هناك العديد من الأهل الذين لا يعرفون في أيّ صف ابنهم؛ قد يبدو ذلك شاذاً، إنهم يعرفون من هو معلّم ابنهم، لكنهم لا يعرفون المستوى الذي يقابل ذلك. يبدو للمرء أحياناً أن المدرسة بعيدةٌ عن هؤلاء الناس لدرجة أنّ الأمر يبدو شاذاً حين يتحدّث مع البعض عن ذلك. العديد من الناس يقولون لنا: «أنتم تبالغون، أنتم تضخّمون الأمور». لكن لا، ليس الأمر كذلك. إذن، فإنّ ما حاولناه هو السماح لهم بالعودة إلى المدرسة وتكوين نظرة أخرى إلى المدرسة وتحديد موقعهم على ذلك الأساس، بحيث تصبح مخاوفهم أقلّ من السابق. إنه عملٌ اجتماعيٌ أكثر منه تعليمياً وأظنّ بأننا قد نجحنا على هذا المستوى. لكن هناك أمرٌ لا ننجح فيه حقاً، ولا أقول أننا خارج اللعبة تماماً، وهو أنّ الأولاد، على مستوى المعارف، على مستوى الاكتساب المدرسي الحقيقي، ... إنّ مستواهم لازال متوسطاً نسبياً، لكن من غير الممكن أن تتغير الأمور خلال عامٍ واحد. لنقل أننا في العام الماضي كنا نقول لأنفسنا أنّه يمكن أن يزداد عدد الناجحين، إلاّ أنّ جهودنا لم تثمر فعلياً على المستوى المدرسي حتى الآن؛ لكن يمكن أن نقول أنها أثمرت على أصعدة أخرى، أي في ما يتعلّق بالنظرة إلى المدرسة. فهم على الأقل لم يعودوا يبصقون علينا كما في السابق عندما يصادفوننا في الشارع.

❖ لكنهم يرحّبون بأن ينجح أبناؤهم، أليس كذلك؟ ماذا يعني ذلك بالنسبة لهم؟

كورين: بالنسبة لهم؟ إنه يعني أنهم يريدون أن يدرس ابنهم في المدرسة، وبالتالي... الأمر صعبٌ للغاية، فهم في الواقع يرغبون في ذلك، وهم في الوقت ذاته يعيدون إنتاج موقفٍ يؤدي في النهاية إلى فشل الابن. أي أنّهم يريدون من ابنهم أن يدرس، ولكنهم سوف يضربونه إن لم يتمكن من الدراسة. فإذا لم يتمكن الابن من الدراسة وضُرب بسبب ذلك، فإنّ الدراسة تصبح أكثر صعوبةً.

[...]

سنعيده لكم وهو افضل من السابق

كورين: أتساءل أحياناً إن كنتُ أنا السبب أم أنها المؤسسة التي تمثّل

مشكلة في ما يتعلّق بـ.. فانا في بعض الأحيان أشعر بأنّ... بأنّ المدرسة تعمل بصورة جيدة بالنسبة للأولاد الذين لا يعانون من مشاكل... لكن بالنسبة للعشرين بالمائة الذين يُسمح برسوبهم في البكالوريا، فإنه يمكن أن يظلوا عشرين بالمائة، أي أنّ هناك ثمانون بالمائة سوف ينجون، بينما الباقون غير مهمّين، هناك عشرون بالمائة...

◆ أي أنّ الأمر مثل حوادث الطرقات...

كورين: تماماً، لكن المشكلة هي حين يعمل المرء مع أولئك العشرين بالمائة {صوتها يرتجف وضحكات}، الأمر هو...

◆ ألا يكون الأمر أفضل مع طلاّب من بيئات أوفر حظاً؟

كورين: {صمت} نعم، نعم... لكنني أعتقد بأنه ليس لدينا الإمكانيات أو الوسائل من أجل مساعدة هؤلاء، أو أنّ الأمر لا يتعلّق بالمدرسة، لست أدري. هناك بالتأكيد نواقص على مستوى الوسط، وهناك أيضاً نواقص على مستوى ما تقترحه المدرسة.

◆ هل تعتقدين بهذا المعنى أنّ المدرسة تستطيع أن تقدّم ما هو أكثر من ذلك؟

كورين: هي بالتأكيد قادرةً على أن تقوم بعملٍ أفضل. ينبغي تغيير عدد لا بأس به من الأمور على مستوى العمل {صمت}، لست أدري حقاً. لديّ زميلٌ اصطحب الأولاد لمدّة ثلاثة أسابيع في عطلة الثلج. الأطفال هم الذين حضّروا الإقامة، لقد تكفّلوا هم بها، لم تكن تلك إجازة ثلجٍ مضافة بصورة مصطنعة، فالناس يذهبون ليتزلجوا على الثلج. كانت الأمور رائعةً خلال ثلاثة أسابيع والأطفال حققوا قفزةً إلى الأمام. ثمّ عادوا إلى وسطهم، إلى المدرسة، إلى الجدران، وكلّ ما تريد، وبعد ثلاثة أيام... هذا لا يعني أنه ينبغي انتزاع، إخراج الأطفال من وسطهم، لكن ما أريد أن أقوله هو أنّ هناك إمكانيات. ماهي؟ أنا لا أعرف. ولن نكون أولئك الطيبين، بين قوسين، الذين ينتزعون الأطفال من الناس المأزومين لنقول لهم «سوف نعيدهم لكم وهم أفضل من السابق».

◆ أي إنقاذهم رغماً عنهم: أنتم لا تعرفون كيف تعتنون بهم، لذلك فإننا سوف نأخذهم منكم وسنعيدهم لكم وهم نظيفون، جيدون، مثقفون، الخ.

كورين: ليس هذا على الإطلاق، ليس بهذا المنظور أبداً.. وأنا أرى ذلك، ولكن..

انا اعلم بانني أتألم

❖ لكنهم سوف يجدون أنفسهم في وضع غريب بالنسبة لأهلهم، أليس كذلك؟

كورين: لكنني أعرف تماماً هذه الحالة {ضحك}

❖ تريدين الحديث عن نفسك شخصياً؟

كورين: بلى، هذا صعب، صعبٌ جداً...

❖ هل تذكرين هنا حالة تخلخل الوسط الاجتماعي؟

كورين: أنا أعلم بأنني أتألم {صمت}.

❖ بالنسبة لأهلك؟

كورين: نعم.

❖ هل بإمكانك أن تصفي لنا كيف يجري الأمر عملياً؟ أنتِ هنا تقلّدين بيديكِ ميزاناً، ماذا يعني ذلك؟

كورين: {صمت.} لديّ انطباعٌ بأنه ينبغي عليّ التقدم ببطء، إذا أمكن قول ذلك... وذلك كي أنجح. فبالنسبة للناس الموجودين في الكلية مثلاً، لديّ العديد من مشاكل النطق، وأنا أعبّر عن نفسي بصورةٍ سيئة. إنني على الأقل أفهم، ليس لديّ مشاكل في الفهم، لكن إعادة استخدام المفردات مشكلةٌ بالنسبة لي. إنها مشاكل سواءً في علاقتي مع الناس أم على مستوى محتوى الجامعة. فعلى مستوى محتوى دروس علم النفس مثلاً، ليس لديّ حقاً أية مشكلة في فهم ما يمكن أن يجري على المستوى الوظيفيّ، لكن حين يجب أن أعيد استخدامه، فإن لديّ انطباعٌ بأنني أقاوم، بأنني أنحصر، وبأن الأمر مرتبط رغم كل شيء بأهلي، وبأنه ينبغي على الأقل... هناك فارقٌ يتعمّق في ما يتعلّق بيني وبينهم، وليس بالضرورة أن يكون لديّ رغبةٌ في... أن أجعله يكبر، لذلك، لا أعلم، الأمر صعب التفسير. لكن الأمر جليّ مع أختي سيلفي Sylvie {الأخت الصغرى التي تحضّر لأطروحة} ثم أختي الثانية {التي هي ربة منزل ولم تتابع دراستها} فلا يوجد لديّ الكثير لأقوله لأختي الثانية التي هي

متزوجة، على الرغم من انه يمكن ان اكون اكثر قرباً منها لأنّ أولادنا بأعمار متقاربة. في حين انّ الأمور أفضل مع سيلفي، لكنني اشعر مع ذلك بأنّ سيلفي بعيدةٌ جداً بالنسبة لي على هذا المستوى، وأرفض ذلك أيضاً نوعاً ما.

◆ هل تقصدين بأنها بعيدةٌ جداً من الناحية الثقافية؟

كورين: أنا أرفض كذلك قليلاً ذلك الجانب الثقافي. لكنني لا أستطيع حتى الآن أن أحدد مكاني في أية جهة. ففي الوقت ذاته، يمكن أن تكون لديّ طموحاتٌ باتجاه جانبٍ ما، لكن دون أن أرفض الآخر، كما أنني لا أشعر بالراحة مع هذا ولا مع ذاك.

◆ وكيف تجري الأمور في الجامعة؟ لديكِ صعوبةٌ في إعادة استخدام اللغة المدرسية، أليس كذلك؟

كورين: بلى، أصادف صعوبةً في الدخول إلى مستوى اللغة، إلى مستوى... {صمت}. يبدو لي بأنّني لو امتلكتُ المفردات أيضاً لانتقلتُ إلى الجانب الآخر، لا أعرف كيف أشرح ذلك.

◆ وماذا عن أبويك؟ هل يريان ذلك أيضاً، أم أنّ الأمر لا يتعلق إلاّ بك؟

كورين: لا، اظنّ بأنهما يلاحظان ذلك أيضاً. أعتقد بأنّ لديهما بشكلٍ ما انطباعٌ بأنّهما لا يعرفان تماماً ما الذي نعيشه بين قوسين، وقد قالت لي أمي منذ فترةٍ ليست طويلةً جداً: «ما الذي تفعلينه حقاً في الكلية؟»

◆ ما الذي كان ذلك السؤال يعنيه؟

كورين: لم تكن تعلم حقاً ما الذي أفعله وأعتقد بأنها لم تفهم لماذا لديّ رغبة في أن أتابع دراستي، فبرأيها لديّ مهنة، ومسكن، ولديّ موقعٌ اجتماعيّ على نحوٍ ما... لم تكن تعرف مضمون ما أفعله، وهي تجد صعوبةً في أن تفهم لماذا لديّ رغبة في أن أفعل شيئاً آخر.

[...]

1991

إيمانويل بورديو

روح التناقض

يبلغ فريديريك من العمر تسعة عشر عاماً. يعيش والداه اللذان يصفهما بأنهما «برجوازيان صغيران» في مدينة نويي Neuilly: فوالده مهندس في شركة الكهرباء الفرنسية EDF وأمه لا تعمل. وهما مشتركان في جريدة اللوموند ويقعان من الناحية السياسية في اليسار: بل إنّ والد فريديريك قد ناضل في صفوف الحزب الاشتراكي. لقد مثّل فريديريك، بطبعه الشديد البرودة والسيئ الظنّ لأقصى درجة، مثّل «حالةً» بالنسبة لأبويه، إذ أنه كان سبباً للكثير من الخيبات العائلية. وهو، في فترة إجراء المقابلة، في صف البكالوريا ب B بعد أن رسب في الصف الثامن وفي الصف العاشر. وهو يدرس في صف خاص في نويي، حيث يوجد العديد من أبناء العائلات الجيدة، القريبة من أقصى اليمين الملكيّ أو من الجبهة الوطنية. تصادف رسوبه في الصف العاشر مع دخوله في فرع نويي لقسم الشبيبة التابع للجبهة الوطنية FNJ. وبعد ذلك بقليل، وخلال العام الدراسي، تعرّض لحادث دراجة أصيب فيه إصابةً شديدة في عينه اليسرى: فلم يحضر أية دروس خلال عامين بعد أن تشوه وجهه؛ واليوم، بقيت عينه اليسرى معاقةً وتضايقه كثيراً. مشاجراته مع والده عنيفة ومتكررة، وهما لم يعودا يتكلمان مع بعضهما تقريباً.

صحيحٌ أنّ من سأل فريديريك بصفته ممثلاً لشبيبة أقصى اليمين هو أخٌ لأحد أصدقائه، إلا أنّ فريديريك يعلم بأنّ هذا الأخ ينتمي إلى عالمٍ يميل بشكلٍ مسبق إلى اليسار، ولا يمكن لفريديريك بالتالي إلاّ أن يكون في موقف الدفاع، ويمكن أن يقال بأنه يتخذ صفة الممثل للجهة التي ينتمي إليها. وبالتالي، فإنّ أيّة محاولةٍ للتحليل تواجه مشكلةً منهجيةً مسبقة: كيف يمكن تفسير أقوال محادثٍ يعترف هو ذاته بأنه يصوغ الحوار بعباراتٍ استراتيجيةٍ بلاغية؟ كيف يمكن استخلاص حقيقةٍ سوسيولوجية ما من خطابٍ يمكن تماماً ألاّ يكون سوى إعادة بناءٍ تخيليةٍ للحقيقة، رُتّبت بحيث تتلاءم مع المتطلبات والمقاييس المفترضة لمن يقوم باستجوابه وجملّتها رقابة المواقف غير المعلنة والإخفاء الخجول للمعاناة الشخصية؟

حين سئل فريديريك عن الحجج التي يستخدمها للحصول على انتماءاتٍ جديدة إلى تنظيمه، فإنه يقول: «هذا يتعلق بالأشخاص الذين أكون بصحبتهم.» من جهةٍ أخرى، فإنه يبدو بأنه يطابق بين الثقافة والبلاغة، بين التأهيل والتدريب الكلامي: وإذا صدقناه، فإنّ السبب الحقيقي الوحيد الذي جعله ينتمي إلى الجبهة كان الأمل في الانتساب إلى جامعة صيفية ليتعلم فيها بشكلٍ أساسي فنّ «التحدث إلى وسائل الإعلام»؛ إنه رجلٌ كبير، خطيبٌ كبير؛ ويذهب فريديريك إلى حدّ تطوير نوعٍ من الجماليّة السياسية المستوحاة من جملٍ قاطعة و«مؤلمة» لـ: دريو لاروشيل Drieu La Rochelle مبنية على «المفارقة» والتحريض.

وبعد ذلك، فإن البلاغة تفشل في بعض الأحيان، ويخرج خطاب فريديريك أحياناً عن سيطرة الرقابة والإنشاء؛ والشخصيات التي يقدّمها ليست أبداً خاطئة بالكامل، وبصورةٍ خاصة، فإنها تتناقض لدرجة أنها، أثناء العرض ذاته، تنقل التوترات والتناقضات الحقيقية والعميقة لمراهقٍ مع حالة نزاعٍ مع أبيه، لا يزال مقسماً بين انتماءٍ تحريضيّ ومتحمس للحركة، وبين رؤيةٍ خائبة للحياة السياسية: يعرض فريديريك نفسه مرةً كمناضلٍ مثاليّ يجيب على الأسئلة التي تُطرح عليه بلهجةٍ حربيةٍ، كما ينبغي له أن يفعل،

وعند اللزوم فقط، بلهجةٍ فنية، ومرّةً أخرى كخائبٍ لم يعد مؤمناً تماماً بما يفعله ويسخر من أوهام «المثقفين»، تماماً كما يسخر من وقاحتهم كجنود أوبريت صغارٍ «يتكلمون عن أشياء لا يمارسونها»، كمجرّد واضعٍ للملصقات، كرجل تنفيذ، حيث يكتفي بتواضعٍ بالمهام المادية لمناضل القاعدة، بل إنه يصل إلى رفض كونه يمثّل المنظمة، ويصل بالتالي إلى رفضه لشرعية المقابلة.

إنّ عدم ثبات شخصية فريديريك يجد انعكاسه في النزاعات التي تعارض تلك الشخصيات المختلفة: فالشخصية التي خاب أملها تلوم الشخصيتين الأخريين على انتمائهما غير المدروس وانخراطهما التام في حياةٍ سياسية سُلّمت لأيدي الوصوليين ولخداعات القادة (حيث خانَ جان ماري لو بين Jean Marie Le Pen ذاتُه قواعد تنظيمه حين لم يعارض صدام حسين)؛ وهو يزدري المشاركة التقنية البحتة لشخصية واضع الملصقات في الجبهة الوطنية للشباب (ج. و. ش) حيث يعتبرها مهمةً «تنتهي سريعاً» وهي «بمتناول أي شخصٍ كان»؛ كما أنه يعتبر بأن مناضل القاعدة «غبيٌّ» لأنه لا يدرك بأنّ كوادر الجبهة الوطنية (ج.و) والمناضلين الحقيقيين «الذين لا يظهرون، إطلاقاً» يعاملونه على أساس كونه مجرد «يدٍ عاملة» («ما إن يتوجب إلصاق بعض الملصقات حتى ينادوننا، وإلاّ فلا شيء»).

أما المناضل الملتزم، الفكرويّ الصغير المناوب في الحيّ، المسجون ضمن «حركة»، و«جهاز»، و«بلاط»، والذي يعميه «ولعه» بجان ماري لو بين، فإنه لا يفعل شيئاً سوى تكرار «المعلومات الصغيرة»، التي تحملها مجلة الجبهة الأسبوعية National Hebdo (السيدة كذا هاجمها أحمد كذا) أو أنه، في أحسن الحالات، يقوم باجترار «مواضيع خادعة» ليس هو مؤلّفَها. ويعارض خائبُ الرجاء على الفور السبّاقَ في «التأهيل» أمام الحماسة الساذجة للقادمين الجدد: «النضال جيد، إلاّ أن المرء لا يحصل على أيّ تأهيل». وأخيراً، فإنّ لخائب الرجاء بلاغته الخاصة: فهو يهتمّ بالمفارقة («أحب كثيراً أن أناقض أقوال الآخرين») وبإخمادٍ منهجيٍّ للتعبير: فقد قال

من نفسه بأنه كان «مهتماً بشدة» بالجامعة الصيفية التابعة ل ج.و.ش ، ثمّ يصحّح قائلاً: «لا، لم أكن مهتماً «بشدة»، ربما كنت «مهتماً» وحسب» وبعد جملة واحدة، يستدرك من جديد وهو يستذكر مفاجأته وحماسه قائلاً: «لم أكن قد رأيت «الاتساع» من قبل، لا أعلم إن كان ذلك «اتساعاً»، لكن...»

إلاّ أنّ فريديريك يبدو وكأنه يناقض نفسه: «لا يمكن للمرء أن يعرف ما هو الأمر بطلعة واحدة لوضع الملصقات». ومن جهة أخرى، فإنّ التشاؤم الذي يُظهره لا يكبح تماماً الانبهارَ الذي عرفه في بداياته أمام عمل مناضلِ القاعدة المنخرط روحاً وجسداً في النشاط الحزبيّ الملموس والذي ينطوي أحياناً على بعض الخطر: فهو يحنّ إلى روح وحماسة حملات الإلصاق الأولى، حين كان هو ورفاقه يعملون في الشارع بسرعة وصمت، مزاوجين بين الرفاقية والفعالية، وذلك بعد أن يكونوا قد ضحكوا كثيراً في الشاحنة الصغيرة التي تقلّهم. وفي ذهنه، فإنّ الخروج ليلاً لوضع الملصقات، كما يذهب المرء إلى مغامرة، يبقى المثالَ للالتزام السياسي الأصيل، وذلك بالتعارض مع بقاء عناصر الحزب الدائمة في منازلهم، وكذلك الأمر بالنسبة «للمثقفين» الذين ينفقون كلّ طاقاتهم في «حفلات» غير ضرورية وفظّة: «ينبغي القول بأننا نتسلى كثيراً حين نكون في شاحنة صغيرة، والجو السائد حماسيٌ للغاية».

إنّ شخصية اللاصق هي رومانسية ومتواضعة في الوقت ذاته؛ فهو ينمحي أمام غطرسة الفكرويّ المحليّ، ويترك له الكلام، ويعرف حدوده الخاصّة وعدم جدارته في مجال الأفكار: فإذا كتب شيئاً، فإنّ ذلك يكون حول أمور فنيّة أو إدارية، «بناء مقر في فرساي Versailles»، أو «المعدّات التي تلقّيناها»؛ لكنه يعترف بأنه ليس «جديراً بعدُ بكتابة مقالات عميقة» وأنه «يترك ذلك الأمر لآخرين أكثر منه تمكّناً». أما علاقته مع «المنظّرين»، فهي شديدة التناقض: فلديه «كلمةٌ يقولها» وهو ينزع بصورة خاصة إلى اعتبار المناظرات الأيديولوجية مجرد أعذار بسيطة تسمح للوصوليين و«للمثقفين» في الحزب بتسلّق الهرم على حساب بعضهم بعضاً، دون أن

ينزلوا أبداً إلى الشارع. وباختصار، فإنّ مثالَ الالتزام الأصيل يهيمن على مثال التفكير والنقد المرتاب، بل خائب الرجاء.

لكن ما إن نتطرّق إلى أسئلة تصنّف على أنّها سياسية، حتى يتغلّب الخطاب الاعتيادي والمسيطّر عليه للمناضل النموذجي: فهو يدافع عن الدعوة إلى عزل المصابين بالسيدا (الإيدز)، «لدفعهم إلى التفكير»، وعن التنديد «بالارتفاع الكبير» لعدد المغاربيين في فرنسا في المستقبل، مستنداً إلى أرقام رسمية («سيكون هناك ثغرة في هرم الأعمار») وإلى ذرائع مدرسية («طردهم خارج البلاد (...) لإزالة الغيتوات»)؛ ويعلن فريديريك بأنه يمكن له أيضاً أن يفصّل أي «موضوعٍ خادعٍ» آخر، كالأمن وطريقة الاقتراع كما لو كان يستعرض براعةً كلاميةً مميزة. وهو يلتزم بصورةٍ خاصة بالمواضيع المسموحة فقط، ممارساً على نفسه رقابة الجهاز؛ فما إن يخرج من الدروب الممهدة للنقاش السياسي المعتاد حتى تفرغ إجابات فريديريك من أي محتوى، ويقتصر على استعادة محتوى الأسئلة بصورةٍ غائمة، على طريقة تحصيل الحاصل.

في بعض الأحيان، ينزلق الخطاب القابل للنشر نحو ما هو غير قابلٍ للنشر، إلاّ أنّه يُستدرك على الفور ويُخفف: «إخراجهم من البلاد، هذا صحيح، لكن ليس كيفما اتفق. لإلغاء كافة الغيتوات.» ليس لدى المناضل المثالي لا الحماس المتواضع لواضع الملصقات ولا الانسلاخ الساخر لخائب الرجاء، وهو ليس سوى ممثلٍ للحزب، مجرد عيّنة ممثلة له، لا أكثر.

تبدو الاعتبارات الجمالية مناسبةً بشكلٍ خاص لزلات اللسان وللأشكال الأكثر انفلاتاً للانزلاق البلاغيّ، كما لو كان المنطق الخاصّ بالعالَم الجماليّ يسمح برفع أشكال الرقابة والممنوعات الأيديولوجية: «أحبّ كثيراً الأزياء الموحدة (...) لكنني لا أحبّ الجيش.» يملك فريديريك «متحفاً عسكرياً» صغيراً يتكوّن من خوذاتٍ وقبعاتٍ عسكرية متنوعة. إلاّ أنّه لا يعترف بوجود أية صلةٍ بين هذا الميلِ للأشياءِ العسكرية وبين انتمائه إلى الجبهة الوطنية. كذلك، فهو يبدي حاجةً غير عادية ليحدد موقعه بالنسبة

لميول غير عادية حين يتكلم عن الموسيقى: فبعد أن ذكر فرقة «سكاي روك Skyrock»، الرمز الثقافي التافه، قال بأنه يقيم سباقاً للأغاني العسكرية لأقصى اليمين، ويصفها أولاً بأنها «أغاني تقليدية»، ثم يقرّ في النهاية قائلاً: «الأغاني النازية أو الأغاني الألمانية، الأمر سواءً تقريباً...»، ويختم بتلك الجملة الجديدة المتحفّظة: «أنا لا أفهم الكلمات، لذلك...»

عبر تلك الكوكبة من الشخصيات المتناقضة، ترشح الصعوبات والأهواء الخاصة بفريديريك التي لا تظهر مع ذلك إلاّ بالإنكار: فمرةً يؤكّد بصورةٍ عفوية أنّ مشاكله مع والده «لا علاقة لها بالسياسة»، وفي مرةٍ ثانية، وحين يتم سؤاله من جديد عما إذا كانت هناك علاقة بين انتمائه إلى «ج.و.ش» وصعوباته العائلية، فإنه يجيب ببساطة: «إذا عدنا إلى ذكر أهلي، فهم لم يكونوا يعطونني المال». كذلك، فإنّ أبويه كانا مصرّين على أن يرى طبيباً نفسياً: «كنت سأفعل لو أنني كنت فعلاً... إلاّ أنّه لا يبدو لي بأنني بحاجةٍ للمساعدة»؛ ولا يمكن للمرء هنا إلاّ أن يسمع هنا طلباً للمساعدة غير معترفٍ به. يبدو وكأنّ فريديريك بحاجةٍ إلى إقناع نفسه بأنّ قراره في الانضمام إلى الحزب مجرّد خيارٍ شخصيٍّ بحت، وبأنّ عدم وفاقه مع أبويه ينبغي ألاّ يعطى صبغةً مأساوية، «لأنه معتاد»، ثم يصحح قائلاً بأنّ «الأمر ليس خطيراً»؛ ويبدو كما لو أنّه يجهد في طرد «المثقف» الذي بداخله، ذلك اليافع «غير المنسجم مع ذاته» الذي يعتبر الجبهة «عائلته» والذي «لا يعيش إلاّ بها»، ذلك «المفلس»، وهو بذلك يستعيد قيماً موروثةً دون ريب عن أبيه – وهنا المفارقة: «التأهيل»، «الحصول على البكالوريا من أول مرة»، «الدراسة في مدرسة عليا للهندسة» (كأبيه). وتبدو علاقته بأبيه، ذلك «البرجوازي الصغير» الذي يحتقره ابنه، لكن الذي يظهر مع ذلك أنّه قد استبطن رؤيته للعالم، تبدو أكثر تناقضاً مما يتوقع المرء للوهلة الأولى. لذلك، فإنّه يمكن أن نفترض بأنّ النزاع الأول الذي يسكن فريديريك والذي هو أساس الأدوار المتناقضة التي يعطيها لنفسه هو نزاع يافعٍ مأزوم، عقّدته عاهته ومصاعبه المدرسية، خاضعٍ مادياً لأبويه، ابنٍ لمهندسٍ اشتراكي، لا يتمكن من الحصول

على البكالوريا، بريد، ليؤكّد ذاته، أن يجري قطيعةً مع هذا العالم المثقف والتقدمي نسبياً، دون أن يتمكن فعلياً من الانسلاخ عن قيم ذلك العالم وعن الادّعاءات الثقافية التي ينطوي عليها.

يبدو بأنّ القدر قد حسم الأمر لصالح القطيعة: فبعد بضعة أشهر من المقابلة، نجح فريديريك في الحصول على شهادة البكالوريا ب وبناءً على طلبه، سجّله أهله في مدرسة خاصّة في جنوب شرق فرنسا تعطي شهادةً فنيةً تجاريةً عليا، ودفعوا لأجله تكاليف مدرسية مرتفعة للغاية، مما زاد من اعتماده المادي عليهم. لكن، وبعد أن بدا بأنّ كل شيء قد عاد إلى وضعه النظامي، ذهب فريديريك للقتال في صفوف الكرواتيين بعد أن تلقّى تدريباً عسكرياً في وحدات عسكرية تابعة لأقصى اليمين. ويأتي هذا الانخراط غير المتوقّع لمناضل خائب الرجاء ليؤكّد افتراضات القراءة المقترحة للمقابلة: إن خطاب فريديريك أقلّ جذريةً من مواقفه الحقيقية، ولا يمكن إحباط الرقابة التي تسيطر على هذا الخطاب إلا من خلال تناقضاته الداخلية.

لقاء مع مناضل شاب في الجبهة الوطنية

أجرى اللقاء دوني بوداليديس Denis Podalydès

«لم يكن لديّ أيّ سبب للانتساب»

❖ متى انتسبتَ للجبهة الوطنية (ج . و)؟

فريديريك: منذ عامين ونصف.

❖ كم كان عمرك حينذاك؟

فريديريك: سبعة عشر عاماً أو ستة عشر عاماً ونصف. لم أكن أعرف الحركة إلاّ بصورةٍ غائمة، قليلاً جداً في الواقع.

❖ هل كنت تعرفها عبر وسائل الإعلام، التلفزيون، الصحف، أم عبر أصدقاء سبقوك إليها؟

فريديريك: لم أكن أعرف أحداً. لم أكن أرى أهميةً في أن يذهب المرء إليها ليرى ما يوجد داخلها. كانت بالنسبة لي مجرّد مجموعةٍ من الشبان، أصدقاء في ما بينهم. بالنسبة لي، كانت منظمة الجبهة الوطنية الشبيبية (ج. و. ش) تتوقف عند ذلك الحد. وفي إحدى الأمسيات، كان أحد أصدقائي يعزم على الذهاب ليقصّ له شعره شخصٌ من ج.و.ش. وكان رفيقي في امتطاء الدراجة، بنفس عمري، وفي صفي، وقال لي أنّ ذلك قد يعجبنا لا أكثر، فلم يكن لدينا أية مصلحة في الذهاب إلى هناك. كان ذلك الشخص قد عرض على صديقي أن يقصّ له شعره في ذلك المساء، فذهبنا

إذن. لم يكن هناك أحد. رأيت هناك بعض الدعاية وكومةً من الصحف، وما شابه ذلك..

❖ أين كان ذلك؟ في مسكن الشخص المعنيّ الذي كان سيقصّ شعر صديقك؟

فريديريك: لا، كان ذلك في المقر.

❖ مقرّ الجبهة الوطنية أم مقرّ ج. و. ش؟

فريديريك: ج.و.ش، كان مقراً صغيراً لِ ج.و.ش. تناقشتُ قليلاً معه بينما كان يقص شَعر صديقي. وفي نهاية السهرة، حضر اثنان أو ثلاثةٌ آخرون وتناقشوا. لقد تحدّثنا قليلاً.

❖ عمّ تحدّثتم؟

فريديريك: أنا لم أتحدّث، فقد كنت أستمع إليهم وهم يتحدّثون. بالنسبة لي، كان شيئاً مجهولاً. لم أكن قد رأيت قبل ذلك أشخاصاً يقومون بوضع الملصقات في الشارع، لم أكن قد وزّعتُ أية مناشير، لم اكن قد رأيت شيئاً من كلّ ذلك.

❖ ألم يكن أبواك أيضاً قد مارسا أيّ نشاطٍ سياسيّ؟

فريديريك: أوه... {تعبير ازدراء}. بعد عودتي في ذلك المساء، قلتُ لهما بأنني كنت هناك، ولم يُسرّا لذلك بصورةٍ خاصة. وقد عدتُ إلى هناك لأرى الناس الموجودين، ووجدتُ الأمر مثيراً للاهتمام لأنّ النضال السياسي كان شيئاً مجهولاً بالنسبة لي؛ كان رأيي أن هناك فعلاً شيء ما، أن الأمر أكثر من مجرد مجموعةٍ من الشباب... لقد جذبني ذلك بالفعل.

❖ لكن في مقرات التجمع من أجل الجمهورية RPR أو الحزب الاشتراكي PS أو حتى الحزب الشيوعي PC هناك أيضاً نضال ووضع ملصقات وتوزيع منشورات...

فريديريك: {يبتسم وهو يخفض عينيه.} نعم، ولكن صديقي لم يذهب إلى هناك ليقص شعره... لكن... لم أكن سأكون مرتاحاً في مكانٍ آخر، ثم إنّ...

◆ هل كان صديقك يعلم إلى أين هو ذاهبٌ ليقص شعره؟

فريديريك: الآخر كان أيضاً حلاّقاً...

◆ هل ذهب ليجري له قصّة شعرٍ مميزة؟

فريديريك: لا، لا، كان سيجري له قصةً متحاذية، وهي ليست بقَصّة الشَّعر الخاصة. هكذا إذن، ذهبتُ إلى هناك، ورأيت مسؤول ج.و.ش ، وكان شاباً في الثالثة والعشرين من عمره يشغل منصب سكرتير منطقة أعالي نهر السين Hauts-de-Seine.

◆ هل كنت تظنّ حين عدت إلى منزلك بعد أول مرةٍ ذهبت فيها إلى هناك بأنك سوف تنتسب؟

فريديريك: لا. لقد انتسبت بعد ذلك بسنة، لكن لسببٍ خاصٍّ، فقد كنت أرغب في أن أرى الجامعة الصيفية لِ ج.و.ش. تلك كانت أول مرةٍ أنتسب فيها رسمياً. أما في ذلك المساء الأول فقد استمعت إليهم فقط وهم يتكلمون.

◆ عمّ كانوا يتكلمون؟

فريديريك: عن النضالية.

◆ ماذا تعني؟

فريديريك: كانوا يقولون بأنهم سوف يضعون ملصقاتٍ يوم الأربعاء. اثنان منهم كانا يلفّان تلك الملصقات، وقد أدهشني ذلك كثيراً.

◆ ما الذي أدهشك، ما قالوه لك أم ما كانوا يفعلونه؟ هل كانوا يحاولون إقناعك؟

فريديريك: كلاّ، لقد وجّهوا لي التحية. لقد قالوا لأنفسهم بأنهم لم يروني قبل ذلك أبداً. لكنهم لم يكونوا مرتابين بي. بينهم واحدٌ اسمه جوسلان كان يتحدّث عن سهرةٍ مع بعض الفتيات. أي أنهم كانوا يتحدّثون عن أمورٍ مختلفة.

◆ هل عدت لرؤيتهم في فترة السنة التي فصلت تلك السهرة عن انتسابك؟

فريديريك: نعم، لقد رأيتهم عندما وضعوا الملصقات يوم الأربعاء لأنني كنت أريد أن أعرف ما الذي يفعلونه في المساء، بعد الخروج من الدروس أو المعامل. بعضهم يعمل في المعامل، رغم أنّ الأشخاص في نويي هم على الأغلب أناسٌ يتوجهون نحو الدراسة، برجوازيون، أو برجوازيون صغار مثلي. لقد أردتُ إذن أن أعرف كيف يتم وضع الملصقات، وتوزيع المنشورات والصحف في ساحة السوق. هناك أيضاً التعليب.

❖ ما هو التعليب؟

فريديريك: إنه وضع المنشور في علب البريد. الأمر يجري حياً تلو آخر، وخاصةً خلال الانتخابات. لقد وصلت في فترة حملة الانتخابات الرئاسية، فكان هناك العديد من النشاطات، ومقدارٌ لا بأس به من العمل الواجب إنجازه. ذهبت إذن إلى حملتين أو ثلاث لوضع الملصقات كي أكون تدريجياً في صورة ما يجري. فمن خلال حملةٍ واحدة، لا يستطيع المرء أن يعرف الموضوع.

❖ كل ذلك قبل أن تنتسب؟

فريديريك: لولا ذلك لما انتسبتُ أبداً إلى ج و ش. كان ينبغي أن أعرف أكثر عن الحركة، كلّ ما يتعلّق بها، الأفكار، ومواقف الجبهة الوطنية.

❖ لقد قرأتَ كتباً حول الموضوع...

فريديريك: نعم، كنت أقرأ الصحف. في الواقع، لقد قرأت دائماً الصحف، لكنها لم تكن أبداً... كنت أقرأ دوماً لوكوتيديان Le Quotidien واللوموند Le Monde لأن أبي يحضرها كلّ مساء، أما لوكوتيديان، فأنا أشتريها في الحقيقة كلّ يومين. أما في تلك الفترة، فقد كنت أشتريها مرةً في الأسبوع فقط. كما أنني كنتُ أقرأ أيضاً مجلّة الجبهة، ما اسمها... الوطنية الأسبوعية National Hebdo وهي في رأيي ليس لها أية أهمية. لا شيء فيها، ليس فيها أي تأهيل.

❖ لكنك تعطي الانطباع بأنك انتسبت بالصدفة نوعاً ما. ما الذي جعلك تنتسب؟

فريديريك: لم يكن لديّ أي سبب للانتساب، لم أكن أرى لماذا سأعطي مائة وعشرين فرنكاً لتلك الحركة- لم أر مصلحةً في حصولي على بطاقة العضوية، لم يكن ذلك ينفعني في شيء. لكن جاء موضوع الجامعة الصيفية.

الجامعة الصيفية: «قلت لنفسي بأنّ ذلك لن يضيرني في شيء، سأذهب إلى هناك وسنرى»

فريديريك: إذن، للذهاب إلى الجامعة الصيفية خلال عطلة نهاية الأسبوع للتأهيل في قصر «نيفي آن بارونجان Nevis-en-Baronjean»، والتي تدوم ثلاثة، بل خمسة أيام، كان ينبغي أن يكون مع المرء بطاقة عضوية. قلت لنفسي: لا يمكن أن يضيرني ذلك في شيء، سوف أذهب إلى هناك وسنرى، سيكون هناك أصدقاء. وفي الواقع، لم يكن الأمر سيئاً، عدا بعض المحاضرات الطويلة نوعاً ما، لكن بعض الخطباء لم يكونوا سيئين، وفي نهاية الدورة حضر جان ماري لو بين بالضرورة. لم يحضر إلاّ في النهاية، لأنه كان بصورة خاصة في الجامعة الصيفية للجبهة وليس في جامعة ج.و.ش. كان هناك إذن جان إيف لو غالو Jean-Yves Le Gallou والأستاذ فاغنر Maître Wagner .

❖ كيف كانت الأمور تجري؟

فريديريك: كنا نستيقظ في السابعة أو الثامنة صباحاً، ونتناول طعام الإفطار، ثم محاضرة مع أسئلة حتى موعد الغداء، وكذلك الأمر بعد الظهر. كان هناك جلسات لتعليم التحدث إلى وسائل الإعلام. كان على الجميع التحدّث أمام كاميرا، وكان كلّ شخص يُقيِّم في النهاية. كما كان هناك تمرينٌ آخر ينبغي فيه الإجابة على بعض الأسئلة.

❖ كيف جرت الأمور بالنسبة لك؟

فريديريك: كان هناك مواضيع، وكلّ شخص يسحب موضوعه بالقرعة، وبالنسبة لي، كان هناك موضوعان لم أكن أريدهما: الاقتصاد

وحماية البيئة، فهما أقلّ موضوعين كنت أهتمّ بهما. وكانا بالذات الموضوعين اللذين وقعتُ عليهما بالقرعة، ولم أُجب تقريباً. لقد جرى الحديث عن حماية البيئة ولم أتمكن من تذكّر اسم فريديريك ميسترال Frédéric Mistral، وأزعجني الأمر كثيراً.

❖ هل هم الذين سألوك عنه؟

فريديريك: لا، أنا الذي كنت أريد التحدّث عنه. إنه أول مناصر للبيئة من اليمين، وأردت أن أضعه في هذا المكان، في مقدّمة عن البيئة ولم أتمكن من تذكّر اسمه.

❖ ما هي مناصرة البيئة اليمينية؟

فريديريك: لكن ذلك كان فقط من أجل وضع الاسم؛ إنها ليست مسألة مناصرة البيئة اليمينية أو اليسارية، بل لأنّ اليسار هو الذي يسيطر حالياً على الموضوع. هذا ما أردت قوله وإبرازه أمام الكاميرا. لكن التمرين لم يكن يدوم سوى خمس دقائق فقط، وكان ذلك في الصباح، كنتُ قد استيقظتُ لتوّي.

❖ هل كنت تتوقع الكثير من تلك الجامعة الصيفية حين وصلتَ إليها، أم أنّ الأمر لم يكن يتعدى الفضول، إن لم يكن التوجّس؟

فريديريك: بل كان حماساً. كنت مهتماً للغاية. لا، لم أكن مهتماً «للغاية»، ربما لم أكن. كنت مهتماً. كنت في الحركة منذ عام، لكنني لم أكن قد رأيت أبداً اتساع الحركة، «الاتساع»؟ لا أدري، لكنه كان نشاطاً يتألف من نقاشات وحوارات، كانت خمسة أيام بهذا الشكل... كنت أريد أن أرى شيئاً آخر في الحركة: فهناك أولئك الذين أدعوهم ب«المنافقين»، وهم أولئك الذين يظلّون على الدوام حليقي الذقون وما شابه ذلك، الذين يتحدثون عن أي موضوعٍ كان، يتحدّثون عن أمورٍ لا يمارسونها، وكان ذلك يقضّ مضجعي، كنت أريد أن أعلم إن كان هناك العديد منهم أم لا. لكنني لم أرَ واحداً منهم هناك، وقد أدهشني ذلك كثيراً. كانت شعورهم قصيرةً لا أكثر، أي مثلي أنا حالياً.

◆ هل من تدعوهم بالمنافقين هم المتعصبون؟

فريديريك: لا، إنها ليست حتى مسألة تعصب، إنهم أولئك الذين لا يشعرون بالانسجام مع أنفسهم، والجبهة هي عائلتهم، لا يعيشون إلاّ من خلالها، وهم لا يخرجون إلاّ للذهاب إلى المدرسة، وهم بائسون. لم يكن هناك أحدٌ منهم في الجامعة الصيفية، وكنتُ مسروراً لذلك. لكن لا زال يوجد منهم حتى الآن، وهم ليسوا شريرين، ولا يتحدّثون سوى عن الجبهة، بل إنهم لا يتحدّثون حتى عن الجبهة، فليس هكذا يتحدّث المرء عن الجبهة، أشخاص أغبياء لهذه الدرجة. هناك اثنان منهم في نويي: جان بول Jean-Paul الذي هو برأيي مريضٌ نفسياً نوعاً ما، بالكامل، ربما أكون شريراً نوعاً ما في وصفي له. لكن لابد أنّ لديه عيبٌ صغيرٌ ما، فوالداه مسنّان نوعاً ما. ينبغي عدم قبول الأشخاص الذين يأتون إلى الحركة بشكلٍ اعتباطي، كما ينبغي أيضاً عدم استبقائهم. إذن، فقد انتسبتُ بعد ذلك. كنت أستلم كل شهرٍ رسالة جان ماري لو بان وكنتُ أقرؤها بالكاد، فمقدار ما تحتويه من أهميةٍ لا يزيد على ما تحتويه المجلّة الأسبوعية للحركة. إنه مجرد تكرارٍ مملّ، أو أنها أخبارٌ صغيرة لنعرف أين ستلقى المحاضرة التالية للجبهة. متابعة الأمور الراهنة ضعيفة، وهي إعلانات من نوع «السيدة كذا تعرّضت لاعتداءٍ من أحمد كذا». كلها دون أية أهمية على الإطلاق.

◆ أي أنّ ما كان يثير اهتمامك في الجبهة لم يكن المواضيع التي أفرط في الحديث عنها في وسائل الإعلام، كالهجرة والأمن؛ ما هو الموضوع الذي جعلك تنتسب إليها؟

فريديريك: لكن لم يكن لديّ أية رغبة في الانتساب! إلى أية حركة! الأمر لا يهمني.

◆ أي أنّ الأمر كان فعلاً بالصدفة، من أجل الذهاب إلى تلك الجامعة الصيفية؟

فريديريك: لكن الأمر كان في حالة صعودٍ وهبوط حتى في الأوقات

التي كنت فيها أقرب ما أكون إلى الجبهة. كنت أقول لنفسي بأننا لن نتمكّن أبداً من عمل شيء إطلاقاً، كان الكيل قد فاض بي. هناك أمرٌ أعيبه دائماً على الجبهة: النضال أمرٌ حسن، إلاّ أننا لا نتلقى أي تأهيل. فمثلاً، في اتحاد 92، في منطقة أعالي نهر السين، وهو اتحاد يسير بصورة حسنة، ليس هناك تأهيل. ولن يصمد أكثر من عامين أو ثلاثة لا أكثر حتى لو كان لدينا رئيس مجموعة كفؤ وأناس لديهم دوافع جيدة. فالناس يأتون، ينجذبون، ثم يذهبون بعد ذلك لأنه لا يتم تأهيلهم، حتى لو أعجبهم الأمر في البداية. فهم يرون الأشخاصَ نفسهم على الدوام، ويذهبون لوضع الملصقات معاً، وينتهي الأمر بسرعة.

❖ هل وضعت الكثير من الملصقات؟

فريديريك: لقد قمت بذلك أسبوعياً لمدة ستة أشهر، ولم تحصل أية مشاكل أبداً، لم نتعرض لأيّ اعتداء. لكن بالنسبة لأعضاء الجبهة، فإننا نحن أعضاء ج.و.ش لا ننفع إلاّ لذلك الأمر: الإلصاق. فما إن يحتاجوا لوضع ملصقات حتى يطلبوننا وإلا، فلا شيء.

❖ أي أنكم أيدي عاملة وحسب.

فريديريك: تماماً، بالضبط.

❖ كنت تقول بأنك عرفت حالات صعود وهبوط خلال الفترة التي كنت فيها أقرب ما تكون للجبهة.

فريديريك: أنا أذهب مثلاً إلى اجتماع، ويأتي أحمقان أو ثلاثة ليتكلموا معي عن أمور تافهة، ليقولوا لي حماقات، وهذا يثير أعصابي: أو أنني أحضّر لعملية لصق، وأرى بأنني حين أطلب من أحد الأشخاص أن يحضر لي المادة اللاصقة، أو مجرد أن يعثر لي على شيء منها {يتوتّر} فإنه لا يتمكن من أن يجدها، وأضطر أنا بسببه لأن أصرف الأشخاص الذين كنت قد استدعيتهم للّصق، إذ كيف يضع المرء ملصقات دون مادة لاصقة؟ لحسن الحظ، فإنه لا يوجد الكثير من أمثال هذا الشخص. فمن أصل عشرين عملية إلصاق باشرتُ بها، فشلت اثنتان.

◆ ما هي المسؤوليات التي كنتَ تمارسها في ج.و.ش؟

فريديريك: الاهتمام بوضع الملصقات.

◆ هل حصلتَ على ترقية؟

فريديريك: أصبحتُ مسؤولاً عن وضع الملصقات. أنا لا أعتبر تلك المهمة ترقيةً. لقد قالوا لي بأنني أجيد هذا الأمر، لكنه يمكن القول بأنّ تنظيم وضع الملصقات بمتناول أيٍّ كان. الأمر يتطلّب استدعاء حوالى عشرين شخصاً ليحصل المرء على عشرة أشخاص، والعثور على شاحنةٍ صغيرة، وهذا ليس صعباً.

◆ هل كانت لك صلاتٌ مع الأعضاء الآخرين لِ ج.و.ش؟

فريديريك: نعم، في مدينة ليل، وفي إيكس Aix بصورةٍ خاصة. لقد كان لنا جريدة اسمها القلعة Citadelle وسوف أعطيك بعضة نسخٍ منها. كنا نكتب بأنفسنا. لقد كتبتُ مقالةً صغيرة عن بناء المقر في نويي وشرحتُ ما هي المعدّات التي حصلنا عليها. لست مؤهلاً بعدُ لكتابة مواضيع عميقة. أنا أترك كل ما هو ثقافيّ لآخرين افضل مني، رغم أنّ لديّ ما أقوله.

◆ ما الذي تقوله لتقنع شخصاً ما بالمجيء إلى الجبهة؟

فريديريك: الناس يطرحون عليّ الأسئلة حول الجبهة، وأنا أجيبهم بأفضل ما يمكنني، وهذا كل شيء.

◆ ما الذي تقوله بالضبط؟

فريديريك: إنهم يسألونني: ما الذي تفعلونه؟ ما الذي يجري؟

◆ هل هم أشخاصٌ موافقون مسبقاً، جاهزون للانتساب؟

فريديريك: نعم.

◆ ألم تقنع أشخاصاً معادين للجبهة؟

فريديريك: لم أقم أنا بمثل ذلك، لكن هناك شيوعيون سابقون، أشخاصٌ متقدمون في السن بصورةٍ خاصة.

❖ إلامَ يتحسس مثل أولئك الأشخاص أكثر؟

فريديريك: ليست لديّ أية فكرة.

❖ وأنتَ، ما الذي تحسستَ له أكثر؟ شخص لو بين؟

فريديريك: ليس شخصه فقط. الجبهة كلٌّ متكامل. (لو بين) خطيبٌ، وهو خطيبٌ جيّد، هذا صحيح. لكن ليس لديّ أنا عبادة الشخصية. حين وصلتُ إلى الجبهة، كنت مسروراً، ووضعتُ ملصقاً كبيراً لِ(لو بين) في غرفتي، ثم نزعته بعد يومين. ليس هناك العديد من الناس في الجبهة ممن أقدّرهم. غالبية الناس أصبحوا من الوصوليين وما أشبه. إنه جهازٌ، هناك بَلاطٌ حول (لو بين)، لكنهم وضيعون. لن يتوصلوا لشيء أبداً. كما لو كنت أحلم بأن أصبح فيما بعدُ نائباً مروراً بالحركة فقط. الآن لم أعد أحاول كثيراً أن أضم الناس إلى الحركة. الناس تبهرهم عبارة «أقصى اليمين»، لكن ذلك لا يكفي. إنّ ما نريد أن نفعله لتغيير الأوضاع هو بعثُ الروح الرفاقية والتضامن، وهي أمورٌ لم تعد موجودة!

بالضرورة، فتلك كانت مرحلة المراهقة

ذلك أنني اليوم لم أعد أثق حقاً بالناس في ج.و.ش، فهم يأتون إلى هنا بسبب أزماتهم، لمدة شهر، ثم ينتهي الأمر. كذلك الأمر بالنسبة لِـ «المثقفين» في المجموعات، المنتمين إلى الدرب الثالث، كل ذلك لا يؤدي إلى شيء، أبطال مجموعة اتحاد القوة، أو ال Sidos ، أوليفييه ماتيو Olivier Matieu، أو باد سكين Bad Skin، الذي هو أحمق، مجنون، أبله. والدته قاضية، أما هو، فإنه من ال MNR، أو من الـ JNR ، حليقي الرؤوس في باري سان جيرمان Paris-Saint ،Germain كلّ هؤلاء ليسوا ج.و.ش. إنهم مجموعات من الأصدقاء، سكيرون شديدو الغباء، مرتدو الأحذية الضخمة وحليقو الرؤوس.

❖ ألم يكن لك أبداً ذلك المظهر؟

فريديريك: هذا غير مسموح به عندنا. نحن نرتدي ملابس عملٍ

زرقاء، وبنطلونات جينز بالية لوضع الملصقات... أما مظاهر الفاشيين الصغار تلك فتعتبر مضحكة.

◆ ألم يتسبب ذلك في مشاكل مع أهلك؟

فريديريك: أهلي لم يكونوا يتقبلون ذلك، وكانوا يقلقون حين كنت أذهب ليلاً إلى الجبهة. بعد ذلك، لم أعد أقول لهم بأنني ذاهبٌ لوضع الملصقات.

◆ وحين رأت أمك صورة (لو بين) في غرفتك؟

فريديريك: لقد ظنّت بأنها أزمة مراهَقة صغيرة لن تدوم طويلاً. لكننا نادراً ما نتكلّم في السياسة، لأنهم على الأغلب لا يوافقون تماماً. لذلك، فقد حصلت بالضرورة مصادمات بيننا.

◆ هل حاولتَ أن تتحدث معهم حول الأمر؟

فريديريك: نعم، نعم، لقد حاولتُ إقناعهم. لقد كنت أدرى منهم بكثير بالأمور الراهنة، وكنت أتكلم بصورةٍ أفضل منهم. كنت أدغدغهم بالحجج. لكن الأمر كان يدوم خمس دقائق، فوالدي لم يكن يريد أن نتحدث عن الأمر في البيت. لم نكن نتفق أبداً، وكانوا يقولون لي: «أنت أحمق، وغد، أنت لا تعرف شيئاً». في البداية، كان طبيعياً أن أتحدث عن الأمر؛ كنت مسروراً، كان ذلك جديداً بالنسبة لي، لكنّ ردة فعلهم كانت على الفور: «اصمت، أنت لا تعرف عمَّ تتحدث.» لم يحاولوا أبداً أن يستمعوا لي. هذه المشكلة غير مطروحة مع أخي لأنني لا أراه إلا نادراً. السياسة لا تثير اهتمامه. لاحِظ أنني أفهمه، فالسياسة اليوم ليست مثيرة للاهتمام؛ هذا مؤسف. من المفروض أن تثير اهتمام كلّ الناس. لكنني أميل إلى الاشمئزاز، وإذا لم تتبدل الأمور... على كلّ حال، أنا لم أنتخب أبداً، أبداً. لم أنتخب حتى لصالح الجبهة. كانت أمي تقول لي: «أنت هنا لتضع ملصقاتٍ كي تجمع أصواتاً للجبهة، ولا تنتخب حتى!»

◆ في هذا تناقضٌ بالفعل، أليس كذلك؟

فريديريك: نعم، تماماً. حتى إنني لم أذهب لإحضار بطاقة انتسابي للجبهة. هناك اثنان آخران في الجبهة يتصرفان مثلما أفعل. لماذا؟ لا أستطيع أن أجيب. أنا لا أشعر بالرغبة في الانتخاب.

❖ هل يبدو لك النظام الانتخابي ناقصاً؟

فريديريك: لا، لا. بلى، نوعاً ما بالطبع. هذا الأمر يصدم أمي دائماً. أما أهلي، فهم ينتخبون. هم لا يصوّتون لِ (لو بان)، هذا مؤكّد، لكنهم لا يقولون لي لمن يصوّتون، لأنني في تلك الحالة سأسألهم لماذا، سواءٌ صوّتوا لميتيران Miterrand أم لشيراك Chirac، ولن أتركهم بسلام. على كلّ حال، سواءٌ صوّتوا لميتيران أم لشيراك فليس هناك فارقٌ تقريباً. وأنا أعتقد بأن (لو بان) أيضاً قد أصبح مثلهما. لقد استحوذت عليه الطبقة السياسية.

❖ هل أدى انتماؤك إلى ج.و.ش إلى مشاكل دراسية لديك؟

فريديريك: لم أتغيب يوماً عن المدرسة للذهاب إلى ج.و.ش. وإن كنت قد تغيبت يوماً ما، فلأسباب أخرى، لأنه لم يكن لديّ رغبة في حضور الدروس. إنّ أكثر الأمور تأثيراً على دراستي كان الحادث الذي تعرّضت له. كنت على درّاجة آلية في نويي وتزحلقتُ لأنني كنت قد أفرطتُ في الشراب. لقد أُصبتُ في عيني، وأجريت لي عملية جراحية، كانت عيني مائلة واضطررتُ للخضوع لثلاث عمليات جراحية كي تعود عيني إلى وضعها الطبيعي.

[...]

لم أفكر سوى بعيني لمدة عامين. كان شكلي فظيعاً. بعد ذلك، فقدتُ عادة الذهاب إلى المدرسة. والآن أجد صعوبةً بالغة في العودة إلى الثانوية. إنني الآن في البكالوريا ب B وينبغي أن أبذل أقصى الجهود لأنجح في الحصول على الشهادة.

❖ هل غيّرتك الجبهة الوطنية؟

فريديريك: بالضرورة لأنني كنت في مرحلة المراهقة...

◆ **أو شخصٌ ربما تعرّفت به..**

فريديريك: أقرب أصدقائي ليسوا من الجبهة، بل إنهم نسبياً غير مسيّسين. لديّ صديقٌ خلاسيٌ ذو ميولٍ فوضوية. في بعض الأحيان، في نهاية السهرة، نتشاجر قليلاً إذا كنا قد شربنا أكثر مما ينبغي، لكن الأمر لا يذهب أبعد من ذلك. بل إننا قد تعرّفنا ببعضنا بهذه الطريقة.

[...]

إن معرفة الناس بكوني في الجبهة لا يعجب البعض دائماً، لذلك فقد فقدتُ بعض الأصدقاء أحياناً. لكنني في الواقع لا أهتمّ للأمر. وكنتُ أتجاهل الأساتذة الذين يعلمون بأنني في الجبهة، وهم أيضاً كانوا يتجاهلونني. يبدو بأنني كنتُ أُكثر من الحديث عن الأمر في البداية، فقد كنت أفرط في الحماس، كان الأمر يعجبني كثيراً. لكنني عوّضتُ الأصدقاء الذين فقدتهم. أنا أعترف بأنني كنتُ أكثر من الحديث قليلاً عن الأمر. هذا طبيعي.

◆ **هل كنتَ تتفوّه بعباراتٍ عنصرية؟**

فريديريك: لقد قيل لي: «أنت في الجبهة، إذن أنت عنصري!». أنا أفهم الأمر قليلاً لأنّ هذه هي الصورة التي في أذهان الناس، إنه نقص المعلومات... يمكن للناس أن يصفوني بما يشاءون. ثم إن الناس لا يستطيعون التمييز بين العنصرية وبين ما نقوله حقاً. ينبغي علينا أن نكرر آلاف المرات، وهذا الأمر أصبح يوتّرني. إننا نضيع وقتنا، ونطيل الحديث.

ليس هناك تأهيل

◆ **هل هناك نشاطٌ ثقافي في الجبهة الوطنية، هل تذهبون إلى المسرح أو إلى حفلاتٍ موسيقية، هل هناك نظامٌ لشراء بطاقاتٍ للمجموعات؟**

فريديريك: لا، وهذا مؤسفٌ للغاية. هذا ما كنتُ أقوله: ليس هناك تأهيل. هذا هو الأمر بالضبط. ليس لدينا مكتبة. لدينا مكتبة صغيرة ضاعت كتبها.

❖ وما هي الكتب التي كانت فيها؟

فريديريك: دوديه Daudet.

❖ ليون أم ألفونس؟

فريديريك: لا أعلم. لا أعرف جيداً. لكنني عن طريق المكتبة عرفت دريو لا روشيل Drieu La Rochelle الذي أحبه كثيراً. أحبّ كتبه: المرحوم فولليه، ومذكرات رجلٍ مخدوع، والوضع العائلي، والرجل المتطي حصاناً. ما أحبّه كثيراً هو الأسلوب المقطّع، الجمل الصغيرة المريرة التي يرميها بشكلٍ عشوائي، المقارنات المسلية. وهو يتحدث عن المواخير، وكان يقول بأنها تمثّل تحيّةً للعذراء. كانت كتاباته تعجبني كثيراً. لقد استعرت كتبه عدة مرات.

❖ لماذا يعجبك كثيراً؟

فريديريك: إنه يتحدّث عن تبجيل المرأة. في الأمر تناقضٌ يعجبني. وأنا مغرم بِ المرحوم فولليه. فهو يتحدّث ويصف شيئاً ما، وفجأةً يطلق ملاحظةً صغيرة مؤلمة. لقد قرأت أيضاً «كما يمرّ الزمن» لبرازيلاك Brasillach، لكنه لم يعجبني كثيراً. وقد سمعتُ عن كتّاب اليمين، النظريين منهم، لكنني لم أقرأهم.

❖ من الذي جعلك تكتشف دريو؟

فريديريك: إنه ريجيس، أحد أصدقائي، وهو مثقف. لقد حكى لي قليلاً عن شخصيته. أما في مجال الموسيقى، فأنا أستمع لفرقة سكاي روك Sky Rock كما أنني أحب أيضاً الموسيقى العسكرية والأناشيد، لكنني لا أحب أغاني الحركة الفاشية الإيطالية. أما الأناشيد الألمانية، فلديّ اسطوانة منها، لكنني أستمع أيضاً إلى الموسيقى الكلاسيكية. لكن الأناشيد التي عندي ليست أناشيد نازية، بل هي أغاني تقليدية ألمانية، الأمر مختلف. لكن أناشيد نازية أو أناشيد ألمانية، الأمر لا يختلف كثيراً، أنا لا أفهم الكلمات، لذلك... فإنني لا أرى الفارق بينها. الآن، سوف أضع بعض الملصقات للجبهة الوطنية لا أكثر. هناك عددٌ لا بأس به من الوجوه الجديدة، لذلك فإنني سوف اذهب لأتحدّث معهم من حين لآخر.

العلاقة بيني وبين أبي مُكَهرَبة.

❖ هل علاقتك مع والديك أفضل الآن؟

فريديريك: الأمور معقولة في هذه الفترة. وأنا أحاول أن أقوم بجهود بين حينٍ وآخر، وهم أيضاً، لكن نادراً ما نقوم بتلك الجهود في الوقت نفسه. لكن الأمر يعود لفترةٍ طويلةٍ مع أبي. لقد كنتُ في الخامسة من عمري حين رحلتُ لأول مرة من المنزل. كنتُ قد هربتُ، وكنا حينذاك في المغرب. ومنذ عامين، طردني أهلي.

❖ لماذا؟

فريديريك: دون سبب محدد. ربما كنت أنا المخطئ، لأنني كنت أصرخ بمجرّد أن يضايقني أحدٌ ما قليلاً. كانوا يحمّلونني مسؤولية أية مشكلة في المنزل. بعد ذلك، وعلى مائدة الطعام، كانت تعابير وجهي تشي بانزعاجي، فيبدأ أبي بالصراخ. وكانت أمي تبدأ أيضاً بتأنيبي لأنني لم أكن آكل. وصلت الأمور حدّ الانفجار فرحلتُ. يكفي أن تنطلق شرارةٌ جديدة حتى يتكرر الأمر. وخاصّةً مع أبي. مع أمي، الأمور معقولة، اما مع أبي، فهي مكهربَة.

[...]

لكن كل ما أورده هو لأبيّن أنّ مشاكلي مع أبي ليست حديثةً وليس لها أية علاقة بالسياسة أو بالحادث الذي تعرّضتُ له. الأمر أقدم بكثير. أنا لم أتفق معه أبداً.

❖ لكن ألم يكن انتسابك لِ ج. و. ش موجهاً ضدّه بشكلٍ ما، كي تخيفه؟

فريديريك: أنا حقيقةً لا أعلم. على كل حال، فإن الأمر لم يعجبه بالتأكيد. أهلي برجوازيون صغار يميلون للخوف نوعاً ما، لذلك فقد كان من الطبيعي أن يتوقّعوا كل شيء بانتسابي إلى الجبهة الوطنية. لقد ظنّا بأنني

قد أصبحتُ وغداً حقيقياً وقتها، حين كنت أعود من مهمة وضع الملصقات في وقتٍ متأخر جداً.

❖ هل كانت معرفتك بأنّهم يعتقدون ذلك تسرّك؟

فريديريك: لا، لأنّ ذلك لم يكن صحيحاً، ولم أكن أريدهم أن يظنّوا بي ذلك أبداً. لكنهم لم يريدوا أن يفهموا، وكانوا يريدون أن أذهب إلى طبيبٍ نفسي، وألحّوا على هذا الأمر. لكنني لم أفعل. كنتُ سأفعل حقاً لو أنني ... لكنه لا يبدو لي بأنني بحاجةٍ إلى أن يساعدني أحد. أبي لا يعاملني على أنني مجنون أو شخص من ذوي المشاكل، لا، إنه ببساطة يعاملني على أنني أحمق صغير لأنني أثير أعصابه. إنه لا يظن بأنني أحمق أو أي شيءٍ من هذا القبيل. وأنا أجيبه بالمثل.

❖ هل تقول له: أيها الأحمق الصغير؟

فريديريك: نعم.

❖ وما الذي يحصل عندئذ؟

فريديريك: تطير حقيبتي من النافذة وأذهب هكذا، دون مال، دون أيّ شيء. كان ذلك يدوم ثلاثة أيام أعود بعدها بهدوء لآخذ دفتر توفير، ثم أذهب إلى أحد أصدقائي.

❖ يبدو الأمر مسلياً بالنسبة لك وأنت تتحدث عنه بخفّة...

فريديريك: لأنني قد اعتدت عليه، والأمر غير خطير.

❖ ألا تعتقد بأن هناك علاقة واضحة بين مشاكلك مع أهلك وبين انتمائك إلى ج.و.ش؟

فريديريك: بلى، ربما، لكن لا أكثر. وبالعودة إلى أهلي، فهم لم يكونوا يعطونني مالاً. فقمت بعملٍ بفضل ج.و.ش للحصول على المال، وهو الحفاظ على النظام خلال عيد برج إيفل؛ وقد دفعوا لي 900 فرنكاً من أجل عمل أمسيتين فقط.

❖ ماذا تريد أن تصبح في المستقبل؟

فريديريك: أتمنى أن أحصل على البكالوريا من أول مرة، ثم الذهاب إلى مدرسة للهندسة. سأجد دون صعوبة مدرسة لهندسة الطيران.

◆ **هل لديك مشاكل دراسية هذا العام؟**

فريديريك: لا زلت أتغيب عن الكثير من الدروس.

{أعلن لفريديريك بأننا سنتوقف هنا على الأرجح، فيقترح عليَّ أن أجد شخصاً أهم منه في ج.و.ش كي أسأله. وأسأله إن كان يعرف شخصاً شديد الفعالية، شديد الانتماء.}

ربما نكون على طريق بلبلةٍ كبيرة

فريديريك: أعرف شخصاً شديد التعلّق بالحركة لكنه أبله تماماً، ولن ينجز في حياته شيئاً أبداً. لذلك، ربما لا يفيدك في شيء أن تراه. أما الآخرون، فهم جميعاً ينفصلون مثلي. إنّ اتحادنا ينهار ولا أحد يفعل شيئاً، لا أحد يحرّك ساكناً؛ وهذا يبعث على الغثيان نوعاً ما. لقد حصلنا على مقر، لكننا لم نفعل شيئاً داخله. انتظرنا ذلك المقر عاماً ونصف العام وكنا نقول بأنّ حصولنا عليه سيكون أمراً رائعاً، وحين حصلنا عليه، لم نفعل به شيئاً. لقد استحدثنا فيه مشرباً كنا نبيع فيه علبة المشروبات الغازية أو البيرة بخمسة فرنكات، فكانوا يأتون ويسترخون على المقاعد الوثيرة دون أن يفعلوا شيئاً.

◆ **لماذا هذه الرخاوة بعد أن كنتم تبدون في البداية مصممين؟**

فريديريك: من بين ثلاثين شخصاً في الاتحاد، لم يكن هناك سوى عشرة لديهم بطاقات صالحة. لكننا في الواقع لا نرى أبداً المنتسبين الحقيقيين الذين لديهم بطاقة انتساب. إنهم لا يأتون أبداً. نحاول الاتصال بهم، لكن هذا شيءٌ آخر يبعث على الغثيان! فقلنا لأنفسنا بأنه ينبغي أن يكون لدينا مقر نستطيع من خلاله أن نتصل بالأعضاء وأن ننظّم ونبني: طلبنا من عضوين الاتصال بالآخرين، فاتصلوا بثلاثة أشخاص وانتهى الأمر هنا. لم يفعلوا شيئاً بعد ذلك. لقد أصبحوا جميعاً رخوين! ربما نتجه نحو

بلبلةٍ كبيرة. قصة العراق هذه سوف توصلنا إلى النهاية، أنا متأكد من ذلك. إذن، إنّ ما قاله (لوبين) وما فعله بهذا الصدد عسيرٌ على الفهم، لكنه يصبح مفهوماً إذا عرفنا بأنّه قام بذلك لتجنّب الكارثة التي تنتظرنا، هذا ما أظنّه على كلّ حال.

❖ أية بلبلةٍ كبيرة؟

فريديريك: إذا أُعلنت الحرب فإن ذلك سوف يؤدي إلى باقةٍ من الفوضى، ولا نعلم كيف ستُحاك الأمور، وسوف تسود الفوضى في إسرائيل أيضاً، وسوف تحصل انتفاضاتٌ في كلّ مكانٍ، على اليمين، وعلى اليسار، وحتى في فرنسا.

❖ من الذي سوف ينتفض؟

فريديريك: الجاليات المهاجرة، هذا يبدو لي محتمل الحدوث. من غير الممكن حساب مدى انتفاضهم، إلاّ أنّ هناك براهين على هذا الأمر. فمنذ عامين ونصف، تم اكتشاف رشاشاتٍ ومدافع بازوكا ومتفجرات أثناء مداهمة مقهى عربي في نويي. إن كان ذلك ما وجدوه منذ عامين ونصف، فإنهم اليوم أقوى بعشر مرات. وقد وجدوا أيضاً مخططاً لشيءٍ ما. إنهم منظّمون بصورةٍ جيدة جداً. لدينا بعض المخبرين وهم أناس من الجبهة الوطنية يعيشون في التجمعات السكنية. هم بالطبع لا يقولون بأنهم من الجبهة الوطنية، وإلاّ فإنهم سيعاملون بعنف. وإذا أمسكوا يوماً ما بأحد المخبرين، فإنّ الأمور تتفاقم حينذاك. فنعود في اليوم التالي لتسويد الملصقات. نذهب جميعاً. وإذا هوجم أحدٌ من الجبهة، فإننا نردّ، بالتأكيد. إلاّ أنّ الناس لا يتجرأون كثيراً على الهجوم علينا، لأنّ هناك أسطورة أقصى اليمين وما شابه. هذه الأسطورة تخمد كل الناس. الأمر مشابهٌ بالنسبة لي، فإنّه لن يخطر ببالي أن أهاجم مظاهرةً للاتحاد العام للعمال CGT لأنّ لديهم تنظيمٌ لحفظ النظام! أما نحن، فإنّ أسطورة الشريرين وحليقي الرؤوس، ومتعاطي البيرة، والشفرات.. تلعب لصالحنا.

❖ لصالحكم وضدّكم؟

فريديريك: نعم. تلعب لصالحنا في أنها تجنّبنا أن يكون بيننا جرحى. وتلعب ضدنا لأنها تقدّم صورةً سيئة عنا. من البديهي أنّ كل تلك الجاليات التي تسكن في الجيتوات هي جالياتٌ محكومٌ عليها، ولن يكون هناك اندماجٌ ممكن طالما أنّ هناك غيتوات. أنا أعرف اثنين من السود الجيدي الفهم، أحدهما اسمه مامادو، والآخر ستيفان، وهو من الجبهة، بل إنه أصبح سكرتيراً لتنظيم المنطقة. هناك منهم أكثر بكثير مما يمكن للمرء أن يظنّ. ليس فهم الأمر بديهياً. هناك سيدة اسمها ميدفيتنا، وهي سوداء، وهي أيضاً نشيطةٌ جداً في الجبهة. هؤلاء يدركون جيداً بأنّه ينبغي عكس الاندماج. صحيحٌ أنّه ينبغي وضعهم خارجاً، لكن ليس كيفما اتفق، بل لإلغاء كافة الغيتوات. الهجرة تدرّ علينا أكثر من مليار فرنك، لقد قرأت الأرقام، وهي تكلّف أربعة مليارات فرنك على شكل نفقات الضمان الاجتماعي. هناك مهاجرون غير نظاميين كلّ يوم. بالنسبة للمغاربيين الشبان الذين وُلدوا في فرنسا، فإنه ينبغي أن نولّد لديهم الرغبة في العودة إلى بلادهم، فثقافتهم فرنسية وهم يشكّلون مشكلة. كما أنه ينبغي إعادة صياغة قانون الجنسية، فالحصول عليها أسهل مما يجب. حتى أنه لا يتوجب معرفة اللغة. كما أن اللجوء السياسي يمنح بكثرة، بحجة أنّ سلامة الشخص الذي منح له هذا اللجوء مهددة بالخطر. من المؤكّد أن هذه المشكلة هي الأكثر صعوبةً وأهميةً. كما يمكنني أيضاً أن أتحدث عن المواضيع الوهمية أو الأمن، الخ. المشكلة هي أن الجبهة الوطنية حزبٌ غير مؤهّل للحصول على السلطة، برأيي أنهم لن يحصلوا على السلطة، وهذا هو السبب الذي يجعلني أمتنع عن التصويت. لكن حتى إن كنت أشعر بأنّ هذا الحزب لن يحصل على السلطة، إلاّ أنه يعجبني لأنه يتطرّق لهذه المواضيع: وأنا أعتبر بأنه عليّ أن أدافع عنها.

[...]

بالنسبة للسيدا (الإيدز) فسوف يكون لدينا قنابل بشرية ستنشره في كلّ مكان... ينبغي تجميع المصابين بالسيدا لفترةٍ معينة وتوعيتهم بالخطر

الذي يمثلونه. ينبغي ألاّ يقتل المرء الآخرين بهذا المرض إذا أصيب به... على كلّ حال، سوف يكون هناك فراغٌ في هرم الأعمار.. ربما كان هذا الموضوع وهمياً إلاّ أنه ينبغي تكراره باستمرار. الأمر مماثل بالنسبة للمخدرات، إنها مسألة صرامةٍ تجاه هذه المشاكل، والأمر مماثل في مجال الأمن، لكنني لا أظنّ بأنّ (لوبين) الذي لن يحوز أبداً على السلطة قادرٌ على التوصّل لأي شيءٍ على الإطلاق.

❖ هل النزعة العسكرية في الجبهة الوطنية هي ما شدّك إليها؟

فريديريك: لا، لا. لكنني أحبّ كثيراً الأزياء العسكرية، ولديّ متحفٌ عسكريّ، إلا أنني لا أحبّ الجيش. وأنا لا أنوي أن أقوم بالخدمة العسكرية. ربما كان في ذلك كلّه الكثير من التناقض. الجانب العسكري لديّ خاص. لديّ متحفٌ عسكريّ منذ أربع سنوات: فقد بدأت بشراء خوذة ألمانية، ثم خوذاتٍ لجنود من الحرب العالمية الأولى، لديّ عدد منها، كما أنه لديّ عددٌ لا بأس به من القبعات العسكرية. بل إنني قد تمكنت من الحصول على بذلةٍ عسكرية كاملة لعقيدٍ في الدرك. ولديّ أيضاً حربة. لكن قد أمنع من اقتناء الأسلحة.

❖ ألا يمكن أن يكون هناك تقاربٌ بين ميلك لما يتعلق بالأمور العسكرية والزي العسكري وبين الجاذبية التي مارستها عليك الجبهة الوطنية؟ يبدو انتماؤك لها نوعاً من الولع، بل لنقل نوعاً من الغريزة المخففة.

فريديريك: نعم، أنا لستُ دوماً على وفاقٍ مع الجبهة، وأحبّ أن أعارض. بل إنني أحياناً أعارض شخصاً من الجبهة لمجرد المتعة. وهذا يحصل أيضاً لأنهم في كثيرٍ من الأحيان بلهاء. وهذا الأمر لن يتغير، وهذا يؤدي في النهاية إلى أن يشعر المرء بالقرف. لكن حين أحاول أن أتحدث عن الأمر، فلا أحد يدرك بأنه ينبغي التحرك.

ينبغي أن أحصل على البكالوريا، وسنرى بعد ذلك

❖ ألا تتعرضون أبداً لمشاكل أثناء وضعكم للملصقات؟

فريديريك، لا، فنحن في كثيرٍ من الأحيان نضع الملصقات يوم **الجمعة،** في الرابعة صباحاً، حين يكون الناس نياماً، بل إنه يمكننا الذهاب إلى المناطق العمالية. حتى أنّه في إحدى المرات توقّف أحد الأشخاص وقدّم لنا خمسمائة فرنك وهو يهنئنا. لقد وضعنا المبلغ في صندوق الجبهة الوطنية. عدا ذلك، فإنّه يتم سؤالنا أحياناً عن بُعد، ويصرخون من مسافة بعيدة لينعتونا بالمثليين جنسياً، ثم تقلع السيارة التي يستقلونها على الفور، ويتركوننا ننهي وضع الملصقات بأمان. لكن وضع الملصقات ليس كلّ شيءٍ في الحياة. ينبغي أن أحصل على البكالوريا، وسنرى بعد ذلك.

1991

جان بيير فاغر

زوجة ومشاركة

تعمل هيلين د. مونتيرة أفلام لصالح التلفزيون والسينما (لقد حالفها الحظ بأن عملت مع مخرجين مهمين من الموجة الجديدة حين كانت مبتدئة) وكثيراً ما مارست مهنتها مع زوجها الذي يعمل كمخرج سينمائي، وقد أدى رحيله بعد أكثر من عشرين عاماً من الحياة المشتركة إلى زرع الاضطراب في حياتها العاطفية وحياتها المهنية في آنٍ معاً.

تبلغ هيلين حوالي الخمسين من عمرها، وهي تعيش في شقة تقع ضمن عمارةٍ تحيط بها حديقة كبيرة في الضاحية الباريسية الغربية، وقد أصبحت هذه الشقة كبيرةً عليها بعد أن أصبحت تعيش فيها بمفردها مع أصغر بناتها، كما لم يتغير فيها شيء منذ أن رحل زوجها (وهو يأتي، كما تقول، بين حينٍ وآخر، بعد أن يتصل بالهاتف ليتأكد من أنه لن يصادفها، وذلك ليأخذ أسطواناتٍ وكتباً من مكتبة الصالون، كما لو أنّ غيابه ليس إلاّ مؤقتاً). وقد وضّحت خلال اللقاء الذي جرى بعد أكثر من عامٍ ونصف على انفصالهما بأنها لم تبدأ أية إجراءاتٍ للطلاق حتى ذلك الحين.

لقد تمكنتُ من مقابلة هيلين د. بواسطة إحدى زميلاتها من معهد الدراسات السينمائية العليا الذي انتسبت إليه في نهاية الخمسينات، في وقتٍ كانت النساء تشكل أقلية في المهن السينمائية المؤهلة. وعلى الرغم من أنه قد تم قبول النساء في دفعتها بأعداد تتجاوز أعداد الرجال، فقد كنّ

يعلمن بأنّ حظوظهن في الترقية لن تكون مماثلة لحظوظهم. في تلك الفترة التي اتسع فيها انتشار التلفزيون، كان الطلب على «تقنيي السينما» كبيراً، ووجدت معظم النساء اللواتي تخرّجن من معهد السينما أنفسهنّ يعملن في وظائف تقنية أكثر أماناً، لكن رواتبها أدنى من رواتب وظائف الإخراج التي احتلها معظم زملائهن من الرجال. فعلى سبيل المثال، إنّه لأمرٌ ذو دلالة أن تكون صديقة هيلين تلك هي المرأة الوحيدة من دفعتها التي نجحت في أن تصبح مخرجة بعد أن كانت مونتيرةً هي أيضاً خلال المرحلة الأولى من حياتها المهنية، علماً بأنّ وظيفتها كمخرجة لا تزال هشة. وطيلة المحادثة، ستبقى تلك الصديقة بالنسبة لهيلين «المرجع» الإيجابي والسلبي في آنٍ معاً، ويرتسم عبرها حقل الممكن بالنسبة لجيلها.

لم يكن هناك شيء يحضّرها لاختيار مهنةٍ تقدّمها كنتاجٍ «لمصادفات» إعادة التوجه الدراسي. وقررت في التاسعة عشرة من عمرها، وكانت حينذاك في السنة الأولى من المعهد الكاثوليكي، أن تتخلى عن دراسة الآداب التي لم تكن تشدها كثيراً للتحضير لدخول معهد الدراسات السينمائية العليا بعد أن سمعت عنه بالمصادفة. في البداية، شجع أهلها ذلك التغير في توجهها حيث لم يريا فيه أساساً سوى جانب مسابقة المدارس العليا، والصفوف التحضيرية في ثانوية، بعيداً عن متطلبات الحياة الطلابية الجامعية، والدبلوم المعترف به، الخ.، ومسحوا الجانب الفني.

هيلين هي الابنة الوحيدة لعائلةٍ برجوازية صغيرة كاثوليكية، وكان والدها مهندساً، أما والدتها فلم تعمل أبداً. وقد درست هيلين في ثانويةٍ للبنات في مدينة صغيرة من الضاحية الباريسية كانت لاتزال ريفيةً جداً في الخمسينات. وقد عاشت هيلين في بيت والديها حتى الخامسة والعشرين من عمرها، حين اشترى لها أهلها استوديو في باريس، بعد أن انتابتهم الخشية من كونها لم تُظهر حتى ذلك الحين أية رغبة في الزواج. تزوجت في الثلاثين من عمرها، وكان ذلك الزواج متأخراً نسبياً في ذلك الحين، ويفسر ذلك التأخر كون دراساتها السينمائية التي بدأتها «بالمصادفة نوعاً ما» ودون

أن يكون لديها «رغبةً جارفة في ممارسة تلك المهنة» قد قذفتها نوعاً ما إلى داخل محيطٍ لم تكن تعرفه جيداً، حالات الزواج فيه غير مستقرة، مما جعل التواصل مع الرجال صعباً في البداية، وذلك حتى على صعيد العمل.

وهكذا، تفسر هيلين بشكلٍ مطوّل في الجزء الأول من المقابلة كيف أن الإخلاص، وبالأحرى التفاني الذي برهنت عليه في حياتها الزوجية (إن ما دعم ارتباطها بزوجها لم يكن زواجها بالرجل وحسب بل أيضاً اقترانها «بمشروع الرجل»، في حين أنها لم تكن تشعر شخصياً بالرغبة في الإبداع بنفسها) ليس سوى الوجه الآخر لما يمكن أن نطلق عليه السلوك «المضحّي» الذي كانت تسلكه مع الرجال في محيط عملها: فما بدا وكأنه تغيير ثانوي في التوجه الدراسي، والذي كان في واقع الأمر تغيراً في المحيط الاجتماعي (إذ أنّ المعهد هو وسطٌ ثقافي) قد قادها إلى الالتقاء برجالٍ مختلفين عن الرجال في محيطها، «كائنات عليا» قادرة على الخلق، تدين لهم بتأهيلها السياسي والثقافي، في تلك الفترة المميزة لحرب الجزائر («في البيت، لم نكن نتحدث في السياسة إطلاقاً»)، وذلك على الرغم من أنها تعترف، بعد أن بلغت الخمسين من عمرها، بأنّها قد «فقدت كثيراً من أوهامها منذئذ». وشيئاً فشيئاً، فإنّ ما سلبه إياها اختيارها للمهنة، وقبل كل شيء الثقة بالذات في علاقاتها مع الرجال، قد أعادته لها المهنة كلما انخرطت بصورةٍ أفضل في محيطها المهني. وبعد تدريبٍ طويل هدف إلى إحداث إصلاحاتٍ غير ملموسة في علاقاتها مع الرجال، أتاح لها الزواج في النهاية أن تحقق بصورةٍ شبه سحرية رغبتها في إنجازٍ مهني وشخصي في آنٍ معاً مع شخصٍ أصغر منها بشكلٍ ملموس. «عوضاً عن أن أصبح معجبةً بهؤلاء الشبان وأن أجعل منهم أمثلةً، فقد تمكنت أخيراً من أن أقيم صلات مع من يصغرونني سناً، أي مع شبانٍ كان يمكن أن أمثّل بالنسبة لهم شيئاً مهنياً موجوداً. لم أعد بالنسبة لهم فتاةً ساذجة بل كنت شخصاً يعرف مهنته جيداً يمكن لهم أن يقيموا معه علاقةً مهنية قيّمة، أي أنه يمكن لعلاقتهم به أن تتطور.»

يشرح الجزء الثاني من اللقاء تبدل نظرتها إلى الرجل الذي عملت

وعاشت معه لأكثر من عشرين عاماً. إنّ ما شدّها قبل كل شيء إلى ذلك المخرج المبتدئ الذي لم يكن يبلغ حينها سوى اثنين وعشرين عاماً، والذي كان منذئذٍ يتمتع بسمعةٍ طيبة في المهنة، ما شدّها هو بالتحديد «سلوكه كمبدع» الذي كان يمكن له أن يضفي معنى أكثر إرضاءً وشيئاً من الملاءة لحياتها كتقنية، الخالية من «الطموح النوعي». ويبدو بأن تعاونها مع زوجها كان دون أي خلل لفترة تجاوزت خمسة عشر عاماً: فقد كانت في ذات الوقت تقنيةً ونجيّةً له، ولم تقم بمونتاج أفلامه الأولى وحسب، مما لم يكن يمثل إلا جزءاً صغيراً من نشاطها، لكنها قامت كذلك بالدور الذي ربما يكون أكثر حسماً، وهو التشجيع والمؤازرة المعنوية اللذين يريد «المبدع» تلقيهما من شريكته دون أن يتجرأ أبداً على طلبهما بصراحة. لكنها، مع مرور الزمن، أصبحت أقل «إعجاباً» بزوجٍ لم تقدّم مسيرته المهنية ما كانا كلاهما يأملان منها. وشيئاً فشيئاً، ابتعدت عن مشاريع زوجها، مع استمرار اهتمامها بأفلامه، وأخذت تلومه على «الانقياد للسهولة»؛ ودون أن يشعر أحدٌ بذلك، افترق أصدقاؤهما الذين كانوا مشتركين في البداية؛ واضطرت هيلين إلى أن تستعيد زمام مسار مهنتها التي أصبحت أكثر صعوبة، ليس بسبب ازدياد المنافسة وحسب، بل لأنها أهملتها قليلاً خلال السنوات التي اضطرت لتكريسها بشكلٍ أساسي لتربية ابنتيهما. من جهةٍ أخرى، فإنّ معرفتها «التقنية» بأوساط السينما قد قدّمت لزوجها إضاءةً سلبيّة لا تحتمل على مسيرةٍ مهنية لم يكن بإمكانها إلاّ أن ترى حدودها. وككثيرٍ من المخرجين من جيله، عرف مرحلةً صعبة في حوالي الأربعين من عمره، ودفع غالياً ثمن رفضه «للتسويات» مع السينما التجارية، حيث عرف فتراتٍ طويلة من التشتت في حياته المهنية قام خلالها بمشاريع قليلة الأهمية، بل إنه عرف البطالة أيضاً، ولم يعد لديه القدرة ذاتها التي كانت لديه في البدايات على احتمال ضرورة أن يثبت ذاته في كلّ مرة (كان يقول: «لقد سئمت من تقديم البكالوريا في كل مرة أخرج فيها فيلماً»). وعلى الرغم من أنها لا تشاطر أهلها وجهة نظرهم حين يقولون بأن الأمر كان سيكون أفضل لو أنها تزوجت «موظفاً» ولو أنها اختارت «حياةً عاديةً أكثر لكن أكثر رسوخاً»، فإنها أخذت تفكر مثلهم نوعاً ما: «حين يجري المرء التقييم

النهائي بعد خمسة وعشرين عاماً، فإنه لا يكون إيجابياً بالضرورة»، وذلك بعد أن انفصلت عن رجلٍ أصبح مختلفاً منذ كفّ عن العيش معها («لقد تغير (...)، وليس لديه كثير من العلاقات مع ابنتيه ولا مع أصدقائه القدامى»).

في البداية، استطاع حبهما المشترك للسينما أن يسهّل التواطؤ العاطفي والتعاون المهني بين هذين الطالبين القديمين، بفاصل بضعة سنوات عن جان لوي بوري Jean-Louis Bory وهنري آجيل Henri Agel. وهكذا، كانت هيلين تتمتع بنظر زوجها بخبرةٍ مهنية متينة أصلاً، تأكدت بفضل مشاركتها في مونتاج أفلامٍ تعتبر اليوم من أهم أفلام الستينات. لكن، إذا كانت السينما قد استطاعت أن توحد بينهما في البداية على الرغم من الفوارق في أصولهما الاجتماعية (فوالده كادرٌ تجاري) والفارق في العمر بينهما (حيث يصغرها بست سنوات)، فإنّ المصالح المتناقضة للمسار المهنيّ الخاصّ بكلٍ منهما يمكن أن تبدو مع الزمن كأحد العوامل الأساسية في انفصالهما.

وبالفعل، فإنّ منطق العمل يظهر في مركز نظرتها إلى ماضي حياتها؛ إذ أنَّ اختيارها للمهنة هو الذي أخّر كما يبدو زواجها ومشاريعها في الأمومة (حتى لو لم يكن ذلك سوى بتحويل أنظارها عن الرجال الذين كانت تربيتها ترشحهم لها بتأثير وسطها العائلي)، كما أنه ربطها بزوجها بصورةٍ مضاعفة كزوجة ومشارِكة، حيث أدى عملها كتقنيةٍ إلى تعزيز المظهر المتواري والخجول للزوجة الفعالة التي تدبرت أمورها على الدوام بحيث استطاعت الجمع بين القيام بمهنتها وبين إدارتها لشؤون البيت، وذلك رغم أوقات العمل التي لا تتوافق مع حياةٍ عائلية منتظمة. ونرى هنا كل ما يشكّل الفارق مع الآخرين كالأزواج المعلمين مثلاً، حيث تجعل مصاعب المهنة من إجراء توزيعٍ أكثر عدلاً للالتزامات المنزلية بين الزوجين موضوعاً أكثر سهولة، ولو لم يكن ذلك سوى بفعل إمكانية القيام بجزءٍ من الأعباء المهنية في البيت. ومن وجهة النظر هذه، فإن مسار هيلين المهني يتقارب بالأحرى مع أولئك النساء المهندسات أو الأطر في القطاع الخاص اللواتي كثيراً ما يكنّ عازبات، واللواتي انطلقن بعد جيلٍ كامل لاقتحام أوساط مهنية يهيمن عليها الرجال.

عبر ذلك المسار النموذجي للنزاعات المهنية والعاطفية التي تصادفها النساء ممن لم يعرفن الحركة النسوية إلاّ بعد أن أصبحن راشدات، فإننا نرى كم تفصل الظروف التاريخية التي تحدد تجربة جيلٍ ما الأشخاصَ الذين تتفاوت أعمارهم على الرغم من كافة أشكال التضامن العائلي، لا بل الطبقي أو الجنسي.

ولدت هيلين قبل الحرب بقليل، وهي تنتمي إلى جيلٍ مخضرم بين الجيل الذي سبق التوسع التعليمي وجيل 68 (كان لديها حوالي عشر سنوات من الخبرة المهنية في عام 1968). وهي تنتمي إلى أولئك النساء اللواتي خضعن في حياتهن الخاصة إلى التأثيرات الملتبسة للتدريب على «الاستقلالية» التي يمكن أن يوفرها الانخراط في مهنةٍ تتطلب تأهيلاً. وبالنسبة للنساء اللواتي بنفس عمرها والمنتميات لوسطها الاجتماعي، وهو وسطٌ يتميّز بتأثير القيم العائلية الكاثوليكية، حيث من البديهي مثلاً أن تبقى النساء في البيت، فإنّ «كسب العيش» لم يكن يقدّم ضمانةً «لمفاوضةٍ» أكثر مساواةً مع الرجال، بل على العكس تماماً. لقد اضطر ذلك الجيل، رغم أنه لم يسبق الحركة النسوية إلاّ بسنواتٍ معدودة، إلى مجابهة النزاعات ذاتها، لكن من وجهة نظر ما تدعوه هيلين بـ «التربية الكلاسيكية»، وهو جانبٌ «ساذج» وتصوّرٌ تقليديٌ للزواج ينبغي فيه على أحد الطرفين، ولا يمكن أن يكون سوى الزوجة، أن يعرف كيف «يظلّ متواضعاً بصورةٍ كافية» لكي يكون التعاون الزوجي متناغماً.

والمفارقة أن الاستقلال المهني الذي استطاعت هيلين أن تكتسبه بدراستها قد انقلب عليها بطريقةٍ ما، وسمح مثلاً لزوجها بأن يتركها دون أن يشعر بالذنب، وحتى دون أن يشعر بأنه مجبر على تقديم عونٍ ماليّ لابنتيهما اللتين لا تزالان تدرسان. ولا يبقى لديها سوى الشعور بالرضى، رغم كونه ممزوجاً بالمرارة، لأنها فهمت أخيراً ما حدث لها، وهو رضى يمكن أن يساعد على تغيير مصيرٍ لا يُحتمل ظاهرياً إلى حريةٍ جديدة، غير متوقعة.

مع مونتيرة أفلام

أجرى اللقاء جان بيير فاغر

«لقد اخطأت تماماً حين تخيلت انني

اقترن بمشروع رجل»

هيلين: (...) لم تكن لديّ رغبةٌ جارفة بأن أقوم بهذه المهنة. كنت قد أنهيت السنة الجامعية الأولى وفجأةً غيرت اتجاهي تماماً خلال ذلك العام، وذلك بسبب نزوة، وأنا في النهاية مسرورة جداً لذلك. الأمر هو نوعاً ما عبارةٌ عن سلسلة من المصادفات. لقد حدّثني أحدهم عن معهد الدراسات السينمائية العليا IDHEC وعن تلك المهنة، وقد أُخذت بالأمر وقلت لنفسي: «لمَ لا» دون أن أعرف حقاً ماهيتها ودون أن أعرف السينما حقاً (...). لقد حضّرت لفولتير(*). تم قبول العديد من الفتيات في دفعتي لأنه كان معروفاً بأن التلفزيون سوف يقدم فرص عمل في تلك السنوات، التي شهدت الإقلاع الكبير للهيئة الفرنسية للإذاعة والتلفزيون ORTF. كان من المعروف بأن التلفزيون سوف يستخدم الخريجين بصورة منهجية. وبالفعل، كان ذلك صحيحاً: فنصف جيلي، بل أكثر من النصف ربما، قد عملوا لصالح التلفزيون، رغم أنهم لم يعملوا جميعاً بموجب عقود عمل (...). من بين عشرين شخصاً تم توظيفهم، كنا اثنتي عشرة فتاة (...)، إلاّ أنه لم يكن

(*) هي ثانوية تدعى باسم فولتير وتحضّر الطلاب لامتحانات القبول.

هناك وظائف في الإخراج للفتيات، لم يكن هناك لهن سوى وظائف تقنية (...)؛ من بيننا نحن الاثنتي عشرة، كان هناك اثنتان أو ثلاثاً يرغبن في الإخراج، وقلن لأنفسهن بأنهن سوف يبدأن بالمونتاج وسيقمن بالإخراج فيما بعد، ولم تتمكن سوى واحدة منهن من ممارسة الإخراج فيما بعد. لم تفتح الوظائف أمام الفتيات إلاّ في عام 68. على كل حال، فإننا لم نكن نتخيل أنفسنا إلاّ كتقنيات وكنا نعرف بأننا سوف ندخل إلى التلفزيون. لقد تم اختيارنا لأجل ذلك على نحوٍ ما (...). وللدخول إلى المهنة في تلك الفترة، كان هناك نوعٌ من الرفض لمن أتموا ذلك التأهيل، فكان يقال «لقد تخرجوا من معهد الدراسات السينمائية العليا، إنهم مدّعون، مثقفون، سوف يضايقوننا» (...). إلاّ أننا كنا محظوظين، كما هي حالتي أنا، فقد تدربنا في أفلام هامة (...).

❖ ماذا كانت أحلامك حين كنت في الثانوية؟

هيلين: أنا كنت في ثانوية للبنات في مدينة صغيرة، لنقل أنها كانت في ضاحيةٍ بعيدة، وكنت أفكر في أن أصبح مساعدةً اجتماعية، أي أن ما كنت أطمح إليه كان مختلفاً تماماً عما صرت إليه (...). من بين الفتيات اللواتي كنّ معي في المعهد، كان هناك البعض ممن كانت لديهن مواهب أهم بكثيرٍ مني، أكثر رسوخاً بكثير، أكثر وضوحاً بكثير (...). أما أنا فكنت جاهلةً تماماً. إن رجالاً مثل هنري آجِل وجان لوي بوري هم الذين فتحوا لي ذهني وعلموني أن أعرف السينما وأن أحبها. صحيحٌ بأن صفاً مثل فولتير وعامين دراسيين سمحت لنا بأن يتكون لدينا ثقافة سينمائية نوعاً ما، إلاّ أنّها قدمت لنا بصورةٍ خاصة فيروس السينما (...). حين تخرجت من المعهد، حصلت مرتين أو ثلاث مرات على عروض للعمل في التلفزيون كمونتيرة بعقدٍ سنوي، وقد رفضت مرتين، على الرغم من أنه قد تم اختيارنا في الواقع بأعدادٍ كبيرة بهذا الهدف؛ لكنني رفضت لأنه تصادف أن المهنة كانت تسير في القسم الأول من الستينات بصورةٍ حسنة، ولم نكن كثيرات نسبياً، وقد عملنا كثيراً، وكان العمل يجر العمل، وقد انخرطنا في السينما

على عكس ما كان يراد لنا، ورافقنا حركة الموجة الجديدة، ولم يكن لدينا الرغبة في العمل لصالح التلفزيون.

كان الرجل يمثّل كائناً متفوقاً،
وقد غيّرت رأيي قليلاً منذ ذلك الحين

❖ ما هو الفارق بين الصف التحضيري والمعهد السينمائي IDHEC والثانوية من حيث العلاقة بين الفتيان والفتيات؟

هيلين: بالنسبة للصف التحضيري، يمكنني أن أقول لك بأنني درسته بصفته استمراراً مباشراً للمرحلة الثانوية، دون أي انفتاحٍ للذهن. كان هناك فتيان، لكنني لم أكن أراهم، فقد كنت في الأخوية الكاثوليكية حيث كانت الأمور أكثر جدية {ضحك} بالنسبة لأمي التي كانت قلقةً نوعاً ما بالنسبة لمستقبلي (...). كنت شديدة السذاجة بالمقارنة مع الفتيات اللواتي يبلغن الثامنة عشرة من عمرهن اليوم. كنت أسكن في الضاحية البعيدة، وكنت أعود إلى البيت في المساء، مما تسبب لي ببعض المشاكل فيما بعد؛ حين كنت أريد مثلاً الذهاب إلى السينما مساءً، كان الأمر معقداً. وفي المكتبة السينمائية، كنت أخرج قبل أن تنتهي معظم الأفلام كيلا يفوتني آخر قطار. وبالفعل، فقد بدأت أرى الفتيان في التاسعة عشرة من عمري في فولتير وفي المعهد السينمائي، لكنني لم أكن أقيم كثيراً من العلاقات معهم بحكم تربيتي الشديدة الصرامة (...). المهم بالنسبة لي هو أنّ الفتيان كانوا يتكلمون عن السياسة اعتباراً من عمر التاسعة عشرة. كان ذلك عام 56، كانت فترة بودابست. كان الشيوعيون جميعاً يناصرون الانقلاب. هذا الأمر هو الذي فتح ذهني، فلم يكن لديّ أيّ تأهيلٍ سياسي. في بيتنا، لم يكن أحد يتحدث في السياسة أبداً، وفي تلك الفترة تعلمت، كانت فترة الحرب في الجزائر، وكنا نذهب إلى المظاهرات (...). أنا كنت أتعلم الأشياء. كنت أستمع ثم أختار الجهة التي أنحاز إليها وفقاً لذلك (...). كانوا جميعاً شيوعيين أو مناصرين لهم، كانوا كلهم من اليسار، كانوا جميعاً ضد حرب الجزائر. كان هناك على الدوام مظاهرات، وكنت أتبع بكل إخلاص، بكل

إيمان، معتقدةً بأنّ ذلك ما ينبغي عمله فعلاً، أنّ تلك كانت الحقيقة، كانت مشاعرنا جميعاً مخلصةً جداً، وفي عام 58 انتخبنا جميعنا ضد مجيء ديغول، ضد رجل واحد.

◆ هل كان بعض زملائك يعيشون معاً كأزواج منذ ذلك الحين؟

هيلين: بلى، طبعاً، كان البعض يعيشون معاً كأزواج، وكان هناك غراميات صغيرة، وكل ما يريد المرء (...)، أما أنا، فلم أعش مثل تلك الأمور لأنني في التاسعة عشرة كنت محاصرةً تماماً، لم أكن أعرف كثيراً من الأمور، ولم أبدأ بأن أعيش حياةً طبيعية إلا بعد أن أنهيت دراستي في المعهد السينمائي. لقد كنت مأسورةً تماماً بسبب تربيتي. وقد استغرق فكاكي من الأسر فترةً طويلة نوعاً ما. ولو لم أجد نفسي في وسط كوسط المعهد السينمائي، وهو وسط مثقف، لا أدري، ربما كنت سأصبح موظفة، ولكان تطوري أبطأ بكثير.

◆ كيف كنت تنظرين إلى الفتيان في تلك الفترة؟

هيلين: أنا كنت مغرمةً بأحدهم أو بآخر بصورةٍ متفاوتة، كنت معجبةً.

◆ ما الذي كان يدفعك للإعجاب بهم؟

هيلين: لم يكن هناك ما يدفع إلى الإعجاب بهم سوى أنهم يريدون أن يصبحوا مخرجين. أنا شخصياً لم أكن أريد أن أصبح مخرجة. وبالفعل، فقد اكتفيت طيلة حياتي بما حصلت عليه؛ كان ذلك يكفيني تماماً، إنه كافٍ تماماً. علاوةً على ذلك، لم يكن لدي رغبةٌ في الإبداع، لم يكن لديّ طموح، وبالنسبة لي، فإنّ كلّ أولئك الفتيان الذين سيصبحون مخرجين كان فيهم شيء يشبه المعجزة. كان هناك بيننا موسيقيون أيضاً. كنت مذهولةً تماماً من قدرتهم على الخلق، وكان الرجال يبهرونني، لذلك فقد كنت أجد صعوبةً كبيرة في الاقتراب منهم. بالنسبة لي، كان الرجل كائناً متفوقاً، وقد غيرت رأيي قليلاً منذ ذلك الحين {ضحك}، لقد كنا رومانسيين وأغبياء نوعاً ما.

لقد تخلّى مستقبلي المهني عن نفسه بنفسه

❖ هل تعتقدين بأنّ المرء يحوز في مهنتك على أفضلية في ما لو كان زوجه من المهنة ذاتها؟

هيلين: برأيي نعم، إلا أنه قد تحصل أحياناً مشاكل بين الزوجين.

❖ هل هناك أمثلة من حولك على ما تقولينه؟

هيلين: نعم، أعرف أزواجاً لديهم مشاكل، حيث كلا الزوجين مخرج، وفي بعض الأحيان تسير الأمور بصورة سيئة.

❖ برأيك، ما هي الشروط الضرورية لكي تسير الأمور بصورة حسنة؟

هيلين: ينبغي أن يكون أحد الزوجين متواضعاً بما يكفي، وألاّ يكون لديه طموحات شخصية. أعتقد بأنّه إذا كان لدى الزوجين طموحات شخصية، فإنّ الأمر يصبح صعباً.

❖ ألاّ يمكن أن يكون لكلٍّ دوره؟ هل هذا غير ممكن؟

هيلين: لابدّ أنّ مثل هذا موجود، ربما، لست أدري، لكن ليس بكثرة. أنا أعرف العديد من الأزواج الذين يعملون في هذه المهنة والذين انفصلوا، معظمهم انفصلوا (...). هذا هو ما كان يقلق أهلي كثيراً: فقد كانوا يرون تماماً بأنّ كافة الأزواج من هذه المهنة غير مستقرين، وقد أقلقهم ذلك كثيراً. أما أنا، فقد قدّرت بأنني واثقة من نفسي وبأنه كان يمكنني أن أفعل شيئاً على المدى البعيد. كنت أظن، ولا أزال، بأنني قادرة على أن أفعل ذلك. أنا لست هشةً جداً، إلاّ أنني أظنّ بأنّ معظم الناس لا يستطيعون بسهولة، في هذه المهنة، أن يتبنّوا مشاريع مشتركة على مدى فترة طويلة.

❖ هل كان تأثير الحركة النسوية كبيراً في محيطك المهني؟

هيلين: في البداية، عملت في مشاريع نسوية، إلاّ أنها كانت مرتبطة بشكلٍ وثيق بمشاريع تلك الحقبة؛ بالنسبة لي شخصياً، فإنني أظنّ بأنني عشت حياةً مستقلة نسبياً، مستقلةً جداً على صعيد مستقبلي المهني، أي

على صعيد مهنتي وعلى صعيد المال. إلاّ أنني لا أصف ذاتي كمناضلة نسوية. على أية حال، فإنني لم أكن نسويةً إلاّ بشكل نسبي.

◆ على أيّ صعيد؟

هيلين: بالنسبة لي، النسوية تعني بصورةٍ خاصة أن يكون المرء مستقلاً على الصعيدين المهني والمادي، إلاّ أنّ هذا لا يعني شيئاً على صعيد العلاقات مع رجلٍ ما؛ في ما يتعلق بي، فقد فكرت على الدوام بالرجال على مستوى المساواة وليس على مستوى المنافسة. صحيحٌ أنني لو رغبت أن أصبح مخرجةً، لو أنني امتلكت تلك الرغبة على الدوام، فإنني لا أرى لمَ لم أكن ساحاول أن أصبح مخرجة؛ لقد اخترت أن أكون مونتيرة لأنه لم تكن لديّ الرغبة في أن أعمل في الإخراج.

◆ لقد قلتِ بأنه ينبغي أن يكون أحد الزوجين أكثر تواضعاً من الآخر. هل تعرفين حالاتٍ يكون فيها الزوج هو ذلك الطرف؟

هيلين: بلى، أعرف (...) حيث يكون الرجل بالذات هو الطرف الأكثر تواضعاً. إنني افكّر الآن بعدة أزواجٍ من الأصدقاء (...). ربما كان ما أقوله الآن تبسيطياً، وكثير من الناس سوف يسخرون منه، لكنني رُبّيت بحيث أخضع لرغبة وإبداع الآخر، وذلك الآخر هو الرجل؛ ربما اختلفت ردة فعلي في ما لو أنه كانت لدي تلك الرغبة، لكن بما أنه لم تكن لديّ تلك الرغبة في الإبداع الشخصي، فإنه لم تكن لديّ سوى رغبةٍ وحيدة، هي أن أساعد الآخر للوصول إليه.

◆ في الواقع، كان الآخرون ينظرون إليكما كزوجين مستقرين في وسطٍ يفتقد معظم الأزواج فيه إلى ذلك الاستقرار، أليس كذلك؟

هيلين: بالضبط. لقد كان الناس ينظرون إلينا بطريقةٍ دفعت كثيرين لأن يقولوا لي: «كنا نتخيّل بأنكما سوف تظلاّن معاً على الدوام، وأنّ ارتباطكما كان وثيقاً»، وكان ذلك خاطئاً (...).

◆ ألم تكن المهنة تفصل بينكما؟

هيلين: لا، لقد كان يذهب إلى الأرياف وإلى الخارج بشكلٍ متزايد؛ لم

تكن المهنة تفصل بيننا. كنت أحاول، رغم مهنتي التي هي مهنة مضنية نوعاً ما، أن أصل إلى البيت قبل الثامنة مساءً من أجل الأولاد (...)؛ لقد أثّر ذلك عليّ على صعيد المهنة، فلم أتمكن من أن أقوم بما أريده تماماً، وتخلّيت عن فكرة أن يكون لديّ مستقبل مهني. لقد تخلّى مستقبلي عن نفسه بنفسه لأنني، وبشكلٍ متزايد، كنت أقوم بأعمال هامشية (...). وشيئاً فشيئاً تدهورت أموري قليلاً؛ لم يكن الأمر بسبب الأطفال وحسب، بل هي الظروف التي أبعدتني عن السينما التجارية.

❖ هل كان لديك تصور معيّن عمّا تريدين فعله؟

هيلين: نعم، كان لديّ توجه يقضي ألاّ أقوم بأيّ عملٍ كان وبأن أرفض القيام بأعمال صغيرة لا قيمة لها.

❖ هل كنتما تتحدثان في ما بينكما عن الخيارات المهنية؟

هيلين: نعم، كثيراً ما كنا نتحدث عنها. ففي عام 74 مثلاً، كنت أعمل مع منتجة من التلفزيون، وكانت الأمور بالغة السوء بيني وبينها، ولم يكن لديّ سوى رغبةٌ واحدة، هي أن أرمي بكلّ شيء، فقد كان العمل معها لا يحتمل أبداً (...). وبما أنه كان لدينا في الواقع مشاكل مالية، فقد قال لي: «حين يبدأ المرء عملاً ما، فإنّ عليه أن يصل به حتى النهاية»، وفي آخر الأمر، قلت لنفسي أنا أيضاً بأنه ينبغي على المرء أن يصل بما بدأه إلى نهايته، فأجبرت نفسي على إنهاء العمل، وأفقدني ذلك عاماً كاملاً، وقد قلنا معاً فيما بعد، «لقد أخطأنا، وكان من الأفضل أن أتخلى عن كل شيء».

لقد تغيرت شخصيته

(...) كان لدينا أصدقاء مشتركون منذ أكثر من عشرين عاماً وكانوا أحياناً في الأصل أصدقائي أنا أو أصدقاءه هو (...)، لكن شيئاً فشيئاً، عرفنا غيرهم (...) ثم حصل شيء مختلف: ففي السنوات الأخيرة، أصبح لديه أصدقاء شخصيون له، كانوا «أصدقاءه هو»، لنقل بأنّنا قد بدأنا نختلف في علاقاتنا. لقد افترقنا قليلاً على هذا الصعيد. وبدأت أعود

للعمل في الأفلام الروائية الطويلة، عملت مع أشخاص لا يعرفهم كثيراً، كما أنه هو قد قام ببعض الأعمال للتلفزيون، والفيديو، بينما لم أكن أنا أعمل في هذا المجال. لم أكن في ذلك الوقت أعرف تقنيات الفيديو. وبما أنه كان لديه بالإضافة إلى السينما اهتمامات مهنية أخرى، واهتمامات ثقافية أخرى، فقد أصبح لديه كثير من الصداقات الموازية، وقد أصبحوا أصدقاء مشتركين نوعاً ما؛ لقد وافقت بصفتي زوجته، لكن أصدقاءه الأخيرين كانوا أصدقاءه أكثر مما كانوا أصدقائي. وأنا ألاحظ أنني لم أعد أراهم، في حين أنني أستمر في لقاء الأصدقاء المشتركين، أما هو، فلم يعد يراهم.

◆ هل غيّر حياته؟

هيلين: لقد تغير كشخص، وحصل نوع من الانكسار، من القطيعة. وفي الواقع، فإنني أرى بأنه لم يعد لديه كثير من العلاقات لا مع أبنائه ولا مع أصدقائه القدامى.

◆ هل تغير شكله أيضاً؟

هيلين: نعم، لقد تغير شكله، إلاّ أنّ التغير الأساسي هو تغيرٌ في الشخصية حصل برأيي بشكلٍ خفيّ خلال السنوات العشر الأخيرة (...). لقد أدركت الأشياء منذ عشر سنوات؛ ومنذ عام 85 حصلت انكسارات وجرت أمورٌ كنت أعرفها وكنت أعلم بوجودها، ثم انطلقنا من جديد، ثم أصبحت أقل حرصاً بسبب الحياة، وأبوي اللذين توفيا، وكثير من الأشياء التي تجري، كما أنني اهتممت بالأولاد أكثر مما فعلت في السابق، وبأهلي، وخفّ اهتمامي به عن السابق، وهكذا. كما أنني بدأت أهتم بمهنتي أكثر من السابق بكثير لأنني بدأت أعمل بالأفلام الروائية الطويلة، وقد عملت كثيراً خلال الأعوام الماضية.

لم تعد المهنة تربطنا

(...) ثم إنّ هناك بالفعل واقع أنّ المهنة لم تعد تربطنا منذ حوالى عشر سنوات؛ فقد عملنا هو في التلفزيون، في المجال الوثائقي، وأنا في

افلام الخيال؛ وقد أخرج عام 85 فيلماً وجدتُ بأنه جيد جداً إلاّ انني أصبحت أكثر بعداً عنه، وقد أدرك ذلك.

● هل كان يشعر بأن عمله يُحاكَم؟

هيلين: ربما كان يشعر بأن عمله يحاكم؛ كان إعجابي به يتناقص، لكننا لم نتحدث في الأمر أبداً (...). لقد كان شخصاً يمتلك إمكانيات مدهشة، كان غنياً جداً من وجهة نظر الثقافة، من وجهة نظر الحساسية، وكذلك من وجهة النظر الإبداعية، وقد تصلّب شيئاً فشيئاً بتماسه مع المهنة لأن المهنة قاسية جداً، وهو لم يتمكن من أن يفعل ما يريده حقيقةً لأن المهنة لم تسمح له بذلك، وقد حاول أن يخرج بعض الأفلام الروائية الطويلة، لكنه لم يستطع لأنه كان مجبراً على العمل لصالح التلفزيون مثل الجميع، ثم افقره ذلك قليلاً، وشيئاً فشيئاً أصبح أقل تطلّباً بالنسبة لما يريد فعله في المهنة، واستسلم للسهولة، وأخذ يقبل بأشياء شديدة السهولة في التلفزيون؛ لديّ أصدقاء لم يوافقوا على ذلك، وهم يتدبرون أمورهم لأنهم لم يوافقوا. إلاّ أنّ ذلك كان قاسياً، وقد مرت بهم أوقات صعبة، بينما ربما وافق هو لأنّ لدينا أولاد، لكن الآخرين لديهم هم أيضاً أطفال (...).

❖ ألم تكوني تحذّرينه؟

هيلين: لقد حدث ذلك في الفترة الأخيرة، لكن ربما لم تكن تحذيراتي كافية. علاوةً على ذلك، هل كان لي الحق في أن أحذّره؟ بعد فترة من الزمن، لم أعد أظن بأنّ من حقي أن يكون لي تأثير على مسيرته المهنية؛ أظنّ بأنّه كان سيد نفسه.

● ربما كان يعتقد بأنّ لديك نظرةٌ احترافية، بين قوسين، له؟

هيلين: ربما فاض به الكيل في النهاية من تلك النظرة المحترفة الموجهة له وأراد أن يتحرر منها، لكن، في الوقت ذاته، فإنه يقول لي الآن بأننا كنا معاً بأفضل ما يكون حين كنا نعمل معاً، وربما كان الأمر صحيحاً بالفعل، إذن فالأمر مؤسفٌ إن كان ذلك صحيحاً، لكنه على الأغلب صحيحٌ تماماً. في السنوات الخمسة عشرة من حياته المهنية حين استطعت أن

أساعده، كان يعتقد بأن ذلك دعمٌ له. أعتقد بأنه أخذ الآن يفكر بأنني لم أعد دعماً له، أنني لم أعد أنفعه في شيء؛ يبدو بأنه لم يعد يحتاج لأن يكون مع شخص له نفس الهدف المحدد على الصعيد المهني، لست أدري، لا أستطيع أن أعرف (...).

لست أعرف كثيراً من الأزواج القدامى ممن يعملون معاً؛ فمن بين الأزواج الذين أعرفهم، لا تقوم الزوجة بصورة عامة بالمهنة ذاتها: فالزوج مثلاً مخرج، أما الزوجة فليست مخرجة؛ وربما لا تعمل في مجال السينما أصلاً، أو أنها تعمل في مجال الإنتاج أو السكرتاريا، لكن بصورة ملحقة. لست أعرف كثيرين ممن عاشوا حياةً طويلةً معاً بهذه الصورة.

◆ هل يبدو لك الأمر أسهل حين لا يمارس الزوجان المهنة ذاتها؟

هيلين: أظنّ بأنّه أكثر صعوبةً ففي كثير من الأحيان، لايستطيع الأشخاص الذين من خارج المهنة أن يفهموا ضرورة الانخراط المطلق، وهم لا يندمجون، لكن مع الزمن، أليس ذلك أفضل؟

الحالة المعتادة في هذه المهنة، هي تبديل الشريك

◆ وماذا عن النساء اللواتي ينتمين إلى أجيال أصغر سناً من جيلك ممن دخلن إلى المهنة؟ هل تنتشر العزوبة بينهنّ؟

هيلين: بالنسبة للنساء الأصغر سناً اللواتي يبلغن الأربعين الآن، لا. أما النساء اللواتي من عمري واللواتي تقبّلن العزوبة كرسالة، فهنّ لازلن حتى الآن يدّعين ذلك، إلاّ أنّ النساء اللواتي تجاوزن الخمسين واللواتي اخترن تقريباً أن يبقين عازبات شديداتُ التعاسة، والأمر كارثة؛ إنهن يعشن العزوبة بصورةٍ سيئة للغاية، وهنّ شديدات التعاسة، والأمر هو بالفعل أسوأ من كل شيء، وقدَ أفسدن حياتهن فعلاً من أجل المهنة، وفي معظم الأحيان من أجل خيار الحرية والاستقلالية والمهنة. ينبغي أن ترى بأيّ حماسٍ يحاولن فجأةً وكيفما اتفق أن يكون لديهن طفل عندما يبلغن الأربعين. وعندما لا يتمكّنّ من ذلك، تحصل الكارثة. أما النساء الأخريات اللواتي بلغن الأربعين وعشن

خلال العمر «الطبيعي» حياةً زوجية «طبيعية» وأنجبن الأطفال ولا زلن يعشن مع أزواجهنّ بعد خمسة عشر أو ثمانية عشر عاماً، فإنهنّ ينجحن بالفعل؛ وأنا أظنّ بأن أولئك الأزواج مخلصون جداً، وأعتقد بأنّ أحدهما، وهو عادةً الرجل، يسيطر بالضرورة على الآخر، وينبغي أن يقول المرء ما هو موجود على أرض الواقع، فنادراً ما تكون المرأة هي الطرف المسيطر؛ وإن كانت المرأة هي المسيطرة، فإنها على ما أظن تبقى مستقلة، وأظن بأنها لا تتزوج، أو أنها تعيش حياةً زوجية لكن دون أن تتزوج؛ على كلّ حال، فإن الناس لم يعودوا يتزوجون، وذلك كي يبقوا أكثر استقلالية؛ لكنني أعتقد بأنه لم يعد بالإمكان رؤية زوجين مثلنا في إطار من يمارسون مهنتنا (...). اليوم يعيش الرجل والمرأة معاً وينجبان الأطفال ويعيشان عدداً معيناً من السنوات معاً، وحين يصلان إلى الثلاثين أو الأربعين من العمر يجد كلّ منهما رفيقاً آخر يمضي معه بقية حياته دون زواج. أظن أن الأمور تستوي أكثر بهذا الشكل. أي كما لو كان الاختيار الثاني أضمن. لست أدري إن كانت تلك حالة زوجي، لست أدري شيئاً عن ذلك (...). الأمر مختلف بالنسبة لي، فقد حصلت القطيعة في وقت متأخر، بعد فوات الأوان (...). أنا لست مقياساً لما يجري عادةً في هذه المهنة. أعتقد أن تبديل الشريك هو، بصورة عامة، أمرٌ سهلٌ دائماً بالنسبة للرجل. أما بالنسبة للمراة، فهو صعبٌ حين تصل إلى عمر معين (...) لكن ربما يكون ما أقوله لك أبسط مما ينبغي، أعتقد أنّ ما أقوله لك مبسّطٌ نوعاً ما.

يبدو لي بأن استقلاليتي قد خدعتني

(...) خارج إطار مشكلة تنظيم تربية الأولاد، كانت حياتنا مستقلةً بالكامل وحرة، وكان هو يفعل حقاً ما يريده، بالشكل الذي يريده، وفي الوقت الذي يريده. لكن ربما يكون له رأي مختلف.

❖ هل أنت من كان يعتني بالأولاد؟

هيلين: نعم، كنت أنا مع ذلك.

◆ ألستِ من الجيل الذي كان يتقاسم المهمات؟

هيلين: لا. لست من الجيل الذي يتقاسم المهمات؛ أعتقد أنني أنتمي لسوء الحظ إلى الجيل السابق الذي ربّي ضمن أطرٍ قديمة نوعاً ما، تتضمن على نحوٍ ما أنّه على المرأة أن تحمل أعباء المنزل، وعليها بالتالي أن تتحمل مسؤولية كل ما يتعلق بتغذية الطفل، وغذاء الأسرة، وابتياع الحاجيات، وكل شيء، ولم يكن هو في الواقع يشارك في تقسيم الواجبات حينذاك، وأظنّ أنه الآن يشارك فيها. لكنّ الذنب ذنبي، فقد كان عليّ أن أطلب منه ذلك بالقوة، لكنه كان يبدو لي بأن قيامي بكل شيءٍ في البيت أمرٌ طبيعي، كان عليّ أن أطلب منه؛ ربما كان سيفعل؛ وبما أنه كان شخصاً يهتم بشدة بمهنته، مهنته، مهنته، فقد كنت أترك له المجال ليتحرر تماماً من هذه الناحية، وذلك بشكلٍ كامل. ربما أخطأت من هذه الناحية (...). ربما لم ننطلق من أسسٍ واضحة تماماً، محددة تماماً، لا أدري، لا أستطيع الآن أن أحلل الأمور. إلاّ أنه يبدو لي بأنه هو الذي كان يهيمن عليّ على كلّ حال. ربما كنا قد انطلقنا من أسس عرجاء؛ لقد رحل منذ فترةٍ لا تزيد عن سنةٍ ونصف، وأنا لم أقم بفرز كلّ الأشياء حتى الآن.

◆ ما الذي غيّره هذا الانفصال بصورةٍ ملموسة في حياتك؟

هيلين: كثيراً من الأشياء. وبالمناسبة، فإنني أشعر نوعاً ما بأنني خُدعت. لا أفضل التحدث عن الأمر على الصعيد العاطفي، لأنني ربما أبدو لك نوعاً ما ساذجةً أكثر من اللزوم، ورومانسية، لذلك لا داعي لكي نتحدث عن الأمر، لكن ما سأقوله سيبدو لك كلاسيكياً للغاية على الصعيد الاجتماعي البحت، بل ربما رجعياً نوعاً ما، فإنه يبدو لي بأنني قد خُدعت نوعاً ما لأننا قد تقاسمنا شيئاً ما على كافة الأصعدة لفترةٍ زادت على عشرين عاماً وأجد بأنّ عليّ الآن أن أتحمل مسؤولية كلّ شيءٍ وحدي على الصعيد المالي، وربما كان قد ترك لي هذا الأمر فجاةً بين يومٍ وآخر دون أن يشاركني بشيء من أعبائي المادية، حتى في ما يتعلق بالبنات؛ ربما سهّل الأمرَ عليه أنني كنت مستقلةً، وأمتلك مهنة، وأنني كنت حرة، كنت سيدة

نفسي. في النهاية، فإنّ ما أراده أبي هو أن أكون سيدة نفسي، وهذا ما كنت أريده أنا أيضاً؛ لديّ انطباعٌ بأنني كنت على نحوٍ ما ضحيةً للنسوية، لكوني سيدة نفسي بالنسبة لأنني أتخيل جيداً بأن زوجي، مثله مثل أبناء جيله الذين تزوجوا نساءً لم يعملن أبداً، لم يكونوا ليستسلمون بسبب ذلك، حسب اعتقادي، ولو قلت له ذلك، فإنه كان سيضحك ويقول لي: «لا، لا بالطبع، كنت سأرحل بالطبع»، وهذا صحيح دون ريب، كان سيرحل حتماً، لكنه فعل ذلك بكل بساطة قائلاً: «سوف تدفعين كلّ ما يتوجب عليك دفعه، وأنا لم أعد ملتزماً بشيء»، أي أنه فرض عليّ كلّ شيء (...). وبما أنني لم أبدأ بعد بإجراءات الطلاق، فإننا لم نستطع حتى الآن أن ننهي الأمر بشكلٍ رسمي، قانوني، لكنني أجد نفسي في واقع الأمر أخضع الآن للأعباء ذاتها، وابنتي الصغرى لا تزال تعيش الآن معي، لكنه لا يساهم في المصاريف، وهذا يجعل أعبائي ثقيلةً جداً ويجعل الأمر شديد الصعوبة، وقد فعل ذلك بكل سهولة لأنه يعرف بأنني سيدة نفسي. وبما أنني عملت كثيراً في الفترة الأخيرة، فإنه لا يوجد لديه أي إحساسٍ بالذنب.

❖ هل كنتما تتوصلان دوماً إلى تقاسم حياتكما المهنية؟

هيلين: لقد كان لكلٍ منا حياته الخاصة على الدوام، فقد كنت أنا أعمل في أفلامي، وربما لم تكن الأفلام التي أعمل بها تعجبه، ثم كنا نتحدث في الأمر، وقد كان قادراً أن يقول حين يرى فيلماً: «أعتقد كذا، أظن كذا، هذا جيد، هذا غير جيد، هذا سيئ، كان عليك ألاّ تعملي به»، لكنني أعتقد بأنه لم يكن يبالي في السنوات الأخيرة بما أفعله، كما أنّ إعجابي بما كان يقوم به قد تناقص (...). أعتقد بأنّ رحيل زوجي ليس سوى نتيجة لحياة زوجين، وهو أيضاً لحظة من حياته المهنية تتبدل، تتغير، ولا أستطيع أن أقول لك بأي اتجاه، فليست لديّ حتى الآن المعطيات الضرورية كي أتحدث عنها، أما مهنتي أنا فلم تتبدل، لأنه ليس لدي طموحات شخصية، وهدفي لازال القيام بالمونتاج، لم يتغير عملي، وليس لديّ إذن أزمة على صعيد العمل (...)، حياتي أكثر بساطةً، إنها المونتاج، والأولاد، ثم كان هو؛

ويبدو بأن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة له: فنجاحه المهني كان يعلو على كلّ شيء، والواقع أنه في السنوات الأخيرة كان هناك مشكلة، مشكلة لاتقتصر عليه، إنها مشكلة جيلٍ بأكمله، وهذه المشكلة سوف تكون حاسمة أكثر في السنوات القادمة بالنسبة لجيلٍ بأكمله، فقد وصل إلى الخمسين من عمره دون أن يقوم حقاً بالعمل الذي كان يريد أن يقوم به، والأمر واضح، فكلّ ما استطاع فعله في السنوات العشرة الماضية لم يكن كله جيداً على الرغم من أنه قام ببعض الأعمال الجيدة، لكنه أيضاً صنع بعض الأعمال التي لاقيمة لها، وهذا بالنسبة له أمرٌ ملحّ، فإما أن يفعل شيئاً مهماً الآن أو أنه لن يتمكن من فعل شيء أبداً، وأعتقد بأنه يدرك ذلك، وأعتقد أنه الآن يشعر بالخوف، وأظنّ بأنّ رحيله من هنا كان نوعاً ما بسببي، بسبب أنني أكثر منه بساطةً، وأنّ لديّ أفكاراً عنيدةً أكثر من أفكاره، ولديّ خيارات أكثر وضوحاً من أفكاره، لنقل بأنها أكثر أخلاقيةً بين قوسين من أفكاره، وأريد أن أسير في طريقٍ مستقيم، ويبدو بأنني كنت أشعره بالضيق لهذا السبب لأنه لا يعرف جيداً أين هو، وهو ينوس بين عدة احتمالاتٍ بما فيها تخليه عن المهنة، لم يقل ذلك لي لكنه قاله لابنتيه، وربما كان يقول لنفسه بأنه أخطأ لمدة عشرين عاماً ولم يتبع الطريق الصحيح، لست أدري، أعتقد أنه يعيد النظر في أمورٍ عديدة.

كان يقول، «لقد ضجرت من تقديم

امتحان البكالوريا في كل فيلم أصنعه

(...) في مهنتنا، ليس من الضروري أن يتوصل المرء إلى أن يكون له مستقبل مضمونٌ أكثر فأكثر. وما كان يجعله تعيساً كما كان يقول: «لقد مللت من أن أُمتحن بالبكالوريا في كلّ فيلم أصنعه»، وبالفعل، فإنه يبدو للمرء بأنّ عليه في كلّ مرة أن يبرهن على أنه لازال موجوداً، على أنه لا زال الأفضل، وأنه صنع شيئاً جيداً، وهي فعلاً ليست مشكلة التقنيين. إذا تم صنع فيلم غير ناجح، فإننا نخضع أيضاً لبعض الانعكاسات السلبية، لكن

ليس بمقدار ما يتعرض له المخرج. الأمر بالنسبة له دراماتيكي، إنه لأمرٌ دراماتيكي أن يصنع شيئاً لا يتم الاعتراف به في كلّ مرة. وحين يكون المرء في الأربعين من عمره، فإن الرغبة تتولد لديه في أن يُعترف به أكثر فأكثر، وإن لم يتم الاعتراف به فعلاً بصفته الأفضل، فإنه يمكن أن يعتبر فاشلاً (...). والنساء المخرجات معرّضاتٌ للمشكلة ذاتها، ويتفاقم الأمر بسبب كونهن نساء، فرغم كلّ شيء، لا يزال التوصل إلى القيام ببعض الأشياء في أيامنا أصعب بكثير حين يتعلق بامرأة، فإثبات الذات يصبح أكثر مشقة.

❖ هل من الأسهل بالنسبة لك أن تعملي مع امرأة؟

هيلين: العمل مع امرأة أصعب بالنسبة لي، (...) لقد أقمت على الدوام علاقات طيبة مع النساء، وأحياناً كانت علاقاتي معهنّ لاتحتمل؛ (...) على المرأة أن تثبت ذاتها طيلة الوقت، بل إنها تتوصل بصورة غريبة إلى أن يكون لديها نزاعات وإلى أن تصبح قمعيةً حين تعمل امرأة مع امرأة أخرى. النساء المخرجات هنّ حقاً نساء شديدات القسوة، واللواتي منهنّ يحتفظن بأنوثتهنّ (...) يعانين من مشاكل كثيرة، فهنّ مدانات بسبب كونهنّ نساءً، وهنّ يعملن في السينما بطريقة أنثوية جداً ويعاب عليهنّ ذلك بصورة دائمة. أو أنّه ينبغي على النساء أن يعملن مثل الرجال (...).

❖ إذا عدنا إلى الأزمة المهنية للرجال، هل تظنين بأنّ الزواج يمكن له أن يصمد أمامها؟

هيلين: أعتقد بأنه يمكن الصمود أمامها. ربما تكون المشكلة هي أنه لا يتم في الواقع إدراكها حين تعاش، ويتم إدراكها فيما بعد.

❖ وماذا عن زميلاتك الأصغر سناً؟ هل يتمكّنّ من التوفيق بين الحياة المهنية والحياة العائلية؟

هيلين: أنا حقاً لا أستطيع أن أتحدث عن الأمر، فأنا لا أعرف عدداً لا بأس به ممن هنّ أصغر مني سناً. النساء الأصغر مني ممن أعرفهن قد بلغن الأربعين ولديهنّ أولاد بلغوا الآن حوالى عشر سنوات من عمرهم. أما الأصغر سناً اللواتي أعرفهن فهنّ عازبات، ويتراوح عمرهنّ بين ستة

وعشرين وثلاثين عاماً، وهنّ لازلن يردن أن يبقين عازبات وأن يعملن كي ينجحن، وربما سيكون لديهن أطفال بعد أن يتأكد نجاحهنّ.

❖ وهنّ بالتالي لا يمارسن ضغوطاً على الآخرين، أليس كذلك؟

هيلين: بلى، بلى، بعضهن يمارسن الضغوط على الآخرين، بلى. لكن هناك ضغوط المهنة بشكلٍ أساسي، والمهنة هي التي تقتضي ذلك. فعلى سبيل المثال، حين يريد مخرج فيلمٍ روائي طويل أن يؤمّن مزجاً لفيلمه وينبغي أن يُمضي من يقوم بهذا العمل ساعاتٍ طويلة، حتى التاسعة أو العاشرة من كلّ ليلة، فإنه من المؤكد بأنه لن يستخدم امرأةً لديها طفلٌ رضيع. لقد تمكنت أنا من الاستمرار في مهنتي وأنا أحاول أن أفرض ساعاتٍ معينة على المخرج، فقد كنت رئيسةً حينذاك، لم أكن مساعِدة. لست أدري إن كنت سأتمكن من ذلك لو أنني كنت لاأزال مساعدة.

❖ هل يحصل أن يأخذ أحد المخرجين على أحد أعضاء فريق عمله تقديمه حياته العائلية على حياته العملية؟

هيلين: لومٌ مباشر، لا، لكن يحصل أن يوجه له لوماً غير مباشر (...)، ومن المتعارف عليه أنه حين يستعين بمساعدةٍ له، فإنه ينبغي أن يكون وقتها حراً.

ينتهي المرء بأن يجد نفسه وحيداً

(...) قد تؤمن الشابات بالحياة الزوجية؛ لكنهن لا يراهنّ عليها بكلّ شيء، فهنّ يعتقدن في الواقع بأنّه يمكن أن يحصل أي شيء، في أي وقت، وأنّ لاشيء يُقال بصورة نهائية، صحيحٌ أنني كنت أقول لنفسي بأنه لاشيء يتم بصورةٍ نهائية، إلاّ أنني كنت مقتنعةً بالحياة الزوجية رغم كل شيء، كانت لديّ الرغبة في أن أؤمن بها، وكان ذلك ينسجم أيضاً مع طبيعتي، لكنني أردت الإيمان بها رغم كلّ شيء. هو أيضاً أراد أن يؤمن بها؛ لقد حاول هو أيضاً أن يؤمن بها، ثم جعلته الحياة يفهم بأن ذلك الأمر صعب؛ لكنه يتألم، ربما أقل مما أتألم أنا، من ذلك الشكل من الانقطاع في حياته، وربما كان

ذلك بسبب كونه قد استثمر في الزواج أقل مما استثمرت أنا فيه خلال أكثر من عشرين عاماً. أظنّ إذن أنه يتألم أقل مني من ذلك الشكل من.. الفشل. فهو إذن ليس ضحيةً، وأنا أشعر بأنني ضحية، وربما كان إحساسي هذا خاطئاً نوعاً ما. أظن بأن الجميع من جيلي لم يعودوا في مثل حالتي، هناك العديد من النساء القادرات على مواجهة هذا الوضع بصورةٍ أكثر هدوءاً.

❖ لكن عملك يترك القليل من الوقت للحياة العائلية على كل حال، وبصورةٍ ملموسة، كم ساعةً من العمل يمثل عمل المونتاج؟

هيلين: لدينا أوقات صارمة نوعاً ما لإنجاز العمل. وإذا عمل المرء بصورةٍ طبيعية لمدة ثماني أو تسع ساعات يومياً، فإن هذا يكفي عادةً؛ يلزم تسع ساعات بالأحرى. أنا احسب، فأنا أذهب عادةً في حوالي التاسعة وأعود في حوالي السابعة والنصف مساءً. هذا يعني إذن إحدى عشرة ساعةً من الغياب عن البيت، وهذا يعادل إذن تسع ساعات عمل. هناك أفلام أوافق فيها على العمل أكثر. هناك زميلاتٌ لي يعملن أكثر من ذلك، يعملن كالمجانين؛ لديّ صديقات عملن من أجل حريتهنّ، وأحببن عملهن، وعملن كثيراً، ولم يعد لديهن حياة شخصية، واضطررن للعمل لسد الثغرات. هناك نوع من الحلقة المعيبة: فالمرأة تعمل لأنها وحيدة كي تكسب المال، وهي تعمل لدرجة أنها تصبح وحيدة، وحيدة تماماً، ثم تجد نفسها قد بلغت الخامسة والأربعين وهي وحيدة تماماً، ولا يعود أمامها سوى أن تعمل إلى نهاية عمرها. هذا يشبه وضعي الآن؛ أجد نفسي الآن وقد استثمرت كثيراً، رغم كل شيء، كثيراً في العمل وأجد نفسي وقد عملت وربيت أولاداً، لكنني أقول لنفسي: ما هو مستقبلي؟ عليّ الآن أن أتابع العمل، عليّ قبل كل شيء أن أتقبّل نفسي، عليّ أن أعيش وحدي، إذن فالأمر يشبه كوني عازبة، سوى أنّني قد سعدت بالإنجاب (...). إنها مهنةٌ ينبغي ألا نضفي عليها صبغةً مثالية، فالمرء يستثمر كثيراً من الوقت أثناء مونتاج فيلم، وتتشكل علاقات متينة، وتكون الأجواء دافئة جداً، ثم ينتهي الفيلم، وينتهي كل شيء معه، ويذهب كلٌ في طريقه. ينبغي على المرء أن يعتاد على تلك الانفصالات التي

تلي انتهاء العمل بالأفلام؛ يعتاد المرء على الأمر بعد ثلاثين عاماً، لكنه قاسٍ في البداية لأنّ المرء يستثمر كثيراً، أكثر مما ينبغي، هذا صحيح(...). بالنسبة لي، فإن المحصلة هي سلبية بالأحرى، وذلك على صعيد العلاقة الزوجية، لأن زواجي قد انفصم بصورةٍ ملموسة، ولكن أيضاً إذا راجع المرء الأسباب التي لم نعد نريد بسببها العيش معاً، وهي أسبابٌ ليست شخصيةً وحسب، بل هي مهنيةٌ أيضاً، فإنه يظهر بأننا كنا نعيش على الخديعة نوعاً ما (...). إنني أتارجح بين جيلين: فقد أردت أن أحوز على الاستقلالية والحرية، وكنت في الوقت ذاته أشعر بأنني لم أكن قادرةً على أن أتمثّلهما تماماً لأنني كنت مع ذلك أريد أن أعيش بطريقةٍ كلاسيكية، كما تعلمت، وبالطريقة التي ربما كنت أحب أن أعيشها (...). لم أستطع أن أحرر نفسي كلياً وأنا بالتالي ضحيةٌ نوعاً ما لتربيتي، وضحية كوني كبيرة في السن، فلكي تعيش بصورةٍ جيدة مثل هذا الوضع، ينبغي أن تكون أصغر سناً بمقدار خمسة عشر عاماً (...). وفي النهاية، فإن الناس جميعاً يبقون شديدي الوحدة بالنسبة للأفكار التي يحملونها. لقد أخطأت تماماً حين تخيلت بأنني اقترن بمشروع رجل، حتى لو كان ذلك صحيحاً خلال عددٍ من السنوات؛ يمكن أن يكون ذلك صحيحاً، إلاّ أنّ ذلك نادر جداً. هذا غير صحيح بالمطلق. وأنا لم أحاول أن أعرف لماذا، فالأمر صعبٌ جداً.

كانون الأول 1991

عبد المالك صياد

اللعنة

ما هي حياة العامل المهاجر؟ للإجابة الواعية على هذا السؤال، ينبغي على المرء في بداية الأمر أن يعيش تلك الحياة بشكلٍ كامل، وكما يقال، دون أن «يفكر بها كثيراً» ؛ ينبغي أيضاً أن يتشكل شيئاً فشيئاً ذلك الاستعداد الخاص الذي يسمح «بالابتعاد عن الحياة وأكاذيبها»، أي الابتعاد عن أباطيلها، وهي الصيغة شبه المعتادة للحكمة التقليدية، مستخدمةً هنا بالمعنى المليء: «تعليق حياة (المرء) ليراها كما كانت»، واستحضارها أمام ذاته كموضوعٍ للملاحظة، يمكن أن تطبّق عليه تحديداً كلُّ قدرة التأمل التي تهبها التجربةُ المكتسبة على مدى تلك الحياة لأولئك الذين يهتمون بِ «معرفة ذاتهم ومعرفة الحياة على الرغم من الخداع الذي تمارسه هذه الحياة (الغدر: أي الفخ، والخيانة)»؛ وهذا كله بمساعدة بعض الظروف التي تساعد على تسهيل الابتعاد عن تلك الحياة، كوفاة الأبوين، وتجاوز الأبناء لسنّ الوصاية، سواءً كانوا صبياناً أم بناتاً، والمرض، وحوادث العمل، وما يسبق التقاعد، والتقاعد ذاته، وكلها مناسباتٌ ليشعر المرء بفراغ وجودٍ ليس له معنى إلاّ بالعمل.

عباس، الذي يتحدث بهذه العبارات، هو من أولئك الناس. هو عاملٌ متقاعد كان يعمل في مؤسسةٍ صناعيةٍ كبيرة تقع في المنطقة الباريسية،

وهو مثقف على طريقته. وعلاوةً على المؤشرات الموجزة وذات الدلالة حول أصوله الاجتماعية («لم يخلق أبي ليكون فلاحاً»... «كان جدي المتعلمَ الوحيد في العائلة، وقد عاش دوماً من تعليم القرآن»)، فإنّ خطابه كله هو الذي يقدم البرهان على كونه مثقفاً، وبصورةٍ خاصة ذلك النمط من الابتعاد عن ذاته الذي يطلق عليه بألمٍ تعبير: «الطلاق من الذات». وبالجمع بين التجربة المباشرة لوضعية المهاجر التي عاشها مطولاً وبين الوضع التأمّلي الذي يسمح بتطوير التجربة الذاتية من أجل ذاته أولاً، وتسمح بإخضاعها للتمحيص النقدي وبتقديمها للآخرين، وهذا أكثر ندرةً، بطريقة الرواية التي تبدو ظاهرياً اعتيادية جداً (كما هي الحال هنا)، فإنه يتملص من الخيار المعتاد للتجربة الصامتة والخطاب الفارغ حول تجربةٍ لا يمكن الوصول إليها (إنّ عالم المهاجرين وتجربة هذا العالم هما دون ريبٍ مغلقان تماماً بالنسبة لمعظم أولئك الذين يتحدثون عنهما). مع عباس، يصبح المفحوص والمراقَب هو الفاحص والمراقِب لنفسه، ولا يعود وجود المستقصي المحترف سوى الفرصة المنتظَرة كي يبوح بصوتٍ مرتفع بنتاج استقصائه حول ذاته بعد أن فكّر به وأنضجه طويلاً («لقد فكرت ملياً بكلّ ذلك... الأصح أنني لم أتوقف عن التفكير وعن تمحيص وإعادة تمحيص هذه الأسئلة في داخلي»). وهو نتاجٌ يقترب من التماثل مع نتاج العلم طالما أنّ الفاحص والمفحوص يتوافقان بسبب مصلحتهما المشتركة بالاستقصاء الذي يجمع بينهما، ويكون هذا التوافق دون تشاورٍ مسبق، فالمفحوص يطرح بنفسه الأسئلة التي يود الفاحص أن يطرحها عليه.

كيف يتوصل الإنسان إلى تلك المقدرة على «نسيان ذاته» كما يقول المعنيّ، كي «يتذكر ذاته» بصورةٍ أفضل؟ لازال من الضروري البحث عن مصدر الخيبة العميقة التي تحث على العودة إلى الذات في التقاء بعض العناصر الاجتماعية المميزة، وخاصة في العلاقة التي تقيمها عائلة عباس مع الهجرة، وهي علاقةٌ استثنائية في تلك المنطقة التي قامت منها هجرةً كبيرة وقديمة جداً إلى فرنسا. ولكي يكون بالإمكان تحملها، فإن ظروف ذلك اليوم تحثّ على النظر من جديد إلى المسيرة التي أدت إليها منذ «اليوم

الأول» المشهود، وهو موقع «اللعنة الأساسية»، وعلى إعادة بناء التكون الاجتماعي، وعلى إعطائه نوعاً من التفسير؛ لكن ظروف الأمس التي يستمتعون بالتذكير بها تؤدي على العكس من ذلك إلى تبني وجهة النظر النقدية التي تبشّر بصفاء أحاديثه عن مسيرته الشخصية (والتي هي مسيرةٌ جماعية أيضاً)، وتبشّر بصورةٍ خاصة بتأثير الانعتاق الذي يؤدي إليه عمل التحليل الذاتي والاعتراف من الذات إلى الذات. وهو اعترافٌ بحالة الأزمة التي وصل إليها ذلك «الجيل» من المهاجرين الذين لم يعد من الممكن الحديث عنهم الآن سوى بصيغة الماضي. «لم يعد شيءٌ كما كنا نعتقد». إن ذلك «الجيل» يعيش بصورةٍ مأساوية الانقطاع الجذري مع الحالة السابقة وهي ليست بعيدةً جداً، ويصف عباس، وهو موقظ الضمائر، هذا الانقطاع تارةً بأنه حالة سبات («كنا منومين»)، وتارةً بأنه «حالة خدر». ولكونه يعي ما يفصله عما هو مشترك بين المهاجرين من معاصريه الذين يشاطرهم مع ذلك- وهو يؤكد على تلك الجالية القدرية- كل مساره وشروط الحياة كلها، فإنه يدعوهم إلى المزيد من الحذر؛ ويدعوهم كذلك إلى شكلٍ من «اليقظة». ولأنه يعتقد بأنه قد سيطر على وضعه وتمثّل «حقيقته»، فإنه يودّ لو أنّ الجميع يشاطرونه «الحقيقة» التي يقترحها عليهم، ولو أنهم يعملون جميعاً على إنتاج «حقيقتهم» وعلى التخلص من كافة الأقنعة وكافة الأمور المخفية التي تفرضها الهجرة على الجميع ليكونوا مقبولين. الأمر ليس سهلاً، وهو اختبار شديد الإيلام، حتى لو عرف الجميع بأنّ تلك المراجعة المضنية هي شرط استمرارهم في الحياة ومقاومتهم للعدم الذي يهددهم بسبب التغيرات التي تطرأ على شروط حياتهم، وخاصةً على التصور الذي اعتادوا أن يقدموه عن أنفسهم وعن وضعهم كمهاجرين. ويشعر عباس بأنه منذورٌ مسبقاً لدور موقظ الضمائر، ولديه إحساسٌ شديد الأرستقراطية بتميزه يوصله إلى نوعٍ من الرأفة تجاه الآخرين («إنهم يستحقون الشفقة»، «ينبغي فتح أعينهم (...)، لكنهم لا يقبلون») الذين يرفضون شكل الزهد الذي يعرضه عليهم ليس بأفعاله وحسب، بل أيضاً، وبصورةٍ خاصة، بأقواله. الجميع من حوله، وبالأخص عائلته، ينظرون إليه بصفته استثناءً ويشعرون

حياله بالإعجاب والاحترام والانبهار، ويشعرون في الوقت ذاته بالمضايقة والانزعاج اللذين يثيرهما كل استثناء. الجميع، سواءً الأقربون أو الأقل قرباً منه، يستشيرونه، وكثيراً ما يحيط به عددٌ كبيرٌ من الحضور الذين يأتون ليستمعوا إليه (وهو يدعى بالشيخ، فهو الحكيم)، وقد تكونت له سمعة كونه «متوحداً» وهو ينزوي بصورةٍ شبه متباهية حتى ضمن عائلته، في «انعزالٍ» مصطنعٍ وحقيقيٍ في آنٍ معاً لم يؤدِّ تعطله عن العمل إلاّ إلى تقويته.

إنه رجل الحقيقة والاستقامة، يخشاه الآخرون لصرامة أحكامه، وإذا كانوا يعترفون له بفضل قوله للحقيقة، فإنهم يلومونه في كثيرٍ من الأحيان لقيامه بذلك. هذه هي الحال بصورةٍ خاصة في كلّ مرة يتم فيها طرح موضوع وضع الأطفال، وهي مناسبةٌ لملاحظة الأزمة التي تعيشها بشكلٍ ملحّ كافة عائلات المهاجرين، وتتجلّى هنا في القطيعة بين جيل الآباء وجيل الأبناء التي نتجت عن الاختلاف التام للظروف الاجتماعية والثقافية بينهما. من الممكن تجاوز إعلان الحكيم، الذي يتحول أحياناً إلى نبيٍّ للتعاسة، بأنّ الهجرة كانت «خطأً» وبأن الجميع قد أخطأوا في تلك المناسبة. لكن حين يعلن بأن هجرة العائلات - وعائلته هو أولاً - هي خيانةٌ وإنكارٌ وردّة (بالمعنى الديني للعبارة)، وبأنّ هذه الهجرة قد أدت إلى انقلابٍ كاملٍ جعل المهاجرين (كعائلاتٍ) «يعملون في الواقع من أجل ازدهار الآخرين عوضاً عن أن يعملوا من أجل ازدهارهم (هم)»، فإنه يصعب تحمل مثل ذلك الإعلان، لكونه تنديداً في الوقت ذاته.

مع «عامل مهاجر»

أجرى اللقاء عبد المالك صياد

«كلّ شيءٍ كان مغايراً لما اعتقدنا»

عباس- لا شيء على ما يرام.. وينبغي الوصول إلى النهاية، الآن وقد انتهى كلّ شيء، وأصبحنا ندرك بأن لا شيء على ما يرام.. وأننا قد أخطأنا على طول الخط. لم يكن شيءٌ {بالفصحى: لم يخرج شيء.. بمعنى أنه ما من شيءٍ أدى إلى نتيجة..} كما كنا نظن. أنا نفسي لا أصدّق. أنا أشك بنفسي.. أعتقد بأنني أكذب على نفسي. لقد فكرت جيداً بهذا كله.. وبالأصح، فإنني لم أتوقف عن التفكير، وعن تمحيص وإعادة تمحيص كل تلك المسائل في داخلي.. وحين أقول بأنني أفكّر، فإنني الآن فقط وصلت إلى هذه النتيجة، وذلك لأنني وصلت إلى حقيقة (واقع، قناعة تامة) اليوم. وبالنسبة لما تبقى، فالأمور ذاتها تعود إلى الذهن. كيف وصلنا إلى هنا؟ هل نحن كما كنا، هل نحن الكائنات ذاتها التي كنّاها في اليوم الأول {لهجرتنا إلى فرنسا}؟ ما الذي غيّرنا؟ ومنذ متى تمّ مسخنا {بالمعنى القوي، بتأثير لعنةٍ ربانية}؟ لم نر عملية المسخ هذه. لقد وقعت علينا بعد فوات الأوان ليكون لنا رد فعلٍ ضده. ينبغي أن نتقبله كما هو.. ينبغي أن نقبل ذواتنا بهذه الصورة. لم يعد هناك ما يمكن فعله. لم يعد أمامنا سوى أن نشكر الله. إنه يعرف ما يفعله، وما نحن إلاّ دمى بين يديه. إرادته هي التي تحكمنا.

◆ ممّ تتكون هذه «اللعنة»؟ لم هذه اللعنة؟

عباس- لتفهم ذلك، ربما يتوجب عليّ أن أحكي لك كل شيء منذ اليوم الأول، ودون ذلك، لا يمكن فهم شيء أبداً. أنا ذاتي لا أفهم التحول إلاّ حين أتذكر اليوم الأول، وحين أعيد بناء المسار الذي مشيناه.. وأنا لست وحدي في هذا الأمر.. إلاّ أنّ الآخرين محظوظون لأنهم عميان.. لأنهم لا يرون شيئاً.. لا يرون الأشياء القريبة جداً منهم، التي بين أرجلهم، في بطونهم بالذات. إنهم لا يرون ولا يسمعون شيئاً، لقد نسوا كلّ شيء وهم لا يتذكرون شيئاً. إنهم سعداء.

[...]

المرء لا يعرف من أين يبدأ حين يريد ذلك... لا يمكن جمع كلّ هذه الأمور معاً إلاّ ذهنياً. وحين ينبغي الحديث عنها، حتى بالنسبة لي، فإنها تأتي كلها في الوقت ذاته، ككتلة واحدة، وتنتظم سوية، ولايمكن أن نفصلها عن بعضها- يحصل أحياناً أن أحدّث نفسي، أن أتكلّم مع نفسي بصوت مرتفع، لولا أن الآخرين قد يعتبرونني مجنوناً. الأمور مختلطة وغائمة. حينذاك، وحتى حين أحدّث نفسي، فإنني أتوقف عن ذلك بسرعة فأصمت وأترك الأمور تصطدم في ما بينها وتختلط، وتعود كلها معاً، ثم تذهب كما جاءت... ليس من السهل الحديث عن هذا كله.

[...]

لكلّ فترةٍ مشاكلها وصعوباتها، ومع التقدم في العمر، فإنّ الأمور تتفاقم. لكن المرء يقيّم الأمور بصورةٍ أفضل مع تقدمه في السنّ، ويعرف كيف يشارك الآخرين بها: فمن جهة، هناك الأشياء التي ليس لها أهمية والتي كنا نتكالب عليها في السابق؛ ومن جهةٍ أخرى، هناك الأشياء الأكثر أهميةً التي كنا نُدفع لإهمالها واحتقارها. ليست الأشياء هي التي تغيرت خلال الدرب، لكن نحن الذين تغيرنا؛ نظرتنا لهذه الأشياء هي التي تغيرت في تلك الأثناء.

◆ مثلاً؟

عباس- مثلاً، في الماضي كان سكنيَ سيئاً جداً، فقد كنت أسكن في غرفةٍ واحدة وكان لديّ ثلاثة أولاد... ثمّ سكنت في شقة غير صحية مع خمسة أولاد. أما الآن، فأنا أسكن في شقةٍ حقيقية، في عمارةٍ حقيقية، وإن كانت تلك العمارة ضمن السكن ذي الإيجار المعتدل HL M، وهذا تقدّمٌ بالتأكيد. لكن الأمور تغيرت على هذا الصعيد وحسب: الآن فقط تمّ حلّ مشكلة السكن... واكتشفنا بأنه مهما كانت المشكلة حقيقية، فإنها ليست المشكلة، المشكلة الحقيقية، تلك التي لا يمكن لشيءٍ أن يحلها، التي لا حلّ لها، فلا أحد يمكن أن يقدّم لها حلاً، لأنه ما من حلٍ يأتي من الخارج. لقد أعطيتك مثالاً. هل تريد مثالاً آخر؟ إنه العمل، إنه الشيء ذاته: فقد عرفت البطالة والرواتب المنخفضة وبؤس العامل... كل تلك الأمور كانت مشكلةً في وقتها؛ وفيما بعد، حصلت على عملٍ دائم، عملت خمسة عشر عاماً في المؤسسة ذاتها، وتحسنت الرواتب. لم تكن الرواتب ثروةً لكننا كنا نتمكن من أن نأكل وأن نلبس وأن نربّي الأطفال، بل وأن نوفّر قليلاً.. هنا أيضاً، اكتشفت بأن تلك المشكلة التي لم تعد تطرح نفسها عليّ الآن أو التي تطرح نفسها بصورةٍ مغايرة ليست المشكلة الحقيقية أيضاً.

❖ ما هي المشكلة الحقيقية إذن؟

[...]

أليست هذه هي اللعنة؟

عباس- اليوم الأول! ما هو ذلك اليوم الأول؟ إنني أتساءل، أطرح السؤال على نفسي. (...) لقد فكرت بالأمر ملياً. لقد حاولت أن أفهم لمَ كان ذلك «اليوم الأول» مختلفاً بالنسبة لي عن «اليوم الأول» بالنسبة لكل {المهاجرين} الآخرين. فهناك «يومٌ أول» بالنسبة للجميع. لماذا؟ لأنني كنت أول من هاجر من عائلتي إلى فرنسا.

❖ ممن كانت تتألف تلك العائلة؟

عباس- من أبي وزوجته، فقد توفيت أمي حين كنت بين الثانية عشرة

والثالثة عشرة من عمري، ثم كان هناك أخٌ أصغر مني سناً، بل إنه أخٌ غير شقيق (كان ابناً لزوجة أخرى لأبي، توفيت هي أيضاً عام 1948، حين كنت في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمري)، وأخي البكر، وهو أخٌ شقيقٌ لي مات صغيراً، شاباً، ربما كان عمره في حدود الثامنة عشرة أو العشرين عاماً.

أتذكر ذلك اليوم، السابع عشر من تشرين الثاني 1951، إنه يومٌ نتذكره دوماً. كنتُ أُلحّ على أبي منذ عدة سنوات من أجل الرحيل إلى فرنسا. لكنه صمّ أذنيه وكان يقاوم... لكننا لم نكن نعيش في بحبوحة، وكنا أفقر أسرة في العائلة. كان هناك سببٌ لذلك، سببٌ سريٌّ، لكنه سببٌ شكّل جزءاً من عقليتنا، من الطريقة التي ننظر بها لأشياء العالم. كان عمري واحداً وعشرين عاماً، كنت كبيراً. كنت أتكلم مع أبي عبر وسطاء، وأرسل إليه الأشخاص الذين كان بإمكاني أن أقول لهم أشياء معينة وأشخاصاً يقيم لهم أبي بعض الوزن. ومن جهته، كان أبي يردّ عليّ بالطريقة ذاتها، لكنه لم يكن يستخدم بالضرورة أولئك الأشخاص الذين كانوا يتدخلون معه لصالحي. وفي النهاية، شكلنا مجموعتين: مجموعة «محاميّ» لديه و«المدافعين» عن موقفه أمامي. دامت هذه الملاحقة عامين. وقد شعرت بأنني قد ربحت الجولة – إن أمكن القول – حين أجابني أبي ببيان أسبابه، أسباب رفضه، وذلك عبر الشخص الذي أرسلته إليه. (...) كان أحد الأقرباء، حكيماً، رجلاً شديد الجدية، رجل دين، عاملاً مجداً، تقياً، رغم أنه أمضى حياته كلها في فرنسا. كان أبي يحترمه كثيراً، وكان ذلك الاحترام متبادلاً. وبفضل ذلك الشخص، ولأنّ ذلك الرجل كان هو ذاته عاملاً في فرنسا، فإنّ موقف أبي ورده لانا، لكن دون أن يعطيني موافقته الرسمية مع ذلك (...). وأتيت إذن إلى فرنسا بصحبة ذلك الشخص. كانت تلك أول رحلة لي خارج قريتنا ومحيطها، أول تماس لي مع المدينة: القطار، الجزائر العاصمة، المركب، فرنسا... في السابع عشر والثامن عشر من تشرين الثاني 1951. كان عمري واحداً وعشرين عاماً (...).

لقد شرح لي والدي (الذي كنت حينذاك أصفه بأنه مستبد ومتخلف يريد البؤس) سبب معارضته، في صباح ذلك اليوم، السابع عشر من تشرين الثاني أثناء وداعه لنا، وحين وصلنا إلى اللحظة التي كنا سنفترق فيها، عندما جاء وقت قبلات الوداع قال لي بصوتٍ مرتفع، كما لو كان يريد أن يشهد كل الناس الموجودين هناك، رجالاً ونساءً، فقد كان هناك أيضاً نساء، أمهات الرجال الذين كانوا سيرحلون: «الله شاهد عليّ، اسمعوني جميعاً، أنا لم أطلب منك أبداً أن تذهب إلى فرنسا من أجلي، لكي ترسل لي المال من فرنسا. لم أعتقد طيلة حياتي بأن شيئاً كهذا قد يحصل لي. أن يضطر المرء لأن يأكل المال الآتي من فرنسا! لقد جعلت من ذلك كفراً. أنا مصرٌّ على أن يعلم كل الناس بذلك. أتوسل إليك، ذاك المال، احتفظ به لنفسك، احتفظ به هناك؛ تلك خدمة تؤديها لي، إنها أكثر من خدمة، إنه أمرٌ أعطيه لك، وفّر عليّ تلك القذارة. لأنك لو أرسلت لي المال، فإنني لن أعرف ما الذي سأفعله به. لن أستطيع أن آكله، ولا أن أحرقه.» تلك كانت آخر كلمات أبي، وقد مات بعد بضع سنوات دون أن أراه ثانيةً. والأنكى من ذلك أنني لم أفهم حينها شيئاً من تلك الموعظة. لقد قلت لنفسي، إنها حركات سينمائية {بالفرنسية} يقوم بها أمامي. لم أفهم أهمية كلماته إلاّ فيما بعد، بعد فوات الأوان. أليست تلك هي اللعنة؟ أليست هي اللعنة التي لا تزال تلاحقني؟ وهي لا تزال تلاحق الآخرين، حتى إن لم يعرفوا ذلك..

المال الآتي من فرنسا هو مالٌ غير شرعي.

❖ لنتحدث قليلاً عن والدك. من كان؟ هل كان فلاحاً لم يخرج من بيته أبداً، لم يترك أبداً حقوله، أم أنه عملٍ هو ذاته في الخارج، مقابل المال؟

عباس- (...) لم يُخلق أبي ليكون فلاحاً. لقد أصبح فلاحاً بسبب الضرورة، في حين أنه لم يكن لدينا أرض للزراعة أو أن أرضنا كانت صغيرةً لدرجة أنها كانت بائسة. لكن قبل أن نتكلم عن أبي، ينبغي أن نبدأ بجدّي. كان جدي أصغر أفراد العائلة، لديه العديد من الأخوة والأعمام. كان [illegible] العائلة الأصغر {سناً}، ضعيف البنية وكثير المرض نوعاً ما؛ وقد

أجرى دراسات {قرآنية}، لقد عاش طيلة حياته مع القرآن، في البداية في الزوايا بصفته طالباً. أنت تعرف كيف كانت الأمور تتم في تلك الفترة. كان جميع الناس، الطلاب والمعلمون، وكل الرجال الأتقياء («الإخوان») الذين يذهبون إلى تلك الأماكن يعيشون في المكان ذاته، يعيشون معاً. كانت الزاوية تتلقى الهبات، وتنظّم حملات لجمع المؤن، وكنا نذهب لنجمعها، كنا نطبخ أيضاً ونتعلم في الوقت ذاته، كلنا معاً. لقد نشأ في ذلك الوسط، ويقولون عنه بأنه بعد أن تزوج كان يحصل أحياناً أن يترك كل شيء ويعود إلى الزاوية بين حين وآخر. وبالطبع، فإن كل ما عدا ذلك لم يكن يثير اهتمامه، لاشيء من أمور الحياة. وحين كان يعمل أحياناً، أي أن يكسب ما يعيش منه، فقد كان ذلك بصفته طالباً في إحدى القرى، وكانوا يدفعون له مواد عينية، كما كانت الحال في تلك الفترة، كانوا يعطونه مقداراً يكفيه فقط كي يعيش. وبالطبع، فقد كان الضحية حين حصلت القسمة مع أخوته وأعمامه. لم يكن موجوداً ولم يكن يعير بالاً لكل تلك الأمور، بل إنه لم يكن يعرف أين كانت أراضي العائلة. وبحجة أنه لم يعمل في الأرض ولم يبذل جهداً ودُلّل بأن عُلّم، فقد أعطي قطعة أرض صغيرةً جداً، أصغر جزء من الميراث؛ لا شيء تقريباً. لقد نُهب بكل بساطة. ويقال بأنه لم يقل شيئاً ولم يحتج طيلة حياته على أي شيء. ويقال أيضاً بأن أول من وجد مرارةً في ذلك التصرف وحاول أن يتمرد فيما بعد على ما بدا له ظلماً كان عمي الأكبر؛ لم أعرف ذلك العم أبداً فقد توفي قبل ولادتي أو في العام الذي ولدتُ فيه. يقولون بأنه كان اكثر تصميماً وعزماً وحيويةً من ابي. لكنّ كلاً منهما كان يشعر بأنه قد أضاع شيئاً ما، وكانا بصورةٍ خاصة يشعران بأنهما لم يخلقا ليكونا ما أصبحا عليه. لقد قبلا الأمر، وخضعا، كما كان أبي يقول، لمشيئة القدر. لم يكن ذلك احتقاراً لعمل الأرض كما يقال؛ بعيداً عن ذلك. لكن ذلك كان ببساطة لأنهما لم ينشأا على مهنة المزارعين ولأنه لم يكن هناك أرض ليزرعاها. لقد اضطرا للعمل الشاق. (...) وبلا ريب، فإنهما لم يصلا إلى نهاية تأهيلهما القرآني؛ ربما كانت ظروف مهنة الطالب قد تغيرت. والنتيجة أنهما اضطرا للعمل بأيديهما، في حين أنهما لم يكونا قد هُيِّئا لذلك. لقد

عملا كثيراً في المزارع كعمال موسميين؛ لقد تمكن كلّ منهما أن يكوّن لنفسه اختصاصاً سمح له بتجنب الأعمال الشاقة في المزرعة، كالعمل بالفأس وجني البطاطا: فقد تعلما تطعيم الكرمة. كانا يعملان لموسمين في العام: ففي الربيع، تحضير الطعوم، أو «التطعيم على الطاولة»، كما كان يقال؛ وفي الخريف، «التطعيم على خطوط المحراث». كان أبي بصورة خاصة يذهب من تونس إلى المغرب، وكان الناس يعرفونه جيداً ويقدّرونه. هذا ما كان عليه أهلي (...).

نعم، لقد كانت تلك هجرة {بالفصحى، «خروجاً» من البلاد}، لكن لم تكن تلك الهجرة تشبه في شيء هجرتي أنا... كانت ضمن البلد ذاته، لم يتوجب عليهما أن يعبرا البحر؛ لقد كانت هجرةً موسمية، وكانت تدوم ما بين ثلاثة أسابيع وثلاثة أشهر ونصف على الأكثر؛ كانا يعملان في الأرض، وكانا يعيشان في الريف وليس في المدينة... والأهم بالنسبة لأبي- وقد سمعت ذلك منه في عدة مناسبات- أنهما بقيا في بلد مسلم. تلك كانت مشكلة أبي، المال القادم من فرنسا هو بالنسبة له مالٌ مشكوكٌ به، مالٌ مكروه، مالٌ غير شرعي. أنت تفهم الآن لماذا لم يكن يريد ذلك المال! (...) لقد عاش بهذه الطريقة طيلة حياته، ولم يكن لديه أية راحة، أي عزاء. حتى هجرتي استجابت بصورةٍ ما إلى آماله؛ كان ذلك رغماً عني، وأنا لم أشأ ذلك على كل حال، لكن تلك الهجرة قد وافقت حرفياً ما كان أبي يتوقعه وربما يريده. ونظراً لحالة الفقر التي كنا نعيشها، فإنني لم أكن أريد الاعتراف أن بإمكان والدي أن يرفض المال الذي سوف يأتي إليه. كان ذلك غير مفهومٍ بالنسبة لي؛ كما أنني كنت أقول لنفسي بأن ذلك ليس من حقه: فإذا كانت تلك إرادته، إذا كانت تلك رغبته، إن كان يريد أن يعيش كناسك، فإنه ليس من حقه أن يفرض طريقته تلك في الحياة على الآخرين، على زوجته وأخوتي وأخواتي، الكبار منهم والصغار.

❖ كيف استجابت هجرتك لآماله؟ لست أفهم.

عباس- لقد استجابت لآماله بمعنى أنه لم يمس مليماً من أموالي. لم

تترك له الحياة الفرصة لذلك؛ لم تترك الفرصة لا له هو ولا لي أنا. لقد وصلت إلى فرنسا في فترةٍ سيئة: فالحقبة كانت صعبة من 1951 إلى 1953. لم أجد أبداً عملاً يعجبني، فكنت أقوم ببعض الأعمال الصغيرة هنا أو هناك لا أكثر. ولم أستعجل في إرسال النقود له كما كان الآخرون يفعلون في تلك الفترة لأنه كان قد أعلمني بما يسببه ذلك له من إرباك: هل كان ذلك المال غير شرعي أم أنه كان ممنوعاً؟ (...) لم أقترض المال لأرسله له كما كان الجميع يفعلون في تلك الفترة، وكما يفعلون حتى الآن: هذا ما كان يجعل الناس يظنون بأنه يتم جمع المال في فرنسا وبأنه يكفي أن يصل المرء إلى فرنسا حتى يجد المال... الثمينَ والنادرَ بل والعَصِيّ على الكسب - وليس الصعب فقط - في الجزائر. لكن مع ذلك، لم يكن الدعم ينقصني في فرنسا: مثل صهري الذي نزلت عنده لفترةٍ غير قصيرة، وخالي وهو مهاجرٌ قديم جداً في فرنسا، والعديد غيرهما، وكلهم أقارب لي بدرجات متفاوتة (...). وحين استقرّيت بشكلٍ جيد وبدأت أكوّن نفسي، كان ذلك المخرجَ المميت...، الحرب وأهوالها (...) لكن تلك حكايةٌ أخرى. {حسب ما يقال، فإن والده كان أحد أوائل ضحايا الحرب في المنطقة، في ربيع عام 1955.}

هذه هي الذكرى التي أحتفظ بها عن أبي... إنها ليست حتى صورة وجهه حين افترقنا - هل كان يعلم بأننا سوف لن نرى بعضنا أبداً؟ لكنه صوته، ذلك الصوت الرهيب الذي لا يزال يرن في مسامعي حتى الآن: «تذكر... ليشهد عليّ الجميع...، أنا لم أفعل شيئاً كي تذهب إلى فرنسا، لم أطلب منك ذلك يوماً، لم أدفعك يوماً إلى الرحيل؛ العكس هو الصحيح، لقد فعلت ما بوسعي كيلا تخطر الفكرة بذهنك أبداً... لقد قررتَ خلاف ذلك. لست أملك أن أمنعك...، لن تلوم إلاّ نفسك فيما بعد، وهذا ما لا أتمناه لك (...)». بلى، كانت رؤيته بعيدة المدى. إنه لم يتمنّ لي ذلك، لكنه حصل. لقد حصل ما كان بلا ريبٍ يخشاه، وأبكر مما كان يتوقع. إنني أسمع ذلك الوداع دائماً. لقد أصبح هاجساً يؤرقني. وكلما مرّ الزمن كلما انحفر في داخلي. وقد قال لي في النهاية: «أتمنى لك سفراً سعيداً، الله معك...».

[...].

كنا نعرف بأن فرنسا ليست الجنة

❖ إذن، فقد نشأت في عائلة يمكن أن نقول بأنها «مثقفة». ماذا شكل ذلك بالنسبة لك؟

عباس- عائلة مثقفة؟ في هذا القول مبالغة. ربما جدي. أما أبي...، كان الأمر انتهى بالنسبة لجيله... أما بالنسبة لي، فلا شيء على الإطلاق؛ لم يعد ذلك الزمان زمان التقوى ولا حتى زمان الإيمان البسيط بالله.

❖ بلى، لقد بقي شيءٌ من الإيمان رغم كل شيء. ما الذي وجدته في البيت من ذلك الميراث «الثقافي» في طفولتك؟

عباس- ما الذي وجدته في البيت؟ بعض الألواح {التي كانت تكتب عليها سور القرآن}، وكنا نحتفظ بها بحرص، كنا نحملها باحترام، فكلام الله هو الذي كان مكتوباً عليها، وبالإضافة إلى ذلك، فقد كانوا يقولون لي بأن ذلك اللوح قد كتب عليه بيد جدي أو عمي! كما كان هناك في البيت بعضٌ من نسخ القرآن القديمة، والتي لا بدّ أنها كانت تستخدم. (...) وفي صندوق صغير ... لم يكن من المسموح لمسه، كان هناك أيضاً كتاب صغير، هو القرآن بالكامل. وبالإضافة إلى ذلك، كان هناك بعض الكتب... في الاجتهاد، وخاصةً البخاري {وهو فقيهٌ وعالم لاهوت}. أنا أعرف بوجوده لأن البعض كانوا يحضرون لاستعارته من أبي. وعلاوةً على ذلك الرأسمال الصغير، فإن أبي كان قد احتفظ من صهره، وهو زوج أصغر أخواته، أصغر عماتي، ببعض الكتب، كتفاسير القرآن، وكتب عن التاريخ الإسلامي وكذلك بعض المجلات باللغة العربية ومنها البصائر {وهي مجلة كانت تصدرها «جمعية العلماء» في الخمسينات}. هذا هو الغذاء الذي كان متاحاً لمتعلم لم يكن فلاحاً مثل بقية الفلاحين، ولم يكن متعلماً بحق لدرجة أنه كان يمكنه أن يعيش من معارفه فقط. كان والدي حالةً وسطى. لقد قَبِل، ليس دون مضض كما يمكن للمرء أن يتخيل، بأن يترك وضعيته كمتعلم. كان الجميع

يعرفون ذلك ويحترمونه لهذا السبب. كانوا يحترمون فيه الفلاح الذي كانه وكانوا معجبين به لأنه رحل كي تكون «يداه نظيفتين»، وها هو يقوم كما ينبغي له بمهنته كمزارع. وأكثر ما كانوا يحترمونه فيه هو الرجل التقي. كثيراً ما كان له الأفضلية على طالب القرية. وعلى كل حال، فإن ذلك الأخير كان يفعل كل ما بوسعه ليحظى بموافقة أبي. كان والدي ينجده في كلّ شيء، كان والدي يحلّ محله في الصلوات وفي خطبة الجمعة حين لايكون موجوداً.. كان أبي يحضر كل حالات السهر على الموتى في القرية وجوارها، حين كان ينبغي قضاء الليل في ترتيل القرآن. لكنه لم يكن «محترفاً»، فلطالما رفض أن يتقاضى قرشاً واحداً مقابل هذه الخدمة في حين أن الطالب المحترف كان يتقاضى راتباً (...).

هذا ما كانه أبي. وبالإضافة إلى ذلك، لم يكن هناك خيار في تلك الفترة: فقد كان الرحيل إلى فرنسا طريق كل الشباب، سواءً كانوا أغنياء أم فقراء. كان الرحيل يمثّل الطريق الوحيد ليبرهن المرء على أنه قد أصبح رجلاً أخيراً ولم يعد طفلاً. لم يعتقد أبي أبداً في أعماقه بأنني سوف أفعل مثل الآخرين، وأنني لم أكن أنتظر سوى ذلك.. العمر الذي يتطلبه مثل هذا الإجراء.. لقد كان ذلك معاكساً تماماً للحياة التي كان يتخيلها لنفسه والتي كان يتخيلها لي. لم تكن الفترة تشجع على الدراسة بل على العمل؛ والعمل الحقيقي في فرنسا.

❖ في هذه الشروط، لا بد أنك قد تلقيت تعليماً دينياً، أليس كذلك؟

عباس- حين أتيت إلى الدنيا، كان الوقت قد فات. حتى شقيقي الأكبر مني والذي عرف جده بصورةٍ أفضل- يقولون بأنه قد توفي عام 1931-، فاته القطار هو أيضاً ولم يستطع أن يستفيد من التعليم الذي كان يمكن انتظاره منه. (...) حين كنت صغيراً، كان وقتي يتوزع بين العمل في الأرض والتدريب القرآني. كان ذلك يتم في مسجد القرية الصغير في الشتاء بصورةٍ خاصة؛ ففي الصيف، لم تكن أعمال الحقل تترك لنا الوقت الكافي. وقد كان من حسن حظي أنني عرفت معلماً جيداً جداً. لقد كان حكيماً وصاحب ضمير.

لكن كل ذلك لم يكن يتعدى كونه حرتقة. وحين أتممت حفظ الربع {خمسة عشر سورةً، وهي تمثل ربع السور الستين للقرآن}، كان عمري ثلاثة عشر أو أربعة عشر عاماً. كنا في حالة فاقة شديدة ولم نكن نجد ما نأكله، وكانت الأوبئة تجتاحنا، والناس يموتون بالجملة. أراد أبي أن أستمر في تعليمي، فتوجب عليّ الذهاب إلى مدرسة الزاوية. (...) وكنت علاوةً على ذلك مريضاً... وقد استمر مرضي حتى وصولي إلى فرنسا حيث أدخلت المستشفى بعد تعرضي لأزمة؛ كان لديّ «حصى في الكليتين». كل ذلك جعلني أتخلى عن كل شيء ولا أعود أريد أن أسمع شيئاً عن تلك الحياة. وقد عدت بالطبع إلى البيت ورفضت العودة {إلى الزاوية}، وأدى ذلك إلى خلاف بيني وبين أبي؛ كان كلٌّ منا يتجنب الآخر. لقد دام جو الخلاف ذاك بصورة متفاوتة الحدة حتى رحيلي إلى فرنسا. هذه هي الظروف التي كنت أعيشها حين أتيت إلى فرنسا. وكما ترى، لم أكن فرحاً منذ البداية، هذا أقل ما يمكن أن يقال. إن ترك الأهل لا يمكن أن يكون أمراً مفرحاً، فكيف بترك البلد؟ حتى لو كان المرء يحلم بما هو خارج البلاد، وحتى لو كان ينتظر كثيراً منه، فإنه دوماً يترك أقاربه وعالمه الذي اعتاد عليه بأسف وألم. وحين أسمع البعض يقولون بأننا قد هاجرنا جميعاً لأننا كنا نتخيل أن فرنسا هي الجنة، فإنني أتساءل ما إذا كانوا يعتبروننا أطفالاً! كنا نعلم بأن فرنسا ليست هي الجنة؛ بل إننا كنا نعرف أنها جهنم من بعض النواحي. (...) في حالتي، كان الأمر أكثر من ذلك: فالأمر ليس فقط ألم الفراق، وليس فقط فقدان الثقة التي يشعر بها المرء دائماً حين يكون في بلده والخوف من المجهول الذي يتوجه نحوه، أو الحنين الذي يشعر به المرء ويهزه أحياناً من الداخل، بل يضاف إلى ذلك كله الندم، الندم على عدم الطاعة. لم يوافق أبي أبداً في داخله على رحيلي إلى فرنسا، رغم أنه قد أعطاني موافقته الظاهرية، فقد كانت تلك الموافقة شكليةً تماماً. أنا لم ولن أغفر ذلك لنفسي أبداً. ويزيد من إحساسي ذاك أنني لم أعرف كيف وجدت نفسي في الوضع الحالي: بعد حوالي أربعين عاماً من ذلك، وقد أصبح لديّ زوجة وأبناء، وبعد أن اعتقدت أنني قدمت إلى فرنسا وحيداً كي أعمل بضعة

أشهر أو بضع سنوات، سنتين أو ثلاثاً على الأكثر. خلال هذه السنوات الأربعين، وإذا جمعنا كل الفترات التي أقمت فيها في الجزائر، فإنّ مجموعها لا يبلغ سوى ستة أشهر. لست أدري لماذا!

هل أراد أحد ذلك حقاً؟

◆ أنت من سيقول لي لماذا.

عباس- بعد فترةٍ قصيرة من رحيلي، بدأت الأمور السيئة، أقصد فظاعات الحرب. لقد بدأت مآسي الجزائر قبل أن يكون لديّ الوقت كي أتوازن بعد مصاعب البداية، وأتعود على فرنسا وعلى وضعي الجديد، فقد عانيت كثيراً من البطالة خلال السنة الأولى. لم تنج قريتنا وعائلتنا من تلك المآسي. في البداية، ساد الحماس لدى الجميع... كل الناس كانوا يتطوعون، فأصبح البعض من المجاهدين والبعض الآخر من المسبلين. كانوا منذ ذلك الحين يعتقدون بأنهم في بلدٍ مستقل.

[...]

حين احتل الجيش القرية فيما بعد، كانوا في الصفوف الأولى؛ لقد كانوا الأدلاء والمرشدين، وحصلت أمور رهيبة من كلا الطرفين. حينذاك مات أبي. وقد حاول كلّ شخص النجاة بنفسه مع احتلال القرية والحرب بين معسكرات القرية، والمناطق المنوعة حولها، والقصف الذي قام به الطيران. فمن كان باستطاعته الهرب ولديه مكانٌ ليهرب إليه هرب، وحيداً أو مع أسرته. وهكذا استضاف أحد الأقارب الذي كان يسكن في ضواحي العاصمة زوجتي وأختي مع أولادها. وفي أحد الأيام من عام 1956، جاء هؤلاء كلهم إلى فرنسا، واصطحبهم ذلك القريب الذي لم يعد يستطيع إيواءهم.

[...]

لقد وضعنا أمام الأمر الواقع (...). كان زوج أختي في فرنسا هو أيضاً... وكان لديهما في ذلك الحين ثلاثة أولاد. أنا نفسي كان لديّ طفلة

وليدة. لم يكن ذلك عبئاً بسيطاً. علاوةً على ذلك، فإننا لم نكن نتوقع هذا الأمر أبداً، لأن الأخبار لم تكن تصلنا بانتظام، فتوجب علينا أن نرتجل كل شيء. لم يكن لدينا مسكن من نمط الشقق المعدة للعائلات، كبيرةً كانت أم صغيرة. لم يكن من الممكن أن تعثر في باريس في تلك السنوات على شقة ذات إيجارٍ معتدل HLM. لم يحالفنا أي حظٍ في هذا الإطار. لقد تدبرنا أمورنا بين بعضنا، بإمكانياتنا. توجب علينا بين ليلةٍ وضحاها... بل في يومٍ واحد من الصباح حتى المساء، أن نجد سكناً للأسرتين. لم نكن الوحيدين في ذلك الوضع؛ فقد بدأت عائلاتٌ بأكملها تصل إلى فرنسا من كل المناطق، ربما للأسباب ذاتها: الحرب وعدم الأمان والموت. ماذا كانت إمكانيات السكن بالنسبة لنا؟ غرفة في فندق كنا نتقاسمها بمعدل ثلاثة أو أربعة أشخاص في الدائرة الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة أو العشرين، في منطقة بيلفيل، أو مينيل مونتان، أو في شارع مو، أو في شارع سكريتان؛ لقد ذهبت إلى تلك الشوارع كلها. بل إنني كنت محظوظاً: فلم نكن سوى اثنين نتقاسم الغرفة ذاتها خلال الشهر، وكنت أسكن مع أحد أقاربي من القرية ذاتها وبمثل عمري، وكانت الغرفة له، باسمه، ثم تركها لي وذهب ليسكن مع آخرين استضافوه. (...). وقررنا أن نجمع الأسرتين في الغرفة الوحيدة الفارغة - وعلى كل حال، فإن ذلك سمح لزوجتي ولأختي بأن يكونا معاً، فلم تكونا تعرفن شيئاً عن فرنسا - وفي المساء، حين يتم ترتيب كل شيء وينام الجميع، كنا أنا وصهري نذهب للنوم في مكانٍ آخر، حيث نجد مكاناً للنوم. لقد دام هذا الوضع فترةً طويلة: السكن كعائلةٍ في حجرةٍ واحدة، في غرفة فندق... بعد ذلك، وكما كان ينبغي أن يفعل المرء في تلك الفترة، ذهبنا للسكن في مدينة الصفيح القديمة، في معسكرات نانتير (...).

وبعد كل حساب، وبعد أن أصبحت هذه الحكاية كلها من الماضي وبدأنا ننظر خلفنا (أنا لا أفعل سوى النظر)، هل أردنا فعلاً ذلك؟ هل أردنا أن نعيش حياتنا كلها في فرنسا...، دون أن ندرك حتى بأننا نملأ فرنسا بأولادنا، في حين أننا كنا نظن بأن أولادنا لنا! هل أراد أحدٌ ما ذلك؟ هل

فكر أحدٌ ما بذلك؟ من جهتي، فإنني أعترف بأنني في تلك الفترة لم أكن أنوي ذلك أبداً. أبداً. لم يكن بإمكاني ذلك... ولم يكن بإمكان أحد أن يظن ذلك. هل أردت أن آتي إلى فرنسا وأن أعمل فيها طيلة حياتي؟ ومع ذلك، فإنّ هذا ما جرى. هل أردت أن أحضر زوجتي وأولادي إلى فرنسا؟ أقول لك بصدق أنه لايمكنني أن أقول أو أعترف لذاتي بذلك. في أيامي، كان ذلك لا يزال جزءاً من الأمور الممنوعة ولم يكن أحدٌ يتحدث عنه؛ كان ذلك معيباً. ومع ذلك، فإن هذا قد حدث. لقد حدث ذلك لي وللعديدين مثلي، بل ربما للجميع تقريباً. قبل ذلك، لم يكن أولئك الذين كانت عائلاتهم معهم في فرنسا يمثّلون سوى حالاتٍ نادرة، استثنائية. (...) يتقبّل المرء الأمور كما تأتي. فذلك الذي هنا، في فرنسا، مع أسرته التي قدمت من هناك - يتزوج البعض الآن هنا، وهذه الحالات تتزايد - لايمكنه ألا يقول لنفسه وللجميع بأنه أحسن صنعاً. (ألا يقولون عنا، نحن المهاجرين في فرنسا، بأننا أرامل بحياة زوجاتنا، وبأننا قد فقدنا أولادنا؟) والشخص الذي ليست عائلته بصحبته وذلك ببساطة لأنّ مصادفات الحياة لم تجعل الهجرة عائلية، يستدرك الأمر بالتأكيد على أنه جاء وحيداً إلى فرنسا بملء إرادته، لأنه يستنكر السهولة التي يستسلم لها الرجال قليلو الشرف. ولم يعد المرء يسمع إلا ذلك بين المهاجرين منذ أن أصبح استقدام الأسرة هو العادة: فالبارحة، وكما أصبحت عليه الحال اليوم، كلٌّ يدافع عن قضيته؛ والجميع يتظاهرون بأنّهم أرادوا حقاً وضعهم، ولا يجدون في ذلك الوضع سوى الحسنات. إنني أعرف هذه المناقشات التي لا تنتهي منذ أن أصبح عدد الأسر في فرنسا كبيراً، ومنذ نهاية الحرب في الجزائر (...). لماذا؟ لأنه لم يعد لدينا ذريعة الحرب وكل الأخطار الناتجة عن حالة الحرب، سواءً كان ذلك صحيحاً أم لا.

[...]

لقد آن الأوان كي ندرك بأننا وصلنا إلى الفشل التام.

◆ لكن ما الذي يمكن عمله غير ذلك؟

عباس- هذا صحيح. أنا أيضاً عاجز، أنا الأكثر عجزاً. لكنني لا أريد أن نغلق أعيننا. لا أحب أن نصنع الأوهام {الأخيلة}. الحقيقة هي أولاً في داخلنا (أو بيننا)، نحن ندين بالحقيقة لأنفسنا أولاً (...). هذه هي الحقيقة التي أحاول أن أقولها لنفسي وللآخرين: لنفسي أولاً -وأنا أقولها لنفسي بصمت- وللآخرين ثانياً -إن استطعت ذلك-، لكنها أمورٌ يستحيل قولها لسوء الحظ.

[...]

يصفونني بأنني «متوحش». وأنا أسمعهم يقولون ذلك عني؛ وحين يرغبون في أن يكونوا لطيفين، فإنهم يقولون «إنه رجل الحقيقة، إنّ ما يقوله حق، لكن لا يمكن العيش معه، لا يمكن لأحد أن يحتمله!» هذا ما أسمعهم يقولونه عني.. هذا صحيح. الحقيقة تؤلم وينبغي لها أن تؤلم. وحين لا تؤلم، فإنها مشبوهة. لست أنا من يقول ذلك بل القرآن. لقد علّمني أبي ذلك، ولم يكف عن ترديده وأنا أردده على نفسي باستمرار... الحقيقة تؤلم، وربما لهذا السبب أفضّل أن أقولها لنفسي بصمت... حينذاك لا أشتم أحداً... ولا أحد يشتمني.

[...]

❖ لماذا حين يتعلق المرء بقول الحقيقة، بأن تقول للمهاجر حقيقته، تلك التي تعتقدها، يصبح ذلك شتيمة، يعادل ذلك شتمه؟

عباس- ليست الهجرة للعمل في فرنسا هي الخطأ، بل هو كل ما تبعها، إنه الطريقة التي عاش بها كل من عاش كل هذا الزمن في فرنسا: هو بادئ ذي بدء ما فعله بنفسه طيلة تلك الفترة؛ هو ما فعله بأسرته وأولاده فيما بعد. إنه كل هذا. وحين ننظر اليوم إلى هذا كله، وبعد أن أعدنا النظر بكل ذلك بعد فترةٍ طويلة، بعد أن حدث، اليوم وقد وصلنا إلى نهاية حياتنا هنا في فرنسا، لأننا نصل إلى نهاية حياتنا الكلية، واقترينا من الموت، اليوم آن الأوان لكي ندرك بأنه الفشل التام. هذا ليس أمراً مفرحاً. خلال ذلك حصلت فوضى؛ خلال ذلك انحرفنا نحو الغرب {لقد أضعنا «الشرق»، وأصبح الغرب منفى لنا أيضاً}.

◆ لماذا حصل ذلك؟ يبدو وكأنك تقول بأنه قد حصلت «خيانة»، كأنها غلطةً ارتكبت وهي ليست غلطةً في السلوك، بل تجاه الذات وضد الذات؛ كما لو كانت إنكاراً للذات.

عباس- نعم، إنه هذا بالضبط. لقد أنكرنا كل شيءٍ من ذواتنا وأسلافنا وأصولنا وديننا. لقد كفرنا جميعاً.

[...]

ذلك المسجد في المصنع، إنه محض كذب.

{هذا الرجل الذي فهم إلى هذه الدرجة وضعه كمهاجرٍ والآثار الحتمية التي أحدثتها الهجرة عليه وعلى أسرته قد فهم كذلك الدور السياسي الذي يعطيه البعض لديانةٍ مهيمنٍ عليها في مجال «تدجين المقهورين».}

عباس- لا المسجد ولا الصلاة هما ما يصنع المسلم. يمكن للمرء أن يصلي ويذهب كل يومٍ إلى المسجد، لكن حين يكون قلبه أسود، حين يكون مدنساً، حين تكون كلّ أفعاله عوجاء، فالصلاة لا يمكنها أن تفعل شيئاً. إنه بنظر الناس خبيث، والخبثاء كانوا دائماً عديدين في الدين. هناك ما هو أخطر...، فلو اقتصر الأمر على ذلك لما كان له أهمية كبيرة، لكن «الخبثاء» يُصغى إليهم دائماً. اذكر أنه قيل كثيراً، حين كنت لا أزال أعمل، عن إحداث مسجدٍ في المصنع، وقد أثار ذلك الأمر ضجةً كبيرة. لقد شارك الجميع في ذلك. كان لكلّ شخصٍ رؤيته للأمر: فالبعض كانوا مع إقامته...، وعارض البعض الآخر... لمَ يكون هناك مسجدٌ في المصنع؟ لم يكن قد وجد أبداً قبل ذلك. في الحقيقة، هذا المسجد مجرد كذب. لقد كثر الحديث عن هذا الأمر في حينه. ينبغي أن يكون لنا مسجد. لست أدري كيف تجري الأمور اليوم في المصنع، فقد تركته، لكنني أعرف بأن الجميع قد نسوا وجود مسجدٍ في المصنع، بدءاً من أولئك الذين كانوا الأكثر حماساً في مطالبتهم بوجوده. لم يدم الأمر سوى فترةٍ وجيزة. وبعد أن حققوا ضربتهم – ويمكن أن نقول بأنهم حققوا تلك الضربة – لم يعد للمسجد أهمية، وعرف الناس

حقيقة الضربة التي أخرجت بشكلٍ جيد، وهي أنّ المسجد، بذاته ولذاته، لم يكن له أية أهمية: لم يكن الأمر يتعلق به في واقع الأمر، بل بشيءٍ آخر؛ وقد تأكد الجميع من ذلك، لقد أجمع الكلّ على هذا الأمر، الكل ساروا في هذا الاتجاه. أنا أعرف جيداً جميع أولئك الذين تبجحوا في تلك الفترة قائلين: «سنقدم لكم مسجداً هنا؛ سوف ننتزعه منهم، سواءً قبلوا بذلك أم لم يقبلوا!». ربما كانوا يتخيلون في تلك الفترة بأنهم سوف يذهبون بعد ذلك إلى الجنة مباشرةً. (...) كان انتصارهم سيتمثّل في أن ترفض الإدارة إقامة المسجد، وكان سيكون له في تلك الحالة قيمة، قيمته الحقيقية. عوضاً عن ذلك، رمي بوجههم كشيءٍ لا قيمة له؛ فقد كان أقل كلفة من زيادةٍ في الرواتب بمقدار يقل عن مائة فرنك شهرياً، وهي زيادةٌ كان سيتوجب الإضراب والتظاهر والتحرك مع النقابات والتفاوض لأسابيع وأسابيع للحصول عليها. إنّ إقامة مسجد تكلّف من المال والاهتمام أقل من بضعة فرنكات. لكن هل يمكنهم أن يفهموا ذلك؟ لا هؤلاء ولا أولئك. وحين يقولون بأنه «لا يوجد كنيسة لكنه يوجد مسجد» فإنهم لا يعلمون بأنّ النضال كان سيكون شرساً لو أنّه وجد بعض المجانين ليطالبوا بكنيسة. لكننا نعلم بأنه لا يمكن أن يوجد عندهم مجانين من هذا النوع. ثم إنّ الكنيسة بالنسبة لهم مقدسة لدرجة أنهم لم يكونوا سيلوثونها بوضعها داخل المصنع.

[...].

اليوم، وبعد أن أصبحت متقاعداً وتركت المصنع ولا أعلم ما الذي يجري هناك، فإنني لا أزال أتساءل كيف قبلوا بأن تفتح صالة سموها بالمسجد. لماذا قبل المصنع ذلك، لماذا قبلت فرنسا ذلك؟ ليس بمقدوري أن أعطي الدليل، فهو ليس بحوزتي. لكنني متأكد بأن المصنع وفرنسا يقبلان بذلك ضد الإسلام...

❖ لماذا؟ هل لأن فرنسا مسيحية؟

عباس- لا، ليس ذلك لأن فرنسا مسيحية، بل لأن فرنسا لا تكترث. إنها لا تهتم بالأمر. لا تهتم لا بالإسلام ولا بديانتها هي. (...) «إنهم يريدون

مسجداً، وسيحصلون عليه؛ لنعطهم مسجداً...، المهم هو أن لا يزعجونا...»
هكذا فهمت الأمر. لقد أعطونا المسجد بدافع الاحتقار نوعاً ما. (...) بلى،
لقد كان علينا نحن أن نفرض الاحترام الذي يستحقه الدين وأن نعيد إلى
النظام أولئك الذين اعتقدوا بأنهم سيكسبون شعبيةً بفرض وجود المسجد...
كان ينبغي أن تسمعهم في تلك الفترة. لقد كانوا يقولون في كل مكانٍ
يذهبون إليه بأنهم سوف يُخضعون أرباب العمل والحكومة وفرنسا وكل
العالم. كانوا يصورون الأمر على أنه تحدٍ وطريقةٌ يزعجون بها الإدارة: فإما
أن تخضع الإدارة ويتخيلون إذن بأنهم منتصرون، أبطال؛ أو أن ترفض،
ويربحون أيضاً لأنهم تجرأوا على أن يقيموا نزاعاً لم يسبق له مثيل معها.
إذا حصلوا على المسجد، فهذا حسن؛ وإلاّ فإننا نكون قد أزعجنا الإدارة.
وهم في الحالتين يريدون أن يظهروا بأنهم مسلمون جيدون، بأنهم مدافعون
عن الإسلام. لم يكن بإمكاننا أن نحارب كل الناس علناً، لأنه كان سينبغي
محاربة الناس كلهم، كجميع العمال المسلمين أو الذين يظنون بأنهم مسلمون
- وحينذاك، فإننا كنا سنبدو أعداء للمسجد وللدين- وكذلك للأسف، وهذا
ما يؤلم، ضد المؤسسة التي ليس لديها دون شك رغبةٌ في أن تدخل في نزاعٍ
مع جزء من العاملين لديها. ومن أجل ماذا؟ من أجل مسجد! إنها تقبل بمثل
هذا النزاع حين يتعلق الأمر بالرواتب أو بشروط العمل، لكن من أجل مسجد
بسيط، ماذا يعني ذلك؟ إنه يعني عنبراً، خمسة عشر متراً مربعاً... ، الأمر
لا يستحق النزاع. والمؤسسة تنوي بالتأكيد أن تأخذ بثأرها، إنها تنوي أن
تستدرك الأمر وأن تسترد ثمن كرَمها وتساهلها الذي لا يكلفها شيئاً بالنسبة
لأمورٍ أخرى. وحين يأتي الوقت المناسب، فإنها سوف تتذكر وتقول، «لقد
أردتم مسجداً، وقد أعطيتكم إياه؛ إن وجود مسجدٍ في المصنع يعني ربع
ساعةٍ على الأقل على حساب وقت العمل...». ولذلك، فإنها تدخل في الأمر
كافة العمال المسلمين، سواءً كانوا يصلّون أو لا يصلّون، فالأمر لا يعنيها.
«ربع ساعة، دون إنقاص الراتب، هذا يعني زيادةً في الراتب بالقيمة
ذاتها...، وينبغي استدراك هذه الزيادة قبل التفكير في أية زيادةٍ أخرى.»
هذا ما ستقوله إدارة المصنع وستكون على حق. أي أن من سيدفع الفاتورة

في نهاية الأمر هم العمال المسلمون الجيدون الذين سوف يتابعون الصلاة في بيوتهم كالعادة، وكذلك كافة العمال غير المسلمين.

[...]

المسجد إذن ليس هو المسجد، ونحن لا نطالب به بصفته مسجداً؛ إنه شيءٌ آخر. والجميع يعرفون ذلك: مناصرو المسجد والنقابات التي تساندهم دون أن تساندهم، وكافة العمال المسلمين، وإدارة المصنع.

المهاجر هو «العار مرتين»

❖ كنت تشرح لي على ما أظن ما هو المهاجر.

عباس- كان ذلك لكي أقول لك بأن المهاجر يعني العار. إنه العار مرتين: مرةً بسبب الوجود هنا، فيوجد دائماً شخصٌ ليقول لك ولكي يجعلك تقول - يجعلك تقول لنفسك، هذا ما أحسسته طيلة حياتي - لماذا، ولأية أسباب أنت هنا، أنت هنا فائضٌ عن الحاجة، ليس هنا مكانك، لست أرى إن كنت أنت تشعر بالأمر على هذا النحو أم أنّ الخطأ خطأي وحدي، إن كان ذلك يعود لي أنا، كما لو كان شكلاً من الجنون، هل أنا مجنون؟ إلاّ أنني متأكد من أنّ هذا هو الأمر بالنسبة للجميع، وبصورةٍ تتفاوت حسب الأشخاص، فهذا ما يعنيه كون المرء مهاجراً وهنا، بتجربة هذا المكان، نتعلم ذلك. ينبغي أن يمر المرء بذلك (...).

❖ ما هو العار الثاني؟

عباس- العار الثاني هناك، إنه يتمثل في ترك البلد، في الرحيل من هناك، يتمثل في الهجرة. فالهجرة هي خطأٌ دوماً، سواءً شئنا أم أبينا، حتى حين يخفي الجميع ذلك، حين يخفونه على أنفسهم، حتى حين لا يريد أحدٌ الاعتراف بذلك. يفعل المرء كل شيءٍ لتُغفر له وليغفر هذه «الغلطة» الضرورية، هذه «الغلطة» المفيدة، هذه «الغلطة» التي لا يريدها أحدٌ والتي لا يريد أحدٌ أن تكون «غلطة». هذا هو «عار» المهاجر، وهو، سواءً أردنا ذلك أم لم نرده، «عارٌ» على نفسه، «عارٌ» على أهله، «عارٌ» على الجزائر...

وفـي كلّ مـرةٍ أُشتم فيها لكونـي مـهاجراً، فـإن الجـزائـر هـي التـي يتـم شتمها (...).

◆ بكلماتٍ أخرى، فإنّ صورة المهاجر في البلد الأصلي ليست أفضل من صورته في بلد الهجرة.

عباس- على الإطلاق. بل هي أسوأ بالتأكيد. في السابق، لم يكن الأمر بهذه الصورة بل كان صحياً أكثر. كان الناس يهاجرون كي يعملوا، من أجل عائلاتهم، وكان الأمر قاسياً على الجميع؛ كانوا يرثون لنا، لكن لم يكن من الوارد أن نتّهَم بأيّ شيءٍ أبداً. وإن كان هناك اتهام، فإنه كان يحصل فقط حين نفشل أو حين نخلّ بالتزاماتنا، أو حين ننسى أن نرسل المال. كان هناك اتفاقٌ كامل من كلا الجهتين، وكان الكلام هو ذاته: فقد كان رجالنا يهاجرون ليعملوا من أجلنا؛ كنا نهاجر لنعمل من أجل عائلاتنا! لكن لم يكن من الممكن أن يستمر هذا الأمر على الدوام، وخاصةً حين اخذ معظم الرجال يهاجرون إلى فرنسا بصحبة عائلاتهم، إذ أنّ كلّ شيءٍ تغيّر حينذاك. لم يعد بإمكان تلك العائلات أن تقول، «لقد هاجر رجالنا من أجلنا» ولم يعد باستطاعتنا، نحن المهاجرين، أن نقول «لقد هاجرنا من اجل عائلاتنا». لقد وصلنا الآن إلى توجيه الشتائم لبعضنا: كلّ جهة من الجهتين تحاكم الأخرى، وأصبحت تقول للأخرى بأنها لا تساوي شيئاً؛ وقد تفاقم الأمر بصورةٍ خاصة بعد أن دخلت أمور المال، أي ما يسميه الجميع، هنا وهناك، السندات المالية: فقد أصبحنا الآن نبيع ونشتري المال، ولم نعد نرسل المال لعائلاتنا مثلما كان المهاجرون يفعلون ليكونوا مهاجرين يعملون من اجل عائلاتهم. الجميع يأتون إلى فرنسا ليشتروا السندات المالية والجميع هنا يبيعونها، لكن الجميع يتهمون بعضهم، ويمقتون بعضهم بعضاً بسبب ذلك. يقال بأن الناس هناك الذين لا يملكون شيئاً والذين ينقصهم كل شيء لا يأكلون إلاّ بفضلنا، وبأنهم يعيشون على حسابنا.

◆ كم هو الآن سعر السوق الموازية، «السوق السوداء» للمال؟

عباس- حين تريد أن تقدم خدمةً لأحد اقاربك أو احد أصدقائك،

فهو 1 إلى 6؛ وعدا ذلك، فإن السعر هو 7. بل إنه يقال بأن السعر سوف يرتفع إلى 8. لمَ لا؟ ليس هناك سببٌ ليتوقف هذا الأمر يوماً ما (...). نعم، ستة أو سبعة أو ثمانية دنانير مقابل فرنكٍ واحد من فرنسا! لكن بما أن كل شيءٍ هناك مرتفع الثمن، وكل شيءٍ يباع في السوق السوداء، فإنهم يردون الأمر لنا جيداً. فما أن تصل إلى هناك وتحتاج لشراء شيءٍ ما حتى يقولوا لك: «فرنسا هي التي تدفع!» {بالفرنسية}.

نحن ننظر إلى بعضنا لا أكثر

❖ .. كيف تجري الأمور؟ ألست نادماً؟ أبناؤك يتدبرون أمورهم جيداً، الذكور منهم والإناث، كيف تجري الأمور بينكم؟

عباس- (...) أقول لك بدايةً بأنّني في كلّ ما قلته حتى الآن، حين كنت أتكلم عن الآخرين... عن الآخرين ظاهرياً، فإنني أتكلّم أيضاً عن نفسي... أنا أعرف وأشعر بأنك قد فهمت ذلك، ولأنك فهمته، فإنه بإمكاني أن أعترف به. وحين أتكلم عن نفسي، فإنني أتكلم عن الآخرين...

❖ لكنه يبدو مع ذلك أنك تلوم الآخرين وتتألم من كون الآخرين لا يطبقون على أنفسهم الكلام الذي توجهه لهم، ولنفسك بالتالي.

عباس- هذا لا يمنع. نحن لا نقول إطلاقاً الأشياء ذاتها، لا نقول لأنفسنا الأشياء ذاتها، لكن هذا لا يمنع من أننا نتحدث عن المواضيع ذاتها، ربما بشكلٍ مختلف، لكن الأمر يؤدي لنفس النتيجة في النهاية: سواءً كان الكلام صادقاً أم كاذباً، فإننا نقول الشيء ذاته، كلٌ بطريقته، لأننا جميعاً نعيش الوضع ذاته. كلٌ يحلّ مشاكله كما يستطيع.

❖ لكن هل بوسعك أن تتحدث عن أولادك مثلما تتحدث عن أولاد الآخرين؟ ... فحين نرى مثلاً المصائب التي تصيب كلّ أولئك الأولاد كالبطالة...، والمخدرات...، والعنف...، والسجن في كثيرٍ من الأحيان...، فإنه لا يمكن قول الشيء ذاته عن أولادك. أمورهم مستتبة.

عباس- أوه! الأمر ليس صحيحاً تماماً... بل نسبياً فقط. لكن الأمر

مماثل في كل مكان. إنه صحيحٌ في بعض الحالات، والأسوأ لم يحدث لكن كان حدوثه ممكناً. إنه أمرٌ يخصنا جميعاً... يمكن أن نتساءل: ماذا يعني أن يكون للمرء أولاد في هذه الظروف، أولادٌ كهؤلاء؟ نحن ننظر لبعضنا بعضاً لا اكثر؛ نتقابل في البيت وكلٌّ حسب أوقاته. وإذا شاؤوا، فإنه يمكن أن لا نرى بعضنا لعدة أشهر في حين أننا نعيش تحت السقف ذاته.

◆ ولمَ ذلك؟

عباس- لمَ؟ لأن أبي رباني بطريقةٍ تختلف عن الطريقة التي ربيت بها أولادي.

◆ هل كنت تودّ لو أنك ربيتهم مثلما رباك أبوك؟

عباس- لا، ليس بالضرورة؛ بل على العكس، فأنا أعرف بأن ذلك غير ممكن... وكذلك لأنني لست راضياً عن الطريقة التي رباني بها والدي. لكنّ الطريقة التي رُبيت بها تمّت لأنّه لم يكن بوسع أهلي أن يفعلوا غير ذلك. لا هم ولا أحد غيرهم. كانت الأمور تجري هكذا لا أكثر. لكن حين تغيرت الظروف – هنا، الأمر مختلفٌ تماماً- فقد أصبح بإمكاني أن آمل، كان من حقي أن أفكر بأن الأمور يمكن أن تجري بطريقةٍ مغايرة.

◆ وإذن، ألم تجرِ الأمور بطريقةٍ مغايرة؟

[...]

عباس- لا، الأمر لا يتعلق بالطريقة التي يمضي بها من يعملون أوقاتهم، بل على العكس، فلأنّهم لا يعملون، يكون قضاؤهم لأوقاتهم مختلاً: النوم حتى الظهيرة، والاستيقاظ، ثم تحضير فطورٍ دسم، ثم الخروج وعدم العودة قبل الواحدة أو الثانية ليلاً؛ وإذا جاع أحدهم، فإنه يفتح الثلاجة ويتناول منها ما يشاء، ثم يذهب للنوم حتى اليوم التالي في الثانية عشرة أو الواحدة ظهراً وتعود الكرّة من جديد (...). البيت لا يجمع كما تقول. ليست مشاغل النهار أو العمل هي فقط التي تفرّق أو تجمع، ففي الحقيقة، كلٌّ يمشي في دربه، كلٌّ يسير حسب طريقه. لم تعد دروبنا تتقاطع في ما بينها، وهذا ينطبق على كل شيء: على الطريقة التي نعمل بها، والطريقة التي

نكسب بها المال وننفقه، والطريقة التي نأكل أو نشرب وفقها (...). وهذا لا يتعلق بالدين فقط؛ فالأمر مختلف حتى حين لا ينغمسون في الخطيئة، إنها ليست الطريقة ذاتها في الأكل والشرب. وفي النهاية، فإننا نصبح مختلفين جداً عن بعضنا بعضاً. يجمعنا شيءٌ واحد: أنا أبوهم وأمهم هي أمهم، نحن أبواهم، وهم أولادنا. هل هم يقولون ذلك، يقولون بأنهم أولادنا؟ الأمر ليس أكيداً بالدرجة ذاتها(...). نحن ضمن عالمين مختلفين؛ كلٌّ حسب ذهنه، إنه لأمرٌ طبيعيٌ ألا يجري بيننا شيء... إلاّ في بعض الاستثناءات النادرة، حين تحصل كارثة. وهذا في أحسن الأحوال: فحين يكون هناك شيءٌ هام، أنادي واحداً منهم ليأتي إليّ وأطلب منه أن يستمع إليّ جيداً أن ينتبه إلى ما سأقوله له، ربما يتذكرون حينذاك بأنه يوجد شيءٌ يجمعنا.

❖ يصعب عليّ أن أتخيل الأمور على هذه الصورة المأساوية التي ترسمها لي مع أولادٍ كأولادك.

عباس- نعم، على هذه الصورة. وهذا في أحسن الأحوال؛ وهي الحال مع أولادي. ومع ذلك، فلا توجد عندنا مشاجرات، ولا أحد يرفع صوته. كلّ شيءٍ يتمّ بأقصى أشكال التهذيب. لكن الأمور هي كما قلت لك. هناك من حينٍ لآخر تبادل حقيقي، ويجري مع أمهم أكثر مما يجري معي. أما في باقي الأحيان، فنحن نعيش معاً، وهذا كل شيء.

[...]

كما لو كانوا لا يريدون أن يعملوا إلا حين يطيب لهم

❖ بالنسبة لابنك البكر، كم هو عمره وماذا يعمل؟

عباس- نعم.. الأول هو.. وقد بلغ الآن.. لقد ولد قبل الاستقلال {في الجزائر}، وليس لديه بالتالي جنسية فرنسية. إذن عمره واحدٌ وثلاثون أو اثنان وثلاثون عاماً. إنني أفهمه أقل من باقي أولادي. لديه كلّ شيء، وقد عملنا كلّ ما يمكن عمله من أجله. يمكن له أن يعمل، هو بالذات يستطيع أن يجد عملاً بسهولة، لكنه لا يفعل. أنا لا أفهم. ليس هناك أي سببٍ لذلك. لم

أتوصل إلى العثور على تفسير. ينبغي عليّ الإقرار بأنه ما من سببٍ آخر سوى الكسل...، إنه التفسير الوحيد المتبقي: فهو لا يحب العمل، لا يريد أن يعمل، يرفض أن يعمل... هذا يعني بأنه كسول. ليس بمقدوري أن أرثي له، ولا أن أقول بأنه لم يجد عملاً، فهو لم يبحث يوماً عن عمل... بل على العكس، لقد رفض عملاً. أعتقد بأنهم متخاصمون مع العمل، فهو ليس وحده، إنهم مجموعةٌ كاملة يجرجرون أنفسهم بهذه الطريقة.

◆ لماذا إذن لا يعمل كلّ أولئك الشبان، في حين أن بإمكانهم إيجاد عمل كما تقول؟

عباس- تستطيع أن تسألهم!... وما أدراني أنا؟... إنني أتساءل مثلكم، ولن يقولوا لك هم أنفسهم لماذا لا يعملون. إنهم على الأغلب لا يعلمون. يحصل أن أطرح هذا السؤال...، ولم أتمكن يوماً من الحصول على بداية إجابة. الصمت! إنه الجواب الوحيد المتوافر. فالمعني يدير ظهره لي ويذهب. لكنني مع ذلك أسمع ما يقال: الأشياء التي لا بد أنهم يقولونها في ما بينهم، لأنّنا نسمعهم مع ذلك يتكلمون؛ الأمور التي يقولها البعض لأهلهم، فالبعض يتكلمون... ويتكلمون بعنف- إنهم ليسوا كلهم مثل أولادنا الذين يظلون مؤدّبين، أعترف بذلك-؛ الأشياء التي نتحدث عنها في ما بيننا، فنحن لا نتحدث إلا عن هذا، لم أقابل أحداً يوماً إلاّ وأخذ يشتكي إليّ على الفور من أولاده: إنه الشيء ذاته في كل مكان، إنه الداء ذاته، ونحن جميعاً نشتكي من الأمور ذاتها بدرجةٍ متفاوتة، حسب الدرجة التي بلغها الشبان... فهناك بالطبع فروقٌ بين الحالات التي حصل فيها سرقة أو تحطيم أو تدخل للشرطة أو سجن، الخ.، والحالات التي تبقى فيها الأمور في البيت، والتي لم يحصل فيها انحراف، ولا شيء يُرى، لا شيء يُسمع، وحيث يبدو كل شيء على أفضل ما يكون؛ الحق معك، فآباء الحالات من النوع الأول يحسدون آباء الحالات من النوع الثاني.

◆ وما هي تلك الأمور؟

عباس- إذا أخذنا أقوالهم، فإنهم يقولون: إننا لا نريد أن نعمل ولا

نريد عملَهم. أفترض أنهم يقصدون الفرنسيين، العمل الذي يمنحه إياهم الفرنسيون، الذي تمنحه لهم فرنسا... حين كنا نحن نبحث عن عمل، كنا مسرورين جداً حين نجده وكنا نقول: «عَمَلنا»... لم نكن نقول «عملهم». الأمر الآن معكوس، فالعمل الذي يمكن لهم أن يجدوه، وهم يجدونه، أصبح عمل الآخرين، إنهم يعملون لحساب الآخرين. لذلك؛ فهم يقولون، يقولون لك ولأنفسهم، بأنّ الأمر لا يستحق أن يعملوا لحسابهم، لحساب الآخرين. المرء يعمل دوماً لحساب شخصٍ آخر، لصالح ربّ عمل، هناك على الدوام ربّ عملٍ يعمل المرء لصالحه. إنهم لا يتقبلون هذا الأمر. أما أنا، فيبدو لي بأنه ليست لديهم رغبةٌ في العمل، بأنهم لا يحبون العمل، بأنهم يفضلون أن يعيشوا حياةً بائسة، فهم متأكدون بأنهم لن يموتوا من الجوع، لذلك فإنهم يرددون بأنهم «لن يعملوا لحساب الفرنسيين!» إنهم لا يتذكرون إلاّ بمثل تلك المناسبة أن هناك فرنسيون وأنهم في فرنسا؛ أما بالنسبة لكافة الأمور الأخرى، فإنهم فرنسيون وهم يقولون ذلك، يقولون بالفعل - حين يناسبهم أمرٌ ما- بأنهم موجودون في فرنسا وبأنهم فرنسيون! لكن ليس بالنسبة للعمل!

❖ لكن كيف يتدبرون أمروهم؟ إنهم بحاجةٍ لبعض المال كل يوم من أجل نفقاتهم حتى لو كان المأوى والطعام مؤمنين لهم عند أهلهم. وهم ينفقون كثيراً: سجائر، سينما، مقهى؛ لديهم سيارات، ويلزمهم إذن مال لوقود السيارات ولصيانتها. لا بد أنهم لا يعودون لطلب المال من أهلهم كالأطفال الصغار.

عباس- آه! إنهم يعرفون كيف يتدبرون أمورهم من أجل الحصول على المال، فهو لا ينقصهم أبداً. وهم يفعلون ذلك دون أن يحتاجوا أبداً لسرقته. هم يعملون أقل ما يمكن: عاماً من أصل عامين، أو بضعة أيامٍ في الأسبوع، أو بضع ساعاتٍ في اليوم. يعملون أقل ما يمكن بحيث يظلون في حالة نظامية، بحيث يكون لديهم بيان راتب. ويتراوح وضعهم بين العمل أحياناً والبطالة أحياناً أخرى. ويمضي الوقت.

❖ هذا ما يدعونه الآن «بالأعمال الصغيرة».

عباس- ربما يسمى ذلك بالأعمال الصغيرة {بالفرنسية} . لكنها عادة ليست وظائف صغيرة مثلما يمكن للمرء أن يتخيل، إنها ليست صغيرةً جداً...، فهي تدرّ عليهم أو ينبغي أن تدرّ عليهم ما يكفي لحياتهم، وهي تدرّ عليهم خاصة، أو أنها بالأخص «تملأ أفواههم {بالفصحى: «تنفخهم»: «أنا أعمل أستاذاً هنا، أو أعمل أستاذاً هناك»، مثلاً} . لا أعلم ما هو مقدار الصحة في كلّ هذا .

❖ إلى من تلمّح؟

عباس- كثيرون هم من يعيشون هذا الوضع، كأكبر أبنائي مثلاً. لديه دائماً بضع ساعات تدريس في تلك المدرسة أو تلك. وهو يدرّس الرياضيات أو الفيزياء، فهذا ما درسه هو. ومعه أيضاً ابن أختي الذي يزيده سناً، والذي يعطي هو أيضاً دروساً أجهل ما هي بالضبط، لكنه هو أيضاً يقول بأنها أحياناً دروسٌ في الاقتصاد وأحياناً أخرى دروسٌ في المحاسبة. وأفكر أيضاً بشاب آخر هو ابن أحد أقاربي؛ كان يجب أن يكون مهندساً فقد درس في كلية للهندسة، لكنه يعيش هو أيضاً بهذه الطريقة. وأنا هنا لا أتكلم سوى عن الأشخاص الذين يستطيعون الحصول على عملٍ حقيقيٍ مؤهل، وليس عن الآخرين الذين ليس بإمكانهم أن يفعلوا شيئاً. كما أنّ القول بأنّ أحداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً هو قولٌ لا يمكن أن ينطبق على أحدٍ إلاّ في حال كان ذلك الشخص معاقاً، والحال ليس كذلك في ما نقوله. وما ينبغي قوله أيضاً، وهو أمرٌ ينبغي أن نعترف لهم به، هو أنهم عند الضرورة، حين يحتاجون لكسب المال، يَقبلون بأن يقوموا بأيّ عملٍ كان، ولديهم شبكتهم الخاصة. فما إن ينفتح بابٌ أمام أحدهم حتى يتبعه العديدون، ويتناقلون المعلومات التي بحوزتهم. إنهم يعملون، لكن الأمر يبدو كما لو أنهم لا يريدون أن يعملوا إلا حين يطيب لهم ذلك؛ وهم يقولون بأن الذهاب إلى العمل كل يوم في ذات التوقيت للقيام بذات العمل شيءٌ مملّ وأنّ مثل هذا العمل لا يستهويهم.

[...]

يبدو لي أنه كان بإمكانهم خلال كل هذه الفترة أن يجدوا عملاً

حقيقياً. بما أنهم قادرون على العثور على عمل بين ليلة وضحاها، فإنه كان بمقدورهم أن يبقوا فترةً أطول في أحد هذه الأعمال، سواءً أعجبهم أم لم يعجبهم. وبعد أن أصبحوا لا يتوقفون عن التجريب، وعن تغيير الأعمال، وعن القيام بكافة الأعمال الممكنة والتي يمكن تخيلها، من نقل الأثاث إلى الدهان والأعمال اليدوية المتنوعة، فإنهم سينتهون إلى العثور على شيء يناسبهم، على شيءٍ يعجبهم! لكن لا شيء.

❖ لكن هنالك مع ذلك من لا يجدون عملاً، من هم عاطلون فعلاً عن العمل.

عباس- أوه! بلى، وهم للأسف كثيرون جداً. لكنهم ليسوا مثل أولئك، لا يمكن أن يقارنوا بهم. بل إنني أعتقد بأنهم لا يختلطون في ما بينهم ولا يحبون بعضهم. يمكن بنظرةٍ واحدة ملاحظة الفارق بينهم وكلّ ما يفصلهم عنهم. لكن النتيجة هي ذاتها بعد كلّ حساب: فالبعض لا يعملون لأنّ العمل ليس على مزاجهم، والبعض الآخر لا يعملون لأنهم لا يجدون عملاً؛ ويتفق هؤلاء وأولئك في أنه لا عمل لديهم إلاّ من حينٍ لآخر، لا عمل لديهم إلاّ ما يجدونه هنا أو هناك. وهذا في أحسن الأحوال، حين يتفق الجميع على أن العمل هو الوسيلة الشريفة الوحيدة لكسب المال، فلا سرقة ولا سوق سوداء.

❖ لقد بدأت في الحديث عن ابنك البكر. وإذا كنت قد فهمت جيداً، فإنه قد نجح نسبياً في المدرسة، فقد قلت لي بأنه أحياناً يدرّس الرياضيات والفيزياء.

عباس- نعم، لقد قمنا بكل ما بوسعنا كي ينجح في دراسته. لقد أمضى وقتاً طويلاً في الدراسة لأنه اضطر لتغيير وجهته عدة مرات؛ هذا ما قاله لي دوماً. أما أنا، فإنني عاجزٌ عن معرفة الأمر. لقد فعلنا كل شيء وقبلنا بكل شيء من أجله. وفي النهاية، درس في مدرسةٍ في شمال فرنسا، في مدينة ليل، وهي مدرسة للميكانيك، وحصل منها على دبلوم. كان بإمكانه أن يعمل كمهندس ميكانيك في مصنع؛ كان سيكون مهندساً صغيراً بالطبع لكنه درس من أجل ذلك وحصل على الدبلوم الضروري لذلك العمل. لكنه لم

يحاول أبداً؛ وهو دائماً يقول لي بأنّ ذلك سيحصل قريباً، وهو ينتظر. ونحن ننتظر معه.

◆ هو غير متزوج، أليس كذلك؟...

حتى لو كنا نتظاهر بأننا لا نرى شيئاً

عباس- لم يكن ينقص إلاّ أن أزوجه... لا يكفي أنني أطعمه، بل عليّ أيضاً أن أطعم زوجته وقريباً أولاده. ربما يضع ذلك بعض العقل في رأسه: فحين يرغب في الزواج – لقد طُرح الأمر في فترةٍ معينة-، فإنّ ذلك سيوجب عليه أن يجد مسكناً، ولكي يمكنه ذلك، فإنه سنبغي عليه أن يعمل بجد. لقد آن الأوان لذلك.

{تركت ابنته الكبرى البالغة من العمر خمسةً وثلاثين عاماً البيت منذ عشر سنوات}

عباس- هناك في الواقع بنتٌ قبله. إنها بكر أولادي وقد بلغت الرابعة أو الخامسة والثلاثين من عمرها. لقد تركت البيت منذ حوالي عشر سنوات، وهي غير متزوجة.

◆ هل تعمل؟

عباس- إنها تعمل مذ تركت البيت، ولم تتوقف عن العمل أبداً... هذا على الأقل ما أسمعه. هذا ما تقوله لي أمها. أما أنا، فلا أعرف عنها شيئاً محدداً. بل يبدو أنها تكسب عيشها جيداً...، فهي تتكلم عن شراء الشقة التي تسكن فيها الآن.

◆ ما هي مهنتها؟

عباس- أوه! إنها حكايةٌ طويلةٌ جداً. لقد بدأت كلّ تأملاتي حول حياتنا هنا بسببها. كيف يكون المرء هنا، ويعيش هنا، دون أن يكون كما هم الناس هنا، دون أن يعيش كما يعيشون هنا؟ في البداية، كنت أعتقد بأن هذا ممكن؛ بل إنّ ذلك كان يجب أن يكون ممكناً. كان ينبغي أن يكون ممكناً، ولم يكن من الممكن أن يكون الأمر غير ذلك. كان ذلك في البداية، حين كنا

نعيش البؤس في مسكننا الذي كان بيتاً قديماً على وشك الانهيار (...) كان الأمر مقبولاً في المدرسة الابتدائية التي كانت قرب بيتنا، وكانت لا تزال صغيرة. لم أستطع أن أعرف حقاً كيف جرت أمورها في المدرسة. كانت تذهب إلى المدرسة، وحين أنهت مرحلة التعليم الإلزامي في السادسة عشرة من عمرها، كان ذلك أفضل برأيي. لقد عادت إلى البيت ولم تخرج منه بعد ذلك.

❖ ماذا يعني قولك «لم تخرج منه بعد ذلك؟»

عباس- ولماذا تخرج؟ ما الذي تفعله في الخارج؟ مكانها في البيت. كنت أجد ذلك الأمر طبيعياً جداً. لم يكن وارداً أن تسير الأمور بشكل مختلف. كان الأمر على هذه الصورة لا أكثر. حتى أمها لم يكن ينبغي لها أن تخرج.

❖ وكم دام ذلك؟ ألم يحصل من طرفها تمرد أو احتجاجات؟

عباس- لست أدري... ربما لم تكن سعيدةً بوضعها ذاك، لكن ما العمل؟ أعتقد بأنها هي نفسها لم تكن تعلم.

❖ ألم تطلب أن تعمل خارج البيت؟ ففي تلك الفترة التي لا بدّ أنها السبعينات، كان العثور على عمل أسهل مع ذلك منه اليوم؟

عباس- لم يطرح الأمر أبداً في تلك الفترة، فلم يكن ذلك وارداً ولا يجري... لم يكن يجري بعد في محيطنا.

❖ لقد رفضتَ وعارضتَ أن تعمل.

عباس- لا، لم أضطرّ لذلك. لم يرد عملها في ذهن أحد.

❖ كيف جرت الأمور بالنسبة لها خلال تلك الفترة؟

عباس- لقد عاشت في البيت، هذا كل شيء. لكن المشاجرات بينها وبين أمها لم تكن بالطبع تتوقف.

❖ ومعك أنت؟

عباس- معي، لم يكن ذلك وارداً إطلاقاً. لا معها ولا مع الآخرين.

ليس لي أن أناقش تلك الأمور معها. إنها تعرف رأيي وليس لنا أن نعود إليه، هي وكل الآخرين؛ هي وأمها أيضاً.

◆ لماذا لم تزوجها والحال كذلك؟ لقد طُلبت بالتأكيد للزواج، أليس كذلك؟

عباس- بلى، لقد طُلبت للزواج عدة مرات. لكن كل تلك الطلبات كانت تمر عبر أمها، وبما أن أياً منها لم يناسبني وأياً منها لم يناسبهما كما يبدو، فإنني لم أشأ أن أضغط عليهما. إنها بعد كل شيء ابنتي: لها الحق في الحياة في البيت حتى آخر أيامها... أو أيامي؛ من حقها ألاّ ينقصها شيء، ضمن إمكانياتي.

◆ لها الحق في ألاّ ينقصها شيء، سوى حرية تحركاتها!

عباس- أظنّ أنها لم تطلب يوماً أكثر مما لديها. رغم أنها لم تكن تفعل سوى أن تقاطع الآخرين كما سبق لي القول. كانت تقاطع كل شيء وكل الناس وأمها والوجبات بل وذاتها (...).

◆ وكيف انتهى كل ذلك؟

عباس- لقد انتهى بصورةٍ معاكسة لما كنت أريده في تلك الفترة... وما لا زلت أريده، لو لم يتجاوزنا الزمن، لو لم يهزمنا الزمن، لو لم يجبرنا الزمن على الخضوع وقبول ما لا يُقبل.

◆ بكلماتٍ أخرى، فإنّ الزمن هزمكم لكنه لم يقنعكم.

عباس- لا، إنه لم يقنعنا أبداً؛ ينبغي القول بأن ذلك صحيح. إنّ الله أقوى...! هناك أوقاتٌ ينبغي فيها أن يصمم المرء على قبول ما لايمكن تجنبه؛ لقد قاومناه وأبعدناه عنا ما أمكننا ذلك. لكن الحقيقة موجودةٌ هنا: لا يمكننا أن نعيش وحدنا في هذا العالم؛ نحن في فرنسا، وسواءً أعجبنا ذلك أم لم يعجبنا، فإن فرنسا هي هنا ونحن في داخلها، ومن الطبيعي أن تصبح في داخلنا، أن تدخل إلى داخلنا، حتى لو لم تدخل إلى قلوبنا. بالنسبة لي، فإن فرنسا لم تدخل ولن تدخل أبداً إلى قلبي، وهذا شيءٌ لا أخفيه، وأنا أقوله باستمرار، وأعيشه يومياً. أنا أعلم بأنني سوف أموت هنا،

وقد رأيت العديدين ممن هم في عمري وممن هم أكبر مني سناً يموتون، وكانوا قد أتوا إلى هنا لفترة مؤقتة مثلي، لكن كم كان من المفترض أن تدوم هذه الفترة؟ لم يكن بإمكان أحدٍ أن يعرف، لكن لم يكن بإمكان أحد أن يعتقد بأن ذلك كان سيمتد طيلة الحياة، وأنه سيمضي حياته كلها هنا. والأمر سيكون هو ذاته بالنسبة لكلٍ منا، وبالنسبة لي أيضاً. سوف يحصل ذلك يوماً ما، لكن ليس باستطاعتي أنا أن أعتبر بأنّ هذا البلد بلدي. إذن، ولهذا السبب، فإن المقاومة لم تعد تفيد في شيء. (...) أنا لم أتغير في أعماقي، ولم أتخلَّ عن شيء. لذلك فإنه ليس عليّ أن أساعد أو لا أساعد. إنني الآن أحتفظ بكلّ شيءٍ لنفسي. الآن، بعد أن أصبحت أعلم بأنه لا يمكن لأحد أن يؤيدني، حتى من أهل بيتي، فإنني أصمت. ليتصرفْ كل شخصٍ بالطريقة التي تجري هنا.

❖ هذا يعني بأنك تكتفي بعدم منع ما لم تعد قادراً أصلاً على منعه. لكن كيف جرت الأمور في حالة ابنتك؟

عباس- أنا نفسي لا أدري... هناك سلسلةٌ كاملة من الأسباب الصغيرة والتي توصل إلى حدوث الأمر دون أن نعرف حقاً كيف حدث. هذا صحيح. وحتى لو تظاهرنا بأننا لا نرى شيئاً وأننا بالتالي لا نقول شيئاً، فالأمر جليّ: تلك الفتاة كانت تعيسة. نحن متفقان على أنه لم يكن ينقصها شيء وأنها كانت في البيت وأنني كنت أصرف عليها، وأنها كانت عند أهلها أي في بيتها بشكلٍ طبيعيّ جداً. لا يمكن توجيه أي مأخذ على هذا كله...، ولم يكن يبدو بأنها تقول شيئاً ضده، لم يكن يبدو بأنها تقول شيئاً إطلاقاً. لكننا كنا في الواقع نتظاهر بأننا لا نرى شيئاً، وهناك سلسلةٌ كاملة من العلامات التي كانت تشي بعدم الوفاق مع هذا الوضع وبالاحتجاج ضده، معي أنا على الأقل، فالمناقشات مع أمها كانت عنيفةً بالأحرى.

❖ بما أنك كنت تعلم، كيف كان رد فعلك؟

عباس- نحن معتادون على هذه الأمور. بالنسبة لي، هما امرأتان في البيت، حتى لو كانت إحداهما هي الأم والأخرى هي الابنة، ولا يمكن تجنب

وجود مشاكل بينهما؛ هذا ما كنت أقوله لنفسي. ولم أكن أستمع، أو أنني كنت بالكاد أستمع حين كانت أمها تقول لي، وكنت أجيب في كل مرة: «الأمر يخصكما، تدبرا الأمر في ما بينكما، لست أنا من سيتدخل في أموركما». أي أنني كنت أتصرف وكأنه لا يحدث شيء.

◆ هل كانت هناك علاماتٌ أخرى تشي بضيق ابنتك، علاماتٌ أهملتَها في ذلك الحين، وفضّلتَ، كما تقول، عدم رؤيتها؟

عباس- لا، لم تكن هناك علاماتٌ كثيرة. ربما كان من بينها العزلة والصمت الذي كانت تتحصن داخله تلك الفتاة. لكن ذلك طبيعي على كل حال. لا يوجد ما تقوله، لنا على الأقل، اليوم كما البارحة. وحتى الآن، وحين تأتي لقضاء بضعة أيام في البيت، فإنها لا تقول شيئاً... ولا يوجد ما تقوله. لن نحكي الحكايات لبعضنا. لكن ما يدعو للتفكير، هو حين ينبغي مواجهة المكاتب الحكومية في مثل هذا النمط من الأوضاع. حينذاك أدركتُ بأنّ هناك العديد من الأمور عندنا لا يفهمها الآخرون، والتي لا مكان لها هنا. إنّ العديد من الأمور التي نعتبرها طبيعيةً مثل كون ابنتي تقيم في بيتي هي غير مقبولة هنا. لقد كانت ابنتي مريضةً لفترة طويلة، وعاودها المرض عدة مرات، لا أحد يعرف لماذا، لكن توجب في كل مرة إرسالها إلى مصحة للراحة. وفي كل مرة أدخلت فيها إلى المشفى، حصلت المشكلة ذاتها: ليس لديها ضمان اجتماعي والضمان الاجتماعي الخاص بي لا يمكن له أن يغطي نفقات المشفى. لم يفهم الموظفون لماذا لا يوجد لديها ضمان صحي، ولماذا على الأقل لم تسجل في قوائم العاطلين عن العمل. لم يفهموا لماذا كنت أقول بأنها لا تطالب بأن تعمل. وفي كل مرة كان ينبغي تقديم طلب إعانة أو مساعدة. بل إنني اضطررت لأن أجري لها تأميناً إرادياً.

◆ بمَ كانت مريضة؟

عباس- لم يعرف أحدٌ بالضبط. إنها الأعصاب كما يقولون. هذا ما يقولونه لي في كل مرة. ينبغي لها أن تغير الأجواء التي تعيش فيها.

◆ وكيف انتهى الأمر إذن؟ ما الذي أصبحت عليه الآن؟

عباس- لقد انتهى الأمر بصورةٍ تدريجية، فقد صادقت مساعِدةً اجتماعية في المنتجع الذي كانت فيه. كانت تذهب لقضاء عطلة من عدة أيام في بيتها، وحصل ذلك عدة مرات. وفي أحد الأيام، قالت لأمها بأنها سوف تبقى فترةً أطول وأنها لن تعود فوراً لأنها سوف تبحث عن عمل. انهارت أمها لكن لم يكن بإمكانها أن تصدّق ذلك، أن تصدّق بأنها سوف تنجح: فهي فتاة لم تكن قد عملت أبداً ولا تعرف أن تفعل شيئاً، وفي وقتٍ يصعب على الجميع، على آخرين غيرها، إيجاد عملٍ فيه، حتى حين يكونون معتادين على العمل. لم يكن يمكن لأحدٍ أن يصدّق. لكنها نجحت ووجدت عملاً ويبدو بأن العمل لم ينقصها أبداً. إنها الآن مساوية للجميع، مساوية لأخوتها ولأخواتها، بل ربما كانت متفوقةً على أخوتها، وخاصةً أولئك الموجودين هنا دائماً، الذين يروحون ويجيئون دون أن يعملوا. بل هي بالأحرى مساويةٌ لي: إنها «رجل» مثلي، وقيمتها مساوية لقيمتي. لقد خرجت، وهي تكسب عيشها وتتحمل مسؤولية نفسها... لم أكن أريد ذلك أبداً، لا لي ولا لها، ولا للاسم الذي أحمله، على الرغم من أنّ هذا الاسم قد عانى كثيراً من كل الذين يحملونه، وهم كثر. لكن الأمر هكذا، ومن الأفضل أن يكون هذا من أن يكون أسوأ.

الذنب ذنب الهجرة

❖ بعد كل شيء، وفي النقطة التي وصلنا إليها، وبما أن النتيجة النهائية هي هذه، ألا تأسف لسلوكك في الماضي، وخاصة تجاه ابنتك، فقد جعلتها تضيع وقتها، كما أنها تألمت... بصورةٍ مجانية، هذا ما بدا اليوم.

عباس- لا. ليس هناك ما آسف عليه. وإن كان هناك شيء آسف عليه فهو الوضع الراهن. أشعر بالأسف لأنها أظهرتني على خطأ. أنا لست على خطأ، كما أنها هي أيضاً {ابنته} ليست على خطأ. لست أعلم إن كنت تعرف الحكاية التي يروونها...، إننا في الوضع ذاته.

❖ أية حكاية؟

عباس- تجري الحكاية في قديم الزمان، حين كانت الشتاءات باردة وكانت وسيلة التنقل الوحيدة هي السير على الأقدام. يحكى بأنّ مسافراً فاجأته الثلوج التي كانت تهطل بغزارة. وحين وصل المسافر إلى أقرب قرية، طلب من أصحاب أول بيت انفتح أمامه أن يؤووه، فقُبل طلبه. لكن هطول الثلج تتابع بكثافة متزايدة، مانعاً أية محاولة للرحيل. وتتالت الأيام، يوماً بعد يوم، حتى قاربت أسبوعاً، ولم يبدُ أي مخرج. وبدأ أصحاب البيت يشعرون بأن وجود الغريب قد أصبح حملاً ثقيلاً عليهم. ينبغي القول بأنّ الناس جميعاً كانوا في تلك الأيام فقراء، وخاصةً في الشتاء، ولا بد أنّ أصحاب البيت لم يعودوا يجدون ما يطعمونه للمسافر التعيس الذي فهم ذلك. وفي أحد الأيام، اندلع بوجوده شجارٌ بين الزوج والزوجة. لم يكن المسافر ساذجاً، فقد عرف أنّ الشجار ليس سوى ذريعة. نظر مرتبكاً إلى الجهة التي يقع فيها الباب الذي حاصَرته الثلوج وقال لمضيفيه تلك الجملة التي أصبحت شهيرةً: «أنا أعرف، الذنب ليس ذنبي ولا ذنبكم، بل هو ذنب السماء {الطقس السيئ} التي أتت بي إلى هنا والتي لا تزال تحتجزني!». إنه الأمر ذاته، فلا أنا مذنب بخطأٍ يمكن لي أن آسف له، ولا هي مذنبةٌ بخطأٍ يمكن أن ألومها عليه. الذنب ذنب الهجرة {بالفرنسية} كما يقولون! هذا هو السبب في أنه من غير الوارد إطلاقاً بالنسبة لي أن أحتج ضد هذا أو ذاك، ولا أن أقاطع الناس وأغلق بابي وأن أقول كما فعل البعض «إنني أتبرأ منك، لم تعد ابني (ولم تعودي ابنتي) ولن تضع قدميك في البيت ثانيةً!». لا، هذا أمر غير مقبول.

1990

عبد المالك صياد

الانعتاق

للّقاءات التي نُقل جزءٌ منها هنا قصتها الخاصة: فهي ثلاثة لقاءات متتالية دام كلٌ منها ما بين ساعتين وثلاث ساعات، بغضّ النظر عن المحادثات العديدة التي سبقتها أحياناً (حتى لو لم يتجاوز الهدف منها التحضير للّقاءات)، ورافقتها أو تبعتها أحياناً أخرى، فساهمت بالتالي في توضيح معناها. وينبثق هذا الاستقصاء من استقصاء آخر سبقه، وهو يهدف بالأساس إلى إطالته وإكماله: فأثناء تساؤلنا عن الشروط الدراسية لأولاد بعض العائلات المهاجرة (من المغرب وتونس بشكلٍ أساسي)، تسنى لنا أن نقابل فتاةً كانت قد حصلت لتوها (عام 1986) على الماجستير في اللغات التطبيقية من جامعةٍ ريفيةٍ صغيرة، ووافقت على أن نجري معها الاستقصاء. وحين أدركنا بأن العنصر المناسب هنا ليس الطالبة بل العائلة بأكملها ومجموع أولاد هذه العائلة، فقد طلبنا أن نقابل، إن كان ذلك ممكناً، جميع أخوة وأخوات تلك الفتاة التي نجري معها الاستقصاء. عرضت الفتاة علينا أن نقابل بادئ ذي بدء أختها الكبرى فريدة التي كانت تسكن عندها بصورةٍ مؤقتة والتي «فتحت الطريق أمامها»، وقد حصل ذلك رغماً عنها بالتأكيد وحتى دون أن تدرك ذلك.

بتأثير إلحاح أختها الصغرى بالطبع، انتهى الأمر بتلك المرأة الشابة

التي تبلغ الخامسة والثلاثين من عمرها إلى الموافقة على مبدأ إجراء محادثة يُفترض بأنها تدور أساساً حول العلاقة بالمدرسة، وذلك رغم أنّ ردود أفعالها كانت شبيهةً بردود أفعال مراهقة بسبب افتقادها للخبرة بالحياة العامة وبالحياة الفعالة، ورغم أنها بدت في البداية نفورةً جداً وشديدة الريبة والارتباك. إلاّ أنّ فريدة وافقت على أن تسرد كل قصتها بالتفصيل، برضى حقيقي وارتياحٍ بالغ: وهي قصة طفولتها الأولى، حين كان عليها وهي ابنة مهاجرٍ يعيش في فرنسا، أن تعيش عند جديها لأمها في الجزائر العاصمة لهذا السبب وبسبب الحرب أيضاً؛ ثم قصة وصولها إلى فرنسا في عمر صفوف الحضانة، التي لا تتذكر بأنها ذهبت إليها كثيراً، وقصة دراستها في المدرسة حتى سن السادسة عشرة، عند انتهاء فترة التعليم الإلزامي؛ ثم، فيما بعد، قصة «سجنها»، «حبسها»، ثم قصة نزاعاتها مع أمها، و«حقدها» على أبيها، وتحويل عاطفتها لأخوتها وأخواتها الأصغر منها سناً؛ وقصة «إحباطاتها» المتعددة وكذلك كلّ الأشكال التي ابتكرتها في المقاومة «للحفاظ على سلامتها النفسية» («كيلا أفقد عقلي، حتى لو كان يمنع على قدميّ اللتين تحملانني أن تسيرا؛ هذا ما كان يهمني»)؛ وفي النهاية، قصة انعتاقها والدروس التي تستخرجها بنفسها من تلك المسيرة التي جعلتها «تعبر، كما تقول، قروناً بأكملها» خلال عقدين من الزمن وجعلتها تكتشف بمفعولٍ رجعي كم كانت الحياة التي عاشتها ثقيلة في واقع الأمر، «تلك الحياة الخفية وشبه النباتية...، الخالية من أية أهمية أو أي سحر...، الحياة الفارغة من الانشغال ومن المعنى، الحياة المجردة من المغزى... ومن أين يأتيها المغزى؟...، حياة البطالة...، الحياة الباهتة التي يتكرر فيها كل شيء...، والتي لا تحتسب فيها الأيام ولا السنون، التي ليس فيها ما يجعل الأيام والليالي غير متماثلة، أو يجعلها تختلف عن بعضها...، الحياة التي ليس فيها شيء، والتي ليس لها محتوى...، أنا لا أتحدث فقط عن النشاطات– فعلى هذا الصعيد، يستطيع المرء دائماً أن يشغل أيامه بل ولياليه إذا كان معتاداً على الأرق، – لكنني أتحدث أيضاً عما يجري في الرأس... في الفكر». إنها رؤيةٌ متأخرة، هذا صحيح. لكن هذه الرؤية غير

ممكنة أولاً إلاّ بشرط أن «يخرج المرء من الملل» ليستطيع أن يقيس الدرب الذي قطعه، لأنه لم يكن هناك قبل ذلك مكانٌ إلاّ للتكرار...، لفعل اجترار للطعام ذاته... وأنا، لذات الأسئلة: «لمَ كل هذا؟ لمَ هذا الظلم، ما الذي فعلته للسماء، لمَ وُلدتُ في هذا البؤس...، أي حل لهذا المأزق، الخ»).

وبعد ذلك، فإنّ التفكير في الذات يشكل بالنسبة لها، في شروط معينة، رد الفعل الوحيد الممكن لحماية تلك الذات، بشرط أن تكون مجبرةً موضوعياً على تبني ما يكون من المناسب تسميته بوضعية التحليل الذاتي. هناك أوضاعٌ مسكونةٌ بتناقضاتٍ قوية جداً، وتفرض على المرء أن يتساءل بعمق ليستطيع فهمها. وربما يكون ذلك لأننا نعلم بأنه لا توجد لحالات المآزق تلك حلولٌ ذرائعية، «خارجية»، على مثال اللجوء إلى طرائق وخدع مقررة مسبقاً، ولأنّنا نعلم أيضاً أنّه من غير الممكن عزو المسؤولية عن تلك الحالات إلى عاملٍ محدد تماماً – وهذا يستبعد حتى فكرة التمرد ذاتها-، وأنّ طريقة التساؤل التي تفرض نفسها في تلك الحالات تتاخم البحث عن الحقيقة السوسيولوجية؛ إلا أنّ فهم الحالة، المجاني ظاهرياً، الذي نقدمه لأنفسنا حينذاك يسمح بسيطرةٍ نسبية على تلك الوضعية ويشكل حينذاك نوعاً من شرط البقاء على قيد الحياة، وشرط «البعث» النهائي في هذه الحالة. وإذا كان التقاء الأوضاع غير المتساوية يقوّي عند المسيطر الجانب الاجتماعي الوسطيّ في كثيرٍ من الأحيان، فإنه يُلزم المسيطر عليه (المستعمَر، الأسود، اليهودي، المرأة، المهاجر، الخ.) بالعمل على إضاءة العلاقة، وهو عملٌ يطال الذات. وتفرض الضرورة العملية، والتي يمكن القول بأنها حياتية، الانحناء أمام التحليل الاجتماعي؛ وعلى المدى الطويل، يؤدّي هذا الاستعداد إلى تشكيل «طبيعةٍ جديدة» ويوجّه كافة حركات وسكنات الشخص المعني.

إن رغبة المرء في أن يعرف من، لماذا، وكيف هو على ما هو عليه أو، بصورةٍ أكثر ابتذالاً، لمَ هو مختلف عن الآخرين، هذه الرغبة ليست، في حالة فريدة، «بحثاً عن الهوية» وحسب كما يقال اليوم؛ إنه هاجسٌ حقيقي

ساهمت معطياتها الشخصية (لم يسجل مولدها في السجل المدني خلال المهلة المحددة، ولا حتى ضمن المقاطعة التي تمت فيها ولادتها بالفعل، ولا سُجل زواج أبويها) في دوامه وإعطائه منحىً مأساوياً في نظرها: «ينبغي إذن أن أقدم نفسي... من أنا؟ لا أعلم... إنني أتساءل ولا أفعل سوى ذلك... حتى عمري ليس أكيداً، عمري ليس ملكي...؛ حتى هذا زائف... ويصل المرء إلى التساؤل إن كنت موجودة فعلاً، فكل الناس لديهم تاريخ ولادة: يوم، وشهر، وسنة... وعيد ميلاد (...) والأمر نفسه بالنسبة لمكان الولادة...، فهو غير موجود. يمكن لي أن أتسلى بكل ذلك... لقد حدّثوني عن سهوٍ في السجل المدني، الكلمة جميلة؛ لقد سهوا عن وجودي وسوف أصرّف فعل سَهَا (وهذا ما فعلته) في كلّ الأزمنة وفي كل الأشكال. هذا فعلٌ أحبه...، إنه فعلٌ يقول الحقيقة...» وما إن استُكمل انعتاق فريدة وتحررت من ذلك الهاجس حتى أتت الإدارة لتذكرها مرةً أخرى «بالخلل والخطأ البدئيين». وبالفعل، ففي دعوى التجنيس، لاحظت الدوائر ذات الكفاءة الفارق بين تاريخ ميلادها (الوهمي) وبين تاريخ زواج والديها (الوهمي هو أيضاً) والذي يلي تاريخ ميلادها بثلاث سنوات، بل إنهم «طلبوا منها إبراز أية وثيقة تحدد تاريخ الزواج الديني (كذا) لأبويها».

من السرد البالغ الطول الذي قدمته فريدة لحياتها وللتجارب العديدة التي قامت بها والمتعلقة «بالازدواجية» و«بالانقطاع» اللذين أجبرت عليهما، قررنا ألاّ نحتفظ إلاّ بالمقاطع التي تبرز التطور، السريع إجمالاً، الذي حصل في عائلتها والذي أدى إلى التكييف الكامل في السلوكيات الذكرية والأنثوية معاً، وفي العلاقات الداخلية في الأسرة، وفي التناسق العام للانفعالات والمشاعر الأسرية. وتقرّ الأختان أنّ «والديهما قد تعلّما دورهما، تعلّما أن يكونا أبوين نوعاً ما»، كما تقرّان بأنّ عوامل هذا الترويض المفروض أو المرغوب – فهو مفروضٌ ومقبولٌ في آنٍ معاً –، هو أنّ المربّين الحقيقيين كانوا البنات أكثر من الأبناء، والكبرى أكثر من أخواتها الأصغر سناً، فالمفارقة تكمن في أنها هي التي «فتحت الطريق أمامهن»، حين أظهرت

نفسها خاضعةً ومستسلمةً للعلاج الذي فُرض عليها، وحين لم «تأخذ حريتها» إلاّ بعد فترةٍ أطول بكثير من أختيها الأصغر سناً- اللتين قامتا بدراساتٍ عليا جيدة نسبياً وتركتا البيت الأبوي بمجرد انتهاء دراستهما: إحداهن اليوم مدرّسة في ألمانيا، والأخرى تعمل في مجال السياحة في برشلونة. إنّ تنوّع المسارات والمسؤولية الموضوعية (لا حاجة إطلاقاً لتوضيح هذه المسؤولية ولا جعلها موضوعاً لمحاكمة يمتنع عنها الجميع) للأبوين في هذا المجال، يجعلان انطباعاً غائماً بالذنب يسكن نظام العلاقات بين الأبوين والأولاد، وبين الأخوة والأخوات: بين الأخت الكبرى، «الضحية» المتفانية التي ضُحّي بها، وأبويها بالدرجة الأولى، وكذلك بينها وبين أخوتها وأخواتها الذين يكنّون لها نوعاً من العرفان غير المعلن. وربما كانت وضعية الضحية تلك التي تتشكل بنوعٍ من تبكيت الضمير، وهو وضعٌ يُرضي فريدة، هي التي تجعلها تتصرف كنموذجٍ «للورع البنويّ»، بصفتها الابنة «الأفضل» تجاه ابويها وأبنائهم الآخرين كافةً، وخاصةً الذكور منهم. هل هو شكلٌ من الثأر الموجه ضدّ أبويها وضدّ نفسها، وكذلك ضد ماضيها (هي عصاميةٌ عنيدة)؟ تبدو هنا معرفة كيف تَغفر وتُظهر تلك المغفرة كشكلٍ أعلى للنصر الذي نالته ضد أشكال بؤس الحياة.

مع جزائريةٍ شابة

أجرى اللقاء عبد المالك صياد

فريدة- كنت أذهب إلى المدرسة لا غير، دون أن أعرف ما هي...؛ واظنّ بأنه ما من أحد يعرف ما هي المدرسة. كيف تريد من أهلي أن يعرفوا ما هي؟ لم يذهبوا إلى المدرسة أبداً. كنت أذهب إلى المدرسة لأنّ ذلك واجب وحسب. بعد فترة، وفي المدرسة الإعدادية، وحتى الصف الثاني الإعدادي، تم توجيهي نحو التعليم المهني كموظفة مكتب - فقد علموني الضرب على الآلة الكاتبة وشيئاً من الاختزال... الذي نسيته الآن-، وبدأت المضايقات حينذاك من أبي. كان يراقبني باستمرار، منذ لحظة خروجي من البيت. الخروج... كان يعني الخروج للذهاب إلى المدرسة، من البيت إلى المدرسة ومن المدرسة إلى البيت، هذا كل شيء. لم يكن هناك خروجٌ غيره. وحتى هذا الخروج كان موضع شك. وكنت في نهاية الأمر أشعر بالخزي، فقد كان أبي يأتي لانتظاري عند باب الإعدادية ويرافقني كما لو كنت طفلةً صغيرة... لا، ليس كذلك. لم نكن أبداً معاً كما يحصل عندما يذهب المرء ليرافق شخصاً: فهو كان يمشي من جهته، وأنا من جهتي كما لو لم يكن أحدنا يعرف الآخر. كان كل رفاقي ورفيقاتي في المدرسة يسخرون مني، «هاهو أبوك! ألا ترينه! لمَ لا تذهبين نحوه...!» كان يمكن رؤية المدرسة وجزء من الطريق من نافذة البيت بشكلٍ جيد، وكان أبي يتمركز قرب النافذة

ليراقبني. لست أدري كيف لم يخطر بباله أن يشتري منظاراً مكبّراً لهذا الغرض... لقد تغيرت الأمور كثيراً منذ ذلك الحين، ويكاد المرء لا يصدّق، وهذا التغير سريع رغم كل شيء. في زمني، كان هناك هاجس عند أبي، وكان يقول لكل الناس، وقد سمعت ذلك عدة مرات، «من غير الوارد أن تُرى ابنتي في الحافلة، ولو حصل ذلك، فلن أعرف أين أختبئ!» بل إن الأمر وصل به إلى القول بأنه سوف يقتل نفسه إن حصل ذلك. وكنت أصدّقه، الجميع كانوا يصدّقونه. كان ذلك أشبه بالابتزاز...، كان ابتزازاً لم ينفع في شيء إن لم يكن في إفساد الحياة طوال سنوات عدة؛ لقد جعلني هذا الأمر أضيع كثيراً من الوقت. إن كل ما كنت أسمعه في تلك الفترة كان بالفعل من نمط: «لقد شوهدت زوجة فلان... أو ابنة علاّن...، في الشارع أو في السوق، أو في الحافلة!» إذن، لم يكن يجوز مشاهدة النساء القليلات الموجودات، فذلك كان يعني العار، وكان الأمر يتعلق بالشرف كما كانوا يقولون. كان ينبغي إذن الاختباء، الاختباء ولا شيء آخر بانتظار أن تنغلق جدران البيت لتخفيني بصورةٍ مضمونةٍ أكثر. هذا الأمر هو أكثر ما آلمني. بل إن الأمر وصل بأبي في آخر عامٍ دراسيٍ لي إلى إيجاد طريقٍ لم يكن أحدٌ يسلكه، وكان هذا الطريق ينعطف كثيراً ولم يكن آمناً على الإطلاق، وخاصة في الشتاء، لكن أبي كان يجبرني على سلوكه. كل ذلك كيلا يقول أحدٌ بأنه قد رأى ابنة السيد. كان ذلك سيجرح كبرياءه.

❖ أكاد لا أصدّق ذلك وأنا أراك اليوم. أي طريقٍ سلكه الجميع! الحقّ معك حين تقولين بأنّ الأمور تغيرت وبأن ذلك لا يكاد يصدّق.

فريدة- لم ينته الأمر. حين أستعرض كل شيء، فإنّ ما يؤلمني بعد أن تخلصت من ذلك، إن كان من الممكن أن نسمي ذلك خلاصاً، هو أنّ ضراوة أبي لم تنفع في شيء، في حين أنه، من وجهة نظره، كان يعتقد بأنه يحسن صنعاً، وماذا كانت النتيجة؟ صفر! إنني أعتقد اليوم بأنه يستحق أن يرثي المرء له. أودّ كثيراً لو أنني أعلم رأيه اليوم بهذا الأمر في أعماقه. هل هو نادم أم لا؟ لست أدري، لكنني لا أظن. إنني اعرفه بما يكفي، فلديه منظومةً

أخلاقية وهو واثقٌ منها؛ إنّ أخلاقه هي التي تخلت عنه، ومثله لا يمكن أن يتخلى عن أخلاقه، لكن كيف ينظرون لنا أنا وأخواتي؟ لم يكن ذلك ما كان يتمناه حتى بالنسبة لأمي وأخوتي. أنا الآن أتجول وأسافر وأعود إلى البيت ليلاً وأخرج. بل إنني أنزّه أمي واصطحبها إلى السينما وأجعلها تقوم ببعض السياحة، وأصطحبها إلى المطعم وآخذها للتنزه في المركب على نهر السين.

◆ ما هو أكثر ما تأسفين له في ذلك الماضي؟

فريدة- إنّ أكثر ما آسف له هو المدرسة. لم يساعدني أحدٌ أبداً. بالطبع، فقد كنت الكبرى ولم يكن هناك أحدٌ قبلي، لم يكن هناك أحدٌ ليوجهني والآن، وبعد أن مرّ الزمن... فإنني أستطيع أن أقول بأنه لم يكن هناك أحدٌ ليعلّم أهلي ما هي المدرسة. وإذا حكمت من خلال بقية أخوتي، فإنني أستطيع أن أقول بأنهم قد تعلموا. حين أفكر بأنه قبل بضع سنوات فقط، قبل عشر سنوات أو اثني عشر عاماً، كان إخراج الرأس من النافذة يعني أن أتلقى صفعتين، وهذا لا زال يؤلمني، في حين أنني أستطيع الآن أن أذهب إلى الشاطئ وأعود وأجفف لباس السباحة دون أن يقول أحدٌ شيئاً...

◆ ما هي قصة مد الرأس من النافذة وتلقي الصفعات؟

فريدة- أوه! كان ذلك حادثاً عرضياً. حدث ذلك منذ زمنٍ طويل، في العام الذي أنهيت فيه دراستي، كنت إذن في السابعة عشرة من عمري. سمعت من خلال النافذة أخي الصغير يبكي في الشارع، فمددت رأسي من النافذة لأرى ما يحدث. ورآني أحدهم بالطبع: أحد الأقارب، قريبٌ لم يكن أبي يحبه، ولا هو كان يحبنا- ربما كان ذلك لهذا السبب- ولم يكن يتكلم مع أبي، وفي ذلك اليوم، ما إن رآه حتى قال له فوراً «لقد رأيت ابنتك تنظر من الشباك...». وأنا أفهم كم كان غضب أبي كبيراً لأنّ أحدهم قال له ذلك وبالتالي لامه عليه. عاد أبي إلى البيت وصفعني دون أن أعرف لماذا. لقد كرهته حينذاك. لا تزال هذه الحادثة تؤلمني حين أتذكرها. وفي مرةٍ أخرى- وكنا نسكن في بيتٍ منعزلٍ نوعاً ما، في الريف تقريباً- أردت في صباح أحد الأيام أن أغسل شعري، واكتشفت بأنه لم يكن في البيت شامبو. خرجت

بسرعة وبانتباه من الباب، وكانت أمي تراني وتراقبني، وركضت لأعبر الشارع بالكاد باتجاه بقالية متواضعة أشبه بالكوخ الخشبي، ثم اشتريت عبوةً صغيرة من الشامبو؛ في ذلك الحين كان الشامبو يباع بعبوات صغيرة جداً تكفي حماماً واحداً، ثم رجعت فوراً إلى البيت. هنا أيضاً، رآني أحدهم بالطبع وذهب ليقول لأبي. كان الأمر على هذا النحو طيلة الوقت. (...) ومع مرور الزمن، وخاصةً بعد أن أخذ أخوتي يكبرون، بعد أن أصبحوا راشدين، فإنّ كل شيء قد تغير. لم يعد من الممكن إذن أن يُفرض عليّ ما قد بدأ تطبيقه على الآخرين بالتراخي، وهم أصغر مني سناً. هكذا جرت الأمور. الآن، كيف عشت كل تلك الفترة؟ في الظل، إنه ثقبٌ أسود في حياتي. هو ثقبٌ أسود بالمعنى الحقيقي للكلمة. لم يعد هناك بالنسبة لي فرقٌ بين الليل والنهار، بل إنني كنت أفضّل الليل لأنه كان يسمح لي بالبقاء وحدي. لقد نظّمت شؤون حياتي وتوقيتها بحيث أستطيع أن أكون وحدي أربعاً وعشرين ساعةً في اليوم ضمن ذلك العدد الكبير من الناس، وكان باستطاعتي أن أبقى أياماً بأكملها دون أن أتفوه بكلمة واحدة، دون أن يكون لي حاجةٌ لأن أقول كلمةً ولا أن يقول لي أحدٌ كلمة. كنت خرساء وصماء. كنت أعرف واجباتي اليومية، فقد كانت لي حصة من العمل المنزلي: إيقاظ أخوتي وأخواتي حين كانوا صغاراً، وغسل وجوههم، ثم الإفطار؛ بعد ذلك، أنظف البيت وأغسل الأطباق بعد الطعام. وبعد أن أنجز ذلك، أحبس نفسي في غرفتي ولم يكن أحدٌ يدخل؛ كل ذلك دون أن أتفوه بكلمة، لم أكن أتحدث مع أحد ولا كنت أقول أية كلمة. كان ذلك الصمت أكثر ما يؤلمني. كنت أواسي نفسي مع أخوتي وأخواتي طالما أنهم كانوا صغاراً، هذا كل شيء.

كانوا يطلقون عليّ لقب الفهد

❖ ما هو نمط العلاقات التي كنت تقيمينها مع أبويك، وخاصةً مع أمك، بما أنكما كنتما كلاكما في البيت دائماً، وجهاً لوجه؟

فريدة- مع أبي، لا شيء؛ كان الأمر كما لو لم يكن موجوداً بالنسبة لي، وأظن أنّ الأمر كان مماثلاً من طرفه. الغريب أنّه موجود بالنسبة لي

عبر امي، عبر ما تقوله لي أمي عنه، أي تقريباً على الشكل التالي: «قال لي أبوك...، أبوك يظنّ أنّ...، يريد أبوك...، أبوك يطلب أن...، ما الذي سيظنه أبوك، ما الذي سيقوله أبوك...، احرصي على أن يعرف أبوك...، انتبهي كيلا يعلم أبوك...، ينبغي ألاّ يعلم أبوك بأنّ...»، الخ.

لم يكن هناك سوى مثل هذه الأمور. وأنا أفترض بأنّني بالنسبة له لم أكن موجودةً إلاّ من خلال ما تقوله له أمي... أو عبر ما يقولانه في ما بينهما حين يتعلّق الأمر بي. أما مع أمي، فكانت المعارضة. لم يكن بإمكاني أن أتهجّم على أحدٍ غيرها. وفي النهاية، لم نكن نوجه لبعضنا الكلام. كنت أعتبرها مسؤولةً عن كل شيء، وأجد بأنها أسوأ من ابي، وأكثر قمعاً منه...؛ وهذا طبيعي، فهي مكلفة بالسهر على كل شيء...، على حسن سلوك ابنتها. كنت أسمعه يقول لها: «إنها ابنتك...» أو: «ابنتك هكذا...، تفكر هكذا...، تصرفت هكذا...»؛ إذن، فالذنب ذنبها بصفتها امّ تلك الفتاة. حين يخطر كل ذلك ببالي الآن!... كنت وسخة، كنت قذرة، ولا بدّ أن رائحتي كانت بشعة؛ لم أكن أستحمّ، كنت قذارةً حقيقية. لم أكن أخلع عني مئزر... المطبخ، ولم أكن أخلع ملابسي، حتى عند النوم؛ لم أكن أبدّل ملابسي. كذلك، فإنني لم أكن آكل شيئاً...، وكنت أتعرض لنوبات من القمه(*) أو انني كنت آكل أي شيءٍ وأنا واقفة...، ولم أكن أبداً آكل وأنا جالسةً إلى الطاولة، في أوقات الوجبات، مع الجميع. وفي النهاية، أصبحت مصابةً بالأرق، لم أعد أنام، ليالٍ متتالية كانت تمر دون أن يغمض لي جفن. لم يعد لديّ أي إحساسٍ بالزمن: لم أكن أبالي في أي يوم أو أي شهر نحن. أظنّ بأنني تقصّدت ذلك، فقد كنت أقرأ الجريدة دون النظر إلى تاريخها؛ كان الليل والنهار بالنسبة لي سيّان، فقد كنت على الدوام في الظلام أو تحت نور المصباح الكهربائي، ولم أكن أفتح مصاريع النافذة في غرفتي إطلاقاً. هذا بحق هو الامتياز الوحيد الذي قدموه لي، فلم يكن بمقدورهم أن يفعلوا غير ذلك. كانت لي غرفة خاصة بي وحدي، للّيل والنهار، ولم أكن أتقاسمها مع أية واحدةٍ من أخواتي. إذن، كنا أنا وأمي ننظر إلى

(*) القمه أو القهم: قلة الشهية للطعام. -المترجم-

بعضنا ككلاب من الخزف الملوّن. كنت أفرغ غلّي فيها، هذا كل ما كان بوسعي أن أفعله. لقد كنت عدائيةً على الدوام، وأيّ كان يمكن أن يصبح عدائياً لأسباب أقلّ. وتبقى هناك على الدوام رواسب، لا بد أنك قد لاحظت ذلك على حسابك {ضحك}. كانت كل مخالبي مشرعة. كان أخوتي وأخواتي يطلقون عليّ اسم الفهد. ورغم ذلك، فهم الوحيدون الذين كان بيني وبينهم حدٌّ أدنى من الحوار، وقليلٌ من التواطؤ.

❖ الصبيان منهم والبنات، أخوتك وأخواتك.

فريدة- نعم، كلهم. بل قد أقول بأنّ علاقتي مع الصبيان كانت أوثق منها مع البنات، إذ أنهم أكبر سناً، فلديّ أخوان اثنان يأتيان بعدي مباشرة. لقد ساعداني كثيراً على طريقتهما، ودون أن يدركا ذلك.

❖ حسناً، لنترك هذا الأمر جانباً، لنتابع ما بدأناه حول أمك، حول علاقاتك مع أمك.

فريدة- علاقاتي مع أمي... كانت علاقات عداوة دائمة، ولم تكن علاقة بغض. البغض... أنا أخجل من أن أقول ذلك، كان البغض موجهاً نحو أبي... لقد كرهته حقاً. وحتى اليوم، لو أنّ بإمكاني ألاّ أراه لفعلت، والأمر متبادل على كل حال. وأفترض أن هذا الشكل يناسبه. إنها طريقةٌ أخرى في الكذب. إنّه يتظاهر بهذا الشكل بأنه يجهل كل شيء، يجهل بأنني تركت البيت وأنني أعيش وحدي، أي أنني لستُ أقيم عنده في حين أنني غير متزوجة؛ إنه يتظاهر بعدم معرفة أنني أعيش حياتي (...). لكن مع أمي، كان الشجار دائماً. كنت عدائيةً تجاهها مثلما كنت مع الجميع وكان هذا الأمر يجعلها تغضب، مما كان يضاعف من عدائيتي. لم أكن أتوقف إلاّ حين أجعلها تبكي، فأفرّ إلى غرفتي لأبكي أنا أيضاً. كنت بالنسبة لها وحشاً وكنت بالفعل أتصرف معها كأنني وحش.

❖ هل هذا الأمر يدوم حتى الآن...؟

فريدة- أوه! لا. نحن الآن نعبد بعضنا. كما لو كانت كلٌّ منّا تريد أن تستدرك تقصيرها، تريد أن تغفر الأخرى لها، تريد أن تكفّر عما فعلته

بالأخرى. الآن، لم تعد أمي تحلف إلاّ بي. لديها أسبابها التي سأحكيها لك فيما بعد. في الماضي، كانت تلعنني وتتنبأ لي بأسوأ الأمور، كانت تتمناها، وكانت تستمطرها على رأسي كما كانت تقول: كانت تلك هي اللعنة... بل إنني سمعت أمي تشتكي وتبكي قائلةً: «ما الذي فعلته لربي ليكون لديّ ابنةٌ كهذه؟» حتى إنها تستخدم الكلمة ذاتها «ليلعنني بابنةٍ كهذه! لكي يعاقبني بهذا الشكل!». وكانت بالتأكيد توجه صلواتها لله ليغفر لها ما لست أدري، ولا هي تدري من خطأ قد تكون ارتكبته لتنجب وحشاً بهذا الشكل! كنت الشر مجسداً، الشر بذاته... هذا صحيح، وكان يجب ألاّ أصيب أخواتي الأصغر مني سناً بالعدوى. كان ذلك هاجس أمي، وكان لدى أمي كثير من الهواجس.

❖ ما هي الهواجس الأخرى التي كانت لديها؟

فريدة- هاجس أمي كان المدرسة. كل ذلك كان بسبب المدرسة. لأنني ذهبت إلى المدرسة حتى أصبحت في السادسة عشرة من عمري، السادسة عشرة دون يومٍ واحد زيادة. وأية مدرسة! مدرسة لا تساوي شيئاً، لكنها مع ذلك المدرسة التي «أدارت لي رأسي» كما تقول أمي. وقد أقسمت على ألاّ تستسلم ثانيةً مع أخواتي الأصغر مني سناً وبأنها سوف تخرجهن من المدرسة قبل ذلك العمر. {قهقهات.} حين أتذكر كل ذلك الآن... فقد أكملن دراساتٍ جامعية لامعة، إحداهن تدرّس اللغة الفرنسية في ثانوية في فرانكفورت بألمانيا، والأخرى تعمل في برشلونة، في إسبانيا، في مجال السياحة! هذا ما أصبح الأمر عليه. وحين تعلم بأنّ أمي فخورةٌ الآن، فخورةٌ ببناتها أكثر من الأبناء الذين لا زالوا في البيت، في حين أنّ بناتها يعملن وتركن البيت جميعهن، وآخرهن هي أنا، فأنا الأخيرة دائماً. لم يحصل أحدٌ منهم على أكثر من شهادة ثانوية للتعليم المهني المتعدد فقط، وهم يتعيشون بصورةٍ بائسة. لكن ذلك لا يمنع من أنّ ذلك قد مارس عليّ شكلاً من التهديد. كم مرةً خطرت ببالي فكرة الهرب. لا، ليس تماماً، فأنا لم اكن يوماً مع فكرة الهرب، فهو ينتهي دائماً بصورةٍ سيئة. أنا أعرف العديد من الفتيات من الأقارب أو من الجيران، ربّين بالطريقة التي ربّيت أنا بها،

اخترن الهرب. لقد انتهين كلهن إلى سيرة سيئة لأنه لم يكن لديهن الإمكانيات- من أين ستأتيهنّ الإمكانيات إذا كنّ قد حبسن طيلة حياتهن في البيت- ليتدبرن أمورهنّ فلا مهنة لديهن، ولا أدنى فكرة عما يعنيه العمل، ولا مأوى، ولا علاقات، ولا مساعدة من أيٍّ كان، من أشخاصٍ يعرفونهن أو من قطاع الخدمات كالمساعدات الاجتماعيات أو مصلحة العاطلين عن العمل حيث لا يعرفن أحداً. الهرب، لا. لكنني فكرت في أن أحدث انفجاراً، تمرداً حقيقياً، وأن أصفق الباب على مرأى ومسمع الجميع بعد أن أحضّر جيداً المكان الذي سأذهب إليه... وهذا ما فعلته بالفعل فيما بعد، لكن بصورةٍ أكثر مرونة، فالظروف كانت قد اختلفت. لكنني صدّقت تهديدات أمي وخفت أن تقع على أختيّ. أقول لك بصدق أنني صدّقت الابتزاز الذي مارسته عليّ أمي. (...) لو أنه توجّب عليّ أن أقول كل ما كان لديّ لأقوله. كنت قد بدأت في كتابة بعض الأشياء خلال ليالي أرقي، وخلال نوبات بكائي، وخوفي، وانهياري. ثم حرقت كل شيء. هذا لا يفيد في شيء، ثم إنني كنت أخشى أن تقع هذه الكتابات في يد أحدهم، أحد أخوتي. كنت أريد أن أجنّبهم ذلك، أن أجنبهم أن يعرفوا. ثم إنّ هذه الأشياء شخصية.

توجب علي أن أتعلم كل شيء من جديد.

❖ لا بدّ أن ذلك قتلك معنوياً وجسدياً.

فريدة- القتل موجود. وحين رحلت من البيت أدركت الخسائر، القتل كما تقول. كان عليّ أن أتعلم من جديد كل شيء... لا، كان عليّ أن أتعلم كل شيء. أن أتعلم كيف أتحدث بشكلٍ طبيعي، أن أستمع دون أن أرتجف؛ أن أستمع وأفكر في الآن ذاته، وذلك أمرٌ لم أتعلمه أبداً، لم أكن أعرف الاستماع ولا التفكير في ما يقال لي لأنني لم أكن أستمع. تعلمت أن أمشي، وأن أخالط الناس عوضاً عن الهرب؛ باختصار، تعلمت كيف أعيش. بقي هناك شيءٌ آخر: أنا أكره الأماكن العامة، وقد لزمني وقتٌ طويل قبل أن أقرر الذهاب إلى السينما- السينما، مكان الضياع ذاك، المكان الذي يكون

فيه المرء وحيداً لكن وسط جمهرة من الناس، في الظلام، حيث يرى أشياء ليست «أخلاقية» جداً! لم أكن لأذهب وحدي إلى المطعم من تلقاء ذاتي، فأنا لم أتعلم أبداً أن آكل أمام الناس. لقد احتجت إلى إعادة تأهيل كاملة، وإلى بذل جهد كبير على ذاتي... احتجت إلى أن أتعلم كل ما يفعله الآخرون بشكل طبيعي. لم يكن ذلك طبيعياً بالنسبة لي. لقد طلبت في إحدى المرات أن يوظّفوني كعاملة نظافة في المنتجع الذي كنت فيه. وكاد ذلك يتم، لكن كان هناك مشاكل الضمان الاجتماعي والإجازة المرضية. كنت أمشي بفضل العقاقير، العقاقير الطبية كمضادات الاكتئاب، وعقاقيري الخاصة.

◆ وما هي عقاقيرك الخاصة؟

فريدة- عقاري أنا... كان القراءة. ما قرأته كان كثيراً جداً. كنت أمضي ليالي أرقي بالقراءة. في البداية، حين كان أخوتي وأخواتي لا يزالون صغاراً، لم يكن هناك عملياً ما يقرأ في البيت، ولا حتى جرائد. كنت أحتفظ بأوراق الصحف التي يستخدمها البقال للفّ الخس، فأقرؤها وأعيد قراءتها. بعد ذلك، أخذت ابنة الجيران، وكانت تقاربني في العمر، تعطيني الصحف والمجلات، وخاصة الصحف النسوية، وبعض الكتب التي كانت لديها. فيما بعد، فإنّ أخوتي هم الذين كانوا يجلبون لي ما أقرؤه، لم تكن أشياء هامة، لكن على الأقل الصحف والمجلات والكتب المرمية هنا أو هناك، وبالأخص منها البوليسية، بل بعض الروايات... الإباحية نوعاً ما. لكن أخواتي ساعدنني بصورة خاصة. كنت أقرأ كل ما كنّ يحضرنه إلى البيت، حتى الكتب المدرسية، وبالطبع الروايات وكل الأدب اللواتي كنّ يقرأنه. لكنني قبل ذلك طلبت من ابنة الجيران أن تذهب لتسجل نفسها في المكتبة البلدية، وفعلت. لم أكن حتى أختار ما كانت تحضره لي، «اذهبي، وادخلي، وخذي أول ثلاثة كتب تقع بين يديك وأحضريها لي، بما أنّ للمرء الحق في أن يأخذ ثلاثة كتب في كل مرة». بهذه الطريقة قرأت كثيراً؛ وسواءً كنت أفهم أم لا، فإنني كنت أقرأ رغم ذلك. لقد أفادني ذلك كثيراً. ولم تتوقف الفائدة على تلك الفترة، فلولا ذلك، أعتقد بأنني كنت سأنسى كل شيء، ولم أكن سأعرف التكلم باللغة الفرنسية، ففي البيت لم

نكن نتكلم بالفرنسية، لم يكن أحدٌ يتلفظ بكلمةٍ واحدة بالفرنسية. لقد تطلّب الأمر أن يكبر جميع الأبناء كي نتحدث في ما بيننا بالفرنسية بشكلٍ طبيعي تماماً، وبالفرنسية فقط. الجميع الآن يجدون ذلك طبيعياً. هذا أمرٌ آخر تغير كثيراً. وبالطبع، فإنّه يحصل على حساب... الأبوين. حتى أمي تتكلم الفرنسية اليوم... وهي تتكلمها دون لكنة، بل إنها تتكلمها بصورةٍ جيدة، إنها على كل حال تتكلمها بصورةٍ أفضل مما يتكلمها أبي. إذن، لم يفدني ذلك في التكلم فحسب، بل في الكتابة أيضاً. في المدرسة، حين لا تكون قد درست سوى حتى مستوى شهادة مهنية للعمل كموظف مكتب، يعادل هذا عدم الدراسة بتاتاً، إذ أنّ هذه الدراسة ليست هي التي ستعلمك الكتابة. ودون أن أتباهى، فإنني اليوم في العمل أُعتبر أفضل من يكتب، وأنا على الأقل لا أرتكب أي خطأٍ إملائي ولا أرتكب بالأخص أي خطأٍ نحوي. إذن، ليست المدرسة هي من علمني ذلك، بل القراءة... لَعَمري، ربّ ضارةٍ نافعة. هذا ما ينبغي أن أقوله لنفسي الآن.

◆ كيف جرت مصالحتكما؟ هذا الحب الكبير الجديد، لقد قلتِ لي بأنّ الأمر كان كما لو أنّ كلاً منكما ينبغي عليها أن تطلب المغفرة من الأخرى عن كل الألم الذي تسببت به لها. كيف، وبماذا يتجلى هذا الحب الكبير؟

فريدة- لقد جرت المصالحة تلقائياً. منذ أن تركت البيت، وبدا أن الجميع تقبلوا ذلك، فالحقيقة هي أنّ المصالحة قد تمتّ شيئاً فشيئاً، بالتلازم مع التطورات التي حدثت في العائلة. وإن كنت أنا أول من تحمل المشاكل كلها، فإنّ أخوتي وأخواتي الذين تلوني، وأخواتي بشكلٍ خاص هن اللواتي أدخلن التغييرات وسمحن لي، بعدهنّ، بأن أتحرر، فالأمر تحرر حقيقي. إنني أدين لأخوتي بالكثير، على عكس ما يقال عن الأخوة. ربما كان أكثر ما زعزع وربما حيّر أهلي في أعماقهم هو إدراكهم بأنّه حتى الفتيان، أبناءهم، لم يتبعوهم، ولم يكونوا يشاطرونهم وجهة نظرهم. لقد دهشت أمي دائماً من الحرية التي كانت بيني وبين أشقائي. ودون أن يقولوا شيئاً، دون أن يعارضوا الأهل، وربما دون أن يعرفوا هم أنفسهم، ساندوني بشكلٍ كبير. ودون أن يتحيزوا لجانبي، الأمر الذي كان لن يفيد في شيء، فإنّهم كانوا في

صفّي بشكلٍ طبيعي تماماً، وكان يكفي أن يقوموا ببعض الأشياء، وبأن يتصرفوا بأقصى تلقائية. كنّا شركاء على طريقتنا، وأصبح أخوتي- أكثر من أخواتي- حلفائي. هذا ما زعزع أبويّ بصورةٍ كاملة؛ فقد كانا يتوقعان دون ريب أن يلعب أبناؤهما دور المقوّمين والمانعين، وأن يتبنوا وجهة نظرهما، وكانت أمي تريد أن تعتمد عليهما، «سوف ترين، حين يصبح أخوتك أكبر سناً فإنهم سوف يقوّمونك!»، كما تقول هي لأنني كنت عوجاء (معوجّة) بنظرها؛ «انتظري وسترين...، لا أودّ أن أكون مكانك وأنت تستحقين ما سيحصل لك...» لقد كذب ظنها في هذا الأمر أيضاً وكان خطؤها كبيراً. هل خاب أملها؟ لم تسنح لها الفرصة لتدرك الأمر وهي الآن ستقول بالتأكيد بأنّ كل هذا غير صحيح: إنها لم تعتقد ذلك أبداً. مثل أبي. يحوّل المرء الأشياء حين يتغير كل شيء. أتذكر بأنّه حين بلغت السادسة عشرة من العمر أقسم أبي لبعض الأقارب، الذين كانوا يحاولون إقناعه، بأنّ ابنته لن تعمل أبداً طالما هو حيّ. وإن كان الأمر استغرق مني خمسة عشر عاماً لأبدأ بالعمل، وإن كنت اليوم لست سوى سكرتيرة بسيطة في مؤسسة، فإنّ السبب هو أنني لم أقم بدراساتٍ عليا مثل أخواتي الأصغر مني سناً، في حين أنه لم يكن حتى يعرف ما هو التعليم العالي، لم يكن يعرف بوجوده أصلاً.

◆ كيف تتجلى مصالحتك مع أمك وما هي خاصةُ علامات هذا الحب الجديد، فقد قلتِ لي «نحن نعبد بعضنا...»؟

فريدة- نعم. ينبغي أن أقول بأنّ أمي مريضةٌ بمرضٍ خطير. لقد نحلت منذ فترةٍ طويلة، وهي تجرجر نفسها في البيت ولا تأكل، وكانت تتقيأ طيلة الوقت. وبالنسبة للعناية الصحية، فقد كانت تذهب إلى الطبيب القريب من البيت الذي كان يعطيها في كل مرة قائمة من الأدوية لا على التعيين، دون أن يعرف حقاً ما هو مرضها. كنت أهتف إلى البيت كل مساء لأعرف الأخبار. وفي نهاية الأمر، توجب إدخالها إلى المشفى بشكلٍ جدي ولم يتوقفوا هناك عن إخضاعها لاختباراتٍ من كل الأنواع لكل جسمها، وعن مراقبتها بانتباهٍ شديد، وقد أقلقني هذا الأمر.

{أُدخلت أمها إلى المشفى، واكتُشف لديها تشمع في الكبد في حين أنها لم تشرب قطرة كحول طيلة حياتها.}

فريدة- خلال هذا الوقت كله، أصبحت تقيم عندي كلما توجب عليها أن تتنقل بين المشافي؛ تصبح ضيفتي وتلعب هذا الدور بشكلٍ جيد. في مثل هذه الأوقات اصطحبتها إلى السينما كما قلت لك- لكي ترى بأنّ السينما ليست الشيطان، وبالطبع فقد أحسنت اختيار الفيلم الذي سأريه لها، ففي البيتِ لا يُشاهدون في التلفزيون سوى الأخبار-، واصطحبتها إلى مطعم في مركب على السين. أظنّ بأنّ ذلك قد أثّر فيها؛ إذ أنّ أبناءها ليسوا هم الذين اهتموا بها، والأمر لا يقتصر على أنه لم يكن بإمكانهم أن يفعلوا شيئاً لأنهم لا زالوا يعيشون على حسابها، لكن بالإضافة إلى ذلك، فإنهم بالكاد يسألون عن أخبارها، إنهم يعيشون معها ويرونها كل يوم، أي أنّ الأمور بالنسبة لهم عادية. وكان عليّ أن أهزّهم كي أجعلهم يدركون بأنّ الأمر ليس بسيطاً، بأنه خطيرٌ جداً. أما أبي، فقد انتهى به الأمر لأن يعرف؛ لابدّ أن أمي قد أخبرته بالطبع. ويقولون بأنّه علّق قائلاً: «الآن أصبحت أعلم، أعلم على من أستطيع أن أعتمد. لو حصل شيءٌ لي، فإنني متأكد من أنها هي (أي أنا) من سأجد بجانبي!» بالكاد يستطيع المرء أن يصدق ذلك!

[...]

لقد بذلت اقصى جهدي، لقد عملت بجد

❖ يبقى هناك أمرٌ واحد ليكتمل فهم كل شيء. كيف تركتِ البيت؟ كيف وجدتِ عملاً في وقت كان من الصعب فيه أن يعمل المرء حتى لو كان لديه خبرة مسبقة؟ كيف وجدتِ سكناً؟ من ساعدك؟ هل ساعدك أحد في البيت بإقراضك المال مثلاً، الخ.؟

فريدة- لا، لا شيء من كل هذا. كانت إحدى الأقارب ذريعتي لترك البيت، وكانت امرأةً متزوجة ولها أولاد. هي أيضاً عانت كثيراً. جميعنا هكذا. ربما كان جيل اليوم، الفتيات اللواتي يبلغن الآن حوالي الخامسة عشرة أو

السادسة عشرة من العمر واللواتي وُلدن هنا، أولئك فقط يبدو بأنهن يتحررن من ذلك، ويمكن تجنيبهن كل ما عانيناه، نحن الكبيرات اللواتي وصلنا إلى فرنسا أولاً، العائلات الأولى. فقد توجب علينا نحن أن نربّي أهالينا {ضحكات} . والأصغر منا سناً هنّ اللواتي استفدن من ذلك. بارك الله لهن بذلك. (...) لقد جاءت تلك القريبة إذن إلى بيت أهلي مرتين أو ثلاثاً وقالت لي ونحن نتناقش حول بعض الأمور: «لماذا لا تأتين إلى بيتي لبضعة أيام لتغيري الجو وتخرجي من البيت وتري الدنيا قليلاً؟» لم تكن هناك أية ردة فعل من أبويّ؛ لا سلباً ولا إيجاباً، كما لو لم يكونا قد سمعا شيئاً. ولا حتى كلمة شكر، ولا كلمة احتجاج ولا حتى مجاملة. واعتبرتُ بأنهما موافقان. لم يكن هناك أي تواطؤ في ما بيننا، وحين أتت لتودّع أهلي بعد يومين، يوم رحيلها، كانت حقيبتي جاهزة. وجدت نفسي عندها وقلت لنفسي بأن الفرصة قد سنحت لي لو أنني أريد التخلص من ورطتي. وأخذت أجوب كافة الاحتمالات، الإعلانات ومكتب التشغيل الوطني والدورات التدريبية. في مكتب التشغيل، وجهوني إلى دورةٍ تدريبية في السكرتاريا لمدة شهرين. وعلاوةً على ذلك، كانت الدورة مدفوعة الأجر، مما درّ عليّ بعض المال. لقد بذلت أقصى جهدي وعملت بطريقةٍ لا تصدّق. لم يكن هناك تصنيفٌ حقيقيٌّ، إلاّ أنهم كانوا على ما يبدو يجرون تقييماً، وكنت الأولى. وعُرضت عليّ فوراً دورة أخرى أطول من الأولى، لمدة عشرة أشهر، وذات مستوى أعلى وأكثر تأهيلاً، ومدفوعة الأجر كذلك. بقيت عند قريبتي حوالى الشهر، وبحثت ثم وجدت مكاناً في دارٍ بباريس. لقد أقمت بهذا الشكل في ثلاثة دورٍ خلال عامين. وبعد الدورة التدريبية التي قمت بها من خلال مكتب التشغيل، تم تعييني. لم يكن لديّ خيار، ولم أكن متطلّبة، لا بالنسبة لأوقات العمل، ولا بالنسبة لمكان العمل ذاته، ولا حتى في ما يتعلق بالراتب. كنت مسرورةً بأن أكتشف إنني قادرة على أن أتدبر نفسي وأن أعيش بشكلٍ مستقل، بواسطة عملي وفي بيتي...؛ إنه الحلم! فيما بعد، وجدت غرفة غير مرتفعة الإيجار في باريس، لكنها كانت بائسة جداً. لكن ذلك لم يكن يهمني. لم أعرف البطالة أبداً، ووجدت دائماً إما عملاً ثابتاً أو عملاً بالنيابة.

[...]

◆ واليوم، هل تعملين؟

فريدة- نعم، لازلت أحتفظ بعملي. ينبغي أن أحوز بطريقة معترف بها على تأهيل كسكرتيرة إدارة. لقد قمت دوماً بهذا العمل، لكن دون أن يُعتَرف بذلك. ينبغي عليّ أن أجيد اللغة الإنكليزية، وأنا أجتهد في الدراسة. كما أنني أتبع دروساً في معهد الفنون والمهن. وأخطط لشيء: أن أسجل نفسي في مؤسسة التشغيل في الصناعة والتجارة ASSEDIC وأطلب منهم تدريباً تأهيلياً في اللغة الإنكليزية. هذا كل شيء. أعتقد بأنك الآن تعرف كل شيء عني. لست أدري ما الذي ستفعله بكل هذا، لكنني أخمن. سيكون لديّ فضولٌ لقراءته...، والصورة التي سوف تعطيها عني لن تكون جميلة.

1990



غابرييل بالاز

الوحدة

استطعنا إجراء مقابلة مع لويز ب. باقتراحٍ من وحدة الطوارئ في مشفى كبيرٍ بباريس. لاشيء في وحدة طوارئ يساعد على إجراء مقابلة، فالحركة الدائمة لعناصر العناية ورجال الإطفاء، وضجيج صفارات الإسعاف، وحركة النقالات، واصطفاق الأبواب البلاستيكية، وتنادي رجال المحامل وكذلك استحالة الانعزال في مجالٍ مفتوح رُتّب بحيث يسمح بمرور الأسرّة النقالة، والوجود الدائم في الغرف لمرضى آخرين، كل هذه الأمور لاتتوافق مع إجراء مقابلة.

ومع ذلك، ورغم أن المقابلة التي أجريناها مع لويز ب.، البالغة من العمر ثمانين عاماً، والتي تعرضت لأزمةٍ قلبية قد جرت في شروطٍ شديدة الصعوبة، وقوطعت بوضع قناع أوكسجينٍ أو قياس درجة الحرارة أو الضغط الشرياني، فإنها تستدعي بصورة دراماتيكية بشكلٍ خاص التجربة التي تمثلها بالنسبة لشخصٍ مسنٍّ صدمةُ وجوده في المشفى، وهي بدايةٌ لعملية اعتمادٍ ماليٍّ على الغير غير قابل للتراجع[1].

[1] خلال ربع قرن، من 1965 وحتى 1989، ارتفعت نسبة الأشخاص الذين بلغوا أو تجاوزوا الستين من عمرهم من 17% إلى 19%. وتجاوز معدل الأعمار 80 عاماً بالنسبة للنساء و72 عاماً بالنسبة للرجال. إن السنوات الثمانية التي تفصل بين معدل أعمار النساء والرجال تفسر كون ثلاثة أرباع

يُبرز الطارئ الصحي الذي أدّى بلويز ب. إلى قسم الطوارئ عزلتَها التي كانت خفيةً حتى ذلك الحين، فهذا الطارئ يتجاوز كونه مشكلةً صحية ويطرح مسألة العناية بها بعد العلاج. وهكذا، فإنّ أقسام الطوارئ تستقبل عدداً متزايداً من المسنين الذين ينبغي إيجاد مسكنٍ لهم.

بعد أن أعلنت لي لويز بأنها متعبة وبأنها لم تنم جيداً بسبب «الانتقال»- يصل المرضى ليلاً نهاراً إلى القسم-، لم تقبل بأن تنقطع المقابلة حين عرضتُ عليها ذلك. كانت مصرةً على التحدث عن قصتها الشخصية.

في بداية اللقاء، تستخدم لويز بكثرة ضمير on(*) غير المحدد للتكلم عن نفسها كما لو كانت قد أدخلت اللغة التي تزيل الصفة الشخصية للمساعدات الصحيات («أحدهم حرارته 38° هذا الصباح»؛ ثم تتكلم طويلاً عن مهنة المساعدة الاجتماعية التي مارستها كعملٍ تطوعي لفترةٍ طويلة- فقد كانت فتاةً من وسطٍ برجوازي وكان والدها من «رجال الأعمال»، فلم

الأشخاص الوحيدين الذين تبلغ أعمارهم 55 عاماً أو أكثر هم من النساء. وفي عام 1989، شكّل الأشخاص الذين يعيشون بمفردهم 27% من الأسر (مقابل 16% عام 1901 و 20% عام 1968)، وأكثر من عشر الأشخاص يعيشون بمفردهم (10.6 عام 1990). وأكثر من مليون شخص يبلغون 75 عاماً أو أكثر يعيشون بمفردهم.

إنّ 000 450 شخصاً من المسنين يعتمدون مالياً على غيرهم، وهذا الاعتماد قد يرتفع مع التقدم في السن. وفي عام 1990، يستفيد 000 210 شخصاً من المسنين من اعتمادٍ صحي (000 43 منهم في منازلهم، 000 67 منهم في مؤسسةٍ للإقامة الطويلة، 000 100 منهم في دارٍ للإسكان).

إلاّ أنّ هذه العوامل الديموغرافية لا تفسّر مع ذلك بالكامل انعزال المسنين. ومكانهم في الأسرة قد تغير: فنسبة الأشخاص المسنين الذين يعيشون مع أحد أولادهم على الأقل لم تتوقف عن التناقص. المساكنة قد تغيرت، وكذلك تحولت كل دورة المبادلات بين الأجيال ضمن العائلة. انظر: معطيات إحصائية، 1990، المعهد الوطني للإحصاء والدراسات الاقتصادية INSEE. انظر أيضاً ر. لونوار R.. Lenoir «اختراع العمر الثالث، تشكيل حقل عوامل إدارة شؤون الشيخوخة»، وثائق أبحاث العلوم الاجتماعية، العدد 26-27، آذار-نيسان 1979، وكذلك تقرير جان بول بولار Jean-Paul Boulard حول مسألة الأشخاص المسنين التابعين.

(*) في اللغة الفرنسية، ضمير on هو ضميرٌ غير محدد يمكن أن يعني «أحدهم» أو «البعض» أو يستخدم بصيغة المبني للمجهول. - المترجم -

يكن العمل ضرورياً بالنسبة لها-، ثم أصبحت تتقاضى أجراً بعد الحرب، ويبدو بأنّ كل شيءٍ يشير إلى أنها إذا كانت تعود اليوم لهذا الدور، في صوتها وفي نبرتها، وحتى في النوادر التي تصف فيها دائماً دورها كمساعدة اجتماعية، فإنّها تقوم بذلك لكي تعيد تأكيد هويةٍ مهنية واجتماعية يبدو بأنّ الجميع قد نسوها، ليس في المشفى فحسب، حيث تشعر وكأنها رزمةٌ تعيق حركة الآخرين، بل أيضاً في العمارة التي تعيش فيها في الدائرة السادسة، وفي عائلتها بالذات التي لم يعد لها وجود بالنسبة لها إلا بصفتها «مشكلة». ويزداد ألمها حدةً لكونها، بصفتها مساعدةً اجتماعية وككل العاملين في المجال الاجتماعي، اهتمت طيلة حياتها بمشاكل الآخرين. وهي تعلم بخبرتها المهنية بأنّ المؤسسات والأشخاص العاملين وأولئك الذين فقدوا استقلاليتهم هم جميعاً غير مهيئين لإدارة شؤون الاعتماد على الغير. ولإدراكها للنقص النسبي في المؤسسات، وللانتظار الذي يبلغ وسطياً سنةً كاملة قبل الحصول على حلٍ لموضوع السكن المناسب، فإنّ لويز ب. تعاني من فكرة أنه سيتوجب عليها أن تقبل معونةً مادية ومعنوية وأن «تزعج» غيرها، وهذا ما تمقته بشدة.

لويز ب. عازبة، مثلها مثل العديد من المساعدات الاجتماعيات والممرضات والمعلمات من جيلها، ويعيش من تبقى من عائلتها، وهم أخوها وزوجته وعدد من أبناء وبنات الأخ، في الريف. ولويز ب. لا تتكلم في إطار الشكوى أو الاعتراف، بل بالأحرى بلهجة الثرثرة، كما لو كانت تودّ، عبر بساطة اللهجة، أن تخفي كم هو وضعها مؤثّر. وهي تبرز غياب عائلتها بعبارات إنكارٍ مكررة:

«إنهم لطيفون، إنهم لطيفون للغاية». ورغم كونها وحيدةً تماماً، فإنها تصرّ على أن تقنع نفسها بأنها «محظوظة» وبأنها محاطة بالرعاية، وبأنّ عائلتها تهتم بها، في حين أنها «اضطربت» بشدة حين جاءت قريبتها لتقنعها بالذهاب إلى دار للمتقاعدين بأسرع ما يمكن. وفي موازيات تلك التأكيدات التي، وفقاً لها، «كل شيء على ما يرام»، يمكن للمرء التقاط تلك الأمور

البسيطة جداً التي تشكل حياتها، والتي تعددها لويز بحزن: كزيارة إحدى الجارات، أو اتصال هاتفي من ابنة أخيها، أو مرور عاملة التنظيف. والمشكلة الكبرى التي تفصح عن نفسها في المشفى مؤلمةٌ لدرجة أنه لا يمكن قولها كليةً، ولا حتى التفكير بها: ففي كلّ مرة تقترب فيها، خلال المقابلة، من حقيقة وحدتها- فهي لم تعد تستطيع أن تعود إلى بيتها، وعائلتها لا تستطيع ولا تريد أن تؤويها-، تخبئ لويز بسرعة ذلك الإدراك الذي قد يقتلها وراء تأكيدات مطمئِنة: «لديّ أصدقاء»، «يوجد حولي أناسٌ يهتمون»، «أنا محظوظة».

مع امرأة مسنة

أجرت اللقاء غابرييك بالاز

«ما الذي يفعلونه بجدةٍ عجوز؟»

❖ أود لو أنك تحدثينني في البداية عن المصاعب التي صادفتك...

لويز ب.- (...) اخطركِ بأنني متعبة نوعاً ما. لقد وصلت إلى هنا يوم الجمعة ظهراً، وكنت أجرجر نفسي نوعاً ما... كما أنني لم أنم جيداً بسبب زيارة هزّت كياني نوعاً ما. وقد نقلوا بعض المرضى، لا داعي لأن أقول لك بأنه لم يغمض لي جفن...، وكان هناك ضجيج، وكل ما تريدين! لذلك، فإنني لم أكن بحالةٍ جيدة هذا الصباح، وعاودني المرض. الحرارة هذا الصباح 38°. لذلك... نعم... لم أبحث عن السبب. على كلٍ لم يسألني أحدٌ عن السبب، لكن على أيّ حال... لقد أمضيت ليلةً مضنيةً جداً.

❖ إن كنتِ متعبةً، يمكننا أن نتوقف. أخبريني.

لويز ب.- لا، لا بأس...

❖ أخبريني إن كنتِ ترغبين في التحدث أم لا... لقد قال لي الطبيب بأنكِ وصلت إلى هنا بحالة إسعاف، لكنك بعد ذلك لم تشائي أن تعودي إلى البيت...

لويز ب.- لا أستطيع. {تؤكد على كلمة أستطيع}. الأمر مختلف! {ضحكة متشنجة.}

◆ لماذا لا تستطيعين؟ كيف ذلك؟

لويز ب.- أنا عازبة، وكنت فيما مضى مساعدةً اجتماعية، مضى على ذلك عشرون عاماً، بل ما يقارب خمسةً وعشرين، نعم... ليس تماماً،... حينذاك تقاعدتُ... كنت مساعدةً اجتماعية في باريس، وكذلك مساعدةً اجتماعية في الريف، وأنا أحب الريف كثيراً، أحب كثيراً الناس الذين يعملون في المناطق الريفية. الناس هناك يعرفون بعضهم بعضهم جيداً، ويعرفون مشاكل بعضهم بعضاً (فالمرء هناك يقابل عائلةً كاملة)؛ وهو يحسّ بهم لأنه يقابلهم عند الخبّاز أو عند الجزّار، لا يهم. إنه عملٌ أحبه كثيراً؛ وبالأخصّ، فإنني غير نادمة على اختياري له.

◆ متى توقّفتِ عن العمل؟ متى كان تقاعدك...؟

لويز ب.- في عام 71، لكن ذلك كان بسبب مرضٍ شديد مؤلمٍ جداً في المفاصل بسبب العمل الاجتماعي، فالمرء يتجول على الطرقات الريفية طيلة الوقت بسيارة سيتروين حصانين 2CV، نعم. وقبل ذلك، بدأ الأمر على دراجة هوائية. في عام 49، وبعد ذلك، ولأنني قد ذهبت إلى مصحة، حسناً، وبدأت أضعف فإنهم أعطوني، رغم المصاعب في تلك الفترة التي لاتعرفينها أنت، دراجة آلية صغيرة من نوع سولكس solex. وبما أنّ المنطقة كانت ساحلية، فإنّ الدراجة الآلية كانت تعمل أو لا تعمل، وعلى السواحل كنت أدفعها أو... بالأحرى، هي التي كانت تسحبني. حسناً. ثم في النهاية بعد ذلك، في عام 53، أعطوني السيارة.

◆ وبعد ذلك سكنتِ في باريس، لقد قلتِ لي بأنك سكنتِ في باريس منذ تقاعدك، أليس كذلك؟

لويز ب.- نعم، أنا أسكن في باريس. صحيحٌ أنني أصلاً من النورماندي، لكن... حسناً، لقد تقاعدت في الريف، قرب الأصدقاء. ثم وجدت بأنني لم أعد شابة لأستطيع السكن وحدي في الريف... فهناك، ينبغي أن يستخدم المرء سيارة للذهاب إلى أي مكان، وكنت أحب تلك السيارة، لكن، حسناً، لم يعد ذلك ممكناً (...). لقد حصلت على موطئ

القدم الصغير هذا في باريس حين كنت مساعدةً اجتماعية، لأنه كان ينبغي أن أهرب. فإذا ذهبتِ يوم الأحد لتشتري خبزاً {تقلّد الناس الذين تساعدهم} «آه، يا آنسة، هل الأمور على ما يرام؟ هل قبضتِ إعاناتي؟»، «يا آنسة...»، حسناً، هم يصادفونك وأقول لك بأنّ الأمر كان لطيفاً جداً، لكن في نهاية الأمر، ينبغي على المرء الهرب... {بصوتٍ مسموعٍ بالكاد}. إذن، استطعت الحصول على موطئ القدم هذا. وقد عدت إليه حين وجدتُ بأنه لم يعد بإمكاني أن أعيش وحيدةً في الريف. السيارة... وأنه ينبغي أن يعرف المرء يوماً ما أن يقول لا و... حسناً.

[...]

❖ وهل كان لديك أحدٌ يساعدك في البيت؟ كيف كنت تتدبرين أمورك لتنظيم شراء حاجياتك وتنظيف البيت، هل كان هناك أحد يساعدك في البيت؟

لويز ب.- بعد التقاعد؟ كان لديّ موطئ القدم ذاك، ثم إنني كنت لاأزال قوية...

شيئاً فشيئاً، ينحدر المرء، وينحدر، ثم...

❖ نعم، لكن ألم يكن هناك شخصٌ لمساعدتك من أجل التنظيف، من أجل...

لويز ب.- أوه! نعم، نعم، حين كنت أحتاج لمساعدة. كان هناكِ في المنزل امرأةٌ لطيفة للغاية، وحين كان علي القيام ببعض المشتريات، كانت لطيفةً جداً وكانت تقول لي «إذا كنتِ متعبةً يوماً ما، إذا أردتِ أن أضعك في سريرك» فبيتي ليس سوى غرفة صغيرة مع ممر أستخدمه كمطبخ -إن أمكن القول- وهو يقع في باحة، وهي باحة حقيقية مربعة الشكل، في الطابق الأرضي، ومنها يمكن قليلاً رؤية الشمس والسماء. لا توجد سماء في الطابق الذي يعلو بيتي، وكنت أضطر لأن ألصق عيني في زاوية، هناك...

❖ هل بيتك مظلم لأنه في الطابق الأرضي؟

لويز ب.- إنه مظلم. كما أنه تجري فيه أشغال في هذه الفترة، لذلك {بلهجة تهكمية}، إنها حياة قصور! هناك حارسة المبنى وهي شديدة اللطف، هي صديقة، جزائرية، وهي لطيفة للغاية (أعرف بأنني قد قدمت لها خدمة، لكنها تتصرف بلطفٍ أقدّره كثيراً، ونحن نحب بعضنا كثيراً)، وكانت تقول لي: «أنت مثل أمي»، وهي جزائرية... {صمت}. ثم، شيئاً فشيئاً، ينحدر المرء، ينحدر، ثم... هذا هو الوضع.

◆ ما هو النظام الذي وجدتيه إذن لمساعدتك في البيت؟

لويز ب.- تلك الجزائرية؛ نعم، ثم إنّ الوضع جيد جداً وهناك نوادٍ تابعة للبلدية، وهي جيدة بالفعل؛ هناك نادٍ قرب بيتي، وأنا عضوٌ فيه، وأنا أذهب لتناول الطعام هناك كلما أردت، فالمرء يسجل عضويته في النادي ويدفع تبعاً لموارده... المالية {سعال}؛ كما أنّ النادي لطيف، والخدمة فيه لطيفة، وما يقدمونه متنوع، والنادي يمثّل العديد من الميزات. ثم، ثم، ثم إنّ القلب هو بالطبع متعب... لقد وقعت في شهر حزيران وكُسرت ذراعي، وأدّى ذلك بالطبع إلى مجموعةٍ من الأمور.

لقد فضّلت أن أقضي بضعة أيامٍ هنا في المشفى بسبب ذلك، ثم عدت إلى بيتي وكانت ذراعي متورمة، وكانت الأصابع الثلاثة التي تراها لا تستجيب... ثم، ثم، ثم استعدتُ عادة الذهاب إلى النادي؛ كانت السيدة التي تساعدني في أشغال البيت تأخذني إلى هناك إن لزم الأمر. لقد كان هناك (...)، توجد هناك روحٌ جيدة جداً ولطيفة جداً، وكانت تعيدني إلى البيت أو كانت تساعدني على تقطيع اللحم لأنني لا أستطيع...

◆ نعم، هكذا هو الأمر بالنسبة لكل ما يجب فعله في البيت، لم يكن بإمكانك أن تتحركي، أليس كذلك؟

في النهاية، تتدهور الأمور

لويز ب.- لم أكن أستطيع، وكانت لدي تلك السيدة اللطيفة (...). إنها مجبولةٌ من ذهب، ويمكن للمرء أن يثق بها تماماً، لديها المفاتيح، وهي تعرف

حالتي جيداً، وأنا مجبرةٌ على إيقافها، لأنها تعمل... إنها تأتي لعندي لمدة ساعة مثلاً، «ماذا تريدينني أن أفعل لك؟»، لكن... حسناً، تلك السقطة أدّت إلى نوعٍ من التراجع السريع، حدث ذلك في حزيران، ومنذ ذلك الحين وضع لي الجبس عدة مرات، ووضع بشكلٍ خاطئ، وكان الألم شديداً. ثم في 15 آب، وقتٍ كهذا... {ضحك} هذا طويل. الأمر ليس مسلياً دوماً لأنه عمّن تبحثين في شهر آب؟... الجميع رحلوا، الجميع رحلوا... (...) هناك أناسٌ يودّون أن يقدّموا الخدمات لي، لكن... ثم، ثم، ثم عدتُ لحياتي، هكذا، كنت اعرج نوعاً ما، كنت أعرج قليلاً، كنت أمشي بمساعدة عصا، وكنت أتدبر أمري حسب استطاعتي. ثم، ثم، في النهاية، الأمور تتدهور. ما تسبب في ذلك هو...، نعم، هو أنني وقعت في بيتي. حينذاك، وجّه ذلك الأمر إنذاراً. ثم أنه لم يكن بإمكاني أن أنهض. {ضجيج عربات نقالة، وأصوات.} ثم حصلت مصيبة كان من الممكن أن تتحول إلى كارثة، فقد كان ذلك في الوقت الذي كان فيه الحليب على النار، لكن الذي حصل هو أنّ الغاز قد انطفأ؛ فتمكنت حينذاك من الزحف كدودة أرض للوصول إلى الهاتف ولأخبر حارسة البناء التي قالت «ما هذا الأمر...؟»، فقد خافت بالطبع، وأدى ذلك إلى عددٍ لا بأس به من الأمور، «لكن هذا غير ممكن!»، هذا ما حصل.

❖ إذن الحارسة هي التي نصحتك بعدم البقاء وحيدة، أليس كذلك؟

لويز ب.- هي، إنها لطيفة جداً، صحيحٌ أنها تقدم لي الخدمات، وكل ذلك، لكنني لا أريد، فليست العناية بي من واجبها، ربما أطلب منها يوماً ما حين تذهب لجلب الخبز لها «هل بإمكانك أن تجلبي لي الخبز في الوقت ذاته؟»، نحن متفقتان على ذلك، أو أنها تأتي أثناء توزيع البريد، وتجلس قرب سريري ثم نثرثر معاً. هذا كل شيء. لكنني لا أريد، هذا ليس من واجبها، ثم إنني أثقل من أن تستطيع حملي، وبالطبع فإنّ كل شيء سوف ينتج عن ذلك... هذا هو وضعي إذن. وقد أدّى سقوطي إلى إثارة المخاوف لديها، واتصلت بأخي، حسناً {ضحك}، وكان ذلك...

❖ وما هو رأي أخيك إذن؟

ما الذي يمكن فعله بي؟

لويز ب.- أوه، إنه يقول... إنه يهتم بي بصورةٍ لطيفة للغاية، لكننا نبحث. هناك غداً اتصال هاتفي بين المساعدة الاجتماعية وبين هذا الأخ - زوجة أخي شديدة اللطف هي أيضاً- وهم يسكنون في منطقة لاروشيل، إذن... وزوجة أخي لطيفةٌ للغاية وكذلك هو أخي، لذلك فالبحث جارٍ عن الحلول الواجب اللجوء إليها؛ والمساعدة الاجتماعية هنا تتصل بأخي... ليعرفوا ما الذي سيفعلونه بي، أين سيضعونني... إنها مأساة الأشخاص الذين بلغوا عمراً معيناً. حين حصل ذلك، ترددتُ لفترة حول القرار الذي عليّ اتخاذه، ثم أنه كان عليّ العودة إلى البيت. ثم فكرت المساعدة الاجتماعية بمنطقة بروكا، حدّثتني عن بروكا وقلت لنفسي بأنّه يمكنني أن أبقى كما أنا بوجود تلك المرأة الجزائرية والمأوى الذي قرب بيتي. لكن {صمت}، انتهى الأمر!

◆ ألم يعد ذلك ممكناً؟

لويز ب.- ما الذي سأذهب إلى هناك لأفعله؟ {مقاطعة}. لكن هذا المأوى هو فعلاً... يقبل المرء فيه، أقصد أن المرء يكون فيه مرتاحاً جداً، كما أنّ الزيارة سهلة لمن يريد أن يزورني، وعلى كل حال فإنّ بابي مفتوح دائماً. هكذا، أترين، كثيراً ما أكون في السرير، حسناً، ثم يأتي أحدٌ ما... الأمر لطيفٌ جداً، هو... ثم، ثم أنه حين وقعتُ وكان الغاز مشتعلاً جعلت هذه الحادثة الآخرين يفكرون وقدمت إنذاراً للجميع. فقامت الحارسة بإخطار أخي في لاروشيل الذي... الذي قام بكلّ لطف... كنت أستخدم الغاز للتدفئة والطبخ؛ وبعد تلك الحادثة، أرادوا بطبيعة الحال أن يلغوا الغاز ويستبدلوه بالكهرباء، وأنا أفهم ذلك، فهو أمرٌ أكثر سلامةً، وبالطبع فإنه... لكن المكان مليء بالفئران، كما اكتشفوا مؤخراً، كنت أعلم بأنه يوجد عندي فئران، وكنت أحاول أن أقدم لها الطعام، لكن هذا لا يكفي. وحارسة البناء تشعر بالهلع نوعاً ما لأنّ أعمال الكهرباء التي ينبغي إجراؤها غير ممكنة بوجود الفئران. أنا إذن لا أعرف في أية مرحلة هي تلك الأشغال حالياً، لا أعرف ما الذي يتم التخطيط له، لا أعرف شيئاً {ضحك}.

❖ أي أنـه ينبغـي أن يُجـدَّد المسـكن إذا أردت العـودة إليـه، ينبغـي تجديده، أليس كذلك؟

لويز ب.- أوه، إعادة تجديده... لا، إنها قضية الكهرباء والغاز تلك؛ على كل حال، هم محقون تماماً. ثم إنني أعلم جيداً بأنه لم يعد بإمكاني أن أعيش بمفردي، وعلى كل حال، فإنني لم أعد أخرج أبداً في هذه الأيام؛ كنت أخرج ومعي العصا، كنت أخرج، وقد كنت محظوظةً لأنني كنت أستطيع الذهاب لحضور اجتماعات عائلية، لكنهم كانوا يأتون لاصطحابي بالسيارة... نعم، نعم، لقد سمح لي ذلك بالاستفادة من الأول من كانون الثاني، كان ذلك في شهر كانون الثاني...

❖ هل لديك أقارب في باريس؟

لويز ب.- نعم، لدي أقارب في باريس، أبناء عمومة... لديّ قريبات بالطبع، إحداهن... تشعر بالانزعاج لرؤيتي بهذا الوضع. أنا أعرف ذلك جيداً وألمسه، لكن لديها ثلاثة أولاد، وزوج كان عاطلاً عن العمل لفترة من الزمن، فاضطرت بالتالي إلى أن تعمل، عملت مربيةً في دار حضانة، لقد عادت للعمل في مجال التعليم. عليها إذن أن تبذل جهداً، ثم إنّ كل هذا متعبٌ جداً. وبالتالي، فأنا لا أريد أن أطلب منها...

{تدخل ممرضة من أجل تقديم بعض العناية.}

❖ أي أنك لا تريدين أن تطلبي منها شيئاً؟

لويز ب.- أوه، أنا لا أريد أن أطلب!

❖ لأنك تظنين بأنها لا تستطيع؟

لويز ب.- إنها تفعل كل ما بإمكانها أن تفعله، فهي تتصل، وأحياناً أقول لها: «خذي سيارة أجرة» وحين تأتي، فإنني أقدم لها أجرة السيارة، تبقى عندي ربما ساعة، في الأيام التي...، في الأيام التي، لكن لديها في نهاية الأمر ثلاثة أولاد، ولست أنا من سيذهب لإزعاج الجميع هناك.

❖ تتحدثين عن الإزعاج، لكن لماذا تظنين بأنك قد تزعجينهم؟ هل الموضوع هو عدم وجود مكان لك عندهم أم...

لويز ب.- لأنّ حياتهم مشغولة. حياتهم مشغولة، أتفهمين، هذا الزوج الذي بدأ يعمل من جديد، عليها أن تسانده معنوياً، ولا أريد أن أكون عبئاً على أحد؛ حين تتصل بي هاتفياً وتتحدث معي، لا بأس، فالقريبات في النهاية هنّ... لكن ليس باستطاعتهن أن يأتين لرؤيتي، وأنا نفسي لا أريد، وبين حينٍ وآخر، أقول: «حسناً، حسناً، خذي سيارة أجرة وتعالي».

◆ ومن بين أقاربك، أليس هناك من يمكنهم المجيء إلى هنا؟

لويز ب.- للسكن؟

◆ نعم، نعم، للسكن.

لويز ب.- {صوت يصيح: هناك مريض في الرقم 8، ليأت طبيب!} لا، هذا غير ممكن، فبيتي ليس سوى حجرة بائسة، أعتقد أن مساحتها هي بالكاد خمسة، بل ثمانية أمتار، ثم هناك ممر، ممر عريض نوعاً ما كنت استخدمه كمطبخ...

◆ نعم، أي أنه أصغر من أن تستضيفي فيه أحداً، أليس كذلك؟

لويز ب.- تماماً، وحين قالت لي زهرة في بعض المرات «ما رأيك...» (أقصد جارتي الجزائرية)، لقد حصل ذلك مراتٍ عديدة، فكنت أضع فراشاً على الأرض وكم مرةً نامت عندي... «آلو... نعم، سنضع الفراش على الأرض وتنامين عندي»، حسناً، لقد جاءت منذ بضعة أيام، لكن المسكينة بردت - حصل ذلك خلال فترة البرد- فالهواء يمر من تحت الأبواب. ثم إنّ ذلك غير ممكن، ثم إنه لا يوجد مكان في... أليس كذلك، هناك ذلك الفراش البائس الموضوع على الأرض... {ضحكة مرتبكة}.

◆ بلى، إنه حلٌّ مؤقّت، لكن الا يمكن أن يتواجد أحد ما بصورةٍ دائمة عندك؟

لويز ب.- لا. لا، لا يمكن أن يعيش في الشقة اثنان.

◆ إذن، ما الذي تنوين فعله الآن؟ هل تفكرين مثلاً في الذهاب إلى بيت أخيك وزوجته؟

لويز ب.- لا! لا، لا! لا أريد أن أذهب لعند أحد...لا، لا! على أية حال، فإن حياتهم منظمة، وقد رزقا منذ فترة وجيزة بطفل ثالث، أقصد أحد أولادهم وهو يعيش غير بعيد عنهم. أترى، كلٌّ له حياته المنظمة. لا، لا، لا، لا، الأمر... وزوجة أخي تفهم الأمر جيداً، وهي تتصل بي دائماً، بكل لطف، وتسألني «كيف الحال»، وكل ذلك لأنها ترى جيداً أنني أفعل ما بوسعي، لكنني لا أزعجها. لا، هذا لا... أستطيع القول بأنني أكره أن...

إنهم يجعلوننا نعيش

◆ ومن أين تأتي تلك الكراهية لإزعاج الآخرين؟ أنتِ التي انشغلتِ طيلة حياتك بالآخرين أثناء ممارستك لمهنتك...

لويز ب.- إنه تحديداً لأنني رأيت ما يعنيه إزعاج الناس لبعضهم. ما الذي سيفعلونه بجدةٍ عجوز؟ ماذا؟ لا.. إنهم يجعلوننا نعيش، بما أنّ الأمر هو كذلك نوعاً ما، لكنني لا أعلم ما إذا كان هذا يسمى عيشاً {ضحك}. لاحظ أنني أحب القراءة، أقرأ الكلمات المتقاطعة، ويأتي أحدهم، بسهولة كما أقول لك، ويقرع الباب، ونلعب لعبة الكلمات المتقاطعة، وحين يكون لدي تلفزيون لا يعمل ثم... لديّ أبناء اخوة، لكنهم ممن يدعونهم أبناء أخوة باختيار القلب؛ أي أنهم أبناء لأصدقاء، وأنا بالنسبة لهم الخالة. إذن هناك زوجان اتصلا بي منذ يومين وقالا لي «اسمعي، سوف نحضر لكِ تلفزيون حماتي»، وبالتالي أصبح لديّ تلفزيون جميل يعمل جيداً، ويمكنني من سريري أن... هكذا، كثيرون يحاولون بلطف أن يبعثوا السرور في نفسي. {صوتها يندفع.} لكن هناك العديد ممن لا يفهمون الأمور بالدرجة ذاتها. {صوتها يصبح عصبياً.} وهم يظنون بأنّهم يفهمون كل شيء ويديرون كل شيء، وينظّمون كل شيء {تقلّد صوت قريبتها الأمر} «لماذا حذاؤك بهذا الشكل؟» لو رأيت... البارحة كان الأمر دراماتيكياً! مع تلك القريبة، حقاً، لديها طريقة للحكم عليك في كل شيء، وهي تبلغ الأربعين من عمرها...

◆ هل هي ابنة أخٍ آخر لك؟ هل هي ابنة أخٍ غير ذلك الذي يقطن في لاروشيل؟

لويز ب.- أوه، هذا مسجل، أوه، انتبهي، أوه، نعم!

{لويز ب. قلقة جداً بالنسبة لمستقبلها، كما أنها «مهزوزةٌ» جداً بسبب زيارة قريبتها لها، وهي حريصةٌ على ألاّ تقول كلاماً كثيراً، وتطلب أن تتكلم خارج التسجيل، وبعد انقطاع، نعاود اللقاء مرةً أخرى.}

لويز ب.- إذن، أخي وزوجة أخي، زوجة أخي متحفظة جداً. بالمناسبة، لقد قالت لي المساعدة الاجتماعية قبل قليل بأنّها قد اتصلت، وقالت لي بأنهم سوف يسافرون غداً، لذلك فهم سوف يمرون بباريس، وهناك اجتماع مع المساعدة الاجتماعية ولا أعرف من أيضاً، لا أعرف من أيضاً سيكون في الاجتماع، ليبحثوا في ما سوف يفعلونه بالأعباء الثقيلة جداً التي هي نحن. {ضحك - ضجيج في الممر.} هذا صحيح. هذا صحيح حقاً. كم عدد أمثالي؟ وأقول لنفسي بأنني محظوظة لأنّ... لأنني أرى ما لديّ؛ ينبغي على المرء أن يعرف ما لديه. الهاتف يعمل بسهولة في بيتي، وأنا في نهاية الأمر أعيش حياةً حيوية للغاية...

❖ لكن ما الذي تفضلينه أنت؟

لويز ب.- أنا قد مللت، أريد مكاناً هادئاً في دارٍ للمسنين...

❖ في دار للمسنين؟

لويز ب.- {يصبح لحن صوتها منخفضاً.} بلى... لم يعد أمامي سوى ذلك. ويجب مع ذلك الاّ تكون الدار بعيدةً جداً بحيث يمكن لمن يشاء أن يحضر لزيارتي...

❖ نعم، في باريس...

لويز ب.- بلى، أو بالقرب من باريس... {صمت}. لذلك، فإنني أظنّ أنّ هذا الموضوع هو الذي سيُدرس غداً؛ إذن مع كثير جداً من التوصيات من قبل قريبتي تلك. {تقلّد صوت قريبتها} «أهم شيء ألاّ تجعلينهم يمررون ما يقترحونه عليك». وما دخلي أنا! كما لو كنت ألجأ إليها لكي أعيش... لكنني مع ذلك ذكّرتها البارحة، فقد بدأ صبري ينفد، بأنني قد قدت دراجة سانا

لمدة عامين عام 38، دون أن يعرف ذلك أحد! قلت لها «هل تعلمين؟ بالنسبة للشجاعة، لقد كان لديّ شجاعة، وبالتالي، فهذا يكفي!» وقلت لها في أحد الأيام «اسمعيني جيداً، ما أتيت لتقوليه لي، لم يسبق لأحد أن جرؤ على قوله لي»، وأعتقد أنها أدركت حينذاك بأنها قد بالغت قليلاً. ينبغي الاعتراف بأنّ سماع مثل هذا الكلام أمرٌ مؤلم.

❖ ما هي مهنتها؟ ما هي المهنة التي تقوم بها؟

لويز ب.- أوه، لقد درست علم النفس. نعم {ضحك} . أتعلمين، ليس هذا مثالاً... نفسياً. إنها على كلّ حال لم تكمل دراستها- وهي في الواقع لم تكن بحاجة للعمل-، فلدى زوجها مركز يسمح له بالعيش، وفي بعض الأحيان أعتني- أكثر من اللزوم- بأولادهما. لكن هناك آخرون، فأرى الآخرين... صباح اليوم بالذات تلقيت اتصالاً من مونبيلييه؛ كان الاتصال من إحدى ما أدعوهن بنات الأخوة باختيار القلب. والبارحة كان الاتصال من روان، ماذا أقول لك، كانت المتصلة صديقةً من كانٌ. ينبغي أن يرى المرء كل ما لديه، وليس فقط اللحظة التي سيخرج فيها من الأزمة. [...]

{يدخل مساعد صحي ويقول: «مرحباً، أنا أزعجكما ثانيةً!»}

لويز ب.- ماذا تريد؟

{يأخذ الجريدة التي أحضرها لها أحد الزوار ويخرج.}

شباط 1992

بيير بورديو

الفهم

لا أريد أن أستسلم هنا بصورة ملحة جداً لأفكار نظرية أو منهجية مكرسة للباحثين فقط. كان مونتين Montaigne يقول :«إننا لا نفعل سوى أن ننتقد بعضنا بعضاً». وحتى لو لم يكن الأمر يتعلّق إلاّ بذلك، لكن بطريقة مغايرة تماماً، فإنني أريد أن أتجنب البحوث المدرسية حول التفسير أو حول «الوضع الأمثل للاتصال» : فأنا أعتقد بالفعل بأنه ما من وسيلة لاستكشاف علاقة الاتصال بعموميتها أكثر حقيقيةً وواقعية من تعلّق المرء بالمشاكل التي لا تنفصم صفتها العملية عن صفتها النظرية، والتي تنشأ عن الحالة الخاصة للتأثير المتبادل بين الشخص الذي يجري الاستقصاء والشخص الذي يسأله المستقصي.

مع ذلك، فإنني لا أعتقد بأنه يمكن للمرء أن يعتمد على الكتابات العديدة التي توصف بالمنهجية والمتعلقة بتقنيات الاستقصاء. فعلى الرغم من أنّ هذه الكتابات قد تكون مفيدةً حين توضّح هذا أو ذاك من التأثيرات التي يمكن للمستقصي أن يمارسها «دون علمه»، إلاّ أنها تفتقد في معظم الأحيان إلى الجوهري، وقد يكون ذلك لأنها تبقى تحت سيطرة الوفاء لمبادئ منهجية قديمة تنتج في كثير من الأحيان عن الرغبة - كما في مثال تنميط الطرائق - في محاكاة دقة العلامات الخارجية لأشهر الطرق العلمية؛ ولا يبدو لي على كل حال

بأنّ هذه الكتابات تعرض ما فعله وعرفه على الدوام أشد الباحثين احتراماً لموضوعهم وأكثرهم انتباهاً للدقائق التي تكاد لا تنتهي للاستراتيجيات التي يستخدمها العاملون الاجتماعيون في سلوكهم الحياتي الاعتيادي.

وهكذا، فقد أقنعتني عدة عشرات من السنين في ممارسة الاستقصاء بكافة أشكاله، من علم الأجناس إلى علم الاجتماع، ومن الاستجواب الذي يدعى مغلقاً إلى المقابلة الأكثر انفتاحاً، أقنعتني بأنّ تلك الممارسة لا تجد تعبيرها المناسب في أحكام منهجية كثيراً ما تستخدم المذهب العلمي كانتماء لا كمنهج، ولا في التحذيرات المعادية للعلم التي يطلقها المتصوفون المؤمنون بالانصهار الانفعالي. لذلك، فإنه يبدو لي بأنّه لا بدّ من محاولة تفسير النوايا ومبادئ الطرائق التي استخدمناها في البحث الذي نقدّم هنا نتائجه. وبهذا الشكل، ومن خلال قراءة النصوص، فإنّ القارئ سوف يتمكّن من إعادة إنتاج عمل البناء والفهم الذي نتجت عنه هذه النصوص[1].

وإذا كانت علاقة الاستقصاء تتميز عن معظم مبادلات الوجود العادي بما تقدمه لنفسها من أهداف معرفية صافية، فإنها تبقى، في كل الأحوال، «علاقةً اجتماعية» تمارس تأثيرات (تتباين وفق المعايير المختلفة التي يمكن أن تؤثّر عليها) على النتائج التي يتم الحصول عليها[2]. ربما كان الاستجواب

---

[1] خلال اجتماعات العمل المختلفة، قمت بعرض أهداف البحث والمبادئ (المؤقتة) للقاءات التي قمت باستنباطها من تجارب حققتها منذ عدة سنوات بنفسي أو عن طريق بعض المساعدين المقرّبين (مثل روزين كريستان وإيفيت ديلسو Yvette Delsaut وميشيل بيالو Michel Pialoux وعبد المالك صياد). في كلّ مرة، دُرس بعناية اختيار المواضيع والشكل الممكن للمقابلة تبعاً للمميزات الاجتماعية للشخص المحتمل مقابلته. وفي كثير من الأحيان، أثار الاستماع إلى المقابلة الأولى أو قراءتها أسئلةً جديدة (حول الوقائع أو حول التفسير) واستدعى إجراء مقابلة جديدة. وفيما بعد، أخضعت للنقاش في كوليج دوفرانس Collège de France في العام الدراسي1991-1992 كافة المشاكل والصعوبات والدروس التي تعرّض لها هذا أو ذاك اثناء المقابلات التي كانوا يجرونها. وفي المواجهة الدائمة بين تجارب المشاركين، تحدد المنهج شيئاً فشيئاً، عبر التفسير والترميز المتدرج للخطوات المنجزة بالفعل.

[2] إن التعارض التقليدي بين المناهج التي تدعى بالمناهج الكمية، كالاستقصاء بالاستجواب، وبين المناهج التي تدعى بالنوعية، كالمقابلة الشخصية، هذا التعارض يخفي بأنّ تلك المناهج تتشارك في أنها تستند

العلمي يستثني بالتعريف نيّة ممارسة شكلٍ من العنف الرمزي القادر على التأثير على الأجوبة؛ ويبقى أنه لا يمكن الوثوق بالنوايا الحسنة وحسب في هذه المواضيع، لأنّ هناك أشكالاً عديدة من التشوهات المترسخة ضمن بنية المقابلة بذاتها. ينبغي معرفة هذه التشوهات والسيطرة عليها؛ ويتم هذا الأمر من خلال إنجاز ممارسةٍ يمكن لها أن تكون مدروسةً ومنهجية، دون أن تكون تطبيقاً لمنهج أو تنفيذاً لتفكيرٍ نظري.

وحدها الانعكاسية، وهي مرادف للمنهج، لكنها «انعكاسية رد الفعل»، مبينة على «مهنة»، أو «عين» اجتماعية، وحدها تسمح بالملاحظة الفورية وبالتحكم بتأثيرات البنية الاجتماعية التي تجري ضمنها، وذلك من خلال مسار المقابلة. كيف يدّعي المرء بأنه يقوم بالتعرف على المسلّمات دون أن يعمل على التعرف على مسلماته الخاصة؟ وخاصةً دون أن يبذل جهداً كي يستخدم مكتسبات علم الاجتماع بشكلٍ انعكاسي من أجل التحكم بتأثيرات الاستقصاء ذاته ولينهمك في المقابلة متحكماً بتأثيرات الاستجواب التي لا يمكن تجنبها.

إنّ الحلم الإيجابي ببراءةٍ معرفية تامة يخفي بالفعل أنّ الفارق ليس بين العلم الذي يبني وذلك الذي لا يبني، بل بين ذلك الذي يفعل ذلك دون أن يدري وذلك الذي يدري، ويجهد كي يعرف ويسيطر ما أمكنه على أفعاله التي لا يمكن تجنبها، والتي تهدف إلى البناء، والتأثيرات التي تنتج عنها تلك الأفعال والتي لا يمكن تجنبها هي أيضاً وبالدرجة ذاتها.

تواصلٌ «غير عنيف»

حين يقيم المرء علاقة مقابلة، فإنّ محاولة معرفة ما يفعله المرء تعني

إلى تفاعلاتٍ اجتماعية متبادلة تتم تحت تأثير البنى الاجتماعية. والمدافعون عن هذين النمطين من الطرائق يشتركون في أنّهم يتجاهلون تلك البنى، وهكذا أيضاً يفعل الأخصائيون بعلم المناهج الأخلاقية، الذين تدفعهم نظرتهم الذاتانية للعالم الاجتماعي إلى تجاهل التأثير الذي تمارسه البنى الموضوعية ليس فقط على التأثيرات المتبادلة (بين الأطباء والممرضات مثلاً) التي يسجلونها ويحللونها، بل أيضاً على تفاعلها المتبادل مع الأشخاص الذين يخضعون للملاحظة أو للاستجواب.

أولاً أن يحاول معرفة التأثيرات التي يمكن أن يتسبب بها دون أن يعلم عبر ذلك «التطفل» الذي يكون دائماً تعسفياً نوعاً ما، والذي هو في أصل التبادل (وخاصةً بطريقة تقديم الذات وتقديم الاستقصاء، وعبر أشكال التشجيع المقدّم أو المرفوض، الخ.)؛ إنها تعني محاولة إظهار تصور المستقصى عنه للوضع، وللاستقصاء بصورةٍ عامة، وللعلاقة الخاصة التي يقيمها ضمنه، وللأهداف التي يتابعها، وتعني توضيح الأسباب التي تدفعه إلى قبول الدخول في عملية التبادل. وبالفعل، فإنه من الممكن للمستقصي أن يحاول إنقاص التشوهات التي تنتج عن الاستقصاء، أو أن يحاول على الأقل فهم ما يمكن قوله وما لا يمكن قوله، وأشكال الرقابة التي تمنع من قول أمورٍ بعينها، وأشكال التحريض التي تشجع على إبراز أمور أخرى، وذلك بشرط أن يقيس مدى وطبيعة الفارق بين موضوع الاستقصاء كما يراه ويفسره المستقصى عنه، وبين الهدف الذي يعيّنه له المستقصي.

المستقصي هو الذي يدير اللعبة ويعلّم قواعدها. وفي معظم الأحيان، يكون هو الذي يدير في المقابلة، بطريقةٍ أحادية الجانب ودون تفاوض مسبق، الأهداف والاستخدامات التي تكون أحياناً غير محددة بشكلٍ جيد، بالنسبة للمستقصى عنه على الأقل. ويتضاعف هذا التفاوت بتفاوت اجتماعي في كل مرة يحتل فيها المستقصي مركزاً أرفع من مركز المستقصى عنه في تراتبية الأنواع المختلفة لرأس المال، وبالأخص رأس المال الثقافي. إنّ «سوق الخيرات اللغوية والرمزية» الذي ينشأ بمناسبة المقابلة يختلف في بنيته حسب العلاقة الموضوعية بين المستقصي والمستقصى عنه، أو بين رؤوس المال المتباينة، وخاصةً اللغوية منها، التي يتحليان بها، وهذا يؤدي للنتيجة ذاتها.

وقد أخذنا علماً بتلك الخاصتين الملازمتين لعلاقة المقابلة، وحاولنا أن نجند كل شيء في سبيل السيطرة على تأثيراتها (دون أن ندّعي إلغاءها)؛ أي، بصورةٍ أدقّ، «لتقليل العنف الرمزي الذي قد يمارس عبرها إلى الحد الأدنى». فقد حاولنا إذن أن نقيم علاقة «استماعٍ فعال ومنهجي»، بعيدةً عن

عدم التدخل الصافي للمقابلة غير الموجهة بقدر ما هي بعيدة عن توجيهية الاستجواب. هذا الموقف متناقض ظاهرياً ويصعب الالتزام به من الناحية العملية. وبالفعل، فهو يجمع بين الجاهزية الكاملة تجاه الشخص المستقصى عنه وبين الخضوع إلى تفرّد قصته بالذات، مما قد يؤدي، عبر نوعٍ من التشبه الذي تكون السيطرة عليه متفاوتة، إلى تبني أسلوبه الكلامي وإلى الدخول في أشكال رؤيته للأمور، وفي عواطفه وأفكاره، وذلك بالبناء المنهجي، الذي تقويه معرفة الشروط الموضوعية المشتركة بالنسبة لأفراد صنفٍ بأكمله من الناس.

ولكي تكون علاقة المقابلة أقرب ما يمكن إلى ذلك الحد المثالي، توجب إنجاز عددٍ من الشروط: فلم يكن كافياً أن يكون هناك تأثير، كما يفعل تلقائياً أيّ مستقصٍ «جيد»، على ما يمكن السيطرة عليه، سواءً بصورةٍ واعية أم غير واعية، في «التأثير المتبادل»، وخاصةً على مستوى الأسلوب الكلامي المستخدم وكافة الإشارات الكلامية أو غير الكلامية القادرة على تشجيع تعاون الأشخاص الذين تم استجوابهم، والذين لا يمكن لهم أن يقدموا للاستجواب إجابةً جديرة بهذا الاسم إلاّ إذا كان بمقدورهم أن ينسبوها لأنفسهم وأن يصبحوا مواضيعها. توجب أيضاً، في بعض الحالات، العمل على «بنية» العلاقة ذاتها (وبالتالي على «بنية» السوق اللغوي والرمزي)، وبالتالي على «اختيار» الأشخاص المستجوَبين والسائلين.

الإرغام

يمكن للمرء أن تنتابه الدهشة أحياناً لاستطاعة المستقصى عنهم أن يضعوا كل تلك الإرادة الحسنة وكل تلك المسايرة في إجاباتهم على أسئلةٍ تتسم بكل ذلك المقدار من السخافة أو الاعتباطية أو عدم اللياقة، كتلك التي «تطبّق» عليهم في كثيرٍ من الأحيان، وخاصةً في استطلاعات الرأي. وبعد ذلك، يكفي أن يدير المرء مقابلةً واحدة كي يعرف إلى أية درجة يصعب عليه أن يركز انتباهه على ما يجري قوله (وليس فقط ضمن الكلمات) وأن يستبق

الأسئلة القادرة على أن تسجّل «بصورةٍ طبيعية» في استمرارية المحادثة، وأن يقوم في الوقت ذاته باتباع نوعٍ من «الخط» النظري. هذا يعني أنه ما من أحدٍ بمنجى من تأثير الفرض الذي يمكن أن تمارسه الأسئلة المركزية الذاتية بصورةٍ ساذجة، أو ببساطة، تلك الأسئلة الطائشة المطروحة، وبمنأى خاصة عن التأثير الرجعي الذي قد تؤدي إليه الإجابات المنتزعة بتلك الطريقة على المحلِّل، المفرِّض دوماً إلى أن يأخذ في تفسيره على محمل الجدّ ظاهرةً دراسية أنتجها بنفسه دون أن يدري. فمثلاً، يمكن أن يطلب مستقصٍ فجأةً، هو في ما تبقى مجاملٌ بقدر ما هو منتبه، من عاملٍ في الصناعات المعدنية، قال له لتوه كم حالفه الحظ ببقائه طيلة حياته في الورشة ذاتها، ما إذا كان، هو «شخصياً»، «مستعداً للرحيل من لونغوي» ويحصل، بعد انتهاء لحظة الدهشة الصريحة، على إجابةٍ مجاملة من نمط تلك التي يسجلها المستقصي والمرمِّز المستعجل في مؤسسات سبر الرأي العام كموافقة: «الآن {لهجة استغراب}؟ ولماذا؟ الرحيل.. لا أرى فائدةً لذلك.. لا، لا أظنّ بأنني سأترك لونغوي... بل إنّ تلك الفكرة لم تخطر ببالي قطّ... كما أنّ زوجتي لا تزال تعمل. ربما كان ذلك عنصراً كابحاً... لكن أن نرحل عن لونغوي.. لا أدري، ربما، لمَ لا؟.. يوماً ما.. لا أعرف.. لكن ذلك لا يخطر ببالي حتى الآن. لم يخطر ذلك ببالي أبداً، فضلاً عن أنني باقٍ... لست أدري، لمَ لا {ضحك}، لا أعلم، لا أحد يعلم...».

وهكذا، اخترنا أن نترك للمستقصين حرية اختيار المستقصى عنهم بين «الأشخاص الذين يعرفونهم» أو بين الناس الذين يمكن لمعارفهم أن يعرّفوهم بهم. وبالفعل، فإن التقارب الاجتماعي والألفة يؤمّنان اثنين من الشروط الأساسية لتواصلٍ «غير عنيف». فمن جهة، إذا كان المستقصي قريباً جداً اجتماعياً من ذاك الذي يستجوبه، فإنه يقدّم له، عبر التبادل المشترك معه، ضمانات ضد تهديد أن يرى دوافعه الذاتية تُختصر إلى أسباب موضوعية، وخياراته التي عاشها بصفتها حرةً تُختصر إلى تأثير حتمياتٍ موضوعية يُظهرها التحليل. من جهةٍ أخرى، نرى بأنه يتم في هذه

الحالة تأمين اتفاق فوري مؤكّد باستمرار على المسلمات المتعلقة بمحتويات وأشكال التواصل: حيث يتأكد هذا الاتفاق بالإصدار المضبوط، والذي يصعب دائماً إنتاجه بطريقة واعية متعمّدة، لكافة الإشارات غير الشفهية، بارتباطها بالإشارات الشفهية التي إما أن تظهر كيف يجب أن يفسّر شخصٌ ما، أو أن تظهر كيف فسّره المحادث[3].

إلاّ أنّ فضاء الفئات الاجتماعية التي يمكن الوصول إليها في الشروط المثلى للألفة له حدوده (حتى إذا كان تماثل المركز يستطيع أيضاً أن يؤسس أشكالاً حقيقية من التآلف بين الباحث الاجتماعي وبعض فئات الأشخاص المدروسين، كالقضاة أو مدرّسي علم الاجتماع مثلاً). وكان بإمكاننا أيضاً، كما فعلنا في استقصاءات أخرى سابقة، ولمحاولة توسيعها قدر الإمكان، أن نلجأ لاستراتيجيات مثل تلك التي تتضمن «لعب الأدوار»، وتأليف هوية شخص مستقصى عنه يحتلّ مركزاً اجتماعياً محدداً لإجراء خطوات كاذبة من الشراء أو طلب المعلومات (بالهاتف خاصةً). وقد اخترنا هنا أن ننوع المستقصين بتطبيق منهجيّ للاستراتيجية التي لجأ إليها ويليام لابوف William Labov في دراسته عن اللهجات التي يتكلمها السود في هارلم: فلتحييد تأثير الفرض الذي تمارسه اللغة الشرعية، طلب لابوف من شبان صغار من السود أن يديروا الاستقصاء اللغوي؛ وعلى مثله، حاولنا، في كلّ مرة كان ذلك ممكناً، أن نحيّد أحد أهم عوامل التفاوت في علاقة الاستقصاء، وذلك بأن قمنا بإعداد أشخاص يمكن لهم الدخول إلى عالم الألفة بالنسبة لعدة فئات من المستقصى عنهم ممن كنا نروم الوصول إليهم، وذلك بتدريب هؤلاء الأشخاص على الأمور الفنية المتعلقة بإجراء استقصاء.

---

[3] إنّ إشارات المفعول الرجعي feed back تلك التي يدعوها E.A.Schegloff بالإجابات الرمزية response tokens مثل «نعم»، «صحيح»، «طبعاً»، «أوه!» وكذلك هزات الرأس الموافقة والنظرات والابتسامات وكافة مستقبلات المعلومات، الإشارات الجسدية أو الشفهية الدالّة على الانتباه أو الاهتمام أو الموافقة أو التشجيع أو العرفان، هي شرط الاستمرار الجيد للتبادل (لدرجة أنّه تكفي في كثير من الأحيان لحظةٌ من عدم الانتباه أو شرود النظرة لإثارة نوع من الارتباك عند المستقصى عنه ولجعله يضيع تسلسل خطابه)؛ وإذا استُخدمت هذه الإشارات في التوقيت المناسب، فإنها تبرهن على مشاركة المستقصي الذهنية والانفعالية.

حين يستجوب فيزيائيٌّ شابٌّ فيزيائياً شاباً آخر (أو حين يستجوب ممثل ممثلاً آخر، أو عاطلٌ عن العمل عاطلاً آخر عن العمل، الخ.) يتقاسم معه معظم المميزات القادرة على أن تفعل كعوامل مفسِّرة رئيسية لممارساته ولتصوراته، وتجمعه به علاقة ألفةٍ عميقة، فإنّ أسئلته تجد أساسها في استعداداته، المتوافقة بصورةٍ موضوعية مع استعدادات المستقصى عنه؛ ولا يوجد أي سبب يجعل أكثر هذه الأسئلة ميلاً للموضوعية تبدو مهدِّدةً أو عدائية، وذلك لأنّ محادثه يعرف تماماً بأنّه يشاطره أهم ما سوف تجعله الأسئلة يفصح عنه، وأنه يشاطره في الآن ذاته المخاطر التي يعرِّض نفسه لها بإفصاحه ذاك. كما أنه ليس بوسع المستقصي أن ينسى بأنّه حين يموضع محادثه، فإنه يموضع ذاته أيضاً، كما تشهد بذلك التصحيحات التي يدخلها على هذا أو ذاك من أسئلته، فينتقل من ضمير «أنت» الموضوعي إلى ضمير «on» الذي يوحي بجمعٍ غير محدد، ثم إلى ضمير «نحن»، حيث يؤكّد بوضوحٍ أنه معنيٌّ هو أيضاً بالموضعة: «أي أنّ كل الدراسات التي قمتَ «أنت» بها، التي تمّ القيام بها، قد جعلتنا «نحن» نميل إلى أن نحبَّ النظرية.» وربما كان التقارب الاجتماعي مع الشخص الذي يُجرى معه الاستقصاء هو ما يفسر انطباع عدم الارتياح الذي قال معظم المستقصين الذين وضعوا في مثل تلك العلاقة بأنهم شعروا به، وأحياناً طيلة المقابلة، وأحياناً بدءاً من لحظةٍ معينة من التحليل: وبالفعل، ففي كل تلك الحالات، يميل الاستجواب بصورةٍ طبيعية إلى أن يصبح تحليلاً اجتماعياً يقوم به اثنان يجد المحلل نفسه رهينةً له، وممتحناً، بمقدار ما يشعر بذلك ذاك الذي يخضعه للاستجواب.

لكن المماثلة مع الاستراتيجية التي استخدمها لابوف ليس لها صفة الكمال: فلا يكفي أن يجمع المرء «الخطاب الطبيعي» مهما كانت قلّة تأثره بعدم التماثل الثقافي؛ بل إنه يجب أيضاً بناء هذا الخطاب بصورةٍ علمية بحيث يُقدّم العناصر الضرورية لتفسيره. وهكذا تزداد بشكلٍ مطّرد المتطلبات المفروضة على المستقصين العرَضيين؛ ورغم أنه قد جرت مع كلّ واحدٍ منهم مقابلات مسبقة تهدف إلى جمع كل المعلومات التي يعرفونها عن

المستقصى عنه وإلى تحديد الخطوط الرئيسية لاستراتيجية الاستجواب معهم، فإنّ عدداً لا بأس به من الاستقصاءات المجراة في هذه الشروط قد استثنيت من النشر: فهي لم تقدم أكثر من المعطيات الاجتماعية اللغوية غير القادرة على توفير أدوات تفسيرها[4].

إلى هذه الحالات التي يتوصل فيها الباحث الاجتماعي إلى أن يعطي لنفسه بديلاً على نحو ما، تضاف علاقات الاستقصاء التي يستطيع فيها أن يتغلب جزئياً على المسافة الاجتماعية بفضل علاقات الألفة التي تربطه بالمستقصى عنه وبفضل الصراحة الاجتماعية، التي تسمح بالكلام الصريح، والتي يؤمّنها وجود صلات مختلفة من التضامن الثانوي قادرة على إعطاء كل الضمانات الأكيدة من التفاهم الودي: فالعلاقات العائلية أو الصداقة التي تعود لزمن الطفولة، أو، بحسب بعض المستقصيات، التواطؤ بين النساء، قد سمحت في أكثر من حالة بالتغلب على العقبات المرتبطة بالتبيانات في الشروط، والتغلب خاصةً على الخشية من الاحتقار الطبقي التي كثيراً ما تضاعف الخشية، الشديدة العمومية، إن لم تكن شاملة، من الموضعة، وذلك حين يُنظر للباحث الاجتماعي بصفته متفوقاً اجتماعياً.

تمرينٌ روحيّ

لكن هناك حدود لكافة الطرق والحيل التي أمكن لنا أن نتخيلها للتقليل من المسافة. وعلى الرغم من أن التدوين يغفل إيقاع وزمن الشفهي، فإنه يكفي أن يقرأ المرء فيما بعد بعض المقابلات ليرى كل ما يفصل

[4] ربما يكمن أحد أهم أسباب حالات الفشل هذه في التوافق التام بين المستجوب والمستجوَب، هذا التوافق الذي يتيح المجال الكامل لميل المستجوَبين إلى أن يقولوا كل شيء (كما في معظم الشهادات والوثائق التاريخية)، باستثناء ما هو بديهي، باستثناء ما لا داعي لقوله (على سبيل المثال، فإن الممثلة، وربما لأنها تتوجه بالحديث إلى ممثل، لا تذكر شيئاً عن مجموعة من البديهيات المتعلقة بالتراتب الهرمي بين الفنون، والمخرجين، وكذلك التعارضات المكوّنة لحقل المسرح في لحظة معينة). إنّ كل استجواب يقع إذن بين حدّين قد لا يمكن الوصول إليهما أبداً: التطابق التام بين المستقصي والمستقصى عنه، حيث لا يمكن أن يقال شيء لأنّه لا يوجد ما يشكّك به، وحيث كل شيء بديهي، والاختلاف التام، حيث يصبح التفهم والثقة مستحيلين.

الأحاديث المنتزعة من الأشخاص الذين أجريت معهم المقابلات مقطعاً مقطعاً البعيدين عن المتطلبات المضمرة لوضع الاستقصاء عن الأحاديث التي أدلى بها أولئك الذين يتوافقون (ربما أكثر من اللزوم) مع الطلب، كما يتصورونه هم على الأقل. فهم يسيطرون على الوضع لدرجة أنهم يتوصلون أحياناً إلى أن يفرضوا على المستقصي تعريفهم الخاص للعبة.

حين لا يأتي شيء ليحيّد أو ليعلّق التأثيرات الاجتماعية لعدم التماثل المرتبط بالمسافة الاجتماعية، فإنه لا يمكن للمرء أن يأمل بالحصول على أقوال تأثُّرها بتأثيرات وضع الاستقصاء في حده الأدنى إلاّ عبر عمل بناء متواصل. والمفارقة هي أنّ هذا العمل مكرّسٌ ليكون خفياً بمقدار ما يكون ناجحاً، وأنه سوف يؤدّي إلى تبادلٍ يتحلّى بكافة مظاهر «الطبيعي» (بمعنى ما يحصل من أمورٍ عادية في التبادلات الاعتيادية للحياة اليومية).

يمكن أن ينال الباحث الاجتماعي من أكثر الناس بعداً عنه اجتماعياً الشعور بأنه معترفٌ به بصفته ما هو عليه، وذلك إذا عرف كيف يُظهر له، بنبرة صوته، وخاصةً بمحتوى أسئلته، بأنه قادرٌ على أن «يضع نفسه ذهنياً» مكان محادثه، دون أن يدّعي إلغاء المسافة الاجتماعية التي تفصله عنه (على عكس النظرة الشعبوية التي لا ترى إلاّ نظرتها هي).

إنّ محاولة وضع الذات ذهنياً في المكان الذي يحتله المستقصى عنه في الحيّز الاجتماعي «لإلزامه» أثناء استجوابه بالبدء من هذه النقطة كي «نكون في صفه» بشكلٍ ما (بالمعنى الذي تحدث فيه فرانسيس بونج Francis Ponge عن «الانحياز للأشياء») لا تعني العمل على «إسقاط الذات على الآخر» الذي يتحدث عنه الباحثون الظواهريّون. إنها تعني تقديم «فهمٍ عموميّ وموروث» لما هو عليه، يرتكز على السيطرة (النظرية أو العملية) على الشروط الاجتماعية التي نشأ منها: السيطرة على الشروط الحياتية وعلى الآليات الاجتماعية التي تمارس تأثيرها على مجموع الفئة التي ينتمي إليها (كفئة طلاب المرحلة الثانوية أو العمال المؤهلين أو القضاة، الخ.) والسيطرة على الشروط النفسية والاجتماعية الملازمة لهذه الفئة، والتي ترتبط بموقعها

الخاص وبمسيرتها الخاصة في الحيّز الاجتماعي. ينبغي أن نطرح أنّ «الفهم والشرح هما كلٌّ واحد» في مقابل التمييز القديم الذي أقامه ديلتي(*).

ولا يقتصر هذا الفهم على حالة روحية حسنة النيّة. إنه يمارس عبر الطريقة الواضحة والمطمئنة والجذابة التي تُعرض بها المقابلة وتدار، والعمل على أن يكون للاستجواب والوضع ذاته معنى بالنسبة للمستقصى عنه، كما يمارَس بصفة خاصة عبر الإشكالية المقترحة: فهذه الإشكالية، مثلها مثل الإجابات المحتَملة التي تستدعيها، تنتج عن تصوّر مثبَت للظروف التي وُضع فيها المستقصى عنه وتلك التي هو نتاجٌ لها. هذا يعني بأنه لا يتوفر للمستقصي بعض الفرص ليكون حقاً على مستوى موضوعه إلا إذا كان لديه معرفةٌ كبيرة به، يكون أحياناً قد امتلكها طيلة حياة من البحث، وكذلك، وبصورة أكثر مباشرةً ، من خلال لقاءات سابقة مع المستقصى عنه ذاته أو مع مقدّمين للمعلومات. إنّ معظم المقابلات المنشورة تمثّل لحظةً، قد تكون مفضّلة، في سلسلة طويلة من المبادلات، ولا يجمعها شيء مع اللقاءات التي تُجرى بناءً على موعد، والاعتباطية والعرَضية، وللاستقصاءات التي يجريها بتسرّع مستقصون لا يمتلكون أية كفاءة نوعية.

هذه المعلومات المسبقة هي التي تسمح بارتجال مستمر للأسئلة السديدة، التي هي عبارة عن «افتراضات» حقيقية تستند إلى تصوّر حدسي ومؤقّت للصيغة المسبِّبة الخاصة بالمستقصى عنه لدفع هذا التصور إلى أن يكشف نفسه بصورة أكمل، حتى لو لم تتبدى هذه المعلومات إلاّ بطريقة سلبية تماماً، وخاصةً باستيحاء الاحتياطات والمجاملات التي تجعل المستقصى عنه يقرر منح الثقة والدخول في اللعبة، أو بحذف الأسئلة المتكلّفة أو غير اللائقة[5].

(*) فيلهايم ديلتي Delthey (1833-1911): فيلسوف ألماني اختص بفلسفة التاريخ والثقافة واهتم بتأثير العوامل والخصائص الذاتية في التجربة الشخصية، وكان يلحّ على ضرورة أن يتم التعليم على ضوء التاريخ (موسوعة إنكارتا 99). المترجم.

(5) بالنسبة لهذه النقطة، وكما بالنسبة لكل النقاط الأخرى، ربما فُهمنا بصورة أفضل إذا استطعنا تقديم أمثلة على أكثر الأخطاء نمطيةً، والتي تنبع في أغلب الأحيان من اللاوعي والجهل. إنّ بعض

وعلى الرغم من أنها يمكن أن توفر المعادل النظري للمعرفة العملية المترافقة بالقرب والألفة، فإنّ المعرفة المسبقة المتعمقة جداً قد تبقى غير قادرة على إيصالنا إلى فهمٍ حقيقي إن لم تتوازَ مع اهتمامٍ بالغير ومع تقديم انفتاحٍ إيثاري نادراً ما يصادفان في الوجود المعتاد. وبالفعل، فإنّ كلّ شيءٍ يجعلنا نميل إلى أن لا نضفي على الأقوال التي تتسم بصبغةٍ طقسية متفاوتة في الشدة والتي تتناول حالات البؤس المشتركة إلى حدٍ ما إلاّ اهتماماً لا يختلف كثيراً في خلوّه من المعنى وفي رسميته عن قولنا الطقسي «كيف حالك؟» الذي أطلق تلك الأقوال. لقد سمعنا جميعاً تلك الحكايات عن النزاعات حول الإرث أو التجاور، وعن الصعوبات المدرسية أو المنافسات في المكتب التي نخشاها عبر أصناف من الإدراك تسمح لنا بضربٍ من التناسق في الفكر والاهتمام والتأثر الأولي، وباختصار، في الفهم، وذلك باختزال الشخصي إلى موضوعي، والمصيبة الفريدة إلى حادثة عادية. وفي الوقت الذي نجنّد فيه كل موارد اليقظة المهنية والتعاطف الشخصي، فإنه يصعب علينا أن ننتزع أنفسنا من فتور الاهتمام الذي تسهّل حدوثه الأمور المعتادة لكي ندخل في فرادة قصة حياةٍ ما ونحاول أن نفهم مآسي وجودٍ ما في تفرّده وفي عموميته في آنٍ معاً. إنّ الفهم الناقص الفوري لنظرةٍ ساهية مبتذلةٍ يثبّط عزيمة الجهد الذي ينبغي بذله لكسر حاجز الكلمات الاعتيادية التي يعيش فيها كلٌّ منّا ويستخدمها في الحديث عن مآسيه الصغيرة كما في الحديث عن أكبر مصائبه. إنّ ما يحاول أن يقوله الضمير غير المحدد «on» المندّد به فلسفياً وغير المعتبر أدبياً والذي يمثّلنا جميعاً قد يكون أصعب ما يمكن الاستماع إليه- بوسائله «غير الأصيلة» بشكلٍ لا أمل فيه -

---

مناقب الاستجواب الذي ينتبه إلى التأثيرات التي يحدثها منذورةً لأن تمرّ دون أن تُلحظ لأنها تتجلى بصورةٍ خاصة في حالات من السهو. ومن هنا تتبع أهمية الاستجوابات البيروقراطية التي سوف تحلّل أدناه: فهي اختباراتٌ حقيقية في فن العيش يقيس فيها المستقصي، المسجون في إحكامه المؤسساتية المسبقة ويقينياته الأخلاقية، قدرة المستقصى عنهم على تبني السلوك «اللائق»، وهذه الاختبارات تُظهر بشكلٍ مضاد كافة الأسئلة التي يدفع الاحترام المبني على المعرفة المسبقة إلى استبعادها لأنها لا تتوافق مع تصوّرٍ مناسب لوضع الشخص المستجوَب أو لفلسفة الفعل التي يحثّ عليها هذا التصور في ممارسته.

بالمقارنة مع الـ «أنا» الذي نظنّ أننا عليه، وبأكثر أشكال المطالبة بالتفرد شيوعاً.

مقاومة الموضعة

ينبغي ألا نظن بأنه يمكن للباحث الاجتماعي أبداً أن يسيطر بالكامل على تأثيرات علاقة الاستقصاء، التي تكون دائماً شديدة التعقيد ومتعددة، بفعل الانعكاسية فحسب؛ علاوةً على ذلك، فإنّه يمكن للمستقصى عنهم أن يتلاعبوا بها، سواءً كان ذلك بصورةٍ واعية أو غير واعية، محاولين أن يفرضوا تعريفهم للوضع وأن يحوّلوا لمصلحتهم تبادلاً تكون إحدى رهاناته الصورة التي لديهم ويريدون تقديمها للآخرين وتقديمها عن أنفسهم. ويتم هذا ضمن وضعٍ يتعرضون فيه لكل الادعاءات السلبية التي تجثم على الآلام والتعاسة عندما يستذكرون، كما يدعوهم الاستقصاء إليه، «الأمور التي ليست على ما يرام» في حياتهم، وذلك طالما أنهم لا يعرفون أن يتقولبوا داخل الأشكال الشرعية للتعبير عن أشكال البؤس الاجتماعي، تلك التي توفرها السياسة والقانون وعلم النفس والأدب. وهكذا مثلاً، ففي عددٍ من المقابلاتِ (وخاصةً تلك التي أجريت مع أعضاء من الجبهة الوطنية)، أدّت العلاقة الاجتماعية بين المستقصي والمستقصى عنه إلى تأثيرٍ رقابي قوي جداً، يتضاعف بوجود جهاز التسجيل: ربما كان ذلك الوجود هو ما جعل بعض الآراء لا يباح بها (إلاّ في بعض الاختلاسات الموجزة أو زلاّت اللسان). وتحمل بعض المقابلات آثاراً عديدة للجهد الذي يقوم به المستقصى عنه للسيطرة على المصاعب الموجودة بإبراز أنّه قادرٌ على أن يمسك بزمام موضعته الخاصة، وأن يحمل على عاتقه وجهة النظر الانعكاسية التي سُجّل مشروعها ضمن نيّة الاستقصاء.

وهكذا، فإنّ إحدى أكثر الوسائل دقّةً في مقاومة الموضعة هي طريقة المستقصى عنهم الذين يحاولون، بصورةٍ لا واعية أكثر منها واعية، وبالتلاعب بقربهم الاجتماعي من المستقصي، يحاولون أن يحموا أنفسهم منها بانغماسهم الظاهري في اللعبة، محاولين أن يفرضوا ما يشبه التحليل

الذاتي، دون أن يدركوا ذلك دائماً. ورغم المظاهر، فليس هناك ما هو أبعد عن الموضعة المشاركة التي يساعد فيها المستقصي محادثه- بجهد مؤلم ومُمرض في آن معاً، على إبراز العناصر الاجتماعية التي تحدد آراءه وممارساته في أصعب ما يمكنه أن يبوح به ويأخذه على عاتقه- من الموضعة الكاذبة والمجاملة، والتبديد الجزئي للأوهام، والذي يصبح بالتالي مخادعاً بصورة مضاعفة، تلك الموضعة التي تجلب كلّ مسرات الإدراك دون أن تضع أيّ أمر جوهري موضع مساءلة.

سوف أذكر مثالاً واحداً: «هناك نوعٌ من عدم الارتياح يجعلني لا أعرف أين أضع نفسي (...)، لم أعد أعلم أين أنا اجتماعياً... ربما كان ذلك على مستوى الاعتراف بالآخر (...). إنني أدرك كم تختلف نظرة الآخر إليك تماماً وفق المركز الاجتماعي الذي تحتله، وهذا يدعو فعلاً إلى الاضطراب نوعاً ما. لم يكن بديهياً بالنسبة لي أن يكون لي عدة أوضاع اجتماعية، وفي بعض الأحيان، لم يكن بإمكاني أن أجد نفسي بصورة جيدة، وخاصةً من خلال نظرة الآخرين»، الخ.، الخ.

يحصل أن تؤدي أقوالٌ كهذه، تكسب مظهراً تفسيرياً على اعتراف ظاهري، إلى إثارة نوع من النرجسية الذهنية لدى مستقصٍ خبير، يمكن أن تتّحد مع الانبهار الشعبوي أو أن تتخفّى داخله، ذلك أنها مبنيةً وفقاً لأدوات فكرية وأشكال تعبيرية قريبة من أدواته وأشكاله.

وهكذا، فحين تذكر ابنة مهاجر بكثير من الطلاقة مصاعب حياتها الممزقة أمام مستقصٍ يمكن له أن يجد في أقوالها بعض مظاهر تجربته الخادعة، فإنها تتوصل، بصورة فيها مفارقة، إلى أن تجعله ينسى مبدأ النظرة الشديدة التنميق التي تقترحها لوجودها، أي دراستها للآداب، والتي تسمح لها بأن تقدّم لمحادثها منحةً مزدوجةً، منحة خطاب أقرب ما يكون لتصوره عن فئة محرومة ومنحة إنجاز قاطع يهدم أي عائق مرتبط بالفارق الاجتماعي والثقافي. ينبغي هنا أن نذكر كافة الأسئلة والأجوبة:

المستقصي: لقد حصل إدراكك حين وصلتِ إلى فرنسا. لكن إدراكك لأي شيء تحديداً؟

المستقصى عنها: إدراكٌ للحقيقيّ بمعنى أنه بالنسبة لي، بدأت الأمور ترتسم من تلك اللحظة. إنني أعيش بشكلٍ حقيقيّ انفصالَ والديّ. هذا الانفصال يأخذ معنىً حقيقياً اعتباراً من اللحظة التي انتقلت فيها من المرحلة التي عشت فيها مع أهلي هناك، أقصد مع أمي وعائلتها (في المغرب، حيث بقيت أمي بعد الانفصال)، إلى هنا، حيث اكتشفت أبي أخيراً. إنها المرة الأولى التي نعيش فيها معاً فعلياً. وحتى حين كان لا يزال متزوجاً من أمي، فإن حياته الاجتماعية كانت تجري هنا(في فرنسا)، فلم يكونا يريان بعضهما كثيراً، ولم نكن نحن نراه إلاّ قليلاً. وبدا لي بأنه شخصٌ أقوم باكتشافه حقاً لأول مرة (...). لقد دخل إلى حياتي اعتباراً من اللحظة التي بدأنا فيها بالعيش معاً. إذن، حصل الإدراك من هذا الجانب، واتخذ الانفصال معنى. يدرك المرء بأنّه لم يعش أبداً مع أبيه. (...) وكذلك، إدراك محيطٍ آخر. الفضاء الزمني لم يعد ذاته (...). أنت تعرف حينذاك بأنك تنتقل من أمك إلى أبيك. هذا الأمر يثيرك كذلك نوعاً ما، بطريقةٍ ما، لكن الحقيقة تأتي لتلوّن شيئاً فشيئاً ما حصل وتثيرها في الواقع. إذن، لم يعد ذات المشهد، ولا الناس ذاتهم، ولا الفضاء الزمني ذاته. بالنسبة لي، فقد دخلت إلى مرحلة ضبابيةٍ نوعاً ما بدءاً من تلك اللحظة، حيث ينبغي أن يبنى جسرٌ بين عالمين منفصلين جذرياً بالنسبة لي. لقد أمعنت التفكير بعض الشيء في ذلك الانفصال الذي يتجاوز كثيراً انفصال الأبوين». وتقول بعد قليل: «في واقع الأمر، يبدو لي بأنني مشدودةٌ إلى شيءٍ ما. والسؤال الذي يُطرح الآن- هل سأستمر على هذه الحال أم أنني سوف أحاول أن أتخلّص منها تماماً؟ بصراحة، أنا لا أصدّق ذلك كثيراً. إذن، سأظلّ دائماً بالتأكيد في منتصف الطريق. صحيحٌ أنه لا يهمني أن أكون مثل هذا أو ذاك. هناك رغبةٌ في الحفاظ على هذا الشكل من التيار الهوائي، ما بين بين. لا أدري.»

تتحوّل المقابلة كما نرى إلى مونولوج تسأل فيه المستقصى عنها الأسئلة بنفسها، وتجيب بغزارة، دون توقف، وتفرض بذلك على المستقصي (الذي لا يطلب أكثر من ذلك بالتأكيد) ليس فقط إشكاليتها، لكن أيضاً

أسلوبها («هل تشعرين بأنك مشوّهة هنا؟» أو «ما هو أكثر ما يجعلك غير راضية؟») وتستبعد في الواقع كلّ تساؤلٍ عن معطياتٍ موضوعية لمسيرتها باستثناء تلك التي تدخل في مشروع الصورة الذاتية كما قررت هي أن تديره.

في هذه العلاقة التبادلية، يخدع كلّ واحدٍ الآخر قليلاً حين يخدع ذاته: فالمستقصي يشكّك في «صدق» شهادة المستقصى عنها لأنه يظنّ بأنه نجح في اكتشاف الكلام الفجّ والكثيف وغير المنتهك الذي لم يتمكن آخرون من ملاحظته أو إثارته (يمكن لبعض الأشكال المتفاوتة في التنميق للخطاب الفلاّحي أو العمالي أن تمارس إغراءً مماثلاً)؛ تتظاهر المستقصى عنها بأنها الشخص المنتظَر في هذا اللقاء، حيث هي المهاجرة، وتؤمّن لنفسها بالتالي الحصول على اعترافٍ بالقيمة الأدبية لكلامها، الذي هو في الوقت ذاته شهادةٌ صادقة عن التمزق الداخلي وبحثٌ عن الخلاص من خلال الشكل الإنشائي، لكن دون أن يتوجّب عليها أن تطالب بهذا الاعترافٍ بشكلٍ واضح(*).

وهكذا، فإنني أقول، مجازفاً بأن أصدم علماء المنهج المتشددين وكذلك التفسيريين المُلهمين، بأنّه يمكن اعتبار المقابلة كنوعٍ من «التمرين الروحي»

(*) إذا كان منطق اللعبة المزدوجة هذا في التأكيد المتبادل للهويات يجد أرضيةً مناسبة بشكلٍ خاص في المواجهة ضمن علاقة الاستقصاء، فإنّه لا يطبّق فقط في المقابلات «الفاشلة» (التي ليست قليلة) التي كان علينا استبعادها ويمكنني أن أستشهد بأعمالٍ يبدو لي بأنها تظهره بشكلٍ واضح، مثل الرواية الجديدة لنينا بوراوي Nina Bouraoui (المسافرة الممنوعة، باريس، دار غاليمار، 1990) وبصورةٍ أعمّ، بعض الأشكال الجديدة للأدب الشعبوي التي تتحاشى مقتضيات الشهادة الاجتماعية الأصيلة تحت ستار تجميعها، وكذلك أشكال الرواية الأدبية الأصيلة، لأنّ نقطتها العمياء هي وجهة نظرها بالذات. إلاّ أنه يبدو لي بأنّ أفضل مثالٍ على ذلك هو رواية ديفيد لودج David Lodge المعنونة عالم صغير Small world (نيويورك، كتب وورنر، 1984، الترجمة الفرنسية، باريس، منشورات ريفاج، 1991)، فهي عبارةٌ عن تبديد خادعٍ للوهم، وتقدّم كافة الأفكار المبتذلة للتمثيل المُرضي والواعي بصورةٍ كاذبة والنرجسيّ بحق، والذي يحبّ الجامعيون أن يقدّموه عن أنفسهم وعن محيطهم، والتي عرفت بشكلٍ منطقي جداً نجاحاً عظيماً في الأوساط الجامعية، وبصورةٍ أوسع، في كافة الأوساط التي تحتك بالدراسات الجامعية.

الذي يهدف إلى الحصول على «تحول حقيقي للنظرة التي نرميها» على الآخرين في ظروف الحياة الطبيعية بواسطة «نسيان الذات»[6]. إنّ الاستعداد المرحّب الذي يجعل المستقصي يميل إلى تبني مشاكل المستقصى عنه، وأهلية قبوله وفهمه كما هو، بضرورته المتفرّدة، هو نوعٌ من «الحب الذهني»: نظرةٌ تقبل بالضرورة، على طريقة «الحبّ الذهني للإله»، أي على طريقة النسق الطبيعي الذي اعتبره سبينوزا Spinoza الشكل الأسمى للمعرفة.

إنّ الجوهري في «شروط الغبطة» في المقابلة يبقى بلا ريب خفياً. يساهم المستقصي في خلق شروط ظهور خطاب خارق كان يمكن ألاّ يحدث أبداً ولكنه مع ذلك كان موجوداً مسبقاً ينتظر شروط تحقّقه، وذلك حين يقدّم للمستقصى عنه وضع تواصل استثنائيٌ تماماً، متحرر من أشكال المضايقات (المؤقتة خاصةً) التي تجثم على معظم المبادلات اليومية، وكذلك حين يفتح أمامه خيارات تحثه أو تسمح له بالتعبير عن أشكال الانزعاج أو النواقص أو المطالب التي يكتشفها أثناء تعبيره عنها[7]. وعلى الرغم من أنهم قد لا يرون بصورة واعية كل علامات هذا الاستعداد (التي قد تتطلب أكثر بقليل من مجرّد انقلاب ذهني)، فإنّه يبدو بأنّ بعض المستقصى عنهم، وخاصةً الأكثر فقراً بينهم، يلتقطون هذا الوضع كمناسبة استثنائية ممنوحة لهم ليقدّموا شهاداتهم، وليسمعهم الآخرون، ولينقلوا تجربتهم من الدائرة الشخصية إلى الدائرة العامة؛ إنها أيضاً فرصةٌ «للإفصاح»، بأتمّ معاني الكلمة، أي أنها فرصة لبناء وجهة نظرهم الخاصة حول ذاتهم وحول العالَم، ولتوضيح النقطة - داخل هذا العالم - التي يرون أنفسهم والعالم اعتباراً منها، ويصبحون مفهومين ومبررين، وأمام أنفسهم أولاً[8]. بل إنه يحصل

---

[6] يمكن هنا أن نستشهد بـــ Epictète حيث يذكر مارك أوريل Marc Aurèle الاستعداد الذي يدفع إلى تقبّل كل ما يتعلّق بالسبب الكوني، وهو قبولٌ (إضافة) فرحٌ تجاه العالَم الطبيعي.

[7] إن العمل«السقراطي» الذي يرمي إلى المساعدة على التفسير يهدف إلى الاقتراح دون الفرض، وإلى صياغة اقتراحات، تقدَّم أحياناً بصورة جليّة كما هي (ألست تريد أن تقول بأنّ...) وتهدف إلى تقديم ذيول عديدة ومفتوحة لأقوال المستقصى عنه، أو لتردده أو لبحثه عن التعبير المناسب.

[8] لقد لاحظت أيضاً، في أكثر من مناسبة، أنّ المستقصى عنه كان يكرر برضى بيّن الكلمة أو

أحيانـاً الاّ يكونـوا مجـرد أدوات بـين يـدي المسـتقصي، ويديـرون بشـكلٍ مـا المقابلة وكثافةَ وشدةَ خطابهم، وكذلك الانطباع الذي كثيراً ما يقدمونه بأنهم يشعرون بنوعٍ من الارتياح، بـل الإنجـاز، وكـلّ مـا فيـهم يسـتحضر «سـعادة التعبير».

ربمـا نستطيع إذن التحـدث عـن «تحليـلٍ ذاتـي مسـتثار ومصحـوب»: ففـي اكثر من حالـة، انتابنـا شـعور بـأنّ الشـخص الـذي يتم اسـتجوابه ينتـهز الفرصـة المتاحـة لـه ليتسـاءل حول ذاتـه ويسـتفيد مـن الإباحـة أو مـن العنايـة التي تؤمنها له أسئلتنا أو اقتراحاتنا (المفتوحة والمتعددة دوماً والمقتصرة فـي كثيرٍ مـن الأحيـان علـى الانتظـار الصـامت) ليقـوم بعمـلٍ توضيحـي، يعلـي مـن شأنه بنظر ذاته ويؤلمه في ذات الوقت، ولكـي يعبّر عـن تجـارب وأفكـار كانت لوقتٍ طويـل متحفظـة أو مكبوتـة، وأحيانـاً يكـون ذلـك عـبر «كثافـةٍ تعبيريـة» فائقة.

بناءٌ واقعي

علـى الرغـم مـن أنّ التوافـق الـذي يتحقـق بهـذا الشـكل بـين اسـتباقات وملاحظات المستقصي وبين توقعات المستقصى عنه قد يعاش كما هو، فليس فيه أي شـيءٍ خارق. إنّ الخضوع الحقيقيّ للمُعطـى يفـترض فعـل بنـاءٍ يسـتند إلى السيطرة العملية على المنطق الاجتماعي التي يُبنـى هـذا المُعطـى وفقها. وهكـذا مثـلاً، فإنـه لا يمكـن أن نسـمع فعـلاً مـا يقـال فـي المحادثـة التـي تبـدو مبتذلـة تمامـاً والتـي تجـري بـين ثـلاث طالبـاتٍ مـن المرحلـة الثانويـة إلاّ إذا عرفنـا كيف نقرأ في كلماتهن بنية العلاقات الموضوعية، الحـاضرة والسـابقة، بين مسيرتهنّ وبين بنية المؤسسـات المدرسـية التـي تـرددن إليـها، وبالتـالي كـل بنية وتاريخ النظام التعليمي اللذين يتجسدان في هذا المسار، وإلا إذا تجنّبنـا اختزالهنّ إلى أسمائهن الأولى كما يفعل كثير من الباحثين الاجتماعيين حين

الجملة التي اوضحت نفسه له، اي لموقعه (على مثال كلمة منصهر التي استخدمتها لوصف الوضع الحرج للمستقصي في تراتبية مؤسسته والتي تستدعي حقاً، عبر دلالاتها الضمنية، التوترات القصوى التي مرت به).

يستخدمون جهاز التسجيل: فعلى العكس مما يمكن أن توحي به رؤية شخصانية ساذجة لفرادة الشخصيات الاجتماعية، فإنّ إبراز البنى الملازمة للعبارات الظرفية التي تقال في تفاعلٍ منتظم يسمح وحده بالتقاط الجوهري داخل ما يشكل «المزاج الشخصي» لكلٍ من الفتيات وكل التعقّد الفردي لأفعالها وردود أفعالها.

إنّ تحليل المحادثة، المفهومة على هذا النحو[9]، لا يَقرأ في الخطاب البنية الظرفية للتفاعل كسوقٍ فحسب، بل أيضاً البنى الخفية التي تنظمه، أي، في هذه الحالة الخاصة، بنية الفضاء الاجتماعي الذي تقع تلك الفتيات الثلاث فيه أصلاً، وبنية الفضاء المدرسي الذي عبرن داخله مساراتٍ مختلفة لا تزال توجّه رؤيتهنّ لماضيهنّ ومستقبلهنّ المدرسي رغم أنها تنتمي إلى الماضي، وتوجه كذلك رؤيتهنّ لأنفسهنّ، في فرادة كلٍّ منهن[10].

وهكذا، ومقابل الوهم الذي يتمثل في البحث عن الحياد بإلغاء دور المراقِب، فإنه ينبغي الإقرار بأنّه لا يوجد ما هو «عفوي» إلاّ ما هو مبنيّ، لكن «ببناءٍ واقعي»، وفي هذا مفارقة. ولإفهام ذلك، أو على الأقل للإشعار به، فإنني سوف اذكر حادثةً طريفة سوف نرى فيها كيف أن البحث لا يمكن له أن يبرز الحقائق التي يريد تسجيلها إلاّ حين يستند إلى معرفةٍ مسبقة بالحقائق. في الاستقصاء الذي أجريناه حول مشكلة السكن، ولكي نهرب من اللاواقعية المجردة للأسئلة المختارة، وخاصةً في مجال الشراء أو الاستئجار، تخيّلتُ أن أطلب من المستقصى عنهم أن يذكروا أماكن سكنهم المتتالية، والشروط التي حصلوا فيها عليها، والأسباب والموجبات التي دفعتهم إلى أن يختاروها أو يتركوها، والتغييرات التي أدخلوها عليها، الخ. جرت اللقاءات

---

[9] أي بمعنى مختلف تماماً عن ذاك الذي يعطى لها حين يكون موضوعنا طريقة إدارة المحادثة، كاستراتيجيات البدء بها وإنهائها مثلاً، بإجراء تجريدٍ للمميزات الاجتماعية والثقافية للمشاركين.

[10] كان بإمكاني أيضاً أن اذكر المقابلة التي أجريت معَ طالب شاب، أبوه مهاجر. فهذه المقابلة مثالٌ توضيحي، بالمعنى الذي استخدمه غودمان Goodman، لتحليل تحولات النظام التعليمي الذي أدى إلى كثرة عدد منفيّي الداخل، حيث يكون المستقصى عنه المعني «عيّنةً» ممتازة، ودائماً حسب تعابير غودمان، لهذه الفئة الجديدة من طلاب المرحلة الثانوية.

التي صُممت بهذا الشكل بطريقة «واقعية» للغاية بنظرنا، وأثارت شهادات ذات مصداقية غير متوقّعة. بيد أنني سمعت بالمصادفة في المترو، وبعد فترة طويلة من ذلك، محادثةً بين امرأتين في الأربعينات من عمرهما: كانت إحداهما تحكي قصة أماكن سكنها المتتالية، بعد أن انتقلت مؤخراً إلى شقة جديدة. وكانت محادثتها تتصرف تماماً كما لو كانت تتبع القاعدة التي كنا قد أقمناها لإجراء مقابلاتنا. هاكم تسجيل كتابيّ أجريته من الذاكرة بعد ذلك على الفور: ـ«إنها أول مرة أدخل فيها إلى مسكنٍ جديد. الأمر حسنٌ فعلاً... ـ المسكن الأمل الذي حصلت عليه في باريس كان في شارع برانسيون، وكان مسكناً قديماً لم يجدد منذ حرب 1914. كل شيء كان يحتاج إلى التجديد ، لكن كل شيءٍ كان سيئاً. كما أنه لم يكن بالإمكان تبييض الأسقف لشدّة اسودادها. ـ أكيد، هذا يمثّل كثيراً من العمل... ـ قبل ذلك، سكنت مع أهلي في مسكنٍ لا يصله الماء. كان رائعاً أن يكون لدينا حمّام، خاصةً وأنه كان لدينا طفلان. ـ الأمر كان مماثلاً عند أهلي. لكن هذا لا يعني أننا كنا قذرين. لكن الأمر أسهل بكثير... ـ بعد ذلك، سكنّا في كريتي. كانت عمارةً حديثة، لكن عمرها كان قد تجاوز عشر سنوات...» واستمر السرد على هذا النحو، بطبيعيةٍ فائقة، تتخلله تداخلاتٌ تهدف إما ببساطة إلى «الإعلام بالاستقبال»، عبر التكرار البسيط، سواءً بالصيغة الموافقة أو بالصيغة الاستفهامية، لآخر جملةٍ تم قولها، أو بإبداء الاهتمام أو بتأكيد هوية وجهات النظر («الأمر صعبٌ حين يعمل المرء واقفاً طيلة النهار...» أو «كان الأمر مماثلاً عند أهلي...»؛ هذه المشاركة التي يدخل فيها المرء في الحديث، جاراً محادثه إلى الدخول فيه، هي ما يميّز بأوضح شكلٍ المحادثة العادية ، أو المقابلة كما طبّقناها، من المقابلة التي يمتنع فيها المستقصي عن أي التزامٍ شخصي، حرصاً على الحياد.

كلّ شيء يدعو هذا الشكل السقراطي في استخلاص الأفكار إلى التعارض مع الفرض الإشكالي الذي تقوم به - بوهم «الحياد» - العديد من الاستقصاءات التي تستخدم السبر، والتي تؤدّي أسئلتها المتكلّفة والاصطناعية

إلى أن تنشئ من أجزاء متناثرة الأشياءَ المصطنعة التي تعتقد بأنها تسجلها - فضلاً عن تلك المقابلات التلفزيونية التي تنتزع من الأشخاص الذين تُجرى معهم المقابلة أقوالاً تتولّد مباشرةً من الأقوال التي يصفهم بها التلفزيون[11]. يتمثل الفارق الأول في إدراك الخطر، ذلك الإدراك المبني على معرفة عدم استقرار ما يدعى بالآراء: فالاستعدادات العميقة متوفرة بالنسبة لعدة أشكال من التعبير ويمكن أن تتعرف على ذاتها في صياغات مكوَّنة مسبقاً (الإجابات المعدّة مسبقاً للاستجواب المغلق أو العبارات الجاهزة للسياسة) مختلفة نسبياً. هذا يعني أنه ليس هناك ما هو أسهل فعلاً، وبمعنى ما، ليس هناك ما هو أكثر «طبيعيةً» من فرض الإشكالية: والدليل على ذلك، «تحويلات الرأي» التي كثيراً ما تجريها، بكل براءة اللاوعي، عمليات سبر الرأي العام (التي تكون بهذه الصورة مستعدة مسبقاً لتقوم بدور الأدوات لغوغائية جذرية) وكذلك، وبصورة أعم، الديماغوجيون من كافة الولاءات، الذين يندفعون دائماً لإقرار التوقعات الظاهرية لأشخاص لا تتوفر لديهم دائماً وسائل تحديد ما ينقصهم حقاً[12]. ويزداد ضرر تأثير الفرض الذي يمارَس تحت ستار «الحياد» مع كون نشر الآراء المفروضة بهذه الطريقة يسهم في فرضها وفي تأمين وجود اجتماعيٍّ لها، ويقدّم للعاملين في مجال سبر الآراء مظهر التصديق على عملهم، الأمر الذي يؤدي إلى توطيد مصداقيتهم ومكانتهم.

يمكننا أن نرى التعزيز الذي يمكن أن يجده التمثيل التجريبي للعلم في واقع أنّ المعرفة الدقيقة تفترض في معظم الأحيان قطيعةً متفاوتة السطوع، ومعرضة دوماً لأن تبدو كنتيجة لالتماس مبدئي أو لحكم مسبق، مع بديهيات الحس الجمعي التي تماثَل عادةً بالحسّ الصحيح. يكفي بالفعل لكي يقع المرء في الخطأ أن يترك الأمور على عواهلها وأن يمتنع عن أيّ تدخل وعن أيّ

---

[11] أعتقد بأنه من الضروري هنا أن أذكّر بالتحليلات التي فصلتها في أمكنة أخرى بطريقة أكثر منهجيةً (انظر خاصةً «الرأي العام لا وجود له»، مجلة أسئلة علم الاجتماع، باريس، منشورات مينوي M i n u i t، 1984، الصفحات 222-250).

[12] هذه الملاحظات موجهة بصورة خاصة إلى أولئك الذين يعلّمون بأنّ نقد عمليات سبر الرأي هو نقدٌ للديموقراطية.

تركيب: إذ أنّه حينذاك، يكون قد ترك المجال للتركيبات المسبقة أو للتأثير التلقائي للآليات الاجتماعية الفاعلة حتى ضمن أكثر الأعمال العلمية ثانويةً (تصور وصياغة الأسئلة، تعريف فئات الترميز، الخ.). ولا يمكن معاكسة تأثيرات كافة تمثيلات الحقيقة الاجتماعية التي يتعرض لها المستقصون والمستقصى عنهم إلاّ عبر الإنكار الفعال للأحكام المسبقة المبطنة للحسّ الجمعي. وأفكر بصورةٍ خاصة بتلك التمثيلات التي تنتجها الصحافة المكتوبة، والمتلفزة منها بشكلٍ خاص، والتي تفرض نفسها أحياناً على أكثر الناس فقراً بصفتها بياناتٍ محضّرة تماماً لما يعتقدون بأنها تجربتهم.

ليس لدى العاملين في حقل الاجتماع علم موحى به بما هم عليه وبما يفعلونه؛ وبشكلٍ أكثر دقةً، فهم لا يستطيعون بالضرورة الوصول إلى سبب عدم رضاهم أو انزعاجهم، ويمكن أن تعبّر أكثر التصريحات تلقائيةً عن شيءٍ مختلفٍ تماماً عما تقوله ظاهرياً، دون أية نيةٍ في التورية. إنّ علم الاجتماع (وهذا ما يميزه عن العلم دون عالِم الذي هو استطلاعات الرأي) يعلم بأنه ينبغي عليه أن يقدم لنفسه وسائل الشك، وذلك أولاً في تساؤله بالذات، بكلّ البنى المسبقة وكل الأحكام المسبقة التي تسكن المستقصي بقدر ما تسكن المستقصى عنهم، مما يجعل علاقة الاستقصاء لا تنشأ في كثيرٍ من الأحيان إلاّ على أساس اتفاقٍ بين غير المتبصّرين[13].

ويدرك علم الاجتماع كذلك بأنّ أكثر الآراء عفويةً، أي أكثرها أصالةً من الناحية الظاهرية والتي يكتفي بها مستقصي معاهد الاستطلاع المتعجل ومموّلوه، يمكن أن تخضع لمنطقٍ قريبٍ جداً من المنطق الذي أخرجه التحليل

---

[13] لقد أظهرتُ، بالتحليل المفصّل للإجابات على سبرٍ للرأي حول رجال السياسة (جيسكار، شيراك، مارشيه، الخ.) تم تصميمه على غرار اللعبة الصينية (إن كان شجرةً أم حيواناً، الخ.)، أظهرت بأنّ المستقصى عنهم كانوا يستخدمون في إجاباتهم، دون أن يعرفوا، مناهج تصنيفية (قوي/ضعيف، متشدد/مرن، نبيل/وضيع، الخ.) كان كاتبو الاستجواب قد استخدموها هم أيضاً، دون أن يعرفوا كذلك، في أسئلتهم: إن تفاهة التعليقات التي قدّمها واضعو الاستجواب للجداول الإحصائية المنشورة كانت هناك لتشهد على عدم فهمهم المطبق للمعطيات التي أنتجوها بأنفسهم، وبالأولى، للعملية ذاتها التي أنتجوها من خلالها (ب. بورديو، «التمييز»، باريس، منشورات مينوي، 1979، الصفحات 625-640).

النفسي إلى النور. وهذه هي، على سبيل المثال، حال ذلك الشكل من العداء المسبق للأجانب الذي نصادفه أحياناً لدى المزارعين أو التجار الصغار الذين ليس لديهم أية تجربة مباشرة مع المهاجرين: فلا يمكن تجاوز مظاهر عدم الشفافية والسخافة التي تواجه ذلك العداء مع التفسير المتفهم إلاّ بشرط أن نرى بأنها تقدم، عبر شكل من *الانزياح*، حلاً للتناقضات الخاصة بأولئك الأنواع من الرأسماليين ذوي الدخول البروليتارية وبتجربتهم مع الدولة التي تُعتبَر مسؤولةً عن إعادة توزيع غير مقبولة. إن الأسباب الحقيقية للاستياء ولعدم الرضى اللذين يظهران على هذا النحو، عبر أشكالٍ موارِبة، لا يمكن أن تصل إلى الوعي، أي إلى الخطاب الواضح، إلاّ من خلال عملٍ يهدف إلى إظهار تلك الأمور الدفينة عند أولئك الذين يعيشونها والذين لا يعرفونها في الوقت ذاته، والذين، بمعنى ما، يعرفونها أكثر من أيٍّ كان.

يمكن لعالِم الاجتماع أن يساعدهم في هذا العمل، على طريقة الشخص الذي يقوم بالتوليد، شريطة أن يمتلك معرفةً معمّقة بالشروط الحياتية التي هم نتاجها، وبالتأثيرات الاجتماعية التي يمكن لعلاقة الاستقصاء، ومن خلالها مركز المستقصي واستعداداته الأولية، أن تمارسها. إلاّ أنّ الرغبة في اكتشاف الحقيقة، تلك الرغبة المكوّنة للنيّة العلمية، تظلّ محرومةً تماماً من الفعالية العملية إن لم تفعّل على شكل «مهنة»، تكون نتاجاً عضوياً لكافة الأبحاث السابقة ليس لها أية علاقة بمعرفةٍ مجردة وذهنية صرفة: هذه المهنة هي بحقٍ «استعدادٌ لملاحقة الحقيقة» (*hexis tou alètheuein* كما يقول أرسطو في كتابه الميتافيزيقا *Métaphysique*) يؤهّل لاستنباطٍ فوري، وحسب ضرورات المقابلة، لاستراتيجيات تقديم الذات وللردود السريعة المتوافقة، والاستحسانات والأسئلة المناسبة، الخ.، بحيث تتم مساعدة المستقصى عنه على الإفضاء بحقيقته أو، وهو الأفضل، التحرر من حقيقته[14].

---

[14] ليس هنا المجال المناسب لتحليل كل مفارقات المظهر العلمي الذي يفترض من جهة عملاً يهدف إلى جعل الاستعدادات الأولية المكوّنة اجتماعياً واعيةً، وذلك بهدف تحييدها واجتثاثها (أو، وهو

إنّ الترتيب ذاته هو الذي يؤثّر في عمل البناء الذي تخضع له المقابلة المسجلة – مما سيسمح بأن يسير تحليل طرق التدوين والتحليل بصورة أسرع. فمن الواضح بالفعل أنّ التدوين الأكثر أدبيةً (حيث يمكن أن يغير التنقيط البسيط، كوضع فاصلةٍ على سبيل المثال، المعنى الكليّ لجملةٍ ما) هو ترجمةٌ حقيقية أو حتى تفسير. ومن باب أولى، فإنّ ذلك التدوين المطروح هنا: حيث تتم القطيعة مع الوهم المؤمن بعفوية الخطاب الذي «يتحدث عن ذاته»، فيتلاعب التدوين عمداً ب *براغماتية الكتابة* (وخاصةً في مجال تقديم العناوين الرئيسية والفرعية المؤلفة من جملٍ مستقاة من المقابلة) لتوجيه انتباه القارئ نحو السمات المناسبة اجتماعياً التي قد لا يلتفت إليها الشعور الأعزل أو الغافل.

يخضع مَحضر الخطاب الذي نحصل عليه والذي يُنتجه من يدوّنه لمجموعتين من المتاعب يصعب في كثيرٍ من الأحيان الموافقة بينهما: فقد تدفع مصاعب الأمانة لكل ما تبدّى خلال المقابلة، والذي لا يقتصر على ما قد تم بالفعل تسجيله على شريط التسجيل، إلى محاولة إعادة كل ما يميل الانتقال إلى المكتوب وأدوات التنقيط المعتادة، الضعيفة جداً والفقيرة جداً، لنزعه من الخطاب، والذي يشكّل في كثيرٍ من الأحيان كل معناه وكل أهميته؛ إلاّ أنّ متاعب سهولة القراءة التي تتحدد بالعلاقة مع المتلقّين المحتَملين الذين تتفاوت توقعاتهم وقدراتهم بشدة تمنع نشر تدوينٍ شفهي ترافقه الملاحظات الضرورية لإعادة تركيب كل ما ضاع أثناء الانتقال من الشفهي إلى المكتوب، أي الصوت، واللفظ (وخاصةً في تنويعاته التي لها دلالة

الأفضل، «فصلها») ويفترض من جهةٍ أخرى عملاً – وتدريباً – يهدف إلى إدماج مبادئ المناهج المختلفة المعرَّفة بشكلٍ واعٍ والتي جُعلت بهذا الشكل متوفرة عملياً. (إن التعارض بين «المعارف» الواعية و«المعارف» اللاواعية الذي نلجأ إليه هنا لأغراض النقل هو في واقع الأمر مصطنع ومفرّر تماماً: فمبادئ الممارسة العلمية يمكن في الواقع أن تكون موجودةً في الوعي- بدرجاتٍ مختلفة تبعاً للأوقات و«لمستويات» الممارسة- ويمكن في ذات الوقت أن تفعل عملياً، على شكل استعداداتٍ مندمجة.)

اجتماعية)، والنبرة، والإيقاع (لكلِّ مقابلةٍ إيقاعٌ مميز مغاير لإيقاع القراءة)، ولغة الحركات، والإشارات الصامتة وكل وضع الجسد، الخ[15].

وهكذا، فإنّ التدوين يعني بالضرورة الكتابة، بمعنى إعادة الكتابة[16]: مثلما يفعل الانتقال من المكتوب إلى الشفهي الذي يقوم به المسرح، فإنّ الانتقال من الشفهي إلى المكتوب يفرض، مع تغير الإسناد، خياناتٍ قد تكون شرطاً لوفاء حقيقيّ. والتناقضات المعروفة جيداً في الأدب الشعبي موجودةٌ للتذكير بأنّ ذكر كلام أولئك الذين لا صوت لهم عادةً كما هو لا يعني إعطاءهم حرية الكلام حقاً. فهناك التباطؤات والتكرارات والجمل التي تُقطع وتطيلها حركاتٌ أو نظراتٌ أو تنهداتٌ أو صيحات تعجّب، وهناك الاستطرادات المجهدة والالتباسات التي يطلقها التدوين بالضرورة، والاستشهاد بأوضاعٍ ملموسة، وبأحداثٍ مرتبطة بالتاريخ الخاص بمدينةٍ أو مصنع أو عائلة، الخ. (والتي يحلو ذكرها للمتحدث بمقدار ما يكون محادثه أليفاً بالنسبة له، وبالتالي بمقدار ما يكون متآلفاً مع كل محيطه الاجتماعي).

والمفارقة إذن هي أنّنا اضطررنا أحياناً، باسم الاحترام الواجب للمتكلم،

---

[15] نحن نعلم مثلاً أنّه لا يمكن في معظم الأحيان تجنب أن يضيع أثناء التدوين التهكم، الذي كثيراً ما يولد من عدم توافقٍ مقصود بين الرمزية الجسدية والرمزية الشفهية، أو بين مختلف مستويات التعبير الشفهي. والأمر سواء في ما يتعلّق بالالتباسات والمعاني المزدوجة والتشكيك وما هو ضبابي، التي تميز الحديث الشفهي، والتي تحلّ عقدتَها الكتابة بصورةٍ لا يمكن تجنبها في معظم الأحيان، وخاصةً بتأثير التنقيط. لكن هناك أيضاً كل المعلومات المسجلة في أسماء علَم، المعبّرة الفورية بالنسبة للمعتادين على الفضاء (والتي توجّب في معظم الأحيان إخفاؤها للحفاظ على سرية المستقصى عنهم)، كأسماء الأشخاص والأماكن والمؤسسات، التي كثيراً ما تتعلق بها أقسامٌ بنيوية: هذه هي حال التعارض بين مسرح البحث ومسرح الشارع الذي يؤدي معناه للالتباس الذي ترتكبه الممثلة بين اسم ممثلةٍ في مسرح الرصيف وممثلةٍ تراجيدية كلاسيكية مرموقة، وهي هفوةٌ حقيقية معبّرة تشي من خلالها، لمن يريد أن يسمع، كلُ حقيقة فشلٍ يرتبط بتوجّهٍ أساسيٍّ سيئ بين الطريقين.

[16] انظر ب. أنكروفيه P . Encrevé، «الصوت الرخيم والمبحوح»،خارج الإطار Hors cadre ، العدد 3، 1985، الصفحات 42–51. (أجري تدوينٌ كامل (غير صوتي) وأرشفة لكلّ المقابلات (التي عددها 182)، وكذلك التسجيلات الموافقة.)

أن نختار تخفيف نصّ بعض التوضيحات الدخيلة، أو بعض الجمل الملتبسة، أو الحشو السطحي أو التأتأة الكلامية (مثل «حسناً» أو «أوه») التي ، رغم كونها تضفي على الخطاب الشفهي تلونه الخاص وتقوم بوظيفة بارزة في التواصل، حيث تسمح بدعم عبارة متقطّعة أو بالاستشهاد بالمحادث، إلاّ أنها تشوّش وتعقّد التدوين لدرجة أنها تجعله تماماً غير قابل للقراءة في بعض الحالات لمن لم يسمع الخطاب الأصلي. كذلك، فقد سمحنا لأنفسنا أن نخفف التدوين في كل العبارات التعريفية البحتة (حول الأصل الاجتماعي أو الدراسة أو المهنة، الخ.) في كل مرة كان يمكن أن تروى، بالأسلوب غير المباشر، في النص التقديمي. إلاّ أننا لم نستبدل أية كلمة بأخرى، ولم نبدّل ترتيب الأسئلة أو مسار المقابلة، وقد تمت الإشارة إلى جميع حالات الحذف. وبفضل الإيضاح بالأمثلة والتجسيم والترميز الذي تقوم به المقابلات المدونة ويضفي عليها أحياناً حدّةً دراماتيكية وقوةً انفعالية قريبة مما في النص الأدبي، فهي مؤهلة لأن تمارس تأثير البوح، وخاصةً على أولئك الذين يتشاركون مع محادثهم بصفاتهم العامة. وبطريقة الكلام الغامض في الحديث التنبؤي، فهي تسمح بتقديم معدل أوضح للتحليلات التصورية المعقدة والمجردة: فهي تجعل التراكيب الموضوعية التي يجتهد العمل العلمي لإيضاحها محسوسة، بما في ذلك عبر ملامح التعبير الأكثر فرادةً ظاهرياً (كالنبرة واللفظ، الخ.)[17]. وهي تستطيع أن تستجرّ تبدلات الأفكار، والنظرة التي تكون في كثير من الأحيان شرطاً مسبقاً للفهم وذلك لأنها قادرة على التأثير وتحريك المشاعر ومخاطبة رهافة الحس، دون أن تضحي بالميل لما هو خارق.

إلاّ أنه يمكن أن يكون الالتباس، لا بل الاضطراب في التأثيرات

---

[17] يقول خطاب الموظف في فرز البريد ما هو أكثر بكثير مما يقال، حتى لو قال ذلك أيضاً، بكلّ البرودة المجردة للغة التصورية، في تحليل للمسار الاجتماعي للموظفين الريفيين الذين يضطرون في كثير من الأحيان لدفع ضريبة الحصول على المهنة أو التقدم في السلك الوظيفي عن طريق غربة باريسية طويلة: «نعلم مثلاً مصاعب الإقامة التي تستلزمها بعض الأعمال حيث يتطلّب دخول مهنة ما - كالشيكات البريدية - أو التقدم في سلكها غربةً طويلة»، ب. بورديو، التمييز La distinction، باريس، منشورات مينوي، 1981، صفحة 136.

الرمزية، نقيضاً للقوة الانفعالية. هل يمكن أن نذكر العبارات العنصرية بحيث نفهم ذاك الذي يقولها دون أن نضفي عليها صبغةً شرعيّة؟ كيف يمكن أن نفسّر أقواله دون الاستسلام لأسبابه ودون أن نذعن لأقواله؟ وبصورةٍ أبسط، كيف يمكن أن نذكر، دون أن نثير العنصرية الطبقية، تسريحة موظفةٍ صغيرة وأن نوصل، دون أن نؤيده، الانطباع الذي لا بد أن تثيره في العين المسكونة بمعيار علم الجمال الشرعي- وهو الانطباع الذي يشكل جزءاً من حقيقتها الموضوعية الأكثر حتميةً؟

إنّ تدخّل المحلل هو، كما نرى، صعبٌ بمقدار ما هو ضروري. وحين يتحمل مسؤولية نشر الخطابات التي، بصفتها ما هي عليه، تقع – كما يلاحظ بانفونيست Benveniste، «في وضعٍ براغماتي يتضمّن نيّةً معينة في التأثير على المحادِث» - فإنه عندما ينشرها يعرّض ذاته لأن يجعل من نفسه بديلاً لفعاليتها الرمزية؛ لكنه قد يترك العنان للقراءة الحرة، أي للتركيب العفوي، كيلا نقول البدائي، التي يُخضع لها كل قارئ بالضرورة النصوص المقروءة. وهذه اللعبة خطيرةٌ بصورةٍ خاصة حين تمارس على نصوصٍ لم تُكتب، وبسبب ذلك لم يدافع عنها سلفاً ضد القراءات المرتابة أو المرفوضة، وخاصةً بعباراتٍ أصدرها متحدثون لا يتكلمون بلغة الكتب، وليس هناك أي احتمالٍ في أن يحوزوا على أي استحسان في نظر معظم القراء، حتى أفضلهم نيةً، كما هي حال الآداب التي توصف بالشعبية والتي تنتج «سذاجتها» أو «خَرَقها» عن النظرة المثقفة.

إنّ اختيار أسلوب اللامبالاة، من منطلق الحرص على رفض أي تقييدٍ مفروضٍ على حرية القارئ، يعني أن ننسى بأنّ كل قراءة هي أصلاً موجهة، مهما فعلنا، بمناهج تفسيرية على الأقل، إن لم تكن قسرية. وهكذا، استطعنا أن نتأكد من أن القراء غير المثقفين يقرؤون الشهادات كما لو كانوا يستمعون لما يسرّه إليهم صديق، أو بالأحرى، كما لو كانوا يسمعون أقوالاً (أو أقاويل) حول الغير، وهي مناسبةٌ للتماثل، وكذلك للتمايز، والحكم، والإدانة، والتأكيد على إجماعٍ أخلاقي في إعادة تأكيد القيم المشتركة. والعقد السياسي

الشديد الخصوصية، الذي يعني أن يعيد إلى السراط المستقيم الخاص بالجماهير ما لا يصل إليه عادةً، أو على كل حال لا يصل إليه أبداً على هذه الصورة، قد يجد ذاته وقد حُرِّف بشكلٍ ما، وفارغاً تماماً من معناه.

لقد بدا لنا إذن أنه لا بدَّ من التدخل في تقديم التدوينات عبر العناوين، الرئيسية منها والفرعية، وعبر النصوص التمهيدية خاصةً التي تتمثل مهمتها في أن تقدّم للقارئ أدوات القراءة المتفهمة، القادرة على إعادة إنتاج الوضع الذي نتج عنه النص. إنّ بإمكاننا أن نمنح النظرة المتمعنة والمرحّبة الضرورية لتشرّب الضرورة الفريدة لكلّ شهادة والتي نخصّ بها عادة النصوص الأدبية أو الفلسفية، يمكننا أن نمنحها أيضاً، عبر شكلٍ من دمقرطة الموقف التفسيري، للحكايات العادية التي تتكلم عن المغامرات العادية. وكما كان فلوبير Flaubert يعلّم، فإنه ينبغي أن نتعلّم كيف ننظر إلى إيفيتو Yvetot النظرة التي نمنحها عن طيب خاطر للقسطنطينية؛ كأن نتعلّم مثلاً أن نعطي لزواج مدرّسةٍ من موظفٍ في البريد الاهتمام والإقبال اللذين قد نوليهما لسردٍ أدبيٍّ يدور حول زواجٍ غير متكافئ، وأن نقدّم لما يقوله عاملٌ في مجال الصناعات المعدنية الاستقبالَ الورِع الذي يخصّ به تقليدٌ معيّن للقراءة أرفعَ أشكال الشعر أو الفلسفة[18].

---

[18] إنّ استقبال الخطاب الاجتماعي يدين طبعاً بالكثير لواقع أنّه يتوجه للحاضر الفوري أو «الراهن» - مثله مثل الصحافة التي يتعارض معها في كل ما تبقى. إننا نعرف بأنّ تراتبية الدراسات التاريخية تتوافق مع ابتعادها عن مواضيعها في الزمن. كما أنه من المؤكد أننا لن نولي تدوين موعظة أسقف كريتي Créteil الاهتمام ذاته الذي نوليه لنص آبالديرون دي لاوون Abaldéron de Laon، والمكتوب فوق ذلك باللاتينية، رغم أنّ تلك الموعظة لا تقل عن النص غنى بالمهارات البلاغية والحذاقات اللاهوتية-السياسية، وأننا سوف نضفي قيمةً أكبر على حديثٍ قد يكون مزيفاً لأوليفييه لوفيفر Olivier Lefèvre، مؤسس سلالة الأورميسون Ormessons مما نضفيه على مقابلةٍ صحفية لآخر أخلافه. لا شيء يفلت من منطق اللاشعور الأكاديمي الذي يوجه هذا التوزيع المسبق للاحترام أو اللامبالاة، والباحث الاجتماعي الذي ينجح في التغلب في ذاته على تلك العوائق سوف تزداد لديه صعوبة الحصول على الحد الأدنى من التقدير الذي لا غنى عنه للوثائق التي يُنتجها وللتحليلات التي يجريها عليها بفعل أنّ الصحافة اليومية والأسبوعية مليئة بالشهادات المثيرة عن بؤس الأساتذة أو غضب الممرضات، وفي ما عدا ذلك، فإنّ هذه الشهادات أكثر مناسبةً لإرضاء هذا الشكل من الإرادة الطيبة المتفق عليها التي نوليها للقضايا العادلة.

لقد جهدنا إذن لكي ننقل إلى القارئ الوسائل التي تمكّنه من أن ينظر إلى الأقوال التي سوف يقرؤها النظرة التي تفسّر وتعيد للمستقصى عنه سبب وجوده وضرورته؛ أو بصورة أدق، النظرة التي تمكّنه من أن يحدّد موقعه في الفضاء الاجتماعي الذي تؤخذ اعتباراً منه كل نظرات المستقصى عنه لهذا الفضاء، أي في هذا المكان الذي يصبح فيه تصوره للعالم جليّاً وضرورياً، taken for granted.

لكن لاشك أنه ما من نص مكتوب شائك أكثر من النص الذي ينبغي على الكاتب أن يرفقه بالرسائل التي عُهد بها إليه. فهو مجبَرٌ على بذل جهد مستمر للسيطرة الواعية على العلاقة بين موضوع وهدف الكتابة، بل المسافة التي تفصل بينهما، وبالتالي فإنّ عليه أن يبذل جهده لاستقصاء موضوعية «العرض التاريخي» الذي، وفقاً لبينفنيست Benveniste، يموضع الوقائع دون تدخل من الراوي، رافضاً في الآن ذاته البرودة المتحفّظة لبروتوكول حالة سريرية؛ وفي الوقت الذي يهدف فيه إلى تقديم كافة العناصر اللازمة للتصور الموضوعي للشخص المستجوَب، فإنّ عليه أن يلجأ إلى كل موارد اللغة (كالأسلوب الحر غير المباشر أو عبارة كما لو أنّ العزيزة على فلوبير Flaubert) ليتجنّب أن يقيم معها المسافة الموضِعة التي قد تجعلها عرضةً للاتهام أو، وهو الأسوأ، للتشهير. وهو يمتنع أيضاً، بأكثر الطرق جزماً (وهنا أيضاً إحدى وظائف عبارة كما لو أنّ)، عن أن يرتسم دون وجه حق في هذا المثيل الذي يظلّ هدفاً على الدوام، سواءً شئنا ذلك أم لا، ليجعل من ذاته بصورة تعسفية موضوعاً لرؤيته للعالم.

في هذه الحالة، يكمن التشدد في المراقبة الدائمة لوجهة النظر التي تتأكد على الدوام بواسطة تفاصيل الكتابة (كأن نقول ثانويته وليس الثانوية لنبرز أنّ سرد ما يجري في هذه المؤسسة مصاغ من وجهة نظر الأستاذ المستجوَب وليس من وجهة نظر المحلل). ومن خلال التفاصيل التي من هذا النوع، والتي إن لم تمرّ دون أن يلحظها أحد ببساطة، فقد تظهر كمجرد تنميقات أدبية أو تسهيلات صحفية، يتأكد بشكلٍ دائم التباعد بين «صوت

الشخص» و«صوت العلم»، كما يقول رولان بارت Roland Barthes، ورفض الانزلاقات اللاواعية من أحدهما إلى الآخر[19].

لا يمكن للباحث الاجتماعي أن يكون جاهلاً بأنّ ما يميز وجهة نظره هو أنها تطال وجهة نظر أخرى. ولا يمكنه أن ينقل وجهة نظر موضوعه وأن يشكلها بصفتها وجهة نظر، بإعادة تعيين موقعه في الفضاء الاجتماعي، إلاّ اعتباراً من وجهة النظر تلك الشديدة الفرادة (وبمعنى ما، الشديدة الامتياز) حيث ينبغي أن يضع نفسه في موقعٍ يمكّنه من أن يأخذ (ذهنياً) كل وجهات النظر الممكنة. كما لا يمكنه أن ينتقل بفكره إلى المكان الذي يوجد فيه موضوعه (الذي هو أيضاً صنوٌ له، بمعنى ما على الأقل) ولا أن يأخذ بهذه الطريقة وجهة نظره، أي أن يفهم بأنه لو كان مكانه، كما يقولون، لكان وفكّر على الأغلب مثله، إلاّ عندما يكون قادراً على أن يموضع ذاته وأن يبقى في الآن ذاته في المكان المحدد له بصرامة في العالَم الاجتماعي.

---

[19]هذه المراقبة الدائمة لوجهة النظر لا تكون مهمةً وصعبةً لهذه الدرجة إلاّ عندما تكون المسافة الاجتماعية التي ينبغي التغلب عليها فارقاً اقصى في التشابه. وهكذا مثلاً، في حالة المدرّسة التي يمكن أن يكون لعباراتها المفضلة («أنا أُدين»، «مشاكل الزوجين»، الخ.) تأثيرٌ منفّر وغير واقعي في ذات الوقت، وأن تمنع الشعور بواقعية المأساة التي تعبّر عنها، يكون من السهولة بمكان أن نترك العنان للمشاركات في الجدال اليومي من أجل وصف حياةٍ وأسلوب حياة ورسم صورةٍ هزليةٍ لهما، ولا يبدوان غير محتَملين إلاّ لأننا نخشى أن نتعرّف فيهما على حياتنا وأسلوب حياتنا.

بيير بورديو وغابرييل بالاز

الاستجواب

الاستقصاءات الإدارية التي نحلل بعض أمثلتها هنا مثيرةٌ للاهتمام لعدة أسباب. فهي أولاً تسمح بإطلاق كافة التأثيرات التي قد تخيّم على كل علاقة استقصاء، إلا في حال تيقظٍ خاص، ولأنها بهذا الشكل تسمح من خلال الاستدلال بالضد a contrario بقياس أهمية المجهود الواجب بذله في إدارة مقابلةٍ ما لتحييد هذه التأثيرات: وبالفعل، فهي حالةٌ يصفها غمبرز Gumperz بقوله: «رغم مظاهر المساواة والتبادل والمجاملة، فإنّ أدوار المشاركين، أي الحق في التكلم والالتزام بالإجابة، محددة مسبقاً، أو أنها على الأقل تخضع لضغوطٍ شديدة»[1]. وإذا كان يمكن للعنف الرمزي الملازم لعدم التماثل بين متحادثين يتفاوت كثيراً رأسمالهم الاقتصادي، والثقافي خاصةً، أن يفعل بهذا القدر من غياب الرادع، فإنّ ذلك ينتج عن أنّ الأشخاص المكلفين بإجراء المقابلة يشعرون بأنّ الدولة التي تحتكر العنف الرمزي الشرعي قد كلّفتهم بذلك وسمحت لهم به، وأنهم رغم كل شيء معروفون ومعترفٌ بهم على هذا الأساس. والدليل على ذلك الإجابة الجديرة بكافكا Kafka التي تقدمها تلك المرأة حين تقول باستغراب لدى تعرّضها

[1] ج. غمبرز، الشروع في المحادثة، «مقدمة في علم اللسانيات الاجتماعي المتبادل التأثير»، باريس، منشورات مينوي، (الحس الجمعي)، 1989، الصفحة 15.

لاستجوابٍ حثيث حول صحتها: «إنهم يسألون حتى عن ذلك» مفترضةً بأنّ المستقصية ليست سوى أداةٍ لنيّةٍ مبيتة في مكانٍ آخر، «في مرجعٍ أعلى».

ويسمح لنا تحليل بعض المقابلات التي أجراها مكتب دراسات (سوف يغفر لنا بلا ريب أن نغفل ذكر اسمه...) بناءً على طلب وزارة الأبحاث والتكنولوجيا بهدف تقييم إعانة الحد الأدنى للإدماج (RMI) بعد ثلاث سنوات من البدء، أن نلتقط ما يفصل الاستجواب البيروقراطي عن أشكال الاستجواب الأخرى التي تجريها الدولة، وخاصةً البوليسية والقضائية منها، وما هو مشترك بينه وبينها، وبصورةٍ أوسع، بينه وبين كل الاستقصاءات البيروقراطية العادية[2]. ورغم أنّ الاستقصاء الإداري، خلافاً للتحقيق القضائي، وخاصةً البوليسي، يقدّم ذاته ويوجد كاستقصاءٍ علمي، وهو الذي تحدده بدقة الغايات البيروقراطية، إلاّ أنّ النوايا المعيارية توجهه تماماً. علاوةً على ذلك، فإنّ زمن الاستقصاء (وهو العام ذاته الذي ينبغي فيه على اللجنة الوطنية لتقييم إعانة الحد الأدنى للإدماج تقديم تقريرها إلى رئيس الوزراء)، ومكان إجرائه (مكاتب البلديات أو المراكز البلدية للعمل الاجتماعي المكلفة بعقود الإدماج)، ومحتوى الأسئلة وشكلها، والتي وصلت حتى ثلاثمائة سؤالٍ في مقابلةٍ واحدة، تمّ طرحها دون هوادة، وكثيراً ما طرحها مستقصيان اثنان، كلّ شيءٍ يدعو المستقصى عنهم إلى أن يشعروا بأنهم مضطرون للبرهان على شرعية وضعهم كمستفيدين من إعانة الحد الأدنى للإدماج (مثلما يتوجب على آخرين أن يبرروا هويتهم الإدارية كـ «طالبين للعمل» أو كـ «عاطل عن العمل استنفذ فرص الإعانة» أو كـ «شخصٍ لا مأوى ثابت له» من أجل الحصول على إعانة أو تدريب أو مسكن).

---

[2] نحن نشكر هنا، دون أن نستطيع بالطبع ذكر اسمه، الشخص الذي قدّم لنا تلك التسجيلات؛ ولكافة المعلومات حول ذلك الاستقصاء، نعيد القارئ إلى العمل الجماعي للّجنة الوزارية للأبحاث والخطة المدينية، «الحد الأدنى للإدماج في امتحان الوقائع: الأرض والإدماج والمجتمع»، باريس، منشورات Syros Alternatives، 1991. وقد نتجت كذلك عن هذا البحث ندوة في الثامن والتاسع من تشرين الثاني 1991. وسوف نعود هنا إلى التقارير الثلاثة عشر للندوة في ما يتعلق بالتحليلات المحلية.

إنّ تناوب الأسئلة السطحية أو الهازئة (بالنسبة طبعاً لوضع الأشخاص المستجوبين ولما يشغلهم: «ما هي هوايتك المفضلة؟»)، والأسئلة الملغومة المعلنة بلهجةٍ مرحة (هل هذا العمل مرخص؟» أو «كيف تشغل أوقاتك؟») أو المصاغة بطريقةٍ ساخرة («هيا، هيا، لا يبدو عليك المرض ظاهرياً...») يكتسب الحديث عنفاً لا يمكن تبريره أحياناً بسبب كونه يُمارَس بكل براءة وبكل حسن نية ذاك الذي يحوز لصالحه على الشرعية المزدوجة للنظام العلمي والنظام الأخلاقي.

قد لا ننتهي من تعداد الافتراضات المدرجة، على نحوٍ ما، في بنية علاقة الاستقصاء بالذات عندما يجد عدم التماثل الملازم للاستجواب البيروقراطي في التباعد بين مصادر المستقصي واستعداداته الاجتماعية وبين ما يماثلها لدى المستقصى عنه، وعبر هذا التباعد، شروط إنجازه التام كما هي الحال هنا. وميزان القوى يجعل المستجوب لا يأبه بمعرفة إن كانت المشاكل التي يطرحها (على ذاته)، كمشاكل المؤسسة والتي ليس لها أهمية إلاّ بالنسبة للمنظمة الممولة للاستقصاء، تطرح ذاتها أيضاً على الشخص الذي يطرحها.

إنّ المسلمة الأساسية في التبادل مندرجة دون شك في هذا الفرض للإشكالية، المبنية على تعميم الاهتمام الخاص بالبيروقراطيين. لكن هذا ليس كل شيء. فالاستجواب الذي يقوم ضمن منطق الشك يعامل المستقصى عنه كمنافق وكمموهٍ محتمل ينبغي إيقاعه في مصيدة. وعلاوةً على الأسئلة التي تدور حول الطريقة التي عرف فيها مستحقو إعانة الدخل الأدنى للإدماج بوجود الإعانة وما هو رأيهم بالقانون وموقع الميزانية المنزلية التي يتأثر بها المستحق، هناك أيضاً كل الأسئلة التي تهدف إلى اكتشاف ما إذا كان للمستقصى عنه دخولٌ لم يصرّح عنها، وما إذا كان لديه موارد أخرى، وما إذا كان (أو بالأحرى ما إذا كانت، فهذا السؤال يتوجه في معظم الأحيان إلى النساء) سيعيش بالفعل وحده كما يدّعي (أو كما تدّعي)، وما إذا كان لم يطلب الإعانة إلاّ للحصول على تغطيةٍ اجتماعية. وبما أنّ الشك بأنه يقوم

بغشٍ مصلحيّ يجثم فوقه، وكذلك الشك بنقص مواطنيته، فإنه يُسأل إن كان ينتخب، ويتبع السؤال على الفور تصحيحٌ يريد أن يتخذ صبغة التواطؤ: «لا نسألك لصالح من تنتخب!»

نذكر هنا ثلاث حالات، الأولى حالة امرأةٍ في حوالي الخمسين من عمرها، تركت زوجها الحِرَفيّ بعد وفاة ابنهما الذي كان في حوالى العشرين من عمره، ولم يكن لديها أية تجربة في العمل المأجور، والثانية حالة تاجر صغير عمره تسعة وخمسون عاماً ظلّ يدير مقهى في حيٍّ شعبي حتى أصيب بمرضٍ يمنعه من الوقوف الطويل، والثالثة حالة ناقل ومفرغ بضائع شاب، كان في السابق متدرباً، وربّته جدته التي تعمل حارسة مبنى بعد وفاة أمه. في هذه الحالات الثلاث، يبلغ السؤال حدّ عنف الاستجواب. هذه الحيوات المضطربة وغير المنظمة لا تدخل ضمن الفئات التي يتوقعها الاستفتاء القياسي المصمم بحيث يثير إجاباتٍ متجانسة، وهو غير قادرٍ على التقاط اختلاف الأوضاع التي يمكن أن تكون قد قادت إلى طلب إعانةٍ للاستمرار على قيد الحياة. إنّ علامات الاستغراب والملامات التي يتضمنها التفضّل الذي قد يتبدى شكله الأقصى بالشفقة، هي كلها تجسيداتٌ للافتراضات- أو الأحكام المسبقة- التي تكوّن نظرة البرجوازية أو البرجوازية الصغيرة للعالَم: فهي تتعلق بمجموعةٍ من المسلمات حول التركيب «اللائق» للعائلة، وحول الروابط التي ينبغي إقامتها معها، وحول «الخيارات» المدرسية أو المهنية، التي تعرّف «مستقبلاً مهنياً» جديراً بهذا الاسم.

حين تعلن المرأة المنفصلة عن زوجها والتي فقدت ابنها بأنها تخلّت عن وظيفة لمدة شهر لأنّ ابنتها، الطالبة في ثانوية، كانت قد وضعت مولوداً لتوها وانها تفضّل البقاء معها، فإنها تسمع من يقول لها: «حاسة الأمومة لديك كانت اقوى!» لكنها رات نفسها ايضاً ملامةً على ما اعتبرته المستقصية انقلاباً في الأدوار: «كيف ذلك؟ هل ابنتك هي من يصرف على البيت؟» وتُسأل خادمةٌ شابة، وهي أمٌ عازبة، كما في موضوع إنشاء مدرسي: «ماذا يعني بالنسبة لك أن تكوني وحيدة؟» او «هل رؤية ابنتك تكبر هامة

بالنسبة لك؟». وماذا نقول عن هذا السؤال التحليلي الكاذب المتعلق بذكريات الطفولة والذي يتم طرحه بشكلٍ آلي، رغم تحفّظ المستقصى عنهم على الدخول في البوح أو الذكريات المؤلمة؟ تجيب مثلاً خادمةٌ شابة أمضت طفولتها متنقّلةً من ملجأ إلى آخر، دون أن تعرف أبويها: «كل هذا بعيد (...) لم أعد أتذكر». في حين يطرح آخرون صمتهم مقابل السؤال، كحالة ناقل ومفرّغ البضائع الذي فقد أمه وهو لا يزال صغيراً:

المستقصي: هل يمكن لك أن تحدثني عن طفولتك؟

المستقصى عنه: {صمت}

المستقصي: ما هي ذكرياتك عن تلك المرحلة؟

المستقصى عنه: {صمت}

المستقصي: أليس لديك ذكريات؟

المستقصى عنه: بلى.

المستقصي: ألا تريد أن تتكلم عن الأمر؟ ... حسناً.

يدخل المستقصون الذين تسيّرهم استعداداتهم الطبقية في علاقة تلتبس فيها المساندة بالمراقبة وبالتصرف الأمومي وبالشك، قد يساعد التحليل الأكثر منهجيةً لمجموعةٍ أوسع على التأكد من أنّ المجموعة التي تقوم بالاستقصاء تبعاً للجنس والعمر والأصل الاجتماعي والوضع المهني تؤثر بشكلٍ مباشر تماماً على طريقة جمع المعطيات وتفسيرها. وهكذا، لا تكتسب فرضية معينة من المستقصية حول السكن معناها إلاّ بالعودة إلى تعريفٍ ضمني لما يُعتبر مناسباً في محيطها من أجل عائلةٍ من «الفقراء» كعائلة تلك المستقصى عنها: «هذه الشقة غالية! كنت أعتقد بأنك تسكنين في... (تردد) في شقة من غرفة أو غرفتين!» وتضطر المستقصى عنها إلى أن تفسر، كما لو كانت تريد تبرئة ذاتها، بأنها تسكن الآن مع ابنتها وحفيدها، وأنّه بفضل إعانة السكن، فإنّ هذه الشقة المؤلفة من أربع غرف تكلفها بالكاد أكثر من الشقة ذات الغرفتين التي كانت تسكن فيها قبل ذلك.

وبالطريقة ذاتها، تسأل المستقصية التاجر الصغير الذي يسكن في

حيٌّ يتم تجديده: «ما هو شعورك وأنت تعلم بأنّك سوف تهدم، وأنّ... (تستدرك المستقصية) أنّ بيتك... (...) هل هو بيت، جناحٌ صغير، أم أنها شقة؟ (...) والبيت، أهو لأبويك؟ (...) كم عاماً مضى على كونك في البيت نفسه؟» وتتسرب من أقوالها نظرةٌ معيارية للعدد المناسب من الساكنين حين تقول باستغراب وهي تؤكد على العدد: «إذن، ففي فترةٍ معينة كنتم... ستة تعيشون في هذا البيت، أليس كذلك؟» ثم تحسب بصوتٍ مرتفع: «ولدان، والأبوان، وأبواك... حسناً. والآن، أبواك قد...؟» (صمت، فقد توفيا). وتستنتج المستقصية وهي تتابع أفكارها وحسابها قائلةً، كما لو أنها تشعر بالارتياح لأنه أصبح هناك مكانٌ أوسع: «إذن، أنتما الآن اثنان؟»

وربما يصل العنف إلى أقصاه حين توصل فلسفة الفعل الذي يقوم عليه كل الاستجواب إلى البحث ضمن النوايا والأسباب عن أصل أفعال جميع الأطراف الذين يفترض فيهم أنهم أيضاً يتحكمون في مصائرهم، وإلى جعل مستحقي إعانة الدخل الأدنى للإدماج مسؤولين بصورةٍ ضمنية عن بؤسهم. والأسئلة من نوع «لماذا؟» التي تشدد الأقوال المتعلقة بفقدان العمل أو الانفصال عن الزوج أو ترك المدرسة أو الصحة أو البطالة تجعل المرء يعتقد بأنّ كل ما حصل للشخص المستجوَب قد كان نتيجةً لخيارٍ حر. فمثلاً، تُسأل خادمةٌ تركت المدرسة في الثانية عشرة من عمرها «لماذا فعلت ذلك»، بل يتم التحديد: «هل كان ذلك لأنك أردته أم لأنك كنتِ مجبرةً على ذلك؟» هذه الأسئلة تفترض أنه ينبغي على كل شخصٍ أن يسيِّر مساره المهني وحياته، وأنه قادرٌ على ذلك.

المستقصية رقم 2 : {يعاوِد الحديث} ولماذا توقفتَ عن العمل؟

المستقصية رقم 1: المرض...

المستقصى عنه: لأنني لم أعد أستطيع القيام به.

المستقصية رقم 2 : لأسبابٍ صحية إذن.

{يضيف المستقصى عنه أنه «عمل عشرين عاماً في هيئة البريد والبرق والهاتف PTT ثم توقف عن العمل فيها».}

المستقصية رقم 1: إذن، السبب في توقفك عن ذلك العمل هو حقاً زوجتك؟

المستقصى عنه: تماماً.

المستقصية رقم 1: هل كنت ستبقى فيه لولا ذلك؟

المستقصى عنه: كنت سأكون متقاعداً... لا، ليس تماماً.

المستقصية رقم 2 : {ضائعة} سبب توقفك عن أي عمل؟

المستقصية رقم 1: في البريد.

المستقصية رقم 2 : توقفت عن العمل من أجل زوجتك؟ لماذا؟ ألم تكن هي...

المستقصى عنه: {يضطر للتكرار} كانت مصابةً بالاكتئاب، لم تكن قادرةً على الاستمرار في عملها، لذلك...

المستقصية رقم 2 : {تكرّر} وماذا كان عملها؟

المستقصى عنه: المحاسبة.

المستقصية رقم 1: إذن فقد قررت الاستقالة.

المستقصى عنه: نعم...

المستقصية رقم 1: وهل أعجبها فيما بعد ذلك ال...؟

المستقصى عنه: زوجتي؟

المستقصية رقم 1: الحانة؟

المستقصى عنه: لا! لا، ولكن... لقد اعتادت. {صمت} وأنا كذلك.

المستقصية رقم 1: نعم، كان ذلك مختلفاً، أليس كذلك؟

المستقصى عنه: بالتأكيد.

المستقصية رقم 1: هل قمت بأعمالٍ صغيرة قبل أن تدخل في سلك البريد؟

المستقصى عنه: بلى! كنت حلاّقاً في البداية. أول مهنة لي كانت الحلاقة.

المستقصية رقم 1: {بلهجة إعجاب} يا لها من مسيرة! {ترفع صوتها} هل كنت حائزاً على شهادةٍ مهنية؟

المستقصى عنه: نعم.

المستقصية رقم 1: وهل مارست العمل...؟

المستقصى عنه: ليس طويلاً لأنّ الدخل لم يكن كافياً. مارست المهنة لمدة أربعة أعوام. في ذلك الوقت كان الحلاّق يموت جوعاً.

المستقصية رقم 1: صحيح؟

المستقصية رقم 2 : في أية حقبةٍ كان ذلك؟ في أي عام؟

المستقصى عنه: ما بين عام 45.. {يفكر} من عام 45 إلى عام 49.

المستقصية رقم 1: ما هو الدرس الذي استخلصته من مهنة الحلاقة أولاً ثم من مهنة...

المستقصى عنه: هو أنّ المرء يتعلم في بعض الأحيان مهنةً، ثم لا يفيده ذلك كثيراً. لم أكن يوماً أريد أن أصبح حلاّقاً.

المستقصية رقم 2 : صحيح؟ ولماذا فعلتَ إذن؟

المستقصى عنه: لأنني... كنت أريد أن أصبح نجار هياكل على سفينة. في تلك الفترة، رأى الطبيب، وهو قد مات لحسن الحظ، بأنني ضعيف البنية أكثر مما ينبغي. كنت ضعيف البنية.

المستقصية رقم 2 : {بلهجةٍ ساخرة} لا يبدو عليك الآن بأنك ضعيف البنية، لقد استدركت الأمر...

المستقصى عنه: وهكذا، لقد وجد بأنني صغيرٌ جداً، بالنسبة لنجار هياكل. كان يرى من يعملون في هذه المهنة طويلي القامة وضخام الجسم... ثم عُرض عليّ... كان ينبغي أيضاً أن يعمل المرء - كانت الأوضاع قاسيةً بعد الحرب.

تستدعي أسئلة «لماذا» تلك المكررة تفكيراً رجعياً حول نوايا الفعل وتميل بالتالي إلى أن تصنع من الضحية مسؤولاً (حتى في نظره بالذات)

عن الوضع الذي يُفترض بأنه أراده، على الأقل بصورة سلبية، حين أظهر بأنه غير قادر على أن «يمسك بزمامه». وهكذا، تسخر المستقصية من واقع أنّ التاجر ذاته الذي تواصل زوجته، محاسبة الحانة، في أخذ الأوراق الإدارية على عاتقها، لا يعلم إن كان قد ملأ الأوراق، وإن كان قد وقّع على «عقد الإدماج» الشهير («هذا كلامٌ كالطلاسم») وتعيده إذن إلى النظام.

المستقصية رقم 1: ومتى دفعوا لك؟

المستقصى عنه: بعد شهرين أو ثلاثة، على ما أعتقد، لا أعلم بالضبط؛ فأنا أولاً لا أهتم بمثل هذه الأمور، زوجتي هي التي تهتم بالأوراق.

المستقصية رقم 1: هي التي تهتم. وهل حصلت على المبلغ اعتباراً من أول كانون الثاني أم...؟

المستقصى عنه: لا، أنا لا أعرف... أنا لا أعرف تماماً. أنا لا أهتم بذلك.

المستقصية رقم 1: لا تعرف؟ {بلهجة لائمة} ألا تعرف كم تبلغ مستحقاتك؟

المستقصى عنه: بلى، 2300... 2300{صمت} وبعض الفراطة ربما.

المستقصية رقم 2: ألا تعرف إن كنت قد وقّعت عليه {عقد الإدماج} أم لا؟

المستقصى عنه: لا أعرف.

المستقصية رقم 2 : على كل حال، أنت الذي طلب إعانة الدخل الأدنى للإدماج، وأنت الذي تقبضه أم... هل هو أنت؟

المستقصى عنه: بلى، إنه أنا.

المستقصية رقم 2 : إذن، يُفترض أن تكون أنت الذي وقّع...

المستقصى عنه: لا أتذكر.

المستقصية رقم 1: إنه مقابل عمل، لذلك ربما كان عليك أن تتذكر، أليس كذلك؟

يولّد التنافر البنيوي حالاتٍ مضمرة من سوء التفاهم. وهكذا، تسأل المستقصية التي لم تسمع بأن ناقل ومفرّغ البضائع قد فقد أمه حين كان في الثانية عشرة من عمره، والتي يشغل فكرها انتظام العلاقات الأسرية أكثر مما يشغله وجود تلك العلاقات، تسأله إن كان لا يزال يرى أمه. وتهتف قائلةً «آه! اعذرني» عندما يصمت باستغراب. وحين يصل الشاب إلى القول بأنه لا يرى والده، فإنها تستنتج بأنّ ذلك الأخير متوفى، في حين أنه يعيش في الخارج. وكذلك، تضطرب إجابة التاجر الذي يعيش ابنه الراشد في البيت الأبوي حين تسأله المستقصية عن أبنائه بلهجة البداهة: «هم لم يعودوا يعيشون معك على ما أظن، أليس كذلك؟» «لا. ابني... هو يحضر إلى البيت.» «هو يعيش في الب...؟ لا! هل يأتي؟» «إنه يأتي إلى البيت. لنقل إنه يسكن عندي.»

بل إنه يحصل أن تؤدي البداهة المطلقة المتعلقة بتجربة الوجود المبنية على التحكم بالزمن (والمال) إلى التباساتٍ تقارب الاحتقار: وهكذا، تسأل المستقصية ناقل ومفرّغ البضائع الذي يحكي بمزيجٍ من المرارة والخزي كيف «خدعه» صاحب عمل حين كان يعمل دون ترخيص فلم يدفع له راتبه، تسأله إن كان يحصل أن يُدفع له بصورةٍ طبيعية... وبعد ذلك بقليل، وحين يقول بأنه لم يجد شيئاً في الوكالة الوطنية للتشغيل، فإنها تقول له بلهجةٍ خفيفة: «ماذا تذهب لتفعله في وكالة التشغيل؟» وينفجر كل التباعد بين وضعين ورؤيتين متوافقتين للعالم في الإجابة السريعة والحاسمة المليئة بالتفضّل الحامي التي توجهها المستقصية بلهجةٍ مرحة إلى الخادمة التي تقول بأنها تشعر بالحرج في الإعلان عن عملها، حيث تقول المستقصية: «ليس هذا مشيناً. إنه على كل حال عملٌ تعرفه كافة الأمهات».

استجوابان

لن نذكر هنا سوى مقتطفين طويلين نوعاً ما يكثفان كافة المناهج المستخدمة في استقصاءٍ إداري للتدقيق. إنّ مستحقي إعانة الحد الأدنى للإدماج الذين يُطلب منهم، لا بل الذين يُفترض فيهم أن يفضوا بوضع مواردهم المالية وصحتهم وطريقة حياتهم وقصتهم العائلية وخصوصياتهم، يقاومون إما بالإقلال من الكلمات وبالصمت، وإما، بالنسبة لأكثرهم تمرساً، بأشكال متنوعة من تصوير البؤس، وأكثر هذه الأشكال تواتراً هو الخطاب الموجه إلى المساعِدة الاجتماعية.

الشك

تشرح المستقصى عنها ببعض الحرج بأنها قد راكمت المآسي؛ فقد حصل لديها انهيارٌ عصبي بعد وفاة ابنها الذي كان في حوالى العشرين من عمره بعد إصابته بالسرطان، ثم انفصلت عن زوجها الحرفي، وتعيش الآن مع ابنتها، الطالبة في المرحلة الثانوية، والتي رزقت لتوها بطفل. (وقد جاءت أصلاً مع حفيدها وأخذت تقدم له زجاجة الرضاعة خلال المقابلة). وهي تسخر من ذاتها، كما لو كان من غير اللائق نوعاً ما أن يكون لديها كل تلك المآسي، وتضحك وهي تذكر مشكلةً إضافية: فقد تدهورت صحتها بالفعل منذ تلك الأحداث.

تَخفى كل تلك الكياسة على المستقصية التي تحاول وهي تتابع هدفها

أن تتأكد من الوقت الذي حصل فيه الاستشفاء، وذلك لكي تتأكد من أنّ طلب إعانة الحد الأدنى للإدماج لم يحصل بمناسبة العلاج، وبهدف الحصول على التغطية الاجتماعية التي توفرها تلك الإعانة. وتدير المستقصية التي تجهل المعلومات التي قدمتها المستقصى عنها من تلقاء ذاتها والمتعلقة بانهيارها العصبي ومحاولتها إجراء تحليلٍ نفسي ومرضها المناعي، تدير كل الجزء الطبي من الأسئلة.

المستقصية: وهل ذهبتِ إلى طبيبٍ نفسي بمبادرةٍ منك؟

المستقصى عنها: نعم.

المستقصية: هل بقيتِ في مرحلة التحليل أم...

المستقصى عنها: لا (...). لقد فعلت ذلك لمدة شهرين.

المستقصية: بعد الانفصال؟

المستقصى عنها: لا، لا، ليس لهذا أية علاقة... بل بلى، فقد كان ذلك خليطاً (من عدة عوامل). كان هناك موت ابني والانفصال ووضع ابنتي، كانت تلك أموراً كثيرة. كثيرة فعلاً.

المستقصية: هل استخلصتِ شيئاً من ذلك ال... يبدو بأنّ هذا قد ساعدك، أم...

المستقصى عنها: أظنّ أن ذلك محتمل، كما حصل بالنسبة لابني، فقد استغرق مني الأمر سنتين، على ما أعتقد، لكي أدرك الأمور فعلاً. وقد يكون هذا الموضوع قد استغرق مني وقتاً كذلك. لم أدرك الأمور فوراً، لكنني كنت سأصل إلى هذا الإدراك وحدي. كنت سأقوم بتحليلي بنفسي. لكن بما أنه كانت هناك مشكلة صحية لها علاقة بهذا الأمر...

المستقصية: صحيح؟ هل كان لديك...

المستقصى عنها: نعم، ...{ضحكة فيها حرج} مشكلة صحية، هذا يعني أمراً إضافياً. وبالتالي نعم، كان من الملحّ مع ذلك أن يقوم أحدٌ بـ... أن يحاول أحدٌ ما أن يساعدني. لكن ذلك ساعدني لأنني تكلمت (...).

المستقصية: سوف نتكلم عن صحتك، فقد قلتِ لي بأنّ لديك مشاكل. منذ متى لديك...؟

المستقصى عنها: منذ {تنهيدة}... عام 82، في عام 82 أجروا لي اختبارات لأنه كان لديّ تحسس، كنت أعاني من الإكزيما، وكان لدي شرى، إذن أجروا لي حتى عام 86 كل الاختبارات وقال لي الطبيب: «يا سيدة ف. أنت متحسسة من كل شيء، إذن سوف تأخذين هذا (الدواء) وسوف تقنعين به».

المستقصية: وماذا كان ذلك؟ مضاداً للحساسية؟

المستقصى عنها: لا، لا...

المستقصي: نعم، أنت متحسسة لكل شيء!

المستقصى عنها: تماماً، كنت متحسسة لكل شيء. ثم فكرت في أحد الأيام كذلك وقلت لنفسي بأنّ موت إيريك قد بلبل كل الدنيا وأنه ربما كان الألم هو الذي يتظاهر بهذا الشكل؛ ويوم فهمت ذلك، انتهى كل شيء بالتدريج.

المستقصية: لقد قمتِ بالفعل بتحليلك لذاتك.

المستقصى عنها: نعم، لقد قمت به لكنني استغرقت وقتاً في إجرائه. ثم إنني لم أكن أفهم على كل حال. وحين حصلت مشاكل بيني وبين زوجي، أقصد مشاكل... عاد الأمر من جديد. لكن الأمر كان أخطر بكثير في تلك المرة. وبدؤوا بكل الاختبارات في المشفى. ثم لاحظوا بأن هناك مشكلة في المناعة، إذن فقد حصل لديّ مرضٌ مناعي ذاتي.

المستقصية: وهل تتم متابعتك في هذا الأمر؟

المستقصى عنها: نعم.

المستقصية: هل تذهبين بانتظام إلى ...

المستقصى عنها: نعم، كل شهر. الآن أنا أُعالج بالكورتيزون منذ (في أي شهرٍ نحن؟ نحن في تشرين الأول)، منذ حوالي ثمانية أشهر.

المستقصية: هل يسمح لك واقع أنك تحصلين على إعانة الحد الأدنى للإدماج بأن يكون لك أيضاً تغطيةً اجتماعية؟

المستقصى عنها: لا، لم يكن، ليس الأمر كذلك حقاً.

المستقصية: لكنني لست من الشرطة، لكن في المنطق، أنا أبحث عن منطق الأمور، أي أنّ اسمك لن يظهر في أي مكان. لكنني أحاول أن أفكر بعباراتٍ بسيطة حول المسار، لماذا قد يتوافق ذلك مع الغطاء الاجتماعي أكثر مما قد يتوافق مع المسكن.

المستقصى عنها: لا، حين طلبت الإعانة، لم تجرِ أية تحريات، أقصد أنه لم يكن قد تمّ اكتشاف المرض؛ لم يحصل أي إجراء. ولم يحصل ذلك إلا في نيسان، في شهر نيسان. إذن، بما أنني كنت أستفيد من الإعانة منذ كانون الثاني أعني، ليس هذا أبداً ما جعل... لكن ينبغي عليّ هنا أن أقرّ بأنني اليوم، ومع كل...

المستقصية: هل العلاج مكلف؟

المستقصى عنها: العلاج لا، لكن الاختبارات نعم.

المستقصية: أي أنهم يجرون لك اختباراً لـ...

المستقصى عنها: بالنسبة للاختبارات، هناك تحاليل للصفيحات، وكانت تجرى لي كل يومين، أو كل ثلاثة أيام، ثم تلاشت لأن الأمور كانت قد استقرت، ثم أصبحت كل أسبوع، ثم كل خمسة عشر يوماً، والآن أصبحت التحاليل تجرى لي كل ثلاثة أسابيع. ويفترَض أن ينتهي العلاج (...)؛ لكن هناك أيضاً فحص للعينين لأنني كنت أتناول دواءً بينما الآن أتناول الكورتيزون (...) ثم أيضاً الإقامة في المشفى (...) في البداية وضعتُ في المشفى لأنهم كانوا يجهلون تماماً ما هي المشكلة، ثم اعتقدوا بأنّ الأمر يتعلّق بفيروس، ثم قالوا بأن الأمر شيء آخر ثم، ثم أُدخلت أيضاً إلى المشفى لأنّ عدد الصفيحات هبط بشكلٍ حاد (...).

المستقصية: وماذا تقولين عن قصة إعانة الحد الأدنى للإدماج التي في نهاية الأمر تفيد في تقديم حمايةٍ اجتماعية؟

المستقصى عنها: أنا أقول بأن هذا الأمر هام. هامٌ جداً.

المستقصية: نعم، فهناك بالفعل المظهر المالي، الإعانة الفورية، لكن هناك أيضاً هذا الحق في أن تكوني مغطاة.

المستقصى عنها: الأمر هنا مهم جداً جداً جداً. أقصد أن الأمر قد تصادف هكذا، لكنه قدم لي خدمة كبيرة، وانقص همومي هماً كبير. حقاً نقصت همومي هماً كبيراً (...).

المستقصية: {تستأنف أسئلتها المعدّة} الآن، ماذا... هل تنامين جيداً؟

المستقصى عنها: لا {ضحكة، وترتفع نبرة صوتها باستغراب، وتؤكد على كلمة هذا} . حتى هذا يسألون عنه؟

المستقصية: نعم... هل تستيقظين خلال الليل؟

المستقصى عنها: أوه! نعم {ضحك} أعاني من الأرق.

المستقصية: هل تتناولين أقراصاً لكي تنامي؟

المستقصى عنها: لا. في حال الضرورة أتناول {أقراصاً مسكنة} .

المستقصية: لكن لديكِ مع ذلك رغبات، أليس كذلك؟ مسرّات ورغبات. لا؟

المستقصى عنها: {ضحكة} لا.

المستقصية: أليس لديك رغبة في شيء؟ هل لديكِ أفكارٌ سوداء؟

المستقصى عنها: لا... أوه، في بعض الأحيان، لكن ليس...

المستقصية: بين حينٍ وآخر...؟

المستقصى عنها: بين حينٍ وآخر.

المستقصية: هل لديك صعوبةٌ في التركيز؟

المستقصى عنها: نعم.

المستقصية: قليلاً، أم كثيراً؟ أم إطلاقاً؟

المستقصى عنها: لا، قليلاً.

المستقصية: هل تخونك الذاكرة؟

- المستقصى عنها: إنه العمر!

المستقصية: وماذا عن الأعراض التنفسية كصعوبة التنفس وحالات الاختناق...؟

المستقصى عنها: نعم بالطبع... لكن هذه الأعراض ملازمة لمرضي وحين يحصل عندي شيءٌ من الإحباط، هذا كل شيء.

محكمة التفكير السليم

تواجه مستقصيتان، إحداهما شابة، والأخرى أكبر منها بقليل، ذات صوتٍ حاد، تواجهان تاجراً صغيراً، مريضاً، صوته متعب ومسحوق، اقترب من سن التقاعد، تخلى عن تجارته على إثر عملٍ جراحي.

لو لم يكن الوضع مؤلماً بهذه الدرجة (نرى ذلك منذ بداية المقابلة، حين يحكي المستقصى عنه عن «إحساسه بالعار» لكونه يتلقى إعانة الدخل الأدنى للإدماج RMI: «حين يكون المرء قد عمل طيلة حياته... يصبح الوصول إلى هنا...!»)، لأمكن لنا أن نظنّ أنفسنا أمام تمرينٍ على مشهدٍ هزلي تم إخراجه بصورةٍ إرادية. جزء لا بأس به من الأسئلة يطرح مرتين، الأولى بواسطة المستقصية الشابة (المستقصية رقم 1) ثم مرةً أخرى بواسطة المسؤولة المحلية عن الاستقصاء (المستقصية رقم 2) التي تصل فيما بعد. إنها ذات الأسئلة، وحالات الاستغراب ذاتها، والتعليقات ذاتها، وفي النهاية عدم الفهم ذاته. ولا يحتج الرجل المسن إلاّ في النهاية على أنه اضطر إلى «بسط قصة حياته بهذا الشكل».

[...]

المستقصية رقم 1: وكيف عرفت بوجود إعانة الدخل الأدنى للإدماج RMI؟ كيف سمعت عنها؟

المستقصى عنه: من بعض الناس. ثم أيضاً بفعل الحاجة نوعاً ما.

المستقصية رقم 1: نعم، لكن كيف تصرفت، كيف جرت الأمور من أجل...؟

المستقصى عنه: لقد ذهبت لتسجيل اسمي في مكتب العمل ثم...

المستقصية رقم 1: في مكتب العمل {تترجم على الفور إلى لغة المؤسسات} أي ...هل ذهبت إلى الوكالة الوطنية للتشغيل ANPE؟

المستقصى عنه: نعم. لقد سجلت اسمي هناك، لكنني لم أكن أطلب عملاً، ففي مثل سني...

المستقصية رقم 1: كم عمرك يا سيدي؟

المستقصى عنه: حوالي ستين عاماً. سأكمل أعوامي الستين في شهر آب. لنقل تسعةً وخمسين عاماً.

المستقصية رقم 1: وسجلت اسمك في الوكالة الوطنية للتشغيل، ماذا كنت تعمل؟

المستقصى عنه: كنت قبلاً تاجراً.

المستقصية رقم 1: وماذا كانت تجارتك؟

المستقصى عنه: حانة.

المستقصية رقم 1: سوف نعود إلى الخبرة المهنية فيما بعد {ضمن استمارة الأسئلة}؛ إذن، ذهبت إلى الوكالة الوطنية للتشغيل ولم يكن قد تبقى لك حقوق...، تعويضات، أو أي شيء آخر، وهناك... حدثوك عن إعانة الحد الأدنى للإدماج ؟ إذن، من تحدث معك هو شخص من الوكالة الوطنية للتشغيل .

المستقصى عنه: نعم.

المستقصية رقم 1: وبماذا ...نصحك ذلك الشخص؟

المستقصى عنه: {صمت} لقد قال لي بأن لي الحق في شيء ما. هذا كل شيء.

المستقصية رقم 1: بماذا أحسست حين أُرسلت لك أول إعانة؟

المستقصى عنه: {بصوتٍ خفيض جداً} كان إحساساً بالعار.

المستقصية رقم 1: لماذا؟

المستقصى عنه: هكذا. حين يكون المرء قد عمل حياةً بأكملها... {بصوتٍ خفيض جداً، ودفعةً واحدة}...الوصول إلى هنا...

المستقصية رقم 1: {استغراب} لقد عملت حياةً بأكملها وليس لك الحق في شيء؟

المستقصى عنه: بلى، لكن بعد عام، فلن أحصل على راتبٍ تقاعدي إلاّ بعد عام.

المستقصية رقم 1: آه! هكذا الأمر إذن! الوضع إذن مؤقت...

المستقصى عنه: تماماً.

المستقصية رقم 1: ومتى توقفت عن العمل؟

المستقصى عنه: في نهاية عام 89. في تشرين الثاني 89، في نهاية تشرين الثاني 89.

المستقصية رقم 1: ولماذا توقفت عن العمل؟

المستقصى عنه: لأنني لم أستطع أن أعمل.

المستقصية رقم 1: كنتَ...

المستقصى عنه: مريضاً.

المستقصية رقم 1: كنتَ مريضاً؟

المستقصى عنه: كانت رجلاي تؤلمانني، واضطررت لأن أخضع لعملٍ جراحي.

المستقصية رقم 1: انتظر، فهناك قسم عن الصحة {في الاستمارة}، سوف أنتقل إليه مباشرةً؛ إذن، ما هو المرض التي تعاني منه في رجليك؟

المستقصى عنه: إنه... إنها دوالي، وهو مرض يتعلق بدوران الدم.

المستقصية رقم 1: وكنت واقفاً دائماً خلف منضدة الحانة؟

المستقصى عنه: تماماً.

المستقصية رقم 1: وأجريت لك جراحة؟

المستقصى عنه: نعم.

المستقصية رقم 1: متى؟

المستقصى عنه: {بنفسٍ واحد} نهاية نيسان. يوم 28 نيسان على ما أعتقد، لم أعد أتذكر.

المستقصية رقم 1: وهل لازمتَ السرير حينذاك؟

المستقصى عنه: نعم.

المستقصية رقم 1: كم كانت الفترة؟

المستقصى عنه: لنقل حوالي عشرة... حوالي عشرة أيام.

المستقصية رقم 1: وقررت التوقف آنذاك عن العمل؟ أبعد تلك العملية قررت أن...

المستقصى عنه: لا، بل قبل ذلك، لأنني لم أعد قادراً.

المستقصية رقم 1: هل كنت قد توقفت عن العمل قبل ذلك بكثير؟

المستقصى عنه: توقفت، بلى كنت قد توقفت عن العمل، لكن لأنه لم يعد بإمكاني أن أعمل. ولعمري، لقد أجرى لي الأطباء عملاً جراحياً، لكن... صحيحٌ أنّ وضعي أفضل، لكن ليس كما كان؛ لم أعد في الثلاثين من عمري، هذا هو الأمر.

المستقصية رقم 1: {بنبرة محادثة أليفة} هل وقعت على عقد الإدماج؟

المستقصى عنه: ماذا تعنين؟ هذه الكلمات كالطلاسم بالنسبة لنا. لم أهتم يوماً بالأوراق غير الهامة... أنا جاهلٌ تماماً على هذا الصعيد.

المستقصية رقم 1: في الواقع، فإن زوجتك هي التي...

المستقصى عنه: إنها سكرتيرتي {ضحك}.

المستقصية رقم 1: أي أنك لم توقع العقد شخصياً، ففي مقابل إعانة الحد الأدنى للإدماج تحثّ الدولة الناس على الإدماج، أي أن...

المستقصى عنه: لا، لا.

المستقصية رقم 1: ألم توقع؟

المستقصى عنه: لا، لا أعتقد. لا أذكر.

المستقصية رقم 1: ما هو رأيك بهذا القانون؟

المستقصى عنه: إنه جيد، لكن... إنه جيد.

[...]

المستقصية رقم 1: {ترفع صوتها} إذن، سوف ننطلق قليلاً من أعمالك، عملك الأخير كان إذن تلك الحانة. منذ متى عملت فيه؟

المستقصى عنه: منذ عام 74، نعم، 1974.

المستقصية رقم 1: إذن فقد اشتريت تلك... (...) كيف قررت الحصول على تلك الحانة؟ كيف خطرت ببالك هذه الفكرة؟

المستقصى عنه: هذا الأمر غريب. كانت زوجتي محاسبةً وتعرضت... لقد كانت مصابةً بالاكتئاب، واستوجب أن تغير عملها. وماذا تعمل؟ أنا كنت في هيئة البريد والبرق والهاتف PTT وتقدمت باستقالتي. ثم اشترينا تجارةً. هذا هو الأمر.

المستقصية رقم 1: ماذا كنت تعمل في هيئة البريد والبرق والهاتف؟

المستقصى عنه: كنت أعمل على المبرقة الشمسية. قبل ذلك، كنت أعمل على الخطوط ثم أصبحت أعمل على المبرقة الشمسية. كنت أعمل في نسخ وبثّ الخرائط.

المستقصية رقم 1: نعم. حسناً. وقبل ذلك كنتَ...

المستقصية رقم 2: آه، مرحباً. مرحباً سيدي.

المستقصية رقم 1: إنها السيدة المسؤولة عن الاستقصاء.

المستقصية رقم 2 : أنا... لم أكن أعتقد بأنكما قد بدأتما... أنتما لستما دون عمل...

المستقصية رقم 1: لقد بدأنا للتو. السيد كان لديه حانة، وقد توقف عن العمل منذ فترةٍ غير بعيدة، وهو ينتظر تقاعده...

المستقصى عنه: لقد توقفت منذ حوالى سنة.

المستقصية رقم 2 : أين كانت تقع حانتك؟

{بنبرةٍ متعبة، يذكر الرجل اسم الحي الشعبي الذي كان يعمل فيه والذي سبق له أن وصفه قبل ذلك.}

المستقصية رقم 1: حتى أي سنٍ ذهبت إلى المدرسة؟

المستقصى عنه: 14.

[...]

المستقصية رقم 1: إذن، فقد حصلت على شهادتك المهنية بعد ذلك؟

المستقصى عنه: بعد ذلك.

المستقصية رقم 1: نعم، إذن، فقد حصلت عليها بعمر ستة عشر عاماً، أليس كذلك؟

المستقصى عنه: ستة عشر عاماً ونصف. حصلت على الشهادة المهنية بعمر ستة عشر عاماً ونصف.

المستقصية رقم 1: وهل كانت الأمور على ما يرام في المدرسة؟

المستقصى عنه: لم أذهب إليها كثيراً لأنّ الحرب كانت مندلعة، وكنت... كيف أعبّر... تمّ ترحيلي. نعم. أي أنني لم أذهب إلى المدرسة لمدة ثلاث سنوات ونصف أو أربعة أعوام.

المستقصية رقم 2 : وأين كنت أثناء الحرب إذن؟

المستقصى عنه: في منطقة جبال البيرينيه.

المستقصية رقم 2 : في البيرينيه؟ مع عائلتك...

المستقصى عنه: لا، لا، لا. وحدي.

المستقصية رقم 1: وحدك؟

المستقصية رقم 2 : نعم... في مؤسسة...؟

المستقصى عنه: في مزرعة.

[...]

المستقصية رقم 2 : ...ولماذا تم ترحيلك؟

المستقصى عنه: لأنني كنت أخاف. كان يغمى عليّ بمجرّد انطلاق صفارة الإنذار.

المستقصية رقم 2 : هل أهلك هم الذين قرروا ذلك؟

المستقصى عنه: نعم، إنه الطبيب، الأمر غير طبيعي.

المستقصية رقم 1: وهل كنت تعمل هناك، في المزرعة؟

المستقصى عنه: نعم، وعلى كل حال، كان ذلك يعجبني.

المستقصية رقم 2 : نعم، كان يعجبك، هل لديك ذكريات جميلة عن...؟

المستقصى عنه: نعم ولا. كان المكان حزيناً نوعاً ما.

[...]

المستقصية رقم 1: بالنسبة للمدرسة إذن، هذا سبب منطقي... لقد رحلت في العاشرة من عمرك إذن؟ تركت...؟

المستقصى عنه: تركت المدرسة في الوقت المناسب، حين كانت تعطى الدروس الأكثر أهمية.

[...]

المستقصية رقم 1: حسناً، بالنسبة لعقد الإدماج، فإن السيد لم يوقّع عليه، على ما أعتقد...

المستقصية رقم 1: {تفسر} سكرتيرته هي زوجته.

المستقصى عنه: زوجتي هي التي تهتم بكل شيء، أما أنا فلم أهتم أبداً بالأوراق.

المستقصية رقم 2 : لا أدري، الملف ليس معي. ألا تعلم إن كنت قد وقعت عليه أم لا؟

المستقصى عنه – لا أعلم.

المستقصية رقم 2 : على كل حال، فأنت الذي طلبت إعانة الحد الأدنى للإدماج ، هل أنت الذي يقبضه أم... هل هو أنت؟

المستقصى عنه: نعم، هو أنا.

المستقصية رقم 2 : إذن ينبغي أن تكون أنت الذي وقعت عليه...

المستقصى عنه: لست أذكر.

المستقصية رقم 1: إنه مقابل عمل، لذلك ربما كان ينبغي عليك أن تتذكره؟

المستقصية رقم 2 : أو مقابل دورة تدريبية.

المستقصى عنه: لا، لم أقم باي تدريب.

المستقصية رقم 1: هل عرضوا عليك دورةً تدريبية؟

المستقصى عنه: لا! هناك شبان ينتظرون... لن أقوم أنا...

المستقصية رقم 1: {تتصفح الأوراق، وتعود إلى الخلف} حلاّق لمدة أربع سنوات، ثم عملت في هيئة البريد والبرق والهاتف أم...؟

المستقصى عنه -لا، ليس فوراً، لقد عملت ببعض الحرتقات الصغيرة هنا أو هناك. كان ينبغي على المرء أن يعمل. ثم عملت في هيئة البريد والبرق والهاتف .

المستقصية رقم 1: توقفت عن العمل، كان لديك صالون خاص بك، أليس كذلك...؟

المستقصى عنه: لا، لا، لا.

المستقصية رقم 1: كنت تعمل عند حلاّق...

المستقصى عنه: كنت عاملاً، عاملاً...

المستقصية رقم 1: عامل، نعم، ثم توقفت، وقمت ببعض الحرتقات، أي أنك حاولت القيام ببعض الأعمال الصغيرة...

المستقصى عنه: من مكان عملٍ إلى آخر. لقد عملت دوماً. كنت أذهب إلى حيث يوجد مالٌ لكسبه، هذا كل شيء.

المستقصية رقم 2 : وكم بقي لك من الزمن حتى تتقاعد؟

المستقصى عنه: عشرة أشهر {صمت طويل}.

المستقصية رقم 2 : وبانتظار ذلك، كيف تشغل وقتك؟ تقوم ببعض الأعمال الصغيرة...

المستقصى عنه: لا. لا، لا، أنا أتدبر أموري، أذهب إلى بيت أختي، لقد باعت بيتها، وأنا أحرتق، لنقل أنني أشغل نفسي.

المستقصية رقم 2 : {تأخذ نبرةً مطَمْئنة تريد أن تقول بأنّ بإمكانه أن يتكلم عن العمل غير المصرح به كما يشاء.} لأنه في ما يتعلق بنا، فلا علاقة لنا أبداً بالمساعدات الاجتماعيات، ولسنا هنا لكي... لقد فهمت جيداً. نحن لسنا...

المستقصى عنه: نعم، لقد شرحت لي السيدة {المستقصية رقم 1}. لقد شرحت لي السيدة...

المستقصية رقم 2: ... لكي... إن كنت تقوم ببعض الأعمال الصغيرة، فإنّ هذا يهمنا إن شئت على صعيد أميل للعلمية، يهمنا أن نعرف ما هو ثقل الأعمال الصغيرة، لذلك يمكن لك أن تقوله لنا، لن نخبر أحداً بذلك...

المستقصى عنه: لا، لا، لا، لا. ليس هناك عمل غير مرخص.

المستقصية رقم 2 : لأنك قد تقوم ربما، فأنت... لا يبدو عليك بأنّ لديك مشاكل صحية...

المستقصى عنه: بلى، الأرجل. إنها بالنسبة لي تالفة.

المستقصية رقم 1: إذن أنت تذهب لتقوم بالبستنة؟ {كما لو أن الأمر يتعلق بشيءٍ غير لائق}

المستقصى عنه - البستنة... لعمري، إنني أشغل وقتي.

المستقصية رقم 2 : كيف تشغل نفسك أم نهارك أم...؟ عدا أنك تأتي لرؤيتنا، لكن هذا لا يحدث كثيراً...!

المستقصى عنه: أنا أقوم بالبستنة، وأقرأ و... أمشي، يجب أن أمشي، فأمشي. هذا مملّ.

المستقصية رقم 2 : هل كان بيت أبويك؟

المستقصى عنه: بيت أبويّ.

المستقصية رقم 2 : من النادر في أيامنا أن نرى أشخاصاً...

المستقصى عنه: على كل حال، سوف يهدم البيت وسيعاد إسكاننا على بعد مائتي متر. لاحظا، الأمر ليس خسارة لأنّ البيت أصبح نوعاً ما... (...).

المستقصية رقم 2 : وكيف تشعر حين تعلم بأنك سوف تهدم، أنّ {تتردد، ثم تستدرك} بيتك...

المستقصى عنه: نحن نعلم ذلك منذ سنة. كان ذلك يجعلني مريضاً. أنا كنت مريضاً. ثم الآن، إنني مسرور في أعماقي، فسوف أعيش في مسكنٍ مبنيٍّ حديثاً. الإصلاحات في بيتي مؤقتة.

المستقصية رقم 2 : هل تعتقد بأنّ معرفتك بأنّ بيت أبويك سوف يُهدم، فهو بيت العائلة رغم كل شيء، قد أثرت على عملك؟

المستقصى عنه: لا، لا، لا {صمت طويل}.

المستقصية رقم 1: هل هو بيت، أي جناحٌ صغيرٌ مستقل مع حديقة؟

المستقصى عنه: لا، إنه مجرد برّاكة خشبية بين المنازل.

المستقصية رقم 1: وهل عاش أبواك معك...؟

المستقصى عنه: لقد عشت دائماً مع أبويّ.

المستقصية رقم 1: صحيح؟

المستقصى عنه: لقد تزوجت وعدت إلى البيت.

المستقصية رقم 1: هل كان هناك مكانٌ كافٍ؟

المستقصى عنه: نعم.

المستقصية رقم 2 : أليس لديك... هل لديك أولاد؟

المستقصى عنه: نعم. ابنة عمرها 37 عاماً وابنٌ عمره 36.

المستقصية رقم 2 : {بلهجة البداهة} لم يعد يعيش معك، حسب ظني؟

المستقصى عنه: لا. ابني... هو يأتي إلى البيت.

المستقصية رقم 2 : إنه يعيش في... لا، إنه يأتي؟

المستقصى عنه: إنه يأتي إلى البيت. لنقل إنه يسكن عندي.

المستقصية رقم 1: هل هو يعمل، هل يعمل ابنك؟

المستقصى عنه: نعم! فهو يعمل في هيئة البريد والبرق والهاتف.

المستقصية رقم 1: هو في هيئة البريد والبرق والهاتف..{صمت} وماذا عن ابنتك؟

المستقصى عنه: ابنتي لا تعمل.

المستقصية رقم 1: هل هي متزوجة؟

المستقصى عنه: بلى، هي تعمل الآن. إنها تعمل... إنها بصدد الطلاق، إنها...

المستقصية رقم 2 : {ضحك} هذا ليس عملاً...!

المستقصى عنه: لا، إنها تعمل، أين تعمل؟ ثانوية، ثانوية... قرب منطقة Allées، هنا، هل توجد ثانوية؟

المستقصية رقم 1: في ثانوية، هل هي ناظرة أم...؟

المستقصى عنه: نعم، لا أدري، إنها تحث الأولاد على... {يكرر} إنها تحث... سحقاً! لن أقول الاسم...! على المعلوماتية.

المستقصية رقم 1: {تبدي استغرابها} حقاً! هل درست المعلوماتية؟

المستقصى عنه: نعم، لقد درست، لكن ليس على مستوى عالٍ، أظنّ أنها قد خضعت لدورةٍ تدريبية...

المستقصية رقم 1: {بلهجة استغراب} حقاً! (...)

المستقصى عنه: ابني أيضاً هو... هو ليس متزوجاً، لكن الأمر كما لو كان متزوجاً.

المستقصية رقم 2: إنه يعيش {تنطق مقطعاً مقطعاً} حياةً زوجية. كما يقولون.

المستقصى عنه: هو يعيش حياةً زوجية، تماماً.

المستقصية رقم 2: {ضحك} كما يقول الفنيون.

المستقصية رقم 1: والبيت هل هو لأهلك، هل هو...؟

المستقصى عنه: لا، لا، لا، إنه من مساكن الإيجار المعتدل HLM. إيه نعم.

المستقصية رقم 1: هل هو المسكن ذاته منذ، منذ كم سنة؟

المستقصى عنه: منذ 1930. أنا ولدت عام 1931.

المستقصية رقم 1: أي أنكم في فترةٍ معينة... كنتم ستة أشخاص تعيشون في ذلك البيت؟

المستقصى عنه: نعم.

المستقصية رقم 1: ابنان، والأبوان، وأبواك... حسناً. والآن أبواك قد...

المستقصى عنه: {صمت} قد ماتا.

المستقصية رقم 1: إذن أنتم الآن اثنان؟

المستقصى عنه: نعم، نحن اثنان.

المستقصية رقم 1: وهل هناك عدة... ما هو حجمه؟.

المستقصى عنه: ثلاث غرف (...).

المستقصية رقم 1: نعم... هل وسائل الراحة كلها موجودة في بيتك؟

المستقصى عنه: ليس الآن. إنه قديم، إنه... على كل حال، لم أعد افعل شيئاً، كنت أريد وضع ورق للجدران، لكنني لم أعد أستطيع الوقوف على السلم؛ على كل حال، نحن نهمله، وسوف نعيش عاماً بهذا الشكل.

المستقصية رقم 1: وكيف جرت طفولتك؟ هل بقيت...

المستقصى عنه: بصورة جيدةٍ جداً.

المستقصية رقم 1: إذن فقد بقيت... كم لديك من الأخوة والأخوات؟

المستقصى عنه: نعم.

المستقصية رقم 1: كم عددهم؟

المستقصى عنه: كنا خمسة صبيان وبنتاً. هناك اثنان توفيا. الاثنان الأكبر سناً توفيا.

المستقصية رقم 1: هل توفيا حين كانا صغيرين، أقصد في مرحلة الطفولة، أم...

المستقصى عنه: لا، أحدهما في الرابعة والأربعين، والآخر في الخمسين...

المستقصية رقم 1: حسناً، إذن كنتم عائلةً من ستة...

المستقصى عنه: كنت آخر الصبيان.

المستقصية رقم 1: كنتم تعيشون في ذلك البيت...

المستقصى عنه: نعم، كان صغيراً علينا حينذاك.

المستقصية رقم 1: {تردد كالصدى} كان صغيراً حينذاك.

المستقصية رقم 2 : بلى، لا بد أنه كان... وقد عشتم...

المستقصى عنه: نعم.

المستقصية رقم 1: {بلهجةٍ مطْمَئنة} يقولون بأنه لا توجد أماكن كافية، لكن في تلك الفترة، لا بد أن كثيرين كانوا لا يزالون يعيشون...

[...]

المستقصية رقم 1: {بنبرة جدية} هل يوجد في طفولتك حدثٌ معين لعب دوراً هاماً، هل تتذكر شيئاً مميزاً...؟

المستقصى عنه: الحرب... الحرب، قبل كل شيء.

المستقصية رقم 1: الحرب، وإغماءاتك...

المستقصى عنه: نعم، لكن ذلك لم يكن شيئاً. أخي الذي اعتقل، لقد حصل العديد من الأمور... {يبدي بأنه لم يعد يريد الحديث عن هذا الأمر} كل هذا أصبح بعيداً ولم نعد نفكر به.

المستقصية رقم 2 : هل ذاك الذي مات في الرابعة والأربعين هو الذي اعتقل؟

المستقصى عنه: نعم، لقد مات من القلب، كان مصاباً بمرضٍ في القلب.

المستقصية رقم 2 : نعم، لكن هل...؟

المستقصى عنه: لا، لم يمرض بسبب ذلك.

المستقصية رقم 2 : {بنبرةٍ مشفقة} لكن لأنّ المعتقلين كانوا مع ذلك محرومين جداً...

المستقصى عنه: نعم. نعم. لكن ذلك لم يأت من الاعتقال. لقد كان مريضاً بالقلب منذ كان صغيراً.

المستقصية رقم 2 : نعم، حسناً. ذلك الأمر لم يساعده أبداً {صمت}.

المستقصى عنه: لم يساعده.

المستقصية رقم 1: وهل لديك ذكريات عن طفولتك وعائلتك وأبويك؟ بماذا كان أبواك يعملان؟ أبوك كان...

المستقصى عنه: أبي كان يعمل في المرفأ. وأمي في البيت. عرفتها في البيت.

المستقصية رقم 1: ماذا كان يعمل في المرفأ؟

المستقصى عنه: كان رئيس عمال.

المستقصية رقم 1: كان لديكم... هل كانت الأمور المادية جيدة...؟

المستقصى عنه: نعم! نعم... صحيحٌ أننا لم نكن أثرياء، لكن كان لدينا كل ما يلزم.

المستقصية رقم 1: هل كانت عائلةً متفاهمة؟

المستقصى عنه: جداً {صمت}.

المستقصية رقم 1: وأخوتك؟ هل تراهم الآن؟

المستقصى عنه: نعم. نعم.

المستقصية رقم 1: نعم، بانتظام؟

المستقصى عنه: نعم. إننا نرى بعضنا بعضاً.

المستقصية رقم 1: وهل تستقبلهم في بيتك وتذهب إلى بيوتهم أم...؟

المستقصى عنه: أنا أذهب إلى بيوتهم، لم أعد أستقبلهم الآن بعد أن أصبح البيت في وضعٍ غير ملائم، لم أعد أستقبلهم. لكننا مع ذلك نرى بعضنا.

المستقصية رقم 1: إذن، في بيوتهم؟ وهل تخرج كثيراً من حيّك أم...؟

المستقصى عنه: لا. لنقل أننا الآن نعيش مثل عجوزين.

المستقصية رقم 1: كم مرةً تخرجان؟ مرةً في الأسبوع؟

المستقصى عنه: لا، نحن لا نخرج. لا، لا نخرج. تقصدين المسرح وما شابه؟ لا... أبداً.

المستقصية رقم 2 : {بنبرة ناعمة} ما هي هوايتك المفضلة؟

المستقصى عنه: إنها صيد السمك. صيد السمك وصيد الحيوانات. ثم كرة القدم كذلك... الآن أنا أنظر إلى الآخرين.

[...]

المستقصية رقم 1: ألم تتعامل أبداً مع العاملين الاجتماعيين؟

المستقصى عنه: أبداً.

المستقصية رقم 1: ألم يتعرض أحدٌ من عائلتك لمشاكل؟

المستقصية رقم 2 : أنت إذن لم تتعرض سوى لأن تضطر لطلب إعانة الحد الأدنى للإدماج ؟

المستقصى عنه: نعم. لم أكن حتى سأطلبها، لم أكن أعرف... بوجودها

المستقصية رقم 1: إنها الوكالة الوطنية للتشغيل، في الوكالة الوطنية للتشغيل، قلت لي؟

المستقصى عنه: ينبغي أن يكون ذلك قد حصل في الوكالة الوطنية للتشغيل، نعم.

المستقصية رقم 2 : هل يمكن أن يكونوا هم الذين نصحوك؟

المستقصى عنه: نعم.

المستقصية رقم 2 : {بتكلّف} وهل تتوافر فيك شروط الموارد؟

المستقصى عنه: نعم، فليس لديّ موارد.

المستقصية رقم 2 : منذ متى أنت في هذا الوضع؟

المستقصى عنه: منذ شهر تشرين الثاني من العام الماضي، لنقل 89.

المستقصية رقم 2 : {تعود للمسألة التي طُرحت سابقاً} ولماذا الحانة التي كنت تديرها... الحانة هي آخر مهنةٍ لك...؟

المستقصى عنه: نعم، نعم، نعم.

المستقصية رقم 2 : لأي سبب جرى...؟

المستقصى عنه: لأنه لم يعد بإمكاني أن أعمل.

المستقصية رقم 2 : آه، حسناً، كان ذلك لأسباب صحية.

{يحكي المستقصى عنه عن عرض الحانة للبيع، الذي لم يجرِ بصورةٍ

جيدة بسبب أنّ الحانة تقع في حيٍّ شعبي. وتقارن المستقصيتان طراز الحانة بالمقاهي الأنيقة في المدينة.}

المستقصية رقم 1: وأنت تعرف أناساً... ألم تكن في الواقع قد سمعت كثيراً عن إعانة الحد الأدنى للإدماج؟

المستقصى عنه: لا، ثم إنني لا أتحدث عن ذلك.

المستقصية رقم 1: نعم، أنت لا تتحدث عنه؟

المستقصى عنه: لا، أبداً.

المستقصية رقم 2 : ما هو رأيك أنت بهذه الإعانة، بالقانون المتعلق بإعانة الحد الأدنى للإدماج؟

المستقصى عنه: إنها جيدة، لكن... يجب ألا تكون موجودة.

المستقصية رقم 2 : ماذا تعني؟

المستقصى عنه: لا أدري. يبدو للمرء، أنا شخصياً، هذا الأمر يزعجني بشكلٍ كبير.

المستقصية رقم 2 : لا، لكن هذا هام، ما تقوله لي... نوعاً ما...

المستقصى عنه: لكني لا أدري! لأنه كان ينبغي ألاّ أكون بحاجةٍ لهذا الأمر بعد أن عملتُ.

المستقصية رقم 2 : أنت تعتقد بأنك بعد أن عملتَ طيلة حياتك...

المستقصى عنه: نعم، هذا ما أقصده، نعم. أي يحكي المرء سيرة حياته وكل ذلك... لا، هنا أنا لست موافقاً.

المستقصية رقم 2 {-باستنكارٍ شديد} أوه لا! أنت لست مجبراً على ذلك!

المستقصى عنه: لا، حسناً، لكن يتم الحديث عن ذلك في نهاية الأمر...

المستقصية رقم 2 : إذا شئت، فالناس مقطوعون عن هيئة إعانة الإدماج المحلية نوعاً ما.

المستقصى عنه: وبدلاً من ذلك، فعلى المرء أن يبسط سيرة حياته في كل مكان.

المستقصية رقم 2 : {بنبرةٍ منهكة} نعم، في كل مكان، سواءً أكان أمام المساعدات الاجتماعيات، في كل مكان، في الوكالة الوطنية للتشغيل...

المستقصى عنه: تماماً!

المستقصية رقم 2 : ... ينبغي على المرء أن يبسط... هذا الأمر لا يعجبك...

المستقصى عنه: لا يعجبني إطلاقاً! حتى مجيئي إلى هنا الآن...

المستقصية رقم 2 : إذن سوف نشكرك أكثر بمرتين.. {ضحك} لأنّ هذا الأمر يساعدنا...

المستقصية رقم 1: علاوةً على ذلك، يمكننا أن نقول له، فإن السادة لا يحضرون عملياً إلى موعدنا.

المستقصى عنه: نعم؟ صحيح؟

المستقصية رقم 1: النساء يأتين كثيراً، أما السادة فلديهم شيءٌ آخر يفعلونه أو... لا أعلم.

المستقصى عنه: لاحظنا، بصراحة، لو أنني علمت، لما كنت أتيت ربما. زوجتي هي التي...

المستقصية رقم 1: أوه، نحن لسنا شريرتين! {ضحك}

المستقصى عنه: لا، هذا صحيح، لكن... مع ذلك، فالأمر مزعج نوعاً ما.

المستقصية رقم 2 : {بنبرة عذبة} أتعلم، أنا أفهم أن تعيش الأمر كشيءٍ مزعج نوعاً ما...

المستقصى عنه: لدينا شيءٌ من الكبرياء، مع ذلك.

المستقصية رقم 2 : نعم، تماماً، أفهم أن تعيش الأمر كشيءٍ مزعج، وهذا يقال لنا، نحن نرى كثيراً...

المستقصى عنه: بالنسبة لكِ، هذا لا يغير شيئاً. نعم، أنا أوافق على هذا بالطبع.

المستقصية رقم 1: ثم إننا نقوم بعملنا، لذلك، فكلما كان بحوزتنا عناصر أكثر... كما أنه تواصل في الوقت ذاته...

المستقصى عنه: نعم، بالطبع، أنا أفهم.

المستقصية رقم 2 : ربما نحن بحاجة بالفعل إلى مواد... مثلما أعتقد بأن السيدة {المستقصية الأولى} قد شرحت لك الهدف من...

المستقصى عنه: نعم...

المستقصية رقم 2 : {تجد أخيراً حجةً} أنت تساهم في البحث العلمي. هل تدرك ذلك؟ {قهقهة.}

المستقصى عنه: هذا جيد جداً. سأكون قد أفدتُ بشيء.

المستقصية رقم 2: {ضحك} حلقة صغيرة في السلسلة الكبيرة...

المستقصى عنه: إنها إذن حلقة صغيرة جداً.

المستقصية رقم 2 : الحلقات الصغيرة هي التي تصنع السلاسل الكبيرة. (...) عدا ذلك، هل تجد حقاً بأنه من المزعج جداً أن تكون مضطراً في كلّ مرة لإعادة سرد...

المستقصى عنه: نعم! هذا، نعم!

المستقصية رقم 1: إعادة سرد حياتك؟

المستقصى عنه: نعم. نعم، نعم... إنه أمر لا يسرّ أبداً.

بيير بورديو

خاتمــة

شيئاً فشيئاً، انغلق العالَم السياسي على ذاته، على تنافساته الداخلية ومشاكله ورهاناته الخاصة. وعلى مثال الخطباء الشعبيين العظام، فإنّ رجال السياسة القادرين على التعبير عن توقعات ومطالبات ناخبيهم وعلى أن يفهموها أصبحوا أكثر فأكثر ندرةً، والناخبون بعيدون عن أن يكونوا في مقدّمة تشكيلاتهم. والحكام سجناء محيط مطمئن من الفنيين الشباب الذين يجهلون في كثير من الأحيان معظم ما يتعلق بالحياة اليومية لمواطنيهم، ولا شيء يذكّرهم بجهلهم. كثيراً ما يقترح الصحفيون الذين يخضعون للمضايقات التي تفرضها عليهم الضغوط أو الرقابة التي تمارسها القوى الداخلية والخارجية، والمنافسة بصفة خاصة، وبالتالي الإلحاح الذي لم يساعد يوماً على التفكير، كثيراً ما يقترحون توصيفات وتحليلات متعجلة وغير حذرة لأكثر المشاكل إثارةً؛ وفي بعض الأحيان، يزداد خطر التأثير الذي يحدثونه سواءً في دنيا الثقافة أم في دنيا السياسة بسبب أنهم قادرون على أن يشيدوا ببعضهم وعلى أن يسيطروا على إشاعة الخطابات المنافسة، كخطابات العلم الاجتماعي. يبقى المثقفون، الذين يُرثى لصمتهم. بيد أن بعضهم لا يتوقف عن الكلام، وكثيراً ما يكون حديثهم «مبكراً جداً»، عن الهجرة وسياسة الإسكان، وعلاقات العمل، والبيروقراطية، والعالَم

السياسي، لكنهم لا يقولون إلاّ ما لا يريد الناس سماعه، وبلغتهم التي لا يفهمها الناس الذين يفضلون في المحصلة أن يعيروا أسماعهم كيفما اتفق، وبشكلٍ لا يخلو من بعض الازدراء، لأولئك الذين يتكلمون دون تمييز، دون أن يهتموا أكثر من ذلك بالتأثيرات التي يمكن أن تؤدي إليها أقوالٌ لم يفكَّر بها جيداً حول مسائل لم تُطرح بشكلٍ جيد.

إلاّ أنّه يمكن لنا أن نرى كل العلامات المتعلقة بالمضايقات التي تجد صورتها أحياناً في هذيانات كره الأجانب والعنصرية لكونها لا تجد تجسيدها الشرعي في العالَم السياسي. إنها مضايقات لا يتم التعبير عنها، وفي كثيرٍ من الأحيان لا يمكن قولها، ولا يمكن للتنظيمات السياسية - التي لا يتوفر لها لكي تفكر فيها سوى الفئة المتقادمة من «المجتمعي» - التي ورثتها عن الماضي أن تميزها، كما لا يمكن لها أصلاً أن تتمثلها. فلا يمكن لها أن تفعل ذلك إلاّ بشرط أن توسع النظرة الضيقة «للسياسي» التي ورثتها عن الماضي وأن تسجل فيها ليس المطالب غير المتوقعة التي ظهرت على الساحةِ العامة بفعل الحركات المناصرة للبيئة أو المعادية للعنصرية أو النسوية (من بين أخرى) وحسب، بل أيضاً كافة التوقعات والآمال المنتشرة، والتي يبدو بأنها تتعلق بالخاص لأنها تمسّ في كثيرٍ من الأحيان تصور الناس عن هويتهم وكرامتهم، وتبدو بالتالي مستثناةً بصورةٍ شرعية من الصراعات السياسية.

ينبغي على السياسة الديموقراطية حقاً أن تقدم لنفسها الإمكانيات الكفيلة بجعلها تفلت من خيار الوقاحة التكنوقراطية التي تدّعي بأنها تقدّم السعادة للناس رغماً عنهم، وتفلت من التخلي الديماغوجي الذي يقبل جزاء المطلب كما هو، سواءً تبدّى عبر التحقيقات حول السوق، أو عبر نتائج سبر عدد المستمعين أو مستوى الشعبية. وبالفعل، فإنّ التقدم في «التكنولوجيا الاجتماعية» وصل إلى درجةٍ يمكن معها أن نعرف جيداً، بمعنى ما، المطلب الظاهري الفعال أو الذي يسهل تفعيله. لكن إذا كان العلم الاجتماعي يستطيع أن يذكّر بحدود تقنيةٍ، كالسبر الذي هو وسيلةٌ بسيطةٌ موضوعةٌ

بخدمة كل الغايات الممكنة، قد تتحوّل إلى أداة عمياء لشكل منطقي للديماغوجيا، فإنه ليس بوسعه أن يحارب بمفرده ميل رجال السياسة إلى إرضاء المطالب السطحية ليؤمنوا لأنفسهم النجاح، بحيث يجعلون من السياسة شكلاً من التسويق مموَّهاً بالكاد.

كثيراً ما قورنت السياسة بالطب. ويكفي أن نعيد قراءة «المجموعة الهيبوقراطية»، كما فعل إيمانويل تيراي Emmanuel Terray مؤخراً، لنكتشف بأنّ السياسي المنطقي، مثله مثل الطبيب، لا يمكن له أن يكتفي بالمعلومات التي يقدمها له تسجيل الإفادات التي تنتج بالمطلق في أكثر من حالة عن استجواب غير واعٍ للتأثيرات التي يحدثها، فتيراي يقول: «إنّ التسجيل الأعمى لأعراض المرضى وما يسرّون به هو أمرٌ بمتناول الجميع: لو كان ذلك يكفي للتدخل بشكلٍ فعال، لما كان هناك حاجة للطبيب[1]». ينبغي على الطبيب أن يحرص على اكتشاف الأمراض غير الظاهرة، أي بالذات تلك التي لا يستطيع الطبيب الممارس «لا أن يراها بعينيه ولا أن يسمعها بأذنيه»: وبالفعل، فإن شكاوى المرضى مبهمة وغير أكيدة؛ والإشارات التي يرسلها الجسد غامضة ولا تسلّم معانيها إلاّ ببطءٍ شديد، وكثيراً ما يحصل ذلك بعد حدوث الأمر. ينبغي إذن أن نطلب من المنطق إيضاح الأسباب البنيوية التي لا تكشفها الإشارات والأقوال إلاّ بتغليفها[2].

وهكذا، فإن الطب الإغريقي استبق دروس الإيبيستيمولوجيا الحديثة حين أكّد دون صعوبة على ضرورة بناء هدف العلم بقطيعةٍ مع ما كان دوركهايم Durkheim يدعوه «الإلمامات المسبقة»، أي تصورات العاملين في الحقل الاجتماعي عن وضعهم. ومثلما كان على الطب الوليد أن يأخذ بالاعتبار المنافسة غير الشريفة للآلهة أو المنجمين أو السحرة أو المشعوذين أو «صانعي الفرضيات»، فإنّ على العلم الاجتماعي اليوم أن يجابه كل الذين يظنون بأنهم قادرون على تفسير أكثر علامات التململ الاجتماعي وضوحاً،

---

[1] إيمانويل تيراي، السياسة في المغارة، باريس، منشورات سوي Seuil، 1990، الصفحات 92 - 93.

[2] إ. تيراي، ibid.

كارتداء منديلٍ يشار إليه على الفور بصفته «حجاباً إسلامياً»؛ وعليه أيضاً أن يجابه كل «أنصاف الماهرين» أولئك، الذين يهرعون إلى الصحف وأمام الكاميرات، مسلحين «بتفكيرهم السليم» وبادعاءاتهم، ليقولوا ما هو العالَم الاجتماعي الذي ليس لديهم أية وسيلةٍ فعالة لمعرفته أو فهمه.

وفقاً للطب الهيبوقراطي، يبدأ الطب الحقيقي مع معرفة الأمراض غير المرئية، أي الأمور التي لا يتحدث المريض عنها، سواءً كان لا يدركها أم كان ينسى الحديث عنها. وكذلك الأمر بالنسبة لعلمٍ اجتماعي يحرص على أن يعرف ويفهم الأسباب الحقيقية للتململ التي لا تعبر عن نفسها بوضوح إلاّ عبر إشاراتٍ اجتماعية يصعب تفسيرها لأنها ظاهرياً بديهية للغاية. وهنا أفكر باندلاع العنف المجاني في ملاعب كرة القدم أو غيرها، أو بالجرائم العنصرية، أو بالنجاحات الانتخابية لأنبياء التعاسة، الذين يسارعون إلى استثمار وتضخيم التجليات الأكثر بدائيةً للألم المعنوي الذي ينتج عن كافة المصائب الصغيرة وحالات العنف الهادئة في الحياة اليومية أكثر مما ينتج عن البؤس و«العنف الهامد» للبنى الاقتصادية والاجتماعية.

وللذهاب إلى ما وراء التجليات الظاهرية، التي يتشاجر بسببها أولئك الذين كان أفلاطون يدعوهم بفلاسفة التمجيد، «فنيّو-الرأي-العام-الذين-يحسبون-أنفسهم-علماء»، العلماء الظاهريون للمظهر، فإنه ينبغي بالطبع العودة إلى الأسباب الحقيقية، الاقتصادية والاجتماعية، الكامنة وراء الانتهاكات التي لا عدّ لها لحرية الأشخاص، ولتوقهم المشروع إلى السعادة وتحقيق الذات، والتي تمارسها اليوم ليس فقط ضغوط سوق العمل أو السكن التي لا ترحم، بل أيضاً أحكام السوق التعليمية أو العقوبات المفتوحة أو الاعتداءات الخفية في الحياة المهنية. لأجل ذلك، يجب أن نعبر شاشة الإسقاطات التي كثيراً ما تكون منافية للعقل، وبغيضةً أحياناً، والتي خلفها تتخفى الململة أو الألم بمقدار ما يعبران عن نفسيهما.

إنّ حمل الآليات التي تجعل الحياة مؤلمةً، بل وغير محتملة، إلى مستوى الوعي لا يعني تحييد هذه الآليات؛ وإظهار التناقضات لا يعني حلها.

لكن، مهما كنا متشككين في الفعالية الاجتماعية لرسالة علم الاجتماع، فإنه لا يمكن لنا أن ننكر التأثير الذي يمكن لها أن تمارسه حين تسمح لأولئك الذين يتألمون باكتشاف إمكانية عزو ألمهم لأسباب اجتماعية، وبأن يشعروا بالتالي بأنهم أبرياء؛ وكذلك حين تعرّف على نطاقٍ واسع الأصل الاجتماعي للألم بكافة أشكاله، بما فيه أكثرها حميميةً وسريةً، والذي يُخفى بشكلٍ جماعي.

ورغم المظاهر، فإنّ إثبات الحال هذا ليس فيه ما يدفع إلى اليأس،: فما صنعه العالَم الاجتماعي، يمكن للعالَم الاجتماعي المسلح بهذه المعرفة أن يلغيه. وعلى كل حال، فمن المؤكد أنّه ما من شيءٍ أقل براءةً من اللامبالاة: فإن كان صحيحاً أنّ معظم الآليات الاقتصادية والاجتماعية الموجودة في أصل أكثر أشكال المعاناة إيلاماً، وخاصةً تلك التي تنظّم سوق العمل وسوق التعليم، يصعب حذفها أو تغييرها، فإنّه يبقى أنه يمكن اعتبار أية سياسةٍ مذنبةً بعد نجدة شخصٍ معرّض للخطر إذا كانت لا تستفيد بصورةٍ كاملةً من الإمكانيات المتاحة للتطبيق، مهما كانت محدودة، والتي يمكن للعلم أن يساعد على اكتشافها.

والأمر سواء بالنسبة لكافة الفلسفات المنتصرة اليوم، والتي تهدف إلى إلغاء دور أي تدخل للعقل العلمي في السياسة، وكثيراً ما يكون ذلك باسم الاستخدامات الجائرة للعودة إلى العلم والعقل التي يمكن أن تكون قد تشكلت، على الرغم من أنّ فعالية هذه الفلسفات، وبالتالي مسؤوليتها، هي أقلّ، وعلى كل حال أقل مباشرةً: إذ لا يهتم العلم بالتناوب بين المغالاة المجمّعة للعقلانية القطعية، وبين التخلي الجمالي للأعقلانية العدمية؛ يكتفي العلم بالحقائق الجزئية والمؤقتة التي يمكن له أن يكتسبها في مواجهة الرؤية المشتركة والرأي الثقافي، والقادرة على توفير الوسائل العقلية الوحيدة من أجل استخدام كل هوامش المناورة المتروكة للحرية، أي للفعل السياسي.



الفهرس

صدر عن دار كنعان من 2000 إلى 2008

م	عنوان الكتاب	المؤلف / المترجم
1	شعرية التمرد	جان جنيه
2	قضايا وشهادات / سعد الله ونوس	مجموعة باحثين
3	السيرة المفتوحة للنصوص المغلقة ج1 +ج2+ج3+ج4	خالد آغة القلعة
4	ياءٌ.. وعد على شفة مغلقة	إسماعيل الرفاعي
5	من قريب من بعيد	كلود ليفي شتراوس
6	اعترافات عربي طيب	يورام كانيوك
7	شرك الدم	إعداد مصطفى الولي
8	قصيدة هيروشيما	وفيق خنسة
9	مواعيد	محمد صارم
10	موكب البط البري	علي الكردي
11	إسرائيل وحرب المياه القادمة	المحامي ظافر بن خضراء
12	على غفلة من يديك	هنادي زرقة
13	سيكلوجية الحب والعلاقات الأسرية	سيرغي كوفالوف
14	دلمونيات	علي الجلاوي
15	قبلة في مهب النسيان	سوسن دهنيم
16	طقوس حافية	نجيب عوض
17	اللاجئون الفلسطينيون في سورية ولبنان	نبيل السهلي
18	الخديعة المرعبة	تيري ميسان
19	الجنرال	آلان سيلتو
20	العقلانية العملية	بيير بورديو
21	بابل والكتاب المقدس	جان بوتيرو
22	الرقص مع الذئاب	نك يانغ
23	البحث عن السيد جلجامش	محمد سيف
24	وعليك تتكئ الحياة	ممدوح عدوان
25	بيان ضد الأبارتايد	د محمد حافظ يعقوب
26	القيمة والمعيار	يوسف سامي اليوسف
27	من دولة الإكراه إلى الديمقراطية	عماد شعيبي
28	القلم والسيف	إدوارد سعيد
29	بين الإسلام والغرب	مكسيم رودنسون
30	صعود وأفول فلسطين	نورمان ج. فنكلشتين
31	ومض الأعماق	ت.د علي نجيب إبراهيم
32	رائحة الأنثى	أمين الزاوي
33	بؤس العالم (ثلاثة أجزاء)	بيير بورديو
34	المرأة في الإسلام	د. برهان زريق

35	الخيال والحرية	يوسف سامي اليوسف
36	ساعي البريد	ممدوح عدوان
37	الضغينة والهوى	فواز حداد
38	جنجر وفريد	فيدريكو فيلليني
39	التباس «نافذ»	ماهر منزلجي
40	الدُعابة المرة	محمد القيسي
41	محطات الانتظار	محمد توفيق
42	حوارات المنفيين	برتولد بريشت
43	بوح في المتاح	إلياس شوفاني
44	استمرارية التاريخ	عمانوئيل فاليرشتاين
45	باب الحيّرة	أنيسة عبود
46	مقال في الرواية	يوسف سامي اليوسف
47	جماليات اللفظة	د. علي نجيب إبراهيم
48	عباس كياروستامي / فاكهة السينما الممنوعة	فجر يعقوب
49	متى يصبح الإنسان شجرة	د. ماهر منزلجي
50	شتاء البحر	غزالة درويش
51	زمن يحترق	غزالة درويش
52	عام مضى والانتفاضة تتجذر	تيسير قبعة
53	سورية واللاجئون الفلسطينيون	ظافر بن خضراء
54	كارل ماركس	سريست نبي
55	جزيرة الهدهد	صبري هاشم
56	همس / الجثة لا تسبح ضد التيار	يحيى علوان
57	أطياف الندى	صبري هاشم
58	التدريب على الرعب	خيري الذهبي
59	الحصار	مازن النقيب
60	نساء في الحرب	جواد الأسدي
61	فلامنكو البحث عن كارمن	جواد الأسدي
62	آلام ناهدة الرمّاح	جواد الأسدي
63	مداريات حزينة	كلود ليفي شتراوس
64	الكلمة الخرساء	جاك رنسيير
65	صفر واحد	رفيق عنيني
66	الريح والملح	الفارس الذهبي
67	الوجه السابع للنرد	فجر يعقوب
68	عالم مختلف	د. ماهر منزلجي
69	اليوم الأخير لبيت دمشقي	طه حسين حسن
70	الحضارة الأوروبية في عصر الأنوار	بيير شونو
71	حنين العناصر	عائشة أرناؤوط

72	الاتجاهات النقدية الحديثة	عمر كوش
73	السياسة الأمريكية وصياغة العالم الجديد	د. عماد فوزي شعيبي
74	امرأة.. مرآتها صياد أعزل	فراس سليمان
75	مرايا الرماد	سهيل بدور
76	الغاوي	بهيجة مصري ادلبي
77	عشاق الدير	د. محمد الدروبي
78	حمار المسيح	ت. إسماعيل دبج
79	تراتيل القيثارة	محمد خميس
80	هيبياس الأكبر	أفلاطون
81	سمعت صوتاً هاتفاً	وليد إخلاصي
82	فيروز والفن الرحباني	محمد منصور
83	السينما الصهيونية شاشة للتضليل	محمد عبيدو
84	درامية التغيير	بروتولت بريشت
85	الليل	محمد ملص
86	الحقيقة والشريعة في الفكر الصوفي	د. عبد السلام نور الدين
87	تصفيق بيد واحدة	د. ماهر منزلجي
88	وعي السلوك	د. محمد الدروبي
89	تحولات السينما البديلة	عدنان مدانات
90	أرواح تائهة / القناع في الطباع	سمير طحان
91	رعشة المأساة «مقالات في أدب غسان كنفاني»	يوسف سامي اليوسف
92	التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول	بيير بورديو
93	النقد والمجتمع	فخري صالح
94	ذكريات ممنوعة	إيله شوحاط
95	عجوز البحيرة	تيسير خلف
96	الزهرة والحجر	ماهر اليوسفي
97	أشياء لا تُشترى	فتحية القلا
98	المرأة.. الحب والجنس	جبارة البرغوثي
99	أتباع الشيطان	جبارة البرغوثي
100	هيك وهيك	عصام حسن
101	اقتسام العالم	كبير مصطفى عمي
102	بينوني	كونت هامسن
103	أملاك المغاربة في فلسطين	ظافر بن خضراء
104	النار/التحليل النفسي لأحلام اليقظة	جاستون باشلار
105	خان الحرير	نهاد سيريس
106	العين الثالثة	سميرطحان+أنطوان طحان
107	كتاب في الخوف	حكم البابا
108	الصندوق الأسود للديكتاتورية	محمد منصور

109	خان الحرير	نهاد سيريس
110	تلك الأيام	يوسف سامي اليوسف
111	حديث الكماة	صبري هاشم
112	الجولان في مصادر التأريخ العربي	تيسير خلف
113	تجوال «رواية»	جان رولان
114	أيها القناع الصغير أعرفك جيداً «قصص قصيرة»	صبري هاشم
115	معارك قيس وليلى	ت. غزوان الزركلي
116	فضيحة مدوية «رواية»	د. إياد ناجي
117	أخت وأخ «رواية»	أولا لينتسه
118	الحريدون والمجتمع والسياسية في إسرائيل	إيلان شاحر
119	على حافة الجنون «قصص قصيرة»	إسماعيل دبج
120	بنى النص ووظائفه	فاطمة ديلمي
121	حرب على الأكواخ سلام على القصور	فولكر براون
122	نفي العقل ج 1	أديب ديمتري
123	نفي العقل ج2	أديب ديمتري
124	محنة البيت القديم «رواية»	د. محمد الدروبي
125	حكواتي ليس إلا «رواية»	د. محمد الدروبي
126	الحب والأسرة عبر العصور	يوري ريوريكوف
127	ماذا عن غد؟..	جاك دريدا+اليزابيث رودينيسكو
128	في غابة المرآة	البيرتو مانغل
129	كازانوفا الرائع	فيليب سولير
130	مجمع العمرين	سمير طحان
131	مقدمة كرومويل	فيكتور هيغو
132	أقودك إلى غيري	عائشة أرناؤوط
133	إغراء	ماهر منزلجي
134	دروب الفرار	حفيظة قاره بيبان
135	الموت نثراً	أكثم سليمان
136	الحالات	سمير طحان
137	الإرهاب الغربي	روجيه غارودي
138	أزهار الجليل	إسرائيل شامير
139	نجمة واحدة	سميح شقير
140	وهم السلام	أديب ديمتري
141	خلف الجدار	عبد الباقي يوسف
142	مئة سوناتة حب	بابلو نيرودا
143	أجواء عابثة	سامر سكيك
144	موت	حسين تاصوري
145	مصنع الأحلام	إيليا هرنبورغ

146	لولا النهر والمرايا	ثامر مهدي
147	المطعون بشرفهم	وفيق يوسف
148	الحياة سابقاً	حسن عبد الرحمن
149	الباب المفتوح	ت. ناضر ونوس
150	أصل الطيور	مجموعة
151	المسيح في الجولان	تيسير خلف
152	تاريخ الخليج العربي	جبارة البرغوثي
153	المشروع الحضاري العربي الإسلامي	د. برهان زريق
154	في عشق جيفارا	آنا ميناندس
155	الجنك	سمير طحان + أنطوان طحان
156	التعقيد	ت. فيصل دراج
157	الانقلاب الكبير	روجيه غارودي
158	كالبذور المنثورة «رواية»	شوكت دلاّل
159	من وجد ديوان الوجد	خير الله سعيد
160	أصابع الموز «قصص قصيرة»	غسان الجباعي
161	امرأة واحدة «مجموعة قصصية»	كمالا قاسم العتمة
162	في السينما والتلفزيون «تأملات سينمائي»	قاسم حول
163	روزا «رواية»	كنوت هامسن
164	منظومة الفنون الجميلة	آلان
165	كارل ماركس / فكر العالم	جاك أتالي
166	أيام آدم «شعر»	علي جعفر العلاق
167	زمن الوقت «شعر»	حسين ناصوري
168	الطفل البحري ثانية «شعر»	إدريس علوش
169	هوركي أرض آشور «رواية»	صبري هاشم
170	اسئمات «قصص»	علي الشاويش
171	أندلوثيا «شعر»	أحمد تيناوي
172	الحكواتي السوري «قصص»	سمير طحان
173	تاريخ اليهود وديانتهم	إسرائيل شاحاك
174	مداخل ومقدمات لنهضة متجددة «سياسة»	حسن إبراهيم أحمد
175	انتحار عبيد العماني «قصص»	أحمد الزبيدي





LA MISERE DU MONDE

وماذا بعد؟!..

«بؤس العالم» حدث ثقافي بامتياز، يدلّل على أن الصحيح قادر على مواجهة المسيطر، حتى حين يكون المسيطَر عليه واهناً إلى تخوم التهشيم.

فهذا الكتاب، الذي أنجزه باحثون اجتماعيون بإشراف بيير بورديو، وزّع في فرنسا مئة ألف نسخة، وتحولت أجزاء منه إلى أعمال مسرحية، وترجم إلى لغات عدة.

وبعد أن ظهر للمرة الأولى قبل عدة سنوات، أعيد طبعه من جديد في «مطبعة شعبية»، مبرهناً على أن كتاباً في «علم الاجتماع»، تتجاوز صفحاته الألف، يمكن أن يلتقي بجمهور واسع، لا يجذبه عادة «علم متخصص»، ولا يلفت كثيراً إلى «البحوث الأكاديمية».

وفي هذا الكتاب بطرحه أسئلة تمس القراء ومنظور الكتابة والموقع الذي ينظر منه الكاتب إلى قضايا الذين يكتب عنهم ولهم، يقف القارئ أمام بشر متعبين يبوحون بمشاكلهم اليومية، ويلمح حكايات فردية ومصائر فريدة تشي بالسببية الاجتماعية التي تنتج كائناً بائساً.



ISBN 978-9933-434-29-8

9 789933 434298

تصميم الغلاف: باسم صباغ